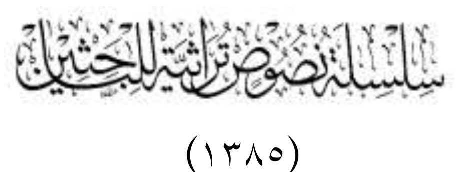


(١٣٨٥)

التمرد والمتمردون

معان وأحوال

من مصنفات التفسير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٥هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

WWW.NSOOOS.COM

"العاشرة الشيطان واتحد الشياطين، على التكسير والنون أصلية، لأنه من شطن إذا بعد عن الخير. وشطنت داره أي بعدت، قال الشاعر «١»:

نأت بسعاد عنك نوى شطون ... فبانت والفؤاد بها رهين

وبئر شطون أي بعيدة القعر. والشطن: الحبل، سمي به لبعد طرفيه وامتداده. ووصف أعرابي فرسا [لا يحفى «٢»] فقال: كأنه شيطان في أشطان. وسمي الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمره، وذلك أن كل عات **متمرد** من الجن والإنس والدواب شيطان، قال جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزل ... وهن يهوينني إذ كنت شيطانا

وقيل: إن شيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا هلك «٣»، فلنون زائدة. وشاط إذا احترق. وشيطت اللحم إذا دخنته ولم تنصحه. واشتاط الرجل إذا احتد غضبا. وناقة مشياط التي يطير فيها السمن. واشتاط إذا هلك، قال الأعشى:

قد نضخب العير من مكنون فائله «٤» ... وقد يشيط على أرماحنا البطل

أي يهلك. ويرد على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بين إنه تفعيل من شطن، ولو كان من شاط لقالوا: تشيط، ويرد عليهم أيضا بيت أمية بن أبي الصلت:

أيما شاطن عصاه عكاه «٥» ... ورماه في السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه. الحادية عشر الرجيم أي المبعد من الخير المهان. وأصل الرجم الرمي بأحجاره، وقد رجمته أرجمه، فهو رجيم ومرجوم. والرجم: القتل واللعن والطرد والشتم، وقد قيل هذا كله في قوله تعالى:" لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين". وقول أبي إبراهيم:" لئن لم تنته لأرجمنك". وسيأتي «٦» إن شاء اله تعالى.

---

(١). هو النابغة الذبياني، كما في لسان العرب مادة (شطن).

(٢). الزيادة عن لسان العرب مادة (شطن).

(٣). في الأصول:" إذا بطل" والتصويب عن اللسان. [.....]

(٤). الفائل: عرق في الفخذين يكون في خربة الورك ينحدر في الرجلين.

(٥). عكاه في الحديد والوثاق إذا أشده.

(٦). راجع ج ١ ص ١١١ وج ١٣ ص ١٢١.." (١)

"وقال الله عز وجل" قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله" [يونس: ١٥]. وحديث «١» ابن مسعود قالوا" حطة" تفسير على الرفع. هذا كله قول النحاس. وقال الحسن وعكرمة:" حطة" بمعنى حط ذنوبنا أمروا أن يقولوا: لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم وقال ابن جبير: معناه الاستغفار. أبان بن تغلب: التوبة قال الشاعر:

فاز بالحطة التي جعل الل ... ه بها ذنب عبده مغفورا

وقال ابن فارس في المجمل" حطة" كلمة أمر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطت أوزارهم. وقاله الجوهري أيضا في الصحاح. قلت: يحتمل أن يكونوا تعبدوا بهذا اللفظ بعينه وهو الظاهر من الحديث روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم [فبدلوا] «٢» فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة). وأخرجه البخاري وقال (فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعرة). في غير الصحيحين" حنطة في شعر". وقيل: قالوا هطاسمهاثا. وهي لفظة عبرانية تفسيرها: حنطة حمراء حكاها ابن قتيبة وحكاه الهروي عن السدي ومجاهد. وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمردوا واستهزءوا فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب. وقال ابن زيد: كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا. وروي أن الباب جعل قصيرا ليدخلوه ركعا فدخلوه متوركين على أستاههم. والله أعلم. السادسة- استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها لذم الله تعالى من بدل ما أمره بقوله. وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه.

---

(١). في الأصل: (ولحديث ابن مسعود). والتصويب عن النحاس.

(٢). الزيادة عن صحيح مسلم.." (٢)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٩٠/١

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين ال قرطبي ٤١١/١

"فيه عشر مسائل: الأولى- قوله تعالى: (وإن لكم في الأنعام لعبرة) قد تقدم القول في الأنعام «١»، وهي هنا الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز." لعبرة" أي دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته. والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه" فاعتبروا «٢» ". وقال أبو بكر الوراق: العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، **وتمردك** على ربك وخلافك له في كل شي. ومن أعظم العبر برئ يحمل مذنبا. الثانية- قوله تعالى: (نسقيكم) قراءة أهل المدينة وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (بفتح النون) من سقى يسقي. وقرأ الباقون وحفص عن عاصم (بضم النون) من أسقى يسقي، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة. قيل: هما لغتان. وقال لبيد:

سقى قومي بني مجد وأسقى ... نميرا والقبائل من هلال

وقيل: يقال لما كان من يدك إلى فيه سقيته، فإذا جعلت له شرابا أو عرضته لأن يشرب بفيه أو يزرعه قلت أسقيته، قال ابن عزيز، وقد تقدم «٣». وقرأت فرقة" تسقيكم" بالتاء، وهي ضعيفة، يعني الانعام. وقرى بالياء، أي يسقيكم الله عز وجل. والقراء على القراءتين المتقدمتين، ففتح النون لغة قريش وضمها لغة حمير. الثالثة- قوله تعالى: (مما في بطونها) اختلف الناس في الضمير من قوله:" مما في بطونه" على ماذا يعود. فقيل: هو عائد إلى ما قبله وهو جمع المؤنث. قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. قال ابن العربي: وما أراه عول عليه إلا من هذه الآية، وهذا لا يشبه منصبه ولا يليق بإدراكه. وقيل: لما كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال: هو الأنعام وهي الأنعام، جاز عود الضمير بالتذكير،

---

(١). راجع ج ٧ ص، ١١١.

(٢). راجع ج ١٨ ص ٥.

(٣). راجع ج ١ ص، ٤١٨." [1]

"حاصلة متيقن وقوعها، فيستسهل لذلك أن تسمى شيئا وهي معدومة، إذ اليقين يشبه الموجودات. وإما على المآل، أي هي إذا وقعت شي عظيم. وكأنه لم يطلق الاسم الآن، بل المعنى أنها إذا كانت فهي إذا شي عظيم، ولذلك تذهل المراضع وتسكر الناس، كما قال: (وترى الناس سكارى)

أي من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع. (وما هم بسكارى)

من الخمر. وقال أهل المعاني، وترى الناس كأنهم سكارى. يدل عليه قراءة أبي زرعة هرم بن عمرو بن جرير

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٠/١٢٣

بن عبد الله" وترى الناس

" بضم التاء، أي تظن ويخيل إليك. وقرأ حمزة والكسائي" سكرى" بغير ألف. الباقون" سكارى " وهما لغتان لجمع سكران، مثل كسلى وكسالى. والزلزلة: التحريك العنيف. والذهول. الغفلة عن الشيء بطروء «١» ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره. قال ابن زيد: المعنى تترك ولدها للكرب الذي نزل بها.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣ الى ٤]

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد (٣) كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير (٤)

قوله تعالى: ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد (٣) كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير (٤) قوله تعالى: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) قيل: المراد النضر بن الحارث، قال: إن الله عز وجل غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد ترابا. (ويتبع) أي في قوله ذلك. (كل شيطان مريد) **متمرد**. (كتب عليه أنه من تولاه) قال قتادة ومجاهد: أي من تولى الشيطان. (فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير).

[سورة الحج (٢٢): آية ٥]

يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (٥)

---

(١). في الأصول:" بطريان".." [١]

"الدخول مع السعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهدي، كما ينوب طواف الإفاضة مع السعي لمن لم يطف ولم يسع حين دخوله مكة مع الهدي أيضا عن طواف القدوم. ومن قال هذا قال: إنما قيل لطواف الدخول واجب ولطواف الإفاضة واجب لأن بعضهما، ينوب عن بعض، ولأنه

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٢/٥

قد روي عن مالك أنه يرجع من نسي أحدهما من بلده على ما ذكرنا، ولأن الله عز وجل لم يفترض على الحاج إلا طوافا واحدا بقوله:" وأذن في الناس بالحج"، وقال في سياق الآية:" وليطوفوا بالبيت العتيق" والواو عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبة إلا بتوقيف. وأسند الطبري عن عمرو ابن أبي سلمة قال: سألت زهيرا عن قوله تعالى:" وليطوفوا بالبيت العتيق" فقال: هو طواف الوداع. وهذا يدل على أنه واجب، وهو أحد قولي الشافعي، لأنه عليه السلام رخص للحائض أن تنفر دون أن تطوفه، ولا يرخص إلا في الواجب. الثالثة والعشرون- اختلف المتأولون في وجه صفة البيت بالعتيق، فقال مجاهد والحسن: العتيق القديم. يقال: سيف عتيق، وقد عتق أي قدم، وهذا قول يعضده النظر. وفي الصحيح (أنه أول مسجد وضع في الأرض). وقيل: عتيقا لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار بالهوان إلى انقضاء الزمان، قال معناه ابن الزبير ومجاهد. وفي الترمذي عن عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار) قال: هذا حديث حسن صحيح «١»، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا. فإن ذكر ذاكر الحجاج بن يوسف ونصبه المنجنيق على الكعبة حتى كسرها قيل له: إنما أعتقها عن كفار الجبابرة، لأنهم إذا أتوا بأنفسهم متمردين ولحرمة البيت غير معتقدين، وقصدوا الكعبة بالسوء فعصمت منهم ولم تنلها أيديهم، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسرا. فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فإنهم إن كفوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كف الأعداء، فقصر الله تعالى هذه الطائفة
عن الكف بالنهي والوعيد، ولم يتجاوزه إلى الصرف بالإلجاء والاضطرار،

---

(١). في ب وج وط وك: عريب.." (١)

"وقال قتادة: كان من قوارير خلفه ماء"سبته لجة

" أي ماء. وقيل: الصرح القصر، عن أبي عبيدة. كما قال «١»:

تحسب أعلامهن الصروحا

وقيل: الصرح الصحن، كما يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها، بمعنى. وحكى أبو عبيدة في الغريب المصنف أن الصرح كل بناء عال مرتفع من الأرض، وأن الممرد الطويل. النحاس: أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٢/٥٢

عملا واحدا صرح، من قولهم: لبن صريح إذا لم يشبه ماء، ومن قولهم: صرح بالأمر، ومنه: عربي صريح. وقيل: عمله ليختبر قول الجن فيها إن أمها من الجن، ورجلها رجل حمار، قاله وهب بن منبه. فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق: وتعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن بد من امتثال الامر- كشفت عن ساقيها)

فإذا هي أحسن الناس ساقا، سليمة مما قالت الجن، غير أنها كانت كثيرة الشعر، فلما بلغت هذا الحد، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها: نه صرح ممرد من قوارير)

والممرد المحكوك المملس، ومنه الأمرد. **وتمرد** الرجل إذ أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه. قاله الفراء. ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها. ورملة مرداء إذا كانت لا تنبت. والممرد أيضا المطول، ومنه قيل للحصن مارد. أبو صالح: طويل على هيئة النخلة. ابن شجرة: واسع في طوله وعرضه. قال:

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم ... قبيل الضحا في السابري الممرد

أي الدروع الواسعة. وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم، على ما يأتي. ولما رأى سليمان عليه السلام قدميها قال لناصحه من الشياطين: كيف لي أن أقلع هذا الشعر من غير مضرة بالجسد؟ فدله على عمل النورة، فكانت النورة والحمامات من يومئذ. فيروى أن سليمان تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام، قاله الضحاك.

---

(١). البيت لابي ذؤيب وهو بتمامه: على طرق كنحور الظبا تحسب أعلامهن الصروحا يقول: هذه الطرق كنحور الظباء في بيانها." [١]

"قوله تعالى: (ولوطا إذ قال لقومه) أي وأرسلنا لوطا، أو اذكر لوطا." إذ قال لقومه" وهم أهل سدوم. وقال لقومه: (أتأتون الفاحشة) الفعلة القبيحة الشنيعة. (وأنتم تبصرون) أنها فاحشة، وذلك أعظم لذنوبكم. وقيل: يأتي بعضكم بعضا وأنتم تنظرون إليه. وكانوا لا يستترون عتوا منهم **وتمردا**. (أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعتها. (بل أنتم قوم تجهلون) إما أمر التحريم أو العقوبة. واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من" أإنكم" فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها، لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الاستفهام. قوله تعالى: (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) أي عن أدبار الرجال. يقولون ذلك استهزاء منهم، قاله

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٠٩/١٣

مجاهد. وقال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء. (فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين) وقرأ عاصم:" قدرنا" مخففا والمعنى واحد. يقال قد قدرت الشيء قدرا وقدرا وقدرته. (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) أي من أنذر فلم يقبل الإنذار. وقد مضى بيان هذا في" الأعراف" «١» و" هود" «٢».

(١). راجع ج ٧ ص ٢٤٧ طبعه أولى أو ثانية.

(٢). راجع ج ٩ ص ٨١ وما بعدها طبعه أولى أو ثانية.." [١]

"قوله تعالى: (كذبت قبلهم قوم نوح) ذكر جملا من وقائع الأمم الماضية تأنيسا للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له. (قبلهم) أي قبل قومك. (فكذبوا عبدنا) يعني نوحا. الزمخشري: فإن قلت ما معنى قوله: (فكذبوا) بعد قوله: (كذبت)؟ قلت: معناه كذبوا فكذبوا عبدنا، أي كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا، أي لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسا كذبوا نوحا لأنه من جملة الرسل. (وقالوا مجنون) أي هو مجنون (وازدجر) أي زجر عن دعوى النبوة بالسب والوعيد بالقتل. وقيل إنما قال: (وازدجر) بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية. (فدعا ربه) أي دعا عليهم حينئذ نوح وقال: رب (أني مغلوب) أي غلبوني **بتمردهم** (فانتصر) أي فانتصر لي. وقيل: إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه. (ففتحنا أبواب السماء) أي فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء (بماء منهمر) أي كثير، قاله السدي. قال الشاعر:

أعيني جودا بالدموع الهوامر ... على خير باد من معد وحاضر

وقيل: إنه المنصب المتدفق، ومنه قول امرئ القيس يصف غيثا:." [٢]

"على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب! قالوا: ما ذاك إلا من شي حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٣/٢١٩

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٧/١٣١

يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخلة «١» عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا «٢». يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن. رواه الترمذي عن ابن عباس قال: قول الجن لقومهم لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته فيسجدون بسجوده قال «٣»: تعجبوا من طواعية أصحابه له، قالوا لقومهم: لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا [الجن: ١٩]. قال: هذا حديث حسن صحيح، ففي هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم ير الجن ولكنهم حضروه، وسمعوا قراءته. وفيه دليل على أن الجن كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لما رموا بالشهب. وكان المرميون بالشهب من الجن أيضا. وقيل لهم شياطين كما قال: شياطين الإنس والجن [الانعام: ١١٢] فإن الشيطان كل متمرد وخارج عن طاعة الله. وفي الترمذي عن ابن عباس قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فأما الكلمة فتكون حقا، وأما ما زادوا فيها «٤»، فيكون باطلا. فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا الأمر «٥» إلا من «٦» أمر قد حدث في الأرض!

(١). كذا في ا، ح، ط وهو الصواب.

(٢). في ح: (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى قرآنا عجبا) .. إلخ.

(٣). في ح: (ويسجدون معه ..).

(٤). كلمة (فيها) ساقطة من الأصل المطبوع.

(٥). كلمة (الامر) ساقطة من الأصل المطبوع.

(٦). في ط (عن) في موضع (من).." [1]

"" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته «١» " أي في تلاوته. وقد تقدم معنى الشيطان واشتقاقه، فلا معنى لإعادته «٢». والشياطين هنا قيل: هم شياطين الجن، وهو المفهوم من هذا الاسم. وقيل: المراد شياطين الإنس المتمردون في الضلال، كقول جرير:

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢/١٩

أيام يدعونني الشيطان من غزلي ... وكن يهويني إذ كنت شيطانا

الثانية قوله تعالى:" وما كفر سليمان" تبرئة من الله لسليمان، ولم يتقدم في الآية أن أحدا نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفرا صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر. ثم قال:" ولكن الشياطين كفروا" فأثبت كفرهم بتعليم السحر. و" يعلمون: في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر ثان. وقرأ الكوفيون سوى عاصم" ولكن الشياطين" بتخفيف" لكن"، ورفع النون من" الشياطين"، وكذلك في الأنفال" ولكن الله رمى «٣» " ووافقهم ابن عامر. الباقون بالتشديد والنصب. و" لكن" كلمة لها معنيان: نفي الخبر الماضي، وإثبات الخبر المستقبل، وهي مبنية من ثلاث كلمات: لا، ك، إن." لا" نفي، و" الكاف" خطاب، و" إن" إثبات وتحقيق، فذهبت الهمزة استثقالا، وهي تثقل وتخفف، فإذا ثقلت نصبت كإن الثقيلة، وإذا خففت رفعت بها كما ترفع بإن الخفيفة. الثالثة- السحر، قيل: السحر أصله التمويه بالحيل والتخائيل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيرا حثيثا يخيل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه. وقيل: هو مشتق من سحرت الصبي إذا خدعته، وكذلك إذا عللته، والتسحير مثله، قال لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا ... عصافير من هذا الأنام المسحر

---

(١). راجع ج ١٢ ص ٧٩.

(٢). راجع ج ١ ص ٩٠ طبعه ثانية.

(٣). راجع ج ٧ ص ٣٨٤.." [1]

"الجمع، كما قال تعالى:" فإن كان له إخوة فلأمه السدس" ولا يحجبها عن الثلث إلى السدس إلا اثنان من الإخوة فصاعدا، على ما يأتي بيانه في" النساء «١» ". الثاني: أنهما لما كانا الرأس في التعليم نص عليهما دون أتباعهما، كما قال تعالى:" عليها تسعة عشر «٢» " الثالث: إنما خصا بالذكر من بينهم لتمردهما، كما قال تعالى:" فيهما فاكهة ونخل ورمان «٣» " وقوله:" وجبريل وميكال". وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب، فقد ينص بالذكر على بعض أشخاص العموم إما لشرفه وإما لفضله، كقوله تعالى:" إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي «٤» " وقوله:" وجبريل وميكال"، وإما لطيبه كقوله:" فاكهة

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٤٣/٢

ونخل ورمان"، وإما لأكثريته، كقوله صلى الله عليه وسلم: (جعلت لي الأرض مسجدا وتربتها طهورا)، وإما لتمرده وعتوه كما في هذه الآية، والله تعالى أعلم. وقد قيل: إن" ما" عطف على السحر وهي مفعولة، فعلى هذا يكون" ما" بمعنى الذي، ويكون السحر منزلا على الملكين فتنة للناس وامتحانا، ولله أن يمتحن عباده بما شاء، كما امتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول الملكان: إنما نحن فتنة، أي محنة من الله، نخبرك أن عمل الساحر كفر فإن أطعتنا نجوت، وإن عصيتنا هلكت. وقد روي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدي والكلبي ما معناه: أنه لما كثر الفساد من أولاد آدم عليه السلام- وذلك في زمن إدريس عليه السلام- عيرتهم الملائكة، فقال الله تعالى: أما إنكم لو كنتم مكانهم، وركبت فيكم ما ركبت فيهم لعملتم مثل أعمالهم، فقالوا: سبحانك! ما كان ينبغي لنا ذلك، قال: فاختاروا ملكين من خياركم، فاختاروا هاروت وماروت، فأنزلهما إلى الأرض فركب فيهما الشهوة، فما مر بهما شهر حتى فتنا بامرأة اسمها بالنبطية" بيدخت" وبالفارسية" ناهيل «٥» " وبالعربية" الزهرة" اختصمت إليهما، وراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يدخلا في دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التي حرم الله، فأجاباها وشربا الخمر وألما بها، فرآهما رجل فقتلاه، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلماها فتكلمت به

---

(١). راجع ج ٥ ص ٧٢.

(٢). راجع ج ١٩ ص ٧٧.

(٣). راجع ج ١٧ ص ١٨٥.

(٤). راجع ج ٤ ص ١٠٩.

(٥). في بعض نسخ الأصل:" ناهيد" بالدال المهملة بدل اللام.." [١]

"عليه وسلم: (لولا فيكم رجال خشع وبهائم رتع وصبيان رضع لصب العذاب على المذنبين صبا). لم يذكر فيه" وشيوخ ركع". وفي حديث أبي ذر (الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل). خرجه الآجري. والأخبار في فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور، والله تعالى أعلم.

[سورة البقرة (٢): آية ١٢٦]

وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٥١/٢

كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير (١٢٦)

وفيه ثلاث مسائل: الأولى- قوله تعالى:" بلدا آمنا" يعني مكة، فدعا لذريته وغيرهم بالأمن ورغد العيش. فروي أنه لما دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فاقتلع الطائف من الشام فطاف بها حول البيت أسبوعا، فسميت الطائف لذلك، ثم أنزلها تهامة، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها، وأنبت فيها أنواع الثمرات، على ما يأتي بيانه في سورة" إبراهيم «١» " إن شاء الله تعالى. الثانية- اختلف العلماء في مكة هل صارت حراما آمنا بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك على قولين: أحدهما- أنها لم تزل حرما من الجبابرة المسلطين، ومن الخسوف والزلازل، وسائر المثلات التي تحل بالبلاد، وجعل في النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها متميزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى. ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيها، فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا يهيج الكلب الصيد ولا ينفر منه، حتى إذا خرجا من الحرم عدا الكلب عليه وعاد إلى النفور والهرب. وإنما سأل إبراهيم ربه أن يجعلها آمنا من القحط والجدب والغارات، وأن يرزق أهله من الثمرات، لا على ما ظنه بعض الناس أنه المنع من سفك الدم في حق من لزمه القتل،

---

(١). راجع ٩ ص ٣٦٨ فما بعدها.." [(١)]

"قوله تعالى: (الذين طغوا في البلاد) يعني عادا وثمودا «١» وفرعون طغوا أي تمردوا وعتوا وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان. (فأكثروا فيها الفساد) أي الجور والأذى. والذين طغوا أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم. ويجوز أن يكون مرفوعا على: هم الذين طغوا، أو مجرورا على وصف المذكورين: عاد، وثمود، وفرعون. (فصب عليهم ربك سوط عذاب) أي أفرغ عليهم وألقى، يقال: صب على فلان خلعة، أي ألقاها عليه. وقال النابغة:

فصب «٢» عليه الله أحسن صنعه ... وكان له بين البرية ناصرا

(سوط عذاب) أي نصيب عذاب. ويقال: شدته، لأن السوط كان عندهم نهاية ما يعذب به. قال الشاعر:

ألم تر أن الله أظهر دينه ... وصب على الكفار سوط عذاب

وقال الفراء: وهي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب. وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب، إذ كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل. معناه عذاب يخالط اللحم والدم،

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١١٧/٢

من قولهم: ساطه يسوطه سوطا أي خلطه، فهو سائط. فالسوط: خلط الشيء بعضه ببعض، ومنه سمي المسواط. وساطه «٣» أي خلطه، فهو سائط، وأكثر ذلك يقال: سوط فلان أموره. قال:

فسطها ذميم الرأي غير موفق ... فلست على تسويطها بمعان

قال أبو زيد: يقال أموالهم سويطة بينهم، أي مختلطة. حكاه عنه يعقوب. وقال الزجاج: أي جعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب. يقال: ساط دابته يسوطها، أي ضربها

---

(١). اختلف في (ثمود) فمنهم من صرفه ومنهم من لم يصرفه، فمن صرفه ذهب به إلى الحي لأنه اسم عربي مذكر سمى بمذكر. ومن لم يصرفه ذهب به إلى القبيلة وهي مؤنثة.

(٢). الرواية في البيت كما في ديوانه وشعراء النصرانية:

ورب عليه الله ...

إلخ قال البطليوسي شارح الديوان: ربه أتمه. وأصله أن يقال: ربيت معروفي عند فلان أربه ربا: إذا أدمته عليه وتممته لديه. و (رب عليه): دعاء معطوف على ما قبله. وهو مدح في النعمان. وعلى هذه الرواية لا شاهد في البيت.

(٣). في الأصل: (سوطه) بصيغة المصدر. وصيغة الفعل الثلاثي الماضي أمكن هنا.." [1]

"وقيل سبب نزولها الآية التي قبلها وهي:" لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير" فإنه لما أنزل هذا على النبي صلى الله عليه وسلم اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من. الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد [والصدقة «١»]، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها:" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير". فلما فعلوا ذلك نسخها

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٤٩/٢٠

الله، فأنزل الله عز وجل:" لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت" «٢» " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا" قال:" نعم"" ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا" قال:" نعم"" ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به" قال:" نعم"" واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين" قال:" نعم". أخرجه مسلم عن أبي هريرة. قال علماؤنا: قوله في الرواية الأولى «٣» " قد فعلت" وهنا قال:" نعم" دليل على نقل الحديث بالمعنى، وقد تقدم. ولما تقرر الأمر على أن قالوا: سمعنا وأطعنا، مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، ورفع المشقة في أمر الخواطر عنهم، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والانجلاء إذ قالوا: سمعنا وعصينا، وهذه ثمرة العصيان **والتمرد** على الله تعالى، أعاذنا الله من نقمه بمنه وكرمه. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له: إن بيت ثابت بن قيس بن شماس

---

(١). من صحيح مسلم.

(٢). في الأصول بعد قوله:" ما اكتسبت" قال: نعم. وليست في صحيح مسلم.

(٣). ص ٤٢١." [1]

"العاتي **المتمرد**، فعيل من مرد إذا عتا. قال الأزهري: المريد الخارج عن الطاعة، وقد مرد الرجل يمرد مرودا إذا عتا وخرج عن الطاعة، فهو مارد ومريد **ومتمرد**. ابن عرفة: هو الذي ظهر شره، ومن هذا يقال: شجرة مرداء إذا تساقط ورقها فظهرت عيد انها، ومنه قيل للرجل: أمرد، أي ظاهر مكان الشعر من عارضيه.

[سورة النساء (٤): آية ١١٨]

لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا (١١٨)

قوله تعالى: (لعنه الله) أصل اللعن الإبعاد، وقد تقدم «١». وهو في العرف إبعاد مقترن بسخط وغضب، فلعنة [الله على «٢»] إبليس عليه لعنة الله على التعيين جائزة، وكذلك [سائر «٣»] الكفرة الموتى كفرعون وهامان وأبي جهل، فأما الأحياء فقد مضى الكلام فيه في (البقرة «٤»). قوله تعالى: (وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) أي وقال الشيطان، والمعنى: لأستخلصنهم بغوايتي وأضلنهم بإضلالي، وهم الكفرة والعصاة. وفي الخبر (من كل ألف واحد لله والباقي للشيطان). قلت: وهذا صحيح معنى، يعضده قوله

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٤٢٧/٣

تعالى لآدم يوم القيامة: (ابعث بعث النار) فيقول: وما بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (. أخرجه مسلم. وبعث النار هو نصيب الشيطان. والله أعلم. وقيل: من النصيب طاعتهم إياه في أشياء، منها أنهم كانوا يضربون للمولود مسمارا عند ولادته، ودورانهم به يوم أسبوعه، يقولون: ليعرفه العمار «٥».

[سورة النساء (٤): آية ١١٩]

ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (١١٩)

---

(١). راجع ج ٢ ص ٢٥.

(٢). من ط.

(٣). من ج وط

(٤). راجع ج ٢ ص ١٨٨.

(٥). عمار البيوت: سكانها من الجن. وفى ابن عطية: المفروض معناه في هذا الموضع: المنحاز، من الفرض وهو الحز في العود وغيره.." [1]

"[سورة المائدة (٥): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمت الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين (٢٠) يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (٢٤)

قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٥) قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين (٢٦)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣٨٨/٥

قوله تعالى: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمت الله عليكم) تبيين من الله تعالى أن أسلافهم **تمردوا** على موسى وعصوه، فكذلك هؤلاء على محمد عليه السلام، وهو تسلية له، أي يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا قصة موسى. وروي عن عبد الله بن كثير أنه قرأ" يا قوم اذكروا" بضم الميم، وكذلك ما أشبهه، وتقديره يا أيها القوم. (إذ جعل فيكم أنبياء) لم ينصرف، لأنه فيه ألف التأنيث. (وجعلكم ملوكا) أي تملكون أمركم لا يغلبكم عليه غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين، فأنقذكم منه بالغرق، فهم ملوك بهذا الوجه، وبنحوه فسر السدي والحسين وغيرهما. قال السدي: ملك." (١)

"" الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله «١» "] الزمر: ٢٣] وقال:" إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم" وفي (الأنفال) «٢» يأتي بيان هذا المعنى إن شاء الله تعالى. وبين الله سبحانه في هذه الآيات أن أشد الكفار **تمردا** وعتوا وعداوة للمسلمين اليهود، ويضاهيهم المشركون، وبين أن أقربهم مودة النصارى. والله أعلم. قوله تعالى:" فاكتبنا مع الشاهدين" أي مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون بالحق من قوله عز وجل:" وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس" «٣»] البقرة: ١٤٣] عن ابن عباس وابن جريج. وقال الحسن: الذين يشهدون بالإيمان. وقال أبو علي: الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك. ومعنى" فاكتبنا" اجعلنا، فيكون بمنزلة ما قد كتب ودون.

[سورة المائدة (٥): آية ٨٤]

وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨٤)

قوله تعالى: (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق) بين استبصارهم في الدين، أي يقولون وما لنا لا نؤمن، أي وما لنا تاركين الإيمان. ف"- نؤمن" في موضع نصب على الحال. (ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) أي مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله:" أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" «٤»] الأنبياء: ١٠٥] يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وفي الكلام إضمار أي نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة. وقيل:" نطمع" بمعنى (في) كما تذكر (في) بمعنى (مع) تقول: كنت فيمن لقي الأمير، أي مع من لقي الأمير. والطمع يكون مخففا وغير مخفف، يقال: طمع فيه طمعا وطماعة وطماعية مخفف فهو طمع.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٢٣/٦

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٥ الى ٨٦]

فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين (٨٥) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم (٨٦)

---

(١). راجع ج ١٥ ص ٢٤٨.

(٢). راجع ج ٧ ص ٣٦٥.

(٣). راجع ج ٢ ص ١٥٣.

(٤). راجع ج ١١ ص ٣٤٩.." [١]

"(وحكى) في كتاب (الإقناع) (د) أن الأولى أن تقول: أعوذ بالله القوي من الشيطان (الغوي).

وقال الشاطبي (أ):

(إذا أردت الدهر تقرأ فاستعذ ... جهارا من الشيطان بالله مسجلا)

(على ما أتى في النحل يسرا وإن تزد ... لربك تنزيها فلست مجهلا)

(وقد ذكروا لفظ الرسول ولم يرد ... ولو صح هذا النقل لم يبق مجملا)

(ب) فظاهره أن الآي مجملة (هو خطأ لأن المجلم عند الأصوليين هو اللفظ المحتمل معينين فصاعدا على التساوي، وليست الآية كذلك بل هي عندهم من قبيل المطلق الذي يصدق بصورة). قال: وعادتهم يجيبون عنه بأنه من قبيل الإجمال اللغوي لا الاصطلاحي. (ثم قال):

(وفيه خلاف في الأصول فروعه ... فلا تعد منها باسقا ومظللا)

(ج) ومراده بالأصول إما (الكتب المطوله) وإما أصول الفقه. وقوله الرجيم: هو بمعنى مرجوم فإن أريد المرجوم بالشهب فالنعت للتخصيص والبيان، وإن أريد به أنه مرجوم باللعنة، والمقت وعدم الرحمة فالنعت للتأكيد، لأن كل شيطان كذلك.

قلت: وتقدم لابن عرفة (في الختمة الثانية في عام سبعة وخمسين وسبع مائة)، قال أبو البقاء (أ): الشيطان فيعال من شطن يشطن إذا بعد، ويقال فيه: شاطن وشيطان وسمي بذلك كل **متمرد** لبعد (غوره) (في الشر)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٦/٢٥٩

وقيل: هو (فعلان) من شاط يشيط إذا هلك (ب). قال ابن عرفة: ورد هذا لمخالفة (قاعدة) الاشتقاق، لأن الشيطان فيه النون وشاط لا نون فيه – والرجيم بمعنى مرجوم (وقيل) بمعنى فاعل أي يرجم غيره.." (١)

"واخشون) وعدم خشية الله تقصير فيما يجب وجحد الواجب له فعقبه بقوله (هم الكافرون)، والثانية قبلها (وكتبنا عليهم فيها) وهي حقوق متعلقة بالنفوس والوقوع فيها أظلم، قال: وأشار الزمخشري في [وجه*] الترتيب، بأن عددهم المرادون بهذه الأوصاف اليهود فالكافرون، والظالمون وصف لهم بالعتو في أمرهم حين ظلموا بالاستهانة **وتمردوا**، فالاستهانة شدة ظلمهم، وظلمهم المسبب عنها بعد كفرهم أشد من الكفر، ثم إن **التمرد** المعبر عنه في الآية بالمعنى الأشد من الاستهانة، لأن **[التمرد***] يقتضي تعمد الفعل فهذا وجه الترقي في الوعيد، وأجاب [الفخر*] ابن الخطيب بأن الظلم في الآية الثانية واقع عن الكفر وزيادة الظلم فهو أشد من الكفر مجردا؛ لأن الأولى قبلها (فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) فلم يتقدمها غير مجرد ظلمهم لأنفسهم، والثانية فيها ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم لمخالفتهم في القصاص فكانت أشد، ثم عقبها بالفسق؛ لأن الحكم بغير ما أنزل الله قد يقع من غير الكافر فجعل الظلم والكفر خاصا باليهود، والفسق يعمهم مع غيرهم، وأجاب الزبير بأنها كلها في اليهود لكن الأول كفر، والثاني كفر وظلم فهو أشد لكن الظلم يقع على الصغيرة والكبيرة، والفسق لم يرد في القرآن واقعا على صغيرة ونظيره ثابت، فالفسق كفر وظلم وزيادة لا يقع إلا على المتوغل في الكفر، وقد وصف به إبليس فهو أشد.

قوله تعالى: ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ... (٤٦)﴾

قال السهيلي: إنما [نعتت*] مريم في القرآن [بابنها بخلاف غيرها*]؛ لأن عادة العرب أن يجحدوا أسماء النساء الحرائر غيرة عليهن، ويعينون أسماء الإماء، وكان الكفار يعتقدون في مريم أنها زوجته، وأن عيسى [ولده*]، فعين اسمها رادا عليهم، ونسبها على أنها مملوكة لله عز وجل، فرده ابن عرفة بأن الأمة على نوعين: موطوءة، وغير موطوءة، قال: وإنما الجواب أنها [نعتت*] تشريفا لها.

قوله تعالى: ﴿وليحكم أهل الإنجيل ... (٤٧)﴾

قال ابن عرفة: إن أريد الحكم حقيقة فيكون خطابا للخواص، وإن أريد العمل بذلك فيكون خطابا للعوام.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١/ ٢٤

قوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ... (٤٨)﴾
قال ابن عرفة: يحتمل عندي أن يكون الشرعة الطريق، والمنهاج منهاجها ومقصدها الذي يوصل إليه.
قوله تعالى: (فاحكم بينهم بما أنزل الله).." (١)

"الثاني: الإفك، هو القول الباطل في [نفسه*]، وإن كان قائله صادقا في مقالته مثل أن يخبرك شخص عن [**عمرو يقام زيد]، وهو صادق في الإخبار عن عمرو، ولكن ذلك الكلام في [نفسه*] كذب، فلما قال: (مفترى)؛ أفاد أن الكلام في [نفسه*] كذب، وأن ناقله كذب أيضا على المنقول عنه في حكايته.
قوله تعالى: (للحق).
الزمخشري: [لامان الجر ولام التعريف*] (١).

قوله تعالى: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها ... (٤٤)﴾
دلت الآية على أنهم في تكذيبهم للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم غير مستندين إلى كتاب منزل، ولا إلى إخبار رسول، ولا إلى خبر تواتر، لأن الذين من قبلهم قد كذبوا، وإذا كذبوا انقطع التواتر، لأن شرطه صدق المخبرين، أما المكذبون فلا.
فإن قلت: إنهم لم يشترطوا في التواتر صدق المخبرين، بل قالوا: إن خبر الكفار البالغين عدد التواتر يفيد العلم، فالجواب: إنما ذلك إذا أخبروا عن أمر شاهدوه، وأما ،لنقل فلا، لأن الكفار البالغين عدد التواتر نقلوا لهم ذلك عن قوم كذبوا بينهم، فلا يعتمد على قولهم بوجه لقوله (وكذب الذين من قبلهم).
وإنما احتيج إلى ذكر الثلاثة، لأن الرسول لا يستلزم الكتاب، إذ قد يكون رسولا بغير كتاب منزل عليه.
فإن قلت: لم وصف الكتب بـ يدرسونها، مع أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فيبقى المفهوم، فالجواب: أن الكتب ما ينتفع بها إلا بالنظر وبالدرس وإلا فوجودها كالعدم، فهذه لازمة أو هو مفهوم خرج مخرج الغالب فلا يعتبر.

قوله تعالى: ﴿فكذبوا رسلي ... (٤٥)﴾
إن قلت: ما أفاد بعد قوله تعالى: (وكذب الذين من قبلهم)، فالجواب: بوجوه:

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١١٢/٢

الأول: أن هذا مقيد، والأول مطلق.

الثاني: والمراد بالأول تكذيبهم المعجزات، وبالثاني تكذيب الرسل.

---

(١) النص هكذا في الكشاف:

"للحق لما جاءهم وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وفي لما من المبادهة بالكفر: دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد، وتعجيب من أمرهم بليغ، كأنه قال: وقال أولئك الكفرة **المتمردون** بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه". اهـ الكشاف. ٣/ ٥٨٨).." [١]

"(وإذا لقوا الذين آمنوا) أي المهاجرين والأنصار، ومعنى لقيته ولاقيته استقبلته قريبا.

(قالوا آمنا) كإيمانكم.

(وإذا خلوا إلى شياطينهم) أي رجعوا إليهم قيل هو من الخلوة وقيل (إلى) بمعنى الباء وقيل بمعنى مع وخلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، أو من خلاك ذم أي مضى عنك، ومنه القرون الخالية أو من خلوت به إذا سخرت منه، وعدي بإلى لتضمين معنى الإنهاء.

والمراد بالشياطين رؤساؤهم وكهنتهم، وقيل المراد بالشياطين المماثلون منهم للشياطين في **التمرد** والعناد، المظهرون لكفرهم أو كبار المنافقين، والقائلون صغارهم.

(قالوا إنا معكم) في الدين والاعتقاد أي إنا مصاحبوكم في دينكم وموافقوكم عليه.

(إنما نحن مستهزؤن) أي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بما نظهر لهم من الإسلام لنأمن من شرهم ونقف على سرهم، ونأخذ من غنائمهم، تأكيد لما قبله أو بدل منه أو استئناف.

قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه، والهزء السخرية واللعب والاستخفاف يقال هزأت واستهزأت بمعنى، وأصله الخفة وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ مات فجأة وتهزأ به ناقته أي تسرع به وتخف، والمراد درؤهم للإسلام ودفعهم للحق.." [٢]

"داود، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وإن

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣/٣٢٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١/٩٥

الذي يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت والآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردا عليهم انتهى، يعني أنه بدل من الناس أي يعلمان الناس خصوصا هاروت وماروت.

وقال القرطبي في تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين ما لفظه: هذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الأنس النساء وخاصة في حال طمثهن، قال الله (ومن شر النفاثات في العقد).

ثم قال: إن قيل كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه! ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع أو أنهما خصا بالذكر دون غيرهما **لتمردهما**، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن " الملكين " بكسر اللام، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه فتنة لعباده على ألسن ملائكته، وعندي أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر، فإن لله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول الملكان (إنما نحن فتنة) ويؤيده ما قال أبو السعود أن مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس مما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلام، فإن الابدال في حكم تنحية المبدل منه. وقال هاروت وماروت عطف بيان للملكين علمان لهما، وقرىء بالرفع على هما هاروت وماروت انتهى المراد منه.

قال ابن جرير: وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان، وكان عبد الرحمن بن أبزي." (١)

"ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين (١٤٥)

(ولئن) لام قسم وإن شرطية (أتيت الذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى (بكل آية) أي بكل معجزة وبكل حجة وبرهان (ما تبعوا قبلتك) أي الكعبة عنادا، وفي هذه الآية مبالغة عظيمة وهي متضمنة للتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترويح خاطره بأن هؤلاء لا يؤثر فيهم كل آية ولا يرجعون إلى الحق وإن جاءهم بكل برهان فضلا عن برهان واحد، وذلك لأنهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم أو لشبهة طرأت عليهم حتى يوازنوا بين ما عندهم وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويقلعوا عن غوايتهم

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١/ ٢٣٧

عند وضوح الحق، بل كان تركهم للحق تمردا وعنادا مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء، ومن كان هكذا فهو لا ينتفع بالبرهان أبدا.

والإخبار في قوله (وما أنت بتابع) يمكن أن يكون بمعنى النهي من الله لسبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، أي لا تتبع يا محمد (قبلتهم) ويمكن أن يكون على ظاهره دفعا لأطماع أهل الكتاب، وقطعا لما يرجونه من رجوعه صلى الله عليه وآله وسلم إلى القبلة التي كان عليها، وهذه الجملة أبلغ من النفي من قوله (وما تبعوا قبلتك) من وجوه منها كونها اسمية تكرر فيها الاسم مؤكدا نفيها بالباء (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) فيه إخبار بأن اليهود والنصارى مع حرصهم على متابعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – لما عندهم، هم مختلفون في دينهم حتى في هذا الحكم الخاص الذي قصه الله سبحانه على رسوله، فإن بعضهم لا يتابع الآخر في استقبال قبلته، قال في الكشاف: وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس، انتهى.." (١)

"(كيف يهدي الله) هذا الاستفهام معناه الجحد أي لا يهدي الله، ونظيره قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله) أي لا عهد لهم، ويجوز أن يكون الاستفهام للتعجب والتعظيم لكفرهم بعد الإيمان أو للاستبعاد والتوبيخ فإن الجاحد عن الحق بعد ما وضح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد، فليس للإنكار حتى يستدل به على عدم توبه المرتد، وإن كان إنكارا فالاستثناء يمنعه، قاله الكرخي.

(قوما) إلى الحق (كفروا بعد إيمانهم و) بعدما (شهدوا أن الرسول حق و) بعدما (جاءهم البينات) من كتاب الله سبحانه ومعجزات رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي كيف يهدى المرتدين والحال أنه لا يهدي من حصل منهم مجرد الظلم لأنفسهم ومنهم الباقون على الكفر، ولا ريب أن ذنب المرتد أشد من ذنب من هو باق على الكفر لأن المرتد قد عرف الحق ثم أعرض عنه عنادا وتمردا.

عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل لي من توبه فنزلت هذه الآية إلى قوله (غفور رحيم) فأرسل إليه قومه وأسلم (١)، وروى هذا من طرق، وعنه أيضا هم أهل الكتاب من اليهود عرفوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ثم كفروا به، وروى نحوه عن الحسن.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١/٣٠٧

(١) رواه النسائى وابن حبان وابن أبي حاتم والطبري والبيهقي والحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي ورواه ايضا وإسناده صحيح.." [١]

"(ولو آمن أهل الكتاب) أي اليهود والنصارى إيمانا كإيمان المسلمين بالله ورسله وكتبه (لكان خيرا لهم) من الرياسة التي هم عليها؛ وقيل من الكفر الذي هم عليه، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل قالوا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض؛ وإنما حملهم على ذلك حب الرياسة واستتباع العوام، فالخيرية إنما هي باعتبار زعمهم، وفيه ضرب تهكم بهم، ولم يتعرض للمؤمن به إشعارا بشهرته قاله أبو السعود.

وقال الكرخي: لكان هذا الإيمان خيرا لهم من الإيمان بموسى وعيسى فقط وحينئذ فأفعل التفضيل على بابه، أو هو لبيان أن الإيمان فاضل كما في قوله تعالى: (أفمن يلقى في النار خير).

ثم بين حال أهل الكتاب بقوله (منهم المؤمنون) وهم الذين آمنوا برسول الله – صلى الله عليه وسلم – منهم، فإنهم آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل قبله كابن سلام وأصحابه من اليهود، والنجاشي وأصحابه من النصارى (وأكثرهم الفاسقون) أي الخارجون عن طريق الحق **المتمردون** في باطلهم، المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولما جاء به، فيكون هذا التفصيل على هذا كلاما مستانفا جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل هل منهم من آمن واستحق ما وعده الله، وعبر عن كفرهم بالفسق إشارة إلى أنهم فسقوا في دينهم أيضا فليسوا عدولا فيه فخرجوا عن الإسلام وعن دينهم.." [٢]

"(وإن) ما (يدعون) من دون الله (إلا شيطانا مريدا) وهو إبليس لعنه الله، لأنهم إذا أطاعوه فيما سول لهم فقد عبدوه، وتقدم اشتقاق لفظ الشيطان والمريد **المتمرد** العاتي من مرد إذا عتا، قال الأزهري: المريد الخارج عن الطاعة وقد مرد الرجل مرودا إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو مارد ومريد **ومتمرد**.

وقال ابن عرفة: هو الذي ظهر شره يقال شجرة مرداء إذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها، ومنه قيل للرجل أمرد أي ظاهر مكان الشعر من عارضيه، وقال ابن عباس: لكل صنم شيطان يدخل في جوفه ويتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم والأول أولى.." [٣]

"المنافقون، قاله ابن عباس، والمعنى أن المسارعين في الكفر طائفة من المنافقين (ومن الذين هادوا) أي وطائفة من اليهود قال الزجاج الكلام تم عند قوله هذا ثم ابتدأ الكلام بقوله:

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢/٢٧٩

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢/٣١٢

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣/٢٤٣

(سماعون للكذب) وهذا راجع إلى الفريقين أو إلى المسارعين، واللام في قوله للكذب للتقوية أو لتضمين السماع معنى القول، وقيل معناه من الذين هادوا قوم قائلون الكذب من رؤسائهم المحرفين للتوراة (سماعون) أي لكلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأجل الكذب عليه (لقوم آخرين) وجهوهم عيونا وجواسيس لهم لأجل أن يبلغوهم ما سمعوا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

قال الفراء: ويجوز سماعين كما قال ملعونين أينما ثقفوا، والحاصل أن هؤلاء القوم من اليهود لهم صفتان سماع الكذب من أحبارهم ونقله إلى عوامهم، وسماع الحق منك ونقله إلى أحبارهم ليحرفوه.

(لم يأتوك) صفة لقوم أي لم يحضروا مجلسك وهم طائفة من اليهود كانوا لا يحضرون مجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تكبرا **وتمردا** وقيل هم جماعة من المنافقين كانوا يتجنبون مجالس رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

(ويحرفون الكلم) الذي في التوراة كآية الرجم أي يزيلونه ويميلونه أو يتأولونه على غير تأويله والمحرفون هم اليهود، قال القسطلاني في إرشاد الساري: وقد صرح كثير بأن اليهود والنصارى بدلوا ألفاظا كثيرة من التوراة والإنجيل وأتوا بغيرها من قبل أنفسهم، وحرفوا أيضا كثيرا من المعاني بتأويلها على غير الوجه.

ومنهم من قال أنهم بدلوهما كليهما، ومن ثم (١) قيل بامتهانهما، وفيه نظر

---

(١) ثم بفتح الثاء أي هنا.." (١)

"(وأن احكم بينهم بما أنزل الله) عطف على الكتاب أي أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه، وقد استدل بهذا على نسخ التخيير المتقدم في قوله: أو أعرض عنهم وقد تقدم تفسيره.

(ولا تتبع أهواءهم) أي فيما أمروك به، وليس في هذه الآية تكرار لما تقدم وإنما أنزلت في حكمين مختلفين، أما الآية الأولى فنزلت في شأن رجم المحصن، وأن اليهود طلبوا منه أن يجلده، وهذه الآية نزلت في شأن الدماء والديات حين تحاكموا إليه في أمر قتيل كان بينهم.

(واحذرهم أن يفتنوك) أي يضلوك ويصرفوك بسبب أهوائهم التي يريدون منك أن تعمل عليها وتؤثرها (عن بعض ما أنزل الله إليك) ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق (فإن تولوا) أي إن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل الله عليك وأرادوا غيره.

(فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم) بالعقوبة في الدنيا (ببعض ذنوبهم) وهو ذنب التولي عنك والإعراض عما

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣/٤٢٠

جئت به، وإنما عبر بذلك إيذانا بأن لهم ذنوبا كثيرة، هذا مع كمال عظمة واحد من جملتها، وفي هذا الإبهام تعظيم للتولي (وإن كثيرا من الناس لفاسقون) **متمردون** عن قبول الحق خارجون عن الإنصاف.." (١)

"إذا عتبت عليه، وإنما عدي هنا بمن لتضمنه معنى تكرهون وتنكرون.

في الصحاح ما نقمت منه إلا الإحسان، وقال الكسائي: نقمت بالكسر لغة، ونقمت الأمر أيضا ونقمته إذا كرهته، وانتقم الله منه أي عاقبه، والاسم منه النقمة والجمع نقمات ونقم مثل كلمة وكلمات وكلم، وإن شئت سكنت القاف ونقلت حركتها إلى النون فقلت نقمة والجمع نقم مثل نعمة ونعم، وقيل المعنى تسخطون وقيل تنكرون أي هل تعيبون أو تسخطون أو تنكرون أو تكرهون منا.

(إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل) أي إلا ايماننا بالله وبكتبه المنزلة وقد علمتم بأنا على الحق، وهذا على سبيل التعجب من فعل أهل الكتاب، والاستثناء مفرغ أي ليس هذا مما ينكر أو ينقم به.

(وإن أكثركم فاسقون) بترككم للإيمان، والخروج عن امتثال أوامر الله أي ما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين **تمردكم** وخروجكم عن الإيمان.

وفيه أن المؤمنين لم يجمعوا بين الأمرين المذكورين، فإن الإيمان من جهتهم، **والتمرد** والخروج من الناقمين، وقيل هو على تقدير محذوف أي واعتقادنا أن أكثركم فاسقون وقيل غير ذلك.." (٢)

"بالأوصاف السابقة، أو البعض منهم دون بعض، فقال: منهم أمة عادلة غير غالية ولا مقصرة، والمقتصدون منهم هم المؤمنون كعبد الله بن سلام ومن تبعه، وطائفة من النصارى قال مجاهد هم مسلمة أهل الكتاب، وعن الربيع بن أنس قال الأمة المقتصدة الذين لا هم فسقوا في الدين ولا هم غلوا، والغلو: الرغبة، والفسق: التقصير عنه، وعن السدي مقتصدة أي: مؤمنة والاقتصاد الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير.

(وكثير منهم ساء ما يعملون) وهم المصرون على الكفر **المتمردون** عن إجابة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان بما جاء به مثل كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود.

أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكر حديثا قال ثم حدثهم النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال: " تفرقت أمة موسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣/٤٤٦

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣/٤٥٦

الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، وتعلو أمتي على الفريقين جميعا بملة واحدة في الجنة واثنتان وسبعون منها في النار قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: الجماعات الجماعات " (١).

وقال يعقوب بن زيد: كان علي بن أبي طالب إذا حدث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بهذا الحديث تلا فيه قرآنا قال: (ولو أن أهل الكتاب آمنوا) الآية، وتلا أيضا (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) يعني: أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره لهذا الحديث ما لفظه: وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروي من طرق عديدة قد ذكرناها في موضع آخر اهـ.

---

(١) المستدرك كتاب العلم ١/ ١٢٨.." [١]

"(وما تأتيهم) أي أهل مكة (من آية من آيات ربهم) كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم **وتمردهم** وهو الإعراض عن آيات الله التي تأتيهم بالكلية، ومن في (من آية) مزيدة للإستغراق، وفي (من آيات ربهم) تبعيضية أي ما تأتيهم آية من الآيات التي هي بعض آيات ربهم، وإضافة الآيات إلى الرب لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها.

والمراد بها إما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها، وإما الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات فإتيانها ظهورها لهم (إلا كانوا عنها معرضين) أي كانوا لها تاركين وبها مكذبين، والإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله.." [٢]

"(الذين آتيناهم الكتاب) وهم علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، والتعريف للجنس فيشمل التوراة والإنجيل وغيرهما (يعرفونه) أي يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال به جماعة من السلف وإليه ذهب الزجاج، وقيل يعرفون القرآن معرفة محققة بحيث لا يلتبس عليهم منه شيء وقيل يعود الضمير على التوحيد لدلالة قوله: (إنما هو إله واحد) أو على كتابهم أو على جميع ذلك وأفرد الضمير اعتبارا بالمعنى كأنه قيل يعرفون ما ذكرنا وقصصنا.

(كما يعرفون أبناءهم) بيان لتحقق تلك المعرفة وكمالها وعدم وجود شك فيها فإن معرفة الآباء للأبناء هي

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٧/٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٠٢/٤

البالغة إلى غاية الإيقان إجمالا وتفصيلا (الذين خسروا أنفسهم) أي أهلكوها وغبنوها وأوبقوها في نار جهنم بأنكارهم نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – وقيل المعنى أن أولئك الذين آتاهم الله الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيء من البعد عن الحق وعدم العمل بالمعرفة التي ثبتت لهم.

ومعنى هذا الخسران كما قاله جمهور المفسرين أن الله جعل لكل إنسان منزلا في الجنة ومنزلا في النار، فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار، ذكره الكرخي (فهم) بعنادهم **وتمردهم** (لا يؤمنون) بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال البيضاوي: الفاء للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبب عن خسرانهم." (١)

"(وفي آذانهم وقرا) أي صمما وثقلا يقال وقرت أذنه تقر أي صمت وقرئ وقر بكسر الواو أي جعل في آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير والحمار وهو مقدار ما يطيق أن يحمله.

والحاصل أن المادة تدل على الثقل والرزانة ومنه الوقار للتؤدة والسكينة، وذكر الوقر والأكنة تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه كأن قلوبهم لا تعقل وأسماعهم لا تدرك قال قتادة: يسمعون بآذانهم ولا يعون منه شيئا كمثل البهيمة التي لا تستمع النداء ولا تدري ما يقال لها.

(وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أي بشيء من الآيات التي يرونها من المعجزات ونحوها لعنادهم **وتمردهم** (حتى) هي الابتدائية التي تقع بعدها الجمل والمعنى أنهم بلغوا من الكفر والعناد إلى أنهم (إذا جاءوك يجادلونك) أي مجادلين مخاصمين لا مؤمنين بها ولم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان بل (يقول الذين كفروا إن هذا) أي ما هذا القرآن (إلا أساطير الأولين) وقيل هي الجارة والمعنى حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون ذلك، وهذا غاية التكذيب ونهاية العناد.

والأساطير قال الزجاج: واحدها أسطار، وقال الأخفش أسطورة، وقال أبو عبيدة: أسطارة وقال النحاس: أسطور، وقال القشيري: أسطير، وقيل هو جمع لا واحد له كعباديد وأبابيل، وظاهر كلام الراغب أنه جمع سطر، والمعنى ما سطره الأولون في الكتب من القصص والأحاديث قال الجوهري الأساطير الأباطيل والترهات، وقال السدي أساجيع الأولين، وقال ابن عباس: أحديث الأولين، وقال قتادة: كذب الأولين وباطلهم.." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/١١٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/١٢٢

"(وقالوا إن) ما (هي إلا حياتنا الدنيا) أي ليس لنا غير هذه التي نحن فيها (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت ولم يكتفوا بمجرد الإخبار بذلك حتى أبرزوها محصورة في نفي وإثبات وهي ضمير مبهم يفسره خبره أي لا يعلم ما يراد به إلا بذكر خبره وهو من الضمائر التي يفسرها ما بعدها لفظا ورتبة، قال السمين وهذا من شدة **تمردهم** وعنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث.." (١)

"(وإن كان كبر عليك إعراضهم) كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يكبر عليه إعراض قومه ويتعاظمه ويحزن له، فبين له الله سبحانه أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له والإعراض عما دعا إليه هو كائن لا محالة لما سبق في علم الله عز وجل، وليس في استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك.

ثم علق ذلك بما هو محال فقال: (فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض) فتأتيهم بآية منه (أو سلما في السماء فتأتيهم بآية) منها فافعل، ولكنك لا تستطيع ذلك فدع الحزن ولا تذهب نفسك عليهم حسرات وما أنت عليهم بمصيطر، والنفق السرب والمنفذ ومنه النافقاء لجحر اليربوع ومنه المنافق وقد تقدم في البقرة ما يغني عن الإعادة، والسلم الدرج الذي يرتقي عليه وهو مذكر لا يؤنث وقال الفراء أنه يؤنث قال الزجاج: وهو مشتق من السلامة لأنه يسلك به إلى موضع الأمن وقيل المصعد وقيل السبب.

ثم قيل: إن الخطاب وإن كان لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فالمراد به أمته لأنها كانت تضيق صدورهم **بتمرد** الكفرة وتصميمهم على كفرهم، ولا يشعرون أن لله." (٢)

"(فلولا) أي فهلا (إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) لكنهم لم يتضرعوا مع قيام المقتضى له وهو الباساء والضراء، وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء في كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة **تمردهم** وغلوهم في الكفر، ويجوز أن يكون المعنى أنهم تضرعوا عند أن نزل بهم العذاب وذلك تضرع ضروري لم يصدر عن إخلاص فهو غير نافع لصاحبه، والأول أولى كما يدل عليه.

(ولكن قست) أي صلبت وغلظت فلم تضرع ولم تخشع (قلوبهم) واستمرت على ما هي عليه من القساوة ولم تلن للإيمان، وهذا استدراك وقع بين الضدين قال أبو السعود: فهذا من أحسن مواقع الاستدراك.

(وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) أي أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصي، والجملة

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/١٢٦

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/١٣٢

استئنافية أخبر تعالى عنهم بذلك أو داخلة في حيز الاستدراك وهو الظاهر، وهذا رأي الزمخشري فإنه قال: لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا قسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم.." [١]

"(وكذلك) أي مثل هذا الجعل (جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن) هذا الكلام استئناف مسوق لتسلية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ودفع ما حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم، والمعنى كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار فجعلنا لكل واحد منهم عدوا من كفار زمنهم وأن ذلك ليس مختصا بك، والمراد بالشياطين المردة من الفريقين، والشيطان كل عات **متمرد** من الجن والإنس، وبه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة.

قالوا وشياطين الإنس أشد **تمردا** من شياطين الجن، وبه قال مالك بن دينار والإضافة بيانية أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل الإنس والجن الشياطين، قال ابن عباس: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم فيلتقي شيطان الإنس وشيطان الجن فيقول هذا لهذا أضلله بكذا وأضلله بكذا، وعنه قال الجن هم الجان وليسوا شياطين، والشياطين ولد." [٢]

"خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل " (١) أخرجه الترمذي.

(إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) تعليل لقوله وفريقا حق عليهم الضلالة أي ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله.

(و) مع هذا فإنهم (يحسبون أنهم مهتدون) ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة، وهذا أشد في **تمردهم** وعنادهم.

والآية حجة على أهل الاعتزال في كون الهداية والإضلال إلى الله ذي الجلال، وفيه دليل أيضا على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق، والجاحد والمعاند في الكفر سواء، ودلت هذه الآية على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين بل لا بد من الجزم والقطع، لأنه تعالى ذم الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين، ولولا أن هذا الحسبان مذموم لما ذمهم بذلك.

ودلت أيضا على أن كل من شرع في باطل فهو مستحق للذم سواء حسب كونه هدى أو لم يحسب ذلك قاله الكرخي.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤١/٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٢٢/٤

ـــ ـ ـــ ـ ــــــــ

(١) صحيح الجامع الصغير ١٧٦٠.

وأخرجه الآجري في الشريعة/١٧٥ وابن حبان ١٨١٢ والحاكم ١/ ٣٠ وأحمد ٢/ ١٧٦ و ١٦٧ من طرق أخرى والترمذي ٢/ ١٠٧ كذلك وله طرق أخرى عن ابن الديلمي.." [1]

"(قالوا) في جواب نصحه لهم (أجئتنا لنعبد الله وحده) هذا استنكار منهم لدعائه إلى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله، وإنما كان هذا مستنكر عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه فلذا قالوا (ونذر ما كان يعبد آباؤنا) أي نترك الذي كانوا يعبدونه من الأصنام وهذا داخل في جملة ما استنكروه وهكذا يقول المقلدة لأهل الاتباع، والمبتدعة لأهل السنة.

(فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) هذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يعدهم به لشدة **تمردهم** على الله ونكوصهم عن طريق الحق وبعدهم عن اتباع الصواب.." [2]

"(قال الذين استكبروا) عن أمر الله والإيمان به وبرسوله صالح **تمردا** وعنادا (إنا بالذي آمنتم به كافرون) أي جاحدون، وهذه الجمل المعنونة بقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهارا لمخالفتهم إياهم وردا لمقالتهم.." [3]

"قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين (٨٨)

(قال الملأ الذين استكبروا) أي الأشراف المستكبرون عن الإيمان (من قومه) استئناف بياني كأنه قيل فماذا قالوا بعد سماعهم هذه المواعظ من شعيب (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) لم يكتفوا بترك الإيمان **والتمرد** عن الإجابة إلى ما دعاهم اليه، بل جاوزوا ذلك بغيا وبطرا وأشرا إلى توعد نبيهم ومن آمن به بالإخراج من قريتهم أو عودهم في ملتهم الكفرية أي لا بد من أحد الأمرين إما الإخراج أو العود.

ومقصودهم الأصلي هو العود، وإنما ذكر النفي والإجلاء لمحض القسر والإلجاء كما يفصح عنه عدم تعرضه لجواب الإخراج على ما هو ظاهر النظم، وتوسيط النداء باسمه العلمي بين المعطوفين لزيادة التقرير

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/٣٣١

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/٣٩٣

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/٣٩٨

والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان أي والله ر نخرجنك وأتباعك، وإنما لم يقولوا أو لنعيدنكم على طريقة ما قبله لما أن مرادهم العود بطريق الاختيار وصورة الطواعية.

وكلمة " عاد " لها في لسانهم استعمالان (أحدهما) وهو الأصل أنه الرجوع إلى ما كان عليه من الحال الأول (والثاني) استعمالها بمعنى صار، قال السمين: واستشكلوا على كونها بمعناها الأصلي أن شعيبا لم يكن قط على دينهم ولا في ملتهم فكيف يحسن أن يقال أو لتعودن أي ترجعن إلى حالتكم الأولى والخطاب له ولأتباعه.

وقد أجيب عن ذلك بثلاثة أوجه (أحدها) أن هذا القول من رؤسائهم قصدوا به التلبيس على العوام والإيهام لهم أنه كان على دينهم وعلى ملتهم.

الثاني: أن يراد بعوده رجوعه إلى حاله قبل بعثته من السكوت لأنه قبل." [١]

"فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين (٩٣)

(فتولى) أي فأعرض (عنهم) شعيب شاخصا من بين أظهرهم لما شاهد نزول العذاب بهم (وقال) أي قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا في قصة صالح عليه السلام (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي) التي أرسلني بها إليكم (ونصحت لكم) ببيان ما فيه سلامة دينكم ودنياكم (فكيف آسى) أي أحزن (على قوم كافرين) بالله مصرين على كفرهم **متمردين** عن الإجابة، والأسى شدة الحزن أسى على ذلك فهو آس.

قال شعيب: هذه المقالة تحسرا على عدم الإيمان ثم سلى نفسه بأنه كيف يقع منه الأسى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله وعدم قبولهم لما جاء به رسوله أو أراد لقد أعذرت لكم في الإبلاغ والتحذير فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا نصحي فكيف أحزن عليكم، يعني أنكم لستم مستحقين لأن يحزن عليكم والأول أولى.

عن ابن عباس قال: في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما قبر إسمعيل وقبر شعيب فقبر إسمعيل في الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود وعن وهب بن منبه أن شعيبا مات بمكة ومن معه من المؤمنين فقبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم.

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن أبي إسحق قال: ذكر لي يعقوب بن أبي مسلمة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا ذكر شعيبا قال " ذاك خطيب الأنبياء " لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة " (١).

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/٤٠٩

(١) المستدرك كتاب التاريخ ٢/ ٥٦٨.." [١]

"(وقالوا) عند أن صاروا في الرخاء بعد الشدة (قد مس آباءنا الضراء والسراء) أي إن هذا الذي مسنا من البأساء والضراء ثم من الرخاء والخصب من بعد هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله، فمسهم من البأساء والضراء ما مسنا ومن النعمة والخير ما نلناه، ومرادهم أن هذه العادة الجارية في السلف والخلف، وإن ذلك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم واختبارا لما عندهم.

وفي هذا من شدة عنادهم وقوة **تمردهم** وعتوهم ما لا يخفى، ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم كما قال (فأخذناهم بغتة) أي فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ ولا إمهال ليكون ذلك أعظم لحسرتهم، والمراد من ذكر هذه القصة أن يعتبر من سمعها فينزجر (وهم لا يشعرون) بذلك العذاب النازل بهم ولا يترقبونه.." [٢]

"فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون (١٣١)

ثم بين أنهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا إلا **تمردا** وكفرا كلما قال تعالى (فإذا جاءتهم الحسنة) أي الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر وصلاح الثمار ورخاء الأسعار والسعة والعافية والسلامة من الآفات (قالوا لنا هذه) أي أعطيناها باستحقاق وهي مختصة بنا ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الأرزاق وصحة الأبدان، ولم يروا ذلك من فضل الله فيشكروه على إنعامه.

(وإن تصبهم) خصلة (سيئة) من الجدب والقحط، وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء قيل ووجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع وتعلق الإرادة بإحداثها، ووجه تنكير السيئة ندرة وقوعها وعدم القصد لها إلا بالتبع. هذا من محاسن علم المعاني، قال مجاهد: الحسنة العافية والرخاء والسيئة بلاء وعقوبة (يطيروا) يتشاءموا (بموسى ومن معه) من المؤمنين به، وقد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات، ثم استعمل بعد ذلك في كل من تشاءم بشيء في قول جميع المفسرين، ومثل هذا قوله تعالى (وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك).

(ألا) التصدير بكلمة التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمونه و (إنما) أداة حصر (طائرهم) أي سبب خيرهم

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/ ٤١٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/ ٤١٦

وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط (عند الله) يأتيهم به ليس بسبب موسى ومن معه، وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذي يجري بقدر الله وحكمته ومشيئته (ولكن أكثرهم لا يعلمون) بهذا بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلا منهم والحق أن الكل من الله.." (١)

"(فلما عتوا عما نهوا عنه) أي تجاوزوا الحد في معصية الله سبحانه وأبوا أن يرجعوا عنها **تمردا** وتكبرا (قلنا لهم كونوا) أي أمرناهم أمرا تكوينيا لا أمرا قوليا يعني مسخناهم (قردة) قيل إنه سبحانه عذبهم أولا بسبب المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم الله قردة، وقيل: إن قوله: فلما عتوا تكرير لقوله فلما نسوا ما ذكروا به للتأكيد والتقرير، وأن المسخ هو العذاب البئيس (خاسئين) الخاسىء الصاغر الذليل أو المباعد المطرود، يقال خسأته فخسئ أي باعدته فتباعد.

قال قتادة: لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعدما كانوا رجالا ونساء، قيل صار شبان القوم قردة والمشيخة خنازير، وبقوا ثلاثة." (٢)

"(وإذا تتلى عليهم آياتنا) التي تأتيهم بها وتتلوها عليهم (قالوا) تعنتا **وتمردا** وبعدا عن الحق (قد سمعنا) ما تتلوه علينا (لو نشاء لقلنا مثل هذا) الذي تلوته علينا أي مثل هذا القرآن وهو التوراة والإنجيل، وقد تنازع هذا العامل مع قوله: (لقلنا) في قوله: (مثل هذا) كما يستفاد من الخازن، قيل إنهم قالوا هذا توهما منهم أنهم يقدرون على ذلك لأنهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه ثم قالوا عنادا **وتمردا**.

(إن هذا إلا أساطير الأولين) أي ما يسطره الوراقون من أخبار الأولين وقد تقدم بيانه مستوفى، وعن السدي أنها نزلت في النضر بن الحرث وكان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار، وأحاديث العجم، فلما جاء مكة ووجد النبي – صلى الله عليه وسلم – قد أوحى إليه قال: (قد سمعنا) الآية.." (٣)

"لونه يؤل ألا أي صفا ولمع، والذمة العهد وجمعها ذمم فمن فسر الأول بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين، وقيل الذمة الضمان يقال هو في ذمتي أي في ضماني وبه سمي أهل الذمة لدخولهم

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤/٤٣٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٦١

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/١٦٦

في ضمان المسلمين، ويقال له ذمة وذمام ومذمة وهي الذم قاله ابن عرفة.
وقال الراغب: الذمام ما يذم الرجل على إضاعته من عهد، وكذلك الذمة والمذمة بالفتح والكسر وقيل لي مذمة فلا تهتكها، وقال غيره: سميت ذمة لأن كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم يقال لها ذمة، وقال أبو عبيدة والأزهري: الذمة الأمان كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم " ويسعى بذمتهم أدناهم " وروي عنه أيضا أن الذمة ما يتذمم به أي ما يجتنب فيه الذم، وقال قتادة: الإل الحلف، وقال أبو مجلز: هو الله تعالى، وعن مجاهد وعكرمة مثله، وقال ابن عباس: الإل القرابة. والذمة العهد.
(يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم) أي يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلبا لمرضاتكم وتطييب قلوبكم، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم كما يفعله أهل النفاق وذوو الوجهين، والكلام مستأنف لبيان حالهم عند عدم الظفر فهو مقابل في المعنى لقوله: (وإن يظهروا عليكم) الخ يقال أبى يأبى أي اشتد امتناعه فكل أباء امتناع من غير عكس، ولم يصب من فسره بمطلق الامتناع، ومجيء المضارع منه على يفعل بفتح العين شاذ، ومنه قلى يقلى في لغة قاله السمين، ثم حكم عليهم بالفسق فقال: (وأكثرهم فاسقون) وهو التمرد والتجري والخروج عن الحق لنقضهم العهود وعدم مراعاتهم لها.." (١)

"(لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) قال النحاس: ليس هذا تكريرا، ولكن الأول لجميع المشركين، والثاني لليهود خاصة، والدليل على هذا اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا يعني اليهود، وقيل هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق، وفي الأول المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة، وقيل الأول وقع جوابا لقوله: (وإن يظهروا) والثاني وقع خبرا عن تقبيح حالهم (وأولئك هم المعتدون) أي المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد أو المبالغون في الشر والتمرد إلى الغاية القصوى.." (٢)

"(قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم) هذا الأمر معناه الشرط والجزاء لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم، والتقدير إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم، وقيل هو أمر في معنى الخبر أي أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم فهو كقوله: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وفيه الإشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول.
وانتصاب طوعا وكرها على الحال فهما مصدران في موقع المشتقين أي انفقوا طائعين من غير أمر من الله

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٢٤٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٢٤٣

ورسوله أو مكرهين بأمر منهما، وليس المراد بالطوع الرغبة لقوله الآتي: (إلا وهم كارهون) أي لا رغبة لهم وسمى الأمر منهما إكراها لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر فكانوا بأمرهم الذي لا يأتمرون به كالمكرهين على الإنفاق أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم، قال الخطيب: وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فإنه لا يقبل منه (إنكم كنتم قوما فاسقين) تعليل لعدم قبول إنفاقهم، والفسق هنا **التمرد** والعتو وقد سبق بيان الفسق لغة وشرعا.." (١)

"الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه والانسلاخ من كل خير، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون في الفسق **والتمرد** والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير أو للإهانة والتحقير، فإن الإظهار كما يأتي للتعظيم يأتي للتحقير كما نص عليه بعضهم.." (٢)

"ومعلوم أنه لم يخف عليه ذلك وإنما أراد بما قال إظهار كمال رحمته ورأفته بمن بعث إليهم، وفيه لطف بأمته وحث على المراحم وشفقة بعضهم على بعض، وهذا دأب الأنبياء كما قال إبراهيم (ومن عصاني فإنك غفور رحيم).

وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها وليس بشيء فقال أن السبعة عدد شريف لأنها عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم والنجوم السيارة والأعضاء وأيام الأسبوع، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة لأن الحسنة بعشرة أمثالها.

وقيل خصت السبعون بالذكر لأنه صلى الله عليه وسلم كبر على عمه حمزة سبعين تكبيرة فكأنه قال أن تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة وهذا كالذي قبله.

ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله: (ذلك) الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل (بأنهم كفروا بالله ورسوله) ولفظ الكرخي ذلك اليأس من الغفران لهم بسبب أنهم كفروا لا ببخل منا أو قصور فيك، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنه. اهـ.

(والله لا يهدي القوم الفاسقين) أي **المتمردين** الخارجين عن الطاعة المتجاوزين لحدودها، والمراد هنا الهداية الموصلة إلى المطلوب لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق.." (٣)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٣٢٠

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٣٤٠

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٣٥٨

"المدينة) قوم أو ناس (مردوا على النفاق) قال البغوي: أي من الأوس والخزرج. وقيل المعنى وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا، وأصل مرد **وتمرد** اللين والملاسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه غصن أمرد لا ورق عليه، وفرس أمرد لا شعر فيه، وغلام أمرد لا شعر بوجهه، وأرض مرداء لا نبات فيها وصرح ممرد مجرد مملس، كما قال:

في منزل شيد بنيانه ... يزل عنه ظفرالطائر

فالمعنى أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنواعنه ولم يتوبوا منه،

قال ابن زيد: معناه لجوا فيه وأبوا غيره.

قال الخفاجي: أصل معنى **التمرد** التمرن أي الاعتياد والتدرب في الأمر حتى يصير ماهرا فيه لاتخاذه صنعة وديدنا له، ولذا خفي نفاقهم عليه صلى الله عليه وسلم مع كمال فطنته وفراسته.

وقال الراغب: أنه من قولهم شجرة مرداء أي لا ورق عليها أي أنهم خلوا من الخير. وروى أهل الجنة جرد مرد وهو محمول على ظاهره، أو المراد أنهم خالصون من الشوائب والقبائح.

وجملة (لا تعلمهم) مبنية للجملة الأولى وهي مردوا على النفاق أي ثبتوا عليه ثبوتا شديدا ومهروا فيه حتى خفي أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف سائر المؤمنين، والمراد عدم علمه صلى الله عليه وسلم بأعيانهم لا من حيث الجملة، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه صلى الله عليه وسلم.

ولا ينافي هذا قوله تعالى: (ولتعرفنهم في لحن القول) لأن آية النفي نزلت قبل آية الإثبات، وهذه الجملة صفة المنافقون أو مستأنفة، والعلم هنا إما على بابه فيتعدى لإثنين أي لا تعلمهم منافقين أو عرفاني فيتعدى لواحد. قاله أبو البقاء.

وأما قوله: (نحن نعلمهم) فلا يجوز أن يكون إلا على بابه وهي مقررة." (١)

"فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون (٢٣)

(فلما أنجاهم) الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم، بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر (إذا هم يبغون) أي فأجاؤا البغي والفساد وسارعوا إليه، والبغي هو الفساد من قولهم بغى الجرح إذا ترامى في الفساد، وقيل هو الشرك، وزيادة (في الأرض) للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، والبغي وإن كان ينافي أن

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٣٨٥

يكون بحق بل لا يكون إلا بالباطل لكن زيادة.

(بغير الحق) إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم بل تمردا وعنادا لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة.

وقيل البغي: مجاوزة الحد وهو محمود إن كان من العدل إلى الإحسان ومن الفرض إلى التطوع، ومذموم إن كان من الحق إلى الباطل أو إلى الشبهة، وقال الزمخشري: البغي قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة، وهذا فائدة تقييده بغير الحق.

(يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) لما ذكر

سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق، ذكر عاقبة البغي وسوء مغبته، قرئ بنصب متاع على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف، أي بغيكم وبال على أنفسكم تتمتعون متاع الحياة الدنيا؛ وقيل على أنه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أي زمن متاع الحياة الدنيا، وقيل على أنه." (١)

"(كذلك) أي كما ثبت أن الحق ليس بعده إلا الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق كذلك (حقت كلمة ربك) أي حق حكمه وقضاؤه (على الذين فسقوا) خرجوا من الحق إلى الباطل وتمردوا في كفرهم عنادا ومكابرة، قال الزمخشري: أي مثل ذلك الحق حقت، وقال الزجاج: أي حقت عليهم هذه الكلمة ووجبت وهي (أنهم لا يؤمنون) أي عدم إيمانهم بدل كل من كل، أو المعنى لأنهم لا يؤمنون فيكون تعليلا لحقيتها عليهم.." (٢)

"ما هو مقصودهم من الاستهزاء (إي) أي نعم (وربي إنه) أي أن ما أعدكم به من العذاب (لحق) ثابت كائن لا محالة.

وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه (الأول) القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم (الثاني) دخول إن المؤكدة (الثالث) اللام في لحق (الرابع) اسمية الجملة وذلك يدل على أنهم قد بلغوا في الإنكار والتمرد إلى الغاية التي ليس وراءها غاية.

ثم توعدهم بأشد توعد ورهبهم بأعظم ترهيب فقال (وما أنتم بمعجزين) أي فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئا بل هو مدرككم ولا بد، وهذه الجملة إما معطوفة

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦/٤١

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦/٥٨

على جملة جواب القسم أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم عن عذاب الله بوجه من الوجوه.

ثم زاد في التأكيد فقال." (١)

"آية من آيات الله يعتبر بها الناس أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر **والتمرد** على الله سبحانه فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية واستمر على ذلك دهرا طويلا كانت له هذه العاقبة القبيحة.

وقرئ لمن خلفك على صيغة الماضي، أي لمن يأتي بعدك من القرون أو من خلفك في الرياسة أو في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه، وهذا آخر مقول جبريل عليه السلام.

(وإن كثيرا من الناس عن آياتنا) التي توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة (لغافلون) عما توجبه تلك الآيات، وهذه الجملة تذييلية جيء بها عقب الحكاية تقرير الكلام المحكى.." (٢)

"الظلمة أهل النار أو كالنار، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار، قيل هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم. والجملة حالية أو مستأنفة. قال أبو السعود: وإذا كان حال الميل في الجملة إلى من وجد منه ظلم ما في الإفضاء إلى مساس النار هكذا، فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقي شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيي بزيهم؛ ويمد عينيه إلى زهرتهم الفانية، ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية، وهو في الحقيقة من الحبة طفيف، ومن جناح البعوض خفيف، بمعزل عن أن تميل إليه القلوب، ضعف الطالب والمطلوب.

والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين تثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الميل إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط ظلم على نفسه أو غيره انتهى.

(وما ل كم من دون الله من أولياء) إن ركنتم إليهم، والمعنى أنها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها، ونفى الأولياء ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولي بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الأحاد لكن لا على معنى نفي استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام.

(ثم لا تنصرون) من جهة الله سبحانه إذ قد سبق في علمه أنه يعذبكم بسبب ركونكم الذي نهيتم عنه فلم

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧٩/٦

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢٠/٦

تنتهوا عنادا **وتمردا** والجملة حالية أو مستأنفة معترضة وأتى بثم هنا تنبيها على تراخي رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعدما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم، ويجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فإنه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج أنهم لا ينصرون أصلا.." (١)

"(وقال الذين كفروا) هم طائفة من **المتمردين** عن إجابة الرسل (لرسلهم) واللام في (لنخرجنكم) هي الموطئة للقسم، أي والله لنخرجنكم (من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) لم يقنعوا برد ما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترؤوا عليهم بهذا وخيروهم بين الخروج من أرضهم أو العود في ملتهم الكفرية. وقد قيل أن (أو) بمعنى حتى أو بمعنى إلا أن كما قاله بعض المفسرين، ورد بأنه لا حاجة إلى ذلك بل أو على بابها للتخيير بين أحد الأمرين، قيل والعود هنا بمعنى الصيرورة، أي لتصيرن داخلين في ديننا أي في الشرك لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها، وقيل إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على أتباعهم، وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأعراف (فأوحى إليهم) أي إلى الرسل بعد هذه المخاطبات والمحاورات (ربهم لنهلكن الظالمين) الكافرين." (٢)

"كفرح تنعم وأترفته النعمة أطغته أو نعمته كترفته تتريفا والمترف كمكرم المتروك يفعل ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه وترف تنعم.

(فحق عليها القول) أي ثبت وتحقق ووجب عليهم العذاب والعقاب بعد ظهور فسقهم **وتمردهم** في كفرهم (فدمرناها تدميرا) عظيما لا يوقف على كنهه لشدته وعظيم موقعه وأهلكناها إهلاك استئصال والدمار الهلاك والخراب.

ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية فقال." (٣)

"التبذير، والمراد بالأخوة المماثلة التامة وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به، وهذا غاية المذمة لأنه لا شر من الشياطين، والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو أخوهم.

قال ابن مسعود: التبذير إنفاق المال في غير حقه، وعنه كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦/٢٦٦

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧/٩٥

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧/٣٦٩

إن التبذير النفقة في غير حقه، وعن ابن عباس قال: هم الذين ينفقون المال في غير حقه، وعن علي قال: ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان.

وقيل هو إنفاق المال في العمارة على وجه السرف، وقيل لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرا، ولو أنفق درهما أو مدا في باطل كان مبذرا، قيل إن بعضهم أنفق نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه لا خير في السرف، فقال لا سرف في الخير، ولا مانع من حمل الآية على الجميع والعموم أولى.

(وكان الشيطان لربه) أي لنعم ربه (كفورا) أي كثير الكفران جحود النعمة، عظيم **التمرد** عن الحق، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شرا، ولا يأمر إلا بعمل الشر، ولا يوسوس إلا بما خير فيه، وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور، فاقتضى ذلك أن المبذر مماثل للشيطان، وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان، وكل شيطان كفور فالمبذر كذلك.

قال الكرخي: وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله لأنه موافق للشيطان في الصفة والفعل.." (١)

"عداهم من المضرة عليهم فقال (ولا يزيد) القرآن كله أو كل بعض منه (الظالمين) الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان (إلا خسارا) أي هلاكا لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح **تمردا** وعنادا، فعند ذلك يهلكون، وقيل الخسار النقص كقوله (فزادتهم رجسا إلى رجسهم) قال قتادة: لم يجالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان.

ثم نبه سبحانه على قبح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبائع المذمومة فقال." (٢)

"(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) الحسبان هنا بمعنى الظن والاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر كنظائره، والمعنى أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله **وتمردهم** عن قبول الحق، وعن علي أنه قرأ أفحسب بجزم السين وضم الباء.

وعن عكرمة أنه قرأ كذلك ومعناه أكافئهم ومحسبهم أن يتخذوا عيسى وعزيرا والملائكة أربابا من دونه تعالى

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٨١/٧

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤٤٥/٧

بل هم لهم أعداء يتبرأون منهم، وقيل يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله.

والمعنى أظنوا أن الاتخاذ المذكور لا يغضبني ولا أعاقبهم عليه، قال الزجاج: المعنى أيحسبون أن ينفعهم ذلك يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا كلا (إنا اعتدنا) هيأنا (جهنم للكافرين نزلا) يتمتعون به عند ورودهم قال الزجاج: النزل المأوى والمنزل، وفي القاموس ما يقتضي أن كل منزل يقال له نزل، ففي تقييد النزل بمكان الضيف نظر كما قال بعضهم إنه الذي يعد للضيف؛ وعلى هذا فيكون تهكما بهم كقوله (فبشرهم." [1]

"فقال هي الطائفة التي شاعت أي تبعت غاويا من الغواة، قال الله تعالى: (إن الذين فرقوا دينهم (١) وكانوا شيعا) (أيهم أشد (٢) على الرحمن عتيا) أي أعصى لله وأعتى وقال ابن عباس: عتيا معصية وعصيا، فإنه ينزع من كل طوائف الغي والفساد أعصاهم وأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحهم في جهنم، والعتي هنا مصدر كالعتو وهو **التمرد** في العصيان، أي عصيانا وجرأة.

وقيل: المعنى لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، قاله قتادة وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن كثير من أهل العصيان، ولو خص ذلك بالكفرة، فالمراد أنه يميز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب، أو يدخل كلا طبقته التي تليق به، وللنحويين في إعراب أيهم كلام طويل وأقوال كثيرة أظهرها عند الجمهور من المعربين، وهو مذهب سيبويه أن أيهم موصولة بمعنى الذي وأن حركتها حركة بناء، وأشد خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لأي، وأيهم وصلتها في محل نصب مفعولا به لننزعن، وعتيا تمييز محول عن المبتدأ المحذوف الذي هو أشد. أي عتوة أشد من عتو غيره.

وعن ابن مسعود قال: يحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعا، ثم بدأ بالأكابر والأكابر جرما، ثم قرأ: فوربك لنحشرنهم إلى قوله عتيا

---

(١) هذا جزء من الآية رقم ١٥٩ من سورة الأنعام.

(٢) بقية آية مريم رقم ٦٩.." [2]

"أن يهين أولياءه ويعز أعداءه، وقيل: عليهم أي على المؤمنين والأول أظهر، ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: (قال الذين كفروا) للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم، وقيل المراد

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢١/٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٨٥/٨

بهم هنا هم **المتمردون** المصرون منهم، والأغنياء المتجملون بالثياب وغيرها.

ومعنى (للذين آمنوا) قالوا لأجلهم، وقيل هي لام التبليغ كما في قوله: (وقال لهم نبيهم) أي خاطبوهم وشافهوهم بذلك، وبلغوا القول إليهم، يعني فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وفي منزلهم ضيق، وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون أفخر ثيابهم.

(أي الفريقين) المراد بهما المؤمنون والكافرون، كأنهم قالوا فريقنا (خير مقاما) أم فريقكم؟ وقرئ بضم الميم، وهو موضع الإقامة أو مصدر بمعناها، وبالفتح منزلا ومسكنا فهو غير النادي إذ هو متحدث القوم، وقيل هو الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة، والمعنى أي الفريقين أكبر جاها وأكثر أعوانا وأنصارا.

وعن مجاهد في الآية قال: قريش تقوله لها ولأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عباس: مقاما المنازل (وأحسن نديا) قال ابن عباس: نديا المجالس. والندي والنادي مجلس القوم ومتحدثهم ومجتمعهم. ومنه قوله تعالى: (وتأتون في ناديكم المنكر) وقوله: (فليدع ناديه) أي أهل ناديه. وناداه جالسه في النادي ومنه دار الندوة لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم. وقيل هو مشتق من الندى وهو الكرم لأن الكرماء يجتمعون فيه.." (١)

"(فلا تعجل عليهم) بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحق **وتمردهم** عن داعي الله سبحانه حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم.." (٢)

"وانظر رسالته لبني إسرائيل من أين تؤخذ، قال بعضهم: تؤخذ من قوله: (وأنا اخترتك) أي للنبوة والرسالة، وخصه بالذكر لأن قومه تبع له، ثم علل ذلك بقوله.

(إنه طغى) أي عصى **وتمرد** وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحد في كفره إلى ادعاء الإلهية.." (٣)

"(اذهبا إلى فرعون) هذا أمر لهما جميعا بالذهاب وموسى حاضر وهارون غائب بل كان في ذلك الوقت بمصر تغليبا لموسى، لأنه الأصل في أداء الرسالة وكذا الحال في صيغة النهي المذكورة وعلل الأمر بالذهاب بقوله: (إنه طغى) أي جاوز الحد في الكفر **والتمرد**، بادعائه الربوبية، وخص موسى وحده بالأمر

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٩١/٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٩٩/٨

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٢٧/٨

بالذهاب فيما تقدم وجمعهما هنا تشريفا لموسى بإفراده، وقيل الأول أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس، والثاني أمر لهما بالذهاب إلى فرعون.." (١)

"(ومن الناس من يجادل في الله) أي في شأن الله وقدرته وصفاته، والمعنى أنه يخاصم في ذلك فيزعم أنه غير قادر على البعث (بغير علم) يعلمه ولا حجة يدلي بها أو يؤول أو يمثل أو يعطل أو يشبه صفاته بصفات الخلق من دون حجة نيرة أو يكابر في دين الله ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل وتقليد آراء الرجال (ويتبع) فيما يقوله ويتعاطاه ويحتج به ويجادل عنه.

(كل شيطان مريد) أي **متمرد** على الله متجرد للفساد، وهو العاتي، سمي بذلك لخلوه عن كل خير.

وقال الزجاج: المريد والمارد المرتفع الأملس، والمراد إما إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر. قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث؟ وكان كثير الجدال، وكان ينكر أن الله يقدر على إحياء الأموات، وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.." (٢)

"(إلى فرعون وملئه) أي الأشراف منهم كما سبق بيانه غير مرة (فاستكبروا) أي طلبوا الكبر وكلفوه، وتعظموا عن الإيمان فلم ينقادوا للحق (وكانوا قوما عالين) قاهرين للناس أو لبني إسرائيل بالبغي والظلم، مستعلين عليهم متطاولين كبرا وعنادا **وتمردا**.." (٣)

"(ولقد أخذناهم بالعذاب) تأكيد للشرطية مسوق لتقريرها، والعذاب قيل هو الجوع الذي أصابهم في سني القحط، وقيل المرض وقيل القتل يوم بدر، واختاره الزجاج. وقيل الموت، وقيل المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية.

(فما استكانوا) أي ما خضعوا ولا تذللوا (لربهم) بل أقاموا على ما كانوا فيه من **التمرد** على الله والانهماك في معاصيه (وما يتضرعون) أي وما يخشعون لله في الشدائد عند إصابتها لهم ولا يدعونه لرفع ذلك.

أخرج النسائي والطبراني والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز " يعني الوبر بالدم، فأنزل الله (ولقد أخذناهم." (٤)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٣٤/٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢/٩

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢٣/٩

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤٠/٩

"(وإذا بطشتم) بضرب أو قتل (بطشتم جبارين) من غير رأفة، والبطش السطوة والأخذ بالعنف، قال مجاهد وغيره إذا أردتم البطش لئلا يتحد الشرط والجزاء. قال الزجاج إنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم، وأما في الحق فالبطش بالسوط والسيف جائز.

قال الكرخي: اعلم أن اتخاذ الأبنية العالية تدل على حب الدنيا، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، وهذه صفات الإلهية وهي ممتنعة الحصول للعبد انتهى. ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم، والعتو، **والتمرد**، والتجبر، أمرهم بالتقوى فقال:." (١)

"(قيل لها ادخلي الصرح) قال أبو عبيدة: الصرح القصر، وقال الزجاج: الصرح الصحن، يقال هذه صرحة الدار، وقامتها، وقال ابن قتيبة: الصرح بلاط اتخذ لها من قوارير، وجعل تحته ماء وسمك، وأصله من التصريح وهو الكشف، وكذب صراح أي ظاهر مكشوف، ولوم صراح. وحكى أبو عبيدة في الغريب: إن الصرح كل بناء عال مرتفع.

(فلما رأته) أي الصرح بين يديها (حسبته لجة) هي معظم الماء، وقال ابن عباس: البحر (و) لذلك (كشفت عن ساقيها) لتخوض الماء خوفا عليها أن تبتل؛ فإذا هي أحسن النساء ساقا سليمة مما قالت الجن فيها، غير أنها كانت كثيرة الشعر، فلما فعلت ذلك وبلغت إلى هذا الحد.

(قال) لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها (إنه صرح ممرد) أي مسقف بسطح (من قوارير) فمن أراد مجاوزته لا يحتاج إلى تشمير ثيابه. والممرد المحكوك المملس، ومنه الأمرد لملاسة وجهه، **وتمرد** الرجل إذا لم تخرج لحيته.

قال الفراء: ومنه الشجرة المرداء، التي لا ورق لها. والتمريد في البناء." (٢)

"(و) أرسلنا (لوطا إذ قال لقومه) هم أهل سدوم: (أتأتون الفاحشة) أي: الفعلة المتناهية في القبح والشناعة، وهي إتيان المذكور واللواط (وأنتم تبصرون) أي وأنتم تعلمون علما يقينا أنها فاحشة وقبيحة. وذلك أعظم ذنوبكم، على أن تبصرون من بصر القلب وهو العلم أو بمعنى النظر لأنهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة، عتوا **وتمردا**، والجملة حالية مفيدة لتأكيد الإنكار، وتشديد التوبيخ، وقد تقدم تفسير هذه القصة في الأعراف مستوفى.." (٣)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤٠٣/٩

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤٨/١٠

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥٥/١٠

"(حتى إذا جاءوا) إلى موقف الحساب.

(قال) الله لهم توبيخا وتقريعا: (أكذبتم بآياتي) التي أنزلتها على رسلي وأمرتهم بإبلاغها إليكم (و) الحال أنكم (لم تحيطوا بها علما) بل كذبتم بها بادئ بدئ جاهلين لها غير ناظرين فيها، ولا مستدلين على صحتها، أو بطلانها، **تمردا** وعنادا وجرأة على الله وعلى رسله، وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ لأن من كذب بشيء ولم يحط به علما، فقد كذب في تكذيبه ونادى على." [1]

"(وكم أهلكنا من قرية) أي: أهل قرية كانوا في خفض عيش ودعة ورخاء، رد لقولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف الخ بين الله بهذا أن الأمر بالعكس، وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله ولا يغتروا بالأمن الحاصل لهم فكثير من أهل القرى كان حالهم كحال هؤلاء في الأمن والخصب.

ثم (بطرت) أي: طغت **وتمردت** وخسرت وأشرت (معيشتها) أي في زمن حياتها، وقال الكرخي: كفرت نعمة معيشتها، أي أيام حياتها وهي ما." [2]

"(وأما الذين فسقوا) أي خرجوا عن طاعة الله؛ **وتمردوا** عليه وعلى رسله بالكفر والتكذيب، واعلم أن العمل الصالح له مع الإيمان تأثير، فلذلك قال آمنوا وعملوا الصالحات، وأما الكفر فلا التفات إلى الأعمال معه، فلهذا لم يقل وعملوا السيئات، لأن المراد من قوله فسقوا كفروا، ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل؛ لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه (فمأواهم النار) أي منزلهم الذي يصيرون إليه، ويستقرون فيه هو النار.

(كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) أي إذا أرادوا الخروج منها أعيدوا إليها راغمين مكرهين، وقيل إذا دفعهم اللهب إلى أعلاها ردوا إلى مواضعهم، وكلمة (في) للدلالة على أنهم مستقرون فيها، وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض.

(وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) والقائل لهم هذه المقالة هم خزنة جهنم من الملائكة أو القائل لهم هو الله عز وجل وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الإغاظة لهم ما لا يخفى وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر إذ التكذيب يقابل الإيمان.." [3]

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧٤/١٠

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٣٥/١٠

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٩/١١

"(وحفظا) أي حفظناها حفظا، وقيل: زيناها بالكواكب للحفظ، وقيل: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا (من كل شيطان مارد) أي عات **متمرد** خارج عن الطاعة، يرمي بالكواكب والشهب، كقوله: (إنا زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين).." [١]

"قال النسفي وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان فمن أباطيل اليهود انتهى، أقول حديث الخاتم أخرجه النسائي وغيره وقواه السيوطي كما سيأتي فكونه من أباطيل اليهود ليس على ما ينبغي (١) ثم بين سبحانه ما عاقبه به فقال:

(وألقينا على كرسيه جسدا) قال أكثر المفسرين هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان هو شيطان اسمه صخر، وكان **متمردا** عليه غير داخل في طاعته. ألقى الله شبه سليمان عليه، وما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان وذلك عند دخول سليمان الكنيف لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف فجاء صخر في صورة سليمان فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان فقعد على سرير سليمان، وأقام أربعين يوما على ملكه، وسليمان هارب كان ملكه مرتبا على لبسه، فإذا لبسه سخرت له الجن والإنس والرياح وغيرها وإذا نزعه زال عنه الملك.

قيل وكان خاتمه من الجنة نزل به آدم كما نزل بعصا موسى والحجر الأسود وبعود البخور وبأوراق التين وقد نظم الخمسة بعضهم في قوله:

وآدم معه أنزل العود والعصا ... لموسى من الآس النبات المكرم

وأوراق تين واليمين بمكة ... وختم سليمان النبي المعظم

ولكن يفتقر ذلك إلى دليل يدل له من الأخبار المرفوعة الصحيحة.

وقال مجاهد إن شيطانا قال له سليمان كيف تفتنون الناس؟ قال أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد الشيطان على

---

(١) حاول المفسر (١٧٠) أن يصحح حديث خاتم سليمان، وقد قال عنه النسفي إنه من أباطيل اليهود، والمفسر في محاولته احتج بتقوية السيوطي له، فجاء التعليق هكذا: لا يبعد أن يدس اليهود بعض الأباطيل على المسلمين ليفسدوا هذا الدين الذي قوض ملكهم، وأما تقوية السيوطي فلا وزن لها لما عرف عنه من

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٧٠/١١

تصحيح الضعيف. وأما ما نقله عن كعب الأخبار قبل ذلك بسطرين من ظلم سليمان فأرجو أن لا يقيم له القارىء وزنا.." [١]

"(قال) سليمان (رب اغفر لي) ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله وطلب المغفرة دأب الأنبياء والصلحاء، هضما للنفس وإظهارا للذل والخشوع، وطلبا للترقي في المقامات ثم لما قدم التوبة والاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته فقال:

(وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) قال أبو عبيدة معناه لا يكون لأحد من بعدي، وقيل لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته، وليس هذا من سؤال نبي الله سليمان عليه السلام للدنيا وملكها، والشرف بين أهلها بل المراد بسؤاله الملك أن يتمكن به من إنقاذ حكم الله سبحانه والأخذ على يد **المتمردين** من عباده من الجن والإنس ولو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية في عباد الله لكفى.

وجملة (إنك أنت الوهاب) تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، لا بالأخيرة فقط، فإن المغفرة أيضا من أحكام وصف الوهابية قطعا قاله أبو السعود.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن عفريتا من الجن جعل يتفلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي، وإن الله أمكنني منه فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) فرده الله خاسئا " (١) ثم ذكر سبحانه إجابته لدعوته وإعطاءه لمسألته فقال:

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٣٢٩ و٨/ ٤٢٠ ومسلم ١/ ٣٨٤ والسيوطي في الدر ٥/ ٣١٣.." [٢]

"المؤرج: أنكرت، وقال أبو زيد: اشمأز الرجل ذعر من الفزع. والمناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت، وهو في الأصل الازورار، وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله انقبضوا، كما حكاه الله عنهم في قوله:

(وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) قال ابن عباس في الآية: اشمأزت قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لا يؤمنون بالآخرة أبو جهل ابن هشام، والوليد بن عقبة، وصفوان، وأبي بن خلف.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤٣/١٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤٦/١٢

(وإذا ذكر الذين من دونه) اللات والعزى وغيرهما من الأصنام (إذا هم يستبشرون) أي يفرحون بذلك، ويبتهجون به، والعامل في (إذا) في قوله (وإذا ذكر الله) الفعل الذي بعدها وهو اشمأزت، والعامل في إذا في قوله (وإذا ذكر الذين) الخ الفعل العامل في إذا الفجائية، والتقدير فاجأوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه، وذلك لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق الله.

ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما، فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه، والاشمئزاز أن يمتلىء غضبا وغما حتى ينقبض أديم وجهه، ولما لم يقبل **المتمردون** من الكفار ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء إلى الخير، وصمموا على كفرهم أمره الله سبحانه، أن يرد الأمر إلى الله سبحانه، ويلتجىء إليه تعالى بالدعاء لما تحير في أمرهم، وعجز في عنادهم وشدة شكيمتهم، فإنه القادر على الأشياء، العالم بالأحوال كلها فقال:." (١)

"(فدعا) نوح (ربه) على قومه: (أني) أي بأني، وقرىء بكسر الهمزة إما على إضمار القول، أي فقال: إني، وإما إجراء للدعاء مجرى القول، وهو مذهب الكوفيين (مغلوب) من جهة قومي، **لتمردهم** عن الطاعة، وزجرهم لي عن تبليغ الرسالة، وذلك بعد صبره عليهم غاية الصبر حيث مكث ألف سنة إلا خمسين عاما يعالجهم، فلم يفد فيهم شيئا ولما يئس." (٢)

"عن إجابتهم وعلم **تمردهم** وعتوهم، وإصرارهم على ضلالتهم، طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم فقال: (فانتصر) أي: انتقم لي منهم ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال:." (٣)

"(قل) يا محمد للناس (أوحي إلي) ليعرفوا بذلك وأنك مبعوث إلى الجن كالإنس، ولتعلم قريش أن الجن مع **تمردهم** لما سمعوا القرآن وعرفوا إعجازه آمنوا قرأ الجمهور أوحي رباعيا وقرىء وحي ثلاثيا وهما لغتان، والمعنى أخبرت بالوحي من الله.

(أنه استمع نفر من الجن) واختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أم لم يرهم، فظاهر القرآن أنه لم يرهم لأن المعنى قل يا محمد لأمتك أوحي إلي على لسان جبريل أنه استمع نفر من الجن، ومثله قوله (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن).

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح قال " ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن وما رآهم "، وروى

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢٤/١٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٩١/١٣

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٩٢/١٣

ابن مسعود أنه رآهم، ورجحه العلماء والحق صحتهما وإن الأول وقع أولا ثم نزلت السورة، ثم أمر بالخروج إليهم، قال عكرمة والسورة التي كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي (اقرأ باسم ربك الذين خلق) وقد تقدم في سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة في هذا.

والنفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة، قال البغوي كانوا تسعة وقيل سبعة وقد اختلف الناس قديما وحديثا في ثبوت وجود الجن فأنكر." (١)

"علمت لكم من إله غيري) قاله ابن عباس وكان بين الكلمتين أربعون سنة، قاله ابن عمرو (١).

---

(١) قال ابن كثير: (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) أي: انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من **المتمردين** في الدنيا (ويوم القيامة بئس الوفد المرفود) كما قال تعالى: (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) قال: وهذا هو الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: (نكال الآخرة والأولى) أي الدنيا والآخرة.." (٢)

"(الذين طغوا في البلاد) الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون أي طغت كل طائفة منهم في بلادهم **وتمردت** وعتت، والطغيان مجاوزة الحد، ويجوز أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين طغوا أو في محل نصب على الذم.." (٣)

"تفسير قوله تعالى: (ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير)

قال الله تعالى: ﴿ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير﴾ [النور:٤٢].

كل هؤلاء عبيد من خلق الله، وهم ملك من أملاك الله، فالسماوات ومن فيها وما فيها، والسبع الأرضون من فيها وما فيها، ما في الكل وما بينهما من ملك وإنس وجن، وما سوى ذلك من أنواع المخلوقات كلهم يأتي الله يوم القيامة عبدا، وهم في الدنيا كذلك عبيد ومماليك لله، فلا أمر لأحد منهم ولا نهي مع الله، فالكل عبد لله سواء كان مطيعا مؤمنا، أو عاصيا **متمردا** كافرا، فمنذ وقف صلى الله عليه وسلم في هذه الأرض المقدسة وقال: (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) كانت هذه الأمم منذ دعا لذلك أمما محمدية، فمن أطاع فهو من أمة الاستجابة، ومن **تمرد** كان من أمة الدعوة.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٤٩/١٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦٤/١٥

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٢٥/١٥

﴿وإلى الله المصير﴾ [النور:٤٢] فمصيرنا بعد ذلك إلى الله، حيث نموت ثم نحيا ونبعث ونحاسب على ما قدمناه في حياتنا، فمن كان مؤمنا فقد فاز وأفلح، وسيعيش العيشة الأبدية في نعيم من الله ورضوان، ومن حشر وعرض كافرا فله الخزي والغضب والخلود في النار، ولذلك فكلمة المصير هنا فيها نذارة وتهديد ووعيد، والمعنى: يا هؤلاء الذين **تمردوا** على الله وعصوه وعصوا رسله! مصيركم مهما طالت حياتكم، وامتدت أزمانكم إلى البعث والنشور، فسيبعثون ليحاسبوا على ما قدمت أيديهم: إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم قال تعالى في بيان قدرته على كل شيء ليفكر المفكر، ويتدبر المتدبر، ويزداد المؤمن بذلك إيمانا، وتعود إلى الكافر يوما بصيرته، ويعود إليه فهمه، فيؤمن ويقول: رب اغفر لي يوم الدين.." (١)

"نزول الأمن بعد الخوف

ثم قال تعالى: ﴿وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ [النور:٥٥] فكانوا يقولون: يا رسول الله! إلى متى ونحن خائفون؟ إلى متى ونحن مسلحون؟ لا نكاد نلقي السلاح لا ليلا ولا نهارا، لا سفرا ولا حضرا، إلى متى ونحن غير آمنين على الحياة والأعراض والأموال ولا على دوام ديننا، وإذا بالله الكريم يتولى الجواب عن نبينا عليه الصلاة والسلام، وينزل هذه الآية الكريمة في هذه السورة الشريفة سورة النور، فيعدهم بنصرهم واستخلافهم في الأرض، حكاما ودولا، وأنه سيمكن لهم دينهم الذي رضيه لهم، ويبق الدين الحق وحده، وكل الأديان السابقة تحت الجزية، وتحت حكم وتصرف الإسلام وأهله، ووعدهم كذلك أنه سيبدلهم بعد خوفهم أمنا، ويعيشون آمنين في أوطانهم لا يخافون إلا الله، فلا سرقة ولا اغتيال، ولا من يحاول أن يسيطر على بلادهم ويتمكن منها.

أسلم عدي بن حاتم سيد قبائل طيء فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: (يوشك يا عدي! أن ترى المرأة تخرج من الحيرة إلى مكة حاجة بيت الله الحرام، فلا تخاف إلا الذئب) والحيرة بلدة في العراق، (ويوشكن يا عدي! إن مد الله في حياتك أن تفتح كنوز كسرى، فقال له عدي: كسرى بن هرمزان؟! قال: نعم كسرى بن هرمزان، وليوشك أن تخرج بملء يدك ذهبا لتتصدق به على الفقراء والمساكين فلا تجد من يقبله منك).

قال عدي: وقد رأيت بعيني المسلمات يخرجن ليس معهن إلا الله، من الحيرة إلى مكة وفي جميع ديار الإسلام التي فتحت على المسلمين، لا تخاف أحدا من الناس، فتأتي إلى الحج وإلى العمرة، وتتجول في هذه الصحاري الواسعة، وتعود لبيتها ولأهلها فلا يمسها سوء ولا ينالها رعب، وقد شاركت في الاستيلاء

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٤/١٠٨

على فارس وأخذ كنوز كسرى بن هرمز، وحكمت فيها مع المسلمين، وإن مدت بي حياة فسيكون الثالث مما أخبرني به النبي صلى الله عليه وسلم، أي: أن يخرج أحدنا بالذهب في يده يمده للفقراء والمساكين فلا يجد فقيرا ولا محتاجا، فقد استغنى المسلمون جميعا فلم يبق فيهم فقير ولا مسكين.
وهكذا كان في الصدر الأول، كان هذا في أيام عمر بن عبد العزيز، وغيره، في أيام عز الإسلام في مختلف الأقطار والأصقاع، في المشارق والمغارب، ولم يغير ذلك، ولم يعد الخوف بعد الأمن، والفقر بعد الغنى، والذل بعد العز، إلا بعد أن غير الناس ما في نفوسهم، فعصوا وخالفوا، فقتلوا عثمان وعليا، **وتمردوا** على خلافة الحق فأغرقت الدماء أنهارا، وإذا بالله الكريم يعاقبهم ويخيفهم ويفقرهم، ويستولي أعداؤهم على أرضهم، فكان ما كان من تلك الحروب الطاحنة، والصليبين والتتر والاستعمار الأخير، ومن البلاء الذي لا نزال نراه إلى اليوم، حتى إن ألعن الخلق وأشدهم غضبا -إخوان القردة والخنازير اليهود- تسلطهم على المسلمين لا يخفى، فيستبيحون دماءهم، وينتهكون أعراضهم، ويأكلون أموالهم، ويستحلون أرضهم، وهم مع ذلك لم ينتبهوا لما ابتلوا بسببه وعوقبوا؛ لمخالفتهم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
لذا قال الله جل وعلا: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ [النور:٥٥] فلا يكفي أن يزعم الزاعم منا أنه مسلم، وقد وعد الله المسلمين بالنصر، ولكنهم لا يعملون بالإسلام، فإذا دعوا لحكم الله أبوا وصدوا، وقد قال الله عن أمثال هؤلاء: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ [البقرة:٨] فلم يبق من الإسلام إلا رسمه عند كثير من الناس إلا من رحم ربك، فعاقب الله عباده عندما تركوا دينه، ونشروا الفواحش والمعاصي على كل أشكالها، وغيروا الإمامة المحمدية، وقيادة الخلفاء الراشدين، إلى إمامة اليهود والنصارى، وتركوا كتاب الله وراءهم ظهريا، ولن يرفع الله ذلك حتى يعود المؤمنون لدينهم، لكتاب ربهم وسنة نبيهم.
وهكذا علمنا التاريخ والواقع، فعندما حدثت الفتن بين الصحابة لم يرفع الله عنهم البلاء والدم والفقر إلا بعد أن تابوا إلى الله وأنابوا، ثم بعد ذلك غير الناس وبدلوا؛ فسلط عليهم الصليبيون، فتابوا وأنابوا فرفع الله ذلك عنهم، ثم بعد ذلك مد لهم الملك والسلطان، وأعطاهم ما عودهم من خير وعز وغنى، ولكنهم بعد ذلك كما قال الله: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾ [مريم:٥٩]، وما أنذر الله به قد حدث مرات تلو مرات في التاريخ، فسلط على المسلمين بعد الصليبين التتر، فاستباحوا ديار المسلمين، وشربوا مياه أنهارهم، واسقطوا الدور عليهم، وقتلوهم إلى أن جرت أنهر وبحار دما عبيطا من دماء المسلمين، ثم تابوا وأنابوا وتضرعوا إلى الله أن يرفع ما بهم من ذلة وهوان، فنصرهم وعاد بأفضاله عليهم، ففتحوا القسطنطينية، وأصبحت تسمى دار الإسلام، تسمى: إسلام بول، أي: مدينة

الإسلام، وهكذا انتصر الإسلام إلى أراض أخرى لم تكن دخلت في الإسلام ولا في عصر الصحابة، ولا في عصر التابعين، وهكذا انتشر الدين وامتد.." [1]

"تفسير قوله تعالى: (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا)

قال تعالى: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ [الفرقان:٣٠].

يتأسف عليهم صلى الله عليه وسلم الذي كان في الحياة الدنيا حريصا على إيمانهم، وعزيزا عليه ألا يؤمنوا، وشديدا عليه أن يكفروا، فهو مع كل هذا والدنيا قد انتهت وأصبح الناس واقفين بين يدي الله للحساب وللقضاء يقول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ [الفرقان:٣٠] أي: أمتي.

وهي من أرسل إليهم، وهم الجن والإنس، والأبيض والأحمر والأصفر، وكل عجمي وعربي، ومن في المشارق والمغارب والشمال والجنوب، وسكان المعمورة منذ برز صلى الله عليه وسلم وهو يقول: إني بشير ونذير، وإنما أرسلت رحمة، وكنت رحمة مهداة، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء:١٠٧].

ومنذ ذلك الوقت وإلى يوم البعث والنشور فكل هؤلاء قومه وأمته، فمن استجاب فهو من أمة الإجابة، ومن تمرد فهو من أمة الكفر والعصيان والتخلف.

قال تعالى: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ [الفرقان:٣٠]، فهم هجروه فلم يحكموا به، فهجروا أحكامه وحكموا بأحكام اليهود والنصارى، وهجروه فلم يدرسوه، ولا يدرس اليوم في جامعات الدنيا إلا الكلام والحرف والصنائع وما إلى ذلك، وأما كتاب الله وما فيه من علوم علوية وسفلية، من معارف فيها خبر من قبلنا ونبأ من بعدنا وحاضر ما بيننا كل هذا قد ترك، وحتى إن درس في كليات فقد أبعدوه عن الحياة العامة، وعندما أبعدوا الإسلام أبعدوا كذلك علماءه وحفاظه، وأبعدوا علماء القرآن والسنة، وعلماء الإسلام وهجروهم بهجرانهم لله ولكتاب الله ولسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن فعل هذا فسيكون جزاؤه ما قص الله علينا من هؤلاء، يوم يعض الظالم على يديه وهو يبكي ويصيح ويقول: ﴿يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾ [الفرقان:٢٧]، وينادي بالويل والثبور ويقول: ﴿يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾ [الفرقان:٢٨ - ٢٩].

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٥/١١٢

وسيقول هذا يوم لا ينفعه هذا القول ولا هذا الاعتراف، وهو يسمع الآن ماذا يقول في كتابه، ويسمع النبي ما يقول في سنته صلى الله عليه وسلم، وإذا به يصعر الخد ويعرض عن ذلك ويصد ويقول: قراءته انتهت، ودراسته رجعية.
وهكذا ليزداد اليهود طغيانا على المسلمين، ودوسا بأقدامهم على كراماتهم.
وما يجري اليوم هو عقوبة إلهية للمسلمين لما طالبوا بـ ماركس أن يكون لهم إماما ونبيا، وهو يهودي قذر، ابن حاخام أقذر وألعن، وأصبحت تسمع بعض المسلمين يقولون: أنا مسلم ماركسي، أنا اشتراكي إسلامي، وهكذا يعلن خزيته ولعنته على لسانه قبل لسان غيره، فمتى كان اليهودي مسلما؟! ومتى كان المسلم يهوديا؟! ويقول آخرون بعد ذلك: لم سلط الله علينا اليهود؟ ولم سلط علينا الشيوعية؟ سلطهم علينا لموقفنا هذا الذليل، ولبعدنا عن الله وكفرنا وإشراكنا به وإعراضنا عن كتابه.
وهكذا يتحسر نبينا عليه الصلاة والسلام على أمته مؤمنها وكافرها يوم القيامة، ويجأر ويضرع بصوته ويقول: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ [الفرقان:٣٠]، فقد هجروه حكما ودراسة وتعليما وتلاوة وتبيانا، وهجروه في كل شيء يتعلق به قولا وعملا، فكان ما نرى.
وقد ذل المسلمون بهجرانهم لكتاب الله الذي أعزهم ورفع شأنهم وجعلهم سادة الأرض لمدة ألف عام، وصبر الله عليهم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا أحد أصبر على الأذى من الله)، فقد كفروا به ورزقهم، وقالوا عنه وأعطاهم العينين والشفتين والصحة والشباب والقوة والمال، وهم لا يزدادون بذلك إلا كفرا، كما يقول الملائكة وعيسى والعزير والصالحون لربهم يوم القيامة عندما يسألهم عن ضلال من ضل وأشرك بهم فيقولون: ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر﴾ [الفرقان:١٨]، فقد متع الله هؤلاء بالحياة وبالأرزاق وبطول الأعمار حتى نسوا ذكر ربهم ودينه.
وهكذا أمهلهم الله ورزقهم وما زادهم ذلك إلا عتوا وفسادا في الأرض، ولكن الله جل جلاله يمهل ولا يهمل، فإذا أخذ الظالم أخذه أخذ عزيز مقتدر ولن يفلته.." [١]

"تفسير قوله تعالى: (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها)

قال تعالى: ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾ [النمل:٩٣].
معناه: ابتدئ أعمالك بالحمد وأنهها بالحمد، فقد ابتدأ الله كتابه بـ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة:٢]، وختم دخول الجنان بالحمد لله رب العالمين.

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٤/١٢١

وهنا يقول الله لنبيه: قد بلغت رسالة ربك، وقد تلوت كتابه، وقد أنذرت من ينذر وبشرت من يبشر، فقل بعد ذلك: (الحمد لله رب العالمين)، فالحمد لله على ما ألهم نبينا من طاعة لربه ومن نذارة ومن بشارة ومن تبليغ لكتاب ربه، وقام بذلك خير قيام صلى الله عليه وسلم، ولذلك خطب قبل موته بأشهر في حجة الوداع في الأرض المقدسة عند جبل الرحمة خطبة الوداع، وكان يودع الخلق ويودع البشر، وقد قال تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر:٣٠]، فكان يقول: (هل بلغت؟ هل بلغت؟) فيقولون: نعم يا رسول الله. فيرفع أصبعه السبابة إلى السماء ويقول: (اللهم اشهد).

وهنا يقول الله له وقد بلغ: ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ [النمل:٩٣].

أي: يا أيها الذين كذبتم نبيكم وكفرتم بربكم! غدا ستردون فتعلمون، وفي الدنيا سترون الآيات.

قال هذا ربنا فبلغه إيانا نبينا قبل ألف وأربعمائة عام، وقد رأينا هذه الآيات، رآها الآباء ورآها الأجداد وأدركناها نحن، وسيراها من يأتي بعدنا إلى يوم القيامة، ومنها كل ما أخبر به صلى الله عليه وسلم مما سيكون بعده من فتن وفجور ومعصية، وعز وشرف ونشر للإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فستخاض بحار في سبيل الله.

فالعرب الذين كانوا يأكل قويهم ضعيفهم، ويصنعون الصنم من الحلوى ثم يجوعون فيأكلونه، جاءهم الإسلام فأصبحوا سادة الأرض وأئمة الأرض ومعلمي الأرض وأئمة الكون، نشروا الهدى والتوحيد، وأبطلوا الكفر وقضوا على الأوثان من الصين إلى أوروبا.

فعندما كانوا مطيعين لربهم قائمين بكتابهم يحكمون في الخلق بأحكام الله حلالها وحرامها، عندما كانوا كذلك سادوا الأرض كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وكذلك أخبر بأنهم عندما يعصون ويخالفون **ويتمردون** على ربهم سينتكسون ويذلون ويحكمون من قبل أحقر الخلق وألعن البشر، وما يجري اليوم بيننا وبين اليهود والنصارى والمنافقين ما هو إلا عقوبة إلهية نتيجة **تمردنا** ونتيجة بعدنا عن الله وكتاب الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم، ولن يعود الله بنا إلى ما كنا فيه من خير ومن عز وشرف ونصر إلا إذا عدنا إلى ربنا مرة أخرى فحكمنا كتاب ربنا وسنة نبينا.." [١]

"تفسير قوله تعالى: (وعادا وثمود وقد تبين لكم)

قال تعالى: ﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ [العنكبوت:٣٨].

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ١٢/١٤٢

أي: وعاد وثمود أرسل إليهم رسلا مبلغين، مبشرين ومنذرين، كما أرسل نوحا وإبراهيم وشعيبا ولوطا إلى أقوامهم، أرسل إلى قبائل عاد هودا، وإلى قبائل ثمود صالحا، وكانت قبائل عاد في الأحقاف قريبا من حضرموت في أرض اليمن، وكان قوم صالح بالحجر في المدائن، في أرض الحجاز، في الحدود بين الحجاز والشام.

وإذا بهم كذبوا وكفروا وقاموا على أنبيائهم بالصد والمعارضة والمقاومة، فقال الله عنهم: ﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم﴾ [العنكبوت:٣٨].

أي: وعادا وثمود قد تبين لكم أيها السامعون كيف كانت عاقبتهم، قد تبين للناس في عصر النبوة عندما ذهب صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك ومروا على الحجر، فأخذوا ماءها فطبخوا وعجنوا به، وإذا بالنبي عليه الصلاة والسلام يأمرهم برمي ذلك العجين وعدم أكل الخبز، وبطرح ذلك الطعام وعدم أكله، وأن يخرجوا من هذه الديار التي غضب الله على أهلها، وألا يدخلوها إلا باكين أو متباكين، حتى لا يصيبهم ما أصابهم من لعنة وطرد من الرحمة، إذ كانوا كفرة بالله، **متمردين** على الله، وقد رزقهم عقولا مستبصرة، وأجساما قوية، فبنوا حضارات سبقوا بها الناس، فكانوا ينحتون من الجبال بيوتا، وكانوا عمالقة الأجسام أقوياء، وكانوا من أتقن الناس للصناعات وللبناء وللمزارع، وكانوا على غاية ما يكون من الشدة والبأس، ولكنهم لم يشكروا النعمة، ومن يكفر بالنعمة تزال عنه وتسلب منه، قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم:٧].

والله تعالى لفت أنظار الناس أن يروا آثار اللعنة والغضب عليهم، وما أصابهم من صيحات ورجفات بحيث أصبحوا كأنهم جذوع نخل خاوية، وقد ذهب بهم الهلاك كل مذهب، فلم يبق منهم أحد، فبعضهم كان في البيوت والغرف، وبعضهم في الأزقة، وبعضهم بين الشجر، وعندما جاء هذا العذاب والبلاء ذهبوا وهلك كل واحد منهم على ما كان عليه في نفس الوقت والحال، وتركوا آثارهم، تركوا الخراب في دورهم، وتركوا المياه متغيرة بالسواد، وتركوا شجرهم وقد احترق وذهب، وذلك في الأحقاف في أرض اليمن قرب حضرموت، وذاك بالحجر من أرض الحجاز قرب تبوك، في الحدود بين الحجاز والأردن من أرض الشام.

فالله يقول: يا هؤلاء الذين كفروا بمحمد ورسالة محمد تفكروا قليلا، وانظروا ماذا حل بالأمم السابقة من قوم نوح وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم هود، وقوم صالح، وكانت نتائج كفرهم وعنادهم، أن عاقبهم الله وأهلكهم وأنهى ذكرهم ووجودهم، وكأنهم لم يعيشوا يوما.

وقوله تعالى: ﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم﴾ [العنكبوت:٣٨]، أي: تبين لكم آثار دورهم بعد

خرابها ودمارها، وآثار ما بقي بعدهم، وما صنع الله بهم من لعنة وغضب.
وقوله تعالى: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ [العنكبوت:٣٨] أي: فقد زين لهم الشيطان أعمالهم، فأخذوا يعتبرونها أعمالا حسنة وصالحة ومجيدة ينبغي أن يجازوا عليها، وهذا من سخافة العقول، وظلمة الكفر، وضلال الدين، وهكذا صنع بهم، قلبوا الحقائق واعتبروا الهدى فسادا، والظلمة نورا، إلى أن تربصت بهم الأيام والشيطان يغريهم، ويزين لهم أعمالهم، إلى أن هلكوا وكأنهم لم يعيشوا يوما.
وقوله تعالى: ﴿فصدهم عن السبيل﴾ [العنكبوت:٣٨].
أي: دفعهم، وأبعدهم عن الطريق الحق، وعن السبيل المستقيم، وعن طريق الهدى والتوحيد والإيمان بالله ورسالاته وكتبه.
وقوله تعالى: ﴿وكانوا مستبصرين﴾ [العنكبوت:٣٨].
أي: كانوا قبل ذلك ذوي عقول مفكرة، ولكن ذلك في شئون الدنيا لا الآخرة، فكانوا يتمتعون بالقوة أبدانا، وعقولا، وحربا وقتالا، بنوا الأبنية والقصور فوق الجبال وداخل الجبال، فنحتوا من الجبال صخورا فبنوها قصورا، ونحتوا داخل الجبال بيوتا، فأقاموا فيها، فهم في فصل الصيف يشعرون بالبرد، وهم في البرد في حرارة، وكأنها المكيفات في عصرنا هذا، ومع ذلك علموا من الدنيا ظواهرها وهم عن الآخرة غافلون، وبها كافرون، لم يفكروا يوما من أين جئنا؟ وإلى أين نذهب؟ ومن الذي أتى بنا؟ لم يفكروا في الخالق، هل سيعيشون سبهللا؟ هل خرجوا للدنيا عبثا؟ فكانوا غافلين وضالين، إلى أن انتهت حياتهم ووجودهم، وإذا بهم قد أصبحوا عبرة ومثلا للمعتبر.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا)
قال تعالى: ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم:٧] الكلام هنا على أكثر الناس وهم الكفار، على الروم المتحدث عنهم في أول السورة المسماة باسمهم، قال تعالى عنهم: ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم:٧].
وهذه الآية من أكبر معجزات القرآن في عصرنا لمن عاش عصرنا، ولمن رأى رؤيتنا، ولمن رأى هذه المخترعات الطويلة العريضة في مختلف أقطار الأرض عند الروم، فغرتهم، وذهبت بفهمهم وإدراكهم، فأضاعت دينهم أو كادت، وزلزلت عقيدتهم أو كادت، والكثيرون خرجوا من دين الله أفواجا كما دخلوا فيه في عصر النبوة أفواجا؛ اغترارا وضلالا بذلك، وذهابا بعقولهم إليهم وهم لا يعلمون.

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٧/١٦٥

قوله تعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [الروم:٦] يعدل: ولكن الكافرين لا يعلمون، فعاد بالضمير لأكثر الناس فقال: ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ [الروم:٧].

وكيف نسب لهم العلم ثانيا وقد نفاه عنهم أولا فقال: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ [الروم:٦ - ٧].

هنا نكتة وحكمة انتبه لها الزمخشري ونقلها عنه المفسرون بعده قاطبة، فقال: كيف نسب لهم العلم أخيرا ونفاه عنهم أولا؟ قال: هو علم أقرب للجهل، قال تعالى: ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ [الروم:٧].

و (ظاهرا) نكرة مطلقة، أي: شيئا حقيرا وشيئا قليلا من هذه الدنيا، ولا يعلمون باطنها، ولا يحرصون على معرفة باطنها، فحتى الحياة الدنيا جهلوها فضلا عما يجب أن يعلموه، ويدينوا به، ويقوموا على أساسه، وبه كانوا بشرا ذوي عقول، وذوي رسالات، وذوي كتب سماوية.

﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ [الروم:٧] أي: يعلمون الظواهر من الدنيا، فيعلمون كيف يزرعون، وكيف يحرثون، وكيف يتجرون، وكيف يصنعون الباخرة، وكيف يصنعون الطائرة، وكيف يصنعون سلما، وكيف يتفننون في الأبنية فما هو مكون من طابق واثنين إلى سبعين وثمانين طابقا، ولا يعلمون أكثر من ذلك.

فهم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، ولكنهم يجهلون باطنها، فلم يكلفوا أنفسهم أن يسألوا أنفسهم: من أنا؟ وكيف خرجت لهذا العالم؟ ولماذا جئت؟ وإلى أين المعاد؟ وما الحياة وما الممات؟ ومن الذي خلق هذه السموات؟ وسينبه الله عن هذا في الآية الثانية، وسنشرحه هناك.

فالدنيا نفسها لا يعلمون إلا جزءا من ظاهرها وليس جميع الظواهر، فلا يعلمون بواطن الدنيا، ولا يعلمون كيف صعدوا بالطائرات إلى الأجواء، ولا كيف مخروا البحار بالبواخر؟ وكيف قامت هذه الأبنية ذات السبعين والثمانين والمائة طبقة في أجواء الفضاء؟ وكيف عاشوا هم في هذه الدنيا؟ وهل الطعام والشراب يعطي روحا؟ وما هو العقل؟ وما هي هذه الجوهرة التي بها يكون التدبير، ويكون الوعي، ويكون التذكير، ومن إذا فقدها لا يستطيع شراءها ولو بملء الأرض ذهبا؟ فتلك عطية الله إذا أخذها لا يستطيع أحد أن يأتي بها أو بمثلها، كل ذلك عن الروح، وقل ذلك عن العقل، وقل ذلك عن النفس، وقل ذلك عن البصر، وقل ذلك عن الكلام.

والأطباء كل ما يفعلونه أنهم إذا وجدوا في العين عروقا تالفة فإنهم يربطونها كما يربط الكهربائي الأسلاك إذا انقطعت وذهب الضوء، وأما إذا ذهبت الأسلاك وليست عنده أسلاك فلا سبيل إلى أن يأتي بالنور، وطبيب العيون إذا ذهبت العروق التي خلقها الله فلا يستطيع أن يأتي بالنور، ولا بالإبصار، وإذا ذهبت

عروق الصوت من الحلق لم يستطع أن يعطيك صوتا، ولن يستطيع أن يعطيك كلاما، وهكذا قل عن كل ظاهر، فلم يعلموا من الدنيا إلا ظاهرها، وأما باطنها فهم أبعد الناس عن علمه، ومعرفة حقيقته وكنهه، فهم جهلاء بكل شيء، وعلمهم لا يتجاوز علم القطة وعلم الكلب وعلم الخنزير، فيهمه أن يأكل وأن ينكح وأن يشرب وأن يفر من عدو، وأن يضرب عدوا، وأما ماذا وراء ذلك فهيهات هيهات.

﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور:٣٥]، فإذا لم يعط الله أحدا من نوره لم تزدد القلوب إلا ظلمة على ظلمة، فالله يهب نوره لمن يشاء، فإذا وهب نوره وهب علمه ووهب هدايته، ولا يكون ذلك إلا بالرسل والكتب المنزلة عليهم.

وأما الخواطر والأفكار والفلسفات وما يخطر على بال الإنسان فغير محفوظ، فهو لا يزيد على أنه كلام أقرب إلى الهذيان أقرب، وفساد دليل الفلسفة وجميع الفلاسفة لا يخفى، فلا تكاد تجد فيلسوفين من القدامى أو المحدثين اتفقوا على حقيقة الحقائق -الذات العلية- على العطاء الدائم، على الحقيقة التي لا أول لها ولا آخر، عن الله الحق خالق كل شيء، ورازق كل شيء، ومعطي الحياة ومعطي الممات.

﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ [الروم:٧].

هذا الذي يعرفونه لا يتجاوز الظاهر، منذ سنين قالوا: نريد الصعود للقمر، لنرى كيف بدأ الخلق في الأرض وما هي الخلية الأولى؟ وما هي المادة الأولى؟ وكيف كان ذلك؟ فملاحدة العصر وكل الملل سوى ملة الإسلام كفرة ملاحدة لا دين لهم، فالكتابيون أصبحوا وثنيين يعبدون اثنين وثلاثة، والذين يعبدون الأحجار هم على حالهم، فليس إلا المؤمن الموحد المسلم، ومع هذا فهؤلاء المسلمون قد ضل الكثيرون منهم عندما دانوا بدينهم، وأخذوا حضارتهم، ودانوا بفلسفاتهم وأخذوا يطبقون ذلك على دينهم، فضلوا وأضلوا وخرجوا عن الإسلام.

﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ [الروم:٧].

فمنذ سنوات قالوا: نريد أن نصل إلى فلك من هذه الأفلاك التي نراها في الأجواء، فوصلوا للقمر فوجدوه كجزء من الأرض لا يختلف عن صحاريها وعن جبالها وعن وهادها، فأنزلوا منه حجارة وترابا ووزعوه على معامل الدنيا فحلل ذلك فوجدوه من نفس مادة حجارة الأرض وترابها، وقد بذلوا في هذا الملايين من المال، وأجاعوا الكثير من الخلق، ونشروا الفتنة بين الكثير من الخلق، وكل ذلك قد علمه المسلمون منذ ألف وأربعمائة عام، ونطق به الوحي الذي لا يأتي بباطل، قال تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما﴾ [الأنبياء:٣٠].

يخاطب الكفار -وكأن الآية أنزلت الآن- أن السموات والأرض كانتا رتقا، أي: متصلة وجزءا واحدا وقطعة واحدة، ثم شاء الله في عصر من العصور وزمن من الأزمان فتق بعض هذه عن هذه، فتق هذه الأفلاك التي نراها فوق فتقها من الأرض التي هي جزء منها، فهي حجارة وتراب وجبال ووهاد، وجدوا الهواء هو الهواء على أنهم لم يجدوا هواء، والشيء الموجود لا يكاد يذكر، وقالوا: لا حياة فيه، ولا يزالون يبحثون في أفلاك أخر هل يجدونه، ولا تظنوا أنهم وصلوا إلى السماء فهيهات ذلك، فالمصباح المعلق في السقف ليس هو السقف، وقد قال الله عن هذه الأفلاك: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ [الملك:٥].

فهي زينة السماء الدنيا، وأما السماء التي يسري إليها خاتم الأنبياء نبينا صلى الله عليه وسلم فبيننا وبينها خمسمائة عام، وهي مغلقة، وهي طبق على طبق، وهيهات أن يستطيع أحد أن يصل إليها، فالشياطين يحاولون أن يقتربوا ليسترقوا السمع من الملائكة، فيسمعون كلمة واحدة يعطونها للسحرة وللكهنة، ويزيدون في الكذبات عليها تسعة وتسعين كذبة، فتضيع هذه الكلمة إن صحت بين تلك الكذبات، ولكن لا يكادون يقتربون من ذلك المكان إلا وتأتيهم شهب حارقة تحرقهم جميعا وكأنهم لم يكونوا ولم يولدوا ولم يخلقوا.

﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم:٧].

أكد الله ذلك بـ (هم) مرتين، وبالجملة الاسمية مرتين، فهم غافلون عن الآخرة ولا يعلمون شيئا عن الآخرة، ولا يكلفون أنفسهم بمعرفة شيء عن الآخرة، وهذا شأن الكافرين الضالين والعصاة **المتمردين**، والآخرة لا تعرف إلا عن طريق الوحي وعن طريق كتب السماء، وعن طريق الرسالات، فكان الله يرسل في كل أمة رسولا فضلا منه وكرما، ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر:٢٤].

ولكن الله لم يذكر في الكتاب المنزل إلا أربعة وعشرين أو خمسة وعشرين من الأنبياء، وقد قال وهو يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ [غافر:٧٨].

فمنهم من قصه وذكره في الكتب كآدم وإدريس ونوح ومن بعدهم.

﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ [غافر:٧٨] فلم نذكره ولا بكلمة عنه، وقد أشير إلى البعض.

وقد أخبرنا نبينا عليه الصلاة والسلام بأن الرسل والأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر نبيا ورسولا، ولم يذكر الله ويتكلم إلا عن خمسة وعشرين حيث أخذ العبرة والحكمة بما يهدي المؤمنين، ويهدي الناس أجمعين،

ومن حجرت عنه الهداية، فستكون حجة الله عليه بالغة، فقد أرسلت إليه الرسالات، وجاءه الأنبياء، وأعلن له من الحق ما أعلن.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى)

قال تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ [الروم:١٠].

(عاقبة) بالضم على أنها اسم كان، وقرئت: (عاقبة) بالفتح على أنها خبر كان مقدم، والسوأى: هو المبتدأ.

فقوله: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى﴾ [الروم:١٠] أي: الذين أساءوا وكفروا، وما ظهر منهم إلا السوء والإجرام والكبر والكفر والعصيان، والسوأى تأنيث الأسوأ، كالحسنى تأنيث الأحسن، أي: أتوا جرما أعظم ما يكون سوءا وهو الكفر بالله وبرسل الله، فكان عاقبة هؤلاء الكافرين أن أصيبوا بذلك البلاء وتلك العقوبة؛ نتيجة كفرهم وجحودهم وعصيانهم، وكان ذلك عاقبة أمرهم ونهاية حياتهم، والقضاء المبرم على وجودهم.

وليست (السوأى) مفعولا لأساءوا.

وقوله: ﴿وكانوا بها يستهزئون﴾ [الروم:١٠]، أي: كانوا يستهزئون بأنبياء الله، ويستهزئون بالكتب المنزلة من السماء عصيانا وتمردا.

وهذا تهديد ووعيد للكفار الذين لم يؤمنوا برسول الله عندما جاءهم، سواء كانوا من كفار العرب أو غيرهم، فقد هددوا وأنذروا وأوعدوا بعاقبة كعاقبة الذين سبقوهم، وبنهاية كنهاية تلك الأمم التي عوقبت في الدنيا قبل الآخرة غرقا وتدميرا وصعقا وزلازل وقلبا للأرض عاليها سافلها، مما لا تزال الآثار في الأرض بعضها ظاهر وبعضها يظهر بالحفريات والكشف عن الأثريات.." (٢)

"تفسير قوله تعالى: (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين)

قال الله تعالى: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا﴾ [الأحزاب:٣٠].

بعد أن اخترن الله ورسوله نزلت الآيات في نسق واحد، فقد توعدهن الله وأنذرهن أن يؤذين رسول الله من غيرة بعضهن من بعض، حتى لقد كانت عائشة تهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم كله، وكلهن يهجرن رسول الله اليوم واليومين والثلاثة؛ لشدة غيرتهن، بل لقد كانت عائشة تهجر الحديث معه، فقال

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٢٧١

(٢) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٣/١٧٣

لها يوما عليه الصلاة والسلام: (يا عائشة إني لأعلم عندما تكونين عني راضية وعندما تكونين عني غضبى، قالت: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا غضبت قلت: لا ورب إبراهيم، وإذا رضيت قلت: لا ورب محمد، فقالت: والله يا رسول الله لا أهجر إلا اسمك).

فهن يردن الدلال عليه، وهذا حق الزوجات على الأزواج، ولكن لا يصل الدلال إلى الإيذاء لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

وكان شيخ أعرابي متزوجا صغيرة ففرت منه وذهبت عند أهلها وامتنعوا أن يردوها عليه، فجاء يشتكي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام بقطعة شعرية بليغة ختم القصيدة والشكوى الشعرية بقوله: وهن شر غالب لمن غلب، وإذا بالنبي عليه الصلاة والسلام يكرر معه هذا الشطر من البيت فيقول: (وهن شر غالب لمن غلب).

فهو صلى الله عليه وسلم قد قاسى من غلبة فيهن، ومن كثرة دلالهن عليه لكن الله غار عليه أكثر من غيرته على نفسه صلى الله عليه وسلم، فأدبهن وأنذرهن، وأمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يراجعهن فيما إذا أصررن على أن يعشن ملكات مترفات أن يطلقهن ويمتعهن، ويذهبن إلى حال سبيلهن، ولكنهن رضي الله عنهن كن جميعا من التقوى والإيمان ومن الحب لله والطاعة لرسول الله في الدرجة القصوى، بحيث لم تستشر إحداهن أبا ولا أما، ومن أول مرة قلن له: أفيك نستشير أبوينا يا رسول الله؟ نحن نختار الله ورسوله والدار الآخرة، وبعد هذا لم يعدن أبدا إلى طلب شيء من رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فالله يتوعدهن بقوله: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة﴾ [الأحزاب:٣٠].

والفاحشة هنا فسرت بالنشوز على رسول الله، وبمخالفته المخالفة الدلالية التي تكون بين الزوج والزوجة، لا المخالفة التي تكون بين المؤمن ورسول الله فهي ردة وكفر، وهي خروج عن طاعة رسول الله، وخاصة عندما يأمر كفاحا ومواجهة فيعتبر ذلك **تمردا**، لكن فسروا الفاحشة هنا بسوء الخلق والنشوز والإيذاء بكثرة المطالب وشدة الغيرة.

وننقل ما قاله القرطبي وغيره: حتى لو كان الإنذار بالفاحشة المعروفة من الفساد والزنا وحاشاهن من ذلك، فالشرط لا يلزم منه الوقوع، وقد قال الله لنبيه: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر:٦٥] ورسول الله معصوم من الذنوب صغارها وكبارها، ولكن إذا قيل هذا للرسول عليه الصلاة والسلام فغيره ممن ليس معصوما من باب أولى.

ولم يكد يموت رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى ارتد الكثير من العرب، وتنبأ أربعة من الكذبة وادعوا

النبوة، وامتنع الكثيرون من أداء الزكاة ممن بقوا على الإسلامه، وقد أنذرهم الله قبل أن يكون ذلك فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ [المائدة:٥٤].

أعني أن الشرك والكفر يكون من غير الأنبياء وقد كان، أما من الأنبياء الذين عصمهم الله فلا، وتكريما للأنبياء ولرسول الله في الدرجة الأولى لم تصدر الفاحشة من إحدى زوجاته، ولن يكون ذلك، وهو يبقى شرط، والشرط لا يلزم منه الوقوع، وأمهات المؤمنين لا يأتين الفاحشة، وبالتالي لا يعاقبن لا ضعفا ولا ضعفين، ولا مرة ولا مرتين، ولكنه وعيد وإنذار ليعلمن أنه لا يوجد عبد من عبيد الله من الأنبياء فمن دونهم فوق حساب الله وعقاب الله، وأن الخروج عن أمر الله جزاؤه العذاب.

والله أراد أن يجعل من أمهات المؤمنين مثالا لباقي المؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ [الأحزاب:٣٠] أي: يضاعف فيما لو فعل مثل ذلك غيرهن مرتين في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ [الأحزاب:٣٠].

أي: أن مضاعفة العذاب لهن -إن صدر منهن ذلك- هين على الله ويسير عليه؛ لأنهن إن فعلن ذلك لم يكن لهن عند الله مقام ولا اعتبار، فيعذبهن ويضاعف لهن العذاب في الدنيا والآخرة، ومن إكرام الله للنبي صلى الله عليه وسلم، ومن إكرامه لهن لم يصدر ذلك عنهن، وبالتالي لم تكن عقوبة لا مرة ولا مضاعفة.

نكون قد ختمنا من كتاب الله واحدا وعشرين جزءا ولله الحمد والشكر والمنة، أي: بقي علينا تسعة أجزاء، وهي أقل من الثلث، وندعو الله ونرجوه ضارعين كما أعاننا على تفسير كتابه إلى حيث وصلنا، أن يعيننا على إتمامه، وأن يقبله فضلا منه وشكرا له جل جلاله.

وقد مضى على هذا تسع سنوات، ومما أشكر الله عليه وأشكر عليه أخانا الشيخ محمد ناظرين؛ لأنه قد سجل جميع ما مضى معنا من تفسير في أشرطة، فأصبح لنا تفسير منطوق به، وكون القرآن سجل متلوا فهذا عرفه كثير، أما أنه سجل التفسير من البداية إلى النهاية لم أسمع بهذا، وتسجيل واحد وعشرين جزءا نعمة أشكر الله عليها.

وقد كنت أكتب التفسير في أيامي الأولى وكتبت بضعة أجزاء، ثم توقفت عن الكتابة عندما شعرت بأن

أخانا الملازم لنا منذ تسع سنوات يسجل ذلك ويتكلف له مالا، ويتكلف له زمنا وعملا، فحمدت الله أولا، ثم شكرته على صنيعه.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (فلما قضينا عليه الموت)

قال تعالى: ﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ [سبأ:١٤].

كان سليمان له خلوات في العبادة، فكان يدخل معبده فيبقى فيه سنة أو أكثر، وقد يبقى شهورا وأسابيع، فينقطع عن الناس وينقطعون عنه، ولا يأذن لأحد بالدخول، وكانت تنبت في مكان سجوده كل يوم شجرة -كما زعموا- فكان يسأل الشجرة: ما اسمك ولم أنت؟ فكانت تقول: هي لدواء كذا، أو في ثمرة كذا، فيأخذها وينقلها إلى البساتين ويكتب اسمها والدواء الذي تصلح له، والداء الذي يصلح له دواؤها إلى أن نبتت في مكان سجوده يوما شجرة فقال لها: ما أنت؟ قالت: الخروب- فقال: لعلها جاءت لتكون سبب خراب بيته، والناس يتشاءمون بالخروب، والتشاؤم ليس بصالح، فالتساؤل مقبول، وأما التشاؤم فلا- فأخذ اسمها وقال رها: ما أنت إلا للخراب، فقطعها وصنع منها عصا هي المنسأة، وصار يعتمد عليها، فلما قدرت وفاته دخل إلى خلوته، وإذا به وهو على كرسيه يموت وهو متكئ على عصا، ((فلما قضينا عليه الموت)) أي: لما سبق قضاء الله عليه بأن يموت كما يموت كل حي، ((ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته))، ما دل الجن على أن سليمان مات إلا الدابة التي أكلت المنسأة التي كان يعتمد عليها، ومعنى ذلك أن الجن الذين سخروا لسليمان كان يظهر كثير منهم عصيانا، فكان يربطهم بالسلاسل والأغلال، زيادة على العقاب الذي كانوا يعاقبون به من الملك المكلف بهم، فكان من زاد **تمرده** ضربه الملك ضربة أحرقته، وكان الكثير منهم في السلاسل والأغلال يعملون؛ ليكفوا شرهم عن إيذاء الإنسان، فلما دخل سليمان خلوته قدرت وفاته، وبقي ميتا سنة وهو جالس على كرسيه والعصا بيده معتمد عليها، وإذا بالجن تطل عليه من الكوة ومن النوافذ فترى العصا في يده وتراه جالسا فلا تظن إلا أنه حي، فلبثت في العذاب المهين وهي في السلاسل والأغلال مع العذاب تصنع له القصور والصور والقصاع، وتصنع له ما قال الله تعالى: ((يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات))، ومما لم يذكره الله جل جلاله، ثم أشرفوا عليه يوما وإذا به يسقط على الأرض، فرأوه قد خر على وجهه فعلموا إذ ذاك أنه قد مات، وهذه العصا لطول متنها مكثت الأرضة تنخرها سنة كاملة، وهذه الأرضة دويدة تعيش من

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٢٠١

نخر الخشب والعيدان، وتموت بسببها أعظم الأشجار وأعظم الأبنية إذا كانت من خشب، فترى تلك الأخشاب والأشجار تنخرها الأرضة ودويدة الشجر والأخشاب فإذا بها مع الأيام تسقط وكأنها لم تقف يوما، فسليمان كان متكئا بجهده على العصا فبقيت العصا حاملة ثقله، فلما دخلتها الأرضة إذا بها تعجز عن حمله فسقط سليمان، قال تعالى: ((فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)) أي: تأكل عصاه الذي يعتمد عليها، فهذه الأرضة هي التي دلت الجن، أي بسببها وبسبب أكلها للعصا لم تبق هذه العصا حاملة لسليمان وثقله، فسقطت العصا وسقط سليمان معها، وأدركوا أنه مات منذ سنة عندما أخذوا العصا ووضعوا عليها الأرضة وانتظروها حتى تأكل مثلما أكلت فوجدوه قد مضى عليه سنة، فعلموا أن المأكول الأول قد مضى عليه سنة، أي: مات سليمان قبل عام وهم لم يدركوا ذلك.

قال تعالى: ((ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر)) خر: سقط عن غير رضا منه، فلم يقعد من نفسه ولم يحاول الجلوس، ويقال على من سقط دون إرادة منه خر، ((فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين)) والجن كانت تستعبد الإنس وكانت توهمهم أنها تطلع على الغيب، وكانت تسترق السمع من كلام الملائكة عندما تحاول الصعود إلى أعلى الأجواء، فيرميها الله بالشهب فتتساقط محترقة، وكان هذا قبل ظهور الرسالة المحمدية وقبل ظهور نبينا عليه الصلاة والسلام، ثم أدرك الجن في أنفسهم بعد أن رأوا سليمان قد مضى على موته عام وهم لم يدركوا ذلك ولم يعلموه أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ويطلعون على ما هو بعيد عنهم لما لبثوا ولما أقاموا في هذا العذاب المهين، من تسخير سليمان لهم، واستعباده لهم وتكليفهم بأشق الأمور وأصعبها، وتبينت كذلك الإنس الذين كانوا يثقون بالجن ويعتقدون بهم ويصدقونهم في أخبارهم وفي كهاناتهم، فتبين الجن في أنفسهم وتبين غيرهم أن الغيب منفرد به الله، لا يعلمه ملك ولا جن ولا إنس، ولا يعلم الغيب إلا الله، ومن أراد الله أن يعلمه ذلك، كما قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧]، وليس الجن منهم.

قال تعالى: ((فلما خر)) أي: فلما سقط سليمان تبين للجن وقد بقوا سنة وسليمان ميت وهم لا يدركون ذلك أنهم لو كانوا يعلمون الغيب في زعمهم لما لبثوا وأقاموا في العذاب المهين، وقد رأوه لمدة عام كامل على صورته لم يتغير بالموت، وهذا يؤكده قول النبي عليه الصلاة والسلام عندما قال له بعض أصحابه جوابا لكلامه: (إن الله كلف ملكا أن يبلغني سلام الناس وصلاتهم علي حيث كانوا في الأرض، فقالوا له: يا رسول الله! كيف وأنت قد أرمت -أي: مت وفنيت- قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد

الأنبياء) وهذا من الأنبياء، والله يخبر جل جلاله أن سليمان مكث ميتا سنة، وما أدركوا ذلك ولا فهموه ولا عقلوه، وما بقي سليمان تلك السنة وهم يظنونه حيا إلا لأن جثته لا تزال على حالها وقت الحياة، وللإمام البيهقي كتاب مشهور اسمه: حياة الأنبياء، فهم يرزقون عند ربهم أحياء الحياة البرزخية، وأجسامهم لا تبلى في الأرض ولا تصبح رمما ولا تنتهي، ومع ذلك قال الله لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر:٣٠] وكان ذلك عندما انتظر أعداؤه من كفار قريش ومن كفار الناس ورجوا موته وقالوا: أيام تنقضي ويموت وكأنه لم يكن، وأخذوا يتربصون به الدوائر، فقال الله له: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر:٣٠] وقال الإمام الشافعي وقد تمنى موته خصومه وأعداؤه فقال لهم: تمنى أناس أن أموت وإن أمت فتلك طريق لست فيها بأوحد أي: تمنى لي أقوام أن أموت، وإذا أنا مت فلست وحدي الذي سأموت، فسيموت معي خصومي وأعدائي، وعند الله تجتمع الخصوم.

((فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته)) أي: كانت دلالة الموت بسبب هذه الدويدة، ((إلا دابة الأرض))، إلا الأرضة، ((تأكل منسأته)) المنسأة: العصا، وزعم أقوام من المفسرين ومن غيرهم: أن كلمة منسأة هي بلغة الحبشة العصا، وهؤلاء أناس يلذ لهم أن يأتوا إلى كلمات من كتاب الله فتارة يحيلونها عن عربيتها، فيقولون: إنها حبشية أو رومية أو غيرها، وكل ذلك لا أصل له، وإنما هو كلام لا دليل عليه، وقد قال الله: ﴿قرآنا عربيا﴾ [يوسف:٢] وكرر ذلك مرات في كتابه، والإمام الشافعي في كتابه العظيم المسمى الرسالة المطبوع مرات سفه القول بأن في القرآن كلمات غير عربية ورد على قائليه، وقال: كثير من اللغات فيها كلمات تتشابه، وتشابه هذه الكلمات ليس هناك دليل يدل على أصلها منهم، وإن صح أن في الحبشية كلمة منسأة تعني العصا فلم لا نعكس ونقول: إن الحبشة أخذوها عن العرب؟ وإذا وجدنا كلمة عند الروم أو غيرهم فلم لا نقول: هم أخذوها عن العرب؟ وما جاء الإسلام إلا بعد أن كانت لغة العرب قد نضجت ووسعت القرآن جميعا بما فيه من معان علوية ودينية ودنيوية، ووسعت قبائل العرب جميعا، وهي أوسع لغات الأرض على الإطلاق، فلسان العرب مطبوع في عشرين مجلدا ضخما، وهناك كتاب لا يزال مخطوطا في الأندلس اسمه الذر والعالم في مائة مجلد، لا يزال محفوظا بكل أجزائه، وهو في لغة العرب من الذرة إلى العالم، كما يدل اسم الكتاب على أن هذه الكلمة وما لها من اشتقاقات تكذب هؤلاء الذين زعموا ذلك، فالمنسأة: هي من نسأ، أي: أجل وأخر، يقال: أنسأ الله في أجلك، أي: أطال الله عمرك وأجل أجلك إلى سنوات وسنوات، ويقال: النسيء، وهي كذلك في كتاب الله، أي: الشيء المؤخر والمؤجل، فكلمة النسيء والنسي والمنسأة وأنسأ فيها من الأفعال ومن الأسماء والمصادر ما يؤكد بالقطع على أنها

لفظة عربية، لها اشتقاقاتها في الأفعال والأسماء، والقرآن جميعا ليس فيه كلمة إلا عربية كما أكد الإمام الشافعي، وسفه قول كل من قال بأن فيه كلمات غير عربية.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وما أرسلناك إلا كافة للناس)

قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [سبأ:٢٨].

زعمت طوائف من اليهود في العصر النبوي ويزعم هذا بعض من أضله الله عن علم أو عن جهل بأن النبي لم يرسل إلا إلى العرب، وأن اليهود لهم نبيهم، وأن النصارى لهم نبيهم، فاتخذوا مع الله آلهة شركاء ما أنزل الله بها من سلطان، وهذا البلاء أخذ يقوله اليوم من يتزعم ويتحكم في بعض الشعوب الإسلامية، فقد أضله حتى كفر بالله وارتد عن دين الإسلام، فذهب يزعم في كتاب أذاعه ونشره أن النبي لم يرسل إلا إلى الوثنيين، ولم يرسل إلى اليهود ولا إلى النصارى.

يقول تعالى تأديبا لهؤلاء ممن يعبدون الأوثان قبل وبعد، وممن جعلوا لله شريكا بلا دليل ولا سلطان من الله: ((وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)).

أي: يا محمد لم نرسلك إلا لكل الخلق ولكل الناس، وهذه الآية هي كما قال الله له وأوحى إليه: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ [الأعراف:١٥٨] وقال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ [الفرقان:١]، فهو النبي والرسول للخلق كافة عربهم وعجمهم، أحمرهم وأسودهم، شرقيهم وغربيهم، وهو الذي أرسل لجميع عوالم عصره والعوالم التي بعده إلى يوم القيامة، فلا نبي ولا رسول بعده، هو خاتم الأنبياء وهو خاتم الرسل صلى الله عليه وعلى آله.

وقد قال عليه الصلاة والسلام كما تواتر عنه من جملة خصائصه: (كان الأنبياء قبلي يبعثون إلى أقوامهم خاصة وأرسلت إلى الناس كافة) فكان الأنبياء السابقون أنبياء قوميين لم يرسلوا إلا لأقوامهم، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام نبي البشرية كلها ونبي العوالم كلها من أدركه في عصره ومن سيأتي بعده إلى يوم النفخ في الصور.

وقال عليه الصلاة والسلام: (بعثت إلى الأحمر والأسود) كل هذا من المعلوم في دين الله بالضرورة، فمن أنكر ذلك بل من تشكك فيه خرج عن الإسلام وأصبح مرتدا.

ولذلك الخلق كلهم من يوم ظهر النبي صلى الله عليه وسلم في الديار المقدسة ودعا الناس إلى الإيمان برسالته؛ أصبح كل الخلق منذ تلك اللحظة وإلى يوم القيامة يعتبرون شعوبا وأمما وعوالم محمدية، ولكن

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٣/٢١٨

من أجاب واستجاب للرسالة المحمدية كان أمة إجابة، ومن تمرد وأعرض كان أمة متمردة معرضة.

بعد ظهور النبي عليه الصلاة والسلام لم تبق رسالة موسى ولا رسالة عيسى ولا رسالة أي من الأنبياء، فقد كانوا أنبياء في وقت مخصوص ولأقوام بأعيانهم، فلما رفع عيسى لم يرسل بعده نبي خلال ٦٥٠ عاما إلى أن أرسل الله محمدا العربي الهاشمي المكي المدني الرسول العام الشامل لكل الخلق، ولم تبق نبوة ولا رسالة بعده، وكل من أنكر ذلك وكل من تشكك في ذلك خرج عن الإسلام بخرافات وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان، وكل من قال سوى ذلك يكون قد أنكر القرآن الكريم والسنة النبوية والرسالة المحمدية.

قال تعالى: ((ولكن أكثر الناس لا يعلمون)): أكثر الناس لا يؤمنون بهذه الحقيقة ولا يعلمونها، ولذلك يقول ربنا لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ [الأنعام:١١٦] وقال تعالى: ﴿ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين﴾ [الواقعة:١٣ – ١٤] هي قلة ممن آمن قبل، وفئة قليلة ممن آمن بعد.

وسكان الأرض اليوم أربعة مليار نسمة، المسلمون منهم لا يتجاوزون مليارا، والباقي كلهم بين عبدة عيسى ومريم وعبدة العجل والعزير وعبدة النيران والحيوانات وعبدة ماركس ولينين، وعبدة ما لم ينزل الله به من سلطان من كل من ضل وأضل ولم يقدم لنفسه نفعا ولا ضرا.

((ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) أنك النبي الهادي لكل البشر، وأنك الرسول الخاتم لكل العوالم لا نبي بعدك ولا رسول، وأنزل عليك القرآن الكريم لتنذر به الناس ومن بلغ، أي: ومن سمع ذلك يجب عليه أن يدين بهذا وإلا كان كافرا، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (والله لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي) لو قدر وعاش موسى لما وسعه إلا أن يكون تابعا لمحمد مسلما ومؤمنا بدينه، وعيسى لا يزال حيا وهو في السماء الدنيا وسينزل في آخر الزمان فيحكم بدين محمد وبالكتاب المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك من كتب في تراجم الصحابة ترجم لعيسى على أنه من الصحابة وأنه من أتباع النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأن الصحابي من آمن برسول الله ورآه في حياته ومات على ذلك، وعيسى اجتمع بنبينا في السماء الدنيا ليلة الإسراء ورحب به وخاطبه بالرسالة.

وسينزل الأرض ويكون على دين الإسلام فيأتم بأئمة المسلمين في صلاته، وسيحج حج المسلمين في مكة ومنى وعرفات فهو على ذلك صحابي محمدي كما ترجم له الحافظ العسقلاني في الإصابة وأطلق عليه تعريف الصحابي.." (١)

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٣/٢٢٢

"تفسير قوله تعالى: (إن أنت إلا نذير)

﴿إن أنت إلا نذير﴾ [فاطر:٢٣].

أي: ليست الهداية لك، فأنت لم تكلف بمخاطبة الموتى، ولا ببلاغهم، وإنما كلفت بالبلاغ للأحياء، ﴿إن أنت إلا نذير﴾ [فاطر:٢٣] (إن) هنا نافية، والمعنى: أنت لست إلا منذرا ورسولا جئت مبشرا أقواما اهتدوا فصاروا إلى الجنة، وجئت منذرا أقواما خرجوا عن الطاعات وظلوا في الكفر فأنت تنذرهم بعذاب الله وعقابه وخلودهم في النيران.

قوله: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر:٢٤].

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا أرسلناك يا محمد (بالحق) أي: بالقرآن، فالقرآن حق، وهو وحي الله وكلامه، وبالسنة، فالسنة حق وهي بيان للقرآن وشرح وتفسير له.

وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله: كل هدي للنبي عليه الصلاة والسلام ما كان منها من عمل، وما كان منها من قول، وما كان منها من إقرار فهو بيان وتفسير لكلام الله، إطلاقا أو تقييدا، تخصيصا أو تعميما، أو بيانا للناسخ والمنسوخ والمحكم.

ويفهم من قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ [فاطر:٢٤]، أي: لتدعو الناس للحق، ولترشد الناس إلى الحق، والله هو الحق جل جلاله، وأنزل الكتاب المنزل وهو القرآن الكريم بالحق، وأرسل نبينا عليه الصلاة والسلام بالحق مبينا وشارحا ومفسرا، ﴿بشيرا ونذيرا﴾ [فاطر:٢٤]، مبشرا المؤمن بالجنة، ومنذرا الكافر بالنار، فتبشر المؤمن لأنه آمن واستسلم لله ولرسول الله صلى الله عليه وسلم برضا الله ورحمته وجنانه، وتنذر من كفر بالله، فخرج عن أمر الله بالنار والعذاب والغضب إن هو دام على ذلك، ومات عليه.

﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر:٢٤].

(من أمة) من: حرف جر دخل على نكرة، فدل على العموم أي: ما من أمة خرجت في هذه الدنيا، وما نحن بين الأمم كما قال عليه الصلاة والسلام: (إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود).

أي: ما مضى من الأمم هي في عددها وفي كثرتها كعدد شعر الثور الأسود، وما الأمة المحمدية وأمة الإسلام إلا كالشعرة البيضاء بين هذه الكتل المتكتلة من الشعر الأسود في هذا الثور، ومع ذلك ما من أمة من هذه الأمم إلا أرسل الله لها نذيرا، يبشرها بالجنة إن هي أطاعت، وينذرها بالنار إن هي عصت **وتمردت**، ولذلك كانت حجج الله على الأمم كلها قائمة، فلا يوجد أمة من الأمم إلا وأرسل الله لها بشيرا ونذيرا، يبشرها وينذرها ويعلمها بالخالق الواحد، المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، الذي لا أول له ولا آخر له،

كان ولا شيء معه، وسيبقى كما كان ولا شيء معه، خالق الكل ورازق الكل، ومدبر الكل، له الأمر وله النهي جل جلاله وعلا مقامه، ويجدر التنبيه إلى أن الأنبياء جميعا كانوا رسلا قوميين، أي: أرسلوا إلى أقوامهم، فنحن نقول على أنبياء بني إسرائيل منذ إسحاق إلى عيسى خاتمهم أنبياء بني إسرائيل، أي: أنبياء قوميون لم يرسلوا إلا إلى بني إسرائيل، ولكن محمدا سيد البشر، وخاتم الأنبياء العربي المكي المدني الهاشمي مرسل وحده إلى جميع الخلائق، فلا نبي بعده ولا رسول، فقد أرسل إلى الأبيض والأسود والأحمر، وأرسل إلى العرب والعجم، وإن مات عليه الصلاة والسلام فرسالته قائمة، مأمور بتنفيذها، وبالإيمان بها، وبالعمل وفقها، قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال سبحانه: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ [الفرقان:١].

فهو منذر ومبشر ورسول لكل العوالم من الإنس والجن، في الشرق والغرب، من العرب والعجم، منذ العوالم الذين عاصروه إلى من سيأتون بعده إلى يوم القيامة، كل أولئك أمة محمدية، من استجاب وأطاع فهو من أمة الإجابة، ومن تمرد وعصى فهو من الأمة المحمدية التي تمردت على محمد ودين محمد عليه الصلاة والسلام، ولذلك لم يبق للنصرانية ذكر، ولا لليهودية ذكر، ولا للأديان السابقة ذكر، فقد كانت أديانا كلف بها من أرسلوا إليهم حال حياتهم، فعندما رفع عيسى بقيت نبوءته إلى وقت إرسال نبينا، ولكن رسولنا عليه الصلاة والسلام ما كاد يخرج لهذا الوجود ساعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا حتى كانت الأديان السابقة قد نسخت برسالته، وإن كانت قد نسخت بالتبديل والتغيير والتحريف قبل بعثته، فكان قول الله لرسوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ [سبأ:٢٨]، ناسخا لكل ديانة قبله.

لم يكن أحد يقول: الله إلا هو، وعندما نزل من غار حراء إلى السيدة الطاهرة أم المؤمنين الأولى رضوان الله عليها، وحدثها بما حدثها، فقال لها: (دثروني دثروني، وقص عليها قصته فقالت: لا تخف إنك تحمل الكل وتعين على الزمان، وتقري الضيف، وتصدق الحديث)، وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان شيخا هرما كبيرا مسنا وكان من العرب الموحدين، فقالت له: (اسمع يا ابن عم إلى ابن أخيك.

فقص عليه النبي قصته صلى الله عليه وسلم فقال له ورقة: ذاك والله الناموس الذي أرسل إلى موسى وعيسى، ليتني أكون فيها جذعا إذ يخرجك قومك -أي: ليتني أكون شابا عندما تدعو قومك إلى عبادة الله فيحاربوك ويقاتلوك ويرموك عن قوس واحدة، فليتني أكون شابا كالمهر قوة وشبوبية لقاتلت عنك ونافحت عن دينك- قال: أومخرجي هم؟ قال: نعم.

ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا وقاتلوه وأخرجوه)، وهذا قد كان.

ومن هنا ترجم علماؤنا ممن كتب في تراجم الصحابة لـ ورقة على أنه مسلم وصاحبي جليل؛ لأنه تمنى أن لو كان شابا عندما يطرده قومه ليحارب معه ويدافع عن دينه، فهو إذا قد آمن به.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (استكبارا في الأرض ومكر السيئ)

قال تعالى: ﴿استكبارا في الأرض ومكر السيئ﴾ [فاطر:٤٣]، قوله: (استكبارا) بدل عن النفور، أي: أنهم فعلوا ذلك عندما جاءهم النذير فاستكبروا على رسول الله أن يؤمنوا به، واستكبروا على الله أن يكونوا عبادا له، فكانوا عبدة للشيطان ومع ذلك لم يخرجوا عن عبادة الله مكرهين أو راضين، ولكن المكره وهو عبد رغم أنفه له النار، وله العذاب وله الخزي من الله.

والعبد الراضي بعبوديته تكون عبوديته شرفا له، وحرية له واستوجبت له الرحمة والرضا من الله ودخول الجنان.

قوله: ﴿ومكر السيئ﴾ [فاطر:٤٣].

المكر: التحايل في الباطل، والتحايل في الضلال وظهوره، أو التحايل في الفساد والإفساد والصد عن الله ودينه ورسله، قال ربنا: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ [فاطر:٤٣].

يحيق: يحيط، أي: لا يحيط مكر الماكر، ولا غدرة من يحاول أن يغدر وأن ينفر إلا بمن حاكه ودبره، فهم قد نكثوا العهد، وحنثوا في الأيمان، وتحايلوا بأن يشتموا النبي عليه الصلاة والسلام مكذبين جاحدين برسالته وبالكتاب المنزل إليه، فالله هددهم وأنذرهم وأخبر بحقيقة من الحقائق فأصبحت مثلا بعد ذلك بين الناس.

﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ [فاطر:٤٣]، فمن حفر حفرة وقع فيها، ومن نصب لأخيه شبكة سقط فيها، وهكذا هؤلاء حين أرادوا أن يمكروا بالنبي عليه الصلاة والسلام، واجتمعوا في دار ندوتهم يتواطئون ويتآمرون أيخرجونه من مكة؟ أيقتلونه؟ أيسجنونه؟ وهم يمكرون، فكانت النتيجة أنهم مكروا بأنفسهم فمكر الله بهم.

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [الأنفال:٣٠].

فأوقعهم الله في يد من أرادوا أن يمكروا به، وسقطوا في اليد العادلة يد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فانتصر عليهم نصرا عزيزا مؤزرا ودخل مكة فاتحا، فأخذهم إليه وجمعهم بين يديه كما يجمع الصائد صيده في شبكة، وأخذ يتهددهم ويقول: ماذا ترون يا معاشر قريش أني فاعل بكم؟ وذهب صلى الله عليه وسلم إلى الحرم ودخل الكعبة فوجد فيها ثلاثمائة وستين صنما، وكان بيده قوس فأخذ يشير إلى كل صنم ويقول:

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٤/٢٣٢

﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ [الإسراء:٨١]، وهكذا بددت تلك الأصنام واختفت تحت الكعبة، ولعلهم في هذه الحفريات قد وجدوا بعض ذلك، وتمنى ضال من ضلال مصر المنسوبين للعلم وللأدب وللكتابة أن يحفر عن هذه الأصنام ليحتفظ بها على أنها من الآثار الضخمة.

فهي آثار بالنسبة للذين يحنون إلى ذكر الوثنية وذكر الأصنام وذكر عبادة الشركاء وهكذا أماني المشركين، وأماني الضالين، يحنون إلى الكفر القديم والشرك القديم ليحولوا الناس إليه ويحيطوا به، فكان عاقبة مكر هؤلاء أن أحاط بهم، وكانت الحفرة التي أرادوا حفرها لنبي الله عليه الصلاة والسلام هي الحفرة التي سقطوا فيها فأصبحت مكة دار الإسلام من ذلك اليوم، وصدر أمر الله جل جلاله الذي لا يرد بأن لا يدخلها كافر بعد ذلك اليوم.

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة:٢٨].

فأخبر الله عن المشركين أنهم عين النجاسة، وكما أن النجاسة لا يليق بالمسلم المصلي أن تكون مكان سجوده، أو أن تكون على ثيابه، أو أن تكون على بدنه، فإن مكة حرم وهي أم القرى ومحل البيت الحرام، ومسقط رأس الرسول صلى الله عليه وسلم ومنزل الوحي الأول، فيها مناسك الحج الواجبة، فوجب على كل إنسان أن يحج إليها مرة في العمر، يأتي إليها منسلخا عن المحيط والمخيط، لا فرق بين صعلوك ولا ملك، ولا غني ولا فقير بإحرام أشبه بالأكفان، حاسر الرأس في نعال كأنه حاف، وهو يدعو ويقول: لبيك اللهم لبيك، ومنذ ذلك اليوم ومكة معقل الإسلام، وإن أخذوا يحاولون أن يحاربوا رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى أن هاجموه في عقر داره بعد أن هاجر للمدينة المنورة فكانت معارك أحد، وكانت معارك الأحزاب، وقد خرج منها جميعها صلى الله عليه وسلم المظفر العزيز المنتصر.

ثم كانت القاضية وكانت الفاصلة غزوة بدر، كتب الله فيها لنبيه النصر العزيز المؤزر فقتل من زعمائهم ثلاثة وسبعين وأسر ثلاثة وسبعين، وما رفعوا رأسا بعد ذلك، وكما قال ربنا: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ [فاطر:٤٣].

وقد حاق بهم، وأحاط بهم، فأصبحوا بين شريد وطريد وميت هالك، ومنهم من جر إلى الجنة بالسلاسل، فآمن وأسلم بعد ذلك فحسن إسلامه فكان كمن جر إلى الجنة بالسلاسل، جر أسيرا ثم بعد ذلك اهتدى وحسن إسلامه وقال: لا إله إلا الله وكانت سبب توبته، والإسلام يجب ما قبله.

ثم قال تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ [فاطر:٤٣].

يقول الله عنهم في استفهام إنكاري توبيخي تقريعي: (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) أي: هل يصبرون على كفرهم وشركهم إلى أن يأخذهم الله إليه أخذ عزيز مقتدر.

فالأمم السابقة الذين أبوا إلا الكفر والشرك قد أحاطت بهم سيئاتهم، وحاق بهم مكرهم فذهبوا بين غريق، وبين ممسوخ، وبين مقتول، وبين من خسفت به الأرض، وبين من رجم من السماء بأنواع من الرجم ومن حجارة السماء، فهل هؤلاء ينتظرون مثل ذلك، فإن كان الأمر كذلك فلينتظروا فيما هم منتظرون، ولكل وقت ولكل عمل مدة وأجل مسمى.

قوله: ﴿إلا سنة الأولين﴾ [فاطر:٤٣]، أي: طريقة الأولين ممن سبقهم من الأمم والشعوب التي أبت إلا الكفر والجحود، وأبت إلى **التمرد** على أنبيائها، ثم أخبر سبحانه أن سنته لا تتبدل فقال: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [فاطر:٤٣].

فسنة الله في المحسن والمسيء أن للمحسن الإحسان، وللمؤمن الجنة، وللمسيء النار وغضب الله، والخزي الدائم، فلن تجد لسنة الله تبديلا، فسنة الله في خلقه –في المؤمنين والكافرين– لن تبدل ولن تغير. فلن يدخل كافر الجنة رحمة به، وقد حرم الله الجنة على الكافرين، ولن يخلد في النار مؤمن موحد، فسنة الله في الإحسان إلى المحسنين وعقوبة الكافرين كما فعل بالأولين من الشعوب والأمم السابقة كذلك، فهو الله الأول بلا بداية، الآخر بلا نهاية، فمن تبع سنة أولئك ومن فعل فعلهم ستكون سنة الله فيه البطش، والغضب واللعن، والتدمير كأولئك الكافرين السابقين، وقد أكد الله ثبات هذه السنن فقال: ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ [فاطر:٤٣]، فلا يحول الله سنته بأن يحسن للكافرين ويسيء للمؤمنين، فالله جل جلاله خلق الدنيا دار عبور ومجاز للآخرة، وخلق في الآخرة جنة ونارا، فجعل الجنة للموحدين وجعل النار للكافرين المشركين.." [(١)]

"تفسير قوله تعالى: (هذا وإن للطاغين لشر مآب)

قال تعالى: ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ [ص:٥٥].

ربنا جل جلاله يذكرنا مبشرا ومنذرا، يبشر المؤمنين بما سبق ذكره من الجنان والحور العين، وينذر الكافرين، ليغريهم بالإيمان، وبالتوبة وبالعودة إلى الله، وينذر المؤمنين إذا هم بدلوا أو غيروا، فإن الله يبدل عليهم خيره ورزقه، قال تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد:١١].

فقال ربنا: ﴿هذا﴾ [ص:٥٥] أي: هذا الذي ذكر للمؤمنين، وما سيذكر للكافرين والطاغين: جمع طاغية،

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٥/٢٣٦

وهو المتجبر العاصي الكافر، وقد يكون فقيرا، أو حقيرا، أو صعلوكا، فكل من لم يؤمن بربه فيكون قد طغى وبغى وتمرد على الله، فأصبح طاغية في كفره وردته وظلمه لنفسه.

فالمؤمنون المتقون لهم حسن مآب، وهو الجنة، والكفرة الطغاة لهم شر مآب، وهو النار والعقاب فيها.

قال تعالى: ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب * جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾ [ص:٥٥ - ٥٦].

شر المآب: هو المآب والمرجع الشر، والعودة التي لهم فيها لعنة الله وطردهم من الرحمة، وشر مآب: جنهم، فجهنم بدل من (شر مآب).

وقوله: ﴿جهنم يصلونها﴾ [ص:٥٦] أي: يدخلون إليها، ويحترقون فيها.

﴿فبئس المهاد﴾ [ص:٥٦].

أي: فما أبأس وأقبح وأذل هذا الميراث والفراش والمنزل والمقام!." [١]

"تفسير قوله تعالى: (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)

قال تعالى: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحورا ولهم عذاب واصب﴾ [الصافات:٦ - ٩].

نحن الآن في سورة الصافات، أي: سورة الملائكة.

يقول الله جل جلاله: (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)، وقرئ (بزينة الكواكب) بالتنوين، والمعنى متقارب، فالله جل جلاله يذكر هؤلاء الكفرة الجاحدين ليعودوا للإيمان بالله، والإيمان برسل الله، وكتبه، ويلفت أنظارهم إلى هذا الكون وما فيه من نظام دقيق في السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وتسيير الشمس والقمر، وما مضى وما لا يزال يذكر بذلك.

ومن ذلك: أن الله جل جلاله زين السماء الدنيا وجملها، وأحسنها، والسماء الدنيا الأولى القريبة من الأرض التي نراها على شدة ارتفاعها وعلوها، زينها بالكواكب، فكانت زينتها ضيء الكواكب، فهذه الأنجم التي نراها والتي لا يحصي عددها إلا الله هي تزين السماء، كما قال في سورة الملك: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾ [الملك:٥]، فهي جعلت لإضائتها ونورها كهذه المصابيح التي نراها في السقوف وفي أعالي الدور والبناء، فكانت هذه الكواكب -جمع كوكب- وهذه النجوم التي لا يحصي عددها إلا الله زينة للسماء، وكانت ضياء لها في الليل البهيم.

من خلق ذلك؟ من زين ذلك؟ من رفعه؟ من أعلى سمك تلك السماء؟ ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٩/٢٥٣

الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد﴾ [الصافات:٦ – ٧] أي: وحفظ بها حفظا.

فـ (حفظا): مفعول مطلق، أي: حفظ السماء وحفظ الكواكب من كل شيطان مارد من نسل إبليس من الشياطين، والألف واللام للجنس، بل حفظ الله سماواته من أن تتصنت إليها الشياطين، فالمردة على الله، والكافرون بالله، والجاحدون له ولأنبيائه ورسله حفظت منهم.

قال تعالى: (وحفظا من كل شيطان مارد) أي: من كل **متمرد** على الله، ومن كل من جاء يريد الإنصات إلى ما يقوله الملائكة، وما يتلقونه من وحي، وما يخرج به أمر الله من أمر أو نهي.

قال تعالى: ﴿لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحورا﴾ [الصافات:٨ – ٩].

(لا يسمعون) حذفت التاء تخفيفا وأدغمت السين أي: لا يستمعون، وهذا للشيطان وجنسه؛ ولذلك عاد الضمير على الجماعة، (لا يسمعون) لا يتسمع هؤلاء الشياطين، وقرئ: (لا يستمعون) وقرئ: (لا يسمعون)، وهي كلها قراءات تبعية.

(لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) والملأ الأعلى: الجماعة العليا، وهم سكان السماوات من ملائكة الله وجنده الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وقد حفظ الله السماوات بهذه الشهب الثاقبة (وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسمعون) أي: كي لا يسمعوا.

(ويقذفون من كل جانب)، يقذفون من كل جهات السماوات ومن كل أقطارها ومن كل جوانبها، وهذا إذا حاولوا التصنت على الملائكة وما يقولون وما يوحى إليهم.

(ويقذفون) أي: يطردون ويقذفون من كل جانب (دحورا) أي: ويدحرون دحورا، أي: يطردون عن السماء، ويبعدون عن السمع وعن الإنصات.

قال: (دحورا ولهم عذاب واصب)، يطردون من الإنصات طردا ويبعدون إبعادا كي لا يسمعون ما يقوله الملائكة، كي لا ينصتوا لما تتحدث به الملائكة، وما يوحى إليهم من علم الغيب، ومن أوامر الله ونواهيه جل وعلا.

(ولهم عذاب واصب) عذاب دائم، ويكون لهؤلاء الشياطين العذاب في الدنيا بهذا القذف، وعذاب الله يوم القيامة لكفرهم ولشركهم ولإنصاتهم على ما يحاولون.

﴿ويقذفون من كل جانب * دحورا ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصافات:٨ – ١٠].

هم يبعدون عند الإنصات، فإن تجرأ أحدهم ولربما يفعلون ذلك أحيانا يقذفون، وهذه الشهب التي نراها أحيانا يتطاير ضياؤها، وتتساقط بعض أجزائها تكون رجما للشياطين في شهاب ثاقب يثقب الجني ويحرقه، ينفذ فيه من جانب إلى جانب ومع ذلك يحاولون أن يفعلوا، ويركب بعضهم بعضا ليصل لذلك.
وهذا استثناء من قول الله تعالى (ويقذفون) لأن هذه النجوم وهذه الشهب حفظت بها السماء: (وحفظا من كل شيطان مارد)، حفظ الله السماء وحفظ وحيه وحفظ الملائكة جنده ورسله إلى الناس في الأوامر والنواهي وتلقي الوحي في الخلق والأمر، حفظها من أن ينصت إليها هؤلاء الشياطين.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (إنك ميت وإنهم ميتون)

قال ربنا جل جلاله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ [الزمر: ٣٠ - ٣١].

يقول ربنا جل جلاله لهذه الأمم والشعوب في الأرض: إنهم ميتون، وقد اختلفوا وتنازعوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ومنهم من ضل ومنهم من اهتدى، ناس من أصحاب اليمين وآخرون من أصحاب الشمال. فهؤلاء الذين أبوا إلا التكذيب والكفران والجحود، وأبوا إلا أن يصرفوا الصدق عندما يأتيهم سيموتون، وسيموت الدعاة والأنبياء وتموت الناس ويموت الخلق كلهم ملائكة وجنا وإنسا، وعند ربهم يوم القيامة يختصمون ليعرف من المحق من المبطل! ومن الصادق من الكاذب! وليعرف من الذي أتى بالحقائق ومن الذي أتى بالأباطيل.
قال تعالى: ﴿إنك ميت﴾ [الزمر: ٣٠] الخطاب لسيد البشر صلى الله عليه وسلم، وهو لكل نفس على وجه الأرض.
﴿وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠] أي: وإن أولئك الذين عصوك وخالفوك وتمنوا لك الموت سيموتون، ولقد قالوا عنه: صابروه إنه عما قليل يموت وتستريحون منه ومن رسالته، فقال الله: قل لهؤلاء: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠] أي: لن يفلت من الموت أحد.
قال الفراء والكسائي من أئمة اللغة: يقال ميت وميت، يقال: ميت بالتشديد لمن لا يزال حيا وهو سيموت يوما، ويقال: ميت بالفتح لمن هو ميت فعلا، ولذلك كان الخطاب ﴿إنك ميت﴾ [الزمر: ٣٠] فهو لا يزال حيا ويخاطب بهذا، ومعناه: إنك صائر إلى الموت لا محالة.
فقوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠] أي: إنك وأتباعك، إنك والكافرين بك، إنك والخلق كلهم

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٢٥٦

صائرون إلى الموت يوما، قال تعالى: ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [الرحمن:٢٦ - ٢٧].

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول لا بد يوما أن نحمل كما حمل من مات قبلنا، بينما نمشي على أرجلنا إذا بنا محمولون على هذه الأخشاب.

وبهذه الآية: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر:٣٠] استدل أبو بكر الخليفة الأول رضي الله عنه عندما مات النبي عليه الصلاة والسلام.

فعندما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصدق الصحابة، وذهبوا يقولون: ما مات رسول الله، بل لقد وصل الأمر إلى أن يقول عمر: من قال إن رسول الله مات ضربته بسيفي هذا.

وكان أبو بكر رضوان الله عليه أثبتهم وأعرفهم بذلك وأحسنهم توفيقا، فهو أسبق الصحابة خلافة ومقاما، ثبت أنه دخل إلى غرفة ابنته حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله في جبينه وقال له: طبت حيا وميتا يا رسول الله! فأخذ القوم ينتظرون ما هو فاعل فصعد المنبر فوجد في الدرجة الأولى عمر فأبعده جانبا، وقال: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾ [آل عمران:١٤٤] ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر:٣٠].

فانتبه القوم وكأن هاتين الآيتين لم يسمعوهما من قبل، بل لقد قال عمر: والله لكأني أسمع هذه الآية الآن، وعلموا أن الموت حق على الأنبياء وعلى غير الأنبياء، عند ذلك أعادهم أبو بكر بما جاء به رسول الله من عبادة الله وحده ووحدانيته، قال: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وذكرهم بالرسالة المحمدية، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل لعبادة نفسه أو لشيء يتعلق به، ولكنه جاء رسولا من رب العالمين يبلغ رسالات ربه؛ وليعبد الله بنفسه وليكون أول المسلمين؛ وليتبعه جميع من دعاهم من الجن والإنس، وإذا كان الأمر كذلك فالمعبود جل جلاله لا يزال حيا ولن يموت: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [البقرة:٢٥٥] وهو الباقي، وهو الدائم، وهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية.

قال تعالى: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ [الزمر:٣١] أي: أيها الضالون المكذبون، ويا أيها المؤمنون الصادقون؛ ستموتون ثم تبعثون إلى ربكم يوم القيامة، وسيكون بينكم خصومة أمام الله وبين يديه، يشكو بعضكم بعضا وينازع بعضكم بعضا، فسيكون الحكم إذ ذاك لله جل جلاله.

قوله تعالى: ﴿ثم إنكم﴾ [الزمر: ٣١] أي: بعد الموت: ﴿تختصمون﴾ [الزمر: ٣١] الخصام: النزاع والخلاف في أمر.

قال ابن عمر: طال علي الدهر وأنا لا أعلم معنى هذه الآية، أنخاصم أهل الكتاب، أم نخاصم إخواننا المسلمين، وكيف نتخاصم؟ فنحن نعبد ربا واحدا ونؤمن برسالة واحدة، قال: حتى رأيتنا نتضارب بالسيف يقتل أحدنا الآخر، وهو يشير لما حدث للمسلمين من قتال وفتنة بعد موت عمر رضي الله عنه، وما حدث من تمرد على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وهكذا أصبحت الخصومة في أنفسهم! قال النبي عليه الصلاة والسلام: (أول خصومة تكون بين جارين) كما في مسند أحمد عن عبد الله بن عباس: أول من يتقدم للخصومة وللنزاع وطلب الحكم جاران طغى أحدهما على الآخر في دار الدنيا ولم ينتصف للآخر، فيحكم الله جل جلاله بالعدل بينهما.

وروى عقبة بن عامر في مسند البزار: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (لا تتركوا الخصومة والحقوق بينكم إلى ما بعد الموت، فإن هناك لا درهم ولا دينار) قد يرد الظالم الحق للمحق، حتى إذا جئتم يوم القيامة كنتم قد تباعدتم وتعاديتم.

وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه يأتي الرجل يوم القيامة ومعه صلاة وزكاة وعبادة ولكنه يأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وأكل مال هذا، فيأخذ الله من حسناته إلى من ظلمهم، حتى إذا انتهت أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه فيؤمر بحمله إلى النار.

وفي رواية: (سأل النبي عليه الصلاة والسلام قال: من المفلس فيكم؟ قالوا: من لا درهم له ولا دينار، قال: ولكن المفلس يوم القيامة رجل جاء بعبادة وبصلاة وبحج، ولكنه جاء وقد شتم هذا وسب هذا وأكل مال هذا، فيؤخذ من حسناته وتضم إلى أولئك المظلومين، حتى إذا انتهت حسناته يؤخذ من سيئات أولئك المظلومين فيحملها هذا الظالم ويقذف به إلى النار).

ولذلك فإن الرجل الظالم الذي يريد أن يقبل على الله وهو بريء الذمة من حقوق الناس في دنياه يأخذ الحق من نفسه ويعيد الحقوق لأصحابها ولو مضى عليها زمن، لكن في القوانين الجائرة حتى في العالم الإسلامي: إذا مضى على الجريمة عشرون عاما حتى وإن كانت الجريمة قتلا تسقط المتابعة ولا يطالب بها، ولكن شريعة الإسلام ليست كذلك، بل الحق حق طال الزمان أو قصر، والباطل باطل طال الدهر أو قصر؛ وما ضاع حق وراءه طالب.

ولذلك فمن لم يؤد الحق في الحياة الدنيا ويرد الحقوق لأصحابها أو يطلب منهم السماح والمغفرة، سيؤتى

به يوم القيامة حيث لا درهم ولا دينار، وسيكون مدينا لزيد أو لعمرو من الناس بدينار أو أكثر، وعندما لا يكون هناك دنانير ولا دراهم يعطى بذلك من حسناته، ثم إذا انتهت تزال سيئات ذلك المظلوم ويحملها هذا الظالم، فيخرج المظلوم وكأنه اشترى حسنات هذا بدراهم معدودة لا تكاد تغنيه ولا تسمن من جوع ولا ترويه من عطش.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار)

قال تعالى: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ [غافر:٦].

(حقت) أي: وجبت، وحقت من الحق، ومغزى ذكر الحكاية: أن من فعل مثل قوم نوح، أو مثل عمل الأحزاب من بعدهم، فكفر كفرهم، وأشرك شركهم، وعصى بنيه كعصيانهم، فكذلك نفعل به.

﴿وكذلك حقت كلمة ربك﴾ [غافر:٦].

أي: كلمة العذاب، والكلمة التي يقولها عندما يريد شيئا هي: ﴿كن فيكون﴾ [البقرة:١١٧].

وهكذا كان في المعاقبين من المشركين من الأمم الماضية، التي كذبت رسولها، والتي عبدت مع الله غيره، وأشركت به أصناما وأوثانا.

وكذلك الذين كفروا بسنة محمد، وكل الخلق بعد ظهور النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الديار المقدسة كلهم أمة محمدية، فمن آمن به من الأمم سميت أمة مستجيبة، ومن كفر سميت أمة متمردة عاصية، وأما رسالة موسى فقد انتهت، وكذلك رسالة عيسى، وكلاهما قد مسخ ونسخ، وانتقل اليهود من ديانة التوحيد إلى عبادة العزير، واعتقدوا أنهم أبناء الله.

وانتقلت ديانة النصارى من عبادة الله الواحد إلى زعمهم بأن عيسى هو الله، وأنه ابن الله، وأنه ثالث ثلاثة، وأنهم جميعا أبناء الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فقد نسخت هذه الديانات في حد ذاتها، ثم بعد ذلك جاء الإسلام ونسخها جميعها، فلذلك يقول نبينا عليه الصلاة والسلام: (والله! لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي)، فلا بد على كل أحد أن يؤمن بنبينا، فمن لم يؤمن به كان كافرا، و (لو) حرف شرط، ولا يلزم من الشرط الوقوع، وعيسى سينزل في آخر الزمان، وسينزل على دين محمد، ولذلك عد من الأصحاب، وترجم في كتب الأصحاب أنه من أصحاب النبي عليه الصلاة السلام.

ومن هنا قال ربنا جل جلاله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال تعالى:

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٢٧٤

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران:١٩].

فلا دين كل ما فيه حق إلا دين الإسلام، فمن جاء بغيره فقد جاء بأباطيل وأكاذيب وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان، ولن يقبل الله سوى الإسلام، فالإسلام ليس كما يحاول أن يفهمه كل إنسان، لقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (اختلفت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، واختلفت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستختلف أمتي على ثلاث وسبعين فرقه، كلها في النار إلا واحدة، قيل: يا رسول الله! ومن هي هذه الواحدة؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي) أي: السابقون الأولون كما وصفهم الله: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [التوبة:١٠٠].

فحتى الصحابة ليسوا جميعهم، بل السابقون الأول من المهاجرين الذين هجروا دار الكفر إلى دار الإسلام، والذين سبقوا إلى الإسلام وتحملوا في سبيله الشدائد والعذاب، ومن الأنصار الذين أسلموا في الأيام الأولى والإسلام لا يزال ضعيفا ومضطهدا، فهؤلاء هم الصحابة الذين أمرنا بإتباعهم.

﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ [غافر:٦]، أي: بأنهم أصحاب النار، وهكذا من جاء قبل هؤلاء من الأقوام السابقين، من أقوام نوح وهود وصالح ولوط، وأقوام إبراهيم، وأقوام أنبياء بني إسرائيل من الذين لم يؤمنوا بأنبيائهم، فضلوا وأضلوا.

كذلك أي فرقة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كفرت ولم تؤمن به، فهي من أصحاب النار، ومآلها جهنم مع أولئك، ونهايتها النار مع أولئك.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (فوربك لنحشرنهم والشياطين)

قال الله جل جلاله: ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا * ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾ [مريم:٦٨ - ٧٠].

كنا مع الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، وما أعد الله لهم من جنان وخيرات ونعيم ورضوان، وهانحن أولاء مع من أنذروا بكفرهم وخروجهم عن أمر الله، وهكذا فإن الله جل جلاله في كتابه الكريم يقابل بين نذارة وبشارة، كما هي وظائف الأنبياء فإنهم يبشرون الصالحين بالجنة والرضا، وينذرون الطالحين بالسعير والغضب من الله.

يقول جل جلاله عن هؤلاء الذين عصوا وتمردوا وكفروا وأشركوا ويقسم الله بذاته العلية: ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين﴾ [مريم:٦٨] أي: بعد أن يلعنهم ويبعثهم ويجدوا أنفسهم في يوم القيامة مع الشياطين الذين

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٣/٢٨٢

عبدوهم واتبعوهم في دار الدنيا، يحشرهم جميعا إليه ويقذفهم في النار.
قوله تعالى: ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا﴾ [مريم:٦٨] أي: ثم ليكونن حاضرين موجودين مقيمين حول جهنم جثيا، والجثي: جمع جاث، وهو الواقف على ركبتيه؛ زيادة في الذل والهوان مع الازدحام الشديد من أهل النار، فلا يكادون يجدون مكانا للجلوس إلا ما كان من الوقوف على الركب.
قال الله تعالى: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ [مريم:٦٩].
وبعد أن يحشر الله الكفرة الظالمين أئمة وتابعين، يجمع الأئمة وينزعهم من بين أتباعهم، كما قال: ﴿ثم لننزعن﴾ [مريم:٦٩]، أي: يزيل هؤلاء الأئمة الذين كانوا يصدون عن سبيل الله، وكانوا يدعون للشرك والضلال، وكانوا يصدون عن النبوءات والرسالات، فينزعهم من بين جموعهم وأتباعهم.
قال: ﴿من كل شيعة﴾ [مريم:٦٩] أي: من كل أمة، أو من كل طائفة أو جماعة.
قال: ﴿أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ [مريم:٦٩]، (أيهم) هنا بمعنى: الذي، فهي تعامل معاملتها في أنها تبقى مبنية لا ترفع ولا تنصب ولا تجر، فتقول: رأيت أيهم أعلى مقاما، ومررت بأيهم أحسن علما، وجاء أيهم أرفع شأنا؛ حتى ضرب بها المثل فقيل في النحو: أي كذا خلقت، أي: خلقت مبنية على الضم أبدا، فلا تؤثر فيها المؤثرات من الإعراب.
قوله: ﴿أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ [مريم:٦٩] أي: أكثرهم ظلما وطغيانا وعتوا وفسادا في الأرض، فهؤلاء يجمعهم الله ليكون عذابهم أشد ومحنتهم أنكى، فيتحملون عذابهم وعذاب أتباعهم بحيث لا ينقص من عذاب أتباعهم شيء.
فقوله تعالى: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ [مريم:٦٩] أي: ثم يخلع الله وينزع من كان أشد عتوا وظلما وكفرا وغلوا من بين أتباعه، ليكون مزيد العذاب له؛ جزاء كفره وإمامته في الكفر، قال تعالى: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ [التوبة:١٢]، وهكذا نبه الله على قتالهم بالذات.
قال تعالى: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾ [مريم:٧٠] أي: أعلم منك يا محمد! وأعلم من الخلق كلهم بمن يستحق العذاب والحريق والغضب واللعنة، قال: ﴿بالذين هم أولى بها صليا﴾ [مريم:٧٠] أي: حريقا، وصلي جمع: صال، أي: محترق في النار، وهو من التصلية أي: التحرقة بالنار، إذ تصلى وتشتعل وتلتهب، ويكون هو وقودها وأعوادها وفحمها.
فقوله: ﴿هم أولى بها صليا﴾ [مريم:٧٠] أي: أولى بالنار من غيرهم؛ لشدة كفرهم وطغيانهم وتعديهم،

ولشدة صدهم عن الله ورسالاته، فهؤلاء يكونون في قعر جهنم وينالون من العذاب ما لم ينله أحد، إذ يزاد في عذابهم لإمامتهم وكفرهم، وبعدهم عن الله ورسالاته.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (فاصبر إن وعد الله حق)

قال ربنا جل جلاله: ﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾ [غافر:٥٥].

قوله: (فاصبر) توجيه من الله جل جلاله لنبينا عليه الصلاة والسلام وقد عصاه **وتمرد** عليه الكثيرون ممن دعاهم إلى الله، وكذبه من كذبه، وقيل عنه ما قيل، سواء في جزيرة العرب أو في خارجها، فيأمر الله جل جلاله نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر عليهم، فإن العاقبة له، وإن النصر لرسل الله، وأعداؤهم سوف يعاقبون على مخالفتهم أشد عقاب، إلا من اهتدى وآمن وأسلم واستسلم.

والصبر قد دعا الله في غير ما آية من الآيات رسله والمؤمنين إليه، وخص ذلك في سورة فقال سبحانه: ﴿إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر:٢ - ٣].

وانتظار الفرج بالصبر عبادة، وكان مما أمر به عليه الصلاة والسلام أن يصبر على قومه، فصبر عليهم في مكة المكرمة اثنا عشر عاما، وقد كذبوا وحاربوا وقاتلوا وألبوا وتآمروا عليه، ولكن النهاية كانت بنصره وبفوزه، وبسحق أعدائه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومع ذلك قالوا: إن آية الصبر وما ورد في الصبر كل ذلك كان قبل الأمر بالجهاد، فقبل الأمر بالجهاد أمر الله نبيه وأتباعه بالصبر، ثم نزلت أول آية في القتال وهي قوله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ [الحج:٣٩]، فكان القتال الذي أذن الله به لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بعدما كانوا مظلومين، ويراد إخراجهم من أرضهم، وإرجاعهم عن دينهم، والاعتداء عليهم، وكان كثيرا ما يأتي أصحابه ويطلبون منه القتال، فيقول: لم نؤمر بذلك، وكان يمر على أصحابه وهم يقاتلون ويعذبون، ويمر على الأسرة كلها أحيانا وهي كذلك، كما مر على عمار وعلى أبيه ياسر وعلى أمه سمية فيقول لهم: (صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة).

ولم يكن يملك غير ذلك، وكان صبورا متأنيا منتظرا صلى الله عليه وسلم إلى أن نصره الله النصر العزيز المؤزر، وأذن له في القتال والكفاح والحرب عندما انتقل مهاجرا إلى الله إلى المدينة المنورة، فهاجمه أعداؤه فقاومهم وحاربهم فكانت العاقبة له، فخاطبه الله بقوله: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ [غافر:٥٥] أي: ما

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٢٩

وعدك به ربك من النصر ومن الفوز، ومن سحق الأعداء، ومن ظهور دينك وانتشاره في مشارق الأرض ومغاربها، كل ذلك حق فلا تستعجل، وانتظر واصبر فالعاقبة لك.

كما قال سبحانه: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [غافر:٥١]، أي: وفي الآخرة.

وكان وعد الله حقا، والله لا يخلف الميعاد، فهكذا كان، أي: صبر صلى الله عليه وسلم دهرا، ثم بعد ذلك حقق الله وعده، فنصره وأخرج عدوه، وملك جزيرة العرب، وعاد لمكة التي أخرجه أهلها ظلما وعدوانا مرفوع الراية منصورا مظفرا حاكما في أعدائه، ومع ذلك غلبت رحمته نقمته وعداءه عليه الصلاة والسلام، واجتمع إليه كفار قريش بعد أن نصره الله وفتح مكة، وقال لهم: (ماذا ترون يا معاشر قريش! أني فاعل بكم؟) وإذا بهم أخذوا يتمسحون، وحاولوا أن ينسوه ما صنعوه معه: من إخراجه من أرضه، وتعذيب أصحابه، وشتمهم له من قولهم عنه: ساحر ونحوه.

ومع ذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام تفضل عليهم وقال لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، فأطلقهم من عقوبته ونقمته، فهدى الله من هدى فآمن وأسلم، وشرد من شرد وفر من فر، فعل هذا فيهم جميعا إلا أربعة عشر منهم قال فيهم: (اقتلوهم ولو وجدتموهم معلقين بأستار الكعبة)، وكان منهم ثمانية رجال وست نسوة.

وهؤلاء تجاوزوا حدهم في الكفر، وفي الصد عن بيت الله وعن دينه.

وقد كان وعد الله لنبيه كما أخبر، فملك جزيرة العرب، وأصبحت كلها مسلمة، وأخذ في قتال الروم في غزوة تبوك على حدود أرض الشام، وهي إذ ذاك أرض رومية، فلم يكن قتال ولم يحضروا له.

وقبل ذلك أرسل سرية بثلاثة من قواده، أولهم جعفر بن أبي طالب، ثم زيد بن حارثة، ثم عبد الله بن رواحة، فاستشهد الثلاثة قائدا بعد قائد وأميرا بعد أمير، إلى أن ولي خالد.

ولم يكن في تبوك قتال إلا بما لا يكاد يذكر، وأوصى بالقتال ما بعد ذلك، وعين أسامة بن زيد أميرا، وهو ابن القائد الثاني الشهيد في غزوة مؤتة، فجهزه للخروج وكان النبي صلى الله عليه وسلم عندما حان الحين وآن الأوان لإنقاذ الجيش قد ذهب إلى الرفيق الأعلى.

فأرسل أبو بكر أسامة بن زيد لقتال الروم في مؤتة، ولكنهم كذلك لم يأتوا، وظنوا أن الإسلام قد انتهى بموت النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن هيهات فالأمر كما قال أبو بكر: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وهو قد جاء لعبادة الله لا لعبادة نفسه، قال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ [آل

عمران:١٤٤].

وبعد الموت النبوي وذهاب النبي للرفيق الأعلى، قام أصحابه وخلفاؤه أبو بكر أولا ثم عمر بنشر الإسلام في أرض الروم وفارس، وإلى أرض البربر، وما كادت تتم خمسون سنة على ظهور الإسلام والنبي عليه الصلاة والسلام حتى أصبح الإسلام شرقا في الصين والهند والسند، وغربا إل عمق أرض فرنسا وما بينهما.

فكان ما وعد الله حقا، كما قال ربنا جل جلاله: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ [غافر:٥٥]، أي: اصبر صبر من هو متيقن بأن الله ناصره ومذل عدوه، وكان الأمر كما قال ربنا جل جلاله.

وقوله تعالى: ﴿واستغفر لذنبك﴾ [غافر:٥٥] يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: استغفر يا محمد! لذنبك، واطلب المغفرة والتوبة من ربك.

وقوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾ [غافر:٥٥]، وأكثر التسبيح والشكر لله على ما وعدك من نصر، وما سيحقق لك من نصر، على ما أكرمك به الرسالة ومن نبوءة جعلها عامة حين لم إلى الأبيض والأسود والأحمر، بين المشرق والمغرب، والعرب والعجم، إلى يوم القيامة، فلا نبي ولا رسول بعدك، فأنت نبي من عاصرك ونبي من يأتي بعدك إلى يوم القيامة.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون)

ثم قال تعالى: ﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ [غافر:٦٣].

أي: كذلك يؤفك من الأمم السابقة الكفار الذين تمردوا على أنبيائهم، وكذلك حصل لهم أن صرفوا عن الحق، وكفروا بآيات الله وبقدرته، وبكتبه وبمعجزات أنبيائهم، وكذلك صرفوا عن الحق إجمالا وأوقفوا عنه. كما عمت الآية الحاضرين، أي: التي نزلت الآية بسببهم من عرب الجزيرة ونحوهم، وكذلك عمت كل من خرج من الناس عربا وعجما عن الحق، وكفر بآيات الله، وبكتبه ورسله، وبالعقل والدليل والبرهان، الذين صرفوا عن الحق وابتعدوا عنه، وأغرقوا في الضلالة والشرك والوثنية.." (٢)

"تفسير قوله تعالى: (هو الذي يحيي ويميت)

قال تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ [غافر:٦٨] إن الله جل جلاله بيده الحياة والموت، وليس ذلك بيد الأصنام والأوثان والشركاء الذين يعبدون من دون الله، فإبراهيم عندما حاور النمرود وجادله ودعاه لتوحيد الله وعبادته، قال له: ﴿ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٢٩١

(٢) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٦/٢٩٣

وأميت﴾ [البقرة:٢٥٨] فالمجنون فهم أن الحياة والموت بأن يحضر رجلين فيقتل أحدهما ويبقى الآخر، فتصور أنه أمات الأول وأحيا الآخر، فأدرك إبراهيم فهم النمرود لذلك فغير السؤال فقال: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ [البقرة:٢٥٨].

فالظلمة يستطيعون أن يقتلوا بعض الناس ظلما وعدوانا، وأن يعفوا عن بعض من يريدون قتلهم فلا يقتلونهم، ولكن هذا ليس هو تفسير الإحياء والإماتة.

يحكى في التاريخ الأندلسي عن المنصور بن أبي عامر الفاتحي أنه تمرد عليه أحد رعاياه وأقام عليه ثورة، فأتت به جنوده، ورماه في السجن، وأصدر أمرا بقتله، فأخذ الورقة وكتب فيها: اقتلوه وائتوني برأسه، وسلم ذلك لكاتبه، ورأى الكاتب ذلك فقال له: إنما كتبت: أطلقوا صراحه، فأخذ الورقة ومزقها فأعاد الكتابة مرتين وثلاثا وأربعا، وفي كل مرة يريد أن يكتب: اقتلوه وائتوني برأسه، وإذا به يكتب: أطلقوا صراحه، فلما تكرر منه ذلك، وتأكد منه ولم يكن يشك في الكاتب، رمى الورقة وقال: الله لم يردني أن أقتله، فالله هو المحيي والمميت، أطلقوا سراحه.

وحدثت أحداث أخرى، فيذكر أن إنسانا سقط من شاهق عال فلم يمت ولم يجر عليه شيء، فالله هو المحيي والمميت وليس البشر.

وعلقت مشانق لكثير من الرجال، فلما أنزلوا الجثث وإذا بجثة أو جثتين لم تمت، وحسب القانون عندهم إذا صدر الأمر على شخص بالموت شنقا ثم شنق فلم يمت اعتبروه معدوما ولا يقتلونه مرة ثانية، فيغير اسمه وحاله؛ لأن فلانا حسب الأمر قد شنق، فتحدث الغرائب والعجائب في هذا الباب.

﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ [غافر:٦٨] فالله المحيي والمميت، فليست الحياة والممات بيد خلق من خلق الله، بل ذلك كله لله، وهو من صنع الله، ومن خصائص فعل الله، قال تعالى: ﴿فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ [غافر:٦٨] أي: إذا سبق في قضاء الله وفي إرادته شيء فلا يحتاج فيه إلى لغوب ولا إلى تعب، وإنما يقول له: كن فيكون، فالله عنده خلق الألف كخلق الواحد فكل ذلك عليه هين، ولا يصعب عليه، ولا يكل منه ولا يمل، فهو القادر على كل شيء، فخلق السموات والأرض في ستة أيام، وهو الذي أراد ذلك، وكان في إمكانه أن يخلق كل ذلك في لحظات وفي ثواني، ولكن الله أراد ذلك.

فالموت تارة يأتي فجأة للإنسان، ويأتي الجسم القوي الذي يمتلك القنطار والقنطارين، وقد يعيش الضعيف الهزيل سنوات على هذه الحالة ولا يموت، ويموت الكثيرون بعد مرض يطول أو يقصر، وتكون النهاية

الموت، ولو شاء الله موته لقضى عليه فجأة كما قضى على غيره، ولكن الله لا يسأل عما يفعل، ﴿فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ [غافر:٦٨].." (١)

"تفسير قوله تعالى: (فاصبر إن وعد الله حق)

قال ربنا جل جلاله: ﴿فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ [غافر:٧٧].

الله جل جلاله فيما سبق من الآيات أخبر عن **تمرد** الكفار والمرتدين وعبدة الأوثان والأصنام، وتكذيبهم للحياة ثانية، وتكذيبهم لنبيهم، فأنذرهم وتوعدهم، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فاصبر﴾ [غافر:٧٧] أي: اصبر على تكذيب هؤلاء ولأوائهم، فالعاقبة لك كما كانت للأنبياء قبلك، ونهاية الأمر نصرك وذلهم وهزيمتهم وهوانهم، قال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ [غافر:٧٧].

وما وعدك الله به من نصر مؤزر ونشر لدينه وهزيمة لعدوه وقضاء عليهم في حياتك وبعد مماتك كل ذلك حق سيتحقق، فما وعدك الله به هو وعد حق وصدق، كما وعد إخوانك وآباءك من الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا بعدك، وهي تسلية وتعزية للنبي عليه الصلاة والسلام وقد لقي منهم الشغب، وكان ذلك في مكة قبل فرض الجهاد، والسورة مكية، والجهاد لم يشرع إلا بالمدينة المنورة، فكلمات الصبر ودعوة النبي عليه الصلاة والسلام للعفو نجدها في الآي المكية، ولا نجدها في الآي المدنية؛ لأن الله أذن لرسوله وخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم أن يقاتل أعداء الله وأعداء رسوله وكتابه، فلا حاجة للصبر بعد ذلك، وإن كان الصبر في حد ذاته يؤمر به كل مؤمن قبل وبعد، في الحياة النبوية وبعدها، وأمر به الناس كافة، فلابد من الصبر لبلوغ الدرجات العلى، ولابد من الصبر على اللأواء وبلاء الدنيا وكراهية الأعداء وبغضائهم، ومن صبر نال وظفر.

قال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ [غافر:٧٧].

يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم إن هذا الذي وعدناك إما أن تراه في حياتك، وتعيش إلى أن يصبح تحت يدك، وترى النصر وتسمعه، ويعزك الله على عدوك وأنت لا تزال حيا، فإما أن يحدث بعض ذلك في حياتك، والبعض الآخر يكون بعد وفاتك، كما قال تعالى: ﴿فإما نرينك﴾ [غافر:٧٧] و (إن) شرط، و (ما) ويقولون عنها: زائدة، وهي ليست زائدة حتى في غير القرآن، ولا يليق أن يقال عن القرآن: بأن فيه شيئا زائدا، وإنما هي لمعنى التأكيد، فيؤكد الله جل جلاله مع الشرط بأنه سيرى نبينا عليه الصلاة والسلام

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٥/٢٩٤

بعض ما يعده، فيقول: إما أن نرينك بعض ما نعدك أو نتوفينك فإلينا يرجعون، أي: إن نصرناك عليهم وأنت لا تزال حيا، أو نصرنا أتباعك عليهم وأنت قد مت فمرجعهم إلينا، فنحن الذين سنؤدبهم وننتقم منهم في حياتك وبعد مماتك كذلك.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم)

قال تعالى: ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ [فصلت:٢٤].

يقول تعالى لهؤلاء الذين شهدت عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم وأفخاذهم وفروجهم: يا هؤلاء الذين أخذتم في النزاع والشقاق مع بعض أعضائكم! لا تتعبوا أنفسكم، فالنار مثواكم أبدا، فهي منزلكم ومقامكم، فاصبروا أو لا تصبروا؛ ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ [فصلت:٢٤].

من الثواء والمقام، أي: دار مقامكم ومنزلتكم سواء صبرتم أو لم تصبروا، ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ [فصلت:٢٤]، أي: مقام ودار خالدة لهم.

﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ [فصلت:٢٤] يستعتبوا السين والتاء للطلب، أي: يكتبوا العتب ويعتذروا عن أعمالهم؛ ليرضوا ربهم، وهيهات هيهات، فلا مجال للعذر.

وهذا كما قال أصحابهم السابقون للملائكة وهم يسحبونهم إلى النار سحبا ويجرونهم إليها على وجوههم: ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب﴾ [غافر:٤٩]، فتجيبهم الملائكة: ﴿قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ [غافر:٥٠].

وهنا كذلك يأخذون في الاستعتاب إلى ملائكة النار ويقولون: إنما أضلنا فلان وجهلنا وقلنا: نعزم على التوبة وسبقنا الموت، فهل تقبلون عذرنا؟ وهل تعيدوننا إلى دار الدنيا كما كنا؟ فيطلبون من الملائكة أن يتضرعوا إلى ربهم ويسألونه لهم، فتقول الملائكة لهم: هل هذا جديد عليكم أو تعلمونه من قبل؟ أولم تأتكم رسلكم بالبينات؟ فيقولون: بلى، ويعترفون.

ومع ذلك **تمردوا** وضلوا وأضلوا وأصروا على الكفر إلى أن وجدوا أنفسهم في واقع ما كانوا ينكرونه، ويشركون بالله فيه، فيحاولون إذ ذاك أن يطالبوا بالعودة إلى الدنيا، وهيهات هيهات، ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ [فصلت:٢٤].

أي: وإن يعتذروا ويطلقوا العتبى فما هم من المعتبين المعذورين، ولا يقبل لهم عذر ولا عتاب ولا رجاء، ولا تقبل منهم دعوة، فهم في النار خالدين أبدا، والدنيا قد انتهت وفنيت ولم يبق لها وجود بعد أن أدت

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٢٩٦

مهمتها، فلا وجود الآن إلا للدار الآخرة، فإما في جنة دائمة خالدة أو في نار دائمة خالدة، فلا منجى للكافرين منها، ومقام المؤمنين في الجنة خالدين أبدا ما دامت السماوات والأرض عطاء غير مجذوذ، وذلك فضل الله وعطاؤه للمؤمنين.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (من عمل صالحا فلنفسه)

قال ربنا جل جلاله: ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت:٤٦].

بعد أن توعد الله الكافرين وبشر المتقين قال عن هؤلاء وعن هؤلاء: ((من عمل صالحا فلنفسه))، وهم المؤمنون الأتقياء الذين استجابوا لربهم وأطاعوا نبيهم صلى الله عليه وسلم، فهم إنما يعملون الصالحات لأنفسهم، وهم الذين ينتفعون بذلك ويكرمون من أجل ذلك، فنفسهم خدموا ولأنفسهم قدموا.

والعكس بالعكس، ((ومن أساء فعليها))، أي: ومن أساء الطاعة والعقيدة وكفر بالله وأشرك به وخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبه؛ فعلى نفسها جنت براقش! وكما في الحديث القدسي: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم لما زاد ذلك في ملكي شيئا.

يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا.

يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد شرا فلا يلومن إلا نفسه).

وفي الحديث القدسي الآخر: (يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا).

فالله جل جلاله لا يظلم أحدا، ((وما ربك بظلام للعبيد)) وظلام صيغة مبالغة، ونفيها نفي للكل لا للمبالغة فقط، بدليل قوله تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف:٤٩].

فنفى الظلم مطلقا، وهو عموم يخص صيغ المبالغة وغير المبالغة، فالمعنى شامل لنفي الظلم في كل أشكاله، وعلى ذلك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها.

والله عندما يدعونا لعبادته ولطاعته ويحذرنا عقوبته فذلك منه جل جلاله رحمة وإكرام، حتى إذا جاء الإنسان يوم القيامة ووجد الخير حمد الله وشكره على أن وفقه لذلك حال حياته، فإن وجد غير ذلك

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٦/٣٠١

فتبقى الحجة البالغة لله، والمذنب والمشرك هو الذي تمرد وعصى ودمر نفسه وأوبقها بالمخالفات وبالشرك بالله.." (١)

"الانتصارات التي حققها النبي وخلفاؤه الراشدون

مات النبي عليه الصلاة والسلام وانتقل إلى الرفيق الأعلى وقد أسلمت جزيرة العرب ولم يخرج الإسلام بعد عن الجزيرة، فخطط النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك للروم، ثم في غزوة مؤتة التي أرسل لها أربعا من القواد: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة فاستشهد الجميع وولي القيادة خالد بن الوليد سيف الله وذكر ذلك نبي الله للأقوام وقال: (استلم الراية زيد فاستشهد وجعفر فاستشهد وعبد الله فاستشهد وأمر نفسه خالد ولم أؤمره وهو سيف الله المسلول).

وأوصى لـ أسامة بن زيد بقيادة الجيش الذي سيحارب الروم وينشر الإسلام في بلادهم، وتوفي النبي عليه الصلاة والسلام وهو يوصي: (ألا فأنفذوا جيش أسامة ألا فأنفذوا جيش أسامة، وأخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب، لا دينان في جزيرة العرب).

انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى فقام الخلفاء الراشدون بواجبهم تجاه الدين، ففي خلافة عمر نشر الإسلام للعوالم فما كاد يستشهد حتى نشر الإسلام في أرض الشام وأرض العراق وأرض فارس وأرض مصر وأرض البربر؛ فهم الذين كانوا رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم لنشر هذا الإسلام بعده.

فخلف من بعد ذلك خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وأنذروا من الله وقال لهم: ﴿فسوف يلقون غيا﴾ [مريم:٥٩] فعاقبهم الله فتقاتلوا فيما بينهم وكان بأسهم بينهم شديدا، وسقط بسلاح بعضهم البعض مئات الآلاف، والذين لو بقوا لنشروا الإسلام في الكون ولما بقي في الأرض إلا مسلم يشهد بشهادة الحق: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

هؤلاء الذين خلفوا الأقوام الأول والقرون الثلاثة الفاضلة عهد الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من القرون التي قال عنها عليه الصلاة والسلام: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)، قام الصحابة ثم التابعون ثم تابعوهم بنشر هذا الأمر فما كادت تمضي خمسون عاما من القرن الأول حتى عم الإسلام الكون من الصين شرقا إلى جبال برينيه في عمق أوروبا أرض فرنسا وما بينهما.

ولكن جاء بعد من تلاعب في الحكم الذي كان لكل مسلم الحق في أن يكون له الرأي والمشورة، وإذا بهم حولوها كسروية قيصرية كما تنبأ بذلك عليه الصلاة والسلام عندما قال: (الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٣٠٧

يصبح الملك عضوضا كسروية قيصرية)، وعندما تمرد من تمرد من البغاة الذين قال عنهم نبي الله في الحديث المتواتر: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار).

فهؤلاء القوم الذين شرفهم الله بجعل الرسالة فيهم، وبجعل لغة القرآن ولغة الإسلام لغتهم، بعد ذلك انكبوا وتحالفوا مع كل عدو للإسلام من اليهود القردة والخنازير ومن الصليبيين عبدة مريم وعيسى، وأصبحوا يحاربون دينهم وكتابهم وشرفهم وعزهم، وأصبحوا عبيدا لليهود وللنصارى ضاربين بالشرف الذي شرفهم الله به عرض الحائط.

قال ابن تيمية: العرب في أنفسهم سادة الناس، وتمت السيادة بعد ذلك في الجاهلية والإسلام حيث جعل الله الرسالة فيهم والقرآن بلغتهم، ولغة الإسلام بلغتهم.

وقال عنهم: كان العرب أرضا خصبة تفتقد الزرع والزارع فكان الزرع الإسلام وكان الزارع محمدا عليه الصلاة والسلام، وإذا بها تؤتي من الخيرات والنور والشرف والهداية ما عم الكون، فكانوا أئمة الناس ومعلميهم، وكانوا هداة الناس، وكانوا الفاتحين القلوب للهداية والنور الذي جاء به سيد الخلق وخاتم الأنبياء عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وقوله تعالى: ﴿وسوف تسألون﴾ [الزخرف:٤٤] أي: وسوف تسألون عن هذا الشرف في أخراكم، ما الذي صنعتم به؟ هل نشرتم دين الله؟ هل قمتم بما عليكم؟ هل نشرتم لغتكم التي جعلها الله لغة كتابه ولغة نبيه ولغة دينه؟ هل كنتم الأئمة والهداة جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر إلى أن يصبح هذا الإسلام في كل العصور هداية الأقوام إلى يوم القيامة؟ وسيكون الناس يوم القيامة مسئولين عن أنفسهم، والعرب مسئولون مرتين: مرة في أنفسهم، ومرة عن هذا الشرف الذي شرفهم الله به من كون لغة القرآن كانت لغتهم، والنبوة كانت فيهم، هل قاموا بما يجب عليهم فيها؟ والكفر قبيح من كل إنسان وهو أقبح عندما يكون فيمن ينتسب إلى العرب، أيليق بقوم محمد الذين شرفهم الله بجعل القرآن بلغتهم ولكون النبي منهم أن يقاتلوا المسلمين ويحاربوا دينهم ويكونوا مع اليهود والنصارى على أنفسهم وعلى نبيهم وعلى كتابهم؟ قال قتادة في هذه الآية: (وإنه لشرف لك ولقومك) دخل في قوم النبي عليه الصلاة والسلام كل من قال: لا إله إلا الله، فقد شرفه الله بالإسلام، وشرفه بهداية محمد عليه الصلاة والسلام، وأصبح في نفسه مطالبا بعد ذلك بنشر هذا الدين على حسب علمه وعقله وما قدره الله عليه، قال الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ [آل عمران:١١٠].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض وواجب على كل مسلم، وأكد هذا الفرض وزاد الآية بيانا نبينا

عليه الصلاة والسلام، فهو لا يخاطب قومه فقط ولكن يخاطب كل المسلمين فقال: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)، أي: لا إيمان لمن لم ينكر الباطل بقلبه، وناقص الإيمان من يقدر على إنكار الباطل بيده فلم يفعل، وناقص الإيمان من قدر على إنكار الباطل بلسانه فلم يفعل، ولا إيمان لمن لم ينكر الباطل بقلبه؛ ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: (وذلك أضعف الإيمان).

والإسلام شرف لكل مؤمن، وكما قال عليه الصلاة والسلام: (الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة) وأعظم نعمة كرم الله بها الإنسان أن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن يكون من أتباع هذا النبي الكريم إمام الأنبياء وخاتمهم، وصفوة الخلق ملكا وجنا وإنسا صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ونحمد الله ونشكره بكل خلايا جسومنا أن جعلنا من أمته ومن أتباعه، وأدامنا الله على ذلك إلى لقائه يوم القيامة على الحوض وفي الجنان.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين)

قال تعالى: ﴿فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين﴾ [الزخرف:٥٦]، أي: فجعل الله ما فعله بـ فرعون وبقومه من نقمة وغرق -معاقبا لهم في دار الدنيا- سلفا ومثلا للآخرين ممن يمكن أن يأتي بعدهم وأن يكفر كفرهم ويعصي عصيانهم **ويتمرد** على نبيه، وفي ذلك إنذار لجزيرة العرب وللعجم ولكل من أرسل إليهم نبينا صلى الله عليه وسلم من مختلف أمم الأرض وشعوبها، وأنهم إذا خالفوا كما خالف قوم فرعون وفعلوا فعلهم وادعوا الألوهية الكاذبة لأصنام لهم وأوثان فسيقع عليهم ما وقع على أولئك.

والسلف: جمع سالف، أي: ماض وسابق، فالله جعلهم بعد قوم تقدموهم وسبقوهم في لعنة الله عليهم وعقوبته لهم بأن عاقبهم عقاب من يعصي نبيه ويخرج عن أمر ربه ويكفر بما أمر بالإيمان به ويؤمن بالكفر من كل كافر ومن كل وثني ومن كل مدع على الله ومفتر كاذب، فالله جعل فرعون وقومه سلفا لقوم بعدهم وجعلهم سبقوا غيرهم ليعلم من يأتي بعدهم ويفعل فعلهم بأنه يعاقب عقابهم فيحذر ويخاف أن يحصل له ما حصل لمن سبقه من الكذبة الطغاة والفجرة الذين جعلهم الله سلفا.

وذكر الله ذلك لقريش ثم لجميع العرب ثم لجميع شعوب الأرض بمختلف الملل واللغات فيما إذا خرجوا

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٣/٣١١

عن أمر نبينا عليه الصلاة والسلام وطاعة كتاب الله المنزل على نبينا ليعلموا أن لهم سلفا ممن عوقب وانتقم منه ك فرعون وقومه.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين)

قال تعالى: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ [الدخان:٧].

فهو رب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو رب السموات ورب الأرض، ورب ما بين السموات والأرض من أفلاك ومن مجرات ومن خلق، وهو أعلم بهم، فهو الرب الخالق الرب المدبر المحيي المميت الرازق، وهو رب جميع الخلق، ليس رب محمد فقط، ولا رب الأولين فقط، ولا رب الآخرين فقط ولكنه رب الأولين والآخرين ورب كل ما خلق.

قال تعالى: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ [الدخان:٧] مما نرى ومما نعلم ومما نقرأ عنه ومما أخبرنا به القرآن وحدثنا عنه نبينا عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ [الدخان:٧] أي: يا هؤلاء الذين سمعوا هذا الكتاب وبلغهم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كنتم موقنين بهذا، وإن كنتم على يقين بالتوحيد، وعلى يقين بصدق هذا الكتاب وأنه منزل من الله، وعلى يقين بصدق المنزل إليه محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا رحمة لكم ورحمة بكم، وإن كنتم غير مؤمنين وغير موقنين فإن العذاب ينتظر كل من لم يكن كذلك، فهو قد أبى الرحمة ورفض الرحمة وابتعد عن الرحمة، فما أتعسه وما أشقاه، جاءه الخير فرفضه وداس عليه، فعليه لعنة الله جزاء عصيانه **وتمرده**.

ثم قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ [الدخان:٨].

فهو ربنا ورب آبائنا ورب الخلق أجمعين، وهو إله في السماء وإله في الأرض، وهو الإله المعبود المستحق للعبادة من كل ما خلق من ملائكة وجن وإنس وحيوان، وهو رب آبائنا ورب أجدادنا ورب أولادنا ﴿لا إله إلا هو﴾ [الدخان:٨] لا ثاني له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، هو المحيي المميت الذي أحيانا بعد عدم.." (٢)

"تفسير قوله تعالى: (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق)

قال تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [الجاثية:٦].

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٣/٣١٣

(٢) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٨/٣١٨

قوله تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ [الجاثية:٦] أي: تلك -يا رسول الله، ويا أيها المؤمن- آيات من آيات الله ذكرت لك، فخلق السماوات والأرضين، وخلق الإنسان، وخلق الدواب، وإنزال الأمطار، واختلاف الليل والنهار، وتصريف الرياح، كل ذلك آيات بينات وعلائم واضحات ودلائل قاطعات على وحدانية الله.

وقوله تعالى: ﴿تلك آيات الله﴾ [الجاثية:٦] أي: تلك آيات الله، وتلك قدرة الله، وتلك إرادة الله، وتلك الدلائل القاطعة على معرفة الله بوحدانيته وقدرته وأنه لا شريك له.

﴿نتلوها عليك بالحق﴾ [الجاثية:٦] نقرؤها عليك، وننزلها عليك بالحق الذي لا باطل فيه، والذي لا ينكره إلا مبطل، متلاعب، مشرك، بعيد عن النور والحق.

قال تعالى: ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [الجاثية:٦] فإذا لم يؤمنوا بهذه الآيات المتلوة نهارا وليلا؛ فما هي الآيات التي سيسمعونها، أو الآيات التي سيؤمنون بها، أو الآيات التي سيرونها الدلائل القاطعة التي تحتاج إلى إيمان وإلى استمساك وإلى معرفة.

﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [الجاثية:٦]، فبعد هذا الذي تلاه الله في الكتاب، وقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات هي أعظم من هذه، وهي أشمل من هذه، وهي أقوى دليلا من هذه؟! والاستفهام إنكاري توبيخي، أي: ليس بعد هذه الآيات آيات، ولا بعد هذه الأدلة أدلة، ولا بعد هذه البراهين براهين، ولا بعد القرآن كتاب الله كتاب يمكن أن يؤمنوا به، وقد كفروا بهذا القرآن، كفروا به متلوا، وكفروا به مسموعا، فما زادهم جماله وبيانه إلا الخسران والعصيان **والتمرد**.

فقوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [الجاثية:٦] استفهام إنكاري صريح، أي: إذا لم يؤمنوا بهذه الآيات البينات فبأي حديث بعد كلام الله ودلائل قدرة الله، ورسل الله وما أتوا به من بينات، وبأي دليل، وبأي كتاب، وبأي رسول سيؤمنون بعد هذا إذا أنكروه وكفروا به؟!." (١)

"تفسير قوله تعالى: (ويل لكل أفاك أثيم)

قال تعالى: ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ [الجاثية:٧].

أي: الويل له في جهنم من صديد ودماء المعذبين والمعذبات، ومن صديد الفواجر في النار، فهذا دعاء عليه بأن يكون الويل شرابه ونهره الذي يعيش عليه في النار، والمعنى يا ويل هؤلاء، أي: يا ما أعظم مقامهم ذلا وهوانا وعذابا في النار.

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ١١/٣٢٤

و (أفاك) صيغة مبالغة، أي: كثير الإفك، كثير الكذب، كثير البهتان، يكذب بالحق إذا جاء وكتابا وسنة ورسولا ودلائل واضحة، فويل لكل أفاك أثيم.

(وأثيم): مرتكب للآثام، أي: مجرم، أي أن حياته كلها آثام، أي: ذنوب ومعاص، ومخالفات وتحد **وتمرد** على الله وعلى رسل الله وكتب الله.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (اذهبا إلى فرعون إنه طغى)

قال تعالى: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه:٤٣ - ٤٤].

أي: قولا لفرعون قولا لينا لطيفا ولا تعنفا عليه ولا تقولا له قولا جارحا مؤلما، كما قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ [النحل:١٢٥].

وقد قال يحيى بن معاذ: هذه رحمة الله لمن قال: أنا إله، فكيف برحمته لمن قال: أنت الإله وأنا العبد! أرسلهما نبيين كريمين إلى الطاغية المتأله، ومع ذلك وجههما أن يقولا له كلاما لينا مهذبا بأن يكنياه مثلا: يا أبا فلان وأن يقولا له أنت لم تقصد سوءا ولكنك جهلت الحق، فنحن رسولا ربك إليك جئنا لخيرك وجئنا لسعادتك وجئنا لتعليمك، فاقبل منا تسعد في الدنيا والآخرة.

وقد قال المفسرون: وعد موسى فرعون بأن يحفظ الله عليه شبابه ما دام حيا، وأن يبقى ملكا ما دام حيا، وأن يمتع بلذة الطعام ولذة الشراب ولذة المنكح، ومع ذلك أبى **وتمرد** وطغى ففقد دنياه وآخرته.

قوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه:٤٤].

أي: لعله يفكر ويعود إلى نفسه فيراجعها في ادعاء الألوهية، فيخشى الله ويخشى العواقب، ويخشى النار التي أنذره بها موسى وهارون.." (٢)

"ذكر من يوصف بالبغي

ولا يوصف بالبغي الكافر، وكثيرا ما يقال: إسرائيل باغية، والحق أنها مرتكبة أعظم من البغي، فإسرائيل كافرة لعينة أخت القردة والخنازير وعبد الطاغوت.

فالبغي إنما يوصف به المسلم، فالمسلم عندما يظلم أخاه ويقاتل أخاه يقال له: باغ، أما الكافر فيقال عنه: كافر أعلن الحرب على الله، وأعلنها على رسول الله، فيقاتل لكفره، ويقاتل لظلمه.

وأحكام البغاة أخذت من حروب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما بغى عليه أهل الشام، وقاموا في

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ١٢/٣٢٤

(٢) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ١٠/٣٥

وجهه وأنكروا خلافته، فكانوا بغاة، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتواتر الذي رواه أكثر من عشرة من الأصحاب: (ويح عمار! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار).

فالنبي يصف من قتل عمارا بالبغي، وقد قتله أهل الشام **المتمردون** على علي وخلافة علي، فكانوا البغاة، وكان جيش علي هو الداعي إلى الجنة وأولئك الدعاة إلى النار، وهم البغاة.

وحكم الله في الباغي عندما ينتصر عليه أن لا تؤخذ أمواله غنائم، ولا أولاده إماء وعبيدا، ولا يجهز على جريح، ولا يلاحق مدبر، وإنما ذاك مع الكفار، فهم الذين تؤخذ أموالهم غنائم وأولادهم أرقاء وعبيدا إن شاء الحاكم والإمام ذلك، ورآه من مصلحة المسلمين، وأما البغاة فإنما يقاتلون ليخضعوا للحق وليخضعوا للعدل، فإن خضعوا واستسلموا رفع السيف عنهم، ثم يطالبون بعد ذلك بما أزهقوا من أرواح واستلبوا من أموال وهتكوا من حرمات، وهنا يقول الله جل جلاله: ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾ [الحجرات:٩]، أي: أصلحوا بين الفئتين المتقاتلتين العائدتين إلى الحق، واحكموا بينهما بالعدل بلا ظلم ولا حيف ولا انحياز لواحدة دون الأخرى.

قال تعالى: ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ [الحجرات:٩]، وإذا أحب الله شيئا أحب فاعله، وإذا كره الله شيئا كان مرتكبه آثما، وكان مرتكبه ظالما.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق)

قال الله تعالى: ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾ [طه:٩٩].

يقول الله جل جلاله: كذلك يا محمد، قصصنا عليك قصة موسى وهارون مع فرعون وهامان وقارون وملئهم حتى كأنك حاضر فيها زمنا وشخصا وحالا وغضبا ورضا وانتقاما ووحيا ودعوة إلى الله.

﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾ [طه:٩٩]: أي: نقص عليك من أخبارهم، وأنباء: جمع نبأ، أي: من أخبار الأمم السابقة والعصور الماضية، وأنبياء الله السابقين، وبدء الخلق، وما جرى على العصاة **والمتمردين** المكذبين لرسلهم وأنبيائهم؛ ليكون لك من ذلك عبرة، ويشد ذلك ظهرك، وتتخذ الأنبياء والملائكة قدوة لك، لتجد السلوى في ما جرى لك من قومك عندما تعرف ما جرى لهم من أقوامهم.

﴿من أنباء﴾ [طه:٩٩] من: للتبعيض، أي: قص الله تعالى على نبينا وعلينا بالتبع بعض أحوال من مضى لنأخذ منه العبرة والعظة والدرس، ونأخذ منها العلم والمعرفة.

﴿وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾ [طه:٩٩] كما قصصنا عليك أنباء السابقين كذلك أنزلنا إليك من عندنا ذكرا.

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٧/٣٥٤

والذكر هنا هو القرآن الكريم، ففيه ذكر من قبلنا وذكر من بعدنا، وفصل ما بيننا، ما تركه من جبار إلا قصمه الله، فيه الحق بداية ونهاية، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾ [طه:٩٩]: أي: وأوحينا إليك وأكرمناك بكتاب لم يسبق مثله في السابقين، ولم يأت بعده في اللاحقين، خاتم الكتب السماوية وجامع ما فيها والزائد عليها معرفة وذكرا وعلما وقصصا للذكرى وللعبرة والموعظة.

وفي قوله: ﴿وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾ [طه:٩٩] أي: تذكر به، فهو شرف لك، كما قال تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف:٤٤].

وهو شرف لك رفع اسمك في الخافقين، وخلد اسمك بين الخالدين، وكنت بذلك خاتم الأنبياء وإمامهم، وكان دينك دين العوالم كلها منذ أوحي إليك هذا الكتاب الكريم وإلى يوم النفخ في الصور، وهو للأبيض والأسود والأحمر والأصفر، للمشارق والمغارب، للعرب والعجم.

فهو ذكر وتذكير لهم بما سيئول إليه أمرهم، وهو عظة لهم، بشير للمستقيم، ونذير للكافرين.." [1]

"تفسير قوله تعالى: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا)

قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ [الأنبياء:٧٣].

يصف الله لنا هؤلاء الكرام السادة من الأنبياء ليكونوا قدوة لنا وأسوة.

﴿فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام:٩٠] قالها لسيد الخلق، وهي لنا تبعا لسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه.

قال عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿وجعلناهم أئمة﴾ [الأنبياء:٧٣] أي: سادة، ورؤساء، وقادة، وأنبياء، ورسلا.

قوله: ﴿يهدون بأمرنا﴾ [الأنبياء:٧٣] أي: بوحينا، يهدون الناس إلى الخير، ويهدونهم من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد.

قال تعالى: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ [الأنبياء:٧٣] فكانوا أنبياء موحى إليهم، ورسلا كراما دعاة إلى الله وتوحيده وعبادته.

وما الخيرات إلا الطاعات، وما الخيرات إلا العبادة، وما الخيرات إلا التوحيد، وما الخيرات إلا الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبرسله عبيدا مكرمين، ورسلا مبشرين ومنذرين.

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٤١

أوحى لهؤلاء السادة الثلاثة الكرام، وجعلهم أئمة في الخير وسادة للناس، وجعلهم رسلا وأنبياء، وأوحى إليهم من الخيرات العبادة والتوحيد والطاعة وفعل الخيرات كلها، وترك المنكرات جميعها.

قوله: ﴿وإقام الصلاة﴾ [الأنبياء:٧٣] وأوحى إلى هؤلاء أن يقيموا الصلاة، والإقامة: الإتيان بالصلاة بأركانها وواجباتها وسننها وشرائطها، وصلاة كل نبي حسب شريعته.

قوله: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ [المائدة:٤٨] أي: عبادة كالصلاة، وصلاتهم الله أعلم بها، ولكنها مع ذلك لا تخرج عن التسبيح، والتمجيد، والتعظيم، والدعاء، والتوجه لله بجميع الحواس.

قوله: ﴿وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ [الأنبياء:٧٣] كما أوحى إليهم إقامة الصلاة والملازمة عليها، والقيام عليها أوحى إليهم أن يؤتوا الزكاة، ويعطوا قدرا م علوما على كل مال وزراعة وتجارة، حسب شرائعه التي اندثرت ونسخت، وعوضت هذه الديانات بالدين الذي لم يقبل الله بعد الرسالة المحمدية غيره، قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ [آل عمران:٨٥].

وكل هذه الأمة أمة محمدية، المسلم واليهودي والنصراني، ولكن المستجيب من الناس يسمون أمة الإجابة، وغير المستجيب يسمى أمة الدعوة، ويعتبرون متمردين عصاة، وقد تمردوا على طاعة نبيهم أيضا؛ ولذلك عندما يقال: نبي العرب أو نبي الإسلام من يقول هذا يكون جاهلا، فليس هو نبي العرب وحدهم، ولم يأت النبي بهذا فقط، بل جاء بالإسلام لكل الخلق والبشر.

وهكذا دواليك إلى قيام الساعة، فمنذ وقف في هذه البطاح المقدسة، وعلى هذه الجبال الشاهقة، وفي هذه الأرض المباركة وهو يقول: إني رسول الله إليكم جميعا، لزم على كل من بلغته الدعوة أن يقول: سمعا وطاعة، لبيك يا محمد، لبيك يا رسول الله، فإن لم يفعل اعتبر متمردا كافرا مشركا، إلا أن يتوب الله عليه قبل أن تصل روحه إلى الحلقوم.

قوله: ﴿وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ [الأنبياء:٧٣] هذا هو المدح والإطراء الذي لا يعلوه مدح، الله جل جلاله يثني على عباده هؤلاء الذين خلدوا إلى أبد الآباد في الدنيا، وسيخلدون كذلك مع المؤمنين في الآخرة، أشاد الله بهم أعظم إشادة هنا، وفي غير ما آية وما سورة.

وقال خاتما هذه الآية: ﴿وكانوا لنا عابدين﴾ [الأنبياء:٧٣] أي: موحدين، ومختصين بالعبادة، لم يشركوا

معنا غيرنا، لم يطيعوا غيرنا، لم يعبدوا سوانا، وكانوا عابدين موحدين مطيعين لما أمروا به، وهكذا أثنى الله تعالى على هؤلاء السادة النجب.." [1]

"تفسير قوله تعالى: (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له)

قال تعالى: ﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ [الأنبياء:٧٦].

أي: يا محمد! كما ذكرنا لك إبراهيم جدك، وإسحاق عمك، ويعقوب ابن عمك، ولوطا، اذكر كذلك نوحا؛ فإنه كان كذلك من عباد الله الصالحين، ومن المصطفين الأخيار.

قوله: ﴿ونوحا﴾ [الأنبياء:٧٦] أي: اذكر نوحا، وتصور حاله.

وكل هذا أوحى الله به إلى نبيه ليثبت به فؤاده؛ لما لاقاه من قومه من جحود وعناد وكفران، فهو يقول له: لست بدعا من الرسل، وقد سبق أن الرسل قبلك أوذوا وظلموا، **وتمرد** عليهم أقوامهم وأتباعهم، ومع ذلك صبروا وصمدوا فكانت العاقبة لهم، وكان الخسران لعدوهم، كذلك اصبر فإن العاقبة لك كما كانت للأنبياء قبلك، وإن أعداءك سيسحقون، ولكن لا بد من الصبر.

وهكذا الله أمر نبيه وأمر أتباعه كذلك؛ ولذلك ذكر الصبر عشرات المرات في القرآن الكريم، وخصه الله بسورة العصر التي قال عنها الإمام الشافعي: لو عمل بها المسلم لكفته.

﴿والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر:١ - ٣].

الصبر في الدعوة، والصبر في العبادة، والصبر في ترك المنكرات، والصبر على المأوى والشدائد إلى لقاء الله، فمن صبر نصر، وكانت العاقبة له.

قال تعالى: ﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له﴾ [الأنبياء:٧٦] اذكر نوحا إذ نادى أي: نادانا وتضرع إلينا، ودعانا لنصرته.

﴿إذ نادى من قبل﴾ [الأنبياء:٧٦] أي: قبل هؤلاء جميعا، إذ نوح هو الأب الثاني للبشر بعد آدم، إذ الطوفان قد عم كل الأرض فأصبح من على وجه الأرض بعد نوح أولاد له، وللقلة القليلة التي آمنت معه وركبت السفينة، فكان بينه وبين آدم -زعموا- ألف سنة، وليس هناك شيء يؤكد ذلك من كتاب الله أو سنة رسوله، وقد قيل: إن إدريس سبقه، ولكن الجماهير على أن إدريس كان بعده.

قوله: ﴿ونوحا إذ نادى من قبل﴾ [الأنبياء:٧٦] أي: من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط، وكان أقدمهم

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٥/٥٧

وجودا وحياة وعصرا.

﴿فاستجبنا له فنجيناه﴾ [الأنبياء:٧٦] أي: أجبناه لرغبته، وهو ينادي ويضرع إلينا، ولمكان النداء والدعاء ولمكانة الضراعة، استجيب له؛ لأن نوحا كانت نبوءته في قومه أفضل النبوءات على الإطلاق، لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما، ولقي من الشدائد والعظائم والإيذاء ما لم ينله أحد من الأنبياء قط؛ لأنه طال الزمن وهو صامد صمود الجبال.

وبعد هذه المدة الطويلة ما عاد يستطيع الصبر أكثر؛ فأخذ يدعو على قومه أن ينجيه الله منهم، وأن ينتقم منهم، فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾ [نوح:٢٦ – ٢٧] نادى: يا رب! إني مغلوب فانتصر، وإذا بالله الكريم يستجيب له بعد المدة الطويلة.

وهكذا أدب الدعوة، أن الإنسان عندما ينادي ربه ويدعوه لا يقول: لم يستجب لي؛ لأنه مضت سنة أو سنتان أو شهر أو شهران ولم يستجب، فيستجاب لك إن قدر لك ذلك، وكان في صالحك، وقد تكون الاستجابة ليست في صالحك، ولكن الأمر يكون حسب إرادة الله في الوقت المناسب، وفي الأصلح لك.

وهكذا رأينا يوسف بعده، بعد أن تآمر عليه إخوته، وبعد أن بيع عبدا وقذف به في بئر، وبعد أن اتهم بما اتهم، وبعد أن رمي في السجن سنوات، بعد كل ذلك بأربعين سنة استجاب الله له فيما بشره به في الرؤيا الصالحة: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف:٤] ففهمها أبوه يعقوب وقال: ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾ [يوسف:٥].

وهكذا كل نبي له قصة مع قومه، وقد عرضها الله بالتوالي منجمة خلال ثلاث وعشرين سنة على عبده وحبيبه محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ ليتأسى بذلك، وليتعزى بذلك، وليجد قوة في تجديد طاقاته على الدعوة والصبر على إيذاء قومه، وأن النهاية له بالنصر والغلبة على الأعداء، تثبيتا للدعاة من أتباعه فيما مضى، وفيما حضر، وفيما هو آت إلى يوم القيامة، وهذه فائدة التاريخ، أنه يثبت القلوب ويعطي الإنسان قوة، ويجعله يعيش مع أقوام بينه وبينهم آلاف السنين، فيرى ما أدركوه وما قاسوه، وماذا جرى لهم.

وكانت النتيجة: أن نصرهم الله، وفازوا بالربح، وفازوا بالرحمة، وآب أعداؤهم بالذل والخسران المبين.

فقوله: ﴿ونوحا إذ نادى من قبل﴾ [الأنبياء:٧٦] أي: نادى قبل هؤلاء الأنبياء، فاستجبنا له، فأجابه الله في دعائه وندائه عندما صبر عليهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فأغرقهم أجمعين، ودمرهم أجمعين وكأنهم لم يكونوا.

وابتدأ نوح حياة جديدة بين هذه القلة الصالحة من أتباعه، وهكذا تجددت الدنيا، وتكاثر الأولاد والذرية، وخلد نوح كما خلد الأنبياء قبله وبعده.
قوله: ﴿فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ [الأنبياء:٧٦] نجاه مع أهله وأتباعه، وخرج عن أهله وولده؛ لأنه كان عمله غير صالح، وأبى إلا الإصرار على الكفر حتى وقت الطوفان، ونزول الأمطار من السماء، وتفجير الأرض، ودعاه أبوه: اركب معنا! أي: آمن لتركب معنا قال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ [هود:٤٣].
يرى البلاء بعينيه ويسمعه بأذنه، ويأبى إلا الإصرار وهكذا الخذلان عندما تطبع القلوب باللعنة والطرد من الرحمة، وحتى لا يعتمد الإنسان على أبيه وجده وحسبه ونسبه، فهذا ابن نبي عاش معه هذه المدة الطويلة، ولكنه ما استطاع أن ينفعه بقليل ولا بكثير.
وهكذا كان يقول نبينا عليه الصلاة والسلام، وينادي زوجاته وأحفاده، وينادي بني هاشم: إياكم أن تأتوني تحملون على أكتافكم البعير والناقة وكذا وكذا، فإني لا أغني عنكم من الله شيئا، فلا ينفع مع الشرك شيء، قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء:٤٨].
فإن كانت هناك منفعة ففي الدنيا، بحيث يدعو النبي أو يدعو الصالح للإنسان الفاجر مادام حيا، فقد يستجاب له فيؤمن وتسبقه الهداية، كما دعا النبي عليه الصلاة والسلام ورجا من الله فقال: (اللهم اهد أحب العمرين إليك) فاستجاب الله دعاءه في عمر بن الخطاب؛ لأن عمر حتى في شدة كفره لم يستهزئ ولا سخر.
أما المستهزئون الذين قال الله عنهم لنبيه: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ [الحجر:٩٥] لقد قال ابن تيمية: ما استهزأ أحد برسول الله في حياته أو بعد مماته إلا وختم الله له بسوء الخاتمة، لا تنفعه دعواه، ولا ينفعه شيء من عمله، لا صدقات ولا غيرها.
فاستجاب الله دعوة نبينا في عمر بن الخطاب لأنه يكن من المستهزئين، وختم على أبي جهل بسوء الخاتمة والقتل والذل في بدر.." [١]

"تفسير قوله تعالى: (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن)

ثم قال تعالى: ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ [الأنبياء:٩٤].
بعد أن أخبر بأن الدين واحد، وأن المعبود واحد، وأن الرسالة التي أرسل بها الرسل واحدة في الدعوة إلى

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٥٨

توحيد الله، وإلى عبادته وحده؛ وأنذر وتوعد من قطع الدين وجعله أحزابا وشيعا بأنه سيرجع إلى ربه ويحاسب بذنبه عاد فبشر المؤمنين في هذه الآية فقال: ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾ [الأنبياء:٩٤].

ولم يطلب الله الصالحات كلها؛ لأن البشر يعجز عن أن يأتي بذلك كله؛ وهذا ما فسره نبينا عليه الصلاة والسلام وقال: (ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) لم نكلف إلا بما نستطيع ونقدر عليه، ولم يجعل الله علينا في الدين من حرج.

قوله: ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ [الأنبياء:٩٤] أي: بعضها، فـ (من) للتبعيض.

﴿وهو مؤمن﴾ [الأنبياء:٩٤] أي: حالة كونه مؤمنا، و إلا فعمل غير المؤمن يكون هباء منثورا؛ لأنه يعمله للشركاء، فهي زيادة في الكفر والمعصية **والتمرد** والتحدي، ولا عبادة إلا بالنية، ولا نية إلا مع الإخلاص، وهذا لا يعبد الله الواحد، وبالتالي لا إخلاص له؛ لأنه يعبد أربابا متفرقين.

قوله: ﴿فلا كفران لسعيه﴾ [الأنبياء:٩٤] أي: لا جحود ولا إهمال لسعيه وعمله، والجحود من الله لعباده معناه العقاب والمكافأة، والجزاء بما صنعوا من سوء، واعتراف الله للعبد وقبوله لطاعته يكون ذلك بالرضا عنه وبقبولها.

قوله: ﴿فلا كفران لسعيه﴾ [الأنبياء:٩٤] أي: لا يجحد الله سعيه، ولا عمله، بل يجازيه عليه ويحسن إليه من أجله، لا يجحده إياه ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف:٤٩] يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي فلا تظالموا.

قوله: ﴿وإنا له كاتبون﴾ [الأنبياء:٩٤] أي: إنا لسعيه وطاعته وعبادته حافظون وكاتبون، نكتب ذلك له، ونأمر الملائكة المصاحبين للإنسان من عن اليمين أن يكتبوا حسناته وسعيه الصالح، ونحن نحفظ له ذلك ونجمعه له، إلى أن يجازى عليه بدخول الجنان والرحمة والرضا من الله.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج)

قال تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾ [الأنبياء:٩٦ - ٩٧].

يقول جل جلاله عن هؤلاء الكفار العصاة المجرمين الذين طالما أنذرهم الرسل فلم يزدادوا إلا عتوا **وتمردا** وعصيانا وخلافا: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ [الأنبياء:٩٦].

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٧/٦٢

ومضى بالأمس الكلام على يأجوج ومأجوج، وأنهم بشر من نسل آدم من ولد يافث بن نوح، وأنهم عراض الوجوه، غلاظها صغار الأعين، تزدريهم العين، لا يكادون يفقهون حديثا، ديدنهم الفساد والتخريب، وسفك الدماء منذ زمن طويل، حبسهم ذو القرنين بسد جعله دونهم، ولا يزالون كذلك ولا يخرجون إلا عند قرب قيام الساعة، وهم كل يوم يحاولون أن يحفروا نقبا في هذا السد؛ لينتشروا ويخرجوا للفساد والتخريب.

وقد قيل: إنهم التتار، فلقد طالما خربوا وأهلكوا الحرث والنسل وسفكوا الدماء، ولكنهم ليسوا يأجوج ومأجوج، كما في كتاب الله الكريم، وكما أكدت ذلك السنة المطهرة أن يأجوج ومأجوج يكادون يتصلون بقيام الساعة، وقد قال عليه الصلاة والسلام عندما ذكر علامات الساعة الكبرى: (إن يأجوج ومأجوج يخرجون بعد نزول عيسى من السماء، ولا يكون بعدهم إلا قيام الساعة)، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (قد يشتري الإنسان فلوا -ولد الحصان- ولكنه لا يكاد ينتفع به وتقوم الساعة).

﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ [الأنبياء:٩٦]، أي: فتح السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج، وإذا بهم ينسلون من كل حدب، ومن كل تل ومرتفع من الأرض، والحدب: هو الارتفاع في الأرض، وهو التلال.

﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ [الأنبياء:٩٦]، أي: يأتون مسرعين يجرون جري الذئاب الخفاف من الحيوانات.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (لهم فيها زفير وهم فيها خالدون)

قال تعالى يصف هؤلاء ساعة دخلوهم النار: ﴿لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾ [الأنبياء:١٠٠].

الزفير: دخول النفس من الخارج، والشهيق: خروجه من الداخل، وهذا نتيجة الغم والعذاب، ونتيجة ما هم فيه فتجدهم في زفير وشهيق دائمين لا تكاد تقف أنفاسهم وقوف الهادئ المستقر.

﴿لهم فيها زفير﴾ [الأنبياء:١٠٠]، أي: نفس قوي يهبط بهم ويصعد، خروجا ودخولا، زفيرا وشهيقا.

﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ [الأنبياء:١٠٠].

وهذا كناية عن شدة العذاب وعظم البلاء، قال ابن مسعود رضي الله عنه: عندما يخرج المسلمون الموحدون الذين امتحنوا بدخول النار ولا يبقى في النار إلا كافر مخلد أبدا، يوضع هؤلاء المخلدون في توابيت فتغلق عليهم بحيث يظن كل معذب منهم أنه وحده الذي بقي في النار، فلا يسمع ما يقال، ولا يسمع ما يجأر به، ويصيح له، ويضرع له من معه، يصبحون صما بكما عمياً لا يرون إلا ما هم فيه من تابوت وقد أغلق،

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، ال كتاني، محمد المنتصر ٢/٦٣

فلا يسمعون ولا يرون الخارج عنه، وهكذا عذاب هؤلاء المشركين الذين أبوا إلا الجحود والكفران والتمرد على أنبيائهم وعصيان ربهم.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى)

قال تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ [الأنبياء:١٠١].

يقرن الله جل جلاله في كتابه بين العذاب والرحمة، بين النار والجنة، بين المغفرة والعذاب؛ لتبقى النفس البشرية ترجو رحمة الله إن هي تابت وأنابت، وتخاف عذابه إن هي تمردت وأبت وعصت.

ففي الآيات الماضية الوعيد والتهديد، وما يلاقيه المشركون من عذاب الله ولعنته، وهنا في الآية الآتية بشر الله المؤمنين الموحدين بنعيم مقيم ورحمة دائمة، فقال تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الأنبياء:١٠١]، أي: سبق لهم من الله تعالى الرضا والرحمة والحسنى نتيجة إحسانهم: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [الرحمن:٦٠].

المؤمنون الموحدون الذين سبق في علم الله في الأزل أنهم سيكونون مطيعين ومؤمنين، ومستجيبين لدعوات الرسل ولأمر الله ورسوله، هؤلاء يبعدون عن النار بعد السماء عن الأرض.

﴿لا يسمعون حسيسها﴾ [الأنبياء:١٠٢].

أي: ولا حركتها، ولا لهبها، ولا قرقعة نارها، وهكذا الله جل جلاله يقرن رحمته بعذابه؛ ليرجو المؤمن ويخاف التائب، ويوعد ويهدد المذنب عله يئوب ويعود إلى التوبة، فيغفر الله له ويكرمه برحمته وجنانه.." (٢)

"تفسير قوله تعالى: (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون)

قال تعالى: ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ [الأنبياء:١١٠].

أي: يا هؤلاء الذين تمردوا على ربهم، إن الله يعلم ما تجهرون به من القول، وتصدون به الناس عن الإيمان، وتجهرون به لنبيكم من كفر وعصيان، ومخالفة ومواجهة ومجابهة.

قوله: ((ويعلم ما تكتمون))، أي: يعلم ما تكتمونه في أنفسكم من تآمر ورغبة في قتل النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل أصحابه، وطردهم من مكة وعقوبتهم.

وسبب هذه الآية كفار عصره، ثم أصبحت للعموم، يخاطب بها كل كافر كما يخاطب بها كل مؤمن، فمن

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٧/٦٣

(٢) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٨/٦٣

كفر قبل أو بعد وفي عصرنا أو بعده كل ما ورد في القرآن عن الكفار فهو مخاطب به، ومن سيأتي بعدنا.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (قال رب احكم بالحق)

قال تعالى: ﴿قال رب احكم ؟بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ [الأنبياء:١١٢].

الذي قال هو نبينا عليه الصلاة والسلام، وحكى عنه الله ذلك، كما قال الأنبياء قبله: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ [الأعراف:٨٩]، وقرئ في القراءت السبع: ((قل)) وهل يحكم الله إلا بالحق، ولكنها بيان حقيقة وواقع، والله هو الذي أمر بذلك.

قوله: ﴿قال رب احكم بالحق﴾ [الأنبياء:١١٢] وقرئ: ((قل رب احكم بالحق))، والحق هنا ليس مقابل الباطل، وإنما المعنى: قل رب احكم بعذابك الحق على هؤلاء الذين طالما **تمردوا**، وعصوا، وطالما كفروا وتألبوا على المسلمين وعلى أنبيائهم، وعلى العابدين المؤمنين.

قوله: ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ [الأنبياء:١١٢]، ومع ذلك يبقى الله الرحيم حتى في وقت إيعاده وإنذاره، وذكر الرحمن هنا ولم يذكر الجبار ولا المنتقم.

قوله: ((وربنا الرحمن))، أي: إشارة إلى تطميع الكافر نفسه برحمة الله؛ ولذلك قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (لو يعلم الكافر ما عند الله من رحمته لطمع في جنته، ولم ييئس منها)، وهكذا! فالكافر مهما كان إذا علم الله في قلبه خيرا هداه للإيمان والإسلام يجب ما قبله، وقال: ﴿قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ [الأنبياء:١١٢]، أي: ربنا الرحيم بعباده، والرحمان لهم، والغافر لذنوبهم، والمنذر لهم، والموعد لهم، والمكرم لهم بأنبيائه ورسله، علهم يوما ويعودون إليه فيقولون: ربي الله.

﴿المستعان على ما تصفون﴾ [الأنبياء:١١٢].

أي: الذي يستعان به، ويستعين رسول الله بقدرته، وقد وصف الكفار الله تعالى بأن له صاحبة، وأن له شريكا، وقال الكفار عموما: له شريك وصاحبة وولد يحتاج إلى من يعينه، تعالى الله عن كل ذلك علوا كبيرا! كما قالوا عن نبي الله: كاذب، وقالوا: ساحر، وقالوا: مجنون، حاشاه من كل ذلك عليه الصلاة والسلام.

وبهذا نختم اليوم ولله الحمد سورة الأنبياء، ونستقبل غدا بمشيئة الله سورة الحج.." (٢)

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٧/٦٤

(٢) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٩/٦٤

"تفسير قوله تعالى: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم)

قال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد *كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ [الحج:٤].

يقول الله عن بعض المشركين، وعن بعض اللسنين المجادلين، وهم مع كفرهم ومع ردتهم ومع شركهم فيهم عناد وجدال للحق بالباطل: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ [الحج:٣].

وكان سبب نزول هذه الآية ما قاله النضر بن الحارث وهو يلف المشركين حول رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو جالس عند الكعبة الشريفة، يقول لهم: هذا الذي يقوله محمد أنا أقول مثله، لقد سافرت ورأيت بلاد الروم وبلاد الفرس وأستطيع أن أقص عليكم أساطير الأولين كما يقصها محمد، فهو يجادل بالباطل، ويجادل بغير علم، فلم يحاج ويبرهن ويستدل ويبحث عن الحق بدلائل المعقول والمنقول، وبالدلائل التي يقبلها العقل السليم، وبالأدلة التي نزلت وحيا عن الله جل جلاله على رسله وعلى خاتم النبيين عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، فالآية قد نزلت من أجل النضر، هذا وقد لقي جزاءه وقتل مع عقبة بن أبي معيط يوم بدر؛ يوم الفرقان، يوم نصر الله لنبيه وللمسلمين، وهذه صفة كل مشرك مضى أو سيأتي.

وكثيرا ما نجالس بعض هؤلاء المشركين وبعض المرتدين ممن كان يوما مسلما، فيجادل بالباطل في كتاب الله وهو يجهل منه أي كلمة وأية آية، ويجادل في دين الله وهو لا يعلم عنه نقيرا ولا قطميرا.

قال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ [الحج:٣] وما أكثرهم، فهو يجادل في الله بغير علم ﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾ [الحج:٣] فإمامه الشيطان، ومصدر تلقيه هو الشيطان ووسوسته وأضاليله، ويتبع كل شيطان من الإنس والجن من أئمة الباطل ومن أئمة الشرك، ومن أئمة الفساد في الأرض، فتراه يتبع كل ناعق، وتراه مع كل شيطان مارد.

قال تعالى: ﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾ [الحج:٣] أي: **متمرد**، وفعيل: صيغة مبالغة، أي: شديد **التمرد** على الله، وشديد الإصرار والتمسك بالشرك والعناد والمخالفة للسنة ولكتاب الله الكريم: ﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾ [الحج:٣].

قال تعالى: ﴿كتب عليه﴾ [الحج:٤] أي: قدر عليه، أي: قدر على الشيطان في الأزل منذ تعاظم على ربه وتكبر على السجود لآدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه، وأبى أن يسجد له متعاظما متكبرا مخالفا لأمر الله، وأول ما عصي الله بالكبر، وما تعالى إنسان على الله إلا وقصمه وأماته بالذل والهوان

حتى كأنه البعوض.

قال تعالى: ﴿كتب عليه أنه﴾ [الحج:٤] أي: كتب على الشيطان أن من تولاه، أي: من جعله وليا، وجعله إماما، وجعله متبوعا، وجعله يوحي إليه بكفره وشركه.

قال تعالى: ﴿كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ [الحج:٤] فمن تولاه واتبع قوله، واتبع وساوسه كانت نتيجته أنه يضل ويشرك **ويتمرد تمرد** الشيطان.

قال تعالى: ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ [الحج:٤] أي: إلى أشد أنواع العذاب والحريق بحيث تتسعر به جهنم كأنه وقودها، وكأنه الحجر أو الحطب الذي به اشتعلت النار وتسعرت واشتد حريقها.

وهداية الشيطان ليست إلى النور، ولا إلى الحق، ولا إلى التوحيد، ولكن إلى عذاب السعير، إلى جهنم وبئس المصير، إلى لعنة الله وغضبه، فلا يقوده ولا يهديه إلا إلى الشرك والكفر والضلال.." [١]

"تفسير قوله تعالى: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث)

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ [الحج:٥].

هذه الآية من أعظم الآي على قلة ألفاظها وبديع جملها كالقرآن كله فصاحة وبلاغة وجمع كلم، فقد جمعت فأوعت أطوار الإنسان ومراحله منذ الخلق الأول؛ منذ خلق أبينا آدم من تراب وإلى أن نعود بعد ذلك إلى التراب، في كلمات قليلة ذات معان كثيرة، وتحتمل هذه الآية وحدها مجلدات في التفسير والبيان.

والأطباء لهم فيها قول، والأدباء لهم فيها قول، والشريعة بأحكامها لها فيها قول كشأن القرآن الكريم، فيأخذ منه كل عالم بإحدى فنون علم الإسلام مما هو في حاجة إليه، وإلى معرفته، وإلى بيانه: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام:٣٨].

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج:٥] إذا قال الله: يا أيها الناس! فالخطاب والدعوة لكل بني آدم وبنات حواء، فكل البشر يعد بذلك مخاطبا، ويعد بذلك مبلغا، وتلزمه الحجة البالغة إذا هو **تمرد** وإذا هو عصى وإذا هو خالف.

وإذا قال الله: يا أيها الذين آمنوا! كان الخطاب للمؤمنين، وعادة القرآن الكريم ينادى بيا أيها الناس! في

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٤/٦٥

أصول الخلق والشريعة والدعوة إلى التوحيد، وإلى الإيمان بالله ورسله في أصول الإسلام، وأصول الديانة.

وإذا قال: يا أيها الذين آمنوا! فهو نداء للمؤمنين ليستجيبوا لفروع الشريعة ولأحكامها، أو يزدادوا إيمانا وتمسكا بأمور عقائدهم.

وهنا الخطاب للناس جميعا: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ [الحج:٥] يا هؤلاء الناس! مؤمنهم وكافرهم، المؤمن بالبعث والكافر بالبعث، ويا هؤلاء! الذين لا يزالون في شك وفي ريب من البعث والخلق الثاني بعد الخلق الأول، والحياة الثانية بعد الموت والنشور والعرض على الله إما إلى جنة وإما إلى نار: إن كنتم لا تزالون في ريب وفي شك فاسمعوا قصة الإنسان وحياة الإنسان، والأطوار التي تطور فيها الإنسان منذ كان ترابا وقبل أن يخلق إلى أن عاد ترابا ثم حيا ثم يبعث بعد الموت.

قال تعالى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا﴾ [الحج:٥] هذه هي الأطوار البشرية منذ التراب وإلى التراب وإلى البعث بعد الموت: ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج:٥] فخلق أبانا الأول أصل مادتنا وكياننا ووجودنا، خلقه من تراب؛ من كل أنواع التراب في الأرض: خصبها وجافها، صحرائها ومنبتها، جبلها ووهادها، ومن هنا كانت أنواع السلالة والذرية أشكالا وألوانا، فالذكي والبليد، والأبيض والأسود، والطويل والقصير، ومن يعيش مدة ومن يزيد على ذلك، ومن يجهض قبل الولادة.

قال تعالى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج:٥] خلق أبانا من تراب، ثم نفخ فيه من روحه فكان بشرا سويا، ثم خلق زوجته أمنا الأولى حواء عليهما السلام وعلى نبينا.

ثم كانت السلالة بعدهما من نطفة، والنطفة: هي القليل من الماء، فتطلق على الماء عموما، وكان من ذلك المني أصل البذرة البشرية بعد الخلقة الأولى من التراب.

قال تعالى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة﴾ [الحج:٥] (ثم) هنا على ترتيبها الزمني الوقتي، فكانت الخلقة الأولى من تراب، ثم الخلقة الثانية من نطفة من تزاوج بين ذكر وأنثى، فصب ماء من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء فكون الوليد.

وهكذا منذ آدم وحواء وإلى عصرنا وإلى آخر مخلوق إلى يوم النشر، وإلى يوم النفخ في الصور، هكذا الخلقة من ماء مهين.

قال تعالى: ﴿ثم من نطفة ثم من علقة﴾ [الحج:٥] والعلقة: هي القليل من الدم إذا قسا وتجمع، ولكنه

بقي طريا أشبه بالعلقة وهي الحشرة المعروفة.
﴿ثم من علقة ثم من مضغة﴾ [الحج:٥] والمضغة: هي قطعة اللحم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب) وهكذا الإنسان يبتدئ ترابا، ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة، مخلقة أي: كاملة تامة بتخطيط حواسها وجوارحها من عين وشفتين ومنخرين وأذنين ولسان ويدين ورجلين ورأس وشعر وفرج، وهكذا يخطط الإنسان وهو في رحم أمه في الطور الثالث، هذه المضغة تكون مضغة غير مخلقة، ثم تتحول إلى مخلقة، أي: تصبح تامة الخلقة، تامة الحواس، إنسانا كاملا ولكنه لا يزال جنينا في الرحم.
قال تعالى: ﴿مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ [الحج:٥] أي: تامة وغير تامة، فالتامة قد تأخذ سبيلها إلى التمام إلى أن تولد وتخرج للدنيا طفلا، وغير المخلق: أن يسقط ويجهض وهو لم يتم خلقه بعد، ولم تبن حالته، ولم يظهر بعد أذكر هو أم أنثى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ [الحج:٥].
ثم قال تعالى: ﴿لنبين لكم﴾ [الحج:٥] أي: قدرة ربكم على فعل كل شيء وصنع كل شيء، وخلق كل شيء، كيف جعل من التراب الميت إنسانا سويا، جميل الجوارح، جميل التقاطيع، فصيح اللسان، عاقل الفكر، متكلما، وإذا به يخلفه ثم جعله الله خليفة في الأرض، كما قال عن داود: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ [ص:٢٦]، وقال: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة:٣٠].
وإذا بهذا التراب يتحول بقدرة الله على كل شيء إنسانا كاملا في أطوار من تراب إلى نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، ثم بشرا طفلا صغيرا سويا، وقد خرج من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا.
قال تعالى: ﴿مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم﴾ [الحج:٥] أي: نبين لكم قدرة ربكم على فعل كل شيء وخلق كل شيء، وكيف قد خلق من الميت الحي، ومن الحي الميت، وصنع من التراب الهامد الذي لا يتحرك ولا حياة فيه بشرا سويا، ونشره في الأرض فأصبح سيد الخلق، والمحكم في الخليقة، فيأمر وينهى، ويقتل ويحيي بإذن الله إن كان عادلا، ويظلم ويسفك الدم الحرام إن كان ظالما.
قال تعالى: ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ [الحج:٥] أي: هذه المضغة غير المخلقة التي تسقط وتجهض قبل خروجها للعالم.
وعلماؤنا وأطباؤنا جماهيرهم تقول: الجنين لا يبقى في رحم أمه أكثر من تسعة أشهر، ولكن الكثيرين

يؤكدون ويقولون: قد يبقى الجنين في بطن أمه سنة كاملة وسنتين وأكثر.
وكثيرا ما يقول الناس في تراجم علماء وأقوام ورجال وسادة: أنه عاش في بطن أمه كما أخبرته أمه سنة وسنتين.
يذكر هذا عن أحياء، ويذكر هذا عن أموات، ويذكر عن كبار من الأئمة وعن صغار من الناس.
ثم قال تعالى: ﴿ثم نخرجكم طفلا﴾ [الحج:٥] ثم يخرجنا من الأرحام طفلا، وفي لغة العرب المفرد قد يطلق مذكرا على الجمع، أي: نخرجكم أطفالا.
قال تعالى: ﴿ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم﴾ [الحج:٥] لتصلوا وتبلغوا إلى الأشد، وإلى القوة وتمام الرجولة وتمام العقل، وتمام القوة، وتمام القدرة على الحياة بما ينفعك أو يضرك.
قال تعالى: ﴿ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى﴾ [الحج:٥] أي: منكم من يموت عند الشبيبة وعندما يبلغ الأشد، ومنكم من يموت طفلا، فقد يموت الإنسان شابا، وقد يموت كهلا، ومنهم من يزيد به العمر إلى أن يصير شيخا حاضر الذهن، حاضر الوعي، وقد يصل إلى أرذل العمر.
قال تعالى: ﴿ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ [الحج:٥] فيرد إلى خلقه الأول ضعيفا، فقد خلق عاجزا عن النطق وعن الوعي فيعود للعجز عن النطق وعن الوعي، ولذلك سمى الله هذه السن الفانية: أرذل العمر، أي: أقبح العمر وأقبح الأيام، وقد استعاذ بالله نبينا من ذلك عليه الصلاة والسلام، استعاذ بالله من الفقر، ومن الجوع، ومن الكفر، ومن بلوغ أرذل العمر.
وقد يصل الإنسان -ونشاهد هذا كثيرا وتشاهدونه- إلى مائة سنة وقد يتجاوز ذلك، وقد مات رجل صالح في أرض المغرب تجاوز المائة والعشرين سنة وهو على غاية ما يكون من الوعي والفهم والعقل، يسأل عن أحوال المسلمين في المشارق والمغارب، مما يدل على أنه مع هذه السن لا يزال واعيا، ذاكرا، متتبعا أحوال المسلمين، يهتم بهمومهم، فيفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم.
قال تعالى: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم﴾ [الحج:٥] اللام هنا هي لام العاقبة، أي: ليصل إلى درج." (١)

"تفسير قوله تعالى: (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا)

قال تعالى: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ [الحج:١٥].

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٦٦

يخبر الله جل جلاله عن قوم حسدوا رسول الله وأبغضوه، وتربصوا به الموت والدوائر، وتمنوا له السوء من اليهود في الدرجة الأولى، والنصارى والمشركين عموما، وكان هذا في عصر النبي صلوات الله وسلامه عليه، وهو مستمر ما دام الكفر في الأرض بكل أنواعه.

فتجدهم يتناولون النبي عليه الصلاة والسلام بكل سوء وحقد، وبما لا يفعله إلا عدو كافر مشرك حلال الدم.

قال الله عن هؤلاء: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة﴾ [الحج:١٥] أي: من كان يظن من المشركين أن الله لن ينصر نبيه، ولن يجعل العاقبة له، ولن يعزه ولن يكسبه الظفر والنصر في الدنيا، والجنة والشفاعة العظمى في الآخرة، ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾ [الحج:١٥] أي: فليمدد سببا من الأسباب إلى السماء كالحبل مثلا، والسماء: ما علاك، أي: إلى سقف البيت.

فهؤلاء تمنوا للنبي الغوائل، وتربصوا به الدوائر، وظنوا أنها أيام وستنقضي كما ظن الكثيرون من المعاصرين، وظنوا في أيام الصليبيين والتتار وأيام الاستعمار الأوروبي والأمريكي أن الإسلام انتهى، وعادت هذه الخرافة والأسطورة على أنفسهم.

فهؤلاء الذين يظنون ذلك يظنون باطلا من القول طالما سعوا في القضاء على الإسلام منذ ألف وأربعمائة سنة، بل ما كاد النبي عليه الصلاة والسلام يذهب إلى الرفيق الأعلى حتى تواطأ وتآمر على الإسلام متنبئون كذبة: كـ مسيلمة وسجاح والأسود العنسي يريدون القضاء على الإسلام وحربه، وارتد الكثيرون في جزيرة العرب حتى لم يكد يبق مسلم إلا في مكة والمدينة والبحرين وضواحيها.

ومع ذلك خاب فأل هؤلاء منذ الساعة التي توفي فيها النبي عليه الصلاة والسلام، مع أن الأمر قد زاد سوءا بين الصحابة على الخلافة، وعلى مكان دفن النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى حرب مانعي الزكاة، وعلى الحرب التي ابتدأت في حروب الردة، وخروج الجيوش من المدينة المنورة لقتال الروم الذين جهزهم النبي عليه الصلاة والسلام وعقد اللواء لـ أسامة بن زيد رضي الله عنه.

مع هذه الفتن الداخلية والخارجية طمعوا في نهاية الإسلام، لكن خابوا وخاب فألهم، وانتصر الإسلام وانتشر كالسيل المنهمر شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، فلم تمض خمسون سنة حتى وصل الإسلام شرقا إلى بلاد الصين، وغربا إلى بلاد فرنسا، وما بينهما شمالا وجنوبا.

وهكذا أتت فتن جديدة، إذ جاء الصليبيون واحتلوا الأرض التي احتلها اليوم اليهود في صليبية جديدة، وطمعوا أن يصلوا إلى الحجاز ونزلت جيوشهم في ينبع، فما كان يمضي على ذلك سنون حتى قدر الله

لهم من يقضي عليهم ويرميهم لحيتان البحر، ويعود الإسلام أقوى مما كان وأعز.

ثم عادت فتن جديدة بعد ذلك بقرون، فجاء التتار فقضوا على الخلافة الإسلامية العباسية، ودارت الدوائر على الإسلام وأهله، حتى قال الكثيرون: انتهى الإسلام.

ولكن الله دمر هؤلاء الأعداء وسحقهم وأذلهم، وعاد الإسلام أقوى مما كان، ففتحت بعد ذلك أقطار في أرض أوروبا وفي المشارق والمغارب، وتدخل في الإسلام القسطنطينية فاتيكان الكنيسة الشرقية حينذاك، فتصبح دار إسلام وعاصمة الإسلام قرونا، ولا تزال دار إسلام ولله الحمد.

ثم بعد ذلك جاء الاستعمار الأوروبي والاستعمار الأمريكي بكل أشكاله وانتهى، وعاد المسلمون إلى استقلالهم وعزتهم بعد استعمار طال في بعض هذه الأقطار ثلاثمائة سنة أو تزيد أو تنقص وما بين ذلك.

وهكذا أصبح للمسلمين دول بالعشرات، وهذه مصيبة، فإن يد الله مع الجماعة، فيجب أن يعود الإسلام واحدا كما أن الرب واحد والنبي واحد والكتاب واحد واللغة واحدة، ويجب أن يكون القائد واحدا يلقب بالخليفة أمير المؤمنين.

والله ناصر دينه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، واليوم يطمعون أن يذلوا العرب والمسلمين وهيهات، فالله تكفل بدينه ونصرة عباده المؤمنين، والتاريخ يشهد بذلك.

ولذلك فهؤلاء ومن استسلم وخضع لهم ستكون نهايتهم كنهاية الماضين من أولئك **المتمردين** على خلافة أبي بكر، وعلى الإسلام بعد ذهاب النبي إلى الرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه.

وسينتهون كما انتهى الصليبيون والتتار والاستعمار الأوروبي والأمريكي بأشكاله، وسيذهب هؤلاء وسيصبحون كالأمس الدابر وكأنهم لم يكونوا.

ولا تحدث هذه الفتن إلا عقوبة للمسلمين عندما يتركون الله وكتابه، والنبي ورسالته، ويذهبون يتسولون الأفكار والمبادئ والأديان والآراء الشيطانية، ويتركون ما عزوا به وسادوا في الأرض دهرا بعد دهر وقرنا بعد قرن.

فقوله: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾ [الحج:١٥] أي: ليمد حبلا في سقف بيته ويربط به عنقه، ثم ليقطع الحبل وليشنق ولينظر بعد ذلك هل شنقه لنفسه وقتله لنفسه سيذهب غيظه الذي في نفسه على محمد وأتباع محمد والإسلام؟! يظن ذلك أنه سيمكر بغيره، وإذا به مكر بنفسه وانتحر إلى جهنم وبئس المصير، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ [آل عمران:١١٩]، وهذا معنى الآية.

قال قوم: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾

[الحج:١٥] يمد الحبل في سماء غرفته، أي: سقفها، ثم يربط عنقه فيه.

قال تعالى: ﴿ثم ليقطع﴾ [الحج:١٥] وستكون النتيجة أنه شنق نفسه وانتحر وقتل، وسيبقى النصر لمحمد ولأصحابه ودينه، ولو كره هذا الكافرون الحاسدون.

وفسر قوم الآية بشكل آخر: فسروا السماء بالسماء المعروفة، وقالوا: معنى الآية: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء﴾ [الحج:١٥] أي: ليمد سببا إلى الصعود إلى السماء، كما طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحا إلى أسباب السماء؛ ليطلع إلى إله موسى.

فقوله: (فليمدد بسبب) أي: فليعمل سلما وصرحا لا يخطر بباله، وليصعد إلى السماء ويوقف نصر السماء على محمد، وليمنع ذلك إن استطاع، وهذا منتهى الاستهزاء والسخرية بهؤلاء، فلا هؤلاء يستطيعون الوصول إلى السماء، ولا يملكون سببا لذلك، ولو فعلوا لرجموا كما ترجم الشياطين عندما يريدون أن يسترقوا السمع من السماء من الملائكة.

وقوله: ﴿ثم ليقطع﴾ [الحج:١٥] أي: يقطع هذا السبب، واللام لام الأمر.

وقال أكثر المفسرين: الأقرب للمعنى المعنى الأول: أن يربط حبلا في سماء داره -أي: في سقفه- وليربط بذلك عنقه ثم ليقطع السبب، فسيسقط مخنوقا مشنوقا، ولينظر بعد ذلك ﴿هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ [الحج:١٥] هل هذا الذي يظن أنه سيكيد لمحمد ودين محمد وأتباع محمد صلوات الله وسلامه عليه هل سيذهب ما يغيظه في نفسه، أي: ما يحرق فؤاده ويعض منه الأنامل؟ وليس هذا إلا هزؤ من الله بهؤلاء، ويعلمنا كيف نفعل عندما نريد أن نجادلهم كجدالهم بالسخرية بهم والهزء بما يقولونه، فيجب أن يجابوا أيضا بمثل ذلك؛ سخرية وهزءا، قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى:٤٠].." (١)

"تفسير قوله تعالى: (ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض)

قال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾ [الحج:١٨].

يقول الله لعبده ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويقول لجميع المسلمين من أتباعه كما هي نداءات ودعوات القرآن: ألم تر يا محمد بقلبك وبعلمك، وبإطلاع الله لك على ما هناك؛ أن هؤلاء الذين جحدوا من الناس وكفروا وأشركوا هل يجدون نظيرا لهم في خلق الله من الحيوانات والجمادات وكون الله الأعظم؟!

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٦/٦٧

قوله: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾ [الحج:١٨] ففي السماوات الملائكة يسجدون أبدا، وكما قال نبينا صلوات الله وسلامه عليه: (أطت السماء وحق لها أن تئط) أي: لثقل ما تحمل كما يصوت السقف المصنوع من خشب عندما يثقل بمن عليه، فيأخذ في التصويت، فيقول نبينا عليه الصلاة والسلام: (أطت السماء) أي: صوتت، (وحق لها أن تئط) أي: ما أجدرها بذلك (ما من موضع قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم)، وفي رواية: (يقول: لا إله إلا الله).

والعبادة للملائكة كالنفس للإنسان، فكما أن الإنسان لا يعيش بلا نفس صاعد أو هابط، فكذلك الملك بالفطرة لا يستطيع أن يعيش بلا عبادة، فالعبادة للملك كالنفس للإنسان.

﴿ألم تر أن الله يسجد له﴾ [الحج:١٨] أي: يعبده، والسجود: هو أقوى العبادة ومخها، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فادعوا ربكم في سجودكم؛ فقمن أن يستجاب لكم) أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وقد قال: (أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فادعوا فيه).

قوله: ﴿يسجد﴾ [الحج:١٨] السجود هنا كناية وعبارة عن العبادة بكل أنواعها، وأعظمها السجود الذي لا يجوز ولا يحل لمخلوق حتى للنبي صلى الله عليه وسلم، حتى للملك من باب أولى، ﴿يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾ [الحج:١٨] فالشمس تسجد لربها، والقمر يسجد لربه، والنجوم تسجد لربها، والجبال تسجد لربها، والشجر تسجد لربها، والدواب على كل أنواعها تسجد لربها.

قوله: ﴿وكثير من الناس﴾ [الحج:١٨] والكثير من الخلق ممن آمنوا بالأنبياء قبلنا، وممن آمن بخاتم الأنبياء معنا أو قبلنا أو من سيأتي بعدنا إلى يوم البعث والنشور كلهم سجدوا، وكذلك عبدوا، ولكن من الناس من لم يفعل، فقال الله عنهم: ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ [الحج:١٨].

أي: وكثير ممن لم يسجد من الناس سيعذب؛ نتيجة تمرده في العبادة، وعدم سجوده لله؛ لأن الله ما خلق الإنسان والجن إلا للعبادة، ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات:٥٦].

قوله: ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ [الحج:١٨] أي: كثير من الناس ممن أشرك وكفر، وممن لم يعبد الله ولم يؤمن به وبأنبيائه.

قوله: ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم﴾ [الحج:١٨] أي: من أهانه الله بالذل والخزي في الدنيا، وبالعذاب يوم القيامة فلن يعزه ملك، ولن تعزه دولة، ولن يعزه أولاد، ولن تعزه جيوش، بل لا يزيده كل ذلك إلا ذلا وهوانا وعذابا وخزيا.

قوله: ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾ [الحج:١٨] أي: يفعل الله جل جلاله ما تشاء إرادته، وما يشاء أمره، وما يريد في خلقه، فهو يملك الكل، والمالك يتصرف في ملكه كيف شاء وبما شاء، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وكيف سجود الدواب والشجر والقمر؟ قال قوم: فيئها وظلالها هو سجودها، وهذا كلام لا معنى له، سجودها وعبادتها كما قال الله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء:٤٤].

والشيء يطلق على كل شيء مما سمى الله تعالى في كتابه من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، على كل أصنافها وأنواعها، فالكل يعبد الله ويذكره ولكننا لا نفقه تسبيحهم.

وقد فقه تسبيحهم بعض خلقه من الأنبياء، كما قص علينا فيما أعطاه لسليمان، فكان سليمان يفقه تسبيح الطير والنمل، وكان يكلمهم ويكلمونه.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك، ففي المعجزات الواردة المتواترة المقطوع بصحتها، المستفيضة استفاضا، الواردة عن الجماهير من الصحابة: أنه كلمه الجمل.

وجاءت شجرتان -وهو يريد قضاء حاجة في البرية- فاجتمعتا حتى ظللتاه، ثم ذهبتا إلى مكانهما، بل وأكثر من هذا حن الجذع المقطوع من الشجر، وهو الميت مرتين، والشجر لا نعلم أنه ينطق.

فكان عليه الصلاة والسلام يخطب على المنبر المصنوع من هذه الأخشاب، وعندما غير منبره وترك الجذع الذي كان يقف عليه، حن هذا الجذع -جذع النخلة- حتى سمع حنينه وصوته كل من في المسجد، فنزل عليه الصلاة والسلام وضمه إليه فسكت.

وشكا إليه الضب، والذئب، وشكت إليه حيوانات وفهم عنها وأجابها عليه الصلاة والسلام، وما من معجزة كانت للأنبياء قبل إلا وكانت لنبينا عليه الصلاة والسلام وزيادة.

فإن كان إبراهيم خليل الرحمن فمحمد خليله وحبيبه، وإن كان موسى كليم الله فمحمد كلمه ورفعه إليه، فذهب في ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى، وأمره بالصلاة عليه الصلاة والسلام.

فإذا: هذا الإنسان العنيد، هذا الإنسان المشرك الذي انفرد من بين كون الله الأعظم، الذي **تمرد** **تمردا** لم **يتمرده** شجر ولا حجر ولا دابة ولا شمس ولا قمر ولا نجوم، فكلها عبدت ووحدت الله وقدست الله وسجدت له إلا هذا الإنسان المشرك، إلا هذا الإنسان الكافر الذي **تمرد** على ربه ولم يسجد ولم يؤمن.

ولذلك قال الله تعالى عن هذه الفئة التي حق عليها العذاب، وأصبح العذاب في حقها واجبا لا منحى عنه ولا مبعد له، وإن مات عليه خلد في النار إلى أبد الآباد في ذل وهوان، لم يرفعه عز عزيز، ولا ملك ملك، ولا قوة جيوش، فمن أذل الله فلا معز له، ومن أعز الله فلا مذل له، والله يفعل ما يشاء.." [(١)]

"تفسير قوله تعالى: (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا)

فكانت النتيجة: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [المؤمنون:٥٣].

تقطعوا، أي: هذه الشعوب التي أرسلت إليها الرسل والأنبياء قطعوا الدين الواحد والملة الواحدة والدعوة إلى الله قطعوها قطعا.

وزبر: جمع زبر أو زبور، وهي القطعة من قطع الحديد والفرقة من الفرق، فجعلوا أنفسهم فرقا، فهذا يعبد مريم، وهذا يعبد عيسى، وهذا يعبد عزيرا، وهذا يعبد العجل، وهذا يعبد الحيوان، وهذا يعبد الملك، وهذا يعبد الجماد.

((فتقطعوا أمرهم بينهم)) قطعوا الأمر، وقطعوا الرسالة، وقطعوا الوحدة، وقطعوا الدين الواحد، والدعوة الإلهية الواحدة وجعلوها فرقا وأحزابا.

﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي: كل طائفة من هؤلاء أشربوا الكفر، وانشرحت له صدروهم، ففرحوا بما لديهم، وزعموا أنهم وحدهم هم الذين على الحق، هكذا زعم اليهود، وهكذا زعم النصارى، وهكذا زعم المجوس، وهكذا زعم الضالون المبتدعون من المسلمين عندما فرقوا دينهم وكانوا شيعا، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)، فميزان الدين الحق والفرقة الناجية التي هي على الحق: هو الأسوة النبوية، وهو السيرة الراشدة النبوية، وهو ما قال الله عنه: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب:٢١]، فموضع الأسوة والهداية والاقتداء ما فعله صلى الله عليه وسلم أو قاله أو أقره، فهو الحق المبين الذي لا يختلف فيه مسلمان، ولا يعارض فيه إلا كافر مشرك، فمن ائتسى به كان على الحق، وكان مع محمد على الحوض في الحنة صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وما سوى ذلك فباطل وهراء وكذب وزيغ.

وإذا قلنا: الأمة المحمدية فالمراد الأمة التي أرسل لها النبي صلى الله عليه وسلم، والأمة التي أرسل إليها هي كل شعوب الأرض.

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٣/٦٨

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ [الأعراف:١٥٨]، فمنذ قالها وأرسل بها في هذه البقاع المقدسة وهذه الأرض الطاهرة لزمت كل من بلغته، فهو خاتم الأنبياء، وهو محمد المكي المدني صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأن الدين الحق هو الإسلام: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ [آل عمران:٨٥]، فكل من هو على الأرض فهو من الأمة المحمدية، ومن استجاب وكان مسلما فهو من أمة الاستجابة، ومن أبى **وتمرد** فهو من أمة الدعوة، والحجة قد قامت عليه بكتاب الله المقروء بالألسنة، والمحفوظ في الصدور، والمكتوب في السطور، والمذاع في أجهزة الإعلام سماعا وتدبرا، وهكذا في جميع بقاع الأرض: في أرض الكافر وأرض المؤمن وأرض المنافق كل ذلك سواء، فقد قامت الحجة وبلغت الجميع، لكن اليهود والنصارى حرفوا التوراة والإنجيل وغيروهما بأكاذيبهم وضلالهم وانحرافهم، وهكذا غيروا التوراة فهي غير التي أنزلت من قبل، فهذه فيها هجو الأنبياء وقذفهم، والتطاول على المقام الإلهي، وفيها الشرك، وفيها الكذب، وفيها الفسق، وفيها الفساد، وقل مثل ذلك على الإنجيل كما رأيناه، وكما كان وقت نزول القرآن، فقد ألهوا عيسى، وألهوا مريم، وجعلوا الرب ثلاثة، وهكذا غيروا وبدلوا، وجعلوا الزبور كذلك.

وجاء بعدهم آخرون فوضعوا كتبا نسبوها لمن سموهم فلاسفة وسموهم هداة، وسموهم قادة، فغيروا كتاب الله، وغيروا دين الله، فكذبوا وفجروا وأشركوا كل حسب عقله وحسب شركه، وكانت كلها فرقا باطلة كاذبة، كما قال ربنا جل جلاله: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [المؤمنون:٥٣] أي: يفرحون بالباطل، ويفرحون بالضلال، وفرحوا بتكذيب أصل الدعوة وأصل الكتاب: بأن الدعوة واحدة وهي عبادة الله وحده لا شريك له من ملك أو جن أو إنس أو جماد أو أي شيء، فالمعبود الواحد هو الله جل جلاله، وبذلك أتت الأنبياء من أولهم آدم إلى خاتمهم نبينا صلوات الله وسلامه.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون)

قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

الكلام لا يزال نسقا في آيات متتابعات عن الكافرين وشركهم، والمشركين وعنادهم، **والمتمردين** على الله ورسله فيما يصرون عليه من معصية وخلاف وكفر وشرك، فهؤلاء يبقون كذلك حتى إذا حضر أحدهم الموت واحتضروا وحضرتهم ملائكة الموت: عزرائيل وأعوانه، وجاءوا ليأخذوا منهم الروح لينتزعوها من أعضائهم في

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٤/٨٨

هذه الحالة يرون مقامهم في الآخرة إن خيرا وإن شرا، فيرى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا وقد جاءوا إليه بكل لطف وبكل لين، فيقولون للروح: اذهبي عند ربك، وارتفعي للملأ الأعلى، بكل لطف وبكل لين وبكل عطف.

وأما الروح الكافرة فينتزعونها انتزاعا، ويذهبون بها إلى الجحيم، ويذهبون بها إلى أمثالها من الكفرة والعصاة والمتمردين، ولذلك عندما يصبح الإيمان شهودا ولا يبقى غيبا لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، وهذا كان إيمان فرعون فعندما حضره الموت قال: آمنت بإله موسى وهارون، ولم يكن ذلك ينفعه، فقرعه الله وأذله فقال: (الآن) فلم تذكر الإيمان ولم تذكر الطاعة إلا وقد رأيت مقامك ورأيت عذابك ورأيت ملائكة النار وملائكة الجحيم، فالله حافظ على جسده؛ ليبقى آية لمن خلفه ممن كان يعتقد ألوهيته كي يرأوا جسده، وقد كانوا يظنون أنه لم يمت ولا يليق به أن يموت، وهو لا يزال إلى اليوم في الموميات محفوظ فيما تبقى من الفراعنة، وإن كانت الجثة بعينها ضائعة بين أمثالها فلا يدرى أيهم فرعون موسى؟ ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

عندما يرى تلك الحالة تجده يستغيث حيث لا يغاث، وتجده يجأر حيث لا يجيبه ولا يهتم به، وينادي ربه، ولم يذكر ربه إلا بعد أن انتهت الأيام وانتهت الأعمار وصنع ما صنع من كفر وخلاف وتمرد على نبي الله، فيأخذ بالاستغاثة ويأخذ بالجئير والصيحة: أن يرجع ولا يموت؛ وهو يظن أنه إذا أعيد سيعمل صالحا فيما ترك، وسيؤمن بالله، وسيقول: لا إله إلا الله، وسيتدارك ما ترك وهو حي وهو قوي وهو مقتدر، فأراد عند سكرات الموت أن يوقف عنه الموت وأن تعود إليه الحياة؛ ليطيع ويفعل ما كان قد تركه من توحيد ومن شهادة ومن طاعة ومن عبادة، فيجاب إما أن الملائكة تقول له ذلك أو أن الله نفسه جل جلاله: كلا وهيهات، فالوقت سيف إن لم تقطعه قطعك.

فقد أضعت شبابك، وأضعت حياتك، وأضعت الفرصة التي عشت فيها وقد كانت دهرا يشتمل على السنين وعلى الليالي والأيام، وكتاب الله يدعوك صباحا ومساء، ونبيك يدعوك عليه الصلاة والسلام صباحا ومساء، وأنت تأبى إلا الكفر والشرك والمخالفة، وتظن أنك ما خلقت إلا عبثا وما خلقت إلا سدى، وهيهات هيهات طالما أنذرك ربك وأنذرك نبيك بهذه الحالة وأنت صاد عن السمع وعن الطاعة وعن فعل الصالحات.

﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ [المؤمنون:١٠٠]، والكلمة التي يقولها المحتضر الذي جاءه الموت هي:

﴿رب ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

كلمة يقولها لا اهتمام بها، ولا يجاب لتحقيقها؛ لأن الوقت فات، وتبقى حجة الله البالغة، وهو قد عصى وهو قد تمرد وهو قد خالف وهو قد أبى إلا الشرك وإلا العصيان وإلا الكفران، فلا ينفعه وقد أصبح ما كان يجب أن يكون إيمانا بالغيب أصبح إيمانا بحضور، وقد رأى ملائكة الموت ورأى حاله من سعادة وشقاوة، ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ [المؤمنون:١٠٠]، لا جواب عليها ولا اهتمام بها ولا يلتفت لها.

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ [المؤمنون:١٠٠] يكون هذا عند الموت وعند الاحتضار، فوراءه بعد ذلك وأمامه وبين يديه زمان طويل وهو البرزخ، ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ [المؤمنون:١٠٠] والبرزخ هو الحاجز ما بين الموت وبين البعث والنفخ في الصور، فنرجو الله أن يكون مآلنا إلى الجنة فضلا منه وكرما جل جلاله وعلا مقامه.

﴿كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ [المؤمنون:١٠٠]، ومن أمامهم ومن خلفهم ومن بين أيديهم، وقد أنذروا قديما بالموت، وأنذروا بالحساب، وأنذروا بالبعث والنشور، وأنذروا بالبرزخ والحاجز الذي سيكون بين الموت والقبر وبين القيام إلى رب العالمين، يوم النفخة الثانية يوم البعث والنشور. سيبقى هذا الحاجز وهذا البرزخ إلى يوم البعث، وهم مع ذلك تعذب أرواحهم، وينتقم منها ويعيشون في ألم نفساني، حيث يرى عن يمينه مكانه من الجنة فيما لو مات على خير، ويرى مكانه من النار عن يساره وقد حل فيه، فيزيده رؤية مكانه من الجنة حسرة على حسرة، وألم على ألم، وندم على ندم، ويرى مكانه من النار وهو حال بعذابها، وهذا هو البرزخ إلى يوم القيامة، فيجمع مع الأرواح الأشباح، ويكون العذاب جسديا وروحانيا ونفسيا.." (١)

"أهمية سورة النور وما فيها من آداب وأحكام

قال الله تعالى: ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ [النور:١].

لقد أنهينا سورة المؤمنون، وقد فصل الله فيها حال المؤمنين وأخلاقهم، منذ ابتدأ السورة: ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [المؤمنون:١ - ٢] إلى أن أنهيت بقوله: ﴿ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ [المؤمنون:١١٧ - ١١٨].

فابتدئت بصفات المؤمنين الذين هم أهل الجنة، والذين استحقوا من ربهم -فضلا منه وكرما- رحمته ورضاه

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٩٤

والجنة، وختمت بالتنفير من الشرك، ومن اتخاذ الإله الذي لا برهان عليه، ثم ختمت بآخر آية بأن قال الله لنبيه: ﴿وقل رب اغفر﴾ [المؤمنون:١١٨].

فطلب منه وأمره أن يستغفر لنفسه، وأن يستغفر لأمته، وأن يدعو لها بالرحمة، وأن يدعو لها بالسداد والهداية ليكون من أهل الجنة، وقد فعل صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وننتقل الآن إلى السورة التالية وهي سورة النور، وهي سورة مدنية بإجماع علماء التفسير، وفيها أربع وستون آية، وتكاد تكون كلها أحكاما وحدودا، وأوامر ونواهي، ومن المعلوم عند علماء القرآن أن القرآن الكريم كان في نزوله بمكة يقرر التوحيد، وكانت الآيات تنزل لتسفيه الشرك، وتزييف الشركاء، وقلما يوجد في السورة المكية أوامر ونواه وحدود وأحكام، وإنما كان أغلب ذلك في المدينة المنورة، وقد استقر فيها قدم الإسلام حاكما وآمرا، وأصبح النبي صلى الله عليه وسلم يتصرف تصرف الحاكم، فيقاتل ويجاهد، ويقيم الحدود من قتل ورجم وجلد وقطع، ويعاقب الفئات والكتل **المتمردة** المخالفة: كما قاتل اليهود فقتل من قتل، وشرد من شرد، وصادر من صادر، وطرد من طرد، وأمر عند وفاته صلى الله عليه وسلم أن يطردوا جميعا من جزيرة العرب نصارى ويهودا، ولم يكن ذلك إلا أمر منه صلى الله عليه وسلم بطرد غير المسلمين من جميع ديار الإسلام، ومن العالم الإسلامي كله؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قد قال: (لا تصلح قبلتان في أرض، ولا يصلح دينان في أرض).

وعندما قال: (أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب) كان العالم الإسلامي هو جزيرة العرب لم يخرج بعد عنها.

فهذه السورة مدنية بجميع آيتها الأربع والستين، وقد ابتدئت بحدود الزناة، وحدود القذفة، وباللعان، ثم بعد ذلك ذكرت قصة الإفك، وكان سبب نزولها قصة الإفك.." [١]

"٦٠١٠- حدثنا أبي، ثنا عبد العزيز بن المغيرة، أنبأ يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، قوله: " مريدا " ، قال:"**تمرد** على معاصي الله لعنه الله".

قوله تعالى: " وقال لأتخذن من عبادك "

٦٠١١- قرأت على محمد بن الفضل، ثنا محمد بن علي، أنبأ محمد بن مزاحم، عن بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، قوله: " وقال لأتخذن من عبادك " ، قال:"هذا قول إبليس".

قوله تعالى: " نصيبا "

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٩٥

٦٠١٢- حدثنا علي بن الحسين، ثنا موسى بن هارون، ثنا مروان، عن جويبر، عن الضحاك، في قوله: " لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا " ، قال:"يتخذونها من دونك، ويكونون من حزبي".

٦٠١٣- حدثنا أبو بكر بن أبي موسى، ثنا هارون بن حاتم، ثنا عبد الرحمن بن أبي حماد، عن أسباط، عن السدي، عن أبي مالك، قوله: " نصيبا " ، قال:"حظا".

قوله تعالى: " مفروضا "

٦٠١٤- قرأت على محمد، ثنا محمد، ثنا محمد، عن بكير، عن مقاتل، قوله: " مفروضا " ، قال:"هذا إبليس مفروضا، يقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة".

قوله تعالى: " ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم " ." (١)

"- ١٤٦٢٦ عن علقمة في قوله:" " إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾، قال: الزلزلة قبل الساعة"، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي، أنه قرأ: " يأيها الناس اتقوا ربكم " إلى قوله " ولكن عذاب الله شديد﴾، قال: هذا في الدنيا من ايات الساعة. قوله تعالى: " يوم ترونها تذهل﴾

- ١٤٦٢٧ عن سفيان في قوله:" " يوم ترونها تذهل﴾، قال: تغفل". قوله تعالى: " وترى الناس﴾

- ١٤٦٢٨ عن أبي نهيك، أنه قرأ" " وترى الناس﴾ يعني تحسب الناس، قال: لو كانت منصوبة كانوا سكارى، ولكنها " تري﴾ تحسب".

- ١٤٦٢٩ عن الربيع" " وترى الناس سكارى﴾، قال: ذلك عند الساعة، يسكر الكبير ويشيب الصغير وتضع الحوامل ما في بطونها". قوله تعالى: " ومن الناس﴾

- ١٤٦٣٠ عن أبي مالك، في قوله:" " ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾، قال: نزلت في النضر بن الحارث". قوله تعالى: " ويتبع كل شيطان﴾

- ١٤٦٣١ عن قتادة في قوله:" " ويتبع كل شيطان مريد﴾، قال: **تمرد** على معاصي الله".

- ١٤٦٣٢ عن قتادة في قوله:" " كتب عليه﴾، قال: كتب على الشيطان".

- ١٤٦٣٣ عن مجاهد، في قوله:" " كتب عليه﴾، قال: على الشيطان " أنه من تولاه﴾، قال: اتبعه".." (٢)

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٥٩/٤

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٥٤/٩

٥٦"
أسد ويقال " وإذا خلوا إلى شياطينهم " يعني إلى رؤسائهم في الضلالة وقال أبو عبيدة كل عات **متمرد** فهو شيطان ثم قال تعالى " قالوا إنا معكم " على دينكم " إنما نحن مستهزئون " بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم

سورة البقرة آية ١٥

قال الله تعالى " الله يستهزئ بهم " يعني يجازيهم جزاء الاستهزاء وفي رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس (أن الاستهزاء أن يفتح لهم وهم في جهنم باب من الجنة فيقبلون ويسبحون في النار والمؤمنون على الأرائك ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى الباب سد عليهم وفتح لهم باب آخر في مكان آخر والمؤمنون ينظرون إليهم ويضحكون) كما قال في آية أخرى " فاليوم الذين ءامنوا من الكفار يضحكون " المطففين ٣٤ الآية وقال مقاتل الاستهزاء ما ذكره الله تعالى في سورة الحديد " يوم يقول المنافقون والمنفقات للذين ءامنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا " الحديد١٣ فهذا استهزاء بهم

ثم قال تعالى " و يمدهم في طغيانهم يعمهون " يعني يتركهم في ضلالتهم يتحيرون ويترددون عقوبة لهم لاستهزائهم

سورة البقرة آية ١٦

وقوله تعالى " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى " يعني اختاروا الكفر على الإيمان وفي الآية دليل أن الشراء قد يكون بالمعنى دون اللفظ وهو المبادلة لأن الله تعالى سمى استبدالهم الضلالة بالهدى شراء ولم يكن هنالك لفظ شراء

وقوله " فما ربحت تجارتهم " فقد أضاف الربح إلى التجارة على وجه المجاز والعرب تقول ربحت تجارة فلان وخسرت تجارة فلان وإنما يريدون به أنه ربح في تجارته وخسر في تجارته والله تعالى أنزل القرآن بلغة العرب على ما يتعارفون فيما بينهم قال " فما ربحت تجارتهم " يعني فما ربحوا في تجارتهم

وقوله تعالى " وما كانوا مهتدين " قال بعضهم معناه وما هم بمهتدين في الحال كقوله تعالى "كيف نكلم من كان فى المهد صبيا " مريم ٢٩ يعني من هو في المهد في الحال وقال بعضهم معناه " وما كانوا مهتدين " من قبل لأنهم لو كانوا مهتدين من قبل لوفقهم الله تعالى في الحال ولكن لما لم يكونوا مهتدين من قبل خذلهم الله تعالى مجازاة لأفعالهم الخبيثة." (١)

---

(١) بحر العلوم ، ١/٥٥

"٢٩١

فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم قال والذي نفسي بيده لأخرجن إليهم وإن لم يخرج معي منكم أحد قال فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم للميعاد ومعه نحوا من سبعين رجلا حتى انتهوا إلى ذلك الموضع وكان هنالك سوق فلم يخرج أحد من أهل مكة فتسوقوا من السوق حاجتهم وانصرفوا فنزل قوله تعالى " الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح " يعني بعدما أصابتهم الجراحات يوم أحد " للذين أحسنوا منهم " أي الذين أوفوا الميعاد " واتقوا " السخط في معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم " أجر عظيم " أي ثواب كثير

قوله تعالى " الذين قال لهم الناس " يعني نعيم بن مسعود وإنما أراد به جنس الناس وكان رجلا واحدا " إن الناس قد جمعوا لكم " يعني أبا سفيان وأصحابه " فاخشوهم " يعني ولا تخرجوا إليهم " فزادهم إيمانا " يعني تصديقا ويقينا وجرأة على القتال " وقالوا حسبنا الله ونءم الوكيل " يعني ثقتنا بالله وأيقنوا أن الله لا يخذل محمدا صلى الله عليه وسلم " ونعم الوكيل " أي ونعم الثقة لنا " فانقلبوا " أي انصرفوا " بنعمة من الله " يعني بأجر من الله " وفضل " يعني ما تسوقوا به من السوق واشتروا الأشياء بسعر رخيص " لمن يمسسهم سوء " يعني قتال " وابتعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم " يعني ذو من عظيم وقال في رواية الضحاك كان ذلك يوم أحد لما انهزمت قريش ونزلت في مواضع وكثرت الجراحات في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج إليهم فأجابه سبعون رجلا فنزلت هذه الآية

قوله تعالى " إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه " يعني نعيم بن مسعود لأن كل عات متمرد شيطان يخوف أولياءه يعني بأوليائه الكفار ويقال يخوف أشكاله وقال الزجاج " إنما ذلكم الشيطان " يعني ذلك التخويف عمل الشيطان يخوفكم بأوليائه وقال القتبي " يخوف أولياءه " يعني بأوليائه كما قال " لينذر بأسا شديدا " الكهف ٢ أي لينذركم ببأس شديد

ثم قال تعالى " فلا تخافوهم " في الخروج " وخافون " في القعود " إن كنتم مؤمنين " أي مصدقين قال الزجاج معناه إن كنتم مصدقين فقد أعلمتكم أني أنصركم عليهم

سورة آل عمران ١٧٦

قوله تعالى " ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر " قال الكلبي يعني به المنافقين ورؤساء اليهود كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب فنزل " ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر " ويقال إن أهل

الكتاب لما لم يؤمنوا شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الناس ينظرون إليهم ويقولون إنهم أهل الكتاب فلو كان قوله حقا لاتبعوه فنزلت هذه الآية ويقال نزلت في مشركي قريش لأنهم كانوا أقرباءه والناس يقولون لو كان قوله

حقا لاتبعه أقرباؤه فشق ذلك عليه فنزلت " ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر " يعني يبادرون في." (١) "٤٩٤

" ونذرهم " يقول وندعهم " في طغيانهم " يعني في ضلال " يعمهون " يعني يترددون ويتحيرون فيه ويقال "كما لم يؤمنوا به أول مرة " يعني كما لم يؤمن به أوائلهم من الأمم الخالية لما سألوا الآية من أنبيائهم عليهم السلام

قوله تعالى " ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة " هذا جواب لقولهم " لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا " قال الله تعالى " ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة "كما سألوا حتى يشهدوا بأنك رسول الله " وكلمهم الموتى " بأنك رسول الله " وحشرنا عليهم كل شيء قبلا " قرا نافع وابن عامر " قبلا " بكسر القاف ونصب الباء وقرأ الباقون بالضم فمن قرأ بالضم فمعناه جماعة القبيل والقبيل الكفيل ويقال " قبلا " أي أصنافا من الآدميين ومن الملائكة ومن الوحش ومن قرأ " قبلا " بالكسر معناه وحشرنا عليهم كل شيء معاينة فعاينوه " ما كانوا ليؤمنوا " وهذا إعلام للنبي صلى الله عليه وسلم بأنهم لا يؤمنون كما أعلم نوحا " أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد ءامن " هود ٣٦

ثم قال " إلا أن يشاء الله " يعني إلا من هو أهل لذلك فوفقه الله تعالى ويقال " إلا أن يشاء الله " يقول قد شاء الله أن لا يؤمنوا حيث خذلهم ولم يوفقهم " ولكن أكثرهم يجهلون " عن ذلك ويقال " أكثرهم يجهلون الحق " أنه من الله تعالى ويقال " يجهلون " ما في العلامة من وجوب هلاكهم بعد العلامة إن لم يؤمنوا

سورة الأنعام ١١٢ - ١١٣

قوله تعالى " وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا " يعني أعداء ومعنى ذلك كما جعلنا لك ولأمتك أعداء مثل أبي جهل وأصحابه كذلك جعلنا لكل نبي عدوا " شياطين الإنس والجن " قال مقاتل وذلك أن إبليس وكل شياطين الإنس وشياطين الجن يضلونهم فإذا التقى شيطان الجن مع شيطان الإنس قال أحدهما للآخر إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا فذلك قوله " يوحي بعضهم إلى بعض " يعني

---

(١) بحر العلوم . ، ٢٩١/١

يكلم بعضهم بعضا بالإضلال وقال عكرمة للجن شياطين مثل شياطين الإنس وروي عن الزبير بن العوام أن جنيا شكا إليه ما لقي من الشيطان فعلمه دعاء ليخلص منه فدعا به ووجه آخر شياطين الإنس والجن يعني الشياطين من الإنس والشياطين من الجن لأن كل عات **متمرد** فهو شيطان

وروى عن أبي ذر الغفاري أنه قال دخلت على رسول لله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فأمري أن أصلي ركعتين فصليت ثم جلست عنده قال يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس وشياطين." (١)

"٤٤٩

وحدانيته ويقال في دين الله " بغير علم " يعني بغير حجة ويقال " بغير علم " يعلمه وهو النضر بن الحارث وأصحابه " ويتبع كل شيطان مريد " يعني يطيع ويعمل بأمر كل " شيطان مريد " **متمرد** في معصية الله عز وجل ويقال معناه ويتبع ما سول له الشيطان والمريد الفاسد يقال مرد الشيء إذا بلغ في الشر غايته ويقال مرد الشيء إذا جاوز حد مثله

ثم قال عز وجل "كتب عليه " أي قضي عليه يعني الشيطان " أنه من تولاه " يعني من تبع الشيطان " فإنه يضله " عن الهدى " ويهديه " أي يدعوه " إلى عذاب السعير " أي إلى عمل عذاب النار

قوله عز وجل " يا أيها الناس " يعني يا كفار مكة " إن كنتم في ريب " يعني في شك " من البعث " بعد الموت فانظروا إلى بدء خلقكم " فإنا خلقناكم من تراب " يعني من آدم عليه السلام وآدم من تراب " ثم من نطفة ثم من علقة " قيل إنما نقلناكم من حال إلى حال من خلقة إلى خلقة " ثم من مضغة " مثل قطعة كبد " مخلقة " أي تامة " وغير مخلقة " يعني غير تامة وهو السقط ويقال مصورة وغير مصورة " لنبين لكم " بدء خلقكم ويقال يخرج السقط من بطن أمه مصورا أو غير مصور " لنبين لكم " بدء خلقكم كيف نخلقكم في بطون أمهاتكم ويقال " لنبين لكم " في القرآن أنكم كنتم كذلك " ونقر في الأرحام ما نشاء " فلا يكون سقطا " إلى أجل مسمى " يعني إلى وقت خروجه من بطن أمه ويقال إلى وقت معلوم لتسعة أشهر " ثم نخرجكم طفلا " من بطون أمهاتكم أطفالا صغارا وقال القتبي لم يقل أطفالا لأنهم لم يخرجوا من أم واحدة ولكنه أخرجهم من أمهات شتى فكأنه قال يخرجكم طفلا طفلا

" ثم لتبلغوا أشدكم " يعني ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة ويقال إلى ست وثلاثين سنة والأشد هو الكمال في القوة والخير " ومنكم من يتوفى " يعني من قبل أن يبلغ أشده " ومنكم من يرد إلى أرذل العمر " يعني أضعف العمر وهو الهرم ويقال يعني يرجع إلى أسفل العمر يعني يذهب عقله " لكيلا يعلم من بعد علم شيئا

---

(١) بحر العلوم . ، ١/٤٩٤

" يعني لكيلا يعقل بعد عقله الأول

ثم دلهم على إحيائه الموتى بإحيائه الأرض فقال تعالى " وترى الأرض هامدة " يعني ميتة يابسة جافة ذات تراب " فإذا أنزلنا عليها الماء " يعني المطر " إهتزت " يعني تحركت بالنبات كقوله عز وجل " فلما رآها تهتز " [النمل : ١٠] يعني تتحرك ويقال " إهتزت " أي إستبشرت " وربت " يعني إنتفخت بالنبات وأصله من ربا يربو وهو الزيادة " وأنبتت من كل زوج " يعني من كل صنف من ألوان النبات " بهيج " أي حسنا." (١)

"١٢٩

أقسم بنفسه فكأنه يقول وخالق هذه الأشياء " إن إلهكم لواحد " يعني ربكم وخالقكم ورازقكم لواحد لا شريك له

" رب السموات " يعني الذي خلق السموات " والأرض وما بينهما " من خلق " ورب المشارق " يعني مشرق كل يوم وقال في آية أخرى " ورب المشرق والمغرب " أي ناحية المشرق وناحية المغرب

وقال في آية أخرى " رب المشرقين ورب المغربين " أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف

وقال في هذه السورة " رب المشارق " أي مشرق كل يوم

سورة الصافات ٦ - ١١

ثم قال " إنا زينا السماء الدنيا " يعني الأدنى

وإنما سميت سماء الدنيا لأنها أقرب إلى الأرض " بزينة الكواكب " بضوء الكواكب

قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص " بزينة " بالتنوين " الكواكب " بكسر الباء

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " بزينة " بالتنوين " الكواكب " بالنصب جعل الكواكب بدلا من الزينة والمعنى إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب

ومن قرأ بالنصب أقام الزينة مقام التزيين فكأنه قال إنا زينا السماء الدنيا بتزييننا الكواكب فيكون الكواكب على معنى التفسير

ومن قرأ بغير تنوين فهو على إضافة الزينة إلى الكواكب

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال الكواكب معلقة بالسماء كالقناديل

ويقال إنها مركبة عليها كما تكون في الصناديق والأبواب

---

(١) بحر العلوم . ، ٢/٤٤٩

ثم قال " وحفظا من كل شيطان مارد " يعني حفظ الله تعالى السماء بالكواكب من كل شيطان **متمرد** يعني شديدا يقال مرد يمرد إذا اشتد

ثم قال " لا يسمعون " قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص " لا يسمعون " بنصب السين والتشديد والباقون " يسمعون " بنصب الياء وجزم السين مع التخفيف

قمن قرأ بجزم السين فهو بمعنى يسمعون ومن قرأ بالتشديد فأصله يتسمعون فأدغمت التاء في السين وشددت

يعني لكيلا يستمعون " إلى الملأ الأعلى " يعني إلى الكتبة " ويقذفون " يعني ويرمون " من كل جانب دحورا " يعني طردا من كل ناحية من السماء وكانوا من قبل يستمعون إلى كلام الملائكة عليهم السلام

قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم

قال حدثنا عبد الرزاق

قال أخبرنا معمر عن الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس

قال بينما." (١)

"قال القاضي أبو محمد وتعلق بهذه قوم ممن قال بجواز تكليف مالا يطاق وقال إن الله قد كلفهم أمر الخواطر وذلك مما لا يطاق

قال القاضي أبو محمد وهذا غير بين وإنما كان أمر الخواطر تأويلا تأوله أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

٣٩١

ولم يثبت تكليفا إلا على الوجه الذي ذكرنا من تقرير النبي صلى الله عليه وسلم إياهم على ذلك

ومسألة تكليف ما لا يطاق نتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى

ولما ذكر المغفرة والتعذيب بحسب مشيئته تعالى أعقب ذلك بذكر القدرة على جميع الأشياء إذ ما ذكر جزء منها

سورة البقرة ٢٨٥

سبب هذه الآية أنه لما نزلت " وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه " الآية التي قبلها

وأشفق منها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ثم تقرر الأمر على أن " قالوا سمعنا وأطعنا

---

(١) بحر العلوم ., ١٢٩/٣

" فرجعوا إلى التضرع والاستكانة مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات من المذلة والمسكنة والجلاء إذ قالوا سمعنا وعصينا وهذه ثمرة العصيان **والتمرد** على الله عاذنا الله من نقمه و " آمن " معناه صدق و " الرسول " محمد صلى الله عليه وسلم و " بما أنزل إليه من ربه " هو القرآن وسائر ما أوحي إليه من جملة ذلك هذه الآية التي تأولوها شديدة الحكم ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه قال (ويحق له أن يؤمن) وقرأ ابن مسعود وآمن المؤمنون و "كل " لفظة تصلح للإحاطة وقد تستعمل غير محيطة على جهة التشبيه بالإحاطة والقرينة تبين ذلك في كل كلام ولما وردت هنا بعد قوله " والمؤمنون " دل ذلك على إحاطتها بمن ذكر

والإيمان بالله هو التصديق به وبصفاته ورفض ال أصنام وكل معبود سواه

والإيمان بملائكته هو اعتقادهم عبادا لله ورفض معتقدات الجاهلية فيهم

والإيمان بكتبه هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمن ذكرهم كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم أو ما أخبر هو به وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي

". (١)

"قال القاضي أبو محمد وعلى هذا يتخرج قول الطبري ولا يقول في عيسى إنه عبد رسول إلا مسلم وقال ابن زيد هم أهل طاعة الله من أهل الكتاب وهذا هو المترجح وقد ذكر الزجاج أنه يعني بالمقتصدة الطوائف

التي لم تناصب الأنبياء مناصبة المتهتكين المجاهرين

قال القاضي أبو محمد وإنما يتوجه أن توصف بالاقتصاد بالإضافة إلى **المتمردة** كما يقال في أبي البختري بن هشام إنه مقتصد بالإضافة إلى أبي جهل بن هشام لعنه الله ثم وصف تعالى الكثير منهم بسوء العمل عموما وذهب الطبري إلى أن ذلك في تكذيبهم الأنبياء وكفر اليهود بعيسى والجميع من أهل الكتابين بمحمد صلى الله عليه وسلم و " ساء " في هذه الآية هي المتصرفة كما تقول ساء الأمر يسوء وقد تستعمل " ساء " استعمال نعم وبئس كقوله عز وجل " ساء مثلا " فتلك غير هذه يحتاج في هذه التي في قوله " ساء مثلا " من الإضمار والتقدير إلى ما يحتاج في نعم وبئس وفي هذا نظر

---

(١) المحرر الوجيز . ، ١/٣٩٠

وقوله تعالى " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك " إلى قوله " على القوم الكافرين " هذه الآية أمر في من الله ورسوله بالتبليغ على الاستيفاء والكمال

لأنه قد كان بلغ فإنما أمر هذه الآية بأن لا يتوقف عن شيء مخافة أحد وذلك أن رسالته صلى الله عليه وسلم تضمنت الطعن على أنواع الكفرة وبيان فساد

٢١٨

حالهم فكان يلقى منهم عنتا وربما خافهم أحيانا قبل نزول هذه الآية فقال الله له " بلغ ما أنزل إليك من ربك " أي كاملا متمما ثم توعده تعالى بقوله " وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته " أي إنك إن تركت شيئا فكأنما قد تركت الكل وصار ما بلغت غير معتد به فقوله تعالى " وإن لم تفعل " معناه وإن لم تستوف ونحو هذا قول الشاعر

(سئلت فلم تمنع ولم تعط نائلا

فسيان لا ذم عليك ولا حمد)

أي ولم تعط ما يعد نائلا وإلا فيتكاذب البيت وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي فما بلغت رسالته على الإفراد ". (١)

"أن يشاء الله له ذلك وقوله تعالى " وكذلك جعلنا لكل نبي " الآية تتضمن تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وعرض القدوة عليه أي إن هذا الذي امتحنت به يا محمد من الأعداء قد امتحن به غيرك من الأنبياء ليبتلي الله أولي العزم منهم و " عدوا " مفرد في معنى الجمع ونصبه على المفعول الأول ل " جعلنا " والمفعول الثاني في قوله " لكل نبي " و " شياطين " بدل من قوله " عدوا " ويصح أن يكون المفعول الأول " شياطين " والثاني " عدوا " وقوله " شياطين الإنس والجن " يريد به **المتمردين** من النوعين الذين هم من شيم السوء كالشياطين وهذه قول جماعة من المفسرين ويؤيده حديث أبي ذر أنه صلى يوما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (تعوذ يا أبا ذر من شياطين الجن والإنس) قال وإن من الإنس لشياطين قال نعم

قال السدي وعكرمة المراد بالشياطين الموكلون بالإنس والشياطين الموكلون بمؤمني الجن وزعما أن للجن شياطين موكلين بغوايتهم

٣٣٦

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٢/٢٠٤

وإنهم يوحون إلى شياطين الإنس بالشر والوسوسة يتعلمها بعضهم من بعض قالا ولا شياطين من الإنس قال القاضي أبو محمد وهذا قول لا يستند إلى خبر ولا إلى نظر و " يوحي " معناه يلقيه في اختفاء فهو كالمناجاة والسرار و " زخرف القول " معناه محسنه ومزينه بالأباطيل قاله عكرمة ومجاهد والزخرفة أكثر ذلك إنما يستعمل في الشر والباطل و " غرورا " نصب على المصدر ومعناه أنهم يغرون به المضللين ويوهمون لهم أنهم على شيء والأمر بخلاف والضمير في قوله " فعلوه " عائد على اعتقادهم العداوة ويحتمل على الوحي الذي تضمنته " يوحي "

وقوله " فذرهم وما يفترون " لفظ يتضمن الأمر بالموادعة منسوخ بآيات القتال قال قتادة كل ذر في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال و " يفترون " معناه يختلفون ويشتقون وهو من الفرقة تشبيها بفري الأديم

قوله عز وجل

سورة الأنعام ١١٣ ١١٤

" ولتصغى إليه " معناه لتميل يقال صغى يصغي وأصلها يصغي بكسر الغين لكن رده حرف الحلق إلى الفتح ويقال صغى يصغو وأصغى يصغي وصغى يصغى و " أفئدة " جمع فؤاد ويقترفون معناه يواقعون ويجترحون وهي مستعملة أكثر ذلك في الشر والذنوب ونحوه والقراء على كسر اللام في الثلاثة الأفعال على أنها لام كي فإما أن تكون معطوفة على " غرورا " وإما أن تكون متعلقة بفعل مؤخر تقديره فعلوا ذلك أو جعلنا ذلك فهي لام صيرورة قاله الزجاج ولا يحتمل أن تكون هذه اللامات على هذه القراءة لام الأمر وضمنها الوعيد وتبقى في لتصغى على نحو ما جاء من ذلك في قول الشاعر

(ألم يأتيك الخ . . .

)

إلى غير ذلك مما قد قرىء به

." (١)

"الآية الحكم بالرضى عنهم بإدخالهم الجنة وغفر ذنوبهم والحكم برضاهم عنه في شكرهم وحمدهم على نعمه وإيمانهم به وطاعتهم له جعلنا الله من الفائزين برحمته و " ممن حولكم من الأعراب " الآية مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم شرك في بعضها أمته والإشارة بقوله " وممن حولكم من الأعراب " هي إلى جهينة ومزينة وأسلم وغفار وعصية ولحيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة فأخبر الله عن منافقيهم

---

(١) المحرر الوجيز ، ٣٩٦/٢

وتقدير الآية ومن أهل المدينة قوم أو منافقون هذا أحسن ما حمل اللفظ و " مردوا " قال أبو عبيدة معناه مرنوا عليه ولجوا فيه وقيل غير هذا مما هو قريب منه وقال ابن زيد أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون . والظاهر من معنى اللفظ أن التمرد في الشيء أو المرود عليه إنما هو اللجاج والاستهتار به والعتو على الزاجر وركوب الرأس في ذلك وهو مستعمل في الشر لا في الخير ومن ذلك قولهم شيطان مارد ومريد

٧٦

ومن ہذا سميت مراد لأنها تمردت وقال بعض الناس يقال تمرد الرجل في أمر كذا إذا تجرد له وهو من قولهم شجرة مرداء إذا لم يكن عليها ورق ومنه " صرح ممرد " ومنه قولهم تمرد مارد وعز الأبلق ومنه الأمرد الذي لا لحية له فمعنى " مردوا " في هذه الآية لجوا فيه واستهتروا به وعتوا على زاجرهم ثم نفى عز وجل علم نبيه بهم على التعيين وأسند الطبري عن قتادة في قوله " لا تعلمهم نحن نعلمهم " قال فما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان في الجنة فلان في النار فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدري أنت لعمري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الرسل قال نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم " وما علمي بما كانوا يعلمون " وقال نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم " بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ " وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم " لا تعلمهم نحن نعلمهم " (١) ".

"خطأيبدلونه إلى صواب يراه بعد فأخبر الله عز وجل أنه أعلم بما يصلح للعباد برهة من الدهر ثم ما يصلح لهم بعد ذلك وأنهم لا يعلمون هذا وقرأ الجمهور ينزل بفتح النون وشد الزاي وقرأ أبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي وعبر ب الأكثر مراعاة لما كان عند قليل منهم من توقف وقلة مبالغة في التكذيب والظن ويحتمل أن يكون هذا اللفظ قرر على قليل منهم انهم يعلمون ويكفرون تمردا

٤٢١

وعنادا وأمر نبيه أن يخبر أن القرآن وناسخه ومنسوخه إنما نزله جبريل عليه السلام وهو " روح القدس " لا خلاف في ذلك و " القدس " الموضع المطهر فكأن جبريل أضيف إلى الأمر المطهر بإطلاق وسمي روحا إما لأنه ذو روح من جملة روح الله الذي بثه في خلقه وخص هو بهذا الاسم وإما لأنه يجري من الهدايات والرسالات ومن الملائكة أيضا مجرى الروح من الأجساد لشرفه ومكانته وقرأ ابن كثير القدس بسكون الدال وقرأ الباقون القدس بضمها وقوله " بالحق " أي مع الحق في أوامره ونواهيه وأحكامه ومصالحه وأخباره

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٨٤/٣

ويحتمل ان يكون قوله " بالحق " بمعنى حقا ويحتمل أن يريد " بالحق " في أن ينزل أي أنه واجب لمعنى المصلحة أن ينزل وعلى هذا الاحتمال اعتراضات عند أصحاب الكلام على أصول الدين وباقي الآية بين وقوله " ولقد نعلم أنهم يقولون " قال ابن عباس كان في مكة غلام أعجمي لبعض قريش يقال له بلعام فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه ويعلمه الإسلام ويرومه عليه فقالت قريش هذا يعلم محمدا من جهة الأعاجم فنزلت الآية بسببه وقال عكرمة وسفيان كان اسم الغلام يعيش وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي كان بمكة غلامان أحدهما اسمه جبر والآخر يسار وكانا يقرآن بالرومية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليهما فقالت قريش ذلك ونزلت الآية وقال ابن إسحاق والإشارة إلى جبر وقال الضحاك الإشارة إلى سلمان الفارسي .

قال القاضي أبو محمد وهذا ضعيف لأن سلمان إنما أسلم بعد الهجرة بمدة وقرأت فرقة لسان الذي وقرأ الحسن البصري اللسان الذي بالتعريف ويغير تنوين في رأي بشر وقرأ نافع وابن كثير يلحدون بضم الياء منألحد إذا مال وهي قراءة أبي عمرو وعاصم وابن عامر وأبي جعفر بن القعقاع وقرأ حمزة والكسائي يلحدون بفتح الياء من لحد وهي قراءة عبد الله وطلحة وأبي عبد الرحمن والأعمش ومجاهد وهما بمعنى ومنه قول الشاعر

(قدني من نصر الخبيبين قدي

ليس أمري بالشحيح

الماحد) " الرمل "

." (١)

"والآيات التي أرسل بها موسى وهي التسع المذكورة وغير ذلك مما جاءت به الروايات وخص الملأ المذكور لأنهم يسدون مسد جميع الناس ثم وصفهم تعالى بالضحك من آيات موسى كما كانت قريش تضحك وتسخر من اخبار محمد عليه السلام ثم وصف تعالى صورة عرض الآيات عليهم وإنما كانت شيئا بعد شيء

وقوله " إلا هي اكبر من اختها " عبارة عن شدة موقعها في نفوسهم بحدة امرها وحدوثه وذلك ان أول آية عرض موسى هي العصا واليد وكانت اكبر آياته ثم كل آية بعد ذلك كانت تقع فيعظم عندهم لحينها وتكبر لأنهم قد كانوا انسوا التي قبلها فهذا كما قال الشاعر

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٤٢٥/٣

(على انها تعفو الكلوم وإنما

توكل بالأدنى وان جل ما يقضى) " الطويل "

وذهب الطبري الى ان الآيات هي الحجج والبينات

ثم ذكر تعالى اخذهم بالعذاب في العمل والضفادع والدم وغير ذلك وهذا كما اخذ قريش بالسنين والدخان

وقوله " لعلهم " ترج بحسب معتقد البشر وظنهم

و " يرجعون " معناه يتوبون ويقلعون

وقوله تعالى " وقالوا يا أيه الساحر " جائز ان يكون قائل ذلك من اعلمهم بكفر السحر فيقول قوله استهزاء وهو يعلم قدر السحر وانحطاط منزلته ويكون قوله " عندك " بمعنى في زعمك وعلى قولك ويحتمل ان يكون القائل ليس من **المتمردين** الحذاق ويطلق لفظة الساحر لأحد وجهين إما لأن السحر كان عند عامتهم علم الوقت فكأنه قال يا أيه العالم وإما لأن هذه الاسمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى لأول ظهورها فاستصحبها هذا القائل في مخاطبة قلة تحرير وغباوة ويكون القول على هذا التاويل جدا من القائل ويكون قوله " إنا لمهتدون " بمعنى إن نفعتنا دعوتك وهذا التاويل أرجح أعني ان كلام هذا القائل مقترن بالجد

وقرأ ابن عامر وحده (يا أي) بياء مضمومة فقط

ثم أخبر عنهم انه لما كشف عنهم

العذاب نكثوا ولو كان الكلام هزلا من اوله لما وقع نكث

٥٩

قوله عز وجل

سورة الزخرف ٥١ - ٥٦

نداء فرعون يحتمل ان يكون بلسانه في ناديه ويحتمل ان يكون بان أمر من ينادي في الناس ومعنى هذه الحجة التي نادى بها انه أراد ان يبين فضله على موسى إذ هو ملك مصر وصاحب الأنهار والنعم وموسى خامل متقلل لا دنيا له قال فلو ان إله موسى يكون حقا كما يزعم لما ترك الأمر هكذا و " مصر " من بحر الإسكندرية الى أسوان بطول النيل

و " الأنهار " التي أشار اليها هي الخلجان الكبار الخارجة من النيل وعظمها نهر الاسكندرية وتنيس ودمياط ونهر طولون

وقوله " أم أنا خير " قال سيبويه " ام " هذه المعادلة والمعنى ام أنتم لا تبصرون فوضع موضع قوله ام تبصرون الأمر الذي هو حقيق ان يبصر عنده وهو انه خير من موسى

و (لا) على هذا النظر نافية

". (١)

"وأخرج الخطيب في تاريخه عن عائشة قالت : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إن يدعون من دونه إلا أنثى)).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان ﴿وإن يدعون إلا شيطانا﴾ يعني إبليس.

وأخرج عن سفيان ﴿وإن يدعون إلا شيطانا﴾ قال : ليس من صنم إلا فيه شيطان.

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿مريدا﴾ قال : **تمرد** على معاصي الله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان ﴿وقال لأتخذن من عبادك﴾ قال : هذا قول إبليس ﴿نصيبا مفروضا﴾ يقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد إلى الجنة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ قال : يتخذونها من دونه ويكونون من حزبي." (٢)

"بغير علم﴾ قال : نزلت في النضر بن الحارث.

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن جرير مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾ قال : **تمرد** على معاصي الله.

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿كتب عليه﴾ قال : كتب على الشيطان.

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿كتب عليه﴾ قال : على الشيطان ﴿أنه من تولاه﴾ قال : اتبعه.

– قوله تعالى : يأأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفه ثم من علقه ثم من مضغه مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٥٢/٥

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٢١/٥

ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، وابن ماجة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الايمان عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل اليه الملك فينفخ فينفخ الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله إلا." (١)

"الميثاق على أمم الأنبياء واللام في قوله لما آتيتكم لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى الاستخلاف واللام في لتؤمنن ... ١١٢

١١٢ جواب القسم وما يحتمل أن تكون شرطية ولتؤمنن سد مسد جواب القسم والشرط وأن تكون موصولة بمعنى الذي آتيناكموه لتؤمنن به والضمير في به ولتنصرنه عائد على الرسول ءأقررتم أي اعترفتم إصري عهدي فاشهدوا أي على أنفسكم وعلى أممكم بالتزام هذا العهد وأنا معكم تأكيد للعهد بشهادة رب العزة جل جلاله بعد ذلك أي من تولى عن الإيمان بهذا النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا الميثاق فهو فاسق مرتد متمرد في كفره أفغير الهمزة للإنكار والفاء عطفت جملة على جملة وغير مفعول قدم للاهتمام به أو للحصر وله أسلم أي انقاد واستسلم طوعا وكرها مصدر صدر في موضع الحال والطوع للمؤمنين والكره للكافر إذا عاين الموت وقيل عند أخذ الميثاق المتقدم وقيل إقرار كل كافر بالصانع هو إسلامه كرها قل آمنا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبر عن نفسه وعن أمته بالإيمان وما أنزل علينا تعدى هنا بعلى مناسبة لقوله قل وفي البقرة بإلى لقوله قولوا لأن على حرف استعلاء يقتضي النزول من علو ونزوله على هذا المعنى مختص بالنبي صلى الله عليه وسلم وإلى حرف غاية وهو موصل إلى جميع الأمة ومن يبتغ الآية إبطال لجميع الأديان غير الإسلام وقيل نسخت إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى الآية كيف سؤال والمراد به هنا استبعاد الهدى قوما كفروا نزلت في الحرث بن سويد وغيره أسلموا ثم ارتدوا ولحقوا بالكفار ثم كتبوا إلى أهلهم هل لنا من توبة فنزلت الاية إلى قوله إلا الذين تابوا فرجعوا إلى الإسلام وقيل نزلت في اليهود والنصارى شهدوا بصفة النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ثم كفروا به لما

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ١٠/٤٠٤

بعث وشهدوا عطف على إيمانهم لأن معناه بعد أن آمنوا وقيل الواو للحال وقال ابن عطية عطف على." (١)

" ١٩ بالفتح فإن كانت مصدرية لم يوقف عليه لأنه عامل فيها وإن كانت بمعنى لعل فأجاز بعض الناس الوقف ومنعه شيخنا أبو جعفر بن الزبير لما في لعل من معنى التعليل ونقلب أفئدتهم وأبصارهم أي نطبع عليها ونصدها عن الفهم فلا يفهمون كما لم يؤمنوا الكاف للتعليل أي نطبع على أفئدتهم وأبصارهم عقوبة لهم على أنهم لا يؤمنون به أول مرة ويحتمل أن تكون للتشبيه أي نطبع عليها إذا رأوا الآيات مثل طبعنا عليها أول مرة ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة الآية رد عليهم في قسمهم أنهم لو جاءتهم آية ليؤمنون بها أي لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله قبلا بكسر القاف وفتح الباء أي معاينة فنصبه على الحال وقرئ بضمتين ومعناه مواجهة كقوله قدمن قبل وقيل هو جمع قبيل بمعنى كفيل أي كفلا بتصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بالتأسي لغيره شياطين الإنس والجن أي **المتمردين** من الصنفين ونصب شياطين على البدل من عدوا إذ هو بمعنى الجمع أو مفعول أول وعدوا مفعول ثان يوحى بعضهم إلى بعض أي يوسوس ويلقي الشر زخرف القول غرورا ما يزينه من القول ولو شاء ربك ما فعلوه الضمير عائد على وحيهم أو على عداوة الكفار فذرهم وعيد وما يفترون ما في موضع نصب على أنها مفعول معه أو عطف على الضمير ولتصغى أي تميل وهو متعلق بمحذوف واللام لام الصيرورة إليه الضمير لوحيهم وليقترفوا يكتسبوا أفغير الله معمول لقول محذوف أي قل لهم وتمت كلمة ربك أي صحت والكلمات ما نزل على عباده من كتبه صدقا وعدلا أي صدقا فيما أخبر وعدلا فيما حكم فكلوا مما ذكر اسم الله عليه القصد بهذا الأمر إباحة ما ذكر اسم الله عليه والنهي عما ذبح للنصب وغيرها وعن الميتة وهذا النهي يقتضيه دليل الخطاب من الأمر ثم صرح به في قوله ولا." (٢)

"الآية احتجاج على الكفار بحجج كثيرة واضحة ... ٢٨٨

٩٣ لا محيص لهم عن الإقرار بها يخرج الحي من الميت مذكور في آل عمران ربكم الحق أي الثابت الربوبية بخلاف ما تعبدون من دونه فماذا بعد الحق إلا الضلال أي عبادة غير الله ضلال بعد وضوح الحق وتدل الآية على أنه ليس بين الحق والباطل منزلة في علم الاعتقادات إذ الحق فيها في طرف واحد بخلاف

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٠٦/١

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٣٧٥/١

مسائل الفروع كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا المعنى كما حق الحق في الاعتقادات كذلك حقت كلمة ربك على الذين عتوا وتمردوا في كفرهم أنهم لا يؤمنون والكلمات يراد بها القدر والقضاء قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده الآية احتجاج على الكفار فإن قيل كيف يحتج عليهم بإعادة الخلق وهم لا يعترفون بها فالجواب أنهم معترفون أن شركاءهم لا يقدرون على الابتداء ولا على الإعادة وفي ذلك إبطال لربوبيتهم وأيضا فوضعت الإعادة موضع المتفق عليه لظهور برهانها أمن لا يهدي بتشديد الدال معناه لا يهتدي في نفسه فكيف يهدي غيره وقرئ بالتخفيف بمعني يهدي غيره والقراءة الأولى أبلغ في الاحتجاج فما لكم ما استفهامية معناها تقرير وتوبيخ ولكم خبرها ويوقف عليه كيف تحكمون أي تحكمون بالباطل في عبادتكم لغير الله

وما يتبع أكثرهم إلا ظنا أي غير تحقيق لأنه لا يستند إلى برهان إن الظن لا يغني من الحق شيئا ذلك في الاعتقادات إذ المطلوب فيها اليقين بخلاف الفروع تصديق الذي بين يديه مذكور في البقرة أم يقولون أم هنا بمعنى بل والهمزة فأتوا بسورة تعجيز لهم وإقامة حجة عليهم من استطعتم يعني من شركائكم وغيرهم من الجن والإنس من دون الله أي غير الله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه أي سارعوا إلى التكذيب بما لم يفهموه ولم يعلموا تفسيره ولما يأتهم تأويله أي علم تأويله ويعني بتأويله الوعيد الذي لهم فيه ومنهم من يؤمن به الآية فيها قولان." (١)

"الوصفان، فقد كان العرب يعرفون اليهود في خيبر والنضير وبعض سكان المدينة وفي عرب اليمن.وكانوا يعرفون نصارى العرب مثل تغلب وكلب وبعض قضاعة، وكل أولئك بدلوا وغيروا وتنكبوا عن الصراط المستقيم الذي أرشدهم الله إليه وتفرقوا في بنيات الطرق على تفاوت في ذلك.

فاليهود تمردوا على أنبيائهم وأحبارهم غير مرة وبدلوا الشريعة عمدا فلزمهم وصف المغضوب عليهم وعلق بهم في آيات كثيرة. والنصارى ضلوا بعد الحواريين وأساءوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام فزعموه ابن الله على الحقيقة قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾ [المائدة:٧٧]

وفي وصف الصراط المسئول في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ بالمستقيم إيماء إلى أن الإسلام واضح الحجة قويم المحجة لا يهوي أهله إلى هوة الضلالة كما قال تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما﴾ [الأنعام: ١٦١] وقال ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٤٨٣/١

عن سبيله﴾ [الأنعام: ١٥٣]، على تفاوت في مراتب إصابة مراد الله تعالى ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم "من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد" ولم يترك بيان الشريعة مجاري اشتباه بين الخلاف الذي تحيط به دائرة الإسلام والخلاف الذي يخرج بصاحبه عن محيط الإسلام قال تعالى: ﴿إنك على الحق المبين﴾ [النمل: ٧٩].

واختلف القراء في حركة هاء الضمير من قوله: ﴿أنعمت عليهم﴾ ، وقوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وما ضاهاهما من كل ضمير جمع وتثنية مذكر ومؤنث للغائب وقع بعد ياء ساكنة، فالجمهور قرأوها بكسر الهاء تخلصا من الثقل لأن الهاء حاجز غير حصين فإذا ضمت بعد الياء فكان ضمتها قد وليت الكسرة أو الياء الساكنة وذلك ثقيل وهذه لغة قيس وتميم وسعد بن بكر. وقرأ حمزة عليهم وإليهم ولديهم فقط بضم الهاء وما عداها بكسر الهاء نحو إليهما وصياصيهم وهي لغة قريش والحجازيين. وقرأ يعقوب كل ضمير من هذا القبيل مما قبل الهاء فيه باء ساكنة بضم الهاء. وقد ذكرنا هذا هنا فلا نعيد ذكره في أمثاله وهو مما يرجع إلى قواعد علم القراءات في هاء الضمير.

واختلفوا أيضا في حركة ميم ضمير الجمع الغائب المذكر في الوصل إذا وقعت قبل متحرك فالجمهور قرأوا ﴿عليهم غير المغضوب عليهم﴾ [الفاتحة: ٧] بسكون الميم وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون في رواية عنه بضمة مشيعة ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وهي لغة لبعض العرب." (١)

"شدة اتقاء لمواليه، وما فسرنا به أرشق. وقد جمع كلام شيوخ بني أسد مع امرئ القيس حين كلموه في دم أبيه فقالوا :فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث :أما إن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا فقدناه إليك بنسعه تذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته. أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها فهي ألوف. وإما وادعتنا إلى أن تضع الحوامل فتسدل الأزر وتعقد الخمر فوق الرايات اه.

وقرأ الجمهور "ولا يقبل" بياء تحتية ياء المضارع المسند إلى مذكر لمناسبة قوله بعده: ﴿ولا يؤخذ منه عدل﴾ ، ويجوز في كل مؤنث اللفظ غير حقيقي التأنيث أن يعامل معاملة المذكر لأن صيغة التذكير هي الأصل في الكلام فلا تحتاج إلى سبب، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بمثناة فوقية رعيا لتأنيث لفظ شفاعة.

والشفاعة :السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضر سواء كانت الوساطة بطلب من المنتفع بها أم

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩٧/١

كانت بمجرد سعي المتوسط ويقال لطالب الشفاعة مستشفع. وهي مشتقة من الشفع لأن الطالب أو التائب يأتي وحده فإذا لم يجد قبولا ذهب فأتى بمن يتوسل به فصار ذلك الثاني شافعا للأول أي مصيره شفعا.

والعدل بفتح العين العوض والفداء، سمي بالمصدر لأن الفادي يعدل المفدي بمثله في القيمة أو العين ويسويه به، يقال عدل كذا بكذا أي سواه به.

والنصر هو إعانة الخصم في الحرب وغيره بقوة الناصر وغلبته. وإنما قدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق زيادة على ما استفيد من نفي الفعل مع إسناده للمجهول كما أشرنا إليه آنفا.

وقد كانت اليهود تتوهم أو تعتقد أن نسبتهم إلى الأنبياء وكرامة أجدادهم عند الله تعالى مما يجعلهم في أمن من عقابه على العصيان **والتمرد** كما هو شأن الأمم في إبان جهالتها وانحطاطها وقد أشار قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ [المائدة: من الآية١٨].

وقد تمسك المعتزلة بهذه الآية للاحتجاج لقولهم بنفي الشفاعة في أهل الكبائر يوم القيامة لعموم نفس في سياق النفي المقتضي أن كل نفس لا يقبل منها الشفاعة وهو عموم لم يرد ما يخصصه عندهم. والمسألة فيها خلاف بين المعتزلة وأصحاب الأشعري.

واتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة يوم القيامة للطائعين والتائبين لرفع الدرجات." (١)

"ليكون هناك شاهدا عليكم لأني أعرف **تمردكم** وقد صرتم تقاومون ربكم وأنا حي فأحرى أن تفعلوا ذلك بعد موتي ولا يخفى أن اليهود قد نبذوا الديانة غير مرة وعبدوا الأصنام في عهد رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وفي عهد يوربعام غلام سليمان ملك إسرائيل قبل تخريب بيت المقدس وذلك مؤذن بتناسي الدين ثم طرأ عليه التخريب المشهور ثم أعقبه التخريب الروماني في زمن طيطس سنة ٤٠ للمسيح ثم ثم في زمن أدريان الذي تم على يده تخريب بلد أورشليم بحيث صيرها مزرعة وتفرق من أبقاه السيف من اليهود في جهات العالم. ولهذا اتفق المحققون من العلماء الباحثين عن تاريخ الدين على أن التوراة قد دخلها التحريف والزيادة والتلاشي وأنهم لما جمعوا أمرهم عقب بعض مصائبهم الكبرى افتقدوا التوراة فأرادوا أن يجمعوها من متفرق أوراقهم وبقايا مكاتبهم. وقد قال لنجرك أحد اللاهوتيين من علماء الإفرنج إن سفر التثنية كتبه يهودي كان مقيما بمصر في عهد الملك يوشيا ملك اليهود وقال غيره إن الكتب الخمسة التي هي مجموع التوراة قد دخل فيها تحريف كثير من علم صموئيل أو عزير عزرا. ويذكر علماؤنا أن اليهود إنما

---

(١) التحرير والتنوير، ١/٤٧٠

قالوا عزير ابن الله لأنه ادعى أنه ظفر بالتوراة. وكل ذلك يدل على أن التوراة قد تلاشت وتمزقت والموجود في سفر الملوك الثاني من كتبهم في الإصحاح الحادي والعشرين أنهم بينما كانوا بصدد ترميم بيت المقدس في زمن يوشيا ملك يهوذا ادعى حلقيا الكاهن أنه وجد سفر الشريعة في بيت الرب وسلمه الكاهن لكاتب الملك فلما قرأه الكاتب على الملك مزق ثيابه وتاب من ارتداده عن الشريعة وأمر الكهنة بإقامة كلام الشريعة المكتوب في السفر الذي وجده حلقيا الكاهن في بيت الرب اه. فهذا دليل قوي على أن التوراة كانت مجهولة عندهم منذ زمان.

[٨٠-٨٢] ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾

قيل الواو لعطف الجملة على جملة ﴿وقد كان فريق منهم﴾ [البقرة: من الآية٧٥] فتكون حالا مثلها أي كيف تطمعون أن يؤمنوا لكم وهو يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ويقولون لن تمسنا النار. والأظهر عندي أن الواو عطف على قوله ﴿يكتبون﴾ إلخ أي فعلوا ذلك وقالوا ﴿لن تمسنا النار﴾ ووجه المناسبة أن قولهم ﴿لن تمسنا النار﴾ دل على." [١]

"إليه لا يكذب به إلا من لا يؤبه بتكذيبه لكون هذا المنزل دلائل واضحة لا تقصر عن إقناعهم بأحقيتها ولكنهم يظهرون أنفسهم أنهم لم يوقنوا بحقيتها.

واللام موطئة لقسم محذوف فهنا جملة قسم وجوابه حذف القسم لدلالة اللام عليه.

وقوله: ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ عطف على: ﴿لقد أنزلنا﴾ فهو جواب للقسم أيضا.

والفاسق هو الخارج عن شيء من فسقت التمرة كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ [البقرة: من الآية٢٦] وقد شاع إطلاقه على الخارج عن طريق الخير لأن ذلك الوصف في التمرة وصف مذموم وقد شاع في القرآن وصف اليهود به والمعنى ما يكفر بهاته الآيات إلا من كان الفسق شأنه ودأبه لأن ذلك يهيئه للكفر بمثل هذه الآيات فالمراد بالفاسقين المتجاوزون الحد في الكفر **المتمردون** فيه. والإخبار وقع بالمضارع الدال على التجدد. والتوصيف وقع باسم الفاعل المعرف باللام

وقوله: ﴿أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم﴾ استفهام مستعمل في التوبيخ معطوف على جملة القسم لا على خصوص الجواب وقدمت الهمزة محافظة على صدارتها كما هو شأنها مع حروف العطف. والقول

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٦٠/١

بأن الهمزة للاستفهام عن مقدر محذوف والواو عاطفة ما بعدها على المحذوف علمتم إبطاله عند قوله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ وتقديم كلما تبع لتقديم حرف الاستفهام وقد تقدم توجيهه عند قوله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ [البقرة: ٨٧]

والنبذ إلقاء الشيء من اليد وهو هنا استعارة لنقض العهد شبه إبطال العهد وعدم الوفاء به بطرح شيء كان ممسوكا باليد كما سموا المحافظة على العهد والوفاء به تمسكا قال كعب:

ولا تمسك بالوعد الذي وعدت

والمراد بالعهد عهد التوراة أي ما اشتملت عليه من أخذ العهد على بني إسرائيل بالعمل بما أمروا به أخذا مكررا حتى سميت التوراة بالعهد، وقد تكرر منهم نقض العهد مع أنبيائهم ومن جملة العهد الذي أخذ عليهم، أن يؤمنوا بالرسول المصدق للتوراة. وأسند النبذ إلى فريق إما باعتبار العصور التي نقضوا فيها العهود كما تؤذن به كلما أو احتراسا من شمول الذم للذين آمنوا منهم. وليس المراد أن ذلك الفريق قليل منهم فنبه على أنه." (١)

"ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ قوله: ﴿واتبعوا﴾ عطف على جملة الشرط وجوابه في قوله: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ [البقرة: ١٠١] الآية بذكر خصلة لهم عجيبة وهي أخذهم بالأباطيل بعد ذكر خصلة أخرى وهي نبذهم للكتاب الحق فذلك هو مناسبة عطف هذا الخبر على الذي قبله. فإن كان المراد بكتاب الله في قوله: ﴿كتاب الله وراء ظهورهم﴾ [البقرة: ١٠١] القرآن فالمعنى أنهم لما جاءهم رسول الله مصدقا لما معهم نبذوا كتابه بعلة أنهم متمسكون بالتوراة فلا يتبعون ما خالف أحكامها وقد اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وهو مخالف للتوراة لأنها تنهي عن السحر والشرك فكما قيل لهم فيما مضى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ [البقرة: ٨٥] يقال لهم أفتؤمنون بالكتاب تارة وتكفرون به تارة أخرى. وإن كان المراد بكتاب الله التوراة فالمعنى لما جاءهم رسول الله نبذوا ما في التوراة من دلائل صدق هذا الرسول وهم مع ذلك قد نبذوها من قبل حين: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ مع أن ذلك مخالف لأحكام التوراة.

قال القرطبي قال ابن إسحاق لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سليمان في الأنبياء قالت اليهود إن محمدا يزعم أن سليمان نبي وما هو بنبي ولكنه ساحر فنزلت هذه الآية

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٠٧/١

و ﴿الشياطين﴾ يحتمل أن يكونوا شياطين من الجن وهو الإطلاق المشهور. ويحتمل أن يراد به ناس **تمردوا** وكفروا وأتوا بالفظائع الخفية فأطلق عليهم الشياطين على وجه التشبيه كما في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الأنس والجن﴾ [الأنعام: ١١٢] وقرينة ذلك قوله: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ فإنه ظاهر في أنهم يدرسونه للناس وكذلك قوله بعده: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ إذ هذا الاستدراك في الإخبار يدل على أنهم من الإنس لأن كفر الشياطين من الجن أمر مقرر لا يحتاج للإخبار عنه.

وعن ابن إسحاق أيضا أنه لما مات سليمان عليه السلام عمدت الشياطين فكتبوا أصنافا من السحر وقالوا من أحب أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا لأصناف من السحر وختموه بخاتم يشبه نقش خاتم سليمان ونسبوه إليه ودفنوه وزعموا أن سليمان دفنه وأنهم." (١)

"أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم﴾ [النساء:٤٧] فنبهوا على أن الشرك من قبيل الافتراء تحذيرا لهم من الافتراء وتفظيعا لجنسه. وأما في هذه الآية فالكلام موجه إلى المسلمين فنبهوا على أن الشرك من الضلال تحذيرا لهم من مشاقة الرسول وأحوال المنافقين، فإنها من جنس الضلال. وأكد الخبر هنا بحرف قد اهتماما به لأن المواجه بالكلام هنا المؤمنون، وهم لا يشكون في تحقق ذلك.

والبعيد أريد به القوي في نوعه الذي لا يرجى لصاحبه اهتداء، فاستعير له البعيد لأن البعيد يقصي الكائن فيه عن الرجوع إلى حيث صدر.

[١٢١،١١٧] ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا عنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا﴾ .

كان قوله ﴿إن يدعون﴾ بيانا لقوله ﴿فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ [النساء:١١٦]، وأي ضلال أشد من أن يشرك أحد بالله غيره ثم أن يدعى أن شركاءه إناث، وقد علموا أن الأنثى أضعف الصنفين من كل نوع. وأعجب من ذلك أن يكون هذا صادرا من العرب، وقد علم الناس حال المرأة بينهم، وقد حرموها من حقوق كثيرة واستضعفوها. فالحصر في قوله ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا﴾ قصر ادعائي لأنه أعجب أحوال إشراكهم، ولأن أكبر آلهتهم يعتقدونها أنثى وهي: اللات، والعزى، ومناة، فهذا كقولك لا عالم إلا زيد. وكانت العزى لقريش، وكانت مناة للأوس والخزرج، ولا يخفى أن معظم المعاندين للمسلمين يومئذ كانوا

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٠٩/١

من هذين الحيين: مشركو قريش هم أشد الناس عداء للإسلام، ومنافقو المدينة ومشركوها أشد الناس فتنة في الإسلام.

ومعنى ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ : أن دعوتهم الأصنام دعوة للشيطان. والمراد جنس الشيطان، وإنما جعلوا يدعون الشيطان لأنه الذي سول لهم عبادة الأصنام. والمريد: العاصي والخارج عن الملك، وفي المثل **تمرد** مارد وعز الأبلق اسما حصنين للسموأل، فالمريد صفة مشبهة مشتقة من مرد بضم الراء إذا عتا في العصيان.

وجملة ﴿لعنه الله﴾ صفة لشيطان، أي أبعده؛ وتحتمل الدعاء عليه، لكن المقام ينبو." [١]

"في سورة الأعراف [١٤٣]. وبين أنهم لم يردعهم ذلك فاتخذوا العجل إلها من بعد ما جاءتهم البينات الدالة على وحدانية الله ونفي الشريك. وعطفت جملة اتخاذهم العجل بحرف ثم المفيد في عطفه الجمل معنى التراخي الرتبي. فإن اتخاذهم العجل إلها أعظم جرما مما حكي قبله، ومع ذلك عفا الله عنهم وآتى موسى سلطانا مبينا، أي حجة واضحة عليهم في **تمردهم**، فصار يزجرهم ويؤنبهم. ومن سلطانه المبين أن أحرق لهم العجل الذي اتخذوه إلها.

ثم ذكر آيات أخرى أظهرها الله لهم وهي: رفع الطور، والأمر بقتال أهل أريحا، ودخولهم بابها سجدا. والباب يحتمل أنه باب مدينة أريحا، ويحتمل أنه باب الممر بين الجبال ونحوها، كما سيأتي عند قوله تعالى ﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ إلى قوله ﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ في سورة العقود [٢٣]؛ وتحريم صيد البحر عليهم في السبت. وقد مضى الكلام عليها جميعا في سورة البقرة.

وأخذ الميثاق عليهم: المراد به العهد، ووصفه بالغليظ. أي القوي، والغلظ من صفات الأجسام، فاستعير لقوة المعنى وكنى به عن توثق العهد لأن الغلظ يستلزم القوة، والمراد جنس الميثاق الصادق بالعهود الكثيرة التي أخذت عليهم، وقد ذكر أكثرها في آي سورة البقرة، والمقصود من هذا إظهار تأصلهم في اللجاج والعناد، من عهد أنبيائهم، تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على ما لقي منهم، وتمهيدا لقوله ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ [النساء:١٥٥].

وقوله ﴿لا تعدوا﴾ قرأه نافع في أصح الروايات، وهي لورش عنه ولقالون في إحدى روايتيه عنه بفتح العين وتشديد الدال المضمومة أصله: لا تعتدوا، والاعتداء افتعال من العدو، يقال: اعتدى على فلان، أي تجاوز حد الحق معه، فلما كانت التاء قريبة من مخرج الدال ووقعت متحركة وقبلها ساكن، تهيأ إدغامها، فنقلت

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥٦/٤

حركتها إلى العين الساكنة قبلها، وأدغمت في الدال إدغاما لقصد التخفيف، ولذلك جاز في كلام العرب إظهارها؛ فقالوا: تعتدوا وتعدوا، لأنها وقعت قبل الدال، فكانت غير مجذوبة إلى مخرجه، ولو وقعت بعد الدال لوجب إدغامها في نحو أدان. وقرأ الجمهور، وقالون في إحدى روايتين عنه: لا تعدوا بسكون العين وتخفيف الدال مضارع مجزوم من العدو، وهو العدوان، كقوله ﴿إذ يعدون في السبت﴾ في سورة الأعراف [١٦٣]. وفي إحدى روايتين عن قالون: باختلاس الفتحة، وقرأه أبو جعفر: بسكون العين وتشديد الدال، وهي رواية عن نافع أيضا، رواها ابن مجاهد. قال أبو علي، في الحجة: وكثير من." (١)

"فالأحسن أن تكون جملة ﴿فريقا كذبوا﴾ حالا من ضمير ﴿إليهم﴾ لاقترانها بضمير موافق لصاحب الحال، ولأن المقصود من الخبر تفظيع حال بني إسرائيل في سوء معاملتهم لهداتهم، وذلك لا يحصل إلا باعتبار كون المرسل إليهم هذه حالهم مع رسلهم.وليست جملة ﴿فريقا كذبوا﴾ وما تقدمها من متعلقها استئنافا، إذ ليس المقصود الإخبار بأن الله أرسل إليهم رسلا بل بمدلول هذا الحال.

وبهذا يظهر لك أن التقسيم في قوله: ﴿فريقا كذبوا وفريقا يقتلون﴾ ليس لرسول من قوله :﴿كلما جاءهم رسول﴾ بل لـ ﴿رسلا﴾ ، لأننا اعتبرنا قوله: ﴿كلما جاءهم رسول﴾ مقدما من تأخير.والتقدير: وأرسلنا إليهم رسلا كذبوا منهم فريقا وقتلوا فريقا كلما جاءهم رسول من الرسل.وبهذا نستغني عن تكلفات وتقدير في نظم الآية الآتي على أبرع وجوه الإيجاز وأوضح المعاني.

وقوله: ﴿بما لا تهوى أنفسهم﴾ أي بما لا تحبه.يقال:هوي يهوى بمعنى أحب ومالت نفسه إلى ملابسة شيء.إن بعثة الرسل القصد منها كبح الأنفس عن كثير من هواها الموقع لها في الفساد عاجلا والخسران آجلا، ولولا ذلك لترك الناس وما يهوون، فالشرائع مشتملة لا محالة على كثير من منع النفوس من هواها.ولما وصفت بنو إسرائيل بأنهم يكذبون الرسل ويقتلونهم إذا جاؤوهم بما يخالف هواهم علمنا أنه لم يخل رسول جاءهم من أحد الأمرين أو كليهما:وهما التكذيب والقتل.وذلك مستفاد من ﴿كلما جاءهم رسول﴾ ، فلم يبق لقوله: ﴿بما لا تهوى أنفسهم﴾ فائدة إلا الإشارة إلى زيادة تفظيع حالهم من أنهم يكذبون الرسل أو يقتلونهم في غير حالة يلتمسون لأنفسهم فيها عذرا من تكليف بمشقة فادحة، أو من حدوث حادث ثائرة، أو من أجل التمسك بدين يأبون مفارقته، كما فعل المشركون من العرب في مجيء الإسلام، بل لمجرد مخالفة هوى أنفسهم بعد أن أخذ عليهم الميثاق فقبلوه فتتعطل **بتمردهم** فائدة التشريع وفائدة طاعة الأمة لهداتها.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٠٢/٤

وهذا تعليم عظيم من القرآن بأن من حق الأمم أن تكون سائرة في طريق إرشاد علمائها وهداتها، وأنها إذا رامت حمل علمائها وهداتها على مسايرة أهوائها، بحيث يعصون إذا دعوا إلى ما يخالف هوى الأقوام فقد حق عليهم الخسران كما حق على بني إسرائيل، لأن في ذلك قلبا للحقائق ومحاولة انقلاب التابع متبوعا والقائد مقودا، وأن قادة الأمم وعلماءها ونصحاءها إذا سايروا الأمم على هذا الخلق كانوا غاشين لهم، وزالت." (١)

"والمراد بأوليائهم أولياء الجن: أي الموالون لهم، والمنقطعون إلى التعلق بأحوالهم. وأولياء الشياطين هم المشركون الذين وافوا المحشر على الشرك وقيل: أريد به الكفارة والعصاة من المسلمين، وهذا باطل لأن العاصي وإن كان قد أطاع الشياطين فليس وليا لها ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] ولأن الله تعالى قال في آخر الآية: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: ١٣٠] - وقال: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

و ﴿من الأنس﴾ بيان للأولياء. وقد اقتصر على حكاية جواب الإنس لأن الناس المشركين هم المقصود من الموعظة بهذه الآية.

ومعنى: ﴿استمتع بعضنا ببعض﴾ انتفع وحصل شهوته وملائمه أي استمتع الجن بالإنس، وانتفع الإنس بالجن، فكل بعض مراد به أحد الفريقين لأنه بعض مجوع الفريقين. وإنما قالوا: استمتع بعضنا ببعض، ولم يكن الإنس هم المخاطبين بالتوبيخ، لأنهم أرادوا الاعتذار عن أوليائهم من الجن ودفع التوبيخ عنهم، بأن الجن لم يكونوا هم المستأثرين بالانتفاع بتطويع الإنس، بل نال كل من الفريقين انتفاعا بصاحبه، وهؤلاء المعتذرون يحتمل أنهم أرادوا مشاطرة الجناية إقرار بالحق، وإخلاصا لأوليائهم، أو أرادوا الاعتذار عن أنفسهم لما علموا من أن توبيخ الجن المغوين يعرض بتوبيخ المغوين بفتح الواو. فأقروا واعتذروا بأن ما فعلوه لم يكن **تمردا** على الله، ولا استخفاف بأمره، ولكنه كان لإرضاء الشهوات من الجانبين، وهي المراد بالاستمتاع.

ولكونهم ليسوا بمخاطبين ابتداء. وكون كلامهم دخيلا في المخاطبة، لم تفصل جملة قولهم كما تفصل جمل المحاورة في السؤال والجواب، بل عطفت على جملة القول المقدر لأنها قول آخر عرض في ذلك اليوم.

وجيء في حكاية قولهم بفعل ﴿وقال أولياؤهم﴾ مع أنه مستقبل من أجل قوله: ﴿نحشرهم﴾ تنبيها على

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٥/٥

تحقيق وقوعه، فيعلم من ذلك التنبيه على تحقيق الخبر كلهن وأنه واقع لا محالة، إذ لا يكون بعضه محققا وبعضه دون ذلك.

واستماع الإنس بالجن هو انتفاعهم في العاجل: بتيسير شهواتهم، وفتح أبواب اللذات والأهواء لهم، وسلامتهم من بطشتهم. واستماع الجن بالإنس: هو انتفاع الجن بتكثير أتباعهم من أهل الضلالة، وأعانتهم على إضلال الناس، والوقوف في وجه دعاة الخير، وقطع سبيل الصلاح، فكا من الفريقين أعان الآخر على تحقيق ما في نفسه مما فيه ملائم طبعه وارتياحه لقضاء وطره.." [1]

"هذا من جملة المقاولة التي تجري يوم الحشر، وفصلت الجملة لأنها في مقام تعداد جرائمهم التي استحقوا بها الخلود، إبطالا لمعذرتهم، وإعلانا بأنهم محقوقون بما جزوا به، فأعاد نداءهم كما ينادي المندد عليه الموبخ فيزداد روعا.

والهمزة في ﴿ألم يأتيكم﴾ للاستفهام التقريري. وإنما جعل السؤال عن نفي إتيان الرسل إليهم لأن المقرر إذا كان حاله في ملابسة المقرر عليه حال من يظن به أن يجيب بالنفي. يؤتى بتقريره داخلا على نفي الأمر الذي المراد إقراره بإثباته. حتى إذا أقر بإثباته كان إقراره أقطع لعذره في المؤاخذة به. كما يقال للجاني: ألست الفاعل كذا وكذا، وألست القائل كذا. وقد يسلك ذلك في مقام اختبار مقدار تمكن المسؤول المقرر من اليقين في المقرر عليه. فيؤتى بالاستفهام داخلا على نفي الشيء المقرر عليه، حتى إذا كانت له شبهة فيه ارتبك وتلعثم، ومنه قوله تعالى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ [لأعراف: ١٧٢]، ولما كان حال هؤلاء الجن والإنس في **التمرد** على الله، ونبذ العمل الصالح ظهريا، والإعراض عن الإيمان، حال من لم يطرق سمعه أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، جيء في تقريرهم على بعثة الرسل بصيغة الاستفهام عن نفي مجيء الرسل إليهم، حتى إذا لم يجدوا لإنكار مجيء الرسل مساغا، واعترفوا بمجيئهم، كان ذلك أحرى لأخذهم بالعقاب.

والرسل: ظاهره أنه جمع رسول بالمعنى المشهور في اصطلاح الشرع، أي مرسل من الله إلى العباد بما يرشدهم إلى ما يجب عليهم: من اعتقاد وعمل، ويجوز أن يكون جمع رسول بالمعنى اللغوي وهو من أرسله غيره كقوله تعالى: ﴿إذ جاءها المرسلون﴾ [يس: ١٣] وهم رسل الحواريين بعد عيسى.

فوصف الرسل بقوله: ﴿منكم﴾ لزيادة إقامة الحجة، أي رسل تعرفونهم وتسمعونهم، فيجوز أن يكون "من" اتصالية مثل التي في قولهم: لست منك ولست مني، وليست للتبعيض، فليست مثل التي في قوله: ﴿هو

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٢/٧

الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ [الجمعة: ٢] وذلك أن رسل الله لا يكونون إلا من الإنس، لأن مقام الرسالة عن الله لا يليق أن يجعل إلا في أشرف الأجناس من الملائكة والبشر، وجنس الجن أحط من البشر لأنهم خلقوا من نار.
وتكون "من" تبعيضية، ويكون المراد بضمير: ﴿منكم﴾ خصوص الإنس على طريقة التغليب، أو عود الضمير إلى بعض المذكور قبله كما في قوله تعالى ﴿يخرج منهما اللؤلؤ." (١)
"بقنطار﴾ [آل عمران: ٧٥] أي سلطانا عليه أي دليلا. وضمير به عائد إلى "ما" وهو الرابط للصلة. فمعنى نفي تنزيل الحجة على الشركاء: نفي الحجة الدالة على إثبات صفة الشركة مع الله في الإلهية، فهو من تعليق الحكم بالذات والمراد وصفها، مثل حرمت عليكم الميتة أي أكلها. وهذه الصلة مؤذنة بتخطئة المشركين، ونفي معذرتهم في الإشراك بأنه لا دليل يشتبه على الناس في عدم استحقاق الأصنام العبادة، فعرف الشركاء المزعومين تعريفا لطريق الرسم بأن خاصتهم: أن لا سلطان على شركتهم لله في الإلهية، فكل صنم من أصنامهم واضحة فيه هذه الخاصة، فإن الموصول وصلته من طرق التعريف، وليس ذلك كالوصف، وليس للموصول وصلته مفهوم مخالفة، ولا الموصولات معدودة في صيغ المفاهيم، فلا يتجه ما أورده الفخر من أن يقول قائل: هذا يوهم أن من بين الشرك ما أنزل الله به سلطانا واحتياجه إلى دفع هذا الإيهام، ولا ما قفاه عليه صاحب الانتصاف من تنظير نفي السلطان في هذه الآية بنحو قول امرئ القيس:
على لا حب لا يهتدى بمناره
ولا يتجه ما نحاه صاحب الكشاف من إجراء هذه الصلة على طريقة التهكم.
وقوله: ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ تقدم نظيره آنفا عند قوله تعالى، في هذه السورة: ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٢٨].
وقد جمعت هذه الآية أصول أحوال أهل الجاهلية فيما تلبسوا به من الفواحش والآثام، وهم يزعمون أنهم يتورعون عن الطواف في الثياب، وعن أكل بعض الطيبات في الحج. وهذا من ناحية قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل﴾ [البقرة: ٢١٧].
[٣٤] ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.
اعتراض بين جملة: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم﴾ [الأعراف: ٣١] وبين جملة: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم

(١) التحرير والتنوير، ٥٧/٧

رسل منكم﴾ [الأعراف: ٣٥] لما نعى الله على المشركين ضلالهم وتمردهم، بعد أن دعاهم إلى الإيمان، وإعراضهم عنه، بالمجادلة والتوبيخ وإظهار نقائصهم بالحجة البينة، وكان حالهم حال من لا يقلع عما هم فيه، أعقب ذلك بإنذارهم ووعيدهم إقامة للحجة عليهم وأعذارا لهم قبل حلول العذاب بهم.." [١]

"والجواب: الكلام الذي يقابل به كلام آخر: تقريرا، أو ردا، أو جزاء.

وانتصب قوله ﴿جواب﴾ على أنه خبر "كان" مقدم على اسمها الواقع بعد أداة الاستثناء المفرغ، وهذا هو الاستعمال الفصيح في مثل هذا التركيب، إذا كان أحد معمولي كان مصدرا منسبكا من "أن" والفعل كما تقدم في سورة آل عمران وسورة الأنعام، ولذلك أجمعت القراءات المشهورة على نصب المعمول الأول.

والضمير المنصوب في قوله: ﴿أخرجوهم﴾ عائد على محذوف علم من السياق، وهم لوط عليه السلام وأهله: وهم زوجه وابنتاه.

وجملة: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ علة للأمر بالإخراج، وذلك شأن إن إذا جاءت في مقام لا شك فيه ولا إنكار، بل كانت لمجرد الاهتمام فإنها تفيد مفاد فاء التفريع وتدل على الربط والتعليل.

والتطهر تكلف الطهارة. وحقيقتها النظافة، وتطلق الطهارة مجازا على تزكية النفس والحذر من الرذائل وهي المراد هنا، وتلك صفة كمال، لكن القوم لما تمردوا على الفسوق كانوا يعدون الكمال منافرا لطباعهم، فلا يطيقون معاشرة أهل الكمال، ويذمون ما لهم من الكمالات فيسمونها ثقلا، ولذا وصفوا تنزه لوط عليه السلام وآله تطهرا، بصيغة التكلف والتصنع، ويجوز أن يكون حكاية لما في كلامهم من التهكم بلوط عليه السلام وآله، وهذا من قلب الحقائق لأجل مشايعة العوائد الذميمة، وأهل المجون والاخلاع، يسمون المتعفف عن سيرتهم بالتائب أو نحو ذلك، فقولهم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ قصدوا به ذمهم.

وهم قد علموا هذا التطهر من خلق لوط عليه السلام وأهله لأنهم عاشروهم، ورأوا سيرتهم، ولذلك جيء بالخبر جملة فعليه مضارعيه لدلالتها على أن التطهر متكرر منهم، ومتجدد، وذلك أدعى لمنافرتهم طباعهم والغضب عليهم وتجهم إنكار لوط عليه السلام عليهم.

[٨٣,٨٤] ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾.

قوله تعالى: ﴿فأنجيناه﴾ تعقيب لجملة: ﴿وما كان جواب قومه﴾ [الأعراف: ٨٢] أو." [٢]

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٨/٨

(٢) التحرير والتنوير، ١٨٢/٨

"ذلك لإبطانهم الغدر، والذين أمر بإتمام عهدهم إلى مدتهم ما استقاموا على العهد بقوله: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم﴾ [التوبة:٤] الآيات، والذين يستجيبون عطف على أولئك بيان الذين يعلنون بنكث العهد، ويعلنون بما يسخط المسلمين من قولهم، وهذا حال مضاد لحال قوله: ﴿وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾ [التوبة:٨].

والنكث تقدم عند قوله تعالى: ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾ [الأعراف:١٣٥]

وعبر عن نقض العهد بنكث الإيمان تشنيعا للنكث، لأن العهد كان يقارنه اليمين على الوفاء ولذلك سمي العهد حلفا.

وزيد قوله: ﴿من بعد عهدهم﴾ زيادة في تسجيل شناعة نكثهم: بتذكير أنه غدر لعهد، وحنث باليمين.

والطعن حقيقته خرق الجسم بشيء محدد كالرمح، ويستعمل مجازا بمعنى الثلب. والنسبة إلى النقص، بتشبيه عرض المرء، الذي كان ملتئما غير منقوص، بالجسد السليم. فإذا أظهرت نقائصه بالثلب والشتم شبه بالجلد الذي أفسد التحامه.

والأمر، هنا: للوجوب، وهي حالة من أحوال الإذن المتقدم في قوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ [التوبة:٥] ففي هذه الحالة يجب قتالهم ذبا عن حرمة الدين، وقمعا لشرهم من قبل أن **يتمردوا** عليه.

و ﴿أئمة﴾ جمع إمام، وهو ما يجعل قدوة في عمل يعمل على مثاله، أو على مثال عمله، قال تعالى: ﴿ونجعلهم أئمة﴾ [القصص:٥] أي مقتدى بهم، وقال لبيد:

ولكل قوم سنة وإمامها

والإمام المثال الذي يصنع على شكله، أو قدره، مصنوع، فأئمة الكفر، هنا: الذين بلغوا الغاية فيه، بحيث صاروا قدوة لأهل الكفر.

والمراد بأئمة الكفر: المشركون الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، فوضع هذا الاسم موضع الضمير حين لم يقل: فقاتلوهم، لزيادة التشنيع عليهم ببلوغهم هذه المنزلة من الكفر، وهي أنهم قدوة لغيرهم، لأن الذين أضمروا النكث يبقون مترددين بإظهاره." [١]

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٥/١٠

"مفهوم الولي وأما من لا ينفع فهو حبيب وودود وليس بالولي.

[٧٥-٧٧] ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ،فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون،فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ .

قيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب من المنافقين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بسعة الرزق فدعا له فأثرى إثراء كثيرا فلما جاءه المصدقون ليعطي زكاة أنعامه امتنع من ذلك ثم ندم فجاء بصدقته فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبلها منه. وذكروا من قصته أنه تاب ولكن لم تقبل صدقته في زمن النبي ولا في زمن الخلفاء الثلاثة بعده عقوبة له وإظهار للاستغناء عنه حتى مات في خلافة عثمان، وقد قيل: إن قائل ذلك هو معتب بن قشير، وعلى هذا فضمائر الجمع في لنصدقن وما بعده مراد بها واحد وإنما نسبت الفعل إلى جماعة المنافقين على طريقة العرب في إلصاق فعل الواحد بقبيلته. ويحتمل أن ثعلبة سأل ذلك فتبعه بعض أصحابه مثل معتب بن قشير فأوتي مثل ما أوتي ثعلبة وبخل مثل ما بخل وإن لم تجيء فيه قصة كما تقدم آنفا.

وجملة ﴿لنصدقن﴾ بيان لجملة ﴿عاهد الله﴾ وفعل ﴿لنصدقن﴾ أصله لنتصدقن فأدغم للتخفيف.

والإعراض: إعراضهم عن عهدهم وعن شكر نعمة ربهم.

و ﴿فأعقبهم نفاقا﴾ جعل نفاقا عقب ذلك أي إثره ولما ضمن أعقب معنى أعطى نصب مفعولين والأصل أعقبهم بنفاق.

والضمير المستتر في أعقبهم للمذكور من أحوالهم، أو للبخل المأخوذ من بخلوا، فإسناد الإعقاب مجاز عقلي، أو يعود إلى اسم الله تعالى في قوله: ﴿من عاهد الله﴾ أي جعل فعلهم ذلك سببا في بقاء النفاق في قلوبهم إلى موتهم، وذلك جزاء **تمردهم** على النفاق. وهذا يقتضي إلى أن ثعلبة أو معتبا مات على الكفر وأن حرصه على دفع صدقته رياء وتقية وكيف وقد عد كلاهما في الصحابة وأولهما فيمن شهد بدرا، وقيل: هما آخران غيرهما وافقا في الاسم. فيحتمل أن يكون أطلق النفاق على ارتكاب المعاصي في حالة الإسلام وهو إطلاق موجود في عصر النبوءة كقول حنظلة بن الربيع للنبي صلى الله عليه وسلم.: يا رسول الله "نافق حنظلة". وذكر ارتكابه في خاصته ما ظنه معصية ولم يغير عليه النبي صلى الله عليه وسلم ولكن." (١)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٠/١٠

"من مداركهم جوابا فيه تعريض بالتهديد لهم وهو قوله: ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ ، فجاء بفاء التفريع هنا دون بعض نظائره للإشارة إلى تعقيب كلامهم بالجواب شأن المتمكن من حاله المتثبت في أمره.

والغيب: ما غاب عن حواس الناس من الأشياء، والمراد به هنا ما يتكون من مخلوقات غير معتادة في العالم الدنيوي من المعجزات. وتفسير هذا قوله: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ [الأنعام: ١٠٩].

واللام للملك، أي الأمور المغيبة لا يقدر عليها إلا الله. وجاء الكلام بصيغة القصر للرد عليهم في اعتقادهم أن في مكنة الرسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة على أن الرسول ليس له تصرف في إيقاع ما سألوه ليعلموا أنهم يرمون بسؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام.

وجملة: ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ تفريع على جملة: ﴿إنما الغيب لله﴾ أي ليس دأبي ودأبكم إلا انتظار ما يأتي به الله إن شاء، كقول نوح لقومه: ﴿إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾ [هود: ٣٣].

وهذا تعريض بالتهديد لهم أن ما يأتي به الله لا يترقبون منه إلا شرا لهم، كقوله تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾ [الأنعام: ٨].

والمعية في قوله: ﴿معكم﴾ مجازية مستعملة في الاشتراك في مطلق الانتظار.

[٢١] ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾

لما حكى **تمرد** المشركين بين هنا أنهم في ذلك لاهون ببطرهم وازدهائهم بالنعمة والدعة فأنساهم ما هم فيه من النعمة أن يتوقعوا حدوث ضده فتفننوا في التكذيب بوعيد الله أفانين الاستهزاء، كما قال تعالى: ﴿وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا﴾ [المزمل: ١١].

وجاء الكلام على طريقة الحكاية عن حالهم، والملقى إليه الكلام هو النبيء صلى الله عليه وسلم." (١)

"ولما كان الغرض هنا التعجيب من حالهم إذ لم يصلوا إلى الهدى كان عدم فهمهم وعدم تبصرهم كناية عن كونهم لا يعقلون وكونهم لا بصائر لهم. فمعنى: ﴿لا يعقلون﴾ ليس لهم إدراك العقول، أي ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم فإن الأصم العاقل ربما تفرس في مخاطبه واستدلال بملامحه.

وأما معنى: ﴿لا يبصرون﴾ فإنهم لا بصيرة لهم يتبصرون بها. وهو الذي فسر به "الكشاف" وهو الوجه، إذ

---

(١) التحرير والتنوير، ٥١/١١

بدونه يكون معنى: ﴿لا يبصرون﴾ مساويا لمعنى العمى فلا تقع المبالغة ب"لو" الوصيلة موقعها، إذ يصير أفأنت تهدي العمي ولو كانوا عميا. ومقتضى كلام "الكشاف" أنه يقال: أبصر إذ استعمل بصيرته وهي التفكير والاعتبار بحقائق الأشياء. وكلام "الأساس" يحوم حوله. وأياما كان فالمراد بقوله: ﴿لا يبصرون﴾ معنى التأمل، أي ولو انضم إلى عمى العمي عدم التفكير كما هو حال هؤلاء الذين ينظرون إليك سواء كان ذلك مدلولا لفعل ﴿يبصرون﴾ بالوضع الحقيقي أو المجازي. فبهذا النظم البديع المشتمل على الاستعارة في أوله وعلى الكناية في آخره وعلى التعجيب وتقويته في وسطه حصل تحقيق أنهم لا ينتفعون بأسماعهم ولا بأبصارهم وأنهم لا يعقلون ولا يتبصرون في الحقائق.

وقد علم أن هذه الحالة التي اتصفوا بها هي حالة أصارهم الله إليها بتكوينه وجعلها عقابا لهم في **تمردهم** في كفرهم وتصلبهم في شركهم وإعراضهم عن دعوة رسوله ولذلك جعلهم صما وعميا. فليس المعنى أن الله هو الذي يسمعهم ويهديهم لا أنت لأن هذا أمر معلوم لا يحتاج للعبارة.

وقد أورد الشيخ ابن عرفة سؤالا عن وجه التفرقة بين قوله: ﴿من يستمعون﴾ وقوله: ﴿من ينظر﴾ إذ جيء بضمير الجمع في الأول وبضمير المفرد في الثاني. وأجاب عنه بأن الإسماع يكون من الجهات كلها وأما النظر فإنما يكون من الجهة المقابلة. وهو جواب غير واضح لأن تعدد الجهات الصالحة لأحد الفعلين لا يؤثر إذا كان المستمعون والناظرون متحدين ولأن الجمع والأفراد هنا سواء لأن مفاد "من" الموصولة فيهما هو من يصدر منهم الفعل وهم عدد وليس الناظر شخصا واحدا.

والوجه أن كلا الاستعمالين سواء في مراعاة لفظ "من" ومعناها، فلعل الابتداء بالجمع في صلة "من" الأولى الإشارة إلى أن المراد ب"من" غير واحد معين وأن العدول عن الجمع في صلة "من" الثانية هو التفنن وكراهية إعادة صيغة الجمع لثقلها لا سيما بعد." (١)

"وحذف مفعولا الظن لقصد تعميم ما يصلح له، أي ما ظنهم بحاله وبجزائهم وبأنفسهم. وانتصب ﴿الكذب﴾ على المفعول المطلق، واللام فيه لتعريف الجنس، كأنه قيل كذبا، ولكنه عرف لتفظيع أمره، أي هو الكذب المعروف عند الناس المستقبح في العقول.

و ﴿يوم القيامة﴾ منصوب على الظرفية وعامله الظن، أي ما هو ظنهم في ذلك اليوم أي إذا رأوا الغضب عليهم يومئذ ماذا يكون ظنهم أنهم لاقون، وهذا تهويل.

وجملة: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ تذييل للكلام المفتتح بقوله: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة

---

(١) التحرير والتنوير، ٩١/١١

من ربكم وشفاء لما في الصدور﴾ [يونس: ٥٧]. وفيه قطع لعذر المشركين، وتسجيل عليهم **بالتمرد** بأن الله تفضل عليهم بالرزق والموعظة والإرشاد فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر وجعلوا رزقهم أنهم يكذبون في حين قابله المؤمنون بالفرح والشكر فانتفعوا به في الدنيا والآخرة.

[٦١] ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾

معطوفة على جملة: ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ [يونس: ٦٠] عطف غرض على غرض، لأن فصل الغرض الأول بالتذييل دليل على أن الكلام قد نقل إلى غرض آخر، وذلك الوعد بالثواب للرسول على ما هو قائم به من تبليغ أمر الله وتدبير شؤون المسلمين وتأييد دين الإسلام، وبالثواب للمسلمين على اتباعهم الرسول فيما دعاهم إليه. وجاء هذا الوعد بطريقة التعريض بحصول رضى الله تعالى في قوله: ﴿إلا كنا عليكم شهودا﴾ لأنهم يعلمون أن عملهم وعمل النبيء ما كان إلا في مرضاة الله، فهو كقوله تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾ . ويتضمن ذلك تنويها بالنبيء صلى الله عليه وسلم في جليل أعماله وتسلية على ما يلاقيه من المشركين من تكذيب وأذى، لأن اطلاع الله على ذلك وعلمه بأنه في مرضاته كاف في التسلية، كقوله: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨]، ولذلك توجه الخطاب ابتداء إلى النبيء صلى الله عليه وسلم ثم توجه إليه وإلى من معه من المسلمين.

و ﴿ما﴾ الأولى و ﴿ما﴾ الثانية نافيتان.." (١)

"على أنه قد يكون العطف في الحالين لجعلها مستقلة بإفادة مضمونها لأهميته مع كونها مكملة لغيرها، وإنما أكسبها هذا الموقع البديع نظم الجمل المعجز والتنقل من غرض إلى غرض بما بينها من المناسبة.

وتشمل ﴿السماوات والأرض وما بينهما﴾ أصناف المخلوقات من حيوان وجماد، فشمل الأمم التي على الأرض وما حل بها، وشمل الملائكة الموكلين بإنزال العذاب، وشمل الحوادث الكونية التي حلت بالأمم من الزلازل والصواعق و الكسف.

والباء في ﴿إلا بالحق﴾ للملابسة متعلقة ب ﴿خلقنا﴾ ، أي خلقا ملابسا للحق ومقارنا له بحيث يكون الحق باديا في جميع أحوال المخلوقات.

---

(١) التحرير والتنوير، ١١٨/١١

والملابسة هنا عرفيه؛ فقد يتأخر ظهور الحق عن خلق بعض الأحوال والحوادث تأخرا متفاوتا. فالملابسة بين الخلق والحق تختلف باختلاف الأحوال من ظهور الحق وخفائه؛ على أنه لا يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور كما دل عليه قوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [سورة الانبياء: ١٨].

والحق: هنا هو إجراء أحوال المخلوقات على نظام ملائم للحكمة والمناسبة في الخير والشر، والكمال والنقص، والسمو والخفض، في كل نوع بما يليق بماهيته وحقيقته وما يصلحه، وما يصلح هو له، بحسب ما يقتضيه النظام العام لا بحسب الأميال والشهوات، فإذا لاح ذلك الحق الموصوف مقارنا وجوده لوجود محقوقه فالمر واضح، وإذا لاح تخلف شيء عن مناسبة فبالتأمل والبحث يتضح أن وراء ذلك مناسبة قضت بتعطيل المقارنة المحقوقة، ثم لا يتبدل الحق آخر الأمر.

وهذا التأويل يظهره موقع الآية عقب ذكر عقاب الأمم التي طغت وظلمت، فإن ذلك جزاء مناسب **تمردها** وفسادها، وأنها وإن أمهلت حينا برحمة من الله لحكمة استبقاء عمران جزء من العالم زمانا فهي لم تفلت من العذاب المستحق لها، وهو من الحق أيضا فما كان إمهالها إلا حقا، وما كان حلول العذاب بها إلا حقا عند حلول أسبابه، وهو **التمرد** على أنبيائهم. وكذلك القول في جزاء الآخرة أن تعطل الجزاء في الدنيا بسبب عطل ما اقتضته الحكمة العامة أو الخاصة.

وموقع جملة ﴿وإن الساعة لآتية﴾ في الكلام يجعلها بمنزلة نتيجة الاستدلال، فمن عرف أن جميع المخلوقات خلقت خلقا ملابسا للحق وأيقن به علم أن الحق لا يتخلف." (١)

"وسوء الوجوه: جعل المساءة عليها، أي تسليط أسباب المساءة والكآبة عليكم حتى تبدو على وجوهكم لأن ما يخالج الإنسان من غم وحزن، أو فرح ومسرة يظهر أثره على الوجه دون غيره من الجسد، كقول الأعشى:

وأقدم إذا ما أعين الناس تفرق أراد إذا ما تفرق

الناس وتظهر علامات الفرق في أعينهم.

ودخول المسجد دخول غزو بقرينة التشبيه في قوله: ﴿كما دخلوه أول مرة ﴾ المراد منه قوله: ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ [الإسراء:٥].

والتتبير: الإهلاك والإفساد.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٦٠

و ﴿ما علوا﴾ موصول هو مفعول(يتبروا)، وعائد الصلة محذوف لأنه متصل منصوب، والتقدير: ما علوه، والعلو علو مجازي وهو الاستيلاء والغلب.

ولم يعدهم الله في هذه المرة إلا بتوقع الرحمة دون رد الكرة، فكان إيماء إلى أنهم لا ملك لهم بعد هذه المرة. وبهذا تبين أن المشار إليه بهذه المرة الآخرة هو ما اقترفه اليهود من المفاسد **والتمرد** وقتل الأنبياء والصالحين والاعتداء ع‍لى عيسى وأتباعه، وقد أنذرهم النبي ملاخي في الإصحاحين الثالث والرابع من كتابه وأنذرهم زكرياء ويحيى وعيسى١ فلم يرعوا فضربهم الله الضربة القاضية بيد الرومان.

وبيان ذلك: أن اليهود بعد أن عادوا إلى أورشليم وجددوا ملكهم ومسجدهم في زمن(داريوس) وأطلق لهم التصرف في بلادهم التي غلبهم عليها البابليون وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس، فمكثوا على ذلك مائتي سنة من سنة ٥٣٠ إلى سنة ٣٣٠ قبل المسيح، ثم أخذ ملكهم في الانحلال بهجوم البطالسة ملوك مصر على أورشليم فصاروا تحت سلطانهم إلى سنة ١٦٦ قبل المسيح إذ قام قائد من إسرائيل اسمه (ميثيا)وكان من اللاويين فانتصر لليهود وتولى الأمر عليهم وتسلسل الملك بعده في أبنائه في زمن مليء بالفتن إلى سنة أربعين قبل المسيح. دخلت المملكة تحت نفوذ الرومانيين وأقاموا عليها أمراء من اليهود كان أشهرهم(هيرودس) ثم **تمردوا** للخروج على الرومانيين، فأرسل قيصر رومية القائد(سيسيانوس) مع ابنه القائد(طيطوس) بالجيوش في حدود سنة أربعين بعد المسيح

–

انظر الإصحاح الثالث من انجيل مرقس الحواري.." [1]

"وفناء في سنة الله في هذا العالم، لأن ذلك معارض لآيات أخرى، ولأنه مناف لغرض تحذير المشركين من الاستمرار على الشرك.

فلوا سلمنا أن هذا الحكم لا تنفلت منه قرية من القرى بحكم سنة الله في مصير كل حادث إلى الفناء لما سلمنا أن في ذكر ذلك هنا فائدة.

والتقييد بكونه ﴿قبل يوم القيامة﴾ زيادة في الإنذار والوعيد،كقوله: ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ [طه: ١٢٧].

و(من)مزيدة بعد(إن)النافية لتأكيد استغراق مدخولها باعتبار الصفة المقدرة، أي جميع القرى الكافرة كيلا يحسب أهل مكة عدم شمولهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١/١٤

والكتاب: مستعار لعلم الله وسابق تقديره، فتعريفه للعهد، أو أريد به الكتب المنزلة على الأنبياء، فتعريفه للجنس فيشمل القرآن وغيره.

والمسطور: المكتوب، يقال: سطر الكتاب إذا كتبه سطورا، قال تعالى: ﴿والقلم وما يسطرون﴾ [القلم:١].

﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾

﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾

هذا كشف شبهة أخرى من شبه تكذيبهم إذ كانوا يسألون النبي أن يأتيهم بآيات على حسب اقتراحهم، ويقولون: لو كان صادقا وهو يطلب منا أن نؤمن به لجاءنا بالآيات التي سألناه. غرورا بأنفسهم أن الله يتنازل لمباراتهم.

والجملة معطوفة على جملة ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها﴾ الآية[الإسراء:٥٩]الآية، أي إنما أمهلنا **المتمردين** على الكفر إلى أجل نزول العذاب ولم نجبهم إلى ما طلبوا من الآيات لعدم جدوى إرسال الآيات للأولين من قبلهم في الكفر على حسب اقتراحهم فكذبوا بالآيات.

وحقيقة المنع: كف الفاعل عن فعل يريد فعلته أو يسعى في فعله. وهذا محال عن الله تعالى إذ لا مكره للقادر المختار. فالمنع هنا مستعار للصرف عن الفعل وعدم إيقاعه." (١)

"وثانيهما: **تمردهم** على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن شاهدوا معجزته فانتقل الكلام إلى نقض آرائهم في هذين السببين.

والتفكر: إعمال الفكر، أي الخاطر العقلي للاستفادة منه، وهو التأمل في الدلالة العقلية. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ في سورة الأنعام [٥٠].

والأنفس: جمع نفس. والنفس يطلق على الذات كلها، ويطلق على باطن الإنسان، ومنه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿تعلم ما في نفسي﴾ [المائدة: ١١٦] كقول عمر يوم السقيفة: "وكنت زوت في نفسي مقالة" أي في عقلي وباطني.

وحرف ﴿في﴾ من قوله: ﴿في أنفسهم﴾ يجوز أن يكون للظرفية الحقيقية الاعتبارية فيكون ظرفا لمصدر ﴿يتفكروا﴾ ، أي تفكرا مستقرا في أنفسهم. وموقع هذا الظرف مما قبله موقع معنى الصفة للتفكر. وإذ قد كان التفكر إنما يكون في النفس فذكر ﴿في أنفسهم﴾ لتقوية تصوير التفكر وهو كالصفة الكاشفة لتقرر

---

(١) التحرير والتنوير، ١١٣/١٤

معنى التفكر عند السامع، كقوله: ﴿ولا تخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ [الأنعام: ٣٨]، وتكون جملة ﴿ما خلق الله السماوات والأرض﴾ الخ على هذا مبينة لجملة ﴿يتفكروا﴾ إذ مدلولها هو ما يتفكرون فيه كقوله تعالى: ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ [الأعراف: ١٨٤].

ويجوز أن يكون ﴿في﴾ للظرفية المجازية متعلقة بفعل ﴿يتفكروا﴾ تعلق المفعول بالفعل، أي يتدبروا ويتأملوا في أنفسهم. والمراد بالأنفس الذوات فهو في معنى قوله تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢١]؛ فإن حق النظر المؤدي إلى معرفة الوحدانية وتحقق البعث أن يبدأ بالنظر في أحوال خلقة الإنسان قال تعالى ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥] وهذا كقوله تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾ [الأعراف: ١٨٥] أي في دلالة ملكوت السماوات والأرض، وتكون جملة ﴿ما خلق الله السماوات والأرض﴾ الخ على هذا التفسير بدل اشتمال من قوله: ﴿أنفسهم﴾ إذ الكلام على حذف مضاف، تقديره: في دلالة أنفسهم، فإن دلالة ﴿أنفسهم﴾ تشتمل على دلالة خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق لأن ﴿أنفسهم﴾ مشمولة لما في الأرض من الخلق ودالة على ما في الأرض، وكذلك يطلق ما في الأرض دال على خلق أنفسهم.

وعلى الاحتمالين وقع تعليق فعل ﴿يتفكروا﴾ عن العمل في مفعولين لوجود النفي." [(١)]

"والعدول عن أن يقال: بعض أعمالهم إلى ﴿بعض الذي عملوا﴾ للإيماء إلى ما في الموصول من قوة التعريف، أي أعمالهم المعروفة عندهم المتقرر صدروها منهم.

والرجاء المستفاد من ﴿لعل﴾ يشير إلى أن ما ظهر من فساد كاف لإقلاعهم عما هم اكتسبوه، وأن حالهم حال من يرجى رجوعه فإن هم لم يرجعوا فقد تبين **تمردهم** وعدم إجداء الموعظة فيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ [التوبة: ١٢٦].

والرجوع مستعار للإقلاع عن المعاصي كأن الذي عصى ربه عبد أبق عن سيده، أو دابة قد أبدت، ثم رجع. وفي الحديث "لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا دابته عنده" .

وقرأ الجمهور ﴿ليذيقهم﴾ بالياء التحتية، أي ليذيقهم الله. ومعاد الضمير قوله: ﴿الله الذي خلقكم﴾ [الروم:

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦/٢١

٤٠]. وقرأه قنبل عن ابن كثير وروح عن عاصم بنون العظمة.

[٤٢] ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين﴾ [٤٢]﴾.

لما وعظهم بما أصابهم من فساد الأحوال ونبههم إلى أنها بعض الجزاء على ما كسبت أيديهم عرض لهم بالإنذار بفساد أعظم قد يحل بهم مثله وهو ما أصاب الذين من قبلهم بسبب ما كانوا عليه من نظير حال هؤلاء في الإشراك فأمرهم بالسير في الأرض والنظر في مصير الأمم التي أشركت وكذبت مثل عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم لأن كثيرا من المشركين قد اجتازوا في أسفارهم بديار تلك الأمم كما قال تعالى ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]. فهذا تكرير وتأكيد لقوله السابق ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ [الروم: ٩], وإنما أعيد اهتماما بهذه العبرة مع مناسبة قوله: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ [الروم: ٤١].

والعاقبة: نهاية الأمر. والمراد بالعاقبة الجنس، وهو متعدد الأفراد بتعدد الذين من قبل، ولكل قوم عاقبة.." (١)

"بحيث إن دلائل إرادة العدل في تصاريفها قائمة، وما أودعه الخالق في المخلوقات من القوى مناسب لتحصيل ذلك النظام الذي فيه صلاحهم فإذا استعملوها في الإفساد والإساءة كان من إتمام إقامة النظام أن يعاقبوا على تلك الإساءة والمشاهد أن المسيء كثير ما عكف على إساءته حتى الممات، فلو لم يكن الجزاء بعد الموت حصل اختلال في نظام خلق المخلوقات وخلق القوى الصادر عنها الإحسان والإساءة، وهذا المعنى تكرر في آيات كثيرة وكلما ذكر شيء منه أتبع بذكر الجزاء، وقد تقدم في سورة آل عمران [١٩١] قوله ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾ وقوله في سورة الدخان [٣٨-٤٠] ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾

والباء في قوله ﴿بالحق﴾ للسببية أو للملابسة، أي خلقا للسبب الحق أو ملابسا للحق لا يتخلف الحق عن حال من أحواله.

والحق: اسم جامع لما شأنه أن يحق ويثبت، ومن شأن الحكمة والحكيم أن يقيمه، ولذلك أشير بقوله ﴿وخلق الله﴾ فإن اسم الجلالة جامع لصفات الكمال وتصرفات الحكمة.

وعطف ﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾ على ﴿بالحق﴾ لأن المعطوف عليه المجرور بالباء فيه معنى

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٧/٢١

التعليل، وهذا تفصيل بعد إجمال فإن الجزاء على الفعل بما يناسبه هو من الحق، ولأن تعليل الخلق بعلة الجزاء من تفصيل معنى الحق وآثار كون الحق سببا لخلق السماوات والأرض أو ملابسا لأحوال خلقهما، فظهرت المناسبة بين الباء في المعطوف عليه واللام في المعطوف.

والباء في ﴿بما كسبت﴾ للتعويض. وما كسبته النفس لا تجزى به بل تجازى بمثله وما يناسبه، فالكلام على حذف مضاف، أي بمثل ما كسبته. وهذه المماثلة مماثلة في النوع، وأما تقدير تلك المماثلة فذلك موكول إلى الله تعالى ومراعى فيه عظمة عالم الجزاء في الخير و الشر ومقدار **تمرد** المسيء وامتثال المحسن، بخلاف الحدود والزواجر فإنها مقدرة بما يناسب عالم الدنيا من الضعف.

ولهذا أعقبه بقوله ﴿وهم لا يظلمون﴾ فضمير ﴿وهم﴾ عائد إلى ﴿كل نفس﴾ فإن ذلك الجزاء مما اقتضاه العدل الذي جعل سببا أو ملابسا لخلق السماوات والأرض وما فيهما، فهو عدل، فليس من الظلم في شيء." (١)

"الموصولة.

وعطف ﴿وما تهوى الأنفس﴾ على الظن عطف العلة على المعلول،أي الظن الذي يبعثهم على اتباعهم انه موافق لهداهم وإلفهم.

وجملة ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ حالية مقررة للتعجيب من حالهم، أي يستمرون على اتباع الظن والهوى في حال أن الله أريل إليهم رسولا بالهدى.

ولام القسم لتأكيد الخبر للمبالغة فيما يتضمنه من التعجيب من حالهم كأن المخاطب يشك في أنه جاءهم ما فيه هدى مقنع لهم من جهة استمرارهم على ضلالهم استمرارا لا يظن مثله بعاقل.

والتعبير عن الجلالة بعنوان ﴿ربهم﴾ لزيادة التعجيب من تصاممهم عن سماع الهدى مع أنه ممن تجب طاعته فكان ضلالهم مخلوطا بالعصيان **والتمرد** على خالقهم.

والتعريف في ﴿الهدى﴾ للدلالة على معنى الكمال، أي الهدى الواضح.

[٢٤،٢٥] ﴿أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى﴾ .

إضراب انتقالي ناشئ عن قوله: و ﴿ما تهوى الأنفس﴾ [النجم: ٢٣].

والاستفهام المقدر بعد }أم﴾ إنكاري قصد به إبطال نوال الإنسان ما يتمناه وأن يجعل ما يتمناه باعثا عن أعماله ومعتقداته بل عليه أن يتطلب الحق من دلائله وعلاماته وإن خالف ما يتمناه. وهذا متصل بقوله

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧٣/٢٥

:﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ [النجم:٢٣].
وهذا تأديب وترويض للنفوس على تحمل ما يخالف أهواءها إذا كان الحق مخالفا للهوى وليحمل نفسه عليه حتى تتخلق به.
وتعريف ﴿الإنسان﴾ تعريف الجنس ووقوعه في حيز الإنكار المساوي للنفي جعله عاما في كل إنسان.
والموصول في ﴿ما تمنى﴾ بمنزلة المعرف بلام الجنس ووقوعه في حيز الاستفهام الإنكاري الذي بمنزلة النفي يقتضي العموم، أي ما للإنسان شيء مما تمنى، أي ليس الشيء جاريا على إرادته بل على إرادة الله وقد شمل ذلك كل هوى دعاهم إلى الإعراض عن." (١)
"الرسول﴾
إن كانت هذه الآية والآيتان اللتان بعدها نزلت مع الآية التي قبلها حسبما يقتضيه ظاهر ترتيب التلاوة كان قوله تعالى: ﴿نهوا عن النجوى﴾ مؤذنا بأنه سبق نهي عن النجوى قبل نزول هذه الآيات، وهو ظاهر قول مجاهد وقتادة نزلت في قوم من اليهود والمنافقين نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التناجي بحضرة المؤمنين فلم ينتهوا، فنزلت فتكون الآيات الأربع نزلت لتوبيخهم وهو ما اعتمدناه آنفا.
وإذا كانت نزلت بعد الآية التي قبلها بفترة كان المراد النهي الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة﴾ [المجادلة: ٧]كما تقدم، بأن لم ينتهوا عن النجوى بعد أن سمعوا الوعيد عليها بقوله تعالى: ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة﴾ ، فالمراد ب ﴿الذين نهوا عن النجوى﴾ هم الذين عنوا بقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ [المجادلة: ٧]الآية.
و ﴿ثم﴾ في قوله: ﴿ثم يعودون﴾ لدتراخي الرتبي لأن عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنه أعظم من ابتداء النجوى لأن ابتداءها كان إثما لما اشتملت عليه نجواهم من نوايا سيئة نحو النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فأما عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنها فقد زادوا به **تمردا** على النبي صلى الله عليه وسلم ومشاقة للمسلمين.
فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا اقتضاه استمرار المنافقين على نجواهم.
والاستفهام في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ تعجيبي مراد به توبيخهم حين يسمعونه.
والرؤية بصرية بقرينة تعديتها بحرف ﴿إلى﴾ .
والتعريف في النجوى تعريف العهد لأن سياق الكلام من نوع خاص من النجوى. وهي النجوى التي تحزن

---

(١) التحرير والتنوير، ١١٥/٢٧

الذين آمنوا كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا﴾ [المجادلة: ١٠].

ويجوز أن يكون النهي عن جنس النجوى في أول الأمر يعم كل نجوى بمرأى من الناس سدا للذريعة، قال الباجي في المنتقى: روي عن النهي عن تناجي اثنين أو أكثر دون واحد أنه كان في بدء الإسلام فلما فشا الإسلام وآمن الناس زال هذا الحكم لزوال سببه.." [١]

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ١ ، ص : ٣٩٠

و الذين اتبعوهم بإحسان : من تبعهم من الصحابة «١». وقيل : من التابعين ، وقيل «٢» : الذين اتبعوهم إلى يوم القيامة.

١٠١ مردوا على النفاق : مرنوا عليه «٣» وتجردوا عن غيره.

[٤١/ أ] سنعذبهم مرتين : / في الدنيا بالجوع والخوف ، وفي القبر بالعذاب «٤».

أو أحد العذابين : أخذ مالهم في جهاز الحرب ، والثاني : أمرهم بالجهاد «٥».

١٠٢ وآخرون اعترفوا : في نفر تخلفوا عن تبوك «٦».

عسى الله : على الإطماع ليأملوا ولا يتكلوا.

١٠٣ وصل عليهم : ادع لهم «٧» ، إن صلاتك سكن لهم : تثبيت

---

(١) قال ابن عطية في المحرر الوجيز : ٧/ ١١ : «و يدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الأمة لكن بشريطة الإحسان ، وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت من رأى النبي صلى الله عليه وسلم».

(٢) ذكره الفراء في معاني القرآن : ١/ ٤٥٠ ، والزجاج في معانيه : ٢/ ٤٦٦,

(3) معاني القرآن للفراء : ١/ ٤٥٠ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : ١/ ٢٦٨ ، وتفسير الطبري : ١٤/ ٤٤٠.

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز : (٧/ ١٣ ، ١٤) : «و الظاهر من معنى اللفظ أن **التمرد** في الشيء أو المرود عليه إنما هو اللجاج والاستهتار به والعتو على الزاجر وركوب الرأس في ذلك ، وهو مستعمل في الشر لا في الخير ، من ذلك قولهم : شيطان مارد ومريد ...».

(٤) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : (١٤/ ٤٤٢ ، ٤٤٣) عن مجاهد ، وأبي مالك.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨/٢٦

وعزاه الماوردي في تفسيره : ٢/ ١٦١ إلى ابن عباس.
وقال ابن عطية في المحرر الوجيز : ٧/ ١٥ : «و أكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر ، واختلف في عذاب المرة الأولى ، فقال مجاهد وغيره : هو عذابهم بالقتل والجوع ، وهذا بعيد لأن منهم من لم يصبه هذا ...».

(٥) ذكر الماوردي نحو هذا القول في تفسيره : ٢/ ١٦٢ عن الحسن.

(٦) ينظر خبرهم في تفسير الطبري : (١٤/ ٤٤٧ ، ٤٥٣) ، وأسباب النزول للواحدي : ٢٩٧ ، وتفسير ابن كثير : ٤/ ١٤٤.

(٧) تفسير الطبري : ١٤/ ٤٥٤ ، ومعاني القرآن للزجاج : ٢/ ٤٦٧. [.....]." [١]

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ٢ ، ص : ٤٩٥

٢ ألا تتخذوا : معناه الخبر لئلا يتخذوا.

٣ ذرية من حملنا : أي : يا ذرية «١».

٤ وقضينا : أعلمنا وأوحينا ، كقوله «٢» : وقضينا إليه ... أن دابر هؤلاء.

٥ بعثنا عليكم : خليناهم وإياكم ، وكان أولئك هم العمالقة «٣».

وقيل : إنه بختنصر «٤» ، إذ كان أصحاب سليمان بن داود عرفوا من جهة أنبيائهم خراب الشام ثم عودها إلى عمارتها ، ولما وقفوا على قصد بختنصر انجلوا عنها واعتصموا بمصر «٥».

---

(١) معاني القرآن للفراء : ٢/ ١١٦ ، وقال الزجاج في معانيه : ٣/ ٢٢٦ : «و هي منصوبة على النداء ، كذا أكثر الأقوال ، المعنى : «يا ذرية من حملنا مع نوح ...».

(٢) سورة الحجر : آية : ٦٦.

(٣) نقله الماوردي في تفسيره : ٢/ ٤٢٣ ، والكرماني في غرائب التفسير : ١/ ٦٢١ ، وابن الجوزي في زاد المسير : ٥/ ٩ عن الحسن رحمه الله تعالى.

(٤) بختنصر : كان حاكما لبلاد بابل من قبل ملك الفرس.

وكلمة «بختنصر» مركب مزجى ، وتركيبه من «بخت» معرب «بوخت» ، بمعنى : ابن و«نصر» اسم صنم. ينظر تاريخ الطبري : ١/ ٥٥٨ ، والصحاح : ١/ ٢٤٣ (بخت) ، والمعرب للجواليقي :

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ٣٩٠/١

.١٢٩

(٥) ينظر هذه الرواية في تفسير الطبري : (١٥/ ٢١ - ٣٠) ، وتفسير الماوردي : ٢/ ٤٢٣ ، والتعريف والإعلام للسهيلي : ٩٨ ، وزاد المسير : ٥/ ٩.

وأشار إليها ابن كثير في تفسيره : ٥/ ٤٤ ، ثم قال : «و قد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها لأن منها ما هو موضوع ، من وضع زنادقتهم ، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن في غنية عنها ، ولله الحمد. وفيما قص الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط عليهم عدوهم ، فاستباح بيضتهم ، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد **تمردوا** وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء» اه.." [١]

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ٢ ، ص : ٦٣٥

٥٢ خاوية : خالية ، وهي حال ، أي : انظر إليها خاوية.

وهذه البيوت بواد القرى بين المدينة والشام «١».

٥٤ تبصرون : تعلمون أنها فاحشة فهي أعظم لذنوبكم.

وقيل : يرى ذلك بعضهم من بعض/ عتوا **وتمردا**.

٥٦ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : نصب جواب خبرا ل «كان» لأن النفي أحق بالخبر «٢».

يتطهرون : قالوه هزءا.

والحاجز بين البحرين «٣» : المانع أن يختلطا ، وفيه دليل على إمكان كف النار عن الحطب حتى لا تحرقه ولا تسخنه.

٦٦ بل ادارك علمهم في الآخرة [تدارك] «٤» أدغمت التاء في الدال واجتلبت ألف الوصل «٥» ، والمعنى إحاطة علمهم في الآخرة بها عند مشاهدتهم وكانوا في [شك] «٦» منها. أو هو تلاحق علمهم وتساويه بالآخرة بما في العقول من وجوب جزاء الأعمال.

بل هم في شك من وقت ورودها ، بل هم منها عمون : تاركون مع ذلك التأمل.

---

(١) في تاريخ الطبري : ١/ ٢٠٤ : «و كانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ٢/٤٩٥

حوله».
وانظر هذا الموضع في معجم البلدان : ٥/ ٣٤٥ ، والروض المعطار : ٦٠٢.
(٢) معاني القرآن للزجاج : ٤/ ١٢٦.
(٣) من قوله تعالى : وجعل بين البحرين حاجزا ... [آية : ٦١].
(٤) ما بين معقوفين عن هامش الأصل ، وعن نسخة «ك» و«ج».
(٥) جاء بعده في إعراب القرآن للنحاس : ٣/ ٢١٨ : «لأنه لا يبتدأ بساكن ، فإذا وصلت سقطت ألف الوصل وكسرت اللام لالتقاء الساكنين».
وانظر معاني القرآن للزجاج : ٤/ ١٢٨ ، والكشف لمكي : ٢/ ١٦٥.
(٦) في الأصل : «شد» ، والمثبت في النص من «ك».." [١]
" صفحة رقم ٣٨٣
خلقناه من قبل ولم يك شيئا فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا " (قوله عز وجل :) . . . حول جهنم (فيها قولان :
أحدهما : أن جهنم اسم من أسماء النار .
الثاني : أنه إسم لأعمق موضع في النار ، كالفردوس الذي هو اسم لأعلى موضع في الجنة .
) جثيا (فيه قولان :
أحدهما : [جماعات] ، قاله الكلبي والأخفش .
الثاني : بروكا على الركب ، قاله عطية .
قوله عز وجل :) ثم لننزعن من كل شيعة أيهم (الشيعة الجماعة المتعاونون . قال مجاهد : والمراد بالشيعة الأمة لاجتماعهم وتعاونهم .
وفي) ثم لننزعن (وجهان :
أحدهما : لننادين ، قاله ابن جريج .
الثاني : لنستخرجن ، قاله مقاتل .
) عتيا (فيه خمسة أوجه :

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ٦٣٥/٢

أحدها : أهل الإفتراء بلغة بني تميم ، قاله بعض أهل اللغة .

الثاني : جرأة ، قاله الكلبي .

الثالث : كفرا ، قاله عطية .

الرابع : تمردا .

الخامس : معصية .

قوله عز وجل :) . . . أولى بها صليا (فيه وجهان :." [(١)]

" صفحة رقم ٣٨

المغارب لأن المشارق تدل عليها ، وخص المشارق بالذكر لأن الشروق قبل الغروب .

(الصافات : (٦ - ١٠) إنا زينا السماء . . . . .

" إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب " (قوله عز وجل :) إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (يحتمل تخصيص سماء الدنيا بالذكر وجهين :

أحدهما : لاختصاصها بالدنيا .

الثاني : لاختصاصها بالمشاهدة ، وقوله بزينة الكواكب لأن من الكواكب ما خلق للزينة ، ومنها ما خلق لغير الزينة .

حكى عقبة بن زياد عن قتادة قال : خلقت النجوم لثلاث : رجوما للشياطين ونورا يهتدى به ، وزينة لسماء الدنيا .

) وحفظا من كل شيطان مارد (فيه وجهان :

أحدهما : يعني من الكواكب حفظا من كل شيطان ، قاله السدي .

الثاني : أن الله سبحانه حفظ السماء من كل شيطان مارد ، قاله قتادة .

وفي المارد ثلاثة أوجه :

أحدها : الممتنع ، قاله ابن بحر .

الثاني : العاتي مأخوذ من التمرد وهو العتو .

الثالث : أنه المتجرد من الخير ، من قولهم شجرة مرداء ، إذا تجردت من الورق .

---

(١) النكت والعيون . ، ٣٨٣/٣

قوله عز وجل :) لا يسمعون إلى الملإ الأعلى (فيه قولان :

أحدهما : أنهم منعوا بها أن يسمعوا أو يتسمعوا ، قاله قتادة .

الثاني : أنهم يتسمعون ولا يسمعون ، قاله ابن عباس .

وفي الملإ الأعلى قولان :

أحدهما : السماء الدنيا ، قاله قتادة .." (١)

" صفحة رقم ٣٥١

تأكيدا للأمر . والكفار [بفتح الكاف] أشد مبالغة من الكافر .

ويحتمل وجهين : أحدهما : أنه الكافر الذي كفر بالله ولم يطعه ، وكفر بنعمه ولم يشكره .

الثاني : أنه الذي كفر بنفسه وكفر غيره بإغوائه .

وأما العنيد ففيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه المعاند للحق ، قاله بعض المتأخرين .

الثاني : أنه المنحرف عن الطاعة ، قاله قتادة .

الثالث : أنه الجاحد **المتمرد** ، قاله الحسن .

الرابع : أنه المشاق ، قاله السدي .

الخامس : أنه المعجب بما عنده المقيم على العمل به ، قاله ابن بحر .

فأما العاند ففيه وجهان :

أحدهما : أنه الذي يعرف بالحق ثم يجحده .

الثاني : أنه الذي يدعى إلى الحق فيأباه .

قوله عز وجل :) مناع للخير (فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه منع الزكاة المفروضة ، قاله قتادة .

الثاني : أن الخير المال كله ، ومنعه حبسه عن النفقه في طاعة الله ، قاله بعض المتأخرين .

الثالث : محمول على عموم الخير من قول وعمل .

) معتد مريب (في المريب ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الشاك في الله ، قاله السدي .

---

(١) النكت والعيون . ، ٣٨/٥

الثاني : أنه الشاك في البعث ، قاله قتادة .

الثالث : أنه المتهم . قال الشاعر :

بثينة قالت يا جميل أربتنا

فقلت كلانا يا بثين مريب." (١)

" صفحة رقم ١٨٩

ولما كانت هذه الجمل في الإخبار عن المغيبات جنيا وأخرى ، وكان البخل من الأفعال الباطنة التي يستطاع إخفاؤها ودعوى الاتصاف بضدها كان الختم بقوله : (والله) أي الملك الأعظم .

ولما كان منصب النبي (صلى الله عليه وسلم) الشريف في غاية النزاهة صرف الخطاب إلى الأتباع في قراءة غير ابن كثير وأبي عمرو ، وهو أبلغ في الوعيد من تركه على مقتضى السياق من الغيبة في قراءتهما ، وقدم الجار إشارة إلى أن علمه بأعمالهم بالغ إلى حد لا تدرك عظمته لأن ذلك أبلغ في الوعيد الذي اقتضاه السياق : (بما تعملون خبير (ولما كان العمل شاملا لتصرفات الجوارح كلها من القلب واللسان وسائر الأركان قال - دالا على خبره بسماع ما قالوه متجاوزين وهذه البخل إلى حضيض القبح مرريدين التشكيك لأهل الإسلام بما يوردونه من الشبه قياسا على ما يعرفونه من أنفسهم من أنه -كما تقدم - لا يطلب إلا محتاج - : (لقد سمع الله) أي الذي له جميع الكمال) قول الذين قالوا) أي من اليهود) إن الله) أي الملك الأعظم) فقير) أي لطلبه القرض) ونحن أغنياء (لكونه يطلب منا ، وهذا رجوع منه سبحانه وتعالى إلى إتمام ما نبه عليه قبل هذه القصة من بغض أهل الكتاب لأهل هذا الدين وحسدهم لهم وإرادة تشكيكهم فيه للرجوع عنه على أسنى المناهج وأعلى الأساليب .

ولما تشوفت النفوس إلى جزائهم على هذه العظيمة ، وكانت الملوك إذا علمت انتقاص أحدها وهي قادرة عاجلته لما عندها من نقص الأذى بالغيظ قال سبحانه وتعالى مهددا لهم مشيرا إلى أنه على غير ذلك : (سنكتب) أي على عظمتنا لإقامة الحجة عليهم على ما يتعارفونه في الدنيا) ما قالوا) أي من هذا الكفر وأمثاله ، والسين للتأكيد ، ويجوز أن تكون على بابها من المهلة للحث على التوبة قبل ختم رتب الشهادة ، وسأتي في الزخرف له مزيد بيان .

ولما كان هذا اجتراء على الخالق أتبعه اجتراءهم على أشرف الخلائق فقال - مشيرا بإضافة المصدر إلى ضميرهم ، وبجمع التكسير الدال على الكثير إلى أنهم أشد الناس **تمردا** تمرنا على ارتكاب العظائم ، وأن

---

(١) النكت والعيون . ، ٣٥١/٥

الاجتراء على أعظم أنواع الكفر قد صار لهم خلقا - : (وقتلهم الأنبياء) أي الذي أقمناهم فيهم لتجديد ما أوهوه من بنيان دينهم ، ولما لم يكن في قتلهم شبهة أصلا يقال : (بغير حق (فهو أعظم ذما مما قبله من التعبير بالفعل المضارع في قوله
٧٧ ( ) ويقتلون الأنبياء بغير حق ( ) ٧
[آل عمران : ١١٢]. ثم عطف على قوله) سنكتب (قوله : (ونقلوا) أي بما لنا من الجلال) ذوقوا) أي بما نمسكم به من المصائب في الدنيا والعقاب في الأخرى كما كنتم تذوقون الأطعمة التي." [(١)]
" صفحة رقم ٢٨٦
أي خرجوا) من عندك بيت طائفة (هم في غاية التمرد) منهم) أي قدرت وزورت على غاية من التقدير والتحرير مع الاستدارة والتقابل كفعل من يدبر الأمور ويحكمها ويتقنها ليلا) غير الذي تقول) أي تجدد قوله لك في كل حين من الطاعة التي أظهروها أو غير قولك الذي بلغته لهم ، وأدغم أبو عمرو وحمزة التاء بعد تسكينها استثقالا لتوالي الحركات في الطاء لقرب المخرجين ، والطاء تزيد بالإطباق ، فحسن إدغام الأنقص في الأزيد ؛ وأظهر الباقون ، والإدغام أوفق لحالهم ، والإظهار أوفق لما فصح من محالهم .
ولما كان الإنسان من عادته إثبات الأمور التي يريد تخليدها بالكتابة أجرى الأمر على ذلك فقال : (والله (ي والحال أن الملك المستجمع لصفات الكمال) يكتب ما يبيتون) أي يجددون تبييته كلما فعلوه ، وهو غني عنه ولكن ذلك ليقربهم إياه يوم يقوم الأشهاد ، ويقيم به الحجة عليهم على ما جرت به عادتهم ، أو يوحى به إليك فيفضحهم بكتابته وتلاوته مدى الدهر ، فلا يظنوا أن تبييتهم يغنيهم شيئا .
ولما تسبب عن ذلك كفايته (صلى الله عليه وسلم) هذا المهم قال : (فأعرض عنهم) أي فإنهم بذلك لا يضرون إلا أنفسهم) وتوكل) أي في شأنهم وغيره) على الله) أي الذي لا يخرج شيء عن مراده) وكفى بالله) أي المحيط علما وقدرة) وكيلا (فستنظر كيف تكون العاقبة في أمرك وأمرهم .
النساء : (٨٢ - ٨٤) أفلا يتدبرون القرآن. .. . .
) أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وإذا جآءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا (( )

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ١٨٩/٢

ولما كان سبب إبطانهم خلاف ما يظهرونه اعتقاد أنه (صلى الله عليه وسلم) رئيس ، لا يعلم إلا ما أظهروه ، لا رسول من الله الذي يعلم السر وأخفى ؛ سبب عن ذلك على وجه الإنكار إرشادهم إلى الاستدلال على رسالته بما يزيح الشك ويوضح الأمر ، وهو تدبر هذا القرآن المتناسب المعانين المعجز المباني ، الفائت لقوى المخاليق ، المظهر لخفاياهم على اجتهاده في إخفائها ، فقال سبحانه وتعالى دالا على وجوب النظر في القرآن والاستخراج للمعاني منه : (أفلا يتدبرون) أي يتأملون ، يقال : تدبرت الشيء – إذا تفكرت في عاقبته وآخر أمره) القرآن) أي الجامع لكل ما يراد علمه من تمييز الحق من الباطل على نظام لا يختل ونهج لا يمل ؛ قال المهدوي : وهذا دليل على وجوب تعلم." (١)

" صفحة رقم ٤٩٦

ويمنحونهم مودتهم وأخبارهم من علمائهم وزهادهم – عدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، لكونهم جديرين بذلك لما يزعمونه من اتباع كتابهم فقال : (لولا) أي هلا ولم لا) ينهاهم) أي يجدد لهم النهي) الربانيون) أي المدعون للتخلي من الدنيا إلى سبيل الرب) والأحبار) أي العلماء) عن قولهم الإثم) أي الكذب الذي يوجبه وهو مجمع له) وأكلهم السحت (وذلك لأن قولهم للمؤمنين) آمنا (وقولهم لهم)) إنا معكم إنما نحن مستهزئون ( ) [البقرة : ١٤] لا يخلو عن كذب ، وهو محرم في توراتهم وكذا أكلهم الحرام ، فما سكوتهم عنهم في ذلك إلا لتمرنهم على المعاصي وتمردهم في الكفر واستهانتهم بالجرأة على من لا تخفى عليه خافية ، ولا يبقى لمن عاداه باقية .

ولما كان من طبع الإنسان الإنكار على من خالفه ، كانت الفطرة الأولى مطابقة لما أتت به الرسل من قباحة الكذب وما يتبعه من الفسوق .

وكان الإنسان لا ينزل عن تلك الرتبة العالية إلى اسكوت عن الفاسقين فضلا عن تحسين أحوالهم إلا بتدرب طويل وتمرن عظيم ، حتى يصير له ذلك كالصفة التي صارت بالتدريب صنعة يألفها وملكة لا يتكلفها ، فجعل ذنب المرتكب للمعصية غير راسخ ، لأن الشهوة تدعوه إليها ، وذنب التارك للنهي راسخا لأنه لا شهوة له تدعوه إلى الترك ، بل معه حامل من الفطرة السليمة تحثه على النهي ، فكان أشد حالا ؛ قال : (لبئس ما (ولما كان ذلك في جبلاتهم ، عبر بالكون فقال : (كانوا يصنعون) أي في سكوتهم عنهم وسماعهم منهم .

المائدة : (٦٤) وقالت اليهود يد. .. . . .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٢٨٦

) وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشآء وليزيدن كثيرا منهم مآ أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضآء إلى يوم القيامة كلمآ أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين (( )

ولما لم تزل الدلائل على إبطال دعوى أهل الكتاب في البنوة والمحبة تقوم ، وجبوش البراهين تنجد ، حتى انتشبت فيهم سهام الكلام أي انتشاب ، قال تعالى معجبا من عامتهم بعد تعيين خاصتهم ، معلما بأنهم لم يقنعوا بالسكوت عن المنكر حتى تكلموا بأنكره ، مشيرا إلى سفول رتبتهم ودناءة منزلتهم بأداة التأنيث : (وقالت اليهود (معبرين عن البخل والعجز جرأة وجهلا بأن قالوا ذاكرين اليد لأنها موضع القدرة وإفاضة الجود والنصرة .

) يد الله) أي الذي يعلم كل عاقل أن له صفات الكمال) مغلولة) أي فهو لا يبسط الرزق غاية البسط ، وهذا كناية عن البخل والعجز من غير نظر إلى مدلول كل من ألفاظه على حياله أصلا ، كما قال تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك." [(١)]

" صفحة رقم ٥٦٢

) إنك أنت) أي وحدك) علام الغيوب) أي كلها ، تعلمها علما تاما فكيف بما غاب عنا من أحوال قومنا فكيف بالشهادة فكيف بما شهدنا من ذلك وهذا في موضع قولهم : أنت أعلم ، لكن هذا أحسن أدبا ، فإنهم محوا أنفسهم من ديوان العلم بالكلية ، لأن كل علم يتلاشى إذا نسب إلى علمه ويضمحل مهما قرن بصفته أو اسمه .

ولما كان سؤاله سبحانه للرسل عن الإجابة متضمنا لتبكيت المبطلين وتوبيخهم ، وكان أشد الأمم افتقارا إلى التوبيخ أهل الكتاب ، لأن تمردهم تعدى إلى رتبة الجلال بما وصفوه سبحانه به من اتخاذ الصاحبة والولد ، ومن ادعاء الإلهية لعيسى عليه السلام لما أظهر من الخوارق التي دعا بها إلى الله مع اقترانها بما يدل على عبوديته ورسالته لئلا يهتضم حقه أو يغلى فيه ، مع مشاركتهم لغيرهم في أذى الرسل عليهم السلام بالتكذيب وغيره ، وكان في الآية السالفة ذكر الآباء وما آثروا للأبناء ، ذكر أمر عيسى عليه السلام بقوله مبدلا من قوله : (يوم يجمع الله (معبرا بالماضي تذكيرا بما لذلك اليوم من تحتم الوقوع ، وتصويرا لعظيم تحققه ، وتنبيها على أنه لقوة قربه كأنه قد وقع ومضى : (إذ قال الله) أي المستجمع لصفات الكمال) يا عيسى (ثم بينه بما هو الحق من نسبه فقال : (ابن مريم (.

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٤٩٦

ولما كان ذلك يوم الجمع الأكبر والإحاطة بجميع الخلائق وأحوالهم في حركاتهم وسكناتهم ، وكان الحمد هو الإحاطة بأوصاف الكمال ، أمره بذكر حمده سبحانه على نعمته عنده فقال : (اذكر نعمتي عليك) أي في خاصة نفسك ، وذكر ما يدل للعاقل على أنه عبد مربوب فقال : (وعلى والدتك (إلى آخره مشيرا إلى أنه أوجده من غير أب فأراحه مما يجب للآباء من الحقوق وما يورثون أبناءهم من اقتداء أو اهتداء وإقامة بحقوق أمه ، فأقدره – وهو في المهد – على الشهادة لها بالبراءة والحصانة والعفاف ، وكل نعمة أنعمها سبحانه عليه (صلى الله عليه وسلم) فهي نعمة أمه دينا ودنيا .

ولما ذكر سبحانه هذه الأمة المدعوة من العرب وأهل الكتاب وغيرهم بنعمه عليهم في أول السورة بقوله :

٧٧ ( ) اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه ( ) ٧

[المائدة : ٧] ،

٧٧ ( ) واذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم ( ) ٧

[المائدة : ١١] ، وكانت هذه الآيات من عند

٧٧ ( ) لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ( ) ٧

[المائدة : ٨٧] كلها في النعم ، أخبرهم أنه يذكر عيسى عليه السلام بنعمه في يوم الجمع إشارة إلى أنهم إن لم يذكروا نعمه في هذه الدار دار العمل بالشكر ، ذكروها حين يذكرهم بها في ذلك اليوم قسرا بالكفر ، ويا لها فضيحة في ذلك الجمع الأكبر والموقف الأهول وليتبصر أهل الكتاب فيرجعوا عن كفرهم بعيسى عليه السلام : اليهود بالتقصير في أمره ، والنصارى بالغلو في شأنه وقدره .." [1]

" صفحة رقم ٦٩٧

) وكذلك) أي ومثل ما جعلنا لك أعداء من كفار الإنس والجن) جعلنا لكل نبي) أي ممن كان قبلك ، وعبر عن الجمع بالمفرد – والمراد به الجنس – إشارة إلى أنهم يد واحدة في العداوة فقال : (عدوا (وبين أن المراد به الجنس ، وأنهم أهل الشر فقال مبدلا : (شياطين) أي أشرار) الإنس والجن (**المتمردين** منهم ، وربما استعان شيطان الجن شيطان الإنس لقرب قلبه منه ، أم يكون نوعه إليه أميل ، وأشار إلى هوان أمرهم وسوء عاقبتهم بقوله : (يوحي بعضهم) أي الشياطين من النوعين) إلى بعض) أي يكلمه في خفاء) زخرف القول) أي مزينه ومنمقه .

ولما كان هذا يدل على أنه – لكونه لا حقيقة له – لولا الزخرفة ما قيل ، زاده بيانا بقوله : (غرورا) أي

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٦٢/٢

لأجل أن يغروهم بذلك ، أي يخدعوهم فيصيروا لقبولهم كلامهم كالغافلين الذين شأنهم عدم التحفظ ، والغرور هو الذي يعتقد فيه النفع وليس بنافع .

ولما كان أول الآية معلما أن هذا كان بمشيئة الله وجعله ، أيد ذلك ومكنه في آخرها بأنه لو شاء ما كان ، وكل ذلك غيرة على مقام الإلهية وتنزيها لصفة الربوبية أن يخرج شيء عنها فيدل على الوهن ، ويجر قطعا إلى اعتقاد العجز ، فقال : (ولو شاء (ولما كان في بيان أعدائه (صلى الله عليه وسلم) والمسلطين عليه ، أشار إلى أن ذلك لإكرامه وإعزازه ، لا لهوانه ، فقال) ربك) أي بما له إليك من حسن التربية وغزير الإحسان مع ما له من تمام العلم وشمول القدرة ، أن لا يفعلوه) ما فعلوه) أي هذا الذي أنبأتك به من عداوتهم وما تفرع عليها .

ولما قرر أن هذا من باب التربية فعاقبته إلى خير ، سبب عنه قطعا قوله : (فذرهم) أي اتركهم على أي حالة اتفقت) وما يفترون) أي يتعمدون كذبه واختلافه ، واذكر ما لربك عليك من العاطفة لتعلم أن الذي سلطهم على هذا في غاية الرأفة بك والرحمة لك وحسن التربية كما لا يخفى عليك ، فثق به واعلم أن له في هذا لطيف سريرة تدق عن الأفكار ، بخلاف الآيات الآتية التي عبر فيها باسم الجلالة ، فإنها في عظيم تجرئهم على مقام الإلهية .

ولم كان التقدير : ذرهم لتعرض عنهم قلوب الذين يؤمنون بالآخرة وليسخطوه ، وليعلموا ما هم له مبصرون وبه عارفون ، فترفع بذلك درجاتهم ، عطف عليه قوله : (ولتصغى) أي تميل ميلا قويا تعرض به) إليه) أي كذبهم وما في حيزه) أفئدة) أي قلوب) الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي ليس في طبعهم الإيمان بها لأنها غيب ، وهم لبلادتهم واقفون مع الوهم ، ولذلك استولت عليهم الدنيا التي هي أصل الغرور) وليرضوه) أي بما تمكن من ميلهم إليه) وليقترفوا) أي يفعلوا بجهدهم) ما هم." [(١)]

" صفحة رقم ١٤١

الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) ٧٣ ( ) ٧١

ولما أخبر أن الفسق ديدنهم ، أكده بقوله عطفا على

٧٧ ( ) إذ يعدون ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٩٧/٢

[الأعراف ١٦٣]) وإذ) أي واسألهم عن خبرهم حين) قالت أمة منهم) أي جماعة ممن يعتبر ويقصد من الواعظين الصالحين الذين وعظوا حتى أيسوا لأمة أخرى منهم لا يقلعون عن الوعظ تخوفا للموعوظين بما ينجاوزن به) لم تعظون قوما) أي معتمدين على قوتهم) الله) أي الذي له الملك كله) مهلكهم) أي لا محالة لأنهم لا ينتهون عن الفساد ولا يتعظون بالمواعظ) أو معذبهم عذابا شديدا) أي بعظيم ما يرتكبوه وتماديهم فيه) قالوا) أي الأمة الأخرى من الواعظين : وعظنا) معذرة إلى ربكم) أي المحسن إليكم ب ا لحفظ عما وقعوا فيه من الذنب والإقبال على الوعظ حتى إذا سئلنا عن أمرنا في عصيانهم نقول : فعلنا في أمرهم جهدنا ، هذا إن لم يرجعوا) ولعلهم يتقون) أي وليكون حالهم حال من يرجى خوفه لله فيرجع عن غيه ولما تراجعوا بهذا الكلام ليكون زاجرا للعاصين فلم يرجعوا ، أخبر أنه صدق ظنهم بإيقاع الأمرين معا : العذاب الشديد والإهلاك فقال : (فلما نسوا ما ذككوا به (اي فعلوا في اعراضهم عنه فعل الناسي وتركوه ترك المنسي ، وهو أن الله لا يهملهم كما أن الإنسان لا يمكن أن يهمل أحدا تحت يده ، ليفعل ما يشاء من غير اعتراض) أنجينا (أيب بعظمتنا) الذين ينهون) أي استمروا على النهي) بعذاب بئيس) أي شديد جدا) بما كانوا) أي جبلة وطبعلا) يفسقون) أي بسبب استمرارهم على تجديد الفسق ولما ذكر ما هددهم بهمن العذاب الشديد ، أتبعه الهلاك فقال : (فلما عتوا) أي تكبروا جلافة وييسا عن الانتهاء (عن ما نهوا عنه) أي بعد الأخذ بالعذب الشديد ، وتجاوزوا إلى الاجتراء على جميع المعاصي عنادا وتكبرا بغاية الوقاحة وعدم المبالاة ، كان مواقعتهم لذلك الذنب وإمهالهم مع الوعظ أكسبتهم ذلك وغلطت أكبادهم عن الخوف بزاجر العذاب ، من عتا يعتو عتوا – إذا قيل على الاثام ، فهو عات ، قال عبد الحق في كتابة الواهي : وقيل إذا أقدم على كل اموره ، ومنه هذه الآية ، وقيل : العاتي هو المبالغ في ركوب المعاصي ، وقيل : **المتمرد** الذي لا ينفع فيه الوعظ والتنبيه ، ومنه قوله سبحانه

٧٧ ( ) فعتوا عن أمر ربهم ( ) ٧

[الذاريات : ٤٤] أي جاوزوا المقدار والحد في." (١)

" صفحة رقم ١٥٨

وأرسلهم ، وصير قائدهم فنحاس بن العازر الحبر ومعه أوعيه القدس وقرون ينفخ بها ، وتقووا على مدين كما أمر الرب موسى وقتلو كل ذكر فيها وقتلو ملوك مدين مع القتلى ، وقتل بلعام بن بعور معهم في الحرب ، وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وانتبهوا مواشيهم وسلبوا جميع دوابهم وأموالهم وأخبروا جميع قرى مساكنهم

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٤١/٣

وأتو بما انتهبوه إلى موسى ، وخرج موسى وجميع عظماء الجماعة فتلقوهم خارج العسكر ، وغضب موسى على رؤساء الأحبار ورؤساء الألوف والمئين الذي أتوه من الحرب فقال لهم : لماذا أبقيتم على الإناث وهن كن عثرة لبني إسرائيل عن قول بلعام ومشورته ، وفتنوا وغدروا **وتمردوا** على الرب في أمر فغور – وفي نسخة السبعين : فإن هؤلاء كن شيئا لبني إسرائيل لقوم بلعام أن يتباعدوا ويتهاونوا بكلمة الرب من أجل فغور – فواقعت السخطة جماعة الرب – وفي النسخة الأخرى : وتسلط الموت على جماعة الرب – بغته ، فاقتلوا الآن جميع الذكورة من الصبيان ، وكل امرأة أدركت وعلقت وعرفت الرجال فاقتلوها وأبقوا على جميع النساء اللواتي لم يعرفن الرجال وأما أنتم فانزلوا خارجا عن العسكر سبعة أيام – إلى آخر ما مضى قريبا في الآصار الأعراف : (١٧٩ – ١٨٤) ولقد ذرأنا لجهنم. .. . . .

) ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بهآ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ولله الأسمآء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمآئه سيجزون ما كانوا يعملون وممن خلقنآ أمة يهدون بالحق وبه يعدلون والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين (( )

ولما انقضت هذه القصص فأسفرت عن أن أكثر الخلق هالك ، صرح بذلك فقال مقسما لأنه لا يكاد يصدق أن الإنسان يكون – أضل من البهائم ، عاطفا على ما تقديره : هؤلاء الذين قصصنا عليكم أخباركم ذرأناهم لجهنم : (ولقد (وعزتنا وجلالنا) ذرأنا) أي خلقنا بعظمتنا وأنشأنا وبثثنا ونشرنا) لجهنم كثيرا) أي ألجأناهم إليها ولم يجعل بينهم وبينها حائلا ولما كانوا يعظمون الجن ويخافون ويضلون بهم ، بدأ بهم فقال : (من الجن) أي بنصبهم أنفسهم آلهة بإضلالهم الإنس في تزيين عبادتهم غير الله ، فهم في الحقيقة المعبودون لا الحجارة ، ونحوها) والإنس) أي بعبادتهم لمن لا يصلح ، وعلم أن الآية صالحة لأن تكون معطوفة على الجملة التي قبلها فهي من فذلكه ما تقدم." (١)

" صفحة رقم ٤٢٨

٧١)

٧٢ (س ١٠

١٨

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٥٨/٣

٢٠
) وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين ( )
ولما بين شرارتهم بعبادة غير الله وختم بتنزيهه وكماله ، بين أن هذا الدين الباطل حادث / وبين نزاهته وكماله ببيان أن الناس كانوا أولا مجتمعين على طاعنه ثم خالفوا أمره فلم يقطع إحسانه إليهم با استمر في إمهالهم مع تماديهم في سوء أعمالهم ما سبق في علمه ومضى به قضاءه فقال تعالى : (وما كان الناس) أي كلهم مع مالهم من الإضطراب لآإلا أمة (ولما أفهم ذلك وحدتهم غب القصد حققه وأكده فقال : (واحدة) أي حنفاء متفقين عل بطاعة الله) فاختلفوا (في ذلك على عهد نوح عليه السلام – كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما – عقب وحدتهم بسبب ما لهم من النوس فاستحق كافرهم تنجيز العقاب) ولولا كلمة) أي عظيمة) سبقت) أي في الأزل) من ربك) أي المحسن إليك برحمة أمتك بإمهالهم ، وبين التأكيد بما دل على القسم لأجل إنكارهم أن يكون تأخيرهم لأجل ذلك فقال : (لقضى بينهم) أي عاجلا بأيسر أمر) فيما (ولما لم يبين الكلام على الاتخاذ الذي محط أمره معالجة بالباطن ، لم يذكر الضمير بخلاف الرمز فقال) فيه) أي لا غيره بأن يعجل جزاءهم : (يختلفون (وأشار ذلك إلى أن هذا الأمر الذي دعوا إليه ليس أمرا طارئا حادثا فيكون بحيث يتوقف فيه للنظر في عواقبه والتأمل في مصادره وموارده ، بل هو مع ظهور دلائلة واستقامة مناهجة وصحة مذاهبه وإلقاء الفطر أزمة الانقياد إليه – أصل ما كان العباد عليه ، وما هم فيه الآن هو الطارئ الحادث مع ظهور فساده ووضوح سقمه ، وهو ناظر إلأى قوله تعالى) أكان للناس عجبا (لأن قوله) قال الكافرون إن هذا لسحر مبين (دال على أنهم قسمان : كافر ومؤمن ، والأمة : الجماعة على معنى واحد في خلق واحد كأنها تؤم – أي تقصد – شيئا واحدا لما أتتهم البنات قالوا : ائت بقرآن غير هذا ، كافرين بمنزلها عابدين من دونه ما لا يرضى عاقل بتسويته بنفسه فكيف بعبادته قائلين بفرط عنادهم وتماديهم في **التمرد**) لولا) أي هلا ولم لا) أنزل (أ] بأي وجه كان) عليه آية) أي واحدة كائنة وآتية) من ربه) أي المحسن إليع غير ما جاء به وذلك إما لطلبهم آية ملجئة لهم إلأى الإيمان أو لكونهم لم يعدوا ما أنزل عليه عداد الآيات فضلا عن كونها بينات بالقرآن." [١]

" صفحة رقم ٢٦١
يفهم المرء منهم لغة صاحبه ، ثم فرقهم الرب من هنالك على وجه الأرض كلها ، ولم يبنوا القرية التي هموا

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣/٤٢٨

ببنائها ، ولذلك سميت بابل لأن هنالك فرق الرب لغة أهل الأرض كلها – انتهى .
قال لي بعض علماء اليهود : إن بابل معرب بوبال ، ومعنى بوبال بالعبراني الشتات – هذا ما في التواة ، وأما المفسرون فإنهم ذكروا أن الصرح بني على هيئة طويلة في الطول والإحكام ، وأن الله تعالى هدمه ، فكانت له رجة تفرقت لعظم هولها لغة أهل الأرض إلى أنحاء كثيرة لا يحصيها إلا خالقها فالله أعلم .
النحل : (٢٧ – ٢٨) ثم يوم القيامة. .. . .
) ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركآئي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون (( )
ولما بين سبحانه وتعارى حال المكرة **المتمردين** عليه في الدنيا ، أخذ يذكر حالهم في الآخرة تقريرا للآخرة وبيانا لأن عذابهم غير مقصور على الدنيوي ، فقال تعالى : (ثم يوم القيامة يخزيهم) أي الله تعالى الذي فعل بهم في الدنيا ما تقدم ، خزيا يشهده جميع الخلائق الوقوف في ذلك اليوم ، فيحصل لهم من الذل – جزاء على تكبرهم – ما يجل عن الوصف ، وعطفه ب (ثم) لاستبعادهم له ولما من الهول والعظمة التي يستصغر لها كل هول) ويقول) أي لهم في ذلك الجمع تبكيتا وتوبيخا : (أين شركاءي (على ما كنتم تزعمون ، وأضاف سبحانه إلى نفسه المقدس لأنه أقطع في توبيخهم وأدل على تناهي الغضب) الذين كنتم) أي كونا لا تنفكون عنه) تشاقون فيهم (أوليائي ، فتكونون بمخالفتهم في شق غير شقهم ، فتخضعون لما لا ينبغي الخضوع له ، وتتكبرون على من لا ينبغي الإعراض عنه ، ما لهم لا يحضرونكم ويدفعون عنكم في هذا اليوم ؟ وقرئ بكسر النون لأن مشاقة المأمور مشاقة الآمر .
ولما كان المقام للجلال والعظمة المستلزم لزيادة الهيبة التي يلزم عنها خرس المخزي عن جوابه لو كان له جواب ، وكان من أجل المقاصد في تعذيبهم العدل بتفريح الأولياء وإشماتهم بهم ، جزاء لما كانوا يعلمون بهم في الدنيا ، وكانت الشماتة أعلى محبوب للشامت وأعظم مرهوب للمشموت فيه ، وأعظم مسل للمظلوم ، دل على سكوتهم رغبا عن المبادرة بالجواب بتأخير الخبر عنه وتقديم الخبر عن شماتة أعدائهم فيهم في سياق الجواب عن سؤال من قال : هل علم بذلك المؤمنون ؟ فقيل : (قال الذين (ولما كان العلم شرفا للعالم مطلقا ، بني للمفعول قوله : (أوتوا العلم) أي انتفعوا به في سلوك سبيل النجتة من الأنبياء

عليهم السلام ومن أطاعهم من أممهم ، إشارة إلى أن الهالك يصح سلب العلم عنه وإن كان أعلم الناس ، وعدل عن أن يقول :." [١]

" صفحة رقم ١٠٣

جعل سبحانه من الفيض على العالم السفلي بالاختراق لطباقة بالإسراء تارة ، وبإمساك المطر لما دعا بسبع كسبع يوسف ، وبإرساله اخرى كما في أحاديث كثيرة ، وأتي مع ذلك بمفاتيح خزائن الأرض كلها فردها (صلى الله عليه وسلم) .

ولما ذكر تسخير اليح له ، ذكر أنه سخر له مأغلبعناصره النار والريح للعمل في الماء ، مقابلة لارتفاع الحمل في الهواء باستفال الغوص في الماء فقال : (ومن) أي وسخرنا له من) الشياطين (الذين هم أكثر شيء **تمردا** وعتوا ، وألطف شيء أجساما) من (وعبر بالجمع لأنه أدل على عظم التصرف فقال : (يغوصون له (في المياه لما يأمرهم به من استخراج الجواهر وغيرها من المنافع ، وذلك بأن أكثفنا أجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص في الماء معجزة في معجزة ، وقد خنق نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) العفريت الذي جاء بشهاب من نار وأسر جماعة من أصحابه رضي الله عنهم عفاريت أتوا إلى ثمر الصدقة وأمكنهم الله منهم) ويعملون عملا) أي عظيما جدا .

ولما كان إقدارهم على الغوص اعلى ما يمون في أمرهم ، وكان المراد استغراق إقدارهم على ما هو أدنى من ذلك مما يريده منهم ، نزع الجار فقال : (دون ذلك) أي تحت هذا الأمر العظيم أو غيره من بناء ما يريد ، واصطناع ما يشاء ، من الصنائع العجيبة ، والآثار الغريبة ، وفي ذلك تسخير الماء والتراب بواسطة الشاطين ، فقد ختم عند انتهاء الإشارة إلى تسخير العناصر – بمن سخر له العناصر الربعة كما ابتدأ بذلك) وكنا (اي بعظمتنا التي تغلب كل سيء) لهم حافظين (من أن يفعلوا غير ما يريد ، ولمن يذكر هودا عليه السلام هنا ، إن كان قد سخر له الريح ، لن عملها له كان على مقتضى العادة في التدمير والأذى عند عصوفها وإن كان خارقا بقوته ، والتي لسليمان عليه السلام للنجاة والمنافع ، هذا مع تكرارها فأمرها أظهر ، وفعلها أزكى وأطهر .

ولما أتم سبحانه ذكر من سخر لهم العناصر التي منها الحيوان المحتوم ببعثته تحقيقا لذلك ، ذكر بعدهم من وقع له أمر من الخوارق يدل على ذلك ، إما بإعادة." [٢]

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غ ا لب)، ٤/٢٦١

(٢) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/١٠٣

" صفحة رقم ١١٢

ولما كان كأنه قيل : فماذا يفعل بهم ؟ قال ما هو غاية في الدلالة على باهر العظمة وتام القدرة ليكون أشد في الوعيد ، وصادع التهديد : (كل) أي من هذه الفرق وإن بالغ في **التمرد**) إلينا (على عظمتنا التي لا يكافئها شيء ، لا إلى غيرنا) راجعون (فنحكم بينهم فيتسبب عن ذلك أنا نجازيهم إقامة للعدل فنعطي كلا من المحق التابع لأصفيائنا والمبطل المائل إلى الشياطين أعدائنا ما يستحقه ، وذلك هو معنى قوله تعالى ، فارقا بين المحسن والمسيء تحقيقا للعدل وتشويقا بالفضل : (فمن يعمل) أي منهم الآن من) الصالحات وهو) أي والحال أنه) مؤمن) أي بان لعمله على الأساس الصحيح) فلا كفران) أي إبطال بالتغطية) لسعيه (بل نحن نجزيه عليه بما يستحقه ونزيده من فضلنا) وإنا له) أي لسعيه الآن على عظمتنا) كاتبون (وما كتبناه فهو غير ضائع ، بل باق ، لنطلعه على يوم الجزاء بعد أن نعطيه قدرة على تذكره ، فلا يفقد منه شيئا قل أو جل ، ومن المعلوم أن قسمية (ومن يعمل من السيئات وهو كافر فلا نقيم له وزنا) و (من عمل منها وهو مؤمن فهو في مشيئتنا) ، ولعله حذف هذين القسمين ترغيبا في الإيمان .

ولما كان هذا غير صريح في ان هذا الرجوع بعد الموت ، بينه بقوله : (وحرام) أي وممنوع ومحجور) على قرية) أي أهلها) أهلكناها) أي بالموت بعظمتنا) أنهم لا يرجعون) أي إلينا بأن يذهبوا تحت التراب باطلا من غير إحساس ، بل إلينا بموتهم رجعوا فحبسناهم في البرزخ منعمين أو معذبين نعيما وعذابا دون النعيم والعذاب الأكبر ، ولقد دل على قدرته قوله : (حتى إذا فتحت (بفتح السد الذي تقدم وصفنا له ، وأن فتحه لا بد منه وقراءة ابن عامر بالتشديد تدل على كثرة التفتيح أو على كثرة الخارجين من الفتح وإن كان فرجة واحدة كما أشار إطلاق قراءة الجماعة بالتخفيف) يأجوج ومأجوج (فخرجوا على الناس ؛ وعبر عن كثرتهم التي لا يعلمها إلا هو سبحانه بقوله : (وهم) أي والحال أنهم) من كل حدب) أي نشز عال من الأرض) ينسلون) أي يسرعون ، من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب ، وفي العبارة إيماء إلى أن الأرض كرية) واقترب الوعد الحق (وهو حشر الأموات الذي يطابقه الواقع ، إذا وجد قربا عظيما ، كأن الوعد طالب له ومجتهد فيه .

ولما دلت صيغة (افتعل) على شدة القرب كما في الحديث أن الساعة إذ ذاك مثل الحامل المتم ، علم أن التقدير جوابا لإذا : كان ذلك الوعد فقام الناس من قبورهم : (فإذا هي شاخصة) أي واقفة جامدة لا تطرف لما دهمهم من الشدة ، ويجوز وهو أقرب أن تكون إذا هذه الفجائية هي جواب إذا الشرطية ، وهي

تقع في المجازات سادة مسد الفاء ، فإذا جاءت الفاء معها متفاوتة على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ، فالمعنى :." [١]

" صفحة رقم ١٨٨

ولما كان تصيير الماء دما أمرا بالغا خارجا عن التسبيب ، وكانت النطفة التي هي مبدأ الآدمي تفسد تاة وتأخذ في التكون أخرى ، عبر بالخلق لما يخلطها به مما تكتسبه من الرحم عند التحمير وقرنه بأداة التراخي فقال : (ثم) أي بعد تراخ في الزمان وعلو في الرتبة والعظمة) خلقنا) أي بما لنا من العظمة) النطفة) أي البيضاء جدا) علقة (حمراء دما عبيطا شديد الحمرة جامدا غليظا .

ولما كان ما بعد العلقة من الأطوار المتصاعدة مسببا كل واحد منه عما قبله بتقدير العزيز العليم الذي اختص به من غير تراخ ، وليس تسببه من العادة التي يقدر عليها غيره سبحانه ، عبر بالفاء والخلق فقال : (فخلقنا العلقة مضغة) أي قطعة لحم صغيرة لا شكل فيها ولا تخطيط) فخلقنا المضغة (بتصفيتها وتصلبيها بما سببنا لها من الحرارة والأمور اللطيفة الغامضة) عظاما (من رأس ورجلين وما بينهما) فكسونا) بما لنا من قدرة الاختراع ، تلك) العظام لحما (بما ولدنا منها ترجيعا لحالها قبل كونها عظما ، فسترنا تلك العظام وقويناها وشددناها بالروابط والأعصاب .

ولما كان التصوير ونفخ الروح من االجلالة بمكان أي مكان ، اشار إليه بقوله : (ثم أنشأناه) أي هذا المحدث عنه بعظمتنا) خلقا آخر) أي عظيما جليلا متحركا ناطقا خصيما مبينا بعيدا من الطين جدا ؛ قال الرازي : وأصل النون والشين والهمزة يدل على ارتفاع شيء وسموه .

ولما كان هذا التفصيل لتطوير الإنسان سببا لتعظيم الخالق : (فتبارك) أي ثبت ثباتا لم يثبته شيء ، بأن حاز جميع صفات الكمال ، وتنزه عن كل شائبة نقص ، فكان قادرا على كل شيء ، ولو داناه شيء من عجز لم يكن تام الثبات ، ولذلك قال : (الله (فعبر بالاسم العلم الجامع لجميع الأسماء الحسنى ؛ وأشار إلى جمال الإنسان بقوله : (أحسن الخالقين) أي المقدرين ، أي قدر هذا الخلق اrعجيب هذا التقدير ، ثم طوره في أطواره ما بين طفل رضيع ، ومحتلم شديد ، وشاب نشيط ، وكهل عظيم ، وشيخ هرم - غلى ما بين ذلك من شؤون لا يحيط بها إلا اللطيف الخبير .

ولما كانت إماتة ما صار هكذا - بعد القوة العظيمة والإدراك التام - من الغرائب ، وكان وجودها فيه وتكرارها عليه في كل وقت قد صيرها أمرا مألوفا ، وشيئا ظاهرا مكشوفا ، وكان عتو الإنسان على خالقه

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبد ا لرزاق غالب)، ١١٢/٥

وتمرده ومخالفته لأمره نسيانا لهذا المألوف كالإنكار له ، اشار إلى ذلك بقوله تعالى مسببا مبالغا في التأكيد : (ثم إنكم (ولما كان من الممكن ليس له من ذاته إلا العدم ، نزع الجار فقال : (بعد ذلك) أي الأمر العظيم من الوصف بالحياة والمد في العمر في آجال متفاوتة) لميتون (وأشار بهذا النعت." [1]

" صفحة رقم ٤٦٢

انجر معه بأنه عليه الصلاة والسلام سيملك مكة البلدة ويفتحها الله تعالى عليه ، ويذل عاة قريش **ومتمرديهم** ، ويعز أتباع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن استضعفته قريش من المؤمنين ، اتبع سبحانه ذلك بما قصه على نبيه من تطهير ما أشار إليه من قصة بني إسرائيل وابتداء امتحانهم بفرعون ، واستيلائه عليهم ، وفتكه بهم إلى أن أعزهم الله وأظهرهم على عدوهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، ولهذا أشار تعالى في كلا القصتين بقوله في الأولى) سيريكم آياته فتعرفونها (وفي الثانية بقوله : (وترى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (ثم قص ابتداء أمر فرعون وحذره واستعصامه بقتل ذكور الأولاد ثم لم يغن عنه من قدر الله شيئا ، ففي حاله عبرة لمن وفق للاعتبار ، ودليل على أنه سبحلنه المتفرد بملكه ، يؤتي ملكه من يشاء ، وينزعه ممم يشاء ، لا يزعه وازع ، ولا يمنعه عما يشاء مانع ،) قل الله مالك الملك (وقد أصح قوله تعالى) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض (- الآية بما أشار إليه مجمل ما أوضحنا اتصاله من خاتمة النمل وفاتحة القصص ، ونحن نزيده بيانا بذكر لمع من تفسير ما قصد التحامه فنقول : إن قوله تعالى معلما لنبيه (صلى الله عليه وسلم) وآمرا) إنما أمرت أن أعبد (إلى قوله : (سيريكم آيته (لا خفاء بما تضمن ذلك من التهديد ، وشديد الوعيد ، ثم في قوله : (سورة القصص ( ) مكية - آياتها ثمان وثمانون (مقصودها التواضع لله ، المستلزم لرد الأمر كله إليه ، الناشيء عن الإيمان بالآخرة ، الناشيء عن الإيمان بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، الثابتة بإعجاز القرآن ، المظهر للخفايا على لسان من لم يتعلم علما قط من أحد من الخلق ، المنتج لعلو المتصف به ، وذلك هو المأخوذ من تسميتها بالقصص الذي حكم لأجله شعيب بعلو الكليم عليهما السلام على من ناواه ، وقمعه لمن عاداه ، فكان المآل وفق ما قال) بسم الله (الذي اختص بالكبرياء والعظمة ، فألبس خدامه من ملابي هيبته) الرحمن (الذي عم بنعمة البيان ، حتى أهل الكفران الرحيم الذي خص بنعمة ما بعد البعث أهل الإيمان .

لما ختم تلك بالوعد المؤكد بأنه يظهر آياته فتعرف ، وأنه ليس بغافل عن شيء ، تهديدا للظالم ، وتثبيتا

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ١٨٨/٥

للعالم ، وكان من الأول ما يوحيه في هذه من الأساليب المعجزة من خفايا علوم أهل الكتاب ، فلا يقدرون على رده ، ومن الثاني ما صنع بفرعون وآله ، قال أول هذه : (طسم (مشيرا بالطاء المليحة بالطهر والطيب إلى خلاص بني إسرائيل بعد طول ابتلائهم المطهر لهم عظيم ، وبالسين الرامزة إلى السمو والسنا والسيادة إلى أن ذلك يكون بمسموع من الوحي في ذي طوى من طور سيناء قديم ، وبالميم المهيئة للملك والنعمة إلى قضاء من الملك العلى بذلك كله تام عميم .

ولم ا كانت هذه إشارات عالية ، وما بعدها لزوم نظوم لأوضح الدلالات حاوية ، قال مشيرا إلى عظمتها : (تلك) أي الآيات العالمية الشأن) آيات الكتاب) أي المنزل على قلبك ، الجامع لحميع المصالح الدنيوية والأخروية) المبين (اي الفاصل الكاشف الموضح المظهر ، لأنه من عتندنا من غير شك ، ولكل ما يحتاج إليه من ذلك وغيره ، عند من يجعله من شأنه ويتلقاه بقبول ، ويلقي إليه السمع وهو شهيد ؛ ثم اقام الدليل على إبانته .

وأنه يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم يختلفون / بما أورد هنا في قصة موسى عليه الصلاة والسلام من الدقائق التي قل من يعلمها من حذاقهم ، على وجه معلم بما انتقم به نم فرعون وآله ، ومن لحق بهم كقارون ، وأنعم به على موسى عليه السلام وأتباعه ، ولذلك بسط فيها أمور القصة ما لم يبسط في غيرها فقال : (نتلوا) أي نقص قصا متتابعا متواليا بعضه في أثر بعض) عليك (بواسطة جبريل علي ه الصلاة والسلام .

ولما كان المراد إنما هو قص ما هو من الأخبار العظيمة بيانا للآيات بعلم الجليلات والخفيات ، والمحاسبة والمجازاة ، لا جميع الأخبار ، قال : (من نبأ موسى وفرعون) أي بعض خبرهما العظيم متلبسا هذا النبأ وكائنا) بالحق (اي الذي يطابقه الواقع ، فإنا ما أخبرنا فيه بمستقبل إلا طابقه الكائن عند وقوعه ، ونبه على أن هذا البيان كما سبق إنما ينفع أولى الإذعان بقوله : (لقوم يؤمنون) أي يجددون الإيمان في كل وقت عند كل حادثة لثبات إيمانهم ، فعلم أن المقصود منها هنا الاستدلال على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) الأمي بالاطلاع علىالمغيبات ، والتهديد بعلمه المحيط ، وقدرته الشاملة ، وأنه ما شاء كان ولا مدفع لقضائه ، ولا ينفع حذر من قدرة ، فصح أنها دليل على قوله تعالى آخر تلك) سيريكم آياته فتعرفونها (الآية ، ولذلك لخصت رؤوس أخبار القصة ، والسلام وأمة وفرعون وغيرهم إلى ما تراه من الحكم التي لا يطلع عليها إلا عالم بالتعلم أو بالوحي ، ومعلوم لكل مخاطب بذلك انتفاء الأول عن المنزل عليه هذا الذكر صلى الل عليه وسلم ، فانحصر الأمر في الثاني ، يوضح لك هذا المرام مع هذه الآية الأولى

التي ذكرتها قوله تعالى في آخر القصة) وما كنت بجانب الغربي ( ) وما كنت بجانب الطور (واتباع القصة بقوله تعالى : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون (فالمراد بهذا السياق منها كما ترى غير ما تقدم من سياقاتها كما مضى ، فلا تكرير في شيء من ذلك – والله الهادي .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمن قوله سبحانه) إنما أمرت أن أعبد رب هذه الذي حرمها (– إلى آخر السورة من التخويف والترهيب والإنذر والتهديد لما انجر معه بأنه عليه الصلاة والسلام سيملك مكة البلدة ويفتحها الله تعالى عليه ، ويذل عاة قريش **ومتمرديهم** ، ويعز أتباع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن استضعفته قريش من المؤمنين ، اتبع سبحانه ذلك بما قصه على نبيه من تطهير ما أشار إليه من قصة بني إسرائيل وابتداء امتحانهم بفرعون ، واستيلائه عليهم ، وفتكه بهم إلى أن أعزهم الله وأظهرهم على عدوهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، ولهذا أشار تعالى في كلا القصتين بقوله في الأولى) سيريكم آياته فتعرفونها (وفي الثانية بقوله : (وترى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (ثم قص ابتداء أمر فرعون وحذره واستعصامه بقتل ذكور الأولاد ثم لم يغن عنه من قدر الله شيئا ، ففي حاله عبرة لمن وفق للاعتبار ، ودليل على أنه سبحلنه المتفرد بملكه ، يؤتي ملكه من يشاء ، وينزعه ممم يشاء ، لا يزعه وازع ، ولا يمنعه عما يشاء مانع ،) قل الله مالك الملك (وقد أصح قوله تعالى) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض (– الآية بما أشار إليه مجمل ما أوضحنا اتصاله من خاتمة النمل وفاتحة القصص ، ونحن نزيده بيانا بذكر لمع من تفسير ما قصد التحامه فنقول : إن قوله تعالى معلما لنبيه (صلى الله عليه وسلم) وآمرا) إنما أمرت أن أعبد (إلى قوله : (سيريكم آيته (لا خفاء بما تضمن ذلك من التهديد ، وشديد الوعيد ، ثم في قوله : (رب هذه البلدة (إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام سيفتحها ويملكها ، لأنه بلد ربه وملكه ، وهو عبده ورسوله ، وقد اختصه برسالته ، وله كل شيء فالعباد والبلاد ملكه ، ففي هذا من الإشارة مثل ما في قوله تعالى : (إن الذي فرض عليك القرآ ، لرادك إلى معاد (وقوله تعالى : (وأن أتلو القرآن) أي ليسمعوه فيتذكروا ويتذكر من سبقت له السعادة ، ويخلظ سنة الله في العباد والبلاد ، ويسمع ما جرى لمن عاند وعنى و كذب واستكبر ، فكيف وقصة الله وأخذه ولم يغن عنه حذره ، وأورث مستضعف عباده أرضه ودياره ، ومكن لهم في الأرض وأعز رسله و أباعهم) نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) أي يصدقون ويعتبرون ويستدلون ويستوضحون ، وقوله : (سيريكم آيته (يشير إلى ما حل بهم يوم بدر ، وبعد ذلك إلى يوم فتح مكة ، وإذعان نم لم يكن يظن انقياده ، وإهلاك من طال **تمرده** وعناده ، وانقياد العرب بجملتها بعد فتح مكة ودخول الناس في

الدين افواجا ، وعزة أقوام وذلة آخرين ، بحاكم) إن أكرمكم عند الله أتقاكم (إلى أن فتح الله على الصحابة رضوان الله عليهم ما وعدهم به نبيهم (صلى الله عليه وسلم) ، فكان كما وعد ، فلما تضمنت هذه الآية ما أشير إليه ، أعقب بما هو في قوة أن لو قيل : ليس عتوكم بأعظم من عتو فرعون وآله ، ولا حال مستضعفي المؤمنين بمكة ممن قصدتم فتنته في دينه بدون حال بني إسرائيل حين كان فرعون يمتحنهم بذبح." (١)

" صفحة رقم ٥٨٣

أهل فارس وإخبار الله تعالى بإدالة الروم فتنة يعرف بها الثابت من المزلزل ، وكان من له كتاب أحسن حالا في الجملة ممن لا كتاب له ، افتتحت هذه بتفصيل ذلك تصريحا بعد أن اشار إليه بالأحرف المقطعة تلويحا غيبا وشهادة ، دلالة على وحدانيته وإبطال الشرك ، فأثبت سبحانه أن له جميع الأمر وأنه يسر المؤمنين بنصرة من له دين صحيح الأصل ، وخذلان أهل العراقة في الباطل والجهل ، وجعل ذلك على وجه يفيد نصر المؤمنين على المشركين ، فقال مبتدئا بما أفهمه كونه مع المحسنين مع أنه ليس مع المسيئين : (غلبت الروم) أي لتبديلهم دينهم غلبهم - الفرس في زمن أنوشروان أو بعده) في أدنى الأرض) أي أقرب ارضهم غلى ارضكم ايها العرب ، وهي في أطراف الشام ، وفي تعيين مكان الغلب على هذا الوجه - بشارة للعرب بأنهم يغلبونهم إذا وافقوهم ، فإن موافقتهم لهم تكون في مثل ذلك المكان .

وقد كان كذلك بما كشف عنه الزمان ، فكأنه تعالى يقول لمن فرح من العرب بنصر أهل فارس على الروم لنكاية المسلمين : اتركوا هذا السرور الذي لا يصوب نحوه من له همة الرجال ، وأجمعوا أمركم وأجمعوا شملكم ، لتواقعوهم في مثل هذا الوضع فتنصروا عليهم ، ثم لا يقاومونكم بعدها أبدا ، فتغلبوا على بلادهم ومدنهم وحصونهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أعتب سبحانه أهل مكة ، ونفى عليهم قبح صنيعهم في التغافل عن الاعتبار بحالهم ، وكونهم - مع قلة عددهم - قد منع الله بلدهم عن قاصد نبهه ، وكف ايدي العتاه **والمتمردين** عنهم مع (تعاور) أيدى المنتهين على من حولهم ، وتكرر ذلك واطراده صونا منه تعالى لحرمه وبيته ، فقال تعالى :

٧٧ ( ) أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويخطف الناس من حولهم ( ) ٧

[العنكبوت : ٦٧] أي ولم يكفهم هذا في الاعتبار ، وتبينوا أن ذلك ليس عن قوة منهم ورا حسن دفاع

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٦٢/٥

، وإنما هو بصون الله إياهم بمجاورة بيته وملازمة أمنه مع أنهم أقل العرب ، أفلا يرون هذه النعمة ويقابلونها بالشكر والاستجابة قبل أن يحل بهمنقمة ، ويسلبهم نعمه ، فلما قدم تذكارهم بهذا ، أعقب بذكر طائفة هم أكثر منهم وأشد قوة وأوسع بلادا ، وقد ايد عليهم غيرهم ، ولم يغن عنهم انتشارهم وكثرتهم ، فقالت : (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض (الآيات ، فكر تعالى غلبة غيرهم لهم ، وأنهم ستكون لهم كرة ، ثم يغلبون ، وما ذلك إلا بنصر الله من شاء من عبيده) ينصر من يشاء (فلو كشف عن إبصار من كان بمكة من الكفار لرأوا أن اعتصام بلادهم وسلامة ذرياتهم وأولادهم مما سلط على من حولهم." (١)

" صفحة رقم ٣٣٥

ولما ذكر هؤلاء السادة الذين لهم من رتبة التجرد والنزاهة ما تقدم بيانه ، وختمهم بأخوين ما اجتمعا قط ، وكان من أعظم المقاصد بذكرهم المنة على من اتصف بمثل صفاتهم بالقرب والنصرة تسلية وترجية للنبي (صلى الله عليه وسلم) ولمن اتبعه من المؤمنين ممن قارب - من شدة البلاء والقهر - اليأس من النصر ، أتبعهم بأمثالهم في التجرد وابتدأهما بأخوين افترقا حين ولاة الثاني على حالة لا يمكن الاجتماع معها عادة ، ثم اجتمعا في الباطن مع الافتراق في الظاهر ثم افترقا على حالة يبعد الاجتماع معها عادة ثم اجتمعا اجتماعا لم يفترقا منه إلا بالموت وبدأهما باول من تجرد منهما من حين ولادته إلى أوان هجرته ، ثم من حين رجعته إلى أن جرد آله - وهم بعض ذرية إبراهيم عليه السلام - وأنقذهم من علائق الكفرة ، ثم تجرد معهم هو وأخوه عن المدن والقرى وأكثر علائق البشر ، ملازمين البراري والفلوات حيث يكثر ظهور الكلمة مع إرسال الله إليهما بمعادن الحكمة إلى أن ماتا عليهما الصلاة والسلام والتحية والإكرام ، فقال مؤكدا تنبيها لمن يعد نصر المؤمنين محالا ، عاطفا على ما تقديره : فلقد أنشأنا منهما من الأمم ما يعجز الوصف ويفوت الحصر ، ومننا على كثير منهم بالإحسان من ولد إسماعيل عليه السلام إلى أن غير دينه عمرو بن لحي ، ومن ولد إسحاق يعقوب والأسباط عليهم السلام ومن شاء الله من أولادهم : (ولقد مننا) أي أنعمنا إنعاما مقطوعا به بما لنا من العظمة ، على أول من أظهر لسان الصدق لإبراهيم عليه السلام وذريته اظهارا تاما .

وبدأهما بأعرقهما - كما تقدم - في التجرد وأحقها بالتقدم فقال : (على موسى (أحد أعيان المتجردين ، ومن له القدم الراسخ في ذلك) وهارون) أي عين من تجرد مع أخيه ووافقه أتم موافقة ، ووازره أعظم موازرة ، بما أتيا به من النبوة والكتاب وغير ذلك من أنواع الخطاب .

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٨٣/٥

ولما كان جل المقصود – كما مضى – مقام التجرد ، والإعلام بنصر المستضعفين من المؤمنين ، قال : (ونجيناهما وقومهما) أي بني إسرائيل وقد كانوا مرت لهم دهور في ذل لا يقاربه ذل المؤمنين من أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) في أول أمرهم) من الكرب العظيم) أي الاستبعاد ، وما يتبعه من عظائم الأنكاد ، وكان ذلك بهلاك القبط الذين استمروا على الضلال ، وهم أضعاف أضعاف بني إسرائيل ، إلى أن أهلكناهم فلم يفلت منهم إنسان ، فصح لبني إسرائيل حينئذ التجرد وزال عنهم ذل التجبر **والتمرد** .

ولما بين نعمة النجاة من الأسر ، أتبعها نعمة الالتذاذ بالنصر ، فقال : (ونصرناهم) أي موسى وهارون عليهما السلام وقومهما على كل من نازعهم في ذلك الزمان من." [1]

" صفحة رقم ٤٠٧

كان تدبيجه في السؤال قد أفهم تجاهله بما هو أعلم الخلق به من تحتم الموت لكل من لم يكن في دار الخلد الذي أبلغ الله تعالى في الإعلام به ، قال : (المعلوم (وهو الصعقة الأولى وما يتبعها .

ولما كانت هذه الإجابة سببا لأن يخضع وينيب شكرا عليها ، وأن يطغى **ويتمرد** ويخيب لأنها تسليط ، وتهيئة للشر ، فاستشرف السامع إلى معرفة ما يكون من هذين المسببين ، عرف أنه منعه الخذلان من اختيار الإحسان بقوله : (قال فبعزتك) أي التي أبت أن يكون لغيرك فعل لا بغير ذلك ، ويجوز أن تكون الباء للقسم) لأغوينهم) أي ذرية آدم عليه السلام) أجمعين (قال القشيري : ولو عرف عزته لما أقسم بها على مخالفته .

ولما كان عالما بأن القادر ما خلق آدم عليه السلام وشرفه بما شرفه به ليشقي ذريته كلهم قال : (إلا عبادك (فأضافهم إليه سبحانه تنبيها على أن غيرهم قد انسلخوا من التشرف بعبوديته بالنسبة إلى من أطاعوه .

ولما كان يمكن أن يكون المستثنى ، من غير البشر قيد قوله : (منهم المخلصين) أي الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته فأخلصوا قصدهم لها ، وعرف من الاستثناء أنهم قليل وأن الغواة هم الأصل .

ولما حصل التشوف إلى جوابه ، دل عليه بقوله : (قال فالحق) أي فبسبب إغوائك وغوايتهم أقول الحق) والحق) أي لا غير أبدا) أقول) أي لا أقول إلا الحق ، فإن كل شيء قلته ثبت ، فلم يقدر أحد على نقضه ولا نقصه .

ولما كانت إجابته بالإنظار ربما كانت سببا لطعمه في الخلاص ، قطع رجاءه بما أبرزه في أسلوب التأكيد من قوله جوابا لقسم مقدر وبيانا للحق ، وفي قراءة عاصم وحمزة برفع) فالحق (يكون هو المقسم به أي

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٣٥/٦

فالحق قسمي ، والجواب) لأملأن (وما بينهما اعتراض مبين أن هذا مما لا يخلف اصلا) جهنم) أي النار العظيمة التي من شأنها تجهم من حكم بدخوله إياها) منك) أي نفسك وكل من كان عرى شاكلتك من جنسك من جميع الجن) وممن (.

ولما كان الأغلب على سياقات هذه السورة العاقبة ، كان توحيد الضمير في) تبع (أولى ، وليفهم الحكم على كل فرد ثم الحكم على المجموع فقال : (تبعك (ولما كان ربما قال متعنت : إن المالئ لجهنم من غير البشر قال : (منهم) أي الناس الذين طلبت الإمهال لأجلهم ، وأكد ضمير) منك (والموصول في) ممن (بقوله : (أجمعين (لا تفاوت في ذلك بين أحد منكم ، وهذا الخصام الذي بين سبحانه أنه كان بين بين الملأ الأعلى كان سببا لهم إلى انكشاف علوم كثيرة منها أن السجود والتحيات." [١]

" صفحة رقم ٤٩٥

ولما كان من المعلوم عندهم إنما لا ساتر له معلوم ، أجرهم على ما يعهدون ، وعبر بعبارة تعم ذلك فقال مستأنفا في جواب من ظن أنه قد يخفي عليه شيء عن الساتر معظما الأمر بإظهار الاسم الأعظم : (لا يخفى على الله) أي المحيط علما وقدرة) منهم شيء) أي من ذواتهم ولا معانيهم سواء ظهروا أو استتروا في هذا اليوم وفي غيره .

ولما كان من العادة المستمرة أن الملك العظيم إذا أرسل جيشه إلى من طال تمردهم عليه وعنادهم له فظفروا بهم وأحضروهم إليه أن يناديهم مناديه وهم وقوف بين يديه قد أخرستهم هيبته وأذلتهم عظمته بلسان قاله أو لسان حاله بما يبكهم به ويوبخهم ويؤسفهم على ما مضى من عصاينهم ويندمهم قال : (لمن الملك اليوم) أي يا من كانوا يعملون أعمال من يظن أنه لا يقدر عليه أحد ، فيجيبون بلسان الحال أو المقال كما قال بعض من قال :

سكت الدهر طويلا عنهم قد أبكاهم دما حين نطق

) لله) أي الذي له جميع صفات الكمال ، ثم دل على ذلك بقوله : (الواحد) أي الذي لا يمكن أن يكون له ثان بشركة ولا قسمة ولا غيرها) القهار) أي الذي يقهر من يشاء متكررا وصفه بذلك دائما أبدا لما ثبت من غناه المطلق بوحدانيته الحقيقة .

ولما أخبر عن إذعان كل نفس بانقطاع الأسباب ، أخبرهم بما يزيد رعبهم ، ويبعث رغبهم ورهبهم ، وهو نتيجة تفدره بالملك قال : (اليوم تجزى) أي تقضى وتكافأ ، بناه للمفعول لأن المرغب المرهب نفس

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٤٠٧

الجزاء ولبيان سهولته عليه سبحانه)كل نفس (لا تترك نفس واحدة لأن العلم قد شملهم والقدرة قد أحاطت بهم وعمتهم ، والحكمة قد منعت من إهمال أحد منه .

ولما كان السياق للملك والقهر يقتضي الجزاء واعتماد الكسب الذي هو محط التكليف بالأمر والنهي ويقتضي النظر في الأسباب ، لأن ذلك شأم الملك ، قال معبرا بالباء والكسب : (بما) أي بسبب ما) كسبت) أي عملت ، وهي تظن أنه يفيدها سواء بسواء بالكيل الذي كالت لها .

ولما كانت السببية مفهمة للعدل ، فإن الزيادة تكون بغير سبب ، قال معللا نافيا مثل ما كانوا يتعاطونه من ظلم بعضهم لبعض في الدنيا : (لا ظلم) أي بوجه من الوجوه) اليوم (ولما كان استيفاء الخلائق بالمجازاة أمرا لا يمكن في العادة ضبطه ، ولا يتأنى حفظه وربطه ، فكيف إذا قصدت المساواة في مثاقيل الدر فما دونها :." (١)

" صفحة رقم ٧٠

كانت البطشة يوم بدر أو غيره فيخسر هنالك من كشف حال الابتلاء عن طغيانه ، وتمرده على ربه وعصيانهن ويجوز أن يكون هذا ظرفا لعائدون .

ولما كان ما له سبحانه من الحلم وطول الإمهال موجبا لأهل البلادة والغلظة الشك في وعيده ، قال مؤكدا) إنا منتقمون) أي ذلك سفة ثابتة لم نزل نفعلها بأعدائنا لنسر أضدادهم في أوليائنا .

ولما كان التقدير : لفقد فتناهم بإرسالك إليهم ليكشف ذلك لمن لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه عما نعلمه في الأزل ، وفيما لا يزال ولم يزل ، من بواطن أمورهم ، فتقوم الحجة على من خالفنا على مقتضى عاداتكم ، عطف عليه محذرا لقريش ومسليا للنبي (صلى الله عليه وسلم) قوله : (ولقد فتنا) أي فعلنا على ما لنا من العظمة فعل الفاتن وهو المختبر الذي يريد أن يعلم حقيقة الشيء بالإملاء والتمكين ثم الإرسال .

ولما كان من المعلوم أن قوم فرعون لم يستغرقوا الزمان ولا كانوا أقرب الناس زمانا إلى قريش ، نزع الجار قبل الظرف لعدم الإلباس أو أنه عظم فتنتهم لما كان لهم من العظمة والمكمنة ، فجعلها لذلك كأنها مستغرقة لجميع الزمان فقال : (قبلهم) أي قبل هؤلاء العرب ليكون ما مضى من خبرهم عبرة لهم وعظة .

ولما كان فرعون من أقوى من جاءه رسول قبلهم بما كان له من الجنود والأموال والمكنة ، وكان الرسول الذي أتاه قد جمع له - (صلى الله عليه وسلم) - الآيات التي اشتملت على التصرف في العناصر الأربعة .

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٩٥/٦

فكان فيها الماء والتراب والنار والهواء ، وكانوا إذا أتتهم الآية قالوا : يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ، فإذا كشف عنهم ذلك عادوا إلى ما كانوا عليه كما أخبر تعالى عن هؤلاء عند مجيء الدخان – إلى غير ذلك أجمعين ، فكانوا أجلى مثل لقوله تعالى في التي قبلها
٧٧ ( ) فأهلكنا أشد منهم بطشا ( ) ٧
[الزخرف : ٨] خصهم بالذكر من بين المفتونين قبل فقال : (قوم فرعون) أي مع فرعون لأن ما كان فتنة لقومه كان فتنة له لأن الكبير أرسخ في الفتنة بما أحاط به من الدنيا ، وسيأتي التصريح به في آخر القصة) وجاءهم) أي المضافين والمضاف إليه في زيادة فتنتهم) رسول كريم) أي يعلمون شرفه نسبا وأخلاقا وأفعالا ، ثم زاد بيان كرمه بما ظهر لله به من العناية بما أيده به من المعجزات .
ولما أخبر بمجيئه إليهم بالرسالة التي لا تكون إلا بالقول ، فسر ما بلغهم منها بقوله : (أن أدوا) أي أوصلوا مع البشر وطيب النفس ، وأبرز ذلك في صيغة الأمر الذي لا يسوغ مخالفته ولما كان بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين تصرفه في قومه حائل كثيف منظلم فرعون وقومه ، أشار إليه بحرف الغاية فقال : (إلي (ونبهه على أنه لا." (١)
" صفحة رقم ٣٤٣
والتذكير لما عنده بكون الاستجابة بإذن الله تعالى ووراء ذلك من المشاكل والمتشابه ما لا يتوقف عليه ما ذكره وحسب عموم المؤمنين الإيمان بجميعه والعمل بمحكمه ، ثم يفتح الله تعالى فهم ذلك على من شرفه به وأعلى درجته ، فيتبين بحسب ما يشرح الله تعالى صدره) يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (ومن تيسر المقصود المتقدم تكرار قصص الأنبياء مع أممهم في عدة سور أي حفظ مها أطلع على ما هو كاف في الاعتبار بهم ، ثم إذا ضم بعضه إلى بعض اجتمع منه ما لم يكن ليحصل محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وصراطا مستقيما ونورا مبينا ، ولما ذكر سبحانه عواقب الأمم في تكذيبهم قال لمشركي العرب : (أكفاركم خير من أولائكم (ومن هذا النمط قول شعيب عليه السلام :
٧٧ ( ) ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعدي ( ) ٧
[هود : ٨٩] ثم قال تعالى : (أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر (إي إنكم تعلقتم بتألفكم وجماعتكم فسأفرق ذلك بهزيمكتم يوم بدر بقتل صناديدكم فما حجتكم بعد هذا ، إنما مساق

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٧٠

القصص في هذه السورة واعتماد التعريف بحال من ذكر في أن كذبوا وعاندوا ، فأعقب تذكيبهم أخذهم وهلاكهم ، ثم تعقب هذا كله بصرف الكلام في مشركي العرب في قوله : (أكفاركم خير من أولائكم (وليس شيء من السور المذكورة فيها قصص على هذا الاستيفاء كالأعراف وهود ، وبظاهرهما ليس في شيء من ذلك تعقيب بذكر مشركي العرب على الصفة الواردة هنا ، فأنبأ ذلك بكمال المقصود من الوعظ والتحريك بذكره وانقضاء هذا الغرض ، وذلك أنهم ذكروا أولا بعرض أحوال الأمم والتعريف بما آل إليه أمرهم ، وكان ذلك في صورة عرض من يريد تأديب طائفة من إليه نظرهم قبل أن يظهر منهم **تمرد** وعناد ، فهو يستلطف في دعائهم ولا يكلمهم تكليم الواجد عليهم ، بل يفهم الإشفاق والاستعطاف وإرادة الخير بهم ثم يذكرهم بذلك ويكرره عليهم المرة بعد المرة وإن تخلل ذلك ما يبين منهم فظاعة التهيديد وشدة الوعيد ، فلا يصحبه تعيين المخاطبة وصرف الكلام بالكلية إليه ، بل يكون ذلك على طريق التعريض والتوبيخ ، ثم لو كان لا يحتقر بما قبله وما بعده من التلطف حتى إذا تكررت الموعظة فلم تقبل ، فهنا محل الغضب وشدة الوعيد ، وعلى هذا وردت السور المذكور فيها حال الأمم كسورة الأعراف وهود والمؤمنين والظلة والصافات ، وما من سورة منها إلا والتي بعدها أشد في التعريف وأمل في الزجر بعد التعريف ، فتأمل تعقيب القصص في سورة الأعراف بقوله تعالى :

٧٧ ( ) وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ( ) ٧

[الأعراف : ١٧٤] وقوله بعد موعظة." [1]

" صفحة رقم ٣٥٤

بها ولا بشيء منها غيره أو يعذبه بشيء مثل عذاب هذه الأمم أو بغير ذلك مما له من إحاطة القدرة والعلم فلا يجد من يرد عنه شيئا منه سبحانه ، وأما الواحد الزائد فهو إشارة إلى أن المدار في ذلك الإدراك هو العقل والحواس كما أن المقصود بذلك كله واحد وهو الله تعالى ، وكل هذه الأشياء أسباب لمعرفته وأيضا فالواحد إشارة إلى أن زيادة الآلاء من فضل الله تعالى لا تنقطع كما أن الواحد الذي هو أصل العدد لا يزال ، فكلما أغنت زيادتها ابتدأ دور ثم ابتدأ دور آخر دائما أبدا ، وللتكرير نكتة أخرى بديعة جدا ، وهي تأكيد التقرير دلالة على اشتداد الغضب المقتضي لأنهى العقوبة كما أن من اشتد غضبه من إنكار شخص لشيء من قتله إذا بينه غاية البيان بأمور متنوعة وهو **يتمرد** ويلد بحضرتهم ، قال له : هل ظهر لك هذا ؟ فيقول ذاك المنكر : نعم ظهر لي ، فلا يريد ذلك إلا غضبا لما تقدم له من عظيم غضبه ولدده فيذكر له

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٤٣/٧

معنى آخر ثم يقول : هل ظهر لك هذا ؟ فيقول : نعم والله لا يعرج على اعترافه ذلك ويذكر له نوعا آخر ، ويقول مثل ذلك وكفاية كل نوع منها لما أريد منه من البيان ، وقال في الكشاف : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين أدكارا واتعاظا وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث عليه والبعث على ذلك كله وأن يقرع لهم العصى مرات ويقعقع لهم السن تارات ، لئلا يغلبهم السهود ويستولي عليهم حكم الغفلة ، وهكذا حكم التكريرات لتكون العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في أوان – انتهى ، ولمثل ما مضى أو قريب منه كرر التهويل بالعذاب ست مرات : أربع منها) فكيف كان عذابي ونذر (وانثان منها) فذوقوا عذابي ونذر (فهما بمنزلة واحدة من الأربع ليرجع الست إلى الخمس الدال عليها) مدكر (إشارة إلى أن الحواس الخمس كما ضربت في الجهات الست لأجل النعم التي هي جلب المصالح ضربت فيها للتذكير بدفع النقم الذي هو درأ المفاسد والتحذير منها ، ومن فوائد تكرر الست الراجعة إلى الخمس كما ضربت في الجهات الست لأجل النعم التي هي جلب المصالح ضربت فيها للتذكير بدفع النقم الي هو درأ المفاسد ولتحذير منها ، ومن فوائد تكرر الست الراجعة إلى الخمس مرتين : مرة لجلب النعم وأخرى لدفع النقم أن الحواس مكررة ظاهرا وباطنا ، فمن ذل لسانه بالقرآن ظاهرا صحت حواسه الظاهرة ونورت له الباطنة ، ومن أبى عذب بسبب الباطنة فتفسد الظاهرة ، واختير للمواعظتين عدد الست مع إرادة جماعة إلى خمسة لأن الست عدد تام وذلك لأن عدد كسورها إذا جمعت سادتها ولم تزد عنها ولم تنقص وهي النصف والثلث والسدس ، وهذا العدد مساو لدعائم الإسلام الخمس وحظيرته الجهاد التي هي." (١)

" صفحة رقم ٦٩

ولما أخبر سبحانه وتعالى عن بديع هذا الخلق ، ونبه على بعض دقائقه وأمر بالإبصار وتكريره ، وكان السامع أول ما يصوب نظره إلى السماء لشرفها وغريب صنعها وبديع وضعها ومنيع رفعها ، فكان بحيث يتوقع الإخبار عن هذه الزينة التي رصعت بها ، قال في جواب من توقعه مؤكدا بالقسم إعلاما بأنه ينبغي أن يبعد العاقل عن إنكار شيء مما ينسب غلى صاحب هذا الخلق من الكمال ، عاطفا على ما تقديره : لقد كفى هذا القدر في الدلالة على عظمة مبدع هذا الصنع وتمام قدرته : (ولقد (واستجلب الشكر بجلب المسار فقال ناظرا إلى مقام العظمة صرفا للعقول عما اقتضاه (الرحمن) من عموم الرحمة تذكيرا بما في الآية الماضية ، وتنبيهاص على ما في الزينة بالنجوم من مزجها بالرجوم الذي هو عذاب (الجن

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٥٤/٧

المتمردين الطاغين) : (زينا (دلالة أخرى تدل على العظمة بعد تلك الدلالة الأولى) السماء الدنيا) أي أدنى السماوات إلى الأرض وهي التي تشهد وأنتم دائما تشاهدونها وهي سقف الدار التي اجتمعتم فيها في هذه الحياة الدنيا) بمصابيح) أي نجوم متقدة عظيمة جدا ، كثرتها تفوت الحصر ، ظاهرة سائرة مضيئة زاهرة .

وهي الكواكب التي تنور الأرض بالليل إنارة السرج التي تزينون بها سقوف دوركم ، فتفيد شعبة من ضوء الصباح ، والتزيين بها لا يمنع أن تكون مركوزة فيها فوقها من السماوات وهي تتراءى لنا بحسب الشفوف بما للاجرام السماوية من الصفاء ، ولتلك المصابيح من شدة الإضاءة .

ولما أخبر – جلت قدرته – بعظيم قدرته فيها منبها على ما فيها من جلب المسار بتلك الأنوار والهداية في الدين والدنيا التي لولا هي لما انتفع أحد في ليل انتفاعا تاما ، أخبر بما فيها مع الزينة من دفع المضار بعبارة عامة وإن كان المراد بالعض الأغلب فإن ما للرجوم منها غير ما للاهتداء والرسوم فقال : (وجعلناها) أي النجوم من حيث هي بعظمتنا مع كونها زينة وأعلاما للهداية) رجوما (جمع رجم وهو مصدر واسم لما يرجم به) للشياطين (الذين يستحقون الطرد والبعد والحرق من الجن لما لهم من الاحتراق ، وذلك بيانا لعظمتنا وحراسة للسماء الدنيا التي هي محل تنزل أمرنا بالقضاء والقدر ، وإنزال هذا الذكر الحكيم لئلا يفسدوا باستراق السمع منها على الناس دينهم الحق ، ويلبسوا عليهم أمرهم بخلط الحق الذي ختمنا به الأديان بالباطل ، فيخرجوهم – لأنهم أعداؤهم – من النور إلى الظلمات كما كانوا في الجاهلية مع ما فيها بما خلق سبحانه في أمزجتها من ترطيب وتجفيف وحر وبرد واعتدال ينشأ عنه الفصول الأربعة وقهرها به من شروق وغروب وحركة وسكون يعرف بها ما إليه المآل ، مما أخبرت به الرسل من الزوال ، مع ما يدل من الليل والنهار والعشي والإبكار وأشياء يكل عنها الصوف في ذواتها وعن إحصاء منافعها حتى لو عدم شيء مما في السماوات مما دبره الحكيم." (١)

" صفحة رقم ٧٨

قدر على الإمطار والإنبات وغيرهما من التصرفات في الأرض فهو يقدر على غيره) بكم الأرض (كما خسف بقارون وغيره .

ولما كان الذي يخسف به من الأرض يصير كالساقط في الهواء وكان الساقط في الهواء يصير يضطرب ، سبب عن ذلك قوله : (فإذا هي) أي الأرض التي أنتم بها) تمور) أي تضرب وهي تهوي بكم وتجري

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٩/٨

هابطة في الهواء وتتكفأ إلى حيث شاء سبحانه ، قال في القاموس : المور الاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرك .

ولما كانوا ربما استبعدوا السخفة ، وكانوا يعهدون ما ينزل من السماء من الندى والأمطار والصواعق ، عادل بذلك قوله : (أم أمنتم) أي أيها المكذبون ، وكرر لهم ذكر ما يخشونه زيادة في الترهيب فقال : (من في السماء (على التقديرين) أن يرسل عليكم) أي من السماء) حاصبا) أي حجارة يحصبكم - أي يرميكم - بها مع ريح عاصف بقوتها كما وقع لقوم لوط وأصحاب الفيل .

ولما كان هذا الكلام إنذارا عظيما ووعظا بليغا شديدا ، وكان حالهم عنده مترددا بين إقبال وإدبار ، سبب عنه على تقدير إدبارهم بتماديهم بما للإنسان من النقصان قوله متوعدا بما يقطع القلوب ، ولفت القول إلى مقام التكلم إيذانا بتشديد الغضب : (فستعملون) أي عن قريب بوعد لا خلف فيه في الدنيا ثم في الآخرة .

ولما كان العلم بكيفية الشيء أعظم من العلم بمطلق ذلك الشيء لأنه يلزم من العلم بها العلم بمطلق ذلك الشيء ، وكان ما هو بحيث يسأل عنه لا يكون إلا عظيما قال : (كيف نذير) أي إنذاري البليغ إذا شاهدتم العذاب وهو بحيث لا يستطاع ، ولا تتعلق الأطماع بكشف له ولا دفاع ، وحذف الياء منه ومن (نكير) إشارة إلى أنه وإن كان خارجا عن الطرق ليس منتهى مقدوره بل لديه مزيد ، لا غاية له بوجه ولا تحديد .

ولما كان من المعلوم أن المأمور بإبلاغهم وإنذارهم هذا الإنذار (صلى الله عليه وسلم) في غاية الرحمة لهم والشفقة عليهم فهو بحيث يشق عليه غاية الشمقة ما أفهمه هذا الكلام من إهلاكهم أن يصدقوا ، ويحب التأني بهم ، لفت سبحانه الخطاب إليه عاطفا على ما تقديره : فلقد طال إمهالنا لهم وحلمنا عنهم وتعريفنا لهم بعظيم قدرتنا وهم لا يرجعون وكثر وعظنا لهم وتصريفنا القول بينهم على ألسنة رسلنا عليهم الصلاة والسلام وهم يتمادون ولا ينتهون ، قوله مصورا لهم ما توعدهم به في أمر محسوس لأن الأمور المشاهدات أروع للإنسان لما له من التقيد بالوهم مؤكدا للإشارة إلى أن التكذيب مع إقامة البراهين أمر يجب إنكاره فلا يكاد يصدق : (ولقد كذب (وطغى وبغى وأعرض وتجبر **وتمرد** وولى بوجهه وقلبه) الذين (.." [1]

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٧٨/٨

"صفحة رقم ١٦٢

سورة نوح

مقصودها الدلالة على تمام القدرة على ما أنذر به آخر " سأل " من إهلاك المنذرين وتبديل خير منهم ، ومن القدرة على إيجاد يوم القيامة الذي طال إنذارهم به وهم عنه معرضون وبه مكذبون وبه لا هون ، وتسميتها بنوح عليه السلام أدل ما فيها على ذلك ، فإن أمره في إهلاك قومه بسبب تكذيبهم له في قصته في هذه السورة مقرر ومسطور) بسم الله (الذي له الكمال كله من الجلال والإكرام) الرحمن (الذي عم بما أفاضه من ظاهر الإنعام) الرحيم (الذي خص أولياءه بلزوم الطاعة في الابتداء وإتمام النعمة في الختام .

نوح : (١ - ٤) إنا أرسلنا نوحا. .. . .

) إنآ أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يقوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جآء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (( )

ولما ختمت (سأل) بالإنذار للكفار ، وكانوا عباد أوثان ، بعذاب الدنيا والآخرة ، أتبعها أعظم عذاب كان في الدنيا في تكذيب الرسل بقصة نوح عليه السلام ، وكان قومه عباد أوثان ، وكانوا يستهزئون به وكانوا أشد **تمردا** من قريش وأجلف وأقوى وأكثر ، فلم ينفعهم شيء من ذلك عند نزول البلاء وبورك النقمة عليهم وإتيان العذاب إليهم ، فلم ينفعهم شيء من ذلك عند نزول البلاء وبروك النقمة عليهم وإتيان العذاب إليهم ، وابتدأها بالإنذار تخويفا منعواقب التكذيب به ، فقال مؤكدا لأجل إنكاهرم أن يكون الرسول بشرا أو لتنزيلهم منزلة المنكرين من حيث أقروا برسالته وطعنوا في رسالة غيره مع المساواة في البشرية : (إنا) أي بما لنا من العظمة الباهرة البالغة) أرسلنا نوحا (وهو أول رسول أتى بعد اختلاف أولاد آدم عليه السلام في دين أبيهم الأقوم) إلى قومه) أي الذين كانوا في غاية لاقوة على القيام بما يحاولونه وهم بصدد أن." (١)

" صفحة رقم ٦١٦

ولما ذكر صفة المستعاذ منه ، ذكر إبرازه لصفته بالفعل فقال : (الذي يوسوس) أي يلقي المعاني الضارة على وجه الخفاء والتكرير بحيث تصل مفاهيمها من غير سماع ، وأشار إلى كثرة وسوسته بذكر الصدر

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ١٦٢/٨

الذي هو ساحة القلب ومسكنه فقال : (في صدور الناس) أي المضطربين إذا غفلوا عن ذكر ربهم ، فإنها دهاليز القلوب منها تدخل الواردات إليها ، وذلك كالقوة الوهمية فإن العقل يساعد في المقدمات الحقة المنتجة للأمر المقطوع به ، فإذا وصل الأمر إلى ذلك خنست الواهمة ريثما يفتر العقل عن النتيجة فترة ما ، فتأخذ الواهمة في الوسوسة وتقبل منها الطبيعة بما لها بها من مجانسة الظلمة الوهمية ، والناس – قال في القاموس : يكون من الإنس ومن الجن ، جميع إنس أصله أناس جمع عزيز أدخل عليه أل – انتهى ، ولعل إطلاقه على هذين المتقابلين بالنظرإلى النوس الذي أصله الاضطراب والتذبذب فيكون منحوتا من الأصلين : الانس والنوس ، ومن ثالث وهو النسيان .

ولما كان الذي يعلم الإنسان الشرة تارة من الجن وأخرى من الإنس ، قال مبينا للوسواس تحذيرا من شياطين الإنس كالتحذير من شياطين الجن ، مقدما الأهم الأضر ، ويجوز أن يكون بيانا ل (الناس) ولا تعسف فيه لما علم من نقل القاموس : (من الجنة) أي الجن الذين في غاية الشر **والتمرد** والخفاء) والناس) أي أهل الاضطراب والذبذبة سواء كانوا من الإنس أو الجن ، فيكون المعنى أن الجن مسلط بعضهم على بعض كما هم مسلطون على الإنس أو الجن ، فيكون المعنى أن الجن مسلط بعضهم على بعض كما هم مسلطون على الإنس ، فيدخل شيطان الجن في الجني كما يدخل في الإنسي ويوسوس له – قاله الغوي عن الكلبي ، وقال : ذكر عن بعض العرب أنه قال : جاء قوم من الجن فوقفوا فقيل : من أنتم ؟ قالوا : أناس من الجن ، قال : وهذا معنى قول الفراء .

وقد ختمت السورة بما بدئت به ، والمعنى الثاني أوفق برد آخرها على أولها فإنه يكون شرحا للناس الذين أضيفت لهم الصفات العلى ، والخواطر الواردة على الإنسان قد تكون وسوسة ، وقد تكون إلهاما ، والإلهام تارة يكون من الله بلا واسطة ، وتارة يكون بواسطة الملك ، ويكون كل منها في القلب ، والوسوسة تارة من الشيطان ، وأخرى من النفس ، وكلاهما يكون في الصدر ، فإن كان الإنسان مراقبا دفع عن نفسه الضار ، وإلا هجمت الواردات عليه وتمكنت منه ويتميز خير الخواطر من شرها بقانون الشرع على أن الأمر مشكل ، فإن الشيطان يجتهد في التلبيس ، فإن وافق الشرع فلينظر ، فإن كان فعله ذلك الحين أولى من غير تفويت لفضيلة أخرى هي أولى منه بادر إليه وإن كان الخاطر دنيويا وأدى الفكر إلى أنه نافع من غير مخالفة للشرع زاد على شدة تأمله." (١)

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٦١٦

"كان يعرفانه ، ويعرفان ما عنده من العداوة والحسد ، فيستحيل في العادة أن يقبلا قوله ، فلا بد وأن يكون المباشر للوسوسة بعض أتباع إبليس.

وقد يجاب عن هذا بأن إبليس لما خالف أمر ربه ولعن لعله انتقل من تلك الصورة التي يعرف بها إلى صورة أخرى ، ولعل إبليس تشكل لهما في صورة لا يعرفانها ، فإن له قدرة التشكل ، والله أعلم.

فصل في بيان أن آدم عصى ربه ناسيا اختلفوا في صدور ذلك الفعل عن آدم – عليه الصلاة والسلام – بعد النبوة ، هل فعله ناسيا أو ذاكرا ؟ قال طائفة من المتكلمين : فعله ناسيا ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿فنسي ولم نجد له عزما﴾ [طه : ١١٥] ومثلوه بالصائم إذا أكل ناسيا ، وهذا باطل من وجهين : الأول : قوله تعالى : ﴿ما نهاكما ربكما عن هاذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ [الأعراف : ٢٠].

وقوله : ﴿وقاسمهمآ إني لكما لمن الناصحين﴾ [الأعراف : ٢١] يدل على أنه ما نسي النهي حال الإقدام.

الثاني : أنه لو كان ناسيا لما عوتب على ذلك الفعل.

أما من حيث العقل فلأن الناسي غير قادر على الفعل فلا يكون مكلفا به لقوله تعالى : ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعه﴾ [البقرة : ٢٨٦].

وأما من حيث النقل فلقوله عليه الصلاة والسلام : " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ".

وقد يجاب عن الأول بأنا لا نسلم أن آدم وحواء – عليهما الصلاة والسلام – قبلا من إبليس ذلك الكلام وصدقاه ؛ لأنهما لو صدقاه لكانت معصيتهما في ذلك التصديق أعظم من أكل الشجرة ؛ لأن إبليس لما قال لهما : ﴿ما نهاكما ربكما عن هاذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ [الأعراف : ٢٠] الآية فقد ألقى إليهما سوء الظن بالله – تعالى – ودعاهما إلى ترك التسليم لأمره ، والرضا بحكمه ، وان يعتقدوا فيه كون إبليس ناصحا لهما ، وأن الرب – تعالى – قد غضهما ولا شك أن هذه الأشياء أعظم من أكل الشجرة ، فوجب أن تكون المعاتبة في ذلك أشد ، وأيضا آدم – عليه الصلاة والسلام – كان عالما **بتمرد** " إبليس " ، وكونه مبغضا له وحاسدا له ، فكيف يجوز من العاقل أن يقبل قول عدوه مع هذه القرائن ، وليس في الآية أنهما أقدما على ذلك الفعل عند ذلك الكلام.

وأما الجواب الثاني : فهو أن العتاب إنما حصل على قلة التحفظ من سباب النسيان ، وهذا الضرب من السهو موضوع عن المسلمين ، وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به ، وليس بموضوع عن الأنبياء لعظم خطرهم ومثلوه بقوله : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النسآء﴾ [الأحزاب : ٣٢] ، ثم قال : ﴿من يأت منكن

بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ [الأحزاب : ٣٠].

وقال عليه الصلاة والسلام : " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل " ، ولقد كان على النبي صلى الله عليه وسلم من التشديدات في التكليف ما لم يكن على غيره.

وذكر بعض المفسرين أن حواء سقته الخمر ، فسكر وزفي أثناء السكر فعل ذلك قالوا وهذا ليس ببعيد ؛ عليه الصلاة والسلام – كان مأذونا له في تناول كل الأشياء سوى تلك الشجرة ، فكان مأذونا له في تناول الخمر ، ولقائل أن يقول : إن خمر الجنة لا يسكر لقوله تعالى في صفة خمر الجنة : ﴿لا فيها غول﴾ [الصافات : ٤٧].

القول الثاني : أن آدم – عليه الصلاة والسلام – فعله عامدا ؛ فها هنا قولان : أحدهما : أن ذلك النهي نهي تنزيه ، لا نهي تحريم ، وقد تقدم.

الثاني : أنه تعمد وأقدم على الكل بسبب اجتهاد أخطأ فيه ، وذلك لا يقتضي كون الذنب كبيرة ، وهذا اختيار أكثر المعتزلة.

وبيان خطأ الاجتهاد أنه لما قيل له : ﴿ولا تقربا هاذه الشجرة﴾ [الأعراف : ١٩] فلفظ " هذه " يشار به إلى الشخص ، وقد يشار به إلى النوع ، كما روي أنه – عليه الصلاة والسلام – اخذ حريرا وذهبا بيده وقال : " هذان حلال لإناث أمتي حرام على ذكرها " وأراد به توعهما ، وتوضأ مرة وقال : " هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به " وأراد نوعه ، فلما سمع آدم – عليه الصلاة والسلام – قوله : " ولا تقربا هذه الشجرة " ظن أن النهي إنما يتناول تلك الشجرة المعينة ، فتركها وتناول من شجرة أخرى من ذلك النوع ، فكان مخطئا في ذلك الاجتهاد ؛ لأن مراد الله – تعالى – النهي عن النوع لا عن الشخص.

والاجتهاد في الفروع إذا كان خطأ لا يوجب استحقاق العقاب لاحتمال كونه صغيرة مغفورة كما في شرعنا.

فغن قيل : الكلام على هذا القول من وجوه : أحدها : أن كلمة " هذا " في أصل اللغة للإشارة إلى الشيء الحاضر ، وهو لا يكون إلا شيئا معينا ، فإن أشير بها إلى النوع ، فذاك على خلاف الأصل ، وأيضا فأنه – تعالى – لا تجوز الإشارة عليه ، فوجب ان يكون أمر بعض الملائكة بالإشارة إلى ذلك الشخص ، فكان ما عداه." (١)

"نعتا لـ " قردة " قاله أبو البقاء.

وفيه نظر من حيث إن القردة غير عقلاء ، وهذا جمع العقلاء.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٥٢

فإن قيل : المخاطبون عقلاء ؟ فالجواب : أن ذلك لا يفيد ؛ لأن التقدير عندكم حينئذ : كونوا مثل قدرة من صفتهم الخسوء ، ولا تعلق للمخاطبين بذلك ، إلا أنه يمكن أن يقال : إنهم مشبهون بالعقلاء كقوله : ﴿لي ساجدين﴾ [يوسف : ٤] و ﴿أتينا طآئعين﴾ [فصلت : ١١].

والثالث : أن يكون حالا من اسم " كونوا " ، والعامل فيه " كونوا " ، وهذا عند من يجيز لـ " كان " أن تعمل في الظروف [والأحوال] وفيه خلاف سيأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى عند قوله : ﴿أكان للناس عجبا﴾ [يونس : ٢].

الرابع : وهو الأجود أن يكون حالا من الضمير المستكن في " قردة " ؛ لأنه في معنى المشتق أي : كونوا ممسوخين في هذه الحال.

وجمع " فعل " على " فعلة " قليل لا ينقاس.

ومادة " القرد " تدل على اللصوق والسكون ، تقول : قرد بمكان كذا : لصق به وسكن ، ومنه : الصوف " القرد " أي : المتداخل ، ومنه أيضا : " القراد " هذا الحيوان المعروف ويقال : " خسأته فخسا ، فالمتعدي والقاصر سواء نحو : زاد وغاض وقيل : خسأته فخسيء وانسخا ، والمصدر " الخسوء " و " الخسء ".

وقال الكسائي : " خسأت الرجل خسأ ، وخسأ هو خسوءا " ، ففرق بين المصدرين.

والخسوء : الذلة والصغار والطرد والبعد ، ومنه : خسأت الكلب قال مجاهد وقتادة والربيع : وهي لغة " كنانة ".

وقال أبو روق : يعني خرسا لقوله تعالى : ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون : ١٠٨] والمراد من هذا الأمر سرعة التكوين لا نفس الأمر.

روي عن مجاهد رضي الله عنه أن الله ـ تعالى ـ مسخ قلوبهم يعني : بالطبع والختم ، إلا أنه مسخ صورهم لقوله ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ [الجمعة : ٥] وهذا مجاز ظاهر [مشهور].

فصل في المقصود من ذكر هذه القصة والمقصود من ذكر هذه القصة أمران : الأول : إظهار معجزة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه كالخطاب لليهود الذي كانوا في زمانه ، أخبرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن هذه الواقعة مع أنه كان أميا لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يخالط القوم ـ دل على أنه إنما عرفه بالوحي.

والثاني : أنه ـ تعالى ـ لما أخبرهم بما عاجل به أصحاب السبت ، فكأنه يقول لهم : لا تتمردوا و لاتغتروا بالإمهالن فينزل بكم ما نزل بهم ، ونظيره قوله تعالى ﴿يا أيهآ الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما

معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارهآ﴾ [النساء : ٤٧] الآية.

فإن قيل : إنهم بعد أن صاروا قدرة لا يبقى لهم فهم ، ولا عقل ، ولا علم ، فلا يعلمون ما نزل بهم من العذاب ، ووجود القردية غير مؤلم.

فالجواب : لم لا يجوز أن يقال : إن الذي كان إنسانا عاقلا فاهما كان ثابتا لم يتغير ، وإنما تغيرت الصورة فلم يقدر على النطق والأفعال الإنسانية ، لكنها كانت تعرف ما نالها من تغير الخلقة بسبب المعصية ، فكانت في نهاية الخوف والخجل ، وربما كانت متألمة بسبب تغير تلك الأعضاء ؟ .

فإن قيل : أولئك القردة بقوا أو هلكوا ، فإن قوا فالقردة الموجودون في زماننا هل يجوز أن يكونوا من نسلهم أم لا ؟ فالجواب : الكل جائز ، إلا أن الرواية عن ابن عباس أنهم مكثوا ثلاثة أيام ، ثم هلكوا ولم يأكلوا ولم يشربوا ، ولم ينسلوا.

قال ابن عطية : وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال " إن الممسوخ لا ينسل ، ولا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام " قاله القرطبي.

وهذا هو الصحيح.

واحتج ابن العربي وغيره علي أن الممسوخ يعيش ، وينسل ، لقوله عليه الصلاة واللام : " إن امة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه وإذا وضع لها ألبان الشاة تشربها ".

ويقول جابر رضي الله عنه : أتي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بضب فأبى أن يأكل منه وقال : " لا أدرى لعله من القرون التي مسخت ".

وروى البخاري عن عمر بن ميمن أنه قال : " رأيت في الجاهلية قدرة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم ".

قال ابن العربيك فإن قيل : كيف تعرف البهائم الشرائع حتى ورثوها خلفا عن خلف إلى زمان عمر ؟ قلنا : نعم! كان ذلك ؛ لأن اليهود غيروا الرجم ، فأراد الله أن يقيمه في مسوخهم حتى يكون أبلغ في قيام الحجة على ما أنكروا وغيروه ، حتى تشهد عليم كتبهم ، وأخبارهم ، ومسوخهم ، حتى يعلموا أن اللہ يعلم ما يسرون وما يعلنون.

قال القرطبي : ولا حجة في شيء من ذلك ، أما حديث الفأر والضب فكان هذا حدسا منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يوحى إليه أن الممسوخ لا يعيش ولا ينسل.

وأما حديث القدرة ففي بعض الروايات لم يذكروا فيها أنها زنت إنما ذكر الرجم فقط ، وإنما أخرجه البخاري دلالة على أن." (١)

"قال القرطبي : هذا استفهما فيه معنى الإنكار ، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود.

ويقال : طمع فيه طمعا وطماعية ـ مخفف ـ فهو طمع على وزن " فعل " وأطمعه فيه غيره.

ويقال في التعجب : طمع الرجل ـ بضم الميم ـ أي : صار كثير الطمع.

والطمع : رزق الجند ، يقال : أمر لهم الأمير بأطماعهم ، أي : بأرزاقهم.

وامرأة مطماع : تطمع ولا تمكن.

فصل في قبائح اليهود لما ذكر قبائح أفعال أسلاف اليهود شرع قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد عليه الصلاة والسلام.

قال القفال رحمه الله : إن فيما ذكره الله ـ تعالى ـ في [سورة البقرة] من أقاصيص بني إسرائيل وجوها من المقاصد.

أحدها : الدلالة بها على صحة نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه أخبر عنها غير تعلم ، وذلك لا يكون إلا بالوحي ، ويشترك في الانتفاع بهذه الدلالة أهل الكتاب والعرب.

أما أهل الكتاب فكانوا يعلمونها ، فلما سمعوها من محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من غير تفاوت ، علموا لا محالة أنه ما أخذها إلا من الوحي.

وأما العرب فلما [شاهدوا] من أن أهل الكتاب يصدقون محمدا في هذه الأخبار ، فلم يكونوا يسمعون هذه الأخبار إلا من علماء أهل الكتاب ، فيكون ميلهم إلى الطاعة أقرب.

وثانيها : تعديد النعم على بني إسرائيل ، وما من الله به على أسلافهم من أنواع النعم ، كالإنجاء من آل فرعون بعد استبعادهم ، وتصيير أبنائهم أنبياء وملوكا ، وتمكينهم في الأرض ، وفرق البحر لهم ، وأهلاك عدوهم ، وإنزال التوراة والصفح عن الذنوب التي ارتكبوها من عبادة العجل ، ونقض المواثيق ، ومسألة النظر إلى الله جهرة ، ثم ما أخرجه لهم في التيه من الماء من الحجر ، وإنزال المن والسلوى وتظليل الغمام من حر الشمس ، فذكرهم بهذه النعم كلها.

وثالثها : إخبار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقديم كفرهم وخلافهم ، وتعنتهم على الأنبياء ، وعنادهم ، وبلوغهم في ذلك ما لم يبلغه أحد من الأمم قبلهم ، وذلك لأنهم بعد مشاهدتهم الآيات الباهرة عبدوا العجل

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٢٣٠

بعد مفارقة موسى بمدة يسيرة ، ولما أمروا بدخول الباب سجدا وأن يقولوا حطة ، ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم ، ويزيد في ثواب محسنهم ، فبدلوا القول وفسقوا ، وسألوا الفوم البصل بدل المن والسلوى ، وامتنعوا من قبول التوراة بعد إيمانهم بموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأخذ منهم المواثيق أن يؤمنوا به حين رفع فوقهم الجبل ، ثم استحلوا الصيد في السبت واعتدوا ، ثم أمروا بذبح البقرة ، فشافهوا موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقولهم : " أتتخذنا هزوا ".

ثم لما شاهدوا إحياء الموتى ازدادوا قسوى ، فكأن الله ـ تعالى ـ يقول : إذا كانت هذه أفعالهم مع نبيهم الذي أعزهم الله به ، فغير بديع ما يعامل به أخلافهم محمدا عليه الصلاة والسلام ، فليهن عليكم أيها النبي والمؤمنون ما ترونه من عنادهم ، وإعراضهم عن الحق.

ورابعها : تحذير أهل الكتاب الموجودين في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نزول العذاب علهيم كما نزل بأسلافهم في تلك الوقائع المعدودة.

وخامسها : الاحتجاج على من أنكر الإعادة من مشركي العرب مع إقراره بالابتداء كما في قوله : ﴿كذلك يحيي الله الموتى ﴾ [البقرة : ٧٣].

فصل في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم اعلم أن المراد تسلية رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما يظهر من أهل الكتاب في زمانه من قلة القبول فقال : " أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ".

قال الحسن : هو خطاب مع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنين.

قال القاضي : وهذا الأليق بالظاهر ، وإن كان الأصل في الدعاء ، فقد كان من الصحابة من يدعوهم إلى الإيمان ، ويظهر لهم الدلائل.

قال ابن عباس : إنه خطاب مع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ خاصة ؛ لأنه هو الداعي ، وهو المقصود بالاستجابة.

واللفظة وإن كانت للعموم لكن حملناها على هذا الخصوص لهذن [القرينة].

روي أنه حين دخل " المدينة " ودعا اليهود إلى كتاب الله ، وكذبوه ، فأنزل الله ـ تعالى ـ وسبب هذه الاستعباد ما ذكرناه أي : أتطمعون أن يؤمنوا مع أنهم ما آمنوا بموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي كان هو السبب في خلاصهم من الذل ، وفضلهم على الكل بظهور المعجزات المتوالية على يده ، مع ظهور أنواع العذاب على **المتمردين** ، فأي استبعاد في عدم إيمان هؤلاء.

فصل في إعراب الآية قوله : " أن يؤمنوا لكم " ناصب ومنصوب ، وعلامة النصب حذف النون والأصل

في " أن " وموضعه، نصب أو جر على ما عرف ، وعدي " يؤمنوا " باللام لتضمنه معنى أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم قاله الزمخشري.

فإن قيل : ما معنى الإضافة في قوله : " يؤمنوا لكم " والإيمان إنما هو لله ؟ فالجواب : أن الإيمان ـ وإن كان الله ـ فهم الداعون إليه كما قال تعالى : ﴿فآمن له لوط﴾." (١)

"يكون سببا للعداوة ؛ لأن إنما فعل ذلك بأمر الله ، فلا ينبغي أن يكون سببا للعداوة ، وتقرير هذا من وجوه : أولها : أن الذينزل جبريل من] القرآن ﴿الذي نزل به فيه] بشارة المطيعين بالثواب ، وإنذار العصاة بالعقاب ، والأمر بالمحاربة والمقاتلة لم يكن ذلك باختياره ، بل بأم رالله تعالى الذي يعترفون أنه لا محيص عن أمره ، ولا سبيل إلى مخالفته فعداوة من هذا سبيله توجب عداوة الله ـ تعالى ـ وعداوة الله ـ تعالى ـ كفر ، فيلزم أن معاداة من هذا سبيله كفر.

ثانيها : أن الله تعالى لو أمر ميكائيل بإنزال مثل هذا الكتاب ، فإما أن يقال : إنه كان **[يتمرد** أو يأبى] عن قبول أمر الله ، وذلك غير لائق بالملائكة المعصومين ، أو كان يقبله وينزل به على وفق أمر الله ، فحئنئذ يتوجه على ميكائيل ما ذكروه على جبريل ـ عليهما السلام ـ فما الوجه في تخصيص جبريل بالعداوة ؟ وثالثها : أن إنزا ال ال ،لقرآن على محمد ـ عليه السلام ـ كما شق على اليهود ، فإنزال التوراة على موسى ـ عليه السلام شق على قوم آخرين ، فإن اقتضت نفرة هؤلاء لإنزال القرآن قبحه فلتقتض نفرة أولئك المتقدمين قبح إنزال التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ قبحه ، ومعلوم أن كل ذلك باطل ، فثبت بهذه الوجوه فساد ما قالوه.

فإن قيل : إنا نرى اليهود في زماننا مطبقين على إنكار ذلك مصرين على أن احدا من سلفهم لم يقل بذلك.

فالجواب : أن هذا باطل ، لأن كلام الله أصدق ، ولأن جهلهم كان شديدا ، وهم الذين قالوا : ﴿اجعل لنآ إلاها كما لهم آلهة﴾ [الأعراف : ١٣٨].

قوله تعالى : " من كان عدوا لجبريل فإنه﴾ " من " شرطية في محل رفع بالابتداء ، و "كان " خبره على ما هو الصحيح كما تقدم ، وجوابه محذوف تقديره : من كان عدوا لجبريل فلا وجه لعداوته ، أو فليمت غيظا ونحوه.

ولا جائز أن يكون " فإنه نزله " جوابا للشرط لوجهين : أحدهما : من جهة المعنى.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٢٤٩

والثاني : من جهة الصناعة.

أما الأول : فلأن فعل التنزيل متحقق المضي ؛ والجزاء لا يكون إلا مستقبلا.

ولقاتل أن يقول : هذا محمول على التبين ، والمعنى : فقد تبين أنه نزله ، كما قالوا في قوله : ﴿وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت﴾ [يوسف : ٢٧] ونحوه.

وأما الثاني : فلأنه لا بد من جملة الجزاء من ضمير يعود على اسم الشرط فلا يجوز : من يقم فزيد منطلق ، ولا ضمير شفي قوله : " فإنه نزله " يعود على " من " فلا يكون جوابا للشرط ، وقد جاءت ماضع كثيرة من ذلك ، ولكنهم أولوها على حذف العائدن فمن ذلك قوله : [الوافر] ٦٧٧. فمن تكن الحضارة أعجبته

فأي رجال بادية ترانا

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

وقوله : [الطويل] ٦٧٨. فمن يكِ أمسى بالمدينة رحله

فإني وقيار بها لغريب

." (١)

"أي : فلقد كان.

وقال الكوفيون : الأصل : وما كانت تتلو الشياطين ، ولا يريدون بذلك أن صلة " ما " محذوفة ، وهي " كانت " و " تتلو " في موضع الخبر ، وإنما قصدوا تفسير المعنى ، وهو نظير : "كان زيد يقوم " المعنى على الإخبار ، وبقيامه في الزمن الماضي ، وقرأ الحسن والضحاك " الشياطون " إجراء له مجرى جمع السلامة ، قالوا : وهو غلط.

وقال بعضهم : لحن فاحش.

وحكى الأصمعي " بستان فلان حوله بساتون " وهو يقوي قراءة الحسن.

قوله تعالى : ﴿على ملك سليمان﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه على معنى " في " ، أي : في زمن ملكه ، والملك هنا شرعه.

والثاني : أن يضمن تتلوا معنى تتقول أي : تقول على ملك سليمانن وتقول يتعدى بعلى ، قال تعالى : ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ [الحاقة : ٤٤].

وهذا الثاني أولى ، فإن التجوز في الأفعال أولى من التجوز في الحروف ، وهو مذهب البصريين . كما

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣١٠

تقدم . وإنما أحوج إلى هذين التأويلين ؛ لأن تلا إذا تعدى بـ " على "كان المجرور بـ " على " شيئا يصح أن يتلى عليه نحو : تلوت على زيد القرآن ، والملك ليس كذلك.

قال أبو مسلم : " تتلو " أي : تكذب على ملك سليمان يقال : تلا عليه : إذا كذب وتلا عنه إذا صدق. وإذا أبهم جاز الأمران.

قال ابن الخطيب : أي يكون الذي كانوا يخبرون به عن سليمان مما يتلى ويقرأ فيجتمع فيه كل الأوصاف ، والتلاوة : الاتباع أو القراءة وهو قريب منه.

قال أبو العباس المقرىء : و " على " ترد على ثلاثة أوجه : الأول : بمعنى " في "كهذه الآية.

وبمعنى " اللام " ، قال تعالى ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن﴾ [الأنعام : ١٥٤] أي : للذي.

وبمعنى " " من " ، قال تعالى : ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ [المطففين : ٢] أي : من الناس يستوفون.

و " سليمان " علم أعجمي ، فلذلك لم ينصرف.

وقال أبو البقاء رحمه الله تعالى : " وفيه ثلاثة أسباب : العجمة والتعريف والألف والنون " ، وهذا إنما يثبت بعد دخول الاشتقاق فيه ، والتصريف حتى تعرف زيادتها ، وقد تقدم أنهما لا يدخلان في الأسماء الأعجمية ، وكرر قوله : " وما كفر سليمان " بذكره ظاهرا ؛ تفخيما له ، وتعظيما ؛ كقوله : [الخفيف]

٦٩٣. لا أرى الموت يسبق الموت شيء

....

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

وقد تقدم تحقيق ذلك.

فصل في المراد بقوله تعالى : واتبعوا " المراد بقوله : " واتبعوا " هم اليهود.

فقيل : هم الذين كانوا في زمن محمد عليه الصلاة والسلام.

وقيل : هم الذين كانوا في زمن سليمان صلى الله عليه وسلم من السحرة ؛ لأن أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان . عليه الصلاة والسلام . ويعدونه من جملة الملوك في الدنيا ، وهؤلاء ربما اعتقدوا فيه أنه إنما وجد الملك العظيم بسبب السحر.

وقيل : إنه يتناول الكل وهو أولى.

قال السدي : لما جاءهم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها ، فاتفقت التوراة والفرقان ، فنبذوا التوراة ، وأخذوا بكتاب " آصف " وسحر " هاروت وماروت " فلم يوافق القرآن ، فهذا هو قوله تعالى : ﴿ولمآ جآءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله ورآء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ أخبر عنهم بأنهم كتب السحر.

واختلفوا في المراد من الشياطين.

فقال المتكلمون من المعتزلة : هم شياطين الإنس ، وهم **المتمردون** في الضلال ؛ كقول جرير : [البسيط]

٩٤٦ـ أيام يدعونني الشيطان من غزلي

وكن يهوينني إذ كنت شيطانا." [١]

"من سدر أخضر ويدقه بين حجرين ، ثم يضربه بالماء ، ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل به ، فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذ حبس عن أهله.

فصل في أن الساحر هل يتقل أم لا ؟ هل يجب قتل الساحر أم لا.

أما النوعان الأولان فلا شك في [قتل] معتقدهما.

قال ابن الخطيب : يكون كالمرتد يستتاب فإن أصر قتل.

وروي عن مالك وأبي حنيفة ـ رضي الله عنهما ـ توبته.

لنا أنه إن أسلم فيقبل إسلامه لقوله عليه الصلاة والسلام : " نحن نحكم بالظاهر ".

وأما النوع الثالث : فإن اعتقد أن إتيانه به مباح كفر ؛ لأن حكم على المحظور بكونه مباحا ، وإن اعتقد حرمته ، فعند الشافعي ـ رضي الله عه ـ حكمه حكم الجناية ، إن قال : إني سحرته وسحري يقتل غالبا ، يجب عليه القود.

وإن قال : سحرته وسحري قد يقتل وقد لا يقتل ، فهو شبه عمد.

وإن قال : سحرت غيره فوافق اسمه فهو خطأ يجب عليه الدية مخففة في ماله ؛ لأنه ثبت بإقراره إلا أن تصدقه العاقلة ، فجينئذ يجب عليهم.

هذا تفصيل مذهب الشافعي رضي الله عنه.

وروى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه قال يقتل الساحر إذا علم أنه ساحر ، ولا يستتاب

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣١٨

ولا يقبل قوله : إني أترك السحر وأتوب منه ، فإذا أقر أنه ساحر فقد حل دمه ، وإن شهد شاهدان على أنه ساحر أو وصفوه بصفة يعلم أنه ساحر قتل ولا يستتاب ، وإن أقر بأني كنت أسحر مرة ، وقد تركت ذلك منذ زمان قبل منه ، ولم يقتل.

وحكى محمد بن شجاع عن علي الرازي قال : سألت أبا يوسف عن قول أبي حنيفة فى الساحر : يقتل ولا يستتاب لم يكن ذلك بمنزلة المرتد ، فقال الساحر جمع مع كفره السعي فى الأرض بالفساد ، ومن كان كذلك إذا قتل قتل.

واحتج أصحاب الشافعي بأنه لما ثبت أن هذا النوع ليس بكفر ، فـهو فسق ، فإن لم يكن جناية على حق الغير كان فيه التفضيل المتقدم.

وأيضا فإن ساحر اليهود لا يقتل ؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سحره رجل من اليهود يقال له : لبيد من أعصم ، وامرأة من يهود " خيبر " يقال لها : زينب فلم يقتلهما ، فوجب أن يكون المؤمن كذلك لقوله عليه الصلاة والسلام : " لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ".

واحتج أبو حنيفة بما روى نافع عن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ أن جارية لحفصة سرحتها ، وأخذوها فاعترفت بذلك فأمرت عبدالرحمن بن زيد ، فقلتها فبلغ ذلك عثمان ، فأنكره فأتاه ابن عمر وأخبره أمرها فكأن عثمان إنما أنكر ذلك ، لأنها قتلت بغير إذن ، وبما روى عمرو بن دينار أن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال : " اقتلوا كل ساحر وساحرة فقتلنا ثلاث سواحر ".

والجواب : لعل السحرة الذين قتلوا كانوا من الكفرة ، فإن حكاية الحال تكفي في صدقها صورة واحدة ، وأما بقية [أنواع] السحر من الشعوذة ، والآلات العجيبة المبينةن على النسب الهندسية ، وأنواع التخويف ، والتقريع والوهم ، فكل ذلك ليس بكفر ، ولا يوجب القتل.

قوله : " وما أنزل " فيه أربعة أقوال : أظهرها : أن " ما " موصولة بمعنى " الذي " محلها النصب عطفا على " السحر " ، والتقدير : يعلمون الناس السحر ، واتلنزل على الملكين.

الثاني : أنها موصولة أيضا ، ومحلها النصب لكن عطفا على " ما تتلو الشياطين " ، والتقدير : واتبعوا ما تتلو الشياطين ، وما أنزل على الملكين.

وعلى هذا فما بينهما اعتراض ، ولا حاجة إلى القول بأن في الكلام تقديما وتأخيرا.

الثالث : أن " ما " حرف نفي ، والجملة معطوفة على الجملة المفنية قبلها ، وهي " وما كفر سليمان " والمعنى : وما أنزل على الملكين إباحة السحر.

قال القرطبي : و " ما " نافية ، والواو للعطف على قولہ : [" وما كفر سليمان " ، وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل ، وميكائيل بالسحر ، فنفى الله ذلك.

وفي الكلام تقديم وتأخير والتقدير : وما كفر سليمان] ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله : " ولكن الشياطين كفروا " قال : وهذا أولى ولا يلتفت إلى سواه ، فالسحر استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء ، وخاصة فى حالة طمثهن ؛ قال الله تعالى : ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ [الفلق : ٤].

فإن قيل : كيف يكون اثنان بدلا من الجميع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه ؟ فالجواب من وجوه ثلاثة : الاول : أن الاثنين قد يطلق عليهما اسم الجمع ؛ كما قال تعالى : ﴿فإن كان له إخوة﴾ [النساء : ١١].

الثاني : أنهما لما كانا الرأس في التعليم نص عليهما دون اتباعهما كقوله تعالى : ﴿عليها تسعة عشر﴾ [المدثر : ٣٠].

الثالث : إما خصا بالذكر من بينهم لتمردهما ، كتخصيصه . تعالى . النخل [والرمان] فى قوله : ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ [الرحمن ؛ ٦٨] فقد ينص على بعض أشخاص العموم إما لشرفه ؛ كقوله تعالى :." (١)

"﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهاذا النبي﴾ [آل عمران : ٦٨] وإما لطيبه كقوله : ﴿فاكهة ونخل ورمان﴾ وإما لأكثريته ؛ كقوله صلى الله عليه سلم : " جعلت لي الأرض مسجدا وترابها طهورا " وإما لتمردهم كهذه الآية.

الرابع : أن محلها الجر عطفا على " ملك سليمان " ، والتقدير : افتراء على ملك سليمان وافتراء على ما أنزل على الملكين ، وهو اختيار أبي مسلم.

وقال أبو البقاء : " تقديره " وعلى عهد الذي أنزل.

واحتج أبو مسلم : بأن السحر لو كان نازلا عليهما لكان منزله هو الله تعالى ، وذلك غير جائز ، كما لا يجوز في الأنبياء أن يبعثوا السحر ، كذلك في الملائكة بطريق الأولى.

وأيضا فإن تعليم السحر كفر بقوله تعالى : ﴿ولاكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٢٣

وأيضا فإنما يض ا ف السحر إلى الكفرة والمردة ، فكيف يضاف إلى الله ـ تعالى ـ ما ينهى عنه ؟ والمعنى : أن الشياطين نسبوا السحر إلى ملك سليمان مع أن ملك سليمان كان مبرأ عنه ، فكذلك نسبوا ما أنزل على الملكين إلى السحر ، مع أن المنزل عليهما كانا مبرأين عن السحر ؛ لأن المنزل عليهما هو الشرع والدين ، وكانا يعلمان الناس ذلك مع قولهما : ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ توكيدا لبعثهم على [قبوله] والتمسك به ، فكانت طائفة تتمسك ، وأخرى تخالف.

قال ابن الخطيب رحمه الله تعالى : والأول أولى ؛ لأن عطف " وما أنزل " على ما يليه أولى من عطفه على مابعد عنه إلا لدليل ، أما قوله : " لو كان منزلا عليهما لكان منزله هو الله تعالى ".

قلنا : تعريف صفة الشيء قد يكون لأجل الترغيب فى إدخاله في الوجود ، وقد يكون لأجل أن يقع الاحتراز عنه ؛ قال : [الهزج] ٦٩٨. عرفت الشر لا للـشرر

لكن لتوقيه

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

وقوله : لا يجوز بعثة الأنبياء [لتعليم السحر ، فكذا الملائكة].

قلنا : الغرض من ذلك التعليم التنبيه على إبطاله.

وقوله : " تعليم السحر كفر ".

قلنا : إنه واقعة حال فيكفي في صدقها سورة واحدة.

وقوله : يضاف السحر للكفرة والمردة.

قلنا : فرق بين العمل والتعليم ، فيجوز أن يكون العمل منبها عنه ، والتعليم لغرض التنبيه على فساده فلا يكون مأمورا به.

والجمهور على فتح لام " الملكين " على أنهما من الملائكة.

وقرأ ابن عباس وأبو الأسود والحسن والضحاك بكسرها على أنهما رجلان من الناس ، وسيأتي تقريره.

قوله : " ببابل " متعلق بـ " أنزل " ، والباء بمعنى " في " أي : في " بابلط.

ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال من الملكين ، أو من الضمير في " أنزل " فيتعلق بمحذوف. ذكر هذين الوجهين أبو البقاء رحمه الله.

و " بابل " لا ينصرف للعجمة والعلمية ، فإنها اسم أرض ، وإن شئت للتأنيث والعلمية وسميت بذلك قيل : لتبلبل السنة الخلائق بها ، وذلك أن الله ـ تعالى ـ أمر ريحا ، فحشرتهم بهذه الأرض ، فلم يدر أحد

ما يقول الآخر ، ثم فرقتهم الريح في البلاد فتكلم كل واحد بلغة ، والبلبلة التفرقة.
وقيل : لما أهبط نوح - عليه الصلاة والسلام - نزل فبنى قرية ، وسماها " ثمانين " ، فأصبح ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة.
وقيل : لتبلبل ألسنة الخلق عند سقوط صرح نمرود.
وهي بابل " العراق ".
وقال ابن مسعود : " بابل " أرض " الكوفة ".
وقيل : " جبل نهاوند ".
قوله : " هاروت وماروت " الجمهور على فتح تائها.
واختلف النحاة في إعرابها ، وذلك مبني على القراءتين في " الملكين " ، فمن فتح لام " الملكين " ، وهم الجمهور كان في هاروت وماروت أربعة أوجه : أظهرها : أنها بدل من " الملكين " ، وجرا بالفتحة لأنهما ينصرفان للعجمة والعلمية.
الثاني : أنهما عطف بيان لهما.
الثالث : أنهما بدل من " الناس " في قوله تعالى : يعلمون الناس السحر " وهو بدل بعض من كل ، أو لأن أقل الجمع اثنان.
الرابعك أنهما بدل من " الشياطين " في قوله : " ولكن الشياطين كفروا " في قراءة من نصب ، وتتوجيه البدل كما تقدم.
وقيل : هاروت وماروت اسمان لقبيلتين من الجن ، فيكون بدل كل من كل ، والفتحة على هذين القولين اللنصب.
وأما من قرأ برفع " الشياطين " ، فلا يكون " هاروت وماروت " بدلا منهم ، بل يكون منصوبا في هذا القول على الذم أي : أذم هاروت وماروت من بين الشياطين كلها ؛ كقوله : [الطويل] ٦٩٩. أقارع عوشف لا أحاول غيرها
وجوه قرود تبتغي من تجادع
جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣
." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٢٤

"ذكروا في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوها : أحدها : أنه ـ تعالى ـ لما حكم بجواز النسخ في الشرائع ، فلعلهم كانوا يطالبونه بتفاصيل ذلك الحكم ، فمنعهم الله ـ تعالى ـ عنها ، وبين أنهم ليس لهم أن يشتغلوا بهذه الأسئلة الفاسدة [كسؤالات قوم موسى عليه الصلاة ولسلام].

وثانيها : لما تقدم من الاوامر والنواهي قال لهم : إن لم تقبلوا ما أمرتكم به **وتمردتم** عن الطاعة كنتم كمن سأل موسى عليه السلام ما ليس له أن يسأله.

عن أبي مسلم.

وثالثها : لما أمر ونهى قال : أتفعلون ما أمرتم أم تفعلون كما فعل من قبلكم من قوم موسى ؟ و " أم " هذه يجوز أن تكون متصلة معادلة [لقوله تعال : " ألم تعلم " وهي مفرقة لما جمعته أي : كما أن " أو " مفرقة لما جمعته تقول : اضرب أيهم شئت زيدا أم عمرا ، فإذا قلت : أضرب أحدهم.

قلت : اضرب زيدا أو عمرا.

أو تكون منقطعة ، فتقدم بـ " بل " والهمز ، ولا تـكون إلا بعد كلام تام كقوله : نما الإبل أم شاء ؛ كأنه قال : بل هي شاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه﴾ [هود : ٣٥] أي : يقولون.

قال الأخطل : [الكامل] ٧٣٠.كذبتك عينك أم رأيت بواسط

غلس الظلام من الرباب خيالا

ويكون إضرابا للالتفات من قصة إلى قصة].

٣٨٦

قال أبو البقاء : أم هنا منقطعة ، إذ ليس في الكلام همزة تقع موقعها ومع أم أيهما ، والهمزة من قوله : " ألم تعلم " ليست من " أم " في شيء ، والمعنى : بل أتريدون فخرج من كلام إلى كلام.

وأصل تريدون : " ترودون " ؛ لأنه من راد يرود ، وقد تقدم ، فنقلت حركة " الواو " على " الراء " ، فسكنت " الواو " بعد كسرة فقلبت ياء.

وقيل : " أم " للاستفهام ، وهذه الجملة منقطعة عما قبلها.

وقيل : هي بمعنى " بل " وحدجها ، وهذان قولان ضعيفان.

قوله تعالى : " أن تسألوا " نصب ومنصوب في محل نصب مفعولا به بقوله : " تريدون " أي : أتريدون سؤال رسولكم.

قوله : "كما سئل " متعلق بـ " تسألوا " و " الكاف " في محل نصب ، وفيها التقديران المشهوران :

فتقدير سيبويه ورحمه الله تعالى أنها حال من ضمير المصدر المحذوف.

أي : إن تسألوه أي : السؤال حال كونه مشبها بسؤال قوم موسى له ، وتقيدر جمهور النجاة : أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : إن تسألوا رسولكم سؤالا مشبها كذا.

و " ما " مصدرية ، أي : كسؤال موسى.

[وأجاز الحوفي كونهنا بمعنى الذي فلا بد من تقدير عائد أي كالسؤال الذي سأله موسى] و " موسى " مفعول لم يسم فاعله ، حذف الفاعل للعم به ، أي كما سأل قوم موسى.

والمشهور : " سئل " بضم السين وكسر الهمزة ، وقرأ الحسنك " سيل " بكسر السين وياء بعدها من : سال يسال نحوك خفت أخاف ، وهل هذه الألف في " سال " أصلها الهمز أو لا ؟ تقدم خلاف فيه ، وسيأتي تحقيقه في " سأل " وقرىء بتسهيل الهمزة بين بين و " من قبل " متعلق بـ " سئل " ، و " قبل " مبينة على الضم ؛ لأن المضاف إليه معرفة أي : من قبل سؤالكم ، وهذا توكيد ، وإلا فمعلوم أن سؤال موسى كان متقدما على سؤالهم.

قوله : " بالإيمان " فيه وجهان : أحدهما : أنها ياء العوضية ، وقد تقدم تحقيق ذلك.

والثاني : أنها للسببية.

قال أبو البقاء : يجوز أن يكون مفعولا يتبدل ، وتكون الباء للسبب ، كقولك : اشتريت الثوب بدرهم ، وفي مصاله هذا نظر.

٣٨٧

وقوله تعالى : ﴿فقد ضل سوآء السبيل﴾ قرىء بإدغام الدال في الضاد وإظهارها.

و " سواء " قال أبو البقاء : سواء السبيل ضرف بمعنى وسط السبيل وأعدله ، وهذا صحيح فإن " سواء " جاء بمعنى وسط.

قال تعالى : ﴿في سوآء الجحيم﴾ [الصافات : ٥٥].

وقال عيسى بن عمر : ما زلت أكتب حتى انقطع سوائي ؛ وقال حسان : [الكامل] ٧٣١. يا ويح أصحاب النبي ورهطه

بعد المغيب في سواء الملحد

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٨٦

ومن مجيئه بمعنى العدل قول زهير : [الوافر] ٧٣٢. أرنا خطة لا عيب فيها

يسوي بيننا فيها السواء

." (١)

"الأول : أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاتهن وكل ممكن لذاته محدث ، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود ، والمخلوق لا يكون ولدا [لأن المخلوق محدث مسبوق بالعدم ، ووجوده إنما حصل يخلق الله . تعالى . وإيجاده وإبداعه ، فثبت أن ما سواه فهو عبده ، وملكه ، فيستحيل أن يكون كل شيء مما سواه ولدا له ، كل هذا مستفاد من قوله : " بل له ما في السموات والأرض " أي : له كل ماسواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع].

والثاني : أن هذا الذي أضيف إليه بأنه ولده ، إما أن يكون قديما أزليا أو محدثا ، فإن كان أزليا لم يكن حكمنا بجعل أحدها ولدا والآخر والدا أولى من العكس ، فيكون ذلك الحكم حكما مجردا من غير دليل ، وإن كان الولد حادثا كان مخلوقا لذلك القديم وعبدا له فلا يكون ولدا له.

والثالث : أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد ، فلو فرضنا له ولدا لكان مشاركا له من بعض الوجوه ، وممتازا عنه من وجه آخر ، وذلك يقتضي كون كل واحد منهما مركبا ومحدثا وذلك محال ، فإذن المجانسة ممتنعة ، فالولدية ممتنعة.

الرابع : أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ، ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه ، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر [يحكى أن علي بن أبي طالب . رضي الله عنه . قال لبعض النصارى : لولا تمرد عيسى عن عبادة الله عز وجل لصرت على دينه فقال النصراني : كيف يجوز أن ينسب ذلك إلى عيسى . عليه الصلاة والسلام . مع جده في طاعة الله تعالى ؟ فقال علي رضي الله عنه : فإن كان عيسى إلها فكيف يعبد غيره ، إنما العبد هو الذي تليق به العبادة ، فانقطع النصراني].

قوله تعالى : " بديع السموات " المشهور رفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو بديع.

وقرىء بالجر على أنه بدل من الضمير في " له " [وفيه الخلاف المشهور] وقرىء بالنصب على المدح.

٤٢٢

و " بديع السموات " من باب الصفة المشبهة أضيفت إلى منصوبها الذي كان فاعلا في الأصل ، والأصل بديع سماواته ، أي بدعت لمجيئها على شكل فائق حسن غريب ، ثم شبهت هذه الصفة باسم الفاعل ، فنصبت ما كان فاعلا ، ثم أضيفت إليه تخفيفا ، وهكذا كل ما جاء نظائره ، فالإضافة لا بد وأن تكون من

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٤٦

نصب ؛ لئلا يلزم إضافته الصفة إلى فاعلها ، وهو لا يجوز في اسم الفاعل الذي هو الأصل.
وقال الزمخشري رحمه الله : و " بديع السموات " من باب إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها.
ورده أبو حيان بما تقدم ، ثم أجاب عنه بأنه يحتمل أن يريد إلى فاعلها في الأصل قبل أن يشبه.
وأجاز الزمخشري فيه وجها ثانيا : وهو أن يكون " بديع " بمعنى مبدع ؛ كما أن سميعا في قول عمرو بمعنى مسمع ؛ نحو : [الوافر] ٧٥٣. أمن ريحانة الداعي السميع
يؤرقني وأصحابي هجوع
جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤١٨
إلا أنه قال : " فيه نظر " ، وهذا الوجه لم يذكر أبن عطية غيره ، وكأن النظر الذى ذكره الزمخشري . والله أعلم . هو أن " فعيلا " بمعنى " مفعل " غير مقبس ، وبيت عمرو رضي الله عنه متأول ، وعلى هذا القول يكون بديع السموات من باب إضافة اسم الفاعل لمصوبة تقديرا.
والمبدع : المخترع المنشيء ، والبديع : الشيء الغريب الفائق غيره حسنا.
قوله تعالى : ﴿وإذا قضى أمرا﴾ العامل في " إذا " محذوف يدل عليه الجواب من قوله : " فإنما يقول " ، والتقدير : إذا قضى أمرا يكون ، فيكون هو الناصب له.
و " قضى " له معان كثيرة.
قال الأزهري رحمه الله تعالى : " قضى " على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه ؛ قال أبو ذؤيب : [الكامل] ٧٥٤. وعليهما مسرودتان قضاهما
داود أو صنع السوابغ تبع
٤٢٣
وقال الشماخ : [الطويل] ٧٥٥. قضيت أمورا ثم غادرت بعدها
بوائق في أكمامها لم تفتق
فيكون بمعنى " خلق " نحو : ﴿فقضاهن سبع سماوات﴾ [فصلت : ١٢] وبمعنى أعلم : ﴿وقضينآ إلى بني إسرائيل﴾ [الإسراء : ٤].
وبمعنى أمر : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا اا إلا إياه﴾ [الإسراء : ٢٣].
وبمعنى ألزم : ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ [القصص : ٢٩].
وبمعنى ألزم : قضى القاضي بكذا.

وبمعنى أراد : " إذا قضى أمرا ".
وبمعنى أنهى ، ويجيء بمعنى قدر وأمضى ، تقول : قضى يقضي قضاء ؛ قال : [الطويل] ٧٥٦.
سأغسل عني العار بالسيف جالبا
علي قضاء الله ما كان جالبا
." (١)

"الرفث فيه حسا ، وخبر الله تعالى لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره ، وإنما يرجع النفي إلى وجوده مشروعا لا إلى وجوده محسوسا ؛ كقوله تعالى : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قرواء﴾ [البقرة : ٢٢٨] أي : مشروعا لا حسا ، فإن نجد المطلقات لا يتربصن ؛ فعاد النفي إلى الحكم الشرعي لا إلى الوجود الحسي ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة : ٧٩] إذا قلنا : إنه وارد فى الآدميين ؛ وهو الصحيح ، فإن معناه لا يمسه أحد منهم شرعا ، فإن وجد المس ، فعلى خلاف حكم الشرع ، وهذه الدقيقة فاتت العلماء فقالوا : إن الخبر يكون بمعنى النهي ، وما وجد ذلك قط ، ولا يصح أن يوجد ؛ فإنهما مختلفان حقيقة ، ومتضادان وصفا.

فصل قال ابن الخطيب – رحمه الله تعالى – فإن قيل أليس أن مع هذه الأشياء يصير الحج فاسدا ويجب على صاحبه المضي فيه ، وإذا كان الحج باقيا معها ، لم يصدق الخبر لأن هذه الأشياء لا توجد مع الحجة ؟ قلنا المراد من الآية الكريمة حصول المضادة بين هذه الأشياء ، وبين الحجة المأمور بها ابتداء ، وتلك الحجة الصحيحة لا تبقى مع هذه الأشياء ؛ بدليل أنه يجب قضاؤها ، والحجة الفاسدة التي يجب عليه المضي فيها شيء آخر سوى تلك الحجة المأمور بها ابتداء ، وأما الجدال الحاصل بسبب الشك في وجوب الحج ، فظاهره أنه لا يبقى معه عمل الحج ؛ لأن ذلك كفر وعمل الحج مشروط بالإسلام ، فثبت أنا إذا حملنا اللفظ على الخبر ، وجب حمل الرفث والفسوق والجدال على ما ذكرنا ، وأما إذا حملناه على النهي ، وهو في الحقيقة عدول عن الظاهر ، فقد يصح أن يراد بالرفث الجماع ومقدماته ، وقول الفحش ، وأن يراد بالفسق جميع أنواعه ، وبالجدال جميع أنواعه ؛ ، لأن اللفظ مطلق ومتناول لكل هذه الأقسام ، فيكون النهي عنها نهيا عن جميع أقسامها.

فإن قيل : ما الحكمة في أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة : وهي الرفث ، والفسوق ، والجدال في الحج ، من غير زيادة ولا نقص ؟ فالجواب : لأنه ثبت في العلوم العقلية أن للإنسان أربع قوى : قوة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٦٣

شهوانية بهيمية ، وقوة غضبية سبعية ، وقوة وهمية شيطانية ، وقوة عقلية ملكية ، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاث ، أعني : الشهوانية والغضبية والوهمية.

فقوله : " فلا رفث " إشارة إلى قهر الشهوانية.

وقوله : " ولا فسوق " إشارة إلى قهر القوة الغضبية التي تـوجب المعصية **والتمرد**.

٤٠٤

". (١)

"" أو " المقتضية لأحد الشيئين ، فلا.

وقال الأخفش : الضمير عائد إلى الأخير كقوله : ﴿ومن يكسب خطى ئة أو إثما ثم يرم به بريئا﴾ [النساء : ١١٢] وقيل : يعود إلى " ما " في قوله : " وما أنفقتم " لأنها اسم كقوله : ﴿ومآ أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ [البقرة : ٢٣١] ، ولا حاجة إلى هذا أيضا ؛ لما عرفت من حكم " أو ".

قوله : ﴿فإن الله يعلمه﴾ أفاد : الوعد العظيم للمطيعين ، والوعيد الشديد **للمتمردين** ، لأنه يعلم ما في قلب المتصدق من الإخلاص فيتقبل منه تلك الطاعة ؛ كما قال : ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة : ٢٧] ، وقوله : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨].

قوله : ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ اعلم أن الظالم قسمان : الأول : من ظلم نفسه وهو يشتمل على كل المعاصي.

الثاني : من ظلم غيره بأن لا ينفق أو لا يصرف الإنفاق عن المستحق إلى غ يره ، أو ينفق على المستحق رياء وسمعة ، أو يفسدها بالمعاصي وهذان القسمان الأخيران ليسا من باب الظلم على الغير ، بل من باب الظلم على النفس.

فصل في دحض شبهة للمعتزلة في إنكار الشفاعة تمسك المعتزلة بهذه الآية ، في نفي الشفاعة عن أهل الكبائر ، قالوا : لأن ناصر الإنسان من يدفع الضرر عنه ، فلو اندفعت العقوبة عنهم بالشفاعة ، لكان أولئك الشفعاء أنصارا لهم ، وذلك يضاد الآية.

وأجيبوا بوجوه : الأول : أن الشفيع لا يسمى في العرف ناصرا ، بدليل قوله : ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ [البقرة : ١٢٣] ففرق تعالى بين الشفيع ، والناصر ؛ فلا يلزم من نفي الناصر نفي الشفيع.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٦١٩

الثاني : أن الشفيع إنما يشفع عن المشفوع عنده على سبيل استعطافه ، والناصر ينصره عليه ، والفرق ظاهر.

وأجاب آخرون : بأنه ليس لمجموع الظالمين من أنصار.

فإن قيل : لفظ " الظالمين " ، ولفظ " الأنصار " جمع ، والجمع إذا قوبل بالجمع ، توزع الفرد على الفرد ، فكان المعنى : ليس لأحد من الظالمين ، أحد من الأنصار.

قلنا لا نسلم أن مقابلة الجمع بالجمع توجب توزع الفرد على الفرد ؛ لاحتمال أن يكون المراد مقابلة الجمع بالجمع فقط لا مقابلة الفرد بالفرد.

الوجه الثالث : أن هذا الدليل للشفاعة عام في حق الكل في الأشخاص ،

٤٢٢

والأوقات ، ودليل إثبات الشفاعة خاص في بعض الأوقات ، والخاص مقدم على العام.

الوجه الرابع : ما بينا أن اللفظ العام لا يكون قاطعا في الاستغراق ؛ بل ظاهر على سبيل الظن القوي ، فصار الدليل ظنيا ، والمسألة ليست ظنية ، فسقط التمسك بها.

و " الأنصار " جمع نصير ؛كأشراف ، وشريف ، وأحباب ، وحبيب.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٢٠

قوله : ﴿إن تبدوا الصدقات﴾ أي تظهرونها ﴿فنعما هي﴾.

الفاء جواب الشرط ، و " نعمط فعل ماض للمدح ، نقيض بئس ، وحكمها في عدم التصرف ، والفاعل ، واللغات حكم بئس ،كما تقدم.

و " ما " في محل الرفع.

و " هي " في محل النصب ،كما تقول : نعم الرجل رجلا ، فإذا عرفت ، رفعت فقلت : نعم الرجل زيد.

قال الزجاج : " ما " في تأويل الشيء ، أي : نعم الشيء هو.

قال أبو علي : الجيد في تمثيل هذا أن يقال : " ما " في تأويل شيء ؛ لأن " ما " ها هنا نكرة فتمثيله بالنكرة أبين ، والدليل على أن " ما " ها هنا نكرة أنها لو كانت معرفة ، فلا بد لها من صلة ، وليس ها هنا ما يوصل به ؛ لأن الموجود بعد " ما " هو " هي " وكلمة " هي " مفردة ، والمفرد لا يكون صلة لـ " ما " وإذا بطل هذا ، فنقول " ما " نصب على التمييز ، والتقدير : نعم شيئا هي إبداء الصدقات ، فحذف المضاف ؛ لدلالة الكلام عليه.

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، هنا وفي النساء : " فنعما " بفتح النون ، وكسر العين ، وهذه على الأصل ؛ لأن الأصل على " فعلط كعلم ، وقرى ابن كثير ، وورش ، وحفص : بكسر النون والعين ، وإنما كسر النون إتباعا لكسرة العين ، وهي لغة هذيل.

قيل : وتحتمل قراءة كسر العين أن يكون أصل العين السكون ، فلما وقعت بعدها " ما " وأدغم ميم " نعم " فيها ، كسرت العين ؛ لالتقاء الساكنين ، وهو محتمل.

وقرأ أبو عمرو ، وقالون ، وأبو بكر : بكسر النون ، وإخفاء حركة العين.

٤٢٣

." (١)

"والرؤية – هنا – فيها رأيان : أحدهما : أنها البصرية ، ويؤيد ذلك تأكيده بالمصدر المؤكد ، وهو قوله : " رأي العين ".

قال الزمخشري : " رؤية ظاهرة مكشوفة ، لا لبس فيها " ؛ لأن الإدراك عند المعتزلة واجب الحصول عند اجتماع الشرائط ، وسلامة الحاسة ، ولهذا اعتذر القاضي عن هذا الموضع [بوجوه] : أحدها : أن عند الاشتغال بالمحاربة لا يتفرغ الإنسان لأن يدير حدقته حول العسكر ، وينظر إليهم على سبيل التأمل وثانيها : أنه قد يحصل من الغبار ما يمنع من إدراك البعض.

وثالثها : يجوز أن يقال : إن الله تعالى خلق في الهواء ما منع من إدراك ثلث العسكر ، [فعلى هذا] ، يتعدى لواحد ، ومثليهم نصب على الحال.

الثاني : أنها من رؤية القلب ، فعلى هذا يكون " مثليهم " مفعولا ثانيا ، وقد رده أبو البقاء فقال : ولا يجوز أن تكون الرؤية من رؤية القلب – على كل الأقوال – لوجهين : أحدهما : قوله : " رأي العين ".

الثاني : أن رؤية القلب علم ، ومحال أن يعلم الشيء شيئين.

وأجيب عن [الوجه] الأول بأن انتصابه انتصاب المصدر التشبيهي ، أي : رأيا مثل رأي العين ، أي : يشبه رأي العين ، فليس إياه على التحقيق ، وعن الثاني بأن الرؤية هنا يراد بها الاعتقاد ، فلا يلزم المحال المذكور ، وإذا كانوا قد أطلقوا العلم – في اللغة – على الاعتقاد – دون اليقين – فلأن يطلقوا عليه الرأي أولى وأحرى.

ومن إطلاق العلم على الاعتقاد قوله تعالى : ﴿فإن علمتموهن مؤمنات﴾ [الممتحنة : ١٠] ؛ إذ لا سبيل

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٩٠٠

إلى العلم اليقيني في ذلك ؛ إذ لا يعلم ذلك إلا الله تعالى ، فالمعنى : فإن اعتقدتموهن ، والاعتقاد قد يكون صحيحا ، وقد يكون فاسدا ، ويدل على هذا التأويل قراءة من قرأ " ترونهم " - بالتاء والياء مبنيا للمفعول - ؛ لأن قولهم : أرى كذا - بضم الهمزة - يكون فيما عند المتكلم فيه شك وتخمين ، لا يقين وعلم ، فلما كان اعتقاد التضعيف في جمع الكفار ، أو في جمع المؤمنين تضمينا وظنا ؛ لا يقينا دخل الكلام ضرب من الشك ، وأيضا - كما يستحيل حمل الرؤية هنا على العلم - يستحيل أيضا حملها على رؤية البصر بعين ما ذكرتم من المحال ، وذلك كما أنه لا يقع العلم غير مطابق للمعلوم ، كذلك لا يقع النظر البصري غير مطابق لذلك الشيء المبصر المنظور إليه ، فكان المراد التخمين والظن ، لا اليقين والعلم ، كذا قيل ، وفيه نظر ؛ لأنا لا نسلم

٦٦

أن البصر لا يخالف المبصر ؛ لجواز أن يحصل خلل في البصر ، وسوء في النظر ، فيتخيل الباصر الشيئ شيئين فأكثر ، وبالعكس.

احتج من قال : إن الرائي هو المشركون بوجوه : الأول : أن تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه بالمعفول ، فجعل أقرب المذكورين السابقين فاعلا وأبعدهما مفعولا أولى من العكس ، وأقرب المذكورين هو قوله : ﴿كافرة يرونهم﴾.

الثاني : مقدم الآية - وهو قوله ﴿قد كان لكم آية﴾ خطاب مع الكفار ، فقراءة نافع - بالتاء - تكون خطابا مع أولئك الكفار ، والمعنى : ترون يا مشركي قريش المسلمين مثليهم ، فهذه القراءة لا تساعد غلا على كون الرائي مشركا.

الثالث : أن الله تعالى جعل هذه الحالة آية للكفار حتى تكون حجة عليهم ، ولو كانت هذه الحالة حاصلة للمؤمن لم يصح جعلها حجة على الكافر.

واحتج من قال : الراءون هم المسلمون بأن الرائين لو كانوا هم المشركين لزم رؤية ما ليس بموجود وهو محال - ولو كان الراءون هم المؤمنين لزم أن لا يرى ما هو موجود ، وهذا ليس بمحال فكان أولى ، قال ابن مسعود : نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علنيا رجلا واحدا ، ثم قللهم الله - أيضا - في أعينهم حتى رأوا عددا يسيرا أقل من أنفسهم ، قال ابن مسعود : " حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم ، فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفا ".

فصل وجه النظم أنه – تعالى – لما أنزل الآية المتقدمة في اليهود ، وهي قوله : ﴿ستغلبون وتحشرون﴾ ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، أظهروا **التمرد** ، وقالوا : لسنا أمثال قريش في الضعف ، وقلة المعرفة بالقتال ، بل معنا من الشوكة والمعرفة بالقتال ما نغلب به كل من ينازعنا ، فقال تعالى : إنكم – وإن كنتم [أغنياء] ، أقوياء ، أرباب قدرة وعدة فإنكم – ستغلبون ، ثم ذكر – تعالى – ما يجري مجرى الدلالة على صحة ذلك ، فقال : ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا﴾ يعني واقعة بدر ؛ فإن الكثرة والعدة كانت للكفار ، والقلة وعدم السلاح من جانب المسلمين ، ثم إن الله تعالى قهر الكفار ، ونصر المسلمين ، وهذا يدل على أن النصر بتأييد الله ونصره.

٦٧

". (١)

"صلى الله عليه وسلم بمنى – فقال : أي الجهاد أفضل ؟ فقال عليه السلام : " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ".

قال ابن جريج : كان الوحي يأتي إلى أنبياء بني إسرائيل – ولم يكن يأتيهم كتاب – فيذكرون قومهم فيقتلون ، فيقوم رجال ممن تبعهم وصدقهم ، فيذكرون قومهم ، فيقتلون – أيضا – فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس.

قوله : ﴿أولـائك الذين حبطت﴾ قرأ ابن عباس وأبو عبد الرحمن " حبطت " بفتح الباء – وهي لغة معروفة ، أي : بطلت في الدنيا – بإبدال المدح بالذم ، والثناء باللعن ، وقتلهم ، وسبيهم وأخذ أموالهم ، واسترقاقهم ، وغير ذلك من أنواع الذل – وفي الآخرة – بإزالة الثواب ، وحصول العقاب – ﴿وما لهم من ناصرين﴾ يدفعون عنهم.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١١٢

لما نبه على عنادهم بقوله : ﴿فإن حآجوك﴾ [آل عمران : ٢٠] بين في هذه الآية غاية عنادهم ، واعلم أن ظاهر الآية يتناول الكل ؛ لأنه ذكره في معرض الذم ، إلا أنه قد دل دليل آخر على أنه ليس كل أهل الكتاب كذلك ، لقوله تعالى : ﴿من أهل الكتاب أمة قآئمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ [آل عمران : ١١٣] والمراد بالكتاب غير القرآن ؛ لأنه أضاف الكتاب إلى الكفار ، وهم اليهود والنصارى.

فصل في سبب النزول وجوه : أحدها : روى ابن عباس : أن رجلا وامرأة – من اليهود – زنيا وكانا ذوى

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٩٩١

شرف ، وكان في كتابهم الرجم ، فكرهوا رجمهما ؛ لشرفهما ، فرجعوا في أمرهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم ، فحكم الرسول – عليه السلام – بالرجم ، فأنكروا ذلك ، فقال – عليه السلام – " بيني وبينكم التوراة ؛ فإن فيها الرجم ، فمن أعلمكم " ؟ قالوا : رجل أعور يسكن فدك ، يقال له : ابن صوريا ، فأرسلوا إليه فقدم المدينة ، وكان جبريل قد وصفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنت ابن صوريا " ؟ قال : نعم ، قال :

١١٦

" أنت أعلم اليهود " ؟ قال : كذلك يزعمون ، قال : " فأحضروا التوراة " ، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها ، فقال ابن سلام : قد جاوز موضعها يا رسول الله ، وقام فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بهما فرجما ، فغضبت اليهود لذلك غضبا شديدا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وثانيها : روى سعيد بن جبير وعكرمة – عن ابن عباس – قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من اليهود ، فدعاهم إلى الله – عز وجل – فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن يزيد : على أي دين أنت يا محمد ؟ فقال : على ملة إبراهيم ، قالا : إن إبراهيم كان يهوديا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فهلموا إلى التوراة ؛ فهي بيننا وبينكم حكم فأتيا عليه " ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وثالثها : أن علامة بعثة محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة ، والدلائل على صحة نبوته موجودة فيها فلما دادلوه في النبوة والبعثة دعاهم إلى التحاكم إلى كتابهم ، فأبوا ، فأنزل الله – تعالى – هذه الآية ، ولذلك قال : ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ [آل عمران : ٩٣] وهذه الآية تدل على أن دلائل صحة نبوته موجودة في التوراة ؛ إذ لو علموا أنه ليس في التوراة ما يدل على صحة نبوته لسارعوا إليه ، ولما ستروا ذلك.

رابعها : أن هذا الحكم عام في اليهود والنصارى ؛ فإن دلائل صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت موجودة في التوراة والإنجيل.

وقوله : ﴿نصيبا من الكتاب﴾ أي : من علم الكتاب ؛ لأنا لو أجريناه على ظاهره ، فهم قد أوتوا كل الكتاب ، والمراد بذلك العلماء منهم ، وهم الذين يدعون إلى الكتاب ؛ لأن من لا علم له بذلك لا يدعى إليه.

قوله : " يدعون " في محل نصب على الحال من ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾.

قوله : " إلى كتاب الله " قال أكثر المفسرين : هو التوراة ؛ لوجوه : أحدها : ما ذكرنا في سبب النزول.
ثانيها : أن الآية سيقت للتعجب من تمردهم وإعراضهم ، والتعجب إنما يحصل إذا تمردوا على حكم الكتاب الذي يعتقدون صحته.
ثالثها : أن هذا هو المناسب لما قبل الآية ؛ لأنه لما بين أنه ليس عليه إلا البلاغ وصبره على معاندتهم – مع ظهور الحجة عليهم – بين أنهم استعملوا طريق المكابرة في نفس كتابهم الذي أقروا بصحته ، فستروا ما فيه من الدلائل الدالة على صحة نبوة محمد – عليه السلام – فهذا يدل على أنهم في غاية التعصب والبعد عن قبول الحق.
١١٧
". (١)

"قاله ابن عطية ، وعلى هذا فالجملتان الأمريتان اعتراض – أيضا – وفيه بعد.
قوله : ﴿هذا صراط مستقيم﴾ " هذا " إشارة إلى التوحيد المدلول عليه بقوله ﴿إن الله ربي وربكم﴾ أو إلى نفس ﴿إن الله﴾ باعتبار هذا اللفظ هو الصراط المستقيم.
جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢١٣
الإحساس : الإدراك ببعض الحواس الخمس وهي الذوق والشم واللمس والسمع والبصر – يقال : أحسست بالشيء وبالشيء وحسسته وحسست به ، ويقال : حسيت – بإبدال سينه الثانية ياء – وأحست بحذف أول سينيه – .
قال الشاعر : [الوافر] ١٤٨٦ – سوى أن العتاق من المطايا
أحسن به فهن إليه شوس
قال سيبويه : ومما شذ من المضاعف – يعني في الحذف – فشبيه بباب أقمت ، وليس وذلك قولهم أحست وأحسن – يريدون : أحسست وأحسسن ، وكذلك تفعل به في كل بناء يبنى الفعل فيه ولا تصل إليه الحركة ، فإذا قلت : لم أحس ، لم تحذف.
وقيل : الإحساس : الوجود والرؤية ، يقال : هل أحسست صاحبك – أي : وجدته ، أو رأيته ؟ قال أبو العباس المقرئ : ورد لفظ " الحس " في القرآن على أربعة أضرب : الأول : بمعنى الرؤية ، قال تعالى : ﴿فلمآ أحس عيسى منهم الكفر﴾ [آل عمران : ٥٢] وقوله تعالى : ﴿أحسوا بأسنآ﴾ [الأنبياء : ١٢] أي

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٠١٧

رأوه.

وقوله ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ [مريم : ٩٨] أي : هل ترى منهم ؟ الثاني : بمعنى القتل ، قال تعالى : ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ [آل عمران : ١٥٢] أي :

٢٥٦

تقتلونهم.

الثالث : بمعنى البحث ، قال تعالى : ﴿فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ [يوسف : ٨٧].

الرابع : بمعنى الصوت ، قال تعالى : ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ [الأنبياء : ١٠٢] أي : صوتها.

قوله : ﴿منهم} فيه وجهان : أحدهما : أن يتعلق بـ " أحس " و " من " لابتداء الغاية أي : ابتداء الإحساس من جهتهم.

الثاني : أنه متعلق بمحذوف ، على أنه حال من الكفر ، أي : أحس الكفر حال كونه صادرا منهم.

فصل في هذا الإحساس وجهان : أحدهما : أنهم تكلموا كلمة الكفر فأحسوا ذلك بإذنه.

والثاني : أن يحمل على التأويل ، وهو أنه عرف منهم إصرارهم على الكفر وعزمهم على قتله ، ولما كان ذلك العلم علما لا شبهة فيه ، مثل العلم الحاصل من الحواس - لا جرم - عبر عنه بالإحساس ، واختلفوا في السبب الذي ظهر فيه كفرهم على وجوه : أحدها : قال السدي : إنه - تعالى - لما بعثه إلى بني إسرائيل ، ودعاهم إلى دين الله تعالى **فتمردوا** وعصوا ، فخافهم واختفى عنهم.

وقيل : نفوه وأخرجوه ، فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض ، فنزلا في قرية على رجل ، فأضافهم ، وأحسن إليهم ، وكان بتلك المدينة ملك جبار ، فجاء ذلك الرجل يوما حزينا ، مهتضما ، ومريم عند امرأته ، فقالت مريم ما شأن زوجك ؟ أراه كئيباص ؟ قالت : لا تسأليني.

فقالت : أخبريني ، لعل الله يفرج كربته ، قالت : إن لنا ملكا يجعل على كل رجل منا يطعمه ويطعم جنوده ، ويسقيهم الخمر ، فإن لم يفعل ، عاقبه ، واليوم نوبتنا ، وليس لذلك عندنا سعة ، قالت : فقولي له : لا يهتم ؛ فإني آمر ابني فيدعو له ، فيكفى ذلك.

فقالت مريم لعيسى يا ولدي ادع الله أن يكفيه ذلك ، فقال : يا أمه ، إن فعلت ذلك كان فيه شر فقالت : قد احسن إلينا وأكرمنا ، فقال عيسى : قولي له إذا قرب مجيء الملك فاملأ قدورك وجوابيك [ماءا] ثم أعلمني.

ففعل ذلك ، فدعا الله تعالى - فتحول ما في القدور طبيخا ، وما في الجوابي خمرا ، لم يرى الناس مثله

، فلما جاء الملك أكل ، فلما شرب الخمر ، قال : من اين هذا الخمر ؟ قال : من أرض كذا ، قال الملك : إن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه قال : هذه من أرض أخرى ، فلما خلط على الملك ، واشتد عليه ، قال : أنا أخبرك ، عندي غلام لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه وإنه دعا الله فجعل الماء خمرا وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه ، فمات قبل ذلك بأيام – وكان أحب الخلق إليه – فقال : إنه رجل دعا الله حتى جعل الماء خمرا ليستجابن له حتى يحيي ابني ، فدعا عيسى

٢٥٧

." (١)

"وعلى الثاني لا محل له ؛ لكونه صلة ، وأما " فأولئك " ففي محل جزم أيضا – على الأول ، ورفع الثاني ، لوقوعه خبرا و " هم " يجوز أن يكون فصلا ، وأن يكون مبتدأ.

ومعنى الآية : من أعرض عن الإيمان بهذا الرسول ، وبنصرته ، والإقرار له ﴿فأولـائك هم الفاسقون﴾ الخارجون عن الإيمان.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٣٥٤

الجمهور يجعلون الهمزة مقدمة على الفاء ، للزومها الصدر ، والزمخشري يقرها على حالها ، ويقدر محذوفا قبلها ، وهنا جوز وجهين : أحدهما : أن تكون الفاء عاطفة جملة علىجملة ، والمعنى : فأولئك هم الفاسقون ، فغير دين الله يبغون ، ثم توسطت الهمزة بينهما.

والثاني : أن تعطف على محذوف ، تقديره أيتولون ، فغير دين الله يبغون ؟ لأن الاستفهام إنما يكون عن الأفعال والحوادث ، وهو استفهام استنكار ، وقدم المفعول – الذي هو " غير " – على فعله ؛ لأنه أهم من حيث أن الإنكار – الذي هو معنى الهمزة – متوجه إلى المعبود الباطل ، هذا كلام الزمخشري.

قال أبو حيان : " ولا تحقيق فيه ؛ لأن الإنكار – الذي هو معنى الهمزة – لا يتوجه إلى الذوات ، وإنما يتوجه إلى الأفعال التي تتعلق بالذوات ، فالذي أنكر إنما هو الابتغاء ، الذي متعلقه غير دين الله ، وإنما جاء تقديم المفعول من باب الاتساع ، ولشبه " يبغون " بالفاصلة ، فأخر الفعل ".

وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم " يبغون " من تحت – نسقا على قوله : ﴿هم الفاسقون﴾ [آل عمران : ٨٢] والباقون بتاء الخطاب ، التفاتا لقوله : ﴿لمآ آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ [آل عمران : ٨١] ولقوله : ﴿أأقررتم وأخذتم﴾ [آل عمران : ٨١].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٠٨٦

وأيضا فلا يبعد أن يقال للمسلم والكافر ، ولكل أحد : أفغير دين الله تبغون مع علمكم أنه أسلم له من في السموات والأرض وأن مرجعكم إليه ؟ ونظيره قوله : ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ [آل عمران : ١٠١].

قال ابن الخطيب : ذكر المفسرون في سبب النزول أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فادعى كل واحد من الفريقين أنه على دين إبراهيم ، فقال صلى الله عليه وسلم "كلا الفريقين بريء من إبراهيم ، فغضبوا وقالوا : والله لا نرضى بقضائك ، ولا نأخذ بدينك " ، فنزل قوله : ﴿أفغير دين الله يبغون﴾.

٣٦٦

قال ابن الخطيب : ويبعد عندي حمل هذه الآية على هذا السبب ؛ لأن على هذا التقدير - الآية منقطعة عما قبلها ، والاستفهام على سبيل الإنكار يقتضي تعلقها بما قبلها ، وإنما الوجه في الآية أن هذا الميثاق لما كان مذكورا في كتبهم ، وهم كانوا عارفين بذلك ، وعالمين بصدق محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة ، فلم يبق كفرهم إلا مجرد عناد وحسد وعداوة ، فصاروا كإبليس حين دعاه الحسد إلى الكفر ، فأعلمهم - تعالى - أنهم متى كانوا كذلك كانوا طالبين دينا غير دين الله - تعالى - ثم بين لهم أن التمرد على الله ، والإعراض عن حكمه مما لا يليق بالعقل ، فقال : ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾.

قوله : " وله أسلم من في السموات " جملة حالية ، أي : كيف يبغون غير دينه ، والحال هذه ، وفي قوله : " طوعا وكرها " وجهان : أحدهما : أنهما مصدران في موضع الحال ، والتقدير : طائعين وكارهين.

الثاني : أنهما مصدران على غير المصدر ، قال ابو البقاء : " لأن " أسلم " بمعنى انقاد ، وأطاع " وتابعه أبو حيان على هذا.

وفيه نظر ؛ من حيث إن هذا ماش في " طوعا " لموافقته معنى الفعل قبله ، وأما "كرها " ، كيف يقال فيه ذلك ؟ والقول بأنه يغتفر في التوالي ما لا يغتفر في الأوائل ، غير نافع هنا.

ويقال يطاع يطوع ، وأطاع يطيع بمعنى ، قاله ابن السكيت ، وقول : طاعه يطوعه : انقاد له ، وأطاعه ، أي : رضي لأمره ، وطاوعه ، أي : وافقه.

قرأ الأعمش : " وكرها " - بالضم - وسيأتي أنها قراءة الأخوين في سورة النساء.

قال الحسن : أسلم من في السموات طوعا ، وأسلم من في الأرض بعضهم طوعا ، وبعضهم خوفا من

السيف والسبي.
وقال مجاهد : " طوعا " المؤمن ، و "كرها " ظل الكافر ، بدليل قوله : ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ [الرعد : ١٥].
وقيل هذا يوم الميثاق ، حين قال : ﴿ألست بربكم قالوا بلى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] فقال بعضهم طوعا ، وبعضهم كرها.
قال قتادة : المؤمن أسلم طوعا فنفعه ، والك١فر أسلم كرها في وقت اليأس ، فلم
٣٦٧
." (١)

"فصل في اختلافهم في عدد الملائكة اختلفوا في عدد الملائكة ، فمن الناس من ضم العدد الناقص إلى العدد الزائد ؛ فقالوا : الوعد بإمداد الثلاثة لا شرط فيه ، والوعد بإمداد الخمسة مشروط بالصبر والتقوى ، ومجيء الكفار من فورهم ، فلا بد من التغاير ، وهذا القول ضعيف ، لأنه لا يلزم من كون الخمسة مشروطة ، أن تكون الثلاثة التي هي جزؤها مشروطة بذلك الشرط.
ومنهم من أدخل العدد الناقص في العدد الزائد.
فعلى القول الأول إن حملنا الآية على قصة بدر ، كان عدد الملائكة تسعة آلاف ؛ لأنه تعالى ذكر الألف وذكر ثلاثة آلاف ، وذكر خمسة آلاف ، فالمجموع تسعة آلاف.
وإن حملناها على قصة أحد ، فإنما فيها ذكر الثلاثة والخمسة ، فيكون المجموع ثمانية آلاف.
وعلى القول الثاني : وهو إدخال الناقص في الزائد ، فإن حملنا الآية على قصة بدر ، فقالوا : عدد الملائكة : خمسة آلاف ؛ لأنهم وعِدوا بالألف ، ثم ضم إليه الألفان ، فصاروا ثلاثة ، ثم ضم إليه ألفان ، فلا جرم ، وعدوا بخمسة آلاف.
وقد روي أن أهل بدر أمدوا بألف ، فقيل : إن كرز بن جابر المحاربي يريد ان يمد المشركين ، فشق ذلك على المسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : " ألن يكفيكم " يعني بتقدير أن يجيء المشركين مدد ، فالله - تعالى - يمدكم - أيضا - بثلاثة آلاف وخمسة آلاف ، ثم إن المشركين ما جاءهم المدد ".
وإن حملناها على قصة أحد ، فيكون عدد الملائكة ثلاثة آلاف ؛ لأن الخمسة ، وعدوا بها بشرط أن

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١١٥٠

يصبروا ويتقوا ، ويأتوهم من الفور.

فصل أجمع المفسرون وأهل السير على أن الله – تعالى – أنزل الملائكة يوم بدر ، وأنهم قاتلوا الكفار.

قال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة في المعركة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ، ولا يقاتلون ، إنما يكونون عددا ومددا وهذا قول الأكثرين.

وقال الحسن : هؤلاء الخمسة آلاف ردء المؤمنين إلى يوم القيامة في المعركة.

وأنكر ابو بكر الأصم ذلك أشد الإنكار ، واحتج عليه بوجوه : الأول : أن الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض ؛ فإن المشهور أن جبريل – عليه السلام – أدخل جناحه تحت المدائن السبع لقوم لوط ، وبلغ جناحه إلى الأرض السابعة ، ثم رفعها إلى السماء ، فجعل عاليها سافلها ، فإذا حضر هو يوم بدر ، فأي حاجة

٥١٨

إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟ ثم بتقدير حضوره ، فأي فائدة في إرسال سائر الملائكة ؟ الثاني : أن أكابر الكفار كانوا مشهورين ، وكل واحد منهم مقابله من الصحابة معلوم ، وإذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة.

الثالث : أن الملائكة لو قاتلوا لكانوا إما أن يصيروا بحيث يراهم الناس ، أو لا ، فإن رآهم الناس ، فإما أن يروهم في صورة الناس ، أو في صورة غيرهم ، فإن رأوهم في صورة الناس ، صار المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف أو أكثر ، ولم يقل بذلك أحد ؛ لأنه مخالف لقوله تعالى : ﴿ويقللكم فى أعينهم﴾ [الأنفال : ٤٤] وإن شاهدوهم في صور غير صور الناس ، لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ؛ لأن من شاهد الجن ، لا شك أنه يشتد فزعه – ولم ينقل ذلك ألبتة – وإن لم يروهم ، فعلى هذا التقدير إذا حاربوا ، وحزوا الرؤوس ، وشقوا البطون ، وأسقطوا الكفار عن الأفراس ، فحينئذ إذا شاهد الكفار هذه الأفعال مع أنهم لم يشاهدوا أحدا من الفاعلين ، وهذا يكون من أعظم المعجزات ، فيجب أن لا يبقى منهم كافر ولا متمرد ، ولما لم يوجد شيء من ذلك عرف فساده.

الرابع : أن الملائكة الذين نزلوا ، إما أن يكونوا أجساما لطيفة أو كثيفة ، فإن كانت كثيفة وجب أن يراهم الكل كرؤية غيرهم ، ومعلوم أن الأمر ما ان كذلك ، وإن كانت لطيفة مثل الهواء – لم يكن فيهم صلابة وقوة ، ويمتنع كونهم راكبين على الخيول.

والجواب : أن نص القرآن ناطق بها ، وقد وردت في الأخبار قريب من التواتر قال عبد الله بن عمير لما

رجعت قريش من أحد ، جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا ، ويقولون : لم نر الخيل البلق ، ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم يوم بدر.

وقال سعد بن أبي وقاص : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ، ما رأيتهما قبل ، ولا بعد.

قال سعد بن إبراهيم : يعني : جبريل وميكائيل.

وهذه الشبهة إنما تليق بمن ينكر القرآن والنبوة ، فأما من يقر بهما ، فلا يليق به شيء من هذا ، وهذه الشبهة إذا قابلناها بكمال قدرة الله – تعالى – زالت ؛ فإنه – تعالى – يفعل ما يشاء ؛ لأنه قادر على جميع الممكنات.

فصل اختلفوا في كيفية نصرة الملائكة.

٥١٩." (١)

"قال شهاب الدين : في هذه المسألة خلاف بين النحويين : منهم من منع ، ومنهم من جوز ، وهو الصحيح.

الخامس : أن ﴿من الذين﴾ بيان للموصول في قوله : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا﴾ لأنهم يهود ونصارى ، فبينهم باليهود ، قاله الزمخشري ، وفيه نظر من حيث إنه قد فصل بينهما بثلاثة جمل هي : ﴿والله أعلم﴾ ، ﴿وكفى بالله﴾ ، ﴿وكفى بالله﴾.

وإذا كان الفارسي قد منع الاعتراض بجملتين ، فما بالك بثلاث ، قاله أبو حيان ، وفيه نظر ؛ فإن الجمل هنا متعاطفة ، والعطف يصير الشيئين شيئا واحدا.

السادس : أنه بيان لأعدائكم ، وما بينهما اعتراض أيضا ، وقد عرف ما فيه.

السابع : أنه متعلق بـ ﴿نصيرا﴾ وهذه المادة تتعدى بـ " من " ؛ قال – تعالى – : ﴿ونصرناه من القوم﴾ [الأنبياء : ٧٧] ﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾ [غافر : ٢٩] على أحد تأويلين : إما على تضمين النصر معنى المنع ، أي : منعناه من القوم ، وكذلك : كفى بالله مانعا بنصره من الذين هادوا.

وإما : على جعل " من " بمعنى " على " ، والأول مذهب البصريين ، فإذا جعلنا ﴿من الذين﴾ بيانا لما قبله ، فبم يتعلق والظاهر [أنه يتعلق بمحذوف ؛ ويدل على ذلك أنهم قالوا في سقيا لك] ، إنه متعلق بمحذوف لأنه بيان له ، وقال أبو البقاء : [وقيل] وهو حال من أعدائكم ، أي : [والله أعلم بأعدائكم]

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٢٣١

كائنين من الذين هادوا ، والفصل بينهما مسدد ، فلم يمنع من الحال ، فقوله هذا يعطي أنه بيان لأعدائكم مع إعرابه له حالا ، فيتعلق أيضا بمحذوف ، لكن لا على ذلك الحذف المقصود في البيان ، وقد ظهر مما تقدم أن ﴿يحرفون﴾ ، إما لا محل له ، أو له محل رفع أو نصب على حسب ما تقدم وقال أبو رجاء والنخعي : " الكلام " وقرئ : " الكلم " بكسر الكاف وسكون اللام ، جمع " كلم " مخففة من كلمة ، ومعانيها متقاربة.

قوله : ﴿عن مواضعه﴾ متعلق بـ ﴿يحرفون﴾ وذكر الضمير في ﴿مواضعه﴾ حملا على ﴿الكلم﴾ ، لأنها جنس.

٣٠٦

وقال الواحدي : هذا جمع حروفه أقل من حروف واحده ، وكل جمع يكون كذلك ، فإنه يجوز تذكيره.

وقال غيره : يمكن أن يقال : كون هذا الجمع مؤنثا ليس أمرا حقيقيا ، بل هو أمر لفظي ، فكان التذكير والتأنيث فيه جائزا.

وجاء هنا " عن مواضعه " وفي المائدة : ﴿من بعد مواضعه﴾ [المائدة : ٤١].

قال الزمخشري : أما ﴿عن مواضعه﴾ فعلى ما فسرناه مِن إزالته عن مواضعه ، التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه ، وأما " من بعد مواضعه " ، فالمعنى : أنه كانت له مواضع هو فمن بأن يكون فيها فحين حرفوه ، تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره والمعنيان متقاربان.

قال أبو حيان : وقد يقال : إنهما سيان لكنه حذف هنا وفي أول المائدة [الآية ١٣] من بعد مواضعه ؛ لأن قوله ﴿عن مواضعه﴾ يدل على استقرار مواضع له ، وحذف في ثاني المائدة " من مواضعه " ؛ لأن التحريف " من بعد مواضعه " يدل على أنه تحريف عن مواضعه ، فالأصل : يحرفون الكلم من بعد مواضعه عنها.

فحذف هنا البعدية ، وهناك توسعا في العبارة ، وكانت البدأة هنا بقوله : " عن مواضعه " ؛ لأنه أخصر ، وفيه تنصيص باللفظ على " عن " وعلى المواضع ، وإشارة إلى البعدية.

وقال أيضا : والظاهر أنهم حيث وصفوا بشدة التمرد والطغيان ، وإظهار العداوة ، واشتراء الضلالة ، ونقص الميثاق ، جاء " يحرفون الكلم عن مواضعه " كأنهم حرفوها من أول وهلة قبل استقرارها في مواضعها ، وبادروا إلى ذلك ، ولذلك جاء أول المائدة كهذه الآية ؛ حيث وصفهم بنقض الميثاق ، وقسوة القلوب ،

وحيث وصفوا باللين وترديد الحكم إلى الرسول ، جاء " من بعد مواضعه "كأنهم لم يبادروا إلى التحريف ، بل عرض لهم بعد استقرار الكلم في مواضعها ، فهما سياقان مختلفان.

[وقوله :] ﴿ويقولون﴾ عطف على ﴿يحرفون﴾ وقد تقدم ، وما بعده في محل نصب به.

فصل : الخلاف في كيفية التحريف اختلفوا في كيفية التحريف ، فقيل : كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر ؛ كتحريفهم الرجم

٤٠٧

." (١)

"إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبى المنافقون فانطلقوا إلى أبي ليحكم بينهم ، فقال : أعطوا اللقمة ، يعني : الخطر ، فقالوا : لك عشرة أوسق ، فقال : لا بل مئة وسق ديتي ، فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوسق ، فأبى أن يحكم بينهم ، فأنزل الله – تعالى – آيتي القصاص ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاهن إلى الإسلام فأسلم ، وعلى هذه الرواية فالطاغوت هو الكاهن.

وقال الحسن : إن رجلا من المسلمين كان له على رجل من المنافقين حق ، فدعاه المنافق إلى وثن كان أهل الجاهلية يتحاكمون إليه ، ورجل قائم يترجم الأباطيل عن الوثن ، فالمراد بالطاغوت ؛ هو ذلك الرجل ، وقيل : كانوا يتحاكمون إلى الأوثان ، وكان طريقهم أنهم] يضربون القداح بحضرة الوثن ، فما خرج على القداح حكموا به ، وعلى هذا فالطاغوت الوثن.

قال أبو مسلم : ظاهر الآية يدل على أنه كان المخاصم منافقا من أهل الكتاب ، كان يظهر الإسلام على سبيل النفاق ، لأن قوله – تعالى – : ﴿يزعمون أنهم آمنوا بمآ أنزل إليك ومآ أنزل من قبلك﴾ إنما يليق بمثل هذا المنافق.

قوله : ﴿يريدون﴾ حال من فاعل [﴿يزعمون﴾ أو من ﴿الذين يزعمون﴾.

وقوله : ﴿وقد أمروا ا﴾ حال من فاعل] ﴿يريدون﴾ فهما حالان متداخلان ، ﴿أن يكفروا﴾ في محل نصب فقط إن قدرت تعدية " أمر " إلى الثاني بنفسه ، وإلا ففيها الخلاف المشهور ، والضمير في [به] عائد على الطاغوت ، وقد تقدم أنه يذكر ويؤنث ، والكلام عليه في البقرة.

وقرأ عباس بن الفضل : " أن يكفروا بهن " ، بضمير جمع التأنيث.

فصل قال القاضي : يجب أن يكون التحاكم إلى الطاغوت كالكفر ، وعدم الرضى [بحكم] محمد –

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٤٨٣

عليه السلام – كفر ؛ لوجوه :

٤٥٥

أحدها : قوله : ﴿يريدون أن يتحاكموا اا إلى الطاغوت وقد أمروا اا أن يكفروا به﴾ فجعل التحاكم [إلى لطاغوت] مقابلا للكفر به ، وهذا يقتضي أن التحاكم إلى الطاغوت كفر بالله ، كما أن الكفر بالطاغون إيمان بالله.

ثانيها : قوله – [تعالى] – : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ [النساء : ٦٥] وهذا نص في تكفير من لم يرض بحكم الرسول – عليه الصلاة والسلام – .

وثالثها : قوله – تعالى : ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور : ٦٣] وهذه الآيات تدل على أن من رد شيئا من أوامر الله والرسول فهو خارج عن الإسلام ، سواء رده من جهة الشرك أو من جهة التمرد ، وذلك يوجب صحة ما ذهبت إليه الصحابة – رضي الله عنهم – من الحكم بارتداد مانعي الزكاة ، وقتلهم ، وسبي ذراريهم.

قوله : ﴿أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ في ﴿ضلالا﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : أنه مصدر على غير المصدر ، نحو : ﴿أنبتكم من الأرض نباتا﴾ [نوح : ١٧] ، والأصل " إضلالا " و " إنباتا " فهو [اسم] مصدر لا مصدر.

والثاني : أنه مصدر لمطاوع ﴿أضل﴾ أي : أضلهم فضلوا ضلالا.

والثالث : أن يكون من وضع أحد المصدرين موضع الآخر.

فصل قالت المعتزلة : قوله – تعالى – : ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ يدل على أن كفر الكافر ليس بخلق [الله – تعالى –] ولا بإرادته ؛ لأنه لو خلق الكفر في الكافر وأراده منه ، فأي تأثير للشيطان فيه ، وأيضا فإنه ذم للشيطان ؛ بسبب أنه يريد هذه الضلالة ، فلو كان – تعالى – مريدا لها ، لكان هو بالذم أولى ، لأن [كل] من عاب شيئا ثم فعله ، كان بالذم أولى به ؛ قال – تعالى – : ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف : ٣] وأيضا فإنه تعجب من تحاكمهم إلى الطاغوت ، مع أنهم أمروا أن يكفروا به ، ولو كان ذلك التحاكم بخلق الله ، لما بقي التعجب ، فإنه يقال : إنك خلقت ذلك الفعل فيهم ، وأردته منهم ، بل التعجب من هذا التعجب [هو] أولى.

وجوابهم المعارضة بالعلم والداعي.

٤٥٦
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٥٢
." (١)

"فصل دلت هذه الآية على أن الأنبياء - [عليهم الصلاة والسلام] - معصومون عن الذنوب ؛ لأنها دلت على وجوب طاعتهم مطلقا ، فلو أتوا بمعصية ، لوجب الاقتداء بهم في تلك المعصية ، فتصير واجبة علينا ، وكونها معصية يجب كونها محرمة علينا ، فيلزم توارد الإيجاب والتحريم على الشيء الواحد ، وهو محال.

فإن قيل : ألستم في الاعتراض على الجبائي ذكرتم أن قوله : " إلا ليطاع " لا يفيد العموم ، فكيف تمسكتم به في هذه المسألة ، مع أن [هذا] الاستدلال لا يتم إلا مع القول بأنها تفيد العموم.

فالجواب : ظاهر [هذا] اللفظ يوهم العموم ، وإنما تركناه في تلك المسألة ؛ للدليل القاطع الذي ذكرناه ، على أنه يستحيل منه - تعالى - أن يريد الإيمان من الكافر ، فلأجل ذلك المعارض القاطع صرفنا الظاهر عن العموم ، وليس ههنا برهان قاطع عقلي يوجب القدح في عصمة الأنبياء - عليهم السلام - ، فظهر الفرق.

قوله : " ولو أنهم " قد تقدم الكلام على " أن " الواقعة بعد " لو " ، و " إذ " ظرف معمول لخبر " أن " وهو " جاءك " ، وقال : " واستغفر لهم الرسول " ، ولم يقل : واستغفرت ، خروجا من الخطاب إلى الغيبة ، لما في هذا الاسم الظاهر من التشريف بوصف الرسالة ، إجلالا للرسول - عليه السلام - و " وجد " هنا يحتمل أن تكون العلمية ، فتتعدى لاثنين والثاني : " توابا " ، وأن تكون غير العلمية ، فتتعدى لواحد ، ويكون " توابا " ويحتمل أن يكون خبرا ثانيا في الأصل ، بناء على تعدد الخبر وهو الصحيح ، فلما دخل الناسخ ، نصب الخبر المتعدد ، تقول : زيد فاضل شاعر فقيه عالم ، ثم تقول : علمت زيدا فاضلا شاعرا فقيها عالما ، إلا أنه لا يحسن أن يقال هنا : شاعرا : مفعول ثالث ، وفقيها [مفعول] رابع ، وعالما : خامس.

فصل : سبب نزول الآية في سبب النزول وجهان : الأول : أن من تقدم ذكره مع المنافقين ، عندما ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت ، والفرار من التحاكم إلى رسول الله - [صلى الله عليه وسلم] ، [لو جاءوا] للرسول ،

---
(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/١٥٠٧

٤٦٥

وأظهروا الندم على ما فعلوه ، وتابوا عنه واستغفروا عنه ، واستغفر لهم الرسول بأن يسأل الله أن يغفر لهم ، وجدوا الله توابا رحيما.

الثاني : قال الأصم : " إن قوما من المنافقين اتفقوا على كيد الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، ثم دخل ، ا عليه لأجل [ذلك الغرض ، فأتاه جبريل - عليه السلام - فأخبره به ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن قوما] دخلوا عليه لأجل يريدون أمرا لا ينالونه ، فليقوموا وليستغفروا الله حتى أستغفر لهم ، فلم يقوموا ، فقال : ألا تقومون ؛ فلم يفعلوا ، فقال صلى الله عليه وسلم : قم يا فلان ، قم يا فلان ، حتى عد اثني عشر رجلا منهم ، فقاموا وقالوا : كنا عزمنا على ما قلت ، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا ، فاستغفر لنا.

فقال : الآن اخرجوا ، أنا كنت في بدء الأمر أقرب إلى الاستغفار ، وكان الله أقرب إلى الإجابة ، اخرجوا عني ".

فإن قيل : أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه [صحيح] ، لكانت توبتهم مقبولة ، فما فائدة ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم ؟ فالجواب من وجوه : أحدها : أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله - تعالى - ، وكان إساءة للرسول - عليه السلام - وإدخالا للغم في قلبه ، ومن كان ذنبه كذلك ، وجب عليه الاعتذار عن ذلك لغيره ؛ فلهذا المعنى وجب عليهم إظهار طلب الاستغفار [من الرسول].

ثانيها : أنهم لما لم يرضوا بحكم الرسول - عليه السلام - ، ظهر منهم **التمرد**، فإذا نابوا ، وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك **التمرد**؛ بأن يذهبوا إلى الرسول ويطلبوا منه الاستغفار.

وثالثها : أنهم إذا أتوا بالتوبة أتوا بها على وجه خلل ، فإذا انضم إليها استغفار الرسول ، صارت محققة القبول ، وهذه الآية تدل على أن الله - تعالى - يقبل التوبة ؛ لقوله : " لوجدوا الله توابا رحيما ".

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٦٣

في سبب النزول قولان :

٤٦٦

". (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٥١٣

"بد من حصول الانقياد في الظاهر والقلب ، وذلك ينفي صدور الخطإ عنهم ، فدل ذلك على أن قوله : ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة : ٤٣] ، وفتواه في أسرى بدر ، وقوله : ﴿لم تحرم مآ أحل الله لك﴾ [التحريم : ١] ، وقوله : ﴿عبس وتولى ﴾ [عبس : ١] كل ذلك محمول على التأويل.

فصل قالت المعتزلة : لو كانت الطاعات والمعاصي بقضاء الله - تعالى - لزم التناقض ؛ لأن الرسول إذا حكم على إنسان بأنه لا يفعل كذا ، وجب على جميع المكلفين الرضا بذلك ؛ لأنه قضاء الرسول ، والرضى بقضاء الرسول واجب [لهذه الآية ، ثم إن ذلك المكلف فعل ذلك بقضاء الله ، والرضا بقضاء الله واجب] فيلزم أن يجب على جميع المكلفين الرضا بذلك الفعل ، لأنه قضاء الله ، فوجب أن يلزمهم الرضا بالفعل والترك معا ، وذلك محال.

والجواب : أن المراد من قضاء الرسول : الفتوى بالإيجاب والمراد من قضاء الله : التكوين والإيجاد ، وهما مفهومان متغايران ، فالجمع بينهما لا يفضي إلى التناقض.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٦٦

هذه الآية متصلة بما تقدم من المنافقين ، وترغيب لهم في ترك النفاق ، والمعنى : أنا لو شددنا التكليف على الناس ؛ نحو أن نأمرهم بالقتل ، والخروج عن الأوطان ، لصعب ذلك عليهم ولما فعله إلا قليل ، وحينئذ يظهر كفرهم ، فلم نفعل ذلك رحمة منا على عبادنا ، بل اكتفينا بتكليفهم في الأمور السهلة ، فليقبلوها وليتركوا التمرد.

نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، ناظر يهوديا.

فقال اليهودي : إن موسى أمرنا بقتل أنفسنا ففعلنا ذلك ، ومحمد يأمركم بالقتال فتكرهونه.

فقال ثابت بن قيس : لو أن محمدا أمرني بقتل نفسي ، لفعلت ذلك فنزلت الآية ، وهو من القليل الذي استثنى الله.

وقال الحسن ومقاتل : لما نزلت هذه الآية ، " قال عمر ، وعمار بن ياسر ، وعبد لله بن مسعود ، وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم القليل : والله لو أمرنا لفعلنا ، فالحمد لله

٤٧١

الذي عافانا الله فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال " إن من أمتي لرجالا ، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي ".

والضمير في قوله : ﴿كتبنا عليهم﴾ فيه قولان : الأول : قال ابن عباس ومجاهد : إنه عائد إلى المنافقين

لأنه – تعالى – كتب على بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم ، وكتب على المهاجرين أن يخرجوا من ديارهم ، فقال : ﴿ولو أنا كتبنا﴾ على هؤلاء المنافقين القتل والخروج ، ما فعله إلا قليل رياء وسمعة ، وهذا اختيار الأصم والقفال.

[القول] الثاني : المراد : لو كتب الله على الناس ما ذكر ، لم يفعله إلا قليل منهم ، فيدخل فيه المؤمن والمنافق.

قوله : ﴿أن اقتلوا اا﴾ " أن " فيها وجهان : أحدهما : أنها المفسرة ؛ لأنها أتت بعد ما هو بمعنى القول لا حروفه ، وهو أظهر.

الثاني : أنها مصدرية ، وما بعدها من فعل الأمر صلتها ، وفيه إشكال ؛ من حيث إنه إذا سبك منها ومما بعدها مصدر ، فأتت للدلالة [على الأمر ، ألا ترى أنك إذا قلت : كتبت إليه أن قم فيه من الدلالة] على طلب القيام بطريق الأمر ، ما لا في قولك : كتبت إليه القيام ، ولكنهم جوزوا ذلك واستدلوا بقولهم : كتبت إليه بأن قم.

ووجه الدلالة : أن حرف الجر لا يعلق.

وقرأ أبو عمرو : بكسر نون " أن " وضم واو " أو " ، قال الزجاج : ولست أعرف لفصل أبي عمرو بين هذين الحرفين خاصية إلا أن يكون رواية.

وقال غيره : أما كسر النون ؛ فلأن الكسر هو الأصل في التقاء الساكنين ، وأما ضم الواو فللإتباع ؛ لأن الضمة في الواو أحسن ؛ لأنها تشبه واو الضمير ، نحو : ﴿اشتروا الضلالة﴾ [البقرة : ١٦] ﴿ولا تنسوا الفضل﴾ [البقرة : ٢٣٧] وكسرهم حمزة وعاصم ؛ لالتقاء الساكنين ، وضمهما ابن كثير ، ونافع [وابن عامر] والكسائي ؛ للاتب ا ع فيهما.

٤٧٢

." (١)

"الرابع : أنه منصوب على المدح ، قدره أبو البقاء بـ " أعني " ، وكان ينبغي أن يقدره فعلا دالا على المدح ، نحو : " أمدح " ، وقد رجح الزمخشري هذا الأخير ، فقال : " والأوجه أن ينتصب " رسلا " على المدح ".

قوله : " لئلا " هذه لام كي ، وتتعلق بـ " منذرين " على المختار عند البصريين ، وبـ " مبشرين " على

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٥١٦

المختار عند الكوفيين ؛ فإن المسألة من التنازع ، ولو كان من إعمال الأول ، لأضمر في الثاني من غير حذف ، فكان يقال : مبشرين ومنذرين [له] لئلا ، ولم يقل كذلك ، فدل على مذهب البصريين ، وله في القرآن نظائر تقدم منها جملة صالحة ، وقيل : اللام تتعلق بمحذوف ، أي : أرسلناهم لذلك ، و " حجة " اسم "كان " ، وفي الخبر وجهان : أحدهما : هو " على الله " و " للناس " حال.

والثاني : أن الخبر " للناس " و " على الله " حال ، ويجوز أن يتعلق كل من الجار والمجرور بما تعلق به الآخر ، إذا جعلناه خبرا ، ولا يجوز أن يتعلق على الله بـ " حجة " ، وإن كان المعنى عليه ؛ لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه ، و " بعد الرسل " متعلق بـ " حجة " ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لـ " حجة " ؛ لأن ظروف الزمان توصف بها الأحداث ؛ كما يخبر بها عنها ؛ نحو : " القتال يوم الجمعة ".

فصل في جواب الآية عن شبهة اليهود هذه الآية جواب عن شبهة اليهود ، وتقريره : أن المقصود من بعثة الرسل أن يبشروا وينذروا ، وهذا المقصود حاصل سواء كان الكتاب نازلا دفعة واحدة أو منجما ، ولا يختلف هذا الغرض بنزول الكتاب منجما أو دفعة واحدة.

بل لو قيل : إن إنزال الكتاب منجما مفرقا أقرب إلى المصلحة ، لكان أولى ؛ لأن الكتاب إذا نزل دفعة واحدة ، كثرت التكاليف على المكلف ، فيثقل فعلها ؛ ولهذا السبب أخذ قوم موسى - عليه السلام - على **التمرد** ، ولم يقبلوا تلك التكاليف.

أما إذا نزل الكتاب منجما مفرقا ، سهل قبوله للتدريج ، فحينئذ يحصل الانقياد والطاعة من القوم ، فكان اقتراح اليهود إنزال الكتاب دفعة واحدة اقتراحا فاسدا ثم قال : ﴿وكان الله عزيزا حكيما﴾ يعني : هذا الذي تطلبونه من الرسول أمر هين في القدرة ، وإنما طلبتموه على سبيل اللجاج ، وهو - تعالى - عزيز ، وعزته تقتضي ألا يجاب المتعنت إلى مطلوبه ، وكذلك حكمته تقتضي هذا الامتناع ؛ لعلمه - تعالى - بأنه لو فعل ذلك لبقوا مصرين على اللجاج ؛ لأنه - تعالى - أعطى موسى - [عليه الصلاة والسلام]

١٣٧

- هذا التشريف ، ومع ذلك أصروا على المكابرة واللجاج.

فصل احتجوا بهذه الآية على أن معرفة الله - تعالى - لا تثبت إلا بالسمع ؛ لأن قوله : ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ يدل على أن قبل البعثة يكون للناس حجة في ترك الطاعات ، ويؤيده قوله - تعالى - : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقوله : ﴿ولو أنآ أهلكناهم

بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ا١ أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ [طه : ١٣٤].
فصل شبهة للمعتزلة وردها قالت المعتزلة : دلت هذه الآية على أن العبد قد يحتج على الرب – سبحانه وتعالى – وأن الذي يقوله أهل السنة من أنه تعالى لا اعتراض عليه في شيء ، وأنه يفعل ما يشاء كما شاء ليس بشيء ؛ لأن قوله : ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ يقتضي أن لهم حجة على الله قبل الرسل ، وذلك يبطل قول أهل السنة.
والجواب : أن المراد ﴿لئلا يكون للناس على الله﴾ أي : فيما يشبه الحجة فيما بينكم.
فصل شبهة للمعتزلة وردها قالت المعتزلة : دلت الآية على أن تكليف ما لا يطاق غير جائز ؛ لأن عدم إرسال الرسل إذا كان يصلح عذرا ، فبأن يكون عدم المكنة والقدرة صالحا لأن يكون عذرا أولى.
والجواب : بالمعارضة بالعلم.
جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٣٠
." (١)

"وقال السدي : وجعلكم [ملوكا] أحرارا تملكون أمر أنفسكم ، بعدما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم.
وقال الضحاك : كانت منازلهم واسعة ، فيها مياه جارية ، فمن كان مسكنه واسعا وفيه نهر جار ، فهو ملك.
وقيل : إن كل من كان رسولا ونبيا كان ملكا ؛ لأنه يملك أمر أمته وكان نافذ الحكم عليهم فكان ملكا ، ولهذا قال تعالى : ﴿فقد آتينآ آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما﴾ [النساء : ٥٤].
وقيل : كان في أسلافهم وأخلافهم الملوك والعظماء ، وقد يقال لمن حصل فيهم الملوك : أنتم ملوك على سبيل الاستعارة.
قال الزجاج : الملك من لا يدخل عليه أحد إلا بإذنه.
وثالثها : قوله تعالى : ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين﴾ وذلك لأنه تعالى خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام ، فلق البحر لهم وأهلك عدوهم وأورثهم أموالهم ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وأخرج لهم المياه الغزيرة من الحجر ، وأظل فوقهم الغمام ، ولم يجتمع الملك والنبوة لقوم كما اجتمعا لهم ، وكانوا في تلك الأيام هم العلماء بالله ، وهم أحباب الله وأنصار دينه.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٦٧٢

ولما ذكر هذه النعم وشرحها لهم أمرهم بعد ذلك بجهاد العدو ، فقال : ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾.

وقرأ ابن محيصن هنا وفي جميع القرآن " يا قوم " مضموم الميم.

وتروى قراءة عن ابن كثير [ووجهها أنها] لغة في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم كقراءة ﴿[قال] رب احكم بالحق﴾ [الأنبياء : ١١٢] ، وقد تقدمت هذه [المسألة].

٢٦٨

وقرأ ابن السميفع : ﴿ياقوم ادخلوا﴾ بفتح الياء ، وروي أن إبراهيم - عليه السلام - لما صعد [جبل لبنان] ، فقال الله تعالى له : " انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس ، وهو ميراث لذريتك ".

والأرض المقدسة هي الأرض المطهرة من الآفات ؛ لأن التقديس هو التطهير ، وقال المفسرون طهرت من الشرك ، وجعلت مسكنا وقرارا للأنبياء ، وفيه نظر ؛ لأن تلك الأرض لما أمرهم موسى بدخولها ما كانت مقدسة عن الشرك ، وما كانت مقرا للأنبياء ، وقد يجاب عنه بأنها كانت كذلك فيما قبل.

واختلفوا في تلك الأرض ، فقال عكرمة ، والسدي ، وابن زيد : هي أريحا.

وقال الكلبي : هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن ، وقال الضحاك : هي إيليا وبيت المقدس ، وقال مجاهد : هي الطور وما حوله.

وقال قتادة : هي الشام كلها.

وقال كعب : وجدت في كتاب الله المنزل [أن الشام] كنز الله من أرضه ، وبها كثرة من عباده.

وقوله : ﴿كتب الله لكم﴾ يعني : في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن.

وقال ابن إسحاق : وهب الله لكم ، وقيل : جعلها لكم [قال السدي : أمركم الله بدخولها].

فإن قيل : لم قال ﴿كتب الله لكم﴾ ، ثم قال ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ [المائدة : ٢٦].

فالجواب : قال ابن عباس : كانت هبة ثم حرمها عليهم بشؤم **تمردهم** وعصيانهم ، وقيل : اللفظ وإن كان عاما لكن المراد به الخصوص ، فكأنها كتبت لبعضهم ، وحرمت على بعضهم.

٢٦٩

". (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/١٧٣٣

"وفي غير القرآن إذا اجتمع ظرف يصح الإخبار به مع وصف آخر ، ويجوز أن يجعل الظرف خبرا ، والوصف حالا ، وأن يكون الخبر الوصف ، والظرف منصوب به كهذه الآية.

فصل قولهم : ﴿فاذهب أنت وربك﴾ فيه وجوه : أحدها : لعل القوم كانوا مجسمة ، يجوزون الذهاب والمجيء على الله تعالى.

وثانيها : يحتمل ألا يكون المراد حقيقة الذهاب ، بل كما يقال : كلمته فذهب يجيبني ، أي : يريد أن يجيبني ، فكأنهم قالوا : كن أنت وربك مريدين لقتالهم.

ثالثها : التقدير اذهب أنت وربك معين لك بزعمك فأضمر خبر الابتداء.

فإن قيل : إذا أضمرنا الخبر فكيف يجعل قوله : " فقاتلا " خبرا أيضا.

فالجواب : لا يمتنع خبرٌ بعد خبر.

رابعها : أراد بقوله : " وربك " أخوه هارون ، وسموه [ربا] لأنه كان أكبر من موسى.

قال المفسرون : قولهم : ﴿اذهب أنت وربك﴾ ، إن قالوه على وجه الذهاب من مكان إلى مكان فهو كفر ، وإن قالوه على وجه **التمرد** عن الطاعة فهو فسق ، ولقد فسقوا بهذا الكلام لقوله تعالى في هذه القصة : ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ [المائدة : ٢٦].

والمقصود من هذه القصة : شرح حال هؤلاء اليهود ، وشدة بغضهم [وغلوهم] في المنازعة مع الأنبياء قديما ، ثم إن موسى - عليه السلام - لما سمع منهم هذا الكلام قال : ﴿رب إني لا اا أملك إلا نفسي وأخي﴾ في إعراب " أخي " ستة أوجه : أظهرها : أنه منصوب عطفا على " نفسي " , والمعنى : لا أملك إلا أخي مع ملكي لنفسي دون غيرنا.

الثاني : أنه منصوب عطفا على اسم " إن " ، وخبرها محذوف للدلالة اللفظية عليه ، أي : وإن أخي لا يملك إلا نفسه.

الثالث : أنه مرفوع عطفا على محل اسم " إن " ؛ لأنه بعد استكمال الخبر على خلاف في ذلك ، وإن كان بعضهم قد ادعى الإجماع على جوازه.

٢٧٥

الرابع : أنه مرفوع بالابتداء ، وخبره محذوف للدلالة المتقدمة ، ويكون قد عطف جملة غير مؤكدة على جملة مؤكدة [بـ " إن "].

الخامس : أنه مرفوع عطفا على الضمير المستكن في " أملك " ، والتقدير : ولا يملك أخي إلا نفسه ،

[وجاز ذلك للفصل بقوله : " إلا نفسي "] وقال بهذا الزمخشري ، ومكي ، وابن عطية ، وأبو البقاء ورد أبو حيان هذا الوجه ، بأنه يلزم منه أن موسى وهارون لا يملكان إلا نفس موسى فقط [وليس المعنى على ذلك] ، وهذا الرد ليس بشيء ؛ لأن القائل بهذا الوجه صرح بتقدير المفعول بعد الفاعل المعطوف.

وأيضا اللبس مأمون ، فإن كل أحد يتبادر إلى ذهنه أنه يملك أمر نفسه.

السادس : أنه مجرور عطفا على " الياء " في " نفسي " ، أي : إلا نفسي ونفس أخي ، وهو ضعيف على قواعد البصريين للعطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، وقد تقدم ما فيه.

والحسن البصري يقرأ بفتح [ياء] " نفسي " ، و " أخي ".

وقرأ يوسف بن داود وعبيد بن عمير " فافرق " بكسر الراء ، وهي لغة : فرق يفرق ك " يضرب " قال الراجز : [الرجز] ١٩٤٩ - يا رب فافرق بينه وبيني

أشد ما فرقت بين اثنين

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٧

وقرأ ابن السميفع " ففرق " مضعفا ، وهي مخالفة للرسم و " بين " معمولة ل " افرق " ، وكان من حقها ألا تكرر في العطف ، تقول : المال بين زيد وعمرو ، وإنما كررت للاحتياج إلى تكرر الجار في العطف على الضمير المجرور ، وهو يؤيد مذهب البصريين.

فإن قيل : لم قال : ﴿لا اا أملك إلا نفسي وأخي﴾ وكان معه الرجلان المذكوران ؟ .

فالجواب : كأنه لم يثق بهما كل الوثوق لما رأى [من] إطباق الأكثرين على

٢٧٦

". (١)

"**التمرد** ، ولعله إنما قال ذلك تقليلا لمن وافقه ، أو يكون المراد بالأخ من يؤاخيه في الدين ، وعلى هذا يدخل الرجلان.

والمراد بقوله : ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي : افصل بيننا وبينهم ، بأن تحكم لنا بما تستحق وتحكم عليهم بما يستحقون ، وهو في معنى الدعاء عليهم ، أو يكون المعنى : خلصنا من صحبتهم ، وهو كقوله : ﴿نجني من القوم الظالمين﴾ [القصص : ٢١].

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٧

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٧٣٨

قوله : ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ أي الأرض المقدسة محرمة عليهم أبدا ، لم يرد تحريم تعبد ، وقيل تحريم منع.

[في] قوله : " أربعين سنة " وجهان : أظهرهما أنه منصوب لـ " محرمة " ، فإنه روي في القصة أنهم بعد الأربعين دخلوها ، فيكون قد قيد تحريمها عليهم بهذه المدة ، وأخبر أنهم " يتيهون " ، ولم يبين كمية التيه ، وعلى هذا ففي " يتيهون " احتمالان : أحدهما : أنه مستأنف.

الثاني : أنه حال من الضمير في " عليهم ".

الوجه الثاني : أن " أربعين " منصوب بـ " يتيهون " ، فيكون قيد التيه [بـ " الأربعين "].

[وأما] التحريم فمطلق ، فيحتمل أن يكون مستمرا ، أو يكون منقطعا وأنها أحلت لهم.

وقد قيل بكل من الاحتمالين ، روي أنه لم يدخلها أحد ممن كان في التيه ، ولم يدخلها إلا أبناؤهم [وأما الآباء فماتوا ، وما أدري ما الذي حمل أبا محمد بن عطية على تجويزه أن يكون العامل في " أربعين " مضمرا يفسره] " يتيهون " المتأخر ، ولا ما اضطره إلى ذلك من مانع صناعي أو معنوي ، وجواز الوقف والابتداء بقوله : " عليهم " ، و " يتيهون " [مفهوما مما] تقدم من الإعراب.

والتيه : الحيرة ، ومنه : أرض تيهاء [لحيرة سالكها] قال : [الطويل]

٢٧٧

١٩٥٠ - بتيهاء قفر والمطي كأنها

قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

ويقال : " تاه يتيه وهو أتيه منه ، وتاه يتوه وهو أتوه منه " [فقول من قال : يتيه ، وتوهته] من التداخل ، ومثله : " طاح " في كونه سمع في عينيه الوجهان ، وأن فيه التداخل - أيضا - فإن من قال : " يطيح " قال : " طوحته " ، وهو " أطوح منه ".

واختلفوا في التيه ، قال [الربيع :] مقدار ستة فراسخ ، وقيل : تسعة فراسخ في ثلاثين فرسخا ، وقيل : ستة فراسخ في اثني عشر فرسخا.

وقيل : كانوا ستمائة ألف فارس.

فإن قيل : كيف يعقل بقاء هذا الجمع العظيم في هذا القدر الصغير من المفازة أربعين سنة بحيث لا يتفق لأحد منهم أن يجد طريقا إلى الخروج عنها ؟ ولو أنهم وضعوا أعينهم على حركة الشمس أو الكواكب لخرجوا منها ، ولو كانوا في البحر العظيم فكيف في المفازة الصغيرة ؟ .

فالجواب فيه وجهان : الأول : أن انخراق العادات في زمن الأنبياء غير مستبعد ، إذ لو فتحنا باب الاستبعاد لزم الطعن في جميع المعجزات ، وهو باطل.

الثاني : إذا جعلنا ذلك التحريم تحريم تعبد ، زال السؤال ؛ لأن الله تعالى حرم عليهم الرجوع إلى أوطانهم ، وأمرهم بالمكث في تلك المفازة أربعين سنة مع المشقة والمحنة جزاء لهم على سوء صنيعهم.

قال القرطبي : [قال] أبو علي : قد يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التي هم عليها إذا ناموا فيردهم إلى المكان الذي ابتدؤوا منه ، وقد يكون بغير ذلك من الاشتباه والأسباب [المانعة من] الخروج عنها على طريق المعجزة الخارجة عن العادة.

قال بعضهم : إن هارون وموسى لم يكونا فيهم ، والصحيح : أنهما كانا فيهم ، ولم يكن لهما عقوبة لكن كما كانت النار على إبراهيم بردا وسلاما وإنما كانت العقوبة لأولئك الأقوام ، ومات في التيه كل من دخلها ممن جاز عشرين سنة غير يوشع وكالب ، ولم يدخل أريحاء أحد ممن قالوا : ﴿إنا لن ندخلهآ [أبدا]﴾ [المائدة : ٢٤] فلما هلكوا وانقضت الأربعون

٢٧٨

." (١)

" -كان يولد له [في كل بطن] غلام وجارية وكان يزوج [تلك] البنت من البطن بالغلام من بطن آخر ، فولد له قابيل [وتوأمته ،] قال الكلبي : وكان اسمها " إقليمياء " - ، وبعدهما هابيل وتوأمته وكانت توأمة قابيل أحسن الناس وجها ، فأراد آدم - عليه السلام - أن يزوجها من هابيل ، فأبى قابيل وقال : أنا أحق بها وهو أحق بأخته وليس هذا من الله وإنما هو رأيك ، فقال آدم - عليه السلام - لهما : قربا قربانا فأيكما قبل قربانه زوجتها منه ، فقربا قربانين ، فقبل الله قربان هابيل بأن أنزل على قربانه نارا فازداد قابيل حسدا له.

قال القرطبي : وروي عن جعفر الصادق - رضي الله عنه - " أن آدم - عليه السلام - لم يكن يزوج ابنته من ابنه ، ولو فعل ذلك ما رغب عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا كان دين آدم عليه السلام إلا دين النبي صلى الله عليه وسلم...

" ، وذكر قصته.

قال القرطبي : وهذه القصة عن جعفر ما أظنها تصح ، وأنه يزوج غلام هذا البطن إلى البطن الآخر ،

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٧٣٩

بدليل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونسآء﴾ [النساء : ١] ، وهذا كالنص ثم نسخ ذلك على ما تقدم بيانه في " سورة البقرة " وكان جميع ما ولدته حواء أربعين ولدا ذكرا ، وأنثى : عشرين بطنا أولهم قابيل ، وتوأمته إقليمياء وآخرهم عبد المغيث ، ثم بارك الله في نسل آدم - عليه الصلاة والسلام - .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لم يمت آدم - عليه السلام - حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا.

والقول الثاني : وهو قول الحسن والضحاك : أن ابني آدم اللذين قربا القربان ما كانا ابني آدم لصلبه ، وإنما كانا رجلين من بني إسرائيل [كانت بينهما خصومة ، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل] ؛ لقوله تعالى في آخر القصة : ﴿من أجل ذالك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾ [المائدة : ٣٢].

وصدور الذنب من ابني آدم ، لا يصلح أن يكون سببا لإيجاب القصاص عليهم زجرا لهم عن المعاودة إلى مثل هذا الذنب ، ويدل عليه أيضا أن المقصود من هذه القصة : بيان أن اليهود من قديم الدهر مصرون على **التمرد** والحسد حتى بلغ بهم هذا الحسد إلى أن أحدهما لما قبل الله قربانه حسده الآخر وقتله ، ولا شك أن هذا ذنب عظيم.

فإن قبول القربان مما يدل [عليه أن صاحبه] حسن الاعتقاد [وأنه] مقبول عند الله - تعالى - فتجب المبالغة في تعظيمه ، فلما أقدم على قتله [وقتله] مع هذه الحالة دل ذلك على أنه قد بلغ في الحسد أقصى الغايات ، وإذا كان المراد أن الحسد داء قديم في بني إسرائيل ، وجب أن يقال : [هذان الرجلان] كانا من بني إسرائيل ، والصحيح الأول ؛ لأن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول ، حتى تعلم ذلك من عمل الغراب ولو كان من بني إسرائيل لما خفي عليه هذا الأمر - والله سبحانه أعلم - .

فصل قوله تعالى : " بالحق " فيه ثلاثة أوجه :

٢٨٤

". (١)

"ويحسن أن يقدر هذا المحذوف المعادل بعد قوله : " لفاسقون " ، والذي ينبغي ألا يقال : في هذا النوع ثم حذف ؛ لأن ذلك من باب فحوى الخطاب ، والأمر فيه واضح.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٧٤٢

فصل المعنى : " فإن تولوا " : أعرضوا عن الإيمان ولم يقبلوا حكمك ، ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم﴾ أي : فاعلم أن إعراضهم من أجل أن يريد الله أن يعجل لهم العقوبة في الدنيا ، بأن يسلط عليهم ويعذبهم في الدنيا [بالقتل والجلاء] ، وخص تعالى بعض الذنوب ؛ لأن القتل جوزوا به في الدنيا ببعض ذنوبهم ، وكانت مجازاتهم بالبعض كافيا في إهلاكهم ، ﴿وإن كثيرا من الناس﴾ ، يعني : اليهود.

" لفاسقون " **لمتمردون** في الكفر ومعتدون فيه.

قوله تعالى : " أفحكم " : الجمهور على ضم الحاء ، وسكون الكاف ونصب الميم ، وهي قراءة واضحة.

و " حكم " مفعول مقدم ، و " يبغون " فعل وفاعل ، وهو المستفهم عنه في المعنى.

و " الفاء " فيها القولان المشهوران : هل هي مؤخرة عن الهمزة وأصلها التقديم ، أو قبلها جملة عطفت ما بعدها عليها تقديره : أيعدلون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية ؟ وقرأ ابن وثاب ، والأعرج ، وأبو رجاء ، وأبو عبد الرحمن برفع الميم ، وفيها وجهان : أظهرهما - وهو المشهور عند المعربين - : أنه مبتدأ ، و " يبغون " خبره ، وعائد المبتدأ محذوف تقديره : " يبغونه " حملا للخبر على الصلة ، إلا أن بعضهم جعل هذه القراءة خطأ ، حتى قال أبو بكر بن مجاهد : " هذه القراءة خطأ " ، وغيره يجعلها ضعيفة ، ولا تبلغ درجة الخطأ.

قال ابن جني في قول ابن مجاهد : ليس كذلك ، ولكنه وجه غيره أقوى منه ، وقد جاء في الشعر ، قال أبو النجم : [الرجز] ١٩٧٧ - قد أصبحت أم الخيار تدعي

علي ذنبا كله لم أصنع

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٧٢

٣٧٤

أي : لم أصنعه.

قال ابن عطية : وهكذا الرواية ، وبها يتم المعنى الصحيح ؛ لأنه أراد التبرؤ من جميع الذنوب ، ولو نصب "كل " لكان ظاهر قوله أنه صنع بعضه ، وهذا الذي ذكره ابن عطية معنى صحيح نص عليه أهل علم المعاني والبيان ، واستشهدوا على ذلك بقوله - عليه السلام - " حين سأله ذو اليدين ، فقال : " أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فقال : "كل ذلك لم يكن " أراد - عليه السلام - انتفاء كل فرد فرد ، وأفاد هذا المعنى تقديم "كل " ، قالوا : ولو قال : " لم يكن كل ذلك " لاحتمل الكلام أن البعض غير منفي ، وهذه المسألة تسمى عموم السلب ، وعكسها نحو : " لم أصنع كل ذلك " يسمى سلب العموم ، وهذه مسألة

مفيدة ، وإن كان بعض الناس قد فهم عن سيبويه غير ما [ذكرت لك].
ثم قال ابن عطية : وهو قبيح – يعني : حذف العائد من الخبر – وإنما يحذف الضمير كثيرا من الصلة ، ويحذف أقل من ذلك من الصفة ، وحذفه من الخبر قبيح.
ولكنه رجح البيت على هذه القراءة بوجهين.
أحدهما : أنه ليس في صدر قوله [ألف] استفهام تطلب الفعل ، كما هي في " أفحكم ".
٣٧٥
." (١)

"والثاني : تقدم الصلة على الموصول ، والتقدير : هل تكرهون منا إلا إيماننا.
انتهى.
وفي قوله : مفعول أول ، ومفعول ثان نظر ؛ لأن الأفعال التي تتعدى لاثنين إلى أحدهما بنفسها ، وإلى الآخر بحرف الجر محصورة ك " أمر " ، و " اختار " ، و " استغفر " ، و " صدق " و " سمى " ، و " دعا " بمعناه ، و " زوج " ، و " نبأ " ، و " أنبأ " ، و " خبر " ، و " أخبر " ، و " حدث " غير مضمنة معنى " أعلم " ، وكلها يجوز فيها إسقاط الخافض والنصب ، وليس هذا منها.
وقوله : " ولا يجوز أن يكون حالا " يعني : أنه لو تأخر بعد " أن آمنا " لفظة " منا " ، لجاز أن تكون حالا من المصدر المؤول من " أن " وصلتها ، ويصير التقدير : هل تكرهون إلا الإيمان في حال كونه " منا " ، لكنه امتنع من تقدمه على " أن آمنا " للوجهين المذكورين.
أحدهما : تقدمه على " إلا " ويعني بذلك : أن الحال لا تتقدم على " إلا ".
قال شهاب الدين : ولا أدري ما يمنع ذلك لأنه إذا جعل " منا " حالا من " أن " و " ما " في حيزها كان حال الحال مقدرا ، ويكون صاحب الحال محصورا ، وإذا كان صاحب الحال محصورا وجب تقديم الحال عليه ، فيقال : " ما جاء راكبا إلا زيد " ، و " ما ضربت مكتوفا إلا عمرا " ، ف " راكبا " و " مكتوفا " حالان مقدمان وجوبا لحصر صاحبيهما فهذا مثله.
وقوله : " [والثاني : تقدم الصلة على الموصول] لم تتقدم صلة على موصول.
بيانه : أن الموصول هو " أن " ، والصلة " آمنا " ، و " منا " ليس متعلقا بالصلة ، بل هو معمول لمقدر ، ذلك المقدر في الحقيقة منصوب ب " تنقمون " ، فما أدري ما توهمه حتى قال ما قال ؟ على أنه لا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٧٩٣

يجوز أن يكون حالا ، لكن لا لما ذكر ؛ بل لأنه يؤدي إلى أنه يصير التقدير : " هل تنقمون إلا إيماننا منا " فمن نفس قوله : " إيماننا " فهم أنه منا ، فلا فائدة فيه حينئذ.

فإن قيل : تكون حالا مؤكدة.

قيل : هذا خلاف الأصل ، وليس هذا من مظانها ، وأيضا فإن هذا شبيه بتهيئة العامل للعمل ، وقطعه عنه ، فإن " تنقمون " يطلب هذا الجار طلبا ظاهرا.

وقرأ الجمهور " وما أنزل إلينا وما أنزل [من قبل] " بالبناء للمفعول فيهما ، وقرأ أبو نهيك : " أنزل ، وأنزل " بالبناء للفاعل ، وكلتاهما واضحة.

٤٠٤

فصل المعنى : قل لأهل الكتاب : لم اتخذتم هذا الدين هزوا ولعبا ، ثم قال على سبيل التعجب : هل تجدون في هذا الدين إلا الإيمان بالله ؟ ! فهو رأس جميع الطاعات ، وإلا الإيمان بمحمد ، وبجميع الأنبياء فهو الحق والصدق ؛ لأنه إذا كان الطريق إلى تصديق بعض الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في ادعاء الرسالة والنبوة هو المعجزة.

ثم رأينا أن المعجز حصل على يدي محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فوجب الإقرار بكونه رسولا ، فأما الإقرار بالبعض وإنكار البعض فذلك تناقض ومذهب باطل.

قوله تعالى : ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ قرأ الجمهور : " أن " مفتوحة الهمزة.

وقرأ نعيم بن ميسرة بكسرها.

فأما قراءة الجمهور فتحتمل " أن " فيها أن تكون في محل رفع ، أو نصب ، أو جر ، فالرفع من وجه واحد ، وهو أن تكون مبتدأ ، والخبر محذوف.

قال الزمخشري : " والخبر محذوف ، أي : فسقكم ثابت معلوم عندكم ؛ لأنكم علمتم أنا على الحق ، وأنتم على الباطل ، إلا أن حب الرئاسة ، وجمع الأموال لا يدعكم فتنصفوا ".

فقدر الخبر متأخرا.

قال أبو حيان : ولا ينبغي أن يقدر الخبر إلا مقدما ؛ لأنه لا يبتدأ بـ " أن " على الأصح إلا بعد " أما " انتهى.

ويمكن أن يقال : يغتفر في الأمور التقديرية ما لا يغتفر في اللفظية ، لا سيما أن هذا جار مجرى تفسير المعنى ، والمراد إظهار ذلك الخبر [كيف] ينطق به ؛ إذ يقال : إنه يرى جواز الابتداء بـ " أن " مطلقا ،

فحصل في تقدير الخبر وجهان بالنسبة إلى التقديم والتأخير.

وأما النصب فمن ستة أوجه : أحدها : أن يعطف على " أن آمنا " واستشكل هذا التخريج من حيث إنه يصير التقدير : هل تكرهون إلا إيماننا ، وفسق أكثركم ، وهم لا يعترفون بأن أكثرهم فاسقون حتى يكرهونه.

وأجاب الزمخشري وغيره عن ذلك بأن المعنى : " وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا ، وبين تمردكم ، وخروجكم عن الإيمان ، كأنه قيل : وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه ".

ونقل الواحدي عن بعضهم أن ذلك من باب المقابلة والازدواج ، يعني أنه لما نقم

٤٠٥

" (١).

"والمقصود : بيان عيوب بني إسرائيل ، وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله ، وهذا متعلق بأول السورة ، وهو قوله تعالى : ﴿أوفوا بالعقود﴾ [المائدة : ١].

قوله تعالى : ﴿كلما جآءهم رسول﴾ : قد تقدم الكلام [الآية ٢٠ من البقرة] على " كلما " مشبعا ، فأغنى عن إعادته ، وقال الزمخشري : " كلما جاءهم رسول " جملة شرطية وقعت صفة لـ " رسلا " ، والراجع محذوف ، أي : " رسول منهم " ، ثم قال : " فإن قلت : أين جواب الشرط ، فإن قوله : ﴿فريقا كذبوا وفريقا يقتلون﴾ ناب عن الجواب ؛ لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين ؛ ولأنه لا يحسن أن تقول : " إن أكرمت أخي ، أخاك

٤٥٠

أكرمت " ؟ قلت : هو محذوف ؛ يدل عليه قوله : ﴿فريقا كذبوا ، وفريقا يقتلون﴾ ، كأنه قيل : كلما جاءهم رسول ، ناصبوه ، وقوله : " فريقا كذبوا " جواب مستأنف لقائل يقول : كيف فعلوا برسلهم ؟ " قال أبو حيان : " وليس "كلما " شرطا ، بل "كل " منصوب على الظرف و " ما " مصدرية ظرفية ، ولم يجزم العرب بـ "كلما " أصلا ، ومع تسليم أن "كلما " شرط ؛ فلا يمتنع ؛ لما ذكر ، أما الأول ؛ فلأن المراد بـ " رسول " الجنس لا واحد بعينه ، فيصح انقسامه إلى فريقين ؛ نحو : " لا أصحبك ما طلع نجم " أي : جنس النجوم ، وأما الثاني ؛ فيعني أنه لا يجوز تقديم معمول جواب الشرط عليه ".

وهذا الذي منعه إنما منعه الفراء وحده ، وأما غيره ، فأجاز ذلك ، وهذا مع تسليم أن "كلما " شرط ،

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٨١٢

وأما إذا مشينا على أنها ظرفية ، فلا حاجة إلى الاعتذار عن ذلك ، ولا يمتنع تقديم معمول الفعل العامل في "كلما " تقول : "كلما جئتني أخاك أكرمت " ، قال شهاب الدين : هذا واضح من أنها ليست شرطا ، وهذه العبارة تكثر في عبارة الفقهاء دون النحاة ، وفي عبارة أبي البقاء ما يشعر بما قاله الزمخشري ، فإنه قال : " وكذبوا " جواب "كلما " و " فريقا " مفعول بـ "كذبوا " ، و " فريقا " منصوب بـ " يقتلون " ، وإنما قدم مفعول " يقتلون " لتواخي رؤوس الآي ، وقدم مفعول "كذبوا " مناسبة لما بعده.

قال الزمخشري : " فإن قلت : لم جيء بأحد الفعلين ماضيا ، وبالآخر مضارعا ؟ قلت : جيء بـ " يقتلون " على حكاية الحال الماضية ؛ استفظاعا للقتل ، واستحضارا لتلك الحال الشنيعة ؛ للتعجب منها ".

انتهى ، وقد يقال : فلم لا حكيت حال التكذيب أيضا ، فيجاء بالفعل مضارعا لذلك ؟ ويجاب بأن الاستفظاع في الـقتل وشناعته أكثر من فظاعة التكذيب ، وأيضا ؛ فإنه لما جيء به مضارعا ناسب رؤوس الآي.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٥٠

قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو " تكون " برفع النون ، والباقون بنصبها ، فمن رفع فـ " أن " عنده مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الأمر والشأن محذوف ، تقديره ، أنه ، و " لا " نافية ، و " تكون " تامة ، و " فتنة " فاعلها ، والجملة خبر " أن " ، وهي مفسرة لضمير الأمر والشأن ، وعلى هذا ، فـ " حسب " هنا لليقين ، لا للشك ؛ ومن مجيئها لليقين قول الشاعر : [الطويل]

٤٥١

٢٠٢٠ - حسبت التقى والجود خير تجارة

رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقلا

أي : تيقنت ؛ لأنه لا يليق الشك بذلك ، وإنما اضطررنا إلى جعلها في الآية الكريمة بمعنى اليقين ؛ لأن " أن " المخففة لا تقع إلا بعد يقين ، فأما قوله : [البسيط] ٢٠٢١ - أرجو وآمل أن تدنو مودتها

وما إخال لدينا منك تنويل

فظاهره : أنها مخففة ؛ لعدم إعمالها ، وقد وقعت بعد " أرجو " و " آمل " وليسا بيقين ، والجواب من وجهين : أحدهما : أن " أن " ناصبة ، وإنما أهملت ؛ حملا على " ما " المصدرية ؛ ويدل على ذلك أنها لو كانت مخففة ، لفصل بينها وبين الجملة الفعلية بما سنذكره ، ويكون هذا مثل قول الله تعالى : ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة : ٢٣٣] ؛ وكقوله : [البسيط] ٢٠٢٢ - يا صاحبي فدت نفسي

نفوسكما

وحيثما كنتما لقيتما رشدا

أن تحملا حاجة لي خف محملها

تستوجبا نعمة عندي بها ويدا

أن تقرآن على أسماء ويحكما

مني السلام وألا تشعرا أحدا

فقوله : " ان تقرآن " بدل من " حاجة " ، وقد أهمل " أن " ؛ ومثله قوله : [مجزوء الكامل] ٢٠٢٣

- إني زعيم يا نوي

قة إن نجوت من الرزاح

ونجوت من وصب العدو

و من الغدو إلى الرواح

." (١)

"وقد تقدم إعراب هذا في نحو قوله تعالى : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ [البقرة : ٩٦] ، فأغنى عن إعادته وقال ابن عطية : " اللام للابتداء " ، وليس بشيء ، بل هي لام يتلقى بها القسم ، و " أشد الناس " مفعول أول ، و " عداوة " نصب على التمييز ، و " للذين " متعلق بها ، قويت باللام ؛ لما كانت فرعا في العمل على الفعل ، ولا يضر كونها مؤنثة بالتاء ؛ لأنها مبنية عليها ؛ فهي كقوله : [الطويل]

٢٠٣١ - ....

ورهبة

عقابك..................

ويجوز أن يكون " للذين " صفة لـ " عداوة " فيتعلق بمحذوف ، و " اليهود " مفعول ثان ، وقال أبو البقاء : " ويجوز أن يكون " اليهود " هو الأول ، و " أشد " هو الثاني " وهذا هو الظاهر ؛ إذ المقصود أن يخبر الله تعالى عن اليهود والمشركين بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين ، وعن النصارى بأنهم أقرب الناس مودة لهم ، وليس المراد أن يخبر عن أشد الناس وأقربهم بكونهم من اليهود والنصارى ، فإن قيل : متى استويا تعريفا وتنكيرا ، وجب تقديم المفعول الأول وتأخير الثاني ؛ كما يجب في المبتدأ والخبر ، وهذا من ذاك

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٨٤٤

، فالجواب : أنه إنما يجب ذلك حيث ألبس ، أما إذا دل دليل على ذلك ، جاز التقديم والتأخير ؛ ومنه قول : [الطويل] ٢٠٣٢ - بنونا بنو أبنائنا ، وبناتنا

بنوهن أبناء الرجال الأباعد

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٧٣

ف " بنو أبناء " هو المبتدأ ، و " بنونا " خبره ؛ لأن المعنى على تشبيه أولاد الأبناء بالأبناء ؛ ومثله قول الآخر : [البسيط]

٤٧٤

٢٠٣٣ - قبيلة الأم الأحياء أكرمها

وأغدر الناس بالجيران وافيها

" أكرمها " هو المبتدأ و " الأم الأحياء " خبره ، وكذا " وافيها " مبتدأ و " أغدر الناس " خبره ، والمعنى على هذا ، والآية من هذا القبيل فيما ذكرنا وقوله : " والذين أشركوا " عطف على اليهود ، والكلام على الجملة الثانية كالكلام على ما قبلها.

فصل تقدير الكلام قسما : إنك تجد اليهود والمشركين أشد عداوة مع المؤمنين ، وقد شرحت لك أن هذا التمرد والمعصية عادة قديمة ، ففرغ خاطرك عنهم ، ولا تبال بمكرهم وكيدهم.

وقوله تعالى : ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا اا إنا نصارى ﴾.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي - رضي الله عنهم - المراد به : النجاشي وقومه الذين قدموا من الحبشة ، وآمنوا به ، ولم يرد جميع النصارى ؛ لأنهم في عداوتهم للمسلمين ، كاليهود في قتلهم المسلمين وأسرهم ، وتخريب بلادهم ، وهدم

٤٧٥

". (١)

"فصل قال سعيد بن المسيب : البحيرة التي درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء.

قال أبو هريرة - رضي الله عنه - ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ؛ وكان أول من سيب السوائب ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٨٦١

وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكثم بن الجون الخزاعي " يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار ؛ فما رأيت من رجل أشبه من رجل منك به ، ولا به منك ؛ وذلك لأنه أول من غير دين إسماعيل ، ونصب الأوثان ، وبحر البحائر ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي ، ولقد رأيته في النار
٥٥٥
يؤذي أهل النار بريح قصبه " فقال أكثم أيضرني شبهه يا رسول الله ؟ قال : " لا.
إنك مؤمن وهو كافر ".

فإن قيل : إذا جاز إعتاق العبيد والإماء ، فلم لا يجوز إعتاق هذه البهائم من الذبح والإيلام ؟ فالجواب من وجهين : الأول : إن الإنسان مخلوق لخدمة الله وعبوديته ، فإذا تمرد عن الطاعة ، عوقب بضرب الرق عليه ، فإذا أزيل الرق عنه تفرغ لعبادة الله تعالى ، وكان ذلك عبادة مستحسنة ، وأما هذه الحيوانات ، فإنها مخلوقة لمنافع المكلفين ، فتركها وإهمالها يقتضي فوات منفعة على مالكها ، من غير أن يحصل في مقابلتها فائدة.

والثاني : أن الإنسان إذا أعتق ، قدر على تحصيل مصالح نفسه ، والبهيمة إذا عتقت وتركت ، لم تقدر على تحصيل مصالح نفسها ، بل تقع في أنواع من المحنة أشد وأشق مما كانت فيها حال ما كانت مملوكة ، فافترقا.

فصل قال القرطبي : تعلق أبو حنيفة في منعه الأحباس ورد الأوقاف ، بأن الله تعالى عاب على العرب أفعالهم في تسييب البهائم وحمايتها ، وحبس أنفسها عنها ، وقاس ذلك على البحيرة والسائبة.

قال القرطبي : والفرق بين ، قال علقمة لمن سأله عن هذه الأشياء ، ما تريد إلى شيء كان من عمل الجاهلية ؟ ! وقد ذهب جمهور العلماء على جواز الأحباس والأوقاف ، لما روى نافع ، عن ابن عمر : " أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يتصدق بسهمه بخيبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " احبس الأصل أو سبل الثمرة ".

ثم قال تعالى ﴿ولاكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾.

قال ابن عباس : يريد عمرو بن لحي وأعوانه ، ﴿يفترون على الله﴾ هذه الأكاذيب ، ويقولون : أمرنا بها ، قالوا : وساء ما يفترون على الله الكذب ، والأتباع والعوام أكثرهم لا يعقلون.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٥٥٢

". (١)

"وفهم ، فأما من أعرض **وتمرد** فهو تعالى ما صرف هذه الآيات لهم.

قوله تعالى : ﴿وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل﴾ قوله : " وكذب به " " الهاء " في " ربه " تعود على العذاب المتقدم في قوله : " عذابا من فوقكم " قال الزمخشري.

وقيل : تعود على القرآن.

وقيل : تعود على الوعيد المتضمن في هذه الآيات المتقدمة.

وقيل : على النبي صلى الله عليه وسلم وهذا بعيد ؛ لأنه خوطب بالكاف عقيبه ، فلو كان كذلك لقال : وكذب به قومك ، وادعاء الالتفات فيه أبعد.

وقيل : لا بد من حذف صفة هنا ، أي : وكذب به قومك المعاندون ، أو الكافرون ؛ لأن قومه كلهم لم يكذبوه ، كقوله : ﴿إنه ليس من أهلك﴾ [هود : ٤٦] أي الناجين ، وحذف الصفة وبقاء الموصوف قليل جدا ، بخلاف العكس.

وقرأ ابن أبي عبلة : " وكذبت " بتاء التأنيث ، كقوله تعالى : ﴿كذبت قوم نوح﴾ [الشعراء : ١٠٥] ، ﴿كذبت قوم لوط﴾ [الشعراء : ١٦٠] باعتبار الجماعة.

قوله : " وهو الحق " في هذه الجملة وجهان : الظاهر منهما : أنها استئناف.

والثاني : أنها حال من " الهاء " في " به " ، أي : كذبوا به في حال كونه حقا ، وهو أعظم في القبح.

والمعنى أن الضمير في " به " للعذاب ، فمعنى كونه حقا لا بد أن ينزل بهم ، وإن عاد إلى القرآن ، فمعنى كونه حقا ، أي : كتاب منزل من عند الله ، وإن عاد إلى تصريف الآيات أي : أنهم كذبوا كون هذه الأشياء دلالات ، وهو حق.

قوله : " عليكم " متعلق بما بعده ، وهو توكيد ، وقدم لأجل الفواصل ، ويجوز أن يكون حالا من قوله : " بوكيل " ؛ لأنه لو تأخر لجاز أن يكون صفة له ، وهذا عند من يجيز تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف ، وهو اختيار جماعة ، وأنشدوا عليه : [الخفيف] ٢١٩٣ - غافلا تعرض المنية للمرء

فيدعى ولات حين إباء

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠١

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٩٢١

٢٠٥
فقدم " غافلا " على صاحبها ، وهو " المرء " ، وعلى عامها وهو " تعرض " فهذا أولى.
ومنه [الطويل] ٢١٩٤ - لئن كان برد الماء هيمان صاديا
إلي حبيبا إنها لحبيب
أي : إلي هيمان صاديا ، ومثله : [الطويل] ٢١٩٥ - فإن يك أذواد أصبن ونسوة
فلن يذهبوا فرغا بقتل حبال
" فرغا " حال من " يقتل " ، و " حبال " بالمهملة اسم رجل مع أن حرف الجر هنا زائد ، فجوازه أولى مما ذكرناه.
فصل في المراد بالآية معنى الآية : قل لهم يا محمد : وقيل : بمسلط ألزمكم الإيمان شئتم أو أبيتم ، وأجازيكم على تكذيبكم ، وإعراضكم عن قبول الدلائل ، إنما أنا رسول ومنذر ، والله المجازي لكم بأعمالكم.
قال ابن عباس والمفسرون : نسختها آية القتال ، وهو بعيد.
قوله : ﴿لكل نبإ مستقر﴾ [الأنعام : ٦٧] يجوز رفع " نبأ " بالابتدائية ، وخبره الجار قبله ، وبالفاعلية عند الأخفش بالجار قبله ، ويجوز أن يكون " مسقر " اسم مصدر أي : استقرار [مكان ، أو زمان ؛] لأن ما زاد على الثلاثي كان المصدر منه على زنة اسم المفعول ؛ نحو : " المدخل " و " المخرج " بمعنى " الإدخال " و " الإخراج " ، والمعنى أن لك وعد ووعيد من الله استقرار ، ولا بد وأن يعلموا [أن الأمر كما أخبر الله تعالى] ويجوز أن يكون مكان الاستقرار أو زمانه [وأن] لكل خبر يخبره الله وقتا أو مكانا يحصل فيه من غير خلف ولا تأخير ، وهذا الذي خوف الكفار به يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة ، ويجوز أن يكون المراد منه الاستيلاء عليهم بالحرب والقتل في الدنيا.
جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠١
قال تعالى في الآية الأولى ﴿وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل﴾ [الأنعام : ٦٦] فتبين به أنه لا يجب على الرسول ملازمة المكذبين بهذا الدين.
٢٠٦
." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٢٠٨١

"كونهم أعداء له ، وذلك يقتضي صيرورتهم أعداء للأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ؛ لأن العداوة لا تحصل إلا من الجانبين ، فلهذا أن يقال : إنه – تعالى – جعلهم أعداء للأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – .

وهذه أوجوبه ضعيفة لما تقدم الأفعال مسندة إلى الدواعي ، وهي حادثة من قبل الله – تعالى – وإذا كان كذلك ، صح مذهبنا ، ثم ههنا بحث آخر ، وهو أن العداوة ، والصداقة يمتنع أن تحصل باختيار الإنسان ؛ فإن الرجل قد يبلغ في عداوة غيره إلى حيث لا يقدر ألبتة على إزالة تلك الحالة عن قلبه ، بل قد لا يقدر على إخفاء آثار تلك العداوة ، ولو أتى بكل تكلف وحيلة ، لعجز عنه ، ولو كان حصول العداوة والصداقة في القلب باختيار الإنسان ، لوجب أن يكون الإنسان متمكنا من قلب العداوة بالصداقة ، وبالعكس ، فكيف لا ، والشعراء عرفوا أن ذلك خارج عن الوسع قال المتنبي[المتقارب] ٢٢٨٨ – يراد من القلب نسيانكم

وتأبى الطباع على الناقل

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٨٣

والعاشق الذي يشتد عشقه [قد] يحتال بجميع الحيل في إزالة عشقه ، ولا يقدر عليه ولو كان حصول ذلك الحب والبغض باختياره ، لما عجز عن إزالته.

فصل في معنى الآية قال عكرمة ، والضحاك ، والكلبي : المعنى : شياطين الإنس التي مع شياطين الجن ، وذلك أن إبليس قسم جنده فريقين ، فبعث فريقا منهم إلى الإنس ، و فريقا إلى الجن ، وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولأوليائه ، وهم يلتقون في كل حين ، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن : أضللت صاحبي بكذا ، فأضلل صحبك بمله ، ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك.

فلذلك وصى بعضهم إلى بعض.

وقال قتادة ، ومجاهد ، والحسن : إن من الإنس شياطين ، كما أن من الجن شياطين ، والشيطان الثاني **المتمرد** من كل شيء.

قالوا : إن الشيطان إذا أعياه المؤمن ، وعجز عن إغوائه ، ذهب إلى **متمرد** من الإنس : وهو شيطان الإنس ، فأغراه بالمؤمن ليفتنه ، يدل عليه ما " روي عن أبي ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس ، قلت يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين ، قال نعم ، هم شر من شياطين الجن ".

". (١)

"قمت فيما يأتي لم يتقدم قيامك فيما مضى " ومعلوم أن قيامك في المستقبل لم يتقدم قيامك هذا.

وقال الواحدي : إن قيل : ما معنى هذا مع استحالة التقديم على الأجل وقت حضوره ؟ وكيف يحسن التقديم مع هذا الأجل ؟ قيل : هذا على المقاربة ؛ لأن العرب تقول : " جاء الشتاء " إذا قرب وقته ، ومع مقاربة الأجل يتصور الاستقدام ، وإن كان لا يتصور مع الانقضاء ، والمعنى : لا يستأخرون عن آجالهم إذا انقضت ، ولا يستقدمون عليها إذا قاربت الانقضاء ، وهذا بناء منه على أنه معطوف على " لا يستأخرون " ، وهو ظاهر أقوال المفسرين.

فصل في المراد بـ " الأجل " في المراد بهذا الأجل قولان : قال ابن عباس والحسن ومقاتل : " المراد به نزول العذاب على كل أمة كذبت رسولها ".

والثاني : أن المراد به الأجل.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٩٩

لما بين أحوال التكاليف ، وأن لكلِّ أمة أجلا معينا - بين أنهم بعد الموت إن كانوا مطيعين فلا خوف عليهم ولا حزن ، وإن كانوا متمردين وقعوا في أشد العذاب.

قيل : أراد " بني آدم " مشركي العرب ، وقد تقدم إعراب نظيره في البقرة ، وهي أن الشرطية ضمت إليها مؤكدة لمعنى الشرط ، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة ، وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط ، والجزاء وهو قوله تعالى : ﴿فمن اتقى وأصلح﴾.

و " منكم " صفة لطرسل " ، وكذلك " يقصون " وقدم الجار على الجملة لأنه أقرب إلى المفرد منها.

قال مقاتل : أراد بالرسل الرسول - عليه الصلاة والسلام - إنما قال : " رسل " ، وإن كان خطابا للرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وهو خاتم الأنبياء ؛ لأنه أجرى الكلام على ما يقتضيه سنته في الأمم.

وقيل : أراد جميع الرسل ، وإنما قال : " منكم " ؛ لأن كون الرسول منهم أقطع لعذرهم ، وأمعن للحجة عليهم من جهات : وقيل : أراد جميع الرسل ، وإنما قال : " منكم " ؛ لأن كون الرسول منهم أقطع لعذرهم ، وأمعن للحجة عليهم من جهات : أحدها : أن معرفتهم بأحواله وبطهارته تكون متقدمة.

وثانيها : أن معرفتهم بما يليق بقدرته تكون متقدمة فلا جرم لا يقع في المعجزات

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢١٨٥

التي تظهر عليه شك وشبهة في أنها حصلت بقدرة الله تبارك وتعالى ، لا بقدرته ، ولهذا السبب قال تبارك وتعالى : ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا﴾ [الأنعام : ٩].
وثالثها : ما يحصل من الألفة وسكون القلب إلى أبناء الجنس ، بخلاف من لا يكون من الجنس ، فإنه لا يحصل معه الألفة.
قوله : ﴿يقصون عليكم آياتي﴾.
قيل : الآيات : القرآن ، وقيل : الدلائل ، وقيل : الأحكام والشرائع.
والأولى دخول الكل فيه ؛ لأن الرسل إذا جاءوا فلا بد يذكرون جميع هذه الأقسام.
قوله : " فمن " يحتمل أن يكون شرطية ، وأن تكون موصولة ، فإن كان الأول ؛ كانت هي وجوابها جوابا للشرط الأول كما تقدم ، وهي مستقلة بالجواب دون التي تفيد جوابها وهي " والذين كذبوا " ، وإن كان الثاني كانت هي وجوابها ، والجملة المشار غليها كلاهما جوابا للشرط ، كأنه قسم جواب قوله : " إما يأتينكم " إلى متق ومكذب ، وجر كلا منهما ، وقد تقدم تحقيق هذا في البقرة.
وحذف مفعولي " اتقى وأصلح " اختصارا للعلم بهما أي : اتقى ربه وأصلح عمله ، أو اقتصارا أي : فمن كان من أهل التقوى والصلاح من غير نظر إلى مفعول ، كقوله تعالى : ﴿هو أغنى وأقنى ﴾ [النجم : ٤٨] ولكن لا بد من تقدير رابط بين هذه الجملة ، وبين الجملة الشرطية ، والتقدير : فمن منكم والذين كذبوا منكم.
وقرأ أبي والأعرج " تأتينكم " بتاء مثناة من فوق نظرا إلى معنى جماعة الرسل فيكون قوله تعالى " يقصون " بالياء من تحت حملا على المعنى إذ لو حمل على اللفظ لقال : " تقص " بالتأنيث أيضا.
مطلب : هل يلحق المؤمنين خوف يوم القيامة أو لا ؟ المعنى : لا خوف عليهم بسبب الأحوال المستقبلة ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم في الدنيا ؛ لأن حزنهم على عقاب الآخرة بما حصل لهم من زوال الخوف ، فيكون كالمعاد ، وحمله على الفائدة الزائدة أولى.
واختلف العلماء في أن المؤمنين من أهل الطاعات هل يلحقهم خوف أو حزن عند أهوال القيامة ، فقال بعضهم : لا يلحقهم لهذه الآية الكريمة ، ولقوله تعالى : ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ [الأنبياء : ١٠٣] ، وذهب بعضهم إلى أنه يلحقهم ذلك الفزع الأكبر لقوله تعالى : ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمآ أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى

١٠١

." (١)

"البدن والمال] بعد البأساء والضراء يدعو إلى الانقياد ، والاشتغال بالشكر.

وفي " مكان " وجهان : أظهرهما : أنه مفعول به لا ظرف ، والمعنى : بدلنا مكان الحال السيئة [الحال الحسنة] ، فالحسنة هي المأخوذة الحاصلة ومكان السيئة هو المتروك الذاهب ، وهو الذي تصحبه " الباء " في مثل هذا التركيب لو قيل في نظيره : بدلت زيدا بعمرو ، فزيد هو المأخوذ ، وعمرو المتروك ، وقد تقدم تحقيق هذا في البقرة في موضعين : أولهما : ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ [البقرة : ٥٩].

والثاني : ﴿ومن يبدل نعمة الله﴾ [البقرة : ٢١١].

ف " مكان " و " الحسنة " مفعولان إلا أن أحدهما وصل إليه الفعل بنفسه [وهو " الحسنة "] ، والآخر بحذف حرف الجر وهو " مكان ".

والثاني : أنه منصوب على الظرف ، والتقدير : " ثم بدلنا [في] مكان السيئة الحسنة " إلا أن هذا ينبغي أن يرد ؛ لأن " بدل " لا بد له من مفعولين أحدهما على إسقاط الباء.

والمراد بالحسنة والسيئة هاهنا : الشدة والرخاء.

قال أهل اللغة : " السيئة : كل ما يسوء صاحبه ، والحسنة : كل ما استحسنه الطبع والعقل ".

قوله : " حتى عفوا " " حتى " هنا غائية ، وتقدير من قدرها ب " إلى " فإنما يريد تفسير المعنى لا الإعراب ؛ لأن حتى الجارة لا تباشر إلا المضارع المنصوب بإضمار " أن " ؛ لأنها في التقدير داخلة على المصدر المنسبك منها ، ومن الفعل ، [وأما الماضي] فلا يطرد حذف " أن " معه ، فلا يقدر معه أنها حرف جر داخلة على أن المصدرية ، أي : حتى أن عفوا ، وهذا الذي ينبغي أن يحمل عليه قول أبي البقاء : " حتى عفوا أي : إلى أن عفوا ".

ومعنى " عفوا " هنا كثروا من عفا الشعر إذا كثر ، ومنه : " وأعفوا اللحى " يقال : عفاه ، وأعفاه ثلاثيا ورباعيا ؛ قال زهير : [الوافر] ٢٥٣٠ - أذلك أم أقب البطن جأب

عليه من عقيقته عفاء

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٢٣٢

وفي الحديث : " إذا عفا الوبر وبرأ الدبر فقد حضلت العمرة لمن اعتمر ؛ وأنشد الزمخشري على ذلك

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٣٢٧

قول الحطيئة : [الطويل]

٢٣٣

٢٥٣١ - بمستأسد القربان عاف نباته

....

وقول لبيد : [الوافر] ٢٥٣٢ - ولكنا نعض السيف منها

بأسوق عافيات الشحم كوم

وتقدم تحقيق هذه المادة في البقرة.

فصل في المراد من الآية ومعنى الآية أن الله - تعالى - أبدلهم مكان الباساء والضراء الحسنة ، وهي النعمة والسعة والخصب والصحة.

" حتى عفوا " كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، وقالوا من غرتهم وغفلتهم : ﴿قد مس آباءنا الضرآء والسرآء﴾ ، أي : هكذا كانت عادة الدهر قديما لنا ولآبائنا ، ولم يكن ذلك عقوبة من الله ، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم ، فإنهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء.

قوله : " فأخذناهم ".

قال أبو البقاء : " هو عطف على " عفوا ".

يريد : وما عطف عليه أيضا ، أعني أن الأخذ ليس متسببا عن الفاء فقط ، بل عليه وعلى قولهم تلك المقالة الجاهلية ؛ لأن المعنى ليس أنه لمجرد كثرتهم ، ونمو أموالهم أخذهم بغتة بل بمجموع الأمرين ، بل الظاهر أنه بقولهم ذلك فقط.

و " بغتة " إما حالا أو مصدرا ، والبغتة الفجاءة ، ﴿وهم لا يشعرون﴾ حال أيضا وهي في قوة المؤكدة ؛ لأن " بغتة " تفيد إفادتها ، سواء أعربنا " بغتة " حالا أم مصدرا.

واعلم أن الحكمة في حكاية هذا المعنى ليعتبر من سمع هذه القصة.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٢٣٢

لما بين أن الذين عصوا **وتمردوا** ؛ أخذهم بغتة بين في هذه الآية انهم لو أطاعوا فتح عليهم أبواب الخيرات ، وقد تقدم أن ابن عامر يقرأ : " لفتحنا " بالتشديد ووافقه هنا عيسى بن عمر الثقفي ، وأبو عبد الرحمن السلمي.

". (١)

"قوله تعالى : ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾ الآية.

قوله تعالى : " فعليه " جواب الشرط ، والشرط الثاني – وهو " إن كنتم مسلمين " – شرط في الأول ، وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا في الوجود ، فالشرط الثاني شرط في الأول ، ولذلك يجب تقدمه على الأول ، وقد تقدم تحقيق ذلك [البقرة : ٣٨].

قال الفقهاء : المتأخر يجب أن يكون متقدما ، والمتقدم يجب أن يكون متأخرا ، مثاله قول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار ، فأنت طالق إن كلمت زيدا ، والمشروط متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ ، متقدما في المعنى ، وأن يكون المتقدم في اللفظ متأخرا في المعنى ، فكأنه يقول لامرأته : حال ما كلمت زيدا إن دخلت الدار ، فأنت طالق ، فلو حصل هذا التعليق ، قيل : إن كلمت زيدا لم يقع الطلاق.

قوله : ﴿ن ﮐﻨﺘم آمنتم بالله فعليه توكلوا اا إن كنتم مسلمين﴾ يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطا ؛ لأن يصيروا مخاطبين بقوله : ﴿إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا اا﴾ فكأنه – تعالى – يقول للمسلم حال إسلامه : إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل ، والأمر كذلك ؛ لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام ، وهو الانقياد لتكاليف الله ، وترك **التمرد** ، والإيمان عبارة عن صيرورة القلب ، عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وأن ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره ، وقهره ، وإذا حصلت هاتان الحالتان ، فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى الله – تعالى – ، ويحصل في القلب نور التوكل على الله – تعالى – .

فصل إنما قال : " فعليه توكلوا " ولم يقل : " توكلوا على الله " ، لأن الأول يفيد الحصر ، كأنه – عليه الصلاة والسلام – أمرهم بالتوكل عليه ، ونهاهم عن التوكل على الغير ، ثم بين – تعالى – أن موسى – عليه الصلاة والسلام – لما أمرهم بذلك قبلوا قوله ﴿فقالوا على الله توكلنا﴾ أي : توكلنا عليه واعتمادنا ، ولم نلتفت إلى أحد سواه ، ثم اشتغلوا بالدعاء ، وطلبوا من الله شيئين : أحدهما : أن قالوا : ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾.

والثاني : ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ أما قولهم : ﴿لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ ففيه وجوه : الأول : لا تفتن بنا فرعون وقومه ؛ لأنك لو سلطتهم علينا ، لوقع في قلوبهم أنا لو كنا على الحق ، لما

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٣٩٤

سلطتهم علينا ؛ فيصير ذلك شبهة قوية في إصرارهم على الكفر ؛ فيكون ذلك فتنة لهم.
الثاني : لو سلتهم علينا ، لاستوجبوا العقاب الشديد في الآخرة ، وذلك يكون فتنة لهم.
٣٩٣
الثالث : أن المراد بالفتنة المفتون ؛ لأن إطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز ، كالخلق بمعنى المخلوق والتقدير : لا تجعلنا مفتونين بأن يقهرونا بالظلم على أن ننصرف من هذا الدين الذي قبلناه ، ويؤكد هذا قوله : ﴿فمآ آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾ [يونس : ٨٣] وأما المطلوب الثاني ، فهو قوله : ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾.
وهذا يدل على أن اهتمامهم بأمر دينهم كان فوق اهتمامهم بأمر دنياهم ؛ لأنا إذا حملنا قولهم : ﴿لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ [يونس : ٨٥] ، على تسليط الكفار عليهم وصيرورة ذلك التسليط شبهة للكفار في أن هذا الدين باطل ، فتضرعوا إلى الله - تعالى - في صون الكفار عن هذه الشبهة ، وتقديم هذا الدعاء على طلب النجاة لأنفسهم ، وذلك يدل على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم.
جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٣٨٣
." (١)

"قوله : ﴿وكل إنسان ألزمناه طآئره في عنقه﴾ الآية.
في كيفية النظم وجوه : أولها : أنه تعالى لما قال : ﴿وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾ [الإسراء : ١٢] كان معناه أن ما يحتاج إليه من شرح دلائل التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، فقد صار مذكورا وأن كل ما يحتاج إليه من شرح
٢٢٤
أحوال الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فقد صار مذكورا ، وإذا كان الأمر كذلك ، فقد أزيحت الأعذار ، وأزيلت العلل ، فلا جرم : كل من ورد عرصة القيامة ، ألزمناه طائره في عنقه ، ونقول له : ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾.
وثانيها : أنه تعالى ، لما بين أنه أوصل إلى الخلق أصناف الأشياء النافعة لهم في الدين والدنيا مثل آيتي الليل والنهار ، وغيرهما ، كان منعما عليهم بجميع وجوه النعم ، وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٧٩٩

وطاعته ، فلا جرم : كل من ورد عرصة القيامة ، فإنه يكون مسئولا عن أعماله وأقواله.
وثالثها : أنه تعالى بين أنه ما خلق الخلق إلا ليشتغلوا بعبادته ، كما قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات : ٥٦] فلما شرح أحوال الشمس والقمر والنهار والليل ، كان المعنى : إنما خلقت هذه الأشياء لتنتفعوا بها ، فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي ، وإذا كان كذلك ، فكل من ورد عرصة القيامة ، سألته ، هل أتى بتلك الخدمة والطاعة ، أو **تمرد** وعصى.
وقرئ " في عنقه " بإسكان النون وهو تخفيف شائع.
فصل اختلفوا في الطائر ، فقال ابن عباس – رضي الله عنه – : " عمله ، وما قدر عليه من خير أو شر ، فهو ملازمه ، أينما كان ".
وقال الكلبي ومقاتل : " خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسبه " ، وقال الحسن : يمنه وشؤمه ، وعن مجاهد : " ما من مولود إلا في عنقه ورقة ، مكتوب فيها شقي أو سعيد ".
وقال أهل المعاني : أراد بالطائر ما قضى عليه أنه عامله ، وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة ، سمي طائرا على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها ، فكانوا غذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال ، وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير أو إلى شر ، اعتبروا أحوال الطير ، وهو أنه يطير بنفسه ، أو يحتاج إلى إزعاجه ، وإذا طار ، فهو يطير متيامنا أو متياسرا ، أو صاعدا إلى الجو ، أ ، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر بالطائر ، فلما كثر ذلك منهم ، سمي الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إنا تطيرنا بكم﴾ [يس : ١٨] وقوله عز وجل : ﴿قالوا طائركم معكم﴾ [يس : ١٩] فالمعنى : أن كل إنسان ألزمناه عمله في عنقه.
٢٢٥
". (١)

"وقوله تعالى : ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا﴾ [القصص : ٥٩].
فصل في الاحتجاج لأهل السنة استدل أهل السنة بهذه الآية على صحة مذهبهم من وجوه : الأول : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أراد إهلاكهم ابتداء ، ثم توسل إلى إهلاكهم بهذا الطريق ؛ وهذا يدل على أنه – تعالى – إنما خص المترفين بذلك الأمر لعلمه بأنهم يفسقون ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد منهم

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٣٢٩١

الفسق.

الثالث : أنه – تعالى – قال : ﴿فحق عليها القول﴾ أي : حق عليها القول بالتعذيب والكفر ، ومتى حق عليها القول بذلك ، امتنع صدور الإيمان منهم ؛ لأن ذلك لا يستلزم انقلاب خبر الله الصدق كذبا ، وذلك محال ، والمفضي إلى المحال محال.

قال الكعبي – رحمه الله – إن سائر الآيات دلت على أنه – تعالى – لا يبتدئ بالتعذي والإهلاك ؛ رقوله تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد : ١١].

وقوله عز وجل : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ [النساء : ١٤٧] وقوله – عز ذكره : ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ [القصص : ٥٩].

وكل هذه الآيات تدل على أنه لا يبتدئ بالإضرار ، وأيضا : ما قبل هذه الآية يدل على هذا المعنى ، وهو قوله – تعالى – : ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الإسراء : ١٥].

ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض ؛ فثبت أن هذه الآيات محكمة ، والآيات التي نحن في تفسيرها مجملة ؛ فيجب حمل هذه الآية علتلك الآيات.

واعلم أن أحسن الناس كلاما في تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة : " القفال " – رحمه الله تعالى – فإنه ذكر وجهين : الأول : أنه – تعالى – أخبر أنه لا يعذب أحدا بما يعلمه منه ، ما لم يعمل به أي : لا يجعل علمه حجة على من علم أنه إذا أمره عصاه ، بل يأمره ، فإذا ظهر عصيانه للناس ، فحينئذ يعاقبه.

وقوله – تعالى – : ﴿وإذآ أردنآ أن نهلك قرية أمرنا مترفيها﴾.

معناه : وإذا أردنا إمضاء ما سبق من القضاء بإهلاك قوم بظهور معاصيهم ، فحينئذ ﴿أمرنا مترفيها﴾.

أي : أمرنا المنعمين فيها المتعززين الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا بالإيمان والعمل بشرائع ديني ، على ما يبلغهم عني رسولي ، ففسقوا ، فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق بإهلاكهم ، لظهور معاصيهم ، فحينئذ أدمرها.

والحاصل : أن المعنى : وإذا اردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا على المعصية لم نكتف [في تحقيق] ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم ، بل أمرنا مترفيها ، ففسقوا ، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق ، فحينئذ نوقع العذاب الموعود به.

الوجه الثاني : أن التأويل : وإن أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصي من أهلها ، لم نعاجلهم بالعذاب في أول ظهور المعاصي بينهم ، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي.

وإنما خص المترفين بذلك الأمر ؛ لأن المترف هو المنعم ، ومن كثرت نعمة الله عليه ، كان قيامه بالشكر أوجب ، فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع عن المعاصي مرة بعد أخرى ، مع أنه لا يقطع عنهم تلك النعم ، بل يزيدها حالا بعد حال ، فحينئذ يظهر عنادهم **وتمردهم** وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق ، فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا.

ثم قال القلال – رحمه الله – : وهذان التأويلان راجعان إلى أن الله – تعالى – أخبر عن عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة ؛ حتى يعذر إليهم غاية الإعذار ، الذي يقع منه اليأس من إيمانهم ، كما قال – تعالى – في قوم نوح – عليه السلام – : ﴿ولا يلدوا اا إلا فاجرا كفارا﴾ [نوح : ٢٧] ، وقال عز وجل : ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ [هود : ٣٦] وقال تعالى في غيرهم : ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ [الأعراف : ١٠١] فأخبر الله تعالى عنهم أولا أنه لا يظهر العذاب إلا بعد بعثة الرسل ، ثم أخبر ثانيا في هذه الآية : أنه – تعالى – إذا بعث الرسل أيضا ، فكذبوا ، لم يعاجلهم بالعذاب ، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ ، فإن بقوا مصرين ، فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال.

٢٣٩

". (١)

"وأجاب الجبائي فقال : ليس المراد من الآية أنه تعالى يريد إهلاكهم قبل أن يعصوا ويستحقوا ذلك ؛ لأنه لا يظلم ، وهو على الله محال ، بل المراد من الإرادة قرب تلك الحالة ، فكان التقدير : وإذا قرب وقت إهلاك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، وهو كقول القائل : إذا أراد المريض أن يموت ازدادت أمراضه شدة ، وإذا أراد التجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة ، وليس المراد أن المريض يريد أن يموت على الذنوب ، والتاجر يريد أن يفتقر ، وإنما يعنون أنه سيصير كذلك ؛ فكذا هاهنا.

واعلم أن هذه الوجوه جواب عن الوجه الأول من الوجوه الثلاثة المتقدمة في التمسك بهذه الآية ، وكلها عدول عن ظاهر اللفظ ، وأما الوجه الثاني والثالث فبقي سليما عن الطعن.

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ١٣٢٣

والمراد منه أن الطريق الذي ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون ، **ويتمردون** فيما تقدم من القرون الذين

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٣٣٠٠

كانوا بعد نوح ؛ حاد وثمود ، وغيرهم ، ثم إنه – تعالى – خاطب رسوله – صلوات الله عليه – بما يكون خطابا وردعا وزجرا للكل ، فقال جل ذكره : ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾ وهذا تخويف لكفار " مكة ".

و "كم " نصب بأهلكنا ، و " من القرون " تمييز لـ "كم " و " من بعد نوح " : " من " لابتداء الغاية ، والأولى للبيان ، فلذلك اتحد متعلقهما ، وقال الحوفي : " الثانية بدل من الأولى " ، وليس كذلك ؛ لاختلاف معنييهما ، والباء بعد "كفى " تقدم الكلام عليها ، وقال ابن عطية : " إنما يجاء بهذه الباء في موضع مدح أو ذم " والباء في " بذنوب " متعلقة بـ " خبيرا " وعلقها الحوفي بـ "كفى ".

قال افراء – رحمه الله – : لو ألغيت الباء ؛ من قوله : " بربك " جاز ، وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يمدح به أو يذم ؛ كقولك : كفاك به ، وأكرم به رجلا ، وطاب بطعامك طعاما ، وجاد بثوبك ثوبا.

أما إذا لم يكن مدحا أو ذما ، لم يجز دخولها ، فلا يجوز أن يقال : " قام بأخيك " وأنت تريد : " قام أخوك ".

فصل في مقدار القرن قال عبد الله بن أبي أوفى : القرن : عشرون ومائة سنة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أول قرن ، وكان آخره يزيد بن معاوية ، وقيل : مائة سنة.

٢٤٠

روي عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بسر المازني : أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه ، وقال : " سيعيش هذا الغلام قرنا " وقال محمد بن القاسم – رضي الله عنه – : فما زلنا نعد له ؛ حتى تمت له مائة سنة ، ثم مات.

وقال الكلبي : ثمانون سنة.

وقيل : أربعون سنة.

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٢٤٠

قوله – تعالى – : ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا لهُ﴾ الآية.

" من " شرطية ، و " عجلنا " جوابها ، و " ما يشاء " مفعولها ، و " لمن نريد " بدل بعض من كل ، من الضمير في " له " بإعادة العامل ، و " لمن نريد " تقديره : لمن نريد تعجيله له.

[قوله :] " ثم جعلنا له جهنم " " جعل " هنا تصييرية.

وقوله : " يصلاها " الجملة حال : إما من الضمير في " له " وإما من " جهنم " و " مذموما " حال من

فاعل " يصلاها " قيل : وفي الكلام حذف ، وهو حذف المقابل ؛ إذ الأصل : من كان يريد العاجلة ، وسعى لها سعيها ، وهو كافر لدلالة ما بعده عليه ، وقيل : بل الأصل : من كان يريد العاجلة بعمله للآخرة كالمنافق.

ومعنى " يصلاها " : يدخلها.

" مذموما " : مطرودا ، " مدحورا " : مبعدا.

وقوله : " سعيها " : فيه وجهان : أحدهما : أنه مفعول به ؛ لأن المعنى : وعمل لها عملها.

والثاني : أنه مصدر ، و " لها " أي : من أجلها.

والجملة من قوله : " وهو مؤمن " هذه الجملة حال من فاعل " سعى ".

قوله تعالى : ﴿كلا نمد﴾ : "كلا " منصوب بـ " نمد " و " هؤلاء " بدل ، " وهؤلاء : عطف عليه ، أي : كل فريق نمد هؤلاء الساعين بالعاجلة ، وهؤلاء الساعين للآخرة ، وهذا

٢٤١

." (١)

"وقال سعيد بن المسيب : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية ينزون على منبره ، [نزو القردة] ، فساءه ذلك ، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء ، وفيه الاعتراض المذكور ؛ لأن هذه الآية مكية ، وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة منبر.

ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يبعد أن يرى بمكة أن له بالمدينة منبرا يتداوله بنو أمية.

قوله : " والشجرة " : العامة على نصبها نسقا على " الرؤيا " و " الملعونة " نعت ، قيل هو مجاز ؛ إذ المراد : الملعون طاعموها ؛ لأن الشجرة لا ذنب لها ، وهي شجرة الزقوم ، وقيل : بل على الحقيقة ، ولعنها : إبعادها من رحمة الله ؛ لأنها تخرج في أصل الجحيم ، وقرأ زيد بن علي برفعها على الابتداء ، وفي الخبر احتمالان : أحدهما : هو محذوف ، أي : فتنة.

والثاني : - قاله أبو البقاء - أنه قوله " في القرآن " وليس بذاك.

فصل قال المفسرون : هذا على التقديم والتأخير ، والتقدير : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس.

وقيل : المعنى : والشجرة الملعونة في القرآن كذلكن وهي شجرة الزقوم ، والفتنة في الشجرة الملعونة من

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٣٠١

وجهين : الأول : أن ابا جهل ، قال : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ، حيث قال تعالى : ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ [البقرة : ٢٤] ثم يقول : إن في النار شجرا ، والنار تأكل الشجر ، فكيف تولد فيها الشجر.

والثاني : قال ابن الزبعرى : إن محمدا يخوفنا بالزقوم ، وما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا منه ، فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر ﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾ [الصافات : ٦٣].

٣٢٢

فإن قيل : ليس في القرآن لعن هذه الشجرة.

فالجواب من وجوه : الأول : المراد لعن الكفار الذين يأكلونها.

الثاني : أن العرب تقول لكل طعام ضار : إنه ملعون.

الثالث : أن اللعن في اللغة : هو الإبعاد ، فلما ك انت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الخير ، سميت ملعونة.

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - : الشجرة الملعونة في القرآن : بنو أمية ، يعني : الحكم بن أبي العاص ، قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام أن ولد مروان يتداولون منبره ، فقص رؤياه على أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - في خلوة من مجلسه ، فلما تفرقوا ، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم يخبر برؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم واتهم عمر في إفشاء سره ، ثم ظهر له أن الحكم كان يستمع إليهم ، فنفاه صلى الله عليه وسلم.

قال الواحدي - رحمه الله - : هذه القصة كانت في المدينة ، والسورة [مكية] ، فيبعد هذا التفسير ، إلا أن يقال : هذه الآية مدنية ، ولم يقل به أح\ ، ويؤكد هذا التأويل قول عائشة - رضي الله تعالى عنها - لمروان : لعن الله أباك ، وأنت في صلبه ، فأنت بعض من لعنة الله.

وقيل : الشجرة الملعونة في القرآن هم اليهود ؛ لقوله تعالى : ﴿لعن الذين كفروا﴾ [المائدة : ٧٨].

وقيل : الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر ، فتخنقه ، يعني " الكشوث ".

فإن قيل : إن القوم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الإتيان بالمعجزات القاهرة ، فأجاب بأنه لا مصلحة في إظهارها ؛ لأنها لو ظهرت ، ولم يؤمنوا ، نزل عليهم عذاب الاستئصال ، وذلك غير جائز ، فأي تعلق لهذا الكلام بذكر الرؤيا التي صارت فتنة للناس وبذكر الشجرة [التي صارت فتنة للناس].

فالجواب : أن التقدير كأنه قيل : إنهم لما طلبوا هذه المعجزات ، ثم إن◌◌ك لم تظهرها ، صار عدم

ظهورها شبهة لهم في أنك لست بصادق في دعوى النبوة ، إلا أن وقوع هذه الشبهة لا يضيق صدرك ، ولا يوهن أمرك ، ولا يصير سببا لضعف حالك ؛ ألا ترى أن تلك الرؤيا صارت سببا لوقوع الشبهة العظيمة عندهم ، ثم إن قوة تلك الشبهات ما أوجبت ضعفا في أمرك ، فكذلك هذه الشبهة الحاصلة بسبب عدم ظهور هذه المعجزات لا يوجب فتورا في حالك ، ولا ضعفا في أمرك.

٣٢٣

ثم قال تعالى : ﴿ونخوفهم فما يزيدهم﴾ أي التخويف ﴿إلا طغيانا كبيرا﴾ ، أي : تمردا وعتوا عظيما ، والمقصود من ذلك وجه آخر في أنه ما أظهر المعجزات التي اقترحوها ؛ لأن هؤلاء خوفوا بأشياء كثيرة من الدنيا والآخرة ، وبشجرة الزقوم ، فما زادهم هذا التخويف إلا طغيانا كبيرا ؛ وذلك يدل على قسوة قلوبهم ، وتماديهم في الغي والطغيان.

وإذا كان كذلك فبتقدير أن يظهر الله لهم تلك المعجزات التي اقترحوها ، لم ينتفعوا بها ، ولم يزدادوا إلا تماديا ف يالجهل والعناد ، وإذا كان كذلك ، وجب في الحكمة ألا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات.

قرأ العامة " ونخوفهم " بنون العظمة ، والأعمش بياء الغيبة.

(١) ".

"قوله تعالى : ﴿وننزل من القرآن﴾ : في " من " هذه ثلاثة أوجه : أحدها : أنها لبيان الجنس ، قاله الزمخشري ، وابن عطية ، وأبو البقاء ، ورد عليهم أبو حيان : بأن التي للبيان ، لا بد وأن يتقدمها ما تبينه ، لا أن تتقدم هي عليه ، وهنا قد وجد تقدمها عليه.

الثاني : أنها للتبعيض ، وأنكره الحوفي ؛ قال : " لأنه يلزم ألا يكون بعضه شفاء " وأجيب عنه : بأن إنزاله إنما هو مبعض ، وهذا الجواب ليس بظاهر ، وأجاب أبو البقاء بأن منه ما يشفي من المرض.

وهذا يؤيده الدليل المتقدم ، وأجاز الكسائي : " ورحمة " بالنصب عطفا على ما تظاهر وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحي الذي لدغ ، بالفاتحة ؛ فشفي.

الثالث : أنها لابتداء الغاية ، وهو واضح.

والجمهور على رفع " شفاء ورحمة " خبرين لـ " هو " ، والجملة صلة لـ " ما " وزيد بن علي بنصبهما ، وخرجت قراءته على نصبهما على الحال ، والخبر حينئذ " للمؤمنين " وقدمت الحال على عاملها المعنوي

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٣٤٣

، كقوله تعالى : ﴿والسماوات مطويات﴾ [الزمر : ٦٧] في قراءة من نصب " مطويات " ، وقول النابغة :
٣٤٥٩ - رهط ابن كوز محقبي أدراعهم
فيهم ورهط ربيعة بن حذار
وقيل : منصوبان بإضمار فعل ، وهذا عند من يمنع تقديمها على عاملها المعنوي ، وقال أبو البقاء : وأجاز الكسائي : " ورحمة " بالنصب عطفا على " ما " فظاهر هذا أن
٣٦٨
الكسائي [بقى] " شفاء " على رفعه ، ونصب " رحمة " فقط عطفا على " ما " الموصولة ؛ كأه قيل : وننزل [من القرآن رحمة ، وليس في نقله ما يؤذن بأنه تلاها قرآنا ، وتقدم الخلاف في] " وننزل " تخفيفا وتشديدا ، والعامة على نون العظمة.
ومجاهد " وينزل " بياء الغيبة ، أي : الله.
فصل في المراد بـ " من " في الآية قال المفسرون : إن " من " هنا للجنس ؛ كقوله تعالى : ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج : ٣٠].
أي : وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء ، فجميع القرآن شفاء للمؤمنين ، أي : بيان من الضلالة والجهالة يتبين به المختلف ، ويتضح به المشكل ، ويستشفى به من الشبهة ، ويهتدى به من الحيرة ، وهو شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها.
واعلم أن القرآن شفاء من المراض الروحانية ، والأمراض الجسمانية.
أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية ؛ لأن المرض الروحاني قسمان : أحدهما : الاعتقادات الباطلة ، وأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات ، والنبوات ، والمعاد ، والقضاء ، والقدر ؛ والقرآن كله مشتمل على دلائل الحق في هذه المطالب.
والثاني : الأخلاق المذمومة ؛ والقرآن مشتمل على تفاصيلها ، وتعريف ما فيها من المفاسد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة ، وكان القرآن شفاء من الأمراض الروحانية.
وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية ؛ فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأمراض ؛ ويؤيده ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من لم يستشف بالقرآن ، فلا شفاه الله تعالى ".
وما ورد في حديث الرقية بالفاتحة.
ثم قال : ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ المراد بالظالمين ها هنا : المشركون ؛ لأن سماع القرآن يزيدهم

غضبا ، وغيظا ، وحقدا ، وكلما نزلت آية يتجدد تكذيب ؛ فتزداد خسارتهم.

قال مجاهد وقتادة : لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان : قضاء الله الذي قضاه شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا.

٣٦٩

ثم إنه تعالى ذكر السبب الأصلي في وقوع هؤلاء الجهال في أودية الضلال ، وهو حب الدنيا ، والرغبة في المال و الجاه ، واعتقادهم أن ذلك إنما يحصل بجدهم واجتهادهم ، فقال : ﴿وإذآ أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾.

قال ابن عباس : الإنسان ها هنا هو الوليد بن المغيرة.

والأولى أن كل إنسان من شأنه إذا فاز بمقصوده ، غتر وصار غافلا عن عبادة الله – تعالى – وتمرد على طاعته ؛ كما قال : ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق : ٦ ، ٧].

قوله تعالى : ﴿ونأى﴾ : قرأ العامة بتقديم الهمزة على حرف العلة ؛ من النأي ، وهو البعد ، وابن ذكوان – ونقلها أبو حيان وابن الخطيب عن ابن عامر وأبو جعفر : " ناء " مثل " جاء " بتقديم الألف على الهمزة ، وفيها تخريجان : أحدهما : أنها من : ناء ، ينوء ، أي : نهض ؛ قال : [الرجز] ٣٤٦٠ – حتى إذا ما التأمت مفاصله

وناء في شق الشمال كاهله

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٦٥٣

" (١).

"يريد : نحته بالتشديد ، فخفف ، قال الأصمعي : كان ينشده : " الوجد " بالنصب على المفعول له ، وأبو عبيدة رواه بالرفع على الفاعلية بـ " الباخع ".

وقيل : البخع : أن تضعف الأرض بالزراعة ، قاله الكسائي ، وقيل : هو جهد الأرض وعلى هذا معنى " باخع نفسك " أي ناهكها وجاهدها ؛ حتى تهلكها ، وقيل : هو جهد الأرض في حديث عائشة – رضي اله عنها – عن عمر : " بخع الأرض " تعني جهدها ؛ حتى أخذ ما فيها من أموال ملوكها ، وهذا استعارة ، ولم يفسره الزمخشري هنا بغير القتل والإهلاك ، وقال في سورة الشعراء : " البخع " : أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن الفقار ، وذلك أقصى حد الذابح.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٣٦٦

قال شهاب الدين : وسمعت شيخنا علاء الدين القوني يقول : " تتبعت كتب الطب والتشريح ، فلم أجد لهذا اصلا ".
فصل يحتمل أنه لما ذكروه ، سموه باسم آخر ؛ لكونه أشهر فميا بينهم.
وقال الراغب : " البخع : قتل النفس غما " ثم قال : " وبخع فلان بالطاعة ، وبما عليه من الحق : إذا أقر به ، وأذعن مع كراهة شديدة ، تجري مجرى بخع نفسه في شدته ".
قوله : " على آثارهم " متعلق بـ " باخع " أي : من بعد هلاكهم.
يقال : مات فلان على أثر فلان ، أي بعده ، وأصل هذا أن الإنسان ، إذا مات ، بقيت علاماته ، وآثاره بعد موته مدة ، ثم إنها تنمحي وتبطل بالكلية ، فإذا كان موته قريبا من [موت] الأول ، كان موته حاصلا حال بقاء آثار الأول ، فصح أن يقال : مات فلان على أثر فلان.
قوله : ﴿إن لم يؤمنوا بهاذا الحديث﴾ يعني القرآن.
قال القاضي : وهذا يقتضي وصف القرآن بأنه حديث ، وذلك يدل على فساد قول من يقول : إنه قديم.
وأجيب بأنه محمول على الألفاظ ، وهي حادثة.
قوله : ﴿إن لم يؤمنوا﴾ : قرأ العامة بكسر " إن " على أنها شرطية ، والجواب محذوف
٤٢٥
عند الجمهور ؛ لدلالة قوله : " فلعلك " ، وعند غيرهم هو جواب متقدم ، وقرئ : " أن لم " بالفتح ؛ على حذف الجار ، أي : لأن لم يؤمنوا.
وقرئ " باخع نفسك " بالإضافة ، والأصل النصب ، وقال الزمخشري " وقرئ طباخع نفسك " على الأصل ، وعلى الإضافة.
أي : قاتلها ومهلكها ، وهو للاستقبال فيمن قرأ " إن لم يؤمنوا " ، وللمضي فيمن قرأ " إن لم تؤمنوا " بمعنى : لأن لم تؤمنوا " يعني أن باخعا للاستقبال في قراءة كسر " إن " فإنها شرطية ، وللمضي في قراءة فتحها ، وذلك لا يأتي إلا في قراءة الإضافة ؛ إذ لا يتصور المضي مع النصب عند البصريين ، وعلى هذا يلزم ألا يقرأ بالفتح ، إلا من قرأ بإضافة " باخع " ، ويحتاج في ذلك إلى نقل وتوقيف.
قوله : " أسفا " يجوز أن يكون مفعولا من أجله ، والعامل فيه " باخع " وأن يكون مصدرا في موضع الحال من الضمير في " باخع ".
والأسف : الحزن ، وقيل : الغضب ، وقد تقدم في الأعراف عند قوله : ﴿غضبان أسفا﴾ [الأعراف :

١٥٠] وفي يوسف عند قوله : ﴿ياأسفى على يوسف وابيضت﴾ [يوسف : ٨٤].

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٤٢٤

قوله : ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ الآية.

قال القاضي : وجه النظم كأنه يقول : يا محمد ، إني خلقت الأرض ، وزينتها ، وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح ، وأيضا ، فالمقصود من خلقها بما فيها من المصالح ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ، ثم إنهم يكفرون **ويتمردون** ، ومع ذلك ، فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم ، فأنت أيضا يا محمد لا يهمك الحزن ؛ بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين.

قوله : ﴿زينة﴾ : يجوز أن ينتصب على المفعول له ، وأن ينتصب على الحال ، إن جعلت " جعلنا " بمعنى " خلقنا " ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، إن ك انت " جعل " تصييرية ، و " لها " متعلق بـ " زينة " على العلة ، ويجوز أن تكون اللام زائدة في المفعول ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف صفة لـ " زينة ".

وقوله : " لنبلوهم " متعلق بـ " جعلنا " بمعنييه.

٤٢٦

قوله : " أيهم أحسن " يجوز في " أيهم " وجهان : أحدهما : أن تكون استفهامية مرفوعة بالابتداء ، و " أحسن " خبرها ، والجملة في محل نصب متعلقة بـ " نبلوهم " لأنه سبب العلم ، والسؤال ، والنظر.

والثاني : أنها موصولة بمعنى الذي و " أحسن " خبر مبتدأ مضمر ، والجملة صلة لـ " أيهم " ويكون هذا الموصول في محل نصب بدلا من مفعول " لنبلوهم " تقديره لنبلو الذي هو أحسن ؛ وحينئذ تحتمل الضمة في " ايهم " أن تكون للبناء ، كهي في قوله تعالى : ﴿لننزعن من كل شيعة أيهم أشد﴾ [مريم : ٦٩] على أحد الأقوال ، وفي قوله : [المتقارب] ٣٤٨٤ - إذا ما أتيت بني مالك

فسلم على أيهم أفضل

". (١)

"فإن قيل : هذا المعنى حاصل للكل لقوله : ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ [الجاثية : ٢٨] ، ولأن العادة جارية بأن الناس في مواقف مطالبات الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من القلق ، أة لما يدهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معه القيام على أرجلهم وإذا كان حاصلا للكل ، فكيف يدل على مزيد ذل الكفار.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٣٩٦

فالجواب : لعل المراد أنهم يكونون من وقت الحشر إلى وقت الحضور في الموقف على هذه الحال ، وذلك يوجب مزيد ذلهم.

قوله : " جثيا " حال مقدرة من مفعول " لنحضرنهم ".

و " جثيا " جمع جاث جمع على فعول ، نحو قاعد وقعود ، وجالس وجلوس ، وفي لامه لغتان : أحدهما : الواو.

والأخرى : الياء.

يقال : جثا يجثو جثوا ، وجثا يجثي جثيا.

فعلى التقدير الأول : يكون أصله جثوو.

بواوين الأولى زائدة علامة للجمع والثانية لام الكلمة ، ثم أعلت إعلال عصي ودلي ، وتقدم تحقيقه في " عتيا ".

وعلى الثاني يكون الأصل : جثويا ، فأعل إعلال هين وميت.

وعن ابن عباس : أنه بمعنى جماعات جماعات ، جمع جثوة ، وهوالمجموع من

١٠٩

التراب والحجارة ، وفي صحته عنه نظر من حيث إن فعله لا يجمع على فعول.

ويجوز في " جثيا " أن يكون مصدرا على فعول ، وأصله كما تقدم في حال كونه جمعا ، إما جثوو ، وإما جثوي.

وقد تقدم أن الأخوين يكسران فاءه ، والباقون يضمونها.

والجثو : القعود على الركب.

قوله : ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ أي : ليخرجن من كل أمة وأهل دين من الكفار والشيعة فعلة كفرقة : ومنه الطائفة التي شاعت ، أي : تبعت غاويا من الغواة.

قال تعالى : ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا﴾ [الأنعام : ١٥٩].

والمعنى : أنه - تعالى - يحضرهم أولا حول جهنم ، ثم يميز البعض من البعض , فمن كان منهم أشد **تمردا** في كفره خص بعذاب عظيم ، لأن عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره ، وليس عذاب من **يتمرد** ويتجبر كعذاب المقلد ، ومعنى الآية : أنه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتيا **وتمردا** ليعلم أن عذابه أشد وفائدة هذا التمييز التخصيص " بشدة العذاب لا التخصيص " بأصل

العذاب ، فلذلك قال في جميعهم : ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾ ولا يقال : " أولى " إلا مع اشتراكهم في العذاب.
قوله : ﴿أيهم أشد﴾ فيه أقوال كثيرة ، أظهرها عند جمهور المعربين ، وهو مذهب سيبويه : أن " أيهم " موصولة بمعنى " الذي " ، وأن حركتها حركة بناء ، بنيت عند سيبويه لخروجها عن النظائر.
١١٠
و " أشد " خبر مبتدأ مضمر ، والجملة صلة لـ " أيهم " ، و " أيهم " وصلتها في محل نصب مفعولا بها بقوله : " لننزعن ".
و لـ " أي " أحوال الأربعة : إحداها تبني فيها ، وهي كما في هذه الآية أن تضاف ويحذف صدر صلتها ، ومثله قول الآخر : ٣٦١٦ - إذا ما أتيت بني مالك
فسلم على أيهثم أفضل
جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٩٧
بضم " أيهم ".
وتفاصيلها مقررة في كتب النحو.
وزعم الخليل - رحمه الله - أن " أيهم " هنا مبتدأ ، و " أشد " خبره ، وهس استفهامية ، والجملة محكية بالقول مقدرا ، والتقدير : لننزعن من كل شيعة المقول فيهم أيهم.
وقوى الخليل تخريجه بقول الشاعر : ٣٦١٧ - ولقد أبيت من الفتاة بمنزل
فأبيت لا حرج ولا محروم
١١١
قال : فأبيت يقال في : لا حرج ولا محروم.
وذهب يونس إلى أنها استفهامية مبتدأ ، وما بعدها خبرها كقول الخليل إلا أنه زعم أنها متعلقة لـ " ننزعن " ، فهي في محل نصب ، لأنه يجوز التعليق في سائر الفعال ، ولا يخصه " بأفعال القلوب كما يخصه " بها الجمهور.
وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون النزع واقعا على ﴿من كل شيعة﴾ كقوله : ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾ [مريم : ٥٠] ، أي : لننزعن بعض كل شيعة ، فكأن قائلا قال : من هم ؟ فقيل : أيهم أشد عتيا.
فجعل " أيهم " موصولة أيضا ، ولكن هي في قوله خبر مبتدأ محذوف أي : هم الذين هم أشد.

قال أبو حيان : وهذا تكلف ما لا حاجة إليه ، وادعاء إضمار غير محتاج إليه ،

١١٢

." (١)

"بالسوأة ، والبرص أبغض شيء إلى العرب ، فكان جديرا بأن يكنى عنه بالسوء ، وكان عليه السلام شديد الأدمة فكان إذا أدخل يده اليمنى في جيبه ، وأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها فكانت تبرق مثل البرق ، وقيل : مثل الشمس ، من غير برص ، ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول.

" آية أخرى " دلالة على صدقك سوى العصا.

قوله : " لنريك " متعلق بما دلت عليه " آية " أي : دللنا بها لنريك ، أو ب (جعلناها) ، أو ب (أتيناك) المقدر.

وقدره الزمخشري : لنريك فعلنا ذلك ، وجوز الحوفي أن يتعلق ب " اضمم ".

وجوز غيره أن يتعلق (بتخرج).

ولا يجوز أن يتعلق بلفظ آية ، لأنها قد وصفت.

وقدره الزمخشري أيضات : لنريك خذ هذه الآية أيضا.

قوله : " من آياتنا الكبرى ".

يجوز أن يتعلق " من آياتنا " بمحذوف على أنه حال من " الكبرى " حال كونها من آياتنا ، على هاذ مفعولا ثانيا " لنريك " والتقدير : " لنريك المبرى " حال كونها من آياتنا ، أي : بعض آياتنا ويجوز أن يكون المفعول الثاني نفس " من آياتنا " فيتعلق بمحذوف أيضا ، و " الكبرى " على هذه صفة ل " آياتنا " ووصف الجمع المؤنث غير العاقل وصف الواحد على حد " مآرب أخرى " و " الأسماء الحسنى ".

وهذان الوجهان قد نقلهما الزمخشري والحوفي (وأبو البقاء) واختار

٢٢١

أبو حيان الثاني قال : لأنه يلزم من ذلك أن تكون آياته كلها هي الكبرى ، لأن ما كان بعض الآيات الكبر صدق عليه آية الكبرى ، لأنها هي المتصفة بأفعل التفضيل ، وأيضا إذا جعلت " الكبرى " مفعولا فلا يمكن أن يكون صفة للعصا واليد معا ، إذ كان يلزم التثنية ، ولا جائز أن يخص أحدهما بالوصف جون الأخرى ، لأن التفضيل في كل منهما.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٥٢٤

فصل قال المفسرون : قال : " لنريك من آياتنا الكبرى " ولم يقل : الكبر لرؤوس الآي.
وقيل : فيه إضمار معناه : لنريك من آياتنا الآية الكبرى ويدل عليه قول ابن عباس : كانت يد موسى أكبر آياته وهو قول الحسن قال : اليد أعظم في الإعجاز من العصا ، فإنه جعل " الكبرى " مفعولا ثانيا لنريك وجعل ذلك (راجعا للآية القريبة ، وقد) ضعف ذلك بأنه ليس في اليد إلا تغير اللون ، (وأما العصا ففيها تغير اللون) وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والإعضاء المختلفة ، وابتلاع الشجر والحجر ، ثم عاجت عصا بعد ذلك ، فقد وقع التغير مرة أخرى في كل هذه الأمور فكانت العصا أعظم.
وأما قوله : " لنريك من آياتنا الكبرى " فقد ثبت أنه عائد إلى الكلام ، وأنه غير مختص باليد.
جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٢١٨
قوله تعالى : ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ لما أظهر له الآيات عقبها بأن أرمه بالذهاب إلى فرعون ، وبين العلة في ذلك ، وهو أنه طغى ، وإنما خص فرعون بالذكر مع
٢٢٢
أنه بعث موسى إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر ، وكان متبوعا فكان ذكره أولى.
ومعنى " طغى " جاوز الحد في العصيان والتمرد ، فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي.
قال موسى : " رب اشرح لي صدري " وسعه للحق.
(قال ابن عباس) : يريد حتى لا أخاف غيرك.
والسبب في هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر ﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾ [الشعراء : ١٣] وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا ، لشدة شوكته وكثرة جنوده ، وكان يضيق صدرا (بما كلف) من مقاومة فرعون فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه حتى يعلم أن أحدا لا يقدر على مضرته إلا بإذن الله تعالى ، وإذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده.
(قوله : " لي صدري " متعلق بـ " اشرح " ، قال الزمخشري : فإن قلت : (لي) في قوله : " اشرح لي صدري ويسر لي أمري " ما جدواه والأمر مستتب بدونه.
قلت : قد أبهم الكلام أولا فقال : " اشرح لي " " ويسر لي " فعلم أن ثم مشروحا وميسرا ، ثم بين ورفه الإبهام بذكرهما ، فكان بكد لطلب الشرح لصده ، والتيسير لأمره.
ويقال : يسرته لكذا ، ومنه " فسنيسره لليسرى " ويسرت له كذا ، ومنه هذه الآية.
قوله : " ويسر لي أمري " أي سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال ، والأقوال والحركات ،

٢٢٣

." (١)

"وألحق بالحجاز فأستريحا

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٤٦٠

٤٦١

وقرئ شاذا " فيدمغه " بضم الميم ، وهي محتملة لأن يكون في المضارع لأن يكون لغتان في المضارع لغتان يفعل ويفعل ، وأن يكون الأصل والضمة للإتباع في حرف الحلق.

و " يدمغه " أي يصيب دماغه من قولهم : دمغت الرجل ، أي ضربته في دماغه كقولهم : رأسه وكبده ورجله ، إذا أصاب منه هذه الأعضاء.

وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ.

واستعار القذف والدمغ تصويرا لإبطاله به ، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه : أهلكه وأذهبه ﴿فإذا هو زاهق﴾ ذاهب ، ﴿ولكم الويل﴾ يعني من كذب الرسول ونسب القرآن إلى أنه سحر وأضغاث أحلام ، وغير ذلك من الأباطيل.

قوله : ﴿مما تصفون﴾ فيه أوجه : أحدهما : أنه متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ، أي : استقر لكم الويل من أجل ما تصفون.

و " من " تعليلية.

وهذا وجه وجيه.

والثاني : أنه متعلق بمحذوف.

والثالث : أنه حال من الويل ، أي : الويل واقعا مما تصفون ، كذا قدره أبو البقاء و " ما " في " مما تصفون " يجوز أن تكون مصدرية فلا عائد عند الجمهور ، وأن

٤٦٢

تكون بمعنى الذي ، أو نكرة موصوفة ، ولا بد من العائد عند الجميع ، حذف لاستكماله الشروط.

والمعنى : مما تصفون الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٥٥٤

وقال مجاهد : مما تكذبون.

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٤٦٠

قوله : ﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الآية.

لما نفى اللعب عن نفسه ، ونفي اللعب لا يصح إلا بنفي الحاجة ، (ونفي الحاجة) لا يصح إلا بالقدرة التامة عقب تلك الآية بقوله : ﴿وله من في السماوات والأرض﴾ لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة.

وقيل : لما حكى كلام الطاعنين في النبوات ، وأجاب عنها ، وبين أن غرضهم من تلك المطاعن **التمرد** ، وعدم الانقياد ، بين ههنا أنه تعالى منزه عن طاعتهم لأنه هو المالك بجميع المخلوقات ، ولأجل أن الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع كونهم في نهاية الضعف أولى أن يطيعوه.

قوله : " ومن عنده " يجوز فيه وجهان : أحدهما : أنه معطوف على " من " الأولى أخبر تعالى عن من في السموات والأرض وعن من عنده بأن الكل له في ملكه.

وعلى هذا فيكون من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها على شرفه ، لأن قوله : ﴿من في السماوات﴾ شمل " من عنده " وقد مر نظيره في قوله : " وجبريل وميكال " وقوله : " لا يستكبرون " على هذا فيه أوجه : أحدها : أنه حال من " من " الأولى أو الثانية أو منهما معا.

وقال أبو البقاء حال

٤٦٣

إما من " من " الأولى على قول من رفع بالظرف.

يعني : أنه إذا جعلنا " من " في قوله : ﴿وله من في السماوات﴾ مرفوعا بالفاعلية والرافع الظرف وذلك على رأي الأخفش جاز أن يكون " لا يستكبرون " حالا من " من " الأولى ، وإما من " من " " يستكبرون " حالا وكأنه يرى أن الحال لا يجيء من المبتدأ ، وهو رأي لبعضهم.

ويجوز أن يكون " لا يستكبرون " حالا من الضمير المستكن في (عنده) الواقع صلة وأن يكون حالا من الضمير المستكن في " له " الواقع خبرا.

والوجه الثاني من وجهي " من " أن تكون مبتدأ و " لا يستكبرون " خبره ، وهذه جملة معطوفة على جملة قبلها ، وهل الجملة من قوله : ﴿وله من في السماوات﴾ استئنافية أو معادلة لجملة قوله : " ولكم الويل " أي لكم الويل ولله جميع العالم علويه وسفليه والأول أظهر ﴿ولا يستحسرون﴾ أي : لا يكلون ولا يتعبون ، يقال : استحسر البعير أي : كل وتعب قال علقمة بن عبدة : ٣٧٠٦ - بها جيف الحسرى فأما

عظامها

فبيض وأما جلدها فصليب

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٤٦٣

ويقال : حسر البعر وحسرته أنا ، فيكون لازما ومتعديا ، وأحسرته أيضا ، فيكون فعل وأفعل بمعنى في أحد وجهي فعل.

٤٦٤

." (١)

"و ﴿وترى الناس سكارى ﴾ من الخوف ﴿وما هم بسكارى ﴾ من الشراب.

وقيل : معناه كأنهم سكارى ، ولكن ما أرهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم.

فإن قيل : هل يحصل ذلك الخوف لكل أحد أو لأهل النار خاصة ؟ فالجواب : قال قوم إن الفزع الأكبر وغيره يختص بأهل النار ، وإن أهل الجنة يحشرون وهم آمنون ، لقوله : ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ [الأنبياء : ١٠٣] وقيل : بل يحصل للكل ؛ لأنه سبحانه لا اعتراض عليه في شيء من أفعاله.

فصل احتجت المعتزلة بقوله ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ وصفها بأنها شيء مع أنها معدومة.

وبقوله تعالى : ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة : ٢٠] فالشيء الذي قدر الله عليه إما أن يكون موجودا أو معدوما ، والأول محال وإلا لزم كون القادر قادرا على إيجاد الموجود ، وإذا بطل هذا ثبت أن الشيء الذي قدر الله عليه معدوم ، فالمعدوم شيء (واحتجوا أيضا بقوله تعالى : ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذالك غدا إلا أن يشآء الله﴾ [الكهف : ٢٣ - ٢٤] أطلق اسم الشيء على المعدوم في الحال ، فالمعدوم شيء).

وأجيب عن الأول أن الزلزلة عبارة عن الأجسام المتحركة.

وهي جواهر قامت بها أعراض ، وتحقق ذلك في العدم محال ، فالزلزلة يستحيل أن تكون شيئا حال عدمها ، فلا بد من التأويل ، ويكون المعنى أنها إذا وجدت صارت شيئا وهذا هو الجواب عن الباقي.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٣

قوله : ﴿ومن الناس من يجادل في الله﴾ الآية.

في النظم وجهان : الأول : أنه أخبر فيما تقدم عن أهل القيامة وشدتها ، ودعا الناس إلى تقوى الله ، ثم

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٦٢٨

١٢

ميز في هذه الآية قوما من الناس الذين ذكروا في الأولى وأخبر عن مجادلتهم.

الثاني : أنه تعالى بين أنه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها ، قال : ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾.

قوله : " من يجادل " يجوز أن تكون " من " نكرة موصوفة ، وأن تكون موصولة ، و " في الله " أي : في صفاته ، و " بغير علم " مفعول أو حال من فاعل " يجادل " وقرأ زيد بن علي " ويتبع " مخففا.

فصل قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث ، كان كثير الجدل ، وكان يقول : الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ، وكان ينكر البعث ، وإحياء من صار ترابا ، ويتبع في جداله في الله بغير علم كل شيطان مريد.

والمريد : **المتمرد** المستمر في الشر.

يريد شياطين الإنس ، وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر.

وقيل : أراد إبليس وجنوده ، قال الزجاج المريد والمارد : المرتفع الأملس.

يقال : صخرة مرداء ، أي : ملساء.

ويجوز أن يستعمل في غير الشيطان إذا جاوز [حد] مثله.

قوله : ﴿كتب عليه أنه﴾ قرأ العامة "كتب " مبنيا للمفعول ، وفتح " أن " في الموضعين.

وفي ذلك وجهان : أحدهما : أن " أنه " وما في حيزه في محل نصب لقيامه مقام الفاعل ، فالهاء في " عليه " ، وفي " أنه " تعودان على " من " المتقدمة.

و " من " الثانية يجوز أن تكون شرطية ، والفاء جوابها ، وأن تكون موصولة والفاء زائدة في الخبر لشبه المبتدأ بالشرط ، وفتحت

١٣

" أن " الثانية ، لأنها وما في حيزها في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره : فشأنه وحاله أنه يضله ، أو يقدر " فأنه " مبتدأ والخبر محذوف أي : فله أنه يضله.

الثاني : قال الزمخشري : ومن فتح فلأن الأول فاعل كتب ، والثاي عطف عليه.

قال أبو حيان : وهذا لا يجوز ؛ لأنك إذا جعلت " فأنه " عطفا على " أنه " بقيت " أنه " بلا استيفاء خبر ، لأن " من تولاه " " من " فيه مبتدأة فإن قدرتها موصولة فلا خبر لها حتى تستقل خبرا لـ " أنه " ،

وإن جعلتها شرطية فلا جواب لها ، إذ جعلت " فأنه " عطفا على " أنه ".

قال شهاب الدين : وقد ذهب ابن عطية إلى مثل قول الزمخشري فإنه قال : و " أنه " في موضع رفع (على المفعول الذي لم يسم فاعله.

و " أنه " الثانية عطف على الأولى مؤكد وهذا رد واضح.

وقرئ "كتب " مبنيا للفاعل ، أي : كتب الله ، ف (أن) وما في حيزها في محل نصب) على المفعول به ، وباقي الآية على ما تقدم.

وقرأ الأعمش والجعفي عن أبي عمرو " إنه ، فإنه " بكسر الهمزتين.

وقال ابن عطية : وقرأ أبو عمرو " إنه ، فإنه " بالكسر فيهما وهذا يوهم أنه مشهور

١٤

". (١)

"وقال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل : وما تضرعوا (أو) فما يستكينون.

قلت : لأن المعنى محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة ، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد.

فظاهر هذا أن (حتى) غاية لنفي الاستكانة والتضرع.

ومعنى الاستكانة طلب السكون ، أي : ما خضعوا وما ذلوا إلى ربهم ، وما تضرعوا بل مضوا على **تمردهم**.

قوله : ﴿حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد﴾.

قرئ " فتحنا " بالتشديد.

قال ابن عباس ومجاهد : يعني القتل يوم بدر.

وقيل : الموت وقيل : قيام الساعة.

وقيل : الجوع.

﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ آيسون من كل خير.

وقرأ السلمي : " مبلسون " – بفتح اللام – من أبلسه ، أي : أدخله في الإبلاس.

قوله تعالى : ﴿وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار﴾ الآية.

العطف لا يحسن إلا مع المجانسة ، فأي مناسبة بين قوله : ﴿وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار﴾

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٦٩٢

وبين ما قبله ؟ والجواب : كأنه تعالى لما بين مبالغة الكفار في الإعراض عن سماع الأدلة والاعتبار ، وتأمل الحقائق قال للمؤمنين : هو الذي أعطاكم هذه الأشياء ووفقكم لها تنبيها على أن من لم يعمل هذه الأعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها ، لقوله : ﴿فمآ أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ [الأحقاف : ٢٦] وأفرد السمع والمراد الأسماع ثم قال : ﴿قليلا ما تشكرون﴾.

قال أبو مسلم : وليس المراد أن لهم شكرا وإن قل ، لكنه كما يقال للكفور والجاحد للنعمة : ما أقل شكر فلان.

ثم قال : ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي : خلقكم ، قال أبو مسلم : ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثرتم كقوله : ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ [الإسراء : ٣] أي : هو الذي جعلكم في الأرض متناسلين ، ويحشركم يوم القيامة إلى دار لا حاكم فيها سواه ، فجعل حشرهم إلى ذلك الموضع حشرا إليه لا بمعنى المكان.

ثم قال : ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ أي : نعمة الحياة وإن كانت من أعظم النعم فهي منقطعة

٢٤٦

وأنه سبحانه - وإن أنعم بها ، فالمقصود منها الانتقال إلى دار الثواب.

ثم قال : ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي : تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان ، ووجه النعمة بذلك معلوم.

قال الفراء : جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض.

ثم قال : " أفلا تعقلون " قرأ أبو عمرو في رواية يعقوب : بياء الغيبة على الالتفات والمعنى : أفلا تعقلون ما ترون صنعه فتعتبرون.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٢٤٥

قوله تعالى : ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ أي : كذبوا كما كذب الأولون ﴿قالوا اا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون﴾ لمحشورون ، قالوا ذلك منكرين متعجبين.

واعلم أنه - سبحانه - لما أوضح دلائل التوحيد عقبه بذكر المعاد ، فذكر إنكارهم البعث مع وضوح أدلته ، وذكر أن إنكارهم ذلك تقليد للأولين ، وذلك يدل على فساد القول بالتقليد ثم حكى قولهم : ﴿لقد وعدنا نحن وآبآؤنا هذا من قبل﴾ كأنهم قالوا إن هذا الوعد كما وقع منه - عليه السلام - فقد وقع قديما من سائر الأنبياء ثم لم يوجد مع طول العهد ، وظنوا أن الإعادة تكون في الدنيا ، ثم قالوا : لما لم يكن

ذلك فهو من أساطير الأولين.

والأساطير جمع أسطار ، وهي جمع سطر ، أي : ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له ، أو جمع أسطورة.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٢٤٦

قوله تعالى : ﴿قل لمن الأرض ومن فيهآ﴾ الآية.

اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود

٢٤٧

." (١)

"فصل الإكراه إنما يحصل بالتخويف بما يقتضي تلف النفس.

ومعنى قوله : ﴿إن أردن تحصنا﴾ أي : إذا أردن ، وليس معناه الشرط ، لأنه لا يجوز إكراههن على الزنا إن لم يردن تحصنا ، كقوله عز وجل : ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران : ١٣٩] أي : إذ كنتم مؤمنين.

وقيل : إنما شرط إرادة التحصن ، لأن الإكراه إنما يكون عند إرادة التحصن ، فإن لم ترد التحصن بغت طوعا ، لأنه متى لم توجد إرادة التحصن لم تكن كارهة للزنا ، وكونها غير كارهة للزنا يمنع إكراهها ، فامتنع الإكراه لامتناعه في نفسه.

وقيل : هذا الشرط لا مفهوم له ، لأنه خرج مخرج الغالب ، لأن الغالب أن الإكراه لا يحصل إلا عند إرادة التحصن ، كما أن الخلع يجوز في غير حالة الشقاق ، ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع في حالة الشقاق لا جرم لم يكن لقوله : ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ [البقرة : ٢٢٩] (مفهوم) ومنه قوله تعالى : ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ا﴾ [النساء : ١٠١] والقصر لا يختص بحال الخوف ، ولكنه أخرجه على الغالب ، فكذا ههنا.

وقال بعض العلماء : في الآية تقديم وتأخير ، تقديره : وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، أي : لتطلبوا من أموال الدنيا ، يريد : من كسبهن وبيع أولادهن.

والتحصن : التعفف.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٧٨١

قوله : ﴿ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾.
أي : غفور رحيم للمكرهات ، والوزر على المكره ، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال : (لهن والله).
وقال ابن الخطيب : فيه وجهان : أحدهما : غفورا لهن ، لأن الإكراه (يزيل الإثم) والعقوبة عن المكره فيما فعل.
٣٧٧
والثاني : (فإن الله غفور رحيم) بالمكره بشرط التوبة.
وهذا ضعيف لأنه يحتاج إلى الإضمار ، والأول لا يحتاج إليه.
وفي هذا نظر ، لأنه لا بد من ضمير يعود على اسم الشرط عند الجمهور كما تقدم تحقيقه (في البقرة).
قوله : " فإن الله " جملة وقعت جوابا للشرط ، والعائد على اسم الشرط محذوف ، تقديره : غفور لهم.
وقدره الزمخشري في أحد تقديراته وابن عطية وأبو البقاء : فإن الله غفور لهن ، أي : للمكرهات ، فعريت جملة الجزاء عن رابط يربطها باسم الشرط ، ولا يقال : إن الرابط هو الضمير المقدر الذي هو فاعل المصدر ؛ إذ التقدير : من بعد إكراههم لهن ، فليكتف بهذا الرابط المقدر ، لأنهم لم يعدوا ذلك من الروابط ، تقول : هند عجبت من ضربها زيدا فهذا جائز ، ولو قلت : هند عجبت من ضرب زيد : أي : من ضربها ، لم يجز ، لخلوها من الرابط وإن كان مقدرا.
ولما
٣٧٨
قدر الزمخشري " لهن " أورد سؤالا فقال : فإن قلت : لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن ، لأن المكرهة على الزنا بخلاف المكره غير آثمة.
قلت : لعل الإكراه غير ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل ، أو بما يخاف منه التلف ، أو فوات عضو حتى يسلم من الإثم ، وربما قصرت عن الحد الذي تعذر فيه فتكون آثمة.
جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٣٦٩
قوله تعالى : ﴿ولقد أنزلنآ إليكم آيات مبينات﴾ الآية.
لما ذكر الأحكام وصف القرآن بصفات ثلاث : أحدها : قوله : ﴿ولقد أنزلنآ إليكم آيات مبينات﴾ أي : مفصلات.
وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر : " مبينات " بكسر الياء ، أي : أنها تبين للناس الحلال والحرام ، كقوله

تعالى : ﴿بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء : ١٩٥] وتقدم الكلام في " مبينات " كسرا وفتحا.

وثانيها : قوله : ﴿ومثلا من الذين خلوا من قبلكم﴾.

قال الضحاك : " يريد بالمثل ما في التوراة والإنجيل من إقامة الحدود ، فأنزل في القرآن مثله " وقال مقاتل : " قوله : " ومثلا " أي : شبها من حالهم بحالكم في تكذيب الرسل " يعني : بينا لكم ما أحللنا بهم من العقاب لتمردهم على الله ، فجعلنا ذلك مثلا لكم ، وهذا تخويف لهم ، فقوله : " ومثلا " عطف على " آيات " أي : وأنزلنا مثلا من أمثال الذين من قبلكم.

وثالثها : قوله : " وموعظة للمتقين " أي : الوعيد والتحذير ، ولا شك أنه موعظة للكل ، وخص المتقين بالذكر لما تقدم في قوله : " هدى للمتقين ".

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٣٧٨

". (١)

"جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٤٨٤

ومن قوله :

٣٨٦٦ - علفتها تبنا وماء باردا

أي : ومعتقلا رمحا ، وسقيتها ماء ، أو يضمن (متقلدا) معنى متسلحا ،

٤٨٨

و(علفتها) معنى أطعمتها تبنا وماء باردا.

فصل معنى ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾.

قال الكلبي والسدي من مسيرة عام.

وقيل : من مسيرة مائة سنة.

روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " من كذب علي متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا " قالوا : وهل لها من عينين ؟ قال : نعم ألم تسمع قول الله - عز وجل - ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾ ".

وقيل : إذا رأتهم زبانيتها.

قال الجبائي : إن الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلين بتعذيب أهل النار ، لأن الرؤية تصح منهم ولا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٣٨٣٠

تصح من النار ، فهو كقوله " واسأل القرية " وأراد أهلها.
قوله : ﴿و إذآ ألقوا منها مكانا ضيقا﴾.
" مكانا " منصوب على الظرف ، و " منها " في محل نصب على الحال من " مكانا ".
لأنه في الأصل صفة له.
و " مقرنين " حال من مفعول " ألقوا " ، و " ثبورا " مفعول به ، فيقولون : واثبوراه ، ويجوز أن يكون مصدرا من معنى " دعوا " ، وقيل : منصوب بفعل من لفظه مقدر تقديره ثبرنا ثبورا.
وقرأ معاذ بن جبل " مقرنون " بالواو ، ووجهها أن تكون بدلا من مفعول " ألقوا " وقرأ عمرو بن محمد " ثبورا " بفتح الثاء ، والمصادر التي على
٤٨٩
(فعول) بالفتح قليلة جدا ، وينبغي أن يضم هذا إليها ، وهي مذكورة في البقرة عند قوله ﴿وقودها الناس﴾ [البقرة : ٢٤].
فصل قال ابن عباس : يضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح ، وهو منقول أيضا عن ابن عمر.
وسئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال : " إنهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط ".
قال الكلبي : الأسفلون يرفعهم اللهب والأعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الأبواب.
قال الزمخشري : الكرب مع الضيق كما أن الفرج مع السعة ، ولذلك وصف الجنة بأن عرضها السموات والأرض.
وقوله : " مقرنين " (أي : مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال.
وقيل : مقرنين) مع الشياطين في السلاسل ، كل كافر مع شيطان ، فعندما يشاهدون هذا العذاب دعوا بالويل والثبور.
قال ابن عباس : يقولون : ويلا.
وقال الضحاك : هلاكا.
فيقولون : واثبوراه فهذا حينك وزمانك ، فيقال لهم : ﴿لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا﴾ أي : هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة فادعوا أدعية كثيرة.
٤٩٠

قال الكلبي : نزل هذا كله في أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٤٨٤

قوله تعارى : ﴿أذالك خير أم جنة الخلد﴾ الآية.

لما وصف العقاب المعد للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال : " أذلك خير ".

فإن قيل : كيف يقال : العذاب خير أم جنة الخلد ؟ وهل يجوز أن يقول العاقل : السكر أحلى أم الصبر ؟ فالجواب : هذا يحسن في معرض التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فضربه ويقول له : أهذا خير أم ذلك ؟ فصل قال أبو مسلم : جنة الخلد : هي التي لا ينقطع نعيمها ، والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور ، قال تعالى : ﴿لا نريد منكم جزآء ولا شكورا﴾ [الإنسان : ٩].

فإن قيل : الجنة اسم لدار مخلدة ، فأي فائدة في قوله : " جنة الخلد " ؟ فالجواب : الإضافة قد تكون للتبيين ، وقد تكون لبيان صفات الكمال ، كقوله تعالى : " الخالق البارئ " وهذا من هذا الباب.

فصل احتج المعتزلة بهذه الآية على إثبات الاستحقاق من وجهين : الأول : اسم الجزاء لا يتناول إلا المستحق ، فأما الموعود بمحض التفضيل فلا يسمى جزاء.

والثاني : لو كان المراد بالجزاء ما صرتم إليه بمجرد الوعد فلا يبقى بين قوله : " جزاء " وبين قوله : " مصيرا " تفاوت ، فيصير ذلك تكريرا من غير فائدة.

والجواب : أنه لا نزاع في كونه جزاء إنما النزاع في أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق ، وليس في الآية ما يدل على التعيين.

فإن قيل : إن الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك ، فلم قال الله ﴿كانت لهم جزآء ومصيرا﴾ ؟ فالجواب من وجهين :

٤٩١

". (١)

"وهذا القول أولى من التخصيص بصورة واحدة ، ونزوله في واقعة خاصة (لا ينافي العموم) ، بل تدخل فيه تلك الصورة وغيرها.

والمقصود من الآية زجر الكل عن الظلم ، وذلك لا يحصل إلا بالعموم.

فصل قال الضحاك : يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت ، ولا يزال هكذا كلما أكلها نبتت وقال المحققون :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٨٧٣

هذه اللفظة للتحسر والغم ، يقال : عض أنامله ، وعض على يديه.
قوله : " يقول " هذه الجملة حال من فاعل " يعض " وجملة التمني بعد القول محكية به ، وتقدم الكلام في مباشرة (يا) لـ " ليت " في النساء.
قوله : " يا ويلتى ".
قرأ الحسن " يا ويلتي " بكسر التاء وياء صريحة بعدها ، وهي الأصل.
وقرأ الدوري بالإمالة.
قال أبو علي : وترك الإمالة أحسن ، لأن أصل هذه اللفظة الياء فبدلت الكسرة فتحة والياء ألفا فرارا من الياء ، فمن أمال رجع إلى الذي منه فر أولا.
وهذا منقوض بنحو (باع) فإن أصله الياء ، ومع ذلك أمالوا ، وقد أمالوا ﴿يا حسرتا على ما فرطت﴾ [الزمر : ٥٦] و " يا أسفى " وهما كـ (ياء) " ويلتي " في كون ألفهما عن ياء المتكلم.
و " فلان " كناية عن علم من يعقل ، وهو متصرف.
و " فل " كناية عن نكرة من يعقل من الذكور ، و " فلة " عن من يعقل من الإناث.
والفلان والفلانة بالألف عن غير العاقل ، ويختص (فل) ، و(فلة) بالنداء إلا في ضرورة كقوله :
٥٢٢
٣٨٧٤ - في لجة أمسك فلانا عن فل
جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٥١٥
وليس (فل) مرخما من (فلان) خلافا للفراء.
وزعم أبو حيان أن ابن عصفور وابن مالك ، وابن العلج وهموا في جعلهم (فل) كناية عن علم من يعقل (فلان).
ولام (فل) و(فلان) فيها وجهان : أحدهما : أنها واو.
والثاني : أنها ياء.
فصل تقدم الكلام في " يا وِيلتِى " في هود.
﴿ليتني لم أتخذ فلانا خليلا﴾ يعني أبي بن خلف ﴿لقد أضلني عن الذكر﴾ عن الإيمان والقرآن ، ﴿بعد إذ جآءني﴾ يعني الذكر مع الرسول " وكان الشيطان " وهو كل **متمرد** عات من الجن والإنس ، وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان.

وقييل : أشار إلى خليله.

وقيل : أراد إبليس ، فإنه الذي حمله على أن صار خليلا لذلك المضل ، ومخالفة الرسول ، ثم خذله ، وهو معنى قوله : " للإنسان خذولا " أي : تاركا يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب.

وقوله : " وكان الشيطان " يحتمل أن تكون هذه الجملة من مقول الظالم فتكون منصوبة المحل بالقول.

وأن تكون من مقول الباري تعالى فلا محل لها ، لاستئنافها.

٥٢٣

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٥١٥

قوله تعالى : ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن﴾.

قال أكثر المفسرين : إن هذا القول وقع مع الرسول.

وقال أبو مسلم : بل المراد أن الرسول يقوله في الآخرة كقوله : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ [النساء : ٤١].

والأول أولى ، لأن قوله : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين﴾ تسلية للرسول ، ولا يليق ذلك إلا إذا وقع القول منه.

و " مهجورا " مفعول ثان لـ " اتخذوا " ، أو حال.

وهو مفعول من الهجر - بفتح الهاء - وهو الترك والبعد.

أي : جعلوه متروكا بعيدا ، لم يؤمنوا به ، ولم يقبلوه ، وأعرضوا عن استماعه.

وقيل : هو من الهجر - بالضم - أي : مهجورا فيه.

ثم حذف الجار بدليل قوله : ﴿مستكبرين به سامرا تهجرون﴾ [المؤمنون : ٦٧].

وهجرهم فيه : قولهم فيه : إنه شعر ، وسحر ، وأساطير الأولين ، وكذب وهجر , أي : هذيان.

قال عليه السلام : " من تعلم القرآن وعلق مصحفا ، ولم يتعاهده ، ولم ينظر فيه ، جاء يوم القيامة متعلقا به ، يقول : يا رب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجورا اقض بيني وبينه " وجعل الزمخشري " مهجورا " هنا مصدرا بمعنى الهجر قال كالمجلود والمعقول.

قال شهاب الدين : وهو غير مقيس ، ضبطه أهل اللغة في أليفاظ فلا يتعدى إلا بنقل.

قوله تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا﴾ الآية.

جعل ذكر ذلك تسلية للرسول ، وأن له أسوة بسائرة الرسل ، فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبر أولو

العزم من الرسل.

﴿وكفى بربك هاديا ونصيرا﴾.

قال المفسرون : الباء زائدة بمعنى كفى ربك " هاديا ونصيرا " منصوبان على

٥٢٤

." (١)

"قوله : ﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ تقدم الخلاف في الظرف الواقع بعد " دخل " هل هو منصوب على الظرف ، وشذ ذلك مع دخل خاصة - كما قاله سيبويه - أو مفعول به كهديت البيت كما قاله الأخفش.

والصرح : القصر ، أو صحن الدار ، أو بلاط متخذ من زجاج وأصله من التصريح ، وهو الكشف ، وكذب " صراح " ، أي : ظاهر مكشوف ولوم صراح.

والصريح مقابل الكناية ، لظهوره واستتار ضده.

وقيل : الصريح الخالص من قولهم : لبن صريح بين الصراحة والصروحة.

وقال الراغب : الصرح بيت عال مزوق ، سمي بذلك اعتبارا بكونه صرحا عن البيوت ، أي : خالصا.

قوله : " ساقيها " العامة على ألف صريحة ، وقنبل روى همزها عن ابن كثير ، وضعفها أبو علي ، وكذلك فعل قنبل في جمع ساق في : ص ، وفي الفتح ، همز واوه ، فقرأ " بالسؤق والأعناق " ، ﴿فاستوى على سوقه﴾ [الفتح : ٢٩] بهمزة مكان الواو ، وعنه وجه آخر : السؤوق ، وسؤوقه - بزيادة واو بعد الهمز - ، وروي عنه أنه كان يهمزه مفردا في قوله : ﴿يكشف عن ساق﴾ [القلم : ٤٢] فأما همزة الواو ففيها أوجه :

١٧١

أحدها : أن الواو الساكنة المضموم ما قبلها يقلبها بعض العرب همزة ، وتقدم تحقيق هذا أول البقرة عند " يوقنون " ، وأنشد عليه :

٣٩٦٦ - أحب المؤقدين إلي مؤسى

وكان أبو حية النميري يهمز كل واو في القرآن هذا وصفها.

الثانيك أن ساقا على " فعل " كأسد ، فجمع على " فعل " بضم العين ، كأسد والواو المضمومة تطلب

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٨٨٦

همزة ، نحو : " وجوه " ، و " وقتت " ثم بعد الهمزة سكنت.
الثالث : أن المفرد سمع همزه كما سيأتي تقريره ، فجاء جمعه عليه.
وأما سؤوق - بالواو بعد الهمزة - فإن ساقا جمع على سووق بواو ، فهمزت الأولى لانضمامها وهذه الرواية غريبة عن قنبل.
وأما " ساقها " فوجه الهمزة أحد أوجه : إما لغة من يقلب الألف همزة ، وعليه لغة العجاج في : العألم و " الخأتم " ، وأنشد :
٣٩٦٧ - وخندف هامة هذا العألم
وسيأتي تقريره في : ﴿منسأته﴾ [سبأ : ١٤] - إن شاء الله - وتقدم طرف منه في
١٧٢
الفاتحة ، وإما على التشبيه برأس ، وكأس ، كما قالوا : حلأت السويق ، حملا على حلأته عن الماء ، أي : طردته وإما حملا للمفرد والمثنى على جمعها ، وقد تقرر في جمعها الهمز.
فصل لما حكى تعالى إقامتها على الكفر مع الدلائل المتقدمة ، ذكر أن سليمان أظهر أمرا آخر داعيا لها إلى الإسلام ، فأمر الشياطين فبنوا صرحا أي : قصرا من زجاج ، كأنه الماء بياضا وأجري تحته الماء ، وألقى فيه كل شيء من دواب البحر من السمك والضفادع وغيرها ، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، وقيل : اتخذ صحنا من قوارير وجعل تحته١ تماثيل من الحيتان والضفادع ، فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء ، فلما جلس على لسرير دعا بلقيس ، فلما جاءت قيل لها : ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة ، وهي معظم الماء ، ﴿وكشفت عن ساقيها﴾ لتخوضه ، فقيل كان المقصود من بناء الصرح تهويل المجلس وتعظيمه ، وحصل كشف الساق على سيبيل التبع ، وقيل : إن سليمان أراد أن ينظر إلى ساقيها من غير أن يسألها كشفها لما قالت الشياطين له إن رجلها كحافر الحمار ، وهي شعراء الساقين ، فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما ، إلا أنها كانت شعراء الساقين ، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها وناداها أنه صرح " ممرد " ، أي : مملس ، ومنه الأمرد لملاسة وجهه من الشعر وبرية مرداء لخلوها من النبات ، ورملة مرداء ، لا تنبيت شيئا ، والمارد من الشياطين من تعرى من الخير وتجرد منه.
ومارد حصن معروف ، وفي أمثال الزباء : " تمرد مارد وعز الأبلق " قالتها في حصنين امتنع فتحهما عليها.
والقوارير ، وهي الزجاج الشفاف ، و " من قوارير " صفة ثانية لـ " صرح ".

قوله : ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي﴾ قال مقاتل : لما رأت السرير والصرح ، علمت

١٧٣

." (١)

"أحدهما : أن تكون الزنية مصدرا وفاعله محذوف بأن زين الله الكواكب في كونها مضيئة حسنة في أنفسها.

والثاني : أن الزينة اسم لما يزان به كالليقة اسم لما يلاق به الدواة فتكون الكواكب على هذا منصوبة بإضمار أعني أو يكون بدلا من (ال)سماء الدنيا بدل اشتمال أي كواكبها أو من محل " بزينة " وحمزة وحفص كذلك إلا أنهما خفضا الكواكب على أن يراد بزينة ما يزان به ، والكواكب بدل أو بيان للزينة وهي قراءة مسروق بن الأجدع قال الفراء : وهو رد معرفة على نكرة كقوله : " بالناصية ناصية كاذبة " فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج : الكواكب بدل من الزينة لأنها هي كقولك : " مررت بأبي عبد الله زيد " والباقون بإضالة زينة إلى الكواكب وهي تحتمل ثلاثة أوجه : أحدها : أن يكون إضافة أعم إلى أخص فتكون للبيان نحو : ثوب خز.

الثاني : أنها مصدر مضاف لفاعله أي بأن زينت الكواكب السماء بضوئها.

والثالث : أنه مضاف لمفعوله أي بأن زينها الله بأن جعلها مشرقة مضئية في نفسها وقرأ ابن عباس وابن مسعود بتنوينها وبرفع الكواكب فإن جعلتها مصدرا

٢٧٦

ارتفع الكواكب به ، وإن جعلتها اسما لما يزان به فعلى هذا ترفتع " الكواكب " بإضمار مبتدأ أي هي الكواكب.

وهي في قوة البدل ومنع الفراء إعمال المصدر المنون ورغم أنه لم يسمع وهو غلط لقوله تعالى : ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ [البلد : ١٤] كما سيأتي إن شاء الله.

قوله : " وحفظا " منصوب على المصدر ، بإضمار فعل أي حفظناها حفظا ، وإما على المفعول من أجله على زيادة الواو والعامل فيه زينا أو على أن يكون العامل مقدرا أي لحفظها زينا أو على الحمل على المعنى المتقدم أي : إنا خلقنا السماء الدينا زينة وحفظا ، و " من كل " ويجوز أن يكون صفة " لحفظا " قال المبرد : إذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصرد فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله كقولك :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٩٧٥

أفعل وكرامة لما قال أفعل علم أن الأسماء لا تعطف فكان المعنى أفعل ذاك واكرمك كرامة.

فصل قال ابن عباس " زينا السماء الدينا " بضوء الكواكب " وحفظناها من كل شيطان مارد " **متمرد** يرمون بها ، وتقدم الكلام على المارد عن قوله : ﴿مردوا على النفاق﴾ [التوبة : ١٠١] واعمل أنه تعالى بين أنه زين السماء لمنفعتين : إحداهما : تحصل الزينة.

والثانية : الحفظ من الشيطان المارد.

فإن قيل : ثبت في علم الهيئة أن هذه الكواكب الثوابت مركوزة في الكرة الثامنة وأن السيارات مركوزة في الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله : إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ؟ .

٢٧٧

". (١)

"ولم ير أنيابها ؛ بل ليست موجودة ألبتة ، قال ابن الخطيب : وهذا هو الصحيح ؛ وذلك أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح في الصورة والسير فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة الكمال والفضيلة في قول النساء : ﴿إن هاذآ إلا ملك كريم﴾ [يوسف : ٣١] فكذلك حسن التشبيه برؤوس الشياطين بالقبح وتشيوه الخلقة ، ويؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئا (شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا : إنه شيطان وإذا رأوا شيئا) حسنا قالوا : إنه ملك من الملائكة قال ابن عباس : هم الشياطين بأعيانهم شبه بها لقبحه.

قوله : ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾ والملء حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه.

فإن قيل : كيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنيها ومرارة طعمها ؟ فالJجواب : أن المضطر ربما استروح من الضرر بما يقاربه في الضرر فإذا جوعهم

٣١٥

الله الجوع الشديد فزعوا إلى إزالة ذلك الجوع بتناول هذا الشيء.

أو يقال : إن الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم.

قوله : ﴿ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم﴾ قرأ العامة بفتح الشين وهو مصدر على أصله.

وقيل : يراد به اسم المفعول ويدل له قراءة شيبان النحوي لشوبا - بالضم - قال الزجاج : المفتوح مصدر ، والمضموم اسم بمعنى المشوب كالنقض بمعنى المنقوض وعطف " بثم " لأحد معينين إما لأنه يؤخر ما

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٦٤

يظنونه يرويهم من عطشهم زيادة في عذابهم فلذلك أتى " بثم " المقتضية للتراخي ، وإما لأن العادة تقضي بتراخي الشرب عن الأكل فعمل على ذلك المنوال وأما ملء البطن فيعقب الأكل فلذلك عطف على ما قبله بالفاء.

قال الزجاج : الشوب اسم عام في كل ما خلط بغيره ، والشوب الخلط والمزج ، ومنه شاب اللبن يشوبه أي خلطه ومزجه والحميم : الماء الحار والمتناهي في الحرارة.

و " من حميم " صفة " لشوبا " واعلم أن الله تعالى وصف شرابهم في القرآن بأشياء منها : ﴿وغساقا﴾ [النبأ : ٢٥] ومنها : ﴿وسقوا مآء حميما فقطع أمعآءهم﴾ [محمد : ١٥] ومنها المذكور في هذه الآية ولما ذكر الطعام بتلك الشناعة والكراهة وصف الشراب بما هو أشنع منه وسماه شوبا أي خلطا ومزجا من حميم من ماء حار ، فإذا أكلوا الزقوم وشربوا عليه الحميم فيشرب الحميم في بطونهم فيصير شوبا له.

قوله : ﴿إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم﴾ قال مقاتل : أي بعد أكل الزقوم وشرب الحميم.

وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم وذلك بأن يكون

٣١٦

الحميم في موضع خارج عن الجحيم فهم يورِدون الحميم لأجل الشرب كما تورد الإبل إلى الماء ثم يردون إلى الجحيم ؛ ويدل عليه قوله : ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن : ٤٤] وقرأ ابن مسعود : " ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم " " إنهم ألفوا " وجدوا ﴿فهم على آثارهم يهرعون﴾ قال الفراء : الإهراء الإسراع يقال : هرع وأهرع إذا استحث والمعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعا في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم.

وقال الكلبي : يعملون مثل عملهم ، ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يسليه في كفرهم وتكذيبهم فقال : ﴿ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين﴾ من الأمم الخالية.

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٣١٢

﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾ فبين تعالى أن إرساله الرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف فوجب أن يكون له – صلى الله عليه وسلم – أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا فليس عليه إلا البلاغ ثم قال : ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ الكافرين أي كان عاقبتهم العذاب وهذا الخطاب وإن كان ظاهره مع الرسول – عليه (الصلاة و) السلام – إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار ما جرة على قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أنواع العذاب فإن لم يعلموا ذلك فلا

أقل من ظن وخوف يحتمل أن يكون زاجرا لهم عن كفرهم.
قوله : ﴿إلا عباد الله﴾ استثناء من قوله : " المنذرين " استثناء منقطعا لأنه وعيد وهم لم يدخلوا (في) هذا الوعيد وقيل : استثناء من قوله : ﴿ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين﴾
٣١٧
والمراد بالمخلصين : الموحدين نجوا من العذاب وتقدم الكلام على هذا الإخلاص في سورة الحجر عند قوله تعالى : ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [الحجر : ٤٠].
جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٣١٧
." (١)

"وقال بعضم : إن لفظة " في " هناك أليق ؛ لأن سفينة نوح على ما قيل كانت مطبقة عليهم وهي محيطة بهم كالوعاء ، وأما غيرها فالاستعلاء فيه واضح ، لان الناس على ظهرها.
قوله : ﴿ويريكم آياته﴾ دلائل قدرته ، وقوله : ﴿فأي آيات الله﴾ منصوب بـ " تنكرون " وقدم وجوبا لأن له صدر الكلام.
قال مكي : ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار الرفع في أي بخلاف ألف الاستفهام تدخل على الاسم ، وبعدها فعل واقع على ضمير الاسم فالاختيار النصب نحو قولك : أزيدا ضربته ، هذا مذهب سيبويه فرق بين الألف وبين " أي " يعني أنك إذا قلت : أيهم ضربت ؟ كان الاختيار الرفع ؛ لأنه لا يحوج إلى إضمار مع أن الاستفهام موجود وفي " " أزيدا ضربته " يختار النصب لأجل الاستفهام فكان مقتضاه اختيار النصب أيضا فيما إذا كان الاستفهام بنفس الاسم ، والفرقب عسر.
وقال الزمخشري : " فأي آيات " جاءت على اللغة المسفيضة وقولك : فأيه آيات الله قليلة ؛ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات ، نحو : حمار ، وحمارة غريب ، وهو في أي أغرب (لإبهامه) قال أبو حيان (رحمة الله عليه) : ومن قلة تأنيث أي قوله : ٤٣٥١. بأي كتاب أم بأية سنة
ترى حبهم عارا علي وتحسب
جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٨٨
وقوله : وهو في " أي " أغرب إن عنى " أيا " على الإطلاق فليس بصحيح ؛ لأن المستفيض في النداء أن يؤنث في نداء المؤنث كقوله تعالى : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾ [الفجر : ٢٧] ولا نعلم أحدا ذكر

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٧٩

تذكيرها فيه فيقول : يأيها المرأة ، إلا صاحب البديع في النحو.

وإن

٩١

عنى غير المناداة فكلامه صحيح يقل تأنيثها في الاستفهام ، وموصولة شرطية.

قال شهاب الدين : أما إذا وقعت صفة لنكرة أو حالا لمعرفة فالذي ينبغي أن يجوز الوجهان كالموصولة ويكون التأنيث أقل نحو : مررت بامرأة أية امرأة ، وجاءت هند أية امرأة وكان ينبغي لأبي حيان أن ينبه على هذين الفرعين.

فصل معنى قوله ﴿فأي آيات الله تنكرون﴾ أي هذه الآيات التي عددناها كلها ظاهرة باهرة ليس في شيء منها ما يمكن إنكاره.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٨٨

قوله تعالى : ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم...

﴾ معناه أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم ، إنما كان السبب في ذلك طلب الرياسة والتقديم على الغير في المال والجاه ومن ترك الانقياد على الحق طلبا لهذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا وهذه طريقة فاسدة ؛ لأن الدنيا ذاهبة واحتج بقوله تعالى : ﴿أفلم يسيروا في الأرض...

﴾ يعني لو ساروا في أطراف الارض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين **والمتمردين** ليس إلا الهلاك والبوار مع أنهم كانوا أكثر عددا وعددا ومالا من هؤلاء المتأخرين ، فلما لم تفدهم تلك المكنة العظيمة إلا الخيبة والخسار فكيف حال هؤلاء الفقراء المساكين ؟ !.

قوله : ﴿فما أغنى عنهم﴾ يجوز في " ما " أن تكون نافية واستفهامية بمعنى النفي ، ولا حاجة إليه وقوله " ما كانوا " يجوز أن يكون " ما " مصدرية ، ومحلها الرفع أي مكسوبهم أو كسبهم ويجوز أن يكون بمعنى الذي فلا عائد على الأول وعلى الثاني هو محذوف أي يكسبونه وهي فاعل " بأغنى " على التقديرين.

٩٢

". (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٤٢٠

"وقيل هو في الأصل : مؤيمن فقلبت الهمزة هاء ، كقوله : " أرقت وهرقت " ومعناه : المؤمن.

نقله البغوي.

وتقدم الكلام على " العزيز ".

٦١٢

قوله : " الجبار ".

استدل به من يقول : إن أمثلة المبالغة تأتي من المزيد على الثلاثة ، فإنه من " أجبره على كذا " ، أي قهره.

قال الفراء : ولم أسمع " فعالا " من " أفعل " إلا في " جبار ودراك " من أدرك انتهى واستدرك عليه : أسأر ، فهو سئار.

وقيل : هو من الجبر ، وهو الإصلاح.

وقيل : هو من قولهم : نخلة جبارة إذا لم ينلها الجناة.

قال امرؤ القيس : [الطويل] ٤٧٥٦ - سوامق جبار أثيث فروعه

وعالين قنوانا من البسر أحمرا

يعني النخل التي فاتت اليد.

قال ابن الخطيب : فيه وجوه : أحدها : أنه " فعال " من جبر ، إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير.

قال الأزهري : " هو لعمري جابر لكل كسير وفقير ، وهو جابر دينه الذي ارتضاه ".

قال العجاج - رحمه الله - : [الرجز]

٤٧٥٧ - قد جبر الدين الإله فجبر

الثاني : أن يكون من جبره إذا أكرهه على ما أراده.

قال السدي : إنه هو الذي يقهر الناس ، ويجبرهم على ما أراده.

وكان الشافعي - رحمه الله - يقول : جبره السلطان على كذا ، بغير ألف.

الثالث : قال ابن عباس رضي الله عنهما : الجبار هو الملك العظيم.

وقيل : الجبار الذي لا تطاق سطوته.

قال الواحدي : هذا الذي ذكرنا من معاني الجبار في صفة الله تعالى ، وأما معاني الجبار في صفة الخلق فلها معان :

أحدها : المسلط ، كقوله : ﴿ومآ أنت عليهم بجبار﴾ [ق : ٤٥].
الثاني : العظيم الجسم ، كقوله تعالى : ﴿إن فيها قوما جبارين﴾ [المائدة : ٢٢].
والثالث : المتمرد عن عبادة الله كقوله : ﴿ولم يجعلني جبارا﴾ [مريم : ٣٢].
الرابع : القتال كقوله : ﴿بطشتم جبارين﴾ [الشعراء : ١٣٠] وقوله : ﴿إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض﴾ [القصص : ١٩].
قوله : ﴿المتكبر﴾.
قال ابن عباس : الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله.
وقيل : المتكبر عن كل سوء ، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدوث والذم.
وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلة الانقياد.
قال حميد بن ثور : [الطويل] ٤٧٥٨ - عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت
بها كبرياء الصعب وهي ذلول
جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٦٠٦
قال الزجاج : وهو الذي تعظم عن ظلم عباده.
وقال ابن الأنباري : " المتكبر " ذو الكبرياء.
والكبرياء عند العرب الملك ، قال تعالى : ﴿وتكون لكما الكبريآء في الأرض﴾ [يونس : ٧٨] واعلم أن المتكبر في صفات الله مدح ، وفي صفات المخلوقين ذم.
قال - عليه الصلاة والسلام - يرويه عن ربه - تبارك وتعالى - أنه قال : " الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما قصمته ثم قذفته في النار ".
وقيل : المتكبر معناه العالي.
وقيل : الكبير ، لأنه أجل من أن يتكلف كبرا.
وقد يقال : تظلم بمعنى ظلم ، وتشتم بمعنى شتم ، واستقر بمعنى قر ، كذلك المتكبر بمعنى الكبير ، وليس كما يوصف به المخلوق إذا وصف بـ " تفعل " إذا نسب إلى ما لم يكن منه ، ثم نزه نفسه فقال : ﴿سبحان الله عما يشركون﴾.
كأنه قال : إن المخلوقين قد يتكبرون ، ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف ،

٦١٤
." (١)

"سورة الجن
مكية ، وهي ثمان وعشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة و ثمانمائة وسبعون حرفا.
جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٤٠٣
قوله : ﴿قل أوحي إلي أنه﴾ ، هذه قراءة العامة ، أعني كونها من " أوحى " رباعيا.
وقرأ العتكي عن أبي عمرو وابن أبي عبلة وأبو إياس : " وحى " ثلاثيا.
وهما لغتان ، يقال : وحى إليه كذا وأوحى إليه بمعنى واحد ، فقلبت الواو همزة ،
٤٠٤
ومنه قوله تعالى : ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ [المرسلات : ١١] ؛ وأنشد العجاج : [الرجز]
٤٨٩٢ - وحى لها القرار فاستقرت
وقرأ زيد بن علي والكسائي في رواية وابن أبي عبلة أيضا : " أحي " بهمزة مضومة لا واو بعدها ، وخرجت على أن الهمزة بدل من الواو المضمومة ، نحو " أعد " في " وعد " فهذا فرع قراءة " وحى " ثلاثيا.
قال الزمخشري : وهو من القلب المطلب جوابا في كل واو مضومة ، وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضا : ك " إشاح ، وإسادة " ، و ﴿إعاء أخيه﴾ [يوسف : ٧٦].
قال أبو حيان : وليس كا ولكل منها أحكام ، وفي بعض ذلك خلاف ، وتفصيل مذكور في كتب النحو.
وتقدم الكلام في ذلك مشبعا في أول الكتاب.
ثم قال بو حيان بعدما تقدم عن المازني : وهذا تكثير وتبجيح.
قوله : ﴿أنه استمع﴾ ، هذا هو القائم مقام الفاعل لأنه هو المفعول الصريح ، وعند الكوفيين والأخفش يجوز أن يكون القائم مقامه الجار ، والمجرور ، فيكون هذا باقيا على نصبه ، والتقدير : أوحي إلي استماع نفر " من الجن " صفة لـ " نفر ".
فصل في تفسير الآية قال ابن عباس وغيره : قل يا محمد لأمتك أوحي إلي على لسان جبريل ، أنه استمع نفر من الجن ، والنفر : الجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة ، واختلفوا ، هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ .

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٨٨٤

فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم لقوله تعالى : ﴿أنه استمع﴾ ، وقوله : ﴿وإذ صرفنآ إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن﴾ [الأحقاف : ٢٩].

وفي صحيح مسلم ، والترمذي عن ابن عباس قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشيطان ، وبين خبر السماء ، وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ .

فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب قالوا : ما ذلك إلا من شيء حدث ، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو " تهامة " وهو وأصحابه بنخلة قاصدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه الفجر فلما سمعوا

٤٠٥

القرآن قالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنآ أحدا﴾ لإنزل الله على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ الآية.

قال القرطبي : وفي هذا الحديث دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لم ير الجن ولكن حضروه وسمعوا قرآنه.

فإن قيل : الذين رموا بالشهب هم الشياطين والذين سمعوا القرآن هم الجن ، فما وجه الجمع ؟ فالجواب من وجهين : الأول : أن الجن كانوا مع الشياطين ، فلما رمي الشياطين أخذوا الجن الذين كانوا منهم ف يتجسس الخبر.

الثاني : أن الذي رموا بالشهب كانوا من الجن ، إلا أنهم قيل لهم : شياطين كما قيل : شياطين الإنس والجن ، فإن الشيطان كل **متمرد** ، وبعيد من طاعة الله تعالى.

قال ابن الخطيب رحمه الله : واختلف في أولئك الجن الذين سمعوا القرآن هم ؟ .

فروى عاصم عن ذر قال : قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرفوا ، فذلك قوله تعالى : ﴿وإذ صرفنآ إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن﴾.

وقي : كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عددا وعامة جنود إبليس منهم.

وقيل : كانوا سبعة ، ثلاثة من أرض " حران " وأربعة من أرض " نصيبين " ، : قرية من قرى اليمن غير التي بالعراق رواه أرضا عنهم عاصم عن ذر.

وقيل : إن الجن الذين أتوه بمكة جن نصيبين ، والذين أتوه بنخلة جن نينوى.
وقال عكرمة : كانوا اثني عشر ألفا من جزيرة الموصل.
ومذهب ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالمسير إليهم ليقرأ القرآن عليهم ويدعوهم إلى الإسلام ، روى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن ٤٠٦." (١)

"يذهب معي ؟ فسكتوا ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم الثانية : ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم الثالثة ، فقلت : أنا أذهب معك يا رسول الله ، فانطلق ، حتى أتى الحجون عند شعب ابن أبي دب خط علي خطا فقال : لا تجاوزه ، ثم مضى إلى الحجون فاتخذوا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزط ، قال ابن الأثير في " النهاية " : الزط : قوم من السودان والهنود : يقرعون في دفوفهم ، كما تقرع النسوة في دفوفها ، حتى غشاه ، فغاب عن بصري ، فقمت ، فأومأ بيده إلي أن اجلس ثم تلا القرآن صلى الله عليه وسلم فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا في الأرض ، حتى صرت لا أراهم " وفي رواية أخرى ، " قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنت ؟ .

قال صلى الله عليه وسلم : أنا نبي ، قالوا : فمن يشهد لك على ذلك ؟ .

فقال الحبيب المجتبى صلى الله عليه وسلم : هذه الشجرة ، تعالي يا شجرة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع ، حتى انتصبت بين يديه صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم : على ماذا تشهدين في ؟ .

فقالت أشهد أنك رسول الله قال صلى الله عليه وسلم لها : اذهبي ، فرجعت فذهبت مكانها كما جاءت ، حتى صارت كما كانت وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : فلما عاد إلي قال : أردت أن تأتيني ، قلت : نعم يا رسول الله قال : ما كان ذلك لك ، قال : هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، فسألوني الزاد ، فزودتهم العظم والبعر ، فلا يستطيبن أحدكم بعظم ، ولا بعر " وفي رواية : " أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ وضع رأسه صلى الله عليه وسلم على حجر ابن مسعود - رضي الله عنه - فرقد ، ثم استيقظ صلى الله عليه وسلم فقال : هل من وضوء ؟ قال : لا ، إلا أن معي إداوة نبيذ ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل هو إلا تمر وماء " فتوضأ منه "
٤٠٧

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٠٥٧

قال ابن الخطيب : وطريق الجمع بين المذهبين مذهب ابن عباس ومذهب ابن مسعود من وجوه : أحدها : لعل ما ذكره ابن عباس وقع أولا فأوحى الله إليه بهذه السورة ، ثم أمر بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود رضي الله عنهما.

وثانيها : أن بتقدير أن تكون واقعة الجن مرة واحدة إلا أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ، وما عرف أنهم ماذا قالوا ، وأي شيء فعلوا ، فالله تعالى أوحى إليه أنه كان كذا وكذا ، وقالوا كذا.

وثالثها : أن الواقعة كانت مرة واحدة ، وهو صل الله عليه وسلم رآهم ، وسمع كلامهم ، وهم آمنوا به ، ثم رجعوا إلى قومهم ، قالوا لقومهم على سبيل الحكاية : ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾ وكان كذا وكذا فأوحى الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما قالوه لأقوامهم.

قال ابن العربي : " ابن مسعود أعرف من ابن عباس ، لأنه شاهده ، وابن عباس سمعه ، وليس الخبر كالمعاينة ".

قال القرطبي : وقيلك إن الجن أتوا النبي صلى الله عليه وسلم دفعتين.

أحدهما : بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود.

والثانية : بنخلة وهي الذي ذكرها ابن عباس.

قال البيهقي : الذي حكاه عبد الله إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمت بحاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه عبد الله بن عباس ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود.

فصل في لفظ " قل " قال ابن الخطيب : اعلم أن قوله تعالى : قل " أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يظهر لأصحابه – رضي الله عنهم – م١ أوحى إليه تعالى في واقعة الجن ، وفيه فوائد.

أحدها : أن يعرفوا بذلك أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجن ، كما بعث إلى الإنس.

وثانيها : أن تعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم.

٤٠٨

". (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٠٥٨

"الأول : أنه من قولهم : أثرت الحديث آثره ، أثرا ، إذا حدثت به عن قوم ي آثارهم ، أي : بعدما ماتوا ، هذا هو الأصل ، ثم صار بمعنى الرواية عما كان.

والثاني : يؤثر على جميع السحر ، وهذا يكون من الإيثار.

وقال أبو سعيد الضرير : يؤثر ، أي : يورث.

قوله تعالى : ﴿إن هاذآ إلا قول البشر﴾ ، أي : هذا إلا كلام المخلوقين تختدع به القلوب كما يخدع بالسحر.

قال ابن الخطيب : ولو كان الأمر كذلك لتمكنوا من معارضته إذا طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة.

قال السدي : يعني أنه من قول سيار عبد لبني الحضرمي ، كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك.

وقيل : إنه أراد أنه تلقنه ممن ادعى النبة قبله ، فنسج على منوالهم.

قال ابن الخطيب وهذا الكلام يدل على أن الوليد كان يقول هذا الكلام عنادا ، لما روي في الحديث المتقدم : " أنه لما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم " حم " ثم خرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لقد سمعت من محمد كلاما ، ليس من كلام الجن ، ولا من كلام الإنس " الحديث ، فلما أر بذلك في أول الأمر علمنا أن قوله – هاهنا – : ﴿إن هاذآ إلا قول البشر﴾ ، إنما ذكره عنادا ، أو **تمردا** لا اعتقادا.

قوله تعالى : ﴿سأصليه سقر﴾ هذا بدل من قوله تعالى : ﴿سأرهقه صعودا﴾.

قاله الزمخشري.

فإن كان المراد بالصعود : المشقة ، فالبدل واضح ، وإن كان المراد : صخرة في جهنم – كما جاء في التفسير – فيعسر البدل ، ويكون فيه شبه من بدل الاشتمال ، لأن جهنم مشتملة على تلك الصخرة.

فصل في معنى الآية المعنى : سأدخله سقر كي يصلى حرها ، وإنما سميت " سقر " من سقرته الشمس : إذا أذابته ولوحته ، وأحرقت جلدة وجهه ، ولا ينصرف للتعريف والتأنيث قال ابن عباس : " سقر " اسم للطبقة السادسة من " جهنم ".

﴿ومآ أدراك ما سقر﴾.

هذا مبالغة في وصفها ، أي : وما أعلمك أي شيء هي ؟ .

وهي

٥١٥

كلمة تعظيم ، وتهويل ، ثم فسر حالها ، فقال - جل ذكره - : ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ أي : لا تترك لهم لحما ، ولا عظما ، ولا دما إلا أحرقته.

قوله : ﴿لا تبقي﴾ ، فيها وجهان : أحدهما : أنها في محل نصب على الحال ، والعامل فيها معنى التعظيم ، قاله أبو البقاء.

يعني أن الاستفهام في قوله : " ما سقر " للتعظيم ، والمعنى : استعظموا سقر في هذه الحال.

ومفعول " تبقي " ، وتذر " محذوف أي لا تبقي ما ألقي فيها ، ولا تذره ، بل تهلكه.

وقيل : تقديره لا تبقي على من ألقي فيها ، ولا تذر غاية العذاب إلا وصلته إليه.

والثاني : أنها مستأنفة.

قال ابن الخطيب : واختلفوا في قوله : ﴿لا تبقي ولا تذر﴾.

فقيل : هما لفظان مترادفان بمعنى واحد ، كرر للتأكيد والمبالغة ، كقولك صد عني وأعرض عني ، بل بينهام فرق ، وفيه وجوه : الأول : لا تبقي من اللحم ، والعظم ، والدم شيئا ، ثم يعادون خالقا جديدا ، " ولا تذر " أن تعاود إحراقهم بأشد مما كانت ، وهكذا أبدا ، رواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال مجاهد : لا تبقي فيها حيا ولا تذره ميتا بل تحرقهم كلما جددوا.

وقال السدي : لا تبقي لهم لحما ولا تذر لهم عظما.

وقيلك لا تبقي من المعذبين ، ولا تذر من فوقها شيئا ، إلا تستعمل تلك القوة في تعذيبهم.

قوله تعالى : ﴿لواحة للبشر﴾ ، قرأ العامة : بالرفع ، خبر مبتدأ مضمر ، أي هي لواحة ، وهذه مقوية للاستئناف في " لا تبقي ".

وقرأ الحسن ، وابن أبي عبلة وزيد بن علي وعطية العوفي ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر : بنصبهما على الحال ، وفيها ثلاثة أوجه : أحدها : أنها حال من " سقر " ، والعامل معنى التعظيم كما تقدم.

٥١٦

والثاني : أنها حال من " لا تبقي ".

والثالث : من " لا تذر ".

وجعل الزمخشري : نصبها على الاختصاص للتهويل.

وجعلها أبو حيان حالا مؤكدة.

قال : " لأن النار التي لا تبقي ولا تذر ، لا تكون إلا مغيرة للأبشار ".

و " لواحة " هنا مبالغة ، وفيها معنيان : أحدهما : من لاح يلوح ، أي : ظهر ، أي : أنها تظهر للبشر ، [وهم الناس ، وإليه ذهب الحسن وابن كيسان ، فقال : " لواحة " أي : تلوح للبشر] من مسيرة خمسمائة عام ، وقال الحسن : تلوح لهم جهنم حتى يرونها عيانا ، ونظيره : ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات : ٣٦].

والثانيك وإليه ذهب جمهور الناس ، أنها من لوحه أي : غيره ، وسوده.

قال الشاعر : [الرجز] ٤٩٦٥ - تقول : ما لاحك يا مسافر

يا بنة عمي لاحني الهواجر

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٥٠٦

وقال رؤبة بن العجاج : [الرجز] ٤٩٦٦ - لوّح منه بعد بدن وسنق

تلويحك الضامر يطوى للسبق

وقال آخرك [الطويل] ٤٩٦٧ - وتعجب هند إن رأتني شاحبا

تقول لشيء لوحته السمائم

." (١)

"٥٧٦

وقيل : أن يترك في قبره أبدا كذلك لا يبعث ، و " سدى " حال من فاعل " يترك " ومعناه : مهملا ، يقال : إبل سدى ، أي : مهملة.

وقال الشاعر : [المتقارب] ٥٠١٦ - وأقسم بالله جهد اليمي

ـن ما خلق الله شيئا سدى

أي : مهملا ، وأسديت حاجتي ، أو ضيعتها ، ومعنى أسدى إليه معروفا ، أي : جعله بمنزلة الضائع عند المسدى إليه لا يذكره ولا يمن به عليه.

قوله : ﴿ألم يك نطفة﴾.

العامة : على الياء من تحت في " يك " رجوعا إلى الإنسان.

والحسن : بتاء الخطاب ، على الالفتات إليه توبيخا له.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٥١٠٧

وقوله : ﴿من مني يمنى ﴾.
قرأ حفص : " يمنى " بالياء من تحت.
وفيه وجهان : أحدهما : أن الضمير عائد على المني - أي يصب - فتكون الجملة في محل جر.
والثاني : أنه يعود للنطفة ، لأن تأنيثها مجازي ؛ ولأنها في معنى الماء.
قاله أبو البقاء.
وهذا إنما يتمشى على قول أبن كيسان.
وأما النحاة فيجعلونه ضرورة ؛ كقوله : [المتقارب] ٥٠١٧ - ....
ولا أرض أبقل إبقالها
وقرأ الباقون : " تمنى " بالتاء من فوق على أن الضمير للنطفة ، فعلى هذه القراءة وعلى الوجه المذكور قبلها تكون الجملة في محل نصب ؛ لأنها صفة المنصوب.
فصل في معنى الآية والمعنى من قطرة ما تمنى في الرحم ، أي تراق فيه ، ولذلك سميت " منى " لإراقة الدماء ، والنطفة : الماء القليل ، ويقال : نطف الماء ، أي : قطر ، أي ألم يك ماء قليلا في صلب الرجل وترائب المرأة ، فنبه تعالى بهذا على خسة قدره.
ثم قال تعالى : ﴿فخلق فسوى ﴾ أي : فسواه تسوية ، وعدله تعديلا بجعل الروح فيه.
وقيل : فخلق فقد فسوى فعدل.
٥٧٧
وقيل : " فخلق " أي : نفخ فيه " فسوى " فكمل أعضاءه.
قاله ابن عباس ومقاتل.
﴿فجعل منه﴾ أي : من الإنسان.
وقيل : من المني " الزوجين ، الذكر والأنثى " أي : الرجل والمرأة.
فقوله تعالى ﴿الذكر والأنثى ﴾ يجوز أن يكونا بدلين من الزوجين على لغة من يرى إجراء المثنى إجراء المقصور ، وقد تقدم تحقيقه في " طه " ومن ينسب إليه هذه اللغة والاستشهاد على ذلك [طه : ٦٣].
فصل فيمن احتج بالآية على إسقاط الخنثى قال القرطبي : وقد احتج بهذه الآية من رأى إسقاط الخنثى وقد مضى في سورة " الشورى " أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجت مخرج الغالب.
فإن قيل : ما فائدة قوله : " يمنى " في قوله تعالى " من مني يمنى " ؟ فالجواب فيه إشارة إلى حقارة حاله

، كأنه قيل : إنه مخلوق من المني الذي يجري مجرى النجاسة ، فلا يليق بمثل هذا أن **يتمرد** عن طاعة الله – تعالى – إلا أنه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز ، كما في قوله تعالى في " عيسى ومريم " – عليهما الصلاة والسلام – ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ [المائدة : ٧٥] والمراد منه قضاء الحاجة.

قوله تعالى : ﴿أليس ذلك بقادر﴾ أي : أليس الذي قدر على خلق هذه النسمة من قطر ماء.

وقوله : " بقادر " اسم فاعل مجرور بـ " باء " زائدة في خبر " ليس " وهذه قراءة العامة.

وقرأ زيد بن علي : " يقدر " فعلا مضارعا.

والعامة : على نصب " يحيى " بـ " أن " لأن الفتحة خفيفة على حرف العلة.

وقرأ طلحة بن سليمان والفياض بن غزوان : بسكونها ، فإما أن يكون خفف حرف العلة بحذف حرف الإعراب.

وإما أن يكون أجرى الوصل مجرى الوقف ، وجمهور الناس على وجوب فك الإدغام.

قال أبو البقاء : لئلا يجمع بين ساكنين لفظا وتقديرا.

يعني أن الحاء ساكنة ، فلو أدغمنا لسكنا الياء الأولى أيضا للإدغام ، فيلتقي ساكنان لفظا ، وهو متعذر النطق ، فهذان ساكنان لفظا.

٥٧٨

وأما قوله : تقديرا ؛ فإن بعض الناس جوز الإدغام في ذلك ، وقراءة أن يحي ، وذلك أنه لما أراد الإدغام نقل حركة الياء الأولى إلى الحاء فأدغمها فالتقى ساكنان ، الحاء لأنها ساكنة في الأصل قبل النقل إليها والياء ؛ لأن حركتها نقلت من عليها إلى الحاء ؛ واستشهد الفراء لهذه القراءة بقول الشاعر : [الكامل]

٥٠١٨ – تمشي بسدة بيتها فتعي

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٥٧٦

وأما أهل " البصرة " فلا يدغمونه ألبتة قالوا : لأن حركة الياء عارضة إذ هي للإعراب.

وقال مكي : وقد أجمعوا على عدم الإدغام في حال الرفع ، وأما في حال النصب فقد أجازه الفراء لأجل تحرك الياء الثانية ، وهو لا يجوز عند البصريين ، لأن الحركة عارضة.

قال شهاب الدين : ادعاؤه الإجماع مردود بالبيت الذي تقدم إنشاده عن الفراء ، وهو قوله : " فتعي " فهذا مرفوع وقد أدغم ، ولا يبعد ذلك لأنه لما أدغم ظهرت تلك الحركة لسكون ما قبل الياء بالإدغام ".

فصل في معنى الآية المعنى الذي قدر على خلق هذه النسمة من قطرة ماء قادر على أن يحيي الموتى أي

: أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البلى.
روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنه كان إذا قرأها ، قال : " سبحانك اللهم وبلى " وقال ابن عباس : من قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى ﴾ إماما كان أو غيره فليقل : " سبحان ربي الأعلى " ومن قرأ : ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ إلى آخرها فليقل : سبحانك الله بلى ، إماما كان أو غير.
روى الثعلبي عن أبي بن كعب – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة القيامة شهدت أنا وجبريل له يوم القيامة إنه كان مؤمنا بيوم القيامة وجاء ووجهه يسفر عن وجوه الخلائق يوم القيامة أنه مؤمنا بيوم القيامة وجاء ووجهه يسفر عن وجوه الخلائق يوم القيامة " والله أعلم وأحكم.
٥٧٩
جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٥٧٦." (١)
"والجواب أن الأول أمر بالمأمورات ، والثاني : نهي عن المنهيات ، ودلالة أحدهما على الآخر بالالتزام لا بالتصريح ، فيكون التصريح ، فيكون التصريح منه مفيدا.
فإنه قيل : إنه صلى الله عليه وسلم ما كان يطيع أحدا منهم ، فما فائدة هذا النهي ؟ فالجواب : أن المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد لأجل ما تركب فيهم من الشهوة الداعية إلى الفساد ، وأن أحدا لو استغنى عن توفيق الله – تعالى – وإرشاده لكان أحق الناس به هو الرسول المعصوم – عليه الصلاة والسلام – ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم أنه لا بد من الرغبة إلى الله – تعالى – والتضرع إليه أن يصونه عن الشبهات والشهوات.
فإن قيل : ما الفرق بين الآثم والكفور ؟ فالجواب : أن الآثم هو الآتي بالمعاصي أي معصية كانت ، والكفور : هو الجاحد للنعمة ، فكل كفور آثم ، وليس كل آثم كفورا ، لأن الإثم عام في المعاصي كلها ، قال الله تعالى : ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ [النساء : ٤٨].
فسمى الشرك آثما ، وقال تعالى : ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ [البقرة : ٢٨٣] وقال تعالى : ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ [الأنعام : ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهمآ إثم كبير﴾ [البقرة : ٢١٩].
قد نزلت هذه الآيات على أن الإثم جميع المعاصي.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٥١٣٥

قوله تعالى : ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾.
أي : صل لربك أول النهار وآخره ففي أوله صلاة الصبح والظهر والعصر ، وهو الأصيل ، ﴿ومن الليل فاسجد له﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة ، ﴿وسبحه ليلا طويلا﴾ يعني التوع فيه.
قاله ابن حبيب.
وقال ابن عباس وسفيان : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة.
وقيل : هو الذكر المطلق ، سواء كان في الصلاة أو في غيرها.
وقال ابن زيد وغيره : إن قوله تعالى : ﴿وسبحه ليلا طويلا﴾ منسوخ بالصلوات الخمس.
وقيل : هو ندب.
وقيل : هو مخصوص بالنبي عليه الصلاة والسلام.
وجمع الأصيل : الأصائل ، والأصل ، كقولك : سفائن وسفن ، والأصائل : جمع الجمع ، ودخلت " من " على الظرف للتبغيض ، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى : ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ [الأحقاف : ٣١].
٥٢
قوله : ﴿وسبحه﴾ فيه دليل على عدم صحة قول بعض أهل المعاني والبيان ، أن الجمع بين الحاء والهاء - مثلا - يخرج الكلم عن فصاحتها ، وجعلوا من ذلك قوله : [الطويل].
٥٠٥٠ - كريم متى أمدحه والورى
معي وإذا ما لمته لمته وحدي
جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٤٩
البيت لأبي تمام ، ويمكن أن يفرق بين ما أنشدوه وبين الآية بأن التكرار في البيت هو المخرج عن الفصاحة بخلاف الآية فإنه لا تكرار فيها.
جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٤٩
قوله تعالى : ﴿إن هاؤلاء يحبون العاجلة﴾.
توبيخ وتقريع والمراد أهل " مكة " ، والعاجلة ، الدنيا.
واعلم نه تعالى لما خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بالتعظيم والأمر والنهي ، عدل إلى شرح أحوال الكفار **والمتمردين** ، فقال تعالى : ﴿إن هاؤلاء يحبون العاجلة﴾ ، ومعناه : إن الذي حمل هؤلاء على

الكفر والإعراض عما ينفعهم في الآخرة ، هو محبتهم اللذات العاجلة والراحات الدنيوية البدنية.

قوله : ﴿ويذرون ورآءهم﴾ ، أي : بين أيديهم ، وقال : " وراءهم " ولم يقل : قدامهم لأمور : أحدها : أنهم لما أعرضوا عنه ولم يلتفوا إليه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم.

وثانيها : المراد : يذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل ، أي عسير ، فأسقط المضاف.

وثالثها : أن " وراء " يستعمل بمعنى " قدام " ، كقوله تعالى : ﴿من ورآئه جهنم﴾ [إبراهيم : ١٦] ﴿وكان ورآءهم ملك﴾ [الكهف : ٧٩].

وقال مكي : سمي " وراء " لتواريه عنك ، فظاهر هذا أنه حقيقة ، والصحيح أنه استعير لـ " قدام ".

قوله : " يوما ".

مفعول بـ " يذرون " لا ظرف ، وصفه بالثقل على المجاز ؛ لأنه من صفات الأعيان لا المعاني.

٥٣

وقيل : معناه يتركون الإيمان بيوم القيامة.

وقيل : نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته ، وحبهم العاجة : أخذهم الرشا ما كتموه ، وقيل : أراد المنافقين لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا ، والآية تعم ، واليوم الثقيل : ويم القيامة ، وسمي ثقيلا لشدائده وأهواله وقيل : للقضاء فيه بين العباد.

قوله تعالى : ﴿نحن خلقناهم﴾ أي من طين ، ﴿وشددنآ أسرهم﴾ أي : خلقهم.

قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم ، والأسر : الخلق.

قال أبو عبيد : يقال : فرس شديد الأسر ، أي : الخلق ، ويقال : أسره الله ، إذا شدد خلقه ؛ قال لبيد [الرمل] ٥٠٥١ - ساهم الوجه شديد أسره

مشرف الحرك محبوك الكتد

." (١)

"جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٥٣

وقال الأخطل : [الكامل] ٥٠٥٢ - من كل مجتنب شديد أسره

سلس القياد تخاله مختالا

وقال أبو هريرة والحسن رضي الله عنهم : شددنا مفاصلهم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥١٥٨

قال أهل اللغة : الأسر : الربط ، ومنه : أسر الرجل ، إذا أوثق بالقيد ، وفرس مأسورة الخلق وفرس مأسورة بالغقب ، والإسار : هو القيد الذي يشد به الأقتاب ، تقول : أسرت القتب أسرا ، أي : شددته وربطته.

فصل في معنى الأسر قال ابن زيد : الأسر القوة ، والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية ، أي : سويت خلقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي.

قال ابن لخطيب : وهذا الكلام يوجب عليهم طاعة الله تعالى من حيث الترغيب والترهيب ؛ أما الترغيب فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة ، وخلق لهم جميع ما يمكن الانتفاع به ، فإذا أحبوا اللذات العاجلة ، وتلك اللذات لا تحصل إلا بالمنتفع والمنتفع به ، وهما لا يحصلان إلا بتكوين

٥٤

الله وإيجاده ، وهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله – تعالى – وترك التمرد.

وأما الترهيب فإنه قادر على أن يميتهم وأن يسلب النعم عنهم ، وأن يلقي بهم في كل محنة وبلية ، فلأجل من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم الانقياد لله – تعالى – وترك التمرد ، فكأنه قيل : هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة حسنة إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله – تعالى – والانقياد له ، فلم توسلتم به إلى الكفر بالله – تعالى – والإعراض عن حكمه.

قوله تعالى : ﴿وإذا شئنا بدلنآ أمثالهم تبديلا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم.

وقال ابن الخطيب : معناه : إذا شئنا أهلكناهم ، وأتينا بأشباههم ، فجعلناهم بدلا منهم كقوله تعالى : ﴿على أن نبدل أمثالكم﴾ [الواقعة : ٦١] ، والغرض منه : بيان الاستغناء التام عنهم ، كأنه قيل : لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة ، وبتقدير إن ثبتت الحاجة ، فلا حاجة بنا إلى هؤلاء الأقوام ؛ فإنا قادرون على إبدالهم وإيجاد أمثالهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ [إبراهيم : ١٩] ، ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾ [النساء : ١٣٣].

وروى الضحاك عن ابن عباس – رضي الله عنهم – معناه : لغيرنا محاسنهم إلى أقبح الصور.

وقيل : أمثالهم في الكفر.

فصل في نظم الآية قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿وإذا شئنا﴾ : وحقه أن يجيء بـ " إن " لا بـ " إذا " ، كقوله تعالى : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم﴾ [محمد : ٣٨] ، ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ يعني : أن " إذا

" للمحقق ، و " إن " ﻟﻠﻤﺤﺘﻤﻞ ، وهو تعالى لم يشأ ذلك ، وجوابه أن " إذا " قد تقع موقع " إن " كالعكس.

قال ابن الخطيب : فكأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف ، لأن كل واحد من " إن " و " إذا " حرف شرط ، إلا أن حرف " إن " لا يستعمل فيما هو معلوم الوقوع ، فلا يقال : إن طلعت الشمس أكرمتك.

أما حرف " إذا " فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع تقول ابتداء : إذا طلعت الشمس – فها هنا – لما كان الله تعالى عالما أنه سيجيء وقت يبدل الله تعالى فيه أولئك الكفرة بأمقالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة لا جرم حسن استعمال حرف " إذا ".

٥٥

." (١)

"وقال أبو البقاء : لما كان المعنى : أدعوك ، جاء بـ " إلى ".

وقال غيره : يقال : هل لك في كذا ، هل لك إلى كذا كما تقول : هل ترغب فيه وهل ترغب إليه ؟ .

قال الواحدي : المبتدأ محذوف في اللفظ ، مراد في المعنى ، والتقدير : هل لك إلى أن تزكى حاجة.

وقرأ نافع وابن كثير : بتشديد الزاي من " تزكى " والأصل تتزكى ، وكذلك " تصدى " في السورة تحتها ، فالحرميان : أدغما ، والباقون : حذفوا ، نحو تنزل ، وتقدم الخلاف في أيتهما المحذوفة.

فصل في تفسير الآية معنى " هل لك إلى أن تزكى " أي : تسلم فتطهر من الذنوب.

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – هل لك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله.

و " أهديك إلى ربك فتخشى " أي : تخافه وتتقيه.

قال ابن الخطيب : سائر الآيات تدل على أنه – تعالى – لما نادى موسى – عليه الصلاة والسلام – ذكر له أشياء كثيرة ، كقوله تعالى في سورة " طه " : ﴿نودي يا موسى إني أنا ربك﴾ [طه : ١١ ، ١٢] إلى قوله : ﴿لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ [طه : ٢٣ ، ٢٤].

فدل [قوله تعالى – هاهنا – : " اذهب إلى فرعون إنه طغى "] أنه من جملة ما ناداه به [لا ل ما ناداه به] ، وأيضا فليس الغرض أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى فرعون فقط بل إلى كل من كان في الطور ، إلا أنه خصه دعوته جارية مجرى دعوة كل القوم.

فصل في كلان المعتزلة تمسم المعتزلة بهذه الآية في إبطال القول بأن الله – تعالى – يخلق فعل العبد ،

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥١٥٩

فإن هذا استفهام على سبيل التقرير ، أي : لك سبيل إلى أن تزكى ، ولو كان بفعل الله – تعالى – لا نقلب الكلام حجة على موسى.
والجواب : ما تقدم في نظائره.
حكى القرطبي عن صخر بن جويرية قال : " لما بعث الله تعالى موسى – عليه الصلاة والسلام – إلى فرعون ، قال له : " اذهب إلى فرعون " إلى قوله : " وأهديك إلى ربك فتخشى " ، ولن يفعل ، فقال : يا رب ، وكيف أذهب إليه ، وقد علمت أنه لا يفعل ، فأوحى الله – تعالى – إليه أن امض إلى ما أمرت به ، فإن في السماء اثني عشر ألفا ملك ، يطلبون علم القدرة ، فلم يبلغوه ، ولم يدركوه ".
قوله تعالى : ﴿فأراه الآية الكبرى ﴾ " الفاء " في " فأراه " : معطوف على محذوف ، يعني فذهب فأراه ، كقوله تعالى : ﴿اضرب بعصاك الحجر فانفجرت﴾ [البقرة : ٦٠] أي : فضرب فانفجرت.
واختلفوا في الآية الكبرى ، أي : العلامة العظمى ، وهي المعجزة.
فقيل : هي العصا.
وقيل : اليد البيضاء تبرق كالشمس ، قاله مقاتل والكلبي.
والأول : قول عطاء وابن عباس ؛ لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونها ، وهذا كان حاصلا في العصا ؛ لأنها انقلبت حية ، فلا بد وأن يتغير اللون الأول ، فإذن كل ما في اليد ، فهو حاصل في العصا ، وأمور أخر ، وهي الحياة في الجرم الجمادي ، وتزايد الأجر إليه ، وحصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة ، وابتلاعها أشياء كثيرة ، وزوال الحياة ، والقدرة عليها ، وبقاء تلك الأجزاء التي عظمت ، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حية ، وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزا مستقلا في نفسه ، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا.
وقال مجاهد : هي مجموع العصا واليد.
وقيل : فلق البحر ، وقيل : جميع آياته ومعجزاته.
﴿فكذب﴾ أي : كذب بنبي الله موسى و " عصى " ربه تبارك وتعالى.
فإن قيل : كل من كذب الله فقد عصى ، فما فائدة قوله : " فكذب وعصى " ؟ .
فالجواب : كذب بالقول ، وعصى **بالتمرد** والتجبر.

١٣٨

." (١)

"وجواب " إذا " محذوف ، يدل عليه قوله : " لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ".

والتقدير : فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه.

فصل في تعلق الآية لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعتاد ليتزودوا له بالأعمال الصالحة ، والإنفاق مما امتن به عليهم.

وقال ابن الخطيب : لما ذكر تعالى هذه الأشياء ، وكان المقصود منها أمور ثلاثة : أولها : الدلائل الدالة على التوحيد.

وثانيها : الدلائل الدالة على القدرة والمعاد.

وثالثها : أن هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع الظيمة من الإحسان ، لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته ، وأن يتكبر على عبيده أتبع لك يما يكون كالمؤكد لهذه الأغراض ، وهو شرح [أهوال الآخرة] ، فإن الإنسان إذا سمعها خاف ، فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل ، والإيمان بها ، والإعراض عن الكفر ، ويدعوهة أيضا إلى ترك التكبر على الناس ، وإلى إظها ر التواضع فقال تعالى : ﴿فإذا جآءت الصآخة﴾ يعني : صيحة القيامة ، وهي النفخة الأخيرة ، تصخ الأسماع أي : تصمها ، فلا تسمع إلا ما يدعى به الأحياء.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة إلا الجن والإنس ".

قوله : ﴿يوم يفر المرء﴾ بدل من " إذا " ، ولا يجوز أن يكون " يغنيه " عاملا ، في " إذا " ، ولا في " يوم " ؛ لأنه صفة لـ " شأن " ولا يتقدم معمول الصفة على موصوفها.

والعامة على " يغنيه " من الإغناء.

١٧٠

وابن محيصن والزهري ، وابن أبي عبلة وحميد ، وابن السميفع : " يعنيه " بفتح الياء والعين المهملة من قولهم : عناني في الأمر ، أي : قصدني.

فصل في معنى الآية قوله : " يفر " ، أي : يهرب في يوم مجيء الصاخة ، " من أخيه " أي : من موالاة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥١٩٦

أخيه ، ومكالمته لأنه مشتغل بنفسه ، لقوله بعده : ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ ، أي : يشغله عن غيره.
وقيل : إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه بالتبعات ، يقول الأخ : ما واسيتني بمالك ، والأبوان يقولان : قصرت في برنا ، والصاحبة تقول : أطعمتني الحرام ، والبنون يقولون : ما علمتنا.
وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ، ولا يغنون عنه شيئا ، لقوله تعالى : ﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا﴾ [الدخان : ٤١].
وقال عبد الله بن طاهر : يفر منهم لما تبين له عجزهم ، وقلة حيلتهم.
وذكر الضحاك عن ابن عباس ، قال : يفر قابيل من أخيه هابيل ، ويفر النبي من أمه ، ويفر إبراهيم من أبيه ، ونوح من ابنه ، ولوط من امرأته ، وآدم من سوءة بنيه.
قال ابن الخطيب : المراد : أن الذن كان المرء يفر إليهم في دار الدنيا ، ويستجير بهم ، فإنه يفر منهم في دار الآخرة ، وذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل : : يوم يفر المرء من أخيه " ، بل من أبويه ، فإنهما أقرب من الأخوين ، بل من الصاحبة والولد ؛ لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين.
ثم لما ذكر الفرار أتبعه بذكر سببه فقال تعالى : ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾.
قال ابن قتيبة : " يغنيه " أي : يصرفه عن قرابته ، ومنه يقال : أغن عني وجهك ، أي : اصرفه.
وقال أهل المعاني : إن ذلك الهم الذي حصل له قد ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع لهم آخر ، فصار شبيها بالغني فيأنه ملك شيئا كثيرا.
قوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾.
لما ذكر تعالى حال يوم القيامة في الهول بين أن المكلفين فيه على قسمين : سعداء ، وأشقياء ، فوصف سبحانه السعيد بقوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ أي : مضيئة مشرقة ، وقد علمت ما لها من الفوز ، والنعيم ، من أسفر الصبح : إذا أضاء ، وهي وجوه المؤمنين " ضاحكة " أي : مسرورة فرحة.
١٧١
قال الكلبي : يعني بالفراغ من الحساب ﴿مستبشرة﴾ أي : بما آتاها الله تعالى من الكرامة.
وقال عطاء الخراساني : " مسفرة " من طول ما اغبرت في سبيل الله.
وقال الضحاك : من آثقار الوضوء.
وقال ابن عباس – رضي الله عنه – : من قيام الليل ، لقوله عليه الصلاة والسلام : " من كثرت صلاته بالليل

حسن وجهه بالنهار ".

قوله تعالى : ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾.

قال المبرد : " الغبرة " الغبار ، والقترة : سواد كالدخان.

وقال أبو عبيدة : القتر في كلام العرب : الغبار ، جمع القترة ؛ قال الفرزدق : [البسيط] ٥١١٦ - متوج برداء الملك يتبعه

موج ترى فوقه الرايات والقترا

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ١٧٠

وفي عطفه على الغبرة ما يرد هذا إلا أن يقال : اختلف اللفظ فحسن العطف ، كقوله : [الوافر] ٥١١٧ - ....

....

كذبا ومينا

وقوله : [الطويل] ٥١١٨ - ....

....

النأي والبعد

وهو خلاف الأصل ، وفي الحديث : " إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار ".

وقال زيد بن أسلم : القترة : ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة : ما انحطت إلى الأرض ، والغبار والغبرة واحد.

١٧٣

قال ابن عباس : " ترهقها " أي : تغشاها ، " قترة " أي : كسوف وسواد.

وعنه - أيضا - : ذلة وشدة.

وقيل : ترهقها ، أي : تدركها عن قرب ، كقولك : رهقته الخيل إذا أدركته مسرعة ، والرهق " عجلة الهلاك ، القترة : سواد كالدخان ، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبار والسواد في الوجه ، كما ترى وجوه الزنوج إذا غبرت ، فجمع الله - تعالى - في وجوههم بين السواد ، والغبرة ، كما جمعوا بين الكفر ، والفجور ، والله أعلم.

والعامة : على فتح التاء في " قترة " ، وأسكنها ابن أبي عبلة.

قوله : ﴿أولائك هم الكفرة﴾ : جمع كافر ، " الفجرة " : جمع فاجر ، وهو الكاذب المفتري على الله تعالى.

وقيل : الفاسق : يقال : فجر فجورا ، أي : فسق ، فجر : أي : كذب.

وأصله الميل ، والفاجر المائل.

روى الثعلبي عن أبي – رضي الله عنه – قال : " قال رسول الله صلى الله وسلم : " من قرأ سورة ﴿عبس وتولى ﴾ جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر ".

١٧٣

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ١٧٠." [(١)]

"وقيل : كان يشد الناس بالأوتاد إلى أن يموتوا ، تجبرا منه وعتوا ، كما فعل بامرأته آسية ، وماشطتها.

قال عبد الرحمن بن زيد : كانت له صخرة ترفع بالبكرات ، ثم يؤخذ له الإنسان ، فيوتد له أوتاد الحديد ، ثم يرسل تلك الصخرة عليه.

وروى قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن تلك الأوتاد ، كانت ملاعب يلعبون تحتها.

قوله : ﴿الذين طغوا﴾ : يجوز فيه ما جاز في : " الذين " قبله ، من الإتباع والقطع على الذم.

٣٢١

قال ابن الخطيب : يحتمل أن يرجع الضمير إلى فرعون خاصة ؛ لأنه يليه ، ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم ذكرهم ، وهو الأقرب.

وأحسن الوجوه في إعرابه : أن يكون في محل نصب على الذم ، ويجوز أن يكون مرفوعا على : " هم الذين طغوا " مجرورا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون.

يعني : عادا ، وفرعون ، وثمودا طغوا ، أي : تمردوا وعتوا ، وتجاوزا القدر في الظلم والعدوان ، ثم فسر تعالى طغيانهم بقوله : ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾.

قال الكلبي : القتل ، والمعصية لله تعالى.

قال القفال : والجملة أن الفساد ضد الصلاح ، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر ، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم ، فمن عمل بغير أمر الله ، وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٢١١

قوله : ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾.

أي : أفرغ عليهم ، وألقى ، يقال : صب على فلان خلعة ، أي : ألقاها عليه ؛ قال النابغة : [الطويل]

٥١٩٨ - فصب عليه الله أحسن صنعه

وكان له بين البرية ناصرا

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٣١٥

وقوله تعالى : ﴿سوط عذاب﴾ أي : نصيب عذاب ؛ وقيل : شدته ؛ لأن السوط عندهم ما يعذب به.

قال الشاعر : [الطويل] ٥١٩٩ - ألم تر أن الله أظهر دينه

وصب على الكفار سوط عذاب

والسوط : هو الآلة المعروفة.

قيل : سمي سوطا ؛ لأن يساط به اللحم عند الضرب أي : يختلط ؛ قال كعب بن زهير : [البسيط]

٥٢٠٠ - لكنها خلة قد شيط من دمها

فجع وولع وإخلاف وتبديل

وقال آخر : [الطويل] ٥٢٠١ - أحارث إنا لو تساط دماؤنا

تزايلن حتى لا يمس دم دما

[وقيل : هو في الأصل مصدر : ساطه يسوطه سوطا ، ثم سميت به الآلة].

٣٢٢

وقال أبو زيد : أموالهم بينهم سويطة ، أي : مختلطة.

فالسوط : خلط الشيء بعضه ببعض ، ومنه سمي : المسواط ، وساطه : أي خلطه ، فهو سائط ، وأكثر من ذلك ، يقال : سوط فلان أموره ؛ قال : [الطويل] ٥٢٠٢ - فسطها ذميم الرأي غير موفق

فلست على تسويطها بمعان

قال الفراء : هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب ، وأصل ذلك أن السوط : هو عذابهم الذي يعذبون به ، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه غاية العذاب.

وقال الزجاج : أي : جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب.

[ويقال : ساط دابته يسوطها أي : ضربها بسوطه.

وعن عمرو بن عبيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن الله تعالى عنده أسواط كثيرة فأخذهم

بسوط منها].
قال قتادة : كل شيء عذب الله به ، فهو سوط عذاب.
[واستعمال الصب في السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه].
قوله : ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ، أي : يرصد عمل كل إنسان ، حتى يجازيه به.
قال الحسن وعكرمة : والمرصاد : كالمرصد ، وهو : المكان الذي يترقب فيه الرصد ، جمع راصد كحرس ، فالمرصاد " مفعال " من : " رصده " ، كميقات من وقته ، قاله الزمخشري.
وجوز ابن عطية في المرصاد : أن يكون اسم فاعل ، قال : كأنه قيل : " لبالراصد " ، فعبر ببناء المبالغة.
ورده أبو حيان : بأنه لو كان كذلك لم تدخل عليه الباء ، إذ ليس هوفي موضع دخولها ، لا زائدة ، ولا غير زائدة.
٣٢٣
قال شهاب الدين : قد وردت زيادتها في خبر : " إن " كهذه الآية ؛ وفي قول امرئ القيس : [الطويل]
٥٢٠٣ - ....
فإنك مما أحدثت بالمجرب
جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٣١٥
إلا أن هذه ضرورة ، لا يقاس عليه الكلام ، فضلا عن أفصحه.
فصل تقدم الكلام في : " المرصاد " ، عند قوله : ﴿كانت مرصادا﴾ [النبأ : ٢١] ، وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب بأنهم لا يفوتونه ، كما قيل لبعض العرب : أين ربك ؟ قال : بالمرصاد.
وقال الفراء : معناه : إليه المصير.
وقال الزجاج : يرصد من كفر به وعاند طاعته بالعذاب.
وقال الضحاك : يرصد أهل الظلم ، والمعصية.
جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٣١٥
." (١)

"يدل على أن هذه عادته ، ودأبه ، فهو أبلغ في الذم أيضا فهذا عام في كل من نهى عن الصلاة ، وروي عن علي - رضي الله عنه - : أنه رأى أقواما يصلون قبل صلاة العيد ، فقال : ما رأيت رسول الله

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٢٧٣

صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ، فقيل له : ألا تنهاهم فقال : أخشى أن أدخل في قوله تعالى : ﴿أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى﴾ [العلق : ٩ ، ١٠] ، فلم يصرح أيضا بالنهي عن الصلاة.

وأيضا فيه : إجلال لمنصب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينهاه رجل لا سيما مثل هذا.

قوله : ﴿كلا﴾ ردع لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله تعالى ، أو كلا لن يصل أبو جهل إلى أن يقتل محمدا صلى الله عليه وسلم ويطأ عنقه.

وقال مقاتل : كلا لا يعلم أن الله يرى ، وإن كان يعلم لكن إذا كان لا ينتفع بناصيته يوم القيامة ، وليسحبنه بها في النار ، كقوله تعالى : ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ [الرحمن : ٤١] ، فالآية وإن كانت في أب جهل ، فهي عظة للناس ، وتهديد لمن يمنع غيره عن الطاعة.

قوله : ﴿لنسفعا﴾ ، الوقف على هذه النون بالألف ، تشبيها لها بالتنوين ، ولذلك يحذف بعد الضمة والكسرة وقفا ، وتكتب هنا ألفا إتباعا للوقف.

وروي عن أبي عمرو : " لنسفعن " بالنون الثقيلة.

والسفع : الأخذ والقبض على الشيء بشدة ، يقال : سفع بناصية فرسه ، قال عمرو بن معد يكرب :

[الكامل] ٥٢٥٧ - قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم

ما بين ملجم مهره أو سافع

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٤١٧

وقيل : هو الأخذ ، بلغة قريش.

وقال الراغب : السفع : الأخذ بسفعة الفرس ، أي : بسواد ناصيته ، وباعتبار السواد قيل للأثاقي : سفع ، وبه سفعة غضب اعتبارا بما يعلم من اللون الدخاني وجه من اشتد به الغضب.

وقيل للصقر : أسفع ، لما فيه من لمع السواد ، وامرأة سفع ١ء اللون انتهى.

وف الحديث " " فقامت أمرأة سفعاء الخدين ".

٤٢١

وقيل : هو مأخوذ من سفعت النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد.

قال : [الكامل] ٥٢٥٨ - أثافي سفعا في معرس مرجل

ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

قال القرطبي : السفع الضرب ، أي : ليلطمن وجهه ، وكله متقارب المعنى ، أي : يجمع عليه الضرب عند

الأخذ ، ثم يجر إلى جهنم.

وقرأ ابن مسعود : " لأسفعن " ، أي : يقول الله تعالى : يا محمد أنا الذي أتولى إهانته ، لقوله تعالى : ﴿هو الذى أيدك بنصره﴾ [الأنفال : ٦٢] ، ﴿هو الذى أنزل السكينة﴾ [الفتح : ٤] ، والناصية : شعر مقدم الرأس ، وقد يعبر بها عن جملة الإنسان ، وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته.

قوله : ﴿ناصية﴾ بدل من " الناصية " ، بدل نكرة من معرفة.

قال الزمخشري : " وجاز بدلها عن المعرفة ، وهي نكرة ، لأنها وصفت ، فاستقلت بفائدة ".

قال شهاب الدين : وهذا مذهب الكوفيين ، لا يجيزون إبدال نكرة من غيرها إلا بشرط وصفها ، وكونها بلفظ الأول ، ومذهب البصريين : لا يشترط بشيء ؛ وأنشدوا : [الوافر] ٥٢٥٩ - فلا وأبيك خير منك إني

ليؤذيني التحمحم والصهيل

وقرأ أبو حيوة ، وابن أبي عبلة ، وزيد بن علي : بنصب " ناصية كاذبة خاطئة " على الشتم.

وقرأ الكسائي في رواية : بالرفع ، على إضمار : هي ناصية ، ونسب الكذب والخطأ إليه مجازا.

والألف واللام في " الناصية " قيل : عوض من الإضافة ، أي : بناصيته.

وقيل : الضمير محذوف ، أي : الناصية منه.

فصل في معنى الآية والمعنى : لنأخذن أبي جهل "كاذبة " في قولها ، " خاطئة " في فعلها ،

٤٢٢

والخاطئ معاقب مأخوذ ، والمخطئ غير مأخوذ ، ووصفت الناصية بأنها خاطئة كوصف الوجوه بالنظر في قوله " إلى ربها ناظرة " ، وقيل : إن صاحبها كاذب خاطئ كما يقال : ليل قائم ونهار صائم ، أي صائم في النهار وقائم في الليل ، وإنما وصف الناصية بالكاذبة ، لأنه كان كاذبا على الله تعالى في أنه لم يرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ، وكاذبا على رسوله صلى الله عليه وسلم في أنه ساحر ، وكاذب أنه ليس ينهى ؛ لأن صاحبها يتمرد على الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ [الحاقة : ٣٧].

قوله : ﴿فليدع ناديه﴾ ، إما أن يكون على حذف مضاف ، أي : أهل ناديه ، أو على التجوز في نداء النادي لاشتماله على الناس ، كقوله تعالى : ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ [يوسف : ٨٢] ، والنادي والندي : المجلس المتجدد للحديث.

قال زهير : [الطويل] ٥٢٦٠ - وفيهم مقامات حسان وجوههم
وأندية ينتابها القول والفعل
]
جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٤١٧
". (١)

"" صفحة رقم ١٠٣ "
والترجمة عن نفاقهم وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكذيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين وإيهامهم أنهم معهم فإذا فارقوهم إلى شطار دينهم صدقوهم ما في قلوبهم
وروى
٢٢ (ان عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال عبد الله انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فأخذ بيد أبي بكر فقال مرحبا بالصديق سيد بني تيم وشيخ الاسلام وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله
ثم اخذ بيد عمر فقال مرحبا بسيد بني عدي الفاروق القوي في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله
ثم اخذ بيد علي فقال مرحبا بابن عم رسول الله وختنه سيد بني هاشم ما خلا رسول الله
ثم افترقوا فقال لأصحابه كيف رأيتموني فعلت فأثنوا عليه خيرا فنزلت)
ويقال لقيته ولاقيته اذا استقبلته قريبا منه وهو جاري ملاقي ومراوقي
وقرأ أبو حنيفة واذا لاقوا
وخلوت بفلان واليه اذا انفردت معه ويجوز ان يكون من خلا بمعنى مضى وخلاك ذم أي عداك ومضى عنك ومنه القرون الخالية ومن خلوت به إذا سخرت منه
وهو من قولك خلا فلان بعرض فلان يعبث به ومعناه وإذا أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدثوهم بها
كما تقول أحمد اليك فلانا وأذمه إليك
وشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم
وقد جعل سيبويه نون الشيطان في موضع من كتابة أصلية وفى آخر زائدة والدليل على اصالتها قولهم تشيطن

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٥٣١٤

واشتقاقه من شطن اذا بعد لبعده من الصلاح والخير

ومن شاط اذا بطل اذا جعلت نونه زائدة ومن أسمائه الباطل

) إنا معكم (

إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم

فإن قلت." [١]

"" صفحة رقم ١٩٧ "

ولقد أنزلنآ إليك ءايات بينات وما يكفر بهآ إلا الفاسقون أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ولما جآءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله ورآء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ٩٩ – ١٠١

البقرة : (٩٩ – ١٠١) ولقد أنزلنا إليك . . . . .

) إلا الفاسقون (

الا **المتمردون** من الكفرة

وعن الحسن اذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره

وعن ابن عباس رضي الله عنه

٤٧ قال ابن صوريا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما جئتنا بشيء نعرفه وما انزل عليك من آية فنتبعك لها فنزلت

واللام في

) الفاسقون (للجنس والأحسن ان تكون إشارة إلى اهل الكتاب

) أو كلما (

الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا وقرأ أبو السمال بسكون الواو على ان الفاسقون بمعنى الذين فسقوا فكانه قيل وما يكفر بها الا الذين فسقوا أو نقضوا عهد الله مرارا كثيرة وقرىء (عوهدوا وعهدوا) واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود وكم اخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا

وكم عاهدهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم يفوا

---

(١) تفسير الكشاف ، ١٠٣/١

) الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة (الأنفال ٥٦
والنبذ الرمي بالذمام ورفضه وقرأ عبد الله (نقضه)
) فريق منهم (
وقال فريق منهم لأن منهم من لم ينقض
) بل أكثرهم لا يؤمنون (
بالتوراة وليسوا من الدين في شيء فلا يعدون نقض المواثيق ذنبا ولا يبالون به
) كتاب الله (
يعني التوراة لأنهم بكفرهم برسول الله المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها
وقيل كتاب الله القرآن نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول
) كأنهم لا يعلمون (
أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك
يعني ان علمهم بذلك رصين ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم مثل لتركهم واعراضهم عنه مثل بما يرمي بها وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات اليه
وعن الشعبي هو بين أيديهم يقرؤنه ولكنهم نبذوا العمل به
وعن سفيان أدرجوه في الديباج والحرير وحلوه بالذهب ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه." [1]
"" صفحة رقم ٤٠٧ "
ما معكم في معنى ما آتيتكم فكأنه قيل للذي آتيكموه وجاءكم رسول مصدق له وقرأ سعيد بن جبير (لما) بالتشديد بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة
ثم جاءكم رسول مصدق له وجب عليكم الايمان به ونصرته وقيل أصله لمن ما قاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميما بإدغامها في الميم فحذفوا أحداها فصارت لما ومعناه لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى
) اصري (عهدي وقرىء (أصرى) بالضم
وسمي إصرا لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد ومنه الإصار الذي يعقد به
ويجوز أن يكون المضموم لغة في اصر كعبر وعبر وان يكون جمع اصار

(١) تفسير الكشاف ، ١٩٧/١

) فاشهدوا (

فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار

) وأنا على ذلكم (

من اقراركم وتشاهدكم

) من الشاهدين (

وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع اذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض

وقيل الخطاب للملائكة

) فمن تولى بعد ذلك (

الميثاق والتوكيد

) فأولئك هم الفاسقون (

أي المتمردون من الكفار دخلت همزة الانكار على الفاء العاطفة جملة على جملة

والمعنى فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون ثم توسطت الهمزة بينهما

ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره

) أ

يتولون

) فغير دين الله يبغون (

وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه اهم من حيث ان الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل وروي

١٧٨ ان اهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام وكل واحد من الفريقين ادعى انه اولى به فقال (صلى الله عليه وسلم) (كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم) فقالوا ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فنزلت

وقرىء (يبغون) بالياء (وترجعون) بالتاء وهي قراءة أبي عمرو لأن الباغين هم المتولون والراجعون جميع الناس وقرئا بالياء معا وبالتاء معا

) طوعا (

بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه

) وكرها (
بالسيف أو بمعاينة ما يلجيء إلى الإسلام كنتق الجبل على بني اسرائيل وإدراك الغرق فرعون والإشفاء على الموت
) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده (غافر ٨٤ وانتصب طوعا وكرها على الحال بمعنى طائعين ومكرهين
قل ءامنا بالله ومآ أنزل علينا ومآ أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الاخرة من الخاسرين ٨٤ - ٨٥
آل عمران : (٨٤) قل آمنا بالله . . . ." [١]
"" صفحة رقم ٤٢٩ "
آل عمران ١١٠ - ١١١
(
آل عمران : (١١٠) كنتم خير أمة . . . . .
كان) عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الابهام وليس فيه دليل على عدم سابق عدم ولا على انقطاع طارىء ومنه قوله تعالى
) وكان الله غفورا رحيما (النساء ٩٦ ومنه قوله تعالى
) كنتم خير أمة (
كأنه قيل وجدتم خير أمة وقيل كنتم في علم الله خير امة وقيل كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير امة موصوفين به
) أخرجت (
أظهرت وقوله
) تأمرون (
كلام مستانف بين به كونهم خير امة كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم
) وتؤمنون بالله (
جعل الايمان بكل ما يجب الايمان به إيمانا بالله لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو

(١) تفسير الكشاف . ، ٤٠٧/١

كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه فكانه غير مؤمن بالله

) ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا (النساء ١٥٠ والدليل عليه قوله تعالى

" ولو ءامن أهل الكتاب " مع إيمانهم بالله

) لكان خيرا لهم (

لكان الإيمان خيرا لهم مما هم عليه لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الاسلام حبا للرياسة واستتباع العوام ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين

) منهم المؤمنون (

كعبد الله بن سلام وأصحابه

) وأكثرهم الفاسقون (

المتمردون في الكفر

) لن يضروكم إلا أذى (

الا ضررا مقتصرا على أذى بقول من طعن في الدين أو تهديد أو نحو ذلك

) وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار (

منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر

) ثم لا ينصرون (

ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم

وفيه تثبيت لمن أسلم منهم لأنهم كانوا يؤذنونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم بأنهم لا يقدرون ان يتجاوزوا الاذى بالقول إلى ضرر يبالى به مع انه وعدهم الغلبه عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة امرهم الخذلان والذل

فإن قلت هلا جزم." (١)

"" صفحة رقم ٤٧٥ "

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى

---

(١) تفسير الكشاف ـ ، ٤٢٩/١

) من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا (

فلا يخلو إما ان يقولوه عن اعتقاد لذلك أو عن استهزاء بالقرآن وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر الا عن متمردين في كفرهم

ومعنى سماع الله له انه لم يخف عليه وانه أعد له كفاءة من العقاب

) سنكتب ما قالوا (

في صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب فإن قلت كيف قال

) لقد سمع الله (ثم قال

) سنكتب (

وهلا قيل ولقد كتبنا قلت ذكر وجود السماع اولا مؤكدا بالقسم ثم قال سنكتب على جهة الوعيد بمعنى لن يفوتنا ابدا إثباته وتدوينه كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء

وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له ايذانا بانهما في العظم اخوان وبان هذا ليس بأول ما ركبوه من العظائم وانهم اصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق وان من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول

وروي

٢٣١ ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الاسلام والى إقام الصلاة وايتاء الزكاة وان يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص اليهودي إن الله فقير حين سألنا القرض فلطمه أبو بكر في وجهه وقال لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجحد ما قاله فنزلت

ونحوه قولهم

) يد الله مغلولة (المائدة

) ونقول (لهم

) ذوقوا (

وننتقم منهم بان نقول لهم يوم القيامة ذوقوا

) عذاب الحريق (

كما أذقتم المسلمين الغصص يقال للمنتقم منه احس وذق وقال أبو سفيان لحمزة رضي الله عنه ذق عقق

وقرأ حمزة (سيكتب) بالياء على البناء للمفعول (ويقول) بالياء

وقرأ الحسن والأعرج (سيكتب) بالياء وتسمية الفاعل وقرا ابن مسعود (ويقال ذوقوا)

) ذلك (إشارة إلى ما تقدم من عقابهم وذكر الأيدي لأن اكثر الأعمال تزاول بهن فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب فإن قلت فلم عطف قوله

) وأن الله ليس بظلام للعبيد (على

) ما قدمت أيديكم (

وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكا لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب قلت معنى كونه غير ظلام للعبيد انه عادل عليهم ومن العدل ان يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن." [١]

"" صفحة رقم ٦٥٥ "

وقيل من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله في نصرة رسله وما عهدا من صنع الله لموسى في قهر اعدائه وما عرفا من حال الجبابرة

والباب باب قريتهم

) لن ندخلها (

نفي لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد المؤيس

و

) أبدا (

تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاول و

) ما داموا فيها (

بيان للأبد

) فاذهب أنت وربك (

يحتمل ان لا يقصدوا حقيقة الذهاب ولكن كما تقول كلمته فذهب يجيبني تريد معنى الارادة والقصد للجواب كانهم قالوا أريد قتالهم

والظاهر انهم قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرة والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم ويحكى ان موسى وهارون عليهما السلام خرا لوجوههما قدامهم لشدة ما ورد عليهما فهموا

---

(١) تفسير الكشاف. ، ٤٧٥/١

برجمهما

ولأمر ما قرن الله اليهود بالمشركين وقدمهم عليهم في قوله تعالى

) لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا (المائدة ٨٢

المائدة ٢٥ – ٢٦

المائدة : (٢٥) قال رب إني . . . . . .

لما عصوه وتمردوا عليه وخالفوه وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق له الا هارون

) قال رب إني لا أملك (لنصرة دينك

) إلا نفسي وأخي (

وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة

ونحوه قول يعقوب عليه السلام

) إنما أشكو بثي وحزني إلى الله (يوسف ٨٦." [١]

"" صفحة رقم ٦٧١ "

تستبدلوا ولا تستعيضوا

) بآياتي (واحكامه

) ثمنا قليلا (وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس كما حرف أحبار اليهود كتاب الله وغيروا احكامه رغبة في الدنيا وطلبا للرياسة فهلكوا

) ومن لم يحكم بما أنزل الله (

مستهينا به

) فأولئك هم الكافرون (

والظالمون والفاسقون وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهانة

وتمردوا بان حكموا بغيرها

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان الكافرين والظالمين والفاسقين أهل الكتاب

وعنه نعم القوم أنتم ما كان من حلو فلكم وما كان من مرة فهو لأهل الكتاب من جحد حكم الله كفر ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق

---

(١) تفسير الكشاف ، ١/٦٥٥

وعن الشعبي هذه في اهل الاسلام والظالمون في اليهود والفاسقون في النصارى
وعن ابن مسعود هو عام في اليهود وغيرهم
وعن حذيفة أنتم أشبه الأمم سمتا ببني اسرائيل لتركبن طريقهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة غير أني لا أدري اتعبدون العجل أم لا
المائدة ٤٥
المائدة : (٤٥) وكتبنا عليهم فيها . . . . .
في مصحف أبي (وانزل الله على بني إسرائيل فيها) وفيه (وان الجروح قصاص) والمعطوفات كلها قرئت منصوبة ومرفوعة والرفع للعطف على محل أن النفس لأن المعنى وكتبنا عليهم النفس بالنفس إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا وإما لأن." (١)
"" صفحة رقم ٦٧٤ "
المائدة ٤٩
المائدة : (٤٩) وأن احكم بينهم . . . . .
فإن قلت
) وأن احكم بينهم (
معطوف على ماذا قلت على (الكتاب) في قوله
) وأنزلنا إليك الكتاب (
كانه قيل وانزلنا اليك ان أحكم على ان (أن) وصلت بالأمر لأنه فعل كسائر الأفعال ويجوز ان يكون معطوفا على (بالحق) أي انزلناه بالحق وبأن احكم
) أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك (
أن يضلوك عنه ويستزلوك وذلك
٣٥١ ان كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من احبار اليهود قالوا اذهبوا بنا إلى محمد نفتنه عن دينه فقالوا يا محمد قد عرفت ان احبار اليهود وانا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود كلهم ولم يخالفونا وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم اليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) تفسير الكشاف. ، ٦٧١/١

ضعيف فنزلت

) فإن تولوا (

عن الحكم بما انزل الله اليك وأرادوا غيره

) فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم (

يعني بذنب التولي عن حكم الله وارادة خلافه فوضع

) ببعض ذنوبهم (

موضع ذلك وأراد ان لهم ذنوبا جمة كثيرة العدد وان هذا الذنب مع عظمه بعضها وواحد منها وهذا الإبهام لتعظيم التولى واستسرافهم في ارتكابه

ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد

(أو يرتبط بعض النفوس حمامها)

أراد نفسه وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام كأنه قال نفسا كبيرة ونفسا أي نفس فكما ان التنكير يعطي معنى التكبير وهو معنى البعضية فكذلك اذا صرح بالبعض

) الفاسقون (

المتمردون في الكفر معتدون فيه يعني ان التولي عن حكم الله من **التمرد** العظيم والاعتداء في الكفر

المائدة ٥٠

المائدة : (٥٠) أفحكم الجاهلية يبغون . . . . .

) أفحكم الجاهلية يبغون (

فيه وجهان أحدهما أن قريظة والنضير طلبوا اليه أن." [١]

"" صفحة رقم ٦٨٤ "

المائدة ٥٩

المائدة : (٥٩) قل يا أهل . . . . .

قرأ الحسن (هل تنقمون) بفتح القاف والفصيح كسرها

والمعنى هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكتب المنزلة كلها

) وأن أكثركم فاسقون (

---

(١) تفسير الكشاف ، ١/٦٧٤

فإن قلت علام عطف قوله

" وان اكثرهم فاسقون "

قلت فيه وجوه منها ان يعطف على ان آمنا بمعنى وما تنقمون منا الا الجمع بين إيماننا وبين **تمردكم** وخروجكم عن الإيمان كانه قيل وما تنكرون منا الا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه

ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف أي واعتقاد انكم فاسقون ومنها ان يعطف على المجرور أي وما تنقمون منا الا الإيمان بالله وبما انزل وبأن اكثركم فاسقون

ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع أي وما تنقمون منا الا الإيمان مع ان أكثركم فاسقون

ويجوز ان يكون تعليلا معطوفا على تعليل محذوف كانه قيل وما تنقمون منا الا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم وات‌باعكم الشهوات

ويدل عليه تفسير الحسن بفسقكم نقمتم ذلك علينا

المائدة ٦٠ – ٦١

المائدة : (٦٠) قل هل أنبئكم . . . . .

وروي

٣٥٨ أنه اتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نفر من اليهود فسالوه عمن يؤمن به من الرسل فقال (أومن بالله وما انزل الينا إلى قوله ونحن له مسلمون) فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام ما نعلم اهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا اشر من دينكم فنزلت

ضعيف

وعن نعيم بن ميسرة (وإن أكثركم) بالكسر

ويحتمل ان ينتصب (وأن أكثركم) بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون أي ولا تنقمون ان اكثركم فاسقون." (١)

"" صفحة رقم ٧٠٠ "

كيف وقع ترك التناهي عن المنكر تفسيرا للمعصية والاعتداء قلت من قبل أن الله تعالى أمر بالتناهي فكان الإخلال به معصية وهو اعتداء لأن في التناهي حسما للفساد فكان تركه على عكسه

---

(١) تفسير الكشاف ، ١/٦٨٤

فإن قلت ما معنى وصف المنكر بفعلوه ولا يكون النهي بعد الفعل قلت معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه أو عن مثل منكر فعلوه أو عن منكر أرادوا فعله كما ترى امارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتهيأ فتنكر

ويجوز ان يراد لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه بل يصبرون عليه ويداومون على فعله

يقال تناهى عن الأمر وانتهى عنه اذا امتنع منه وتركه

) ترى كثيرا منهم (

هم منافقو اهل الكتاب كانوا يوالون المشركين ويصافونهم

) أن سخط الله عليهم (

هو المخصوص بالذم ومحله الرفع كانه قيل لبئس زادهم إلى الآخرة سخط الله عليهم

والمعنى موجب سخط الله

) ولو كانوا يؤمنون (

إيمانا خالصا غير نفاق ما اتخذوا المشركين

) أولياء (

يعني ان موالاة المشركين كفي بها دليلا على نفاقهم وان إيمانهم ليس بإيمان

) ولكن كثيرا منهم فاسقون (

متمردون في كفرهم ونفاقهم وقيل معناه ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون ما اتخذوا المشركين اولياء كما لم يوالهم المسلمون

المائدة ٨٢ - ٨٦

المائدة : (٨٢) لتجدن أشد الناس . . . . .

وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة اجابتهم إلى الحق ولين عريكة النصارى." (١)

"" صفحة رقم ٢٦ "

مثلا لمن اتبع ما يوحي إليه . ومن لم يتبع . أو لمن ادعى المستقيم وهو النبوة . والمحال وهو الإلاهية أو الملكية) أفلا تتفكرون (فلا تكونوا ضالين أشباه العميان . أو فتعلموا أني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر . أو فتعلموا أن اتباع ما يوحى إلي مما لا بد لي منه . فإن قلت :) أعلم الغيب (ما محله من الإعراب ؟

---

(١) تفسير الكشاف ، ١/٧٠٠

قلت : النصب عطفا على قوله :) عندى خزائن الله (، لأنه من جملة المقول كأنه قال : لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول .

) وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون (
(

الأنعام : (٥١) وأنذر به الذين . . . . .

وأنذر به (الضمير راجع إلى قوله :) وما يوحى إلي (و) الذين يخافون أن يحشروا (إما قوم داخلون في الإسلام مقرون بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل فينذرهم بما يوحي إليه) لعلهم يتقون (أي يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين . وأما أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث . وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا ، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار ، دون **المتمردين** منهم ، فأمر أن ينذر هؤلاء . وقوله :) ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع (في موضع الحال من يحشروا ، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم ، ولا بد من هذه الحال ، لأن كلا محشور ، فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال .

) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين (

الأنعام : (٥٢) ولا تطرد الذين . . . . .

ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا ، ثم أردفهم ذكر المتقين منهم." [١]

"" صفحة رقم ٧٢ "

العصاة لا نخلفه ، كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة . فلما عصوا وبغوا ألحقناهم بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب .) فإن كذبوك (في ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة ، وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جودا وكرما) فقل (لهم) ربكم ذو رحمة واسعة (لأهل طاعته) ولا يرد بأسه (مع سعة رحمته) عن القوم المجرمين (فلا تغتر برجاء رحمته عن خوف نقمته .

) سيقول الذين أشركوا لو شآء الله مآ أشركنا ولا ءابآؤنا ولا حرمنا من شيء كذالك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنآ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل فلله الحجة البالغة فلو شآء لهداكم أجمعين (٧)

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٢٦/٢

الأنعام : (١٤٨ – ١٤٩) سيقول الذين أشركوا . . . . .

) سيقول الذين أشركوا (إخبار بما سوف يقولونه ولما قالوه قال :) وقال الذين أشركوا لو شآء الله ما عبدنا من دونه من شيء ((النحل : ٣٥) يعنون بكفرهم وتمردهم." [1]

"" صفحة رقم ٢٣٧ "

العهد) فاستقيموا لهم (على مثله) إن الله يحب المتقين (يعني أن التربص بهم من أعمال المتقين) كيف (تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد ، وحذف الفعل لكونه معلوما كما قال : وخبرتماني أنما الموت بالقرى

فكيف وهاتا هضبة وقليب

يريد : فكيف مات . أي : كيف يكون لهم عهد) و (حالهم أنهم) إنهم إن يظهروا عليكم (بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ، لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم) لا يرقبوا فيكم إلا (لا يراعوا حلفا . وقيل : قرابة . وأنشد لحسان رضي الله عنه : لعمرك إن إلك من قريش

كإل السقب من رأل النعام

وقيل :) إلا (إلاها وقرىء : (إيلا) ، بمعناه وقيل : جبرئيل ، وجبرئل ، من ذلك . وقيل : منه اشتق الآل بمعنى القرابة ، كما اشتقت الرحم من الرحمن ، والوجه ان اشتقاق الإل بمعنى الحلف ، لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه ، من الأل وهو الجؤار ، وله أليل : أي أنين يرفع به صوته . ودعت ألليها : إذا ولولت ، ثم قيل لكل عهد وميثاق : إل . وسميت به القرابة ، لأن القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق) يرضونكم (كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن ، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد . وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان ، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل) وأكثرهم فاسقون (متمردون خلعاء لا مروءة تزعهم ، ولا شمائل مرضية تردعهم ، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة ، من التفادي عن الكذب والنكث ، والتعفف عما يثلم العرض ويجر أحدوثة السوء .." [2]

"" صفحة رقم ٢٣٨ "

) اشتروا بأايات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم سآء ما كانوا يعملون لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة

---

(١) تفسير الكشاف ، ٧٢/٢

(٢) تفسير الكشاف ، ٢٣٧/٢

وأولائك هم المعتدون (

التوبة : (٩ – ١٠) اشتروا بآيات الله . . . . .

) اشتروا (استبدلوا) له مقاليد (بالقرآن والإسلام) ثمنا قليلا (وهو اتباع الأهواء والشهوات) فصدوا عن سبيله (فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم . وقيل : هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم) هم المعتدون (المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة .

) فإن تابوا وأقاموا الصلواة وءااتوا الزكواة فإخوانكم في الدين ونفصل الا يات لقوم يعلمون (

التوبة : (١١) فإن تابوا وأقاموا . . . . .

) فإن تابوا (عن الكفر ونقض العهد) فإخوانكم فى الدين (فهم إخوانكم على حذف المبتدأ ، كقوله تعالى :) ادعوهم لابائهم هو أقسط عند ((الأحزاب : ٥) ،) ونفصل الايات (ونبينها . وهذا اعتراض ، كأنه قيل : وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم بعثا وتحريضا على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين ، وعلى المحافظة عليها .

) وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون (

التوبة : (١٢) وإن نكثوا أيمانهم . . . . .

) وطعنوا فى دينكم (وثلبوه وعابوه) فقاتلوا أئمة الكفر (فقاتلوهم ، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم : إشعارا بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تمردا وطغيانا وطرحا لعادات الكرام الأوفياء من العرب ، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانا للمسلمين في الدين ، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود ، وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون ليس دين محمدبشيء ، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدم فيه ، لا يشق كافر غبارهم . وقالوا : إذا طعن الذمي في دين الأسلام طعنا ظاهرا ، جاز قتله ؛ لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن ، فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة) إنهم لا أيمان لهم (جمع يمين : (وقرىء : لا إيمان لهم ، أي لا إسلام لهم) أو لا يعطون الأمان بعد الردة والنكث ، ولا سبيل إليه ، فإن قلت : كيف أثبت لهم الإيمان في قوله :) وإن نكثوا أيمانهم (ثم نفاها عنهم ؟ قلت : أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال لا إيمان لهم على الحقيقة ، وأيمانهم ليست بأيمان . وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن يمين الكافر لا تكون يمينا . وعند الشافعي رحمه الله : يمينهم يمين . وقال : معناه أنهم لا يوفون بها ، بدليل أنه وصفها بالنكث) لعلهم ينتهون (متعلق بقوله) فقاتلوا أئمة الكفر (أي ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سببا

في انتهائهم عما هم عليه . وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد . فإن قلت : كيف لفظ أئمة ؟ قلت : همزة بعدها همزة بين بين ، أي : بين مخرج الهمزة والياء . وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة ، وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين . وأما التصريح." (١)

"" صفحة رقم ٢٦٧ "

منافقون ، فكان إلزامهم الإنفاق شاقا عليهم كالإكراه . أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم ، لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه ، أو مكرهين من جهتهم . وروي : أنها نزلت في الجد بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هذا مالي أعينك به فاتركني) إنكم (تعليل لرد إنفاقهم . والمراد بالفسق : **التمرد** والعتق .

) وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلواة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون (

التوبة : (٥٤) وما منعهم أن . . . . . .

) أنهم (فاعل منع . وهم ، وأن تقبل مفعولاه . وقرىء : (أن تقبل) ، بالتاء والياء على البناء للمفعول . ونفقاتهم ، ونفقتهم ، على الجمع والتوحيد . وقرأ السلمي : (أن يقبل منهم نفقاتهم) على أن الفعل لله عز وجل) كسالى (بالضم والفتح ، جمع كسلان ، نحو سكارى وغيارى ، في جمع سكران وغيران ، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثوابا ، ولا يخشون بتركها عقابا فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى :) وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ((البقرة : ٤٥) وقرأت في بعض الأخبار

(٤٦٧) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كره للمؤمن أن يقول : كسلت ، كأنه ذهب إلى هذه الآية ، فإن الكسل من صفات المنافقين ، فما ينبغي أن يسنده المؤمن إلى نفسه . فإن قلت : الكراهية خلاف الطواعية وقد جعلهم الله تعالى طائعين في قوله) طوعا (ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون . قلت : المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة واختيار .

) فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحيواة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون (

التوبة : (٥٥) فلا تعجبك أموالهم . . . . .

الإعجاب بالشيء : أن يسر به سرور راض به متعجب من حسنه . والمعنى : فلا تستحسن ولا تفتتن بما

---

(١) تفسير الكشاف ، ٢/٢٣٨

أوتوا من زينة الدنيا ، كقوله تعالى :) ولا تمدن عينيك ((طه : ١٣١) فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب ، بأن عرضه للتغنم والسبي ، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب ، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير ، وهم كارهون له على رغم." [١]

"" صفحة رقم ٢٧٤ "

وقرىء : إن يعف عن طائفة يعذب طائفة ، على البناء للفاعل وهو الله عز وجل .

) المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم (

التوبة : (٦٧) المنافقون والمنافقات بعضهم . . . . .

) بعضهم من بعض (أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم :) ويحلفون بالله إنهم لمنكم ((التوبة : ١٥٦) وتقرير قوله :) وما هم منكم ((التوبة : ٥٦) ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين) يأمرون بالمنكر (بالكفر والمعاصي) وينهون عن المعروف (عن الإيمان والطاعات) ويقبضون أيديهم (شحا بالمبار والصدقات والإنفاق في سبيل الله) نسوا الله (أغفلوا ذكره) فنسيهم (فتركهم من رحمته وفضله) هم الفاسقون (هم الكاملون في الفسق الذي هو **التمرد** في الكفر والانسلاخ عن كل خير ، وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم ، وإذا كره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للمسلم أن يقول كسلت ، لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله :) كسالى ((النساء : ١٤٢) فما ظنك بالفسق) خالدين فيها (مقدرين الخلود) هى حسبهم (دلالة على عظم وعذابها ، وأنه لا شيء أبلغ منه ، وأنه بحيث لا يزاد عليه ، نعوذ بالله من سخطه وعذابه) ولعنهم الله (وأهانهم من التعذيب ، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين ، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة المكرمين) ولهم عذاب مقيم (ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار ، مقيم كعذاب النار . ويجوز أن يريد : ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه ، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق . والظاهر المخالف للباطن ، خوفا من المسلمين وما يحذرونه أبدا من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم .

) كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٢٦٧/٢

استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولائك حبطت أعمالهم في الدنيا والا خرة وأولائك هم الخاسرون (

التوبة : (٦٩) كالذين من قبلكم . . . . .

الكاف محلها رفع على : أنتم مثل الذين من قبلكم . أو نصب على : فعلتم ما فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا . ونحوه قول النمر : كاليوم مطلوبا ولا طلبا ؛." [١]

"" صفحة رقم ٣٢١ "

يوجد فيهما فهو منتف معدوم) تشركون (قرىء بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية ، أي عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم .

) وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ويقولون لولا أنزل عليه ءاية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين (

يونس : (١٩ - ٢٠) وما كان الناس . . . . .

) وما كان الناس إلا أمة واحدة (حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم ، وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل . وقيل : بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا) ولولا كلمة سبقت من ربك (وهوتأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة) لقضى بينهم (عاجلا فيما اختلفوا فيه ، ولميز المحق من المبطل ، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف ، وتلك دار ثواب وعقاب . وقالوا :) لولا أنزل عليه ءاية من ربه (أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات ، دقيقة المسلك من بين المعجزات ، وجعلوا نزولها كلا نزول ، وكأنه لم ينزل آية قط ، حتى قالوا :) لولا أنزل عليه ءاية واحدة منهن ربه (، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في **التمرد** وانهماكهم في الغي) فقل إنما الغيب لله (أي هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به ، يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو) فانتظروا (نزول ما اقترحتموه) إنى معكم من المنتظرين (لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات .

) وإذآ أذقنا الناس رحمة من بعد ضرآء مستهم إذا لهم مكر فىءاياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون (

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٢/٢٧٤

يونس : (٢١) وإذا أذقنا الناس . . . . .

سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ، ثم رحمهم بالحيا ، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويكيدونه ، و (إذا) الأولى للشرط ، والآخرة جوابها وهي للمفاجأة ، والمكر : إخفاء الكيد وطيه ، من الجارية الممكورة المطوية الخلق . ومعنى) مستهم (خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم . فإن قلت : ما وصفهم بسرعة المكر ، فكيف صح قوله :) أسرع مكرا (؟ قلت : بلى دلت على ذلك كلمة المفاجأة ، كأنه قال : وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجئوا وقوع المكر منهم ، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء ، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم . والمعنى : أن الله تعالى دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام) إن رسلنا يكتبون (إعلام بأن ما تظنونه خافيا مطويا لا يخفى على الله ، وهو." [1]

"" صفحة رقم ٣٢٩ "

على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته) من يملك السمع والابصار (من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة . أو من يحميهما ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال ، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه) ومن يدبر الامر (ومن يلي تدبير أمر العالم كله ، جاء بالعموم بعد الخصوص) أفلا تتقون (أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال) فذلكم (إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله) ربكم الحق (الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه لمن حقق النظر) فماذا بعد الحق إلا الضلال (يعني أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع في الضلال) فأنى تصرفون (عن الحق إلى الضلال ، وعن التوحيد إلى الشرك ، وعن السعادة إلى الشقاء) كذلك (مثل ذلك الحق) حقت كلمة ربك (أي كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال ، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق ، فكذلك حقت كلمة ربك) على الذين فسقوا (أي تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ، و) أنهم لا يؤمنون (بدل من الكلمة أي حق عليهم انتفاء الإيمان ، وعلم الله منهم ذلك . أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان ، وأن إيمانهم غير كائن . أو أراد بالكلمة : العدة بالعذاب ، وأنهم لا يؤمنون تعليل ، بمعنى : لأنهم لا يؤمنون .

) قل هل من شركآئكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون قل هل من شركآئكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا

---

(١) تفسير الكشاف ، ٢/٣٢١

أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (

يونس : (٣٤) قل هل من . . . . . .

فإن قلت : كيف قيل لهم) هل من شركائكم من الله الخلق ثم يعيده (وهم غير معترفين بالإعادة ؟ قلت : قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابرا ردا للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه ، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ، وقال لنبيه (صلى الله عليه وسلم) :) قل الله الخلق ثم يعيده (فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب ، يعني أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم . يقال : هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين : ويقال : هدى بنفسه بمعنى اهتدى ، كما يقال : شرى بمعنى اشترى . ومنه قوله :) أمن لا يهدى (. وقرىء : (لا يهدى) بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال . والأصل : يهتدي ، فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء ، أو كسرت لالتقاء الساكنين ، وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها . وقرىء : (إلا أن يهدى) من هداه وهداه للمبالغة . ومنه قولهم : تهدى . ومعناه أن الله وحده هو الذي." [1]

"" صفحة رقم ٣٣١ "

تقرير لإلزام الحجة عليهم . أو إنكار لقولهم واستبعاد . والمعنيان متقاربان) قل (إن كان الأمر كما تزعمون) فأتوا (أنتم على وجه الافتراء) بسورة مثله (فأنتم مثلي في العربية والفصاحة . ومعنى) بسورة مثله (أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم . وقرىء : (بسورة مثله) على الإضافة ، أي : بسورة كتاب مثله) وادعوا (من دون الله) من استطعتم (من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله : يعني : أن الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره ، فلا تستعينوه وحده ، ثم استعينوا بكل من دونه) إن كنتم صادقين (أنه افتراء) بل كذبوا (بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن ، وفاجؤه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ، كالناشيء على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها في أول وهلة ، واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب . فإن قلت : ما معنى التوقع في قوله :) ولما يأتهم تأويله (؟ قلت : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ، تقليدا للآباء . وكذبوه بعد التدبر ، **تمردا** وعنادا

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٣٢٩/٢

، فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به ، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي ، ورازوا قواهم في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله ، فكذبوا به بغيا وحسدا) كذلك (أي مثل ذلك التكذيب) كذب الذين من قبلهم (يعني قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا . وقيل : هو في الذين كذبوا وهم شاكون . ويجوز أن يكون معنى) ولما يأتهم تأويله (ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته ، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق ، يعني أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه) ومنهم من يؤمن به (يصدق به في نفسه ، ويعلم أنه حق ، ولكنه يعاند بالتكذيب . ومنهم من يشك فيه لا يصدق به ، أو يكون للاستقبال ، أي : ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصر) وربك أعلم بالمفسدين (بالمعاندين ، أو المصرين .." [1]

"" صفحة رقم ٣٤٣ "

أجرى إلا على الله (وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي : ما نصحتكم إلا لوجه الله ، لا لغرض من أغراض الدنيا) وأمرت أن أكون من المسلمين (الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا ، يريد : أن ذلك مقتضى الإسلام ، والذي كل مسلم مأمور به . والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرىء ساحته ، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه ، وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير) فكذبوه (فتموا على تكذيبه ، وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم في أولها ، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان) وجعلناهم خلائف (يخلفون الهالكين بالغرق) كيف كان عاقبة المنذرين (تعظيم لما جرى عليهم ، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن مثله ، وتسلية له .

) ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجآءوهم بال بينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين (

يونس : (٧٤) ثم بعثنا من . . . . .

) من بعده (من بعد نوح) رسلا إلى قومهم (يعني هودا وصالحا وإبراهيم ولوطا وشعيبا) فجاءوهم بالبينات (بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم) فما كانوا ليؤمنوا (فما كان إيمانهم إلا ممتنعا كالمحال لشدة

---

(١) تفسير الكشاف ، ٢/٣٣١

شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه) بما كذبوا به من قبل (يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل الجاهلية مكذبين بالحق . فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها ، كأن لم يبعث إليهم أحد) كذلك نطبع (مثل ذلك الطبع المحكم نطبع) على قلوب المعتدين (والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم ، لأن الخذلان يتبعه . ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به .

) ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جآءهم الحق من عندنا قالوا إن هاذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جآءكم أسحر هاذا ولا يفلح الساحرون قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه ءاباءنا وتكون لكما الكبريآء فى الا رض وما نحن لكما بمؤمنين (يونس : (٧٥) ثم بعثنا من . . . . . .

) من بعدهم (من بعد الرسل) بئاياتنا (بالآيات التسع) فاستكبروا (عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ، ويتعظموا عن تقبلها) وكانوا قوما مجرمين (كفارا ذوي آثام عظام ، فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردها) فلما جاءهم الحق من عندنا (فلما عرفوا أنه هو الحق ، وأنه من عند الله ، لا من قبل موسى وهارون) قالوا (لحبهم الشهوات) إن هاذا لسحر مبين (وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي." (١)

"" صفحة رقم ٦٨٩ "

الهم والعزم لذلك . قال الراعي : في مهمه قلقت به هاماتها

فلق الفئوس إذا أردن نصولا

وقال : يريد الرمح صدر أبي براء

ويعدل عن دمار بني عقيل

وقال حسان : إن دهرا يلف شملي بجمل

لزمان يهم بالإحسان

وسمعت من يقول : عزم السراج أن يطفأ ، وطلب أن يطفأ . وإذا كان القول والنطق والشكاية والصدق والكذب والسكوت **والتمرد** والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعار للجماد ولما لا يعقل ، فما بال الإرادة ؟ قال : إذا قالت الأنساع للبطن الحق

تقول سني للنواة طني

---

(١) تفسير الكشاف ، ٢/٣٤٣

لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

وشكا إلي بعبرة وتحمحم

فإن يك ظني صادقا وهو صادقي." [1]

"" صفحة رقم ٦٩٠ "

) ولما سكت عن موسى الغضب (:

تمرد مارد وعز الأبلق

ولبعضهم : يأبى على أجفانه إغفاءه

هم إذا انقاد الهموم تمردا

أبت الروادف والثدي لقمصها

مس البطون وأن تمس ظهورا

) قالتا أتينا طائعين (ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم ، كان يجعل الضمير للخضر ؛ لأن ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم ، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة ، فتمحل ليرده إلى ما هو عنده أصح وأفصح ، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز . وانقض : إذا أسرع سقوطه ، من انقضاض الطائر وهو الفعل ، مطاوع قضضته . وقيل : افعل من النقض ، كاحمر من الحمرة . وقرىء : (أن ينقض) من النقض ، (وأن ينقاص) من انقاصت السن إذا انشقت طولا ، قال ذو الرمة : . . . . منقاص ومنكثب ؛

بالصاد غير معجمة) فأقامه (قيل : أقامه بيده . وقيل : مسحه بيده فقام واستوى . وقيل : أقامه بعمود عمده به . وقيل : نقضه وبناه . وقيل : كان طول الجدار في السماء مائة ذراع ، كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم ، ولقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة ، فلم يجد مواسيا ، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن) قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا (وطلبت على عملك جعلا حتى ننتعش ونستدفع به الضرورة وقرىء : (لتخذت) ، والتاء في تخذ ، أصل كما في تبع ،." [2]

---

(١) تفسير الكشاف ، ٢/٦٨٩

(٢) تفسير الكشاف ، ٢/٦٩٠

"" صفحة رقم ٦٧ "

الأبوة . وقيل : كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث : أبو العباس ، وأبو الوليد ، وأبو مرة والترجي لهما ، أي : اذهبا على رجائكما وطمعكما ، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه . فهو يجتهد بطوقه ، ويحتشد بأقصى وسعه . وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة) ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع ءاياتك ((طه : ١٣٤) أي : يتذكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق) أو يخشى (أن يكون الأمر كما تصفان ، فيجره إنكاره إلى الهلكة .

) قالا ربنآ إننا نخاف أن يفرط علينآ أو أن يطغى (

طه : (٤٥) قالا ربنا إننا . . . . .

فرط : سبق وتقدم . ومنه الفارط : الذي يتقدم الواردة . وفرس فرط : يسبق الخيل ، أي : نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها . وقرىء (يفرط) من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة . خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب من شيطان ، أو من جبروته واستكباره وادعائه بالربوبية . أو من حبه الرياسة ، أو من قومه القبط المتمردين الذين حكى عنهم رب العزة) قال الملا من قومه ((الأعراف : ٦٠)) قال الملا من قومه (وقرىء (يفرط) من الإفراط في الأذية ، أي : نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة . أو يجاوز الحد في معاقبتنا إن لم يعاجل ، بناء على ما عرفا وجربا من شرارته وعتوه) أو أن يطغى (بالتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي ، لجرأته عليك وقسوة قلبه . وفي المجىء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز : باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوه بالعظيمة .

) قال لا تخافآ إننى معكمآ أسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسراءيل ولا تعذبهم قد جئناك بأية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينآ أن العذاب على من كذب وتولى (

طه : (٤٦) قال لا تخافا . . . . .

) معكما (أي حافظكما وناصركما) أسمع وأرى (ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل ، فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما ، فجائز أن يقدر أقوالكم وأفعالكم ، وجائز." [1]

"" صفحة رقم ٥٩٧ "

السؤال الوارد على طريق التقرير ، والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ؛ فيكون تقريعهم أشد ، وتعبيرهم

---

(١) تفسير الكشاف ، ٣/٦٧

أبلغ ، وخجلهم أعظم : وهو أنه ألزم ، ويكون اقتصاص ذلك لطفا لمن سمعه ، وزاجرا لمن اقتص عليه . والموالاة : خلاف المعاداة . ومنها : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . وهي مفاعلة من الولي وهو القرب ، كما أن المعاداة من العدواء ، وهي البعد ، والولي : يقع على الموالي والموالى جميعا . والمعنى أنت الذي نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار : براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم ؛ لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك) بل كانوا يعبدون الجن (يريدون الشياطين ، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله . وقيل : صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها . وقيل : كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت ، فيعبدون بعبادتها . وقرىء : (نحشرهم) ونقول ، بالنون والياء .

) فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون (

سبأ : (٤٢) فاليوم لا يملك . . . . . .

الأمر في ذلك اليوم لله وحده ، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد ، لأن الدار دار ثواب وعقاب ، والمثيب والمعاقب هو الله ، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف ، والناس فيها مخلى بينهم ، يتضارون ويتنافعون . والمراد : أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو وحده ، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله :) ونقول للذين ظلموا (معطوفا على) لا يملك (.

) وإذا تتلى عليهم ءاياتنا بينات قالوا ما هاذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد ءابآؤكم وقالوا ما هاذآ إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جآءهم إن هاذآ إلا سحر مبين (

سبأ : (٤٣) وإذا تتلى عليهم . . . . .

الإشارة الأولى : إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) . والثانية : إلى القرآن . والثالثة : إلى الحق . والحق أمر النبوة كله ودين الإسلام كما هو . وفي قوله :) وقال الذين كفروا (وفي أن لم يقل وقالوا ، وفي قوله :) للحق لما جاءهم (وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه ، وفي لما من المبادهة بالكفر : دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد ، وتعجيب من أمرهم بليغ ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه) إن هاذا إلا سحر مبين (فبتوا القضاء على أنه سحر ، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحرا .." [1]

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٥٩٧/٣

"" صفحة رقم ٦١٧ "

يعني : إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك ، وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمرديهم وأهل عنادهم) ومن تزكى (ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي . وقرىء : (من أزكى فإنما يزكي) ، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة ، لأنهما من جملة التزكي) وإلى الله المصير (وعد للمتزكين بالثواب . فإن قلت : كيف اتصل قوله :) إنما تنذر (بما قبله ؟ قلت : لما غضب عليهم في قوله :) إن يشأ يذهبكم (أتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر أهوالها ، ثم قال : إنما تنذر كأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسمعهم ذلك ، فلم ينفع ، فنزل :) إنما تنذر (أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم .

) وما يستوى الا عمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الا حيآء ولا الا موات إن الله يسمع من يشآء ومآ أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير (

فاطر : (١٩ - ٢٣) وما يستوي الأعمى . . . . .

) الاعمى والبصير (مثل للكافر والمؤمن ، كما ضرب البحرين مثلا لهما أو للصنم والله عز وجل ، والظلمات والنور والظل والحرور : مثلان للحق والباطل ، وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب . والأحياء والأموات : مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه ، وأصروا على الكفر والحرور : السموم ؛ إلا أن السموم يكون بالنهار ، والحرور بالليل والنهار . وقيل : بالليل خاصة . فإن قلت : لا المقرونة بواو العطف ما هي ؟ قلت : إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي . فإن قلت : هل من فرق بين هذه الواوات ؟ قلت : بعضها ضمت شفعا إلى شفع ، وبعضها وترا إلى وتر) إن الله يسمع من يشاء (يعني أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه ، فيهدي الذي قد علم أن الهداية تنفع فيه ، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه . وأما أنت فخفي عليك أمرهم ، فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخذولين . ومثلك في ذلك مثل من لا يريد أن يسمع المقبورين وينذر ، وذلك ما لا سبيل إليه ، ثم قال :) إن أنت إلا نذير (أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر ، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع ، وإن كان من المصرين فلا عليك . ويحتمل أن الله يسمع من يشاء وأنه قادر على أن يهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء ، وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق ، وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى .

) إنآ أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (

فاطر : (٢٤) إنا أرسلناك بالحق . . . . .

) بالحق (حال من أحد الضميرين ، يعني : محقا أو محقين ، أو صفة للمصدر ، أي : إرسالا مصحوبا بالحق . أو صلة لبشير ونذير على : بشيرا بالوعد الحق ، ونذيرا." [١]

"وبقية أحكام لكن مذكورة في النحو. الكاف : حرف تشبيه تعمل الجر وأسميتها مختصة عندنا بالشعر ، وتكون زائدة وموافقة لعلى ، ومن ذلك قولهم : كخير في جواب من قال كيف أصبحت ، ويحدث فيها معنى التعليل ، وأحكامها مذكورة في النحو. ﴿وإذا قيل لهم ءامنوا كمآ ءامن الناس قالوا أنؤمن كمآ ءامن السفهآءا ألا إنهم هم السفهآء ولكن لا يعلمون﴾ ، السفه : الخفة. ومنه قيل للثوب الخفيف النسج سفيه ، وفي الناس خفة الحلم ، قاله ابن كيسان ، أو البهت والكذب والتعمد خلاف ما يعلم ، قاله مؤرج ، أو الظلم والجهل ، قاله قطرب. والسفهاء جمع سفيه ، وهو جمع مطرد في فعيل الصحيح الوصف المذكر العاقل الذي بينه وبين مؤنثه التاء ، والفعل منه سفه بكسر العين وضمها ، وهو القياس لأجل اسم الفاعل. قالوا : ونقيض السفه : الرشد ، وقيل : الحكمة ، يقال رجل حكيم ، وفي ضده سفيه ، ونظير السفه النزق والطيش.

﴿وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن﴾ ، اللقاء : استقبال الشخص قريبا منه ، والفعل منه لقي يلقى ، وقد يقال لاقى ، وهو فاعل بمعنى الفعل المجرد ، وسمع للقى أربعة عشر مصدرا ، قالوا : لقى ، لقيا ، ولقية ، ولقاة ، ولقاء ، ولقاء ، ولقى ، ولقي ، ولقياء ، ولقياء ، ولقيا ، ولقيانا ، ولقيانة ، وتلقاء. الخلو : الانفراد ، خلا به أي انفرد ، أو المضي ، ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ . الشيطان ، فيعال عند البصريين ، فنونه أصلية من شطن ، أي بعد ، واسم الفاعل شاطن ، قال أمية :

أيما شاطن عصاه عكاهثم يلقى في السجن والأكبال

وقال رؤبة :

وفي أخاديد السياط المتنشاف لبغي الكلب المشيطن

ووزنه فعلان عند الكوفيين ، ونونه زائدة من شاط يشيط إذا هلك ، قال الشاعر :

قد تظفر العير في مكنون قائلةوقد تشطو على أرماحنا البطل

والشيطان كل متمرد من الجن والإنس والدواب ، قاله ابن عباس ، وأنثاه شيطانة ، قال الشاعر :

هي البازل الكوماء لا شيء غيرهاوشيطانة قد جن منها جنونها

---

(١) تفسير الكشاف. ، ٦١٧/٣

وشياطين : مع شيطان ، نحو غراثين في جمع غرثان ، وحكاه الفراء ، وهذا على تقدير أن نونه زائدة تكون نحو : غرثان ، مع اسم معناه الصحبة اللائقة بالمذكور ، وتسكينها قبل حركة لغة ربيعة وغنم ، قاله الكسائي. وإذا سكنت فالأصح أنها اسم ، وإذا ألقيت ألف اللام أو ألف الوصل ، فالفتح لغة عامة العرب ، والكسر لغة ربيعة ، وتوجيه اللغتين في النحو ، ويستعمل ظرف مكان فيقع خبرا عن الجثة والأحداث ، وإذا أفرد نون مفتوحا ، وهي ثلاثي الأصل من باب المقصور ، إذ ذاك لا من باب يد ، خلافا ليونس ، وأكثر استعمال معا حال ، نحو : جميعا ، وهي أخص من جميع لأنها تشرك في الزمان نصا ، وجميع تحتمله. وقد سأل أحمد

٦٢

بن يحيى أحمد بن قادم عن الفرق بين. قام عبد الله وزيد معا ، وقام عبد الله وزيد جميعا ، قال : فلم يزل يركض فيها إلى الليل ، وفرق ابن يحيى : بأن جيمعا يكون القيام في وقتين وفي وقت واحد ، وأما إذا قلت : معا ، فيكون في وقت واحد. الاستهزاء : الاستخفاف والسخرية ، وهو استفعل بمعنى الفعل المجرد ، وهو فعل ، تقول : هزأت به واستهزأت بمعنى واحد ، مثل استعجب : بمعنى عجب ، وهو أحد المعاني التي جاءت لها استفعل.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٦٠

﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ المد : التطويل ، مد الشيء : طوله وبسطه ، ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد﴾ ، وأصل المد : الزيادة ، وكل شيء دخل في شيء فكثره فقد مده ، قاله اللحياني. وأمد بمعنى مد ، مد الجيش ، وأمده : زاده وألحق به ما يقويه من جنسه. وقال بعض أهل العلم : مد زاد من الجنس ، وأمد : زاد من غير الجنس. وقال يونس : مد في الخير وأمد في الشر. انتهى قوله. ويقال : مد النهر وأمده نهر آخر ، ومادة الشيء ما يمده ، الهاء فيه للمبالغة. وقال ابن قتيبة : مددت الدواة وأمددتها بمعنى ، ويقال : مددنا القوم : صرنا لهم أنصارا وأمددناهم بغيرنا. وقال اللحياني : أمد الأمير جنده بالخيل ، وفي التنزيل : ﴿عليهم وأمددناكم بأموال وبنين﴾ . الطغيان : مجاوزة المقدار المعلوم ، يقال طغى الماء ، وطغت النار. العمه : التردد والتحير ، وهو شبيه بالعمى ، إلا أن العمى توصف به العين التي ذهب نورها ، والرأي الذي غاب عنه الصواب. يقال : عمه ، يعمه ، عمها ، وعمهانا فهو : عمه ، وعامه. ويقال : برية عمهاء إذا لم يكن بها علم يستدل به. وقال ابن قتيبة : العمه أن يركب رأسه ولا يبصر

ما يأتي. وقيل : العمه : العمى عن الرشد.
." (١)

"والعلم نقيض الجهل ، فقابله بقوله : لا يعلمون ، لأن عدم العلم بالشيء جهل به. قرأ ابن السميفع اليماني ، وأبو حنيفة : ﴿يتذكرون﴾ ، وهي فاعل بمعنى الفعل المجرد ، وهو أحد معاني فاعل الخمسة ، والواو المضمومة في هذه القراءة هي واو الضمير تحركت لسكون ما بعدها ، ولم تعد لام الكلمة المحذوفة لعروض التحريك في الواو ، واللقاء يكون بموعد وبغير موعد ، فإذا كان بغير موعد سمي مفاجأة ومصادفة ، وقولهم لمن لقوا من المؤمنين : آمنا ، بلفظ مطلق الفعل غير مؤكد بشيء تورية منهم وإيهاما ، فيحتمل أن يريدوا به الإيمان بموسى وبما جاء به دون غيره ، وذلك من خبثهم وبهتهم ، ويحتمل أن يريدوا به الإيمان المقيد في قولهم : ﴿بالله وباليوم الاخر وما﴾ ، وليسوا بصادقين في ذلك ، ويحتمل أن يريدوا بذلك ما أظهروه بألسنتهم من الإيمان ، ومن اعترافهم حين اللقاء ، وسموا ذلك إيمانا ، وقلوبهم عن ذلك صارفة معرضة.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٦٠

وقرأ الجمهور : خلوا إلى بسكون الواو وتحقيق الهمزة ، وقرأ ورش : بإلقاء حركة الهمزة على الواو وحذف الهمزة ، ويتعدى خلا بالباء وبإلى ، والباء أكثر استعمالا ، وعدل إلى إلى لأنها إذا عديت بالباء احتملت معنيين : أحدهما : الانفراد ، والثاني : السخرية ، إذ يقال في اللغة : خلوت به ، أي سخرت منه ، وإلى لا يحتمل إلا معنى واحدا ، وإلى هنا على معناها من انتهاء الغاية على معنى تضمين الفعل ، أي صرفوا خلاهم إلى شياطينهم ، قال الأخفش : خلوت إليه ، جعلته غاية حاجتي ، وهذا شرح معنى ، وزعم قوم ، منهم النضر بن شميل :

٦٨

إن إلى هنا بمعنى مع أي : وإذا خلوا مع شياطينهم ، كما زعموا ذلك في قوله تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ ، ﴿قال من أنصارى إلى الله﴾ ، أي مع أموالكم ومع الله ، ومنه قول النابغة :

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب

ولا حجة في شيء من ذلك. وقيل : إلى بمعنى الباء ، لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وهذا ضعيف ، إذ نيابة الحرف عن الحرف لا يقول بها سيبويه ، والخليل ، وتقرير هذا في النحو. وشياطينهم :

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ١/٤٤

هم اليهود الذين كانوا يأمرونهم بالتكذيب ، قاله ابن عباس ؛ أو رؤساؤهم في الكفر ، قاله ابن مسعود. وروي أيضا عن ابن عباس : أو شياطين الجن ، قاله الكلبي : أو كهنتهم ، قاله الضحاك وجماعة. وكان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكهنة جماعة منهم : كعب بن الأشرف من بني قريظة ، وأبو بردة في بني أسلم ، وعبد الدار في جهينة ، وعوف بن عامر في بني أسد ، وابن السوداء في الشام ، وكانت العرب يعتقدون فيهم الاطلاع على علم الغيب ، ويعرفون الأسرار ، ويداوون المرضى ، وسموا شياطين **لتمردهم** وعتوهم ، أو باسم قرنائهم من الشياطين ، إن فسروا بالكهنة ، أو لشبههم بالشياطين في وسوستهم ، وغرورهم ، وتحسينهم للفواحش ، وتقبيحهم للحسن.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٦٠." (١)

"﴿وكان من الكافرين﴾ قيل : كان بمعنى صار ، وقيل : على بابها أي كان في علم الله لأنه لا خلاف أنه كان عالما بالله قبل كفره. فالمعنى : أنه كان في علم الله سيكون من الكافرين. قال أبو العالية : من العاصين ، وصلة أل هنا ظاهرها الماضي ، فيكون قد سبق إبليس كفار ، وهم الجن الذين كانوا في الأرض ، أو يكون إبليس أول من كفر مطلقا ، إن لم يصح أنه كان كفار قبله ، وإن صح ، فيفيد أول من كفر بعد إيمانه ، أو يراد الكفر الذي هو التغطية للحق ، وكفر إبليس قيل : جهل سلبه الله ما كان وهبه من العلم ، فخالف الأمر ونزع يده من الطاعة ، وقيل : كفر عناد ولم يسلب العلم بل كان الكبر مانعه من السجود. قال ابن عطية : والكفر عنادا مع بقاء العلم مستبعد ، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاء ، انتهى كلامه.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٥١

وهذا الذي ذكره جوازه واقع بالفعل. هذا فرعون كان عالما بوحدانية الله وربوبيته دون غيره ، ومع ذلك حمله حب الرئاسة والإعجاب بما أوتي من الملك ، فادعى الألوهية مع علمه. وأبو جهل ، كان يتحقق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ويعلم أن ما جاء به حق ، ومع ذلك أنكر نبوته ، وأقام على الكفر. وكذلك الأخنس ، وأمية بن أبي الصلت ، وغيرهما ممن كفر عنادا ، مع علمهم بصدق الرسل ، وقد قسم العلماء الكفار إلى كافر بقلبه ولسانه ، كالدهرية والمنكرين رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكافر بقلبه مؤمن بلسانه وهم المنافقون ، ومؤمن بقلبه كافر بلسانه ، كفرعون ومن ذكر معه فلا ينكر الكفر مع وجود العلم. وقد استدل المعتزلة بهذه الآية على أن المعصية توجب الكفر ، وأجيب بأنه كافر منافق وإن كان مؤمنا

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١/٥١

فإنما كفر لاستكباره واعتقاد كونه محقا في ذلك **التمرد** ، واستدلاله على ذلك بقوله : ﴿أنا خير منه﴾ .
قال القشيري : لما كان إبليس مدة في دلال طاعته يختال في مراد موافقته ، سلموا له رتبة التقدم واعتقدوا فيه استحقاق التخصص ، فصار أمره كما قيل :

وكان سراج الوصل أزهر بيننافهبت به ريح من البين فانطفا

١٥٤

سئل أبو الفتوح أحمد ، أخو أبي حامد الغزالي عن إبليس فقال : لم يدر ذلك المسكين أن أظافير القضاء إذا حكت أدمت وقسي القدر إذا رمت أصمت ، ثم أنشد :

وكنا وليلى في صعود من الهوىفلما توافينا ثبت وزلت

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٥١

﴿وقلنا ياادم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هاذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ أسكن ، أقم ، ومصدره السكنى كالرجعى ، والمعنى راجع إلى السكون ، وهو عدم الحركة. وكان الساكن في المكان للبثه واستقراره فيه غير متحرك بالنسبة إلى غيره من الأماكن. رغدا : أي واسعا كثير الاعناء فيه ، قال امرؤ القيس :

بينما المرء تراه ناعمايأمن الأحداث في عيش رغد

وتميم تسكن الغين. وزعم بعض الناس أن كل اسم ثلاثي حلقي العين صحيح اللام يجوز فيه تحريك عينه وتسكينها ، مثل : بحر وبحر ، ونهر ونهر ، فأطلق هذا الإطلاق ، وليس كذلك ، بل ما وضع من ذلك على فعل بفتح العين لا يجوز فيه التسكين نحو : السحر لا يقال فيه السحر ، وإنما الكلام في فعل المفتوح الفاء الساكن العين ، وفي ذلك خلاف. ذهب البصريون إلى أن فتح ما ورد من ذلك مقصور على السماع ، وهو مع ذلك مما وضع على لغتين ، لا أن أحدهما أصل للآخر. وذهب الكوفيون إلى أن بعضه ذو لغتين ، وبعضه أصله التسكين ثم فتح. وقد اختار أبو الفتح مذهب الكوفيين ، والاستدلال مذكور في كتب النحو. حيث : ظرف مكان مبهم لازم الظرفية ، وجاء جره بمن كثيرا وبفي ، وإضافة لدى إليه قليلا ، ولإضافتها لا ينعقد منها مع ما بعدها كلام ، ولا يكون ظرف زمان خلافا للأخفش ، ولا ترفع اسمين نائبة عن ظرفين ، نحو : زيد حيث عمر ، وخلافا للكوفيين ، ولا يجزم بها دون ما خلافا للفراء ، ولا تضاف إلى المفرد خلافا للكسائي ، وما جاء من ذلك حكمنا بشذوذ ، وهي مبنية وتعتقب على آخرها الحركات الثلاث ، ويجوز : حوث ، بالواو وبالحركات الثلاثة. وحكى الكسائي أن إعرابها لغة بني فقعس.

القربان : معروف ، وهو الدنو من الشيء. هذه : تكسر الهاء باختلاس وأشباع ، وتسكن ، ويقال : هذي بالياء ، والهاء فيما ذكر وابدل منها ، وقالوا : ذ بكسر الذال بغير ياء ولا هاء ، وهي تأنيث ذا ، وربما ألحقوا التاء لتأنيث ذا فقالوا ذات مبنية على الكسر. الشجرة : بفتح الشين والجيم ، وبعض العرب تكسر الشين ، وإبدال الجيم ياء مع كسر الشين وفتحها منقول ، وخالف أبو الفتح في كون اليد بدلا ، وقد أطلنا الكلام على ذلك في تأليفنا (كتاب التكميل لشرح التسهيل). والشجر : ما كان على ساق ، والنجم : ما نجم وانبسط على الأرض ليس له ساق. الظلم : أصله وضع الشيء في غير موضعه ، ثم يطلق على الشرك ، وعلى الجحد ، وعلى النقص. والمظلومة : الأرض التي لم تمطر ، ومعناه راجع إلى النقص.
." (١)

"وهذه الجملة الواقعة خبرا للشرط ، تحتاج إلى رابط لجملة الجزاء باسم الشرط. والرابط هنا الاسم الظاهر وهو : الكافرين ، أوقع الظاهر موقع الضمير لتواخي أواخر الآي ، ولينص على علة العداوة ، وهي الكفر ، إذ من عادى من تقدم ذكره ، أو واحدا منهم ، فهو كافر. أو يراد بالكافرين العموم ، فيكون الرابط العموم ، إذ الكفر يكون بأنواع ، وهؤلاء الكفار بهذا الشيء الخاص فرد من أفراد العموم ، فيحصل الربط بذلك. وقال الزمخشري : عدو للكافرين ، أراد عدو لهم ، فجاء بالظاهر ليدل على أن الله عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر. وإذا كانت عداوة الأنبياء كفرا ، فما بال الملائكة ؟ وهم أشرف. والمعنى : من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب. انتهى كلامه. وهذا مذهب المعتزلة يذهبون إلى أن الملائكة أفضل من خواص بني آدم. ودل كلام الزمخشري على أن الظاهر وقع موقع الضمير ، وأنه لم يلحظ فيه العموم ، وقال ابن عطية : وجاءت العبارة بعموم الكافرين ، لأن عود الضمير على من يشكل ، سواء أفردته أو جمعته ، ولو لم يبال بالإشكال. وقلنا : المعنى يدل السامع على المقصد للزم تعيين قوم بعداوة الله لهم. ويحتمل أن الله قد علم أن بعضهم يؤمن ، فلا ينبغي أن يطلق عليه
٣٢٢
عداوة الله للمآل. وروي أن عمر نطق بهذه الآية مجاوبا لبعض اليهود في قوله : ذلك عدونا ، يعني جبريل ، فنزلت على لسان عمر. قال ابن عطية : وهذا الخبر ضعيف.
﴿ولقد أنزلنآ إليك ءاياتا بينات﴾ : سبب نزولها ، فيما ذكر الطبراني ، أن ابن صوريا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما جئت بآية بينة ، فنزلت. وقال الزمخشري : قال ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل عليك من

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ١٢٩/١

آية فنتبعك لها ، فنزلت انتهى. ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، لأنه لما ذكر تعالى جملا من قبائح اليهود وذمهم على ذلك ، وكان فيما ذكر من ذلك معاداتهم لجبريل ، فناسب ذلك إنكارهم لما نزل به جبريل ، فأخبر الله تعالى بأن الرسول عليه السلام أنزل عليه آيات بينات ، وأنه لا يجحد نزولها إلا كل فاسق ، وذلك لوضوحها. والآيات البينات ، أي القرآن ، أو المعجزات المقرونة بالتحدي ، أو الأخبار عما خفي وأخفي في الكتب السالفة ، أو الشرائع ، أو الفرائض ، أو مجموع كل ما تقدم ، أقوال خمسة. والظاهر مطلق ما يدل عليه آيات بينات غير معين شيء منها ، وعبر عن وصولها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإنزال ، لأن ذلك كان من علو إلى ما دونه.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٣١٧

وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ : المراد بالفاسقين هنا : الكافرون ، لأن كفر آيات الله تعالى هو من باب فسق العقائد ، فليس من باب فسق الأفعال. وقال الحسن : إذا استعمل الفسق في شيء من المعاصي ، وقع على أعظمه من كفر أو غيره. انتهى. وناسب قوله : بينات لفظ الكفر ، وهو التغطية ، لأن البين لا يق ع فيه إلباس ، فعدم الإيمان به ليس لشبهة لأنه بين ، وإنما هو تغطية وستر لما هو واضح بين. وستر الواضح لا يقع إلا من **متمرد** في فسقه ، والألف واللام في الفاسقون ، إما للجنس ، وإما للعهد ، لأن سياق الآيات يدل على أن ذلك لليهود. وكنى بالفسق هنا عن الكفر ، لأن الفسق : خروج الإنسان عما حد له. وقد تقدم قول الحسن أنه يدل على أعظم ما يطلق عليه ، فكأنه قيل : وما يكفر بها إلا المبالغ في كفره ، المنتهي فيه إلى أقصى غاية. وإلا الفاسقون : استثناء مفرغ ، إذ تقديره : وما يكفر بها أحد ، فنفى أن يكفر بالآيات الواضحات أحد. ثم استثنى الفساق من أحد ، وأنهم يكفرون بها. ويجوز في مذهب الفراء أن ينصب في نحو من هذا الاستثناء ، فأجاز : ما قام إلا زيدا ، على مراعاة ذلك المحذوف ، إذ لو كان لم يحذف ، لجاز النصب ، ولا يجيز ذلك البصريون.

: المراد بالفاسقين هنا : الكافرون ، لأن كفر آيات الله تعالى هو من باب فسق العقائد ، فليس من باب فسق الأفعال. وقال الحسن : إذا استعمل الفسق في شيء من المعاصي ، وقع على أعظمه من كفر أو غيره. انتهى. وناسب قوله : بينات لفظ الكفر ، وهو التغطية ، لأن البين لا يقع فيه إلباس ، فعدم الإيمان به ليس لشبهة لأنه بين ، وإنما هو تغطية وستر لما هو واضح بين. وستر الواضح لا يقع إلا من **متمرد** في فسقه ، والألف واللام في الفاسقون ، إما للجنس ، وإما للعهد ، لأن سياق الآيات يدل على أن ذلك لليهود. وكنى بالفسق هنا عن الكفر ، لأن الفسق : خروج الإنسان عما حد له. وقد تقدم قول الحسن أنه

يدل على أعظم ما يطلق عليه ، فكأنه قيل : وما يكفر بها إلا المبالغ في كفره ، المنتهي فيه إلى أقصى غاية. وإلا الفاسقون : استثناء مفرغ ، إذ تقديره : وما يكفر بها أحد ، فنفى أن يكفر بالآيات الواضحات أحد. ثم استثنى الفساق من أحد ، وأنهم يكفرون بها. ويجوز في مذهب الفراء أن ينصب في نحو من هذا الاستثناء ، فأجاز : ما قام إلا زيدا ، على مراعاة ذلك المحذوف ، إذ لو كان لم يحذف ، لجاز النصب ، ولا يجيز ذلك البصريون.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٣١٧

". (١)

"﴿خير﴾ خبر لقوله : لمثوبة ، وليس خير هنا أفعل تفضيل ، بل هي للتفضيل ، لا للأفضلية. فهي كقوله : ﴿أفمن يلقى فى النار خير﴾ : جواب لو محذوف : التقدير : لو كانوا يعلمون لكان تحصيل المثوبة خيرا ، ويعني سبب المثوبة ، وهو الإيمان والتقوى. ولذلك قدره بعضهم لآمنوا ، لأن من كان ذا علم وبصيرة ، لم يخف عليه الحق ، فهو يسارع إلى اتباعه ، ولا الباطل ، فهو يبالغ في اجتنابه. ومفعول يعلمون محذوف اقتصارا ، فالمعنى : لو كانوا من ذوي العلم ، أو اختصارا ، فقدره بعضهم : لو كانوا يعلمون التفضيل في ذلك ، وقدره بعضهم : لو كانوا يعلمون أن ما عند الله خير وأبقى. وقيل : العلم هنا كناية عن العمل ، أي لو بعلمهم ، ولما انتقت ثمرة العلم الذي هو العمل ، جعل العلم هنا كناية عن العمل ، أي لو كانوا يعلمون بعلمهم ، ولما انتفت ثمرة العلم الذي هو العمل ، جعل العلم منتفيا.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٣١٧

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة ما كان عليه اليهود من خبث السريرة ، وعدم التوفيق والطواعية لأنبياء الله ، ونصب المعاداة لهم ، حتى انتهى ذلك إلى عداوتهم من لا يلحقه ضرر عداوتهم ، وهو من لا ينبغي أن يعادى ، لأنه السفير بين الله وبين خلقه ، وهو جبريل. أتى بالقرآن المصدق لكتابهم ، والمشتمل على الهدى والبشارة لمن آمن به ، فكان ينبغي المبادرة إلى ولائه ومحبته. ثم أعقب ذلك بأن من كان عدوا لله ، أي مخالفا لأمره وملائكته ورسله ، أي مبغضا لهم ، فالله عدوه ، أي معامله بما يناسب

٣٣٥

فعله القبيح. ثم التفت إلى رسوله بالخطاب ، فأخبره بأنه أنزل عليه آيات واضحات ، وأنها لوضوحها ، لا يكفر بها إلا **متمرد** في فسقه. ثم أخذ يسليه بأن عادة هؤلاء نكث عهودهم ، فلا تبال بمن طريقته هذه ،

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢٧٧/١

وأنهم سلكوا هذه الطريقة معك ، إذ أتيتهم من عند الله تعالى بالرسالة ، فنبذوا كتابه تعالى وراء ظهورهم ، بحيث صاروا لا ينظرون فيه ، ولا يلتفتون لما انطوى عليه من التبشير بك ، وإلزامهم اتباعك ، حتى كأنهم لم يطلعوا على الكتاب ، ولا سبق لهم بك علم منه. ثم ذكر من مخازيهم أنهم تركوا كتاب الله واتبعوا ما ألقت إليهم الشياطين من كتب السحر على عهد سليمان. ثم نزه نبيه سليمان عن الكفر ، وأن الشياطين هم الذين كفروا. ثم استطرد في أخبار هاروت وماروت ، وأنهما لا يعلمان أحدا حتى ينصحاه بأنهما جعلا ابتلاء واختبارا ، وأنهما لمبالغتهما في النصيحة ينهيان عن الكفر. ثم ذكر أن قصارى ما يتعلمون منهما هو تفريق بين المرء وزوجه. ثم ذكر أن ضرر ذلك لا يكون إلا بإذن من الله تعالى ، لأنه تعالى هو الضار النافع. ثم أثبت أن ما يتعلمون هو ضرر لملابسة ومتعلمه. ثم أخبر أنهم قد علموا بحقيقة الضرر ، وإن متعاطي ذلك لا نصيب له في الآخرة. ثم بالغ في ذم ما باعوا به أنفسهم ، إذ ما تعوضوه مآله إلى الخسران.

ثم ختم ذلك بما لو سلكوه ، وهو الإيمان والتقوى ، لحصل لهم من الله الثواب الجزيل على ذلك ، وأن جميع ما اجترموه من المآتم ، واكتسبوه من الجرائم ، يعفي على آثاره جر ذيل الإيمان ، ويبدل بالإساءة جميل الإحسان. ولما كانت الآيات السابقة فيها ما يتضمن الوعيد من قوله : ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ ، وقوله : ﴿وما يكفر بهآ إلا الفاسقون﴾ ، وذكر نبذ العهود ، ونبذ كتاب الله ، واتباع الشياطين ، وتعلم ما يضر ولا ينفع ، والإخبار عنهم بأنهم علموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة ، أتبع ذلك بآية تتضمن الوعد الجميل لمن آمن واتقى. فجمعت هذه الآيات بين الوعيد والوعد ، والترغيب والترهيب ، والإنذار والتبشير ، وصار فيها استطراد من شيء إلى شيء ، وإخبار بمغيب بعد مغيب ، متناسقا تناسق اللآلىء في عقودها ، متضحة اتضاح الدراري في مطالع سعودها ، معلمة صدق من أتى بها ، وهو ما قرأ الكتب ، ولا دارس ، ولا رحل ، ولا عاشر الأحبار ، ولا مارس ﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى ﴾ صلى الله عليه وأوصل أزكى تحية إليه.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٣١٧

الرعاية والمراعاة : النظر في مصالح الإنسان وتدبير أموره. والرعونة والرعن : الجهل والهوج. ذو : يكون بمعنى

٣٣٦

صاحب ، وتثنى ، وتجمع ، وتؤنث ، وتلزم الإضافة لاسم جنس ظاهر. وفي إضافتها إلى ضمير الجنس خلاف ، المشهور : المنع ، ولا خلاف أنه مسموع ، لكن من منع ذلك خصه بالضرورة. وإضافته إلى

العلم المقرون به في الوضع ، أو الذي لا يقرن به في أول الوضع مسموع. فمن الأول قولهم : ذو يزن ، وذو جدن ، وذو رعين ، وذو الكلاع. فتجب الإضافة إذ ذاك. ومن الثاني قولهم : في تبوك ، وعمرو ، وقطرى : ذو تبوك ، وذو عمرو ، وذو قطرى. والأكثر أن لا يعتد بلفظ ذو ، بل ينطق بالاسم عاريا من ذو. وما جاء من إضافته لضمير العلم ، أو لضمير مخاطب لا ينقاس ، كقولهم : اللهم صل على محمد وعلى ذويه ، وقول الشاعر :
." (١)

"مدغم الراء في اللام لا حن مخطىء خطأ فاحشا إلى آخره ، فهذه مسألة اختلف فيها النحويون ، فذهب الخليل ، وسيبويه وأصحابه : إلى أنه لا يجوز إدغام الراء في اللام من أجل التكرير الذي فيها ، ولا في النون قال أبو سعيد. ولا نعلم أحدا خالفه إلا يعقوب الحضرمي ، وإلا ما روي عن أبي عمرو ، وأنه كان يدغم الراء في اللام متحركة متحركا ما قبلها ، نحو : ﴿يغفر لمن﴾ ﴿العمر لكيلا﴾ ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ فإن سكن ما قبل الراء أدغمها في اللام في موضع الضم والكسر ، نحو ﴿الانهارا لهم﴾ و﴿النار * ليجزى﴾ فإن انفتحت وكان ما قبلها حرف مد ولين أو غيره لم يدغم نحو ﴿من مصر لامرأته﴾ ﴿الابرار لفى نعيم﴾ ﴿تجارة لن تبور * ليوفيهم﴾ ﴿والحمير لتركبوها﴾ فإن سكنت الراء أدغمها في اللام بلا خلاف عنه إلا ما روي أحمد بن جبير بلا خلاف عنه ، عن اليزيدي ، عنه : أنه أظهرها ، وذلك إذا قرأ بإظهار المثلين ، والمتقاربين المتحركين لا غير ، على أن المعمول في مذهبه بالوجهين جميعا على الإدغام نحو ﴿ويغفر لكم﴾ انتهى. وأجاز ذلك الكسائي والفراء وحكياه سماعا ، ووافقهما على سماعه رواية وإجازة أبو جعفر الرواسي ، وهو إمام من أئمة اللغة والعربية من الكوفيين ، وقد وافقهم أبو عمرو على الإدغام رواية وإجازة ، كما ذكرناه ، وتابعه يعقوب كما ذكرناه ، وذلك من رواية الوليد بن حسان. والإدغام وجه من القياس ، ذكرناه في كتاب (التكميل لشرح التسهيل) من تأليفنا ، وقد اعتمد بعض أصحابنا على أن ما روي عن القراء من الإدغام الذي منعه البصريون يكون ذلك إخفاء لا إدغاما ، وذلك لا يجوز أن يعتقد في القراء أنهم غلطوا ، وما ضبطوا ، ولا فرقوا بين الإخفاء والإدغام ، وعقد هذا الرجل بابا قال : هذا باب يذكر فيه ما أدغمت القراء مما ذكر أنه لا يجوز إدغامه ، وهذا لا ينبغي ، فإن لسان العرب ليس محصورا فيما نقله البصريون فقط ، والقراءات لا تجيء على ما علمه البصريون ونقلوه ، بل القراء من الكوفيين يكادون يكونون
٣٦٢

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢٨٩/١

مثل قراء البصرة ، وقد اتفق على نقل إدغام الراء في اللام كبير البصريين ورأسهم : أبو عمرو بن العلاء ، ويعقوب الحضرمي. وكبراء أهل الكوفة : الرواسي ، والكسائي ، والفراء ، وأجازوه ورووه عن العرب ، فوجب قبوله والرجوع فيه إلى علمهم ونقلهم ، إذ من علم حجة على من لم يعلم.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٤١

وأما قول الزمخشري : إن راوي ذلك عن أبي عمرو مخطيء مرتين ، فقد تبين أن ذلك صواب ، والذي روي ذلك عنه الرواة ، ومنهم : أبو محمد اليزيدي وهو إمام في النحو إمام في القرآت في اللغات.

قال النقاش : يغفر لمن ينزع عنه ، ويعذب من يشاء إن أقام عليه.

وقال الثوري : يغفر لمن يشاء العظيم ، ويعذب من يشاء على الصغير.

وقد تعلق قوم بهذه الآية في جواز تكليف ما لا يطاق ، وقالوا : كلفوا أمر الخواطر ، وذلك مما لا يطاق. قال ابن عطية : وهذا غير بين ، وإنما كان من الخواطر تأويلا تأوله أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يثبت تكليفا.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ . لما ذكر المغفرة والتعذيب لمن يشاء ، عقب ذلك بذكر القدرة ، إذ ما ذكر جزء من متعلقات القدرة.

﴿الرسول بمآ أنزل إليه من ربها والمؤمنونا كل﴾ سبب نزولها أنه لما نزل : ﴿وإن تبدوا ما فيا أنفسكم﴾ الآية أشفقوا منها ، ثم تقرر الأمر على أن ﴿قالوا سمعنا وأطعنا﴾ فرجعوا إلى التضرع والاستكانة ، فمدحهم الله وأثنى عليهم ، وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم ، وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم ، فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر ، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى ، كما جرى لبني اسرائيل ضد ذلك من : ذمهم وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والجلاء ، إذ ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ وهذه ثمرة العصيان **وارتمرد** على الله ، أعاذنا الله تعالى من نقمه. انتهى هذا ، وهو كلام ابن عطية.

وظهر بسبب النزول مناسبة هذه الآية لما قبلها ، ولما كان مفتتح هذه السورة بذكر الكتاب المنزل ، وأنه هدى للمتقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب ، وبما أنزل إلى الرسول وإلى من قبله ، كان مختتمها أيضا موافقا لمفتتحها.

وقد تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها ، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء ، وسأبين ذلك إن شاء الله في آخر كل سورة سورة ، وذلك من أبدع الفصاحة ، حيث يتلاقى آخر الكلام

." (١)

"وتارة يراعى حال ذلك الاسم ، فيكون ذلك الصالح للوصف على حسبه من الغيبة. فتقول : أنا رجل يأمر بالمعروف ، وأنت امرؤ تأمر بالمعروف. ومنه : كنتم خير أمة أخرجت ولو جاء أخرجتم فيراعى ضمير الخطاب في كنتم لكان عربيا فصيحا. والأولى جعله أخرجت للناس صفة لأمة ، لا لخير لتناسب الخطاب في كنتم خير أمة مع الخطاب في تأمرون وما بعده. وظاهر قوله : للناس أنه متعلق بأخرجت. وقيل : متعلق بخير. ولا يلزم على هذا التأويل أنها أفضل الأمم من نفس هذا اللفظ ، بل من موضع آخر. وقيل : بتأمرون ، والتقدير تأمرون الناس بالمعروف. فلما قدم المفعول جر باللام كقوله : ﴿إن كنتم للرءيا تعبرون﴾ أي تعبرون الرؤيا ، وهذا فيه بعد. تأمرون بالمعروف كلام خرج مخرج الثناء من الله قاله : الربيع. أو مخرج الشرط في الخيرية ، روى هذا المعنى عن : عمرو ، ومجاهد ، والزجاج. فقيل : هو مستأنف بين به كونهم خير أمة كما تقول : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم. وقال ابن عطية : تأمرون وما بعده أحوال في موضع نصب انتهى. وقاله الراغب : والاستئناف أمكن وأمدح. وأجاز الحوفي في أن يكون تأمرون خبرا بعد خبر ، وأن كون نعتا لخير أمة. قيل : وقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان ، لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم ، فليس المؤثر لحصول هذه الزيادة ، بل المؤثر كونهم أقوى حالا في الأمر والنهي. وإنا الإيمان شرط للتأثير ، لأنه ما لم يوجد لم يضر شيء من الطاعات مؤثرا في صفة الخيرية ، والمؤثر ألصق بالأثر من شرط التأثير. وإنما اكتفى بذكر الإيمان بالله عن الإيمان بالنبوة لأنه مستلزم له انتهى. وهو من كلام محمد بن عمر الرازي. وقال الزمخشري : جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيمانا بالله ، لأن من آمن ببعض ، ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه ، فكأنه غير مؤمن بالله. ويقولون : نؤمن ببعض الآية انتهى. وقيل : هو على حذف مضاف ، أي وتؤمنون برسول الله. والظاهر في المعروف ، والمنكر العموم. وقال ابن عباس : المعروف الرسول ، والمنكر عبادة الأصنام. وقال أبو العالية : المعروف التوحيد ، والمنكر الشرك.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ١٦

﴿ولو ءامن أهل الكتاب لكان خيرا لهم﴾ أي ولو آمن عامتهم وسائرهم. ويعني الإيمان التام النافع. واسم

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٢/٢٧٥

كان ضمير يعود على المصدر المفهوم من آمن كما يقول

٢٩

من صدق كان خيرا له ، أي لكان هو ، أي الإيمان. وعلق كينونة الإيمان خيرا لهم على تقدير حصوله توبيخا لهم مقرونا بنصحه تعالى لهم أن لو آمنوا لنجوا أنفسهم من عذاب الله. وخبر هنا أفعل التفضيل ، والمعنى : لكان خيرا لهم مما هم عليه ، لأنهم إما آثروا دينهم على دين الإسلام حبا في الرئاسة واستتباع العوام ، فلهم في هذا خط دنيوي. وإيمانهم يحصل به الحظ الدنيوي من كونهم يصيرون رؤساء في الإسلام ، والحظ الأخروي الجزيل بما وعدوه على الإيمان من إيتائهم أجرهم مرتين. وقال ابن عطية : ولفظة خير صيغة تفضيل ، ولا مشاركة بين كفرهم وإيمانهم في الخير ، وإنما جاز ذلك لما في لفظة خير من الشياع وتشعب الوجوه ، وكذلك هي لفظة أفضل وأحب وما جرى مجراها انتهى كلامه. وإبقاؤها على موضوعها الأصلي أولى إذا أمكن ذلك ، وقد أمكن إذ الخيرية مطلقة فتحصل بأدنى مشاركة.

﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ ظاهر اسم الفاعل التلبس بالفعل ، فأخبر تعالى أن من أهل الكتاب من هو ملتبس بالإيمان كعبد الله بن سلام ، وأخيه ، وثعلبة بن سعيد ، ومن أسلم من اليهود. وكالنجاشي ، وبحيرا ، ومن أسلم من النصارى إذ كانوا مصدقين رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبعده. وهذا يدل على أن المراد بقوله : ﴿ولو ءامن أهل الكتاب﴾ الخصوص ، أي باقي أهل الكتاب إذ كانت طائفة منهم قد حصل لها الإيمان. وقيل : المراد باسم الفاعل هنا الاستقبال. أي منهم من يؤمن ، فعلى هذا يكون المراد بأهل الكتاب العموم ، ويكون قوله : منهم المؤمنون إخبارا بمغيب وأنه سيقع من بعضهم الإيمان ، ولا يستمرون كلهم على الكفر. وأخبر تعالى أن أكثرهم الفاسقون ، فدل على أن المؤمنين منهم قليل. والألف واللام في المؤمنون وفي الفاسقون يدل على المبالغة والكمال في الوصفين ، وذلك طاهر لأن من آمن بكتابه وبالقرآن فهو كامل في إيمانه ، ومن كذب بكتابه إذ لم يتبع ما تضمنه من الإيمان برسول الله ، وكذب بالقرآن فهو أيضا كامل في فسقه متمرد في كفره.

". (١)

"ومعنى لقد سمع الله : أنه لم يخف عليه تعالى مقالتهم ، ومقالتهم هذه إما على سبيل الاستهزاء بما نزل من طلب الإقراض ، وإما على سبيل الجدل والإلزام ، لأن من طلب الإقراض كان فقيرا. وإما على الاعتقاد ، ولا يستبعد ذلك من عقولهم ، إذ قد حكى الله عنهم ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢٣/٣

أيديهم﴾ وأياما كان من هذه الأسباب ، فذلك دليل على **تمردهم** في الكفر والمبالغة فيه ، حيث نسبوا الموجد الأشياء من العدم الصرف إلى الوجود الغني بذاته عما أوجده الوصف الدال على الافتقار لبعض ما أوجده ، ونسبوا العكس إلى أنفسهم ، وجاءت الجملة مؤكدة باللام مؤذنة بعلمه بمقالتهم ومؤكدة له ، وحيث نسبوا إلى الله ما نسبوا ، أكدوا الجملة بأن على سبيل المبالغة. وحيث نسبوا إلى أنفسهم ما نسبوا لم يؤكدوا ، بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد ، كأن الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع ، فيحتاج إلى أن يؤكد.

﴿سنكتب ما قالوا وقتلهم الانابيآء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ الظاهر إجراء الكتابة على أنها حقيقة ، قال ذلك كثير من العلماء. وأنها تكتب الأعمال في صحف ، وأن تلك الصحف هي التي توزن ، ويحدث الله سبحانه وتعالى فيها الخفة والثقل بحسب ما كتب فيها من الخير والشر. وقيل : سنكتب ما قالوا في القرآن حتى يعلم القوم شدة تعنتهم وحسدهم في الطعن عليه صلى الله عليه وسلم. وذهب قوم : إلى أن الكتابة مجاز ومعناها الإحصاء للشيء وضبطه وعدم إهماله وكينونته في علم الله شيئا محفوظا لا ينسى ، كما يثبت المكتوب. وذهب إلى أن معنى سنكتب : سنوجب عليهم في الآخرة جزاء ما قالوه في الدنيا كقوله : ﴿كتب عليكم الصيام﴾ وجاء سنكتب بلفظ المستقبل دون لفظ الماضي ، لأنه تضمن المجازاة على ما قالوه. وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى. ونسب إليهم قتلهم الأنبياء ، وإن كان من فعل آبائهم ، لما كانوا راضين به. وقد سموا أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله ، ودل هذا القول وهذا الفعل على جميع الأقوال والأفعال القبيحة التي صدرت منهم. إذ القول في هذه الآية أشنع الأقوال في الله تعالى ، والقتل أشنع الأفعال التي فعلوها مع أنبياء الله تعالى ، وتشريك القتل مع هذا القول يدل على أنهما يسببان في استحقاق العقاب. ولما كان الصادر منهم قولا وفعلا ناسب أن يكون الجزاء قولا وفعلا ، فتضمن القول والفعل قوله تعالى : ونقول ذوقوا عذاب الحريق. وفي الجمع بين القول والفعل أعظم انتقام ، ويقال للمنتقم منه : أحس وذق.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ١٢٩

وقال أبو سفيان لحمزة رضي الله عنه لما طعنه وحشي : ذق عقق ، واستعير لمباشرة العذاب الذوق ، لأن الذوق من أبلغ أنواع المباشرة ، وحاستها متميزة جدا. والحريق : المحرق فعيل بمعنى مفعل ، كأليم بمعنى مؤلم. وقيل : الحريق طبقة من طباق جهنم. وقيل : الحريق

١٣٠

الملتهب من النار ، والنار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة ، والملتهبة أشدها. والظاهر أن هذا القول يكون عند دخولهم جهنم. وقيل : قد يكون عند الحساب ، أو عند الموت. وأن وما بعدها محكى بقالوا. وأجاز أبو البقاء أن يكون محكيا بالمصدر ، فيكون من باب الأعمال. قال : وإعمال الأول أصل ضعيف ، ويزداد ضعفا لأن الثاني فعل والأول مصدر ، وإعمال الفعل أقوى. والظاهر أن ما فيما قالوا موصولة بمعنى الذي ، وأجيز أن تكون مصدرية.

وقرأ الجمهور : سنكتب وقتلهم بالنصب. ونقول : بنون المتكلم المعظم. أو تكون للملائكة. وقرأ الحسن والأعرج سيكتب بالياء على الغيبة. وقرأ حمزة : سيكتب بالياء مبنيا للمفعول ، وقتلهم بالرفع عطفا على ما ، إذ هي مرفوعة بسيكتب ، ويقول بالياء على الغيبة. وقرأ طلحة بن مصرف : سنكتب ما يقولون. وحكى الداني عنه : ستكتب ما قالوا بتاء مضمومة على معنى مقالتهم. وقرأ ابن مسعود : ويقال ذوقوا. ونقلوا عن أبي معاذ النحوي أن في حرف ابن مسعود سنكتب ما يقولون ونقول لهم ذوقوا.

﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ الإشارة إلى ما تقدم من عقابهم ، ونسب ما قدموه من المعاصي القولية والفعلية والاعتقادية إلى الأيدي على سبيل التغليب ، لأن الأيدي تزاول أكثر الأعمال ، فكان كل عمل واقع بها. وهذه الجملة داخلة في المقول ، وبخوا بذلك ، وذكر لهم السبب الذي أوجب لهم العقاب. ويحتمل أن يكون خطابا لمعاصري الرسول صلى الله عليه وسلم يوم نزل الآية ، فلا يندرج تحت معمول قوله ونقول.

﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ هذا معطوف على قوله : بما قدمت أيديكم ، أي ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم ، وعدل الله تعالى فيكم. وجاء لفظ ظلام الموضوع للتكثير ، وهذا تكثير بسبب المتعلق. وذهب بعضهم إلى أن فعالا قد يجيء لا يراد به الكثرة ، كقول طرفة :

ولست بحلال التلاع مخافةولكن متى يسترقد القوم أرفد

". (١)

"قال الزمخشري : أما عن مواضعه فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. وأما من بعد مواضعه : فالمعنى أنه كانت له مواضع هو قمن بان يكون فيها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره ، والمعنيان متقاربان انتهى. والذي يظهر أنهما سياقان ، فحيث وصفوا بشدة **التمرد** والطغيان ، وإظهار العداوة ، واشترائهم

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣/١٠٤

الضلالة ، ونقض الميثاق ، جاء يحرفون الكلم عن مواضعه. ألا ترى إلى قوله : ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ وقوله : ﴿نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيةا يحرفون الكلم عن مواضعها﴾ فكأنهم لم يتركوا الكلم من التحريف عن ما يراد بها ، ولم تستقر في مواضعها ، فيكون التحريف بعد استقرارها ، بل بادروا إلى تحريفها بأول وهلة. وحيث وصفوا ببعض لين وترديد وتحكيم للرسول في بعض الأمر ، جاء من بعد مواضعه. ألا ترى إلى قوله : ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ وقوله بعد : ﴿فإن جآءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ فكأنهم لم يبادروا بالتحريف ، بل عرض لهم التحريف بعد استقرار الكلم في مواضعها. وقد يقال : أنهما شيئان ، لكنه حذف هنا. وفي أول المائدة : من بعد مواضعه ، لأن قوله : عن مواضعه يدل على استقرار مواضع له ، وحذف في ثاني المائدة عن مواضعه. لأن التحريف من بعد مواضعه يدل على أنه تحريف عن مواضعه ، فالأصل يحرفون الكلم من بعد مواضعه. فحذف هنا البعدية ، وهناك حذف عنها. كل ذلك توسع في العبارة ، وكانت البداءة هنا بقوله : عن مواضعه ، لأنه أخضر. وفيه تنصيص باللفظ على عن ، وعلى المواضع ، وإشارة إلى البعدية.

﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ أي : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ، أو سمعناه جهرا ، وعصيناه سرا قولان. والظاهر أنهم شافهوا بالجملتين النبي صلى الله عليه وسلم مبالغة منهم في عتوهم في الكفر ، وجريا على عادتهم مع الأنبياء. ألا ترى إلى قوله : ﴿خذوا مآ ءاتيناكم بقوة واسمعوا ا قالوا سمعنا وعصينا﴾ .

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢٦٠

﴿واسمع غير مسمع﴾ هذا الكلام غير موجه ، ويحتمل وجوها. والظاهر أنهم أرادوا به الوجه المكروه لسياق ما قبله من قوله : سمعنا وعصينا ، فيكون معناه : اسمع لا سمعت. دعوا عليه بالموت أو بالصمم ، وأرادوا ذلك في الباطن ، وأرادوا في الظاهر تعظيمه بذلك. إذ يحتمل أن يكون المعنى : واسمع غير مأمور وغير صالح أن تسمع مأمورا بذلك. وقال الزمخشري : أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه ومعناه : غير مسمع جوابا يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئا انتهى ، وقاله ابن عباس. قال الزمخشري : أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه ، فسمعك عنه ناب. ويجوز على هذا أن يكون غير مسمع مفعول اسمع ، أي : اسمع كلاما غير مسمع إياك ، لأن أذنك لا تعيه نبوا عنه. ويحتمل المدح أي : اسمع غير مسمع مكروها من قولك : أسمع فلان فلانا إذا سبه. قال ابن عطية : ومن قال : غير مسمع غير مقبول منك ، فإنه لا يساعده التصريف ، وقد حكاه الطبري عن الحسن ومجاهد انتهى. ووجه أن التصريف لا يساعد عليه هو

٢٦٣

أن العرب لا تقول أسمعتك بمعنى قبلت منك ، وإنما تقول : سمعت منك بمعنى قبلت ، فيعبرون عن القبول بالسماع على جهة المجاز ، لا بالأسماع. ولو أريد ما قاله الحسن ومجاهد لكان اللفظ : واسمع غير مسموع منك.

﴿وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين﴾ تقدم تفسير راعنا في قوله تعالى : ﴿مواضعها ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم﴾ أي فتلا بها. وتحريفا عن الحق إلى الباطل حيث يضعون راعنا مكان انظرنا ، وغير مسمع مكان لا أسمعت مكروها. أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقا. وانتصاب غير مسمع على الحال من المضمر في اسمع ، وتقدم إعراب الزمخشري إياه مفعولا في أحد التقادير ، وانتصاب ليا وطعنا على المفعول من أجله.

." (١)

"المعنى ، لأنا نقطع أن الله تبارك وتعالى قد أراد من بعض خلقه أن لا يطيعوه ، ولذلك خرجت طائفة معنى الإذن إلى العلم ، وطائفة خرجته إلى الإرشاد لقوم دون قوم ، وهو تخريج حسن. لأن الله إذا علم من أحد أنه يؤمن وفقه لذلك ، فكأنه أذن له انتهى. ولا يلزم ما ذكره من أن الكلام عام اللفظ خاص المعنى ، لأن قوله : ليطاع مبني للمفعول الذي لم يسم فاعله ، ولا يلزم من الفاعل المحذوف أن يكون عاما ، فيكون التقدير : ليطيعه العالم ، بل المحذوف ينبعي أن يكون خاصا ليوافق الموجود ، فيكون أصله : إلا ليطيعه من أردنا طاعته. وقال عبد الله الرازي : والآية دالة على أنه لا رسول إلا ومعه شريعة ليكون مطاعا في تلك الشريعة ، ومتبوعا فيها ، إذ لو كان لا يدعو إلا إلى شرع من قبله لم يكن هو في الحقيقة مطاعا ، بل المطاع هو الرسول المتقدم الذي هو الواضع لتلك الشريعة ، والله تعالى حكم على كل رسول بأنه مطاع انتهى. ولا يعجبني قوله : الواضع لتلك الشريعة ، والأحسن أن يقال : الذي جاء بتلك الشريعة من عند الله.

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جآءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ ظلموا أنفسهم بسخطهم لقضائك أو بتحاكمهم إلى الطاغوت ، أو بجميع ما صدر عنهم من المعاصي. جاؤوك فاستغفروا الله بالإخلاص ، واعتذروا إليك. واستغفر لهم الرسول أي : شفع لهم الرسول في غفران ذنوبهم. والعامل في إذ جاؤوك ، والتفت في قوله : واستغفر لهم الرسول ، ولم يجيء على ضمير الخطاب في جاؤوك تفخيما لشأن الرسول ، وتعظيما لاستغفاره ، وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله تعالى

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢١٤/٣

بمكان ، وعلى أن هذا الوصف الشريف وهو إرسال الله إياه موجب لطاعته ، وعلى أنه مندرج في عموم قوله : ﴿ومآ أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ ومعنى وجدوا : علموا ، أي : بإخباره أنه قبل توبتهم ورحمهم.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢٨٢

وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه : فائدة ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم بأنهم بتحاكمهم إلى الطاغوت خالفوا حكم الله ، وأساءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوجب عليهم أن يعتذروا ويطلبوا من الرسول الاستغفار ، أو لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم **التمرد** ، فإذا تابوا وجب أن يظهر منهم ما يزيد **التمرد** بأن يذهبوا إلى الرسول ويطلبوا منه الاستغفار ، أو إذا تابوا بالتوبة أتوا بها على وجه من الخلل ، فإذا انضم إليها استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم صارت مستحقة. والآية تدل على قبول توبة التائب لأنه قال بعدها : ﴿لوجدوا الله﴾ وهذا لا ينطبق على ذلك الكلام إلا إذا كان المراد من قوله : ﴿توابا رحيما﴾ قبول توبته انتهى. وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال : قدم علينا أعرابي بعدما دفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبره وحثا من ترابه على رأسه ثم قال :

يا خير من دفنت في الترب أعظمهفطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم قال : قد قلت : يا رسول الله فسمعنا قولك ، ووعيت عن الله فوعينا عنك ، وكان فيما أنزل الله عليك ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك الآية ، وقد ظلمت نفسي وجئت أستغفر الله ذنبي ، فاستغفر لي من ربي ، فنودي من القبر أنه قد غفر لك.

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ قال مجاهد وغيره : نزلت فيمن أراد التحاكم إلى الطاغوت. ورجحه الطبري لأنه أشبه بنسف الآيات. وقيل : في شأن الرجل الذي خاصم الزبير في السقي بماء الحرة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : "اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك" فغضب وقال : "إن كان ابن عمتك ، فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم واستوعب للزبير حقه فقال : احبس يا زبير الماء حتى يبلغ الجدر ، ثم أرسل الماء". والرجل هو من الأنصار بدري.

٢٨٣

". (١)

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢٣١/٣

"﴿وإن كنتم جنبا فاطهروا ﴾ لما ذكر تعالى الطهارة الصغرى ذكر الطهارة الكبرى ، وتقدم مدلول الجنب في ﴿ولا جنبا إلا عابرى سبيل﴾ والظاهر أن الجنب مأمور بالاغتسال. وقال عمر ، وابن مسعود : لا يتيمم الجنب البتة ، بل يدع الصلاة حتى يجد الماء ، والجمهور على خلاف ذلك ، وأنه يتيمم ، وقد رجعا إلى ما عليه الجمهور. والظاهر أن الغسل والمسح والتطهر إنما تكون بالماء لقوله : ﴿فلم تجدوا مآء﴾ أي للوضوء والغسل فتيمموا صعيدا طيبا فدل على أنه لا واسطة بين الماء والصعيد ، وهو قول الجمهور. وذهب الأوزاعي والأصم : إلى أنه يجوز الوضوء والغسل بجميع المائعات الطاهرة. والظاهر أن الجنب لا يجب عليه غير التطهير من غير وضوء. ولا ترتيب في الأعضاء المغسولة ، ولا دلك ، ولا مضمضة ، ولا استنشاق ، بل الواجب تعميم جسده بوصول الماء

٤٣٨

إليه. وقال داود وأبو ثور : يجب تقديم الوضوء على الغسل. وقال إسحاق : تجب البداءة بأعلى البدن. وقال مالك : يجب الدلك ، وروى عنه محمد بن مروان الظاهري : أنه يجزئه الانغماس في الماء دون تدلك. وقال أبو حنيفة : وزفر ، وأبو يوسف ، ومحمد ، والليث ، وأحمد : تجب المضمضة والاستنشاق فيه ، وزاد أحمد الوضوء. وقال النخعي : إذا كان شعره مفتولا جدا يمنع من وصول الماء إلى جلدة الرأس لا يجب نقضه. وقرأ الجمهور : فاطهروا بتشديد الطاء والهاء المفتوحتين ، وأصله : تطهروا ، فأدغم التاء في الطاء ، واجتلبت همزة الوصل. وقرىء : فاطهروا بسكون الطاء ، والهاء مكسورة من أطهر رباعيا ، أي : فأطهروا أبدانكم ، والهمزة فيه للتعدية.

﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جآء أحد منكم من الغآئط أو لـامستم النسآء فلم تجدوا مآء فتيمموا ﴾ تقدم تفسير هذه الجملة الشرطية وجوابها في النساء ، إلا أن في هذه الجملة زيادة منه وهي مرادة في تلك التي في النساء. وفي لفظه : منه دلالة على إيصال شيء من الصعيد إلى الوجه واليدين ، فلا يجوز التيمم بما لا يعلق باليد كالحجر والخشب والرمل العاري عن أن يعلق شيء منه باليد فيصل إلى الوجه ، وهذا مذهب الشافعي. وقال أبو حنيفة ، ومالك : إذا ضرب الأرض ولم يعلق بيده شيء من الغبار ومسح بها أجزأه. وظاهر الأمر بالتيمم للصعيد ، والأمر بالمسح ، أنه لو يممه غيره ، أو وقف في مهب ريح فسفت على وجهه ويديه وأمر يده عليه ، أو لم يمر ، أو ضرب ثوبا فارتفع منه غبار إلى وجهه ويديه ، أن ذلك لا يجزئه. وفي كل من المسائل الثلاث خلاف.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٣٠

﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أي من تضييق ، بل رخص لكم في تيمم الصعيد عند فقد الماء. والإرادة صفة ذات ، وجاءت بلفظ المضارع مراعاة للحوادث التي تظهر عنها ، فإنها تجيء مؤتنقة من نفي الحرج ، ووجود التطهير ، وإتمام النعمة. وتقدم الكلام على مثل اللام في ليجعل في قوله : ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ فأغنى عن إعادته. ومن زعم أن مفعول يريد محذوف تتعلق به اللام ، جعل زيادة من في الواجب للنفي الذي في صدر الكلام ، وإن لم يكن النفي واقعا على فعل الحرج ، ويجري مجرى هذه الجملة ما جاء في الحديث "دين الله يسر" وبعثت بالحنيفية السمحة" وجاء لفظ الدين بالعموم ، والمقصود به الذي ذكر بقرب وهو التيمم.

﴿ولاكن يريد ليطهركم﴾ أي بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء. وفي الحديث : "التراب طهور المسلم ولو إلى عشر حجج". وقال الجمهور : المقصود بهذا التطهير إزالة النجاسة الحكمية الناشئة عن خروج الحدث. وقيل : المعنى ليطهركم من أدناس الخطايا بالوضوء والتيمم ، كما جاء في مسلم : ﴿ءأنتم تزرعونها أم نحن الزارعون * لو نشآء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرءيتم المآء﴾ إلى آخر الحديث. وقيل : المعنى ليطهركم عن **التمرد** عن الطاعة. وقرأ ابن المسيب : ليطهركم بإسكان الطاء وتخفيف الهاء.

﴿وليتم نعمته عليكم﴾ أي وليتم برخصة العامة عليكم بعزائمه. وقيل : الكلام متعلق بما دل عليه أول السورة من إباحة الطيبات من المطاعم والمناكح ، ثم قال بعد كيفية الوضوء : ويتم نعمته عليكم ، أي النعمة المذكورة ثانيا وهي نعمة الدين. وقيل : تبيين الشرائع وأحكامها ، فيكون مؤكدا لقوله : ﴿وأتممت عليكم نعمتى﴾ وقيل : بغفران ذنوبهم. وفي الخبر : ﴿حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ .

﴿لعلكم تشكرون﴾ أي تشكرونه على تيسير دينه وتطهيركم وإتمام النعمة عليكم.

٤٣٩

". (١)

"والفترة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيسى عليه السلام قال قتادة : خمسمائة سنة وستون. وقال الضحاك : أربعمائة سنة وبضع وثلاثون سنة. وقيل : أربعمائة ونيف وستون. وذكر محمد بن سعد في كتاب الطبقات له عن ابن عباس : أن كان بين ميلاد عيسى والنبي عليهما الصلاة والسلام خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث في أولها ثلاثة أنبياء. وهو قوله تعالى : ﴿إذ أرسلنآ إليهم اثنين

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣/٣٥٣

فكذبوهما فعززنا بثالث﴾ وهو شمعون وكان من الحواريين. وقال الكلبي مثل قول ابن عباس إلا أنه قال : بينهما أربعة أنبياء ، واحد من العرب من بني عبس وهو خالد بن سنان الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : "ضيعه قومه". وروي عن الكلبي أيضا خمسمائة وأربعون. وقال وهب : ستمائة سنة وعشرون. وقيل : سبعمائة سنة. وقال مقاتل : ستمائة سنة ، وروي هذا عن قتادة والضحاك. وذكر ابن عطية أن هذا روي في الصحيح. فإن كانا كما ذكر وجب أن لا يعدل عنه لسواه. وهذه التواريخ نقلها المفسرون من كتب اليونان وغيرهم ممن لا يتحرى النقل. وذكر ابن سعد في الطبقات عن ابن عباس والزمخشري عن الكلبي قالا : كان بين موسى وعيسى ألف سنة وسبعمائة سنة ، وألف نبي ، زاد ابن عباس من بني إسرائيل دون من أرسل من غيرهم ، ولم يكن بينهما فترة. والمعنى : الامتنان عليهم بإرسال الرسل على حين انطمست آثار الوحي ، وهم أحوج ما يكونون إليه ليعدوه أعظم نعمة من الله وفتح باب إلى الرحمة ، ويلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غلفتهم. وأن تقولوا : مفعول من أجله فقده البصريون : كراهة أو حذار أن تقولوا. وقدره الفراء : لئلا تقولوا. ويعني يوم القيامة على سبيل الاحتجاج.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٤٢

﴿فقد جآءكم بشير ونذير﴾ قيل : وفي الكلام حذف أي : لا تعتدوا فقد جاءكم بشير ، أي لمن أطاع بالثواب ، ونذير لمن عصى بالعقاب. وفي هذا رد على اليهود حيث قالوا : ما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بعده.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ هذا عام فقيل على كل شيء من الهداية والضلال. وقيل : من البعثة وإمساكها. والأولى العموم فيندرج فيه ما ذكروا.

﴿وإذ قال موسى لقومها ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنابيآء وجعلكم ملوكا وءاتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى بين **تمرد** أسلاف اليهود على موسى ، وعصيانهم إياه ، مع تذكيره إياهم نعم الله وتعداده لما هو العظيم منها ، وأن هؤلاء الذين هم بحضرة الرسول هم جارون معكم مجرى أسلافهم مع موسى. ونعمة الله يراد بها الجنس ، والمعنى : واذكر لهم يا محمد على جهة إعلامهم بغيب كتبهم ليتحققوا نبوتك. وينتظم في ذلك ذكر نعم الله عليهم ، وتلقيهم تلك النعم بالكفر وقلة الطاعة. وعدد عليهم من نعمه ثلاثا : الأولى : جعل أنبياء فيهم وذلك أعظم الشرف ، إذ هم الوسائط بين الله وبين خلقه ، والمبلغون عن الله شرائعه. قيل : لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء. وقال ابن السائب ومقاتل : الأنبياء هنا هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه ، وكانوا

من خيار قومه. وقيل : هم الذين أرسلوا من بعد في بني إسرائيل كموسى ذكره الماوردي وغيره ، وعلى هذا القول يكون جعل لا يراد بها حقيقة الماضي بالفعل ، إذ بعضهم كان قد ظهر عند خطاب موسى إياهم ، وبعضهم لم يخلق بل أخبر أنه سيكون فيهم. الثانية : جعلهم ملوكا ظاهره الامتنان عليهم بأن جعلهم ملوكا إذ جعل منهم ملوكا ، إذ الملك شرف في الدنيا واستيلاء ، فذكرهم بأن منهم قادة الآخرة وقادة الدنيا. وقال السدي وغيره : وجعلكم أحرارا تملكون ولا تملكون ، إذ كنتم خدما للقبط فأنقذكم منهم ، فسمي استنقاذكم ملكا. وقال قوم : جعلهم ملوكا بإنزال المن والسلوى
٤٥٢
عليهم وتفجير الحجر لهم ، وكون ثيابهم لا تبلى ولا تنسخ وتطول كلما طالوا ، فهم ملوك لرفع هذه الكلف عنهم. وقال قتادة : ملوكا لأنهم أول من اتخذ الخدام واقتنوا الأرقاء. وقال ابن عطية وقتادة : وإنما قال وجعلكم ملوكا ، لأنا كنا نتحدث أن أول من خدمه آخر من بني آدم. قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، لأن القبط كانوا يستخدمون بني إسرائيل. وظاهر أمر بني آدم أن بعضهم يسخر بعضا مدة تناسلوا وكثروا انتهى.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٤٢
." (١)

"والمراد بالرب هنا هو الله تعالى. وذكر النقاش عن بعض المفسرين هنا أن المراد بالرب هارون ، لأنه كان أسن من موسى ، وكان معظما في بني إسرائيل محببا لسعة خلقه ورحب صدره ، فكأنهم قالوا : اذهب أنت وكبيرك. وهو تأويل بعيد يخلص بني إسرائيل من الكفر. وربك معطوف على الضمير المستكن في اذهب المؤكد بالضمير المنفصل ، وقد تقدم الكلام على ذلك في قوله : ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ ورددنا قول من ذهب إلى أنه مرفوع على فعل أمر محذوف يمكن رفعه الظاهر ، فيكون من عطف الجمل التقدير : فاذهب وليذهب ربك. وذهب بعض الناس إلى أن الواو واو الحال ، وربك مرفوع بالابتداء ، والخبر محذوف. أو تكون الجملة دعاء والتقدير فيهما : وربك يعينك ، وهذا التأويل فاسد بقوله فقاتلا.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٤٢
﴿إنا هاهنا قاعدون﴾ هذا دليل على أنهم خارت طباعهم فلم يقدروا على النهوض معه للقتال ، ولا على الرجوع من حيث جاءوا ، بل أقاموا حيث كانت المحاورة بين موسى وبينهم. وها من قوله هاهنا للتنبيه ،

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣/٣٦٤

وهنا ظرف مكان للقريب ، والعامل فيه قاعدون. ويجوز في مثل هذا التركيب أن يكون الخبر الظرف وما بعده حال فينتصب ، وأن يكون الخبر الاسم والظرف معمول له. وهو أفصح.

﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسى وأخى ﴾ لما عصوا أمر الله **وتمردوا** على موسى وسمع منهم ما سمع من كلمة الكفر وسوء الأدب مع الله ولم يبق

٤٥٦

معه من يثق به إلا هارون قال ذلك ، وهذا من الكلام المنطوي صاحبه على الالتجاء إلى الله والشكوى إليه ، ورقة القلب التي تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة ونحوه قول يعقوب : ﴿إنمآ أشكوا بثى وحزنى إلى الله﴾ وعن علي أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال المنافقين فما أجابه إلا رجلان ، فتنفس الصعداء ودعا لهما وقال : أين تتبعان مما أريد ؟ والظاهر إن وأخي معطوف على نفسي ، ويحتمل أن يكون وأخي مرفوعا بالابتداء ، والخبر محذوف لدلالة ما قبله عليه أي : وأخي لا يملك إلا نفسه ، فيكون قد عطف جملة غير مؤكدة على جملة مؤكدة ، أو منصوبا عطفا على اسم إن أي : وإن أخي لا يملك إلا نفسه ، والخبر محذوف ، ويكون قد عطف الاسم والخبر على الخبر نحو : إن زيدا قائم وعمرا شاخص ، أي : وإن عمرا شاخص. وأجاز ابن عطية والزمخشري أن يكون وأخي مرفوعا عطفا على الضمير المستكن في أملك ، وأجاز ذلك للفصل بينهما بالمفعول المحصور. ويلزم من ذلك أن موسى وهارون عليهما السلام لا يملكان الأنفس موسى فقط ، وليس المعنى على ذلك ، بل الظاهر أن موسى يملك أمر نفسه وأمر أخيه فقط. وجوز أيضا أن يكون مجرورا معطوفا على ياء المتكلم في نفسي ، وهو ضعيف على رأي البصريين. وكأنه في هذا الحصر لم يثق بالرجلين اللذين قالا : ادخلوا عليهم الباب ، ولم يطمئن إلى ثباتهما لما عاين من أحوال قومه وتلونهم مع طول الصحبة ، فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في ثباته. قيل : أو قال ذلك على سبيل الضجر عندما سمع منهم تعليلا لمن يوافقه ، أو أراد بقوله : وأخي ، من يوافقني في الدين لا هارون خاصة. وقرأ الحسن : إلا نفسي وأخي بفتح الياء فيهما.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٤٢

﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ ظاهره أنه دعا بأن يفرق الله بينهما وبينهم بأن يفقد وجوههم ولا يشاهد صورهم إذا كانوا عاصين له مخالفين أمر الله تعالى ، ولذلك نبه على العلة الموجبة للتفرقة بينهم وبين الفسق فالمطيع لا يريد صحبة الفاسق ولا يؤثرها لئلا يصيبه بالصحبة ما يصيبه ، ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خآصة﴾ ﴿يرثها عبادى الصالحون﴾ وقبل الله دعاءه فلم يكونوا معهم في التيه ، بل فرق بينه

وبينهم ، لأن التيه كان عقابا خص به الفاسقون العاصون. وقال ابن عباس والضحاك وغيرهما : المعنى فافصل بيننا بحكم يزيل هذا الاختلاف ويلم الشعث. وقيل : المعنى فافرق بيننا وبينهم في الآخرة حتى تكون منزلة المطيع مفارقة لمنزلة العاصي الفاسق. وقال الزمخشري : فافصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق ، وعليهم بما يستحقون ، وهو في معنى الدعاء عليهم ، ولذلك وصل به قوله : فإنها محرمة عليهم ، على وجه التشبيه. وقرأ عبيد بن عمير ويوسف بن داود : فافرق بكسر الراء وقال الراجز :

يا رب فافرق بينه وبينيأشد ما فرقت بين اثنين

وقرأ ابن السميقع : ففرق. والفاسقون هنا قال ابن عباس : العاصون. وقال ابن زيد : الكاذبون. وقال أبو عبيد : الكافرون.

﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنةا يتيهون فى الارض﴾ أي قال الله

٤٥٧

." (١)

"الغراب : طائر معروف ويجمع في القلة على أغربة ، وفي الكثرة على غربان. وغراب اسم جنس وأسماء الأجناس إذا وقعت على مسمياتها من غير أن تكون منقولة من شيء ، فإن وجد فيها ما يمكن اشتقاقه حمل على أنه مشتق ، إلا أن ذلك قليل جدا ، بل الأكثر أن تكون غير مشتقة نحو : تراب ، وحجر ، وماء. ويمكن غراب أن يكون مأخوذا من الاغتراب ، فإن العرب تتشاءم به وتزعم أنه دال على الفراق. وقال حران العود :

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٥٩

وأما الغراب فالغريب المطوح. وقال الشنفري :

غراب لاغتراب من النوىوبالباذين من حبيب تعاشره

البحث في الأرض نبش التراب وإثارته ، ومنه سميت براءة بحوث. وفي المثل : لا تكن كالباحث عن

٤٥٩

الشفرة. السوأة : العورة. العجز : عدم الإطاقة ، وماضيه على فعل بفتح العين ، وهي اللغة الفاشية. وحكى الكسائي فيه : فعل بكسر العين. الندم : التحسر يقال منه : ندم يندم. الصلب معروف وهو إصابة صلبة بجذع ، أو حائط كما تقول : عانه أي أصاب عينه ، وكيده أصاب كيده. الخلاف : المخالفة ، ويقال :

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٣٦٨/٣

فرس به شكال من خلاف إذا كان في يده. نفاة : طرده فانتفى ، وقد لا يتعدى نفي. قال القطامي : فأصبح جاراكم قتيلا ونافيا. أي منفيا.

الوسيلة الواسلة ما يتقرب منه. يقال : وسله وتوسل إليه ، واستعيرت الوسيلة لما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات. وقال لبيد :

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهمألا كل ذي لب إلى الله واسل

وأنشد الطبري :

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا

وعاد التصابي بيننا والوسائل

السارق اسم فاعل من سرق يسرق سرقا والسرق والسرقة الاسم كذا قال بعضهم وربما قالوا سرقة مالا. قال ابن عرفة السارق عند العرب من جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له. ﴿واتل عليهم نبأ ابنى ءادم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الاخر﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر **تمرد** بني إسرائيل وعصيانهم ، أمر الله تعالى في النهوض لقتال الجبارين ، ذكر قصة ابني آدم وعصيان قابيل أمر الله ، وأنهم اقتفوا في العصيان أول عاص لله تعالى ، وأنهم انتهوا في خور الطبيعة وهلع النفوس والجبن والفزع إلى غاية بحيث قالوا لنبيهم الذ ظهرت على يديه خوارق عظيمة ، وقد أخبرهم أن الله كتب لهم الأرض المقدسة : ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ وانتهى قابيل إلى طرف نقيض منهم من الجسارة والعتو وقوة النفس وعدم المبالاة بأن أقدم على أعظم الأمور وأكبر المعاصي بعد الشرك وهو قتل النفس التي حرم الله قتلها ، بحيث كان أول من سن القتل ، وكان عليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة ، فاشتبهت القصتان من حيث الجبن عن القتل والإقدام عليه ، ومن حيث المعصية بهما. وأيضا فتقدم قوله أوائل الآيات ﴿إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ وبعده ﴿قد جآءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ وقوله : ﴿نحن أبنا ؤا الله وأحبا ؤها﴾ ثم قصة محاربة الجبارين ، وتبين أن عدم اتباع بني إسرائيل محمدا صلى الله عليه وسلم إنما سببه الحسد هذا مع علمهم بصدقه.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٥٩

وقصة ابني آدم انطوت على مجموع هذه الآيات من بسط اليد ، ومن الأخبار بالمغيب ، ومن عدم الانتفاع بالقرب ، ودعواه مع المعصية ، ومن القتل ، ومن الحسد. ومعنى واتل عليهم : أي اقرأ واسرد ، والضمير في عليهم ظاهره أنه يعود على بني إسرائيل إذ هم المحدث عنهم أولا ، والمقام عليهم الحجج بسبب همهم

ببسط أيديهم إلى الرسول. والمؤمنين فاعلموا بما هو في غامض كتبهم الأول التي لا تعلق للرسول بها إلا من جهة الوحي ، لتقوم الحجة بذلك عليهم ، إذ ذلك من دلائل النبوة. والنبأ : هو الخبر. وابنا آدم في قول الجمهور عمر ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهما : هما قابيل وهابيل ، وهما ابناه لصلبه. وقال الحسن : لم يكونا ولديه لصلبه ، وإنما هما أخوان من بني إسرائيل. قال : لأن القربان إنما كان مشروعا في بني إسرائيل ، ولم يكن قبل ، ووهم الحسن في ذلك. وقيل عليه كيف يجهل الدفن في بني إسرائيل حتى يقتدى فيه بالغراب ؟ وأيضا فقد قال الرسول عنه : "إنه أول من سن القتل"

٤٦٠

وقد كان القتل قبل في بني إسرائيل.

ويحتمل قوله : بالحق ، أن يكون حالا من الضمير في : واتل أي : مصحوبا بالحق ، وهو الصدق الذي لا شك في صحته ، أو في موضع الصفة لمصدر محذوف أي : تلاوة ملتبسة بالحق ، والعامل في إذ نبأ أي حديثهما وقصتهما في ذلك الوقت. وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون بدلا من النبأ أي : اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت على تقدير حذف المضاف انتهى. ولا يجوز ما ذكر ، لأن إذ لا يضاف إليها إلا الزمان ، ونبأ ليس بزمان.

". (١)

"وهي علينا واجبة. وقيل لحذيفة : أنزلت هذه الآية في بني إسرائيل ؟ فقال : نعم ، الإخوة لكم بنو إسرائيل أن كانت لكم كل حلوة ولهم كل مرة ، لتسلكن طريقهم قد الشرك ، وعن ابن عباس ، واختاره ابن جرير : إن الكافرين والظالمين والفاسقين أهل الكتاب ، وعنه نعم القوم أنتم ما كان من حلو فلكم ، وما كان من مر فهو لأهل الكتاب. من جحد حكم الله كفر ، ومن لم يحكم به وهو مقر به ظالم فاسق. وعن الشعبي : الكافرون في أهل الإسلام ، والظالمون في اليهود ، والفاسقون في النصارى. وكأنه خصص كل عام منها بما تلاه ، إذ قبل الأولى : ﴿فإن جآءوك فاحكم بينهم﴾ و﴿وإن حكمت فاحكم﴾ و﴿وكيف يحكمونك﴾ و﴿يحكم بها النبيون﴾ وقبل الثانية : ﴿وكتبنا عليهم فيهآ﴾ وقبل الثالثة : ﴿وقفينا على ءاثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه﴾ الآية. وقال الزمخشري : ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به ، فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون ، وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغيرها انتهى. وقال السدي : من خالف حكم الله وتركه عامدا وتجاوزه

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣٧٠/٣

وهو يعلم ، فهو من الكافرين حقا ، ويحمل هذا على الجحود ، فهو الكفر ضد الإيمان كما قال : ابن عباس. واحتجت الخوارج بهذه الآية على أن كل من عصى الله تعالى فهو كافر ، وقالوا : هي نص في كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله فوجب أن يكون كافرا. وأجيبوا : بأنها نزلت في اليهود ، فتكون مختصة بهم. وضعف بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومنهم من قال : تقديره ومن لم يحكم بما أنزل الله من هؤلاء الذين سبق ذكرهم قبل ، وهذا ضعيف ، لأن من شرط وهي عام ، وزيادة ما قدر زيادة في النقص ، وهو غير جائز. وقيل : المراد كفر النعمة ، وضعف بأن الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر في الدين. وقال ابن الأنباري : فعل فعلا يضاهي أفعال الكفار ، وضعف بأنه عدول عن الظاهر. وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني : ما أنزل صيغة عموم ، فالمعنى : من أتى بضد حكم الله في كل ما أنزل الله ، والفاسق لم يأت بضد حكم الله إلا في القليل وهو العمل ، أما في الاعتقاد والإقرار فهو موافق. وضعف بأنه لو كان كذلك لم يتناول هذا الوعيد اليهود بسبب مخالفاتهم حكم الله في الرجم. وأجمع المفسرون على أن هذا الوعيد يتناول اليهود بسبب مخالفتهم حكم الله في واقعة الرجم ، فدل على سقوطه هذا. وقال عكرمة : إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف أنه حكم الله وأقر بلسانه أنه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاد ، فهو حاكم بما أنزل الله ، لكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٨٥

﴿وكتبنا عليهم فيهآ أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى بين في التوراة أن حكم الزاني المحصن الرجم ، وغيره اليهود ، وبين هنا أن في التوراة : أن النفس بالنفس وغيره اليهود أيضا ، ففضلوا بني النضير على بني قريظة ، وخصوا إيجاب القود على بني قريظة دون بني النضير. ومعنى وكتبنا : فرضنا. وقيل : قلنا والكتابة بمعنى القول

٤٩٣

." (١)

"﴿وأن احكم بينهم بمآ أنزل الله﴾ قال ابن عباس : قال بعض اليهود لبعض منهم ابن صوريا وشاس بن قيس وكعب بن أسيد : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فأتوه فقالوا : يا محمد قد عرفت أنا

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣/٣٩٥

أحبار يهود وأشرافهم ، وإن اتبعناك اتبعك كل اليهود ، وبيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن بك ، فأبى ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم

٥٠٣

فنزلت. وقال مقاتل : قال جماعة من بني النضير له : هل لك أن تحكم لنا على أصحابنا بني قريظة في أمر الدماء كما كنا عليه من قبل ، ونبايعك ؟ فنزلت.

قال القاضي أبو يعلى : وليس هذه الآية تكرارا لما تقدم ، وإنما نزلت في شيئين مختلفين : أحدهما : شأن الرجم ، والآخر التسوية انتهى. وهذه الآية ناسخة عند قوم للتخيير الذي في قوله : ﴿أو أعرض عنهم﴾ وتقدم ذكر ذلك وأجازوا في : وأن احكم ، أن يكون في موضع نصب عطفا على الكتاب ، أي : والحكم. وفي م,ضع جر عطفا على بالحق ، وفي موضع رفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر مؤخرا ، والتقدير : وحكمك بما أنزل أنزل الله أمرنا وقولنا. أو مقدما والتقدير : ومن الواجب حكمك بما أنزل الله. وقيل : أن تفسيرية ، وأبعد ذلك من أجل الواو ، ولا يصح ذلك بأن يقدر قبل فعل الأمر فعلا محذوفا فيه معنى القول أي : وأمرناك أن احكم ، لأنه يلزم من ذلك حذف الجملة المفسرة بأن وما بعدها ، وذلك لا يحفظ من كلام العرب. وقرىء بضم النون من : وأن احكم ، اتباعا لحركة الكاف ، وبكسرها على أصل التقاء الساكنين. والضمير في بينهم عائد على اليهود. وقيل : على جميع المتحاكمين.

﴿ولا تتبع أهوآءهم﴾ تقدم شرح هذه الجملة.

﴿واحذرهم أن يفتنوك عنا بعض مآ أنزل الله إليك﴾ أي يستزلوك. وحذره عن ذلك ، وإن كان مأيوسا من فتنتهم إياه لقطع أطماعهم ، وقال : عن بعض ، لأن الذي سألوه هو أمر جزئي ، سألوه أن يقضي لهم فيه على خصومهم فأبى منه. وموضع أن يفتنوك نصب على البدل ، ويكون مفعولا من أجله.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٠٣

﴿فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي فإن تولوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره. ومعنى : أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، أن يعذبهم ببعض آثامهم. وأبهم بعضا هنا ويعني به ـ والله أعلم ـ التولي عن حكم الله وإرادة خلافه ، فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك ، وأراد أنهم ذوو ذنوب جمة كثيرة لا العدد ، وهذا الذنب مع عظمه وهذا الإبهام فيه تعظيم التولي ، وفرط إسرافهم في ارتكابه ، ونظيره قول لبيد :

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أراد نفسه وقصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام ، كأنه قال : نفسا كبيرة أو نفسا أي نفس ، وهذا الوعد بالمصيبة قد أنجزه له تعالى بقصة بني قينقاع وقصة قريظة والنضير وإجلاء عمر رضي الله عنه أهل خيبر وفدك وغيرهم. قال ابن عطية : وخصص إصابتهم ببعض الذنوب ، لأن هذا الوعيد إنما هو في الدنيا وذنوبهم فيها نوعان : نوع يخصهم كشرب الخمر وزناهم ورشاهم ، ونوع يتعدى إلى النبي والمؤمنين كمالأتهم للكفار ، وأقوالهم في الدين ، فهذا النوع هو الذي توعدهم الله به في الدنيا ، وإنما يعذبون بكل الذنوب في الآخرة. وقال ابن عطية أيضا : فإن تولوا قبله محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر تقديره : لا تتبع واحذر ، فإن حكموك مع ذلك واستقاموا فنعما ذلك ، وإن تولوا فاعلم. ويحسن أن يقدر هذا المحذوف المعادل لقوله : لفاسقون انتهى. ولا يحتاج إلى تقدير هذا.

﴿وإن كثيرا من الناس لفاسقون﴾ أي **متمردون** مبالغون في الخروج عن طاعة الله. وقال ابن عباس : المراد بالفسق هنا الكفر. وقال مقاتل : المعاصي. وقال ابن زيد : الكذب وظاهر الناس العموم ، وإن كان السياق في اليهود ، وجاء بلفظ العموم لينبه من سواهم. ويحتمل أن يكون الناس للعهد ، وهم اليهود الذين تقدم ذكرهم.

﴿أفحكم الجاهليۃ يبغون﴾ هذا استفهام معناه الإنكار على اليهود ، حيث هم أهل كتاب وتحليل وتحريم من الله تعالى ، ومع ذلك يعرضون عن حكم الله ويختارون عليه حكم الجاهلية ، وهو بمجرد الهوى من مراعاة الأشرف عندهم ، وترجيح الفاضل عندهم في الدنيا على المفضول ، وفي هذا أشد النعى عليهم حيث تركوا الحكم الإلهي بحكم الهوى والجهل. وقال الحسن : هو عام في كل من يبتغي غير حكم

٥٠٤

الله. والحكم حكمان : حكم بعلم ، فهو حكم الله. وحكم بجهل فهو حكم الشيطان. وسئل عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض فقرأ هذه الآية. وقرأ الجمهور : أفحكم بنصب الميم ، وهو مفعول يبغون. وقرأ السلمي ، وابن وثاب ، وأبو رجاء ، والأعرج : أفحكم الجاهلية برفع الميم على الابتداء. والظاهر أن الخبر هو قوله : يبغون ، وحسن حذف الضمير قليلا في هذه القراءة كون الجملة فاصلة. وقال ابن مجاهد : هذا خطأ. قال ابن جني : وليس كذلك ، وجد غيره أقوى منه وقد جاء في الشعر انتهى.

". (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣/٤٠٤

"ونص عليه بخصوصه وهي الصلاة التي هي صلة بين العبد وربه ، فنبه على أن من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يتخذ وليا ويطرد ، فهذه الآية جاءت كالتوكيد للآية قبلها. وقال بعض العلماء : في هذه الآية دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب ، لا بالمنام وحده انتهى. ولا دليل في ذلك على مشروعيته لأنه قال وإذا ناديتم ، ولم يقل نادوا على سبيل الأمر ، وإنما هذه جملة شرطية دلت على سبق المشروعية لا على إنشائها بالشرط. والظاهر أن الضمير في اتخذوها عائد على الصلاة ، ويحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من ناديتم أي : اتخذوا المناداة والهزء والسخرية واللعب الأخذ في غير طريق.

﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي ذلك الفعل منهم ، ونفي العقل عنهم لما لم ينتفعوا به في الدين ، واتخذوا دين الله هزوا ولعبا ، فعل من لا عقل له.

﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منآ إلا أن ءامنا بالله ومآ أنزل إلينا ومآ أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ قال ابن عباس : أتى نفر من يهود فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يؤمن به من الرسل ؟ فقال : أؤمن بالله : ﴿ومآ أنزل إلينا﴾ إلى قوله : ﴿ونحن له مسلمون﴾ فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى ، ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ، ولا دينا شرا من دينكم ، فنزلت. والمعنى : هل تعيبون علينا ، أو تنكرون ، وتعدون ذنبا ، أو نقيصة ما لا ينكر ولا يعاب ، وهو الإيمان بالكتب المنزلة كلها ؟ وهذه محاورة لطيفة وجيزة تنبه الناقم على أنه ما نقم عليه إلا ما لا ينقم ولا يعد عيبا ونظيره قول الشاعر :

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٠٥

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهمبهن فلول من قراع الكتائب

والخطاب قيل : للرسول ، وهو بمعنى ما النافية. وقرأ الجمهور : تنقمون بكسر القاف ، والماضي نقم بفتحها ، وهي التي ذكرها ثعلب في الفصيح. ونقم بالكسر ، ينقم بالفتح لغة حكاها الكسائي وغيره. وقرأ بها أبو حيوة والنخعي وابن أبي عبلة وأبو البر هشيم ، وفسر تنقمون بتسخطون وتتكرهون وتنكرون وتعيبون وكلها متقاربة. وإلا أن آمنا استثناء فرغ له الفاعل. وقرأ الجمهور : أنزل مبنيا للفاعل ، وذلك في اللفظين ، وقرأهما أبو نهيك : مبنيين للفاعل ، وقرأ نعيم بن ميسرة : وإن أكثركم فاسقون بكسر الهمزة ، وهو واضح المعنى ، أمره تعالى أن يقول لهم هاتين الجملتين ، وتضمنت الأخبار بفسق أكثرهم **وتمردهم**. وقرأ الجمهور : بفتح همزة أن وخرج ذلك على أنها في موضع رفع ، وفي موضع نصب ، وفي موضع جر. فالرفع على الابتداء. وقدر الزمخشري الخبر مؤخرا محذوفا أي : وفسق

٥١٦

أكثركم ثابت معلوم عندكم ، لأنكم علمتم أنا على الحق ، وأنكم على الباطل ، إلا أن حب الرياسة والرشا يمنعكم من الاعتراف. ولا ينبغي أن يقدم الخبر إلا مقدما أي : ومعلوم فسق أكثركم ، لأن الأصح أن لا يبدأ بها متقدمة إلا بعد أما فقط. والنصب من وجوه : أحدها : أن يكون معطوفا على أن آمنا أي : ما تنقمون منا إلا إيماننا وفسق أكثركم ، فيدخل الفسق فيما نقموه ، وهذا قول أكثر المتأولين. ولا يتجه معناه لأنهم لا يعتقدون فسق أكثرهم ، فكيف ينقمونه ، لكنه يحمل على أن المعنى ما تنقمون منا إلا هذا المجموع من إنا مؤمنون وأكثركم فاسقون ، وإن كانوا لا يسلمون إن أكثرهم فاسقون ، كما تقول : ما تنقم مني إلا أني صدقت وأنت كذبت ، وما كرهت مني إلا أني محبب إلى الناس وأنت مبغض ، وإن كان لا يعترف أنه كاذب ولا أنه مبغض ، وكأنه قيل : ما تنقمون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في الإسلام وأنتم خارجون. والوجه الثاني : أن يكون معطوفا على إن آمنا ، إلا أنه على حذف مضاف تقديره : واعتقادنا فيكم أن أكثركم فاسقون ، وهذا معنى واضح. ويكون ذلك داخلا في ما تنقمون حقيقة. الثالث : أن تكون الواو واو مع ، فتكون في موضع نصب مفعولا معه التقدير : وفسق أكثرهم أي : تنقمون ذلك مع فسق أكثركم والمعنى : لا يحسن أن تنقموا مع وجود فسق أكثركم كما تقول : تسيء إلي مع أني أحسنت إليك. الرابع : أن تكون في موضع نصب مفعول بفعل مقدر يدل عليه ، هل تنقمون تقديره : ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون. والجر على أنه معطوف على قوله : بما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وبأن أكثركم فاسقون ، والجر على أنه معطوف على علة محذوفة التقدير : ما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم. ويدل عليه تفسير الحسن بفسقكم نقمتم ذلك علينا. فهذه سبعة وجوه في موضع إو وصلتها ، ويظهر وجه ثامن ولعله يكون الأرجح ، وذلك أن نقم أصلها أن تتعدى بعلى ، تقول : نقمت على الرجل أنقم ، ثم تبنى منها افتعل فتعدى إذ ذاك بمن ، وتضمن معنى الإصابة بالمكروه.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٠٥
." (١)

"﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل ومآ أنزل إليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ هذا استدعاء لإيمانهم ، وتنبيه لهم على اتباع ما في كتبهم ، وترغيب لهم في عاجل الدنيا وبسط الرزق عليهم فيها ، إذ أكثر ما في التوراة من الموعود به على الطاعات هو الإحسان إليهم في الدنيا. ولما رغبهم في الآية قبل في موعود الآخرة من تكفير السيئات وإدخالهم الجنة ، رغبهم في هذه الآية في موعود الدنيا

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٤١٣/٣

ليجمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة ، وكان تقديم موعود الآخرة أهم لأنه هو الدائم الباقي ، والذي به النجاة السرمدية ، والنعيم الذي لا ينقضي. ومعنى إقامة التوراة والإنجيل : هو إظهار ما انطوت عليه من الأحكام والتبشير بالرسول والأمر باتباعه كقولهم : أقاموا السوق أي حركوها وأظهروها ، وذلك تشبيه بالقائم من الناس إذ هي أظهر هيآته. وفي قوله : والإنجيل دليل على دخول النصارى في لفظ أهل الكتاب.
وظاهر قوله : وما أنزل إليهم من ربهم ، العموم في الكتب الإلهية مثل : كتاب أشعياء ، وكتاب حزقيل ، وكتاب دانيال ، فإنها مملوءة من البشارة بمبعث الرسول. وقيل : ما أنزل إليهم من ربهم هو القرآن. وظاهر قوله : لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، أنه استعارة عن سبوغ النعم عليهم ، وتوسعة الرزق عليهم ، كما يقال : قد عمه الرزق من فرقه إلى قدمه ولا فوق ولا تحت حكاه الطبري والزجاج. وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي : لأعطتهم السماء مطرها وبركتها ، والأرض نباتها كما قال تعالى : ﴿لفتحنا عليهم بركات من السمآء والارض﴾ وذكر النقاش من فوقهم من رزق الجنة ، ومن تحت أرجلهم من روق الدنيا إذ هو من نبات الأرض. وقيل : من فوقهم كثرة الأشجار المثمرة ، ومن تحت أرجلهم الزرع المغلة. وقيل : من فوقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل منها من رؤوس الشجر ، ويلتقطون ما تساقط منها على الأرض ، وتحت أرجلهم.
٥٢٧
وقال تاج القراء : من فوقهم ما يأتيهم من كبرائهم وملوكهم ، ومن تحت أرجلهم ما يأتيهم من سفلتهم وعوامهم ، وعبر بالأكل عن الأخذ ، لأنه أجل منافعه وأبلغ ما يحتاج إليه في ديمومة الحياة.
﴿منهم أمة مقتصدة﴾ الضمير في منهم يعود على أهل الكتاب. والأمة هنا يراد بها الجماعة القليلة للمقابلة لها بقوله : وكثير منهم. والاقتصاد من القصد وهو الاعتدال ، وهو افتعل بمعنى اعتمل واكتسب أي : كانت أولا جائزة ثم اقتصدت. قيل : هم مؤمنو الفريقين عبد الله بن سلام وأصحابه ، وثمانية وأربعون من النصارى. واقتصادهم هو الإيمان بالله تعالى. وقال مجاهد : المقتصدة مسلمة أهل الكتاب قديما وحديثا ، ونحوه قول ابن زيد : هم أهل طاعة الله من أهل الكتاب. وذكر الزجاج وغيره : أنها الطوائف التي لم تناصب الأنبياء مناصبة المتمردين المجاهدين. وقال الزمخشري : مقتصدة حالها أمم في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال الطبري : من بني إسرائيل من يقتصد في عيسى فيقول : هو عبد الله ورسوله وروح منه ، والأكثر منهم غلافية فقال بعضهم : هو الإله ، وعلى هذا مشى الروم ومن دخل بآخره في ملة عيسى. وقال بعضهم وهو الأكثر من بني إسرائيل : هو آدمي كغيره لغير رشده ، فتلخص في الاقتصاد أهو في حق عيسى

؟ أو في المناصبة ؟ أو في الإيمان ؟ فإن كان في المناصبة فهل هو بالنسبة إلى الرسول وحده أم بالنسبة إلى الأنبياء ؟ قولان. وإن كان في الإيمان فهل هو في إيمان من آمن بالرسول من الفريقين أو من آمن قديما وحديثا ؟ قولان.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٠٥

﴿وكثير منهم سآء ما يعملون﴾ هذا تنويع في التفصيل. فالجملة الأولى جاءت منهم أمة مقتصدة ، جاء الخبر الجار والمجرور ، والخبر الجملة من قوله : ساء ما يعملون ، وبين التركيبين تفاوت غريب من حيث المعنى. وذلك أن الاقتصاد جعل وصفا ، والوصف ألزم للموصوف من الخبر ، فأتى بالوصف اللازم في الطائفة الممدوحة ، وأخبر عنها بقوله : منهم ، والخبر ليس من شأنه اللزوم ولا سيما هنا ، فأخبر عنهم بأنهم من أهل الكتاب في الأصل ، ثم قد تزول هذه النسبة بالإسلام فيكون التعبير عنهم والإخبار بأنهم منهم ، باعتبار الحالة الماضية. وأما في الجملة الثانية فإنهم منهم حقيقة لأنهم كفار ، فجاء الوصف بالإلزام ، ولم يجعل خبرا ، وجعل خبر الجملة التي هي ساء ما يعملون ، لأن الخبر ليس من شأنه اللزوم ، فهم بصدد أن يسلم ناس منهم فيزول عنهم الإخبار بمضمون هذه الجملة ، واختار الزمخشري في ساء أن تكون التي لا تنصرف ، فإن فيه التعجب كأنه قيل : ما أسوأ عملهم ولم يذكر غير هذا الوجه. واختار ابن عطية أن تكون المتصرفة تقول : ساء الأمر يسوء ، وأجاز أن تكون غير المتصرفة فتستعمل استعمال نعم وبئس كقوله : ساء مثلا. فالمتصرفة تحتاج إلى تقدير مفعول أي ساء ما كانوا يعملون بالمؤمنين ، وغير المتصرفة تحتاج إلى تمييز أي : ساء عملا ما كانوا يعملون.

." (١)

"﴿قل هل يستوى الاعمى والبصير﴾ أي لا يستوي الناظر المفكر في الآيات والمعرض الكافر الذي يهمل النظر. قال ابن عباس : الكافر والمؤمن. وقال ابن جبير : الضال والمهتدي. وقيل : الجاهل والعالم. وقال الزمخشري : مثل للضلال والمهتدين ويجوز أن يكون مثلا لمن اتبع ما يوحى إليه ومن لم يتبع أو لمن ادعى المستقيم ، وهو النبوة والمحال وهو الألوهية والملكية.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١١٦

﴿أفلا تتفكرون﴾ هذا عرض وتحضيض معناه الأمر أي ففكروا ولا تكونوا ضالين أشباه العمي أو فكروا فتعلمون ، أي لا أتبع إلا ما يوحى إلي أو فتعلمون إني لا أدعي ما لا يليق بالبشر.

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٤٢٢/٣

﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ لما أخبر أنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه أمره الله تعالى أن ينذر به فقال : ﴿وأنذر به﴾ أي بما أوحي إليك. وقيل : يعود على الله أي بعذاب الله. وقيل : يعود على الحشر وهو مأمور بإنذار الخلائق كلهم وإنما خص بالإنذار هنا من خاف الحشر لأنه مظنة الإيمان ، وكأنه قيل : الكفرة المعرضون دعهم ورأيهم وأنذر بالقرآن من يرجى إيمانه. وروى أبو صالح عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في الموالي منهم بلال وصهيب وخباب وعمار ومهجع وسلمان وعامر بن بهيرة وسالم مولى أبي حذيفة ، وظاهر قوله : ﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ عموم من خاف الحشر وآمن بالبعث من مسلم ويهودي

١٣٤

ونصراني فلا يتخصص بالمسلمين المقرين بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل فينذرهم بما أوحي إليه لعلهم يتقون ، أي يدخلون في زمرة أهل التقوى ولا بأهل الكتاب ولا بناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا ، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون **المتمردين** منهم و﴿يخافون﴾ باق على حقيقته أي يخافون ما يترتب على الحشر من مؤاخذتهم بذنوبهم ، وأما الحشر فمتحقق. وقال الطبري : ﴿يخافون﴾ هنا يعلمون ومعنى ﴿إلى ربهم﴾ أي إلى جزاء ربهم أي موعوده وقد تعلق بهذه الآية المجسمة بأن الله في حيز ومكان مختص وجهة معينة لأن كلمة إلى الانتهاء الغاية.

﴿ليس لهم من دونها ولى ولا شفيع﴾ ، قال الزمخشري : في موضع الحال من ﴿يحشروا ﴾ بمعنى ﴿يخافون أن يحشروا ﴾ غير منصورين ولا مشفوعا لهم ولا بد من هذه الحال ، لأن كلا محشور فالخوف إنما هو الحشر على هذه الحال. وقال ابن عطية : إن جعلناه داخلا في الخوف كان في موضع الحال أي ﴿يخافون أن يحشروا ﴾ في حال من لا ولي له ولا شفيع فهي مختصة بالمؤمنين المسلمين لأن اليهود والنصارى يزعمون أن لهم شفعاء وأنهم أبناء الله ونحو هذا من الأباطيل وإن جعلناه إخبارا من الله عن صفة الحال يومئذ فهي عامة للمسلمين وأهل الكتاب.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١١٦

﴿لعلهم يتقون﴾ ترجئة لحصول تقواهم إذا حصل الإنذار.

". (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٤/١٠٧

"وقرأ ابن مصرف بفتح القاف وسكون الباء وجواب ﴿لو﴾ ﴿ما كانوا ليؤمنوا ﴾ وقدره الحوفي لما كانوا قال : وحذفت اللام وهي مراده ، ولبس قوله بجيد لأن المنفي بما إذا وقع جوابا للوفا لأكثر في لسان العرب ، أن لا تدخل اللام على ما وقل دخولها على ما ، فلا تقول إن اللام حذفت منه بل إنما أدخلوها على ما تشبيها للمنفى بما بالموجب ، ألا ترى أنه إذا كان النفي بلم لم تدخل اللام على لم فدل على أن أصل المنفي أن لا تدخل عليه اللام و﴿ما كانوا ليؤمنوا ﴾ أبلغ في النفي من لم يؤمنوا لأن فيه نفي التأهل والصلاحية للإيمان ، ولذلك جاءت لام الجحود في الخبر وإلا أن يشاء الله استثناء متصل من محذوف هو علة. وسبب التقدير ﴿ما كانوا ليؤمنوا ﴾ لشيء من الأشياء إلا لمشيئة الله. وقدره بعضهم في كل حال إلا في حال مشيئة الله ومن ذهب إلى أنه استثناء منقطع كالكرماني وأبي البقاء والحوفي. فقوله فيه بعد إذ هو ظاهر الاتصال أو علق إيمانهم بمشيئة الله دليل على ما يذهب إليه أهل السنة من أن إيمان العبد واقع بمشيئة الله ، وحمل ذلك المعتزلة على مشيئة الإلجاء والقهر. ولذلك قال الزمخشري : مشيئة إكراه واضطرار ، والظاهر أن الضمير في ﴿أكثرهم﴾ عائد على ما عادت عليه الضمائر قيل من الكفار أي يجهلون الحق ، أو يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الآيات بعد أن رأوا آية واحدة ، أو يجهلون أن كلا من الإيمان والكفر هو بمشيئة الله وقدره.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٠٤

وقال الزمخشري يجهلون فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات. قال أو لكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.

وقال غيره من المعتزلة يجهلون أنهم يبقون كفارا عند ظهور الآيات التي اقترحوها.

وقال الجبائي ﴿إلا أن يشآء الله﴾ يدل على حدوث مشيئة الله إذ لو كانت قديمة لم يجز أن يعلق عليها الحادث لأنها شرط ويلزم من حصول المشروط حصول الشرط والحسن دل على حدوث الإيمان فوجب كون الشرط حادثا وهو المشيئة.

وأجاب أبو عبد الله الرازي بأن المشيئة وإن كانت قديمة تعلقها بإحداث ذلك المحدث في الحالة إضافة حادثة انتهى. وهذه الآية مؤيسة من إيمان هؤلاء الذين اقترحوا الآيات إلا من شاء الله منهم. ولذلك جاء قوله : ﴿إلا أن يشآء الله﴾ وهم من ختم له بالسعادة فآمن منهم.

﴿وكذالك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾

المعنى مثل ما جعل هؤلاء الكفار المقترحين الآيات وغيرهم أعداء لك جعلنا لم قبلك من الأنبياء أعداء شياطين الإنس والجن أي **متمردي** الصنفين ﴿يوحى ﴾ يلقى في خفية بعضهم إلى بعض ، أي بعض الصنف الجني إلى بعض الصنف الإنسي ، أو يوحى شياطين الجن إلى شياطين الإنس زخرف القول ، أي محسنه ومزينه ، وثمرة هذا الجعل الامتحان فيظهر الصبر على ما منوا به ممن يعاديهم فيعظم

٢٠٦

الثواب والأجر وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأس بمن تقدمه من الأنبياء وأنك لست منفردا بعداوة من عاصرك ، بل هذه سنة من قبلك من الأنبياء. وعدو كما قلنا قبل في معنى أعداء. وقال تعالى : ﴿وهم لكم عدوا بئس للظالمين بدلا﴾ . وقال الشاعر :

إذ أنا لم أنفع صديقي بودهفإن عدوي لن يضرهم بغضي

وأعرب الجوفي والزمخشري وابن عطية وأبو البقاء هنا كإعرابهم ﴿وجعلوا لله شركآء الجن﴾ وجوزوا في شياطين البدلية من عدوا ، كما جوزوا هناك بدلية الجن من شركاء وقد رددناه عليهم. والظاهر أن قوله شياطين الإنس والجن هو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي الإنس والجن الشياطين فيلزم أن يكون من الإنس شياطين ومن الجن شياطين ، والشيطان هو **المتمرد** من الصنفين كما شرحناه. وهذا قول قتادة ومجاهد والحسن ، وكذا فهم أبو ذر م ن قول الرسول له : "هل تعوذت من شياطين الجن والإنس" قلت : يا رسول الله وهل للإنس من شياطين ؟ قال : "نعم وهم شر من شياطين الجن".

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٠٤

وقال مالك بن دينار شيطان الإنس علي أشد من شيطان الجن لأني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن ، وشيطان الإنس بجيئني ويجرني إلى المعاصي عيانا.

". (١)

"وقال عطاء : أما أعداء النبي صلى الله عليه وسلم من شياطين الإنس : فالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأبو جهل بن هشام والعاصي بن عمرو ، وزمعة بن الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد الأسد وعتبة وشيبة ابن ربيعة وعتبة بن أبي معيط والوليد بن عتبة وأبي وأمية ابنا خلف ، ونبيه ومنبه ابن الحجاج ، وعتبة بن عبد العزى ، ومعتب بن عبد العزى. وفي الحديث : "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : "ولا أنا إلا أن الله عافاني وأعانني عليه فأسلم فلا

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٦٥/٤

يأمرني إلا بخير".

وقيل : الإضافة ليست من باب إضافة الصفة للموصوف بل هي من باب غلام زيد أي شياطين الإنس والجن ، أي متمردين مغوين لهم. وعلى هذا فسره عكرمة والضحاك والسدي والكلبي قالوا : ليس من الإنس شياطين والمعنى شياطين الإنس التي مع الإنس ، وشياطين الجن التي مع الجن ، قسم إبليس جنده فريقا إلى الإنس وفريقا إلى الجن ، يتلاقون فيأمر بعض بعضا أن يضل صاحبه بما أضل هو به صاحبه ، ورجحت هذه الإضافة الإضافة المغايرة بين المضاف والمضاف إليه ، ورجحت الإضافة السابقة بأن المقصود التسلي والائتسا بمن سبق من الأنبياء ، إذ كان في أممهم من يعاديهم كما في أمة محمد من كان يعاديه ، وهم شياطين الإنس والظاهر في جعلنا أنه تعالى هو مصيرهم أعداء للأنبياء والعداوة للأنبياء معصية وكفر ، فاقتضى أنه خالق ذلك وتأول المعتزلة هذا الظاهر.

فقال الزمخشري وكما خلينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم ، لم يمنعهم من العداوة انتهى.

وهذا قول الكعبي قال : خلي بينه وبينه.

وقال الجبائي : الجعل هنا الحكم والبيان يقال كفره حكم بكفره وعدله أخبر عن عدالته. ولما بين للرسول كونهم أعداء لهم قال جعلهم أعداء لهم.

وقال أبو بكر الأصم لما أرسله الله إلى العالمين وخصه بالمعجزات حسدوه وصار الجسد مبينا للعداوة القوية ، فلهذا التأويل قال جعلهم له أعداء كما قال الشاعر :

فأنت صيرتهم لي حسدا

وذلك يقتضي صيرورتهم أعداء للأنبياء ، وانتصب غرورا على أنه مفعول له وجوزوا أن يكون مصدرا ليوحي لأنه بمعنى يغر بعضهم بعضا أو مصدرا في موضع الحال أي غارين.

﴿ولو شآء ربك ما فعلوه﴾ أي ما فعلوا العداوة أو الوحي أو الزخرف ، أو القول أو الغرور أوجه ذكروها.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٠٤

﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي اتركهم وما يفترون من تكذيبك ويتضمن الوعيد والتهديد.

قال ابن عباس يريد ما زين لهم إبليس

٢٠٧

وما غرهم به انتهى. وظاهر الأمر الموادعة وهي منسوخة بآيات القتال.

وقال قتادة كل ذر في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال وما بمعنى الذي أو موصوفة أو مصدرية.
﴿ولتصغى إليه أفادة الذين لا يؤمنون بالاخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ أي ولتميل إليه الضمير يعود على ما عاد علىه في فعلوه ، وليرضوه وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام. واللام لام كي وهي معطوفة على قوله غرورا لما كان معناه للغرور ، فهي متعلقة بيوحي ونصب غرور الاجتماع شروط النصب فيه ، وعدى يوحى إلى هذا باللام لفوت شرط صريح المصدرية واختلاف الفاعل لأن فاعل يوحي هو بعضهم وفاعل تصغى هو أفئدة ، وترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة لأنه أولا يكون الخداع فيكون الميل فيكون الرضا فيكون الفعل فكأن كل واحد مسبب عما قبله.
وقال الزمخشري : جوابه محذوف تقديره ، وليكون ذلك جعلنا لكل نبي عدوا على أن اللام لام الصيرورة ، والضمير في ﴿ءاوى إليه﴾ راجع إلى ما يرجع إليه الضمير في فعلوه أي ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين أفئدة الكفار انتهى. وتسمية ما تتعلق به اللام جوابا اصطلاح غريب ، وما قاله هو قول الزجاج ، قال : تقديره ﴿ءاوى إليه﴾ فعلوا ذلك فهي لام صيرورة. وذهب الأخفش إلى أن لام هي لام كي وهي جواب لقسم محذوف تقديره. والله ﴿يفترون * ولتصغى ﴾ موضع ولتصغين فصار جواب القسم من قبيل المفرد فتقول والله ليقوم زيد التقدير أقسم بالله لقيام زيد واستدل على ذلك بقول الشاعر :
إذا قلت قدني قال الله حلفةلتغني عني ذا أنائك أجمعا
وبقوله : ﴿ولتصغى ﴾ والرد عليه مذكور في كتب النحو.
وقرأ النخعي والجراح بن عبد الله من أصغى رباعيا.
وقرأ الحسن بسكون اللام في الثلاثة.
وقيل عنه في ليرضوه وليقترفوا بالكسر في ﴿يفترون * ولتصغى ﴾ .
وقال أبو عمرو الداني قراءة الحسن ، إنما هي ﴿ولتصغى ﴾ بكسر الغين انتهى ، وخمرج سكون اللام في الثلاثة على أنه شذوذ في لام كي وهي لام كي في الثلاثة. وهي معطوفة على غرور أو سكون لام كي في نحو هذا شاذ في السماع قوي في القياس قاله أبو الفتح.
جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٠٤
." (١)

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٤/١٦٦

"﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديدا بما كانوا يمكرون﴾ هذا وعيد شديد وعلق الإصابة بمن أجرم ليعم الأكابر وغيرهم ، والصغار الذل والهوان يقال : منه صغر يصغر وصغر يصغر صغرا وصغارا واسم الفاعل صاغر وصغير وأرض مصغر لم يطل نبتها ، عن ابن السكيت وقابل الأكبرية بالصغار والعذاب الشديد من الأسر والقتل في الدنيا والنار في الآخرة وإصابة ذلك لهم بسبب مكرهم في قوله : ﴿ليمكروا فيها ﴾ وقوله : ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم﴾ وقدم الصغار على العذاب لأنهم **تمردوا** عن اتباع الرسول وتكبروا طلبا للعز والكرامة فقوبلوا أولا بالهوان والذل ، ولما كانت الطاعة ينشأ عنها التعظيم ثم الثواب عليها نشأ عن المعصية الإهانة ثم العقاب عليها ومعنى ﴿عند الله﴾ قال الزجاج : في عرصة قضاء الآخرة. وقال الفراء : في حكم الله كما يقول عند الشافعي أي في حكمه. وقيل : في سابق علمه. وقيل : إن الجزية توضع علىهم لا محالة وأن حكم الله بذلك مثبت عنده بأنه سيكون ذلك فيهم. وقال إسماعيل الضرير : في الكلام تقديم وتأخير أي صغار ﴿وعذاب شديد﴾ عند الله في الآخرة ، وانتصب عند ﴿سيصيب﴾ أو بلفظ ﴿صغار﴾ لأنه مصدر فيعمل أو على أنه صفة لصغار فيتعلق بمحذوف ، وقدره الزجاج ثابت عند الله و﴿مآ﴾ الظاهر أنها مصدرية أي بكونهم ﴿يمكرون﴾ . وقيل : موصولة بمعنى الذي.
جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٠٤
﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلاما ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى﴾ قال مقاتل : نزلت في الرسول صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل ، والهداية هنا مقابلة الضلالة والشرح كناية عن جعله قابلا للإسلام متوسعا لقبول تكاليفه ، ونسبة ذلك إلى صدره مجاز عن ذات الشخص ولذلك قالوا : فلان واسع الصدر إذا كان الشخص محتملا ما يرد عليه من المشاق والتكاليف ، ونسبة إرادة الهدى والضلال إلى الله إسناد حقيقي لأنه تعالى هو الخالق ذلك والموجد له والمريد له وشرح الصدر تسهيل قبول الإيمان عليه وتحسينه وإعداده لقبوله : وضمير فاعل الهدى عائد على الله أي يشرح الله صدره. وقيل : يعود على الهدى المنسبك من ﴿أن يهديه﴾ أي يشرح الهدى صدره. قال ابن عطية : ويتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأعمال ؛ انتهى. وفي الحديث السؤال عن كيفية هذا الشرح وأنه إذا وقع النور في القلب انشرح الصدر وأمارته الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الفوت والضيق والحرج كناية عن ضد الشرح واستعارة لعدم قبول الإيمان والحرج الشديد الضيق ، والضمير في ﴿يجعل﴾ عائد على ﴿الله﴾ ومعنى يجعل يصير لأن الإنسان يخلق أولا على الفطرة وهي كونه مهيأ لما يلقى إليه ولما يجعل فيه فإذا أراد الله إضلاله أضله وجعله لا يقبل الإيمان ويحتمل أن يكون

﴿يجعل﴾ بمعنى يخلق وينتصب ﴿ضيقا حرجا﴾ على الحال أي يخلقه على هذه الهيئة فلا يسمع الإيمان ولا يقبله ولاعتزال أبي علي الفارسي ذهب إلى أن يجعل هنا بمعنى يسمى قال كقوله : ﴿وجعلوا الملئاكة الذين هم عباد الرحمان إناثا ﴾ قال : أي سموهم أو بمعنى يحكم له بالضيق كما تقول : هذا يجعل البصرة مصرا أي يحكم لها بحكمها فرارا من نسبة خلق ذلك إلى الله تعالى ، أو تصييره وجوبا على مذهبه الاعتزالي ونحو منه في خروج اللفظ عن ظاهره. قول الزمخشري ﴿أن يهديه﴾ أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف بشرح صدره للإسلام يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن

٢١٧

إليه نفسه ويحب الدخول فيه ،

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٠٤

". (١)

"﴿سيقول الذين أشركوا لو شآء الله مآ أشركنا ولا ءابآؤنا ولا حرمنا من شىء ﴾ هذا إخبار بمستقبل ، وقد وقع وفيه إخبار بمغيب معجزة للرسول فكان كما أخبر به تعالى وهذا القول منهم ورد حين بطل احتجاجهم وثبت الرد عليهم فعدلوا إلى أمر حق وهو أنه لو أراد الله أن لا يقع من ذلك شيء ، وأوردوا ذلك على سبيل الحوالة على المشيئة والمقادير مغالطة وحيدة عن الحق وإلحادا لا اعتقادا صحيحا وقالوا : ذلك اعتقادا صحيحا حين قارفوا تلك الأشياء استمساكا بأن ما شاء الله هو الكائن كما يقول : الواقع في معصية إذا بين له وجهها : هذا قدر الله لا مهرب ولا مفر من قدر الله أو قالوا ذلك وهو حق على سبيل الاحتجاج على تلك الأشياء ، أي لو لم يرد الله ما نحن عليه لم يقع ولحال بيننا وبينه. وقال الزمخشري : يعنون بكفرهم وتمردهم أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله بمشيئة الله وإرادته ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك كمذهب المجبرة بعينه ؛ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال. وقال الماتريدي : يحتمل أن تكون المشيئة بمعنى الرضا أو بمعنى الأمر والدعاء لأنهم قالوا : إن الله أمرنا بذلك ، ويحتمل أن قالوه استهزاء وسخرية انتهى. ولا تعلق للمعتزلة بذلك مع هذه الاحتمالات. قال ابن عطية : وتعلقت المعتزلة بهذه الآية فقالوا : إن الله قد ذم لهم هذه المقالة وإنما ذمها لأن كفرهم ليس بمشيئة الله بل هو خلق لهم قال : وليس الأمر على ما قالوا ، وإنما ذم الله ظن المشركين إن ما شاء الله لا يقع عليه عقاب وأما أنه ذم قولهم : لولا المشيئة لم تكفر فلا ؛ انتهى. و﴿الذين أشركوا ﴾ مشركو قريش أو مشركو

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٧٤/٤

العرب قولان ، ﴿ولا ءاباۤؤنا﴾ معطوف على الضمير المرفوع وأغني الفصل بلا بين حرف العطف والمعطوف على الفصل بين المتعاطفين بضمير منفصل يلي الضمير المتصل أو بغيره. وعلى هذا مذهب البصريين لا يجيزون ذلك بغير فصل إلا في الشعر ومذهب الكوفيين جواز ذلك وهو عندهم فصيح في الكلام. وجاء في سورة النحل ﴿وقال الذين أشركوا لو شآء الله ما عبدنا من دونها من شىء نحن ولا ءاباۤؤنا ولا حرمنا من دونه﴾ فقال : من دونه مرتين وقال : نحن فأكد الضمير لأن لفظ العبادة يصح أن ينسب إلى إفراد الله بها وهذا ليس بمستنكر ، بل المستنكر عبادة شيء غير الله أو شيء مع الله فناسب هنا ذكر من دونه مع
٢٤٦
العبادة ، وأما لفظ ﴿مآ أشركنا﴾ فالإشراك يدل على إثبات شريك فلا يتركب مع هذا الفعل لفظ من دونه لو كان التركيب في غير القرآن ﴿مآ أشركنا﴾ من دونه لم يصح معناه ، وأما من دونه الثانية فالإشراك يدل على تحريم أشياء وتحليل أشياء ، فلم يحتج إلى لفظ من دونه وأما لفظ العبادة فلا يدل على تحريم شيء كما دل عليه لفظ أشرك فقيد بقوله : من دونه ولما حذف من دونه هنا ناسب أن يحذف نحن ليطرد التركيب في التخفيف.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٣٤

﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ﴾ أي مثل ذلك التكذيب المشار إليه في قوله : ﴿فإن كذبوك﴾ فقد كذبت الأمم السالفة ، فمتعلق التكذيب هو غير قولهم : ﴿فلو شآء لهداكم أجمعين﴾ الآية أي بنحو هذه الشبهة من ظنهم أن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم وحتى ذاقوا بأسنا غاية لامتداد التكذيب إلى وقت العذاب ، لأنه إذا حل العذاب لم يبق تكذيب وجعلت المعتزلة التكذيب راجعا إلى قوله ﴿ولو شآء الله﴾ الجملة التي هي محكية بالقول وقالوا : كذبهم الله في قولهم ويؤيده قراءة بعض الشواذ كذب. وقال الزمخشري : أي جاؤوا بالتكذيب المطلق لأن الله عز وجل ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها والرسل أخبرت بذلك ، فمن علق وجوه القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله وهو تكذيب الله وكتبه ورسله ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره ؛ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال.

﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنآ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ استفهام على معنى التهكم بهم وهو إنكار ، أي ليس عدكم من علم تحتجون به فتظهرونه لنا ما تتبعون في دعاواكم إلا الظن الكاذب الفاسد ، وما أنتم إلا تكذبون أو تقدرون وتحزرون. وقرأ النخعي وابن وثاب : إن يتبعون بالياء.

قال ابن عطية : وهذه قراءة شاذة يضعفها قوله ﴿وإن أنتم﴾ لأنه يكون من باب الالتفات.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٣٤

". (١)

"جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢

﴿وإن نكثوا أيما نهم منا بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أامة الكفرا إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾ أي : وإن نقضوا إقسامهم من بعدما تعاهدوا وتحالفوا على أن لا ينكثوا. وطعنوا : أي عابوه وثلبوه واستنقصوه. والطعن هنا مجاز ، وأصله الإصابة بالرمح أو العود وشبهه ، وهو هنا بمعنى العيب كما جاء في حديث إمارة أسامة : "إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل" أي عبتموها واستنقصتموها. والظاهر أن هذا الترديد في الشرطين هو في حق الكفار أصلا ، لأن من أسلم ثم ارتد فيكون قوله : فقاتلوا أئمة الكفر ، أي رؤساء الكفر وزعماءه. والمعنى : فقاتلوا الكفار ، وخص الأئمة بالذكر لأنهم هم الذين يحرضون الأتباع على البقاء على الكفر. وقال الكرماني : كل كافر إما نفسه ، فالمعنى فقاتلوا كل كافر. وقيل : من أقدم على نكث العهد والطعن في الدين صار رأسا في الكفر ، فهو من أئمة الكفر. وقال ابن عباس : أئمة الكفر زعماء قريش. وقال القرطبي : هو بعيد ، لأن الآية في سورة براءة ، وحين نزلت كان الله قد استأصل شأفة قريش ولم يبق منهم إلا مسلم أو مسالم. وقال قتادة : المراد أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة ، وغيرهم ، وهذا ضعيف إن لم يؤخذ على جهة المثال ، لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير. وروي عن حذيفة أنه قال : لم يجىء هؤلاء بعد ، يريد لم ينقرضوا فهم يجيئون أبدا ويقاتلون. وقال ابن عطية : أصوب ما في هذا أن يقال : إنه لا يعني بها معين ، وإنما دفع الأمر بقتال أئمة الناكثين العهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين ، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون الإشارة إليهم أولا بقوله : أئمة الكفر ، وهم حصلوا حينئذ تحت اللفظة ، إذ الذي يتولى قتال النبي صلى الله عليه وسلم

١٤

والدفع في صدر شريعته هو إمام كل من يكفر بذلك الشرع إلى يوم القيامة ، ثم يأتي في كل جيل من الكفار أئمة خاصة بجيل جيل انتهى. وقيل : المراد بالعهد الإسلام ، فمعناه كفروا بعد إسلامهم. ولذلك قرأ بعضهم : وإن نكثوا إيمانهم بالكسر ، وهو قول الزمخشري ، قال : فقاتلوا أئمة الكفر فقاتلوهم ، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم ، إشعارا بأنهم إذا نكثوا في حالة الشرك **تمردا** وطغيانا وطرحا لعادات الكرام

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٤/٢٠٠

الأوفياء من العرب ، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانا للمسلمين في الدين ، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهد ، وقعدوا يطعنون في دين الله تعالى ويقولون ليس دين محمد بشيء ، فهم أئمة الكفر وذوو الرئاسة والتقدم فيه ، لا يشق كافر غبارهم. والمشهور من مذهب مالك أن الذمي إذا طعن في الدين ففعل شيئا مثل تكذيب الشريعة والسب للنبي صلى الله عليه وسلم ونحوه قتل. وقيل : إن أعلن بشيء مما هو معهود من معتقده وكفره أدب على الإعلان وترك ، وإن كفر بما هو ليس من معتقده كالسب ونحوه قتل. وقال أبو حنيفة : يستتاب ، واختلف إذا سب الذمي ثم أسلم تقية القتل. فالمشهور من مذهب مالك أنه يترك ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، وفي العتبية أنه يقتل ، ولا يكون أحسن حالا من المسلم.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢

." (١)

"﴿قل هل تربصون بنآ إلا إحدى الحسنيينا ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عندها أو بأيدينا فتربصوا ﴾ : أي ما ينتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين ، كل واحدة منهما هي الحسنى من العواقب : إما النصرة ، وإما الشهادة. فالنصرة مآلها إلى الغلبة والاستيلاء ، والشهادة مآلها إلى الجنة. وقال ابن عباس : إن الحسنيين الغنيمة والشهادة. وقيل : الأجر والغنيمة. وقيل : الشهادة والمغفرة. وفي الحديث : "تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله ، وتصديق كلمته أن يدخل الجنة ، أو رجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة ، والعذاب من عند الله" قال ابن عباس : هو هنا الصواعق. وقال ابن جريج : الموت. وقيل : قارعة من السماء تهلكهم كما نزلت على عاد وثمود. قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون توعدا بعذاب الآخرة ، أو بأيدينا بالقتل على الكفر. فتربصوا مواعيد الشيطان إنا معكم متربصون إظهار دينه واستئصال من خالفه ، قاله الحسن. وقال الزمخشري : فتربصوا بنا ما ذكرنا من عواقبنا أنا معكم متربصون ما هو عاقبتكم ، فلا بد أن نلقى كلنا ما نتربصه لا نتجاوزه انتهى. وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد. وقرأ ابن محيصن الأحدي : بإسقاط الهمزة. قال ابن عطية : فوصل ألف إحدى وهذه لغة وليست بالقياس ، وهذا نحو قول الشاعر :

يابا المغيرة رب أمر معضل

ونحو قول الآخر :

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٥/١٠

إن لم أقاتل فالبسني برقعا

انتهى.

﴿قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين﴾ : قرأ الأعمش وابن وثاب : كرها بضم الكاف ، ويعني : في سبيل الله ووجوه البر. قيل : وهو أمر ومعناه التهديد والتوبيخ. وقال الزمخشري : هو أمر في معنى الخبر كقوله تعالى : ﴿قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمان مدا ﴾ ومعناه لن يتقبل منكم أنفقتم طوعا أو كرها. ونحوه قوله تعالى : ﴿استغفر لهم أو لا تسِتغفر لهم﴾ وقوله : أسيىء بنا أو أحسنى لا ملومة. أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أو لا تستغفر لهم ، ولا نلومك أسأت إلينا أم أحسنت انتهى. وعن بعضهم غير هذا بأن معناه الجزاء والشرط أي : إن تتفقوا طوعا أو كرها لم يتقبل منك ، وذكر الآية وبيت كثير على هذا المعنى. قال ابن عطية : أنفقوا أمر في ضمنه جزاء ، وهذا مستمر في كل أمر معه جزاء ، والتقدير : إن تنفقوا لن نتقبل منكم. وأما إذا عرى الأمر من الجواب فليس يصحبه تضمن الشرط انتهى. ويقدح في هذا التخريج أن الأمر إذا كان فيه معنى

٥٢

الشرط كان الجواب كجواب الشرط ، فعلى هذا يقتضي أن يكون التركيب فلن يتقبل بالفاء ، لأن لن لا تقع جوابا للشرط إلا بالفاء ، فكذلك ما ضمن معناه. ألا ترى جزمه الجواب في مثل اقصد زيدا يحسن إليك ، وانتصب طوعا أو كرها على الحال ، والطوع أن يكون من غير إلزام الله ورسوله ، والكره إلزام ذلك. وسمى الإلزام كراها لأنهم منافقون ، فصار الإلزام شاقا عليهم كالإكراه. أو يكون من غير إلزام من رؤسائكم ، أو إلزام منهم لأنهم كانوا يحملونهم على الإنفاق لما يرون فيه من المصلحة.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٣٤

والجمهور على أن هذه نزلت بسبب الجد بن قيس حين استأذن في القعود وقال : هذا مالي أعينك به. وقال ابن عباس : فيكون من إطلاق الجمع على الواحد أوله ولمن فعل فعله. فقد نقل البيهقي وغيره من الأئمة أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلا ، استثنى منهم الثلاثة الذين خلفوا وأهلك الباقون ، ونفى التقبل إما كون الرسول لم يقبله منهم ورده ، وإما كون الله لا يثيب عليه ، وعلل انتفاء التقبل بالفسق. قال الزمخشري : وهو **التمرد** والعتو ، والأولى أن يحمل على الكفر. قال أبو عبد الله الرازي : هذه إشارة إلى أن عدم القبول معلل بكونهم فاسقين ، فدل على أن الفسق يؤثر في إزالة هذا المعنى. وأكد الجبائي ذلك بدليله المشهور في هذه المسألة ، وهو أن الفسق يوجب الذم والعقاب الدائمين ، والطاعة توجب المدح والثواب

الدائمين ، والجمع بينهما محال. فكان الجمع بين استحقاقهما محالا ، وقد أزال الله هذه الشبهة بقوله : ﴿وما منعهم﴾ الآية وأن تصريح هذا اللفظ لا يؤثر في القول إلا الكفر. ودل ذلك على أن مطلق الفسق لا يحبط الطاعات ، فنفى تعالى أن عدم القبول ليس معللا بعموم كونه فسقا ، بل بخصوص وصفه وهو كون ذلك الفسق كفرا ، فثبت أن استدلال الجبائي باطل انتهى. وفيه بعض تلخيص.

﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسولها ولا يأتون الصلواة إلا وهم كسالى ولا ينفقون﴾ .

." (١)

"وقرأ باقي السبعة : إن تعف تعذب طائفة ، مبنيا للمفعول. وقرأ الجحدري : أن يعف بعذب مبنيا للفاعل فيهما ، أي : أن يعف الله. وقرأ مجاهد : أن تعف بالتاء مبنيا للمفعول ، تعذب مبنيا للمفعول بالتاء أيضا. قال ابن عطية : على تقدير إن تعف هذه الذنوب. وقال الزمخشري : الوجه التذكير لأن المسند إليه الظرف كما تقول : سير بالدابة ، ولا تقول سيرت بالدابة ، ولكنه ذهب إلى المعنى كأنه قيل : إن ترحم طائفة فأنث لذلك ، وهو غريب. والجيد قراءة العامة إن تعف عن طائفة بالتذكير ، وتعذب طائفة بالتأنيث انتهى. مجرمين : مصرين على النفاق غير تائبين.

٦٧

﴿المنافقون والمنافقات بعضهم منا بعضا يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ : بين تعالى أن ذكورهم وأناثهم ليسوا من المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ بل بعضهم من بعض في الحكم والمنزلة والنفاق ، فهم على دين واحد. وليس المعنى على التبعيض حقيقة لأن ذلك معلوم ووصفهم بخلاف ما عليه المؤمنون من أنهم يأمرون بالمنكر وهو الكفر وعبادة غير الله والمعاصي ، وينهون عن المعروف ، لأن الذين نزلت فيهم لم يكونوا أهل قدرة ولا أفعال ظاهرة ، وذلك بظهور الإسلام وعزته. وقبض الأيدي عبارة عن عدم الإنفاق في سبيل الله قاله الحسن. وقال قتادة : عن كل خير. وقال ابن زيد : عن الجهاد وحمل السلاح في قتال أعداء الدين. وقال سفيان : عن الرفع في الدعاء. وقيل ذلك كناية عن الشح في النفقات في المبار والواجبات ، والنسيان هنا الترك. قال قتادة : تركوا طاعة الله وطاعة رسوله فنسيهم ، أي : تركهم من الخير ، أما من الشر فلم ينسهم. وقال الزمخشري : أغفلوا ذكره فنسيهم تركهم من رحمته وفضله ، ويغبر بالنسيان

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٤١/٥

عن الترك مبالغة في أنه لا يخطر ذلك ببال. هم الفاسقون أي : هم الكاملون في الفسق الذي هو **التمرد** في الكفر والانسلاخ من كل خير ، وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسب هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٦١

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ : الكفار هنا المعلنون بالكفر ، وخالدين فيها حال مقدرة ، لأن الخلود لم يقارن الوعد. وحسبهم كافيهم ، وذلك مبالغة في عذابهم ، إذ عذابهم شيء لا يزاد عليه ، ولعنهم أهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة المقربين. مقيم : مؤبد لا نقلة فيه. وقال الزمخشري : ويجوز أن يريد ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه ، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق. والظاهر المخالف للباطن خوفا من المسلمين ، وما يحذرونه أبدا من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم﴾ :

٦٨

هذا التفات من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب. قال الفراء : التشبيه من جهة الفعل أي : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فتكون الكاف في موضع نصب. وقال الزجاج : المعنى وعد كما وعد الذين من قبلكم ، فهو متعلق بوعد. وقال ابن عطية : وفي هذا قلق. وقال أبو البقاء : ويجوز أن تكون متعلقة بيستهزؤون ، وهذا فيه بعد. وقيل : في موضع رفع التقدير أنتم كالذين. والتشبيه وقع في الاستمتاع والخوض. وقوله : كانوا أشد ، تفسير لشبههم بهم ، وتمثيل لفعلهم بفعلهم. والخلاق : النصيب أي : ما قدر لهم.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٦١

". [١]

"أي بكفي رجل. وكذلك أنا ابن جلا تقديره : أنا ابن رجل جلا أي كشف الأمور. وبينها وعلى الوجه الأول يكون مردوا شاملا للنوعين ، وعلى الوجه الثاني يكون مختصا بأهل المدينة. وتقدم شرح مردوا في قوله : ﴿شيطانا مريدا * لعنه الله ﴾ وقال هنا ابن عباس : مردوا ، مرنوا وثبتوا ، وقال أبو عبيدة : عتوا

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٥/٥٤

من قولهم **تمرد**. وقال ابن زيد : أقاموا عليه لم يتوبوا لا تعلمهم أي : حتى نعلمك بهم ، أو لا تعلم عواقب أمرهم ، حكاه ابن الجوزي. أو لا تعلمهم منافقين ، لأن النفاق مختص بالقلب. وتقدم لفظ منافقين فدل على المحذوف ، فتعدت إلى اثنين قاله : الكرماني. وقال الزمخشري : يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط توقيهم ما يشكك في أمرهم. وأسند الطبري عن قتادة في قوله : لا تعلمهم نحن نعلمهم قال : فما بال أقوام يتكلفون علم الناس ؟ فلان في الجنة ، فلان في النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري أنت لعمري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الرسل. قال نبي الله نوح : ﴿وما علمى بما كانوا يعملون﴾ وقال نبي الله شعيب : ﴿بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنينا ومآ أنا عليكم بحفيظ﴾ وقال الله تعالى لنبيه : ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ انتهى. فلو عاش قتادة إلى هذا العصر الذي هو قرن ثمانمائة وسمع ما أحدث هؤلاء المنسوبون إلى الصوف من الدعاوى والكلام المبهرج الذي لا يرجع إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتجري على الإخبار الكاذب عن المغيبات ، لقضى من ذلك العجب. وما كنت أظن أن مثل ما حكى قتادة يقع في ذلك الزمان لقربه من الصحابة وكثرة الخير ، لكن شياطين الإنس يبعد أن يخلو منهم زمان. نحن نعلمهم. قال الزمخشري : نطلع على سرهم ، لأنهم يبطنون الكفر في سويداء قلوبهم إبطانا ، ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين ، لا تشك معه في إيمانهم ، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروبه ، ولهم فيه اليد الطولى انتهى. وفي قوله : نحن نعلمهم تهديد وترتب عليه بقوله : سنعذبهم مرتين. والظاهر إرادة التثنية

٩٣

ويحتمل أن يكون لا يراد بها شفع الواحد ، بل يكون المعنى على التكثير كقوله : ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٨٦

أي كرة بعد كرة. كذلك يكون معنى هذا سنعذبهم مرة بعد مرة. وإذا كانت التثنية مرادة فأكثر الناس على أن العذاب الثاني هو عذاب القبر ، وأما المرة الأولى فقال ابن عباس في الأشهر عنه : هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق. وروي في هذا التأويل أنه عليه السلام خطب يوم جمعة بدر فندر بالمنافقين وصرح وقال : "اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق ، واخرج أنت يا فلان ، واخرج أنت يا فلان" حتى أخرج جماعة منهم ، فرآهم عمر يخرجون من المسجد وهو مقبل إلى الجمعة فظن أن الناس انتشروا ، وأن الجمعة فاتته ، فاختفى منهم حياء ، ثم وصل المسجد فرأى أن الصلاة لم تقض وفهم الأمر. قال ابن عطية : وفعله صلى الله عليه وسلم على جهة التأديب اجتهاد منه فيهم ، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام ، وإنما هو كما

يخرج العصاة والمتهمون ، ولا عذاب أعظم من هذا. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يتكلم فيهم على الإجمال دون تعيين ، فهذا أيضا من العذاب انتهى. ويبعد ما قال ابن عطية لأنه نص على نفاق من أخرج بعينه ، فليس من باب إخراج العصاة. بل هؤلاء كفار عنده وإن أظهروا الإسلام. وقال قتادة وغيره : العذاب الأول علل وأدواء أخبر الله نبيه أنه سيصيبهم بها ، وروي أنه أسر إلى حذيفة باثني عشر منهم وقال : "ستة منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم تأخذ في كتف أحدهم حتى تفضي إلى صدره ، وستة يموتون موتا" وقال مجاهد : هو عذابهم بالقتل والجوع. قيل : وهذا بعيد ، لأن منهم من لم يصبه هذا. وقال ابن عباس أيضا : هو هو أنهم بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه. وقال ابن إسحاق : هو همهم بظهور الإسلام وعلو كلمته. وقيل : ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم. وقال الحسن : الأول ما يؤخذ من أموالهم قهرا ، والثاني الجهاد الذي يؤمرون به قسرا لأنهم يرون ذلك عذابا. وقال ابن زيد : مرتين هما عذاب الدنيا بالأموال والأولاد كل صنف عذاب فهو مرتان ، وقرأ ﴿فلا تعجبك﴾ . وقيل : إحراق مسجد الضرار ، والآخر إحراقهم بنار جهنم. ولا خلاف أن قوله : إن عذاب عظيم هو عذاب الآخرة وفي مصحف أنس سيعذبهم بالياء ، وسكن عياش عن أبي عمر والياء.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٨٦." (١)

"﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾ : لما ذكر تعالى الدلالة على فساد عبادة الأصنام ، ذكر الحامل على ذلك وهو الاختلاف الحادث بين الناس ، والظاهر عموم الناس. ويتصور في آدم وبينه إلى أن وقع الاختلاف بعد قتل أحد ابنيه الآخر ، وقاله : أبي بن كعب. وقال الضحاك : المراد أصحاب سفينة نوح ، اتفقوا على الحنيفية ودين الإسلام. وعن ابن عباس : من كان من ولد آدم إلى زمان إبراهيم ورد بأنه عبد في زمان نوح عليه السلام الأصنام كود ، وسواغ. وحكى ابن القشيري أن الناس قوم إبراهيم إلى أن غير الدين عمرو بن لحي. وقال ابن زيد : هم الذين أخذ عليهم الميثاق يوم : ﴿ألست بربكم﴾ لم يكونوا أمة واحدة غير ذلك اليوم. وقال الأصم : هم الأطفال المولودون كانوا على الفطرة فاختلفوا بعد البلوغ ، وأبعد من ذهب إلى أن المراد بالناس هنا آدم وحده ، و ه و مروي عن : مجاهد ، والسدي ، وعبر عنه بالأمة لأنه جامع لأنواع الخير. وهذه الأقوال هي

١٣٤

على أن المراد بأمة واحدة في الإسلام والإيمان. وقيل : في الشرك. وأريد قوم إبراهيم كانوا مجتمعين على

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٧٦/٥

الكفر ، فآمن بعضهم ، واستمر بعضهم على الكفر. أو من كان قبل البعث من العرب وأهل الكتاب كانوا على الكفر والتبديل والتحريف ، حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فآمن بعضهم ، أو العرب خاصة ، أقوال ثالثها للزجاج. والظاهر أن المراد بقوله : أمة واحدة في الإسلام ، لأن هذا الكلام جاء عقيب إبطال عبادة الأصنام ، فلا يناسب أن يقوي عباد الأصنام. فإن الناس كانوا على ملة الكفر ، إنما المناسب أن يقال : إنهم كانوا على الإسلام حتى تحصل النفرة من اتباع غير ما كان الناس عليه. وأيضا فقوله : ولولا كلمة ، هو وعيد ، فصرفه إلى أقرب مذكور وهو الاختلاف ، هو الوجه والاختلاف بسبب الكفر ، هو المقتضي للوعيد ، لا الاختلاف الذي هو بسبب الإيمان ، إذ لا يصلح أن يكون سببا للوعيد ، وقد تقدم الكلام على نحو هذا في البقرة في قوله : ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ ولكن أعدنا الكلام فيه لبعده.

والكلمة هنا هو القضاء ، والتقدير : لبني آدم بالآجال المؤقتة. قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد الكلمة في أمر القيامة ، وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ. وقال الزمخشري : هو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة يقضي بينهم عاجلا فيما اختلفوا فيه ، وتمييز المحق من المبطل. وسبقت كلمة الله بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف ، وتلك دار ثواب وعقاب. وقال الكلبي : الكلمة أن الله أخبر هذه الأمة لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولا هذا التأخير لقضى بينهم بنزول العذاب ، أو بإقامة الساعة. وقيل : الكلمة السابقة أن لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو إرسال الرسل. وقيل : الكلمة قوله : ﴿سبقت﴾ ولولا ذلك ما أخر العصاة إلى التوبة.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٢٠

﴿ويقولون لولا أنزل عليه ءاية من ربها فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين﴾ : هذا من اقتراحهم. قال الزمخشري : وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم تنزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات ، دقيقة المسلك من بين المعجزات. وجعلوا نزولها كلا نزول ، فكأنه لم ينزل عليه قط حتى قالوا : لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه ، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في **التمرد** وإنهماكهم في الغي فقل : إنما الغيب لله أي : هو المختص بعلم الغيب المستأثر به ، لا علم لي ولا لا حد به. يعني : أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو سبحانه ، فانتظروا نزول ما اقترحتموه إني معكم من المنتظرين بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحدكم الآيات. وقال ابن عطية : آية من ربه ، آية تضطر الناس إلى الإيمان ، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط ، ولا من المعجزات اضطرارية ، وإنما هي معرضة النظر ليهتدي

قوم ويضل آخرون ، فقل : إنما الغيب لله إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ، لا يطلع على غيبه في ذلك أحد. وقوله : فانتظروا ، ووعيد وقد صدقه الله تعالى بنصرته محمدا صلى الله عليه وسلم. وقيل : الآية التي اقترحوا أن ينزل ما تضمنه قوله تعالى : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا﴾ وقيل : آية كآية موسى وعيسى كالعصا واليد البيضاء ، وإحياء الموتى ، طلبوا ذلك على سبيل التعنت.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٢٠

﴿وإذآ أذقنا الناس رحمة منا بعد ضرآء مستهم إذا لهم مكر فى ءاياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا﴾ :

١٣٥

." (١)

"﴿فذالكم الله ربكم الحقا فماذا بعد الحق إلا الضلالا فأنى تصرفون *كذالك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ : فذلك إشارة إلى من اختص بالأوصاف السابقة ، الحق الثابت الربوبية المستوجبة للعبادة ، واعتقاد اختصاصه بالألوهية أصنامكم المربوطة الباطلة. وماذا استفهام معناه النفي ، ولذلك دخلت إلا ، وصحبه التقرير والتوبيخ ، كأنه قيل : ما بعد الحق إلا الضلال ، فالحق والضلال لا واسطة بينهما ، إذ هما نقيضان ، فمن يخطىء الحق وقع في الضلال. وماذا مبتدأ تركبت ذا مع ما فصار مجموعهما استفهاما ، كأنه قيل : أي شيء. والخبر بعد الحق ، ويجوز أن يكون ذا موصولة ويكون خبر ما ، كأنه قيل : الذي بعد الحق ؟ وبعد صلة كذا. ولما ذكر تعالى تلك الصفات ، وأشار إلى أن المتصف بها هو الله ، وأنه مالكهم وأنه هو الحق ، ثم وبخهم على اتباع الضلال بعد وضوح الحق قال تعالى : فأنى تصرفون ، أي كيف يقع صرفكم بعد وضوح الحق وقيام حججه عن عبادة من يستحق العبادة ، وكيف تشركون معه غيره وهو لا يشاركه في شيء من تلك الأوصاف. واستنباط كون الشطرنج ضلالا من قوله : فماذا بعد الحق إلا الضلال ، لا يكاد يظهر ، لأن الآية إنما مساقها في الكفر والإيمان وعبادة الأصنام وعبادة الله ، وليس مساقها في الأمور الفرعية التي تختلف فيها الشرائع ، وتختلف فيها أقوال علماء ملتنا. وقد تعلق الجبائي بهذه الآية في الرد على المجبرة إذ يقولون : إنه تعالى يصرف الكفار عن الإيمان. قال : لو كان كذلك ما قال : أنى تصرفون. كما لو أعمى بصر أحدهم لا يقول : إني عميت. كذلك الكاف للتشبيه في موضع نصب ، والإشارة بذلك قيل : إلى المصدر المفهوم من تصرفون ، مثل صرفهم عن الحق بعد الإقرار به في قوله : فسيقولون الله حق العذاب عليهم أي : جازاهم مثل أفعالهم. وقيل : إشارة إلى

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١١١/٥

الحق. قال الزمخشري : كذلك مثل ذلك الحق حقت كلمة ربك ، أي كما حق وثبت أن الحق بعد الضلال ، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق ، فكذلك حقت كلمة ربك. وقال ابن عطية : كذلك أي كما كانت صفات الله كما وصف ، وعبادته واجبة كما تقرر ، وانصراف هؤلاء كما قدر عليهم ، واكتسبوا كذلك حقت. ومعنى فسقوا : **تمردوا** في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ، وأنهم لا يؤمنون بدل من كلمة

١٥٤

ربك أي : حق عليهم انتفاء الإيمان. ويجوز أن يراد بالكلمة عدة العذاب ، ويكون أنهم لا يؤمنون تعليلا أي : لأنهم لا يؤمنون. ويوضح هذا الوجه قراءة ابن أبي عبلة : أنهم لا يؤمنون بالكسر ، وهذا إخبار منه تعالى أن في الكفار من حتم الله بكفره وقضى بتخليده. وقرأ أبو جعفر وشيبة والصاحبان : كلمات على الجمع هنا وفي آخر السورة. وقرأ باقي السبعة على الافراد.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٤٥

﴿قل هل من شركآاكم من يبدؤا الخلق ثم يعيدها قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيدها فأنى تؤفكون﴾ : لما استفهمهم عن أشياء من صفات الله تعالى واعترفوا بها ، ثم أنكر عليهم صرفهم عن الحق وعبادة الله ، استفهم عن شيء هو سبب العبادة : وهو إبداء الخلق ، وهم يسلمون ذلك. ﴿ولان سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله﴾ ثم أعاد الخلق وهم منكرون ذلك ، لكنه عطفه على يسلمونه ليعلم أيهما سواء بالنسبة إلى قدرة الله ، وأن ذلك لوضوحه وقيام برهانه ، قرن بما يسلمونه إذ لا يدفعه إلا مكابر ، إذ هو من الواضحات التي لا يختلف في إمكانها العقلاء. وجاء الشرع بوجوبه ، فوجب اعتقاده. ولما كانوا لمكابرتهم لا يقرون بذلك أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيب فقال : قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، وأبرز الجواب في جملة مبتدأة مصرح بخبرها ، فعاد الخبر فيها مطابقا لخبر اسم الاستفهام ، وذلك تأكيد وتثبيت. ولما كان الاستفهام قبل هذا لا مندوحة لهم عن الاعتراف به ، جاءت الجملة محذوفا منها أحد جزءيها في قوله : فسيقولون الله ، ولم يحتج إلى التأكيد بتصريح خبرها. ومعنى تؤفكون تصرفون وتقلبون عن اتباع الحق.

". (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٥/١٢٤

"بل قدرته تعالى على التصرف في هذا العالم ، ونقله أهله من عز إلى ذل ، ومن ذل إلى عز ، وبفناء الدنيا ، فيعتبر بذلك. وأن ذلك القصص بوحي من الله ، إذ أعلم بذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف مع كونه لم يتعلم ولم يتتلمذ. الثاني : كلما سمعوا خروف التهجي ولم يفهموا منها شيئا ساء ظنهم ، وقد أجاب الله بقوله : ﴿بينة﴾ الآية. الثالث : ظهور القرآن شيئا فشيئا ، فساء ظنهم وقالوا : ﴿لولا نزل عليه القرءان جملة واحدة﴾ وقد أجاب تعالى وشرح في مكانه. الرابع : القرآن مملوء من الحشر ، وكانوا ألفوا المحسوسات ، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ، فبين الله صحة المعاد بالدلائل الكثيرة. الخامس : أنه مملوء من الأمر بالعبادات ، وكانوا يقولون : إله العالم غني عن طاعتنا ، وهو أجل أن يأمرنا بما لا فائدة له فيه. وأجاب تعالى بقوله : ﴿إن أحسنتم أحسنتم﴾ الآية وبالجملة فشبه ال‍كفار كثيرة ، فلما رأوا القرآن مشتملا على أمور ما عرفوا حقيقتها ولا اطلعوا على وجه الحكمة فيها كذبوا بالقرآن فقوله : بما لم يحيطوا بعلمه ، إشارة إلى عدم علمهم هذه الأشياء وقوله : ولما يأتهم تأويله ، إشارة إلى عدم جهدهم واجتهادهم في طلب أسرار ما تضمنه القرآن انتهى ملخصا.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٤٥

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى التوقع في قوله تعالى : ولم ايأتهم تأويله ؟ (قلت) : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ، ومعرفة التأويل تقليدا للآباء ، وكذبوه بعد التدبر **تمردا** وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به ، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي ورازوا قواهم في المعارضة ، واستيقنوا عجزهم عن مثله ، فكذبوا به بغيا وحسدا انتهى. ويحتاج كلامه هذا إلى نظر. وقال أيضا : ويجوز أن يكون المعنى : ولما يأتهم تأويله ، ولما يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته ، حتى يتبين لهم أكذب هو أم صدق ؟ يعني : أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب. فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه انتهى. وبقيت جملة الإحاطة بلم ، وجملة إتيان التأويل بلما ، ويحتاج في ذلك إلى فرق دقيق. والكاف في موضع نصب أي : مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم ، يعني : قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ، ولكن قلدوا الآباء عاندوا. قال ابن عطية : قال الزجاج : كيف ، في موضع نصب على خبر كان ، لا يجوز أن يعمل فيه انظر ، لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه ، هذا قانون النحويين لأنهم عاملوا كيف في كل مكان معاملة الاستفهام المحض. في قولك : كيف زيد ؟ ولكيف تصرفات غير

هذا تحل محل المصدر الذي هو كيفية ، وينخلع معنى الاستفهام ، ويحتمل هذا الموضع أن يكون منها ومن تصرفاتها قولهم : كن كيف شئت ، وانظر قول البخاري : كيف كان بدء الوحي ، فإنه لم
١٥٩
يستقيم انتهى. وقول الزجاج : لا يجوز أن يعمل فيه انظر ، وتعليله : يريد لا يجوز أن تعمل فيه انظر لفظا ، لكن الجملة في موضع نصب لا نظر معلقة ، وهي من نظر القلب. وقولابن عطية : هذا قانون النحويين إلى آخر تعليله ، ليس كما ذكر ، بل لكيف كعنيان : أحدهما : الاستفهام المحض ، وهو سؤال عن الهيئة ، إلا أن تعلق عنها العامل فمعناها معنى الأسماء التي يستفهم بها إذا علق عنها العامل. والثاني : الشرط. لقول العرب : كيف تكون أكون وقوله : ولكيف تصرفات إلى آخره ، ليس كيف تحل محل المصدر ، ولا لفظ كيفية هو مصدر ، إنما ذلك نسبة إلى كيف. وقوله : ويحتمل أن يكون هذا الموضع منها ومن تصرفاتها قولهم : كن كيف شئت ، لا يحتمل أن يكون منها ، لأنه لم يثبت لها المعنى الذي ذكر من كون كيف بمعنى كيفية وادعاء مصدر كيفية. وأما كن كيف شئت ، فكيف ليست بمعنى كيفية ، وإنما هي شرطية وهو المعنى الثاني الذي لها. وجوابها محذوف التقدير : كيف شئت فكن ، كما تقول : قم متى شئت ، فمتى اسم شرط ظرف لا يعمل فيه قم ، والجواب محذوف تقديره : متى شئت فقم ، وحذف الجواب لدلالة ما قبله عليه كقولهم : إضرب زيدا إن أساء إليك ، التقدير : إن أساء إليك فاضربه ، وحذف فاضربه لدلالة اضرب المتقدم عليه. وأما قول البخاري : كيف كان بدء الوحي ؟ فهو استفهام محض ، إما على سبيل الحكاية كأن قائلا سأله فقال : كيف كان بدء الوحي ؟ فأجاب بالحديث الذي فيه كيفية ذلك. والظالمين : الظاهر أنه أريد به الذين من قبلهم ، ويحتمل أن يراد به من عاد عليه ضمير بل كذبوا.
جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٤٥
." (١)

"فاعمد لما تعلو فما لك بالذيلا تستطيع من الأمور يدان أي لما تقهر أقوال متقاربة ، وإسرافه كونه كثير القتل والتعذيب. وقيل : كونه من أخس العبيد فادعى الإلهية ، وهذا الإخبار مبين سبب خوف أولئك المؤمنين منه.

وفي الآية مسلاة للرسول صلى الله عليه وسلم بقلة من آمن لموسى ومن استجاب له مع ظهور ذلك المعجز الباهر ، ولم يؤمن له إلا ذرية من قومه ، وخطاب موسى عليه السلام لمن آمن بقوله : يا قوم ، دليل على

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ١٢٨/٥

أن المؤمنين الذرية كانوا من قومه ، وخاطبهم بذلك حين اشتد خوفهم مما توعدهم به فرعون من قتل الآباء وذبح الذرية. وقيل : قال لهم ذلك حين قالوا إنا لمدركون. وقيل : حين قالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قيل : والأول هو الصواب ، لأن جواب كل من القولين مذكور بعده وهو : ﴿كلا إن معى ربى سيهدين﴾ وقوله : ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ الآية وعلق توكلهم على شرطين : متقدم ، ومتأخر. ومتى كان الشرطان لا يترتبان في الوجود فالشرط الثاني شرط في الأول ، فمن حيث هو شرط فيه يجب أن يكون متقدما عليه. فالإسلام هو الانقياد للتكاليف الصادرة من الله ، وإظهار الخضوع وترك **التمرد** ، والإيمان عرفان القلب بالله تعالى ووحدانيته وسائر صفاته ، وأن ما سواه محدث تحت قهره وتدبيره. وإذا حصل هذان الشرطان فو العبد جميع أموره إلى الله تعالى ، واعتمد عليه في كل الأحوال. وأدخل أن على فعلي الشرط وإن كانت في الأغلب إنما تدخل على غير المحقق مع علمه بإيمانهم على وجه إقامة الحجة وتنبيه الأنفس وإثارة الأنفة ، كما تقول : إن كنت رجلا فقاتل ، تخاطب بذلك رجلا تريد إقامة البينة. وطول ابن عطية هنا في مسألة التوكل بما يوقف عليه في كتابه ، وأجابوا موسى عليه السلام بما أمرهم به من التوكل على الله لأنهم كانوا مخلصين في إيمانهم وإسلامهم ، ثم سألوا الله تعالى شيئين : أحدهما : أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين. قال الزمخشري : أي موضع فتنة لهم ، أي عذاب تعذبوننا أو تفتنوننا عن ديننا ، أو فتنة لهم يفتنون بها ويقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصيبوا. وقال مجاهد وأبو مجلز وأبو الضحى وغيرهم : معنى القول الآخر قال : المعنى لا ينزل بنا ملأنا بأيديهم أو بغير ذلك مدة محاربتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أن هلاكنا إنما هو بقصد منك لسوء ديننا وصلاح دينهم وأنهم أهل الحق. وقالت فرقة : المعنى لا نفتنهم ونبتليهم بقتلنا وإذايتنا فنعذبهم على ذلك في الآخرة. قال ابن عطية : وفي هذا التأويل قلق. وقال ابن الكلبي : لا تجعلنا فتنة بتقتير الرزق علينا وبسطه لهم. والآخر : ينجيهم من الكافرين أي : من تسخيرهم واستعبادهم. والذي يظهر أنهم سألوا الله تعالى أن لا يفتنوا عن دينهم ، وأن يخلصوا من الكفار ، فقدموا ما كان عندهم أهم وهو سلامة دينهم لهم ، وأخروا سلامة أنفسهم ، إذ الاهتمام بمصالح الدين آكد من الاهتمام بمصالح الأبدان.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٧٨

﴿وأوحينآ إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلواةا وبشر المؤمنين﴾ : لم يصرح باسم أخيه لأنه قد تقدم أولا في قوله : ﴿ثم بعثنا منا بعدهم موسى وهارون﴾ وتبوآ اتخذا مباءة أي مرجعا للعبادة والصلاة كما تقول : توطن اتخذ موطنا ، والظاهر اتخاذ البيوت بمصر. قال

الضحاك : وهي مصر المحروسة ، ومصر من البحر إلى أسوان ، والاسكندرية من أرض مصر. وقال مجاهد : هي
١٨٥
الاسكندرية ، وكان فرعون قد استولى على بني إسرائيل خرب مساجدهم ومواضع عباداتهم ، ومنعهم من الصلوات ، وكلفهم الأعمال الشاقة. وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ، فيردوهم ويفتنوهم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام. وقرأ حفص في رواية هبيرة : تبويا بالياء ، وهذا تسهيل غير قياسي ، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزة والألف ، والظاهر أن المأمور بأن يجعل قبلة هي المأمور بتبوئها. ومعنى قبلة مساجد : أمروا بأن يتخذوا بيوتهم مساجد قاله : النخعي ، وابن زيد ، وروي عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضا : واجعلوا بيوتكم قبل القبلة ، وعنه أيضا : قبل مكة. وقال مجاهد وقتادة ومقاتل والفراء : أمروا بأن يجعلوها مستقبلة الكعبة. وعن ابن عباس أيضا وابن جبير : قبلة يقابل بعضها بعضا. وأقيموا الصلاة وهذا قبل نزول التوراة ، لأنها لم تنزل إلا بعد إجارة البحر. وبشر المؤمنين يعني : بالنصر في الدنيا وبالجنة في الآخرة ، وهو أمر لموسى عليه السلام أن يتبوآ لقومهما ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم نسق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالتبشير الذي هو الغرض تعظيما له وللمبشر به.
." (١)

"﴿ولله غيب السماوات والارض وإليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليها وما ربك بغافل عما تعملون﴾ : لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، ولا حظ لمخلوق في علم الغيب. وقرأ نافع وحفص : يرجع مبنيا للمفعول ، الأمر كله أمرهم وأمرك ، فينتقم لك منهم. وقال أبو علي الفارسي : علم ما غاب في السموات والأرض ، أضاف الغيب إليهما توسعا انتهى. والجملة الأولى دلت على أن علمه محيط بجميع الكائنات كليها وجزئيها حاضرها وغائبها ، لأنه إذا أحاط علمه بما غاب فهو بما حضر محيط ، إذ علمه تعالى لا يتفاوت. والجملة الثانية دلت على القدرة النافذة والمشيئة. والجملة الثالثة دلت على الأمر بإفراد من هذه صفاته بالعبادة الجسدية والقلبية ، والعبادة أولى الرتب التي يتحلى بها العبد. والجملة الرابعة دلت على الأمر بالتوكل ، وهي آخرة الرتب ، لأنه بنور العبادة أبصر أن جميع الكائنات معذوقة بالله تعالى ،

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٥١/٥

وأنه هو المتصرف وحده في جميعها ، لا يشركه في شيء منها أحد من خلقه ، فوكل نفسه إليه تعالى ، ورفض سائر ما يتوهم أنه سبب في شيء منها. والجملة الخامسة تضمنت التنبيه على المجازاة ، فلا يضيع طاعة مطيع ولا يهمل حال **متمرد**. وقرأ الصاحبان ، وحفص ، وقتادة ، والأعرج ، وشيبة ، وأبو جعفر ، والجحدري : تعملون بتاء الخطاب ، لأن قبله اعملوا على مكانتكم. وقرأ باقي السبعة : بالياء على الغيبة ، واختلف عن الحسن وعيسى بن عمر.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢٧٢." (١)

"قال ابن عطية : والمعقبات على هذا حرس الرجل وجلاوزته الذين يحفظونه ، قال : والآية على هذا في الرؤساء الكافرين. واختار هذا القول الطبري ، وهو قول عكرمة وجماعة. وقال الضحاك : هو السلطان المحرس من أمر الله انتهى. وحذف لا ، لا في الجواب قسم بعيد. قال المهدوي : ومن جعل المعقبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من الله على ظنه وزعمه. وقيل : الضمير في له عائد على الله تعالى أي : لله معقبات ملائكة من بين يدي العبد ومن خلفه ، والمعقبات على هذا الملائكة الحفظة على العباد وأعمالهم ، والحفظة لهم أيضا. وروي فيه حديث عن عثمان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قول مجاهد والنخعي. وقيل : الضمير في له عائد على الرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يجر له ذكر قريب ، وقد جرى ذكره في قوله : ﴿ويقولون لولا أنزل عليه ءاية من ربها﴾ والمعنى : أن الله تعالى جعل لنبيه صلى الله عليه وسلم حفظة من **متمردي** الجن والإنس. قال أبو زيد : الآية في النبي صلى الله عليه وسلم نزلت في حفظ الله له من أربد بن قيس ، وعامر بن الطفيل ، من القصة التي سنشير إليها بعد في ذكر الصواعق. والقول الأول في عود الضمير هو الأولى الذي ينبغي أن يحمل عليه وعليه يفسر. ويقول : لما تقدم أن من أسر القول ومن جهر به ، ومن استخفى بالليل وسرب بالنهار ، مستوفي علم الله تعالى لا يخفى عليه من أحوالهم شيء ، ذكر أيضا أن لذلك المذكور معقبات : جماعات من الملائكة تعقب في حفظه وكلاءته. ومعقب : وزنه مفعل ، من عقب الرجل إذا جاء على عقب الآخر ، لأن بعضهم يعقب بعضا ، أو لأنهم يعقبون ما يتكلمون به فيكتبونه. وقال الزمخشري : والأصل معتقبات ، فأدغمت التاء في القاف كقوله : ﴿وجآء المعذرون﴾ يعني المعتذرون. ويجوز معقبات بكسر العين ، ولم يقرأ به انتهى. وهذا وهم فاحش ، لا تدغم التاء في القاف ، ولا القاف في التاء ، لا من كلمة ولا من كلمتين. وقد نص التصريفيون على أن القاف والكاف يدغم كل منهما في الآخر ، ولا يدغمان في غيرهما ، ولا يدغم غيرهما فيهما. وأما تشبيهه

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٥/٢٢٩

بقوله : وجاء المعذرون ، فلا يتعين أن يكون أصله المعتذرون ، وقد تقدم في براءة توجيهه ، وأنه لا يتعين ذلك فيه. وأما قوله : ويجوز معقبات بكسر العين ، فهذا لا يجوز لأنه بناه على أن أصله معتقبات ، فأدغمت التاء في القاف. وقد ذكرنا أن ذلك وهم فاحش ، والمعقبات جمع معقبة. وقيل : الهاء في معقبة للمبالغة ، فيكون كرجل نسابة. وقيل : جمع معقبة ، وهي الجماعة التي تأتي بعد الأخرى ، جمعت باعتبار كثرة الجماعات ، ومعقبة ليست جمع معقب كما ذكر الطبري. وشبه ذلك برجل ورجال ورجالات ، وليس الأمر كما ذكر ، لأن ذلك كجمل وجمال وجمالات ، ومعقبة ومعقبات إنما هي كضارب وضاربات قاله : ابن عطية. وينبغي أن يتأول كلام الطبري على أنه أراد بقوله : جمع مءقب ، أنه أطلق من حيث الاستعمال على جمع معقب وإن كان أصله أن يطلق على مؤنث معقب ، وصار مثل الواردة للجماعة الذين يردون ، وإن كان أصله أن يطلق على مؤنث وارد ، من حيث أن يجمع جموع التكسير للعامل يجوز أن يعامل معاملة المفردة المؤنثة في الأخبار. وفي عود الضمير لقوله : العلماء قائلة كذا ، وقولهم الرجال وأعضادها ، وتشبيه الطبري ذلك برجل ورجالات من حيث المعنى ، لا من حيث

٣٧١

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٣٥٦

." (١)

"﴿فإذا قرأت القرءان فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين ءامنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم بها مشركون * وإذا بدلنآ ءاية مكان ءاية والله أعلم بما ينزل قالوا إنمآ أنت مفترا بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين ءامنوا وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشرا لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهاذا لسان عربى مبين﴾ : لما ذكر تعالى : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء﴾ وذكر أشياء مما بين في الكتاب ، ثم ذكر قوله : ﴿من عمل صالحا﴾ ذكر ما يصون به القارىء قراءته من وسوسة الشيطان ونزغه ، فخاطب السامع بالاستعاذة منه إذا أخذ في القراءة. فإن كان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم لفظا فالمراد أمته ، إذ كانت قراءة القرآن من أجل الأعمال الصالحة كما ورد في الحديث : ﴿صالحا فأوالئاك يبدل الله سيااتهم حسنات﴾ والظاهر بعقب الاستعاذة. وقد روى ذلك بعض الرواة عن حمزة ، وروي عن ابن سيرين أنه قال : كلما قرأت الفاتحة حين تقول : آمين ، فاستعذ. وروي عن أبي هريرة ،

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٣٠٢/٥

ومالك ، وداود. تعقبها القراءة كما روي عن حمزة والجمهور : على ترك هذا الظاهر وتأويله بمعنى : فإذا أردت القراءة. قال الزمخشري : لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه ، فكان بسبب قوى وملابسة ظاهرة كقوله : ﴿يا أيها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى﴾ وكقوله : "إذا أكلت فسم الله" وقال ابن عطية : فإذا وصلة بين الكلامين والعرب تستعملها في مثل هذا ، وتقدير الآية : فإذا أخذت في قراءة القرآن فاستعذ ، أمر بالاستعاذة. فالجمهور على الندب ، وعن عطاء الوجوب. والظاهر : طلب الاستعاذة عند القراءة مطلقا ، والظاهر : أن الشيطان المراد به إبليس وأعوانه. وقيل : عام في كل **متمرد** عات من جن وإنس ، كما قال شياطين الإنس والجن. واختلف في كيفية الاستعاذة ، والذي صار إليه الجمهور من القراء وغيرهم واختاروه : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لما روى عبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة ، وجبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أنه استعاذ عند القراءة بهذا اللفظ بعينه" ونفى تعالى سلطان الشيطان عن المؤمنين. والسلطان هنا التسليط والولاية ، والمعنى : أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته كما قال تعالى :

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٥٢٨

﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ وكما أخبر تعالى عنه فقال في قصة أوليائه : ﴿وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ وقيل : المراد بالسلطان الحجة ، وظاهر الإخبار انتفاء سلطنته على المؤمنين مطلقا. وقيل : ليس له عليهم سلطان لاستعاذتهم منه. وقيل : ليس له قدرة أن يحملهم على ذنب ، والضمير في به عائد على بهم . وقيل : على الشيطان ، وهو الظاهر لاتفاق الضمائر والمعنى : والذين هم بإشراكهم إبليس مشركون بالله ، أو تكون الباء للسببية ، والأمر بالاستعاذة يقتضي أنها تصرف كيد الشيطان ، كأنها متضمنة التوكل على الله والانقطاع إليه.

". (١)

"ولما أراه تعالى هاتين المعجزتين العظيمتين في نفسه وفيما يلابسه وهو العصا أمره بالذهاب إلى فرعون رسولا من عنده تعالى وعللك حكمة الذهاب إليه بقوله ﴿إنه طغى ﴾ وخص فرعون وإن كان مبعوثا إليهم كلهم لأنه رأس الكفر ومدعي الإلهية وقومه تباعه. قال وهب بن منبه : قال الله لموسى عليه السلام اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي أرعاك بعيني وسمعي ، وإن معك يدي ونصري ، وألبسك جنة من سلطاني تستكمل بها العزة في أمري أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٥/٤٣٦

وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي ، أقسم بعزتي لولا الحجة والقدر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ، ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي. وقل له قولا لينا فإن ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي في كلام طويل. قال : فسكت موسى عليه السلام سبعة أيام. وقيل : أكثر فجاءه ملك فقال انفذ ما أمرك ربك.

﴿قال رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولي * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد بها أزرى * وأشركه فى أمرى *كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك ياموسى * ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينآ إلى أمك ما يوحى * أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو لها وألقيت عليك محبة منى﴾ .

لما أمره تعالى بالذهاب إلى فرعون

٢٣٨

عرف أنه كلف أمرا عظيما يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح ، فسأل ربه ورغب في أن يشرح صدره ليحتمل ما يرد عليه من الشدائد التي يضيق لها الصدر ، وأن يسهل عليه أمره للذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة جلائل الخطوب ، وقد علم ما عليه فرعون من الجبروت والتمرد والتسلط. وقال ابن جريج : معناه وسع لي صدري لأعي عنك ما تودعه من وحيك. وقال الكرماني وسع قلبي ولينه لفهم خطابك وأداء رسالتك. والقيام بما كلفتنيه من أعبائها ، والعقدة استعارة لثقل كان في لسانه خلقة.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٢١

وقال مجاهد : كانت من الجمرة التي أدخلها فاه وكانت آسية قد ألقى الله محبته في قلبها وسألت فرعون أن لا يذبحه ، فبيناهي ترقصه يوما أخذه فرعون في حجره فأخذ خصلة من لحيته. وقيل : لطمه. وقيل : ضربه بقضيب كان في يده فغضب فرعون فدعاء بالسياف فقالت : إنما هو صبي لا يفرق بين الياقوت والجمر. فاحضرا وأراد أن يمد يده إلى الياقوت فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فأخذها ووضعها في فيه فاحترق لسانه انتهى وإحراق النار وتأثيرها في لسانه لا في يده دليل على فساد قول القائلين بالطبيعة. وعن ابن عباس كانت في لسانه رثت. وقيل : حدثت العقدة بعد المناجاة حتى لا يكلم أحد بعدها. وقال قطرب : كانت فيه مسكة عن الكلام. وقال ابن عيسى : العقدة كالتمتمة والفأفأة. وطلب موسى من حل

العقدة قدر ما يفقه قوله ، قيل : وبقي بعضها لقوله وأخي هارون هو أفصح مني لسان وقوله ولا يكاد يبين. وقيل : زالت لقوله ﴿قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾ وهو قول الحسن ، قيل : وهو ضعيف لأنه لم يقل واحلل العقدة بل قال ﴿عقدة﴾ فإذا حل عقدة فقد آتاه الله سؤله. وقيل في قوله ولا يكاد يبين أن معناه لا يأتي ببيان وحجة ، وإنما قال ذلك فرعون تمويها وقد خاطبه وقومه وكانوا يفهمون عنه فكيف يمكن نفي البيان أو مقاربته ؟.

وقال الزمخشري : فإن قلت : لي في قوله ﴿قال رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى﴾ ما جدواه والكلام بدون مستتب ؟ قلت : قد أبهم الكلام أولا فقال ﴿اشرح لى﴾ ﴿ويسر لى ﴾ فعلم أن ثم مشروحا وميسرا ثم بين ورفع الإبهام فذكرهما فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره ، وأمره من أن يقول اشرح صدري ويسر أمري على الإيض ا ح الشارح لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل. وقال أيضا : وفي تنكير العقدة وإن لم يقل ﴿واحلل عقدة﴾ ﴿لسانى﴾ أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهما جيدا ولم يطلب الفصاحة الكاملة ، و﴿من لسانى﴾ صفة للعقدة كأنه قيل ﴿عقدة من﴾ عقد ﴿لسانى﴾ انتهى. ويظهر أن ﴿من لسانى﴾ متعلق باحلل لأن موضع الصفة لعقدة وكذا قال الحوفي. وأجاز أبو البقاء الوجهين والوزير المعين القائم بوزر الأمور أي بثقلها فوزير الملك يتحمل عنه أوزاره ومؤنه. وقيل : من الوزر وهو الملجأ يلتجىء إليه الإنسان. وقال الشاعر :

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٢١

من السباع الضواري دونه وزروالناس شرهم ما دونه وزر

." (١)

"وقيل : حين عرض عليه موسى وهارون عليهما السلام ما عرضا شاور آسية فقالت : ما ينبغي لأحد أن يرد هذا فشاور هامان وكان لا يبت أمرا دون رأيه ، فقال له : كنت أعتقد أنك ذو عقل تكون مالكا فتصير مملوكا وربا فتصير مربوبا فامتنع من قبول ما عرض عليه موسى ، والترجي بالنسبة لهما إذ هو مستحيل وقوعه من الله تعالى أي اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه ، وفائدة إرسالهما مع علمه تعالى أنه لا يؤمن إقامة الحجة عليه وإزالة

٢٤٥

المعذرة كما قال تعالى : ﴿ولو أنآ أهلكناهم بعذاب من قبله﴾ الآية.

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٧٤/٦

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٤٣
وقيل : القول اللين ما حكاه الله هنا وهو ﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بـاية من ربكا والسلام على من اتبع الهدى * إنا﴾ وقال أبو معاذ : ﴿قولا لينا﴾ وقال الفراء لعل هنا بمعنى كـي أي كي يتذكر أو يخشى كما تقول : اعمل لعلك تأخذ أجرك ، أي كي تأخذ أجرك. وقيل : لعل هنا استفهام أي هل يتذكر أو يخشى ، والصحيح أنها على بابها من الترجي وذلك بالنسبة إلى البشر وفي قوله ﴿لعله يتذكر أو يخشى ﴾ دلالة على أنه لم يكن شاكا في الله. وقيل : ﴿يتذكر﴾ حاله حين احتبس النيل فسار إلى شاطئه وأبعد وخر ساجدا لله راغبا أن لا يخجله ثم ركب فأخذ النيل يتبع حافر فرسه فرجا أن يتذكر حلم الله وكرمه وأن يحذر من عذاب الله. وقال الزمخشري : أي ﴿يتذكر﴾ ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذغان للحق ﴿أو يخشى ﴾ أن يكون الأمر كما يصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة. فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذي يتقدم الواردة وفرس فرط تسبق الخيل انتهى. وقال الشاعر :
واستعجلونا وكانوا من صحابتناكما تقدم فارط الوراد
وفي الحديث : "أنا فرطكم على الحوض". أي متقدمكم وسابقكم ، والمعنى إننا نخاف أن يعجل علينا بـالعقوبة ويبادرنا بها. وقرأ يحيى وأبو نوفل وابن محيصن في روايته ﴿أن يفرط﴾ مبنيا للمفعول أي يسبق في العقوبة ويسرع بها ، ويجوز أن يكون من الإفراط ومجاوزة الحد في العقوبة خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعذاب من شيطان ، أو من جبروته واستكباره وادعائه الربوبية ، أو من حبه الرياسة ، أو من قومه القبط **المتمردين** الذين قال الله فيهم ﴿قال الملا من قوم فرعون﴾ ﴿وقال الملا من قومه﴾ .
وقرأت فرقة والزعفراني عن ابن محيصن ﴿يفرط﴾ بضم الياء وكسر الراء من الإفراط في الأذية ﴿أو أن يطغى ﴾ في التخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي تجرئة عليك وقسوة قلبه ، وفي المجيء به هكذا على سبيل الإطلاق والرمز باب من حسن الأدب والتجافي عن التفوه بالعظيمة.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٤٣
والمعية هنا بالنصرة والعون أسمع أقوالكما وأرى أفعالكما. وقال ابن عباس ﴿أسمع﴾ جوابه لكما ﴿وأرى ﴾ ما يفعل بكما وهما كناية عن العلم ﴿فأتياه﴾ كرر الأمر بالإتيان ﴿فقولا إنا رسولا ربك﴾ وخاطباه بقولهما ﴿ربك﴾ تحقيرا له وإعلاما أنه مربوب مملوك إذ كان هو يدعي الربوبية. وأمرا بدعوته إلى أن يبعث معهما بني إسرائيل ويخرجهم من ذل خدمة القبط وكانوا يعذبونهم بتكليف الأعمال الشاقة من الحفر والبناء ونقل الحجارة والسخرة في كل شيء مع قتل الولدان واستخدام النساء. وقد ذكر في غير هذه الآية دعاؤه

إلى الإيمان فجملة ما دعى إليه فرعون الإيمان وإرسال بني إسرائيل.

ثم ذكرا ما يدل على صدقهما في إرسالهما إليه فقالا ﴿قد جئناك باية من ربك﴾ وتكرر أيضا قولهما ﴿من ربك﴾ على سبيل التوكيد بأنه مربوب مقهور ، والآية التي أحالا عليها هي العصا واليد ، ولما كانا مشتركين في الرسالة صح نسبة المجيء بالآية إليهما وإن كانت صادرة من أحدهما. وقال الزمخشري : ﴿قد جئناك باية من ربك﴾ جارية من الجملة الأولى وهي ﴿إنا رسولا ربك﴾ مجرى البيان والتفسير ، لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية ، وإنما وحد بآية ولم يثن ومعه آيتان لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها فكأنه قال : قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة وكذلك ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ ﴿مآ أنت إلا بشر مثلنا فأت﴾ ﴿أولو جئتك بشىء مبين﴾ انتهى. وقيل : الآية اليد. وقيل : العصا ، والمعنى بآية تشهد لنا بأنا رسولا ربك. والظاهر أن قوله ﴿والسلام على من اتبع الهدى ﴾ فصل للكلام ، فالسلام بمعنى التحية رغبا به عنه وجريا على العادة في التسليم عند الفراغ

٢٤٦

". (١)

"ولما زيف طريقة الكفار أتبع ذلك ببيان صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقال ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ وهو دين الإسلام ، ثم أخبر أن من أنكر المعاد ناكب عن هذا الصراط لأنه لا يسلكه إلا من كان راجيا للثواب خائفا من العقاب وهؤلاء غير مصدقين بالجزاء فهم مائلون عنه ، وأبعد من زعم أن الصراط الذي هم ناكبون عنه هو طريق الجنة في الآخرة ، ومن زعم أن الصراط هو في الآخرة ناكبون عنه بأخذهم يمنة ويسرة إلى النار. قال ابن عباس : ﴿لناكبون﴾ لعادلون. وقال الحسن : تاركون له. وقال قتادة : حائرون. وقال الكلبي : معرضون ، وهذه أقوال متقاربة المعنى.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٩٢

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر﴾ قيل : هو الجوع. وقيل : القتل والسبي. وقيل : عذاب الآخرة أي بلغوا من **التمرد** والعناد أنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لشدة لجاجهم فيما هم عليه من البعد وهذا القول بعيد بل الظاهر أن هذا التعليق كان يكون في الدنيا ويدل على ذلك قوله ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ إلى آخر الآية استشهد على شدة شكيمتهم في الكفر ولجاجهم على تقدير رحمته لهم بأنه أخذهم بالسيوف أولا ، وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع حتى

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٧٩/٦

فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من الأسر والقتل فأبلسوا وخضعت رقابهم. والظاهر من هذا أن الضمير هو القحط والجوع الذي أصابهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا مروي عن ابن عباس وابن جريج.

وسبب نزول الآية دليل على ذلك روي أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة منع الميرة من أهل مكة ، فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز ، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت الرحمة للعالمين ؟ فقال : "بلى" فقال : قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت الآية. والمعنى لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو الهزل والقحط الذي أصابهم ووجدوا الخصب لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله والمؤمنين وإفراطهم فيها. وقيل : المعنى لو امتحناهم بكل محنة من القتل والجوع فما ريء فيهم استكانة ولا انقياد حتى إذا عذبزا بنار جهنم أبلسوا ، كقوله

٤١٥

﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ ﴿لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ فعلى هذا القول يكون الفتح لباب العذاب الشديد في الآخرة ، وعلى الأول كان في الدنيا.

ووزن استكان استفعل أي انتقل من كون إلى كون كما تقول : استحال انتقل من حال إلى حال ، وقول من زعم أن استكان افتعل من السكون وأن الألف إشباع ضعيف لأن الإشباع بابه لشعر كقوله :

أعوذ بالله من العقرابالشائلات عقد الأذناب

ولأن الإشباع لا يكون في تصاريف الكلمة ، ألا ترى أن من أشبع في قوله :

ومن ذم الزمان بمنتزاح

لا تقول انتزاح ينتزيح فهو منتزيح ، وأنت تقول : استكان يستكين فهو مستكين ومستكان ومجيء مصدره استكانة يدل على أن الفعل وزنه استفعل كاستقام استقامة ، وتخالف ﴿استكانوا ﴾ و﴿يتضرعون﴾ في الصيغة فلم يكونا ماضيين ولا مضارعين. قال الزمخشري : لأن المعنى محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة ، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد. والملبس : الآيس من الشر الذي ناله. وقرأ السلمي ﴿مبلسون﴾ بفتح اللام.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٩٢

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤١٦

الهمز : النخس والدفع بيد وغيرها ، ومنه مهماز الرائض وهمز الناس باللسان. البرزخ : الحاجز بين المسافتين. وقيل : الحجاب بين الشيئين يمنع أحدهما أن

٤١٦

يصلى إلى الآخر. النسب : القرابة من جهة الولادة. اللفح : إصابة النار الشيء بوهجها وإحراقها. وقال الزجاج : اللفح أشد من اللقيح تأثيرا. الكلوح : تشمر الشفتين عن الأسنان ومنه كلوح كلوح الكلب والأسد. وقيل : الكلوح بسور الوجه وهو تقطيبه ، وكلح الرجل كلوحا وكلاحا ودهر كالح وبرد كالح شديد. العبث : اللعب الخالي عن فائدة.

." (١)

"فإن قلت : قوله ﴿إكراههن﴾ مصدر أضيف إلى المفعول والفاعل مع المصدر محذوف ، والمحذوف كالملفوظ والتقدير من بعد إكراههم إياهن والربط يحصل بهذا المحذوف المقدر فلتجز المسألة قلت : لم يعدوا في الروابط الفاعل المحذوف ، تقول : هند عجبت من ضربها زيدا فتجوز المسألة ، ولو قلت هند عجبت من ضرب زيدا لم تجز. ولما قدر الزمخشري في أحد تقدير أنه لهن أورد سؤالا فإن قلت : لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن لأن المكرهة على الزنا بخلاف المكره عليه في أنها غير آثمة قلت : لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل أو بما يخاف منه التلف أو ذهاب العضو من ضرب عنيف وغيره حتى يسلم من الإثم ، وربما قصرت عن الحد الذي تعذر فيه فتكون آثمة انتهى. وهذا السؤال والجواب مبنيان على تقدير لهن.

وقرأ ﴿مبينات﴾ بفتح الياء الحرميان وأبو عمرو وأبو بكر أي بين الله في هذه السورة وأوضح آيات تضمنت أحكاما وحدودا وفرائض ، فتلك الآيات هي المبينة ، ويجوز أن يكون المراد مبينا فيها ثم اتسع فيكون المبين في الحقيقة غيرها. وهي ظرف للمبين. وقرأ باقي السبعة والحسن وطلحة والأعمش بكسر الياء ، فإما أن تكون متعدية أي ﴿مبينات﴾ غيرها من الأحكام والحدود ، فأسند ذلك إليها مجاذا ، وإما أن تكون لا تتعدى أي بينات في نفسها لا تحتاج إلى موضح بل هي واضحة لقولهم في المثل. قد بين الصبح لذي عينين. أي قد ظهر ووضح. وقوله ﴿ومثلا﴾ معطوف على آيات ، فيحتمل أن يكون المعنى ﴿ومثلا﴾ من أمثال الذين من قبلكم ، أي قصة غريبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم في براءتهما لبراءة من رميت بحديث الإفك لينظروا قدرة الله في خلقه وصنعه فيه فيعتبروا. وقال الضحاك : والمراد بالمثل ما في التوراة

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣٠٣/٦

والإنجيل من إقامة الحدود ، فأنزل في القرآن مثله. وقال مقاتل : أي شبها من حالهم في تكذيب الرسل أي بينا لكم ما أحللنا بهم من العذاب لتمردهم ، فجعلنا ذلك مثلا لكم لتعلموا أنكم إذا شاركتموهم في المعصية كنتم مثلهم في استحقاق العقاب. ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي ما وعظ في الآيات والمثل من نحو قوله ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾ ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾ وخص المتقين لأنهم المنتفعون بالموعظة.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٥٠

٤٥٣

النور في كلام العرب الضوء المدرك بالبصر ، فإسناده إلى

٤٥٤

الله تعالى مجاز كما تقول زيد كرم وجود وإسناده على اعتبارين ، إما على أنه بمعنى اسم الفاعل أي منور السموات والأرض ، ويؤيد هذا التأويل قراءة علي بن أبي طالب وأبي جعفر وعبد العزيز المكي وزيد بن علي وثابت بن أبي حفصة والقورصي ومسلمة بن عبد الملك وأبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ﴿نور﴾ فعلا ماضيا و﴿الارض﴾ بالنصب. وإما على حذف أي ذو نور ، ويؤيده قوله ﴿مثل نوره﴾ ويحتمل أن يجعل نورا على سبيل المدح ، كما قالوا فلان شمس البلاد ونور القبائل وقمرها ، وهذا مستفيض في كلام العرب وأشعارها. قال الشاعر :

كأنك شمس والملوك كواكب

وقال : قمر القبائل خالد بن زيد

وقال : إذا سار عبد الله من مرو ليلةفقد سار منها بدرها وجمالها

ويروى نورها ، وأضاف النور إلى ﴿السماوات والارض﴾ لدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى يضيء له السموات والأرض ، أو يراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به. وقال ابن عباس : ﴿نور السماوات﴾ أي هادي أهل السموات. وقال مجاهد : مدبر أمور السموات. وقال الحسن : منور السموات. وقال أبي : الله به نور السموات أو منه نور السموات أي ضياؤها. وقال أبو العالية : مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء. وقيل : المنزه من كل عيب امرأة نوار بريئة من الريبة والفحشاء. وقال الكرماني : هو الذي يرى ويرى به مجاز وصف الله به لأنه يرى ويرى بسببه مخلوقاته لأنه خلقها وأوجدها.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٥٣
". (١)

"شيطانه ، وهذا ضعيف ، وإنما وقع فيه أن القرين في قوله : ﴿ربنا مآ أطغيته﴾ هو شيطانه في الدنيا ومغويه بلا خلاف. ولفظ القرين اسم جنس ، فسائقه قرين ، وصاحبه من الزبانية قرين ، ومماشي الإنسان في طريقة قرين. وقيل : قرينه هنا : عمله قلبا وجوارحا. وقال الزمخشري : وقال قرينه : هو الشيطان الذي قيض له في قوله ﴿نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ ، يشهد له قوله تعالى : ﴿قال قرينه ربنا مآ أطغيته﴾ ، ﴿هاذا ما لدى عتيد﴾ ، هذا شيء لدي ، وفي ملكتي عتيد لجهنم. والمعنى : أن ملكا يسوقه ، وآخر يشهد عليه ، وشيطانا مقرونا به يقول : قد أعتدته لجهنم وهيأته لها بإغواي وإضلالي. انتهى ، وهذا قول مجاهد. وقال الحسن ، وقتادة أيضا : الملك الشهيد عليه. وقال الحسن أيضا : هو كاتب سيئاته ، وما نكرة موصوفة بالظرف وبعتيد وموصولة ، والظرف صلتها. وعتيد ، قال الزمخشري : بدل أو خير بعد خبر ، أو خبر مبتدأ م حذوف. انتهى. وقرأ الجمهور : عتيد بالرفع ؛ وعبد الله : بالنصب على الحال ، والأولى إذ ذاك أن تكون ما موصولة.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٨

﴿ألقيا فى جهنم﴾ : الخطاب من الله للملكين : السائق والشهيد. وقيل : للملكين من ملائكة العذاب ، فعلى هذا الألف ضمير الاثنين. وقال مجاهد وجماعة : هو قول إما للسائق ، وإما للذي هو من الزبانية ، وعلى أنه خطاب للواحد. وقال المبرد معناه : ألق ألق ، فثنى. وقال الفراء : هو من خطاب الواحد بخطاب الاثنين. وقيل : الألف بدل من النون الخفيفة ، أجرى الوصل مجرى الوقف ، وهذه أقوال مرغوب عنها ، ولا ضرورة تدعو إلى الخروج عن ظاهر اللفظ لقول مجاهد. وقرأ الحسن : ألقين بنون التوكيد الخفيفة ، وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف. ﴿كل كفار﴾ : أي يكفر النعمة والمنعم ؛ ﴿عتيد﴾ ، قال قتادة : منحرف عن الطاعة. وقال الحسن : جاحد **متمرد**. وقال السدي : المساق من العن د ، وهو عظم يعرض في الحلق. وقال ابن بحر : المعجب بما فيه.

﴿مناع للخير﴾ ، قال قتادة ومجاهد وعكرمة : يعني الزكاة. وقيل : بخيل. وقيل : مانع بني أخيه من الإيمان ، كالوليد بن المغيرة ، كان يقول لهم : من دخل منكم فيه لم أنفعه بشيء ما عشت ، والأحسن عموم الخير في المال وغيره. ﴿مريب﴾ ، قال الحسن : شاك في الله أو في البعث. وقيل : متهم الذي

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٦/٣٣٠

جوزوا فيه أن يكون منصوبا بدلا من كل كفار ، وأن يكون مجرورا بدلا من كفار ، وأن يكون مرفوعا بالابتداء مضمنا معنى الشرط ، ولذلك دخلت الفاء في خبره ، وهو فألقياه. والظاهر تعلقه بما قبله على جهة البدل ، ويكون فألقياه توكيدا. وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون صفة من حيث يختص كفار بالأوصاف المذكورة ، فجاز وصفه بهذه المعرفة. انتهى. وهذا ليس بشيء لو وصفت النكرة بأوصاف كثيرة لم يجز أن توصف بالمعرفة.

﴿قال قرينه﴾ : لم تأت هذه الجملة بالواو ، بخلاف ﴿وقال قرينه﴾ قبله ، لأن هذه استؤنفت كما استؤنفت الجمل في حكاية التقاول في مقاولة موسى وفرعون ، فجرت مقاولة بين الكافر وقرينه ، فكأن الكافر قال ربي هو أطغاني ، ﴿قال قرينه ربنا مآ أطغيته﴾ . وأما ﴿وقال قرينه﴾ فعطف لدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملكين. وقول قرينه : ما قال له ، ومعنى ما أطغيته : تنزيه لنفسه من أنه أثر فيه ، ﴿ولـاكن كان فى ضلـالا بعيد﴾ : أي من نفسه لا مني ، فهو الذي استحب العمى على الهدى ، كقوله : ﴿وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ ، وكذب القرين ، قد أطغاه بوسوسته وتزيينه. ﴿قال لا تختصموا لدى﴾ : استئناف أيضا مثل قال قرينه ، كأن قائلا قال : ما قال الله تعالى ؟ فقيل : ﴿لا تختصموا لدى﴾ أي في دار الجزاء وموقف الحساب. ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ لمن عصاني ، فلم أترك لكم حجة.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١١٨

﴿ما يبدل القول لدى﴾ : أي عندي ، فما أمضيته لا يمكن تبديله. وقال الفراء : ما يكذب لدي لعلمي بجميع الأمور. وقدمت : يجوز أن

١٢٦

يكون بمعنى تقدمت ، أي قد تقدم قولي لكم ملتبسا بالوعيد ، أو يكون قدم المتعدية ، وبالوعيد هو المفعول ، والباء زائدة ، والتقديم كان في الدنيا ، ونهيهم عن الاختصام في الآخرة ، فاختلف الزمانان. فلا تكون الجملة من قوله : ﴿وقد قدمت﴾ حالا إلا على تأويل ، أي وقد صح عندكم أني قدمت ، وصحة ذلك في الآخرة ، فاتفق زمان النهي عن الاختصام ، وصحة التقديم بالحال على هذا التأويل مقارنة. ﴿ومآ أنا بظلام للعبيد﴾ : تقدم شرح مثله في أواخر آل عمران ، والمعنى : لا أعذب من لا يستحق العذاب.

." (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٩٦/٨

"سورة نوح

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٦

٣٣٧

الأطوار : الأحوال المختلفة ، قال :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٧

فإن أفاق فقد طارت عمايتهوالمرء يخلق طورا بعد أطوار

ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا : أسماء أصنام أعلام لها اتخذها قوم نوح عليه السلام آلهة.

﴿أرسلنا نوحا إلى قومها أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال ياقوم إنى لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جآء لا يؤخرا لو كنتم تعلمون﴾ .

هذه السورة مكية. ومناسبتها لما قبلها : أنه تعالى لما أقسم على أن يبدل خيرا منهم ، وكانوا قد سخروا من المؤمنين وكذبوا بما وعدوا به من العذاب ، ذكر قصة نوح وقومه معه ، وكانوا أشد تمردا من المشركين ، فأخذهم الله أخذ استئصال حتى أنه لم يبق لهم نسلا على وجه الأرض ، وكانوا عباد أصنام كمشركي مكة ، فحذر تعالى قريشا أن يصيبهم عذاب يستأصلهم إن لم يؤمنوا. ونوح عليه السلام أول نبي أرسل ، ويقال له شيخ المرسلين ، وآدم الثاني ، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ، وهو إدريس بن برد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿أن أنذر قومك﴾ : يجوز أن تكون مصدرية وأن تكون تفسيرية. ﴿عذاب أليم﴾ ، قال أبو عباس : عذاب النار في الآخرة. وقال الكلبي : ما حل بهم من الطوفان. ﴿من ذنوبكم﴾ : من للتبعيض ، لأن الإيمان إنما يجب ما قبله من الذنوب لا ما بعده. وقيل : لابتداء الغاية. وقيل : زائدة ، وهو مذهب ، قال ابن عطية : كوفي ، وأقول : أخفشي لا كوفي ، لأنهم يشترطون أن تكون بعد من نكرة ، ولا يبالون بما قبلها من واجب أو غيره ، والأخفش يجيز مع الواجب وغيره. وقيل : النكرة والمعرفة. وقيل : لبيان الجنس ، ورد بأنه ليس قبلها ما تبينه.

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف قال : ﴿ويؤخركم﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل ؟ وهل هذا إلا تناقض ؟ قلت : قضى الله مثلا أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على

رأس تسعمائة سنة ، فقيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى : أي إلى وقت سماه الله تعالى وضربه أمدا تنتهون إليه لا تتجاوزونه ، وهو الوقت الأطول تمام الألف. ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد ، لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ، ولم تكن لكم حيلة ، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير. انتهى. وقال ابن عطية : ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ مما تعلقت المعتزلة به في قولهم أن للإنسان أجلين ، قالوا : لو كان واحدا محددا لما صح التأخير ، إن كان الحد قد بلغ ، ولا المعاجلة إن كان لم يبلغ ، قال : وليس لهم في الآية تعلق ، لأن المعنى : أن نوحا عليه الصلاة والسلام لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل ، ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم ، لكن قد سبق في الأزل أنهم ، إما ممن قضى له بالإيمان والتأخير ، وإما ممن قضى له بالكفر والمعاجلة. ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله : ﴿إن أجل الله إذا جآء لا يؤخر﴾ ، وجواب لو محذوف تقديره : لو كنتم تعلمون ، لبادرتم إلى عبادته وتقواه وطاعتي فيما جئتكم به منه تعالى. ولما لم يجيبوه وآذوه ، شكا إلى ربه شكوى من يعلم أن الله تعالى عالم بحالة مع قومه لما أمر بالإنذار فلم يجد فيهم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣٧

﴿قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا﴾ : أي جميع الأوقات من غير فتور ولا تعطيل في وقت. ولما ازدادوا إعراضا ونفارا عن الحق ، جعل الدعاء هو الذي زادهم ، إذ كان سبب الزيادة ، ومثله : ﴿فزادتهم رجسا إلى رجسهم﴾ . ﴿وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾ : أي ليتربوا فتغفر لهم ، ذكر المسبب الذي هو حظهم خالصا ليكون أقبح في إعراضهم عنه ، ﴿جعلوا أصابعهم فى ءاذانهم﴾ : الظاهر أنه حقيقة ، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه ، وتغطوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه كراهة وبغضا من سماع النصح ورؤية الناصح. ويجوز أن يكون كناية عن المبالغة في إعراضهم عن ما دعاهم إليه ، فهم بمنزلة من سد سمعه ومنع بصره ، ثم كرر صفة دعائه بيانا وتوكيدا. لما ذكر دعاءه عموم الأوقات ، ذكر عموم حالات الدعاء. و﴿كلما دعوتهم﴾ : يدل على تكرر

٣٣٨

الدعوات ، فلم يبين حالة دعائه أولا ، وظاهرة أن يكون دعاؤه إسرارا ، لأنه يكون ألطف بهم. ولعلهم يقبلون منه كحال من ينصح في السر فإنه جدير أن يقبل منه ، فلما لم يجد له الإسرار ، انتقل إلى أشد منه وهو دعاؤهم جهارا صلتا بالدعاء إلى الله لا يحاشي أحدا ، فلما لم يجد عاد إلى الإعلان وإلى الأسرار. قال الزمخشري : ومعنى ثم الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين

أغلظ من إفراد أحدهما. انتهى. وكثيرا كرر الزمخشري أن ثم للاستبعاد ، ولا نعلمه من كلام غيره ، وانتصب جهارا بدعوتهم ، وهو أحد نوعي الدعاء ، ويجيء فيه من الخلاف ما جاء في نصب هو يمشي الخوزلى.." (١)

"ولما أنكروا البعث **وتمردوا** ، شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقص تعالى عليه قصة موسى عليه السلام ، **وتمرد** فرعون على الله عز وجل حتى ادعى الربوبية ، وما آل إليه حال موسى من النجاة ، وحال فرعون من الهلاك ، فكان ذلك مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتبشيرا بهلاك من يكذبه ، ونجاته هو من أذاهم. فقال تعالى : ﴿هل أتاك﴾ ، توقيفا له على جمع النفس لما يلقيه إليه ، وتقدم الكلام في الوادي المقدس ، والخلاف في القرآت في ﴿طوى﴾ . ﴿اذهب إلى فرعون﴾ : تفسير للنداء ، أو على إضمار القول ، ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ : لطف في الاستدعاء لأن كل عاقل يجيب مثل هذا السؤال بنعم ، وتزكى : تتحلى بالفضائل وتتطهر من الرذائل ، والزكاة هنا يندرج فيها الإسلام وتوحيد الله تعالى. وقرأ الحرميان وأبو عمرو : بخلاف تزكى وتصدى ، بشد الزاي والصاد ؛ وباقي السبعة : بخفها. وتقول العرب : هل لك في كذا ، أو هل إلى كذا ؟ فيحذفون القيد الذي تتعلق به إلى ، أي هل لك رغبة أو حاجة إلى كذا ؟ أو سبيل إلى كذا ؟ قال الشاعر :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤١٦

فهل لكم فيها إلي فإننيبصير بما أعيا النطاسي حذيما

﴿وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ : هذا تفسير للتزكية ، وهي الهداية إلى توحيد الله تعالى ومعرفته ، ﴿فتخشى ﴾ : أي تخافه ، لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة ، ﴿ومن الناس والدوآب والانعام مختلف ألوانه﴾ . وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر ، وفي الكلام حذف ، أي فذهب وقال له ما أمره به ربه ، وأتبع ذلك بالمعجزة الدالة على صدقه. ﴿فأراه الاية الكبرى ﴾ : وهي العصا واليد ، جعلهما واحدة ، لأن اليد كأنها من جملة العصا لكونها تابعة لها ، أو العصا وحدها لأنها كانت المقدمة ، والأصل واليد تبع لها ، لأنه كان يتقيها بيده. وقيل له ﴿وأدخل يدك فى جيبك﴾ . ﴿فكذب﴾ : أي فرعون موسى عليه السلام وما أتى به من المعجز ، وجعل ذلك من باب السحر ، ﴿وعصى ﴾ الله تعالى بعدما علم صحة ما أتى به موسى ، وإنما أوهم أنه سحر. ﴿ثم أدبر يسعى ﴾ ، قيل : أدبر حقيقة ، أي قام من مكانه فارا بنفسه. وقال الجمهور : هو كناية عن إعراضه عن الإيمان. ﴿يسعى ﴾ : يجتهد في مكايدة موسى عليه السلام.

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢٥٥/٨

﴿فحشر﴾ : أي جمع السحرة وأرباب دولته ، ﴿فنادى ﴾ : أي قام فيهم خطيبا ، أو فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه. ﴿فقال أنا ربكم الاعلى ﴾ ، قال ابن عطية : قول فرعون ذلك نهاية في المخرقة ، ونحوها باق في ملوك مصر وأتباعهم. انتهى. وإنما قال ذلك لأن ملك مصر في زمانه كان اسماعيليا ، وهو مذهب يعتقدون فيه إلهية ملوكهم ، وكأن أول من ملكها منهم المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله ، ولاهم العاضد وطهر الله مصر من هذا المذهب

٤٢١

الملعون بظهورالملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن سادي ، رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام خيرا.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤١٦

﴿فأخذه الله نكال الاخرة والاولى ﴾ ، قال ابن عباس : الآخرة قوله : ﴿ما علمت لكم من إلاه غيرى﴾ ، والأولى قوله : ﴿أنا ربكم الاعلى ﴾ . وقيل العكس ، وكان بين قولتيه أربعون سنة. وقال الحسن وابن زيد : نكال الآخرة بالحرق ، والأولى يعني الدنيا بالغرق. وقال مجاهد : عذاب آخرة حياته وأولادها. وقال أبو زرين : الأولى كفره وعصيانه ، والآخرة قوله : ﴿أنا ربكم الاعلى ﴾ . وقال مجاهد عبارة عن أول معاصيه ، وآخرها : أي نكل بالجميع ، وانتصب نكال على المصدر والعامل فيه ﴿فأخذه﴾ لأنه في معناه وعلى رأي المبرد : بإضمار فعل من لفظه ، أي نكل نكال ، والنكال بمعنى التنكيل ، كالسلام بمعنى التسليم. وقال الزمخشري : ﴿نكال الاخرة﴾ هو مصدر مؤكد ، ك ﴿وعد الله﴾ ، و﴿صبغة الله﴾ ، كأنه قيل : نكل الله به نكال الآخرة والأولى. انتهى. والمصدر المؤكد لمضمون الجملة السابقة يقدر له عامل من معنى الجملة. ﴿إن فى ذالك﴾ : فيما جرى لفرعون وأخذه تلك الأخذ ، ﴿لعبرة﴾ : لعظة ، ﴿لمن يخشى ﴾ : أي لمن يخاف عقوبة الله يوم القيامة وفي الدنيا.

". (١)

"﴿ ١٤٥ ﴾ ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾ .

كان النبي صلى الله عليه وسلم من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطف بهدايتهم، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله، فكان من الكفار، من **تمرد** عن أمر الله،

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣١٦/٨

واستكبر على رسل الله، وترك الهدى، عمدا وعدوانا، فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم عن يقين، لا عن جهل، فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو ﴿ أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ﴾ أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك ويبين ما تدعو إليه، ﴿ ما تبعوا قبلتك ﴾ أي: ما تبعوك، لأن اتباع القبلة، دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك، لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيد وينتفع بها من يتطلب الحق، وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق، فلا حيلة فيه.

وأيضا فإن اختلافهم فيما بينهم، حاصل، وبعضهم، غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد، وهم الأعداء حقيقة الحسدة، وقوله: ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ أبلغ من قوله: "ولا تتبع "لأن ذلك يتضمن أنه صلى الله عليه وسلم اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: "ولو أتوا بكل آية "لأنهم لا دليل لهم على قولهم.

وكذلك إذا تبين الحق بأدلته اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنها لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح، فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ إنما قال: "أهواءهم "ولم يقل "دينهم "لأن ما هم عليه مجرد أهوية (١) نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين، اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ .

﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل، ﴿ إنك إذا ﴾ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام، ﴿ لمن الظالمين ﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم، من ظلم، من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق، وهذا، وإن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم، فإن أمته داخلة في ذلك، وأيضا، فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم لو فعل ذلك -وحاشاه- صار ظالما مع علو مرتبته، وكثرة حسناته (٢) فغيره من باب أولى وأحرى.

---

(١) في ب: أهواء.

(٢) في ب: إحسانه.." [1]

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٢

"﴿ ١٨١ - ١٨٢ ﴾ ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ .

يخبر تعالى، عن قول هؤلاء **المتمردين**، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها، وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه وأنه سيكتبه ويحفظه، مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم -بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء- ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس ظلما من الله لهم، فإنه ﴿ ليس بظلام للعبيد ﴾ فإنه منزه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبائح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا بذلك، وذكروا منهم "فنحاص بن عازوراء" من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ قال: -على وجه التكبر والتجرهم- هذه المقالة قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك، وهو: ﴿ قتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ هذا القيد يراد به، أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلا وضلالا بل **تمردا** وعنادا.." (١)

"﴿ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا * أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا * إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما * والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا ﴾ .

وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله.

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٥٩

فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله -عبدة الأصنام- على طريق المؤمنين فقال: ﴿ ويقولون للذين كفروا ﴾ أي: لأجلهم تملقا لهم ومداهنة، وبغضا للإيمان: ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ أي: طريقا. فما أسمجهم وأشد عنادهم وأقل عقولهم! كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادي الذميم؟. هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء، فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال، فهل هذا إلا من الهذيان، وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلا وإما من أعظمهم عنادا وتمردا ومراغمة للحق، [ص ١٨٣] وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ أي: طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته. ﴿ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ أي: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان.

﴿ أم لهم نصيب من الملك ﴾ أي: فيفضلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل، ولهذا قال: ﴿ فإذا ﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿ لا يؤتون الناس نقيرا ﴾ أي: شيئا ولا قليلا. وهذا وصف لهم بشدة البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله. وأخرج هذا مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره عند كل أحد.

﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله فيفضلون من شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله. ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من أنبيائه كـ "داود" و "سليمان" . فإنعامه لم يزل مستمرا على عباده المؤمنين. فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق وأجلهم وأعظمهم معرفة بالله وأخشاهم له؟.

﴿ فمنهم من آمن به ﴾ أي: بمحمد صلى الله عليه وسلم فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي.

﴿ ومنهم من صد عنه ﴾ عنادا وبغيا وحسدا فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿ وكفى بجهنم سعيرا ﴾ تسعر على من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة.

ولهذا قال: ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ﴾ أي: عظيمة الوقود شديدة الحرارة ﴿ كلما نضجت جلودهم ﴾ أي: احترقت ﴿ بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ أي: ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ. وكما تكرر منهم الكفر والعناد وصار وصفا لهم وسجية؛ كرر عليهم العذاب جزاء وفاقا، ولهذا قال: ﴿ إن الله كان عزيزا حكيما ﴾ أي: له العزة العظيمة والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

﴿ والذين آمنوا ﴾ أي: بالله وما أوجب الإيمان به ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿ سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿ وندخلهم ظلا ظليلا ﴾ .." (١)

"فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال: ﴿ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك ﴾ أي: يكون وقت نزولها عيدا وموسما، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين.

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرا لآياته، ومنبها على سنن المرسلين وطرقهم القويمة، وفضله وإحسانه عليهم. ﴿ وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ أي: اجعلها لنا رزقا، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقا.

﴿ قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادا وظلما، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد. واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم -إن كفروا- بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل على ذلك، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى، ولا له وجود. ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فنسوه.

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلا وإنما ذلك كان متوارثا بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى الله بذلك

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٨٢

عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿ ونكون عليها من الشاهدين ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى. فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿ سبحانك ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعما لا يليق بك.

﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد، مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: "لم أقل شيئا من ذلك" وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك، ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم فهو ربي.

﴿ وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به. ﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم. ﴿ وأنت على كل شيء شهيد ﴾ علما وسمعا وبصرا، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر.

[ص ٢٥٠]

﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم. ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿ قال الله ﴾ مبينا لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، ﴿

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾ والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم، وثمرة أعمالهم الفاسدة.

﴿ لله ملك السماوات والأرض ﴾ لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله رب العالمين.." (١)

"﴿ ٥٠ ﴾ ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ المقترحين (١) عليه الآيات، أو القائلين له: إنما تدعونا لنتخذك إلها مع الله. ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ أي: مفاتيح رزقه ورحمته. ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ وإنما ذلك كله عند الله فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة. فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول.

﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ فأكون نافذ التصرف قويا، فلست أدعي فوق منزلتي، التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

فإذا عرفت منزلتي، فلأي شيء يبحث الباحث معي، أو يطلب مني أمرا لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان، بغير ما هو بصدده؟.

ولأي شيء إذا دعوتكم، بما أوحي إلي أن تلزموني أني أدعي لنفسي غير مرتبتي. وهل هذا إلا ظلم منكم، وعناد، وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق، بين من قبل دعوتي، وانقاد لما أوحي إلي، وبين من لم يكن كذلك ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ فتنزلون الأشياء منازلها، وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار؟

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٤٩

(١) زاد هنا في طبعة السلفية قبل كلمة المقترحين: (أن يخاطب) المقترحين.." [١]

"ولما دعا له بالأمن دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ أي: اجعلني وإياهم جانبا بعيدا عن عبادتها والإلمام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها فقال:

[ص ٤٢٧]

﴿ ٣٦ ﴾ ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾ .

أي: ضلوا بسببها، ﴿ فمن تبعني ﴾ على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿ فإنه مني ﴾ لتمام الموافقة ومن أحب قوما وتبعهم التحق بهم.

﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده لا يعذب إلا من تمرد عليه.." [٢]

"﴿ ٨٠ - ٨٣ ﴾ ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين * والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون * فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين * يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ .

يذكر تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها فقال: ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ﴾ في الدور والقصور ونحوها تكنكم من الحر والبرد وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف (١) والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، [ص ٤٤٦] ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام ﴾ إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر.

﴿ بيوتا تستخفونها ﴾ أي: خفيفة الحمل تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿ و ﴾ جعل لكم ﴿ من أصوافها ﴾ أي: الأنعام

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٥٧

(٢) تفسير السعدي، ص/٤٢٦

﴿ وأوبارها وأشعارها أثاثا ﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك.

﴿ ومتاعا إلى حين ﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله.

﴿ والله جعل لكم مما خلق ﴾ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها، ﴿ ظلالا ﴾ وذلك كأظلة الأشجار والجبال والآكام ونحوها، ﴿ وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴾ أي: مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء.

﴿ وجعل لكم سرابيل ﴾ أي: ألبسة وثيابا ﴿ تقيكم الحر ﴾ ولم يذكر الله البرد لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿ لكم فيها دفء ومنافع ﴾

﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ أي: وثيابا تقيكم وقت البأس والحرب من السلاح، وذلك كالدروع والزرد ونحوها، كذلك يتم نعمته عليكم حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿ لعلكم ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿ تسلمون ﴾ لعظمته وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليها ومسديها، فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر ، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبى الظالمون إلا تمردا وعنادا.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿ فإن تولوا ﴾ عن الله وعن طاعته بعد ما ذكروا بنعمه وآياته، ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أديت ما عليك، فحسابهم على الله فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها، ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قصودهم وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم متمرد على الله وعلى رسله.

---

(١) في الأصل: البيوت والغرف والبيوت.." [1]

"﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾

---

(١) تفسير السعدي، ص/٤٤٥

ف ﴿ قال ما أظن أن تبيد ﴾ أي: تنقطع وتضمحل ﴿ هذه أبدا ﴾ فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي ﴾ على ضرب المثل ﴿ لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ أي ليعطيني خيرا من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالما بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظا من العقل، فأي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب، أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام، على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.." [1]

"﴿ ٣٩-٤٤ ﴾ ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا * فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا * أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا * وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا * ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا * هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ .

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت -وإن فخرت علي بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالا وولدا -فإن ما عند الله، خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿ فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها ﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿ حسبانا من السماء ﴾ أي: عذابا، بمطر عظيم أو غيره، ﴿ فتصبح ﴾ بسبب ذلك ﴿ صعيدا زلقا ﴾ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها.

﴿ أو يصبح ماؤها ﴾ الذي مادتها منه ﴿ غورا ﴾ أي: غائرا في الأرض ﴿ فلن تستطيع له طلبا ﴾ أي: غائرا لا يستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمن، غضبا لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها، لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه ﴿ وأحيط بثمره ﴾ أي: أصابه عذاب، أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثماره، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، ﴿

(١) تفسير السعدي، ص/٤٧٧

ف أ ◌صبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ أي على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضا على شركه، [ص ٤٧٨] وشره، ولهذا قال: ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا ﴾

قال الله تعالى: ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ﴾ أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئا، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفس منتصرا، وكيف ينتصر، أي: يكون له أنصارا على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا؟"

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب **تمرده** وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

﴿ هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحا، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمنا به تقيا، كان له وليا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه، فثوابه الدنيوي والأخروي، خير (١) ثواب يرجى ويؤمل، ففي هذه القصة العظيمة، اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعما دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلا فإنه يحرمها طويلا وأن العبد ينبغي له -إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده- أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها، وأن يقول: ﴿ ما شاء الله، لا قوة إلا بالله ﴾ ليكون شاكرا لله متسببا لبقاء نعمته عليه، لقوله: ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله: ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ﴾ وفيها أن المال والولد لا ينفعان، إن لم يعينا على طاعة الله كما قال تعالى: ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا ﴾ وفيه الدعاء بتلف مال ما كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصا إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم، وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم ف ﴿ هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ أي:

عاقبة ومآلا.

---

(١) في الجملة إشكال دفع إلى جعلها في بعض الطبعات (شر ثواب) وهي في النسختين (خير ثواب) وظاهر أن المقصود بذلك من كان مؤمنا تقيا، فهو الذي ثوابه خير ثواب.." (١)

"﴿ ٢٤ - ٣٦ ﴾ ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ .

لما أوحى الله إلى موسى، ونبأه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية -قبحه الله- أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحدا، إلا بعد قيام الحجة بالرسل، فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملا عظيما، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام، وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي [هي] (١) من تمام الدعوة، فقال: ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿ ويسر لي أمري ﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿ واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي ﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون كما قال الله عنه أنه قال ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لسانا ﴾ فسأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني

---

(١) تفسير السعدي، ص/٤٧٧

﴿ واجعل لي وزيرا من أهلي ﴾ أي معينا يعاونني ويؤازرني ويساعدني على من أرسلت إليهم وسأل أن يكون من أهله لأنه من باب البر وأحق ببر الإنسان قرابته ثم عينه بسؤاله فقال ﴿ هارون أخي * اشدد به أزري ﴾ أي قوني به وشد به ظهري قال الله ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا ﴾

﴿ وأشركه في أمري ﴾ أي في النبوة بأن تجعله نبيا رسولا كما جعلتني

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال ﴿ كي نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا ﴾ علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات

﴿ إنك كنت بنا بصيرا ﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم فمن علينا بما سألناك وأجب لنا فيما دعوناك

فقال الله ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ أي أعطيت جميع ما طلبت فسنشرح صدرك ونيسر أمرك ونحل عقدة من لسانك يفقهوا قولك ونشد عضدك بأخيك هارون ﴿ ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾

وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدل على كمال معرفته بالله وكمال فطنته ومعرفته للأمور وكمال نصحه وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق خصوصا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات والمراوضات ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه ويحتاج مع ذلك أيضا أن يتيسر له أمره فيأتي البيوت من أبوابها ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن يعامل الناس كلا بحسب حاله وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيها وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم خصوصا خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر وتيسير الأمر وفصاحة اللسان وحسن التعبير والبيان والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره

(١) زيادة من هامش: ب.." [(١)]

"﴿ ٤٢ - ٤٦ ﴾ ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري * اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى * قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ .

لما امتن الله على موسى بما امتن به، من النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ هارون ﴿ بآياتي ﴾ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملئه، ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة ذكري بل استمرا عليه، والزماه كما وعدتما بذلك ﴿ كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا ﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها، ويخفف حمله١.

﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي: جاوز الحد، في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه.

﴿ فقولا له قولا لينا ﴾ أي: سهلا لطيفا، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، ﴿ لعله ﴾ بسبب القول اللين ﴿ يتذكر ﴾ ما ينفعه فيأتيه، ﴿ أو يخشى ﴾ ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل فإنه أتى بـ " هل " الدالة على العرض والمشاورة التي لا يشمئز منها أحد ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس التي أصلها التطهر من الشرك الذي يقبله كل عقل سليم ولم يقل " أزكيك " بل قال " تزكى " أنت بنفسك ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها فقال ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب علم أنه لا ينجع فيه تذكير فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر

﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ﴾ أي يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن تبلغه رسالاتك ونقيم عليه الحجة ﴿ أو أن يطغى ﴾ أي **يتمرد** عن الحق ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٠٤

﴿ قال لا تخافا ﴾ أن يفرط عليكما ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي أنتما بحفظي ورعايتي أسمع أقوالكما وأرى جميع أحوالكما فلا تخافا منه فزال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما." (١)

"﴿ ٣ - ٤ ﴾ ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد *كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ .

أي: ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، **متمرد** على الله وعلى رسله، معاند لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار.

﴿كتب عليه ﴾ أي: قدر على هذا الشيطان المريد ﴿ أنه من تولاه ﴾ أي: اتبعه ﴿ فأنه يضله ﴾ عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ وهذا نائب إبليس حقا، فإن الله قال عنه ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ فهذا الذي يجادل في الله، قد جمع بين ضلاله بنفسه، وتصديه إلى إضلال الناس، وهو متبع، ومقلد لكل شيطان مريد، ظلمات بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا، جمهور أهل الكفر والبدع، فإن أكثرهم مقلدة، يجادلون بغير علم.." (٢)

"﴿ ٧٥ - ٧٧ ﴾ ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون * ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون * حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ .

هذا بيان لشدة **تمردهم** وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر، دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه. إن الله إذا كشف الضر عنهم لجوا، أي: استمروا في طغيانهم يعمهون، أي: يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.

كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعون مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بالشرك وغيره.

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ قال المفسرون: المراد بذلك: الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد، ﴿ فما استكانوا لربهم

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٠٦

(٢) تفسير السعدي، ص/٥٣٣

﴾ أي: خضعوا وذلوا ﴿ وما يتضرعون ﴾ إليه ويفتقرون، بل مر عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله: ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره، ﴿ إذا هم فيه مبلسون ﴾ آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليحذروا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤدب الله بها عباده. قال تعالى فيها: ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾." (١)

"﴿ ١٥ - ٤٤ ﴾ ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين * وورث سليمان داود ﴾ إلى آخر القصة.

يذكر في هذا القرآن وينوه بمنته على داود وسليمان ابنه بالعلم الواسع الكثير بدليل التنكير كما قال تعالى: ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ الآية.

﴿ وقالا ﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿ الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فحمدا الله على جعلهما من المؤمنين أهل السعادة وأنهما كانا من خواصهم.

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون ثم فوقهم الأنبياء، وداود وسليمان من خواص الرسل وإن كانوا دون درجة أولي العزم [الخمسة]، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نوه الله بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحا عظيما فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد أن يكون شاكرا لله على نعمه الدينية والدنيوية وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها بل يرى أنها تستحق عليه شكرا كثيرا، فلما مدحهما مشتركين خص سليمان بما خصه به لكون الله أعطاه ملكا عظيما وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه صلى الله عليهما وسلم فقال: ﴿ وورث سليمان داود ﴾.

أي: ورث علمه ونبوته فانضم علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه كما تقدم من قوله ففهمناها سليمان، وقال شكرا لله وتبجحا بإحسانه وتحدثا بنعمته: ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾ فكان عليه الصلاة [والسلام] يفقه ما تقول وتتكلم به كما راجع الهدهد وراجعه، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٥٦

﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ أي: أعطانا الله من النعم ومن أسباب الملك ومن السلطنة والقهر ما لم يؤته أحدا من الآدميين، ولهذا دعا ربه فقال: ﴿ وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ (١) فسخر الله له الشياطين يعملون له كل ما شاء من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح غدوها شهر ورواحها شهر.

﴿ إن هذا ﴾ الذي أعطانا الله وفضلنا واختصنا به ﴿ لهو الفضل المبين ﴾ الواضح الجلي فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ أي: جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم، ومن الجن والشياطين ومن الطيور فهم يوزعون يدبرون ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم قد استعد لذلك وأعد له عدته.

وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره لا تقدر على عصيانه ولا **تتمرد** عنه، قال تعالى: ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك ﴾ أي: أعط بغير حساب، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره (٢)

[ص ٦٠٣]

﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة ﴾ منبهة لرفقتها وبني جنسها: ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ فنصحت هذه النملة وأسمعت النمل إما بنفسها ويكون الله قد أعطى النمل أسماعا خارقة للعادة، لأن التنبيه للنمل الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل ثم سرى الخبر من بعضهن لبعض حتى بلغ الجميع وأمرتهن بالحذر، والطريق في ذلك وهو دخول مساكنهن.

وعرفت حالة سليمان وجنوده وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم أنهم إن حطموكم فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه.

﴿ فتبسم ضاحكا من قولها ﴾ إعجابا منه بفصاحتها (٣) ونصحها وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأدب الكامل، والتعجب في موضعه وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم، كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم جل ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت. والرسل منزهون عن ذلك.

وقال شاكرا لله الذي أوصله إلى هذه الحال: ﴿ رب أوزعني ﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد. فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر

نعمته الدينية والدنيوية عليه وعلى والديه، ﴿ وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ أي: ووفقني أن أعمل صالحا ترضاه لكونه موافقا لأمرك مخلصا فيه سالما من المفسدات والمنقصات، ﴿ وأدخلني برحمتك ﴾ التي منها الجنة ﴿ في ﴾ جملة ﴿ عبادك الصالحين ﴾ فإن الرحمة مجعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم.

فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماعه خطاب النملة ونداءها.

ثم ذكر نموذجا آخر من مخاطبته للطير فقال: ﴿ وتفقد الطير ﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو تفقد الطيور والنظر: هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها (٤) ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك لذكره الله لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي فلو أريد هذا المعنى لقال: " وطلب الهدهد لينظر له الماء فلما فقده قال ما قال " أو " فتش عن الهدهد " أو: " بحث عنه " ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضا فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف -مع ذلك- يحتاج إلى الهدهد؟"

وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلما للمتقدم حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالا منقولة عن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها لكون اللفظ دالا عليها، وإن خالفته لفظا ومعنى أو لفظا أو معنى ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلا معلوما مناقضا لها وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به لكونه خفيا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائبا من غير إذني ولا أمري؟.

[ص ٦٠٤]

فحينئذ تغيظ عليه وتوعده فقال: ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ﴾ دون القتل، ﴿ أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

﴿ فمكث غير بعيد ﴾ ثم جاء وهذا يدل على هيبة (٥) جنوده منه وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمنا كثيرا، ﴿ فقال ﴾ لسليمان: ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أي: عندي العلم علم ما أحطت به على علمك الواسع وعلى درجتك فيه، ﴿ وجئتك من سبإ ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ بنبإ يقين ﴾ أي: خبر متيقن.

---

(١) في النسختين: فقال: (رب هب) وهو خطأ.

(٢) في أ: في بعض في.

(٣) في ب: بنصح أمتها.

(٤) في ب: منه.

(٥) كذا في ب، وفي أ: هيبته.." [1]

"﴿ ١ - ١١ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا * إن إلهكم لواحد * رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق * إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحورا ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب * فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ .

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٠٢

هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام، في حال عبادتها وتدبيرها ما تدبره بإذن ربها، على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿ والصافات صفا ﴾ أي: صفوفا في خدمة ربهم، وهم الملائكة.

﴿ فالزاجرات زجرا ﴾ وهم الملائكة، يزجرون السحاب وغيره بأمر الله.

﴿ فالتاليات ذكرا ﴾ وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى.

فلما كانوا متألهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفة عين، أقسم بهم على ألوهيته فقال: ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة.

﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ أي: هو الخالق لهذه المخلوقات، والرازق لها، المدبر لها،فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته، وكثيرا ما يقرر تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، لأنه دال عليه. وقد أقر به أيضا المشركون في العبادة، فيلزمهم بما (١) أقروا به على ما أنكروه.

وخص الله المشارق بالذكر، لدلالتها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها، فلهذا قال: ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ﴾

ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين:

إحداهما: كونها زينة للسماء، إذ لولاها، لكانت السماء جرما مظلما لا ضوء فيها، ولكن زينها فيها لتستنير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل.

والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان مارد، يصل **بتمرده** إلى استماع الملأ الأعلى، وهم الملائكة، فإذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب ﴿ من كل جانب ﴾ طردا لهم، وإبعادا عن استماع ما يقول الملأ الأعلى.

[ص ٧٠١]

﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ أي: دائم، معد لهم، **لتمردهم** عن طاعة ربهم.

ولولا أنه [تعالى] استثنى، لكان ذلك دليلا على أنهم لا يستمعون شيئا أصلا ولكن قال: ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿ فاستفتهم ﴾ أي: اسأل منكري خلقهم بعد موتهم. ﴿ أهم أشد خلقا ﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقا وأشق؟. ﴿ أم من خلقنا ﴾ من [هذه] المخلوقات؟ فلا بد

أن يقروا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.
فيلزمهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ أي: قوي شديد كقوله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون ﴾

---

(١) كذا في ب، وفي أ: ما.." (١)

"﴿ ١٦٧ - ١٨٢ ﴾ ﴿ وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذكرا من الأولين * لكنا عباد الله المخلصين * فكفروا به فسوف يعلمون * ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون * فتول عنهم حتى حين ﴾ إلى آخر السورة.

يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين، يظهرون التمني، ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب، ما جاء [ص ٧٠٩] الأولين، لأخلصنا لله العبادة، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

وهم كذبة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم **متمردون** على الحق ﴿ فسوف يعلمون ﴾ العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضا أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم، نصرا عزيزا، يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا، ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ من يحل به النكال، فإنه سيحل بهم.

﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ أي: نزل عليهم، وقريبا منهم ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة، والاستئصال.

ثم كرر الأمر بالتولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

ولما ذكر في هذه السورة، كثيرا من أقوالهم الشنيعة، التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: ﴿ سبحان ربك ﴾ أي: تنزه وتعالى ﴿ رب العزة ﴾ [أي:] الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به.

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٠٠

﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ الألف واللام، للاستغراق، فجميع أنواع الحمد، من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربى بها العالمين، وأدر عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى، فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. [وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة] (١) .

تم تفسير سورة الصافات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣هـ على يد جامعه:عبد الرحمن بن ناصر السعدي وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. المجلد السابع من تيسير الكريم المنان في تفسير آيات القرآن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين.

---

(١) زيادة من ب.." [١]

"﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ بالاستكبار عن عبادته والعلو على عباد الله، ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات والأدلة القاهرات، فكذبوه وهموا بقتله فلجأ بالله من شرهم فقال: ﴿ وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ﴾ أي: تقتلوني أشر القتلات بالرجم بالحجارة.

﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي وهو مقصودي منكم فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة فاعتزلوني لا علي ولا لي، فاكفوني شركم. فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية بل لم يزالوا **متمردين** عاتين على الله محاربين لنبيه موسى عليه السلام غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل.

﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ أي: قد أجرموا جرما يوجب تعجيل العقوبة.

فأخبر عليه السلام بحالهم وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلا وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه.

﴿ واترك البحر رهوا ﴾ أي: بحاله وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله ثم تبعهم فرعون فأمر الله موسى أن يضرب البحر فضربه فصار اثنى عشر طريقا وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة فسلكه موسى وقومه.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٠٨

فلما خرجوا منه أمره الله أن يتركه رهوا أي: بحاله ليسلكه فرعون وجنوده ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه وقوم فرعون داخلين فيه أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم ولهذا قال: ﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين *كذلك وأورثناها ﴾ أي هذه النعمة المذكورة ﴿ قوما آخرين ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾

﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ أي لما أتلفهم الله وأهلكهم لم تبك عليهم السماء والأرض أي لم يحزن عليهم ولم يؤس على فراقهم بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم حتى السماء والأرض لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين

﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي ممهلين عن العقوبة بل اصطلمتهم في الحال ثم امتن تعالى على بني إسرائيل فقال ﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ﴾ الذي كانوا فيه ﴿ من فرعون ﴾ إذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿ إنه كان عاليا ﴾ أي مستكبرا في الأرض بغير الحق ﴿ من المسرفين ﴾ المتجاوزين لحدود الله المتجرئين على محارمه

﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أي اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿ على علم ﴾ منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿ على العالمين ﴾ أي عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ففضلوا العالمين كلهم وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم

﴿ وآتيناهم ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ من الآيات ﴾ الباهرة والمعجزات الظاهرة ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ أي [ص ٧٧٤] إحسان كثير ظاهر منا عليهم وحجة عليهم على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام." (١)

"﴿ ٥ - ١٠ ﴾ ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير * وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ .

أي: ولقد جملنا ﴿ السماء الدنيا ﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿ بمصابيح ﴾ وهي: النجوم، على اختلافها في

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٧٣

النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكانت سقفا مظلما، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة [ص ٨٧٦] للسماء، [وجمالا]، ونورا وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿ وجعلناها ﴾ أي: المصابيح ﴿ رجوما للشياطين ﴾ الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم، حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب التي ترمى من النجوم، أعدها الله في الدنيا للشياطين، ﴿ وأعتدنا لهم ﴾ في الآخرة ﴿ عذاب السعير ﴾ لأنهم **تمردوا** على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فلهذا قال: ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ الذي يهان أهله (١) غاية الهوان.

﴿ إذا ألقوا فيها ﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿ سمعوا لها شهيقا ﴾ أي: صوتا عاليا فظيعا، ﴿ وهي تفور ﴾ .

﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضا، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟" ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ ؟ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها.

﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم، ضلالا كبيرا، فأي عناد وتكبر وظلم، يشبه هذا؟

﴿ وقالوا ﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع [لهم] ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله، علما ومعرفة وعملا.

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم -في الإيمان-

بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم:

---

(١) في ب: التي يهان بها أهلها.." (١)

"﴿ ١ - ٧ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبرا جميلا * إنهم يرونه بعيدا * ونراه قريبا ﴾ .

يقول تعالى مبينا لجهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب الله، استهزاء وتعنتا وتعجيزا:

﴿ سأل سائل ﴾ أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿ بعذاب واقع للكافرين ﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿ ليس له دافع من الله ﴾ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل، من **متمردي** المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين (١) فقال: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة (٢) ، فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمته، وسعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولاستسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة فقال: ﴿ ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ أي: ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها (٣) على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء [ص ٨٨٦] إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتحيي ربها وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح (٤) وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٧٥

وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه (٥) ، ما عمهم وشملهم وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي.

فبؤسا لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة] فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يظهر لعباده في يوم القيامة من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح صاعدة ونازلة، بالتدابير الإلهية، والشئون في الخليقة (٦) .

في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿ فاصبر صبرا جميلا ﴾ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبرا جميلا لا تضجر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيرا كثيرا.

﴿ إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ﴾ الضمير يعود إلى البعث الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب أي: إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريبا، لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

---

(١) في ب: المكذبين.

(٢) في ب: وإما أن يدخر لهم في الآخرة.

(٣) في ب: بما جعلها.

(٤) في ب: تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٥) في ب: وإحسانه.

(٦) في ب: والشئون الربانية.." [١]

"﴿ ١ - ٢٢ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير * إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ ﴾ .

﴿ والسماء ذات البروج ﴾ أي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿ واليوم الموعود ﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد.

﴿ وشاهد ومشهود ﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أي: مبصر ومبصر، وحاضر ومحضور، وراء ومرئي.

والمقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة.

وقيل: إن المقسم عليه قوله ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

و ﴿ الأخدود ﴾ الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قوما كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم للدخول (١) في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدودا [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿ النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ وهذا

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٨٥

من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة (٢) يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ خلقا وعبيدا، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه (٣) ، ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ علما وسمعا وبصرا، أفلا خاف هؤلاء **المتمردون** على الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله (٤) ، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجاز لهم على فعالهم (٥) ؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى (٦) عن سواء السبيل.

ثم وعدهم، وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: { إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه [ص ٩١٩] وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

ولما ذكر عقوبة الظالمين، ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بقلوبهم ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ بجوارحهم ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾ الذي حصل به الفوز (٧) برضا الله ودار كرامته.

﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام [لقوية] شديدة، وهو بالمرصاد للظالمين كما قال الله تعالى: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾

﴿ إنه هو يبدئ ويعيد ﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك (٨) ، ﴿ وهو الغفور ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

﴿ الودود ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعا لها، كانت عذابا على أهلها، وهو تعالى الودود، الواد لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن ﴿ الودود ﴾ بالغفور، ليدل ذلك على أن

أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه"

﴿ ذو العرش المجيد ﴾ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر، يكون ﴿ المجيد ﴾ نعتا للعرش، وأما على قراءة الرفع، فإن المجيد نعت لله (٩) ، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿ فعال لما يريد ﴾ أي: مهما أراد شيئا فعله، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، وليس أحد فعالا لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئا، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد.

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿ هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود ﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين.

﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تجدي لديهم العظات.

﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أي: قد أحاط بهم علما وقدرة، كقوله: ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ ففيه الوعيد الشديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره.

﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم.

﴿ في لوح محفوظ ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو: اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة.

(١) في ب: على الدخول.

(٢) في ب: حالة.

(٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء.

(٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم مماليك لله.

(٥) في ب: مجازيهم عليها.

(٦) في ب: والجاهل في عمى وضلال.

(٧) في ب: حصل لهم الفوز.

(٨) في ب: فلا يشاركه في ذلك مشارك.

(٩) في ب: فإنه يكون نعتا لله.." [١]

"﴿ ١ - ٨ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ .

﴿ التين ﴾ هو التين المعروف، وكذلك ﴿ الزيتون ﴾ أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿ وطور سينين ﴾ أي: طور سيناء، محل نبوة موسى صلى الله عليه وسلم.

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ وهي: مكة المكرمة، محل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات (١) وأشرفها.

والمقسم عليه قوله: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرا أو باطنا شيئا، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور، وسفساف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين، أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم، إلا من من الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿ فلهم ﴾ [ص ٩٣٠] بذلك

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩١٨

المنازل العالية، و ﴿ أجر غير ممنون ﴾ أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها، ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيء مما أخبرك به، ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟

أم الذي خلق الإنسان أطوارا بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون. تمت ولله الحمد.

تفسير سورة اقرأ

[وهي] مكية

---

(١) في ب: أفضل الأنبياء وأشرفهم.." (١)

"﴿ ١ - ١٩ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم *كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى * أرأيت الذي ينهى * عبدا إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى *كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدع ناديه * سندع الزبانية *كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ .

هذه السورة أول السور القرآنية نزولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع، وقال: ﴿ ما أنا بقارئ ﴾ فلم يزل به حتى قرأ. فأنزل الله عليه: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ عموم الخلق، ثم خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه ﴿ من علق ﴾ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسول إليهم (١) ، وإنزال الكتب عليهم، ولهذا ذكر (٢) بعد الأمر بالقراءة، خلقه (٣) للإنسان.

ثم قال: ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ أي: كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٢٩

كرمه أن علم بالعلم (٤) .

و ﴿ علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلا للناس تنوب مناب خطابهم، فلله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق، ولكن الإنسان -لجهله وظلمه- إذا رأى نفسه غنيا، طغى وبغى وتجبر عن الهدى، ونسي أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان. يقول الله لهذا المتمرد العاتي: ﴿ أرأيت ﴾ أيها الناهي للعبد إذا صلى ﴿ إن كان ﴾ العبد المصلي ﴿ على الهدى ﴾ العلم بالحق والعمل به، ﴿ أو أمر ﴾ غيره ﴿ بالتقوى ﴾ .

فهل يحسن أن ينهى، من هذا وصفه؟ أليس نهيه، من أعظم المحادة لله، والمحاربة للحق؟ فإن النهي، لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

﴿ أرأيت إن كذب ﴾ الناهي بالحق ﴿ وتولى ﴾ عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟

﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ما يعمل ويفعل؟.

ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: ﴿ كلا لئن لم ينته ﴾ عما يقول ويفعل ﴿ لنسفعن بالناصية ﴾ أي: لنأخذن بناصيته، أخذا عنيفا، وهي حقيقة بذلك، فإنها ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

﴿ فليدع ﴾ هذا الذي حق عليه العقاب (٥) ﴿ ناديه ﴾ أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليعينوه على ما نزل به، ﴿ سندع الزبانية ﴾ أي: خزنة جهنم، لأخذه وعقوبته، فلينظر أي: الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة، وأما حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغى إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنهيه فقال: ﴿ كلا لا تطعه ﴾ [أي:] فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين، ﴿ واسجد ﴾ لربك ﴿ واقترب ﴾ منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه.

وهذا عام لكل ناه عن الخير ومنهي [ص ٩٣١] عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة، وعبث به (٦) وآذاه. تمت ولله الحمد.

---

(١) في ب: بإرسال الرسل.

(٢) في ب: ولهذا أتى.

(٣) في ب: بخلقه.

(٤) في ب: بأنواع العلوم.

(٥) في ب: العذاب.

(٦) في ب: وعذبه.." [١]

"تفسير قوله تعالى: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد)

قال الله تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ [الحج:٣].

قالوا: نزلت هذه الآية المكية في النضر بن الحارث، وكان من كبراء مكة، وكان شديد الخصومة للنبي صلى الله عليه وسلم، يجادل بالباطل، ويناظر على الباطل الذي يقوله، كان يجادل بجهل، لا معه أثر من علم، ولا معه عقل حتى يأتي بحجة بينة، فيقوم يقول كلامه ويصدقه الكفار على ذلك.

وإن كانت الآية نزلت في هذا الرجل بخصوصه، ولكن تشمل غيره بعموم اللفظ.

قال الله: (ومن الناس) أي: يوجد من الناس من يجادل وهو لا يعرف شيئا، يجادل بالباطل، وهذا ذم شديد لمن يجادل في الدين أو في غيره بغير علم، فليجادل الإنسان بعلم في حق، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بترك الجدل وقال: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محق١) إلا أن يكون لنصرة دين الله سبحانه تبارك وتعالى، وللرد على كافر أو مبتدع.

هذا الرجل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد ترابا، وقال: أتزعم أن ربك يعيد هذه العظام وقد رمت وبليت؟! فالله عز وجل يثبت حماقة هذا الإنسان وجهله وجداله بالباطل وبغير علم فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ [الحج:٣] فهنا الإنسان الذي يجادل بغير علم يتبع الشيطان المريد **المتمرد** العاتي العاصي لربه، الخارج عن طاعة رب العالمين سبحانه.." [٢]

"تفسير قوله تعالى: (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم)

قال الله تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٣٠

(٢) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٧/١٦

الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [الروم:٩] يعني: هؤلاء الكفار الذين يتنطعون ويتعنتون، ويتطاولون على ربهم، ويكذبون رسل ربهم عليهم الصلاة والسلام، هلا ساروا في الأرض فنظروا فيها؟ انظروا كيف بدأ الله الخلق؟! وكيف ينشئه؟! وكيف يعيده سبحانه وتعالى؟! وكيف فعل بالسابقين؟! وكيف كان عاقبة الذين من قبلهم ونهايتهم؟! عاقبة الشيء ونهايته هي النتيجة التي من ورائه، انظروا كيف عاقب الله سبحانه قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة قوم مدين، وغيرهم كثيرين ممن خلق الله سبحانه، فمنهم من قص علينا قصصهم، ومنهم من لم يذكرهم لنا، فلو أن الإنسان سار في الأرض فلينظر نظرة اعتبار لا نظرة تفسح وتمشية، بل يعتبرون مما حصل للأقوام السابقين، وما الذي صنعوه، وكيف أنهم علوا في الأرض، ففرعون كان قومه يبجلونه ويرفعون شأنه، ويعبدونه من دون الله سبحانه، والآن إذا ذكرناه قلنا: هذا المجنون الذي كان اسمه فرعون، هذا الإنسان الغبي الذي ظن نفسه إلها مع الله سبحانه وتعالى، هذا الذي خدع الناس وقال: أنا ابن الشمس، هذا المغفل الأحمق.

فقومه الذين كانوا معه لا يجرؤون أن يقولوا ذلك له، بل كان يستخفهم فيطيعونه، فنقول: كانوا خفاف العقول، كانوا يطيعونه وهم يعرفون أنه كذاب، وأنهم كذابون في عبادتهم له، فلو أن الناس تفكروا واعتبروا بهؤلاء الذين خافوا من فرعون فعبدوه من دون الله سبحانه، كيف انتهى أمر فرعون وقومه، وصاروا عبرة للناس، وهلا اعتبرتم بهؤلاء؟! كيف فعل الله عز وجل بهم، ففرعون أغرقه الله سبحانه، وهو الذي قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات:٢٤]، وهو الذي قال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص:٣٨]، وحين أغرقه الله قال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ [يونس:٩٠].

قال تعالى: ((أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة)) أي: نهاية ونتيجة سوء عملهم، ﴿كانوا أشد منهم قوة﴾ [الروم:٩] يعني: كانت أبدانهم قوية، وكانوا طوالا في قامتهم، وكانوا عراضا في أبدانهم، وكانوا ذوي عضلات وقوة، وآثارهم تدل على ذلك، انظر إلى الذين بنوا الأهرام يا ترى كيف كانت أجسامهم؟ وكيف كانت قوتهم؟ لعلهم (أوناش) ولعلهم (روافع)، لقد أعطاهم الله عز وجل قوة بدنية، فرفعوا وبنوا وصارت آثارهم تدل على ما أعطاهم الله سبحانه من قوة ومن علوم، لكن هل انتفعوا بما أعطاهم الله من قوة؟ لا، بل تمردوا وعتوا وعلوا في الأرض واستكبروا، فالله سبحانه وتعالى يقول: ((كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض)) أي: أنهم كانوا يقلبون الأرض بالحرث، فكانوا يزرعون ويبذرون ويحصدون، وكانوا أقوياء يفعلون ذلك.

قوله: ﴿وعمروها﴾ [الروم:٩] أي: أقاموا فيها أعمارا طويلة، فهم عمروا حتى قيل: لن يزولوا، أين ذهب هؤلاء؟ انتهى أمرهم، حين يتكلم عنهم الإنسان يقول: قوم في الماضي السحيق، هل كانوا يظنون أن يصيروا ماضيا يتندر بهم ويتكلم الناس عنهم؟! لقد أقاموا عمرا طويلا، فظنوا أنهم لن يبيدوا أبدا، أو قوله سبحانه: ((وأثاروا الأرض وعمروها)) أي: عمروها بالسكنى وعمروها بالزراعة والفلاحة، وعمروها بالصناعة، وعمروها بغير ذلك.

قوله: ((أكثر مما عمروها)) يعني: الذين من بعدهم، وأعمار العباد تتناقص، ففي عهد نوح عاش نوح ألف سنة إلا خمسين عاما عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في الدعوة، أما الآن فلا أحد يعيش هذا العمر، فأعمار أمة النبي صلى الله عليه وسلم قصيرة، من الستين إلى السبعين، والقليل من يجوزون ذلك، لكن السابقون عمروا، كان الواحد يعيش مائتين سنة ويظن أن عمره طويل، ولكن ليس بطويل جدا، الآن لا أحد يعيش هذه المدة، والآن يقولون: المعمر الذي يعيش في البلد الفلاني مائة وخمس عشرة سنة، أو عاش مائة وسبع عشرة سنة فنحن نقول: هذا معمر فكيف به إذا عاش ثلاثمائة سنة أو أربعمائة سنة، يكون ماذا؟ السابقون عاشوا هذه السنين وأكثر.

فالله عز وجل يقول: ((وعمروها)) أي: عمروا الأرض وسكنوا فوقها، وامتدت أعمارهم، لكن مهما طال عمر الإنسان فلا بد في النهاية أن يرجع إلى الله عز وجل ليحاسبه سبحانه.

قال: ((وجاءتهم رسلهم بالبينات)) أي: بالآيات البينات من عند الله، هذه الآيات التي تبين نفسها وتفصح عن نفسها، أو جاءتهم معجزات من عند رب العالمين سبحانه، وقراءة الجمهور: ((وجاءتهم رسلهم))، وقراءة أبي عمرو (وجاءتهم رسلهم بالبينات) بسكون السين فيها.

قوله تعالى: ﴿فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [الروم:٩] كأن هنا فيه شيء مقدر محذوف، والمعنى: أنهم لما جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوا ولم يعتبروا ولم يتعظوا فأهلكهم الله، ولم يظلمهم الله سبحانه بإهلاكهم، قال: ((فما كان الله ليظلمهم)) وقال: ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف:٤٩].

والله عز وجل قد حرم الظلم على نفسه قال: (إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)، فمستحيل أن الله عز وجل يحكم بغير العدل، فحكمه العدل، وقوله الحق سبحانه، ((فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)) أي: ظلموا أنفسهم بشركهم وبعصيانهم **وبتمردهم** على ربهم

سبحانه، وباستكبارهم على رسل ربهم عليهم الصلاة والسلام، فاستحقوا عقوبة رب العالمين سبحانه التي ذكرها في كتابه.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (إنا زينا السماء الدنيا)

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

قال الله عز وجل في سورة الصافات: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحورا ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب * فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب * بل عجبت ويسخرون * وإذا ذكروا لا يذكرون * وإذا رأوا آية يستسخرون * وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أوآباؤنا الأولون * قل نعم وأنتم داخرون﴾ [الصافات:٦ - ١٨].

في هذه الآيات من سورة الصافات يخبرنا الله سبحانه وتعالى كيف أنه زين السماء الدنيا بزينة الكواكب، قال: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ [الصافات:٦]، فالكواكب والنجوم زينة للسماء الدنيا، كذلك فيها رجوم للشياطين، كذلك بالنجم هم يهتدون، يهتدي العباد فيعرفون طرق سيرهم شمالا من جنوب، وشرقا من غرب، فيعرفون الشمال والجنوب، والشرق والغرب، عن طريق النظر إلى الكواكب، والنظر إلى النجوم.

زين الله عز وجل السماء الدنيا بزينة الكواكب، وجعلها حفظا من كل شيطان مارد، فيلقي بالكوكب الشاهب المحرق على الشيطان الذي يسترق السمع من السماء، وكانت الشياطين قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم تسترق السمع من السماء في طرقها، يسمعون ما يقول الملائكة بعضهم لبعض: إن الله قضى بأمر كذا وكذا، ويكون كذا وكذا في الأرض، فتأخذ الشياطين ما تسمعه من الملائكة وتنزل به إلى الأرض، وتلقيه إلى الكهان كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك.

ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان، ينفذهم ذلك، ((ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير)) [سبأ:٢٣]).

فالملائكة يأتيهم أمر الله عز وجل فيفزعون حين يسمعون ذلك خوفا من الله سبحانه وتعالى، وتفزع الملائكة

---

(١) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٣/٢٠٤

وتضرب بأجنحتها خضعانا لأمر الله سبحانه وتعالى قال: (كالسلسلة على صفوان)، يسمع صوت عظيم جدا من ذلك، كضرب سلسلة على حجر أصم، ومعنى الصفوان: الحجر الأصم، ينفذهم ذلك، قال تعالى: ﴿إذا فزع عن قلوبهم﴾ [سبأ:٢٣]، وفزع بمعنى: أزيل الفزع من قلوب الملائكة فيطمئنون ويسأل بعضهم بعضا، ماذا قال ربكم؟ فيجيب من علم بأمر الله سبحانه، ويقول: الحق، ويقول: قال ربنا كذا وكذا، وأمر بكذا.

فتسترق الشياطين السمع من السماء، واستراق السمع: من السرقة، بمعنى: يخطف السمع، يسمع ما يريد أن يأخذه قبل أن يحرقه الله سبحانه وتعالى، يسترق السمع من السماء، وينزل به إلى الأرض ليخبر غيره من شياطين الإنس والجن.

فيقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث هنا: (ومسترق السمع هكذا واحد فوق آخر)، فوصف راوي الحديث أبو سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها، بعضها فوق بعض، (فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي به إلى صاحبه فيحرقه).

إذا: الشياطين تركب بعضها على بعض وأشار بيده هكذا، شيطان فوق شيطان، يركب بعضهم على بعض؛ حتى يتنصتوا إلى خبر السماء، ماذا تقول الملائكة، (ويسترقون) أي: يسرق الشيء الذي يصنعه، يخطفه وينزل به إلى الذي أسفل منه ويخبره أنه سيحصل كذا، وهذا يخبر الذي أسفل، والله يشاء ذلك، ويريد أن ينزل هذا الخبر إلى الأرض فتنة لأهل الأرض، ولكن الذي استرق السمع وسمع هذا الخبر، يرسل الله عز وجل عليه كوكبا شهابا حارقا فيحرقه، وقد يحرق الجميع سبحانه وتعالى، وقد يترك بعضهم يبلغ هذا الخبر إلى الأرض، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي به إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي به إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض، فتلقى على فم الساحر والكاهن، فيكذب معها مائة كذبة).

فالشيطان يحدث الساحر ويحدث الكاهن سيحصل كذا في يوم كذا، ويكذب فوقها مائة كذبة، والشيطان يكذب على الإنسان، والإنسان يكذب ويزيد فيها أيضا ويخبر الناس، قال: (فيصدق فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا، ويكون كذا وكذا، فوجدناه حقا للكلمة التي سمعت من السماء).

هذا لفظ حديث البخاري، وروى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: (سأل أناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان)، الكاهن: هو الذي يخبر بأخبار غيبية، فيكون بعضها كالذي حدث به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنهم ليسوا بشيء -إنهم كذابون- فقالوا: يا رسول الله، فإنهم

يحدثون بالشيء يكون حقا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة).

ولو أن الكهان كل الأخبار التي يخبرون بها كانت كاذبة لم يصدقهم أحد، ولم يذهب أحد يستشيرهم في شيء، ولما احتجنا أن يقول لنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تصدقوا كاهنا ولا عرافا) ولكن لابد أن يبتلى العبد بشيء، أن يصدق هذا الكاهن في شيء؛ ليكون فتنة للناس، والإنسان إذا عرف أن فلانا كذب، كل كلامه كذب، ولكن متى يحتمل أن يصدق هذا الإنسان؟ لما يتكلم بكلام يظهر أنه حق وكلام آخر يكون فيه كذب.

فالله عز وجل يجعل هؤلاء فتنة للناس، أن ينزل الخبر من السماء مع هذا الجني، مع هذا الشيطان فيقرقره في أذن وليه كقرقرة الدجاجة، يعني: ينزل الشيطان ويقرقر مثلما الدجاجة تقرقر، كذلك هو في أذن وليه. يحصل كذا ويحصل كذا، ويحصل كذا، فيكذب الشيطان على الإنسان، والإنسان يكذب فوق ما سمعه، فيحدث الناس بهذا الشيء، فإذا قال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تأتوا الكاهن ولا تصدقوا العراف)، ننفذ ما أمرنا به صلى الله عليه وسلم، وننتهي عما نهانا عنه صلوات الله وسلامه عليه، حتى ولو رأينا منهم خبر صدق في يوم من الأيام، فالمفترض علينا أن لا نصدق أحدا يقول هذا، فإنه لا يعلم الغيب، وقد عرفنا أن الشيطان يلقي إلى الكاهن الخبر الصادق مع مائة من الأخبار الكاذبة.

قال الله عز وجل: ﴿وحفظا من كل شيطان مارد﴾ [الصافات:٧] يعني: حفظ الله عز وجل السماء من أن يدخلها، أي: يدخل من أبواب السماء، يدخل إلى السماء الدنيا والسماء الثانية والثالثة لا يدخلها، ممنوع الشيطان من ذلك، يسترق السمع تحت السماء فقط ويختلس، أما أنه يخترق السماء هذا لا يكون أبدا، قال: ﴿وحفظا من كل شيطان مارد﴾ [الصافات:٧]، والمارد: **المتمرد** العاتي الطاغي، الذي جاوز حده. وقوله تعالى: ﴿وحفظا﴾ [الصافات:٧] أي: حفظنا السماء وحفظنا أخبارها، ﴿من كل شيطان مارد﴾ [الصافات:٧].." (١)

"حقيقة الطاغوت ومعانيه

الطاغوت في الأصل من الطغيان، والطغيان هو مجاوزة الحد، والطاغوت المخلوق هو الذي يجاوز حده فيدعي لنفسه ما ليس له، فيدعي أنه يستحق أن يعبد من دون الله، أو أن يعبد مع الله سبحانه، أو أنه يعلم ما لا يعلمه إلا من علم الغيب ونحو ذلك، فعلى ذلك يدخل في الطاغوت كل إنسان **تمرد** على طاعة الله

---

(١) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٢/٣٢١

سبحانه، وطغى وجاوز حده، وزعم أنه يستحق أن يعبد من دون الله كفرعون وغيره ممن زعم أنه للناس رب، فقال فرعون: ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات:٢٤]، فكان طاغوتا لعنة الله عليه.

كذلك النمرود زعم للناس أنه الرب وأنه يحيي ويميت فكان طاغوتا.

إذا: الطاغوت هو كل من عبد من دون الله، أو ادعى لنفسه أنه يستحق أن يعبد وأنه إله أو أنه رب، كذلك الطاغوت كل من كان رأسا في الضلالة، فهذا هو الطاغوت، ولذلك أخبر الله سبحانه عن المنافقين الذين يزعمون الإيمان ومع ذلك يتحاكمون إلى الطاغوت: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ [النساء:٦٠] أي: هؤلاء أناس من المنافقين زعموا أنهم آمنوا بالله وباليوم الآخر، فلما اختلف بعضهم مع بعض اليهود في أمر من أمور الدنيا وفي حطام من حطام الدنيا، إذا باليهودي كان على حق فيريد أن يتحاكم للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه يعلم أنه لا يقبل رشوة صلوات الله وسلامه عليه، ولا يحكم إلا بالحق عليه الصلاة والسلام، لكن هذا المنافق الذي يزعم أنه مسلم يأبى ويطلب من اليهودي أن يذهب معه إلى الضليل كعب بن الأشرف وهو رجل من كبار اليهود، يأكل السحت ويأكل الرشوة، فطلب المنافق من اليهودي أن يتحاكما إلى هذا الطاغوت، ولما يسأل المنافقون عن ذلك تجدهم يتعللون فيقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: نحن خشينا أن نرهقك بأسئلتنا، وأن نشق عليك، ففضحهم الله سبحانه بأنهم كذبوا، وأنهم ما أرادوا ذلك إلا لكون هذا الكافر الضليل كعب بن الأشرف يحكم بالباطل، ويأكل الرشوة على الحكم، فمن أكل الرشوة على الحكم كان داخلا تحت هذا المسمى الطاغوت.

إذا: من كان كبيرا في قومه يدعوهم إلى الضلالة والبعد عن الله فهو طاغوت.

والطاغوت يطلق أيضا على الأصنام التي صنعوها وعبدوها من دون الله.

والطاغوت يطلق على الشيطان؛ لأنهم عبدوا الشيطان من دون الله سبحانه.

كذلك الطاغوت يطلق على الكهنة والعرافين؛ لأنهم يزعمون أنهم يعلمون الغيب من دون الله سبحانه وتعالى، أو أن الله أطلعهم على أشياء من الغيب، فيخبرون أنهم علموا كذا وسيحدث كذا، والشيء المسروق في المكان الفلاني، فهؤلاء من الطواغيت.

والطاغوت يطلق على مردة أهل الكتاب الكبار منهم الذين يدعون إلى عبادة غير الله سبحانه وتعالى.

وعموما يطلق هذا اللفظ على كل مجاوز لحده في معصية الله سبحانه وتعالى، وفي الطغيان، وفي الكفر.." (١)

"فضائل عمر بن الخطاب

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية في هذا الشأن حتى يقع فيه)، وكان المؤمنون يتغيظون من الكفار أنهم يفعلون بهم كذا وكذا، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلهم يسلمون وستجدون من خير الناس من كان أشدهم كراهية لهذا الدين، وهذا إخبار الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، فإنه لا يقنط، فإن ربنا يهدي من يشاء من هؤلاء، وكان يدعو لـ أبي جهل ولـ عمر بن الخطاب، ولما قتل أبو جهل قال النبي صلى الله عليه وسلم: (هذا فرعون هذه الأمة)، ومع ذلك كان يدعو له أن يهديه الله سبحانه، قال صلى الله عليه وسلم: (اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين)، وهما: أبو جهل أو عمر بن الخطاب رضي الله تبارك عنه، وكان الاثنان أشد الناس كراهية لهذا الدين وللنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين حتى هدى الله عز وجل عمر بن الخطاب، فصار الذي يضرب به المثل في العدالة، وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (لو رآه الشيطان سالكا فجا لسلك فجا آخر).

فهذا كان رضي الله عنه من أشد الناس كراهية لهذا الدين فصار أحب الناس لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وكذلك هند بنت عتبة التي قتل أبوها وعمها وأخوها فتغيضت من حمزة رضي الله تبارك وتعالى عنه، وطلبت من وحشي أن يقتله فقتله وذهبت لتأخذ كبده لتلوكه بأسنانها من غيضها منه، لأنه قتل أباها وأخاها، فكانت من أشد الناس حنقا وتغيظا على الإسلام، ومن أشد الناس كفرا وتمردا إلى أن فتح الله عز وجل مكة للنبي صلوات الله وسلامه عليه.

وكان أبو سفيان قبيل هذا الحين كافرا إلى أن أسلم في فتح مكة، ودخل أبو سفيان بيته ورأته امرأته وهي كافرة فأمسكت به وقالت للكفار: اقتلوا هذا الشيخ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

فآمن أبو سفيان وحسن إسلامه وإيمانه، وأسلمت زوجته هند بعد ذلك وذهبت للنبي صلى الله عليه وسلم فقالت: (ما كان على وجه الأرض بيت أبغض إلي من بيتكم، والآن ما على وجه الأرض بيت أحب إلي من بيتكم، قال: وأيضا)، يعني: أنك ستزدادين حبا فوق حب؛ بما عرفت من دين الله سبحانه تبارك وتعالى.

---

(١) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٣/٣٤٦

هذه المرأة الذي كان الحقد يملأ قلبها سنين طويلة على الإسلام والمسلمين ويشاء الله عز وجل أن يهديها قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين فأسلمت وحسن إسلامها، وغيرها كثير كانوا من أشد الناس في الجاهلية كفرا وحنقا على الإسلام والمسلمين، ولما دخلوا في دين الله ندموا على ما فعلوا قبل ذلك فالحمد لله الذي جعلنا مسلمين ولم يجعلنا في يوم من الأيام نكره هذا الدين ثم هدانا إليه، والحمد لله الذي هدانا لهذا الدين.

والإنسان الذي يرى نفسه على هدى وعلى طريق الله عز وجل يفرح بذلك، ولا ييئس غيره ولا نفسه من رحمة رب العالمين سبحانه، ولعل الله أن يهدي غيره من الناس الذين هم من أشد الناس كراهية للدين، كما هدى أولئك السابقين.." (١)

"نداءات الله تبارك وتعالى لبني آدم ورحمته بهم ونصحه لهم

ثم قال الله جل وعلا هنا: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ [الأعراف:١١]، لكن الله لم يقل في الأعراف هل صور آدم على هيئة حسنة أم على هيئة غير حسنة؟ لكن الله أثبت حسن خلق آدم في التين، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين:٤]، ولهذا قال بعض الفقهاء: لو أن رجلا قال لامرأته: أنت طالق إن لم يكن وجهك أحسن من القمر، فإنها لا تطلق، ولو كانت من أقبح الناس وجها؛ لأن الله يقول: ((لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم))، ثم وقع من أبينا آدم المعصية بالأكل من الشجرة، وأهبط إلى الأرض، فلما أهبط إلى الأرض جاءت النداءات الربانية الإلهية لبني آدم، فناداهم الله في الأعراف بأربع نداءات: - قال في الأولى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير﴾ [الأعراف:٢٦]، هذه الآية مسوقة في سياق الامتنان، واللباس: هو اللباس الضروري الذي تستر به العورة.

والريش: هو اللباس الزائد عن الضروري الذي يتجمل به الإنسان.

قال تعالى: ((قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم)) أي: عوراتكم، وسميت العورة سوءة؛ لأن العاقل يسوؤه أن تظهر عورته للناس، فالله يقول في باب الامتنان على عباده: ((يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا)) لباسا ضروريا، ولباسا زائدا تتزينون به، فلما ذكر الله اللباس الحسي ذكر اللباس المعنوي فقال جل وعلا: ((ولباس التقوى ذلك خير)) أي: خير من كل شيء، خير من كل لباس، ولباس التقوى: أن يكون الإنسان مكتسيا بتقوى الرب تبارك وتعالى في قلبه، يخشى الله تبارك وتعالى ويخافه، ويجتنب

---

(١) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٤٥١/٩

نواهيه ويأتي أوامره، فهذا هو المؤمن حقا الذي ارتدى خير لباس: ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا إن الجمال معادن ومناقب أورثن حمدا فاللباس الحسي يبلى ويبيد ولا ينفعك في الآخرة، بل تستر به عورتك في الدنيا فقط، أما لباس التقوى فهو الذي عليه معيار العقاب والحساب والثواب يوم القيامة.

ثم قال الله: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ [الأعراف:٢٧]، (يا بني آدم) هذا خطاب، ويسمى: نداء علامة، فمتى يسمى النداء نداء كرامة؟ إذا قال الله في القرآن ((يا أيها الذين آمنوا)) هذا نداء كرامة، وإذا قال ((يا أيها الناس)) أو ((يا بني آدم)) فهذا نداء علامة، لأنه يشترك فيه المؤمن والكافر، وإنما علموا بنسبتهم إلى أبيهم.

قال: ((يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان)) وهو العدو الأول، ((كما أخرج أبويكم من الجنة)) الأبوان هنا: آدم وحواء، وإنما سميا أبوان رغم أن حواء امرأة من باب التغليب، وقد قلنا في دروس عدة مكررة: إن العرب إذا تكلمت عن اثنين وأرادت أن تثني فإنها تغلب، لكن معيار التغليب يختلف من مثنى إلى مثنى، فقالوا في الأبوين: الأبوان، فغلبوا الرجل على المرأة؛ لأن الرجل أفضل من المرأة عموما، وقالوا في المدينة ومكة: المكتان؛ لأن مكة عند الجمهور أفضل من المدينة، وقالوا في الحسن والحسين: الحسنان؛ لأن الحسن أكبر، وقالوا في الشمس والقمر: القمران؛ لأن القمر مذكر والشمس مؤنث: وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال فلو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال فهنا قول الله جل وعلا: ((لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما)) لما ذاقا من الشجرة بدت السوءتان لآدم وحواء، فعلما أنهما وقعا في أمر عظيم.

ومن هنا تعلم أن هذا القرآن أنزله الله هداية للناس، فأول طريق للمعاصي هو نزع الحياء من قلب المؤمن، فأول ما أراده إبليس حتى يغوي آدم وزوجته وذريته أن لجأ إلى أول قضية وهي أن يريهما عوراتهما، فإذا كشفت السوءتان في مكان ظاهر، واستمرأ النظر إليها فإن النفس والعياذ بالله يهين عليها ما ترى، فتستمرئ كل الفواحش وتنساق بعد ذلك إلى المعاصي من غير أن تعلم، ولهذا تعلم أن ما صنعه الشيطان قديما يصنعه شياطين الإنس حديثا، فأكثر ما يسعى إليه القائمون على القنوات الفاجرة أن يبثوا أشياء تكشف من خلالها العورات حتى تعتاد الأسرة المسلمة أبا وأما وأحفادا وأبناء على النظر إلى تلك العورات، وأن يصبح أمرا بدهيا مستساغا لدى الأسرة ككل أن تنظر إلى الفواحش والإغراءات وما يكون من اتصالات محرمة وكشف للعورات، إما عن طريق رقص أو غناء أو تمثيل أو غير ذلك، فتصبح الأسرة -والعياذ بالله- بعد

ذلك هينة عليها المعاصي، سهلة على الجميع، ويصبح أمر الله جل وعلا عياذا بالله هينا على تلك القلوب، فمن أراد الله جل وعلا أن يعصمه أول ما يعظم فيه يعظم فيه مسألة الحياء في قلبه، والإنسان إذا جبل على الحياء يقول عليه الصلاة والسلام: (الحياء لا يأتي إلا بخير) وقد ترى أنت بعض الناس على مسألة تستغرب كيف يصنعونها، والفرق بينك وبينه ليس العلم، فهو يعلم وأنت تعلم، لكن الفرق بينك وبينه أن مسألة الحياء شجرة نابتة في قلبك، والحياء في قلبه غير موجود، فلما ذهب الحياء من قلبه سهل عليه أن يأتي المعاصي، قال صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين! يبيت أحدهم يستره ربه -أي: على معصية- فإذا أصبح قال: يا فلان! أما علمت أن البارحة فعلت كذا وكذا وكذا!) يقول صلى الله عليه وسلم: (يمسي يستره الله ويصبح يكشف ستر الله عنه) نعوذ بالله من فجأة نقمته، وزوال نعمته.

والذي يصل إلى هذه المرحلة طبع على قلبه تماما، كمن يذهب إلى حانات الغرب وبارات الشرق فيقع في المعاصي والفجور، وبنات الزنا وأشباه ذلك، ثم والعياذ بالله -مع أن الله قد ستر عليه- يصور نفسه ثم يأتي بتلك الصور ويجمع أقرانه وخلطاءه وأمثاله ليعرض عليهم تلك الصور ويريهم إياها، وهذا قد يصل إلى حد الكفر؛ لأنه في الغالب لا يصنع امرؤ مثل هذا إلا وهو يستحل ما حرم الله، وإن كنا لا نكفر أحدا بعينه لكن نقول: إن هذا من أعظم الدلائل على ذهاب الخشية من القلب، واستيلاء الشيطان على تلك القلوب، يقول صلى الله عليه وسلم: (من ابتلي من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله عليه)، والمؤمن يسأل الله دائما الستر والعافية ومحو الذنوب في الدنيا والآخرة، لكن المقصود من الآية: أن نبين أن من أعظم طرائق إبليس لإغواء الناس: أن ينزع عنهم لباسهما كما قال الله: ((ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم))، فالله كتب أن الإنس لا ترى الجن، والجن ترى الإنس، وقد قلنا في دروس سابقة: إن العرب تسمي الجن خمسة أسماء أو ستة، وأنا مضطر للكلام العلمي؛ فبعضهم يسمون الجني العادي: جني، فإذا كان ممن يسكن البيوت سموه: عمارا، وإذا كان ممن يتعرض للصبيان سموه: أرواحا، فإذا كان فيه شيء من **التمرد** سموه شيطانا، فإذا ازداد **تمرده** سموه: عفريتا، وقد ذكر هذا الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالى.

قال: ((إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون))، يستنبط من هذه الآية: أن عقد الولاية ما بين الإنس والجن قائم على عدم الإيمان؛ لأن الله قال: ((أولياء للذين لا يؤمنون)) فعدم الإيمان بالله عقد ما بين الإنسي والشيطان.." (١)

---

(١) تأملات قرآنية - المغامسي، صالح المغامسي ٦/١١

"تسمية الجن عند العرب وبيان وجودهم قبل الآدميين

وقد اتفق على أن الجن مخلوقون من نار، واختلف في أيهما أقدم خلقا الجن أم الإنس؟ والصحيح أنهم الجن بنص القرآن، حيث قال تعالى: ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ [الحجر:٢٧] أي: من قبل خلقكم.

فلما قطعت الإضافة بنيت (قبل) على الضم.

والعرب في لسانها تسمي الجني بخمسة أسماء، فإذا كانوا يقصدون أصل الخلقة يقولون: جني، فإذا كان مما يسكن البيوت فإنهم يسمونه عامرا، ويجمع على (عمار)، وإذا كان مما يتعرض للصبيان ويفزعهم فإنهم يسمونه أرواحا، وإذا كان ذا قوة وخبث **وتمرد** فإنهم يسمونه شيطانا، فإذا زادت قوته **وتمرده** فإنهم يسمونه عفريتا، قال ذلك الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالى.

وابن عبد البر إمام مالكي شهير، وهو من أكثر علماء الأمة قدرا، وله كتابان في العلم شهيران جدا: الأول: التمهيد، والثاني: الاستيعاب، وله الاستذكار، فرحمه اللہ تعالى.

فالعماد منهم يسكنون البيوت، وقد جاء في موطأ مالك بسند صحيح أن رجلا من الصحابة كان حديث عهد بعرس، فخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم في الخندق، فكان يستأذن النبي عليه الصلاة والسلام ليرجع إلى بيته، ولا يرابط في الخندق؛ لأنه حديث عهد بعرس.

وفي ذات مرة استأذن فرجع، فوجد زوجته خارج البيت، فأصابته الغيرة فسل السيف، فأشارت إليه أن: ادخل الدار.

فلما دخل الدار وجد حية عظيمة قد التفت على فراشه، فأخرج رمحا أو سيفا فضربها به، قال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه راوي الحديث، فلا يدرى أيهما أسبق موتا؟ أي: ماتت الحية التي قتلها ومات الشاب في نفس الوقت، فلما علم صلى الله عليه وسلم قال: (إن في المدينة عمارا)، أي: إخوانا لكم من الجن يعمرونها، وشرع لهم صلى الله عليه وسلم التحريج، أي: أن يحرج على الجني إذا وجده في البيت أو غلب على الظن وجوده، فيحرج عليه أن يخرج ثلاثا، ثم بعد ذلك إن لم يخرج فإن له قتله.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (إن تعذبهم فإنهم عبادك)

ثم قال الله جل وعلا عن عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة:١١٨] وهذه من أعظم آيات القرآن في المعاني، فالله جل وعلا أرحم بعباده من

---

(١) تأملات قرآنية - المغامسي، صالح المغامسي ٦/١٧

أنفسهم، فإذا ألحق العذاب بأحد فمعنى ذلك قطعا أنه مستحق للعذاب، ولو لم يكن عبدا **متمردا** مستحقا للعذاب لما عذبه الله؛ لأن الله أرحم بنا من أنفسنا وأرحم بالعبد من الوالدة بولدها.

فقوله: (إن تعذبهم فإنهم عبادك) يعني: لو لم يستحقوا العذاب لما عذبتهم، والأصل أنهم عبادك مملوكون لك تفعل وتحكم فيهم ما تشاء.

قال تعالى: ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة:١١٨].." (١)

"مشروعية التعوذ قبل التلاوة وبيان معنى الاستعاذة

يستحب قبل تلاوة القرآن أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فما معنى: أعوذ؟ أي: أستجير بالله دون غيره من سائر خلقه، يعني: أعوذ بالله من الشيطان أن يضرني في ديني أو أن يصدني عن حق يلزمني له.

ومن هو الشيطان؟ الشيطان هو كل **متمرد** من الجن والإنس، فأي شيء يكون **متمردا** من جنس معين يطلق عليه شيطان، لماذا؟ لأن أخلاقه وطباعه وأفعاله تفارق وتشذ عن أخلاق وصفات وأفعال باقي جنسه، ولبعده عن الخير، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن﴾ [الأنعام:١١٢]، فدل على أن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين.

ومم اشتقت كلمة شيطان؟ اشتقت من مادة شطن بمعنى: بعد، يقال: شطنت داري من دارك، يعني: بعدت داري من دارك، ويقول الشاعر: نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها رهين نوى: يعني: رحل وسافر، وشطون يعني: بعيد، بمعنى أن سعاد رحلت إلى مكان بعيد.

والرهين: فعيل بمعنى: مفعول، كما تقول: كف خضيب أي: مخضوب، ولحية دهين أي: مدهونة، ورجل لعين أي: ملعون، وكذلك الرجيم المقصود به: الملعون المشتوم، فكل مشتوم بقول رديء أو سب يطلق عليه لفظ المرجوم، والرجم هو الرمي بقول أو بفعل، وله شاهد من القرآن وهو قوله عز وجل: ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾ [مريم:٤٦] يعني: لأرمينك، وهذا من الرمي بالقول.

وسمي الشيطان رجيما لأن الله طرده من سماواته، ورجمه بالشهب والكواكب.." (٢)

"تفسير قوله تعالى: (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله)

أشار تعالى إلى منته في إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم والإعذار ببعثته بقوله: ﴿ولو أنا أهلكناهم

---

(١) تأملات قرآنية - المغامسي، صالح المغامسي ٢٠/٨

(٢) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٤/١

بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ [طه:١٣٤].

((ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله)) أي: من قبل إتيان البينة، أو: من قبل محمد عليه الصلاة والسلام، يعني: لو أن الله أنزل عليهم العذاب قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، لقالوا: ربنا كيف عذبتنا؟ لولا أرسلت إلينا رسولا لترى هل نطيعه أم لا؟ لماذا عذبتنا قبل أن ترسل إلينا رسولا وتقيم علينا الحجة؟ الله سبحانه وتعالى يقول لهم: قد جاءتكم الحجة، وقد جاءتكم المعجزة والدليل على صدق هذا النبي: ((ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله)) أي: من قبل البينة أو من قبل محمد عليه الصلاة والسلام ((لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل)) أي: من عذاب دنيوي ((ونخزى)) أي: من عذاب أخروي؛ أي: ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها، فلم يحصل أننا أهلكناهم قبل إتيان الآية والبينة؛ فانقطعت معذرتهم؛ لأن الله أرسل إليهم الرسول بالفعل ولم يهلكهم قبل أن يرسل الرسول.

فانقطعت معذرتهم، ولذلك عندما يسألون: أما جاءتكم الرسل والنذر؟ ﴿ألم يأتكم نذير﴾ [الملك:٨] ﴿قالوا بلى﴾ [الملك:٩] فيقرون: ﴿قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء﴾ [الملك:٩].

يقول الشنقيطي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾، هذه الآية تشير إلى معناها آية القصص في قوله تعالى: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ [القصص:٤٧]، فهذه الحجة التي يحتجون بها لو لم يأتهم نذير، هي المذكورة في قوله تبارك وتعالى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء:١٦٥] يعني: قبل الرسل تكون لهم هذه الحجة، ويقولون: ﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ [القصص:٤٧]، لكن بعد الرسل قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء:١٥]، ويقول تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء:١٦٥].

قال تعالى: ﴿قل﴾ [طه:١٣٥] أي: لأولئك الكفرة المتمردين، ﴿قل كل متربص﴾ [طه:١٣٥] كل منا ومنكم ((متربص)) أي: منتظر لما يئول إليه أمرنا وأمركم ﴿فتربصوا فستعلمون﴾ [طه:١٣٥]، عما قريب، ﴿فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾ [طه:١٣٥] المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ [طه:١٣٥] أي: من الزيغ والضلال، أي: هل هو النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه أم هم وأتباعهم؛ وقد حقق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده؛ فلله الحمد في الأولى والآخرة.

((قل كل متربص فتربصوا))، أمر جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار

الذين يقترحون الآيات عليه عنادا وتعنتا: كل منا ومنكم ((متربص))، أي: منتظر ما يحل بالآخر من الزواجر كالموت والغلبة.

وقد أوضح في غير هذا الموضع أن ما ينتظره النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمسلمون كله خير، بعكس ما ينتظره ويتربص الكفار، كقوله تعالى: ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ [التوبة:٥٢]، الشهادة أو النصر ﴿إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ [التوبة:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء﴾ [التوبة:٩٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

والتربص: الانتظار.." [1]

"تفسير قوله تعالى: (قل كل متر بص فتربصوا)

قال تعالى: ﴿قل﴾ [طه:١٣٥] أي: لأولئك الكفرة **المتمردين**، ﴿قل كل متربص﴾ [طه:١٣٥] كل منا ومنكم ((متربص)) أي: منتظر لما يئول إليه أمرنا وأمركم ﴿فتربصوا فستعلمون﴾ [طه:١٣٥]، عما قريب، ﴿فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾ [طه:١٣٥] المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ [طه:١٣٥] أي: من الزيغ والضلال، أي: هل هو النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه أم هم وأتباعهم؛ وقد حقق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده؛ فلله الحمد في الأولى والآخرة.

أمر جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار الذين يقترحون الآيات عليه عنادا وتعنتا: كل منا ومنكم ((متربص)) أي: منتظر ما يحل بالآخر من الزواجر كالموت والغلبة.

وقد أوضح في غير هذا الموضع أن ما ينتظره النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمسلمون كله خير، بعكس ما ينتظره الكفار، كقوله تعالى: ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ [التوبة:٥٢]، الشهادة أو النصر ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ [التوبة:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء﴾ [التوبة:٩٨]، إلى غير ذلك من الآيات، والتربص هو: الانتظار.

وفي قوله: ﴿قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾ [طه:١٣٥] ذكر جل وعلا أن الكفار سيعلمون ((من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى)) أي: وفق لطريق الصواب والديمومة على ذلك، وأمر نبيه أن يقول ذلك للكفار.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٠٠/٥

والمعنى: سيتضح لكم أننا مهتدون، وأنا على صراط مستقيم، وأنكم على ضلال وباطل، وهذا يظهر لهم يوم القيامة إذا عاينوا الحقيقة، ويظهر لهم في الدنيا لما يرونه من نصر الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ودينه.

وهذا المعنى الذي ذكره هنا بينه في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾ [الفرقان:٤٢] فالناس الآن في الدنيا، في أثناء السباق، التراب يملأ الجو، وبالتالي لا يستطيع الناس أن يعرفوا من الذي سيسبق؟ ومن الذي سيصل أولا؟ ومن الذي غلب؟ كما قال الشاعر: سوف تدري إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار فكذلك إذا انقضت الدنيا سوف يعلمون.

ومتى يعلم الكفار أن المسلمين كانوا هم أهل الهداية وأصحاب الصراط السوي؟ يجيب تعالى بقوله: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾ [الفرقان:٤٢]، وقال تعالى: ﴿سيعلمون غدا من الكذاب الأشر﴾ [القمر:٢٦]، فبمجرد أن تأتيهم ملائكة الموت وملائكة العذاب سيعلمون ساعتها قطعا ويقينا من المهتدي ومن كان على صواب، وقال تبارك وتعالى: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص:٨٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح، والسوي: المستقيم، وهو الذي لا اعوجاج فيه، ومنه قول جرير: أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم وقوله تعالى: ((فستعلمون من أصحاب الصراط السوي)).

((من)) في قوله: ((من أصحاب)) قال فيها بعض العلماء: هي موصولة، فيكون إعراب ((من)) مفعول به في محل نصب.

وقال بعضهم: هي استفهامية معلقة بالعلم.

هذا آخر تفسير سورة طه.." (١)

"معنى قوله تعالى: (سبحان الذي سخر لنا هذا)

قوله: (سبحان) تدل على تنزيه الله عز وجل أكمل تنزيه وأتمه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وقوله: (الذي سخر لنا هذا) (هذا) راجعة إلى لفظة: (ما) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ما تركبون﴾ يعني: الذي تركبون، والمعنى: (سبحان الذي سخر لنا هذا الذي نركبه.

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى جمع الظهور مع أن كلمة: (ما) مفرد، فقال: ﴿لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ فجمع الظهور نظرا إلى معنى ما؛ لأن معناها عام شامل لكل ما تشمله

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٦/١٠٠

صلتها، فعام، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد في قوله: (عليه) باعتبار لفظها.
وقوله: ((سبحان الذي سخر لنا هذا)) أي: ذلل لنا هذا الذي نركبه من الأنعام والسفن؛ لأن الأنعام لو لم يذللها الله لهم لما قدروا عليها، ولا يخفى أن الجمل أقوى من الإنسان، فلابد للإنسان أن يستحضر هذه النعمة، وأن يشكرها بقلبه، ثم يتدبر ويتفكر فيما يقول ليحسن أداء الشكر بلسانه، وقد رأينا صور الفيلة في بلاد الهند وغيرها، ومع هذا يأتي طفل صغير فيركب على الفيل ويقوده، وكم بين طفل وبين فيل! وأيضا الجمال، فالجمل بلا شك أقوى من الإنسان، ويعرف هذا جيدا من يعرف طبع الجمل إذا نفر **وتمرد** على صاحبه، فهذا التسخير هو بقوة الله عز وجل وإرادته.
وكذلك البحر، فإنه آية من آيات الله سبحانه وتعالى، وفيه من القوة ما لا يجهله أحد، ففيه من الأمواج ما قد تغرق أقوى السفن على الإطلاق، ومع ذلك يذلله الله سبحانه وتعالى ويسخره لبني آدم، فلو لم يذلل الله هذا البحر لإجراء السفن فيه لما قدر الناس على شيء من ذلك.
وقد يقول بعض الناس: إن الذي يحكمه أحوال الطبيعة، وإن السفينة تحمل الأثقال الكبيرة وتثبت فوق الماء وكذا، فنقول: ينبغي أن ننتبه إلى أن الله هو الذي أودع فيه هذه السنن وهذه القوانين، ونحن فقط نكتشفها، أو نكتشف ما نستطيعه مما يتوافق مع حاجاتنا ومصالحنا، ولا شك إنها كلها من فعل الله سبحانه وتعالى.
والقوانين التي تسمى بقوانين الفيزياء كلها عبارة عن سنن موجودة منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى هذا الخلق، فأودعها فيه، ونحن نكتشفها، فالفضل لله عز وجل أولا وآخرا.." (١)
"تفسير قوله تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا لعلهم يرجعون)
قال تبارك وتعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين * فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ [الزخرف:٤٦ - ٤٧].
((ولقد أرسلنا موسى بآياتنا)) أي المصدقة له ((إلى فرعون))؛ لينهاه عن الاستعباد، ((وملئه)) أي: لينهاهم عن التعبد له.
وقوله: ((فقال إني رسول رب العالمين))، أي: فأبان أنه لا يستحق العبادة غير الله تبارك وتعالى، وأنه ليس لأحد سواه عبودية؛ لأنها حق الربوبية المطلقة لله عز وجل.
وقوله تعالى: ﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ [الزخرف:٤٧].

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٠/١٠١

أي: فلما أتاهم بالحجج على التوحيد، والبراءة من الشرك، إذا فرعون وقومه يضحكون، كما أن قومك مما جئتهم به من الآيات والعبر يسخرون، وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم، عما كان يلقى من مشركي قومه، وإعلان منه لهم أن قومه من أهل الشرك لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيب رسله، وإرشاد له صلى الله عليه وسلم بالصبر عليهم أخذا بسنن أولي العزم من الرسل، وإخبار منه له أن مردهم إلى البوار والهلاك، كسنته في **المتمردين** عليهم قبله، وإظهاره عليهم وإعلائه أمره، كالذي فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به، من إظهارهم على فرعون وملئه.

ثم أشار إلى أن موجب الهزء لم يكن إلا لعناد، فما كانوا يهزئون من الآيات والمعجزات التي جاءهم بها موسى عليه السلام لقصور في تلك الآيات على ما تدل عليه، وإنما لمجرد العناد، ومحض الاستكبار والجحود، كما بين موجب هذا الهزء بقوله: ((وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها)).

أي: أختها السابقة عليها، ((وأخذناهم بالعذاب)).

أي: العذاب الدنيوي مما يلجئ إلى الرجوع، ((لعلهم يرجعون)).

فسلط الله عليهم العذاب الدنيوي إلجاء لهم إلى الرجوع وإلى التوبة.." [١]

"كلام الشنقيطي على صدر سورة الجاثية

وقد بين العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره من صدر هذه السورة: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآيات من أول سورة الجاثية ستة براهين من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده.

الأول منها: خلقه السماوات والأرض.

الثاني: خلقه الناس لقوله: (وفي خلقكم).

الثالث: خلقه الدواب.

الرابع: اختلاف الليل والنهار.

الخامس: إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به.

السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين إنما ينتفع بها المؤمنون الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه وآياته، فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم، ولذا قال: (لآيات للمؤمنين)، ثم قال: (آيات لقوم يوقنون)، ثم

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٤/١٠٣

قال: (آيات لقوم يعقلون).

وذكر العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى تفصيل هذه الآيات كما بينتها المواضع الأخرى من القرآن الكريم.

ون توقف فقط عند أحد هذه الأدلة وهو الخامس منها؛ لأن الكلام تكرر عما سبق من قبل مرارا، فنتكلم عن إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به، وإنبات الرزق فيها، كما في قوله: ((وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون))، فقد بينته آيات أخرى من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا﴾ [عبس:٢٤ - ٢٨]، إلى قوله: ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾ [عبس:٣٢]، وهذه الآية تدل على وجوب النظر والتفكر في خلق الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان، وقوله: (فلينظر) أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف أن ينظر ويتأمل في طعامه الذي يأكله ويعيش به، إنما هو من خلق الله الذي كان سببا لنباته، وهل يقدر أحد غير الله سبحانه وتعالى أن يخلق هذا النبات أو الماء أو البذر الذي كان منه هذا الخبز؟

A لا.

ثم هب أن الماء الذي كان سببا لحياة النبات قد خلق بالفعل، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله إلى الأرض على هذا الوجه الذي يحصل به النفع، من غير ضرر بإنزاله على الأرض حتى تروى به الأرض تدريجيا من غير أن يحصل به هدم ولا غرق، كما قال تعالى: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ [النور:٤٣]؟

A لا.

لا توجد قوة بشرية تتحكم في الماء الذي هو سبب أساسي جدا بالنسبة لحياة كل الكائنات الحية، فما هي إلا رحمة الله سبحانه وتعالى.

هذا الهواء الذي نتنفسه متاع لجميع الناس، هل هناك شركة تصرف لنا الهواء الذي نتنفسه؟ تخيل لو أن أحدا من البشر يملك خزائن رحمة الله سواء من الهواء الذي نتنفسه، أو من الماء الذي نشربه ونحيا به إلى غير ذلك من هذه النعم العامة! ثم هب أن الماء قد خلق فعلا وأنزل في الأرض على ذلك الوجه الأتم الأكمل، هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض ويخرج منها من ثمار النبات؟ الجواب: لا.

ثم هب أنك وضعت البذرة في وضع غير الوضع الذي ينبغي أن تكون عليه في التربة، فسوف تجدها بعد حين اعتدلت وأخذت الوضع الصحيح، بحيث أن الجذر يتجه إلى أسفل، والساق يتجه للأعلى، من الذي يفعل هذا؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

ثم هب أن النبات خرج من الأرض فانشقت عنه، فهل يقدر أحد غير الله أن يخرج السنبل من ذلك النبات؟ هذه كلها من آيات الله سبحانه وتعالى التي يجب علينا أن نمتثل أمره الواجب في التفكر فيها، (فلينظر الإنسان إلى طعامه)، فواجب وفريضة وحتم ولازم أن نتفكر في هذه النعم التي أسبغها الله سبحانه وتعالى علينا.

فلابد أننا نلتفت إلى أن هناك قوة، فكل هذه الأشياء لا تحصل بدون مدبر وصانع، وهو الله سبحانه وتعالى، فإنه وراء كل مظاهر كل شيء في هذا الوجود، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فأي نبات أو أي حركة في هذه الدنيا وفي هذا العالم إنما هي بإرادة الله وبقوة الله عز وجل ومشيئته، فالناس ينظرون إلى النبات وهو ينمو، لكن يجب أن نتفكر ما الذي ينمي هذا النبات؟ هي قوة الله سبحانه وتعالى.

الجنين ينمو فمن الذي ينميه من نطفة من ماء مهين، فيجعله بشرا سويا؟ إنها قوة الله سبحانه وتعالى.

ولذلك تحداهم الله عز وجل فقال: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره﴾ [الحج:٧٣ - ٧٤]، تحداهم الله سبحانه وتعالى، وقطع بأنهم يعجزون عن الخلق، ولذلك جزم بقوله: (لن يخلقوا ذبابا)، الذي هو أهون شيء، (ولو اجتمعوا له)، وهذا التحدي قائم إلى الآن وإلى أن تقوم الساعة، لن يستطيعوا أبدا أن يخلقوا شيئا مهما كان هذا الشيء حقيرا، بل إن من أخطر وأضر مخلوقات الله التي نعرفها الفيروسات، انظر كيف تأتي بالدمار وبالأمراض الخطيرة جدا مع أنها من الكائنات الدقيقة، ومع ذلك هي جند من جنود الله يسلطها على أعدائه المتمردين عليه.

فالشاهد: أننا لابد أن نلتفت إلى هذه القوة، فهذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه تفكير المؤمن؛ أن ينسب هذه القوة التي لا نراها -لكن نحس أثرها- إلى فعل الله عز وجل.

يقول: ثم هب أن النبات خرج من الأرض وانشقت عنه، فهل يقدر أحد غير الله أن يخرج السنبل من ذلك النبات؟ الجواب: لا.

ثم هب أن السنبل خرج من النبات، فهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبه وينقله من طور إلى طور حتى ينبت ويكون صالحا للغذاء والقوت؟ الجواب: لا، وقد قال تعالى: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ [الأنعام:٩٩].

وكقوله تعالى: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا * لنخرج به حبا ونباتا * وجنات ألفافا﴾ [النبأ:١٤ -

.[١٦

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون﴾ [يس:٣٣].

واعلم أن إطلاق الله سبحانه وتعالى الرزق على الماء في آية الجاثية هذه، إنما هو باعتبار أن الماء سبب لحصول الرزق، كما قال في سورة المؤمن (سورة غافر): ﴿هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا﴾ [غافر:١٣].." [(١)]

"تفسير قوله تعالى: (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه)

أشار تبارك وتعالى إلى حكاية نوع من أباطيلهم في التنزيل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ [الأحقاف:١١].

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه)، أي: لو كان الإيمان، أو لو كان ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم خيرا ما سبقتمونا إليه، أي: لو كان من عند الله لكنا أولى به كسائر الخيرات من المال والجاه.

قال ابن كثير: يعنون بلالا وعمارا وصهيب وخبابا رضي الله تعالى عنهم، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطا فاحشا وأخطئوا خطأ بينا، كما قال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ [الأنعام:٥٣]، يقول الله تعالى: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ [الأنعام:٥٣]، بلى.

أي: يتعجبون كيف ساد هؤلاء دوننا؟! ولهذا قالوا: (لو كان خيرا ما سبقونا إليه).

وهذه العبارة من كلام ابن كثير ينبغي أن تحفظ؛ لأنها عبارة رائعة من ابن كثير رحمه الله، فهو يفرق بين قول أهل الحق، أهل السنة والجماعة، وبين قول هؤلاء الكافرين **المتمردين** المتكبرين في نظرة كل فريق إلى الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فهم إن كانوا يقولون: لو كان الإسلام خيرا ما سبقونا إليه احتقارا وازدراء لهم فإنا نردد مع ابن كثير رحمه الله تعالى قوله: (وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها رضي الله تعالى عنهم أجمعين)، فهذه عبارة حقها أن تكتب بماء العيون ليس فقط بماء الذهب.

---

(١) تفسير القرآن الكريم – المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٤/١٠٧

ونحن والكفار كلانا لنا موقف من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فهم يقولون: (لو كان خيرا ما سبقونا إليه)، فقد كانوا يحتقرون ضعفاء الصحابة رضي الله تعالى عنهم وفقراءهم وعبيدهم بأن يقولوا: (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) استكبارا وعلوا واحتقارا وازدراء لهم.

أما أهل الحق في كل عصر وفي كل دين إلى أن تقوم الساعة فإنهم يقولون: (لو كان خيرا لسبقونا إليه)؛ لأنهم أولى الناس بالخير، وفي هذه العبارة يدفع في صدر كل مبتدع أيا كان إذا كان يبتدع شيئا لم يفعله الصحابة؛ فإننا ندرأ في نحره بهذه العبارة الرائعة من كلام ابن كثير رحمه الله تعالى: وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

انتهى كلام ابن كثير رحمه الله تعالى.

﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ [الأحقاف:١١].

(وإذ لم يهتدوا به) يعني: بالقرآن.

(فسيقولون هذا إفك قديم) أي: كذب قديم، كما قالوا: ﴿أساطير الأولين﴾ [الأنعام:٢٥]، قال ابن كثير: فيتنقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حده: (الكبر بطر الحق وغمط الناس)، فهم جمعوا بين هذين الركنين من أركان الكبر: بطر الحق: تكبر عن الانقياد إلى الحق، واحتقار الناس: فهم احتقروا الصحابة وقالوا: (لو كان خيرا ما سبقونا إليه)، وتنقصوا القرآن بأن لم ينقادوا به، بأن قالوا فيه: ﴿هذا إفك قديم﴾، هذا أساطير الأولين، فجمعوا بين هذين الركنين اللذين هما ركنا الكبر.

فأهل القرآن ينبغي أن يكونوا أعظم الناس حظا من التبجيل والاحترام؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام سماهم باسم ينبض بأعظم معاني التكريم ورفع الشأن حينما قال: (أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)، فهم خاصة الله عز وجل من بين الخلق، وهم أيضا الذين مدحهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، ولذلك فقوله عليه الصلاة والسلام: (من لم يتغن بالقرآن فليس منا) على تفسيرات عدة: منها: من لم يشعر بأنه أغنى خلق الله إذا حاز القرآن بين جنبيه وفي صدره، فهذا قد حاز أعظم الغناء، ولذلك قال الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام بعدما قال له سبحانه وتعالى أولا: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم﴾ [الحجر:٨٧]، فمن ثم نهاه بعدها مباشرة وقال: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم﴾ [الحجر:٨٨]؛ لأنك غني بالقرآن، فلا تحتاج أبدا أن تنظر إلى زينة الحياة الدنيا، فالزينة

هي القرآن وهي الإيمان، أما هؤلاء الكفار فقد تمكنوا من صفة الكبر، واستوفوا ركني الكبر اللذين هما: بطر الحق، فتكبروا عن الانقياد للحق حينما قالوا: ((هذا إفك قديم))، أو قالوا: ﴿أساطير الأولين﴾ [الأنعام:٢٥]، وغمط الناس حينما قالوا في المؤمنين: ((لو كان خيرا ما سبقونا إليه)).

كان رجل يقول: ما من علم إلا ويوجد في القرآن، فقال له رجل على سبيل التحدي والتعجيز: فأين في القرآن: إن المرء عدو ما يجهل؟ فقال له: في قوله تعالى: ((وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم))؛ لأنه لما جهل القرآن وجهل الحق عاداه.

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ((وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه)): أظهر أقوال العلماء في هذه الآية الكريمة: أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين: (لو كان خيرا ما سبقونا إليه): أنهم كفار مكة، وأن مرادهم: أن فقراء المسلمين وضعفاءهم كـ بلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم رضي الله تعالى عنهم أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير، وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير بزعمهم، وأن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة، وهذا المعنى تدل له آيات كثيرة من كتاب الله، وخير ما يفسر القرآن به القرآن.

أما ادعاؤهم: أن ما أعطوا من المال والأولاد والجاه في الدنيا دليل على أنهم سيعطون مثله في الآخرة، فتكذيب الله لهم في ذلك قد جاء موضحا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون:٥٥ - ٥٦]، فمن الاغترار ومن الجهل والحمق أن يظن هؤلاء الكفار أن الله إن كان أعطاهم الدنيا فلابد أن ما هم فيه خير، وأنه سوف يؤتيهم مثله في الدار الآخرة، كلا؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين والإيمان إلا لمن أحب واصطفى.

ففي ميزان الله سبحانه وتعالى لا الصور ولا الأحساب ولا الأنساب ولا المال ولا الجاه يؤثر على الإطلاق، وإنما أكرمكم عند الله أتقاكم، وإلا فكل البشر سواء؛ لا فضل لعربي على أعجمي لأبيض على أسود ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى كما بين النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا﴾ [مريم:٧٧ - ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ [سبأ:٣٥]، مع قوله: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم

بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ [سبأ:٣٧]، وقال تعالى: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ [فصلت:٥٠]، وفي سورة الكهف: ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾ [الكهف:٣٦].

وأما احتقار الكفار لضعفاء المؤمنين وفقرائهم، وزعمهم أنهم أحقر عند الله من أن يصيبهم بخير، وأن ما هم عليه لو كان خيرا لسبقهم إليه أصحاب الغناء والجاه والولد من الكفار فقد دلت عليه آيات أخرى، كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ [الأنعام:٥٣]، فهمزة الإنكار في قوله: (أهؤلاء من الله عليهم) تدل على إنكارهم أن الله يمن على أولئك الضعفاء بخير، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ [الأنعام:٥٣]، بلى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ [الأنعام:٥٤].

وقال تعالى في الأعراف: (." [١]

"الفرق بين أمر الله القدري والشرعي

قوله تعالى: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ [الأحقاف:٢٥]، هذا أمر كوني قدري، وأمر الله سبحانه وتعالى نوعان: الأمر الشرعي الإرادي الديني، والأمر الكوني القدري، فالأمر الشرعي الإرادي كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ [النحل:٩٠]، وكقوله: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ [النساء:٥٨]، فهي أوامر فيها تكليف.

أما الأمر الكوني القدري فمثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ [يس:٨٢]، وقوله عز وجل: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر:٥٠]، وقال تعالى: ﴿وكان أمر الله مفعولا﴾ [النساء:٤٧]، وقال: ﴿وكان أمرا مقضيا﴾ [مريم:٢١]، وقال: ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ [الإسراء:١٦].

والأمر الشرعي الإرادي والأمر الكوني القدري جمعهما الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ [الأعراف:٥٤]، فالخلق متعلق بالربوبية، والأمر متعلق بالألوهية؛ فالأمر الشرعي الإرادي الديني متعلق بالألوهية وبالشرع.

إذا: الأمر الشرعي هو شرعه ودينه، وهذا الأمر قد يعطيه الفجار والفساق.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٥/١٠٩

أيضا الأمر الشرعي يتعلق بالمحبة والرضا، فالله لا يأمر أمرا شرعيا إلا بما يحبه ويرضاه، ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف:٢٨]، فالأمر الشرعي متعلق بألوهيته وشرعه ودينه، أما الأمر الكوني القدري فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وهو قضاؤه وقدره وفعله.

والأمر الشرعي الإرادي الديني قد يعطيه الفجار والفساق، يعني: أن الله سبحانه وتعالى أمر الناس مثلا بالصدق، وببر الوالدين، وبالعدل والإحسان، فهل لابد أن يقع مادام الناس أمروا به؟ لا، فهذا أمر شرعي كلف الله العباد به، لكن قد يخالفه البعض ويمتثل الأمر البعض الآخر، أي: قد **يتمرد** على هذا الأمر الكفار والفساق، بخلاف الأمر الكوني القدري فإنه لا يمكن لأحد أبدا الخروج عن حكمه.

إذا: الأمر الشرعي الإرادي الديني يتعلق بالمحبة والرضا، أما الأمر الكوني القدري فلا يتعلق بالمحبة والرضا مطلقا؛ لأن هذا أمر يعم ما يحبه الله وما لا يحبه الله، ولابد أن يقع، ولا يمكن أن يتخلف.

إذا: الأمران غير متلازمين، فقد يقضي الله سبحانه وتعالى ويقدر ما لا يأمر به وما لم يشرعه سبحانه وتعالى، وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه، ولا يقدره.

إذا: الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، بمعنى: أن الحكم الكوني أو القدري مع الحكم الشرعي يجتمعان في كل ما يقع من العباد من طاعات وإيمان وغير ذلك من هذه الأمور التي هي أولا: حكم شرعي؛ لأن الله أمر بها، ولأن الله يحبها، ويجتمعان في أنها أيضا داخلة في إرادته الكونية العامة، فهنا اجتمعا فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم.

وهل ينتفي الحكمان معا الشرعي الإرادي والكوني القدري؟ نعم ينتفيان فيما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر، فإن الله لا يأمر بالكفر، وهذه الأشياء بالذات لم يقدرها كونا وقدرا.

وقد ينفرد الحكم الشرعي والقضائي الديني فيما أمر الله به وشرعه، ولكن لم يفعله المأمور، فهنا وقع الحكم الشرعي والقضاء الديني، لكن لم يقع الأمر الكوني القدري؛ لأنه لم ينسبه دينا.

ومتى ينفرد الحكم الكوني القدري؟ ينفرد فيما وقع من المعاصي، وهذا وقع من حيث كونا وقدرا، لكن هل يقع بشرع الله وإرادته الشرعية؟ لا؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر بذلك.

إذا: الأمر يستلزم الإرادة الدينية ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإن الله لا يأمر إلا بما يريده شرعا ودينا، ولا يأمر إلا بالأشياء التي يريدها ويحبها مثل: أمره الكافر بالإيمان شرعا وإن كان لم يوفقه له كونا وقدرا.

كذلك أمر خليله عليه السلام بذبح ولده شرعا، لكنه ما أراده كونا وقدرا، بدليل أنه لم يقع.

وأمر رسوله بخمسين صلاة، لكنه لم يرد ذلك كونا وقدرا.
والله سبحانه وتعالى يحب إيمان الكفار، ولكنه سبحانه اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له، وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم، وحصلت من الأمر بالذبح.
ثم أشار الله سبحانه وتعالى إلى أن هذا التدبير لا يقتصر على عاد، بل هو منتظم لكل من كان على شاكلتهم من أهل مكة وغيرها، يقول سبحانه وتعالى: ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ [يونس:١٣] أي: الكافرين إذا تمادوا في غيهم وطغوا على ربهم سبحانه وتعالى.." (١)
"النعم التي أمتن الله بها على نبيه في سورة الضحى
من هذا قول الله سبحانه وتعالى مشيرا إلى تمام النعمة على نبيه عليه الصلاة والسلام ودوامها واتصالها، وأنه لا يسلبه إياها بعد أن أعطاه إياها: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ [الضحى:٤]، نعمة الله عليه في الآخرة أفضل وأعظم وخير من نعمته عليه في الدنيا: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيما فآوى﴾ [الضحى:٥ - ٦] يعني: منذ ولادته ونشأته تعهده الله سبحانه وتعالى من صغره فصانه صلى الله عليه وسلم عن دنس الشرك، وطهره وشق صدره ونقاه، وكان رغم يتمه سيد شباب قريش، حيث قال عمه عند خطبته خديجة لزواجه بها: فتى لا يعادله فتى من قريش حلما وعقلا وخلقا إلا رجح عليه.
أما قوله تبارك وتعالى: ((ولسوف يعطيك ربك فترضى)) قال بعض العلماء: يعطيه في الدنيا من إتمام الدين، وإعلاء كلمة الله، والنصر على الأعداء، والجمهور على أنه في الآخرة: ((ولسوف يعطيك)) يعني: في الآخرة، وفصلته مواضع أخر منها هذا العطاء وهذه النعمة التي سوف يعطيه الله إياها في الآخرة، وهو الذي وعده الله بقوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ [الإسراء:٧٩]، وجاءت السنة ببيان أن هذا المقام المحمود -وهو الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون- هو الشفاعة العظمى حين يتخلى ويعتزل كل نبي، ويقول كل نبي: نفسي نفسي! حتى يصلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: (أنا لها! أنا لها!)، وقد قال صلى الله عليه وسلم (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر).
ومن النعم التي سوف يعطيه الله إياها الحوض المورود، وما خصت به أمته من مجيئهم غرا محجلين يردون عليه الحوض.
ومنها الوسيلة، وهي منزلة رفيعة عالية لا تنبغي إلا لعبد واحد، كما جاء في الحديث: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا علي وسلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد واحد، وأرجو

---
(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٨/١١١

أن أكون أنا هو).

ومنها الشفاعة في دخول الجنة، كما في الحديث: أنه صلى الله عليه وسلم أول من تفتح له الجنة، كما جاء في الحديث: (آتي باب الجنة فأستفتح؛ فيقال لي: من؟ فأقول: محمد، فيقول خازن الجنة: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك) صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنها الشفاعة المتعددة حتى لا يبقى أحد من أمته في النار صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء الحديث الذي فيه: (أن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر ما دعا إبراهيم لقومه حين قال: ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ [إبراهيم:٣٦]، وقال المسيح عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة:١١٨]، ثم بكى النبي صلى الله عليه وسلم) يعني: تذكر إحسان هؤلاء الأنبياء إلى قومهم، فبكى متأثرا، كأنه يقول لله عز وجل: فماذا لي؟ وماذا لأمتي؟ (فبكى ثم قال الله سبحانه وتعالى: ما يبكيك يا محمد؟ -عن طريق جبريل عليه السلام- فقال: يا رب! أمتي أمتي! أمتي أمتي! فأمر الله سبحانه وتعالى جبريل أن يقول له: يا محمد! إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك)، فربط بعض المفسرين بين هذا الحديث الصحيح وبين قوله هنا: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [الضحى:٥]، فقال: أي: سنظل نعطيك ونحسن إلى أمتك إلى أن ترضى، ((ولسوف يعطيك ربك فترضى)) ولذلك بالغ بعض الناس في تأويل هذه الآية حتى خرجوا عن حد الاعتدال فقال شاعر منهم: أترضى حبيبي أن تكون منعما ونحن في جمر اللظى نتقلب ألم يرضك الرحمن في سورة الضحى وكيف ترضى وفينا معذب لا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام يرضيه ما يرضي ربه، ومما يرضي ربه عز وجل ظهور آثار صفات رحمته وصفات عدله أيضا، فكما أن الله يحب أن يغفر الذنوب للعاصين، كذلك من صفات الجلال والكمال والجبروت أن يعذب من تمرد وعصاه فقول الشاعر هنا: أترضى حبيبي أن تكون منعما ونحن في جمر اللظى نتقلب ألم يرضك الرحمن في سورة الضحى وكيف ترضى وفينا معذب وقول الآخر: قرأنا في الضحى ولسوف يعطي فسر قلوبنا ذاك العطاء وحاشا يا رسول الله ترضى وفينا من يعذب أو يساء فهذا الكلام فيه نظر؛ لأن الأمر لو كان بمجرد التعطف لما ذبح عصفور، ولا تألم طفل، وإنما هي سنن الله الماضية التي تظهر وتجلي آثار صفاته وأسمائه جل وعز.

من هذه النعم شهادته على الرسل وشهادة أمته على الأمم، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يشهد على الرسل أنهم قد أبلغوا رسالة ربهم، كذلك أمته تشهد على الأمم كما قال الله: ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ [الحج:٧٨]، أما هو صلى الله عليه وسلم فلا يحتاج إلى من يشهد له، وأما قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالا

فهدى﴾ [الضحى:٧] فقيل: غافلا عما تعلمه الآن من الشرائع يعني: قبل نزول الوحي عليك، وفيه أسرار علوم الدين التي لا تعلم بالفطرة ولا بالعقل، وإنما بالتلقين عن طريق الوحي، فهداك إلى ذلك بما أوحى إليك، فمعنى الضلال على هذا القول الذهاب عن العلم، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾ [النساء:١١٣]، وقال عز وجل: ﴿وإن كنت من قبله﴾ [يوسف:٣] أي: من قبل القرآن: ﴿لمن الغافلين﴾ [يوسف:٣]، وقال تعالى: ﴿وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ [القصص:٨٦].

وقيل: ((ووجدك ضالا فهدى)) وجد رهطك ضالين فهداهم بك، كما قال تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف:٨٢] يعني: واسأل أهل القرية.

وقوله: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾ [الضحى:٨] أي: فقيرا فأغناك بمال عمك، ثم ببذل خديجة رضي الله تعالى عنها، ثم بمواساة الأنصار رضي الله عنهم، ثم جاءت غنائم حنين فأعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وتوفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة في أصوع من شعير.

وكان غناه قبل كل شيء هو غنى النفس والاستغناء عن الناس، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة، وأغناه الله سبحانه وتعالى بما لا غنى بعده، أغناه أعظم غنى على الإطلاق كما أشار بذلك قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني﴾ [الحجر:٨٧] الفاتحة، ﴿والقرآن العظيم﴾ [الحجر:٨٧]، وهذه إشارة إلى أنه قد أغناه أعظم وأشرف وأكبر غنى في الوجود، وذلك بالقرآن الكريم، هذا هو الغنى العالي الذي لا يصل إلى رتبته غنى، ثم قال: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين﴾ [الحجر:٨٨]، إشارة إلى الاستغناء بالقرآن عن النظر إلى ما متع الآخرون من متاع الدنيا؛ لأن القرآن يغني صاحبه، قال صلى الله عليه وسلم: (من لم يتغن بالقرآن فليس منا)، وهذه الحديث له تفسيرات عدة، والذي يناسب المقام هنا أنه من لم يستغن بالقرآن عن النظر إلى الدنيا، والسعي الحثيث وراء الدنيا؛ فليس منا، هذا معنى: (من لم يتغن بالقرآن)، وشاهد ذلك من الشعر قول الشاعر: كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا يعني: استغناء.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ [الضحى:١١] قيل: المراد بها المذكورات، والتحدث بها شكرها عمليا من إيواء اليتيم كما آواه الله قال تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ [الضحى:٩]، فهذا هو الشكر العملي لهذه النعم، فكما أنعم الله عليك تنعم أنت على غيرك تأسيا بفعل الله معك، وقيل: التحدث بنعمة

الله هو التبليغ عن الله من آية أو حديث، والنعمة هنا عامة لتنكيرها وإضافتها كما قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [النحل:٥٣]، وأعظم النعم وأولاها وأظهرها نعمة الوحي، ولذلك سورة النحل تسمى سورة النعم، وقد ابتدأت بأعظم نعمة وهي نعمة الوحي، كما قال تبارك وتعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة:٣]، وقال في سورة النحل: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [النحل:٢]، وقال: ﴿وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة:٣] ففي هذه الآية قال: (نعمتي)، وفي هذه الآية في سورة الضحى: ﴿وأما بنعمة ربك﴾ [الضحى:١١]، ولا يبعد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم نحر مائة ناقة في حجة الوداع لما أنزل الله عليه هذه الآية: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة:٣] فنحر في حجة الوداع لما نزلت هذه الآية مائة ناقة شكرا لله على إتمام النعمة وإكمال الدين.." [(١)]

"جواز الاستتار عن المشركين ومفاجأتهم غرة

قال الزهري: (وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشا جمعوا جموعا وقد جمعوا لك الأحابيش) واحدها أحبوش، وهم بنو الهول بن خزيمة بن مدركة، وبنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، كانوا قد تحالفوا مع قريش، وكان التحالف بين هذه القبائل وبين قريش تحت جبل يقال له: الحبشي أسفل مكة؛ فسموا الأحباش؛ نسبة إلى هذا المكان الذي تحالفوا عنده.

وقيل: سموا بذلك لأنهم تجمعوا؛ فمعنى التحبش: التجمع، فسموا بذلك لتحبشهم أي: تجمعهم، والتحبش: التجمع، والحباشة: الجماعة.

وعن عبد العزيز بن أبي ثابت: أن ابتداء حلفهم مع قريش كان على يد قصي بن كلاب.

ووقع عند ابن سعد: وبلغ المشركين خروجهم -يعني: إلى العمرة- فأجمع رأيهم على صده عن مكة، وعسكروا ببلدح، وبلدح: موضع خارج مكة.

قوله: (قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة)، وفي رواية: (فقال له عينه هذا خالد بن الوليد بالغميم)، ويقال: الغميم، يقول المحب الطبري: يظهر أن المراد كراع الغميم، وهو موضع بين مكة والمدينة، وقال ابن حبيب: الغميم قريب من مكة بين غابر والجحفة.

وبين ابن سعد أن خالدا كان في مائتي فارس فيهم عكرمة بن أبي جهل، والطليعة: مقدمة الجيش.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٤/١٢٤

قال النبي عليه الصلاة والسلام: (فخذوا ذات اليمين) أي: خذوا الطريق التي فيها خالد وأصحابه.

قوله: (حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرا).

قترة: المقصود بها الغبار الأسود.

يقول: (إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين، فو الله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش)، لما رآهم خالد انطلق يركض مسرعا ينذر قريشا بمقدم النبي صلى الله عليه وسلم.

قوله: (وسار النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته).

الثنية: هي طريق في الجبل تشرف على الحديبية.

قوله: (حتى إذا كان بالثنية التي كان يهبط عليهم منها بركت به راحلته: فقال الناس: حل حل) وهي كلمة تقال للناقة إذا توقفت عن السير، فإنهم ينادونها بهذه العبارة: حل حل، حثا لها لمواصلة السير والحركة، فقال الصحابة رضي الله تعالى عنهم لناقة النبي صلى الله عليه وسلم لما بركت: (حل حل).

قال الخطابي: إن قلت: (حل) واحدة بالسكون، وإن أعدتها (حل حل) تنون في الأولى وتسكن في الثانية كـ (بخ بخ)، وحكى غيره السكون فيهما، يقال: حلحلت فلانا إذا أزعجته عن موضعه، حتى تحركه من موضعه.

(فقال الناس: حل حل، فألحت) يعني: تمادت وأصرت على عدم القيام، وهو من الإلحاح، رغم قولهم لها: (حل حل) (فقالوا: خلأت القصواء).

الخلأ للإبل كالحران للخيل، ولا يكون الخلاء إلا للنوق خاصة.

والقصواء: اسم ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان طرف أذنها مقطوعا، والقصو: قطع طرف الأذن، يقال: بعير أقصى وناقة قصواء، وزعم الداودي أن هذه الناقة كانت لا تسبق، فقيل لها: القصواء؛ لأنها بلغت من السبق أقصاه.

قوله: (فلما قال الناس: خلأت القصواء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل).

(وما ذاك لها بخلق) يعني: ليس هذا من عادتها أن **تتمرد** وتمتنع عن المشي؛ ولكن حبسها حابس الفيل، فهذا أمر من الله سبحانه وتعالى.

نلاحظ هنا: كيف أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم -تجاوزا- رد غيبة هذه الناقة، استصحابا للأصل،

فإذا كان الشخص معروفا بالخير والاستقامة ثم بدر منه شيء، فالأصل أن تذب عنه، وتحسن الظن به، وتحمل أحواله على أحسن ما يكون، ففي حق دابة قال: (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق)، فهذه إشارة إلى أهمية استصحاب الخلق الأصلي، والطباع الأصلية للشخص، وينظر إلى ما بدر على أنه زلة ليست صفة راسخة فيه، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود)، فالأناس ذوي الهيئة والاستقامة، والمعروفون بالعلم والورع والتقوى، إذا وقع أحدهم في عثرة أو خطأ فلا ينبغي أن تشهر وتضخم، وإنما يعفى عنه فيها إلا إذا أصاب حدا من حدود الله تبارك وتعالى.

قال ابن بطال وغيره: في هذا الفصل جواز الاستتار عن أعين المشركين، ومفاجأتهم بالجيش طلبا لغرتهم -يعني: إشارة إلى المفاجأة في القتال-، وجواز السفر وحده للحاجة، وجواز التنكب عن الطريق السهلة إلى الوعرة للمصلحة.

لأن الدين يسر، ونحن لا ينبغي أن نتعذب بتكلف المشقة إذا كان هناك طريقان -مثلا- إلى المسجد: طريق ممهد وسهل، وطريق آخر وعر فيه الهوام وأشياء ضارة مما يؤذي ويشق على الناس، فلا تسلك الطريق الوعرة طلبا للمشقة، والإسلام لا يرضى أن الإنسان يتكلف المشقة، بل متى ما خير بين أمرين يختار أيسرهما، فنحن لا نتعبد بتحري المشقة، وإنما نختار الأيسر والأسهل، إلا إذا كان لمصلحة كما في هذا الحديث، حيث اختار الطريق الوعرة لأجل المصلحة الراجحة التي استدعت ذلك.

وفي هذا الفصل أيضا جواز الحكم على الشيء بما عرف من عادته، وإن جاز أن يطرأ عليه غيره، فإذا وقع من شخص هفوة لا يعهد منه مثلها لا ينسب إليها، ويرد على من نسبه إليها، ويعذر من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حاله، يعني: إذا نسبه إليها من لم يعرف الأصل في هذا الشخص، فإنه يعذر؛ لأنه لا يعرفه بالحقيقة، أما الذي يعرفه ويعرف أن الأصل أن يستصحب استقامته وأحواله؛ ففي هذه الحالة يحكم عليه بما عرف من عادته؛ لأن خلاء القصواء لولا خارق العادة -وهو أنه حبسها حابس الفيل- لكان ما ظنه الصحابة بها صحيحا من كونها خلأت، ولم يعاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك لعذرهم في ظنهم.

وفيه جواز التصرف في ملك الغير للمصلحة بغير إذنه الصريح، إذا كان سبق منه ما يدل على الرضا بذلك؛ لأنهم قالوا: (حل حل)، فزجروها بغير إذنه، ولم يعاتبهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

قوله: (فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل) وزاد ابن إسحاق (عن مكة) فقال: (حبسها حابس الفيل عن مكة) إشارة إلى ما وقع في قصة الفيل حينما أتى أبرهة بجيشه يقصد هدم الكعبة، فلما أراد أن يقترب من مكة حبس الفيل دون ذلك، وأرسلت عليه

الطير الأبابيل، فمعنى (حبسها حابس الفيل) أي: حبسها الله عز وجل عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها، ومناسبة ذكرها: أن الصحابة لو دخلوا مكة على تلك الصورة وصدتهم قريش عن ذلك؛ لوقع بينهم قتال قد يفضي إلى سفك الدماء، ونهب الأموال، كما لو قدر دخول الفيل وأصحابه مكة، لكن سبق في علم الله تعالى في الموضعين -في حادثة الفيل، وفي الحديبية- أنه سيدخل في الإسلام خلق منهم، ويستخرج من أصلابهم أناس يسلمون ويجاهدون، وكان بمكة في زمن الحديبية جمع كثير مؤمنون من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، يعني: كانوا يستترون بإيمانهم، أو يظهرون إيمانهم ويعذبون ويستضعفون، فلو ترك الصحابة ليدخلوا مكة لما أمن أن يصاب أناس منهم بغير عمد، يعني: إذا دخلوا مكة وحصل قتال وهم لا يعرفون إخوانهم الذين يستترون بإيمانهم ولا يجهرون به، فربما قتلوا إخوانهم دون أن يشعروا، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا في سورة الفتح بقوله: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما﴾ [الفتح:٢٥] لو تميزوا لنزل العذاب على الكفار، لكن منعهم الله عن دخولها، وحبسها حابس الفيل حتى لا يحصل قتال، فتقتلوا إخوانكم المؤمنين في مكة الذين هم مستضعفون وأنتم لا تشعرون؛ فتصيبكم منهم معرة بغير علم، لكن لو كانوا متميزين عنهم: ((لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما))، لكن بوجود هؤلاء المستضعفين حبس الله الناقة عن الاستمرار في السير والدخول إلى مكة؛ حتى لا يقع هذا القتال.

ووقع للمهلب تحرج في جواز إطلاق (حابس الفيل) على الله سبحانه وتعالى، فقال: المراد حبسها أمر الله عز وجل، فهو استبعد جواز هذه الكلمة، والراجح جواز إطلاق ذلك في حق الله، فيقال: (حبسها الله حابس الفيل)، وإنما يمنع تسميته سبحانه وتعالى (حابس الفيل) ونحوه، وكذا أجاب ابن المنير، وهو مبني على الصحيح من أن الأسماء الحسنى توقيفية، بمعنى: أن أمر الإخبار عن الله سبحانه وتعالى وعن أفعاله أوسع من إطلاق الأسماء الحسنى على الله، فالأسماء الحسنى توقيفية، لكن عند الإخبار عن أفعال الله فيمكن أن يحصل توسع بأن يقال: حابس الفيل وغير ذلك من الأفعال أو الصفات، فمثلا قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأييد﴾ [الذاريات:٤٧] ليس من أسماء الله الحسنى الباني، فعند الإخبار عن أفعال الله الأمر فيه سعة، كما في هذه الآية ((والسماء بنيناها بأييد))، ومن أجاز الاشتقاق في الأسماء الحسنى اشترط فيه ألا يشعر بالنقص كالوافي مثلا.." (١)

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٤/١٢٨

"من أحكام قتال البغاة

يقول الشافعي: ليس القتال من القتل بسبيل، قد يحل قتال الرجل ولا يحل قتله.

يعني: هو في حد ذاته بصفته مسلما معصوم الدم، لكن لما خرج على الإمام بقوة مسلحة على الخليفة في جماعة وعصابة استحق أن يقاتل لا بغرض قتله، وإنما بقصد تعجيزه عن **التمرد** على الخليفة، فالمقصود من قتال البغاة أن يعجزوا عن رفع السيف على الخليفة، وليس المراد استحلال دمائهم.

ولذلك نلاحظ فروقا كثيرة بين قتال البغاة وقتال الكفار، ففي البغاة المقصود هو تعجيزهم لا استحلال دمائهم، فمثلا الفار من ساحة القتال لا يتبع بخلاف حالة الكفار، والجريح لا يجهز عليه؛ لأنه بجرحه قد تحقق تعجيزه عن الخروج على الإمام، ولا تسبى نساؤهم لأنهم مسلمون، وغير ذلك من الأحكام، يقول الإمام الشافعي: ليس القتال من القتل بسبيل قد يحل قتال الرجل ولا يحل قتله، كحال الباغي فإنه يحل قتاله إلى أن يعجز، لكن لا يحل قتله لأنه مسلم معصوم الدم.

يقول القاسمي رحمه الله تعالى في الإكليل: في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغي، وأن من رجع من أهل البغي وأدبر لا يقاتل، لقوله: (حتى تفيء) فمن أدبر وهرب من ساحة القتال كان ذلك نوعا من الفيء والرجوع عن التمادي في **التمرد**.

وقد روى سعيد عن مروان قال: صرخ صارخ لـ علي يوم الجمل: لا يقتل مدبر، ولا يجهز على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن! لأن هؤلاء كانوا بغاة وليسوا كفارا، فصرخ صارخ لـ علي يوم الجمل: (لا يقتل مدبر) اي أن من يفر من الساحة لا يقتل ولا يتتبع، (ولا يجهز على جريح) فمن جرح وفقد القدرة على الاستمرار في القتال لا يجهز عليه، بخلاف جريح الكفار، (ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى السلاح فهو آمن).

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم، وأنه لا يغنم لهم مال ولا تسبى لهم ذرية؛ لأنهم لم يكفروا ببغيهم ولا قتالهم، وعصمة الأموال تابعة لدينهم، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم، ولا يضمنوا ما أتلفوه حال الحرب من نفس أو مال، ومن قتل من أهل البغي غسل وكفن وصلي عليه، فإن قتل العادل كان شهيدا، يعني: إن كان القتيل من أهل العدل ومن الفئة التي هي مع الإمام الحق ففي هذه الحال يكون شهيدا، فلا يغسل ولا يصلى عليه؛ لأنه قتل في قتال أمره الله تعالى به، كشهيد معركة الكفار.

هذا الكلام كله لم يعجب الخوارج؛ لأن الخوارج يأخذون بأقصى طرف في هذه المسألة، فلذلك نقموا على علي رضي الله تعالى عنه هذا المسلك مع البغاة، فكان مما أخذوه على علي رضي الله تعالى عنه أنه

لا يسبي نساءهم ولا يغنم أموالهم، بناء على أنهم كفروا عند الخوارج؟! أما ابن عباس رضي الله تعالى عنه فلما بعث من قبل علي كي يناظرهم فقد قال لهم: أتسبون أمكم عائشة رضي الله تعالى عنها؟! وإن أظهر قوم رأي الخوارج ومذهبهم المنحرف، كاعتقادهم تكفير من ارتكب كبيرة، أو ترك الجماعة -خرج على الجماعة- واستحلال دماء المسلمين وأموالهم، إلا أنهم ما داموا لم يجتمعوا لحرب لم يتعرض لهم، لكن يتعرض لهم بإقامة الحجة والجدال بالتي هي أحسن، وغير ذلك من الأساليب السلمية، لكن لا ينصب لهم القتال إلا إذا اجتمعوا للحرب، وإن جنوا جناية وأتوا حدا يقيمه عليهم الإمام.

وإن اقتتلت طائفتان لعصبية أو طلب رئاسة فهما ظالمتان؛ لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلفت على الأخرى.." [(١)]

"تفسير قوله تعالى: (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر)

قال تبارك وتعالى: ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾ [القمر:١٠ - ١٤].

((فدعا ربه))، يعني: فدعا عليهم نوح ربه، ((أني مغلوب))، أنهم غلبوني **بتمردهم**، ((فانتصر)).

يقول القاسمي: ((فدعا ربه أني مغلوب))، أي: غلبني قومي **تمردا** وعتوا فلم يسمعوا مني، واستحكم اليأس منهم؛ لأنهم جيل وراء جيل، وقرن وراء قرن، ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله، وما يأتي جيل إلا ويكون كافرا كالذي قبله، حينئذ دعا عليهم نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: (فاستحكم اليأس منهم، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم).

فمعنى قوله تعالى: ((فانتصر))، يعني: فانتقم لي ممن كذبني.

((ففتحنا))، هذه إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاء نبيه نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بالطوفان الذي هلكوا فيه.

ونجد المفسرين لدقتهم في الفهم يقدرون هنا كلاما تدل عليه المواضع الأخرى التي ذكرت قصة نوح، فيقولون: ((فدعا ربه أني مغلوب فانتصر))، فأجبنا دعاءه، وهذه دل عليها قوله في سورة الأنبياء: ((ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له)) [الأنبياء:٧٦].

((فدعا ربه أني مغلوب فانتصر)) [القمر:١٠]، فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة؛ لأن الأمر باتخاذ

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٣/١٣٤

السفينة كان قبل الطوفان.

((ففتحنا))، وفي قراءة ابن عامر: ((ففتحنا)) بالتشديد ((بماء منهمر)) [القمر:١١]، أي: متدفق، والماء المنهمر هو الكثير السريع الانصباب، فشبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء، وشق لها أديم الخضراء، يقول الشاعر: أعيني جودا بالدموع الهوامر على خير باد من معد وحاضر (أعيني جودا بالدموع الهوامر) يعني: الغزار الكثيرة.

((وفجرنا الأرض عيونا)) [القمر:١٢]، أي: وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر، ((فالتقى الماء))، أي: ماء السماء وماء الأرض، ماء من السماء كثير وسريع الانصباب، وماء ينبع ويتفجر من الأرض، ((على أمر قد قدر)) [القمر:١٢]، أي: على حال قدره الله وقضاه في اللوح المحفوظ، وهذا الأمر هو هلاك قوم نوح وغرقهم.

وقيل: ((على أمر قد قدر)) [القمر:١٢]، يعني: كان قدر ماء السماء كقدر ماء الأرض بعلم الله سبحانه وتعالى، أي: أن هذا الماء الذي نبع من الأرض وتفجر منها هو في كمه يساوي نفس كم الماء الذي نزل من السماء.

لكن القول الأول أقرب.

وقال محمد بن كعب القرظي مشيرا إلى أن كل شيء إنما يجري بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القدر قبل البلاء.

ثم تلا هذه الآية: ((فالتقى الماء على أمر قد قدر)) [القمر:١٢].

فهذا نوع من الاستشهاد بالآية على معنى آخر، وهو أن كل شيء سبق قضاء الله سبحانه وتعالى به؛ وقوله: (كانت الأقوات قبل الأجساد)، يعني: قبل أن يخلق الله النفس يكون قد كتب لها رزقها وقوتها الذي تقتاته.

(وكان القدر قبل البلاء)، ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ [الحديد:٢٢]، كونها تقع على وفق علمه السابق وتقديره السابق فهذا أمر يسير جدا في حق الله سبحانه وتعالى، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة:٢٠]، فهذا مما يدل على عظم وعموم قدرته تبارك وتعالى.

((وحملناه)) يعني: وحملناه على سفينة ((ذات ألواح ودسر))، وهذا من بديع الكلام، حيث أقيمت صفاتها مقامها، لتأديتها مؤداها؛ لأن هذا الوصف يؤدي المعنى.

((وحملناه على ذات ألواح ودسر))، يعني: على السفينة، وألواحها: خشباتها العريضة التي منها جمعت، أما (الدسر) فجمع دسار ك (حمار) و (حمر)، أما إذا قلنا: إن (دسر) جمع دسر فتكون ك (سقف) و (سقف)، وهي أضلاع السفينة، أو حبالها التي تشد فيها، أو مساميرها، ف (الدسر) المسامير والحبال التي تشد بها الألواح.

هناك قول آخر في (الدسر): إن الدسر هو صدر السفينة؛ لأنه يدسر الماء، أي: يشق الماء ويدفعه إلى الأمام، عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن زكاة العنبر، فقال: إنما هو شيء دسره البحر)، رواه الإمام أحمد، يعني: قذفه أو دفعه البحر.

((تجري بأعيننا))، أي: بمرأى منا، أي: بحفظ الله عز وجل وعنايته، ((تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر))، من هو الذي كان كفر؟ إما أنه الله سبحانه وتعالى، فيكون المعنى: جزاء لمن كفر به، وهو الله عز وجل. أو جزاء لمن كان كفر به، وهو نوح عليه السلام، وما جاء به نوح.

فهذا هنا من الكفر الذي هو ضد الإيمان.

قال بعض المفسرين: قوله تبارك وتعالى: ((جزاء لمن كان كفر)) (من) هنا تكون بمعنى (ما) أي: جزاء لما كان كفر من نعم الله عند الذين أغرقهم؛ لأن (من) قد تأتي بمعنى (ما).

وقد قرأها قتادة: ((جزاء لمن كان كفر))، أي: لمن كان كفر بالله.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات)

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ [الحديد:٢٥]، أي: بالحجج والبراهين القاطعة على صحة ما يدعون إليه، فإن الرسل تأتي مؤيدة بالمعجزات والبينات والحجج على صدقهم في دعواهم الرسالة.

((وأنزلنا معهم الكتاب))، أي: التام في الحكم والأحكام.

((والميزان))، أي: العدل، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما.

قال ابن كثير: وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة.

((ليقوم الناس بالقسط))، أي: بالحق والعدل، وهو اتباع الرسل فيما أمروا به، وتصديقهم فيما أخبروا عنه، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٤/١٤٨

[الأنعام:١١٥]، أي: صدقا في الأخبار، وعدلا في الأحكام، فالتنزيل عبارة عن خبر وحكم، أما أخباره فكلها صدق، وأما أحكامه فكلها عدل.

فقوله تعالى: ((ليقوم الناس بالقسط))، إشارة إلى أن الحق والعدل لا يمكن أن يكونا فيما يخالف كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما زين شياطين الإنس دعاواهم بافتراءاتهم الظالمة فيما يوشوش به بعض الشياطين مما يسمونه بحقوق الإنسان أحيانا، ويحاولون إظهار الإسلام كأنه عدو لحقوق الإنسان، وأن العقوبات الشرعية عقوبات وحشية وصارمة إلى آخر هذا الإلحاد! وهذا كفر، ولا يصدر إلا ممن لا يؤمن بمثل هذا الوصف لكتاب الله تبارك وتعالى.

والناس لا يمكن أن يقوموا بالقسط ولا يمكن أن يتحقق بينهم العدل إلا بتطبيق شرع الله تبارك وتعالى؛ ولذلك قال تعالى بعدما ذكر الحدود الشرعية: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ [المائدة:٤٥]، لأن هذا هو الحد، ثم قال: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة:٤٥]، ففي هذه بالذات وصفهم بالظلم؛ لأن هذا مما يخالف العدل، فالحدود هي العدل، والقصاص فيه المعاملة بالمثل، فمن اعتدى على أرواح الناس وقتل يقتل، ومن قطع أذن غيره تقطع أذنه، فليس لهذا حرمة أعظم من حرمة ذاك، فهذا مقتضى العدل بين الناس؛ فلذلك نقول قطعا وجزما: إن كل من يحكم بخلاف شرع الله فهو ظالم مهما وسوس له إخوانه من شياطين الإنس أو الجن بأن هذا هو العدل.

ونقول: كل العدل في كتاب الله تبارك وتعالى.

ويقول تعالى: ((وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد))، يعني: أن هذا الحديد هو الآلة المهمة والأساسية في صناعة أدوات القتال، سواء في القديم أو في الحديث، فقوله: ((فيه بأس شديد))، يعني: القتال به، فإن آلات الحروب متخذة منه.

((ومنافع للناس))، أي: في مصالحهم ومعايشهم، فما من صناعة إلا وللحديد يد فيها.

فإن قيل: هذه الجمل المتعاطفة لابد فيها من المناسبة؛ ولكن أين هي المناسبة بين قوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾، وقوله: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾؟ ف

A أن بينهما مناسبة تامة؛ لأن المقصود ذكر ما يتم به انتظام أمور العالم في الدنيا حتى تنال السعادة في الأخرى، فمن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله في الدارين بالكتب والشرائع المطهرة، وكذلك من

أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم، ومن تمرد وطغى ضرب بالحديد الراد لكل مريد.

فقول الله تبارك وتعالى هنا أولا: ((لقد أرسلنا رسلنا بالبينات))، مع ذكر الحديد فيه إشارة إلى أن العدل في الناس يقوم بأمرين: بالقرآن وبالسلطان، فالناس يدعون بالحجة والبيان، فمن أبى فبالسيف والسنان.

هذا هو المعنى المأخوذ من هذه الآية الكريمة.." (١)

"مناسبة عطف إنزال الحديد على ما قبله

يقول: فإن قيل: الجمل المتعاطفة لابد فيها من المناسبة، وأين هي في إنزال الحديد مع ما قبله؟ ف

A أن بينهما مناسبة تامة؛ لأن المقصود ذكر ما يتم به انتظام أمور العالم في الدنيا، حتى ينال السعادة في الأخرى، ومن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله في الدارين بالكتب والشرائع المطهرة، ومن أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم، أما من تمرد وطغى وقسى فيضرب بالحديد الراد لكل مريد، وإلى الأولين أشار بقوله: ((وأنزلنا معهم الكتاب والميزان))، هذه للناس الذين عندهم عقول، ويعملون عقولهم، ويتدبرون في الحجج والبينات، فجمعهم وأتباعهم في جملة واحدة، حيث جمع العقلاء ومن وافقهم من العامة على الخير، فأشار إليهم بقوله: ((وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)).

وخلاف ذلك فالجبار العنيد الطاغي القاسي القلب لا ينفعه إلا التأديب بالحديد، فقال تبارك وتعالى: ((وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد))، فكأنه قال: أنزلنا ما يهتدي به الخواص وما يهتدي به أتباعهم، وما يهتدي به من لم يتبعهم، فهي حينئذ معطوفة.

قال العتبي في أول تاريخه: كان يحتمل في صدري أن في الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تنافرا، وسألت عنه فلم أحصل على ما يزيل العلة وينقى الغلة، حتى أعملت التفكر فوجدت الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام الدينية، يتضمن جوامع الأحكام والحدود، وقد حذر فيه التعادي والتظالم، ودفع التباغي والتخاصم، وأمر بالتناصف والتعادل، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة.

يعني: أن مجرد الوعظ بالأوامر والنواهي الشرعية لا يكفي في إصلاح حال الناس؛ إذ ليس كل الناس ينزجرون بالأدلة الشرعية، وبسلطان الشرع، ولذا فلابد من السلطان مع الحكم، وهذا ليس فقط في الإسلام، بل في كل النظم، يعني: لو أن دولة تريد أن تنفذ قوانينها بالمواعظ والكلام الرقيق والنظيف، والبيان أن هذا صحيح وهذا خطأ، وهيئة المرور تعمل كذا، وهيئة كذا تفعل كذا، فهل يستقيم حال الناس؟

---

(١) تفسير القرآن الكريم – المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢/١٥٩

A لا؛ فمن الناس من يعمل عقله ويستجيب للحجج والبينات، ومنهم من ليس كذلك، وإنما هو مثل المسمار، ولا يمشي إلا إذا كنت تضربه على رأسه كعبد السوء، فإذا صفعته على رأسه بالقوة فإنه يمشي، ومن دون ذلك لا يتحرك، فمن الناس من يقيمه الحجة والبيان، ومنهم لا يقيمه إلا السيف والسنان.

يقول: حتى أعملت الفكر فوجدت الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام الدينية يتضمن جوامع الأحكام والحدود، وقد خطر فيه التعادي والتظالم، ودفع التباغي والتخاصم، وأمر بالتناصف والتعادل، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة؛ فلذا جمع الكتاب والميزان.

وإنما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف وجدوة عقابه، وقوة عذابه، وهو الحديد الذي وصفه الله بالبأس الشديد، فجمع بالقول الوجيز معاني كثيرة الشعوب، متباينة الجنوب، محكمة المطالع، مقومة المبادئ والمقاطع.

قال الله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾، أي: أنه يستعمل في القتال، وأنه آله السلطان؛ كي يقهر من لا يقتنع بالحجة والبيان بالسيف والسنان.

وقوله: ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾، أي: باستعمال الحديد في مجاهدة أعدائه، عطف على محذوف دل عليه ما قبله، يعني: أنزله ليعلم.

وقلنا: إن قوله تعالى: ((وليعلم الله))، المقصود به: ليعلم علم شهادة، أما علم الغيب فلا شك أن الله يعلم ذلك منذ الأزل.

وقوله: ﴿إن الله قوي﴾، أي: على إهلاك من أراد إهلاكه، ﴿عزيز﴾، أي: غالب قاهر لمن شاء.." (١)

"عالمية الدعوة المحمدية دون غيرها

قوله: ((قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به)) دليل على أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث قطعا للجن والإنس، ولن أتكلم عن صحة الاستدلال بالآية هنا؛ لأن مجرد الاقتصار على الآية يفيد أنهم تبعوا القرآن فآمنوا به، لكن هل فيها أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث إلى الجن والإنس؟ ليس فيها ذلك، والله تعالى أعلم.

مثلا: سحرة فرعون ليسوا من بني إسرائيل، وموسى عليه الصلاة والسلام إنما بعث إلى بني إسرائيل، فهل يمنع السحرة من الإيمان بموسى عليه السلام أنه بعث إلى بني إسرائيل فقط؟ لا، هم آمنوا بأن لا إله إلا الله، وأن موسى رسول من عند الله تبارك وتعالى، وإن لم يكن مبعوثا إلى أناس معينين.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٤/١٥٩

فكذلك هذه الآية لا يؤخذ منها هذا الأمر، وغاية ما يؤخذ منها أن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

أما حقيقة المسألة فلا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام كما قال في الحديث: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) وقال عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فأدلة عموم رسالته كثيرة جدا، بل إن الصفة العالمية والشمولية للجن والإنس بالنسبة لبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام هي من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بحيث نقول: إن هذه العالمية حكر على دعوة الإسلام، وليس من حق أي ديانة أخرى أن تدعي أنها جاءت ليبشر بها الناس أجمعون.

ونستطيع أن نأتي بكثير من النصوص من كتب النصارى، تؤكد أن المسيح عليه السلام لم يبعث إلا إلى بني إسرائيل فقط، ومن هذه الأقوال: قول المسيح عليه السلام: (إنما بعثت إلى حراب بيت إسرائيل الضالة).

والنصوص في ذلك كثيرة.

أما اليهود فقد كفونا شرهم؛ وذلك باعتبار اليهودية دعوة عنصرية، وعندهم أن الجنة خلقت لليهود فقط، وكل الشعوب إنما خلقت ليركبها اليهود كالحمير كما يزعمون.

فاليهود أصلا ليس عندهم تبشير ودعوة إلى الدخول في اليهودية، وأهم شيء عندهم حتى ينسب المرء إلى اليهودية أن تكون أمه يهودية.

بل لو أن يهوديا دخل في الإسلام فإنه يبقى على يهوديته ولا يزول عنه وصف اليهودية، وقد انتشر خبر المغنية اليهودية التي قيل إنها أسلمت، والله تعالى أعلم، فلما توفيت قبل سنوات أراد اليهود أن يستولوا على بيتها ويحولوه إلى متحف فقيل لهم: إنها أسلمت، قالوا: حتى ولو أسلمت فهي يهودية، ولا يزول عنها هذا الوصف أبدا، لأن اليهودية دعوة عنصرية وليست رحمة للبشر، ولأنهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار، فمن ثم أراحوا العالم من شر الدعوة إلى دينهم المحرف.

ولأنهم يعتبرون أنفسهم سلالة من نوع خاص يجب أن يعامل معاملة خاصة، قال عز وجل حاكيا قولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة:١٨]، فبالتالي هم لا يريدون خيرا لأحد، وليس عندهم نشاط تبشيري يدعون به الناس إلى الدخول في دينهم، وإنما عندهم نشاط تدميري لتحطيم الأمم؛ كي يقيموا ملك يهود على أنقاضها، سواء عن طريق نشر الإلحاد أو الفساد الأخلاقي ونحو ذلك.

أما النصارى فليس في دينهم أي نص يدل على عالمية دينهم، بل في كتبهم ما ينفي العالمية، ويثبت أن

دينهم خاص ببني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل﴾ [آل عمران:٤٩].
ودين النصارى حرف على يد بولس، وهو اليهودي الذي ابتدأ الدعوة إلى التنصير، وذلك أنه ادعى أنه دخل في النصرانية، وكذب على النصارى حيث قال: إنه رأى المسيح وأوحى إليه بأشياء زعمها فصدقوه، ومنها الدعوة والتبشير بالنصرانية، ومن هنا بدأت فكرة التبشير بالنصرانية.
والنصرانية ليس من حقها أن تدعي أنها دعوة عالمية لغير بني إسرائيل؛ لأن العالمية لا تصح على الإطلاق إلا لدين الإسلام، ورسالة سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلم، وسبق أنا تكلمنا على هذا بالتفصيل عند دراسة قضية ختم النبوة.
أيضا من فوائد هذه الآية: أن يعلم قريش أن الجن مع **تمردهم** لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم.
ومن هذه الفوائد: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس.
ومنها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.
ومنها: أن المؤمن من الجن يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وهكذا الإنسان إذا آمن فإن من واجباته المقدسة أن يدعو غيره إلى هذا النور والإيمان، كما فعل الجن، إذ فزعوا إلى قومهم داعين إياهم إلى الله عز وجل، مع أن عمر إيمانهم كان قصيرا.
ومنها: أن الجن لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان تنبهوا إلى الخطأ الذي اعتقده كفرة الجن، من اتخاذ الله صاحبة وولدا، فاستعظموا ذلك ونزهوا الله سبحانه عنه! انظر إلى جوهر الإيمان عندهم، فكل هذا الكلام يدور حول التوحيد بكل معانيه: تنزيه الله عز وجل في أسمائه وصفاته وأفعاله عما لا يليق به قالوا: ((فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا)) وهذا هو معنى: لا إله إلا الله.." [١]

"تفسير قوله تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)
قال عز وجل: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ [آل عمران:١٨١].
لما نزل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ [البقرة:٢٤٥]، قالت اليهود: يا محمد! افتقر ربك فسأل عباده القرض، فأنزل الله (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) الآية.

---
(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٣/١٨٢

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس أيضا قال: (دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس -بيت العبادات عند اليهود- فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص! اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول من عند الله، قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقره، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا، وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين.

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد! أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟! فقال: يا رسول الله! إن عدو الله قال قولا عظيما، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله عز وجل فيما قال فنحاص: ((لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق))).

ولما كان مثل هذا القول لا يصدر إلا عن تمرد عظيم لكونه في غاية الشناعة أشار إلى وعيده الشديد فقال تعالى: ((سنكتب ما قالوا))، أي: ما قالوه مع هذه العظيمة الشنعاء، في صحائف الحفظة.

(وقتلهم الأنبياء) أي: سنكتب أيضا قتلهم الأنبياء بغير حق، وإنما ضمه مع ما قبله إيذانا بسوابقهم القبيحة، فلذلك ربط الله سبحانه وتعالى هذا القول الشنيع بجرائم آبائهم، ونسبها إليهم مع أنهم ليسوا هم الذين قتلوا الأنبياء اليهود في حياة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم كانوا راضين بذلك، بل هم سعوا في قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فليس قولهم: ((إن الله فقير ونحن أغنياء)) بأول جريمة يرتكبونها، ومعلوم أن من اجترأ على قتل الأنبياء لا يستبعد منه أن يقول هذا الكلام.

((ونقول ذوقوا عذاب الحريق)).." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا)

يقول تبارك وتعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ [البقرة:١٤].

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٦/٢٨

(لقوا) أصلها لقيوا، فحذفت الضمة للاستثقال، ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع الواو، ثم ضمت القاف للمناسبة، فأصلها لقي فصارت لقوا.

قوله: ((وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا)) يعني: أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة نفاقا ومصانعة وتقية، وليشركوهم فيما أصابوه من الخير ومن المغنم.

قوله: ((وإذا خلوا إلى شياطينهم)) يعني: إذا خلوا منهم ورجعوا إلى شياطينهم وجلسائهم: ((قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)) يقال: خلوت بفلان أو خلوت إلى فلان، يعني: انفردت معه، وخلا تكون بمعنى مضى في تفسير آخر، ومنه قولنا: القرون الخالية، يعني: السالفة والماضية.

قوله: ((وإذا خلوا إلى شياطينهم)) يعني: إلى أصحابهم أولي **التمرد** والعناد، والشيطان يكون من الإنس ويكون من الجن، والدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ [الأنعام:١١٢].

قوله: ((وإذا خلوا إلى شياطينهم)) أضيفوا إلى الشياطين لأنهم مشتركون معهم في الكفر.

قوله: ((قالوا إنا معكم)) أي: اطمئنوا نحن معكم وعلى ما أنتم عليه.

قوله: ((إنما نحن مستهزئون)) يعني: إنما نحن في إظهارنا الإيمان عند المؤمنين مستهزئون ساخرون بهم.

يقول السيوطي رحمه الله تعالى: ((وإذا خلوا)) منهم ورجعوا ((إلى شياطينهم)) رؤسائهم.

((قالوا إنا معكم)) في الدين.

((إنما نحن مستهزئون)) بهم بإظهار الإيمان.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون)

يقول عز وجل: ﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ [البقرة:١٥].

(الله يستهزئ بهم) يعني: الله سبحانه وتعالى يسخر بهم.

قوله: ﴿ويمدهم﴾ يعني: يزيدهم على وجه الإملاء والاستدراج والترك لهم في عتوهم **وتمردهم**، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام:١١٠].

والطغيان هو: مجاوزة الحد، والشاهد من القرآن قوله تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة:١١] ومنه أيضا كلمة الطاغوت.

قوله: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ ذكر الله سبحانه أنه يستهزئ بهم، لكن لم يبين هنا تفاصيل هذا الاستهزاء، وقد

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٠/٣

بينه في سورة الحديد في قوله تبارك وتعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ [الحديد:١٢ - ١٣] فهذا هو استهزاء الله تبارك وتعالى بهم جزاء وفاقا، والجزاء من جنس العمل.

قوله: ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ العمه بالهاء مثل العمى؛ لكن الفرق أن العمى عام في البصر وفي الرأي، أي: العمى في البصيرة وفي البصر، أما العمه فهو خاص بالرأي، وهو التحير والتردد لا يدري أين يتوجه؛ ولذلك يقول: ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: يزيدهم حيرة وترددا وضلالا.

قوله: (في طغيانهم) فيه إشارة إلى أن هذا الطغيان غمرهم دنسه وعلاهم رجسه، حتى غرقوا في هذا الطغيان، فهم يترددون حيارى ضلالا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا، حيثما يمموا لا يرون إلا هذا الضلال، وهذا التردد، وهذا الطغيان!." (١)

"تحديد وقت كفر إبليس

قوله تبارك وتعالى: ﴿إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ [البقرة:٣٤] فيها قولان: أحدهما: أنه وقت العبادة كان منافقا من الكافرين، يعني: كان يعبد الله مع الملائكة، لكن كان منافقا كذابا في هذه العبادة.

القول الثاني: أنه كان مؤمنا ثم كفر، يعني: أنه كان من الكافرين في سابق علم الله، أو صار من الكافرين، وهذا قول الأكثرين، أي: أنه كان مؤمنا ثم كفر.

والذي عليه الأكثرون أن إبليس هو أول كافر بالله.

واختلف الناس بأي سبب كفر إبليس لعنه الله: فقالت الخوارج: إنما كفر بمعصية الله، وكل معصية كفر، وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، إذ ليس كل معصية كفرا.

وقال آخرون: كفر بترك السجود لآدم ومخالفته أمر الله.

وقال آخرون: كفر لأنه خالف الأمر الشفهي من الله، فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود، ومخالفة الأمر الشفهي أشد قبحا.

وقال جمهور الناس: كفر إبليس لأنه أبى السجود واستكبر وعاند وطعن واعتقد أنه محق في تمرده؛ لأن

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١١/٣

إبليس طعن في حكمة الله وأمره، وهذا كفر لا شك، بخلاف المعصية الظاهرة، واستدل أيضا إبليس بقوله: أنا خير منه، فكأنه ترك السجود لآدم تسفيها لأمر الله وحكمته، وهذا الكبر عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).." (١)

"الرد عل من يزعم أن آدم وحواء ورثا البشرية الخطيئة

ليس عند أهل الكتاب أن الله سبحانه وتعالى تاب على آدم وحواء، بل تلوثا بالخطيئة، وليس هذا فحسب، بل ورثا البشرية هذه الخطيئة، وهو ما يسمونه بسر عظيم جدا من أسرار الكنيسة، وهو الخطيئة الأصلية، يعني: أن الإنسان يولد ملوثا بالخطيئة! مع أن كل مولود يولد نقيا طاهرا كما يبين لنا النبي عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله: (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمته) فضرب المثل في النقاء والطهارة والصفاء والبراءة بالإنسان كما ولدته أمه بلا خطيئة.

وأما عند هؤلاء فأسوأ يوم وأسود يوم على الإنسان هو يوم تلده أمه؛ لأنه يولد بلا ذنب وبلا جريمة ومع ذلك يكون ملوثا بخطيئة آدم، ولا يتطهر من هذه الخطيئة حتى الأنبياء!! وفي زعم النصارى أن الأنبياء الذين ماتوا قبل المسيح عليه السلام سوف يدخلون سجن جهنم بعد موتهم! حتى نوح وهود وكل الأنبياء؛ لأنهم يتحملون وزر وخطيئة آدم! وعليه بنوا هذه النظرية الغسانية المشركة التي اقتبسوها من قدماء المصريين، وهذا ثابت بالأدلة التاريخية، والهنود وأهل الوثنية اقتبسوا منهم نظرية أن الخطيئة لابد منها والعياذ بالله! وأن ربنا ينزل ويجسد ويذبح حتى يمحوا عن البشرية هذه الخطيئة، وهم مع ذلك يتناقضون، فإذا كان المسيح تحمل خطايا البشر فلماذا يشترطون التعميد؟! والتعميد عندهم هو: أن الطفل الذي لا يغطس في الماء الذي يسمونه مقدسا -والله أعلم هو منجس أم مقدس- يبقى حاملا هذه الخطيئة! فمعنى ذلك: أنه رغم ما يزعمون من نزول المسيح وصلبه والعياذ بالله! فما زالت البشرية ملوثة في اعتقادهم، حتى إنهم في بعض الأراضي الموقوفة للكنيسة في بعض البلاد يمنعون دفن أي مولود أو أي إنسان إذا لم يكن قد عمد؛ لأنهم لا يعتبرونه قد دخل في النصرانية؛ لأن هذه عندهم صبغة مهمة جدا، ولابد أن يعمد بهذا الماء الذي يصفونه بأنه مقدس! وليس الآن أوان التفصيل في موضوع التعميد، لكن الشاهد أن هذه نقطة مهمة جدا في العقيدة بيننا وبين أهل الكتاب، وهذا بسبب تحريفهم كلام الله عز وجل، ولذلك انعكست هذه القضية في موقف الحضارة الغربية المعاصرة في العلاقة بين العلم والدين، فهم لهم انطباع أن هناك عداوة بين العلم وبين الدين مبنية ومأخوذة من هذا التصور الموجود في التوراة، وهو أن هذه الشجرة كانت شجرة المعرفة، فالدين هو

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢٠/٤

دين الله، والعلم هو شجرة المعرفة، فالدين يكره العلم ويخاف منه، وبينهما عداوة، ولذلك الله سبحانه وتعالى حذر آدم أن يأكل من هذه الشجرة لأنه كان يخاف أن يصير لآدم بصيرة وعلم! -تعالى الله وحاشاه-.

فهذا الانطباع هو السبب في العداء بينهم وبين الدين والعلم دائما، ويعتقدون أن الدين عدو للعلم، وأنهما متناقضان، ولا يمكن أن يلتقيا.

ثم جاءت التجربة الواقعية فأكدت هذا ،لأمر حينما حصل الصراع بين الكنيسة وبين الاكتشافات الحديثة، فكلما كان يكتشف علماؤهم نظرية أو حقيقة علمية كان القساوسة وعلماء الطبيعة والفيزياء -إن جاز هذا التعبير- يتصادمون، فلما حصل هذا الصدام حصل التمرد والكفر بالكنيسة وظهور دين العلمانية الجديد!

فهم لما فقدوا الثقة في النصرانية لم يبحثوا عن الدين الحق، لكن هجروا الحق وذلك الدين المحرف معا.

فقصة آدم عليه السلام لها تأثير خطير في التصور النصراني، وهي قضية أصلية جدا في العقيدة عندهم، وأن آدم وحواء لم يتب الله عليهما، وإنما نزلا ملوثين بالخطيئة، بل ورثا الخطيئة كل البشرية من بعدهم! هذا مظهر من مظاهر الانحراف عند أهل الكتاب، وهناك انحراف آخر عند الذين يتبنون نظرية دارون أو ما يسمى بنظرية التطور أيضا؛ فهم ينكرون هذه الحقيقة التي يصدع بها القرآن، وينكرون أن أصل البشرية شيء اسمه آدم وحواء؛ لأن العملية عندهم موضوع خلية تركبت ونمت وحصل تطور عبر آلاف سحيقة من القرون، ثم كان منها الإنسان إلى آخر هذا الكلام! وليس الأوان أوان مناقشة هذا بالتفصيل، لكن هذه إشارة واضحة إلى فساد هذه العقيدة، وكما هو معلوم فقد بين القرآن أن بداية البشرية كانت خلقا مباشرا من الله سبحانه وتعالى لآدم، ثم بعد ذلك لـ حواء، وليس كما يزعم أصحاب نظرية التطور، وقد هزمت الآن، وليس فقط بالأدلة الدينية حتى بالأدلة العلمية وأدلة علم الجينات أو الوراثة.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه)

قال تعالى: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾ [المائدة:٨١].

قوله تعالى: (ولو كانوا) أي: هؤلاء الذين يتولون عبدة الأوثان من أهل الكتاب (يؤمنون بالله والنبي) أي: لو كانوا بالفعل يؤمنون بالنبي، أي: نبيهم موسى عليه السلام.

(وما أنزل إليه) من التوراة (ما اتخذوهم أولياء) إذ الإيمان بالله يمنع من تولي من يعبد غيره (ولكن كثيرا

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢٢/٤

منهم فاسقون) أي: خارجون عن دينهم؛ لأن الفسق معناه الخروج، كما يقال: فسقت الرطبة.

أو **متمردون** في نفاقهم، يعني: إن موالاتهم للمشركين كفى بها دليلا على نفاقهم، وإن إيمانهم المزعوم ليس بإيمان؛ لأن تحريم ذلك متأكد في التوراة وفي شرع موسى عليه السلام، فلما فعلوا ذلك ظهر أنه ليس مرادهم تقرير دين موسى عليه السلام، بل مرادهم الرياسة والجاه، فيسعون في تحصيله بأي طريق قدروا عليه، فلهذا وصفهم تعالى بالفسق.

وفي الآية وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: (ولو كانوا) يعني: لو كان منافقوا أهل كتاب المدعوون للإيمان (يؤمنون بالله والنبي) أي: بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن حق الإيمان ما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن.

والوجه الأول أقوم، والله تعالى أعلم.." (١)

"كلام القاسمي على قوله: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا)

يقول القاسمي رحمه الله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ [المائدة:٨٢] لماذا هم أشد الناس عداوة للمؤمنين؟ لإيمانهم بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، فنحن نفارق اليهود في الإيمان بعيسى وبمحمد، وهم يكفرون بهما.

كذلك فإن عداوة الذين أشركوا للمؤمنين هي لتوحيدهم وإقرارهم بنبوة الأنبياء؛ لأن المشركين لا يقرون بالتوحيد ولا بنبوة الأنبياء.

وقال بعض العلماء في تعليل شدة هذه العداوة: لشدة إبائهم، ولذلك يندر جدا أن يسلم اليهودي الواحد ويدخل في الإسلام، فهذا يقع، ولكنه نادر بالنسبة لمن يدخل في الإسلام من غيرهم من طوائف الكفرة.

فهم أشدة الناس عداوة للذين آمنوا لشدة إبائهم، ولتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على **التمرد** والاستعصاء على الأنبياء، والاجتراء على تكذيب هؤلاء الأنبياء، ومناصبتهم لهم، ولشدة قسوة قلوبهم وغلظ طبعهم قتلوا كثيرا من الأنبياء.

أي: قتلوا يحيى عليه السلام، ثم أهدوا رأسه إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

وكذلك قتلوا أباه زكريا عليه السلام، وسعوا في قتل رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم غير مرة، بل وضعوا له السم في الطعام، وغدروا به صلى الله عليه وآله وسلم، وألبوا عليه أشباههم من المشركين.

وفي تقديم اليهود على المشركين بعد ذكرهما في موضع واحد إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، فرغم أن

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٣٠/٤٤

اليهود والمشركين أشد الناس عداوة للذين آمنوا، لكن أشد الطائفتين اليهود لعنهم الله تعالى.
كما أن في تقديمهم عليهم -أي: تقديم اليهود على المشركين- في قوله تعالى: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا﴾ [البقرة:٩٦] إيذانا بتقدم اليهود على المشركين أيضا في الحرص على الحياة.
يقول تعالى: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) يعني: للين جانبهم، وقلة غل قلوبهم.
فهنا القاسمي يميل في تفسير هذه الآية الكريمة إلى أن المقصود بقوله تعالى: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) عامة النصارى، وهذا التفضيل نسبي، وليس على الإطلاق كما يفعل منافقوا زماننا، فالمنافقون من علماء السوء في زماننا يداهنون الكفار بإطلاق هذه الآية عليهم، وإن كان الآن جريا مع المتغيرات لا يتلوا المنافقون الآية أصلا؛ لأنها تشتم اليهود، وقد صار اليهود عند الناس اليوم من أعظم أوليائهم، فالله المستعان.
لكن القاسمي ينقل هنا كلام ابن كثير في تعليل قوله تعالى: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) قال ابن كثير: وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ [الحديد:٢٧].
وفي كتابهم: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) وليس القتال مشروعا في ملتهم.
انتهى كلام الحافظ ابن كثير.
ثم يضيف القاسمي: ولأن من مذهب اليهود -مبينا وجه المفاضلة بين اليهود والنصارى في العداوة والمودة- أنه يجب إيصال الشر إلى من خالف دينهم بأي طريق كان من القتل ونهب المال ونحوهما، وهو عند النصارى حرام، فحصل الفرق.
فاليهود يتعبدون بأذية خلق الله، وبإيصال الشر إلى الخلق ممن ليس على ملتهم بأي طريق كان، حتى روى ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا (ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله) ولم يذكر هنا صحة الحديث، وهنا قصة حكاها بعض المصنفين في (غذاء الألباب) عن صاحب (منظومة الآداب) الإمام السفاريني أن مسلما سافر مع يهودي، فالمسلم كان راكبا الحمار، وكان اليهودي ماشيا، فمشيا حتى سافرا إلى بلد معين على هذه الحال، فبعد ما وصلا إلى تلك البلدة قال المسلم لليهودي: أستحلفك بالله، نحن عندنا اعتقاد أنه ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بإيذائه، فهل هممت بأذيتي؟! قال: ما هممت بأذيتك في شيء.
فناشده وألح عليه أن يخبره، فإنه جازم بأنه لابد من أنه أراده بسوء في هذه السفرة، فلما استحلفه وشدد

عليه صارحه وقال له: في مدة السفر كلها كنت أحاول أذيتك فلم أستطع، ولقد كنت أبصق على ظلك وأضرب خيالك.
أو قال كلاما نحو هذا، فهذا الذي استطاع أن يوصله إليه من الأذى، فالله أعلم بصحة هذا.
وعلى كل حال فإن خسة اليهود وغدرهم ونذالتهم لا تحتاج إلى كثير من التعليق، فهذا أمر مجمع عليه بين سائر الأمم، حتى إن هتلر لما أجرى لهم المذابح التي بولغ فيها فيما بعد قال: لقد قتلت نصف اليهود وتركت النصف الآخر؛ حتى يعلم العالم لماذا قتلت النصف الأول أي: حتى يذوقوا منهم الويل ويعرفوا لماذا قتل النصف الأول من اليهود.
وكثرة اهتمام النصارى بالعلم والترهب هي مما يدعو إلى قلة البغضاء والحسد ولين الجانب، كما أشير إليه بقوله تعالى: (ذلك) يعني: كونهم أقرب مودة للمؤمنين.
(بأن منهم) أي: بسبب أن منهم قسيسين، مأخوذ من: قسى الشيء إذا تتبعه، فهذا وصف لعلمائهم بأنهم قسيسين.
(ورهبانا) أي: عبادا متجردين.
(وأنهم لا يستكبرون) أي: يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود، وفي الآية دليل على أن الإقبال على العلم، والإعراض عن الشهوات، والبراءة من الكبر أمر محمود، وإن كان ذلك من كافر، وهذا على القول بأن الآية تشمل النصارى عموما، وأن المفاضلة هنا مفاضلة نسبية، ولذلك جاء بصيغة (أقربهم مودة) فهم لا يوادون لكنهم أقرب مودة، فالنصارى مع كفرهم أخف من اليهود والذين أشركوا في عداوتهم للمؤمنين.
ولكن الكلام الأول -بلا شك- أقوى، وهو أن الآية إنما هي في هؤلاء الذين أسلموا، ولم يستكبروا على الحق، ويؤيد ذلك كثير من الآيات والأحاديث، ويؤيده -أيضا- الواقع الذي نعيشه، فلا القسيسون ولا الرهبان فيهم هذا التجرد أو هذا التواضع، وإنما هو الخبث والمكر والدهاء، وإرادة الشر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والذي نعيشه ونراه ليل نهار هو أقوى شاهد محسوس، بحيث لا يمكن أبدا إنكاره إلا على سبيل المكابرة.
فلا ندري أين الرحمة وأين الرفق وأين اللين منهم! هؤلاء الذين فعلوا هذه الشنائع، سواء في الأندلس أو في لبنان أو في الفلبين أو في أثيوبيا أو في البوسنة.
والله تعالى لما تكلم عن هؤلاء النصارى هنا قال: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى) ولم يقل: النصارى.

فوصفهم بأنهم الذين قالوا: (إنا نصارى) ولم يقل: النصارى.

تعريضا لصلابة اليهود في الكفر والامتناع من الامتثال للأمر؛ لأن اليهود قيل لهم: ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ [المائدة:٢١] فقابلوا ذلك بقولهم: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة:٢٤] فهذا من عتوهم وصلابتهم في الكفر، **وتمردهم** على أمر ربهم تبارك وتعالى.

أما النصارى فإنهم أجابوا جوابا حسنا حين قالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ [آل عمران:٥٢]، ومن ثم سموا نصارى.

وكذا -أيضا- ورد في أول هذه السورة ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به﴾ [المائدة:١٤] فأسند ذلك إلى قولهم، ولم يقل: ومن النصارى أخذنا ميثاقهم.

ولكن قال: (ومن الذين قالوا إنا نصارى) والإشارة به إلى قولهم: نحن أنصار الله.

لكنه بين تنبيها على أنهم لم يثبتوا على الميثاق ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله.

ففي الآية التي هي في أول السورة (ومن الذين قالوا إنا نصارى) كان يقتضي قولهم: إنا نصارى -أي: نحن أنصار الله- أن يحفظوا عهد الله وميثاقه، لكنهم مع قولهم: إنا نصارى خالفوا هذا العهد ونسوا (حظا مما ذكروا به) قال تعالى: ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ [المائدة:١٤].

وفي الآية هنا يقول تعالى: (الذين قالوا إنا نصارى) ولم يقل: النصارى.

لأن المقصود التعريض بصلابة اليهود وقسوة قلوبهم، وامتناعهم عن امتثال أمر ربهم كما ذكرنا.

فالنصارى لما ورد عليهم الأمر لم يجابهوه بالرد كمجابهة اليهود، حتى إنهم لما نسوا الميثاق أو نسوا حظا مما ذكروا به لم يردوا نفس الرد الغليظ الذي رده اليهود حينما قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة:٢٤]، بل قالوا: نحن أنصار الله.

واليهود قالت: ﴿فاذهب أنت وربك﴾ [المائدة:٢٤]، إلى آخر الآية، فهذا هو سر قوله تعالى: (الذين قالوا إنا نصارى) ولم يقل: النصارى.." [1]

"تفسير قوله تعالى: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب)

قال تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ [البقرة:٤٩].

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٣/٤٥

قوله: (وإذ نجيناكم) أي: واذكروا إذ نجيناكم، يعني: نجيناكم أنتم المخاطبون في زمن النبي عليه الصلاة والسلام وآباءكم، والخطاب للموجودين في زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما أنعم على آبائهم تذكيرا لهم بنعمة الله تعالى ليؤمنوا، (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب)، أي: يذيقونكم أشد العذاب، والجملة حال من ضمير: نجيناكم.

قوله: (يذبحون أبناءكم)، هذا بيان لسوء العذاب، فهو يشرح ما هو سوء العذاب، فأتى بأقسى وأشد مظاهره (يذبحون) بيان لما قبله، (أبناءكم) يعني: المولودين، (ويستحيون نساءكم) يعني: يستبقون نساءكم للإذلال والخدمة، فلم يقتلونهن كي يتخذن خادمات، وقتلهم لأبنائهم هو بسبب قول بعض الكهنة لفرعون: يولد في بني إسرائيل مولود يكون سببا لذهاب ملكك؛ فكان فرعون يقتل الذكور، ويستحيي النساء، والإمام الزجاج له تعليق طيب جدا على عقلية فرعون، فيقول هنا: فالعجب من حمق فرعون! إن كان الكاهن عنده صادقا فما ينفع القتل؟! وإن كان كاذبا فما معنى القتل؟! يعني: من حمق فرعون الغبي الأحمق الذي يقول في حق موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف:٥٢]؛ أنه سمع كلام الكاهن، فإن كانت هذه فعلا نبوة وخبر صادق من هذا الكاهن، أنه سيولد ولد من بني إسرائيل يكون زوال ملك فرعون على يديه؛ فماذا فعل فرعون الأحمق؟ قتل أبناءهم الذكور، فإن كان هذا كائنا لا محالة فما فائدة القتل؟! فهل سيمنع ما سبق به قضاء الله؟ لا يمنع! وإن كان الكاهن كاذبا فما معنى القتل؟! فالحالتان تدلان على ضعف عقله تماما، كما أظلم الله قلبه وأطفأ بصيرته حينما تتبع بجنوده موسى وطارده هو وجنوده، ورأى الآية العظمى من آيات الله سبحانه وتعالى، تخيل أن البحر الأحمر يتحول إلى طرق يابسة، تخيل هذا المنظر! قال تعالى: ﴿واترك البحر رهوا﴾ [الدخان:٢٤]، ما معنى رهوا؟ يعني: ساكنا، يتحول الماء إلى أرض يابسة والناس ينظروا إليه بقدرة الله سبحانه وتعالى! فلما فلق موسى عليه السلام البحر بالعصا، انفلق فلقتين، فوقف الماء مثل الجدار كالطود العظيم أي: كالجبل العالي، وسكن الماء، (واترك البحر رهوا) يعني: ساكنا، فجدار من ماء متماسك بقوة الله وقدرته سبحانه وتعالى، ففرعون عمي قلبه أن يعتبر بهذه الآية، رأى الماء واقفا، ورأى موسى ومن معه من بني إسرائيل ينجون ويمرون، والبحر واقف، ومع هذا لا يلتفت إلى هذه المعجزة القاهرة، وهذه الآية العظيمة، بل استمر في مطاردة موسى عليه السلام داخل البحر! قال الله: (واترك البحر رهوا) يعني: اسلكه ساكنا فإنه سينطبق عليهم حينما يدخلون، وكان ما كان، بعدما كان يقول: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ [الزخرف:٥١]، جعلها الله من فوقه، يعني: كان يفخر بأن مياه الأنهار تجري من تحته، فعاقبه بجنس

عمله، فأجرى المياه من فوقه، وأغرقه في اليم.

يقول تبارك وتعالى: ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ [البقرة:٤٩]، يقول القاسمي رحمه الله تعالى: فرعون لقب لمن ملك مصر كافرا، فكل من يحكم مصر وهو كافر يسمى فرعون؛ كما أن كسرى لقب لملك الفرس، وقيصر لملك الروم، وتبع لمن ملك اليمن كاملا، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وخاقان لملك الترك؛ ولعتو فرعون اشتق من اسمه قولهم: تفرعن الرجل: إذا عتا **وتمرد**، وسبب سومه بني إسرائيل سوء العذاب من تذبيح أبنائهم على ما روي في التوراة: خوفه من نموهم وكثرة تواجدهم، وكانت أرض مصر امتلأت منهم؛ فإن يوسف عليه السلام لما استقدم أباه وإخوته وأهلهم من أرض كنعان فلسطين إلى مصر، أعطاهم ملكا في أفضل أرض مصر كما أمره ملك مصر، وكان لهم في مصر مقام عظيم؛ بسبب يوسف عليه السلام فتكاثروا وتناسلوا، ولما توفي يوسف عليه السلام والملك الذي اتخذه وزيرا عنده؛ انقطع ذلك الاحترام عن بني إسرائيل، إلى أن قام على مصر أحد ملوكها الفراعنة، فرأى كثرة الإسرائيليين فقال لقومه: أضحى بنو إسرائيل شعبا أكثر منا، فهلم نحتال لهم لئلا ينموا، فيخشى أنه إذا حدث حرب أنهم يحاربوننا ويخرجونا من أرضنا، فسلط عليهم رؤساء تسخير كي يذلوهم بأثقالهم، وكان كلما اشتد تعبدهم ازدادوا كثرة وشدة، فشق على المصريين كثرتهم وخافوا منهم، فجعل أهل مصر يستعبدونهم جورا، ويأمرونهم بالعمل الشديد بالطين واللبن وكل فلاحة الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة.

وأمر فرعون بذبح أبنائهم كما قص الله تعالى، ولم يزل الأمر من هذه الشدة عليهم حتى نجاهم الله بإرسال موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فقوله تبارك وتعالى هنا: ((وفي ذلكم)) أي: في ذلك العذاب أو الإنجاء ((بلاء من ربكم عظيم))، كلمة (في ذلك) إشارة إما إلى ذلك العذاب أو إلى ذلك الإنجاء في قوله: ((وإذ نجيناكم)).

إذا: كلمة (بلاء) محتملة معنيين، فالبلاء إما أن يأتي بمعنى: النعمة أو بمعنى: النقمة، فإذا قلنا: (وفي ذلكم) الإنجاء (بلاء) أي: نعمة، وإذا قلنا: (وفي ذلكم) العذاب (بلاء) أي: نقمة، فبلاء بمعنى: ابتلاء أو بمعنى: إنعام؛ بحسب ما تترتب عليه الإشارة، إما إلى الإنجاء وإما إلى العذاب.." [١]

"تفسير قوله تعالى: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)

قال تبارك وتعالى: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام:٤٥].

قوله: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) يعني: إذا كان آخرهم قد قطع فما بالك بأولهم؟! وهذا -كما يقولون-

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢٠/٥

كناية عن الاستئصال، فإذا كان آخرهم قضي عليه فبالأولى أولهم، فقوله: (فقطع دابر) أي: آخر (القوم الذين ظلموا)، فهو كناية عن الاستئصال؛ لأن ذهاب آخر الشيء يستلزم ذهاب ما قبله، وهو من (دبر دبره) إذا تبعه فكان في دبره، أي: خلفه، فالدابر هو ما يكون بعد الآخر، ويطلق عليه أنه دابر تجوزا، وقال أبو عبيد: دابر القوم: آخرهم.

وقال الأصمعي: الدابر الأصل، ومنه (قطع الله دابره)، أي: أصله.

وقوله: (والحمد لله رب العالمين) أي: على ما جرى عليهم من الهلاك، فلا شك في أن هذا العقاب وهذا العدل من الله سبحانه وتعالى من الصفات التي يتمدح بها الله سبحانه وتعالى، ويحمد الله عليها، فانتقامه من الطغاة والظالمين بعد الإنذار وبعد الاعذار وبعد إقامة الحجة والتذكير من عدله.

وقوله: (والحمد لله رب العالمين)، على ما جرى على هؤلاء الظالمين من الهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمة جليلة يحمد الله عليها، لاسيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم عليهم السلام.

وقد روي في هذه الآية أخبار وآثار، منها: ما أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)) [الأنعام:٤٤]).

إذا: هذا يؤيد لك المعنى الذي ذكرنا، وهو أن بعض الجهلة المغرقون في الجهالة بالله سبحانه وتعالى وسننه وأيامه عندهم أموال، ونسمع من المفسدين في الأرض أو الفاسقين أنهم يقولون: ربنا يحبنا.

ويقول أحدهم: كنت سأهلك في الحادثة، لكن الله يحبني؛ لأنه أعطاني مالا أو كذا وكذا.

فهو يستدل بفضل الله عليه أنه نجاه من هلكة على أن الله يحبه، وهذا ليس دليلا على أن الله يحبك، ولكن انظر إلى حالك، فإن كنت مستقيما على طاعة الله فيمكن أن تكون هناك أمارة مخيلة أن الله يحبك، أما إن كنت عاتيا **متمردا** ظالما باغيا تاركا للصلاة، لا تذكر الله سبحانه وتعالى، وتهجر القرآن، وترتكب غير ذلك من الجرائم والفسوق والعصيان ثم تزعم أن الله يحبك فاعلم أن هذا استدراج، فما أكثر ما نسمع: إن ربنا يحبني؛ لأني نجوت من الحادثة الفلانية.

وما أدراك؟! فانظر إلى حالك حتى تعلم هل يحبك الله أم لا؟ كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران:٣١]، والله لا يحب الظالمين، ولا يحب الفاسقين، ولا يحب الفجار،

إنما يحب من يحب الله ويحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
فيقول الرسول عليه السلام: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج)، يعني: بالرغم من أنه مستمر على المعاصي ومتماد فيها يعطيه الله سبحانه وتعالى، فإياك أن تكون كهؤلاء المغفلين الذين يظنون أن هذا علامة محبة من الله، فهذا هو تشخيص الرسول عليه السلام لهذه الحالة، فإنه يشخصها بأنها استدراج، ثم أكد المعنى بالاستدلال بهذه الآية (فلما نسوا ما ذكروا به).
وهؤلاء الذين يتكلم الله عنهم هم الذين قال في شأنهم من قبل: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ [الأنعام:٤٣ - ٤٤] أي: مع حصول البأساء لم يتضرعوا.
ولذا قال: ﴿ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام:٤٣] فمن تزيين الشيطان أن هؤلاء المساكين يقولون: إن ربنا يحبنا، ولذلك صنع بنا كذا وكذا.
يقول تعالى: ((فلما نسوا ما ذكروا به)) أي: لما لم يجد معهم التذكير بالبأساء والضراء، وما نفعتهم المواعظ زاد الله سبحانه وتعالى في فتنتهم.
وقوله: ((فتحنا عليهم أبواب كل شيء)) تأمل كلمة (كل شيء) في قوله تعالى: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام:٤٤ - ٤٥].
فعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (إذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم)، أي: إذا أراد أن يقطع دابرهم ويستأصلهم فتح عليهم باب خيانة، ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ [الأنعام:٤٤].
وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له) يعني أن هذا إنسان غير عاقل، وليس عنده عقل ولا رأي حسن، قال: (ومن قتر عليه ولم ير أنه ينظر له فلا رأي له).
فإذا كان الله كتب عليك ضيق الرزق فأحسن الظن بالله سبحانه وتعالى، واعلم أن الله سبحانه وتعالى يرى أن هذا هو الذي يصلحك، وأنه لو فتح عليك في المال والرزق لفسدت، وكثير من الناس كذلك.
إذا: فوض أمرك إلى الله، فهو أدرى بما يصلحك، كما قال صلى الله عليه وسلم: (عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) فأنت لا تدري بالعواقب، ولا تدري بالذي يصلح دينك، فقد يفسد دينك الفقر فيعطيك المال، وقد يفسد دينك الغنى

فيحجب عنك المال؛ لأن هذا هو الذي يصلحك، وهذا مشاهد في كثير من الناس، فإنهم يفسدون إذا جرى المال في أيديهم، وكثير من الناس يفسد دينه إذا لم يجر المال في يده، فالله سبحانه وتعالى أدرى بما يصلح العبد، فيجب عليك أن ترضى بما قسم الله لك، وترى في تقتير وتضييق الرزق أن هذا أفضل لك وخير لك؛ لأن هذا اختيار الله سبحانه وتعالى، فعليك أن تفوض الأمر إلى الله.

فالحسن يقول: كما يقول الحسن: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له).

فلابد من أن تخاف من أن هذا مكر من الله سبحانه وتعالى، وأن هذا استدراج لهذه الآية ونظائرها.

وفي الحالة الأخرى (من قتر عليه ولم ير أنه ينظر له) وأن هذه مصلحته، وأن هذا هو الخير في حقه فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ [الأنعام:٤٤]، قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم.

يتركهم حتى يفرحوا بالزينة وبالدنيا كي يتحسروا عند فراقها أشد الحسرة، وهذا استدراج، كقوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس﴾ [يونس:٢٤] أي: كأن لم يكن لها وجود من قبل.

ولذا قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله؛ فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.

وقال الرازي: قال أهل المعاني: وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من السلامة والعافية.

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام:٤٥]: هذا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة.

إذا: على الإنسان إذا رأى هلاك الظلمة أن يحمد الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله بذلك يكون قد أراح البلاد والعباد من هؤلاء الظالمين.

وختم الله قصص ما مضى من أحوال هؤلاء المهلكين فقال عز وجل: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام:٤٥]، فهو يستحق الحمد على أنه أهلك هؤلاء الذين عتوا وتجبروا،

وفي هذا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأن هذا من أجل النعم وأجزل القسم، فهو إخبار بمعنى الأمر تعليما للعباد.

ف الزمخشري يذهب إلى أن قوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة:٢] معناه: فاحمدوا الله رب العالمين.

أي: أنه أمر جاء في سياق الخبر، كما في قوله: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ [الروم:١٧] فقد جاء في بعض التفاسير أن المعنى: فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون.

وكذلك تكون الآية هنا -على قول الزمخشري -: فاحمدوا الله رب العالمين على إهلاك الظلمة.

قال ابن عقيل في (الانتصاف): ونظيرها قوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ [النمل:٥٩] أي." (١)

"تفسير قوله تعالى: (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا)

قال تعالى: فقد انتهينا في تفسير سورة الأنعام إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ [الأنعام:١٠٩] * ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام:١١٠] بعدما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم اجتهادهم في الأيمان بقوله: ((وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها)) بين تعالى كذبهم في أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وأكده فقال عز وجل: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ [الأنعام:١١١].

قوله تعالى: (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) يعني: فرأوهم عيانا، أي أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه هنا من آية واحدة، ولن نجيبهم فقط إلى آية واحدة يطلبونها، لكن سنأتيهم بجملة كبيرة من الآيات، ومنها أن ننزل إليهم ملائكة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا﴾ [الفرقان:٢١].

وحكى عنهم أن من اقتراحاتهم الطويلة أنهم قالوا: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾ [الإسراء:٩٢].

فيقول تعالى: (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) يعني: بإحيائنا إياهم.

أي: نحيي الموتى فيكلمونهم.

كما قالوا: ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ [الدخان:٣٦].

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١١/٥١

وقوله: (وحشرنا عليهم) أي: جمعنا (كل شيء) سواء من الحيوانات أو النباتات أو الجمادات، أو كل شيء من الآيات التي اقترحوها.

وقوله: (قبلا) أي: مقابلة وعيانا حتى يواجهوهم قبلا كما يكون الشيء في قبل الشيء، أي: في مقابلته في مواجهة ورؤية عينية حتى تحصل المواجهة، أو أن (قبلا) جمع قبيل، وهو الكفيل والضمين.

فقوله: (وحشرنا عليهم كل شيء) يعني: كل شيء اقترحوه أو سألوه من الآيات، أو كل شيء من الحيوانات والنباتات والجمادات.

(قبلا) أي: كفلاء، جمع كفيل، أي: بصحة ما بشروا به وأنذروا، بحيث تأتي هذه الأشياء كلها من النباتات والحيوانات والجمادات وينطقها الله سبحانه وتعالى، وتضمن لهم وتشهد بصحة ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من البشارة والنذارة، فتضمن لهم صدق هذه الأخبار، وتنطق لهم بذلك (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) أي: ما كانوا ليؤمنوا لغلوهم في **التمرد** والطغيان.

وقوله: (إلا أن يشاء الله) يعني: إلا أن يشاء الله إيمانهم فيؤمنوا.

وقوله: (ولكن أكثرهم يجهلون) يعني أنهم لو أوتوا كل آية لم يؤمنوا، فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكون، أو يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات.

قال القاشاني: وفي الحقيقة لا اعتبار بالإيمان المرتب على مشاهدة خوارق العادات، فإنه ربما كان مجرد إذعان لأمر محسوس وإقرار باللسان وليس في القلب من معناه شيء، كإيمان أصحاب السامري، والإيمان لا يكون إلا بالقلب، كما قال تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ [الحجرات:١٤] وهنا تنبيهان: الأول: يقرأ قوله تعالى: (وحشرنا عليهم كل شيء قبلا) بضم القاف والباء، وعلى هذه القراءة يكون لقوله: (قبلا) وجهان: أحدهما: أنه جمع قبيل بمعنى كفيل وضمين.

والقول الآخر أنه مفرد، كقبل الإنسان ودبره، وعلى كلا الوجهين هو حال من (كل).

ويقرأ -أيضا- بالضم وسكون الباء، فبدلا من أن نقول: (قبلا) بضم الباء نقول: (قبلا) بتسكين الباء.

ويقرأ -أيضا- بكسر القاف وفتح الباء (قبلا) منصوبا على أنه ظرف، كقولهم: لي قبل فلان حق.

أي: عند فلان حق، أو أنه نصب على الحالية، وهو مصدر، أي: عيانا ومشاهدة.

فمعنى (قبلا): أي: مقابلة وعيانا.

وهناك شاهد من القرآن الكريم على أن كلمة (قبل) تأتي بمعنى المشاهدة أو المعاينة، وهو قوله تعالى:

﴿إن كان قميصه قد من قبل﴾ [يوسف:٢٦] يعني: من أمام.

وقوله: (إلا أن يشاء الله) هذا الجزء من الآية حجة واضحة على المعتزلة، بدلالة أن جميع الأشياء بمشيئة الله تبارك وتعالى، حتى الإيمان والكفر، وقد اتفق سلف هذه الأمة على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وللمعتزلة تحيل في المدافعة بحمل المشيئة المنفية على مشيئة القصر والاضطرار، وإنما يتم لهم ذلك لو كان القرآن يتبع الآراء، فلو كان القرآن تابعا لآرائهم وبدعهم لتم لهم هذا الاستدلال، بمعنى أنهم يحاولون تحريف آيات الله سبحانه وتعالى وتأويلها بما يوافق بدعتهم، فيجعلون بدعتهم وزبالة آرائهم هي الأصل، ثم بعد ذلك يحرفون معاني القرآن حتى توافق بدعتهم، فيجعلون معاني القرآن والسنة فرعا على الأصول التي ابتدعوها، وإذا كان القرآن هو القدوة وهو المتبوع فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه فإلى النار، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولذلك قال تعالى هنا: (إلا أن يشاء الله) فهذه الآية مما يدحض حجج المعتزلة، فإن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، وكل شيء يجري في الكون بمشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن)

ثم يقول تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ [الأنعام:١١٢]، فهنا تسلية ومواساة للنبي صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من هؤلاء الكافرين.

قوله: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن) شياطين بدل من (عدوا) منصوب، ويمكن فيه إعراب آخر، وهو: أنه مفعول به أول لـ (جعلنا)، وهنا حصل تقديم وتأخير بالنسبة للمفعول الأول والثاني في قوله: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن) فالمعنى: وكذلك جعلنا لكل نبي شياطين الإنس والجن عدوا، فـ (عدوا) مفعول ثان، و (شياطين) مفعول أول، يعني: جعلنا شياطين الإنس والجن عدوا.

والعدو هنا بمعنى: أعداء، فظاهرها مفرد، لكن معناها أعداء، كما قال الشاعر: إذا أنا لم أنفع صديقي بوده فإن عدوي لم يضرهم بغضي فانظر كيف استعمل كلمة (عدو) في معنى الجمع! والعدو ضد الصديق والحبيب.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢/٥٧

وكلمة عدو تطلق على المفرد والمثنى والجمع والذكر والأنثى، كما قال تبارك وتعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ [الشعراء:٧٧] فهو يتكلم هنا عن جمع، ومع ذلك قال: (عدو لي إلا رب العالمين).

وكذلك هنا في نفس هذه الآية (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا) ف (عدوا) هنا بمعنى الجمع، بدليل أنه أبدل منها (شياطين الإنس والجن) أي: مثل ذلك الجعل الذي جعلناه في حقك قد جعلناه لكل نبي.

يعني: هذه سنة الله سبحانه وتعالى فيمن سبقك من إخوانك من الأنبياء أن الله سبحانه وتعالى يجعل لكل نبي عدوا من هؤلاء الشياطين.

فكلمة (كذلك) إشارة إلى أن مثل ذلك الجعل الذي جعلناه في حقك من وجود هؤلاء الأعداء الذين يكيدونك جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين سبقوك أيضا عدوا شياطين الإنس والجن، فحيث جعلنا لك عدوا يضادونك ولا يؤمنون قد جعلنا لكل نبي تقدمك عدوا من مردة الإنس والجن فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ [فصلت:٤٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين﴾ [الفرقان:٣١]، فهذه الآية بينت صفة أخرى لهؤلاء الأعداء شياطين الإنس والجن هي أنهم مجرمون.

وقد قال: ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن نزل إليه جبريل ثم جاءت به خديجة إليه: (هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا إذ يخرجك قومك.

قال: أومخرجي هم؟! قال: نعم؛ لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي، ولئن أدركني يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا).

فالشاهد هنا من قول ورقة رحمه الله تعالى (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) فمن كان صاحب حق فإنه يعادى، وانظر إلى كلمة (بمثل) الدالة على دعوة التوحيد، فمن كان داعية إلى التوحيد فلابد من أن يعادى.

وقد تزول العداوة إذا حصل تنازل عن الحق، وهذا لا يسلكه صاحب العقيدة الحقة؛ لأنه لا يقبل المساومة أبدا، ولا يحصل منه الالتقاء مع أعداء الدين في منتصف الطريق كما أراد المشركون، فالذين يتنازلون دائما هم أصحاب الباطل، وهم الذين يتواضع بعضهم لبعض ويتنازل بعضهم لبعض ويتعايشون في سلام.

أما صاحب الحق فلأنه لا يملك أن يحور هذا الحق أو يغيره فلا يملك أن يتنازل عنه، أو أن يلتقي مع أعداء هذا الحق في منتصف الطريق، وحينما ساوم الكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يعبدوا

إلهه شهرا ويعبد إلههم شهرا فإن كان الحق أحدهما اتبعوه نزل قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم﴾ [الكافرون:١ - ٦] يعني الباطل ﴿ولي دين﴾ [الكافرون:٦] يعني الحق.

فلذلك لا يحصل مثل هذا الالتقاء أبدا، فالذي يعرض دائما التنازل هم أصحاب الباطل، ولذلك نجد أهل المذاهب الباطلة كالمذاهب الديمقراطية ونحوها يقبلون التعايش فيما بينهم؛ لأن كل واحد يمكن أن يلتقي مع الآخر على أساس أن الكل يكون له فرصة متساوية وكذا وكذا من الكلام المعروف؛ لأنه باطل وصنع بشر، فلذلك يتنازل بعضهم لبعض، ويعطي بعضهم أصحاب المذهب الباطل أو الضال الحق في الحياة والحق في الوجود، وهذا إذا كانت المذاهب كلها متساوية في أنها أديان أرضية.

أما إذا كان دين الإسلام فلا يمكن أبدا أن يسوى الإسلام بغيره من الأديان أو المذاهب.

وصاحب الحق إذا تنازل عن شيء من الحق فإنه يفقد بذلك عناصر قوته، ويستوي مع أهل الباطل في هذه الحال.

ولذلك انظر إلى قول ورقة بن نوفل: (لم يأت رجل قط بمثل) وما زلنا نتأمل كلمة (بمثل ما جئت به إلا عودي).

وقوله تعالى: (شياطين الإنس والجن) يعني: كما أن هناك شياطين من الجن فكذلك هناك شياطين من الإنس، وكلهم يطلق عليهم لفظ الشياطين، فمن الإنس -أيضا- شياطين، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ [البقرة:١٤]، أي: شياطينهم من الإنس.

والعرب تسمي كل **متمرد** شيطانا، سواء أكان من الجن أم من الإنس أم من غيرهما، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الكلب الأسود شيطان)، فكل **متمرد** يسمى شيطانا، سواء أكان من الجن أم الإنس أم من غيرهما.

وقوله: (يوحي بعضهم إلى بعض) أي: يلقي ويوسوس، وأصل الوحي هو الإشارة السريعة في خفاء، فمعنى (يوحي) يلقي ويوسوس.

وقوله (زخرف القول) القول المزخرف هو المزوق من الكلام الباطل.

فقوله: (زخرف القول) يعني: المزوق من الكلام الباطل من القول، وأصل الزخرفة الزينة المزوقة، ولذلك قيل للذهب: زخرف.

كما في قوله تعالى: ﴿وزخرفا﴾ [الزخرف:٣٥].

وبعض علماء اللغة يرون أن أصل الزخرفة هو الزينة، ولأجل ذلك فرع عليه تسمية الذهب زخرفا.

والبعض يقول: بل المعنى الأصلي هو أن الزخرف يعني الذهب، ولما كان الذهب حسنا في الأعين قيل لكل زينة: مزخرفة.

وقد يخص بالباطل، كما في هذه الآية (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) فزخرف القول هو القول المموه المزيف الباطل.

وقوله: (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) يعني: ليغروهم بهذا الوحي، أو غارين إياهم بهذا الوحي.

ويكون هذا الغرور للضعفاء؛ لأن الله تعالى جعلهم أهل الحجاب، وكذلك الغارين ليقهرهم بمقتضى استعدادهم، وفي الآية دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله سبحانه وتعالى وخلقه؛ لأن هذا الجعل من الله، والجعل نوعان: جعل شرعي، وجعل كوني قدري.

وهنا الجعل كوني قدري، وقد جاء في القرآن الكريم استعمال كلمة جعل بمعنى (شرع)، كما في قوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج:٧٨] يعني: ما شرع لكم في الدين من حرج: وقوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة﴾ [المائدة:١٠٣] يعني: ما شرع.

فهنا الجعل كوني قدري، أي أنه من قدر الله سبحانه وتعالى وكلماته الكونية.

قال المهايمي: حكمة أن جعل الله سبحانه وتعالى لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن كي تظهر الحجج لمجادلتهم وترتفع شبهاتهم، ولئلا يقال: إنه شخص ساعده الكل ليأكلوا أموال الناس، أو يتواصوا عليهم، لكن انقسم الناس عليه كما بين تبارك وتعالى.

وقوله: (ولو شاء ربك ما فعلوه) يعني: ما فعلوا ذلك، والإشارة إلى معاداة الأنبياء وإيحاء الزخارف، وهذا -أيضا- دليل على المعتزلة، فالله تعالى خالق الشر كما أنه خالق الخير؛ لقوله: (ولو شاء ربك ما فعلوه) فهذا المحكي في الآية شر، والذي شاء أن يقع هذا الشر هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يكون في ملكه إلا ما يريد سبحانه وتعالى.

وقوله تبارك وتعالى: (ولو شاء ربك ما فعلوه) تعرض هنا لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، فقوله: (ولو شاء ربك) يعني: يا محمد.

عليه الصلاة والسلام، فهذا يعرب عن كمال اللطف في التسلية.

وقوله: (فذرهم وما يفترون) يعني: وما يفترون من الكفر.

وقوله: (فسوف يعلمون) أي: عاقبة هذا الافتراء.
ولاشك في أن قوله تعالى: (ولو شاء ربك) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: (ما فعلوه) صريح في أن المراد بالكثرة هنا المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم، أي: أن الخطاب هنا للرسول نفسه عليه الصلاة والسلام، والسياق نفسه يتحدث عن سنة الله في الأنبياء.
فقوله تعالى: (ولو شاء ربك ما فعلوه) هو كالصريح في أن المراد الكفرة المعاصرون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.." (١)

"وجه الجمع بين قوله تعالى: (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) وقوله: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين)

قال عز وجل: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ [الأنعام:١٣٠]، فما السبب في أنهم أقروا في هذه الآية بالكفر وجحدوه في قوله عز وجل: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام:٢٣] ففي هذا الموضع حلفوا وأقسموا على أنهم ما كانوا مشركين، وفي الآية الأخرى: ((وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين))؟ والجواب أنه ينبغي أولا أن يكون السؤال أن تقول: ما الحكمة؟ أو ما السر في كذا؟ أو ما السبب في كذا؟ لكن أن تقول: هناك تعارض بين هاتين الآيتين فهذا من سوء الأدب؛ لأن كلام الله لا يضرب بعضه ببعض، وإنما من الأدب أن تقول: ما وجه الجمع؟ أو كيف يرفع الإشكال بين كذا وكذا؟ أو: غير ذلك من التعبيرات، لكن أن يزعم امرؤ -والعياذ بالله- أن بينهما تعارضا، فهذا من سوء الأدب مع كلام الله عز وجل.
فبعد هذا السؤال يأتي

A بأن يوم القيامة يوم طويل، والأحوال فيه مختلفة، فتخيل أنك يوم القيامة تحاول أن تمعن فهي بعقلك، فقدر يوم القيامة خمسون ألف سنة مما نعد، فالواحد منا يعيش ستين سنة إلى مائة سنة مثلا، فتخيل يوما مقداره خمسون ألف سنة لا يعمل الإنسان فيه شيئا، ولا تستطيع أن تستدرك أو تستثمر هذه الخمسين ألف سنة حتى تنجو؛ لأنك انتقلت إلى دار الجزاء، فالإنسان إذا حاول أن يدرك مقدار هذا اليوم العظيم يستطيع أن يستشعر ما فيه من الأهوال والمعاناة، ويجتهد في العمل لأجل هذا اليوم، ثم إذا ترقى بعد ذلك وتخيل الحياة الدائمة الخالدة التي لا نهاية فيها ولا موت على الإطلاق -سواء في جنة أو في ن ار- يدرك

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٣/٥٧

-أيضا- أن الأمر جد لا هزل فيه.

فالخمسون ألف سنة هذه تكون حافلة بالأحداث وبالوقائع وبالأحوال المختلفة، وتتنوع فيها الأحوال، فتارة يقر الخلق، وفي مناسبة معينة وفي ظروف أخرى يجحدون، وتارة يقولون: نشهد على أنفسنا أننا كنا كافرين. ومرة أخرى يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين.

فهذا هو سبب التعارض في الأقوال وفي الإقرارات، فمرة يحلفون ويقولون: والله ربنا ما كنا مشركين.

ومرة أخرى يعترفون ويقرون على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين.

مثلا: إذا كان وكيل نيابة يأخذ أقوال أحد فإنه يعترف بشيء، ثم بعد ذلك يتردد، ثم ينفيه، ثم يرجع فيثبته مرة أخرى، فهذا الاضطراب يدل على شدة الخوف والفزع واضطراب الأحوال، فلا شك في أن من عظم خوفه كثر الاضطراب في كلامه، حتى إنه لو حصل شيء من التضارب في الأقوال فإن التحقيق كله يلغى؛ لأن هذا يدل على أن الإنسان لم يكن في حالة نفسية مستقرة، فكونه يقول كلاما ثم ينفيه، ويصدقه ثم يكذبه يدل على أن حالته النفسية غير مستقرة عند التحقيق لسبب أو لآخر، فبالتالي يرفض التقرير كله.

فالشاهد أن هؤلاء يقرون مرة ويجحدون مرة أخرى، فمرة يحلفون ويقولون: (والله ربنا ما كنا مشركين) وهذه يمين مغلظة، ويتهمون الملائكة أنهم افتروا عليهم، وأنهم سجلوا في صحائف أعمالهم ما لم يفعلوه، ويقول أحدهم: لا أريد شاهدا إلا من نفسي.

ثم يفحمهم الله سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك حينما يحاولون كل طرق الخلاص يعترفون، كما قال عز وجل: ((وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين))، يعني: بالفعل.

وبعض المفسرين ذهب إلى أن قوله: (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أن المراد: شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم.

فإن قيل: لماذا كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم في الآية الكريمة: ((قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين)) فالأولى حكاية لقولهم، فكيف يقولون ويعترفون؟ فالجواب أن المتكلم في المرة الأولى في قوله تعالى: ((شهدنا على أنفسنا)) هم الكفار أنفسهم، فهذه حكاية لما قالوه بحروفه.

وأما المتكلم في المرة الثانية في قوله تعالى: ((وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين)) فهو من كلام الله سبحانه وتعالى، يقصد به ذمهم وتخطئة رأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر

والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه، وإنما قال ذلك تحذيرا للسامعين من مثل حالهم.

فما أعظم حجة القرآن الكريم! فإن كل هذه المحاورات من أجل مصلحتنا نحن، فيجب على كل إنسان مسلم وكافر أن يستحضر هذه المواقف، ويستعد لها من الآن؛ لأنه ليس هناك إقامة للحجة أكثر من هذا، فكل تفاصيل يوم القيامة، وحجج التوحيد، ومجادلة المشركين، وتنويع الخطاب بهذه السور إنما المقصود به أن تقوم الحجة على الناس، فلن يهلك على الله إلا هالك عات متمرد قاس يستحق عذاب الله سبحانه وتعالى.

فالله يقول له: لو كفرت ستخلد في جهنم وتعذب هذا العذاب الأليم، وهذه هي الحجج وهذه هي البراهين: ومع ذلك يصر، مع أنه أعطاه الله الفرصة، وأرسل إليه الرسل، وقامت عليه الحجج، فلا شك في أنه يستحق العذاب، وأن الله ما ظلمه؛ لأنه سبق أن أنذره بذلك.." [١]

"تفسير قوله تعالى: (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد أباؤنا فانتظروا إني معكم من المنتظرين)

ثم أخبر تعالى عن تمرد عاد وطغيانهم على هود عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ [الأعراف: ٧٠ - ٧١].

((قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده)) أي: لنخصه بالعبادة.

((ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا)) يعني: من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى: ((أفلا تتقون)) لأنه كان يتوعدهم: فهنا قالوا: ((فأتنا بما تعدنا))، والذي تأمرنا بأن نتقيه من عذاب الله.

((إن كنت من الصادقين)) يعني: في الإخبار بنزول العذاب.

((قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب)) أي: عذاب.

والرجس بالسين والرجز بالزاي بمعنى، حتى قيل: إن أحدهما مبدل من الآخر، كالأسد والأزد، وأصل معنى الرجس أو الرجز: الاضطراب، يقال: رجست السماء يعني: رعدت رعدا شديدا وتمخضت، وهم في مرجوسة من أمرهم يعني: في اختلاط والتباس.

ثم شاع استعمال الرجس أو الرجز في العذاب؛ لأن العذاب إذا حل بقوم اضطربوا وماتوا.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١١/٥٨

وادعى بعضهم أن الرجس بمعنى العذاب مجاز؛ لأنه حقيقته في الشيء القذر فاستعير لجزائهم، وظاهر اللغة أنه حقيقة وليس بمجاز، ووجه التعبير بالمضي عما سيقع: تنزيل المتوقع كالواقع، أي: كأنه قد وقع بالفعل وصار يخبر عنه بصيغة الماضي، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل:١].

((وغضب)) أي: سخط؛ لإشراككم معه من هو في غاية النقص في أعلى كمالاته التي هي الإلهية.

((أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم)) [الأعراف:٧١] يعني: في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات، وليس لها حقيقة؛ لأنكم تسمونها آلهة، ومعنى الإلهية فيها معدوم ومحال وجوده، وهذا كقوله تعالى: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم﴾ [العنكبوت:٤٢] يعني: هي كالعدم.

وقال الشهاب: جعل الأسماء عبارة عن الأصنام الباطلة، فعبر عن الأصنام بكلمة أسماء، كما يقال لما لا يليق: ما هو إلا مجرد اسم، فالمعنى أتجادلونني في مسميات لها أسماء لا تليق بها، فتوجه الذم للتسمية الخالية عن المعنى، والضمير حينئذ راجع إلى أسماء.

((ما نزل الله بها من سلطان)) أي: حجة ودليل، يعني: لم يقم دليل وحجة على تسميتها آلهة؛ لأن المستحق للعبودية ليس إلا من أوجد الكل، وإنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى، إما بإنزال آية أو نصب حجة، وكلاهما مستحيل، فتحقق بطلان ما هم عليه.

((سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان)) أي: لو كانت تستحق الإلهية وليست مجرد أسماء عارية عن الحقيقة؛ لأنزل الله آية أو دليلا أو حجة أو برهانا يؤكد إلهيتها، فلما لم يقع شيء من ذلك، بل مستحيل أن يقع، تحقق بطلان ما أنتم عليه.

ودلت الآية على كساد التقليد حين ذمهم بسلوك طريقة آبائهم: ((سميتموها أنتم وآباؤكم)) أي: تقليدا لآبائكم.

وتدل على أن المعارف مكتسبة.

وتدل على بطلان كل مذهب لا دليل عليه لقوله: ((ما نزل الله بها من سلطان)).

ويدل قوله: ((أتجادلونني)) على أن المبطل مذموم في جداله، والواجب عليه النظر ليعرف الحق، وأن يتأمل ويتحرى ويبحث عن الحق بتجرد وإنصاف، لا أن يجادل عن الباطل الذي هو عليه.

وبين تعالى أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة، من غير دليل يدل على تحقيق المسمى،

وإسناد الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهار لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم.

((سميتموها أنتم وآباؤكم)) هذا إشارة إلى غاية الجهالة وفرط الغباوة منهم وآبائهم.

((فانتظروا)) أي: نزول العذاب الذي استعجلتموه وطلبتموه بقولكم: ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ [الأعراف:٧٠] لأنه وضح الحق، وأنتم مصرون على العناد، فلم يبق إلا انتظار العذاب الذي تستعجلون، ولذلك قال لهم: ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ [الأعراف:٧١] أي: لما يحل بكم، فجاء منتظرهم بحيث لم ينج منهم بمجرى العادة أحد، وجعل هلاكهم بالريح التي تتقدم الأمطار لكفرهم برياح الإرسال.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه)

قال تعالى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [الأعراف:١٣١] ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن عليهم والشدائد لم يزدادوا إلا تمردا وكفرا، فقابلوا عقاب الله سبحانه وتعالى بالسنين ونقص الثمرات الذي كان يرجى أن يكون من ورائه تضرع وتذلل ورقة في قلوبهم، بأن تمردوا وازدادوا عتوا وكفرا.

قوله تعالى: ((فإذا جاءتهم الحسنة)) أي: الصحة والخصب، ((قالوا لنا هذه)) أي: هذا لأننا نستحق هذه النعمة، فهي لأجلنا واستحقاقنا كما قال قارون: ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص:٧٨] ولم ينسب الفضل إلى الله سبحانه وتعالى، وكذلك هؤلاء إذا جاءتهم الحسنة قالوا: لنا هذه، أي: نحن نستحق هذه وهي أتت لأجلنا واستحقاقنا، ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على إنعامه.

((وإن تصبهم سيئة)) شدة ((يطيروا بموسى ومن معه)) يعني: يتشاءموا وأصله (يتطيروا) يعني: أنهم عندما تأتيهم المصيبة أو العذاب أو نقص الثمرات والجدب والقحط يقولون: هذه بشؤم موسى وهؤلاء المؤمنين معه -والعياذ بالله-.

فأبطل الله سبحانه وتعالى كلامهم بقوله عز وجل: ((ألا إنما طائرهم)) أي: شدتهم وما صار إليهم من القضاء والقدر، ((عند الله)) لا عند غيره، يعني: هذا إنما هو من قبل الله عز وجل بقضائه وقدره، ((ولكن أكثرهم لا يعلمون)) أن ما أصابهم من الله تعالى فيقولون ما يقولون مما حكى عنهم.

وقوله تعالى: (ألا إنما طائرهم عند الله) يعني: أن شؤمهم، وما قد أعد الله لهم بسوء أعمالهم هو عند الله سبحانه وتعالى، وأصل كلمة الطائر أو التطير: التفاؤل بالطير؛ لأن العرب في الجاهلية كان إذا أراد أحدهم أن يفعل شيئا أو يمضي في سفر، فإنه كان ينفر الطير، فإن اتجه إلى اليمين سموه السانح، وإن اتجه إلى

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٦/٦٤

اليسار سموه البارح، فإن اتجه يمينا تيمنوا وتفاءلوا وسافروا، وهي استخارة شركية، وإذا اتجه شمالا تشاءموا وتركوا السفر.

ثم بعد ذلك استعمل لفظ التطير في كل ما يتفاءل به ويتشاءم، ولذلك روي في الحديث -وفيه ابن لهيعة والكلام فيه معروف-: (اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك).

وأيضا قوله تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ [الإسراء:١٣] يعني: عمله الذي صدر عنه من خير أو شر، ألزمناه إياه في عنقه.

يقول الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ((وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه)): ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن فرعون وقومه إن أصابتهم سيئة أي: قحط وجدب ونحو ذلك تطيروا بموسى وقومه، فقالوا: ما جاءنا هذا الجدب والقحط إلا من شؤمكم، وذكر مثل هذا عن بعض الكفار مع نبينا صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ [النساء:٨٧] كما تقدم في سورة النساء، وذكر نحوه أيضا عن قوم صالح مع صالح في قوله: ﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾ [النمل:٤٧]، وذكر نحو ذلك أيضا عن القرية التي جاءها المرسلون في قوله: ﴿قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم﴾ [يس:١٨].

وبين تعالى أن شؤمهم من قبل كفرهم ومعاصيهم، لا من قبل الرسل، فقال عز وجل: ((ألا إنما طائرهم عند الله))، وقال في سورة النمل في قوم صالح: ﴿قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون﴾ [النمل:٤٧]، وقال في يس: ﴿قالوا طائركم معكم﴾ [يس:١٩].." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين)

﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ [الأعراف:١٣٢ - ١٣٣] أخبر تبارك وتعالى عن شدة تمرد فرعون وقومه وعتوهم، وأنهم لم يكتفوا بالتكذيب بموسى مع كل ما مضى، بل جاءهم العذاب فلم يتذكروا ولم يتضرعوا إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما ازدادوا عتوا، وكانوا إذا أصابهم الخير قالوا: لنا هذه! فلم يشكروا الله سبحانه وتعالى، وإذا أصابهم الشر تشاءموا وقالوا: هذه بشؤم موسى ومن معه، تمادوا في ذلك حتى تجاسروا وتكبروا بقولهم: ((وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين)) أي: بمصدقين بالرسالة، فجاءت العقوبة مباشرة: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٣/٦٥

والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ [الأعراف:١٣٣].
((فأرسلنا)) أي: على آل فرعون ((الطوفان))، وأما قوم موسى فلطف تعالى بهم فلم ينلهم ولا حل بهم سوء من الطوفان ولا غيره.
والطوفان لغة هو: المطر الغالب، ويطلق على كل حادثة تطيف بالإنسان وتحيط به، فعم الطوفان الصحراء، وأتلف عشبها، وكسر شجرها، وتواصلت الرعود والبروق ونيران الصواعق في جميع أرض مصر، وعلينا أن نتفكر في هذا لقوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ [إبراهيم:٤٥]، فكل من سكن مساكنهم مخاطب بهذه العبرة وبهذه العظة فهذه سنة الله سبحانه وتعالى في الدنيا أنها دار ابتلاء كما كررنا مرارا، فالله عز وجل قادر بكلمة من حرفين: ((كن)) على أن يكون البشر كلهم على أتقى قلب رجل واحد، وهو قلب رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، ولكننا لسنا ملائكة في الدنيا، فهذه مجرد فترة امتحان في دار امتحان.
فالعزة التي كانت والعتو **والتمرد** والاستكبار الذي أصاب فرعون وقومه، ومقابلة آيات الله عز وجل بمزيد من **التمرد** والعتو، تدعونا لننظر إلى العاقبة لمن كانت؟ فالدنيا دار ابتلاء، فنفس هذه الأشبار أو الأمتار التي نعيش عليها عاش عليها من قبلنا، والإنسان أحيانا يغفل عن تدبر هذا الأمر، فلسنا أول من يطأ هذه الأرض، بل وطأ نفس هذه البلاد قرون وقرون وقرون كانوا أعظم منا وأشد قوة، ومع ذلك لما كفروا مكر الله سبحانه وتعالى بهم؛ فلذلك ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ [آل عمران:١٩٦] العتو والاستكبار إنما هو جولة ليست هي النهاية، فالنهاية والعاقبة حتما ستكون للتقوى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف:١٢٨] ﴿والعاقبة للتقوى﴾ [طه:١٣٢] كما أخبر الله عز وجل.
فالله سبحانه وتعالى قادر على أن ينزل صاعقة من السماء على كل من يعادي الإسلام أو يعادي أولياء الله سبحانه وتعالى، والناس ينظرون إليه، لكن هذا سينافي حكمة الابتلاء، فلو أن كل من يكفر بالله، وكل من يحارب الإسلام، تنزل عليه صاعقة وتأخذه أمام الناس، فهنا سيبطل اختيار الناس وسيؤمنون كرها وليس طواعية، وحكمة الله سبحانه وتعالى: أن يكون الإيمان المعتبر هو الإيمان الاختياري وليس الإيمان الذي يأتي بالإجبار؛ فلذلك تستمر سنن الله سبحانه وتعالى، وتنتهي فصول بعض الأحداث في الدنيا والتي قد تكون بنهاية غير سارة، لكن ليست هذه هي العبرة، العبرة أنهم صاروا من أهل النار، فعلينا أن نستحضر هذا التعاقب بين عتو قوم فرعون ثم العذاب الذي يأتيهم.
ومن رحمه الله سبحانه وتعالى: أنه يأتينا بهذه النذر لعلنا نتذكر أو لعلنا نتضرع، إنعاما في إقامة الحجة

عليهم، فانظر أتتنا من قبل الزلازل وأتتنا الفئران وأتانا الجدب والقحط من سنوات إذا كنتم تتذكرون، ومن قبل أشياء كثيرة جدا، والآن حينما عم وانتشر هذا البلاء المسمى بجنون البقر، انظر كيف كان رد فعل الناس لمثل هذا الأمر، حتى أنهم بالغوا في هذه الردود بمقاطعة لحم البقر حتى إن الجزارين تأثروا بذلك.
يخبرنا الله سبحانه وتعالى به وهو أصدق القائلين من أن هذا حلال، وأن هذا حرام، وأن هذا يغضب الله، وأن هذا يرضي الله، ونحن لا نبالي بأوامر الله عز وجل ولا بشرع الله عز وجل، ولا نبالي بمحاربة دين الله.
وقد انتشر الآن جنون البقر، والناس خافوا من هذه الأشياء، ألا ينبغي علينا حينما يخبرنا الله بشيء: أن فيه هلاكنا وأن فيه دخول النار أن نحذر؛ لأننا عصينا الله وحاربنا دين الله، فتكون عاقبتنا كذا وكذا، فأولى أن نصدق خبر الله سبحانه وتعالى ونعمل به.
والآن وزير الصحة اليمني أو اليماني أعلن أن الآلاف من اليمنيين يموتون بالسرطان الذي ينشأ عن مضغ القات، ويحتمل أنهم الآن يرتدعون، ومن قبل كان العلماء ينصحونهم أن القات فيه كذا وكذا من المضار، أو أنه محرم شرعا، فلا يبالون، والقات منتشر هناك أشد من التدخين هنا، بين النساء والرجال والأطفال والكبار والصغار بصورة مقززة وسيئة، فهم يتعاطون هذا القات ويمضغونه ويكومونه في أشداقهم فيما يسمونه تخزين القات، ومع ذلك لم يبالوا بكلام العلماء حينما زجروهم عن ذلك، لكن يحتمل الآن أن ينفعلوا ويبدءوا في تصحيح أوضاعهم إذا أذيع لهم أن الآلاف منهم يموتون بالسرطان؛ بسبب مضغ القات.
فحينما تأتينا الأخبار أو التحذيرات من بشر مثلنا نقبلها، حينما يأتيك الطبيب ويقول لك: لا تأكل السمك ولا تأكل كذا، وربما منع عليك أشياء معينة بسبب مرض معين تنصاع، بل تسلم له نفسك كي يفتح بطنك بالمشرط ويجري لك عملية جراحية، فإذا أخبرك الله سبحانه وتعالى أن في ذلك شرا لك أو أن في ذلك خيرا لك لا تبالي بشرع الله سبحانه وتعالى، ولا تسارع إلى طاعته والخوف مما حذرك الله عز وجل منه.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات)
وقوله تعالى: (يأمرهم بالمعروف) يحتمل أن يكون مستأنفا، وأن يكون مفسرا لقوله: ((مكتوبا)) يعني: أنه يأمرهم بالمعروف إلى آخره.
وقوله تعالى: ((ويحل لهم الطيبات)) الطيبات أعم من الطيبات في المأكل، يعني: ليست فقط الطيبات في المأكل، ولكن أيضا تعم، كالشحوم تعم أيضا البحائر والسوائب والوصائل والحامي، والطيبات في حكم

(١) تفسير القرآن الكريم – المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٤/٦٥

الشريعة كالبيع وما خلا كسبه عن سحت، وكذا الخبائث هي ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، أو ما خبث في الحكم، كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة.

وقوله تعالى: ((يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)) فيه إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم جاء بالتيسير والسماحة، ومعروف أن الإسلام هو دين اليسر ودين السماحة، وهذه حقيقة تعلم من دين الإسلام بالضرورة، كما قال عز وجل: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج:٧٨]، وقال عز وجل: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾ [النساء:٢٦ - ٢٨]، وقال عز وجل: ﴿فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا﴾ [الشرح:٥ - ٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة)، وقال عليه الصلاة والسلام: (إن هذا الدين متين)، (وإن هذا الدين يسر) وغير ذلك من النصوص القاطعة بأن هذا الدين دين اليسر والسماحة، بل إن التيسير من القواعد الأساسية في الشريعة الإسلامية، يقول عليه الصلاة والسلام: (بعثت بالحنيفية السمحة)، وقال عليه الصلاة والسلام لأميريه: معاذ وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن: (بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا).

والإصر والأغلال استعارة لما كان في شرائعهم من التكاليف الشاقة، فمنها: تحريم طبخ الجدي بلبن أمه.

ومنها: نظام الأعياد التي يعيدونها لله في السنة، وهي عيد الفطير وعيد الحصاد وعيد المظالم، وكذلك عيد كل سنة لا يعمل فيه أدنى عمل، وكذلك سبت المزارع، ففي كل سابعة سبت للأرض لا يزرع فيها، ولا يقطف الكرم، بل تترك الأراضي عقلا وغلات الكروم مأكلا لفقراء شعبهم ووحوش البرية.

ومنها: أن من ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو تمرد عليهما وعصاهما يقتل حدا، وكذا من يعمل يوم السبت يقتل، ومن كان به جن يرجم بالحجارة حتى يموت، ومن تزوج فتاة فادعى أنه لم يجد لها عذرة ثم تبين كذبه يقتلان جميعا، وإذا أمسكت امرأة عورة رجل تقطع يدها، وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات المنطوح يرجم الثور، ولا يؤكل لحمه، ومن اضطجع مع امرأة صامت يقطعان من شعبهم، ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر وطلقها أو مات عنها فلا يجوز لزوجها الأول أن يتزوجها، وغير ذلك من الآصار التي تقدم ذكر بعضها في آخر سورة البقرة.

قال الجشمي: تدل الآية على أن شريعته صلى الله عليه وسلم أسهل الشرائع، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم السابقة، وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة.

وتدل على وجوب تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم، ونصره بالجهاد، ونصرته بنصرة دينه، وكل أمر يؤدي إلى توليد ما يتصل بذلك؛ لأن جميع ذلك من باب النصرة، وهذا لا يختص بعصره، فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف.

يعني: أن كل مسلم مطالب أن يكون من أنصار السنة، ومطالب أن ينصر النبي عليه الصلاة والسلام في حياته، وينصر سنته بعد وفاته، ولعل الجهاد بالبيان وإيراد الحجة ووضع الكتب وحل شبه المخالفين يزيد في كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف، ولهذا قلنا: منازل العلماء في ذلك أعظم المنازل.

وقال العلامة البقاعي: لما تراسلت الآي وطال المدى في أقاصيص موسى عليه السلام وبيان مناقبه العظام ومآثره الجسام، وكان ذلك ربما أوقع في بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصبا وأعظمهم رتبة، ساق سبحانه وتعالى هذه الآيات هذا السياق على هذا الوجه الذي بين أعلاهم مراتب، وأزكاهم مناقب، الذي خص برحمته من يؤمن به من خلقه قوة أو فعلا، وجعل سبحانه ذلك في أثناء قصة بني إسرائيل اهتماما به وإكراما له مع ما سيذكر مما يظهر أفضليته، ويوضح أكمليته في قصته مع قومه في مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه في سورة الأنفال وبراءة بأكملها، فكلها في بيان شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه.

ثم قال البقاعي: لما تم ما نظمه تعالى في أثناء هذه القصص من جواهر أوصاف هذا النبي الكريم حث على الإيمان به؛ إيجابا له على وجه علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف.

يعني: أن السياق والآيات طالت في شأن موسى عليه السلام والثناء عليه، فربما ظن ظان أن موسى أشرف الأنبياء، فبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة في أثناء خطاب موسى عليه السلام مع قومه أن محمدا أشرف فقال: ((واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء))، فانتقل السياق إلى مدح محمد عليه الصلاة والسلام، حتى الذين في زمن موسى كان عليهم أن يؤمنوا بمحمد؛ لأنه نزل في كتبهم بشارات بنبوته، فهم يؤمنون به بالقوة، يعني بغير العمل لكن بالقلب فقط، وبالتصديق، فأهل الكتاب مطالبون بالإيمان به إما بالقوة -يعني: بالتصديق بالبشارات التي أخبرت بنبوته قبل أن يوجد في هذا الوجود عليه الصلاة والسلام- وإما بالفعل إذا كانوا أحياء بعد بعثته صلى الله عليه وسلم، فيجب عليهم الإيمان به، فلذلك نوهت الآيات بهذا الوصف العظيم للنبي عليه الصلاة والسلام إشارة إلى دفع هذا التوهم الذي قد يتوهمه بعض الناس من أن موسى أشرف رسل الله، فبين عز وجل أن أكمل وأعظم وأشرف رسل الله هو محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول: ثم لما تم ما نظمه تعالى في أثناء هذه القصص من جواهر أوصاف هذا النبي الكريم حث على

الإيمان به إيجابا له على وجه علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف تقدم زمانه أو تأخر، أمره سبحانه أن يصرح بما تقدم التلويح إليه.

يعني: الإيمان كان واجبا على كل مكلف، سواء كان في الزمن الماضي أو في الزمن الآتي، فكل من كان قبل في الزمن الماضي من اليهود والنصارى مطالبون بالإيمان به، وذلك بالتصديق بالبشارات التي جاءت بوصفه في التوراة وفي الإنجيل، أو بالفعل بعد بعثته.

وهذا تلويح، ولكن أتى عز وجل مباشرة في الآية التي تليها بالتصريح بهذه الحقيقة وهو أنه رسول الله إلى الناس كافة عليه الصلاة والسلام، فصرح بما أخذ ميثاق الرسل عليه؛ تحقيقا لعموم رسالته وشمول دعوته.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)

ثم قال تبارك وتعالى مباشرة بعد هذه الآية الكريمة: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ [الأعراف:١٥٩].

عاد إلى السياق الأول من جديد؛ لأنه قد يفهم من هذا السياق الذي مضى ذم قوم موسى، فعادت الآيات إلى مدح طائفة من بني إسرائيل، وهم الفرقة الناجية من بني إسرائيل؛ لأن كل أمة فيها فرقة ناجية، والدليل هو هذه الآية: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾، ففي قوله: (ومن قوم موسى) تبعيض، فكما أن هذه الأمة انقسمت إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة هي الفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة، فكذلك هناك فرقة ناجية حتى في قوم موسى، وكل نبي يكون له طائفة من أمته يكونون هم الفرقة الناجية.

وقوله تعالى: (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) أي: موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق، ويدلونهم على الاستقامة، ويرشدونهم، فيهدون بالحق، وبالعلم، يعني: الحق في الأمور العلمية.

(وبه يعدلون) في الأمور العملية التطبيقية، فبالحق يعدلون في الحكم، ولا يجورون، والآية سيقت لدفع ما عسى أن يوهمه تخصيص كتابة الرحمة والتقوى والإيمان لمتبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام، إذ قد يتوهم بعض الناس أن تخصيص الرحمة في قوله تعالى: ((فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون)) أن أسلاف قوم موسى يحرمون من هذه الرحمة ومن كل خير، فبين تعالى أنهم ليسوا كلهم كما حكيت أحوالهم من **التمرد** والعتو والكفر والعناد، فلذلك قال:

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٥/٦٧

﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

وقيل: هم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، ويأباه أنه قد مر ذكرهم فيما سلف.

وهذه الآية هي كقوله تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ [آل عمران:١١٣] وقوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ [آل عمران:١٩٩].." [١]

"تفسير قوله تعالى: (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا)

أخبر تعالى عن كفار قريش وعتوهم **وتمردهم**، ودعواهم الباطلة عند سماع آياته تعالى، فقال عز وجل: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [الأنفال:٣١].

قوله: ((وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا)) يعني: هذا الكلام ليس جديدا علينا؛ فقد سمعنا مثل هذا القرآن.

وقوله: ((لو نشاء لقلنا مثل هذا)) أي: مثل هذا القرآن المتلو، وهذه غاية المكابرة ونهاية العناد؛ لأن الكافر يتحلى بصفة الغباء والإيغال في هذا الغباء، ومثال ذلك فرعون؛ فإن الواقع كان يكذبه تماما ومع ذلك كان لا يستحي من المكابرة.

ومثال ذلك أيضا المسيح الدجال الذي يخرج بهذه الأشياء التي يفعلها، ويدعي أنه هو الله سبحانه وتعالى، مع أن شكله الظاهر يثبت للناس كذبه، فإنه: أولا: أعور العين، كما قال عليه الصلاة والسلام: (كأن عينه عنبة طافية)، وجاء في الحديث: (وإن الله ليس بأعور)، ومعاذ الله أن يشبه الله بخلقه، لكن المقصود أن العور عيب ظاهر، وهل الخالق الذي أعطى الخلق هذا الجمال الذي وزعه فيهم يعجز عن أن يجمل نفسه؟! نحن نتكلم من حيث الرد على المسيح الدجال، فهو أعور العين ويدعي أنه هو الله! لو كان هو الله -جدلا- لدفع هذا العيب الخلقي عن نفسه.

ثانيا: أن المؤمن يقرأ على جبين المسيح الدجال كلمة (ك، ف، ر)، حتى المؤمن الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة، وكذلك فرعون عيي غبي جاهل ركيك، ومع ذلك يقول: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف:٥٢]، فيصف موسى الذي هو أفصح الفصحاء أنه يحسن الكلام، ويقول: أنا الخطيب، ويقول: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف:٥٢].

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢٠/٦٧

ففرعون مع الدلائل الواضحة على هزيمته وضعفه وخيبته وقصوره البشري يقول: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات:٢٤]، ويقول: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص:٣٨]، بل إن هذا الكبر والاستنكاف إنما قاله بعد ظهور الآيات التي تفضح كذبه، وتؤيد صدق موسى عليه السلام، ومع هذا يصل به الأمر إلى أن يتبع موسى وبني إسرائيل داخل البحر، مع أنه يرى هذه الآية! فالكافر دائما يتحلى بالغباء، وممكن أن يكون عنده قدر من الذكاء، لكن يغلب عليه الغباء، وعمى البصيرة، فما عنده نور البصيرة ولا نور الإيمان. فكذلك هؤلاء الذين يتكلمون هنا، كما قص الله سبحانه وتعالى خبرهم في هذه الآية: ((وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا))، فهذه غاية المكابرة ونهاية العناد؛ لأن القرآن الكريم يتحداهم من بداية الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، وإلى نهاية البعثة المحمدية والقرآن الكريم يتحدى هؤلاء المشركين الذين كانوا أفصح العرب على الإطلاق وأفصح الأمم، ولكن لم يستجب واحد منهم لهذا التحدي، وكل من تجاسر وحاول أن يستجيب للتحدي أتى بكلام يضحك منه العقلاء: الفيل ما الفيل، ذو ذنب قصير، وخرطوم طويل إلى غير ذلك من السخافات التي إذا سمعها الإنسان لم يتماسك من الضحك والاستهزاء بها.

فهذا منهم أيضا من باب المكابرة، فهم مهزومون، والقرآن يتحداهم ليل نهار، ثم يقول أحدهم: أنا لو أريد أن أكتب مثل القرآن لفعلت، فهذه غاية المكابرة والعناد، كيف لا، ولو استطاعوا شيئا من ذلك فما الذي كان يمنعهم من أن يشاءوا ويفعلوا وقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله؟ وليس هذا فحسب، بل قال عز وجل: ﴿فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [البقرة:٢٣]، فانظر التحدي والإعجاز، ثم قال: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ [البقرة:٢٤].

فقد كانت هذه فرصة حتى يثبتوا كذب الرسول عليه السلام، لكنهم لم يفعلوا وهذه من أوضح أدلة إعجاز القرآن الكريم، فإنه ذكر عجزهم عن فعل ذلك حتى في المستقبل، فلا شك أنهم لو قدروا على ذلك لاستجابوا للتحدي، لكن وقع ما أخبر الله سبحانه وتعالى به، فكان أعظم آية على أن القرآن كلام الله عز وجل.

يقول: فما الذي كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله، وقرعوا على العجز، وذاقوا من ذلك الأمرين، ثم قورعوا بالسيف، فلم يعارضوا بما سواه مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا، خصوصا في باب البيان الذي هم فرسانه المالكون لأزمته، وغاية اجتهادهم به، أي: بالبيان والبلاغة والفصاحة، ومع ذلك عجزوا.

وقوله: ((إن هذا إلا أساطير الأولين)) أي: ما سطروه وكتبوه من القصص، فالقرآن هذا -في زعمهم- عبارة عن أساطير الأولين، كما يحاول كثير من المنصرين إشاعة أن القرآن عبارة عن قصص مؤلفة عن التوراة والإنجيل، وهذا كذب صراح، ولا يقوله إلا إنسان جاهل جهلا فاحشا؛ لأن القصص القرآني مهيمن على ما عداه، فالقرآن لا يحاكي أبدا في قصصه ما وجد في التوراة والإنجيل، وإنماهو مهيمن ومصحح لما افتراه اليهود والنصارى على الله سبحانه وتعالى، وما افتروه على أنبياء الله، فالقرآن ليس محاكيا، وإنما هو مهيمن على ما سبقه من الكتب.

وقوله: ((أساطير)) جمع لا واحد له، وقيل: هو جمع أسطر وسطور وأسطار، وهي جموع سطر، وكأنه جمع الجمع، وقيل: هو جمع أسطورة، كأحدوثة، والأصل في السطر الخط والكتابة، يقال: سطر، أي: كتب، ويطلق على السطر من الشيء، كالكتاب والشجر.

وقوله: ((قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين))، روي أن قائله النضر بن الحارث بن كلدة، وأنه كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وجاء منها بنسخة حديث رستم واسفنديار ولما قدم ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس ما قصه الله تعالى من أحاديث القرون، قال: لو شئت لقلت مثل هذا، فزعم أنه مثل الأساطير التي أتى بها من هناك، وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من متلقفاته، ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصا أنا أو محمد وقد أمكن الله تعالى منه يوم بدر، وأسره المقداد، ثم أمر صلى الله عليه وسلم به فضربت عنقه.

وإذا صح هذا الأثر الذي فيه أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث، فاللفظ الكريم فيه نسبة الكلام إلى المجموع لا إلى واحد، وإسناد قوله إلى الجميع، إما لرضا الباقين به، أو لأن قائله كبير متبع، فهو رمز لمن يتبعونه.

وقد كان اللعين قاصهم الذي يعلمهم الباطل ويقودهم إليه ويغرهم بمثل هذه الجعجعة.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبون فيكم إلا ولا ذمة)

قال تعالى: ﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾ [التوبة:٨] أي: كيف يكون لهم عهد والحال أنهم إن يظهروا عليكم -بعدما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق- لا يرقبون فيكم إلا ولا ذمة؟! (إلا) أي: قرابة، (ذمة) أي: عهد.

وهذه الجملة مردودة على الآيات الأولى، فإنه قال أولا: (كيف يكون للمشركين) ثم قال ردا عليهم ثانيا:

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٠/٦٩

(كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبون فيكم إلا ولا ذمة؟!) كيف يكون لهم عهد وحالهم ما ذكر؟! وفي هذا تحريض للمؤمنين على التبرؤ منهم؛ لأن من كان أسير الفرصة، مترقبا لها، لا يرجى منه دوام العهد، وهذه طبيعة المشرك الذي لا يخشى الله ولا يتقيه، وديدنه الغدر ونقض العهود والمواثيق.

ثم استأنف تبارك وتعالى بيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد، فقال عز وجل: ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾ [التوبة:٨]، (يرضونكم بأفواههم) أي: بالكلام المعسول والكلام الطيب.

(وتأبى قلوبهم) يعني: وتنفر قلوبهم.

(وأكثرهم فاسقون) **متمردون** لا عقيدة تسعهم، ولا مروءة تردعهم.

وقال: (وأكثرهم) ولم يقل: وكلهم فاسقون؛ لما في بعض الكفرة من التجافي عن الغدر والتعفف عما يجر إلى أحدوثة السوء، وقد كان كثير من المشركين يتصون ويتعفف عن كثير من الخصال المذمومة كالكذب والغدر والخيانة، كما قال أبو سفيان أيام كفره لما قابل هرقل: فوالله! لولا أن يؤثر علي كذب لكذبت عليه.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم)

قال تعالى: ﴿قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين﴾ [التوبة:٥٣].

(قل أنفقوا) يعني: أنفقوا أموالكم في سبيل الله ووجوه البر.

(طوعا أو كرها)، هذان مصدران وقعا موقع الفاعل، يعني: طائعين من قبل أنفسكم أو كارهين مخافة القتل.

(لن يتقبل منكم) لن يتقبل منكم ذلك الإنفاق.

ثم بين سبب ذلك بقوله: (إنكم كنتم قوما فاسقين) أي: عاتين **متمردين**.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف أمرهم بالإنفاق، ثم قال: (لن يتقبل منكم)؟ قلت: هو أمر في معنى الخبر، فهو مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا﴾ [مريم:٧٥]، أمر بمعنى الخبر، ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعا أو كرها، فكلمة: (أنفقوا) المقصود بها أنفقتم، لكن الكلام ترتيبه في التفسير كما يلي: لن يتقبل منكم نفقاتكم سواء أنفقتم طوعا أو كرها لا فائدة، ونحوه قوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ [التوبة:٨٠] يعني: لن يغفر الله لهم سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم.

ومنه قول كثير عزة: أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت يعني: لا نلومك أسأت إلينا أم

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٣/٧٢

أحسنت.
يقول: الزمخشري: فإن قلت: متى يجوز مثل هذا التعبير أو السياق؟ قلت: إذا دل الكلام عليه، كما جاز عكسه في قوله: رحم الله زيدا وغفر له، فإن قلت: لم فعل ذلك؟ قلت: لنكتة فيه، وهي أن كثيرا كأنه يقول لـ عزة: امتحني لطف محلك عندي وقوة محبتي لك، وعامليني بالإساءة أو الإحسان وانظري، هل يتفاوت حالي معك مسيئة كنت أو محسنة؟ ولذلك يقول كثير عزة: أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة.
وفي معناه قول القائل: أخوك الذي إن قمت بالسيف عامدا لتضربه لم يستغشك في الود وهذه درجة من الأخوة نادرة، يقول: أخوك الحقيقي الذي إن أسأت إليه أحسن إليك، حتى لو قمت تضربه بالسيف لا يغشك في المودة، أو لا يستغشك -من الغش والخيانة- ولو جئته تطلب أن تقطع يده لبادر إليك فرقا من الرد عليك، لبادر هو بذلك خوفا من أن يؤذيك بأن يعذر لك أو يمنعك من ذلك ويردك عنه، يقول: أخوك الذي إن قمت بالسيف عامدا لتضربه لم يستغشك في الود ولو جئت تبغي كفه لتبينها لبادر إشفاقا عليك من الرد يرى أنه في الود وان مقصر على أنه قد زاد فيه عن الجهد مع كل هذا يرى أن هذا الود هو مقصر فيه! كذلك المعنى هنا: أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم؟ مثل قوله: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم)، انظر هل ترى اختلافا بين حال الاستغفار وتركه؟ لا، بل في كلا الحالتين لن يغفر الله لهم، وكذلك هنا: ((أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم)).." (١)

"تفسير قول الله: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض)

قال تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ [التوبة:٦٧].
قوله: ((المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض)) أي: متشابهون في النفاق، والبعد عن الإيمان كتشابه أبعاض الشيء الواحد، والمراد: الاتحاد في الحقيقة والصفة، (فمن): اتصالية بعضهم من بعض.
قال الزمخشري: أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، (بعضهم من بعض)، يعني: ليسوا من الإيمان ولا من المؤمنين في شيء، والمراد أيضا تكذيبهم في قولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾ [التوبة:٥٦]، فالله يقول هنا: ليسوا منكم، إنما (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض)، وهذا تقرير أيضا لقوله تعالى: ﴿وما هم منكم﴾ [التوبة:٥٦]، ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله: (يأمرون بالمنكر) والمؤمنون يأمرون بالمعروف، والمنكر: كالكفر والمعاصي، وينهون عن المعروف: كالإيمان والطاعات

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٣/٧٤

(ويقبضون أيديهم) بخلا بالمال والصدقات والإنفاق في سبيل الله، فإن قبض اليد كناية عن الشح والبخل، كما أن بسطها كناية عن الجود؛ لأن من يعطي ويمد يده بخلاف من يمنع.

(نسوا الله فنسيهم) أي: أغفلوا ذكره وطاعته فتركهم من رحمته وفضله، ولم يوفقهم إلى التوبة، لأن النسيان بمعنى الترك، ومعاذ الله أن يظن النسيان في حق الله سبحانه وتعالى، لكن نسيهم يعني: تركهم، فمعنى: (نسوا الله) يعني: فهم لا يذكرونه عز وجل ولا يطيعونه؛ لأن الذكر له مستلزم لإطاعته، فجعل النسيان مجازا عن الترك، وهو كناية عن ترك الطاعة، ونسيان الله منع لطفه وفضله عنهم.

(إن المنافقين هم الفاسقون).

والنسيان هنا لا يفسر بعدم الذكر، (نسوا الله) بمعنى: لم يذكروا الله سبحانه وتعالى ولم يطيعوه؛ لأن النسيان البشري لا يؤاخذ عليه، كما قال الله: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ [البقرة:٢٨٦]، لكن هنا يؤاخذ عليه؛ لأنه ورد في سياق ذمهم، وذكر أسباب هذا الذم، كما قال الله: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ [الحشر:١٩] يعني: غفلوا عن ذكره وأعرضوا عن طاعته سبحانه وتعالى.

كما أن من أشد العقوبات التي يعاقب الله سبحانه وتعالى بها عبدا من عباده: أن ينسيه نفسه، أو أن ينساه الله، بمعنى: أنه يخذله ولا يوفقه إلى التوبة، فيتمادى في المعاصي، والكفر، ومحاربة الإسلام وهو في غاية السعادة، وهو فرح فخور بهذا! فهذه من أكبر العقوبات؛ لأن خطورتها تكمن في أنها عقوبة خفية؛ لأن العقوبات تتنوع، فمن العقوبات ما يكون ظاهرا، فالإنسان بعد أن يرتكب ذنبا معينا يعاقب عليه فورا، فمن رحمة الله به أنه يفيق ويعود إلى إصلاح حاله مع الله سبحانه وتعالى، لكن أقبح العقوبات ما خفي ودق بحيث لا يحس صاحب الذنب أنه يعاقب، ويكون في غاية السعادة والفرح، ويقول: أنا أعيش حياتي بالطول وبالعرض، وهذه في حد ذاتها عقوبة من الله، حيث إن الله خذله، كان الرسول يقول في الدعاء: (ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدا)؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا وكل الإنسان إلى نفسه طرفة عين فسدت عليه كل حياته، وإذا رفع الله عنه عنايته يخذله ويضيع، فهذا يكله الله سبحانه وتعالى لنفسه ولا يتولاه ولا يرعاه ولا يوفقه، بل يخذله ويثبطه ويلقي الغفلة على قلبه، وبالتالي إذا كان سعيدا وفرحا ومشغولا عن التوبة، فكيف سيتوب؟! ﴿زين له سوء عمله﴾ [فاطر:٨]، وهذا حال الكفار ومن نهج منهجهم وسار على طريقتهم.

((نسوا الله فنسيهم))، فهو يظن أنه ملك الأرض ومن عليها، ويغتر ﴿وغركم بالله الغرور﴾ [الحديد:١٤]، وسعيد جدا بأنه متسلط على رقاب الناس؛ وأنه مجتهد في محاربة دين الله سبحانه وتعالى، فهذا المسكين

لا يدري أنه معاقب، كما قال الله عز وجل: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين﴾ [آل عمران:١٧٨]، فهذه عقوبة، فإذا كان الرسول عليه السلام قال: (خيركم من طال عمره وحسن عمله)، فمفهومها: أن شركم من طال عمره وساء عمله، فإذا طول العمر هنا يكون نقمة؛ لأنه بطول العمر يزداد في المعاصي، والخيرية هي لمن طال عمره لكن مع حسن عمله، فإذا كان طول العمر مما يجني على الإنسان المزيد من المعاصي، والإفراط، والمحاربة لدين الله، والصد عن سبيله، فهذا شؤم عليه، فإذا هذا هو الاستدراج: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إن كيدي متين﴾ [القلم:٤٤ - ٤٥]، وقوله: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ [التوبة:٥٢]، الدنيا ليست النهاية، بل هي عبارة عن مرحلة، ثم يرجع كل إلى الله سبحانه وتعالى ويؤاخذ بما كسب وبما فعل، فينبغي استحضار هذا الأمر كما بين النبي صلى اللہ عليه وآله وسلم ذلك في قوله: (إذا رأيت الله سبحانه وتعالى يعطي العبد على معاصيه وهو مقيم على المعاصي؛ فاعلم أنه استدراج، ثم تلا قوله تعالى: ((حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)) [الأنعام:٤٤]).

فإذا: لا تنسى حكمة الله سبحانه وتعالى، وإذا رأيت شخصا بهذه الحالة استحضر أن هذه هي عين العقوبة من الله، فمن رأيته يفرح ويفخر لأنه يحارب الإسلام بكل صدق وإخلاص، ويريد أن يطفئ نور الله، ويستأصل شأفة الإسلام، ويصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى، ويخرب المساجد التي أمر الله بتعميرها، ويفرح بذلك؛ فنبشر هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ [القلم:٤٥].

فقوله عز وجل هنا: (نسوا الله فنسيهم) يعني: نسوا الله فلم يذكروه ولم يطيعوه، فنسيهم الله سبحانه وتعالى بأن منعهم لطفه وفضله وخذلهم، ولم يوفقهم إلى الإيمان.

(إن المنافقين هم الفاسقون) أي: الكاملون في الفسق، الذي هو **التمرد** في الكفر، والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم، وإذا كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول: كسلت؛ لأن المنافقين وصفوا بالكسل بقوله: ﴿كسالى﴾ [التوبة:٥٤]؛ فالفسق أشد من وصف الكسل.." [١]

"عذاب المنافقين مرتين

قوله تعالى: ﴿سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ [التوبة:١٠١]: اختلفت أقوال المفسرين في تفسير هاتين المرتين: القول الأول: عذبهم عز وجل مرتين: مرة بالآيات التي فضحتهم في هذه السورة،

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٢/٧٥

وكشفت نفاقهم، وهذا هو العذاب الأول، والمرة الثانية: إحراق مسجد الضرار، وهذا هو العذاب الثاني.

القول الثاني: المرة الأولى: فضح نفاقهم في الدنيا، والمرة الثانية: عذاب القبر؛ لقوله تعالى: (ثم يردون إلى عذاب عظيم) فالعذاب العظيم في الآخرة، فدل على وقوع العذاب مرتين قبل الآخرة.

القول الثالث: العذاب الأول: بأخذ الزكاة التي لا ينظرون إليها على أنها تطهرهم وتزكيهم، بل ينظرون إلى الزكاة على أنها مغرم، والعذاب الثاني: تعذيب أبدانهم بالطاعات وبالعبادات الفارغة عن الثواب، فهم يتعبون أجسادهم دون أن يثابوا كما يثاب المؤمنون.

وقال محمد بن إسحاق -وهو القول الرابع: هو فيما بلغني عنهم- ما هم فيه من أمر الإسلام، -أي: من عزة الإسلام-، وما يدخل عليهم من غير ذلك على غير حسبة، هذا هو العذاب الأول، والعذاب الثاني: عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه عذاب الآخرة ويخلدون فيه.

قال أبو السعود: ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق؛ لأنهم في بواطنهم كفار، وضموا إلى الكفر بالباطن إظهار الإسلام في الظاهر، أو النفاق المؤكد **بالتمرد** فيه؛ لأنهم المنافقون، ثم إنهم مردوا على النفاق وخبروه.

ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير، وليست على الحقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ [الملك:٤]، فليس المقصود بالكرتين هنا العدد، ولكن المقصود تكرار البصر، يعني: كرة بعد أخرى، فكذلك (سنعذبهم مرتين) أي: نعذبهم مرة بعد أخرى، إشارة إلى التكرار، وكما في قوله تعالى: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ [التوبة:١٢٦].

ويقول القاسمي رحمه الله تعالى: لا ينافي قوله تعالى: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾، قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ [محمد:٣٠]؛ لأن الله سبحانه وتعالى في سورة القتال بين أنه لو شاء لأرى ولأعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهؤلاء المنافقين، وكيف يعرفهم؟ قال: (فلعرفتهم بسيماهم) أي: تعرفهم بسيما وعلامات وأعراض تظهر عليهم، ومن ذلك أنك تعرفهم في لحن القول، القول الذي فيه لحن، وفيه تعريض، وتطاول على شرع الله سبحانه وتعالى.

والمنفي في قوله تعالى: (لا تعلمهم) أي: لا تعلمهم على سبيل التعيين، حتى نعلمك نحن بهم، فأنت لا تعلمهم من تلقاء نفسك؛ لأنهم مرنوا ومردوا على النفاق، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا، ويراه صباحا ومساء، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله! إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في

جحر ثعلب، وأصغى إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه، فقال: إن في أصحابي منافقين) أي: يرجفون ويتكلمون بما لا صحة له، وهذا لا ينطبق على أصحاب الرسول عليه السلام، ولكن يقصد به أولئك المندسين في الصحابة الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان.

وروى ابن عساكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه: (أن رجلا يقال له حرملة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الإيمان هاهنا، وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق هاهنا، وأشار بيده إلى قلبه، ولم يذكر الله إلا قليلا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعل له لسانا ذاكرا، وقلبا شاكرا، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير، فقال: يا رسول الله! إنه كان لي أصحاب من المنافقين، وكنت رأسا فيهم، أفلا آتيك بهم؟ قال: من أتانا استغفرنا له، ومن أصر على دينه فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترا) ورواه الحاكم أيضا.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس: فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، لعمري أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الأنبياء قبلك! ويقصد رحمه الله: أن على الإنسان ألا يشتغل بمحاكمة الناس بقوله: فلان في الجنة وفلان في النار، وهذا الشخص الذي يحاكم الناس ويحكم لهم بمصائرهم في الآخرة، إذا سألته عن نفسه، قال: لا أدري، مع أنه أعلم بحاله من أحوال الناس، ولقد تكلف هذا الشخص شيئا ما تكلفه الأنبياء قبله، قال نبي الله نوح عليه السلام: ﴿وما علمي بما كانوا يعملون﴾ [الشعراء:١١٢]، وقال نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾ [هود:٨٦]، وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ((لا تعلمهم نحن نعلمهم)).

وقوله تبارك وتعالى: ((ومن أهل المدينة)) عطف على قوله تعالى: ((وممن حولكم)) فهو عطف مفرد على مفرد.." (١)

"سبب نزول الآيات المتعلقة بمسجد الضرار

كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف كبير في الخزرج، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصار للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر؛ شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبرز بالعداوة، وخرج فارا إلى كفار مكة يمالئهم

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٣/٧٨

على حرب النبي صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان مما امتحنهم الله عز وجل به، وكانت العاقبة للمتقين، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم **وتمرد**، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيدا طريدا، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه، وكان أبو عامر أرسل لهم: أعدوا لي مكانا إذا أتيتكم؛ لنجتمع فيه، ويكون مأوى وملجأ لنا، بحيث منه تنطلق المحاربة للرسول عليه الصلاة والسلام، وليكون هذا المكان معقلا ومرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى تبوك، فأتوه فقالوا: (يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال عليه الصلاة والسلام: إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه) فلما نزل بذي أوان، موضع على ساعة من المدينة، أتاه خبر المسجد عن طريق الوحي، وأنه إنما بني للأغراض التي ذكرها الله في قوله عز وجل: ((والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل)) فدعا صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، أو أخاه عاصما، فقال: (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لـ معن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرجا يشتدان، حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، وتفرقوا عنه) ونزل فيهم ما نزل.

وروي أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، فسألوه أن يأذن لـ مجمع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم، فقال: لا ونعمة عين، أليس هو إمام مسجد الضرار؟ فقال مجمع: يا أمير المؤمنين! لا تعجل علي، فوالله! لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو

علمت ما صليت معهم فيه، وكنت غلاما قارئا للقرآن، وكانوا شيوخا لا يقرءون، فصليت بهم ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله، ولم أعلم ما في نفوسهم، فعذره عمر، فأجازه بالصلاة في مسجد قباء.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا)

﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ [يونس:٣٣].

((كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا)) أي: ثبت حكمه وقضاؤه على الذين **تمردوا** وخرجوا إلى الحد الأقصى في هذا الكفر.

إعراب كلمة: ((أنهم لا يؤمنون)) بدل من قوله تعالى: ((كلمة ربك)) يعني: حق عليهم انتفاء الإيمان، وعلم الله سبحانه وتعالى منهم ذلك.

أو أراد بقوله: ((كذلك حقت كلمة ربك)) أنهم سوف يعذبون.

وقد سبق من قبل أن ذكرنا: أن الأصل في تفسير مثل هذه المواضع: ﴿ولكن حق القول مني﴾ [السجدة:١٣] أو: ((حقت كلمة ربك)) أنها إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [هود:١١٩].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ [الزمر:٧١]، وقوله تعالى: ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾ [الزمر:١٩].

قوله: ((على الذين فسقوا)) لم يقل: عليهم، فقد مر ذكرهم فيما قبل، لكن أظهر موضع الإضمار للإشعار بالعلية لهذا الوعيد من كونهم فسقوا.

والفسق هنا هو **التمرد** في الكفر، فآل الكلام إلى أن كلمة العذاب حقت عليهم **لتمردهم** وكفرهم، ولأنهم لا يؤمنون، وهو تكرار.." (٢)

"الحرب بين المسلمين واليهود

نحن الآن في حرب مع اليهود لعنهم الله، فلو بعث موسى أو عيسى أو سليمان أو يوسف أو أي نبي من أنبياء الله عز وجل فإنه سيكون مع المسلمين إذا رفعوا راية لا إله إلا الله، فالرسول لا يمكن أن يقاتل تحت راية جاهلية أو وطنية أو قومية أو غير ذلك، لكن هذه الحرب قطعا ستكون حربا إسلامية، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد﴾ [الإسراء:٥] حتى إن

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٦/٧٩

(٢) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٨/٨٢

الحجر نفسه والشجر يقول: يا مسلم! يا عبد الله! ولم يصفه بأي صفة أخرى، فلم يقل له: يا مصري، يا سوري، يا شامي، يا سعودي! بل يقول: يا مسلم! يا عبد الله! فهؤلاء فقط هم الذين يستطيعون أن يذلوا اليهود ويردوهم إلى حجمهم الحقيقي، أما النماذج التي يراها اليهود الآن فلا شك أن من حق اليهود أن يفتخروا ويتكبروا ويتجبروا؛ لأنهم يجدون كائنات مثل الصراصير تتعامل معهم، لا عزة ولا كرامة ولا أنفة ولا إخلاص لبلادهم ولا شيء من هذا، فهل يلام اليهود على ما يفعلون بالمسلمين؟ ما الذي يمنعهم من **التمرد** والتنمر؟! لا يردعهم إلا الإسلام، ولذلك يخافون جدا من أن تصطبغ الحرب مع اليهود بصبغة دينية.

فهذا كاسترو لما نصح السفير اليهودي في كوبا قال له: أحذركم أن تصطبغ الحركات الفدائية بصبغة إسلامية أو صبغة دينية.

لماذا؟ لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يضر اليهود، وهم يعرفون هذه الدروس جيدا ويحفظونها، ولذلك كل همهم إطفاء نور الإسلام خوفا وهلعا من عودة الروح الإسلامية في القتال مع اليهود لعنهم الله، فالحديث بلا شك ذو شجون، لكن أهم ما في الأمر أنهم الآن يريدون أن يهدموا المسجد الأقصى لإعادة بناء الهيكل الذي بناه سليمان كما يزعمون.

من الإله الذي كان يعبده سليمان؟ هو الله سبحانه وتعالى، ما الدين الذي كان عليه سليمان؟ هو الإسلام ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ [النمل:٤٢] فسليمان كان على الإسلام، وموسى كان داعيا إلى الإسلام، ويوسف كان داعيا إلى الإسلام وهكذا، فإذا لو بعث أنبياء الله عز وجل وقامت حرب إسلامية بين المسلمين وبين أعداء الله اليهود فسينضم هؤلاء الأنبياء إلى المسلمين، وهذه حقيقة لا ينبغي أن تغيب، ولذلك إذا انتزع العنصر العقائدي من قضية فلسطين سوف يسهل جدا على اليهود أن يقنعوا من يسمونهم بالعرب بعدالة قضيتهم.

إذا العنصر العقائدي هو روح القضية، إنه وطن إسلامي دخل فيه حكم الإسلام فلا يجوز أن يمنح هبة لأحفاد القردة والخنازير، إذا انتزعت هذه القضية ما أسهل أن يقنعنا اليهود ويسكتوننا، كما كانوا يفعلون قديما فيما يسمى بمجلس الأمن، كان السفير اليهودي في مجلس الأمن يأتي بالقرآن الكريم ويخرج لهم الآيات التي تثبت أن لهم حقا في فلسطين، صحيح من الناحية التاريخية المحضة إذا انتزعنا العنصر العقائدي سنقول: نعم هؤلاء هم إخوة يوسف جاءوا من أرض كنعان: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ [المائدة:٢١] لكن كتبها لهم على أنهم مسلمون، وكذلك جاء الدين الإسلامي الذي نسخ كل ما سبقه من الشرائع، فلذلك لو بعث موسى كما قال الرسول عليه الصلاة السلام: (والذي نفسي

بيده لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني، ثم تلا قوله تعالى: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا)) [آل عمران:٨١]) أي: أن كل نبي من الأنبياء حينما يبعثه الله لابد أن يأخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وأنت حي لتؤمنن به ولتنصرنه، فيقر بذلك.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (قال رب اشرح لي صدري)

قال تعالى: ﴿قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي﴾ [طه:٢٥ – ٢٨]، إنما سأل ذلك لما كان يتخوفه من آل فرعون في القتيل؛ لأنه كما قال في السورة الأخرى: ﴿ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ [الشعراء:١٤]، لما قتل بطريق الخطأ وعدم القصد ذلك الرجل القبطي الذي استغاثه عليه الرجل من شيعته: ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ [القصص:١٥]، فسأل الله سبحانه وتعالى هذه الأمور؛ لأنه كان يتخوف من آل فرعون في شأن هذا القتيل، ولأن الذي بعث إليه هو فرعون الذي يعرف أنه جبار عنيد، وأقوى الملوك وأبلغهم تمردا وكفرا، فهذا مما لا شك فيه أن صاحب مثل هذه المهمة الخطيرة يحتاج إلى عناية ربانية؛ فلذلك التجأ موسى عليه السلام إلى سلاح الدعاء، سائلا الله سبحانه وتعالى هذه الأمور: ﴿قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي﴾ [طه:٢٥ – ٢٨]، سأله أن يمده بمنطق فصيح؛ لما في لسانه من عقدة كانت تمنعه من كثير من الكلام، كما قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانا﴾ [القصص:٣٤]، وقول فرعون: ﴿ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف:٥٢].

ثم سأل عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هارون ليكون له ردءا، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، وذلك بقوله: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي﴾ [طه:٢٩ – ٣٠].

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي﴾ [طه:٢٧ – ٢٨]، قال بعض العلماء: دل قوله: (عقدة من لساني)، عقدة بالتنكير والإفراد، ثم أتبع ذلك بقوله: (يفقهوا قولي)، هذا يدل على أنه لم يسأل إزالة جميع ما بلسانه من العقد، بل سأل إزالة بعضها الذي يحصل بإزالته فهم كلامه مع بقاء بعضها، فهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر، كقوله تعالى عنه: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانا﴾ [القصص:٣٤]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف:٥٢]، والاستدلال بقول فرعون في موسى فيه نظر، فإن فرعون

---

(١) تفسير القرآن الكريم – المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٩/٨٨

معروف بالكذب والبهتان، والعلم عند الله تعالى.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري﴾ [طه:٢٩ – ٣١] أي: قو به ظهري، ﴿وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا﴾ [طه:٢٩ – ٣٤] أي: كي نتعاون على تسبيحك وذكرك؛ لأن التعاون مهيج للرغبات، ويتزايد الخير ويتكاثر، ولا شك أن التعاون والاجتماع على الطاعة مما يشد أزر الإنسان، ويقوي نيته للعمل الصالح.

﴿إنك كنت بنا بصيرا﴾ [طه:٣٥] أي: عالما بأحوالنا، وبأن المدعو به مما يفيدنا.

ودائما الجماعة تشعر وتدرك بركتها خاصة في أعمال الطاعات والعبادات، كما يحصل في صيام رمضان؛ لأن الناس كلهم يتعاونون على إظهار ذكر الله سبحانه وتعالى، وهكذا أي شيء يعمل جماعة، فإن الجماعة تكون فيها البركة.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (ولقد قال لهم هارون من قبل)

قال تعالى: ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل﴾ [طه:٩٠] يعني: من قبل رجوع موسى إليهم، ﴿يا قوم إنما فتنتم به﴾ [طه:٩٠] أي: ضللتم بعبادته، ﴿وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾ [طه:٩٠]، في عبادته سبحانه وتعالى، وترك عبادة العجل، ﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ [طه:٩١] (قال) أي: موسى ﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن﴾ [طه:٩٢ – ٩٣] يعني: في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر.

وقوله: ((ألا تتبعن)) فيها أقوال منها: ما منعك أن تتبعني؟ أو المعنى: ما حملك على ألا تتبعني؟ بحمل النقيض على مثله فإن المنع عن الشيء مستلزم للحمل على مقابله، أو: ما منعك أن تلحقني وتخبرني بضلالهم فتكون مفارقتك زجرا لهم؟ ((أفعصيت أمري)) وهو ما أمره به من أن يخلفه في قومه ويصلح ما يراه فاسدا.

يقول الشنقيطي رحمه الله تعالى: بين جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين: أن بني إسرائيل لما فتنهم السامري وأضلهم بعبادة العجل نصحهم نبي الله هارون عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وبين لهم أن عبادتهم العجل فتنة فتنوا بها -أي: كفر وضلال ارتكبوه بذلك- وبين لهم أن ربهم الرحمن خالق كل شيء جل وعلا، وأن عجلا مصطنعا من حلي لا يعبده إلا مفتون ضال كافر، وأمرهم باتباعه في توحيد الله تبارك وتعالى، والوفاء بموعد موسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأن يطيعوه في ذلك؛ فصارحوه **بالتمرد**

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٢/٩٤

والعصيان والديمومة على الكفر حتى يرجع إليهم موسى، وهذا يدل على أنه بلغ معهم غاية جهده وطاقته، وأنهم استضعفوه **وتمردوا** عليه ولم يطيعوه، وقد أوضح الله هذا المعنى في سورة الأعراف فقال تعالى: ﴿قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ [الأعراف:١٥٠]، فقولهم في خطابهم له: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾، أي: نستمر ونستديم على عبادتنا، فهذا يدل على استضعفاهم له، **وتمردهم** عليه المصرح به في الأعراف كما بينا.." (١)

"ﷺ ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا﴾ أي: ما يعبدون من دون الله إلا إناثا أي: أوثانا وأصناما، مسميات بأسماء الإناث، كـ (العزى) و (مناة) ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى، فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدها لصفات الكمال، وقيل: إن المراد بالإناث هنا الأموات؛ لأن الميت يطلق عليه لفظ أنثى عند العرب بجامع عدم النفع.

ﷺ ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ أي إبليس، والمريد والمارد هو **المتمرد** العاتي الخارج عن الطاعة.." (٢)

"سلسلة محاسن التأويل _ تفسير سورة البقرة [٥]

ذكر الله في سورة البقرة كثيرا من الآيات التي تبين حقيقة اليهود، ومكرهم وخبثهم، وما انطوت عليه قلوبهم من الحسد والكبر **والتمرد** والطغيان.

فعلى المسلمين أن يحذروا منهم، وألا يغتروا بهم أبدا، وعليهم أيضا أن يحذروا من الاتصاف بصفاتهم، فإنها سبب غضب الله عليهم في الدنيا والآخرة.." (٣)

"النظرة الشرعية إلى ولد الزنا

وهنا مسألة أخرى، وهي الوليد الذي ينشأ من الزنا، وهذه مسألة تكثر في كل زمان ومكان، وقد ساد أقوام من هذا الصنف، ومن أشهرهم تاريخيا زياد بن أبيه أحد أمراء العرب في عصر بني أمية، وقد استعمله علي رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وكان جبارا فتاكا، فلما آل الأمر إلى معاوية طلبه وألحقه بهم وقال: إن أبا

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٩/٩٧

(٢) تفسير غريب القرآن - الكواري، كاملة الكواري ١١٧/٤

(٣) سلسلة محاسن التأويل - المغامسي، صالح المغامسي ١/٥

سفيان هو الذي كان سببا في ولادته من امرأة كان يأتيها في الطائف، فكان يعرف بـ زياد بن أبيه؛ لأنه لا يعرف له أب، ثم عرف بـ زياد بن أبي سفيان.

وقد ولي زياد العراق في أيام بني أمية، وهو صحاب الخطبة المشهورة بالبتراء، والبتراء هي المقطوعة، حيث صعد المنبر وقال دون أن يحمد الله أو أن يثني عليه أو أن يصلي على رسوله: أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء ما عليه سفهاؤكم، واشتمل عليه علماؤكم وأخذ يهدد ويوعد.

وتسمى هذه الخطبة عند اللغويين بالموقف اللغوي الكامل، وذلك أن المواقف اللغوية تتكون من ثلاثة عناصر مرسل ورسالة ومستقبل، فإذا استطاع المرسل أن يتقن الرسالة وصلت الرسالة إلى المرسل إليه.

فالرجل صعد على المنبر في قوم ذوي ثورة وتمرد على ولاتهم، فلا يحسن معهم الشفقة، فالموقف القوي يطلب منه أن يقدم رسالة يظهر فيها حزمه، فلهذا بدأها بغير حمد الله والثناء عليه.

وإنما فعل ذلك لمناسبة الموقف، وهذا مثل ذبح الأضحية يوم العيد، فإنه لا يقال معه: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأننا لو قلنا: (الرحمن الرحيم) لما نحرنا ما بين أيدينا من الضأن.

ولكن نقول: (باسم الله، الله أكبر) لمناسبة الموقف.

وقد زعموا أن أبا عمرو بن العلاء كان راكبا على دابته، فمر بسوق النخاسين، وجملة من في السوق قوم لا يفقهون من اللغة إلا اليسير، وكان قد اختلط العرب بالعجم، وهو ضليع في النحو مغرق في مسائل الألفاظ العويصة، فسقط من فوق دابته فاجتمع الناس عليه خوفا من أن يكون قد أصابه مكروه، فقال لهم: ما لكم تكأكأتم كتكأكؤكم على ذي جنة، افرنقعوا.

فلم يقم أحد؛ لأن الموقف اللغوي هنا ناقص؛ إذ النحاة العالمين بـ (عسى) ولـ (عل) يفهمون مراده، فكيف يفهمه العامة؟! وقد أراد أن يقول: ما لكم تجمعتم علي كتجمعكم على رجل مجنون، انصرفوا.

ولكن الناس لم ينصرفوا، ولم يتحركوا عنه؛ لأنهم لم يفقهوا شيئا مما يقول.

وغاية ما أردت بيانه هو شأن أمثال زياد، فهذا الصبي الذي حصلت فيه الملاعنة جاء في المسند بسند فيه ضعف ولكنه يقبل في مسائل الأخبار أنه رؤي أميرا على إحدى الولايات في مصر.

وبعض العلماء وهو يفسر القرآن نجده يلحظ هذه القضية، وذلك في قول الله تعالى: ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم﴾ [الإسراء:٧١]، والمراد: بكتابهم؛ لأن الإمام ورد في اللغة بمعنى: الكتاب، وفي القرآن ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس:١٢].

فقال بعض المفسرين -وأظنه محمد بن كعب القرظي -: (بإمامهم) يعني: بأمهاتهم.

فقيل له: لماذا لا يدعون بآبائهم؟! فقال: سترا على أبناء الزنا؛ لأنه لا يعرف لهم آباء، وإظهارا لشرف الحسن والحسين في نسبتهما إلى فاطمة؛ لأن فاطمة بنت نبينا صلى الله عليه وسلم.

والمقصود أن هذه الاستحضارات يستحضرها الناس أحيانا في الكلام عن القضايا، والتفسير علم مفتوح تلتقط أوراقه من هنا وهناك، وهذا كله يدخل في باب المعرفة.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم)

قال الله تعالى: ﴿أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة:١٠٠] والتحرز في الخطاب القرآني وارد في أكثر الآيات، يقول الله: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ [آل عمران:١١٣]، وهنا يقول الله: ﴿نبذه فريق منهم﴾ [البقرة:١٠٠]، فكلمة فريق لا تعني الكلية، فاليهود كانوا أربع طوائف أشهرهم من كان مؤمنا بالله واليوم الآخر قائما بالكتاب على أكمل وجه، وهذا سيأتي في قول الله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ [البقرة:١٢١]، ومنهم علماء يعلمون أنه الحق لكنهم أبوا الإيمان حسدا، ومنهم جهلة يتبعون علماءهم، ورابعهم فسقة **متمردون** حتى على شريعة موسى.

قال الله: ﴿أوكلما عاهدوا عهدا﴾ [البقرة:١٠٠] الهمزة هنا للاستفهام، والواو عاطفة، هذا مذهب سيبويه رحمة الله تعالى عليه، وقد تكرر نظير هذا في القرآن كثيرا.

﴿أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم﴾ [البقرة:١٠٠] النبذ في الأصل لا يكون إلا بعد استلام وقبول، وهم قبلوا التوراة ثم بعد ذلك نبذوها وتركوها، فيكون النبذ إلقاء لشيء تحمله، وقد ذكر الله عز وجل أنه نبذ فرعون في اليم.

﴿نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة:١٠٠] وكلمة (بل) هنا للإضراب أي: للإنتقال أي أن الحق في صنيعهم أنهم لا يؤمنون.

ثم قال الله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ [البقرة:١٠١] كتاب الله المقصود به القرآن، تركوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، مع أنهم أهل علم، وكأن تفيد التشبيه، فلما لم يعملوا بعلمهم شبههم الله بمن لا علم له أصلا.." (٢)

---

(١) سلسلة محاسن التأويل - المغامسي، صالح المغامسي ١٥/٥٨

(٢) سلسلة محاسن التأويل - المغامسي، صالح المغامسي ٥/٧

"تفسير قوله تعالى: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا)

قال الله تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ [البقرة:١٤ - ١٥].

هذا -أيضا- من أوصافهم، وهو أن لهم وجها عند المؤمنين ولهم وجها آخر مع أصحابهم، فإذا جاءوا إلى المؤمنين أظهروا الإيمان، وإذا خلا بعضهم إلى بعض أظهروا ما هم عليه من الكفر، فلهم وجهان، ويتلونون بلونين: لون عند المؤمنين ولون عند الكافرين، نسأل الله العافية.

فهم إذا ذهبوا إلى اليهود، أو إلى أصحابهم، أو إلى المشركين أظهروا الكفر، وإذا جاءوا إلى المؤمنين أظهروا الإيمان، وإنما فعلوا ذلك لتسلم نفوسهم، ولتسلم أموالهم؛ لأنهم لو أظهروا الكفر لقتلوا، وسبيت أموالهم، فيظهرون الإسلام حتى تجرى عليهم أحكام الإسلام ويسلموا من القتل.

قال المصنف رحمه الله: [وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا آمنا، وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة غرورا منهم للمؤمنين ونفاقا ومصانعة وتقية، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم].

أي أنهم إنما يفعلون ذلك لكي تجرى عليهم أحكام الإسلام، فهم يصلون مع النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهدون معه، فإذا جاهدوا حصل لهم ما حصل للمؤمنين من الغنيمة، فهم لهذا يظهرون الإسلام حتى تسلم نفوسهم وأموالهم، وحتى يشاركوا المسلمين في المغانم والغزوات والسرايا.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ [البقرة:١٤] يعني: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم.

فضمن (خلوا) معنى: (انصرفوا) لتعديته بـ (إلى)؛ ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به.

ومنهم من قال: (إلى) هنا بمعنى: (مع) والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير.

وقال السدي عن أبي مالك: (خلوا) يعني: مضوا، و (شياطينهم) يعني: سادتهم وكبراءهم ورؤساءهم من أحبار اليهود ورءوس المشركين والمنافقين.

قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود عن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ [البقرة:١٤] يعني: هم رءوسهم من الكفر.

وقال الضحاك عن ابن عباس: (وإذا خلوا إلى أصحابهم) وهم شياطينهم.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة -أو سعيد بن جبير - عن ابن عباس: ﴿وإذا

خلوا إلى شياطينهم﴾ [البقرة:١٤] من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول.

وقال مجاهد: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ [البقرة:١٤]: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقال قتادة: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ [البقرة:١٤] قال: إلى رءوسهم وقادتهم في الشرك والشر.

وبنحو ذلك فسره أبو مالك وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس.

قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مردته، ويكون الشيطان من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ [الأنعام:١١٢]].

فالشيطان هو كل من تمرد من البشر والدواب والجن، فالكافر شيطان، ومن أسلم من الجن لا يسمى شيطانا، ولهذا جاء في الحديث: (يقطع صلاة الرجل -إذا لم يكن بين يديه قيد آخرة الرحل- الحمار والكلب الأسود والمرأة)، فقال الراوي لـ أبي ذر: ما بال الأسود من الأحمر من الأصفر من الأبيض؟ فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (الكلب الأسود شيطان).

فهو شيطان لأنه متمرد خرج عن طبيعته، فكل جنس له شياطينه، وهم المتمردون الخارجون عن طبيعة جنسهم بالأذى، ولهذا قال تعالى: ﴿شياطين الإنس والجن﴾ [الأنعام:١١٢].

والجن فيهم شياطين، وهم الكفرة، ومن أسلم منهم لا يسمى شيطانا، والإنس فيهم شياطين، وهم المتمردون من الفسقة وأهل الشر وأهل الكفر والضلال.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن.

فقلت: يا رسول! أوللإنس شياطين؟! قال: نعم)].

الحديث أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى فقال: حدثنا وكيع حدثنا المسعودي أنبأني أبو عمر الدمشقي عن عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فجلست فقال: يا أبا ذر! هل صليت؟ قلت: لا.

قال: قم فصل، قال: فقمت فصليت ثم جلست، فقال: يا أبا ذر! تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن.

قال: قلت: يا رسول الله! وللإنس شياطين؟! قال: نعم)، وذكر الحديث.

والمسعودي ضعيف واختلط، ولكن لا شك في أن من الإنس شياطين، كما في الآية: ﴿شياطين الإنس والجن﴾ [الأنعام:١١٢].

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله تعالى: ﴿قالوا إنا معكم﴾ [البقرة:١٤] قال محمد بن إسحاق عن

محمد بن أبي محمد عن عكرمة -أو سعيد بن جبير - عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ [البقرة:١٤] أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ [البقرة:١٤] ساخرون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وكذلك قال الربيع بن أنس وقتادة].." (١)

"إملاء الله تعالى وزيادته للمنافقين في طغيانهم

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك، قال: وبنحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس، حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ [البقرة:١٥] قال: يسخر بهم للنقمة منهم، وقوله تعالى: ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ [البقرة:١٥] قال السدي: عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: (يمدهم) يملي لهم، وقال مجاهد: يزيدهم، وقال تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون:55 - ٥٦].

وقال: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ [الأعراف:١٨٢] قال بعضهم: كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة، وهي في الحقيقة نقمة، وقال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام:٤٤ - ٤٥].

قال ابن جرير: والصواب: نزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم **وتمردهم**، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام:١١٠].

والطغيان: هو المجاوزة في الشيء، كما قال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة:١١].

وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ [البقرة:١٥]: في كفرهم يترددون.

وكذا فسره السدي بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبو مالك

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٣/٢٠

وعبد الرحمن بن زيد: في كفرهم وضلالتهم.

قال ابن جرير: والعمه: الضلال، يقال: عمه فلان يعمه عمها وعموها: إذا ضل.

قال: وقوله: ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ [البقرة:١٥] في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رشدا ولا يهتدون سبيلا.

وقال بعضهم: العمى في العين، والعمه في القلب.

وقد يستعمل العمى في القلب أيضا، قال الله تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج:٤٦] وتقول: عمه الرجل، يعمه عموها فهو عمه وعامه وجمعه: عمه، وذهبت إبله العمهاء: إذا لم يدر أين ذهبت].." (١)

"ذكر حديث الخمس الكلمات

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف -وكان يعد من البدلاء-].

يعني: من العلماء الذين يخلف بعضهم بعضا، كما قال شيخ الإسلام في الوصية: (وفيهم الأبدال)، يعني: العلماء الذين يخلف بعضهم بعضا، كلما ذهب عالم خلفه عالم، وهذا من خصائص هذه الأمة، فالعلماء في هذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل، فإنهم كانوا كلما هلك نبي خلفه نبي، ونبينا -صلى الله عليه وسلم- هو آخر الأنبياء ليس بعده نبي، لكن الله جعل العلماء ورثة الأنبياء يخلفون الأنبياء، ويقومون مقام أنبياء بني إسرائيل، فهم يخلف بعضهم بعضا.

قال: [قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء.

حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري -رضي الله عنه- أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطئ بها)].

وكان يحيى وعيسى ابني خالة، وكلاهما نبيان.

قال: [(فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهم وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخي! إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٥/٢٠

بي)].
وهذا من ورعه وتقواه عليه الصلاة والسلام، وإذا كان الذي يبطئ بالتبليغ يخشى عليه من العذاب والخسف، فكيف بمن يترك أوامر الله عن علم وعن بصيرة ويرتكب النواهي؟! وإذا كان الذي يبطئ في التبليغ يخشى عليه من العذاب والخسف لأنه تأخر في التبليغ، فكيف بمن كتم العلم؟! وكيف بمن ارتكب المحظور وترك الأوامر؟! لا شك في أن العقوبة أشد.
قال: [قال: (فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن، أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا)].
وأصل الدين وأساس الملة توحيد الله وإخلاص العبادة لله، وهذا هو الأمر الذي خلق العباد من أجله، كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات:٥٦]، هذا هو الأمر الأول، وهو أهمها وأعظمها، وهو عبادة الله وإخلاص الدين له، وهو الأمر الذي جاءت به الرسل، ودعوا إليه أممهم.
قال: [(أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟!)].
وهذا مثل المشرك، فإنه عبد سوء، فالمثال له كإنسان اشترى هذا العبد من خالص ماله بورق -أي: فضة- أو ذهب، وقال له: اعمل، فصار يعمل ويعطي الأجرة غير سيده، وكلنا لا يحب هذا، فهذا عبد سوء، وهو مثل المشرك بالله تعالى، فالله خلقك وأوجدك، وأنعم عليك بالنعم ورباك بنعمه، ثم تعبد غيره! قال: [(وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وآمركم بالصلاة، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وآمركم بالصيام؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)].
يقال: خلوف، وخلوف.
قال: (وآمركم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، وقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه، وآمركم بذكر الله كثيرا، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره، فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله)].
هذه أمور عظيمة: عبادة الله، والصلاة، والصيام، والصدقة، وذكر الله.

[قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع)].

الجماعة هي جماعة المسلمين، والسمع والطاعة لولاة الأمور في طاعة الله.

والهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام باقية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)، وأما الهجرة من مكة إلى المدينة فقد انتهت بعد فتح مكة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية).

فيجب لزوم جماعة المسلمين في معتقداتهم، وفي عباداتهم، وأوطانهم، والسمع والطاعة لولاة الأمور في طاعة الله، وهذا هو قيد هذا الأمر، ومثله قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء:٥٩] فهو مقيد بقوله: (إنما الطاعة في المعروف) وقوله: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وفي الحديث الآخر: (على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)، والنصوص يقيد بعضها بعضا، فالسمع والطاعة لولاة الأمور في طاعة الله وفي الأمور المباحة، أما المعاصي فلا يطاع فيها أحد، وليس معنى ذلك الخروج، ولا يلزم منه الخروج، وإنما لا يطاع في المعصية، فالسيد إذا أمر عبده بالمعصية لا يطيعه، والوالد إذا أمر ابنه بالمعصية لا يطيعه، والزوجة إذا أمرها زوجها بالمعصية لا تطيعه، لكن لا **يتمردون** عليهم، وإنما لا يطيعونهم في المعاصي.

فإن قيل: هل ما زالت الهجرة على سبيل الإيجاب؟ ف

A نعم إذا كان لا يستطيع إظهار دينه في بلد الشرك، فيجب عليه أن يهاجر إذا استطاع، والله تعالى توعد من بقي بين أظهر الكفار بوعيد شديد فقال: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾ [النساء:٩٧]، واستثنى الله العاجز، فقال: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا﴾ [النساء:٩٨ – ٩٩]، وهذه الآية نزلت في جماعة في مكة كانوا يخفون إسلامهم ولا يستطيعون الهجرة، وأخرجهم الكفار معهم يوم بدر، حتى قتل بعضهم، فقال الصحابة: قتلنا بعض إخواننا، فأنزل الله فيهم هذه الآية، فالذي لا يستطيع الهجرة معذور، أما الذي يستطيع فليس له أن يبقى، حتى إن المرأة لها أن تهاجر ولو لم

يكن معها محرم؛ لأن الهجرة مقدمة على المحرم، لأنها تخشى على دينها.

وإذا كان المرء لا يستطيع أن يظهر دينه وليس عليه خطر، أو كان داعية يسلم على يديه الخلق، فهذا مستثنى، وإظهار الدين ليس بالصلاة والصيام فقط، بل بأن يصلي ويرد الشبه التي ترد عليه، ويبين محاسن الإسلام، ويبين ما هم عليه من الباطل إذا اقتضى الحال.

وقوله: [(فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام)].

هذا دليل على أن الخروج على جماعة المسلمين وعلى ولاة الأمور من الكبائر، وفي الحديث الآخر: (فإنه من خرج من الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية).

وقوله: [(خلع رقبة الإسلام من عنقه)] هو من باب الوعيد عند أهل العلم، ويدل على أن ذلك من الكبائر، لا أنه يخرج من الملة.

[قال: (ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثي جهنم)].

هذا وعيد شديد، فمن دعا بدعوى الجاهلية إلى قومية أو إلى عصبية أو إلى قبيلته أو نحو ذلك فهو من جثي جهنم، وفي الحديث الآخر (من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهني أبيه ولا تكنوا) يعني: كما قال بعض الصحابة في الحديبية ل. عروة بن مسعود امصص بظر اللات، ولما حصل بعض الكلام بين بعض المهاجرين والأنصار فقال المهاجرون: يا للمهاجرين، وقال الأنصار: يا للأنصار؛ قال النبي: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها منتنة)، مع أن هذه أسماء إسلامية، فكيف بمن دعا إلى القبيلة الفلانية؟! فإذا قال: يا بني فلان فقد دعا إلى عصبية، ودعا إلى حرب، ولا شك في أن هذا يوجد النزاع والخلاف، ثم يوجد القتال والفرقة، وأشد من هذا من يدعو إلى القومية العربية، أو يدعو إلى الاشتراكية وما أشبه ذلك من الدعوات الكفرية، فهذه أعظم وأعظم، والمقصود أن الدعاء بدعوى الجاهلية من كبائر الذنوب، حتى ولو كانت أسماء إسلامية، فكيف إذا كانت أسماء كفرية.

وقد يقال: هل الجماعات تدخل في هذه التفرقة والعصبية؟

و A نعم، إذا كان فيها تفرقة، أو كان بينهم نزاع فدعا هذا إلى جماعته، ودعا ذاك إلى جماعته، وصاروا يتنازعون، أما إذا كانت الجماعات كلها تعمل في سبيل الحق، وكان هذا التقسيم من باب تنظيم العمل فلا بأس، أما إذا كان بينهم نزاع وشقاق، وكان بينهم شحناء وبغضاء، فالواجب عليهم أن يتحاكموا إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأن يجتمعوا ولا يتفرقوا، وينظر في كون الحق مع من، ثم الرجوع إلى كتاب الله:

﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ [النساء:٥٩] فيرجعون إلى العلماء ليبينوا لهم هذا، ولا يتنازعون، بل ينظر فيمن هو على الحق، فهذه الجماعة ينظر في منهجها هل هي موافقة للحق." [١]

"أقوال المفسرين في حقيقة السلوى

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: السلوى طائر يشبه بالسماني، كانوا يأكلون منه.

وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: السلوى طائر يشبه السماني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عبد الصمد بن الوارث حدثنا قرة بن خالد عن جهضم عن ابن عباس قال: السلوى هو السماني، وكذا قال مجاهد والشعبي والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى.

وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك.

وقال قتادة: السلوى كان من طير أقرب إلى الحمرة، تحشرها عليهم الريح الجنوب، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه.

وقال وهب بن منبه: السلوى طير سمين مثل الحمامة، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت، وفي رواية عن وهب قال: سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام لحما، فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحا فأذرت عند مساكنهم السلوى -وهو السماني- مثل ميل في ميل قيد رمح في السماء، فخبئوا للغد، فنتن اللحم، وخنز الخبز.

وقال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما هاهنا أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان ينزل على شجر الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السماني أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سمينا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾

---

(١) شرح تفسير ابن كثير – الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٦/٢٢

[البقرة:٥٧].
وقوله: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [البقرة:٦٠]].
الحاصل أن الله سبحانه وتعالى امتن على بني إسرائيل في التيه بنعم عظيمة، ذكر الله بها أحفادهم وأولادهم الموجودين في المدينة في زمن نزول الوحي، فقال تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [البقرة:٥٧]، فهذه من نعم الله عليهم، وهم معاقبون في التيه لما امتنعوا من فتح بيت المقدس، وقال لهم موسى: احملوا عليهم حملة واحدة فقد وعدني الله بالنصر، ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ [المائدة:٢١]، قاتلوا هؤلاء الكفرة العماليق، فأبوا ورفضوا وامتنعوا، وقالوا لنبيهم قولا سيئا قالوا: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة:٢٤]، فعاقبهم الله بالتيه، قال الله: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ [المائدة:٢٦]، والتيه هي الصحراء التي بين فلسطين وبين مصر، كانوا يسيرون فيها ولا يهتدون إلى البلد، فقد حرمها الله عليهم تحريما قدريا، ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة﴾ [المائدة:٢٦]، والتحريم يكون شرعيا ويكون قدريا، فالتحريم القدري، مثل قوله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ [القصص:١٢]، فتحريم المراضع على موسى تحريم قدري، وأما التحريم الشرعي فمثل قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ [المائدة:٣] وقوله: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ [النساء:٢٣]، فهذا تحريم شرعي.
فحرم الله عليهم دخول البلد أربعين سنة يتيهون في الأرض، ومع ذلك لما صاروا في التيه أنعم الله عليهم بهذه النعم، ولكنهم قوم عتاة عصاة، فأنعم الله عليهم بالمن وهو ينزل عليهم كالزنجبيل، وهو إذا جعل مع غيره صار شرابا وصار فاكهة، والسلوى هو طائر يشبه السماني، وهذا كالإجماع عند المفسرين، أو قول جماهير المفسرين؛ لأن هناك من يرى أنه غير اللحم، والصواب: أن السلوى طائر، وأن الزنجبيل غذاء.
وجعل الله الغمام مظللا عليهم من حر الشمس، وهذه من نعمه عليهم، وكانوا يحملون معهم حجرا فيضربه موسى بعصاه فتنفجر منه اثنا عشر عينا، لكل قبيلة ولكل سبط عين، حتى لا يتنازعوا، فهذه من نعم الله عليهم، ولهذا قال: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [البقرة:٦٠].
ومع ذلك حصل منهم ما حصل من العتو والعناد، ولما انتهت الأربعون السنة وسار بأحفادهم يوشع بن نون الذي كان نبيا، وهو فتى موسى، فدخلوا بيت المقدس وقاتلوا العماليق، وكاد أن يتم الفتح قرب غروب الشمس من يوم الجمعة ليلة السبت، ويوم السبت هو يوم عيدهم، فحبس الله الشمس ليوشع بن نون فقال:

(اللهم إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبسها عليهم، ووقفت حتى تم الفتح قبل أن يدخل يوم السبت)، وهذا الحديث ثابت في الصحيح، فلم تحبس الشمس لأحد إلا ليوشع بن نون، وهذه يلغز بها مسألة فقهية: من الذي حبست له الشمس؟ فلم تحبس الشمس لأحد إلا ليوشع بن نون، وجاء في أحاديث ضعيفة لا تصح أنها حبست لـ علي رضي الله عنه، لكنها لا تصح.

فدخلوا بيت المقدس، ومع ذلك لما دخلوا بيت المقدس قال الله تعالى: ﴿ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة﴾ [البقرة:٥٨] كما سيأتي، فغيروا بالقول وبالفعل، فدخلوا على أستاهم يزحفون على أدبارهم، ﴿وقولوا حطة﴾ [البقرة:٥٨] يعني: حط يا الله عنا ذنوبنا واغفر لنا، فغيروا وقالوا: حنطة، فزادوا فيها نونا، فهذا من تغييرهم بالقول وبالفعل، ولهذا قال: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا﴾ [البقرة:٥٩] يعني: عذابا ﴿من السماء بما كانوا يفسقون﴾ [البقرة:٥٩]، فهذا من عتوهم **وتمردهم** وعنادهم لأنبيائهم، نسأل الله السلامة والعافية.

وأما أصحاب نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فإنهم خير أصحاب الأنبياء؛ فإنهم صبروا رضي الله عنهم، وجاهدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك في ساعة العسرة، وكانوا في شدة عظيمة، وجوع شديد، ومفازة عظيمة، وأصابهم جهد من قلة الطعام، ولم يتعنتوا كما تعنت بنو إسرائيل، بل قالوا: (يا رسول الله! لو جمعنا ما عندنا من الطعام فدعوت لنا، فجمعوا ما عندهم من الطعام، فدعا وبرك، وبارك الله فيه وملئوا كل وعاء)، وكذلك لما قل الماء أتي النبي صلى الله عليه وسلم بماء قليل فوضع أصابعه فيه فنبع الماء من بين أصابعه، فتوضئوا واغتسلوا وملئوا كل وعاء رضي الله عنهم وأرضاهم.

وفي يوم بدر قالوا لنبيهم: (لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة:٢٤] ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وأمامك ومن خلفك، فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك).

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وروي عن وهب بن منبه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدي.

وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج قال: قال ابن عباس: خلق لهم في التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن].

قوله: (لا تخرق ولا تدرن) يعني: لا تتقطع ولا تتدنس، والدرن هو الدنس، وهذا من أخبار بني إسرائيل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد، إلا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت، فلا يصبح فاسدا.

قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلي في قوله: إنه العسل].

يعني: قول الأكثر؛ لأن هناك اختلافا كما سيأتي؛ فالمقصود بالإجماع قول الأكثرين، والصواب أن السلوى طائر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأنشد في ذلك مستشهدا: وقاسمها بالله جهدا لأنتم ألذ من السلوى إذا ما أشورها].

في القرطبي: إذا ما نشورها.

أنشد الهذلي هذا البيت على أن السلوى طعام وليس طائرا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [قال: فظن أن السلوى عسل.

قال القرطبي: دعوى الإجماع لا تصح؛ لأن المؤرج بن عمرو السدوسي أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل، واستدل ببيت الهذلي هذا، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة؛ لأنه يسلى به، ومنه عين سلوان.

وقال الجوهري: السلوى العسل، واستشهد ببيت الهذلي أيضا، والسلوانة بالضم خرزة كانوا يقول." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت)

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله تعالى: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ [البقرة:١٠٢]، اختلف الناس في هذا المقام: فذهب بعضهم إلى أن (ما) نافية، أعني التي في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ [البقرة:١٠٢] قال القرطبي: ما نافية ومعطوف على قوله: ﴿وما كفر سليمان﴾ [البقرة:١٠٢]].

يعني أن فيها أقوالا: القول الأول: أن (ما) نافية، فقوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين﴾ [البقرة:١٠٢] يعني: وما أنزل الله على الملكين شيئا، ولم ينزل الله على الملكين السحر.

والقول الثاني -كما سيأتي- أن (ما) موصولة بمعنى الذي، والتقدير: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان والذي أنزل على الملكين.

فعلى القول الأول يكون المعنى: أن الله نفى أنه أنزل على الملكين السحر، وأما على القول الثاني فتكون (ما) موصولة، وتكون تابعة، فيكون المعنى: اتبع الناس ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان واتبعوا ما أنزل على الملكين.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ثم قال: ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٥/٣٤

الملكين﴾ [البقرة:١٠٢]، وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل، فأكذبهم الله وجعل قوله: ﴿هاروت وماروت﴾ [البقرة:١٠٢] بدلا من الشياطين.

قال: وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين، كما في قوله تعالى: ﴿فإن كان له إخوة﴾ [النساء:١١]، أو لكونهما لهما أتباع، أو ذكرا من بينهم لتمردهما، فتقدير الكلام عنده: يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح، ولا يلتفت إلى ما سواه].

هذا قول القرطبي، وهذا قول ضعيف، والصواب هو القول الثاني، وهو أن (ما) موصولة، وهو قول أكثر المفسرين، فالآية فيها قولان مشهوران: أحدهما: أن (ما) نافية، والثاني: أن (ما) موصولة.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل﴾ الآية، يقول: لم ينزل الله السحر.

وبإسناده عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ من السحر، وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا؛ يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت].

يعني أن الله نفى أنه أنزل على الملكين السحر على هذا القول، فقوله: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين﴾ [البقرة:١٠٢] أي: وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين السحر.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فيكون قوله: (ببابل هاروت وماروت) من المؤخر الذي معناه المقدم.

قال: فإن قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ [البقرة:١٠٢] من السحر، وما كفر سليمان، وما أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنيا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود -فيما ذكر- كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما: هاروت، واسم الآخر: ماروت، فيكون (هاروت وماروت) على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردا عليهم.

هذا لفظة بحروفه].

يعني أن المراد بالناس هاروت وماروت، والمراد بالملكين جبريل وميكائيل، وتكون الآية نافية، والمعنى: وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين -يعني: جبريل وميكائيل- السحر.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقد قال ابن أبي حاتم: حدثت عن عبيد الله بن موسى أخبرنا فضيل بن مرزوق عن عطية: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ [البقرة:١٠٢] قال: ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر].

وهذا ضعيف منقطع؛ لأن ابن أبي حاتم قال: (حدثت)، وفضيل بن مرزوق ضعيف، وعطية العوفي أيضا شيعي مدلس.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قال ابن أبي حاتم: وأخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا يعلى -يعني ابن أسد - أخبرنا بكر -يعني: ابن مصعب - أخبرنا الحسن بن أبي جعفر أن عبد الرحمن بن أبزي كان يقرؤها: (وما أنزل على الملكين داود وسليمان)، وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: علما بالإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهي.

رواه ابن أبي حاتم.

ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، وأن (ما) بمعنى الذي، وأطال القول في ذلك، وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض وأذن لهما في تعليم السحر اختبارا لعباده وامتحانا بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك؛ لأنهما امتثلا ما أمرا به، وهذا الذي سلكه غريب جدا].

ولا شك في أن هذا غريب جدا؛ لأن فيه أن الله أذن لهما أن يعلما الناس السحر، وهذا لا يليق.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن، كما زعمه ابن حزم.

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرؤها: (وما أنزل على الملكين) ويقول: هما علجان من أهل بابل.

ووجه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق لا بمعنى الإيحاء في قوله تعالى ﴿وما أنزل على الملكين﴾ [البقرة:١٠٢]، كما قال تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر:٦]، ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ [الحديد:٢٥]، ﴿وينزل لكم من السماء رزقا﴾ [غافر:١٣]، وفي الحديث: (ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء) وكما يقال: أنزل الله الخير والشر.

وحكى القرطبي عن ابن عباس وابن أبزى والحسن البصري أنهم قرءوا: (وما أنزل على الملكين) بكسر اللام، قال ابن أبزى: وهما: داود وسليمان.

قال القرطبي: فعلى هذا تكون (ما) نافية أيضا، وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ [البقرة:١٠٢]، و (ما) نافية.

قال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله: ﴿يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ [البقرة:١٠٢]، فقال: الرجلان يعلمان الناس ما أنزل عليهما؟ ويعلمان الناس ما لم ينزل عليهما.

فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت.

ثم روى عن يونس عن أنس بن عياض عن بعض أصحابه أن القاسم قال في هذه القصة: لا أبالي أي ذلك كان؛ إني آمنت به.

وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان.

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده رحمه الله كما سنورده إن شاء الله، وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصا لهما، فلا تعارض حينئذ كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق.

وفي قول: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ [البقرة:٣٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى، وقد حكاه القرطبي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدي والكلبي].." (١)

"تفسير قوله تعالى: (واضرب لهم مثلا رجلين)

قال الله تعالى: ﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا * وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾ [الكهف:٣٢ - ٣٦].

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٣/٤٥

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم ولهم مثلا برجلين] يعني: لهؤلاء وهؤلاء [جعل الله لأحدهما جنتين -أي: بستانين- من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾، أي: أخرجت ثمرها ﴿ولم تظلم منه شيئا﴾، أي: ولم تنقص منه شيئا.

﴿وفجرنا خلالهما نهرا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا ﴿وكان له ثمر﴾ [الكهف:٣٤] قيل: المراد به المال، روي عن ابن عباس وعن مجاهد وقتادة، وقيل: الثمار، وهو أظهر هاهنا].

فالأظهر: أنه الثمار على ظاهر الآية: ﴿وكان له ثمر﴾.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ويؤيده القراءة الأخرى: (وكان له ثمر)، بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثمرة، كخشبة وخشب، وقرأ آخرون: (ثمر) بفتح الثاء والميم.

(فقال)، أي: صاحب هاتين الجنتين ﴿لصاحبه وهو يحاوره﴾، أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس، ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا﴾ أي: أكثر خدما وحشما وولدا.

قال قتادة: تلك -والله- أمنية الفاجر، كثرة المال وعزة النفر.

وقوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ [الكهف:٣٥] أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا﴾ [الكهف:٣٥] وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تقرض ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ [الكهف:٣٦] أي: كائنة ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾ [الكهف:٣٦] أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت:٥٠]، وقال: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا﴾ [مريم:٧٧]، أي: في الدار الآخرة، تألى على الله عز وجل، وكان سبب نزولها في العاص بن وائل كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان].." (١)

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٢/٥٧

"تفسير قوله تعالى: (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى)

قال الله تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا * وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾ [الكهف:٥٥ - ٥٦].

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [يخبر تعالى عن **تمرد** الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عيانا، كما قال أولئك لنبيهم ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين﴾ [الشعراء:١٨٧]].

وهم قوم شعيب.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وآخرون ﴿قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ [العنكبوت:٢٩]].

وهم قوم لوط.

قال المؤلف رحمه الله تعاىى: [وقالت قريش: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال:٣٢]].

وهذا من الشقاء والعياذ بالله، ولو وفقوا لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا له واجعلنا نقبله ونرضى به ونختاره.

لكن الشقاوة غلبت عليهم -نسأل الله العافية- فقالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ [الأنفال:٣٢] أي: الذي جاء به محمد ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال:٣٢] نعوذ بالله من الخذلان.

ومع ذلك حكم الله تعالى عليهم ولم يعاجلهم بالعقوبة.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ [الحجر:٦ - ٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ [الكهف:٥٥]، من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أو يأتيهم العذاب قبلا﴾ [الكهف:٥٥].

أي: يرونه عيانا مواجهة ومقابلة.

ثم قال تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ [الأنعام:٤٨]، أي: قبل العذاب مبشرين من

صدقهم وآمن بهم، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم.
ثم أخبر عن الكفار بأنهم: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ [غافر:٥]، أي: ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم.
﴿واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾ [الكهف:٥٦].
أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هزوا﴾ [الكهف:٥٦].
أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب].
أي: سخر الكفرة من الآيات ومن النذر، والذي منعهم من الإيمان هو: ﴿أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا﴾ [الكهف:٥٥]، فتعسفوا ولم يقبلوا الحق وأنكروه، فلم يبق إلا ﴿أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا﴾ [الكهف:٥٥]، نسأل الله العافية.." (١)
"معاني الاستعاذة
قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فصل.
والاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجانبه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير].
قوله: (أعوذ بالله) يعني: ألتجئ وأعتصم وأستجير بك يا الله وأحتمي بك يا الله من شر هذا الشيطان العدو اللدود الذي يريد أن يفسد علي عبادتي، فالعياذ: هو الاستجارة والاحتماء، فمن استعاذ بميت أو بغائب فقد أشرك بالله؛ لأن هذه عبادة، ومن استعاذ بحي حاضر فيما يقدر عليه فلا بأس به، فيقول: أعذني من شر أولادك، ومن شر زوجتك، ومن شر دابتك، فهذا جائز، وأما أن يستعيذ بميت أو بغائب فهذا من الشرك، فالاستعاذة هي الالتجاء والاعتصام، وأما اللياذ فهو طلب الخير وتأمينه.
قوله: [والاستعاذة: هي الإلتجاء إلى الله تعالى والإلتصاق بجانبه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي: يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به ممن أحاذره لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره].
يعني: لا يكسرون عظما يجبره الله، كما أنهم لا يجبرون كسرا كسره الله.
والشاهد قوله: يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به ممن أحاذره.

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٧/٥٩

فالاستعاذة تكون من الشيء الذي يحذره الإنسان، واللياذ: تأمين الخير وطلبه.
قوله: [ومعنى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله تعالى في الأعراف: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف:١٩٩] فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ثم قال: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف:٢٠٠].
وقال تعالى في سورة: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ [المؤمنون:١]: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ [المؤمنون:٩٦ - ٩٨].
وقال تعالى في سورة (حم) السجدة: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ [فصلت:٣٤ - ٣٦].
الشيطان في لغة العرب مشتق من شطن، إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار].
أي: مشتق من شطن إذا بعد، أو من شاط إذا احترق؛ لأن الشيطان مخلوق من نار، أو من شطن لبعده عن بني آدم، وبعده عن الخير بفسقه.
قوله: [ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان عليه السلام: أيما شاط عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأغلال].
قال الشاعر: (ثم يلقى في السجن والأغلال) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ [ص:٣٧ - ٣٨] يعني: سخروا له، (مقرنين في الأصفاد) أي: في الأغلال يربطون؛ ولهذا لما جاء الشيطان إلى النبي صلى الله عليه وسلم -وهو يصلي- بشهاب من نار يريد أن يحرقه، أخذه النبي وخنقه حتى وجد برد لعابه، وقال: (كدت أن أربطه في سارية من سواري المسجد، ولو

فعلت للعب به صبيان أهل المدينة، لكن ذكرت قول أخي سليمان: ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ [ص:٣٥]) فتركه النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: [فقال: أيما شاطن ولم يقل أيما شائط].

فدل على أنه مشتق من شطن، وهذا هو الشاهد، ولو كان من شاط لقال: شائط.

قوله: [وقال النابغة الذبياني وهو زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن ذبيان: نأت بسعاد عنك نوى شطون فباتت والفؤاد بها رهين].

قوله: (نوى شطون) يعني: نوى بعد، والنوى: البعد، نأت بـ سعاد، يعني: بعدت، وهذا شاهد على أنها مشتق من شطن لا من شاط، وهذا هو الأقرب؛ لأن شطن: بعد، فهو من البعد عن الخير، فهو بعيد عن الخير، وبعيد عن بني آدم وعن طباعهم.

قوله: [يقول: بعدت بها طريق بعيدة، وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان، إذا فعل فعل الشياطين، ولو كان من شاط لقالوا: تشيط].

وهذا معروف الآن في لغتنا الدارجة، نقول: فلان تشيطن، يعني: فعل فعل الشياطين، وهذه الكلمة باقية عندنا ولا يستغرب هذا، ولا يستغرب أن تبقى كلمات من العربية.

قوله: [وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان، إذا فعل فعل الشياطين، ولو كان من شاط لقالوا: تشيط، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل من **تمرد** من جني وإنسي وحيوان: شيطانا، قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ [الأنعام:١١٢].

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، فقلت: أوللإنس شياطين؟ قال: نعم).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقطع الصلاة المرأة، والحمار، والكلب الأسود، فقلت: يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: الكلب الأسود شيطان)].

وفي اللفظ الآخر: (يقطع صلاة المرء إذا لم يكن بين يديه مثل آخرة الرحل المرأة والكلب والحمار)، وهذا اللفظ لـ مسلم.

وقوله: (الكلب الأسود) يعني: شيطان الكلاب، فالحيوانات لها شيطان، وكل من خرج من طبيعته يسمى

شيطانا، ومن تمرد من الحيوانات يسمى شيطانا، ومن تمرد من الإنس يسمى شيطانا، وكذلك الطيور، فإذا تمردت الدجاجة وطارت تصبح شيطانة وهكذا، وكل متمرد يسمى شيطانا، فهو ليس خاصا بشياطين الجن، فكل متمرد يسمى شيطانا، سواء كان من الإنس أو الدواب أو الطيور.

قوله: [وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ركب برذونا فجعل يتبختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترا، فنزل عنه وقال: ما حملتوني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي.

إسناده صحيح].

البرذون: لغة في البغل، وهو متولد من الخيل ومن الحمار، أمه حمارة وأبوه حصان، وإذا نزا الخيل على الحمر تولدت البغال، والبغل محرم والخيل حلال، تغليبا لجانب التحريم؛ لأنه متولد من حلال وحرام.

قوله: [والرجيم: فعيل، بمعنى: مفعول، أي: أنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾ [الملك:٥]، وقال تعالى: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحورا ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصافات:٦ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ [الحجر:١٦ - ١٨] إلى غير ذلك من الآيات، وقيل: رجيم بمعنى: راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوساوس والربائث، والأول أشهر وأصح].

معنى الربائث: الموانع التي تمنع من الخير، وهي جمع ربيثة، وهي المانعة من الخير، فهو يرجم الناس بالوساوس وموانع الخير.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (قال رب اشرح لي صدري)

قال الله تعالى: ﴿قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري﴾ [طه:٢٥ - ٢٦].

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به؛ فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفرا، وأكثرهم جنودا، وأعمرهم ملكا، وأطغاهم وأبلغهم تمردا، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله ولا يعلم لرعاياه إلها غيره، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليدا عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ١٠/٦

منهم نفسا فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيرا يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري﴾ [طه:٢٥ – ٢٦] أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلا فلا طاقة لي بذلك.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (إذهبا إلى فرعون إنه طغى لعله يتذكر أو يخشى)

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه:٤٣]، أي: تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه].

قال الله تعالى: ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه:٤٤].

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فقولا له قولا لينا﴾، يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه.

وقال وهب بن منبه: قولا له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة.

وعن عكرمة في قوله: ﴿فقولا له قولا لينا﴾ [طه:٤٤]، قال: لا إله إلا الله، وقال عمرو بن عبيد عن الحسن البصري: ﴿فقولا له قولا لينا﴾ [طه:٤٤] اعذرا إليه، قولا له: إن لك ربا ولك معادا، وإن بين يديك جنة ونارا.

وقال بقية عن علي بن هارون عن رجل عن الضحاك بن مزاحم عن النزال بن سبرة عن علي في قوله: ﴿فقولا له قولا لينا﴾ [طه:٤٤]، قال: كنه، وكذا روي عن سفيان الثوري: كنه بـ أبي مرة].

فهذه كنية فرعون على ما جاء.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل:١٢٥].

وقوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه:٤٤]، أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يخشى أي: يوجد طاعة من خشية ربه كما قال تعالى: (لمن أراد أن يذكر أو يخشى)، فالتذكر: الرجوع عن المحذور والخشية: تحصيل الطاعة، وقال الحسن البصري في قوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه:٤٤]،

---

(١) شرح تفسير ابن كثير – الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٤/٨٢

يقول: لا تقل -أنت يا موسى وأخوك هارون- أهلكه قبل أن أعذر إليه].
أن أعذر إليه يعني: قبل أن يذهب عذرك فتقيم عليه الحجة ولا يكون له عذر.
قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل ويروى لـ أمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق: وأنت الذي من فضل من ورحمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا.
يخاطب الرب سبحانه وتعالى، والمقصود بقوله: بعثت إلى موسى أي: الوحي.
قال: [فقلت له فاذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذي كان باغيا فقولا له هل أنت سويت هذه بلا وتد حتى استقلت كما هيا].
يعني: الأرض.
قال: [وقولا له: أأنت رفعت هذه بلا عمد أرفق إذا بك بانيا].
يعني: السماء فذكر الأرض بلا وتد، والسماء بلا عمد.
قال: [وقولا له: أأنت سويت وسطها منيرا إذا ما جنه الليل هاديا وقولا له: من يخرج الشمس بكرة فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا وقولا له من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا ويخرج منه حبة في رءوسه ففي ذاك آيات لمن كا ن واعيا].
لمن كان واعيا، أي: لمن يتذكرو كان عنده وعي.
وقوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه:٤٤]، قيل: معنى (لعل) في هذا الموضع الاستفهام فكأنهم وجهوا معنى الكلام إلى: ((فقولا له قولا لينا)) فانظرا هل يتذكر ويرجع أو يخشى الله فيرتدع عن طغيانه.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وعلمناه صنعة لبوس لكم)
قال الله تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم﴾ [الأنبياء:٨٠].
قال المؤلف رحمه الله تعالى: [يعني: صنعة الدروع.
قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقا، كما قال تعالى: ﴿وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾ [سبأ:١٠ - ١١] أي: لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة، ولهذا قال: ((لتحصنكم من بأسكم)) يعني: في القتال].
يعني: أن الحلقة تكون بمقدار المسمار لا تزيد عليه، ولا يكون المسمار غليظا فيخرق الحلقة، ولا تكون الحلقة واسعة فيقلق ويتحرك المسمار، وإنما يقدر في السرد تقديرا، كما قال سبحانه: ﴿وقدر في السرد﴾

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٤/٨٤

[سبأ:١١].

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [((فهل أنتم شاكرون)) أي: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

وقوله: ((ولسليمان الريح عاصفة)) أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة.

((تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها)) يعني: أرض الشام.

((وكنا بكل شيء عالمين)) وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله، فتدخل تحته، ثم تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل، وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ [ص:٣٦]، وقال تعالى: ﴿غدوها شهر ورواحها شهر﴾ [سبأ:١٢].

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة عن أبي سنان عن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلهم، ثم يأمر الريح فتحمله صلى الله عليه وسلم].

وهذه خاصية أعطاها الله سليمان عليه الصلاة والسلام ولم يعطها أحدا بعده، ولهذا سأله سليمان: ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ [ص:٣٥]، فالله عز وجل سخر له الريح والشياطين والجن، ولهذا لما عرض عفريت على النبي صلى الله عليه وسلم خنقه وقال: (أردت أن أربطه في سارية من سواري المسجد حتى يلعب صبيان المدينة، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ [ص:٣٥] فتركته)، يعني: أن تسخير الجن والشياطين خاص بسليمان، فخشي النبي صلى الله عليه وسلم أنه لو ربط هذا الشيطان في سارية يكون هذا مشاركة لسليمان في ملكه، فلذلك أطلقه.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة، فترتفع حتى يصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه، ما يلتفت يمينا ولا شمالا؛ تعظيما لله عز وجل، وشكرا لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله عز وجل، حتى تضعه الريح حيث يشاء أن تضعه.

وقوله: ((ومن الشياطين من يغوصون له)) أي: في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك.

((ويعملون عملا دون ذلك)) أي: غير ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ [ص:٣٧ - ٣٨]].

يعني: بعضهم يبني وبعضهم يستخرج اللآلئ، وبعضهم مصفد مربوط في الأغلال؛ **لتمردهم**، فإنه عليه الصلاة والسلام سلط عليهم فكان يربط **المتمردين**، ومنهم غير ذلك.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: ((وكنا لهم حافظين)) أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم: إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء.

ولهذا قال: ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ [ص:٣٨]].

وهذا مما خص عليه الصلاة والسلام به، ولهذا مات وهو متكئ على عصاه ولم تعلم الجن بوفاته، بل كانوا يعملون ويشتغلون وهم يظنون أن سليمان حي، فلم يعلموا حتى سقط، وذلك لما أكلت الأرضة العصا فسقطت العصا فسقط سليمان، فعرفوا أنه مات، كما قال تعالى: ﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ [سبأ:١٤] فكانوا يشتغلون ويعملون أعمالا شاقة وسليمان ميت له مدة على العصا ولم يعلموا.." (١)

"ﷺتأويل قوله: ﴿من الشيطان﴾ [آل عمران: ٣٦] قال أبو جعفر: والشيطان في كلام العرب، كل **متمرد** من الجن والإنس والدواب وكل شيء، وكذلك قال ربنا جل ثناؤه: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن﴾ [الأنعام: ١١٢] فجعل من الإنس شياطين، مثل الذي جعل من الجن." (٢)

"وقال عمر بن الخطاب رحمة الله عليه، وركب برذونا، فجعل يتبختر به، فجعل يضربه، فلا يزداد إلا تبخترا، فنزل عنه، وقال: «ﷺما حملتموني إلا على شيطان ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي» حدثنا بذلك يونس بن عبد الأعلى، قال: أنبأنا ابن وهب، قال: خبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر قال أبو جعفر: وإنما سمي **المتمرد** من كل شيء شيطانا، لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله، وبعده عن الخير؛ وقد قيل إنه أخذ من قول القائل: -[١١٠]- شطنت داري من

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي، عبد العزيز الراجحي ٤/٩٦

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٠٩/١

دارك، يريد بذلك بعدت، ومن ذلك قول نابغة بني ذبيان:

[البحر الوافر]

نأت بسعاد عنك نوى شطون ... فبانت والفؤاد بها رهين

والنوى: الوجه الذي نوته وقصدته، والشطون: البعيد، فكأن الشيطان على هذا التأويل، فيعال من شطن؛ ومما يدل على أن ذلك كذلك، قول أمية بن أبي الصلت:

[البحر الخفيف]

أيما شاطن عصاه عكاه ... ثم يلقى في السجن والأكبال

ولو كان فعلان، من شاط يشيط، لقال أيما شائط، ولكنه قال أيما شاطن، لأنه من شطن يشطن، فهو شاطن." (١)

"يزيدهم، على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم **وتمردهم**، كما وصف ربنا أنه فعل بنظرائهم في قوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام: ١١٠] يعني نذرهم ونتركهم فيه ونملي لهم ليزدادوا إثما إلى إثمهم. ولا وجه لقول من قال ذلك بمعنى يمد لهم لأنه لا تدافع بين العرب وأهل المعرفة بلغتها أن يستجيزوا قول القائل: مد النهر نهر آخر، بمعنى: اتصل به فصار زائدا ماء المتصل به بماء المتصل من غير تأول منهم، ذلك أن معناه مد النهر نهر آخر، فكذلك ذلك في قول الله: ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ [البقرة: ١٥]." (٢)

"وغير جائز في قوله: ﴿تشابهت﴾ [البقرة: ١١٨] التثقيل، لأن التاء التي في أولها زائدة أدخلت في قوله: تفاعل، وإن ثقلت صارت تاءين؛ ولا يجوز إدخال تاءين زائدتين علامة لمعنى واحد، وإنما يجوز ذلك في الاستقبال لاختلاف معنى دخولهما، لأن إحداهما تدخل علما للاستقبال، والأخرى منها التي في تفاعل، ثم تدغم إحداهما في الأخرى فتثقل فيقال: تشابه بعد اليوم قلوبنا. فمعنى الآية: وقالت النصارى الجهال بالله وبعظمته: هلا يكلمنا الله ربنا كما كلم أنبياءه ورسله، أو تجيئنا علامة من الله نعرف بها صدق ما نحن عليه على ما نسأل ونريد؟ قال الله جل ثناؤه: فكما قال هؤلاء الجهال من النصارى وتمنوا على

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٠٩/١

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٢٠/١

ربهم قال من قبلهم من اليهود، فسألوا ربهم أن يريهم الله نفسه جهرة، ويؤتيهم آية، واحتكموا عليه وعلى رسله، وتمنوا الأماني. فاشتبهت قلوب اليهود والنصارى في **تمردهم** على الله وقلة معرفتهم بعظمته وجرأتهم على أنبيائه ورسله، كما اشتبهت أقوالهم التي قالوها." (١)

"حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: " ﴿ﷺوإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ [البقرة: ٢٠٦] إلى قوله: ﴿والله رءوف بالعباد﴾ قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا صلى السبحة وفرغ دخل -[٥٨٩]- مربدا له، فأرسل إلى فتيان قد قرءوا القرآن، منهم ابن عباس، وابن أخي عيينة، قال: فيأتون فيقرءون القرآن ويتدارسونه، فإذا كانت القائلة انصرف. قال فمروا بهذه الآية: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ [البقرة: ٢٠٦] ، ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد﴾ قال ابن زيد: وهؤلاء المجاهدون في سبيل الله. فقال ابن عباس، لبعض من كان إلى جنبه: اقتتل الرجلان. فسمع عمر، ما قال، فقال: وأي شيء قلت؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين. قال: ماذا قلت؟ اقتتل الرجلان؟ قال: فلما رأى ذلك ابن عباس، قال: أرى هاهنا من إذا أمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم، وأرى من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله؛ يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله، فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم، قال هذا: وأنا أشتري نفسي فقاتله، فاقتتل الرجلان. فقال عمر: لله بلادك يا ابن عباس، " وقال آخرون: بل عنى به الأخنس بن شريق، وقد ذكرنا من قال ذلك فيما مضى وأما قوله: ﴿ولبئس المهاد﴾ [البقرة: ٢٠٦] فإنه يعني ولبئس الفراش والوطاء: جهنم التي أوعد بها جل ثناؤه هذا المنافق، ووطأها لنفسه بنفاقه، وفجوره، **وتمرده** على ربه." (٢)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ [النساء: ١١٧] يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ [النساء: ١١٧] وما يدعو هؤلاء الذين يدعون هذه الأوثان الإناث من دون الله بدعائهم إياها إلا شيطانا مريدا ، يعني **متمردا** على الله في خلافه فيما أمره به وفيما نهاه عنه. كما:." (٣)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤٧٩/٢

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٨٨/٣

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤٩١/٧

"حدثنا بشر بن معاذ ، قال: ثنا يزيد ، قال: ثنا سعيد ، عن قتادة: ﴿ﷺوإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ [النساء: ١١٧] قال: «تمرد على معاصي الله»." (١)

"بأن ينسبوه إلى البخل ، ويقولوا: ﴿يد الله مغلولة﴾ [المائدة: ٦٤] وإنما أعلم تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم أهل عتو وتمرد على ربهم ، وأنهم لا يذعنون لحق وإن علموا صحته ، ولكنهم يعاندونه؛ يسلي بذلك نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عن الموجدة بهم في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إياه. وقد بينت معنى الطغيان فيما مضى بشواهده بما أغنى عن إعادته وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (٢)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم يقول تعالى ذكره: اعلموا أيها الناس أن ربكم الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، ولا يخف عليه شيء من سرائر أعمالكم وعلانيتها، وهو يحصيها عليكم ليجازيكم بها، شديد عقابه من عصاه وتمرد عليه على معصيته إياه، وهو غفور الذنوب من أطاعه وأناب إليه فساتر عليه وتارك فضيحته بها، رحيم به أن يعاقبه على ما سلف من ذنوبه بعد إنابته وتوبته منها.." (٣)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام: ١١٠] يقول تعالى ذكره: ونذر هؤلاء المشركين الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها عند مجيئها في تمردهم على الله واعتدائهم في حدوده، يترددون لا يهتدون لحق، ولا يبصرون صوابا، قد غلب عليهم الخذلان واستحوذ عليهم الشيطان." (٤)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ [الأنعام: ١٢٤] يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، معلمه ما هو صانع بهؤلاء المتمردين عليه: سيصيب يا محمد الذي اكتسبوا الإثم بشركهم بالله وعبادتهم غيره ﴿صغار﴾ [الأنعام: ١٢٤] يعني: ذلة وهوان." (٥)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤٩١/٧

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٥٨/٨

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١١/٩

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤٩٢/٩

(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٤٠/٩

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ [الأعراف: ١٣٣] يقول تعالى ذكره: فاستكبر هؤلاء الذين أرسل الله عليهم ما ذكر في هذه الآيات من الآيات والحجج عن الإيمان بالله، وتصديق رسوله موسى صلى الله عليه وسلم، -[٣٩٩]- واتباعه على ما دعاهم إليه، وتعظموا على الله وعتوا عليه ﴿وكانوا قوما مجرمين﴾ [الأعراف: ١٣٣] يقول: كانوا قوما يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفسق عتوا **وتمردا**." (١)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ [الأعراف: ١٦٦] يقول تعالى ذكره: فلما **تمردوا** فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك وأكله وتمادوا فيه ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ [الأعراف: ١٦٦] أي: بعداء من الخير. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (٢)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأعراف: ١٨٦] يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في -[٦٠٤]- حجج الله والفكر فيها، لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبروا وتدبروا فأبصروا رشدهم، ولكن الله أضلهم فلا يبصرون رشدا ولا يهتدون سبيلا، ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له. ولكن الله يدعهم في تماديهم في كفرهم **وتمردهم** في شركهم يترددون، ليستوجبوا الغاية التي كتبها الله لهم من عقوبته وأليم نكاله." (٣)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ [التوبة: ١٠١] يقول تعالى ذكره: ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون، ومن أهل مدينتكم أيضا أمثالهم أقوام منافقون. وقوله: ﴿مردوا على النفاق﴾ [التوبة: ١٠١] يقول: مرنوا عليه ودربوا به، ومنه شيطان مارد ومريد: وهو الخبيث العاتي، ومنه قيل: **تمرد** فلان على ربه: أي عتا ومرد على معصيته واعتادها وقال ابن زيد في ذلك، ما." (٤)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٩٨/١٠

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٢٨/١٠

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٠٣/١٠

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٤٣/١١

"وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو صنع السوابغ تبع

﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ [يونس: ١١] يقول: فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يوقنون بالبعث ولا بالنشور، ﴿في طغيانهم﴾ [البقرة: ١٥] يقول: في **تمردهم** وعتوهم، ﴿يعمهون﴾ [البقرة: ١٥] يعني يترددون وإنما أخبر جل ثناؤه عن هؤلاء الكفرة بالبعث بما أخبر به عنهم من طغيانهم وترددهم فيه عند تعجيله إجابة دعائهم في الشر لو استجاب لهم أن ذلك كان يدعوهم إلى التقرب إلى الوثن الذي يشرك به أحدهم، أو يضيف ذلك إلى أنه من فعله وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك." (١)

"ﷺوقوله: ﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ يقول: وما يأتي شيع الأولين من رسول من الله يرسله إليهم بالدعاء إلى توحيده والإذعان بطاعته ﴿إلا كانوا به يستهزئون﴾ يقول: إلا كانوا يسخرون بالرسول الذي يرسله الله إليهم، عتوا منهم **وتمردا** على ربهم." (٢)

"بهذا الحديث أسفا إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا﴾ [الكهف: ٧] يعني تعالى ذكره بذلك: فلعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا لك ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ [الإسراء: ٩٠] **تمردا** منهم على ربهم، إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك فيصدقوا بأنه من عند الله حزنا وتلهفا ووجدا، بإدبارهم عنك، وإعراضهم عما أتيتهم به وتركهم الإيمان بك. يقال منه: بخع فلان نفسه يبخعها بخعا وبخوعا، ومنه قول ذي الرمة:

[البحر الطويل]

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه ... لشيء نحته عن يديه المقادر

يريد: نحته فخفف. وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله: ﴿باخع﴾ [الكهف: ٦] قال أهل التأويل." (٣)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ [مريم: ٦٩]-[٥٨٨]- يقول تعالى ذكره، ثم لنأخذن من كل جماعة منهم أشدهم على الله عتوا **وتمردا** فلنبدأ بهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (٤)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٣٠/١٢

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٢٠/١٤

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٤٩/١٥

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٨٧/١٥

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي﴾ [طه: ٢٥] يقول تعالى ذكره لنبيه موسى صلوات الله عليه: ﴿اذهب﴾ [الإسراء: ٦٣] يا موسى ﴿إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه: ٢٤] يقول: إنه تجاوز قدره، **وتمرد** على ربه، وقد بينا معنى الطغيان بما مضى بما أغنى عن إعادته، في هذا الموضع. وفي الكلام محذوف استغنى بفهم السامع بما ذكر منه، وهو قوله: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه: ٢٤] فادعه إلى توحيد الله وطاعته، وإرسال بني إسرائيل معك. ﴿قال رب اشرح لي صدري﴾ [طه: ٢٥] يقول: رب اشرح لي صدري، لأعي عنك ما تودعه من وحيك، وأجترئ به على خطاب فرعون. ﴿ويسر لي أمري﴾ [طه: ٢٦] يقول: وسهل علي." (١)

"بأدلتي وحججي، اذهبا إلى فرعون بها إنه **تمرد** في ضلاله وغيه، فأبلغاه رسالاتي. ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ [طه: ٤٢] . يقول: ولا تضعفا في أن تذكراني فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إياي يقوي عزائمكما، ويثبت أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتماني ذكرتما مني عليكما نعما جمة، ومننا لا تحصى كثرة. يقال منه: ونى فلان في هذا الأمر، وعن هذا الأمر: إذا ضعف، وهو يني ونيا كما قال العجاج:

[البحر الرجز]

فما ونى محمد مذ أن غفر ... له الإله ما مضى وما غبر

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل." (٢)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ [الشعراء: ٦] يقول تعالى ذكره: فقد كذب يا محمد هؤلاء المشركون بالذكر الذي أتاهم من عند الله وأعرضوا عنه ﴿فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ [الشعراء: ٦] يقول: فسيأتيهم أخبار الأمر الذي كانوا يسخرون، وذلك وعيد من الله لهم أنه محل بهم عقابه على تماديهم في كفرهم، **وتمردهم** على ربهم." (٣)

"يقول تعالى ذكره: فلما جاء هؤلاء الذين لم يأتهم من قبلك يا محمد نذير فبعثناك إليهم نذيرا ﴿الحق من عندنا﴾ [يونس: ٧٦] ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة من الله إليهم، قالوا **تمردا** على الله، وتماديا في الغي: هلا أوتي هذا الذي أرسل إلينا، وهو محمد صلى الله عليه وسلم مثل ما أوتي موسى بن

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٢/١٦

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٧٣/١٦

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٤٩/١٧

عمران من الكتاب؟ يقول الله تبارك وتعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لقومك من قريش، القائلين لك ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ [القصص: ٤٨] : أو لم يكفر الذين علموا هذه الحجة من اليهود بما أوتي موسى من قبلك؟ . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.." (١)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار﴾ [ص: ٥٦] يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿هذا﴾ [البقرة: ٢٥] الذي وصفت لهؤلاء المتقين: ثم استأنف جل وعز الخبر عن الكافرين به الذين طغوا عليه وبغوا، فقال: ﴿وإن -[١٢٦]- للطاغين﴾ [ص: ٥٥] وهم الذين **تمردوا** على ربهم، فعصوا أمره مع إحسانه إليهم ﴿لشر مآب﴾ [ص: ٥٥] يقول: لشر مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا." (٢)

"ﷺوقوله: ﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله﴾ [غافر: ٣٧] يقول الله تعالى ذكره: وهكذا زين الله لفرعون حين عتا عليه **وتمرد**، قبيح عمله، حتى سولت له نفسه بلوغ أسباب السموات، ليطلع إلى إله موسى." (٣)

"إلى الاستنان في الصبر عليهم بسنن أولي العزم من الرسل، وإخبار منه له أن عقبى مردتهم إلى البوار والهلاك كسنته في **المتمردين** عليه قبلهم، وإظفاره بهم، وإعلائه أمره، كالذي فعل بموسى عليه السلام، وقومه الذين آمنوا به من إظهارهم على فرعون وملئه." (٤)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ [الأحقاف: ١٧] وهذا نعت من الله تعالى ذكره نعت ضال به كافر، وبوالديه عاق، وهما مجتهدان في نصيحته ودعائه إلى الله، فلا يزيده دعاؤهما إياه إلى الحق ونصيحتهما له إلا عتوا **وتمردا** على الله، وتماديا في جهله، يقول الله جل ثناؤه ﴿والذي قال لوالديه﴾ [الأحقاف: ١٧] أن دعواه إلى الإيمان بالله، والإقرار ببعث الله خلقه

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٢٦٥/١٨

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٢٥/٢٠

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٢٧/٢٠

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٠٨/٢٠

من قبورهم، ومجازاته إياهم بأعمالهم ﴿أف لكما﴾ [الأحقاف: ١٧] يقول: قذرا لكما ونتنا أتعدانني أن أخرج يقول ﴿أتعدانني أن أخرج﴾ [الأحقاف: ١٧] من قبري من بعد فنائي وبلائي فيه حيا." [(١)]

"ﷺوقوله: ﴿وثمود فما أبقى﴾ [النجم: ٥١] يقول تعالى ذكره: ولم يبق الله ثمود فيتركها على طغيانها **وتمردها** على ربها مقيمة، ولكنه عاقبها بكفرها وعتوها فأهلكها واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء البصرة وبعض الكوفيين (وثمودا فما أبقى) بالإجراء إتباعا للمصحف، إذ كانت الألف مثبتة فيه، وقرأه بعض عامة الكوفيين بترك الإجراء -[٨٩]- وذكر أنه في مصحف عبد الله بغير ألف والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب لصحتهما في الإعراب والمعنى وقد بينا قصة ثمود وسبب هلاكها فيما مضى بما أغنى عن إعادته." [(٢)]

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى﴾ [النجم: ٥٣] يقول تعالى ذكره: وأنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، إنهم كانوا هم أشد ظلما لأنفسهم، وأعظم كفرا بربهم، وأشد طغيانا **وتمردا** على الله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان طغيانهم الذي وصفهم الله به، وأنهم كانوا بذلك أكثر طغيانا من غيرهم من الأمم." [(٣)]

"ﷺوقوله: ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ [القمر: ١٠] يقول تعالى ذكره: فدعا نوح ربه: إن قومي قد غلبوني، **تمردا** وعتوا، ولا طاقة لي بهم، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك." [(٤)]

"ﷺوقوله: ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ [الأعراف: ١٨٣] يقول تعالى ذكره: وأنسئ في آجالهم ملاوة من الزمان، وذلك برهة من الدهر على كفرهم **وتمردهم** على الله لتتكامل حجج الله عليهم. ﴿إن كيدي متين﴾ [الأعراف: ١٨٣] يقول: ﴿إن كيدي﴾ [الأعراف: ١٨٣] بأهل الكفر قوي شديد.." [(٥)]

"وقال النضر بن شميل: إلى ها هنا بمعنى (مع) كقوله تعالى: أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم «١» : أي مع نسائكم، وقوله: لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم «٢» وقوله:

من أنصاري إلى الله «٣» النابغة:

ولا تتركني بالوعيد كأنني ... إلى الناس مطلي به القار أجرب «٤»

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٤٤/٢١

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٨٨/٢٢

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٨٩/٢٢

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٢١/٢٢

(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٩٨/٢٣

أي مع الناس.

وقال آخر:

ولوح ذراعين في بركة ... إلى جؤجؤ رهل المنكب «٥»

أي مع جؤجؤ.

إلى شياطينهم: أي رؤسائهم وكبرائهم وقادتهم وكهنتهم.

قال ابن عباس: هم خمسة نفر من اليهود، ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع له: كعب ابن الأشرف بالمدينة، وأبو بردة في بني أسلم، وعبد الله في جهينة، وعوف بن عامر في بني أسد، وعبد الله بن السوداء بالشام.

والشيطان: **المتمرد** العاصي من الجن والإنس، ومن كل شيء، ومنه قيل: للحية النضناض «٦» : الشيطان، قال الله تعالى: طلعها كأنه رؤس الشياطين «٧» أي الحيات، وتقول العرب: اتق تلك الدابة فإنها شيطان. وفي الحديث: «إذا مر الرجل بين يدي أحدكم وهو يمتطي فليمنعه فإن أبى فليقاتله فإنه شيطان» .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنه نظر الى رجل يتبع حماما طائرا فقال: «شيطان يتبع شيطانا «٨» «

. «٩» [٧٤]

---

(١) سورة البقرة: ١٨٧.

(٢) سورة النساء: ٢.

(٣) آل عمران: ٥٢.

(٤) لسان العرب: ١٥/ ٤٣٥.

(٥) لسان العرب: ٣/ ١٥٦.

(٦) النضناض من الحيات: التي أخرجت لسانها تحركه، أو التي لا تستقر في مكان، أو التي إذا نهشت قتلت من ساعتها.

(٧) سورة الصافات: ٦٥.

(٨) وفي بعض المصادر: شيطانه.

(٩) مسند أحمد: ٢/ ٣٤٥ كنز العمال: ١٥/ ٢١٨.." [1]

"وقيل: إنه من شاط والنون فيه غير أصلية [ونودي] شيطان سمي بذلك **لتمرده** وبعده عن الخير وعن رحمة الله تعالى.

عنها عن الجنة وقيل عن الطاعة.

فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم، وذلك إن إبليس أراد أن يدخل الجنة ويوسوس لآدم ولحواء فمنعته الخزنة، فأتى الحية وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكان من خزان الجنة وكان لإبليس صديقا، فسألها أن تدخله في فمها فأدخلته في فمها ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة، وكان آدم لما دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم والكرامة قال: لو أن خلدا، فاغتنم الشيطان ذلك منه وأتاه من قبل الخلد، ولما دخل الجنة وقف بين يدي آدم وحواء لا يعلمان إنه إبليس، فناح عليهما نياحة أحزنهما وبكى وهو أول من ناح فقالا لم تبكي قال: أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعيم والكرامة، فوقع ذلك في أنفسهما واغتما، ومضى ثم أتاهما بعد ذلك وقال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى «١» ، فأبى أن يقبل منه فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، فاغترا وما كانا يظنان أن أحدا يحلف بالله كاذبا، فبادرت حواء الى أكل الشجرة ثم ناولت آدم حتى أكلها.

وروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسط قال: سمعت سعيد بن المسيب يحلف بالله ما يستثني: ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حواء سقته الخمر حتى إذا سكر قادته إليها فأكل، فلما أكلا تهافتت عنهما ثيابهما وبدت سوءاتهما وأخرجا من الجنة، وذلك قوله تعالى: وقلنا يعني لآدم وحواء وإبليس والحية اهبطوا أي أنزلوا الى الأرض بعضكم لبعض عدو فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نودة، وقيل:

واشم، وحواء بجدة، وإبليس بالأبلة وقيل بميسان، والحية بأصفهان.

ولكم في الأرض مستقر ومتاع بلغة ومستمتع.

إلى حين الى حين اقتضاء آجالكم ومنتهى أعماركم.

وعن إبراهيم بن ال أ شعث قال: سمعت إبراهيم بن أدهم: أورثتنا تلك الأكلة حزنا طويلا.

فتلقى فلقن. آدم حفظ حين لقن، وأفهم حين ألهم.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١/١٥٦

وقرأ العامة: آدم برفع الميم، كلمات بخفض التاء.
وقرأ ابن كثير: بنصب الميم، بمعنى جاءت الكلمات لآدم عليه السلام.
من ربه كلمات كانت سبب قبول توبته، واختلفوا في تلك الكلمات:

---

(١) سورة طه: ١٢٠.." (١)

"وقرأ الباقون: بالياء على الخبر وتصديقها قراءة الأعمش إنها إذا جاءتهم لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة.
قال ابن عباس وابن زيد: يعني نحول بينه وبين الإيمان. ولو جئناهم بالآيات التي سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا بالتي قبلها مثل انشقاق القمر وغيره عقوبة لهم على ذلك.
وقيل: كما لم يؤمنوا به في الدنيا قبل مماتهم. نظيره قوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه «١» ونذرهم قرأ أبو رجاء: ويذرهم بالياء. وقرأ النخعي: ويقلب ويذرهم كلاهما بالياء في طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة فرأوهم عيانا وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم فشهدوا لك بالنبوة كما سألوا وحشرنا وجمعنا عليهم كل شيء قبلا بكسر القاف وفتح الباء أي معاينة وهي قراءة أكثر القراء، قرأ أبو جعفر: التي في الأنعام قبلا بالكسر والتي في الكهف قبلا عيانا بالضم. أبو عمرو بالنصب وكذلك اختار أبو عبيد وأبو حاتم لأنها في قراءة أبي قبيلا بجمعها القبل. والتي في الكهف قبلا يعني عيانا.
وقرأ أهل الكوفة: بضم القاف والباء، ولها ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون جمع قبيل وهو الكفيل أي ضمنا وكفلا. والقبالة الكفالة، يقال: قبيل وقبل مثل رغيف ورغف، وقضيب وقضب.
والثاني: جمع قبيل هو القبيلة يعني فوجا فوجا وصنفا صنفا.
والثالث: أن يكون بمعنى المقابلة والمواجهة من قول القائل: أتيتك قبلا لا دبرا إذا أتاه من قبل وجهه ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ذلك لهم. وقيل: الاستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم في علم الله الإيمان ولكن أكثرهم يجهلون إن ذلك كذلك وكذلك جعلنا يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم يعني كما أتيناك بهؤلاء القوم وكذلك جعلنا لكل نبي قبلك عدوا أعداء وفسرهم فقال شياطين الإنس والجن.
عكرمة والضحاك والسدي والكلبي: معناه: شياطين الإنس التي مع الإنس وشياطين الجن التي مع الجن وليس للإنس شياطين.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٨٣/١

وذلك أن إبليس قسم جنده فريقين، بعث منهم فريقا إلى الإنس وفريقا إلى الجن، شياطين الإنس والجن فهم ملتقون في كل حين، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن أضللت صاحبي بكذا فاضل صاحبك بمثله، ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك فذلك يوحي بعضهم إلى بعض.

وقال آخرون: إن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين، والشيطان: العاتي **المتمرد** من كل شيء.

---

(١) سورة الأنعام: ٢٨

.." (١)

"قالوا: إن الشيطان إذا أغوى المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى **متمرد** من الإنس وهو شيطان من الإنس فأغراه المؤمن.

قال أبو طلحة ما روى عوف بن مالك عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن» «١» [١٥٥] قال: يا رسول الله فهل للإنس من شياطين؟

قال: نعم هو شر من شياطين الجن.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل قرينه من الجن» قيل: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «ولا أنا إلا أن الله قد أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» «٢» [١٥٦] .

وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد من شيطان الجن وذلك إني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يحبني فيجرني إلى المعاصي عيانا يوحي بعضهم إلى بعض أي يلقي زخرف القول غرورا وهو القول المموه والمزين بالباطل، وكل شيء حسنته وزينته فقد زخرفته ثم ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى أي ولكي تميل.

وقال ابن عباس: ترجع يقال: صغى يصغى صغا وصغى يصغى ويصغو صغوا وصغوا إذا مال.

قال الفطامي:

أصغت إليه هجائن بحدودها ... آذانهن تلى الحداة السوق «٣»

ترى عينها صغواء في جنب ماقها ... تراقب كفي والقطيع المحرما «٤»

١ إليه يعني إلى الزخرف والغرور، ويقال: صغو فلان معك، وصغاه معك أي ميله وهواه.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٨١/٤

وقرأ النجعي: ولتصغى بضم التاء وكسر الغين أي تميل، والإصغاء الإمالة. ومنه الحديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصغي الإناء للهرة.

أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة الأفئدة جمع الفؤاد مثل غراب وأغربة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون أي وليكتسبوا ما هم مكتسبون.

---

(١) المعجم الكبير: ٨/ ٢١٧، وجامع البيان: ٨/ ٧

. (٢) صحيح ابن حبان: ١٤/ ٣٢٧ وتفسير القرطبي: ٧/ ٦٨

. (٣) الدر المنثور: ٣/ ٤٠

. (٤) لسان العرب: ١٤/ ٤٦٢

.." (١)

"فليكثر ذكر الله تعالى

وممن حولكم من الأعراب منافقون نزلت في مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وكانت منازلهم حول المدينة ومن أهل المدينة فيه اختصار وإضمار تقديره ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، أي مرنوا وتربوا عليه يقال: تمرد فلان على ربه ومرد على معصيته أي مرن وثبت عليها واعتادها ومنه: تمريد ومارد وفي المثل: تمرد مارد وعز الإباق، وقال ابن إسحاق: لجوا فيه وأبوا غيره، وقال ابن زيد وابان بن تغلب: أقاموا عليه ولم يتوبوا كما تاب الآخرون، وأنشد الشاعر:

مرد القوم على حيهم ... أهل بغي وضلال وأشر

لا تعلمهم أنت يا محمد نحن نعلمهم قال قتادة في هذه الآية: ما بال أقوام يتكلفون على الناس يقولون فلان في الجنة وفلان في النار فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري أخبرني أنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الأنبياء قبلك قال نبي الله نوح (عليه السلام) : وما علمي بما كانوا يعملون «١» وقال نبي الله شعيب (عليه السلام) : وما أنا عليكم بحفيظ «٢» وقال الله لنبيه عليه السلام: لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين واختلفوا في هذين العذابين

وروي عن أبي مالك عن ابن عباس قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال: «أخرج يا فلان فإنك منافق. اخرج يا فلان فإنك منافق» [٥٢] .

---

(١) تفسير الثعل بي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٨٢/٤

فأخرج من المسجد ناسا وفضحهم فهذا العذاب الأول، والثاني عذاب القبر.
وقال مجاهد: بالجوع وعذاب القبر، وعنه أيضا: بالجوع والقتل وعنه بالجوع مرتين، وعنه: بالخوف والقتل.
وقال قتادة: عذاب الدنيا وعذاب القبر، وفيه قصة الاثني عشر في حديث حذيفة.
وقال ابن زيد: المرة الأولى المصائب في الأموال والأولاد، والمرة الأخرى في جهنم.
وقال ابن عباس: إن المرة الأولى إقامة الحدود عليهم والثاني عذاب القبر.
قال الحسن: إحدى المرتين أخذ الزكاة من أموالهم والأخرى ءذاب القبر، فيقول تفسيره في سورة النحل ثم يردون إلى عذاب عظيم.
وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم في الإسلام، ودخولهم من غير حسبة ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها ثم العذاب العظيم في الآخرة والخلد فيه.

---

(١) سورة الشعراء: ١١٢.
(٢) سورة هود: ٨٦.." (١)

"وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس قال: كان أبي بن خلف يحضر النبي صلى الله عليه وسلم ويجالسه ويسمع إلى كلامه من غير أن يؤمن له فزجره عقبة بن أبي معيط عن ذلك، فنزلت هذه الآية،
وقال الشعبي: كان عقبة بن أبي معيط خليلا لأمية بن خلف فأسلم عقبة فقال أمية: وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمدا، فكفر وارتد لرضا أمية فأنزل الله سبحانه ويوم يعض الظالم على يديه
يعني الكافر عقبة بن أبي معيط «١» لأجل طاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه يقول يا ليتني وفتح تاءه أبو عمرو اتخذت مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم سبيلا يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا يعني أبي بن خلف الجمحي لقد أضلني عن الذكر يعني القرآن والرسول بعد إذ جاءني وكان الشيطان وهو كل **متمرد** عات من الجان، وكل من صد عن سبيل الله وأطيع في معصيته فهو شيطان للإنسان خذولا عند نزول البلاء والعذاب به.
وحكم هذه الآيات عام في كل متحابيىن اجتمعا على معصية الله، لذلك قال بعض العلماء: أنشدنيه أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر قال: أنشدني أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الصديق قال: أنشدنا أبو وائلة عبد الرحمن بن الحسين:

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٨٧/٥

تجنب قرين السوء واصرم حباله ... فإن لم تجد عنه محيصا فداره

وأحبب حبيب الصدق واحذر مراءه ... تنل منه صفو الود ما لم تماره

وفي الشيب ما ينهى الحليم عن الصبا ... إذا اشتعلت نيرانه في عذاره «٢»

وأنشدني أبو القاسم الحبيبي قال: أنشدني أبو بكر محمد بن عبد الله الحامدي:

اصحب خيار الناس حيث لقيتهم ... خير الصحابة من يكون عفيفا

والناس مثل دراهم ميزتها ... فوجدت فيها فضة وزيوفا «٣»

وأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر المفسر قال: حدثنا أبو سعيد عبد الرحمن ابن محمد بن حسكا قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب قال: حدثنا عبد الواحد بن زياد قال: حدثنا عاصم عن أبي كبشة قال:

سمعت أبا موسى يقول على المنبر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثل الجليس الصالح مثل العطار إن لم ينلك يعبق بك من ريحه، ومثل الجليس السوء مثل القين إن لم يحرق ثيابك يعبق بك من ريحه.

وحدثنا أبو القاسم بن حبيب لفظا سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة قال: أخبرنا أبو حاتم محمد

---

(١) في النسخة الثانية زيادة: بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف على يديه أسفا وندما على ما فرط في جنب الله وأوبق نفسه بالمعصية والكفر بالله. [.....]

(٢) تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٦.

(٣) تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٦.." [1]

"[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٤ الى ٥٩]

ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون (٥٤) أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون (٥٥) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٥٦) فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين (٥٧) وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (٥٨)

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون (٥٩)

ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وهي الفعلة القبيحة الشنيعة وأنتم تبصرون أنها فاحشة، وقيل: يرى بعضكم بعضا. كانوا لا يتسترون عتوا منهم **وتمردا** أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٧/ ١٣١

تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال، يقولونه استهزاء منهم بهم فأنجيناه وأهله إلا امرأته وأهله قدرناها قضينا عليها أنها من الغابرين أي الباقين في العذاب وقال أهل المعاني: معنى قدرناها جعلناها من الغابرين وإنما قال ذلك لأن جرمها على مقدار جرمهم، فلما كان تقديرها كتقديرهم في الشرك والرضى بأفعالهم القبيحة، جرت مجراهم في إنزال العذاب بها وأمطرنا عليهم أي على شذادها «١» مطرا وهو الحجارة فساء مطر المنذرين قل الحمد لله قال الفراء: قيل للوط: قل الحمد لله على هلاك كفار قومي.

وقال الباقون: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني وقل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية، وقال مقاتل: على ما علمك هذا الأمر. الآخرون: على جميع نعمه.

وسلام على عباده الذين اصطفى لرسالاته وهم الأنبياء (عليهم السلام) ، عن مقاتل دليله قوله: وسلام على المرسلين «٢» وأخبرني عبد الله بن حامد قال: أخبرنا السدي. قال: حدثنا أحمد بن نجدة. قال: حدثنا الحماني. قال: حدثنا الحكم بن طهر، عن السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس وسلام على عباده الذين اصطفى قال: أصحاب محمد (عليه السلام) .

وأخبرني عبد الرحيم بن إبراهيم بن محمد العدل بقراءتي عليه، قال: أخبرني عبد الله بن محمد بن مسلم، فيما أجازه لي أن محمد بن إدريس حدثهم، قال: حدثنا الحميدي. قال: سمعت سفيان سئل عن عباده الذين اصطفى قال: هم أصحاب محمد.

وقال الكلبي: هم أمة محمد اصطفاهم الله لمعرفته وطاعته، ثم قال إلزاما للحجة:

آلله القراءة بهمزة ممدودة وكذلك كل استفهام فيه ألف وصل، مثل قوله: (آلذين وآلآن) جعلت المدة علما بين الاستفهام والخبر، ومعنى الآية: الله الذي صنع هذه الأشياء خير أما يشركون من الأصنام، وقرأ عاصم وأهل البصرة (بالياء) ، الباقون (بالتاء) ،

وكان النبي (عليه

---

(١) هكذا في المخطوط. [.....]

(٢) سورة الصافات: ١٨١.." [1]

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢١٨/٧

"فالتفت الرجل إلى بني إسرائيل وقال: هذا هو التائب المخلص. ثم قال لداود: يا نبي الله لئن يغفر الله لي ذنبا واحدا أحب إلي من كل شيء وهبته لي، ولكني كنت أجربكم.

فأخذوا في بناء بيت المقدس، وكان داود (عليه السلام) ينقل لهم الحجارة على عاتقه وكذلك خيار بني إسرائيل حتى رفعوه قامة. فأوحى الله تعالى إلى داود (عليه السلام) : «إن هذا بيت مقدس وإنك رجل سفاك للدماء فلست ببانيه إذا لم أقضي ذلك على يدك، ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان، أسلمه من سفك الدماء وأقضي إتمامه على يده، وذلك صيته وذكره لك باقيا» «١» .

فصلوا فيه زمانا، وداود يومئذ ابن سبع وعشرين ومائة سنة، فلما صار من أبناء أربعين ومائة سنة توفاه الله واستخلف سليمان. فأحب بناء بيت المقدس، فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الأعمال فخص كل طائفة منهم بعمل يستصلحها له. فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والمها الأبيض الصافي من معادنه، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح، وجعلها اثني عشر ربضا، وأنزل كل ربض منها سبطا من الأسباط وكانوا اثني عشر سبطا.

فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد، فوجه الشياطين فرقا، يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدر الصافي من البحر، وفرقا يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها، وفرقا يأتونه بالمسك والعنبر، فأتي من ذلك بشيء لا يحصيه إلا الله تعالى، ثم أحضر الصناعين وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحا، وإصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللئالئ فكانوا يعالجونها، فتصوت صوتا شديدا لصلابتها، فكره سليمان تلك الأصوات. فدعا الجن وقال لهم: «هل عندكم حيلة في نحت هذه الجواهر من غير تصويت؟» .

فقالوا: يا رسول الله، ليس في الجن أكثر تجارب، ولا أكثر علما من صخر العفريت، فأرسل إليه من يأتيك به. فطبع سليمان خاتمه طابعا- وكان يطبع للشياطين بالنحاس، ولسائر الجن بالحديد- وكان إذا طبع أحد هما بخاتمه لمع ذلك كالبرق الخاطف، فكان لا يراه أحد:

جني ولا شيطان إلا انقاد له بإذن الله عزت قدرته.

فأرسل الطابع مع عشرة من الجن فأتوه وهو في بعض جزائر البحور، فأروه الطابع، فلما نظر إليه كاد يصعق خوفا، فأقبل مسرعا مع الرسل حتى دخل على سليمان (عليه السلام) . فسأل سليمان رسله عما أحدث العفريت في طريقه. فقالوا: يا رسول الله إنه كان يضحك بعض الأحايين من الناس. فقال له سليمان (عليه السلام) : «ما رضيت **بتمردك** علي في ترك المجيء إلي طائعا حتى صرت تسخر بالناس؟» .

(١) بتفاوت في تفسير مجمع البيان: ٨/ ٢٠٣.." (١)

"أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة، فدخلت في الفرجة التي كانت عندها فتغلغلت في السد فنقبت وحفرت حتى وهنته للسيل وهم لا يعلمون ذلك. فلما جاء السيل وجد خللا فدخل فيه حتى قلع السد وفاض على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل، وفرقوا ومزقوا حتى صاروا مثلا عند العرب [فقالوا] «١» : تفرقوا أيادي سبأ، وأيدي سبأ، فذلك قوله تعالى: فأرسلنا عليهم سيل العرم.

وقيل: العرم هو المطر الشديد من العرامة وهي **التمرد** والعصيان.

وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط قراءة العامة بالتنوين، وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالإضافة، وهما متقاربتان كقول العرب: في بستان فلان أعناب كرم وأعناب كرم، فتضيف أحيانا الأعناب إلى الكرم لأنه منه، وتنون أحيانا الأعناب، ثم يترجم بالكرم عنها إذ كانت الأعناب ثمر الكرم.

والأكل: الثمر، والخمط: الأراك في قول أكثر المفسريں، وقيل: كل شجرة ذات شوك، وقيل: شجرة الغضا، وقيل: هو كل نبت قد أخذ طعما من المرارة حتى لا يمكن أكله، وأثل وهو الطرفاء، عن ابن عباس، وقيل: هو شجر شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه، وقال الحسن: الأثل الخشب. قتادة: ضرب من الخشب، وقيل: هو السمر. أبو عبيدة: هو النضار.

وشيء من سدر قليل، قال قتادة: بينما شجر القوم من خير الشجر إذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم. قال الكلبي: فكانوا يستظلون بالشجر ويأكلون البربر وثمر السدر وأبوا أن يجيبوا الرسل ذلك الذي جعلنا بهم، جزيناهم بما كفروا أي بكفرهم، ومحل ذلك نصب بوقوع المجازاة عليه، تقديره جزيناهم ذلك بما كفروا: وهل نجازي إلا الكفور قرأ أهل الكوفة بالنون وكسر الزاي ونصب الراء، واختاره أبو عبيدة قال: [لقوله] «٢» : جزيناهم، ولم يقل: جوزوا، وقرأ الآخرون بياء مضمومة وفتح الزاي ورفع الراء، ومعنى الآية: وهل يجازى مثل هذا الجزاء إلا اںكفور، وقال مجاهد: يجازي أي يعاقب.

وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها وهي الشام قرى ظاهرة أي متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها. قال الحسن: كان أحدهم يغدوا فيقيل في قرية ويروح فيأوي إلى أخرى، وكانت المرأة تخرج معها مغزلها وعلى رأسها مكتلها ثم تمتهن بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكتلها من الثمار، وكان ما بين

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٨/٧٦

اليمن والشام كذلك.

وقال ابن عباس: قرى ظاهرة يعني: قرى عربية بين المدينة والشام. سعيد بن جبير: هي القرى التي ما بين مأرب والشام. مجاهد: هي السروات، وهب بن منبه: هي قرى صنعاء.

---

(١) في المخطوط: فقال.

(٢) في المخطوط: لقومه.." [1]

"قومه إلى الإسلام، وهم من حمير، فكذبوه، وكان خبره وخبر قومه ما أخبرنا عبد الله بن حامد، قال: أخبرني أبو علي إسماعيل بن سعدان، قال: أخبرني علي بن أحمد، قال: حدثنا محمد ابن جرير، وأخبرني عقيل أن أبا الفرج أخبرهم عن ابن جرير، قال: حدثنا ابن حميد، قال:

حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، قال: كان تبع الآخر، وهو أسعد أبو كرب بن ملكي كرب، حين أقبل من المشرق، جعل طريقه على المدينة، وكان حين مر بها لم يهيج أهلها، وخلف بين أظهرهم ابنا له، فقتل غيلة، فقدمها، وهو مجمع لإخراجها، واستئصال أهلها، وقطع نخيلها، فجمع له هذا الحي من الأنصار، حين سمعوا ذلك من أمره امتنعوا منه، ورئيسهم يومئذ عمرو بن ظلم أخو بني النجار أحد بني عمرو، فخرجوا لقتاله، وكان تبع نزل بهم قبل ذلك، فقتل رجل منهم، من بني عدي بن النجار، يقال له: أحمر، رجلا من صحابة تبع، وجده في عذق له بجدة فضربه بنخلة فقتله.

وقال: إنما التمرة لمن أبره، ثم ألقاه حين قتله في بئر من آبارهم معروفة، يقال لها: ذات تومان، فزاد ذلك تبعا حنقا عليهم، فبينا تبع على ذلك من حربهم يقاتلهم ويقاتلونه، قال: فيزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار، ويقرونه بالليل، فيعجبه ذلك، ويقول: والله إن قومنا هؤلاء لكرام، إذ جاءه حبران من أحبار يهود بني قريظة، عالمان راسخان، وكانا ابني عمرو، وكانا أعلم أهل زمانهما، فجاءا تبعا حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة، وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل، فإنك إن أتيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم يأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: ولم ذاك؟ قالا: هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره، فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة، ورأى أن لهما علما، وأعجبه ما سمع منهما، أنهما دعواه إلى دينهما، فليتبعهما على دينهما، فقال تبع في ذلك:

ما بال نومك مثل نوم الأرمد ... أرقا كأنك لا تزال تسهد

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٨/٨٤

حنقا على سبطين حلا يثربا ... أولى لهم بعقاب يوم مفسد

ولقد هبطنا يثربا وصدورنا ... تغلي بلابلها بقتل محصد

ولقد حلفت يمين صبر مؤليا ... قسما لعمرك ليس بالتمردد

أن جئت يثرب لا أغادر وسطها ... عذقا ولا بسرا بيثرب يخلد

حتى أتاني من قريظة عالم ... خبر لعمرك في اليهود مسود

قال ازدجر عن قرية محفوظة ... لنبي مكة من قريش مهتد

فعفوت عنهم عفو غير مثرب ... وتركتهم لعقاب يوم سرمد

وتركتهم لله أرجو عفوه ... يوم الحساب من الجحيم الموقد

ولقد تركت بها له من قومنا ... نفرا أولي حسب وبأس يحمد." (١)

"ويروى أن عائشة قالت لفاطمة بنت قيس: اتقي الله يا فاطمة فقد فتنت الناس إنما أخرجك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنك كنت امرأة لسنة فخشي لسانك على [أحمائك] .

فأما نفقة الحامل المتوفى عنها زوجها،

فقال علي وابن عمر وشريح والنخعي والشعبي وحماد وابن أبي ليلى [وسفر] «١» وأصحابه: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع.

وقال ابن عباس وعبد الله بن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعي وأبو حنيفة: لا ينفق عليها إلا من نصيبها «٢» .

فإن أرضعن لكم أولادكم منهن فآتوهن أجورهن على إرضاعهن وأتمروا بينكم بمعروف يقول: وليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، وقال الفراء: وأتمروا هموا.

الكسائي: شاوروا.

وإن تعاسرتم في الرضاع فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها، وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأجر للصبي مرضعا غير أمه الباينة منه، فذلك قوله فسترضع له أخرى.

[سورة الطلاق (٦٥) : الآيات ٧ الى ١٢]

لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٩/٩٦

الله بعد عسر يسرا (٧) وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا (٨) فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٩) أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠) رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا (١١)

الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما (١٢)

لينفق ذو سعة من سعته على قدر غناه ومن قدر ضيق فلينفق مما آتاه الله من المال.

ل ا يكلف الله نفسا في النفقة إلا ما آتاها أعطاها من المال.

سيجعل الله بعد عسر يسرا. وكأين من قرية عتت عصت وطغت **وتمردت**

---

(١) كذا في المخطوط، ولعله سفيان الثوري، ولم نجده بهذا اللفظ في كتب الفقه نعم في المغني قال: وبه قال ابن شبرمة وابن أبي ليلى والثوري والحسن وأبو حنيفة وأصحابه والبتي والعنبري (المغني: ٩/ ٢٨٩) .

(٢) راجع المبسوط للسرخسي: ٥/ ٢٠١.." [(١)]

"﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ وحقيقة الاستدراج أن يأخذه بأسه قليلا ولا يجاهره، وهو من الدرج الذي يصعد وينزل منه قليلا قليلا.

- ثم قال: ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾.

أي أنسئ لهم في آجالهم ملاوة من الزمان، وذلك [برهة] / من الدهر على كفرهم **وتمردهم** على الله [لتتكامل] حجج الله عليهم.

- وقوله: ﴿إن كيدي متين﴾.

أي: إن كيدي بأهل الكفر قوي شديد.

- ثم قال تعالى: ﴿أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون﴾.

أي: أم تسألهم يا محمد على إنذارك لهم ونصحك إياهم جعلا [فهم]." [(٢)]

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٣٤١/٩

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٧٦٥٢/١٢

"- ثم قال تعالى: ﴿فكذب وعصى﴾.
أي: فكذب فرعو موسى فيما أتى به من الآيات المعجزات، وعصاه فيما أمره به من طاعة الله والإيمان به.
- وقوله: ﴿ثم أدبر (يسعى)﴾.
أي: ثم ولى معرضا عما [دعا إليه] موسى. قال مجاهد: ﴿ثم أدبر يسعى﴾، أي: " يعمل الفساد ". وقيل: [معناه] أدبر هاربا من الحية.
- وقوله: ﴿فحشر فنادى﴾.
أي: فجحمع قومه فنادى فيهم فقال لهم: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، **تمردا** على الله وطغيانا.
- ثم قال تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾.
قال ابن عباس ومجاهد والشعبي: الأولى، قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨]،." [١]
"إخوة، وحقيقة هذا الجمع أنه جمع وثنا على] وثان كجمل وجمال، ثم جمع وثانا على وثن كمثال ومثل ثم أبدل من الواو همزة.
قوله: ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ أي ما يدعون إلا شيطانا **متمردا** على الله سبحانه، **والمتمرد** الخارج عن الخير.
والمريد: العاتي ﴿لعنه الله﴾ أي قد لعنه الله أي: أخزاه وأبعده من كل خير.
وقال ﴿لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ أي معلوما. قال الشيطان إذ لعنه الله: لأتخذن منهم بإغوائي إياهم عن طريق الحق نصيبا مفروضا، أي: معلوما، وقال الشيطان أيضا: ﴿ولأضلنهم﴾ أي: عن الحق إلى الكفر ﴿ولأمنينهم﴾ أي ولأزيغنهم بما أجعله في نفوسهم من الأماني عن طاعتك (و) توحيدك إلى طاعتي.
وقيل: المعنى: أمنيهم طول الحياة وتأخير التوبة مع الإصرار على المعاصي.
﴿ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ أي: لآمرنهم أن يشرعوا غير ما شرعت لهم." [٢]
"وقيل: المعنى: أن مردة الإنس شياطين، ومثل ذلك من مردة الجن، يوحي بعضهم إلى بعض من القول ما يؤذونهم به. وقال مجاهد: شياطين الإنس: كفارهم /، وشياطين الجن: كفارهم.
والشيطان - في اللغة - هو **المتمرد** في معاصي الله.
ومعنى ﴿زخرف القول﴾ هو تزيين الباطل، يقال: " زخرف باطله ": إذا حسنه، فهو تزيين الباطل بالألسنة.

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٨٠٣٧/١٢
(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ١٤٧٠/٢

قوله: ﴿ولو شآء ربك ما فعلوه﴾ أي لو شاء الله ما فعل هؤلاء الشياطين العداوة بالأنبياء وأممهم، ولكن لم يشأ ذلك ليبتلي بعضهم ببعض، فيستحق كل فريق." (١)

"وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾، أي: وجيع أليم. قاله ابن عباس.

وقيل: ﴿بئيس﴾: رديء.

وقال مجاهد ﴿بعذاب بئيس﴾: أليم شديد.

وقال قتادة ﴿بعذاب بئيس﴾: موجع.

وقال ابن زيد ﴿بئيس﴾: شديد.

قوله: ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه﴾.

أي: تجاوزوا **وتمردوا**. و " العاتي ": **المتمرد** المتجاوز في الحق.." (٢)

"يستهزئون﴾ أي: يسخرون من الرسل عتوا منهم **وتمردا** على ربهم.

بمعنى: كما سلكنا الكفر في قلوب شيع الأولين والاستهزاء بالرسل، كذلك نسلك ذلك في قلوب مشركي قومك. فالهاء في " نسلكه " تعود على التكذيب أو على الاستهزاء.

والمعنى: كذلك ندخل الكفر والتكذيب في قلوب المجرمين لما علم الله من سوء اختبارهم وقبيح اعتقادهم.

وقيل: الهاء تعود على الشرك. وقيل: على القرآن لأن النبي A كان يقرؤه عليهم. ومعنى نسلكه: نجعله.

قوله: ﴿لا يؤمنون به﴾ أي: لا يصدقون بالذكر الذي أنزلناه إليك.

﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ وقد خلت وقائع الله [D] بمن خلا قبلهم من." (٣)

"﴿كبرت كلمة﴾ بالرفع على معنى: عظمت كلمتهم.

يقال: كبر الشيء إذا عظم وكبر [الرجل] إذا أسن، [بكسر الباء، والأول بالضم].

﴿إن يقولون إلا كذبا﴾.

أي ما يقول هؤلاء إن الله اتخذ ولدا إلا كذبا وتخرصا.

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٢١٥٧/٣

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٢٦١٠/٤

(٣) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٣٨٦٧/٦

أي: فلعلك يا محمد قاتل نفسك على آثار قومك الذين قالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ [الإسراء: ٩٠] تمردا منهم على ربهم ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ أي:." [١]

"[ملاقو] الله حفاة عراة مشاة عزلا " قال ابن جبير: يحشرون حفاة عراة، فأول من يكسى خليل الله ابراهيم عليه السلام.

وعن النبي A أنه قال: "كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم " ثم قال تعالى: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾.

أي: ثم لنأخذن من كل جماعة أشدهم على الرحمن عتوا وتمردا. يعني الأكابر فالأكابر جرما. والجبار فالجبار.

والمعنى: نبدأ بتعذيب أعظمهم جرما ثم الذي يليه ثم الذي يليه.

قال مجاهد: " من كل شيعة ": من كل أمة. والشيعة: الجماعة المتعاونون على الأمر: فالتقدير: لنأخذن من كل أمة تعاونت على الكفر أشدهم كفرا ثم الذي يليه.

" أيهم " رفع عند الخليل على الحكاية. أي لننزعن الذي يقال له من أجل عتوه أيهم أشد.

ومعناه: لننزعن من كل فرقة الأعتى فالأعتى، عذب أولا أشدهم كفرا ثم." [٢]

"أي: تجاوز قدره، وتمرد على ربه. وفي الكلام حذف. والتقدير: اذهب إلى فرعون إنه طغى فادعه إلى توحيد الله وطاعته، وإرسل بني إسرائيل معك.

وقوله: ﴿قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري﴾. أي: أفسح لي صدري لأعي عنك ما تودعه من وحيك، وأجترئ به على خطاب فرعون.

﴿ويسر لي أمري﴾.

أي: سهل علي القيام بما كلفتني من الرسالة والطاعة.

﴿واحلل عقدة من لساني﴾.

أي: واطلق لساني للمنطق.

قيل: كانت في لسانه عجمة عن الكلام من أجل الجمرة التي كان ألقاها إلى فيه يوم هم فرعون بقتله.

قال ابن جبير: " عقدة من لساني " عجمة بجمرة نار أدخلها في فيه عن أمر امرأة فرعون، ترد به عنه عقوبة

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٤٣٢٣/٦

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٤٥٧١/٧

فرعون حين أخذ موسى بلحيته، وهو لا يعقل. فقال فرعون: هذا عدو لي فقالت له امرأته: إنه لا يعقل. وكذلك قال مجاهد.

وقال السدي: لما تحرك الغلام – يعني موسى A – أرته أمه آسية. فبينما هي ترضعه وتلعب به، إذ ناولته فرعون وقالت: خذه. فلما أخذه، أخذ موسى بلحيته." [1]

"لولا محذوف. والتقدير: لولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلناك إليهم يا محمد إذا حل عليهم العذاب على كفرهم قبل إرسالك إليهم، هلا أرسلت إلينا رسولا من قبل أن يحل بنا سخطك ﴿فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾، لعاجلهم العذاب.

قال تعالى: ﴿فلما جآءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل مآ أوتي موسى﴾ أي فلما جاء هؤلاء الذين لم يأتهم من قبلك يا محمد رسول الحق من عندنا وهو محمد A بالرسالة من الله إليهم.

قالوا تمردا على الله وتماديا في الغي: هلا أوتي محمد مثل ما أوتي موسى من الكتاب، فقال الله جل ذكره لنبيه: قل لهم يا محمد أو لم يكفر الذين علموكم هذه الحجج من اليهود بما أوتي موسى من قبل.

قال مجاهد: يهود تأمر قريشا أن تسأل محمدا مثل ما أوتي موسى عليه السلام. يقول الله جل ذكره لمحمد: قل لقريش تقول لهم: ﴿أولم يكفروا بمآ أوتي موسى من قبل﴾.." [2]

""الكفار كلهم فاسقون وتخصيص أكثرهم ههنا (١) على وجهين: أحدهما: أنه أراد المتمردين، والثاني: أنه وضع الخصوص موضع العموم" (٢).

٩ – قوله تعالى: ﴿اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا﴾ أي استبدلوا بالقرآن متاع الدنيا، ومضى الكلام في حقيقة معنى هذا في مواضع (٣)، قال مجاهد: "أطعم أبو سفيان بن حرب حلفاءه وترك حلفاء النبي –صلى الله عليه وسلم–" (٤)، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي –صلى الله عليه وسلم– بتلك الأكلة (٥).

قوله تعالى: ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي: فأعرضوا عن طاعة الله، وقال عطاء: "كان أبو سفيان يعطي البعير والناقة والطعام ليصد الناس بذلك عن متابعة النبي –صلى الله عليه وسلم–" (٦)، وعلى هذا: معنى "فصدوا عن سبيله": منعوا الناس (٧) به عن الدخول في الإسلام، وقوله تعالى: ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي من اشترائهم (٨) الكفر بالإيمان.

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٤٦٣٠/٧

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي ط ا ل ب ٥٥٤٣/٨

١٠ - قوله تعالى: ﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة﴾ يعني هؤلاء الناقضين للعهد الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، وهذا ذم لهم بترك

---

(١) ساقط من (ى).

(٢) انظر: "البحر المحيط" ٥/ ١٣.

(٣) انظر: "البسيط" آل عمران: ٧٧، ١٨٧، ١٩٩، المائدة: ٤٤.

(٤) رواه ابن جرير ١٠/ ٨٦، وابن أبي حاتم ٦/ ١٧٥٩، وابن المنذر وأبو الشيخ، كما في "الدر المنثور" ٣/ ٣٨٧، وانظر: "تفسير الإمام مجاهد" ص ٣٦٥.

(٥) هذا التعليل من كلام المؤلف، ولعل المقصود أن أبا سفيان اشترى ذمم حلفائه بمثل ذلك الإطعام، فنقضوا عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-.

(٦) ذكره الثعلبي ٦/ ٨٢ ب.

(٧) ساقط من (ح) و (ى).

(٨) في (ى): (اشتراء).." [1]

"وقوله (١): ﴿مردوا على النفاق﴾، قال الزجاج: ﴿مردوا﴾ متصل بقوله: ﴿منافقون﴾ على التقديم والتأخير) (٢)، بتقدير: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون (٣) مردوا على النفاق، قال ابن الأنباري: (ويجوز أن يكون التقدير: ومن أهل المدينة من مردوا على النفاق، فأضمر (من) لدلالة (٤) (من) عليها، كما قال تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: ١٦٤]: يريد: إلا من) (٥)، ومضت نظائر هذا (٦).

ومعنى: ﴿مردوا على النفاق﴾ يقال: مرد يمرد مرودا فهو مارد ومريد: إذا عتا وطغى وأعيا خبثا، قال الليث: (والمرادة: مصدر المارد، والمريد من شياطين الإنس والجن، وقد **تمرد** علينا أي عتا ومرد على الشر، **وتمرد**: أي عتا وطغى) (٧).

وقال ابن الأعرابي: (المرد: التطاول بالكبر والمعاصي، ومنه قوله: ﴿مردوا على النفاق﴾ أي تطاولوا (٨).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٠/٣١٠

(١) من (م).

(٢) أهـ. كلام الزجاج، انظر: "معاني القرآن وإعرابه" ٢/ ٤٦٧.

(٣) ساقط من (ى).

(٤) في (ح) و (ى): (بدلالة).

(٥) "زاد المسير" ٣/ ٤٩٢، وتفسير الرازي ١٦/ ١٧٣.

(٦) انظر مثلا: "تفسير البسيط" تفسير الآية: ٣ من سورة التوبة

(٧) "تهذيب اللغة" (مرد) ٤/ ٣٣٧٣، والنص بنحوه في "كتاب العين"، مادة: (مرد) ٨/ ٣٧.

(٨) "تهذيب اللغة" (مرد) ٤/ ٣٣٧٣.." [1]

"وقال الفراء: (يريد: مرنوا عليه وجرنوا (١)، كقولك: **تمردوا**) (٢).

وأصل الحرف اللين والملاسة، ومنه صرح ممرد، وغلام أمرد، والمرداء الرملة التي لا تنبت شيئا (٣)، قال محمد بن إسحاق: (لجوا فيه وأبوا غيره) (٤)، وقال ابن زيد: (أقاموا (٥) عليه ولم يتوبوا كما تاب الآخرون) (٦)، وقوله تعالى: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ هو كقوله: ﴿لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ [الأنفال: ٦٠]. ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: (يريد: الأمراض في الدنيا، وعذاب الآخرة، وذلك (٧) أن من مرض من المؤمنين كفر الله سيئاته، ومحص ذنوبه، وأبدله لحما ودما خيرا بما ذهب منه، وأعقبه ثوابا عظيما، ومن مرض من المنافقين زاده نفاقا وإثما (٨) وضعفا) (٩).

---

(١) هكذا في جميع النسخ، وهو موافق لما في "تهذيب اللغة" (مرد) ٤/ ٣٣٧٣، وفي "معاني القرآن" للفراء: جرؤوا. ويبدو أنه تصحيف من النساخ أو المحقق، ومعنى جرنوا: قال في "لسان العرب" (جرن) ١/ ٦٠٨: (جرن فلان على العذال ومرن ومرد بمعنى واحد، ويقال للرجل والدابة إذا تعود الأمر ومرن عليه: قد جرن يجرن جرونا).

(٢) كلام الفراء في "معاني القرآن" ١/ ٤٥٠.

(٣) في الصحاح (مرد): (رملة مرداء: لا نبت فيها .. وتمريد البناء: تمليسه).

(٤) "السيرة النبوية" لابن هشام ٤/ ٢١٢.

(٥) في (ى): (نالوا).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١١/ ٢٧

(٦) رواه ابن جرير ١١/ ٩، وابن أبي حاتم ١٦/ ١٨٦٩.

(٧) ساقطة من (ى).

(٨) من (م).

(٩) رواه الثعلبي في "تفسيره" ٦/ ١٤٣ ب عن عطاء.." [1]

"وأما جلدها فصليب (١)

يعني جلودها، وقال أبو علي: ويجوز أن تكون: ﴿كلمت ربك﴾ التي يراد بها الجنس، وقد أوقع على بعض الجنس، كما أوقع اسم الجنس على بض، كقوله: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين (١٣٧) وبالليل﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، فأوقع اسم الليل على ذلك الوقت الذي يقرون فيه عليهم وهو بعض الجنس (٢).

القول الثاني: في معنى الكلمة، أنه أراد: حق عليهم ما سبق من علم الله فيهم وما جبلهم عليه من الشقاء، وهذا قول ابن عباس (٣)، وقوله تعالى: ﴿على الذين فسقوا﴾، قال ابن عباس: يريد كذبوا (٤).

قال أهل المعاني: فسقوا في كفرهم، أي **تمردوا** فيه، والفسق

---

(١) هذا بعض بيت، وهو بكماله:

بها جيف الحسرى فأما عظامها ... فبيض وأما جلدها فصليب

والبيت لعلقمه الفحل في "ديوانه" ص ٤٠، "خزانة الأدب" ٧/ ٥٥٩، "شرح أبيات سيبويه" ١/ ٩٣، "كتاب سيبويه" ١/ ٢٠٩.

والشاعر يصف طريقا شاقا قطعه حتى يصل إلى ممدوحه، والحسرى: جمع حسير، وهو البعير الذي كل وانقطع سيره إعياء أو هزالا فيتركه أصحابه، وابيضت عظامه: يعني أكلت السباع والطيور ما عليها من لحم، وجلد صليب: أي يابس، أو لم يدبغ. انظر: "شرح أبيات سيبويه"، "خزانة الأدب"، نفس الموضعين السابقين.

(٢) اهـ. كلام أبي علي، انظر: "الحجة للقراء السبعة" ٤/ ٢٧٣.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٨/١١

(٣) رواه بمعناه مختصرا ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٥١، وأبو الشيخ كما في "الدر المنثور" ٣/ ٥٥١.
(٤) "تنوير المقباس" ص ٢١٢، ولفظه: كفروا.." [١]

"فإنه يقال: أمير غير مأمور، أي: غير مؤمر (١).

وأما المترف فمعناه في اللغة: المنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش (٢).

والمفسرون يقولون في تفسيرها: الجبارين والمسلطين والملوك (٣).

وقوله تعالى: ﴿ففسقوا فيها﴾ أي **تمردوا** في كفرهم، إذ الفسق في الكفر: الخروج إلى أفحشه (٤).

﴿فحق عليها القول﴾ قال ابن عباس: يريد استوجبت العذاب (٥)، يعني قوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث﴾ الآية [القصص: ٥٩]، وقوله: ﴿وما كان ربك

= القراءات السبع وعللها" ١/ ٣٦٦، بنحوه، و"الثعلبي" ٧/ ١٠٦ أ، بنحوه، وقد رجح الطبري القول الأول، وعلله: بأن الأغلب من معنى أمرنا، الأمر الذي هو خلاف النهي دون غيره، ثم قال: وتوجيه معاني كلام الله جل ثناؤه إلى الأشهر الأعرف من معانيه أولى -ما وجد إليه سبيل- من غيره. انظر: "تفسير الطبري" ٥1/ ٥٤، ٥٧,

(1) ورد في "تفسير الثعلبي" ٧/ ١٠٦ أبنصه.

(٢) انظر: (ترف) في "المحيط في اللغة" ٩/ ٤٢٦، و"الصحاح" ٤/ ١٣٣٣، و"العباب الزاخر" [ف/ ٤٢]، و"اللسان" ١/ ٤٢٩ وانظر: "تفسير ابن الجوزي" ٥/ ١٩، و"الفخر الرازي" ٢٠/ ١٧٥.

(٣) ورد في "تفسير السمرقندي" ٢/ ٢٦٣، بنحوه، و"تهذيب اللغة" (ترف) ١/ ٤٣٦ بلفظه عن قتادة، و"تفسير الثعلبي" ٧/ ١٠٦ أ - بمعناه، و"الماوردي" ٣/ ٢٣٦ بلفظه، انظر: "تفسير ابن الجوزي" ٥/ ١٩.

(٤) ورد في "تفسير الطوسي" ٦/ ٤٦١ بنصه تقريبا، انظر: "تفسير ابن الجوزي" ٥/ ١٩.

(٥) انظر: "تفسير القرطبي" ١٠/ ٢٣٤، بنحوه، وورد غير منسوب في "تفسير الثعلبي" ٧/ ١٠٦ أ، بنحوه، و"الفخر الرازي" ٢٠/ ١٧٥ بنصه.." [٢]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٩١/١١

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٢٩٠/١٣

"وقال أبو إسحاق: (معناه كان الكافر، ويدل عليه قوله: ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل﴾ [الكهف: ٥٦] الآية. وإن قيل: هل يجادل غير الإنسان؟ قيل: إن إبليس قد جادل، وإن كل ما يعقل من الملائكة، والجن يجادل، ولكن الإنسان أكثر هذه الأشياء جدلا) (١) (٢).

٥٥ - قوله تعالى: ﴿وما منع الناس﴾ قال ابن عباس: (يريد أهل مكة) (٣). ﴿أن يؤمنوا﴾ أي: الإيمان ﴿إذ جاءهم الهدى﴾ محمد -صلى الله عليه وسلم- جاءهم من الله بالرشاد والبيان (٤). وهذا مفسر في سورة بني إسرائيل (٥).

وقوله تعالى: ﴿ويستغفروا ربهم﴾ عطف على أن يؤمنوا.

وقوله تعالى: ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ قال صاحب النظم: (﴿سنة الأولين﴾ أنهم إذا **تمردوا** ولم يؤمنوا أن يعذبوا ويهلكوا) (٦).

---

(١) "معاني القرآن" للزجاج ٣/ ٢٩٦.

(٢) الأولى -والله أعلم- أن تكون عامة في المؤمن والكافر، ويؤيد هذا ما ثبت في "الصحيحين" وغيرهما من حديث علي -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- طرقه وفاطمة ليلا فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾ [الكهف: ٥٤].

(٣) ذكرته كتب التفسير بلا نسبة. انظر: "المحرر الوجيز" ٩/ ٣٣٩، "الجامع لأحكام القرآن" ١٠/ ١١٠، "روح المعاني" ١٥/ ٣٠٠.

(٤) "معالم التنزيل" ٥/ ١٨٢، "فتح القدير" ٣/ ٤٢٢.

(٥) عند قوله سبحانه في سورة الإسراء الآية رقم (٩٤): ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا﴾.

(٦) لم أقف عليه. ويشهد لهذا عدد من الآيات التي تحققت فيها سنته سبحانه في إهلاك من كفر وصد عن سبيله فعم قوم نوح الغرق، وأهلكت عاد الريح العقيم، وأخذت ثمود الصيحة، وقلبت على اللوطية ديارهم فجعل الله عاليها سافلها قال سبحانه =." [1]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٤/٥٨

"تفسير: ﴿أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ قال: (قائدهم ورأسهم في الشر) (١). والعتي هاهنا مصدر كالعتو وهو: **التمرد** في العصيان (٢). قال ابن عباس في رواية الوالبي: (أيهم أشد عصيانا) (٣). وقال في رواية عطاء: (أيهم أعظم فرية) (٤). وقال مقاتل: (أيهم أشد علوا في الكفر) (٥).

وقال الكلبي: (يعني جراءة بالفراء والكذب) (٦). وقال مجاهد: (كفرا) (٧). قال أبو إسحاق: (فأما رفع ﴿أيهم﴾ فهي القراءة، ويجوز (أيهم) بالنصب، حكاها سيبويه وذكر: أنها قراءة هارون الأعور (٨) (٩).

---

(١) "معالم التنزيل" ٥/ ٢٤٥، "الكشف والبيان" ٣/ ١٠ ب.

(٢) انظر: "تهذيب اللغة" (عتا) ٣/ ٢٣١٣، "معجم مقاييس اللغة" (عتو) ٤/ ٢٢٥، "المفردات في غريب القرآن" (عتا) ٣٢١، "لسان العرب" (عتا) ٥/ ٢٨٠٤.

(٣) "جامع البيان" ١٦/ ١٠٧، "الدر المنثور" ٤/ ٥٠٤.

(٤) "الكشف والبيان" ٣/ ١٠ ب، "اللغات في القرآن" ٣٤.

(٥) ذكرته التفسير بدون نسبة. انظر: "جامع البيان" ١٦/ ١٠٧، "بحر العلوم" ٢/ ٣٣٠، "المحرر الوجيز" ٩/ ٥١٠، "معالم التنزيل" ٥/ ٢٤٥، "زاد المسير" ٥/ ٢٥٣، "تفسير القرآن العظيم" ٣/ ١٤٦.

(٦) "النكت والعيون" ٣/ ٣٨٣.

(٧) "جامع البيان" ١٦/ ١٠٧، "الدر المنثور" ٤/ ٥٠٤، "روح المعاني" ١٦/ ١١٩.

(٨) هارون بن موسى بن شريك الدمشقي، أبو عبد الله التغلبي، شيخ المقرئين بدمشق في زمانه، وكان من أهل الفضل، قرأ على ابن ذكوان، وحدث عنه خلق كثير، ورحل إليه الطلبة من الأقطار لإتقانه وتبحره، صنف في القراءات والعربية، إليه رجعت الإمامة في قراءة ابن ذكوان.

انظر: "طبقات النحويين" للزبيدي ٢٦٣، "تذكرة الحفاظ" ٢/ ٦٥٩، "غاية النهاية" ٢/ ٣٤٧، "طبقات المفسرين" ٢/ ٣٤٧، "شذرات الذهب" ٢/ ٢٠٩، "معرفة القراءة الكبار" ١/ ٢٤٧.

(٩) "الكتاب" ١/ ٢٥٩، "الإغفال فيما أغفله الزجاج من المعاني" ٩٩٤، "الإنصاف= ." [١]

"ربيعة (١).

والمعني: أنه يخاصم (٢) في الله فيزعم أنه غير قادر على البعث.

﴿بغير علم﴾ يعني أنه لا علم له في ذلك إنما (٣) [يقوله بإغراء من الشيطان وطاعته إياه] (٤). وهو قوله

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٨٩/١٤

﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾ أي يتبع ما يسول له الشيطان قال ابن عباس] (٥): والمريد الذي **يتمرد** على الله -عز وجل- (٦).

وقال (٧) أهل اللغة في المريد قولين (٨):

أحدهما: أنه المتجرد للفساد.

والثاني: أنه العاري من الخير.

وذلك أن أصله في اللغة: الإملاس، والمريد (٩): المتملس من

---

(١) لم أجد من ذكره عن ابن عباس، وقد ذكر الماوردي ٤/ ٦، وابن الجوزي ٥/ ٤٠٥ عن ابن عباس أنها نزلت في النضر بن الحارث.

والصواب أنه لم يثبت أنها نزلت في واحد من هؤلاء بعينه، بل هي نازلة فيمن جادل في الله بغير علم ومنهم هؤلاء المذكورون، ثم هي بعد عامة في كل من اتصف بهذه الصفة. انظر: "المحرر الوجيز" لابن عطية ١٠/ 622، "البحر المحيط" ٦/ ٣٥١.

(٢) في (أ): (فخاصم).

(٣) في (ظ): (وإنما).

(٤) ما بين المعقوفين كشط في (ظ).

(٥) ما بين المعقوفين كشط في (ظ).

(٦) انظر: "تنوير المقباس" ص ٢٠٦.

(٧) في (ظ): (قال).

(٨) انظر: (مرد) في: "تهذيب اللغة" للأزهري ١٤/ ١١٨ - ١١٩، "لسان العرب" لابن منظور ٣/ ٤٠٠ - ٤٠١.

(٩) في (ظ): (فالمريد).." (١)

"قوله: ﴿قال إنه صرح ممرد من قوارير﴾ أي: قال سليمان لما رأى ساقها وقدمها، ناداها: ﴿إنه صرح ممرد﴾ أي: مملس بالزجاج، وليس ببحر (١). وذكرنا الكلام في الممرد عند قوله: ﴿كل شيطان مريد﴾ [الحج: ٣] (٢).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٥/٢٥١

قال مقاتل: لما رأت السرير والصرح، علمت أن ملكها ليس بشيء عند ملك سليمان، وأن ملكه من الله، فقالت حين دخلت الصرح: ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾ يعني: بعبادة الشمس ﴿وأسلمت﴾ وأخلصت ﴿مع سليمان﴾ بالتوحيد ﴿لله رب العالمين﴾ خرت لله ساجدة، وتابت إلى الله من شركها، فاتخذها سليمان لنفسه، وولدت له داود بن سليمان بن داود، وأمر لها بقرية من الشام لها خراجها، وكانت عذراء فاتخذت الجن الحمامات من أجلها (٣).

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "كانت من أحسن نساء العالمين ساقين، وهي من أزواج سليمان في الجنة" فقالت عائشة -أم المؤمنين- للنبي -صلى الله عليه وسلم-: هي أحسن ساقا مني؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أنت أحسن ساقين منها في الجنة" (٤).

---

(١) "غريب القرآن" لابن قتيبة ٣٢٥. وذكره في "تفسير الوسيط" ٣/ ٣٧٩، ولم ينسبه.

(٢) قال الواحدي في تفسير هذه الآية: قال ابن عباس: المريد الذي يتمرد على الله عز وجل. وقال أهل اللغة في المريد قولين؛ أحدهما: أنه المتجرد للفساد، والثاني: أنه العاري من الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿صرح ممرد﴾ [النمل ٤٤] وذكرنا الكلام في هذا عند قوله: ﴿مردوا على النفاق﴾ [التوبة: ١٠١].

(٣) "تفسير مقاتل" ١٦٠. وذكره بنحوه الثعلبي ٨/ ١٣١ ب، ولم ينسبه. وذكر زواجها من نبي الله سليمان، وابن كثير في "البداية والنهاية" ٢/ ٢٤، ووصف هذا القول بأنه، أشهر وأوضح. والله أعلم.

(٤) ذكره بنصه، مقاتل ٦٠ أ؛ هكذا بدون إسناد. وذكره القرطبي ١٣/ ٢١٠، وصدره بقوله: وفي بعض الأخبار، وعزاه للقشيري.." [1]

"يتقون﴾ الشرك. قاله مقاتل (١).

٥٤ - قوله: ﴿ولوطا﴾ قال الزجاج: نصب لوط من جهتين؛ علي معنى: وأرسلنا لوطا. وعلى معنى: واذكر لوطا؛ لأنه قد جرت أقاصيص رسل فدخل معنى إضمار: اذكر هاهنا (٢).

قوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ يعني: اللواط، في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والجميع (٣) ﴿وأنتم تبصرون﴾ قال عطاء عن ابن عباس: يريد أنهم كانوا يدعون البصر بالدين. والمعنى: وأنتم تدعون البصر بالدين فلم تأتون الفاحشة.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٥٤/١٧

وقال الكلبي: وأنتم تعلمون أنها فاحشة (٤). وهو قول الفراء والزجاج (٥).

وإذا كانوا يعلمون أنها فاحشة فهو أعظم لذنوبهم، فهذا من البصر الذي هو بمعنى العلم. وقيل: يرى بعضكم بعضا، وكانوا لا يستترون عتوا وتمردا (٦).

---

(١) "تفسير مقاتل" ٦١ أ.

(٢) "معاني القرآن" للزجاج ٤/ ١٢٥. و"إعراب القرآن" للنحاس ٣/ ٢١٦.

(٣) أخرج ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٠٤، عن ابن عباس، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهم-، ومجاهد. و"تفسير مقاتل" ٦١ أ، و"تنوير المقباس" ص ٣١٩.

(٤) "تنوير المقباس" ٣١٩، وهو قول مقاتل ٦١ أوذكره الهواري ٣/ ٢٥٩، ولم ينسبه.

(٥) "معاني القرآن" للفراء ٢/ ٢٩٦. و"معاني القرآن" للزجاج ٤/ ١٢٥.

(٦) "تفسير الثعلبي" ٨/ ١٣٣ أ، ولم ينسبه. قال مجاهد: كان يجامع بعضهم بعضا في المجالس. "إعراب القرآن" للنحاس ٣/ ٢١٦. ولم يرجح الواحدي شيئا من هذه الأقوال؛ ولعل الأقرب -والله أعلم- أن المراد: وأنتم تعلمون أنها فاحشة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ [الأعراف =." [1]

"كرامة، وكذلك لا أفعل ذلك ولا كيدا ولا هما أي ولا أكيد ولا أهم (١) (٢).

قال ابن عباس: يريد وحفظا للسماء ﴿من كل شيطان مارد﴾ يريد الذي تمرد على الله (٣).

وقال مقاتل: وحفظا للسماء بالكواكب (٤).

قال الكلبي: حفظا للسموات من كل شيطان شديد متمرد، يرمون بها ولا تخطيهم (٥)، وذكرنا تفسير المارد عند قوله: ﴿مردوا على النفاق﴾ [التوبة: ١٠١]. وقوله: ﴿كل شيطان مارد﴾ [الحج: ٣] (٦).

٨ - قوله: ﴿لا يسمعون﴾ المعنى لئلا يسمعون، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع. قال الفراء: ولو كان في موضع (لا) (أن) لصلح ذلك كما قال: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ [النساء: ١٧٦]. وكما قال: ﴿رواسي أن تميد بكم﴾ (٧). ويصلح في لا (٨) على هذا المعنى الجزم، والعرب تقول: ربطت الفرس لا تفلت بالجزم، وأوثقت عبدي لا يفرق (٩)، وأنشد:

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٦٨/١٧

(١) في (ب): (ولاهم).

(٢) لم أقف على قول المبرد.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) "تفسير مقاتل" ١٠٩ ب.

(٥) لم أقف عليه.

(٦) قال في هذا الموضع من "البسيط": المريد الذي **يتمرد** على الله -عز وجل-. وقال أهل اللغة في المريد قولين: أحدهما: إنه المتجرد للفساد، والثاني: إنه العاري من الخير.

(٧) جزء من آية في سورة النحل: الآية ١٥. ومن سورة لقمان: الآية ١٠.

(٨) في (أ): (ألا)، وهو خطأ.

(٩) هكذا في النسخ، والصواب كما في "معاني الفراء" (يفرر).." [١]

"(إلى) عن حدها (١).

والشيطان كل **متمرد** عات من الجن والإنس (٢)، قال الله تعالى. ﴿شياطين الإنس والجن﴾ [الأنعام: ١١٢]. واختلفوا في اشتقاقه: فقال الليث: الشيطان فيعال من شطن أي: بعد، يقال: نوى شطون (٣) وشطنت (٤) الدار، أي: بعدت، ويقال: شيطن (٥) الرجل وتشيطن (٦) إذا صار (٧) كالشيطان وفعل فعله.

وقال رؤبة:

---

(١) (خلا) تتعدى بـ (إلى) وبـ (الباء) فإذا عديت بـ (إلى) كان معناها الانفراد في حاجة خاصة، وإذا عديت بـ (الباء) كان لها معنيان: أحدهما: ما سبق، والآخر: بمعنى السخرية به، فتعديتها بـ (إلى) أفصح، لأنه يخلو من الالتباس. وبعضهم يجعل (إلى) في الآية بمعنى (مع)، وبعضهم يجعلها بمعنى (الباء)، وهذان ضعيفان عند بعض العلماء؛ لأن الحروف لا يجوز تحويلها عن معانيها إلا بحجة، وبعضهم قال: ضمن (خلا) معنى (ذهبوا) و (انصرفوا) وهذا قول الكوفيين، وقد رجحه الواحدي وال‍طبري وكثير من المفسرين؛ لأنه يبقي (إلى) على معناها. انظر: "تفسير الطبري" ١/ ١٣١، و"تفسير ابن عطية" ١/ ١٧٤، "الدر

---

[١] التفسير البسيط الواحدي ١٥/١٩

المصون" ١/ ١٤٥، "مغني اللبيب" ١/ ٧٥.
(٢) انظر: "مجاز القرآن" ١/ ٣٢، "تفسير الطبري" ١/ ٤٩، "تفسير الثعلبي" ١/ ١٥ ب.
(٣) النوى: الدار، ويطلق على التحول من مكان إلى آخر. "اللسان" (نوى) ١٥/ ٣٤٧. والكلام لأبي عبيد أدخله المؤلف في كلام الليث، قال في "التهذيب" (أبو عبيد: نوى شطون: أي بعيدة شاطة، وقال الليث: غزوة شطون: أي بعيدة، وشطنت الدار شطونا، إذا بعدت ...). "التهذيب" (شطن) ٢/ ١٨٧٧.
(٤) في (ب): (وشطين الداري) ولفظ الداري بخط مخالف كبير.
(٥) في (ب): (شيطان).
(٦) في (ب): (شيطن).
(٧) في (ب): (صاب).." [(١)]

"والمد: أن (١) يمد الرجل الرجل (٢) في غيه (٣).
قال أهل التفسير في قوله ﴿يمدهم﴾: أي يمهلهم (٤) ويطول في أعمارهم ومدتهم (٥).
و (الطغيان): مصدر كالرجحان والكفران والعدوان (٦). قال الليث: [والطغوان لغة فيه] (٧) والفعل: طغوت وطغيت، ومعناه مجاوزة القدر، وكل شيء جاوز القدر فقد طغى، كما طغى الماء على قوم نوح. قال الله تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء﴾ [الحاقة: ١٢] وطغت الصيحة على ثمود (٨)،

= غب سماء فهو رقراقي
وفي "ديوان العجاج":
ماء قري مده قري ... غب سماء فهو رقراقي
القري: المسيل، الرقراقي: المترقرق الذي يتكفأ. (الديوان) ص ٣١٨.
(١) في (ب): (والمداد يمد).
(٢) في (ب): (للرجل).
(٣) ذكره في "التهذيب" عن ابن أبي حاتم عن الأصمعي (مد) ٤/ ٣٣٦١.
(٤) في (ب): (يهملهم) تصحيف.
(٥) اختلف العلماء في ﴿يمدهم﴾ هل هي من المد بمعنى الإمهال والتطويل فى العمر. أو من المدد

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢/١٦٧

بمعنى: الزيادة. وقد رجح هذا الطبري حيث قال: وأولى الأقوال بالصواب أن يكون بمعنى: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم **وتمردهم**. "تفسير الطبري" ١/ ١٣٥، وانظر: "تفسير أبن عطية" ١/ ١٧٧ - ١٧٨، "الكشاف" ١/ ١٨٨، و"تفسير القرطبي" ١/ ١٨٢.

(٦) "الحجة" لأبي علي ١/ ٣٦٦.

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من (أ)، (ج).

(٨) انتهى كلام الليث وقد نقله المؤلف بتصرف، "تهذيب اللغة" ٣/ ٢١٩٦، "العين" ٤/ ٤٣٥.." [١]

"ما (١) قال أبو عبيدة (٢) قال المبرد (٣)، (والزجاج (٤)) (٥): فليدع أهل مجلسه، وكانوا عشيرته، أي: فليستنصر بهم (٦).

١٨ - قوله تعالى: ﴿سندع الزبانية﴾ قال أبو عبيدة (٧)، (والمبرد (٨)) (٩): واحد الزبانية: زبنية، وهو الشديد الأخذ، وأصله من زبنته إذا دفعته (١٠)، وهو كل **متمرد** من إنس أو جن، ومثله في المعنى والتقدير: عفرية، يقال (فلان) (١١) زبنية، وعفرية، وجمعه عفارية.

وقال الأخفش: قال بعضهم: واحدها الزباني، وقال بعضهم: الزابن، وقال بعضهم: الزابنية، والعرب لا تكاد تعرف هذا، وتجعله من

= القوم أندوهم ندوا إذا جمعتهم، ويقال للموضع الذي يجتمعون فيه: النادي، والندي لا يسمى ناديا حتى يكون فيه أهله، وإذا تفرقوا لا يكون ناديا، ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ لذلك سميت دار الندوة بمكة كانوا إذا حزبهم أمر ندوا إليها، فاجتمعوا للتشاور، وأناديك وأجالسك من النادي. "البسيط" ٣/ ٢١١ أ.

(١) في (أ): (هذا).

(٢) "مجاز القرآن" ٢/ ١٠ وقوله ورد عند تفسير سورة مريم: ٧٣ قال: ﴿وأحسن نديا﴾ أي مجلسا، والندي والنادي، والجميع منها أندية، واستشهد بأبيات من الشعر على ذلك.

(٣) لم أعثر على مصدر لقوله.

(٤) "معاني القرآن وإعرابه" ٥/ ٣٤٦.

(٥) ما بين القوسين ساقط من (أ).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٧٤/٢

(٦) في (أ): (فليستنصرهم).

(٧) "مجاز القرآن" ٢/ ٣٠٤.

(٨) ورد قوله في: "التفسير الكبير" ٣٢/ ٢٥.

(٩) ما بين القوسين ساقط من (أ).

(١٠) في (ع): (رفعته).

(١١) ساقط من (أ).." [١]

"وقوله تعالى: ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾، إنما انتقل إبراهيم من الحجة الأولى مع إمكانه أن يناقضه بأن يقول له: أحيي من قتلته إن كنت صادقا، قطعا للخصومه، وتركا للإطالة، واحتجاجا بالحجة المسكتة، لأن عدو الله لما لبس في الحجة بأن قال: أنا أفعل ذلك، احتج عليه إبراهيم بحجة لا يمكنه فيه (١) أن يقول: أنا أفعل ذلك، ولو قال ذلك بان عجزه وافتضاحه، ولزمه من الحجة ما لا سبيل إلى التدليس فيه، وصار كلام إبراهيم عليه السلام قدوة للمجادل إذا تمرد الخصم (٢) وقصد التلبيس بالمحال، وكان الإدلاء في الحجة الأخرى مما يقطعه ويفحمه فالصواب ذكرها، ولا يكون ترك الأولى انتقالا لعجز، ولكه تنبيه على قلة عقل الخصم، أو على تعسفه في الكلام (٣).

فإن قيل: كان للنمرود أن يقول لإبراهيم: فليأت بها ربك من المغرب، قيل: علم بما رأى من الآيات أنه يفعل فيزداد (4) فضيحة؛ لأن هذه المحاجة (٥) كانت مع إبراهيم بعد إلقائه في النار، وخروجه منها سالما، فعلم أن من قدر على حفظ إبراهيم في تلك النار العظيمة من الاحتراق، يقدر على أن يأتي بالشمس من المغرب، وقيل: إن الله تعالى خذله عن التلبيس (٦) بالشبهة نصرة لنبيه.

---

(١) ساقط من (ي).

(٢) في (ي): (للخصم).

(٣) ينظر: "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٣٤١، "تفسير الثعلبي" ٢/ ١٤٩٢.

(٤) في (م): (ليزداد).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٤/١٨٠

(٥) في (ي): (المحاجة).

(٦) في (م): (التلبيس).." [١]

"نظيره: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله: ﴿ويجعلون لله البنات﴾ [النحل: ٥٧].

وقوله: ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ قال المفسرون: كان في كل واحدة من آلهتهم شيطان يترايا (١) للسدنة والكهنة يكلمهم (٢).

والمعنى: ما يعبدون بعبادتهم لها إلا شيطانا مريدا، لطاعتهم له في عبادتها، فتلك العبادة ليست للأوثان، بل هي للشيطان.

وقال الزجاج: يعني بالشيطان ههنا إبليس، لأنهم إذا أطاعوه بما سول لهم فقد عبدوه (٣).

وهذا هو القول، لأن ما بعد هذه الآية يدل على أن المراد بالشيطان في هذه الآية إبليس، ويحتمل أن ما قاله المفسرون من ترائي الشيطان للسدنة أرادوا به إبليس.

وقوله تعالى: ﴿مريدا﴾. قال ابن عباس: "يريد **يتمرد** على الله بالعصيان مرة بعد مرة" (٤).

قال ابن الأعرابي: **التمرد** (٥) التطاول بالكبر والمعاصي (٦).

= آلهتهم، اللات والعزى ويساف ونائلة، إناث يدعونهم من دون الله". "تفسير الطبري" ٥/ ٢٧٩.

(١) هكذا في المخطوط يترايا ، ولعل الصواب: "يتراءى".

(٢) انظر: "بحر العلوم" ١/ ٣٨٩، و"الكشف والبيان" ٤/ ١٢١ ب، و"زاد المسير" ٢/ ٢٠٣، و"الدر المنثور" ٢/ ٣٩٤.

(٣) "معاني القرآن وإعرابه" ٢/ ١٠٨.

(٤) لم أقف عليه، وانظر: "تنوير المقباس" بهامش المصحف ص ٩٧. وقد قال بنحو هذا القول قتادة. انظر: الطبري ٥/ ٢٨٠، و"الدر المنثور" ٢/ ٣٩٤.

(٥) في "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٣٧٣ (مرد): المرد.

(٦) في "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٣٧٣ (مرد).." [٢]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٧٧/٤

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٩٨/٧

"وقال الليث: المرادة مصدر المارد، والمريد من شياطين الإنس والجن، وقد **تمرد** علينا أي عتا ومرد على الشر (١)، **وتمرد** أي عتا وطغى (٢).

والمريد الخبيث، **المتمرد** الشرير، وشيطان مارد ومريد، واحد (٣).

وقال أبو إسحاق: معنى مريد خارج عن الطاعة متملص منها، يقال: حائط ممرد، أي مملس، ويقال شجرة مرداء، إذا تناثر ورقها ، ولذلك سمى من لم تنبت له لحية أمرد، أي أملس موضع اللحية، ومرد الرجل يمرد مرودا ومرادة، إذا عتا وخرج عن الطاعة (٤).

١١٨ - قوله تعالى: ﴿لعنه الله﴾ قال ابن عباس: يريد [دحره] (٥) الله وأخرجه من الجنة (٦).

قوله تعالى: ﴿وقال﴾ يعني: إبليس: ﴿لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ قد ذكرنا معنى الفرض عند قوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال ابن السري (٧) في هذه الآية: أصل الفرض في اللغة القطع،

---

(١) في "العين" ٨/ ٣٧: الشيء.

(٢) "العين" ٨/ ٣٧، و"تهذيب اللغة" ٤/ ٣٣٧٣ (مرد).

(٣) "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٣٧٣، وانظر: "اللسان" ٧/ ٤١٧٢ (مرد).

(٤) "معاني القرآن وإعرابه" ٢/ ١٠٨، وانظر: "زاد المسير" ٢/ ٢٠٣.

(٥) في المخطوط: "دحر الله" وهو خطأ ظاهر. وقد جاءت العبارة كما أثبتها في "الوسيط" ٢/ ٧١٠.

(٦) ذكره الثعلبي في "الكشف والبيان" ٤/ ١٢٢ أ، دون نسبة لابن عباس، إلا أن ابن الجوزي نسبه إليه في "زاد المسير" ٢/ ٢٠٤.

(٧) هو الزجاج، انظر: "معانيه" ٢/ ١٠٩.." [(١)]

"إذا أنا لم أنفع صديقي بوده ... فإن عدوي لن يضرهم بغضي (١)

أراد: أعدائي فأدى الواحد عن الجميع (٢) كقوله عز وجل: ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ [الذاريات: ٢٤] جعل ﴿المكرمين﴾ وهو جمع نعتا للضيف وهو واحد؛ لأنه أراد بالواحد الجمع) و ﴿شياطين الإنس والجن﴾ منصوب على البدل من عدو ومفسر له، ويجوز أن يكون (عدوا) منصوبا على أن مفعول ثان.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٧/٩٩

المعنى: وكذلك جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء للأنبياء (٣).

واختلفوا في معنى ﴿شياطين الإنس والجن﴾ على قولين:

أحدهما: أن المعنى مردة الإنس والجن، والشيطان (٤) كل عات

---

(١) الشاهد للنابغة الشيباني في "ديوانه" ص ١١٧، و"الزاهر" ١/ ٢١٦ - ٢١٧، وللنابغة الذبياني في "ملحق ديوانه" ص ٢٣١، وبلا نسبة في الرازي ١٣/ ١٥٤، و"البحر" ٤/ ٢٠٧، و"الدر المصون" ٥/ ١١٦.

(٢) "الزاهر" ١/ ٢١٦ - ٢١٨، ولم يذكر الآية، وذكر ذلك الرازي ١٣/ ١٥٤ عن ابن الأنباري.

(٣) هذا قول الزجاج في "معانيه" ٢/ ٢٨٤، والنحاس في "إعرابه" ١/ ٥٧٥، والأزهري في "تهذيبه" ٣/ ٢٣٤٧، وأكثرهم على أن في الآية وجهين: الأول: أن (عدوا) مفعول أول، و (لكل نبي) في موضع المفعول الثاني قدم، و (شياطين) بدل من عدو. والوجه الثاني: أن المفعول الأول (شياطين)، و (عدوا) مفعول ثان مقدم، و (لكل نبي) حال من (عدوا) لأنه صفته، وقال الفراء في "معانيه" ١/ ٣٥١، والطبري ٨/ ٣: (نصب العدو والشياطين بجعلنا)، وجوز ابن الأنباري في "البيان" ١/ ٣٣٥ جعل (شياطين) مفعولا ثانيا لجعل. وانظر: "التبيان" ١/ ٣٥٤، و"الفريد" ٢/ ٢١٥، و"الدر المصون" ٥/ ١١٥.

(٤) قال المبرد في "الكامل" ٣/ ٩٦: (زعم أهل اللغة أن كل **متمرد** من جن أو إنس أو سبع أو حية يقال له: شيطان، وأن قولهم: تشيطن، إنما معناه: تخبث وتنكر، وقد قال الله جل وعز: ﴿شياطين الإنس والجن﴾ ا. هـ. وانظر: "العين" ٦/ ٢٣٧، و"الجمهرة" ٢/ ٨٦٧، و"تهذيب اللغة" ٢/ ١٨٧٨، و"الصحاح" ٥/ ٢١٤٤،=." [1]

"**متمرد** من الإنس والجن، وهذا قول ابن عباس في (١) رواية عطاء ومجاهد (٢) وقتادة (٣) والحسن (٤)، وهؤلاء قالوا: (إن من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، وأن الشيطان من الجن إذا أعياه المؤمن، وعجز عن إغوائه ذهب إلى **متمرد** من الإنس، وهو شيطان الإنس، فأغراه بالمؤمن ليفتنه). يدل على هذا ما روى (إن النبي - صلى الله عليه وسلم -[قال] (٥) لأبي ذر: "هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس؟ " قال: قلت: وهل للإنس من شياطين؟ قال: "نعم، هم شر من شياطين الجن" (٦).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٨/٣٧٠

= و"المجمل" ٢/ ٥٠٢، و"مقاييس اللغة" ٣/ ١٨٣، و"المفردات" ص ٤٥٤، و"اللسان" ٤/ ٢٢٦٥ مادة (شطن).

(١) ذكره الرازي ١٣/ ١٥٤، و"تنوير المقباس" ٢/ ٥٣، نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم ٣/ ٣٧١، نحوه، وذكره السيوطي في "الدر" ٣/ ٧٤.

(٢) ذكره الواحدي في "الوسيط" ١/ ١٠٢، والبغوي ٣/ ١٧٩، والرازي ١٣/ ١٥٤، عن مجاهد والحسن وقتادة.

(٣) أخرج عبد الرزاق ١/ ٢/ ٢١٦، والطبري ٨/ ٥، وابن أبي حاتم ٤/ ١٣٧١ بسند جيد نحوه.

(٤) ذكره هود الهواري ١/ ٥٥٢، والماوردي ٢/ ١٥٨، ابن الجوزي ٣/ ١٠٨.

(٥) لفظ: (قال) ساقط من (أ).

(٦) أخرجه أحمد في "المسند" ٥/ ١٧٨ - ١٧٩، والنسائي في "سننه" ٨/ ٢٧٥ في الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر شياطين الجن، والطبري في "تفسيره" ٨/ ٥، وابن أبي حاتم ٤/ ١٣٧١، من عدة طرق، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" ١/ ١٥٩ - ١٦٠: (رواه أحمد والطبراني في الكبير، ومداره على علي بن زيد، وهو ضعيف، ورواه أحمد والبزار والطبراني في "الأوسط" بنحوه، وعند النسائي طرف منه، وفيه المسعودي، وقد اختلط) ا. هـ. وقد ذكر ابن كثير في "تفسيره" ٢/ ١٨٦ طرقا أخرى للحديث ثم قال: (فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته والله أعلم) ا. هـ. وانظر: "كشف الأستار" ١/ ٩٣ ، و"المطالب العالية" ٤/ ٢٠٧ (٣٤٤١)، و"الدر المنثور" ٣/ ٧٣، وقوله: "قال: نعم، هم شر من شياطين الجن" لم أقف عليها.." [١]

"معهم في مناصحته لهم، وبتأديته رسالة ربه إليهم، وأنه لا ينبغي له أن يأسى عليهم مع **تمردهم** في كفرهم (١).

٩٤ - قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾، قال ابن عباس: [(يريد] (٢) في مدينة) (٣)، والقرى (٤) في كتاب الله كلها المدائن، وقوله: ﴿من نبي﴾ محذوف الصفة، والتقدير: من نبي (٥) فكذب، أو فكذبه أهلها، إلا أخذناهم. كذلك قال أهل التفسير (٦)، وعلى هذا يصح المعنى.

وقوله تعالى: ﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾. قال ابن عباس: (يريد: الفقر والأسقام) (٧). وقال

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٨/٣٧١

السدي: (يعني: الفقر والجوع) (٨).

قال (٩) أبو إسحاق: (قيل: ﴿بالبأساء﴾ كل ما نالهم من شدة في أموالهم، ﴿والضراء﴾: ما نالهم من الأمراض، قال: وقيل: على العكس من ذلك) (١٠).

---

(١) انظر: "تفسير الطبري" ٩/ ٦، والسمرقندي ١/ ٥٥٦.

(٢) لفظ: (يريد) ساقط من (أ).

(٣) ذكره الواحدي في "الوسيط" ١/ ,٢١١

(4) قال الزجاج في "معانيه" ٢/ ٣٥٩: (يقال لكل مدينة: قرية، سميت قرية لاجتماع الناس فيها) اهـ. وانظر: "الزاهر" ٢/ ١٠٠ - ١٠١.

(٥) لفظ: (نبي) ساقط من (أ).

(٦) انظر: "تفسير السمرقندي" ١/ ٥٥٦ - ٥٥٧، والبغوي ٣/ ٢٥٩، وابن عطية ٦/ ١٣، وابن الجوزي ٣/ ٢٣٣، والرازي ١٤/ ١٨٣.

(٧) ذكره ابن أبي حاتم في "تفسيره" ٥/ ١٥٢٥، وانظر: "تفسير الطبري" ٩/ ٧، والماوردي ٢/ ٢٤٢، وقد سبق له زيادة تخريج.

(٨) ذكره الثعلبي في "الكشف" ٦/ ٢.

(٩) في (ب): (وقال).

(١٠) "معاني الزجاج" ٢/ ٣٥٩، وقال ابن عطية ٦/ ١٣: (البأساء المصائب في =." [1]

"١٦٦ - قوله تعالى: ﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه﴾ الآية. نظم الآية لا يصح إلا بتقدير محذوف؛ لأن معنى العتو (١): الإباء والعصيان، وإذا عتوا عما نهوا عنه فقد أطاعوا؛ لأنهم أبوا ما نهوا عنه، وهو صيد الحيتان في السبت، ولكن التقدير: فلما عتوا عن ترك ما نهوا عنه ثم حذف المضاف؛ وإذا أبوا ترك المنهي عنه كان ذلك ارتكابا (٢).

وقوله تعالى: ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ مفسر في سورة البقرة (٣).

١٦٧ - قوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك﴾، اختلفوا في معنى ﴿تأذن﴾، فقال أهل اللغة (٤): (تأذن بمعنى

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٤٢/٩

أذن أي: أعلم)، ونحو

---

(١) عتا: أي: استكبر وجاوز الحد، وقال الزجاج ٢/ ٣٨٦: (العاتي الشديد الدخول في الفساد **المتمرد** الذي لا يقبل موعظة) اهـ.

وانظر: "العين" ٢/ ٢٢٦، و"الجمهرة" ٢/ ١٠٣٢، و"تهذيب اللغة" ٣/ ٢٣١٣، و"الصحاح" ٦/ ٢٤١٨، و"المجمل" ٣/ ٦٤٦، و"مقاييس اللغة" ٤/ ٢٢٥، و"المفردات" ص ٥٤٦، و"اللسان" ٥/ ٢٧٩٤ (عتا).

(٢) انظر: "تفسير الطبري" ٩/ ١٠١، و"إعراب النحاس" ١/ ٦٤٨، و"تفسير السمرقندي" ١/ ٥٧٨، والرازي ١٥/ ٤٠، والخازن ٢/ ٣٠٣، قال الطبري: (أي: **تمردوا** فيما نهوا عنه وتمادوا فيه) اهـ. وقال النحاس: (أي: تجاوزوا في معصية الله جل وعز) اهـ.

(٣) انظر: "البسيط" البقرة: ٦٦.

(٤) الأذان: الإعلام، وأذن بمعنى علم، وأذن له أذنا استمع، وتأذن فلان أعلم وآذن، وتأذن الأمير في الكلام أي: تقدم وأعلم ونادى فيهم بالتهديد والنهي، وقال الخليل في "العين" ٨/ ٢٠٠: (الأذان اسم للتأذين، والتأذن من قولك: تأذنت لأفعلن كذا يراد به إيجاب الفعل في ذلك أي: سأفعل لا محالة وتأذنت تقدمت كالأمير يتأذن قبل العقوبة ومنه: ﴿وإذ تأذن ربك﴾) اهـ. وانظر: "تهذيب اللغة" ١/ ١٣٩ - ١٤٠، و"الصحاح" ٥/ ٢٠٦٨، و"المجمل" ١/ ٩١، و"مقاييس اللغة" ١/ ٧٥، و"المفردات" ص ٧٠، و"اللسان" ١/ ٥١ (أذن).." [1]

"قال ابن عباس: فرد الله عليهم جواب كفرهم فقال: ألا إنهم هم السفهاء لا المؤمنون الذين صدقوا محمدا صلى الله عليه وسلم، ولكن لا يعلمون ولكنهم لا يعلمون ما يقولون.

قوله: وإذا لقوا الذين آمنوا الآية، قال المفسرون: أراد ب الذين آمنوا: أبا بكر رضي الله عنه وأصحابه، وذلك أن المنافقين كانوا إذا لقوهم واجتمعوا معهم قالوا: إيماننا كإيمانكم ونحن معكم.

يقال: لقيته لقاء ولقيانا ولقيا، وكل شيء استقبل شيئا فقد لقيه.

وقوله: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ [البقرة: ١٤] يقال: خلوت بفلان، أخلو به خلوة وخلاء.

وخلوت معه وخلوت إليه بمعنى واحد.

والشيطان: كل **متمرد** عات من الجن والإنس، قال الله تعالى: ﴿شياطين الإنس والجن﴾ [الأنعام: ١١٢]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤٢٢/٩

، واشتقاقه من شطن، أي: بعد، فمعنى الشيطان: البعيد من الجنة.

قال الزجاج: ومعنى الشيطان: الغالي في الكفر، المتعبد فيه من الجن والإنس.

قال ابن عباس: أراد ب شياطينهم: كبراءهم ورؤساءهم.

وقوله: إنا معكم أي: على دينكم، إنما نحن مستهزءون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، حيث نقول لهم: آمنا.

يقال: هزئ به يهزأ وتهزأ به، واستهزأ به.

وهو أن يظهر غير ما يضمر، استصغارا وعبثا.

قال الله تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ [البقرة: ١٥] أي: يجازيهم جزاء استهزائهم، فسمى الجزاء باسم المجازى عليه كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠] ، فسمى الثاني سيئة باسم الأول، وقال أيضا: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ [البقرة: ١٩٤] .." [١]

"ثم فسر العدو فقال: ﴿شياطين الإنس والجن﴾ [الأنعام: ١١٢] يعني: مردة الإنس والجن، والشيطان: كل عات **متمرد** من الجن والإنس.

قال قتادة، ومجاهد، والحسن: إن من الجن شياطين ومن الإنس شياطين، وإن الشيطان من الجن إذا أعياه المؤمن، وعجز عن إغوائه ذهب إلى **متمرد** من الإنس وهو شيطان الإنس فأغواه بالمؤمن ليفتنه.

يدل على هذا ما روي أن النبي قال لأبي ذر: " هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس؟ قال: قلت: وهل للإنس من شياطين؟ قال: نعم، هم شر من شياطين الجن ".

وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن.

وذلك إني إذا تعوذت بالله من شيطان الجن ذهب عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانا.

وقوله: ﴿يوحي بعضهم إلى بعض﴾ [الأنعام: ١١٢] أي: يلقي ويسر إليه زخرف القول: باطله وكذبه، والزخرف: الباطل من الكلام الذي زين بالكذب، يقال: فلان يزخرف كلامه، إذا زينه بالباطل والكذب.

والمعنى: إن هؤلاء الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم ويغرونهم، ﴿غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ [الأنعام: ١١٢] ولو شاء لمنعهم من الوسوسة، ﴿فذرهم وما يفترون﴾ [الأنعام: ١١٢] قال ابن عباس: يريد: ما زين لهم إبليس وغرهم به.

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٩٠/١

قوله: ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ [الأنعام: ١١٣] الصغو: الميل، يقال: صغا إلى كذا يصغو.

إذا مال إليه.

وقال ابن الأنباري: فعلنا بهم ذلك لكي تصغى إلى الباطل أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة.

وليرضوه: وليرضوا الباطل من القول فيحبوه، ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ [الأنعام: ١١٣] أي: ليكتسبوا وليعملوا ما هم عاملون.

والاقتراف: الكسب، يقال: اقترف ذنبا، أي: عمله.." (١)

"الميم جعل ابن وأم شيئا واحدا، نحو خمسة عشر، وقوله: ﴿إن القوم استضعفوني﴾ [الأعراف: ١٥٠] قال الكلبي: استذلوني وقهروني وكادوا وهموا أن يقتلوني، ﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ [الأعراف: ١٥٠] يعني أصحاب العجل، ولا تجعلني في موجدتك علي ﴿مع القوم الظالمين﴾ [الأعراف: ١٥٠] الذين عبدوا العجل.

قوله: ﴿قال رب اغفر لي﴾ [الأعراف: ١٥١] أي: ما صنعت إلى أخي من الإنكار عليه، وهو برئ مما يوجب العتب عليه، ولأخي إن قصر في الإنكار على عبدة العجل، ﴿وأدخلنا في رحمتك﴾ [الأعراف: ١٥١] قال عطاء: في جنتك، ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ [الأعراف: ١٥١] .

٣٦٧ - أخبرنا محمد بن عبد العزيز الفقيه، أنا محمد بن الفضل السلمي، أنا أحمد بن حمدون بن رستم، نا عبد الرحمن بن محمد ابن بنت المبارك بن فضالة، نا عثمان بن عبد الله الشامي، نا سلمة بن سليمان البصري، حدثني محمد بن المنكدر، عن عبد الله بن عمر، قال: " رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غداة الحديبية فنزل على ماء لقوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من القوم؟ فقالوا: نحن المسلمون وإذا امرأة تحطب تنورا لها، فلما ارتفع الوهج نحت بابن لها عن وهجه، فأتتنا، فقالت: أفيكم محمد رسول الله؟ قلنا لها: نعم، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ألست تزعم أنك رسول الله؟ فقال: بلى، قالت: ألست تزعم أن الله أرحم الراحمين، قال لها: بلى، قالت: أي رسول الله أو تزعم أن الله أرحم الراحمين أفلست تزعم أن الله أرحم بالعباد من الأمهات بأولادهن؟ قال لها: بلى، قالت: أو لست تزعم هذا؟ قال: بلى، قالت: فإن الوالدة لا تطيب نفسها أن تلقي ولدها في النار، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخضلت لحيته، ثم قال: إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد **المتمرد** الذي **يتمرد**

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣١٣/٢

على ربه، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله "

قوله: ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ [الأعراف: ١٥٢] يعني: اليهود الذين كانوا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، عيرهم بصنع آبائهم، ونسبه إليهم.

قوله: ﴿سينالهم غضب من ربهم﴾ [الأعراف: ١٥٢] عذاب في الآخرة، ﴿وذلة في الحياة الدنيا﴾ [الأعراف: ١٥٢] يعني: الجزية، وقال عطاء: يعني ما أصاب قريظة والنضير من." [(١)]

"ما به يعذب.

وهذه الآية تدل على أن الواجبات إنما تجب بالشرع لا بالعقل، ولا يجب شيء على أحد قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها﴾ [الإسراء: ١٦] قال مجاهد: أكثرنا فساقها.

وهو قول عكرمة، وسعيد بن جبير.

يقال: أمر القوم إذا اكثروا، وأمرهم الله أي كثرهم.

وروى حماد بن سلمة، عن ابن كثير، آمرنا بالمد، وهي اللغة العالية، يقال: أمر القوم وأمرهم الله، أي: أكثرهم، ونحو هذا روى خارجة، عن نافع، والمترف المنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش، والمفسرون يقولون في تفسير المترفين: الجبارين والمتسلطين والملوك.

وقوله: ففسقوا فيها أي **تمردوا** في كفرهم إذ الفسق في الكفر الخروج إلى أفحشه، فحق عليها قال ابن عباس: استوجبت العذاب.

يعني قوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء: ١٥] .

فدمرناها تدميرا أهلكناها إهلاك الاستئصال، ثم ذكر سنته في إهلاك القرون الماضية، تخويفا لكفار مكة، فقال: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ [الإسراء: ١٧] الآية.

قوله: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴿١٨﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴿١٩﴾ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴿٢٠﴾ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٨-٢١] ﴿من كان يريد العاجلة﴾ [الإسراء: ١٨] يعني الدنيا عجلت فكانت قبل الآخرة، ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ [الإسراء: ١٨] أي: القدر

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٢/٤١٣

الذي نشاء نعجل له في الدنيا، لا الذي يشاء هو، لمن نريد أن نعجل له شيئا قدرناه، وهذا ذم لمن أراد بعمله وطاعته وإسلامه الدنيا، ومنفعتها، وعروضها، وبيان أن من أرادها لا يدرك منها إلا ما قد له، إن قدر، ﴿ثم جعلنا له جهنم يصلاها﴾ [الإسراء: ١٨] ثم يدخل النار في الآخرة، لأنه لم يرد الله تعالى بعمله، ﴿مذموما مدحورا﴾ [الإسراء: ١٨] مباعدا من رحمة الله.

﴿ومن أراد الآخرة﴾ [الإسراء: ١٩] يعني الجنة، ﴿وسعى لها سعيها﴾ [الإسراء: ١٩] عمل بفرائض الله، وهو مؤمن فإن الله لا يقبل حسنة إلا من مصدق، ﴿فأولئك كان سعيهم مشكورا﴾ [الإسراء: ١٩] يضعف لهم الحسنات، ويمحو عنهم السيئات، ويرفع لهم الدرجات.

كلا نمد قال الحسن: كلا نعطي من الدنيا: البر والفاجر.

وقال الزجاج: أعلم." (١)

"﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴿٦٦﴾ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴿٦٧﴾ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴿٦٨﴾ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴿٦٩﴾ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴿٧٠﴾ ﴾ [مريم: ٦٦-٧٠] وقوله: ﴿ويقول الإنسان﴾ [مريم: ٦٦] معناه: الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، ﴿أئذا ما مت لسوف أخرج حيا﴾ [مريم: ٦٦] يقول ذلك استهزاء وتكذيبا منه بالبعث، قال ابن عباس في رواية عطاء: يعني الوليد بن المغيرة.

وقال في رواية الكلبي: نزلت في أبي بن خلف حين أخذ عظاما بالية يفتها بيده، ويقول: زعم محمد أن الله يبعثنا بعد ما نموت.

فقال الله مجيبا لذلك الكافر: ﴿أولا يذكر الإنسان﴾ [مريم: ٦٧] أولا يتذكر هذا الجاحد أول خلقه، فيستدل بالابتداء على الإعادة، وهو قوله: ﴿أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا﴾ [مريم: ٦٧] .

ثم أقسم أنه يحشرهم، فقال: ﴿فوربك لنحشرنهم﴾ [مريم: ٦٨] أي: لنجمعنهم في المعاد، والشياطين وذلك أن كل كافر يحشر مع شيطانه في سلسلة، ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا﴾ [مريم: ٦٨] يعني: في جهنم، وذلك أن حول الشيء يجوز أن يكون داخله، يقال: جلس القوم حول البيت إذا جلسوا داخله مطيفين به، وقوله: جثيا قال مجاهد: مستوقرين على الركب، جمع جاث، من قولهم: جثا على ركبته يجثوا جثوا.

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ١٠١/٣

وقال ابن عباس: جثيا جماعات.

وهو قول مقاتل، وهو جمع جثوة وجثوة، وهي المجموع من التراث والحجارة.

﴿ثم لننزعن﴾ [مريم: ٦٩] لنأخذن ولنخرجن، ﴿من كل شيعة﴾ [مريم: ٦٩] من كل فرقة وجماعة، ﴿أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ [مريم: ٦٩] أي: الأعتى فالأعتى منهم، قال الأحوص: بدئ بالأكابر جرما.

وقال قتادة: لننزعن من كل أهل دين قادتهم ورؤسائهم في الشر.

والعتي ههنا مصدر كالعتو، وهو التمرد في العصيان، وأما رفع أيهم، فقال الزجاج: فيه ثلاثة أقوال: أحدها أنه على الاستئناف ولننزعن يعمل في موضع ﴿من كل شيعة﴾ [مريم: ٦٩] .

هذا قول يونس، وقال الخليل: أنه على معنى الذين يقال لهم: ﴿أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ [مريم: ٦٩] .

وقال سيبويه: أيهم ههنا مبني على الضم، تقول: اضرب أيهم أفضل، تريد أيهم هو أفضل.

﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾ [مريم: ٧٠] يقال: صلى النار يصلاها صليا، أي: دخلها وقاسى حرها، يعني أن الأولى بها صليا الذين هم أشد على الرحمن عتيا على معنى الابتداء بهم دون أتباعهم، لأنهم كانوا رؤساء في الضلالة.

﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴿٧١﴾ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم: ٧١-٧٢] قوله: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم: ٧١] وما منكم أحد إلا وارد جهنم، ﴿كان على ربك﴾ [مريم: ٧١] كان ورودكم جهنم، ﴿حتما﴾ [مريم: ٧١] الحتم: إيجاب القضاء والقطع بالأمر، يقال: كان ذلك حتما، أي موجبا، ﴿مقضيا﴾ [مريم: ٧١] قضاه الله عليكم، وأكثر." (١)

"يخاصم في قدرة الله، ويزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم في ذلك، إنما يقوله باغواء الشيطان وطاعته إياه، وهو قوله: ﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾ [الحج: ٣] قال ابن عباس: المريد المتمرد على الله.

﴿كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ [الحج: ٤] قال ابن عباس: قضى الله أن من أطاع إبليس أضله ولم يرشده وجره إلى عذاب السعير.

﴿يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣/١٩٠

عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿٥﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴿٦﴾ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴿٧﴾ ﴾ [الحج: ٥-٧] ﴿يأيها الناس﴾ [الحج: ٥] يعني: أهل مكة، ﴿إن كنتم في ريب من البعث﴾ [الحج: ٥] قال ابن عباس: في شك من القيامة.

﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج: ٥] قال الزجاج: أي تدبروا أمر خلقكم وابتدائكم فإنكم لا تجدون في القدرة فرقا بين ابتداء الخلق وبين إعادته.

وهو قوله: ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج: ٥] يعني: خلق آدم، ﴿ثم من نطفة﴾ [الحج: ٥] يعني: خلق ولده، ﴿ثم من علقة﴾ [الحج: ٥] وهي الدم الجامد قبل أن ييبض، وذلك أن النطفة المخلوق منها الولد تصير دما غليظا، ثم تصير لحما، وهو قوله: ﴿ثم من مضغة﴾ [الحج: ٥] والمضغة: قطعة لحم، وقوله: ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ [الحج: ٥] قال ابن الأعرابي: مخلقة قد برأ خلقه، وغير مخلقة لم تصور. قال السدي: هذا في السقط، والمرأة تسقط النطفة بيضاء، والعلقة تسقط قد صور بعضه، وتسقط وقد صور كله.

فعلى هذا القول المخلقة وغير المخلقة في السقط، وذهب الأكثرون إلى أن المخلقة: ما أكمل خلقه فينفخ الروح فيه، وهو الذي يولد لتمام حيا، وما سقط كان غير مخلقة، أي غير حي بإكمال خلقه بالروح، وهذا معنى قول ابن عباس رواية عطاء، وعكرمة، والكلبي.

ويدل على صحة التفسير: ما

٦٢٩ - ما أخبرنا أبو بكر الحارثي، أنا محمد بن حيان، نا أبو يحيى الرازي، نا العسكري، نا ابن أبي زائدة، عن عامر، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود، قال: إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه، فقال: أي رب، مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قيل غير مخلقة؛ قذفتها الأرحام دما ولم تكن نسمة وإن قيل مخلقة؛ قال: رب، أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ ما الأجل؟ ما الأثر؟ ما الرزق؟ بأي أرض تموت؟ فيقال: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك تجد فيها قصة هذه النطفة فيذهب فيجدها في أم الكتاب فتخلق فتعيش من أجلها وتأكل رزقها وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في المكان الذي ثبت لها، ثم تلا عامر: ﴿يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة

وقوله: لنبين لكم قال ابن عباس: لنبين لكم ما تأتون وما تذرون.

يعني أن الله خلق بني آدم ليبين لهم ما يحتاجون إليه في العبادة، وقال صاحب النظم: ليبين لكم أن البعث حق، لأن الآية نزلت دلالة على البعث.

ونقر ونثبت،﴾ في الأرحام ما نشاء ﴿ [الحج: ٥] فلا يكون سقطا،﴾ إلى أجل مسمى ﴿ [الحج: ٥] إلى." (١)

"للسماء بالكواكب، ﴿من كل شيطان مارد﴾ [الصافات: ٧] **متمرد** يرمون بها فلا تخطئهم.

قوله: ﴿لا يسمعون إلى الملإ الأعلى﴾ [الصافات: ٨] قال الكلبي: لكي لا يسمعوا إلى الكتبة من الملائكة، والملأ الأعلى هم الملائكة، لأنهم في السماء، وقرئ يسمعون بالتشديد، وأصله يتسمعون، فأدغم التاء في السين، ﴿ويقذفون من كل جانب﴾ [الصافات: ٨] ويرمون من كل ناحية بالشهب.

دحورا يقال: دحره دحرا ودحورا إذا طرده وأبعده.

والمعنى: يدحرون دحورا فيبعدون عن تلك المجالس التي يسترقون فيها السمع.

﴿ولهم عذاب واصب﴾ [الصافات: ٩] قال مقاتل: يعني دائما إلى النفخة الأولى، فهم يخرجون ويكبلون.

﴿إلا من خطف الخطفة﴾ [الصافات: ١٠] اختلس الكلمة من الكلام الملائكة مسارقة، فأتبعه لحقه وأصابه، شهاب ثاقب نار مضيئة تحرقه، والثاقب: النير المضيء كقوله: ﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ [الحجر: ١٨] .

﴿فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴿١١﴾ بل عجبت ويسخرون ﴿١٢﴾ وإذا ذكروا لا يذكرون ﴿١٣﴾ وإذا رأوا آية يستسخرون ﴿١٤﴾ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴿١٥﴾ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴿١٦﴾ أوآباؤنا الأولون ﴿١٧﴾ قل نعم وأنتم داخرون ﴿١٨﴾ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴿١٩﴾ ﴾ [الصافات: ١١-١٩] قوله: فاستفتهم قال الزجاج: سلهم سؤال تقرير عن ﴿أهم أشد خلقا﴾ [الصافات: ١١] أحكم صنعة، ﴿أم من خلقنا﴾ [الصافات: ١١] قبلهم من الأمم السالفة، يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقا من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بالتكذيب، فما الذي يؤمنهم من العذاب.

ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ [الصافات: ١١] لاصق جيد، يقال: لزب يلزب لزوبا إذا لصق.

والمعنى أن هؤلاء الكفار خلقوا مما خلق منه الأولون، فليسوا بأشد خلقا منهم، وهذا إخبار عن التسوية

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣/٢٥٩

بينهم وبين غيرهم من الأمم في الخلق.
قوله: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ [الصافات: ١٢] بل معناه: ترك الكلام الأول والأخذ في الكلام الآخر، كأنه قال: دع يا محمد ما مضى، عجبت من كفار مكة حين أوحى إليك القرآن، ولم يؤمنوا به، وهو قوله: ويسخرون لأن سخريتهم بالقرآن وبه من ترك الإيمان، قال قتادة: عجب نبي الله من هذا القرآن حين أنزل عليه وخلال بني آدم.
وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يظن أن كل من يسمع منه القرآن يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن فسخروا منه وتركوا الإيمان به عجب من ذلك صلى الله عليه وسلم، فقال الله: عجبت يا محمد من نزول الوحي عليك وتركهم الإيمان.
وقرأ ابن مسعود بضم التاء.
٧٨٤ – أخبرناه أبو بكر محمد بن عمر الخشاب، أنا إبراهيم بن عبد الله الأصفهاني، أنا محمد بن إسحاق السراج، نا قتيبة، نا جرير، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: قرأ عبد الله: بل عجبت، فقال شريح: إن الله لا يعجب، إنما يعجب من لا يعلم، قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم فقال: إن شريحا كان معجبا برأيه، إن عبد الله قرأ: بل عجبت ويسخرون، وعبد الله أعلم من." (١)

"﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا﴾ كما ابتليناك بهؤلاء القوم كذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء ليعظم ثوابه والعدو هاهنا يراد به الجمع ثم بين من هم فقال: ﴿شياطين الإنس﴾ يعني: مردة الإنس والشيطان: كل **متمرد** عات من الجن والإنس ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ يعني: إن شياطين الجن الذين هم من جند إبليس يوحون إلى كفار الإنس ومردتهم فيغرونهم بالمؤمنين وزخرف القول: باطله الذي زين ووشي بالكذب والمعنى أنهم يزينون لهم الأعمال القبيحة غرورا ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ لمنع الشياطين من الوسوسة للإنس." (٢)

"﴿كذلك﴾ هكذا ﴿حقت﴾ صدقت ﴿كلمة ربك﴾ بالشقاوة والخذلان ﴿على الذين فسقوا﴾ **تمردوا** في الكفر ﴿أنهم لا يؤمنون﴾." (٣)

---
(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣/٥٢٢
(٢) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٣٧١
(٣) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٤٩٧

"﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها﴾ أمرناهم على لسان رسول بالطاعة وعنى بالمترفين: الجبارين والمسلطين والملوك وخصهم بالأمر لأن غيرهم تبع لهم

﴿ففسقوا فيها﴾ أي: **تمردوا** في كفرهم والفسق في الكفر: الخروج إلى أفحشه ﴿فحق عليها القول﴾ وجب عليها العذاب ﴿فدمرناها تدميرا﴾ أهلكناها إهلاك استئصال." (١)

"﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ نزلت في النضر بن الحارث وجماعة من قريش كانوا ينكرون البعث ويقولون: القرآن أساطير الأولين ويجادلون النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ويتبع﴾ في جداله ذلك ﴿كل شيطان مريد﴾ **متمرد** عات." (٢)

"﴿حفظا من كل شيطان مارد﴾ **متمرد** خبيث." (٣)

"ف (عاث) و (أفسد) بمعنى واحد، وكذلك: الرجس والوثن، والوجه والإسفار، والسر والنجوى، والحوة واللعس.

وفي قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك﴾ [البقرة:١١٩] قال: «أنفذناك، وقد يكون الإرسال إطلاقا في غير هذا الموضع» (١). فالإرسال والإنفاذ والإطلاق مترادفات.

وفي أثناء كلامه على قوله تعالى: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة:١٢٤] ذكر مثالين على الترادف، فقال: «(النيل) هو الإدراك والإصابة. و (العهد): الوصية والأمانة لقوله: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم»﴾ (٢). فالنيل والإدراك والإصابة بمعنى واحد، والعهد والوصية والأمانة بمعنى واحد أيضا.

وفي بيانه معنى ﴿(عتوا)﴾ في قوله تعالى: ﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم﴾ [الأعراف:٧٧] قال: ﴿وعتوا:﴾ **تمردوا** وطغوا» (٣). فالعتو **والتمرد** والطغيان مترادفات.

وفي تفسيره معنى (لفت) في قوله تعالى: ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا﴾ [يونس:٧٨] قال: ﴿لتلفتنا:﴾ لتصرفنا» (٤). أي أن (لفت) و (صرف) بمعنى واحد.

٣ – المشترك اللفظي

وهو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى. وحده الأصوليون بأنه «اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر

---

(١) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٦٣٠

(٢) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٧٢٧

(٣) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٩٠٦

دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة» (٥).

وفي (درج الدرر) أمثلة كثيرة على المشترك اللفظي، ولكن المؤلف لا يستعمل هذا المصطلح أيضا، وإنما يكتفي بذكر اللفظ الذي يتحدث عنه ويورد معانيه المختلفة. ومن ذلك:

في قوله تعالى: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا﴾ [البقرة:٥٩] قال: «و (الرجز): العذاب، وقيل: الطاعون» (٦). وهذا يعني أن (الرجز) من المشترك اللفظي فيأتي بمعنى العذاب والطاعون.

وفي قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ [البقرة:٦٣] ذكر عدة معان لـ (أخذ) واستدل لكل معنى منها بشاهد من القرآن الكريم فقال: «وأخذه: عقده وإحكامه، قال في المنافقين: ﴿قد﴾

---

(١) درج الدرر ١٤٠.

(٢) درج الدرر ١٤٥.

(٣) درج الدرر ٥٩٨.

(٤) درج الدرر ٧٥٣.

(٥) المزهر ١/ ٢٩٢.

(٦) درج الدرر ٦٧.." [١]

"﴿خير لكم﴾ من الإباء والعناد (١).

﴿عند بارئكم﴾ أي: في حكمه، كما يقال: عند أبي حنيفة (٢).

ويقال بالعبرانية (٣) مكان قولنا: برأ الله: بوروا (٤) إيلوهيم.

والبرية في الأصل مهموزة، وهي الخليقة (٥).

٥٥ - ﴿وإذ قلتم يا موسى:﴾ خطاب (١٣ ظ) للسبعين الذين اختارهم موسى للميقات (٦) فقالوا: لن نشهد لك (٧) بالحق عند بني إسرائيل إلى أن نرى الله ﴿جهرة:﴾ معاينة (٨). وإنما قالوا: جهرة ليؤكدوا قولهم، وينفوا إيهام الرؤيا والرؤية بالقلب (٩).

﴿فأخذتكم:﴾ أحرقتكم (١٠).

﴿الصاعقة:﴾ العذاب الذي فيه هلاك (١١).

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١/٦٥

وإنما عوقبوا **لتمردهم** وامتناعهم عن الشهادة إلى تحصيل منيتهم.

﴿وأنتم تنظرون:﴾ إلى الصاعقة حين نزلت، أي: ينظر بعضكم إلى هلاك بعض (١٢).

٥٦ - ﴿ثم بعثناكم:﴾ "أحييناكم" (١٣) ﴿من بعد موتكم:﴾ حرقكم وهلاككم (١٤).

وهذه الرجعة مثل رجعة الطيور الأربعة لإبراهيم، ورجعة (عاميل) في قصة البقرة، ورجعة الذين قال لهم الله: موتوا ثم أحياهم (١٥)، ورجعة عزير وحماره، ورجعة الموتى لعيسى، خلاف قول المتناسخة.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ١/ ٣٦٩.

(٢) ينظر: مجمع البيان ١/ ٢٧٣، وزاد المسير ١/ ٩٠، والبحر المحيط ١/ ٤٧٨.

(٣) بعدها في ع: إنه.

(٤) في ك: رءروا، وفي ع: نوروا.

(٥) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٣٥، والتبيان في تفسير القرآن ١/ ٢٤٤، وتفسير القرطبي ١/ ٤٠٢.

(٦) ينظر: تفسير البغوي ١/ ٧٤، والمحرر الوجيز ١/ ١٤٦، وتفسير القرطبي ١/ ٤٠٣.

(٧) ساقطة من ب.

(٨) ساقطة من ب. وينظر: معاني القرآن للأخفش ١/ ٢٦٧، وتفسير الطبري ١/ ٤١٢، والنكت والعيون ١/ ١٠٩.

(٩) ينظر: تفسير البغوي ١/ ٧٤، ومجمع البيان ١/ ٢٢١، وتفسير القرطبي ١/ ٤٠٤.

(١٠) في ب: فأحرقتكم. وينظر: الوجيز ١/ ١٠٦، وتفسير البغوي ١/ ٧٤.

(١١) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٤١٤، والتفسير الكبير ٣/ ٨٦,

(2١) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٤١٤، والبغوي ١/ ٧٤، والبحر المحيط ١/ ٣٧٢.

(١٣) تفسير الطبري ١/ ٤١٥، وتفسير القرآن الكريم ١/ ٣٥٧، والتبيان في تفسير القرآن ١/ ٢٥٣.

(١٤) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٤١٥، وتفسير القرآن الكريم ١/ ٣٥٧.

(١٥) إشارة إلى قوله تعالى: ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم [البقرة:٢٤٣].." [1]

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١/١٥٧

"أنه طرح (١) على باب من أبواب المسجد، وكان لمسجدهم اثنا عشر بابا، لكل سبط باب، فتخاصم الناس وتحاكموا إلى موسى عليه السلام، فحكم بحكم القسامة (٢)، وهو في التوراة على نحو ما في شريعتنا، غير أنهم كانوا متعبدين (٣) في ما يروى بأن يضعوا أيديهم على بقرة مذبوحة، ثم يحلفوا بالله الذي لا إله إلا هو إله بني إسرائيل ما قتلناه وما علمنا قاتله، فلما وقعت هذه الواقعة أبوا إلا تعيين القاتل، ولم يدفنوا المقتول أياما، وآل بهم الأمر إلى الاختلاف والاقتتال، فلما طال الشر شكوا إلى موسى عليه السلام، فوعدهم الله تعالى إحياء المقتول على شريطة ذكرها في هذه الآي لتبيين القاتل، ويكون ذلك آية على البعث والنشور، فاتهموا نبي الله، وغلوا في دين الله، وما كادوا يأتون بالشريطة لكثرة تمردهم وترددهم، ثم قست قلوبهم من بعد مشاهدة الآية، أو وقوع العلم بها، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، على ما وصفه الله تعالى (٤).

و (إذ): ظرف على ما تقدم، ويحتمل أن يكون العامل فيه ﴿قالوا.﴾

ويحتمل أن يكون التقدير في (قالوا): فقالوا، إلا أنه أسقط حرف العطف لاستقامة الجواب بذاته كما في قوله: ﴿قال [فرعون] (٥)﴾ وما رب العالمين (٢٣) قال رب السماوات والأرض، الآيات [الشعراء:٢٣ - ٢٤] (٦).

﴿بقرة:﴾ واحدة البقر (٧). "والبقر: اسم الجنس" (٨)، والجمع: باقر وبقور (٩).

وفي الآية دليل على ثبوت العموم؛ لأن تقديرها: أن تذبحوا بقرة ما (١٠)، كما تقول للغلام: ناولني حصاة، وادع لي رجلا، فحملوه على طريق الإجمال، ولم يتسارعوا إلى الائتمار والإقبال، فزلوا وأضلوا (١١). وقال صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده لو اعترضوا على أية بقرة كانت فذبحوها

---

(١) (أنه طرح) ساقطة من ع.

(٢) القسامة: أيمان تقسم على المتهمين في الدم، ينظر: التعريفات ٢٢٤، والتوقيف على مهمات التعاريف ١٥٨. وينظر أحكام القسامة في تفسير القرطبي ١/ ٤٥٧ - ٤٦٢.

(٣) في ك وع: متعدين.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي ١/ ٤٥٦، وتفسير القرآن العظيم ١/ ١١٢ - ١١٣.

(٥) من المصحف.

(٦) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٤٣ - ٤٤، وتفسير الطبري ١/ ٤٧٩، ومجمع البيان ١/ ٢٥٤.

(٧) ساقطة من ك. وينظر: تفسير الطبري ١/ ٤٩٦، والمحرر الوجيز ١/ ١٦٣، وتفسير القرطبي ١/ ٤٤٥.

(٨) تفسير القرطبي ١/ ٤٤٦.

(٩) ينظر: المحرر الوجيز ١/ ١٦٣، وتفسير القرطبي ١/ ٤٤٦، وفيهما أنها تجمع على باقر وبقير وبيقور.

(١٠) ساقطة من ك وب.

(١١) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ١/ ٣٠٢ - ٣٠٣.." (١)

"﴿(عصينا)﴾ **تمرد** وإباء (١). وحمل بعضهم قولهم: (سمعنا) في وقت، (وعصينا) في وقت آخر (٢).

﴿وأشربوا:﴾ سقوا (٣)، والإشراب قريب من السقي حقيقة، ومن المزج مجازا، يقال: وجه مشرب حمرة ودما (٤). وروي عن بعضهم ما يدل على حقيقة الشرب، قال: أنكر بعضهم عبادة العجل فلما نسف العجل في اليم نسفا أمروا بشرب ذلك الماء، فتشرب قلوب المنافقين وظهرت العلامة على وجوههم فأخذوا وقتلوا (٥).

والواو في (٦) ﴿(أشربوا)﴾ ضمير ذوي القلوب، وهم الذين قالوا: سمعنا وعصينا.

وقوله: ﴿في قلوبهم﴾ كنوع من إبدال (٧) البعض من الكل، كقولك: ضربت زيدا على صدره.

و ﴿(العجل)﴾ قائم مقام المضاف إليه، وتقديره: حب العجل (٨)، وعلى القول الآخر: أجزاء العجل مما نسف مع الماء الذي شربوه (٩).

﴿بكفرهم:﴾ بشؤم كفرهم (١٠)، وهو قولهم السابق: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ [الأعراف:١٣٨]، وغيره من الإباء والعناد والتهمة (١١).

﴿قل:﴾ أمر من القول، لما حذفت الواو وأعطيت القاف حركتها، وقع الاستغناء عن همزة الوصل (١٢).

﴿بئسما يأمركم به إيمانكم:﴾ كقولك لسفيه متعاقل: بئسما يأمرك عقلك شتم الناس (١٣)، أو لغاش يدعي الأمانة: بئسما تأمرك (١٤) الأمانة إن كنت أمينا (١٥).

---

(١) النسخ الثلاث: وأبى. وينظر: الكشاف ١/ ١٦٦.

(٢) ينظر: روح المعاني ١/ ٣٢٦.

(٣) ينظر: غريب القرآن وتفسيره ٧٧، ومعاني القرآن وإعرابه ١/ ١٧٥، وإعراب القرآن ١/ ٢٤٨.

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١/١٧٥

(٤) ينظر: تفسير البغوي ١/ ٩٥، والبحر المحيط ١/ ٤٧٦، وروح المعاني ١/ ٣٢٦.

(٥) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٥٩٤، والبغوي ١/ ٩٥، والبحر المحيط ١/ ٤٧٧.

(٦) في ب: قالوا وفي، بدل (والواو في)، وهو تحريف.

(٧) في ب: الإبدال.

(٨) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٦١، ومعاني القرآن وإعرابه ١/ ١٧٥، والبيان في غريب إعراب القرآن ١/ ١٠٩.

(٩) ينظر: البحر المحيط ١/ ٧٧4، وروح المعاني ١/ ٣٢٦.

(١٠) (بشؤم كفرهم) ساقطة من ب.

(١١) ينظر: مجمع البيان ١/ ٣٠٨.

(١٢) ومثله: قم، ينظر: الممتع ٢/ ٤٤٩، وشرح المراح في التصريف ٢٢١، والمهذب في علم التصريف ٣٥٨.

(١٣) (شتم الناس) ساقطة من ب.

(١٤) في الأصل وع: يأمرك.

(١٥) ينظر: الكشاف ١/ ١٦٦.." [(١)]

"﴿فأت بها﴾ [الأعراف:١٠٦]، وبنو إسرائيل لقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ [البقرة:٥٥]، والنصارى إذ قالوا: ﴿هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ [المائدة:١١٢] (١).

وإنما يطالبون بهذه الأشياء **تمردا** وتعنتا، ولم يقصدوا به الاستدلال للطمأنينة والبيان، فذمهم الله جميعا، وشبه بعضهم ببعض (٢).

وفي الآية دليل أن الكفر كله ملة واحدة.

١١٩ - ﴿إنا أرسلناك:﴾ أنفذناك، وقد يكون الإرسال إطلاقا في غير هذا الموضع (٣).

﴿بالحق:﴾ ودين الحق هو (٤) الإسلام. والباء مكان (مع) (٥).

﴿بشيرا:﴾ مخبرا بالخبر السار (٦).

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٢٠٠/١

﴿ونذيرا:﴾ منبها محذرا بخبر مكروه (٧). قال صلى الله عليه وسلم: (بشر أهل الطاعة بالجنة والرضوان، وأنذر أهل المعصية بالنار والخسران) (٨).

﴿عن أصحاب الجحيم:﴾ أصحاب جمع صحاب، وصحاب جمع (٩) صحب، مثل ركاب وركب، ثم صحب جمع صاحب، ويحتمل أن الأصحاب جمع قلة.

و (الجحيم): النار العظيمة، قال الله تعالى: ﴿فألقوه في الجحيم﴾ [الصافات:٩٧]، وقيل: الجحيم: التهاب النار (١٠).

١٢٠ - ﴿ولن ترضى عنك اليهود [ولا النصارى] (١١)﴾: والرضا عن الشيء: صرف السخط عنه بوجود (١٢) المرضي منه (١٣)، والمرضي هو المحمود. ولم يكن الإسلام محمودا عند اليهود والنصارى فلم يرضوا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ١/ ٤٣٥، وتفسير القرطبي ٢/ ٩٢، والتسهيل ٥٨.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٩٩، وتفسير القرطبي ٢/ ٩٢، وتفسير القرآن العظيم ١/ ١٦٧.

(٣) ينظر: لسان العرب ١١/ ٢٨٥ (رسل).

(٤) في ع: وهو. وينظر: تفسير الطبري ١/ ٧١٩، والبغوي ١/ ١١٠، وزاد المسير ١/ ١٢١.

(٥) ينظر: الوجيز ١/ ١٢٩، والتبيان في إعراب القرآن ١/ ١١٠، والمجيد (ط ليبيا) ٣٩٤.

(٦) ينظر: تفسير البغوي ١/ ١١٠.

(٧) ينظر: تفسير البغوي ١/ ١١٠.

(٨) لم أقف عليه.

(٩) (صحاب وصحاب جمع) ساقطة من ب.

(١٠) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ١/ ٤٣٧ - ٤٣٨، ولسان العرب ١٢/ ٨٤ - ٨٥ (جحم).

(١١) من ك.

(١٢) مكررة في ب.

(١٣) ساقطة من ب، وبعدها في ك: والمرضي منه، وهي مقحمة. وينظر: التبيان في تفسير القرآن ١/ ٤٤٠.." [(١)]

"﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين:﴾ يخالف بالاعتقاد إجماعهم بعد انعقاده (١). وإنما صار إجماع هذه الأمة حجة بقوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة:١٤٣]، وقوله (٢) صلى الله عليه وسلم: لا تجتمع أمتي على الضلالة.

﴿نوله ما تولى:﴾ نقلده ما تقلد بخذلانه (٣) وتيسيره للعسرى. وهذا الجزاء إنما وجد حالة وجود الشرط، ثم لله المشيئة فيه بعد ذلك [على قول] (٤) من لا يرى نسخ الوعيد، وعلى قولنا فلله أن لا يفعل الوعيد بمن شاء من خلقه.

١١٦ - ﴿إن الله لا يغفر:﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق، فتكون آية عذاب، وما سبق (٥) في وحشي، فتكون آية رحمة. والمراد بهذه الآية عبدة الأصنام، وبالأولى أهل الكتاب.

﴿بعيدا:﴾ يبعد عن الحق وقصد الطريق (٦)، والبعيد ضد القريب.

١١٧ - ﴿إن يدعون من دونه:﴾ تقدير الآية: إن يدعون من دونه إلا إناثا وشيطانا، كقولك: لا أطيع إلا الأمير ولا أطيع إلا الوزير (٧)، أي: لا أطيع غيرهما، ولو أسقطت الواو ليصار (٨) كلامك بالإبدال على سبيل الاستدراك.

﴿إلا إناثا:﴾ جنيا كوافر حللن في الصخر أو الخشب (٩) كاللات والعزى ومناة وبنوانة ونائلة، ويحتمل بالإناث الأنفس المعبودة (١٠) من دون الله على سبيل العموم (١١).

﴿إلا شيطانا:﴾ جنيا كافرا متمردا وهو إبليس لعنه الله (١٢).

ويحتمل أن النفي الثاني نفي المستثنى المثبت من قبل على سبيل التحقيق واعتبار الأصل كقوله: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون (١٣)﴾ إلا أنفسهم [البقرة:٩]،

---

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم ٢/ ٤١٨، والكشاف ١/ ٥٦٥، ومجمع البيان ٣/ ١٩٠.

(٢) في ب: ولقوله. والحديث في مجمع الزوائد ٧/ ٢٢١، وكشف الخفاء ١/ ٦٧ و ٢/ ٤٧٠.

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٢٣٣/١

(٣) في ب: فخذلانه، وهو تحريف.

(٤) يقتضيها السياق.

(٥) في الآية ٤٨ من هذه السورة.

(٦) ينظر: تفسير الطبري ٥/ ٣٧٧، والتبيان في تفسير القرآن ٣/ ٣٣٠,

(7) في ب: النذير.

(٨) في ك وع: أيضا.

(٩) في الأصل: الصحراء والخشب، بدل (الصخر أو الخشب).

(١٠) في الأصل وك وع: المعهودة.

(١١) ينظر: معاني القرآن الكريم ٢/ ١٩١ - ١٩٢، والتبيان في تفسير القرآن ٣/ ٣٣١، وزاد المسير ٢/ ١٩٣.

(١٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٢/ ١٠٨، وتفسير البغوي ١/ ٤٨١، وزاد المسير ٢/ ١٩٣.

(١٣) النسخ الثلاث: يخادعون.." [١]

"فكانت تصيب هودا والذين معه بردا وسلاما (١)، والريح تقلع الصخور العظام من رؤوس الجبال فتطير بها في الهواء ثم ترضخهم بها فتذوب أجسادهم وعظامهم. وكان ابتداء الريح يوم الأربعاء، فلم يبق إلى الأربعاء (٢) الآخر غير الخلجان، فأقبل إليه هود عليه السلام آخذا (٣) بعضادتي الفج ورأسه مع قلة الجبل وقال: أيها العاتي **المتمرد** (٤) الجبار تب إلى الله فارجع عن غيك فإنما هو يومك، قال: فهل ربك محيي أصحابي إن آمنت؟ قال: لا يحييهم ولكن يبارك في الباقين، قال: أفيقيدني من ملائكته؟ قال: إن الله لا يقيد أهل معصيته من أهل طاعته (٥)، قال الخلجان: فلنا أسوة بمن هلك ولا أحب أن أظهر استكانة لربك.

وعن ابن سلام أن الرمل بالأحقاف كانت صخورا فصارت بتلك الريح رملا، وتلا قوله تعالى: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه (٦)﴾ إلا جعلته كالرميم (٤٢) [الذاريات:٤٢].

قال ابن عباس: أرسل الله (٧) عليهم من الريح مقدار خاتم، ولو أرسل أكثر لأهلك الأرض كلها (٨)، والريح ريح دبور.

وخلت ديار اليمن عن الأهل إلى أن سير نمرود إليها قحطان بن عابر، أخا لام وفالغ ابني (٩) عابر، فتزوج

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٥٢٦/١

امرأة من العماليق فولدت له يعرب وجرهم وغيرهما، فعاد أخوال ولد قحطان أخوال ولد إسماعيل عليه السلام، وتحول هود عليه السلام (١١٨ و) إلى حضرموت بعد هلاك قومه، ثم هاجر إلى مكة وتوفي بها عليه السلام، وبالأحقاف من شحر (١٠) قبر يقال:
هو قبر هود عليه السلام (١١). وبقي في الأرض من عاد بقايا إلى أن حاربهم يوشع بن نون بالشام وجرهم في الحرم، وكان فرعون منهم من أولاد الوليد بن الريان (١٢).

٦٨ - ﴿ناصح أمين:﴾ أي: أهل لأن تأمنوني ولا تتهموني (١٣)، وقيل (١٤): أمين عند الله

---

(١) مكانها في ب: وسل لنا.
(٢) في ك: الأربع، وبعدها في ب: الجلجان، بدل (الخلجان)، وكذا ترد فيها قريبا.
(٣) في الأصل وع وب: أخذ.
(٤) في ك: المتهمر، وهو تحريف، وبعدها (تب) ساقطة من ب.
(٥) في ك: معصيته.
(٦) (أتت عليه) ليس في ب.
(٧) ليس في ب.
(٨) ينظر: التخويف من النار ١٠١.
(٩) النسخ الأربع: ابنا، والصواب ما أثبت.
(١٠) في ك وع: شجر. والشحر: ساحل اليمن بينها وبين عمان، ينظر: غريب الحديث للحربي ١/ ٢٨٧، والصحاح ٢/ ٦٩٤ (شحر)، ولب اللباب في تحرير الأنساب ١٥١.
(١١) (إلى حضرموت. . . السلام) ليس في ب.
(١٢) في ب: الزياد.
(١٣) ينظر: الكشاف ٢/ ١١٧، والبحر المحيط ٤/ ٣٢٧.
(١٤) ينظر: تفسير الطبري ٨/ ٢٨٠.." [1]

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٦٧١/١

"في دينه، وقيل (١): أمين عندكم قبل الدعوة.

٦٩ - (الآلاء): النعماء، واحدها (٢) ألى وإلى.

٧٠ - وقوله: ﴿قالوا أجئتنا﴾ يدل على أن الدعوة (٣) كانت مؤخرة إلى أن مات الآباء على الكفر وانتشأت الذرية عليه (٤).

٧١ - ﴿قد وقع:﴾ «وجب» (٥).
﴿أسماء:﴾ مسميات التي نحتوها (٦) ونصبوها آلهة وأربابا من عند أنفسهم (٧).
وفي الآية دلالة أن الاسم الحقيقي معنى ذووي وإلا لما تبر (٨) الله تعالى من تسميتها بالأسماء الأعلام والحروف المصطلحة الجارية مجرى الألقاب.

٧٣ - ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾ (٩): عن ابن عباس أن مهلك ثمود كان في ملك نمرود بن كنعان بن جم، بعد ما ظهر إبراهيم، وذلك بعد مهلك عاد بعد خمس مئة عام.
وقصتهم فيما يروى أنهم حذوا حذو عاد في التمرد والطغيان والإشراك بالله، فبعث الله تعالى إليهم صالحا وهو ابن أربعين سنة، فكان يدعوهم إلى دين الله، يقف عليهم في مجالسهم ويهجم عليهم في أعيادهم، ويذكرهم آلاء الله ونعماءه إلى أن شمط (١٠)، فلم يقبلوا منه وشكوه إلى رئيس عشيرته ليسلم لهم اغتياله أو يهاجره وينابذه ويكون (١١) معهم في معاداته فلم يفعل.
وأنهم خرجوا ذات يوم إلى عيد لهم على سفح جبل لهم قالوا لصالح عليه السلام: إن أحببت أن نؤمن بك (١٢) فأخرج لنا من هذه الصخرة الصماء (١٣) ناقة كوماء ذات عرف وناصية، فاستحيا صالح أن يسأل الله تعالى ما يتمنونه حتى جاءته عزمة من الله تعالى وأذن له في السؤال

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٤، والتبيان في تفسير القرآن ٤/ ٤٤٣.
(٢) ساقطة من ب. وينظر: تفسير الطبري ٨/ ٢٨١، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/ ٣٤٨، ومعاني القرآن الكريم ٣/ ٤٩.
(٣) (الآلاء. . . الدعوة) ليس في ك.

(٤) ينظر: الكشاف ٢/ ١١٧.

(٥) الوجيز ١/ ٤٠٠، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٠، والقرطبي ٧/ ٢٣٧.

(٦) في ع: لحقوها.

(٧) ينظر: الوجيز ١/ ٤٠٠، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٠، ومجمع البيان ٤/ ٢٨٧.

(٨) في ع: تبرأ.

(٩) ينظر في قصة صالح عليه السلام وثمود: تفسير الطبري ٨/ ٢٩١ - ٣٠٠، والبغوي ٢/ ١٧٥ - ١٧٩، والبداية والنهاية ١/ ١٥٠ - ١٦٠.

(١٠) الشمط: بياض شعر الرأس يخالط سواده، وقد شمط، بالكسر، يشمط شمطا، لسان العرب ٧/ ٣٣٦ (شمط).

(١١) مكانها في ب: وأن يكون.

(١٢) في ك: لك.

(١٣) في ك: الصخراء.." [١]

"أيام (١) أظنها يوم دبار، وهو [يوم] (٢) الأربعاء، ويوم مؤنس، وهو الخميس، والعروبة، وهي الجمعة، ثم يصبحكم (٣) العذاب يوم شيار، وهو السبت، فكان (٤) كما قال. وهاجر صالح إلى مكة، وقبره بها في المسجد الحرام بين زمزم والمقام على ما يروى. ولم ينزل ديار ثمود أحد (٥) إلى اليوم فهي موحشة، وبئرها معطلة، وفي بيوتهم المنقورة في الجبال عظام كعظام الفيلة والجمال، إذا أرادت العرب أن تجتاز تلك الديار رفعت الزاد والماء، وسدت أفواه الإبل لئلا ترتعي من حشيش ذلك الوادي.

﴿هذه ناقة الله:﴾ (ذه): إشارة إلى المؤنث، وهي في الأصل: ذي، فأبدلت الياء هاء ثم زيدت بإشباع (٦) الهاء عند الحركة.

(الناقة): الأنثى من الإبل (٧).

٧٤ - ﴿خلفاء من بعد عاد:﴾ وكانت قد استولت على الناس كلهم، فلما درجوا تفردت ثمود في تلك النواحي بالعدد والشوكة (٨).

و (السهل): ضد الحزن من الأرض (٩).

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٦٧٢/١

و (القصر): كالحصن (١٠).

(النحت): أخذ وجه الحجر والخشبة (١١) ونحوهما. وهذا تنبيه على تسوية سقوفها وجدرانها إن شاء الله، أو لأنها كانت على وجه الأرض كالبيوت المبنية ولم تكن الأرض كالأخاديد.

٧٧ - (عقروا): قتلوا البعير (١٢).

﴿وعتوا:﴾ تمردوا وطغوا (١٣).

---

(١) مكررة في ب.

(٢) من ك.

(٣) في الأصل وع: تصيحكم.

(٤) في ب: وهو.

(٥) في ع: أحدا، وهو خطأ.

(٦) في الأصل وك وع: بالإشباع.

(٧) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٤/ ٤٤٩.

(٨) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٤/ ٤٥٠، والتفسير الكبير ١٤/ ١٦٣.

(٩) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٤/ ٤٥٠، وزاد المسير ٣/ ١٥٣.

(١٠) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٤/ ٤٥٠.

(١١) في ع: والحشية. وينظر: لسان العرب ٢/ ٩٧.

(١٢) ينظر: تفسير البغوي ٢/ ١٧٤، ومجمع البيان ٤/ ٢٩٢، وزاد المسير ٣/ ١٥٣.

(١٣) ينظر: التفسير الكبير ١٤/ ١٦٥، وتفسير القرطبي ٧/ ٢٤١.." [١]

"السوس. وعن عطاء أنها دابة لها سن تأكل شعور النساء. وقيل: هي الحلمة (١).

وقال الأحمر: واحدة القمل قملة، وقال الفراء: لا واحد لها (٢).

ثم عادوا إلى عادتهم الخبيثة فابتلاهم الله بالضفادع، خرجت إليهم من البحر وزاحمتهم في مجالسهم ومضاجعهم، كان الرجل منهم (٣) يستيقظ فيجد على سريره ذراعا من الضفادع بعضها فوق بعض،

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١/٦٧٤

والضفدع: الذي صوته النقيق (٤)، فشكوا إلى موسى فأمات الله الضفادع، فقال (٥) لموسى عليه السلام (٦): خلينا بني إسرائيل فاذهب بهم حيث شئت مجردين ولا تذهب بأموالهم ومواشيهم، (١٢٣ ظ) قال موسى عليه السلام: أمرني الله أن أخرج بهم وبأموالهم ولا أخلف لهم بقرة ولا حمارا ولا فضة ولا ذهبا، قالوا: والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل، فابتلاهم الله بإحالة مياههم دما، فكانت عيونهم وأنهارهم دما وأنهار بني إسرائيل صافية عذبة، فاستقوا من أنهار بني إسرائيل فصار الماء في أوانيهم دما، فركب فرعون إلى أنهارهم وأمر أناسا من قومه ليخوضوا في أنهار بني إسرائيل ويكرعوا في الماء فإذا الماء ينقلب في أفواههم دما، فكلف أناسا من بني إسرائيل ليسقوا أناسا من قومه بأفواههم فكان الماء إذا خرج من فم الإسرائيلي إلى فم القبطي صار دما، وماتت الأبكار من كل شيء، فعجز فرعون وحلف بأيمانه لموسى (٧) ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك [بني] إسرائيل﴾ [الأعراف: ١٣٤]، فدعا موسى فصرف الله ذلك عنهم، فلم يزد فرعون إلا تمردا وعنادا (٨).

وكانت المهلة بين كل عذابين (٩) شهرين شهرين، وقيل: شهرا واحدا، وقيل: أسبوعا (١٠).

١٣٤ - ﴿عهد:﴾ العهد: الشريطة (١١).

١٣٥ - ﴿كشفنا عنهم الرجز إلى أجل:﴾ أي: على سبيل التمهيل والإرجاء (١٢)،٧

---

(١) في ب: الحكمة. والحلمة: القرادة الصغيرة، وقيل: الكبيرة، والجمع: الحلم، ينظر: لسان العرب ١٢/ ١٤٦ (حلم).

(٢) ينظر: تفسير الطبري ٩/ ٤٥.

(٣) ساقطة من ع.

(٤) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٤/ ٥٢١، وتفسير القرطبي ٧/ ٢٧٠.

(٥) في ع: وقال.

(٦) (فأمات. . . السلام) ليس في ب.

(٧) ليس في ع.

(٨) ينظر: تفسير البغوي ٢/ ١٩٢ - ١٩٣، والكشاف ٢/ ١٤٧ - ١٤٨.

(٩) في ك: عذاب.

(١٠) ينظر: زاد المسير ٣/ ١٧٠.

(١١) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٤/ ٥٢٣.

(١٢) (على سبيل التمهيل والإرجاء) ساقطة من ب. وينظر: الكشاف ٢/ ١٤٨، والبحر المحيط ٤/ ٣٧٤.." [(١)]

"﴿هلم:﴾ كلمة دعوة، قيل: أصلها هل الاستفهام والأمر من أم يؤم. (١)

١٩ - ﴿أشحة:﴾ الظاهر أنه الشح يمنع الموالاة والنصر. (٢) وذكر الكلبي: أنه يمنعهم النفقة عن إخوانهم الذين كانوا في المعسكر.

﴿تدور أعينهم:﴾ في حماليقهم.

﴿كالذي يغشى عليه من الموت:﴾ للدهش والحيرة.

﴿سلقوكم:﴾ سلخوكم، تقول: سلقته بالسوط، وسلقت اللحم عن العظم، ومنه السلاق وهو يقشر جلد اللسان، ولكنه مستعار في الجهر بالقول السيئ ورفع الصوت، ومنه خطيب مسلاق، (٣) وفي الحديث: «ليس منا سلق أو حلق» (٤)، وفي الحديث: «لعن الله السالقة» (٥).

﴿حداد﴾ (٦): جمع حديد، وهو ذا (٧) الحدة.

٢٠ - ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا:﴾ في الذين خبتوا (٨) عن القتال، ولم يصدقوا المؤمنين في انهزام الأحزاب. (٩)

﴿وإن يأت الأحزاب:﴾ مرة أخرى (١٠).

يود (١١) هؤلاء المنافقون أن يكونوا متميزين (١٢) عنكم.

﴿لو أنهم بادون في الأعراب يسئلون:﴾ يستخبرون الناس.

﴿عن أنبائكم:﴾ كالأجانب.

٢١ - ﴿أسوة:﴾ قدوة، والتأسي: الاقتداء. (١٣)

---

(١) ينظر: مفردات القرآن الكريم ٥٧٧، والزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ٨٧، ولسان العرب ١٢/ ٦١٩.

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٦٩٣/١

(٢) ينظر: تفسير السمعاني ٤/ ٢٦٨.

(٣) ينظر: الغريبين ٣/ ٩١٩.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٣٦٩، وأبو داود في السنن (٣١٣٠)، والنسائي في الصغرى ٤/ ٢٠، وابن حبان في الصحيح (٣١٥١).

(٥) ينظر: غريب الحديث للجوزي ١/ ٤٩٣، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٩١، ولفظ الحديث في كتب الحديث: «إن الله بريء من السالقة. .» أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٦٢٤) وغيره.

(٦) ع: وزاد.

(٧) ع: ذو.

(٨) أي: أفسدوا الناس عن القتال. ينظر: لسان العرب ٢/ ٢٨.

(٩) ينظر: مجمع البيان ٨/ ١٠٨، والدر المنثور ٦/ ٥١٣.

(١٠) ع: أخر. وينظر: تفسير الثعلبي ٨/ ٢٢، وتفسير البيضاوي ٤/ ٢٢٨، وتفسير أبي السعود ٧/ 79.

(١١) في قوله تعالى: يودوا لو أنهم بادون.

(١٢) ع: متمردين.

(١٣) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ٢٥، ولسان العرب ١٤/ ٣٥.." [١]

"والشيطان: المتمرد العاتي من الجن والإنس ومن كل شيء وأصله البعد، يقال بئر شطون أي: بعيدة العمق. سمي الشيطان شيطانا لامتداده في الشر وبعده من الخير. وقال مجاهد: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين ﴿قالوا إنا معكم﴾ أي: على دينكم ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه بما نظهر من الإسلام.

قرأ أبو جعفر مستهزؤن ويستهزؤن وقل استهزوا وليطفوا وليواطوا ويستنبونك وخاطين وخاطون ومتكن ومتكون فمالون والمنشون بترك الهمزة فيهن

﴿الله يستهزئ بهم﴾ أي يجازيهم جزاء استهزائهم سمي الجزاء باسمه لأنه في مقابلته كما قال الله تعالى "وجزاء سيئة سيئة مثلها" (٤٠-الشورى) قال ابن عباس: هو أن يفتح لهم باب من الجنة فإذا انتهوا إليه سد عنهم، وردوا إلى النار وقيل هو أن يضرب للمؤمنين نور يمشون على الصراط فإذا وصل المنافقون إليه حيل بينهم وبين المؤمنين كما قال الله تعالى: "وحيل بينهم وبين ما يشتهون" (٥٤-سبأ) قال الله تعالى:

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٤٥٦/٢

"فضرب بينهم بسور له باب" الآية (١٣-الحديد) وقال الحسن معناه الله يظهر المؤمنين على نفاقهم ﴿ويمدهم﴾ يتركهم ويمهلهم والمد والإمداد واحد، وأصله الزيادة إلا أن المد أكثر ما يأتي في الشر والإمداد في الخير قال الله تعالى في المد "ونمد له من العذاب مدا" (٧٩-مريم) وقال في الإمداد "وأمددناكم بأموال وبنين" (٦-الإسراء) "وأمددناهم بفاكهة" (٢٢-الطور) ﴿في طغيانهم﴾ أي في ضلالتهم وأصله مجاوزة الحد. ومنه طغى الماء ﴿يعمهون﴾ أي يترددون في الضلالة متحيرين

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أي ما ربحوا في تجارتهم أضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها كما تقول العرب: ربح بيعك وخسرت صفقتك ﴿وما كانوا مهتدين﴾ الضلالة، وقيل مصيبين في تجارتهم

﴿مثلهم﴾ شبههم، وقيل: صفتهم. والمثل: قول سائر في عرف الناس يعرف به معنى الشيء وهو أحد أقسام القرآن السبعة ﴿كمثل الذي﴾ يعني الذين بدليل سياق الآية. ونظيره "والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون" (٣٣-الزمر) ﴿استوقد﴾ أوقد ﴿نارا فلما أضاءت﴾ النار ﴿ما حوله﴾ أي حول المستوقد. وأضاء: لازم ومتعد يقال أضاء الشيء بنفسه وأضاءه غيره وهو هاهنا متعد ﴿ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ قال ابن عباس وقتادة ومقاتل والضحاك والسدي نزلت في المنافقين.

يقول: مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف فبينا هو كذلك إذا طفيت ناره فبقي في ظلمة طائفا متحيرا فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم فذلك نورهم فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. وقيل: ذهاب نورهم في القبر. وقيل: في القيامة حيث يقولون للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم. وقيل: ذهاب نورهم بإظهار عقيدتهم على لسان النبي صلى الله عليه وسلم فضرب النار مثلا ثم لم يقل." (١)

"هذه الآية نزلت في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله إني شيخ متهتك (١) في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصي جرأة على الله، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله هربا، وإني لنادم تائب مستغفر فما حالي؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا (١١٧) لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٦٨/١

مفروضا (١١٨) ﴾

قوله تعالى: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا﴾ نزلت في أهل مكة، أي: ما يعبدون، كقوله تعالى: "وقال ربكم ادعوني" (غافر - ٦٠) أي: اعبدوني، بدليل قوله تعالى: "إن الذين يستكبرون عن عبادتي" (غافر - ٦٠) ، قوله: ﴿من دونه﴾ أي: من دون الله، ﴿إلا إناثا﴾ أراد بالإناث الأوثان لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث، فيقولون: اللات والعزى ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أنثى بني فلان فكان في كل واحدة منهن شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم، ولذلك قال: ﴿وإن يدعون إلا شيطانا﴾ هذا قول أكثر المفسرين. يدل على صحة هذا التأويل -أن المراد بالإناث الأوثان -: قراءة ابن عباس رضي الله عنه ﴿إن يدعون من دونه إلا أثنا﴾ جمع جمع الوثن فصير الواو همزة (٢) ، وقال الحسن وقتادة: إلا إناثا أي: مواتا لا روح فيه، لأن أصنامهم كانت من الجمادات، سماها إناثا لأنه يخبر عن الموات، كما يخبر عن الإناث، ولأن الإناث أدون الجنسين، كما أن الموات أرذل من الحيوان، وقال الضحاك: أراد بالإناث الملائكة، وكان بعضهم يعبدون الملائكة ويقولون: الملائكة إناث، كما قال الله تعالى: "وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا" (الزخرف -١٩) ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ أي: وما يعبدون إلا شيطانا مريدا لأنهم إذا عبدوا الأصنام فقد أطاعوا الشيطان، والمريد: المارد، وهو **المتمرد** العاتي الخارج عن الطاعة، وأراد: إبليس.

﴿لعنه الله﴾ أي: أبعده الله من رحمته، ﴿وقال﴾ يعني: قال إبليس، ﴿لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ أي: حظا معلوما، فما أطيع فيه إبليس فهو مفروضه، وفي بعض التفاسير: من كل ألف واحد لله تعالى وتسعمائة وتسعة وتسعون لإبليس، وأصل الفرض في اللغة: القطع، ومنه الفرضة في

---

(١) في ب: (منهمك) .

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٩ / ٢١٠، معاني القرآن للفراء: ١ / ٢٨٨ - ٢٨٩.." [١]

"ابن عباس: المرة الأولى دار الدنيا، يعني لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا في الدنيا قبل مماتهم، كما قال: "ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه" (الأنعام، ٢٨) ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ قال عطاء: نخذلهم وندعهم في ضلالتهم يتمادون.

﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ فرأوهم عيانا، ﴿وكلمهم الموتى﴾ بإحيائنا إياهم فشهدوا لك بالنبوة كما سألوا، ﴿وحشرنا﴾ وجمعنا، ﴿عليهم كل شيء قبلا﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر " قبلا " بكسر القاف

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٢/٢٨٨

وفتح الباء، أي معاينة، وقرأ الآخرون بضم القاف والباء، هو جمع قبيل، وهو الكفيل، مثل رغيف ورغف، وقضيب وقضب ١٢٣\أأي: ضمناء وكفلاء، وقيل: هو جمع قبيل وهو القبيلة، أي: فوجا فوجا، وقيل: هو بمعنى المقابلة والمواجهة، من قولهم: أتيتك قبلا لا دبرا إذا أتاه من قبل وجهه، ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ ذلك، ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١١٢) ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون (١١٣) ﴾

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا﴾ أي: أعداء فيه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم، يعني كما ابتليناك بهؤلاء القوم، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء، ثم فسرهم فقال: ﴿شياطين الإنس والجن﴾ قال عكرمة والضحاك والسدي والكلبي: معناه شياطين الإنس التي مع الإنس، وشياطين الجن التي مع الجن، وليس للإنس شياطين، وذلك أن إبليس جعل جنده فريقين فبعث فريقا منهم إلى الإنس وفريقا منهم إلى الجن، وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولأوليائه، وهم الذين يلتقون في كل حين، فيقول [شيطان] (١) الإنس [لشيطان] الجن: أضللت صاحبي بكذا فأضل صاحبك بمثله، وتقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك وحي بعضهم إلى بعض.

قال قتادة ومجاهد والحسن: إن من الإنس شياطين كما أن من الجن شياطين، والشيطان: العاتي **المتمرد** من كل شيء، قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز من إغوائه ذهب إلى **متمرد** من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه، يدل عليه ما روي عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس"؟ فقلت: يا رسول الله وهل للإنس من شياطين؟

---

(١) في الأصل "شياطين" في الموضعين.." (١)

"ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه" (١) .

ثم جمعهم الله عز وجل في الثواب فقال: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ قرأ ابن كثير: ﴿من تحتها الأنهار﴾ ، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة، ﴿خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾ .

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١٧٩/٣

﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم (١٠١) ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون﴾ وهم من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار، كانت منازلهم حول المدينة، يقول: من هؤلاء الأعراب منافقون، ﴿ومن أهل المدينة﴾ أي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون، ﴿مردوا على النفاق﴾ أي: مرنوا على النفاق، يقال: تمرد فلان على ربه أي: عتا، ومرد على معصيته، أي: مرن وثبت عليها واعتادها. ومنه: المريد والمارد. قال ابن إسحاق: لجوا فيه وأبوا غيره.

وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا.

﴿لا تعلمهم﴾ أنت يا محمد، ﴿نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين﴾ اختلفوا في هذين العذابين.

قال الكلبي والسدي: قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال: "اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان. أخرج ناسا من المسجد وفضحهم، فهذا هو العذاب الأول. والثاني: عذاب القبر" (٢) .

وقال مجاهد: الأول: القتل والسبي، والثاني: عذاب القبر. وعنه رواية أخرى: عذبوا بالجوع مرتين.

وقال قتادة: الدبيلة في الدنيا وعذاب القبر.

وقال ابن زيد: الأولى المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، والأخرى عذاب الآخرة.

وعن ابن عباس: الأولى إقامة الحدود عليهم، والأخرى عذاب القبر.

وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسبة ثم عذاب القبر.

وقيل: إحداهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والأخرى عذاب القبر.

وقيل: الأولى إحراق مسجدهم، مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم (٣) . ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ أي: إلى عذاب جهنم يخلدون فيه.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لو كنت متخذا خليلا ..." : ٧ / ٢١، ومسلم في فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، برقم (٢٥٤١) : ٤ / ١٩٦٧-١٩٦٨، والمصنف في شرح السنة ١٤ / ٦٩.

(٢) أخرجه الطبري من رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس: ١٤ / ٤٤١-٤٤٢، وعزاه الهيثمي للطبراني في الأوسط أيضا، وقال: فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي وهو ضعيف. انظر: مجمع

الزوائد: ٧ / ٣٤.
(٣) انظر هذه الأقوال في: الطبري: ١٤ / ٤٤١-٤٤٥، الدر المنثور: ٤ / ٢٧٤. قال الطبري رحمه الله: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين ولم يضع لنا دليلا يوصل به إلى علم صفة ذينك العذابين - وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم. وليس عندنا علم بأي ذلك من أي. غير أن في قوله جل ثناؤه: "ثم يردون إلى عذاب عظيم"، دلالة على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر".." (١)

"﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا (٢) ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا (٣) وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا (٤) ﴾

قوله عز وجل ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا﴾ بأن لا ﴿تتخذوا من دوني وكيلا﴾ ربا وكفيلا.

قرأ أبو عمرو "لا يتخذوا" بالياء لأنه خبر عنهم والآخرون: بالتاء يعني: قلنا لهم لا تتخذوا. ﴿ذرية من حملنا﴾ قال مجاهد: هذا نداء يعني: يا ذرية من حملنا، ﴿مع نوح﴾ في السفينة فأنجيناهم من الطوفان، ﴿إنه كان عبدا شكورا﴾ كان نوح عليه السلام إذا أكل طعاما أو شرب شرابا أو لبس ثوبا قال: الحمد لله فسمي عبدا شكورا (١) أي كثير الشكر. قوله عز وجل: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ الآيات. روى سفيان بن سعيد الثوري عن منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) "إن بني إسرائيل لما اعتدوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس

---

(١) أخرجه ابن جرير: ١٥ / ١٩ عن سلمان، ومجاهد، وقتادة وغيرهما، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: ٢ / ٣٦٠ وذكر السيوطي جملة أخبار في ذلك، انظر: الدر المنثور: ٥ / ٢٣٦-٢٣٧، وأخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها". وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم -في حديث الشفاعة- قال: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ... -وفيه-:

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٨٩/٤

فيأنون نوحا فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، فاشفع لنا إلى ربك" وذكر الحديث بكماله.

(٢) أخرجه الطبري، انظر: التفسير: ١٥ / ٢٢-٤٣، تاريخ الطبري: ١ / ٥٣٢-٥٥٧، الدر المنثور: ٥ / ٢٤٣-٢٤٤. وهذه الروايات الكثيرة التي ساقها المصنف رحمه الله في هؤلاء المسلطين على بني إسرائيل، من الإسرائيليات والموضوعات، وفيها من العجائب والغرائب والمبالغات ما لا يصدق، وفيها ما يحتمل الصدق أيضا، وقد نقل ابن جرير كثيرا منها عن ابن إسحاق، وواضح أن ابن إسحاق يذكر صراحة اسم أهل الكتاب، وأنهم يقولون كذا ... أو عندهم كذا ... ، ونحن في غنية عن هذه الروايات جميعها. ونضع هنا كلمة قيمة للحافظ ابن كثير -رحمه الله- تعقيبا على هذه الروايات، قال: "وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة،: أنه "جالوت" وجنوده.. وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل "سنجاريب" وجنوده. وعنه أيضا: أنه "بختنصر" ملك بابل. وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حال إلى حال إلى أن ملك البلاد ... ". ثم قال ابن كثير: "وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا -وهو الحديث الذي ساقه البغوي هنا- وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث. والعجب كل العجب، كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي -رحمه الله- بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب". ثم قال مشيرا إلى سائر الروايات الأخرى: "وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، ولم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله عنهم: أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير بسنده عن سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دما يغلي على كبا، فسألهم ما هذا الدم.. فقتل على ذلك الدم سبعين ألفا من المسلمين وغيرهم فسكن، وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم. وجرت أمور

وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته، والله أعلم". وانظر أيضا: الإسرائيليات والموضوعات للشيخ محمد أبو شهبة ص (٣٢٧-٣٣٤) .." [(١)]

"وقيل: الشجرة الملعونة هي: التي تلتوي على الشجر فتجففه يعني الكشوث (١) .

﴿ونخوفهم فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغيانا كبيرا﴾ أي: **تمردا** وعتوا عظيما.

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا (٦١) قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا (٦٢) قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (٦٣) واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (٦٤) ﴾

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا﴾ أي: خلقته من طين أنا جئت به وذلك ما روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن الله تعالى بعث إبليس حتى أخذ كفا من تراب الأرض من عذبها وملحها فخلق منه آدم فمن خلقه من العذب فهو سعيد وإن كان ابن كافرين ومن خلقه من الملح فهو شقي وإن كان ابن نبيين (٢) . ﴿قال﴾ يعني: إبليس ﴿أرأيتك﴾ أي: أخبرني والكاف لتأكيد المخاطبة ﴿هذا الذي كرمت علي﴾ أي: فضلته علي ﴿لئن أخرتني﴾ أمهلتني ﴿إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته﴾ أي: لأستأصلنهم بالإضلال يقال: احتنك الجراد الزرع إذا أكله كله وقيل هو من قول العرب حنك الدابة يحنكها: إذا شد في حنكها الأسفل حبلا يقودها أي: لأقودنهم كيف شئت وقيل لأستولين عليهم بالإغواء ﴿إلا قليلا﴾ يعني المعصومين الذين استثناهم الله عز وجل في قوله: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" (الحجر-٤٢) . ﴿قال﴾ الله: ﴿اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ أي: جزاءك وجزاء أتباعك ﴿جزاء موفورا﴾ وافرا مكملا يقال: وفرته أوفره وفرا. وقوله: ﴿واستفزز﴾ واستخفف واستجهد ﴿من استطعت منهم﴾ أي: من ذرية آدم

---

(١) ذكره ابن الجوزي: (٥ / ٥٦) عن ابن عباس أيضا: وانظر فيما سبق تفسير الآية (٢٦) من سورة إبراهيم: ٤ / ٣٤٨ تعليق (٦) .

(٢) أخرجه الطبري: ١٥ / ١١٦ عن ابن عباس موقوفا.." [(٢)]

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٦٧/٥

(٢) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١٠٤/٥

"﴿قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى (٢١) واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى (٢٢) لنريك من آياتنا الكبرى (٢٣) اذهب إلى فرعون إنه طغى (٢٤) قال رب اشرح لي صدري (٢٥) ﴾

﴿قال خذها﴾ بيمينك، ﴿ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ هيئتها الأولى، أي: نردها عصا كما كانت، وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيدان، فلما قال الله تعالى: خذها، لف طرف المدرعة على يده، فأمره الله تعالى أن يكشف يده فكشف.

وذكر بعضهم: أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له ملك: أرأيت لو أذن الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئا؟ قال: لا ولكني ضعيف، ومن ضعف خلقت، فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا هي عصا كما كانت، ويده في شعبتها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ (١) .

قال المفسرون: أراد الله عز وجل أن يري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق لئلا ١١/ب يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون.

وقوله: ﴿سيرتها الأولى﴾ نصب بحذف "إلى"، يريد: إلى سيرتها الأولى. قوله تعالى: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أي: إبطك، قال مجاهد: تحت عضدك، وجناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه. ﴿تخرج بيضاء﴾ نيرة مشرقة، ﴿من غير سوء﴾ من غير عيب والسوء هاهنا بمعنى البرص. قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر، ﴿آية أخرى﴾ أي: دلالة أخرى على صدقك سوى العصا. ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ ولم يقل الكبر لرءوس الآي. وقيل: فيه إضمار، معناه: لنريك من آياتنا الكبرى، دليله قول ابن عباس: كانت يد موسى أكبر آياته. قال تعالى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: جاوز الحد في العصيان **والتمرد**، فادعه إلى عبادتي. ﴿قال﴾ موسى: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ وسعه للحق، قال ابن عباس: يريد حتى لا أخاف غيرك، وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده، وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة فرعون وحده، فسأل الله أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أن أحدا لا يقدر على مضرته إلا بإذن الله، وإذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده.

---

(١) انظر التعليق السابق.." (١)

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٢٧٠/٥

"غزوة ٢٣/ب بني المصطلق ليلا فنادى [منادي] (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطي حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأها عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدرا، والناس ما بين باك أو جالس حزين متفكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله عز وجل لآدم قم فابعث بعث النار من ولدك، فيقول آدم: من كل كم؟ فيقول الله عز وجل: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد في الجنة، قال: فكبر ذلك على المسلمين وبكوا وقالوا: فمن ينجو إذا يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشروا وسددوا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانتا في قوم إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ثم قال: إني لأرجو [أن تكونوا] (٢) ثلث أهل الجنة، فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة، وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفا، ثمانون منها أمتي، وما المسلمون في الكفار إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة، بل كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود. ثم قال: ويدخل من أمتي سبعون ألفا الجنة بغير حساب، فقال عمر: سبعون ألفا؟ قال: نعم ومع كل واحد سبعون ألفا، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت منهم، فقام رجل من الأنصار فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبقك بها عكاشة" (٣) .

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد (٣) كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير (٤) يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (٥) ﴾

قوله عز وجل: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ نزلت في النضر بن الحارث (٤) كان كثير الجدل، وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث وإحياء من صار ترابا.

قوله تعالى: ﴿ويتبع﴾ أي: يتبع في جداله في الله بغير علم، ﴿كل شيطان مريد﴾ والمريد: **المتمرد** المستمر في الشر. ﴿كتب عليه﴾ قضي على الشيطان، ﴿أنه من تولاه﴾ اتبعه ﴿فأنه﴾ يعني الشيطان،

(١) ساقط من "أ".

(٢) ساقط من "أ".

(٣) أخرجه الترمذي: ٩ / ١٢ -١٣ حتى قوله: في ذراع الدابة، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والإمام أحمد ٤ / ٤٣٥ حتى قوله: أو الرقمة في ذراع الدابة، والحاكم: ٢ / ٣٨٥، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف ص ١١٢ للثعلبي والبغوي، ثم قال: وأما آخره فلم أره.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٦ / ٨ لابن أبي حاتم.." [١]

"﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون (٧٥) ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون (٧٦) حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون (٧٧) وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٧٨) وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون (٧٩) وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون (٨٠) ﴾

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر﴾ قحط وجدوبة ﴿للجوا﴾ تمادوا، ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ ولم ينزعوا عنه. ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم القحط، فجاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال أنشدك الله والرحم، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط، فدعا فكشف عنهم، فأنزل الله هذه الآية (١) ﴿فما استكانوا لربهم﴾ أي: ما خضعوا وما ذلوا لربهم، وأصله طلب السكون، ﴿وما يتضرعون﴾ أي: لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضوا على **تمردهم**. ﴿حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد﴾ قال ابن عباس: يعني القتل يوم بدر. وهو قول مجاهد، وقيل: هو الموت. وقيل: هو قيام الساعة، ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ آيسون من كل خير. ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع﴾ أي: أنشأ لكم الأسماع ﴿والأبصار والأفئدة﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا، ﴿قليلا ما تشكرون﴾ أي: لم تشكروا هذه النعم. ﴿وهو الذي ذرأكم﴾ خلقكم، ﴿في الأرض وإليه تحشرون﴾ تبعثون. ﴿وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان، قال الفراء: جعلهما مختلفين، يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض، ﴿أفلا تعقلون﴾ ما ترون من صنعة فتعتبرون.

---

(١) تفسير البغوي – طيبة البغوي ، أبو محمد ٣٦٥/٥

(١) انظر الطبري: ١٨ / ٤٥، أسباب النزول للواحدي ص ٣٦٢ - ٣٦٣، الدر المنثور: ٦ / ١١١، الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل بن هادي ص ١٠٠.." (١)

"يوم من سفر فصنع طعاما فدعا الناس ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله" فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه، وكان عقبة صديقا لأبي بن خلف، فلما أخبر أبي بن خلف قال له: يا عقبة صبأت؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدا إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة، فقال عليه السلام: "لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف" فقتل عقبة يوم بدر صبرا. وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد بيده (١)

وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه في وجهه فاحترق خداه، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت (٢) . وقال الشعبي (٣) كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة، فقال أمية: وجهي من وجهك حرام أن بايعت محمدا، فكفر وارتد، فأنزل الله عز وجل: "ويوم يعض الظالم" يعني: عقبة بن أبي معيط بن عبد شمس بن مناف "على يديه" ندما وأسفا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالمعصية والكفر بالله بطاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه. قال عطاء: يأكل يديه حتى تبلغ مرفقيه ثم تنبتان، ثم يأكل هكذا، كلما نبتت يده أكلها تحسرا على ما فعل. ﴿يقول يا ليتني اتخذت﴾ في الدنيا، ﴿مع الرسول سبيلا﴾ ليتني اتبعت محمدا صلى الله عليه وسلم، واتخذت معه سبيلا إلى الهدى. قرأ أبو عمرو: "يا ليتني اتخذت" بفتح الياء، والآخرون بإسكانها.

﴿يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا (٢٨) لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا (٢٩) ﴾

﴿يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا﴾ يعني: أبي بن خلف. ﴿لقد أضلني عن الذكر﴾ عن الإيمان والقرآن، ﴿بعد إذ جاءني﴾ يعني: الذكر مع الرسول، ﴿وكان الشيطان﴾ وهو كل متمرد عات من الإنس والجن، وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان. ﴿للإنسان خذولا﴾ أي: تاركا يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء

(١) تفسير البغوي – طيبة البغوي ، أبو محمد ٤٢٥/٥

والعذاب، وحكم هذه الآية عام في حق كل متحابين اجتمعا على معصية الله.

---

(١) أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في "الدلائل" بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. الدر المنثور: ٦ / ٢٥٠، الفتح السماوي للمناوي: ٢ / ٨٨٠، أسباب النزول للواحدي ص (٣٨٥) .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص (٣٨٦) ، القرطبي: ١٣ / ٢٦.

(٣) أسباب النزول ص (٣٨٥) ، الطبري: ١٩ / ٨ باختصار.." [1]

"﴿وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (١٠) فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب (١١) ﴾

﴿وحفظا﴾ أي: وحفظناها حفظا ٩٤/ب ﴿من كل شيطان مارد﴾ **متمرد** يرمون بها. ﴿لا يسمعون﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وحفص: "يسمعون" بتشديد السين والميم، أي: لا يتسمعون، فأدغمت التاء في السين، وقرأ الآخرون بسكون السين خفيف الميم، ﴿إلى الملإ الأعلى﴾ أي: إلى الكتبة من الملائكة.

و"الملأ الأعلى" هم الملائكة لأنهم في السماء، ومعناه: أنهم لا يستطيعون الاستماع إلى الملأ الأعلى، ﴿ويقذفون﴾ يرمون، ﴿من كل جانب﴾ من آفاق السماء بالشهب. ﴿دحورا﴾ يبعدونهم عن مجالس الملائكة، يقال: دحره دحرا ودحورا، إذا طرده وأبعده، ﴿ولهم عذاب واصب﴾

دائم، قال مقاتل: دائم إلى النفخة الأولى، لأنهم يحرقون ويتخبلون. ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة، ﴿فأتبعه﴾ لحقه، ﴿شهاب ثاقب﴾

كوكب مضيء قوي لا يخطئه يقتله، أو يحرقه أو يخبله، وإنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه طمعا في السلامة ونيل المراد، كراكب البحر، قال عطاء: سمي النجم الذي يرمى به الشياطين ثاقبا لأنه يثقبهم.

﴿فاستفتهم﴾ أي: سلهم، يعني: أهل مكة، ﴿أهم أشد خلقا أم من خلقنا﴾ يعني: من السموات والأرض والجبال، وهذا استفهام بمعنى التقرير، أي: هذه الأشياء أشد خلقا كما قال: "لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس" (غافر -٥٧) وقال: "أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها" (النازعات -٢٧) .

وقيل: "أم من خلقنا" يعني: من الأمم الخالية، لأن "من" يذكر فيمن يعقل، يقول: إن هؤلاء ليسوا بأحكم

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٨١/٦

خلقا من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بذنوبهم فما الذي يؤمن هؤلاء من العذاب؟ ثم ذكر خلق الإنسان، فقال:

﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ يعني: جيد حر لاصق يعلق باليد، ومعناه اللازم، أبدل الميم باء كأنه يلزم اليد. وقال مجاهد والضحاك: منتن.." (١)

"العادات، معلوم عند الناس، خصوصا عند العرب في جاهليتهم وما كان قائما بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له. مساق هذه الآية بخلاف ما سيقت له أول قصة المنافقين فليس بتكرير، لأن تلك في بيان مذهبهم والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكذيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين وإيهامهم أنهم معهم، فإذا فارقوهم إلى شطار دينهم صدقوهم ما في قلوبهم. وروى أن عبد الله بن أبى وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم «١» نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الله:

انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبى بكر فقال: مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحبا بسيد بنى عدى الفاروق القوى في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد على فقال: مرحبا بابن عم رسول الله وختنه سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا فقال لأصحابه: كيف رأيتمونى فعلت؟ فأثنوا عليه خيرا، فنزلت.

ويقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريبا منه، وهو جارى ملاقى ومراوقى. وقرأ أبو حنيفة: وإذا لاقوا.

وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت معه. ويجوز أن يكون من «خلا» بمعنى: مضى، وخلاك ذم: أى عداك ومضى عنك. ومنه: القرون الخالية، ومن «خلوت به» إذا سخرت منه. وهو من قولك: خلا فلان بعرض فلان يعبث به. ومعناه: وإذا أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدثوهم بها. كما تقول: أحمد إليك فلانا، وأذمه إليك. وشياطينهم: الذين ماثلوا الشياطين في **تمردهم**. وقد جعل سيبويه نون الشيطان في موضع من كتابه أصلية، وفي آخر زائدة. والدليل على أصالتها قولهم: تشيطن، واشتقاقه من «شطن» إذا بعد لبعده من الصلاح والخير. ومن «شاط» إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة. ومن أسمائه الباطل.

---

(١) تفسير البغوي – طيبة البغوي ، أبو محمد ٣٥/٧

(١) . أخرجه الواحدي في الأسباب من رواية السدى الصغير. ومحمد بن مروان، عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما. قال: «نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبى وأصحابه. وذلك أنهم خرجوا ذات يوم» فذكره وفي آخره «فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فنزلت» . ومحمد بن مروان متروك متهم بوضع الحديث وسياقه في غاية النكارة.." [1]

"إلا الفاسقون إلا **المتمردون** من الكفرة. وعن الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره. وعن ابن عباس رضى الله عنه: قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها «١» فنزلت. واللام في: (الفاسقون) للجنس والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب أوكلما الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا. وقرأ أبو السمال بسكون الواو على أن الفاسقون بمعنى الذين فسقوا، فكأنه قيل: وما يكفر بها إلا الذين فسقوا، أو نقضوا عهد الله مرارا كثيرة. وقرئ عوهدوا وعهدوا واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا. وكم عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفوا (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) . والنبذ الرمي بالذمام «٢» ورفضه. وقرأ عبد الله نقضه فريق منهم وقال فريق منهم، لأن منهم من لم ينقض بل أكثرهم لا يؤمنون بالتوراة وليسوا من الدين في شيء، فلا يعدون نقض المواثيق ذنبا ولا يبالون به كتاب الله يعنى التوراة، لأنهم بكفرهم برسول الله المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها. وقيل: كتاب الله القرآن، نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول. كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك «٣» . يعنى أن علمهم بذلك رصين، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم، مثل لتركهم وإعراضهم عنه، مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه. وعن الشعبي: هو بين أيديهم يقرءونه، ولكنهم نبذوا العمل به. وعن سفيان: أدرجوه في الديباج والحرير وحلوه بالذهب، ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠٢]

واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٥/١

ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون (١٠٢)

---

(١) . أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق. حدثني محمد بن أبى محمد حدثني سعيد بن جبير عنه بهذا.

(٢) . قوله «بالذمام» في الصحاح: الذمام الحرمة. (ع)

(٣) . قوله «لا يدخلهم فيه شك» لعله علما لا يدخلهم فيه شك. (ع)." [١]

"ثم جاءكم رسول مصدق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته. وقيل: أصله لمن ما، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميما بإدغامها في الميم، فحذفوا إحداها فصارت لما.

ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى إصري عهدى.

وقرئ: أصرى، بالضم. وسمى إصرا، لأنه مما يؤصر، أى يشد ويعقد. ومنه الإصار، الذي يعقد به. ويجوز أن يكون المضموم لغة في أصر، كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصار فاشهدوا فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار وأنا على ذلكم من إقراركم وتشاهدكم من الشاهدين وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل:

الخطاب للملائكة فمن تولى بعد ذلك الميثاق والتوكيد فأولئك هم الفاسقون أى **المتمردون** من الكفار دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة. والمعنى: فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره (أ) يتولون فغير دين الله يبغون وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث أن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل. وروى: أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال صلى الله عليه وسلم: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم» «١» فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فنزلت: وقرئ: يبغون، بالياء: وترجعون، بالتاء وهي قراءة أبى عمرو، لأن الباغين هم المتولون، والراجعون جميع الناس. وقرئا بالياء معا، وبالتاء معا طوعا بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه وكرها بالسيف، أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بنى إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت «٢» فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٧١/١

بالله وحده. وانتصب طوعا وكرها على الحال، بمعنى طائعين ومكرهين

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨٤ الى ٨٥]
قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (٨٤) ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (٨٥)
أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان، فلذلك وحد الضمير

---

(١) . لم أجد له إسنادا، وذكره الواحدي في الأسباب أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما.
(٢) . قوله «والإشفاء على الموت» أى الاشراف، كما في الصحاح. (ع)." [١]

"تلك آيات الله الواردة في الوعد والوعيد نتلوها عليك ملتبسة بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه وما الله يريد ظلما فيأخذ أحدا بغير جرم، أو يزيد في عقاب مجرم، أو ثواب محسن. ونكر ظلما وقال للعالمين على معنى ما يريد شيئا من الظلم لأحد من خلقه، فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح «١» والرضا بها.

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٠ الى ١١١]
كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠) لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون (١١١)
«كان» عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ، ومنه قوله تعالى: (وكان الله غفورا رحيما) ومنه قوله تعالى كنتم خير أمة كأنه قيل: وجدتم خير أمة، وقيل: كنتم في علم الله خير أمة. وقيل: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة، موصوفين به أخرجت أظهرت، وقوله تأمرون كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة، كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم وتؤمنون بالله جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيمانا بالله، لأن من

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣٨٠/١

آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنه غير مؤمن بالله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا) والدليل عليه قوله تعالى ولو آمن أهل الكتاب مع إيمانهم بالله لكان خيرا لهم لكان الإيمان خيرا لهم مما هم عليه، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبا للرئاسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين منهم المؤمنون كعبد الله بن سلام وأصحابه وأكثرهم الفاسقون **المتمردون** في الكفر لن يضروكم إلا أذى

---

(١) . قوله «فسبحان من يحلم عمن يصفه بارادة القبائح» يريد أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف. (ع) [.....]." (١)

"[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٠]

ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير (١٨٠)

(ولا تحسبن) من قرأ بالتاء قدر مضافا محذوفا، أى ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيرا لهم. وكذلك من قرأ بالياء وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله، أو ضمير أحد. ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان المفعول الأول عنده محذوفا تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم هو خيرا لهم والذي سوغ حذفه دلالة (يبخلون) عليه، وهو فصل. وقرأ الأعمش بغير هو سيطوقون تفسير لقوله هو شر لهم أى سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق. وفي أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة، إذا جاء بهنة يسب بها ويذم. وقيل: يجعل ما بخل به من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة، تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول: أنا مالك. وعن النبي صلى الله عليه وسلم في مانع الزكاة «يطوق بشجاع أقرع «١» » وروى بشجاع أسود. وعن النخعي سيطوقون بطوق من نار ولله ميراث السماوات والأرض أى وله ما فيها مما يتوارثه أهلها من مال وغيره فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله. ونحوه قوله: (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وقرئ (بما تعملون بالتاء والياء فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد والياء على الظاهر.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١/٤٠٠

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٨١ الى ١٨٢]

لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق (١٨١) ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (١٨٢)

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا، فلا يخلو إما أن يقولوه عن اعتقاد لذلك، أو عن استهزاء بالقرآن، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر إلا عن **متمردين** في كفرهم. ومعنى سماع الله له: أنه لم يخف عليه، وأنه أعد له كفاءه من العقاب سنكتب ما قالوا في صحائف الحفظة. أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب فإن قلت: كيف قال: (لقد سمع الله) ثم قال: (سنكتب) وهلا قيل: ولقد كتبنا؟ قلت: ذكر وجود

---

(١) . متفق عليه من حديث أبى هريرة رفعه «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل ماله بشجاع أقرع له زبيبتان بطوقه يوم القيامة» .." [١]

"وإن جعل كلاما معترضا فلا محل له. فإن قلت: من أين علما أنهم غالبون؟ قلت: من جهة إخبار موسى بذلك. وقوله تعالى كتب الله لكم وقيل، من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله في نصرة رسله، وما عهدا من صنع الله لموسى في قهر أعدائه، وما عرفا من حال الجبابرة.

والباب: باب قريتهم لن ندخلها نفى لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد المؤيس.

وأبدا تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاول. وما داموا فيها بيان للأبد فاذهب أنت وربك يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب «١» ولكن كما تقول: كلمته فذهب يجيبنى، تريد معنى الإرادة والقصد للجواب، كأنهم قالوا: أريدا قتالهم. والظاهر أنهم قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء، وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرة. والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم ويحكى أن موسى وهرون عليهما السلام خرا لوجوههما قدامهم لشدة ما ورد عليهما، فهموا برجمهما. ولأمر ما قرن الله اليهود بالمشركين وقدمهم عليهم في قوله تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤٤٦/١

قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٥) قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين (٢٦)

لما عصوه **وتمردوا** عليه وخالفوه وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق به إلا هرون قال رب إني لا أملك لنصرة دينك «٢» إلا نفسي وأخي وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة

---

(١) . قال محمود: «يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب ولكن ... الخ» قال أحمد رحمه الله: يريد الزمخشري سألوا رؤية الله جهرة وهي محال عقلا تعنتا منهم. وقد مر له ذلك، وبينا ان تلبسهم بذلك كان لعدم فهم الايمان به على التعيين اقتراحا وتقاعسا عن الحق في قوله: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)
.

(٢) . عاد كلامه. قال محمود: «قال رب إنى لا أملك لنصرة دينك إلا نفسي ... الخ» قال أحمد: وفي قول موسى عليه الصلاة والسلام ليلة الاسراء لنبينا عليه الصلاة والسلام: إنى جربت بنى إسرائيل وخبرتهم، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فان أمتك لا تطيق ذلك. وتكريره هذا القول مرارا مصداق لما ذكره الزمخشري. وأما إن كان المراد بالرجلين غير يوشع وكالب- وكانا من العماليق الذين خافهم بنو إسرائيل- ويكون معنى يخافون أى يخافهم بنو إسرائيل- فالضمير على هذا يرجع إلى بنى إسرائيل، والعائد محذوف وهو المفعول. فعلى هذا لا شك أن هذين الرجلين ليسا من بنى إسرائيل المكتوب عليهم قتال العمالقة. وإنما عنى موسى عليه السلام: إنى لا أملك من بنى إسرائيل المفروض عليهم القتال أمر أحد إلا نفسي وأخى، والله أعلم.." [1]

"والتوضيح، وأريد بإجرائها التعريض باليهود، وأنهم بعداء من ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم في القديم والحديث، وأن اليهودية بمعزل منها. وقوله: الذين أسلموا للذين هادوا مناد على ذلك والربانيون والأحبار والزهاد والعلماء من ولد هارون، الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود بما استحفظوا من كتاب الله بما سألهم أنبياؤهم حفظه من التوراة، أى بسبب سؤال أنبيائهم إياهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل.

و (من) في: (من كتاب الله) للتبيين وكانوا عليه شهداء رقباء لئلا يبدل. والمعنى يحكم بأحكام التوراة

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٢١/١

النبيون بين موسى وعيسى، وكان بينهما ألف نبى وعيسى للذين هادوا يحملونهم على أحكام التوراة لا يتركونهم أن يعدلوا عنها، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حملهم على حكم الرجم وإرغام أنوفهم، وإبائه عليهم ما اشتهوه من الجلد. وكذلك حكم الربانيون والأحبار والمسلمون بسبب ما استحفظهم أنبياؤهم من كتاب الله والقضاء بأحكامه، وبسبب كونهم عليه شهداء. ويجوز أن يكون الضمير في: (استحفظوا) للأنبياء والربانيين والأحبار جميعا ويكون الاستحفاظ من الله، أى كلفهم الله حفظه وأن يكونوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس نهى للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإدهانهم «١» فيها وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد من القرباء والأصدقاء ولا تشتروا ولا تستبدلوا ولا تستعيضوا (بآيات الله) وأحكامه ثمنا قليلا وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس، كما حرف أحبار اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبة في الدنيا وطلبا للرئاسة فهلكوا ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون: وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهانة. **وتمردوا** بأن حكموا بغيرها. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن الكافرين والظالمين والفاسقين: أهل الكتاب.

(١) . قوله «وادهانهم فيها» في الصحاح: المداهنة- كالمصانعة. والادهان مثله. (ع)." [1]

"يعنى بذنب التولي عن حكم الله وإرادة خلافه، فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك وأراد أن لهم ذنوبا جمة كثيرة العدد، وأن هذا الذنب مع عظمه بعضها وواحد منها، وهذا الإيهام لتعظيم التولي واستسرافهم في ارتكابه. ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد:

أو يرتبط بعض النفوس حمامها «١»

أراد نفسه: وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام، كأنه قال: نفسا كبيرة، ونفسا أى نفس، فكما أن التنكير يعطى معنى التكبير وهو معنى البعضية، فكذلك إذا صرح بالبعض لفاسقون **المتمردون** في الكفر معتدون فيه، يعنى أن التولي عن حكم الله من **التمرد** العظيم والاعتداء في الكفر.

[سورة المائدة (٥) : آية ٥٠]

أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (٥٠)

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٣٧/١

أفحكم الجاهلية يبغون فيه وجهان، أحدهما: أن قريظة والنضير طلبوا إليه أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى: وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم «القتلى بواء» فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك «٢» فنزلت: والثاني: أن يكون تعبيرا لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم، وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل، لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحى من الله تعالى: وعن الحسن: هو عام في كل من يبغى غير حكم الله: والحكم حكمان: حكم بعلم فهو حكم الله، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان. وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض، فقرأ هذه الآية: وقرئ: تبغون، بالتاء والياء: وقرأ السلمى: أفحكم الجاهلية يبغون، برفع الحكم على الابتداء، وإيقاع يبغون خبرا وإسقاط الراجع عنه كإسقاطه عن الصلة في: (أهذا الذي بعث الله رسولا) وعن الصفة في: الناس رجلان: رجل أهنت، ورجل أكرمت. وعن الحال في «مررت بهند يضرب زيد» وقرأ قتادة (أفحكم الجاهلية) على أن هذا الحكم الذي يبغونه إنما

---

(١) .

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

للبيد بن ربيعة من معلقته. يقول: أنا كثير ترك الأمكنة إذا لم أرض الاقامة بها. أو يربط ويحتبس بعض النفوس، يعنى نفسه «حمامها» أى موتها المقدر لها فإذا رضيتها أو احتبسني الموت فيها فكيف أتركها؟ فقوله «يرتبط» بالجزم، عطف على المجزوم قبله. وقيل «أو» بمعنى «إلا» لكن كان حقه النصب حينئذ. ولعله سكن للضرورة. وكما أن التنوين يفيد معنى التعظيم، فكذلك كل ما فيه إبهام كالبعضية هنا، فعبر عن نفسه ببعض النفوس دلالة على التعظيم.

بل ربما ادعى أنها كل النفوس مبالغة.

(٢) . لم أجده هكذا، وفي ابن أبى شيبة من طريق الشعبي قال: كان بين حيين من العرب قتال- فذكر قصة فيها: فارتفعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «القتلى بواء» أى سواء.." [١]

"روى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فنزلت. يعنى أن اتخاذهم دينكم هزوا ولعبا لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء والشنآن والمنابذة. وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار- وإن كان اهل الكتاب من

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٤١/١

الكفار- إطلاقا للكفار على المشركين خاصة. والدليل عليه قراءة عبد الله: ومن الذين أشركوا. وقرئ: والكفار بالنصب والجر. وتعضد قراءة الجر قراءة أبى:

ومن الكفار واتقوا الله في موالاة الكفار وغيرها إن كنتم مؤمنين حقا لأن الإيمان حقا يأبى موالاة أعداء الدين اتخذوها الضمير للصلاة أو للمناداة. قيل كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول «أشهد أن محمدا رسول الله» قال: حرق الكاذب، فدخلت خادمه بنار ذات ليلة وهو نائم، فتطايرت منها شرارة في البيت فاحترق البيت، واحترق هو «١» وأهله. وقيل: فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده لا يعقلون لأن لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة، فكأنه لا عقل لهم.

[سورة المائدة (٥) : آية ٥٩]

قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون (٥٩) قرأ الحسن. هل تنقمون بفتح القاف. والفصيح كسرها. والمعنى هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكتب المنزلة كلها وأن أكثركم فاسقون. فإن قلت: علام عطف قوله وأن أكثركم فاسقون؟ قلت: فيه وجوه: منها أن يعطف على أن آمنا، بمعنى: وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين **تمردكم** وخروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أى واعتقاد أنكم فاسقون. ومنها أن يعطف على المجرور، أى وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأن أكثركم فاسقون. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أى وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم

---

(١) . أخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدى في قوله، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا، قال:

كان رجل من النصارى ... فذكره.." [1]

"وكانوا خمسة آلاف رجل، ما فيهم امرأة ولا صبى ذلك بما عصوا أى لم يكن ذلك اللعن الشنيع الذي كان سبب المسخ، إلا لأجل المعصية والاعتداء، لا لشيء آخر، ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله كانوا لا يتناهون لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر فعلوه ثم قال لبئس ما كانوا يفعلون للتعجيب من سوء

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١/٦٥٠

فعلهم، مؤكدا لذلك بالقسم، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهى عن المناكير، وقلة عبثهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب. فان قلت: كيف وقع ترك التناهى عن المنكر «١» تفسيرا للمعصية والاعتداء؟ قلت: من قبل أن الله تعالى أمر بالتناهي، فكان الإخلال به معصية وهو اعتداء، لأن في التناهى حسبما للفساد فكان تركه على عكسه. فإن قلت: ما معنى وصف المنكر بفعلوه، ولا يكون النهى بعد الفعل؟

قلت: معناه لا يتناهون عن منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله، كما ترى أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتهيأ فتنكر. ويجوز أن يراد: لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه، بل يصبرون عليه ويداومون على فعله. يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع منه وتركه ترى كثيرا منهم هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين ويصافونهم أن سخط الله عليهم هو المخصوص بالذم، ومحله الرفع، كأنه قيل: لبئس زادهم إلى الآخرة سخط الله عليهم. والمعنى: موجب سخط الله. ولو كانوا يؤمنون إيمانا خالصا غير نفاق ما اتخذوا المشركين أولياء يعنى أن موالاة المشركين كفى بها دليلا على نفاقهم، وأن إيمانهم ليس بإيمان ولكن كثيرا منهم فاسقون **متمردون** في كفرهم ونفاقهم. وقيل معناه: ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون، ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون.

---

(١) . قال محمود: «إن قلت كيف وقع ترك التناهي ... الخ» ؟ قال أحمد: وفي هذا التوبيخ الاخبار بأمرين قبيحين، أحدهما: بأنهم كانوا يفعلون المناكر، والآخر: أنهم كانوا تاركين للنهى عنها، أى عن أمثالها في المستقبل ولولا زيادة (فعلوه) لما صرح بوقوعها منهم، ولكان المصرح به ترك النهى عن المنكر عند استحقاق النهى، وذلك حين الاشراف على تعاطيه وظهور الأمارات الدالة عليه، فانتظم ثبوت الأمرين جميعا على أخصر وجه وأبلغه وقد دلت هذه الآية على المذهب الصحيح الأشعرى، من أن متعلق النهي فعل وهو الترك، خلافا لأبى هاشم المعتزلي في قوله «إن متعلقه نفى محض وعدم صرف، ووجه دلالة الآية على أن متعلقه فعل أنه عبر عن ترك التناهى الذي وقع توبيخهم عليه بالفعل، حيث قال: (لبئس ما كانوا يفعلون) أى لبئس الترك للتناهي فعلا، كما تقول: زيد بئس الرجل، فتجعل الرجل واقعا على زيد. وقد سمى تركهم للنهى عن المنكر في الآية السالفة قبل هذه صنعا، فقال: (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) إلى قوله: (لبئس

ما كانوا يصنعون) وذلك أبلغ في الدلالة على أن متعلق النهى أمر ثابت، إذ الصنع أمكن من الفعل في الدلالة على الإثبات، وقد مر هذا التقرير، والله الموفق.." (١)

"مثلا لمن اتبع ما يوحى إليه. ومن لم يتبع. أو لمن ادعى المستقيم وهو النبوة، والمحال وهو الإلهية أو الملكية أفلا تتفكرون فلا تكونوا ضالين أشباه العميان. أو فتعلموا أنى ما ادعيت ما لا يليق بالبشر. أو فتعلموا أن أتباع ما يوحى إلى مما لا بد لي منه. فإن قلت: أعلم الغيب ما محله من الإعراب؟ قلت: النصب عطفا على قوله عندي خزائن الله، لأنه من جملة المقول كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول.

[سورة الأنعام (٦) : آية ٥١]

وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون (٥١)

وأنذر به الضمير راجع إلى قوله ما يوحى إلي والذين يخافون أن يحشروا إما قوم داخلون في الإسلام مقرون بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل «١» فينذرهم بما يوحى إليه لعلهم يتقون أى يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين. وإما أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث. وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار، دون **المتمردين** منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء. وقوله ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع في موضع الحال من يحشروا، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم، ولا بد من هذه الحال، لأن كلا

---

(١) . قال محمود: «الذين يخافون إما قوم آمنوا إلا أنهم مفرطون ... الخ» قال أحمد: وإنما كانت هذه الحال لازمة لو قيل: وأنذر به الذين يحشرون، لأنه لولا الحال لعم الأمر بالإنذار كل أحد والمقصود تخصيصه بالبعض.

وأما وقد قيل وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم فهذا الكلام مستقل برأسه. ومضمونه تخصيص الانذار المأمور به بالقوم الخائفين من البعث، إما لأنهم مقرون به. وإما لأنهم يحتاطون لأنفسهم فيحملهم الخوف على النظر المقضى إلى اليقين، دون العتاة المصممين على الجحد وليس كل خائف من البعث لا شفيع له، فان الموحدين أجمعين خائفون وهم مشفوع لهم، وإن عنى باللازمة التي لا ينفك ذو الحال عنها، كالتي في قوله وهو الحق مصدقا قائما هو حينئذ يبتنى على قاعدته في إنكار الشفاعة، فكل خائف

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٦٧/١

عنده لا شفيع له إذ لا يخاف إلا أصحاب الكبائر غير التائبين أو الكفار. والكل عنده سواء لا شفيع لهم. وحيث أثبتت الشفاعة، جعلها خاصة بزيادة الثواب، فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح، وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه. فهذا عنده لا يخاف من البعث، لأنه يستوجب الجنة. فمن ثم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان: غير مخالف، فلا تتناوله الآية.

وخائف، فذاك إنما خاف لأنه استوجب العقاب فلا شفاعة تناله. وهذه من دفائنه الخفية، ومكامنه المزوية، فتفطن لها، والله الموفق برحمته. [.....]." (١)

"به العصاة لا نخلفه، كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة. فلما عصوا وبغوا ألحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب. فإن كذبوك في ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة، وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جودا وكرما فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة لأهل طاعته ولا يرد بأسه مع سعة رحمته عن القوم المجرمين فلا تغتر برجاء رحمته عن خوف نقمته.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]

سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون (١٤٨) قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين (١٤٩)

سيقول الذين أشركوا إخبار بما سوف يقولونه، «١» ولما قالوه قال وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء يعنون بكفرهم وتمردهم «٢» . أن شركهم وشرك

---

(١) . قال محمود: «هذا إخبار بما سوف يقولونه ... الخ» قال أحمد: وفائدته توطين النفس على الجواب ومكافحتهم بالرد وإعداد الحجة قبل أوانها، كما قال سيقول السفهاء من الناس.

(٢) . عاد كلامه. قال: فلما وقع ذلك منهم قال وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء يعنون بكفرهم ... الخ» قال أحمد رحمه الله: قد تقدم أيضا الكلام على هذه الآية، وأوضحنا أن الرد عليهم، إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم، وأن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار، وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله ورسله بذلك، فرد الله قولهم وكذبهم في دعواهم عدم

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٢٦

الاختيار لأنفسهم، وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل وأشرك بالله واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة، ثم بين الله تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك، وأن الحجة البالغة له لا لهم بقوله فلله الحجة البالغة ثم أوضح تعالى أن كل شيء واقع بمشيئته، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون، بقوله فلو شاء لهداكم أجمعين والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد، وينصرف الرد إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة. وإذا تدبرت هذه وجدتها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة، بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها، وهم الفرقة المعروفون بالمجبرة. والمصنف يغالط في الحقائق فيسمى أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختيارا وقدرة، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية، مميزة بينها وبين أفعاله القسرية، فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة، ويجعله لقبا عاما لأهل السنة. وجماع الرد على المجبرة الذين ميزناهم عن أهل السنة في قوله تعالى سيقول الذين أشركوا- إلى قوله- قل فلله الحجة البالغة وتتمة الآية رد صراح على طائفة الاعتزال القائلين بأن الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين، فلم تقع من أكثرهم. ووجه الرد أن «لو» إذا دخلت على فعل مثبت نفته، فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال فلو شاء لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم، ولو شاءها لوقعت، فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحل عقدهم، فإذا ثبت اشتمال الاية على رد عقيدة الطائفتين المذكورتين المجبرة في أولها والمعتزلة في آخرها، فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها، فان أولها كما بينا يثبت للعبد اختيارا وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله في العبد، وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الالهية خيرا أو غيره، وذلك عين عقيدتهم، فإنهم كما يثبتون للعبد مشيئة وقدرة، يسلبون تأثيرها ويعتقدون أن ثبوتهما قاطع لحجته ملزم له بالطاعة على وفق اختياره، ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضا وقدرته في أفعال عباده، فهم كما رأيت تبع للكتاب العزيز، يثبتون ما أثبت، وينفون ما نفى، مؤيدون بالعقل والنقل، والله الموفق.." (١)

"ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق، لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا لا يراعوا حلفا. وقيل: قرابة. وأنشد لحسان رضى الله عنه:

لعمرك إن إلك من قريش ... كإل السقب من رأل النعام «١»

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٧٦

وقيل إلا إلها. وقرئ: إيلا، بمعناه. وقيل: جبرئيل، وجبرئيل، من ذلك. وقيل: منه اشتق الآل بمعنى القرابة، كما اشتقت الرحم من الرحمن، والوجه أن اشتقاق الإل بمعنى الحلف، لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، من الأول وهو الجؤار، وله أليل:

أى أنين يرفع به صوته. ودعت ألليها: إذا ولولت «٢» ، ثم قيل لكل عهد وميثاق: إل. وسميت به القرابة، لأن القرابة عقدت بين الرجلين مالا يعقده الميثاق يرضونكم كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد. وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل وأكثرهم فاسقون **متمردون** خلعاء لا مروءة تزعهم «٣» ، ولا شمائل مرضية تردعهم، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة، من التفادى عن الكذب والنكث، والتعفف عما يثلم العرض ويجر أحدوثة السوء.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩ الى ١٠]

اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون (٩) لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون (١٠)

اشتروا استبدلوا بآيات الله بالقرآن والإسلام ثمنا قليلا وهو اتباع الأهواء والشهوات فصدوا عن سبيله فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم. وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم هم المعتدون المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة.

[سورة التوبة (٩) : آية ١١]

فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون (١١)

---

(١) . لحسان بن ثابت. والال- بالكسر- الحلف والعهد والقرابة. والسقب: حوار الناقة. والرأل: ولد النعام. يقول: وحياتك إن قرابتك من قريش بعيدة أو معدومة، كقرابة ولد الناقة من ولد النعام. ويروى: كآل السيف. والوجه أنه تحريف.

(٢) . قوله «ودعت اليها إذا ولولت» في الصحاح: وأما قول الكميت يمدح رجلا:

وأنت ما أنت في غبراء مظلمة ... إذا دعت ألليها الكاعب الفضل

فيجوز أن يريد الألل، ثم ثنى كأنه يريد صوتا بعد صوت. اه (ع)
(٣) . قوله «لا مروءة تزعهم» أى تكفهم. اه صحاح (ع)." [١]

"فإن تابوا عن الكفر ونقض العهد فإخوانكم في الدين فهم إخوانكم على حذف المبتدإ، كقوله تعالى فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم. ونفصل الآيات ونبينها. وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم بعثا وتحريضا على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

[سورة التوبة (٩) : آية ١٢]

وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون (١٢)

وطعنوا في دينكم وثلبوه وعابوه فقاتلوا أئمة الكفر فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم: إشعارا بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تمردا وطغيانا وطرحا لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانا للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدم فيه، لا يشق كافر غبارهم. وقالوا: إذا طعن الدمى في دين الإسلام طعنا ظاهرا، جاز قتله، لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن، فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة إنهم لا أيمان لهم جمع يمين. وقرئ: لا إيمان لهم، أى لا إسلام لهم. أو لا يعطون الأمان بعد الردة والنكث، ولا سبيل إليه. فإن قلت: كيف أثبت لهم الأيمان في قوله وإن نكثوا أيمانهم ثم نفاها عنهم؟

قلت: أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال: لا أيمان لهم على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن يمين الكافر لا تكون يمينا. وعند الشافعي رحمه الله: يمينهم يمين. وقال: معناه أنهم لا يوفون بها، بدليل أنه وصفها بالنكث لعلهم ينتهون متعلق بقوله فقاتلوا أئمة الكفر أى ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سببا في انتهائهم عما هم عليه. وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد. فإن قلت: كيف لفظ أئمة؟ قلت: همزة بعدها همزة بين بين، أى: بين مخرج الهمزة والياء «١» . وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة، وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين. وأما التصريح بالياء فليس بقراءة. ولا يجوز أن تكون قراءة. ومن صرح بها فهو

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٢٥٠

لا حن محرف.

[سورة التوبة (٩) : آية ١٣]

ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين (١٣)

---

(١) . قوله «بين مخرج الهمزة والياء: لعله «مخرجي الهمزة والياء» . (ع)." [١]

"عند الله تعالى ذاهبا هباء لا ثواب له؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعا. وقوله طوعا أو كرها معناه طائعين من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين. وسمى الإلزام إكراها، لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقا عليهم كالإكراه. أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم، لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه، أو مكرهين من جهتهم. وروى أنها نزلت في الجد بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا مالى أعينك به فاتركنى إنكم تعليل لرد إنفاقهم. والمراد بالفسق:

التمرد والعتو.

[سورة التوبة (٩) : آية ٥٤]

وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون (٥٤)

أنهم فاعل منع. وهم، وأن تقبل: مفعولاه. وقرئ: أن تقبل، بالتاء والياء على البناء للمفعول. ونفقاتهم، ونفقتهم، على الجمع والتوحيد. وقرأ السلمى: أن يقبل منهم نفقاتهم، على أن الفعل لله عز وجل كسالى بالضم والفتح، جمع كسلان، نحو سكارى وغيارى، في جمع سكران وغيران، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثوابا، ولا يخشون بتركها عقابا فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين وقرأت في بعض الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره للمؤمن أن يقول: كسلت، كأنه ذهب إلى هذه الآية، فإن الكسل من صفات المنافقين، فما ينبغي أن يسنده المؤمن إلى نفسه. فإن قلت: الكراهية خلاف

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٢٥١

الطواعية، وقد جعلهم الله تعالى طائعين في قوله طوعا ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون. قلت: المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من رؤسائهم، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

[سورة التوبة (٩) : آية ٥٥]

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون (٥٥)

الإعجاب بالشيء: أن يسر به سرور راض به متعجب من حسنه. والمعنى: فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا، كقوله تعالى ولا تمدن عينيك فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب، بأن عرضه للتغنم والسبي، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف." (١)

"مصرين على النفاق غير تائبين منه. أو إن نعف عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستهزءوا فلم نعذبهم في العاجل، نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مستهزئين. وقرأ مجاهد: إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيث، والوجه التذكير، لأن المسند إليه الظرف، كما تقول: سير بالدابة، ولا تقول: سيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى، كأنه قيل: إن ترحم طائفة «فأنث لذلك وهو غريب، والجيد قراءة العامة: إن يعف عن طائفة، بالتذكير. وتعذب طائفة، بالتأنيث. وقرئ: إن يعف عن طائفة يعذب طائفة، على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٦٧ الى ٦٨]

المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون (٦٧) وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم (٦٨)

بعضهم من بعض أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم ويحلفون بالله إنهم لمنكم وتقرير

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/ ٢٨٠

قوله وما هم منكم ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين يأمرون بالمنكر بالكفر والمعاصي وينهون عن المعروف عن الإيمان والطاعات ويقبضون أيديهم شحا بالمبار والصدقات والإنفاق في سبيل الله نسوا الله أغفلوا ذكره فنسيهم فتركهم من رحمته وفضله هم الفاسقون هم الكاملون في الفسق الذي هو **التمرد** في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم، وإذا كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول كسلت «١» ، لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله كسالى

فما ظنك بالفسق خالدين فيها مقدرين الخلود هي حسبهم دلالة على عظم عذابها، وأنه لا شيء أبلغ منه، وأنه بحيث لا يزاد عليه، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ولعنهم الله وأهانهم من التعذيب، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة «٢» المكرمين ولهم عذاب مقيم ولهم نوع من العذاب سوى الصلى بالنار، مقيم دائم كعذاب النار. ويجوز أن يريد:

---

(١) . تقدم في أواخر البقرة.

(٢) . قوله «وألحقهم بالملائكة» مبنى على مذهب المعتزلة، من تفضيل الملك على البشر. (ع)." [١]

"أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط، حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في **التمرد** وانهماكهم في الغى فقل إنما الغيب لله أى هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به، يعنى أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو فانتظروا نزول ما اقترحتموه إني معكم من المنتظرين لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

[سورة يونس (١٠) : آية ٢١]

وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون (٢١)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٢٨٧

سلط الله ا‌لقحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه، و «إذا» الأولى للشرط، والآخرة جوابها وهي للمفاجأة، والمكر: إخفاء الكيد وطيه، من الجارية الممكورة المطوية الخلق. ومعنى مستهم خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم. فإن قلت: ما وصفهم بسرعة المكر، فكيف صح قوله أسرع مكرا؟ قلت: بلى دلت على ذلك كلمة المفاجأة، كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجئوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤسهم من مس الضراء، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم. والمعنى: أن الله تعالى دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام إن رسلنا يكتبون إعلام بأن ما تظنونه خافيا مطويا لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم. وقرئ: يمكرون، بالتاء والياء. وقيل: مكرهم قولهم سقينا بنوء كذا. وعن أبى هريرة: إن الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا «١» .

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٢٢ الى ٢٣]

هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٢٢) فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون (٢٣)

---

(١) . أخرجه إسحاق والطبري: والثعلبي من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم اليمنى عن أبى سلمة عن أبى هريرة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة أو ليمسيهم بها فيصبح بها قوم كافرون، يقولون:

مطرنا بنوء كذا وكذا» قال محمد فذكرت الحديث لسعيد بن المسيب فقال: ونحن سمعناه من أبى هريرة. ولمسلم من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا «قال الله تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق بها كافرين، يقولون: الكوكب وبالكوكب مطرنا» .." (١)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣٣٧/٢

"[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣١ الى ٣٣]
قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون (٣١) فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون (٣٢) كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون (٣٣)
قل من يرزقكم من السماء والأرض أى يرزقكم منهما جميعا، «١» لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته أمن يملك السمع والأبصار من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة. أو من يحميهما ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه ومن يدبر الأمر ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص أفلا تتقون أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال فذلكم إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله ربكم الحق الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه لمن حقق النظر فماذا بعد الحق إلا الضلال يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق وقع في الضلال فأنى تصرفون عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء كذلك مثل ذلك الحق حقت كلمة ربك أى كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق، فكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أى تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه، وأنهم لا يؤمنون بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الإيمان، وعلم الله منهم ذلك. أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان، وأن إيمانهم غير كائن. أو أراد بالكلمة: العدة بالعذاب، وأنهم لا يؤمنون تعليل، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]
قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون (٣٤) قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (٣٥)

---

(١) . قال محمود: «معناه أى من يرزقكم منهما جميعا ... الخ» قال أحمد: وهذه الآية كافحة لوجوه

القدرية الزاعمين أن الأرزاق منقسمة، فمنها ما رزقه الله العبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون.." (١)

"إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه- وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة- أنكرها في أول وهلة، واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب. فإن قلت:

ما معنى التوقع في قوله ولما يأتهم تأويله؟ قلت: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل «١» ، تقليدا للآباء. وكذبوه بعد التدبر، تمردا وعنادا، فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدى، ورازوا قواهم «٢» في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغيا وحسدا كذلك أى مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم يعنى قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا.

وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون. ويجوز أن يكون معنى ولما يأتهم تأويله ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أى عاقبته، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق، يعنى أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه ومنهم من يؤمن به يصدق به في نفسه، ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب. ومنهم من يشك فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال، أى: ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصر وربك أعلم بالمفسدين بالمعاندين، أو المصرين.

[سورة يونس (١٠) : آية ٤١]

وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون (٤١)

وإن كذبوك وإن تموا على تكذيبك «٣» ويئست من إجابتهم، فتبرأ منهم وخلقهم فقد أعذرت، كقوله تعالى فإن عصوك فقل إني بريء وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣٤٥/٢

ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون (٤٢) ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون (٤٣)

---

(١) . قال محمود: «معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ... الخ» قال أحمد: وكان التكذيب قبل الاحاطة بعلمه ربما يوهم عذرا ما للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تنحسم أعذارهم ويتحقق شقاؤهم، والله أعلم.

(٢) . قوله «ورازوا قواهم» أى جربوها وخبروها. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) . قوله «وإن تموا على تكذيبك» أى مضوا عليه ولم يرجعوا عنه، أفاده الصحاح. (ع)." [١]

"ربه من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا. وأما الثاني ففيه وجهان، أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعنى: ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة: أى غما وهما. والغم والغمة، كالكرب والكربة. والثاني أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره.

ومنها قوله عليه السلام «ولا غمة في فرائض الله» «١» أى لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعنى: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا «٢» عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهروننى به ثم اقضوا إلي ذلك الأمر الذي تريدون بى، أى: أدوا إلى قطعه وتصحيحه، كقوله تعالى وقضينا إليه ذلك الأمر أو أدوا إلى ما هو حق عليكم عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه ولا تنظرون ولا تمهلوني. وقرئ: ثم أفضوا إلى، بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إلى بشركم. وقيل هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أى أصحروا به إلى وأبرزوه لي فإن توليتم فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي فما سألتكم من أجر فما كان عندي ما ينفركم عنى وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم إن أجري إلا على الله وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أى: ما نصحتكم إلا لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا وأمرت أن أكون من المسلمين الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذي كل مسلم مأمور به. والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم **وتمردهم** لا غير فكذبوه فتموا على تكذيبه «٣» وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم في أولها، وذلك عند

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٣٤٨

مشارفة الهلاك بالطوفان وجعلناهم خلائف يخلفون الهالكين بالغرق كيف كان عاقبة المنذرين تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله، وتسلية له.

[سورة يونس (١٠) : آية ٧٤]
ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين (٧٤)
من بعده من بعد نوح رسلا إلى قومهم يعنى هودا وصالحا وإبراهيم ولوطا وشعيبا فجاؤهم بالبينات

---

(١) . هو طرف من حديث وائل بن حجر في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأقيال، وفيه: «ولا يوصم في الدين ولا غمة في فرائض الله» وقال: الغمة السترة، أى لا تستر في فرائض الله، بل ظاهر بها. [.....]
(٢) . قوله «مستورا عليكم» لعله أراد ملتبسا، فلذا قال عليكم، كما أشار إليه النسفي. (ع)
(٣) . قوله «فتموا على تكذيبه» أى استمروا. أفاده الصحاح. (ع)." [1]

"وسمعت من يقول: عزم السراج أن يطفأ، وطلب أن يطفأ. وإذا كان القول والنطق والشكاية والصدق والكذب والسكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعارة للجماد ولما لا يعقل، فما بال الإرادة؟ قال:
إذا قالت الأنساع للبطن الحق «١»
تقول سنى للنواة طنى
لا ينطق اللهو حتي ينطق العود «٢»
وشكا إلى بعبرة وتحمحم «٣»
فإن يك ظنى صادقا وهو صادقي «٤»

---

(١) . تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة ١٨١ من الجزء الأول فراجعه إن شئت اه مصححه.
(٢) .

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٣٦٠

فاستنطق العود قد طال السكوت به ... لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

لأبى نواس، شبه صوت العود على وجه الاستقامة والحسن بالنطق بالغناء على طريق التصريحية. أو شبه العود بإنسان على طريق المكنية والنطق تخييل، والسين والتاء للطلب، والسكوت ترشيح لذلك، لأنه ضد التكلف. والمراد بنطق اللهو زيادته وحسنه، فهو من باب المشاكلة، وهل هي حقيقة أو مجاز أو كنا ية أو قسم رابع؟ خلاف بين القوم بين في البيان.

(٣).

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

لعنترة بن شداد من معلقته، يصف فرسه بأنه ازور أى مال من وقوع الرماح بلبانه، وهو موضع اللبب من صدره، وشبهه بالعاقل على طريق المكنية والشكاية تخييل، والعبرة: البكاء. والحمحمة: صوت الصهيل يشبه الحنين، لو كان يعلم ما هي المحاورة والمخاطبة لاشتكى إلى وخاطبني حقيقة، وإنما يشكو إلى بالعبرة والتحمحم فقط.

وفسره بقوله: ولكان مكلما لي لو علم الكلام، وذلك مبالغة في شدة الحرب.

(٤).

لهفي على القوم الذين تجمعوا ... بذي السيد لم يلقوا عليا ولا عمرا

فان يك ظنى صادقا وهو صادقي ... بشملة يحبسهم بها محبسا وعرا

لكنز أم شملة بن برد المنقري، وذو السيد- بالكسر-: موضع المعركة، والسيد: الذئب. وقولها «وهو صادقي» اعتراض. وبشملة: متعلق بظنى. تقول: يا تلهفى على القوم الذين اجتمعوا في ذلك الموضع ولم يلاقهم أحد هذين الفارسين، فقتلوا بردا أبا شملة. فان يك ظنى به صادقا مع أن عادته يصدقني، يحبسهم شملة في تلك المعركة حبسا صعبا فيأخذ ثأر أبيه. ويجوز أن محبسا ظرف يدل من بها. وشبهت الظن بمن يصح منه الصدق في الخبر على طريق الكناية، والصدق تخييل لذلك. أو المعنى: فان يك ظنى مطابقا للواقع.." (١)

"ولما سكت عن موسى الغضب

تمرد مارد وعز الأبلق «١»

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٧٣٨/٢

ولبعضهم:

يأبى على أجفانه إغفاءه ... هم إذا انقاد الهموم تمردا»

أبت الروادف والثدى لقمصها ... مس البطون وأن تمس ظهورا «٣»

قالتا أتينا طائعين ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم، كان يجعل الضمير للخضر، لأن ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة، فتحمل ليرده إلى ما هو عنده أصح وأفصح، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز.

وانقض: إذا أسرع سقوطه، من انقضاض الطائر وهو يفعل، مطاوع قضضته. وقيل: افعل

---

(١) .

وقد قالت الزبا لحصن سموأل ... تمرد مارد وعز الأبلق

مارد: هو حصن دومة الجندل. والأبلق: حصن سموأل، قصدتهما الزبا ملكة الجزيرة فاستصعبا عليها، فقالت ذلك، وصار يضرب مثلا. وقوله: لحصن سموأل، أى: ولحصن دومة الجندل. تمرد: صار أملس ناعما، ومرد مردا ومرودة، إذا كان أملس لا شعر فيه والمكان لا نبات فيه، أو تمرد بمعنى تشيطن، وفعل أهله فعل المردة من الجن، فهو لا يستطيع أحد طلوعه. وعز إن كان مضارعه بضم العين كان متعديا بمعنى غالب، وإن كان بكسرها كان لازما بمعنى امتنع. والمعنى: أنها لم تقدر على بلوغ مرادها منهما لشجاعة أهلهما.

(٢) . للزمخشري. والهم: ما يهتم به، وهو فاعل. والاغفاء. النوم الخفيف، وهو مفعول، وذلك مجاز عن تسبب الهم في منع النوم. وانقياد الهموم: مجاز عن سكونها، وتمرد الهم مجاز عن تزايده وكثرة خطوره بالبال.

أو شبه الهموم بحيوانات يصح منها الانقياد والتمرد على طريق المكنية، والتمرد ضد الانقياد، وهما تخييل.

(٣) .

أبت الروادف والثدي لقمصها ... مس البطون وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشى تناوحت ... نبهن حاسدة وهجن غيورا

الاباء: المنع الاختياري فشبه الروادف والثدي لكبرها بمن يصح منه ذلك على طريق المكنية والاباء تخييل. والأقرب أنه مجاز مرسل، والمراد به مطلق المنع، والكلام بعد ذلك كناية عن نهود ثدييها وكبر رد فيها

وضمور خصريها. وفيه لف ونشر غير مرتب، لأن مس البطون يرجع للثدي، ومس الظهور يرجع للروادف. وعبر بالجمع عن غيره مجازا. أو اعتبر الأجزاء، فالتجوز في مفرد الجمع. والثدي بالتشديد: جمع ثدي بالتخفيف.

والقمص: جمع قميص. وتناوح الجبلان. تقابلا، فالمراد بالتناوح: التقابل، بحيث يجيء بعض الرياح من أمامها وبعضها من خلفها، فتظهر روادفها ونهودها وتلتصق الثياب بخصرها فيظهر ضموره، فتنبه الحاسدة لها، ويهيج الغيور لكراهة ذلك من الرياح. وهاج الشيء: هام، وهاجه: هيمه، وهيجه: هيمه. وما هنا من الوسط. ويجوز أنه شبه على طريق المكنية. أو شبه أصواتها اللينة بالتناوح على طريق التصريحية، ثم جعل ذلك كناية عن تقابلها لأنها إنما يكون لها أصوات إذا تقابلت فاضطربت، ومع: بمعنى في.." [1]

"أى: يتذكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق أو يخشى أن يكون الأمر كما تصفان، فيجره إنكاره إلى الهلكة.

[سورة طه (٢٠) : آية ٤٥]

قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (٤٥)

فرط: سبق وتقدم. ومنه الفارط: الذي يتقدم الواردة. وفرس فرط: يسبق الخيل، أى: نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها. وقرئ يفرط من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة. خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب «١» من شيطان، أو من جبروته واستكباره وادعائه الربوبية. أو من حبه الرياسة، أو من قومه القبط **المتمردين** الذين حكى عنهم رب العزة قال الملأ من قومه وقرئ: يفرط، من الإفراط في الأذية، أى: نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة. أو يجاوز الحد في معاقبتنا إن لم يعاجل، بناء على ما عرفا وجربا من شرارته وعتوه أو أن يطغى بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي، لجرأته عليك وقسوة قلبه. وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز: باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوه بالعظيمة.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٤٦ الى ٤٨]

قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى (٤٦) فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى (٤٧) إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٧٣٩

وتولى (٤٨)
معكما أى حافظكما وناصركما أسمع وأرى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما، فجائز أن يقدر أقوالكم وأفعالكم، وجائز أن لا يقدر شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر. وإذا كان الحافظ والناصر كذلك، تم الحفظ وصحت النصرة، وذهبت المبالاة بالعدو. كانت بنو إسرائيل في ملكة فرعون والقبط، يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة: من الحفر والبناء ونقل الحجارة، والسخرة في كل شيء، مع قتل الولدان، واستخدام النساء قد جئناك بآية من ربك جملة جارية من الجملة الأولى

---

(١) . قال محمود: «معنى يفرط علينا يعجل بعقوبتنا ... الخ» قال أحمد: وإذا روعي في الأدب إطلاق هذه اللفظة عن مجروريها، فلا يبعد أن يراعى في الأدب بالاعتراف بتقلد منة الله عز وجل زيادة المجرور في قوله اشرح لي صدري كما قدمته آنفا، والله أعلم.." [١]

"الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا، فيكون تقريعهم أشد. وتعييرهم أبلغ، وخجلهم أعظم:
وهو أنه ألزم، ويكون اقتصاص ذلك لطفا لمن سمعه، وزاجرا لمن اقتص عليه. والموالاة:
خلاف المعاداة. ومنها: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه. وهي مفاعلة من الولي وهو القرب، كما أن المعاداة من العدواء وهي البعد، والولي: يقع على الموالي والموالي جميعا. والمعنى أنت الذي نواليه من دونهم، إذ لا موالاة بيننا وبينهم، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم، لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك بل كانوا يعبدون الجن يريدون الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل:
صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت. فيعبدون بعبادتها. وقرئ: نحشرهم. ونقول، بالنون والياء.

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٤٢]
فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٦/٣

(٤٢)
الأمر في ذلك اليوم لله وحده، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد، لأن الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف، والناس فيها مخلى بينهم، يتضارون ويتنافعون. والمراد: أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو وحده، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله ونقول للذين ظلموا معطوفا على لا يملك.

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٤٣]
وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين (٤٣)
الإشارة الأولى: إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والثانية إلى القرآن. والثالثة: إلى الحق، والحق أمر النبوة كله ودين الإسلام كما هو. وفي قوله وقال الذين كفروا وفي أن لم يقل وقالوا، وفي قوله للحق لما جاءهم وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وفي لما من المبادهة بالكفر: دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد، وتعجيب من أمرهم بليغ، كأنه قال: وقال أولئك الكفرة **المتمردون** بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه إن هذا إلا سحر مبين فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على." [1]

"قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم بقوله تعالى وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء.
فإن قلت: ما الفرق بين معنى قوله ولا تزر وازرة وزر أخرى وبين معنى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء؟ قلت: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها، والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث، حتى أن نفسا قد أثقلها الأوزار وبهظتها، لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث، وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ. فإن قلت: إلام أسند كان في ولو كان ذا قربى؟
قلت: إلى المدعو المفهوم من قوله وإن تدع مثقلة. فإن قلت: فلم ترك ذكر المدعو؟ قلت: ليعم، ويشمل كل مدعو. فإن قلت: كيف استقام إضمار العام؟ ولا يصح أن يكون العام ذا قربى للمثقلة؟ قلت: هو من العموم الكائن على طريق البدل. فإن قلت: ما تقول فيمن قرأ ولو كان ذا قربى على كان

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٥٨٨/٣

التامة، كقوله تعالى وإن كان ذو عسرة؟ قلت: نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة، لأن المعنى على أن المثقلة إن دعت أحدا إلى حملها لا يحمل منه شيء، وإن كان مدعوها ذا قربى، وهو معنى صحيح ملتئم، ولو قلت: ولو وجد ذو قربى، لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه «١» ، على أن هاهنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته بالغيب حال من الفاعل أو المفعول، أى: يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائبا عنهم. وقيل: بالغيب في السر، وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه، فكانت عادتهم المستمرة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا، يعنى: إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك، وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون **متمرديهم** وأهل عنادهم ومن تزكى ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي. وقرئ: ومن ازكى فإنما يزكى، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة، لأنهما من جملة التزكى وإلى الله المصير وعد للمتزكين بالثواب. فإن قلت: كيف اتصل قوله إنما تنذر بما قبله؟ قلت: لما غضب عليهم في قوله إن يشأ يذهبكم أتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر أهوالها، ثم قال إنما تنذر كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعهم ذلك، فلم ينفع، فنزل إنما تنذر أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم.

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٩ الى ٢٣]

وما يستوي الأعمى والبصير (١٩) ولا الظلمات ولا النور (٢٠) ولا الظل ولا الحرور (٢١) وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور (٢٢) إن أنت إلا نذير (٢٣)

---

(١) . قوله «وخرج من اتساقه والتئامه» أى: انتظامه. (ع)." [١]

"عليه وسلم، ولم يثبت تكليفا إلا على الوجه الذي ذكرنا من تقدير النبي صلى الله عليه وسلم إياهم على ذلك.

ومسألة تكليف ما لا يطاق، نتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولما ذكر المغفرة والتعذيب بحسب مشيئته تعالى أعقب ذلك بذكر القدرة على جميع الأشياء، إذ ما ذكر جزء منها.

قوله عز وجل:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٠٧/٣

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨٥]

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير (٢٨٥)

سبب هذه الآية أنه لما نزلت وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه الآية التي قبلها. وأشفق منها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، ثم تقرر الأمر على أن قالوا سمعنا وأطعنا، فرجعوا إلى التضرع والاستكانة، مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات من المذلة والمسكنة والجلاء إذ قالوا سمعنا وعصينا، وهذه ثمرة العصيان **والتمرد** على الله عاذنا الله من نقمه، وآمن معناه صدق، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أنزل إليه من ربه هو القرآن وسائر ما أوحي إليه، من جملة ذلك هذه الآية التي تأولوها شديدة الحكم، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه قال: ويحق له أن يؤمن، وقرأ ابن مسعود «وآمن المؤمنون» ، وكل لفظة تصلح للإحاطة، وقد تستعمل غير محيطة على جهة التشبيه بالإحاطة والقرينة تبين ذلك في كل كلام، ولما وردت هنا بعد قوله والمؤمنون دل ذلك على إحاطتها بمن ذكر.

والإيمان بالله هو التصديق به وبصفاته ورفض الأصنام وكل معبود سواه.

والإيمان بملائكته هو اعتقادهم عبادا لله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم.

والإيمان بكتبه هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمن ذكرهم كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، أو ما أخبر هو به، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر «وكتبه» على الجمع، وقرؤوا في التحريم و «كتابه» على التوحيد، وقرأ أبو عمرو هنا وفي التحريم «وكتبه» على الجمع، وقرأ حمزة والكسائي «وكتابه» على التوحيد فيهما، وروى حفص عن عاصم هاهنا وفي التحريم «وكتبه» مثل أبي عمرو، وروى خارجة عن نافع مثل ذلك، وبكل قراءة من هذه قرأ جمهور من العلماء، فمن جمع أراد جمع كتاب، ومن أفرد أراد المصدر الذي يجمع كل مكتوب كان نزوله من عند الله تعالى،

هذا قول بعضهم وقد وجهه أبو علي وهو كما قالوا: نسج اليمن، وقال أبو علي في صدر كلامه: أما الإفراد في." (١)

"هذه الآية تحتمل أن يراد بها معاصر ومحمد صلى الله عليه وسلم، والأظهر أنه يراد بها الأسلاف والمعاصرون داخلون في هذه الأحوال بالمعنى، والغرض الإخبار عن أولئك الذين أطفأ الله نيرانهم وأذلهم بمعاصيهم لو آمنوا بالله وكتابه واتقوا في امتثال أوامره ونواهيه لكفرت سيئاتهم أي سترت وأذهبت ولأدخلوا الجنة.

ولو أنهم أقاموا التوراة أي أظهروا أحكامها فهي كإقامة السوق وإقامة الصلاة، وذلك كله تشبيه بالقائم من الناس، إذ هي أظهر هيئات المرء، وقوله تعالى: والإنجيل يقتضي دخول النصارى في لفظ أهل الكتاب في هذه الآية، وقوله تعالى: وما أنزل إليهم من ربهم معناه من وحي وسنن على ألسنة الأنبياء، واختلف المفسرون في معنى من فوقهم ومن تحت أرجلهم فقال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي: المعنى لأعطتهم السماء مطرها وبركتها والأرض نباتها بفضل الله تعالى. وحكى الطبري والزجاج وغيرهما أن الكلام استعارة ومبالغة في التوسعة كما يقال فلان قد عمه الخير من قرنه إلى قدمه، وذكر النقاش أن المعنى: لأكلوا من فوقهم أي من رزق الجنة ومن تحت أرجلهم من رزق الدنيا، إذ هو من نبات الأرض. قوله تعالى منهم أمة مقتصدة معناه: معتدلة، والقصد والاقتصاد: الاعتدال والرفق والتوسط الحسن في الأقوال والأفعال، قال الطبري: معنى الآية أن من بني إسرائيل من هو مقتصد في عيسى عليه السلام يقولون هو عبد الله ورسول وروح منه، والأكثر منهم غلا فيه فقال بعضهم هو إله وعلى هذا مشى الروم ومن دخل بأخرة في ملة عيسى عليه السلام، وقال بعضهم وهم الأكثر من بني إسرائيل: هو آدمي لغير رشدة، فكفر الطرفان، وقال مجاهد: المقتصدة مسلمة أهل الكتاب قديما وحديثا.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا يتخرج قول الطبري: ولا يقول في عيسى إنه عبد رسول إلا مسلم، وقال ابن زيد: هم أهل طاعة الله من أهل الكتاب، وهذا هو المترجح، وقد ذكر الزجاج أنه يعني بالمقتصدة الطوائف التي لم تناصب الأنبياء مناصبة المتهتكين المجاهرين.

قال القاضي أبو محمد: وإنما يتوجه أن توصف بالاقتصاد بالإضافة إلى **المتمردة** كما يقال في أبي البختري بن هشام إنه مقتصد بالإضافة إلى أبي جهل بن هشام لعنه الله، ثم وصف تعالى الكثير منهم بسوء العمل عموما، وذهب الطبري إلى أن ذلك في تكذيبهم الأنبياء، وكفر اليهود بعيسى والجميع من أهل الكتابين

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٩١/١

بمحمد صلى الله عليه وسلم وساء في هذه الآية هي المتصرفة كما تقول ساء الأمر يسوء، وقد تستعمل ساء استعمال نعم وبئس، كقوله عز وجل: ساء مثلا [الأعراف: ١٧٧] فتلك غير هذه، يحتاج في هذه التي في قوله ساء مثلا من الإضمار والتقدير إلى ما يحتاج في نعم وبئس، وفي هذا نظر.
وقوله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك إلى قوله القوم الكافرين هذه الآية أمر من الله ورسوله بالتبليغ على الاستيفاء والكمال. لأنه قد كان بلغ، فإنما أمر في هذه الآية بأن لا يتوقف عن شيء مخافة أحد، وذلك أن رسالته صلى الله عليه وسلم تضمنت الطعن على أنواع الكفرة وبيان فساد." (١)

"أخبر الله عز وجل في هذه الآية أنه لو أتى بجميع ما اقترحوه من إنزال الملائكة وإحياء سلفهم حسبما كان من اقتراح بعضهم أن يحشر قصي وغيره، فيخبر بصدق محمد أو يجمع عليهم كل شيء يعقل أن يحشر عليهم، ما آمنوا إلا بالمشيئة واللطف الذي يخلقه ويخترعه في نفس من شاء لا رب غيره، وهذا يتضمن الرد على المعتزلة في قولهم بالآيات التي تضطر الكفار إلى الإيمان، وقال ابن جريج: نزلت هذه الآية في المستهزئين.
قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه: لا يثبت إلا بسند، وقرأ نافع وابن عامر وغيرهما «قبلا» بكسر القاف وفتح الباء، ومعناه مواجهة ومعاينة قاله ابن عباس، وغيره ونصبه على الحال، وقال المبرد: المعنى ناحية كما تقول له قبل فلان دين.
قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه: فنصبه على هذا هو على الظرف، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وغيرهم «قبلا» بضم القاف والباء، وكذلك قرأ ابن كثير وأبو عمرو هنا وقرأ العذاب قبلا [الكهف: ٥٥] مكسورة القاف واختلف في معناه فقال عبد الله بن زيد ومجاهد وابن زيد: «قبل» جمع قبيل أي صنفا صنفا ونوعا نوعا كما يجمع قضيب على قضب وغيره، وقال الفراء والزجاج هو جمع قبيل وهو الكفيل «وحشرنا عليهم كل شيء كفلاء» بصدق محمد وذكره الفارسي وضعفه، وقال بعضهم قبل الضم بمعنى قبل بكسر القاف أي مواجهة كما تقول قبل ودبر، ومنه قوله تعالى: قد من قبل [يوسف: ٢٦] ومنه قراءة ابن عمر لقبل عدتهن [الطلاق: ١] أي لاستقبالها ومواجهتها في الزمن وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة «قبلا» بضم القاف وسكون الباء، وذلك على جهة التخفيف.
وقرأ طلحة بن مصرف «قبلا» بفتح القاف وإسكان الباء، وقرأ أبي والأعمش «قبيلا» بفتح القاف وكسر الباء وزيادة ياء، والنصب في هذا كله على الحال، وقوله عز وجل: ولكن أكثرهم يجهلون الضمير عائد إلى

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢١٧/٢

الكفار المتقدم ذكرهم، والمعنى يجهلون أن الآية تقتضي إيمانهم ولا بد، فيقتضي اللفظ أن الأقل لا يجهل فكان فيهم من يعتقد أن الآية لو جاءت «لم يؤمن إلا أن يشاء الله» له ذلك، وقوله تعالى:

وكذلك جعلنا لكل نبي الآية، تتضمن تسلية النبي عليه السلام وعرض القدوة عليه، أي إن هذا الذي امتحنت به يا محمد من الأعداء قد امتحن به غيرك من الأنبياء ليبتلي الله أولي العزم منهم، وعدوا مفرد في معنى الجمع، ونصبه على المفعول الأول ل جعلنا والمفعول الثاني في قوله لكل نبي، وشياطين بدل من قوله عدوا، ويصح أن يكون المفعول الأول شياطين والثاني عدوا، وقوله شياطين الإنس والجن يريد به **المتمردين** من النوعين الذين هم من شيم السوء كالشياطين، وهذا قول جماعة من المفسرين ويؤيده حديث أبي ذر أنه صلى يوما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعوذ يا أبا ذر من شياطين الجن والإنس» ، قال وإن من الإنس لشياطين؟ قال: نعم. قال السدي وعكرمة: المراد بالشياطين الموكلون بالإنس والشياطين الموكلون بمؤمني الجن، وزعما أن للجن شياطين موكلين بغوايتهم." [١]

"قال أبو موسى الأشعري وابن المسيب وابن سيرين وقتادة السابقون الأولون من صلى القبلتين، وقال عطاء السابقون الأولون من شهد بدرا.

قال القاضي أبو محمد: وحولت القبلة قبل بدر بشهرين، وقال عامر بن شراحيل الشعبي:

السابقون الأولون من أدرك بيعة الرضوان، والذين اتبعوهم بإحسان يريد سائر الصحابة، ويدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الأمة لكن بشريطة الإحسان، وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت من رأى النبي صلى الله عليه وسلم، ولو قال قائل إن السابقين الأولين هم جميع من هاجر إلى أن انقطعت الهجرة لكان قولا يقتضيه اللفظ وتكون من لبيان الجنس، والذين في هذه الآية عطف على قوله والسابقون، وقرأ عمر بن الخطاب والحسن بن أبي الحسن وقتادة وسلام وسعيد ويعقوب بن طلحة وعيسى الكوفي «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار» برفع الراء عطفا على والسابقون، وكذلك ينعطف على كلتا القراءتين قوله تعالى: والذين اتبعوهم بإحسان وجعل الأتباع عديلا للأنصار، وأسند الطبري أن زيد بن ثابت سمعه فرده فبعث عمر في أبي بن كعب فسأله فقال أبي بن كعب والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فقال عمر ما كنا نرى إلا أنا قد رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد، فقال أبي إن مصداق هذا في كتاب الله في أول سورة الجمعة وآخرين منهم لما يلحقوا بهم [الآية: ٣] وفي سورة الحشر والذين جاؤ من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان [الآية: ١٠] وفي سورة الأنفال في قوله

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢/٣٣٥

والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم [الآية: ٧٥] ، فرجع عمر إلى قول أبي، ونبهت هذه الآية من التابعين وهم الذين أدركوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نبه من ذكرهم قوله صلى الله عليه وسلم «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» فتأمله، وقرأ ابن كثير «من تحتها الأنهار» ، وقرأ الباقون «تحتها» بإسقاط «من» ومعنى هذه الآية الحكم بالرضى عنهم بإدخالهم الجنة وغفر ذنوبهم والحكم برضاهم عنه في شكرهم وحمدهم على نعمه وإيمانهم به وطاعتهم له جعلنا الله من الفائزين برحمته وممن حولكم من الأعراب الآية، مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم شرك في بعضها أمته، والإشارة بقوله وممن حولكم من الأعراب هي إلى جهينة ومزينة وأسلم وغفار وعصية ولحيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة، فأخبر الله عن منافقيهم، وتقدير الآية: ومن أهل المدينة قوم أو منافقون هذا أحسن ما حمل اللفظ، ومردوا قال أبو عبيدة: معناه مرنوا عليه ولجوا فيه، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وقال ابن زيد: أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون.

والظاهر من معنى اللفظ أن **التمرد** في الشيء أو المردود عليه إنما هو اللجاج والاستهتار به والعتو على الزاجر وركوب الرأس في ذلك، وهو مستعمل في الشر لا في الخير، ومن ذلك قولهم شيطان مارد ومريد،." (١)

"ومن هذا سميت مراد لأنها **تمردت**، وقال بعض الناس: يقال **تمرد** الرجل في أمر كذا إذا تجرد له، وهو من قولهم شجرة مرداء إذا لم يكن عليها ورق، ومنه رح ممرد

[النمل: ٤٤] ومنه قولهم: **تمرد** مارد وعز الأبلق ومنه الأمرد الذي لا لحية له، فمعنى مردوا في هذه الآية لجوا فيه واستهتروا به وعتوا على زاجرهم، ثم نفى عز وجل علم نبيه بهم على التعيين، وأسند الطبري عن قتادة في قوله لا تعلمهم نحن نعلمهم قال: فما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان في الجنة فلان في النار فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدري، أنت لعمري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الرسل، قال نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم وما علمي بما كانوا يعملون [الشعراء: ١١٢] وقال نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ [هود: ٨٦] وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: لا تعلمهم نحن نعلمهم.

قال القاضي أبو محمد: وقوله تعالى: سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم في مصحف أنس بن مالك «سيعذبهم» بالياء والكلام على القراءتين وعيد، واللفظ يقتضي ثلاثة مواطن من العذاب، ولا خلاف

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣/٧٥

بين المتأولين أن «العذاب العظيم» الذي يردون إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر، واختلف في عذاب المرة الأولى فقال مجاهد وغيره: هو عذابهم بالقتل والجوع، وهذا بعيد لأن منهم من لم يصبه هذا، وقال ابن عباس أيضا: عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه، وقال ابن إسحاق: عذابهم هو همهم بظهور الإسلام وعلو كلمته، وقال ابن عباس وهو الأشهر عنه: عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق، وروي في هذا التأويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم جمعة فندد بالمنافقين وصرح وقال اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق واخرج أنت يا فلان واخرج أنت يا فلان حتى أخرج جماعة منهم، فرآهم عمر يخرجون من المسجد وهو مقبل إلى الجمعة فظن أن الناس انتشروا وأن الجمعة فاتته فاختبأ منهم حياء، ثم وصل إلى المسجد فرأى أن الصلاة لم تقض وفهم الأمر.

قال القاضي أبو محمد: وفعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا بهم هو على جهة التأديب اجتهادا منه فيهم، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام وإنما هو كما يخرج العصاة والمتهمون، ولا عذاب أعظم من هذا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يتكلم فيهم على الإجمال دون تعيين، فهذا أيضا من العذاب، وقال قتادة وغيره: العذاب الأول هي علل وأدواء أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يصيبهم بها، وأسند الطبري في ذلك عن قتادة أنه قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلا من المنافقين وقال «ستة منهم تكفيكهم الدبيلة سراج من نار جهنم تأخذ في كتف أحدهم حتى تقضي إلى صدره، وستة يموتون موتا» ، ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يظن أنه منهم نظر إلى حذيفة فإن صلى صلى عمر عليه وإلا ترك.

وذكر لنا أن عمر رضي الله عنه قال لحذيفة أنشدك بالله أمنهم أنا؟ قال لا والله ولا أؤمن منها أحدا بعدك؟

وقال ابن زيد في قوله تعالى: سنعذبهم مرتين أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد، لكل صنف." (١)

"قوله عز وجل:

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٩٨ الى ١٠٣]

فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٩٨) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٩٩) إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (١٠٠) وإذا بدلنا آية مكان آية والله

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٧٦/٣

أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون (١٠١) قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين (١٠٢)

ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين (١٠٣)

الفاء في قوله فإذا واصلة بين الكلامين، والعرب تستعملها في مثل هذا، وتقدير الآية فإذا أخذت في قراءة القرآن كما قال عز وجل إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم [المائدة: ٦] ، وكما تقول لرجل إذ أكلت فقل: بسم الله، و «الاستعاذة» ندب عند الجميع، وحكى النقاش عن عطاء أن التعوذ واجب، ولفظ الاستعاذة هو على رتبة الآية، وقد ذكرت الخلاف الذي قيل فيه في صدر هذا الكتاب، والرجيم المرجوم باللغة وهو إبليس، ثم أخبر الله تعالى أن إبليس ليس له ملكة ولا رياسة، هذا ظاهر «السلطان» عندي في هذه الآية، وذلك أن «السلطان» إن جعلناه الحجة فليس له حجة في الدنيا على أحد لا مؤمن ولا كافر، اللهم إلا أن يتأول متأول ليس له سلطان يوم القيامة، فيستقيم أن يكون بمعنى الحجة لأن إبليس له حجة على الكافرين أنه دعاهم بغير دليل فاستجابوا له من قبل أنفسهم، وهؤلاء الذين لا سلطان ولا رياسة لإبليس عليهم هم المؤمنون أجمعون، لأن الله لم يجعل سلطانه إلا على المشركين الذين يتولونه، والسلطان منفي هاهنا في الإشراك، إذ له عليهم ملكة ما في المعاصي وهم الذين قال الله فيهم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان [الحجر: ٤٢] وهم الذين قال إبليس فيهم إلا عبادك منهم المخلصين [الحجر: ٤٠] ، ويتولونه معناه يجعلونه وليا، والضمير فيه يحتمل أن يعود على اسم الله عز وجل، والظاهر أنه يعود على اسم إبليس، بمعنى من أجله وبسببه، كما تقول لمعلمك: أنا عالم بك، أي بسببك، فكأنه قال: والذين هم بسببه مشركون بالله، وهذا الإخبار بأن لا سلطان للشيطان على المؤمنين بعقب الأمر بالاستعاذة، تقتضي أن الاستعاذة تتصرف كيده، كأنها متضمنة للتوكل على الله والانقطاع إليه، وقوله وإذا بدلنا آية مكان آية كان كفار مكة إذا نسخ الله لفظ آية بلفظ أخرى ومعناها وإن بقي لفظها، لأن هذا كله يقع عليه التبديل، يقولون: لو كان هذا من عند الله لم يتبدل، وإنما هو من افتراء محمد، فهو يرجع من خطأ يبدلونه إلى صواب يراه بعد، فأخبر الله عز وجل أنه أعلم بما يصلح للعباد برهة من الدهر، ثم ما يصلح لهم بعد ذلك، وأنهم لا يعلمون هذا، وقرأ الجمهور «ينزل» بفتح النون وشد الزاي، وقرأ أبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي، وعبر ب «الأكثر» مراعاة لما كان عند قليل منهم من توقف وقلة مبالغة في التكذيب والظن، ويحتمل أن يكون هذا اللفظ قرر على قليل منهم أنهم يعلمون ويكفرون **تمردا**." [١]

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣/٤٢٠

"هذه آية ضرب مثل وإسوة لمحمد عليه السلام بموسى عليه السلام ولكفار قريش بفرعون وملائه. والآيات التي أرسل بها موسى وهي التسع المذكورة وغير ذلك مما جاءت به الروايات، وخص الملأ بالذكر لأنهم يسدون مسد جميع الناس، ثم وصفهم تعالى بالضحك من آيات موسى، كما كانت قريش تضحك وتسخر من أخبار محمد عليه السلام، ثم وصف تعالى صورة عرض الآيات عليهم وإنما كانت شيئا بعد شيء.

وقوله: إلا هي أكبر من أختها عبارة عن شدة موقعها في نفوسهم بحدة أمرها وحدوثه، وذلك أن أول آية عرض موسى هي: العصا واليد، وكانت أكبر آياته، ثم كل آية بعد ذلك كانت تقع فيعظم عندهم لحينها وتكبر، لأنهم قد كانوا أنسوا التي قبلها، فهذا كما قال الشاعر: [الطويل]

على أنها تعفو الكلوم وإنما ... توكل بالأدنى وان جل ما يقضى

وذهب الطبري إلى أن الآيات هي الحجج والبينات. ثم ذكر تعالى أخذهم بالعذاب في العمل والضفادع والدم وغير ذلك، وهذا كما أخذ قريش بالسنين والدخان.

وقوله: لعلهم ترج بحسب معتقد البشر وظنهم. و: يرجعون معناه: يتوبون ويقلعون.

وقوله تعالى: وقالوا يا أيها الساحر جائز أن يكون قائل ذلك من أعلمهم بكفر السحر فيقول: قوله استهزاء وهو يعلم قدر السحر وانحطاط منزلته، ويكون قوله: عندك بمعنى: في زعمك وعلى قولك، ويحتمل أن يكون القائل ليس من **المتمردين** الحذاق ويطلق لفظة الساحر لأحد وجهين، إما لأن السحر كان عند عامتهم علم الوقت، فكأنه قال: يا أيه العالم، وإما لأن هذه الاسمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى لأول ظهورها، فاستصحبها هذا القائل في مخاطبة قلة تحرير وغباوة، ويكون القول على هذا التأويل جدا من القائل، ويكون قوله: إننا لمهتدون بمعنى إن نفعتنا دعوتك، وهذا التأويل أرجح، أعني أن كلام هذا القائل مقترن بالجد.

وقرأ ابن عامر وحده: «يا أي» بياء مضمومة فقط.

ثم أخبر عنهم أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا، ولو كان الكلام هزلا من أوله لما وقع نكث.

قوله عز وجل:

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٥١ الى ٥٦]

ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (٥١) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه

الملائكة مقترنين (٥٣) فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين (٥٤) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (٥٥)

فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين (٥٦)." [(١)]

"الذين كانوا يظهرون للنبي صلى الله عليه وسلم من الإيمان ما يلقون رؤساءهم بضده، قاله الحسن.

فأما التفسير: ف «إلى» : بمعنى «مع» ، كقوله تعالى: من أنصاري إلى الله «١» أي: مع الله.

والشياطين: جمع شيطان، قال الخليل: كل **متمرد** عند العرب شيطان. وفي هذا الاسم قولان:

أحدهما: أنه من شطن، أي: بعد عن الخير، فعلى هذا تكون النون أصلية. قال أمية بن أبي الصلت في صفة سليمان عليه السلام:

أيما شاطن عصاه عكاه ... ثم يلقى في السجن والأغلال

عكاه: أوثقه. وقال النابغة:

نأت بسعاد عنك نوى شطون ... فبانت والفؤاد بها رهين

والثاني: أنه من شاط يشيط: إذا التهب واحترق، فتكون النون زائدة. وأنشدوا:

وقد يشيط على أرماحنا البطل «٢»

أي: يهلك. وفي المراد: بشياطينهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم رؤوسهم في الكفر، قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، والسدي. والثاني: إخوانهم من المشركين، قاله أبو العالية، ومجاهد.

والثالث: كهنتهم، قاله الضحاك، والكلبي.

قوله تعالى: إنا معكم. فيه قولان: أحدهما: أنهم أرادوا: إنا معكم على دينكم.

والثاني: إنا معكم على النصرة والمعاضدة. والهزء: السخرية.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٥]

الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (١٥)

قوله تعالى: الله يستهزئ. اختلف العلماء في المراد، باستهزاء الله بهم على تسعة أقوال:

أحدها: أنه يفتح لهم باب من الجنة وهم في النار، فيسرعون إليه فيغلق، ثم يفتح لهم باب آخر، فيسرعون فيغلق، فيضحك منهم المؤمنون. روي عن ابن عباس. والثاني: أنه إذا كان يوم القيامة جمدت النار لهم كما

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥/٥٨

تجمد الإهالة «٣» في القدر، فيمشون فتنخسف بهم. روي عن الحسن البصري.
والثالث: أن الاستهزاء بهم: إذا ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فيبقون في الظلمة، فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا «٤» ، ق ا له مقاتل. والرابع: أن المراد به: يجازيهم على استهزائهم، فقوبل اللفظ بمثله لفظا وإن خالفه معنى، فهو كقوله تعالى:
وجزاء سيئة سيئة مثلها «٥» ، وقوله: فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم «٦» . وقال عمرو بن كلثوم:

---

(١) الصف: ١٤.
(٢) هو عجز بيت للأعشى وصدره: قد نخضب العير في مكنون فائله.
- وانظر «المعجم المفصل» . والفائل: عرق من الفخذ يكون في خربة الورك ينحدر في الرجلين، ومكنون فائله: دمه الذي كن فيه. وأراد: إنا حذاق بالطعن.
(٣) الإهالة: الشحم.
(٤) الحديد: ١٣.
(٥) الشورى: ٤٠.
(٦) البقرة: ١٩٤. [.....]." [١]

"الناس، فيجدونه كما قالوا، حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم، وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتاب، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتاب في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق، وقال: لا أسمع أحدا يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه. فلما مات سليمان جاء شيطان إلى نفر من بني إسرائيل، فدلهم على تلك الكتاب وقال: إنما كان سليمان يضبط أمر الخلق بهذا ففشا في الناس أن سليمان كان ساحرا، واتخذ بنو إسرائيل تلك الكتاب، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم، خاصموه بها، هذا قول السدي.
و «سليمان» : اسم عبراني، وقد تكلمت به العرب في الجاهلية، وقد جعله النابغة سليما ضرورة، فقال:
ونسج سليم كل قضاء ذائل «١» واضطر الحطيئة فجعله: سلاما، فقال:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣٤/١

فيه الرماح وفيه كل سابغة ... جدلاء محكمة من نسج سلام

وأرادا جميعا: داود أبا سليمان، فلم يستقم لهما الشعر، فجعلاه: سليمان وغيراه. كذلك قرأته على شيخنا أبي منصور اللغوي.

وفي قوله: وما كفر سليمان دليل على كفر الساحر، لأنهم نسبوا سليمان إلى السحر، لا إلى الكفر. قوله تعالى: ولكن الشياطين كفروا. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم بتشديد نون (ولكن) ونصب نون (الشياطين) . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بتخفيف النون من «لكن» ورفع نون «الشياطين» . قوله تعالى: وما أنزل على الملكين، وقرأ ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، والزهري «الملكين» بكسر اللام، وقراءة الجمهور أصح. وفي «ما» قولان «٢» : أحدهما: أنها

---

(١) في «اللسان» : صدر البيت: وكل صموت نثلة تبعية. والصموت: الدروع التي إذا صبت لم يسمع لها صوت.

والقضاء من الدروع: التي فرغ من عملها وأحكمت. والذائل: الدرع الطويلة الذيل.

(٢) قال أبو جعفر الطبري رحمه الله في «تفسيره» ١/ ٤٩٧. القول في تأويل قوله تعالى وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت قال أبو جعفر: اختلف أهل العلم في تأويل «ما» التي في قوله: وما أنزل على الملكين فقال بعضهم: معناه الجحد، وهي بمعنى «لم» . ذكر من قال ذلك: عن ابن عباس قوله: وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، فإنه يقول: لم ينزل الله السحر.

وعن الربيع بن أنس: وما أنزل على الملكين قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

فتأويل الآية على هذا المعنى الذي ذكرناه عن ابن عباس والربيع، من توجيههما معنى قوله وما أنزل على الملكين إلى: ولم ينزل على الملكين-: واتبعوا الذي تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر، ببابل، هاروت وماروت فيكون حينئذ قوله: ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذي معناه التقديم.

فإن قال قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر وما أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. فيكون معنيا ب «الملكين» : جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهما الله بذلك، وأخبر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط، وبرأ سليمان مما

نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمانهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت. فيكون «هاروت وماروت» ، على هذا التأويل، ترجمة على «الناس» وردا عليهم. وقال آخرون: بل تأويل «ما» التي في قوله: وما أنزل على الملكين- «الذي» .

- وقال القرطبي رحمه الله في «تفسيره» ٢/ ٥٠- ٥١: قوله تعالى: وما أنزل على الملكين «ما» نفي، والواو للعطف على قوله: وما كفر سليمان وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر، فنفى الله ذلك. وفي الكلام تقديم وتأخير، التقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله ولكن الشياطين كفروا. هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم، ودقة أفهامهم، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة في حال طمثهن، قال الله تعالى: ومن شر النفاثات في العقد وقال الشاعر:

أعوذ بربي من النافثات.....

إن قال قائل: كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه، فالجواب من وجوه ثلاثة، الأول: أن الاثنين قد يطلق عليهما اسم الجمع، كما قال تعالى: فإن كان له إخوة فلأمه السدس ولا يحجبها عن الثلث إلى السدس إلا اثنان من الإخوة فصاعدا والثاني: أنهما لما كانا الرأس في التعليم نص عليهما دون أتباعهما كما قال تعالى: عليها تسعة عشر. الثالث: إنما خصا بالذكر من بينهم **لتمردهما**، كما قال تعالى: فيهما فاكهة ونخل ورمان وقوله: وجبريل وميكال وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب، فقد ينص بالذكر على بعض أشخاص العموم إما لشرفه وإما لفضله، كقوله تعالى: إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي وقوله: وجبريل وميكال وإما لطيبه فاكهة ونخل ورمان وإما لأكثريته، كقوله صلى الله عليه وسلم: «جعلت لي الأرض مسجدا وتربتها طهورا» وإما **لتمرده** وعتوه كما في هذه الآية، والله أعلم. وقد قيل: إن «ما» عطف على السحر وهي مفعولة، فعلى هذا يكون «ما» بمعنى الذي، ويكون السحر منزلا على الملكين فتنة للناس وامتحانا، ولله أن يمتحن عباده بما شاء.." [١]

"[سورة الأنعام (٦) : آية ١١٢]

وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣٩/١

ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١١٢)

قوله تعالى: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا أي: وكما جعلنا لك ولأمتك شياطين الإنس والجن أعداء، كذلك جعلنا لمن تقدمك من الأنبياء وأممهم والمعنى: كما ابتليناك بالأعداء، ابتلينا من قبلك، ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى. قال الزجاج: «عدو» : في معنى أعداء، و «شياطين الإنس والجن» : منصوب على البدل من «عدو» ، ومفسر له ويجوز أن يكون: «عدوا» منصوب على أنه مفعول ثان، المعنى: وكذلك جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء لأممهم «١» . وفي شياطين الإنس والجن ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم مردة الإنس والجن، قاله الحسن، وقتادة. والثاني: أن شياطين الإنس: الذين مع الإنس، وشياطين الجن: الذين مع الجن، قاله عكرمة، والسدي. والثالث: أن شياطين الإنس والجن: كفارهم، قاله مجاهد.

قوله تعالى: يوحي أصل الوحي: الإعلام والدلالة بستر وإخفاء. وفي المراد به ها هنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن معناه: يأمر. والثاني: يوسوس. والثالث: يشير.

وأما زخرف القول، فهو ما زين منه، وحسن، وموه، وأصل الزخرف: الذهب. قال أبو عبيدة: كل شيء حسنته وزينته وهو باطل، فهو زخرف. وقال الزجاج: «الزخرف» في اللغة: الزينة فالمعنى: أن بعضهم يزين لبعض الأعمال القبيحة و «غرورا» منصوب على المصدر وهذا المصدر محمول على المعنى، لأن معنى إيحاء الزخرف من القول: معنى الغرور، فكأنه قال: يغرون غرورا.

وقال ابن عباس: زخرف القول غرورا: الأماني بالباطل. قال مقاتل: وكل إبليس بالإنس شياطين يضلونهم، فاذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا، فذلك وحي بعضهم إلى بعض. وقال غيره: إن المؤمن إذا أعيا شيطانه، ذهب إلى **متمرد** من الإنس، وهو شيطان الإنس، فأغراه بالمؤمن ليفتنه. وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين. وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن، لأني كإذا تعوذت من ذاك ذهب عني، وهذا يجرني إلى المعاصي عيانا.

قوله تعالى: ولو شاء ربك ما فعلوه في هاء الكناية ثلاثة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الوسوسة. والثاني: ترجع إلى الكفر. والثالث: إلى الغرور، وأذى النبيين.

قوله تعالى: فذرهم وما يفترون قال مقاتل: يريد كفار مكة وما يفترون من الكذب. وقال غيره: فذر المشركين وما يخاصمونك به مما يوحي إليهم أولياؤهم، وما يختلقون من كذب، وهذا القدر من هذه الآية منسوخ بآية السيف.

(١) قال الحافظ ابن كثير «تفسيره» ٢/ ٢١١ الآية شياطين الإنس والجن: الشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم.." [١]

"أنه همز. وروى خارجة عن نافع: «بيس» بفتح الباء من غير همز، على وزن «فعل» . وروى أبو بكر عن عاصم: «بيأس» على وزن «فيعل» . وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأيوب: «بيآس» على وزن «فيعال» . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، ومعاذ القارئ: «بئس» بفتح الباء وكسر الهمزة من غير ياء على وزن «تعس» . وقرأ الضحاك، وعكرمة: «بيس» بتشديد الياء مثل «قيم» . وقرأ أبو العالية، وأبو مجلز: «بئس» بفتح الباء والسين وبهمزة مكسورة من غير ياء ولا ألف على وزن «فعل» . وقرأ أبو المتوكل، وأبو رجاء: «بائس» بألف ومدة بعد الباء وبهمزة مكسورة بوزن «فاعل» . قال أبو عبيدة:

البئيس: الشديد، وأنشد:

حيفا علي وما ترى ... لي فيهم أثرا بئيسا «١»

وقال الزجاج: يقال: بئس يبأس بأسا، والعاتي: الشديد الدخول في الفساد، **المتمرد** الذي لا يقبل موعظة.

وقال ابن جرير: «فلما عتوا» أي: **تمردوا** فيما نهوا عنه وقد ذكرنا في سورة (البقرة) :

قصة مسخهم. وكان الحسن البصري يقول: والله ما لحوم هذه الحيتان بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين.

قوله تعالى: وإذ تأذن ربك فيه أربعة أقوال: أحدها: أعلم، قاله الحسن، وابن قتيبة، وقال:

هو من آذنتك بالأمر. وقال ابن الانباري: «تأذن» بمعنى آذن كما يقال: تعلم أن فلانا قائم، أي:

اعلم. وقال أبو سليمان الدمشقي: أي: أعلم أنبياء بني إسرائيل. والثاني: حتم، قاله عطاء. والثالث:

وعد، قاله قطرب. والرابع: تألى، قاله الزجاج.

قوله تعالى: ليبعثن عليهم أي: على اليهود. وقال مجاهد: على اليهود والنصارى بمعاصيهم.

من يسومهم أي: يوليهم سوء العذاب. وفي المبعوث عليهم قولان: أحدهما: أنه محمد صلى الله عليه وسلم، وأمته، قاله ابن عباس. والثاني: العرب، كانوا يجبونهم الخراج، قاله سعيد بن جبير، قال: ولم يجب الخراج نبي قط إلا موسى، جباه ثلاث عشرة سنة، ثم أمسك إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وقال السدي بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم. وفي سوء العذاب أربعة أقوال: أحدها: الجزية، رواه

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢/٦٨

ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: المسكنة والجزية، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الخراج، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والرابع: أنه القتال حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٨]

وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون (١٦٨)

قوله تعالى: وقطعناهم في الأرض أمما قال أبو عبيدة: فرقناهم فرقا. قال ابن عباس: هم اليهود، ليس من بلد إلا وفيه منهم طائفة. وقال مقاتل: هم بنو إسرائيل. وقيل: معناه: شتات أمرهم وافتراق كلمتهم. منهم الصالحون وهم المؤمنون بعيسى ومحمد عليهما السلام. ومنهم دون ذلك وهم الكفار. وقال ابن جرير: إنما كانوا على هذه الصفة قبل أن يبعث عيسى، وقبل ارتدادهم.

---

(1) البيت منسوب إلى ذي الإصبع العدواني «الأغاني» ٣/ ١٠٢. وفي «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ١/ ٢٣١.." (١)

"في قوله تعالى: والسابقون الأولون. والخامس: أنهم السابقون بالموت والشهادة، سبقوا إلى ثواب الله تعالى. ذكره الماوردي. والسادس: أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة، ذكره القاضي أبو يعلى.

قوله تعالى: من المهاجرين والأنصار قرأ يعقوب: «والأنصار» برفع الراء.

قوله تعالى: والذين اتبعوهم بإحسان من قال: إن السابقين جميع الصحابة، جعل هؤلاء تابعي الصحابة، وهم الذين لم يصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: والذين اتبعوهم باحسان إلى أن تقوم الساعة. ومن قال: هم المتقدمون من الصحابة، قال: هؤلاء تبعوهم في طريقهم، واقتدوا بهم في أفعالهم، ففضل أولئك بالسبق، وإن كانت الصحبة حاصلة للكل. وقال عطاء: اتباعهم إياهم باحسان: أنهم يذكرون محاسنهم ويترحمون عليهم.

قوله تعالى: تجري تحتها الأنهار قرأ ابن كثير: «من تحتها» فزاد «من» وكسر التاء الثانية.

وقوله تعالى: رضي الله عنهم يعم الكل، قال الزجاج: رضي الله أفعالهم، ورضوا ما جازاهم به.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١٦٤/٢

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠١]

ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم (١٠١)

قوله تعالى: ومن حولكم من الأعراب منافقون قال ابن عباس: مزينة، وجهينة، وأسلم، وغفار، وأشجع، كان فيهم بعد إسلامهم منافقون. قال مقاتل: وكانت منازلهم حول المدينة. وقوله تعالى: ومن أهل المدينة مردوا على النفاق قال ابن عباس: مرنوا عليه وثبتوا، منهم عبد الله بن أبي، وجد بن قيس، والجلاس، ومعتب، ووحوح، وأبو عامر الراهب. وقال أبو عبيدة: عتوا ومرنوا عليه، وهو من قولهم: تمرد فلان، ومنه: شيطان مريد.

فان قيل: كيف قال: ومن أهل المدينة مردوا، وليس يجوز في الكلام: من القوم قعدوا؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن تكون «من» الثانية مردودة على الأولى والتقدير: ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون، ثم استأنف «مردوا» . والثاني: أن يكون في الكلام «من» مضمر، تقديره:
ومن أهل المدينة من مردوا فأضمرت «من» لدلالة «من» عليها، كقوله تعالى: وما منا إلا له مقام معلوم «١» يريد: إلا من له مقام معلوم وعلى هذا ينقطع الكلام عند قوله تعالى: «منافقون» . والثالث:
أن «مردوا» متعلق بمنافقين، تقديره: ومن أهل المدينة منافقون مردوا، ذكر هذه الأجوبة ابن الأنباري.

قوله تعالى: لا تعلمهم فيه وجهان: أحدهما: لا تعلمهم أنت حتى نعلمك بهم. والثاني: لا تعلم عواقبهم.

قوله تعالى: سنعذبهم مرتين فيه عشرة أقوال «٢» : أحدها: أن العذاب الأول في الدنيا، وهو فضيحتهم بالنفاق. والعذاب الثاني: عذاب القبر، قاله ابن عباس.

---

(١) سورة الصافات: ١٦٤.

(٢) قال الطبري في «تفسيره» ٦/ ٤٥٨ و ٤٥٩: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلا يوصل به إلى علم صفة ذينك العذابين، وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم، وليس عندنا علم بأي ذلك من أي، غير أن في قوله جل.

ثناؤه ثم يردون إلى عذاب عظيم. دلالة على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخولهم النار. والأغلب في إحدى المرتين أنها في القبر. اه.." (١)

"قوله تعالى: وإذا أردنا أن نهلك قرية

في سبب إرادته لذلك قولان: أحدهما: ما سبق لهم في قضائه من الشقاء. والثاني: عنادهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم.

قوله تعالى: أمرنا مترفيها

قرأ الأكثرون: «أمرنا» مخففة، على وزن «فعلنا» ، وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار، تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا، هذا مذهب سعيد بن جبير. قال الزجاج: ومثله في الكلام: أمرتك فعصيتني، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر.

والثاني: كثرنا، يقال: أمرت الشيء وآمرته، أي: كثرته، ومنه قولهم: مهرة مأمورة، أي: كثيرة النتاج، يقال: أمر بنو فلان يأمرون أمرا: إذا كثروا، هذا قول أبي عبيدة، وابن قتيبة. والثالث: أن معنى «أمرنا» : أمرنا، يقال: أمرت الرجل، بمعنى: أمرته، والمعنى: سلطنا مترفيها بالإمارة، ذكره ابن الأنباري. وروى خارجة عن نافع: «آمرنا» ممدودة، مثل «آمنا» ، وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير، وهي قراءة ابن عباس، وأبي الدرداء، وأبي رزين، والحسن، والضحاك، ويعقوب. قال ابن قتيبة: وهي اللغة العالية المشهورة، ومعناه: كثرنا، أيضا. وروى ابن مجاهد أن أبا عمرو قرأ: «أمرنا» مشددة الميم، وهي رواية أبان عن عاصم، وهي قراءة أبي العالية، والنخعي، والجحدري. قال ابن قتيبة: المعنى: جعلناهم أمراء، وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وابن يعمر: «أمرنا» بفتح الهمزة مكسورة الميم مخففة. فأما المترفون، فهم المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش، والمفسرون يقولون: هم الجبارون والمسلطون والملوك، وإنما خص المترفين بالذكر، لأنهم الرؤساء، ومن عداهم تبع لهم.

قوله تعالى: ففسقوا فيها

أي: **تمردوا** في كفرهم، لأن الفسق في الكفر: الخروج إلى أفحشه.

وقد شرحنا معنى «الفسق» في البقرة «١» . قوله تعالى: فحق عليها القول

قال مقاتل: وجب عليها العذاب. وقد ذكرنا معنى «التدمير» في الأعراف «٢» . قوله تعالى: وكم أهلكنا من القرون وهو جمع قرن. وقد ذكرنا اختلاف الناس فيه في الأنعام «٣» وشرحنا معنى الخبير والبصير في

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢/٢٩٢

سورة البقرة «٤» قال مقاتل: وهذه الآية تخويف لكفار مكة.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٨ الى ١٩]

من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا (١٨) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا (١٩)

قوله تعالى: من كان يريد العاجلة يعني: من كان يريد بعمله الدنيا، فعبر بالنعت عن الاسم، عجلنا له فيها ما نشاء من عرض الدنيا، وقيل: من البسط والتقتير، لمن نريد فيه قولان: أحدهما:

لمن نريد هلكته، قاله أبو إسحاق الفزاري. والثاني: لمن نريد أن نعجل له شيئا وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا، وبيان أنه لا ينال ما يقصده منها إلا ما قدر له، ثم يدخل النار في الآخرة. وقال ابن جرير:

---

(١) سورة البقرة: ٢٦، ١٩٧.

(٢) سورة الأعراف: ١٣٧.

(٣) سورة الأنعام: ٦.

(٤) سورة البقرة: ٢٣٤ وعند الآية: ٩٦.." (١)

"والمجادلة والمخاصمة، وربما تكون من واحد، كقولك: سافرت، وشارفت الأمر، وهي ها هنا من هذا الباب. وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وعاصم الجحدري، وابن السميفع: «مغضبا» باسكان الغين وفتح الضاد من غير ألف.

واختلفوا في مغاضبته لمن كانت؟ على قولين «١» : أحدهما: أنه غضب على قومه، قاله ابن عباس، والضحاك. وفي سبب غضبه عليهم ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى أوحى إلى نبي يقال له:

شعيا: أن ائت فلانا الملك، فقل له يبعث نبيا أمينا إلى بني إسرائيل، وكان قد غزا بني إسرائيل ملك، وسبا منهم الكثير، فأراد النبي والملك أن يبعثا يونس إلى ذلك الملك ليكلمه حتى يرسلهم، فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله باخراجي؟ قال: لا، قال: فهل سماني لك؟ قال: لا، قال: فهاهنا غيري من الأنبياء، فألحوا عليه، فخرج مغاضبا للنبي والملك ولقومه، هذا مروي عن ابن عباس وقد زدناه شرحا في سورة يونس «٢» . والثاني: أنه عانى من قومه أمرا صعبا من الأذى والتكذيب، فخرج عنهم قبل أن يؤمنوا ضجرا، وما ظن

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١٦/٣

أن هذا الفعل يوجب عليه ما جرى من العقوبة، ذكره ابن الأنباري. وقد روي عن وهب بن منبه، قال: لما حملت عليه أثقال النبوة، ضاق بها ذرعا ولم يصبر، فقذفها من يده وخرج هاربا. والثالث: أنه لما أوعدهم العذاب، فتابوا ورفع عنهم، قيل له: ارجع إليهم، فقال: كيف أرجع فيجدوني كاذبا؟ فانصرف مغاضبا لقومه، عاتبا على ربه. وقد ذكرنا هذا في سورة يونس.

والثاني: أنه خرج مغاضبا لربه، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، والشعبي، وعروة، وقال: المعنى: مغاضبا من أجل ربه، وإنما غضب لأجل **تمردهم** وعصيانهم. وقال ابن قتيبة: كان مغيظا عليهم لطول ما عاناه من تكذيبهم، مشتهيا أن ينزل العذاب لهم فعاقبه الله على كراهيته العفو عن قومه.

قوله تعالى: فظن أن لن نقدر عليه وقرأ يعقوب: «يقدر عليه» بضم الياء وتشديد الدال وفتحها. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو الجوزاء، وابن أبي ليلى: «يقدر» بياء مرفوعة مع سكون القاف وتخفيف الدال وفتحها. وقرأ أبو عمران الجوني: «يقدر» بياء مفتوحة وسكون القاف وكسر الدال خفيفة. وقرأ الزهري، وابن يعمر، وحميد بن قيس: «نقدر» بنون مرفوعة وفتح القاف وكسر الدال وتشديدها. ثم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن لن نقضي عليه بالعقوبة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك. قال الفراء: معنى الآية: فظن أن لن نقدر عليه ما قدرنا من العقوبة، والعرب تقول: قدر، بمعنى: قدر، قال أبو صخر:

ولا عائدا ذاك الزمان الذي مضى ... تباركت ما تقدر يكن ولك الشكر «٣»

أراد: ما تقدر، وهذا مذهب الزجاج.

---

(١) قال الطبري رحمه الله في «تفسيره» ٩/ ٧٦: وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي، قول من قال: عني به:

فظن يونس أن لن نحبسه ونضيق عليه عقوبة له على مغاضبة ربه وذلك من قولهم قدرت على فلان: إذا ضيقت عليه، كما قال الله جل ثناؤه ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله.

ووافقه ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٢٤٢.

(٢) سورة يونس: ٩٨.

(٣) البيت في «شرح أشعار الهذليين» ٢/ ٩٥٨.." [1]

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣/٢٠٩

"قوله تعالى: قال فرعون وما رب العالمين سأله عن ماهية من لا ماهية له «١» ، فأجابه بما يدل عليه من مصنوعاته. وفي قوله تعالى: إن كنتم موقنين قولان: أحدهما: أنه خلق السموات والأرض.
والثاني: إن كنتم موقنين أن ما تعاينونه كما تعاينونه، فكذلك، فأيقنوا أن رب العالمين رب السموات والأرض.
قوله تعالى: قال يعني: فرعون لمن حوله من أشراف قومه ألا تستمعون معجبا لهم.
فان قيل: فأين جوابهم؟ فالجواب: أنه أراد: ألا تستمعون قول موسى؟ فرد موسى، لأنه المراد بالجواب، ثم زاد في البيان بقوله: ربكم ورب آبائكم الأولين، فأعرض فرعون عن جوابه ونسبه إلى الجنون، فلم يحفل موسى بقول فرعون، واشتغل بتأكيد الحجة ف قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون أي: إن كنتم ذوي عقول لم يخف عليكم ما أقول.

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢٩ الى ٤٨]
قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين (٢٩) قال أولو جئتك بشيء مبين (٣٠) قال فأت به إن كنت من الصادقين (٣١) فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين (٣٢) ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين (٣٣)
قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم (٣٤) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون (٣٥) قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين (٣٦) يأتوك بكل سحار عليم (٣٧) فجمع السحرة لميقات يوم معلوم (٣٨)
وقيل للناس هل أنتم مجتمعون (٣٩) لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين (٤٠) فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أإن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين (٤١) قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين (٤٢) قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (٤٣)
فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (٤٤) فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون (٤٥) فألقي السحرة ساجدين (٤٦) قالوا آمنا برب العالمين (٤٧) رب موسى وهارون (٤٨)

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» ٣/ ٤١٤: يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون، **وتمرده**، وطغيانه وجحوده في قوله وما رب العالمين وذلك أنه كان يقول لقومه: ما علمت لكم من إله غيري فاستخف قومه فأطاعوه وكانوا يجحدون الصانع- تعالى- ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون. فلما قال موسى: إني رسول رب العالمين قال له: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟! ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم

أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن ماهيته. بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فيجيبه موسى:
رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلا لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ألا تستمعون أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلها غيري. فأجاب موسى بقوله: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى- عليه السلام- فقال: ما أخبر الله تعالى عنه: قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين.." (١)

"قوله تعالى: أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «يتقبل» «ويتجاوز» بالياء المضمومة فيهما. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف: «نتقبل» و «نتجاوز» بالنون فيهما، وقرأ أبو المتوكل، وأبو رجاء، وأبو عمران الجوني: «يتقبل» «ويتجاوز» بياء مفتوحة فيهما، يعني أهل هذا القول، والأحسن بمعنى الحسن. في أصحاب الجنة أي: في جملة من يتجاوز عنهم، وهم أصحاب الجنة. وقيل: «في» بمعنى «مع» . وعد الصدق قال الزجاج: هو منصوب، لأنه مصدر مؤكد لما قبله، لأن قوله: «أولئك الذين نتقبل عنهم» بمعنى الوعد، لأنه وعدهم القبول بقوله: «وعد الصدق» ، يؤكد ذلك قوله: الذي كانوا يوعدون أي: على ألسنة الرسل في الدنيا.

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١٧ الى ٢٠]

والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين (١٧) أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين (١٨) ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون (١٩) ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون (٢٠)
قوله تعالى: والذي قال لوالديه أف لكما «١» قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي. وأبو بكر عن عاصم:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣٣٨/٣

«أف لكما» بالخفض من غير تنوين. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: بفتح الفاء. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: «أف» بالخفض والتنوين. وقرأ ابن يعمر: «أف» بتشديد الفاء مرفوعة منونة. وقرأ حميد، والجحدري: «أفا» بتشديد الفاء وبالنصب والتنوين. وقرأ عمرو بن دينار: «أف» بتشديد الفاء وبالرفع من غير تنوين. وقرأ أبو المتوكل، وعكرمة، وأبو رجاء: «أف لكما» باسكان الفاء خفيفة. وقرأ أبو العالية، وأبو عمران: «أفي» بتشديد الفاء وياء ساكنة ممالة.

(١٢٦٥) وروي عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام، وهو يأبى، وعلى هذا جمهور المفسرين.

(١٢٦٦) وقد روي عن عائشة أنها كانت تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن، وتخلف

أخرجه الطبري ٣١٢٧٥ عن ابن عباس برواية عطية العوفي، قال: هذا ابن لأبي بكر. ولا يصح هذا، فإن رواية عطية العوفي ضعيف، وعنه من لا يعرف.

أخرجه النسائي في «التفسير» ٥١١ والحاكم ٤/ ٤٨١ والخطابي في «غريب الحديث» ٢/ ٥١٧ عن محمد بن زياد عن عائشة، وهذا منقطع، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما، وتعقبه الذهبي بقوله: محمد لم يسمع من عائشة. وللقصة طريق أخرى عند البزار ١٦٢٤ «كشف» وفيه عبد الله البهي، وثقه قوم، وضعفه أبو حاتم الرازي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٢٤١ إسناد البزار حسن. وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» ٨/ ٨٩:

لا يصح هذا عن عائشة. قلت: الذي صح في ذلك هو ما أخرجه البخاري ٤٨٢٧ عن يوسف بن ماهيك. قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني فقالت عائشة من وراء الحجاب: «ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري» .

---

(١) قال الطبري رحمه الله في «جامع البيان» ١١/ ٢٨٧: وهذا نعت من الله تعالى ذكره، نعت ضال به

كافر، وبوالديه عاق، وهما مجتهدان في نصيحته ودعائه إلى الله، فلا يزيده دعاؤهما إياه إلى الحق ونصيحتهما له إلا عتوا وتمردا على الله، وتماديا في جهله.." (١)

"[سورة النازعات (٧٩) : الآيات ١٥ الى ٣٣]

هل أتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩)

فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤)

فأخذه الله نكال الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦) أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها (٢٧) رفع سمكها فسواها (٢٨) وأغطش ليلها وأخرج ضحاها (٢٩)

والأرض بعد ذلك دحاها (٣٠) أخرج منها ماءها ومرعاها (٣١) والجبال أرساها (٣٢) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٣)

قوله عز وجل: هل أتاك حديث موسى أي: قد جاءك. وقد بينا هذا في طه «١» وما بعده إلى قوله عز وجل: طوى (١٦) اذهب قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «طوى اذهب» غير مجراة. وقرأ الباقون «طوى» منونة، فقل هل لك إلى أن تزكى وقرأ ابن كثير، ونافع، «تزكى» بتشديد الزاي، أي: تطهر من الشرك وأهديك إلى ربك أي: أدعوك إلى توحيده، وعبادته فتخشى عذابه فأراه الآية الكبرى وفيها قولان: أحدهما: أنها اليد والعصا، قاله جمهور المفسرين. والثاني: أنها اليد قاله الزجاج.

قوله عز وجل: فكذب أي بأنها من الله، وعصى نبيه ثم أدبر أي: أعرض عن الإيمان يسعى أي: يعمل بالفساد في الأرض فحشر لما اجتمعوا فقال أنا ربكم الأعلى أي: أنا لا رب فوقي. وقيل أراد أن الأصنام أرباب، وأنا ربها وربكم. وقيل: أراد: أنا رب السادة والقادة.

قوله عز وجل: فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فيه أربعة أقوال «٢» : أحدها: أن الأولى قوله: ما علمت لكم من إله غيري «٣» والآخرة قوله: أنا ربكم الأعلى قاله ابن عباس، وعكرمة، والشعبي، ومقاتل، والفراء. ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. قال ابن عباس: وكان بينهما أربعون سنة. قال السدي: فبقي بعد الآخرة ثلاثين سنة. قال الفراء: فالمعنى: أخذه الله أخذا نكالا للآخرة والأولى.

والثاني: المعنى: جعله الله نكال الدنيا والآخرة، أغرقه في الدنيا، وعذبه في الآخرة، قاله الحسن، وقتادة.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤/١٠٨

وقال الربيع بن أنس: عذبه الله في أول النهار بالغرق، وفي آخره بالنار. والثالث: أن الأولى: تكذيبه وعصيانه. والآخرة قوله: أنا ربكم الأعلى قاله أبو رزين. والرابع: أنها أول أعماله وآخرها، رواه منصور عن مجاهد. قال الزجاج: النكال: منصوب، مصدر مؤكد، لأن معنى أخذه الله: نكل الله به نكال الآخرة والأولى: فأغرقه في الدنيا ويعذبه في الآخرة.

قوله عز وجل: إن في ذلك الذي فعل بفرعون لعبرة أي عظة لمن يخشى الله.

ثم خاطب منكري البعث، فقال عز وجل: أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها قال الزجاج: ذهب بعض النحويين الى أن قوله عز وجل: بناها من صفة السماء، فيكون المعنى: أم السماء التي بناها. وقال

---

(١) طه: ٩.

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» ٤/ ٥٥٣: قال تعالى: فأخذه الله نكال الآخرة والأولى أي انتقم منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من **المتمردين** في الدنيا ويوم القيامة بئس الرفد المرفود كما قال تعالى:

وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون هذا هو الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: نكال الآخرة والأولى أي: الدنيا والآخرة. لا شك فيه.

(٣) القصص: ٣٨.." [1]

"قوله عز وجل: ناصية قال أبو عبيدة: هي بدل، فلذلك جرها. قال الزجاج: والمعنى: بناصية صاحبها كاذب خاطئ، كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم، أي: هو صائم في نهاره، قائم في ليله فليدع ناديه أي: أهل ناديه، وهم أهل مجلسه فليستنصرهم سندع الزبانية قال عطاء: هم الملائكة الغلاظ الشداد، وقال مقاتل: هم خزنة جهنم. وقال قتادة: الزبانية في كلام العرب: الشرط. قال الفراء: كان الكسائي يقول: لم أسمع للزبانية بواحد، ثم قال بأخرة: واحد الزبانية: زبني، فلا أدري أقياسا منه أو سماعا. وقال أبو عبيدة: واحد الزبانية: زبنية، وهو كل **متمرد** من إنس، أو جان. يقال:

فلان زبنية عفرية. قال ابن قتيبة: وهو مأخوذ من الزبن، وهو الدفع، كأنهم يدفعون أهل النار إليها.

وقال ابن دريد: الزبن: الدفع. يقال: ناقة زبون: إذا زبنت حالبها. ودفعته برجلها. وتزابن القوم: تدارؤوا. واشتقاق الزبانية من الزبن. والله أعلم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣٩٦/٤

قوله عز وجل: كلا أي: ليس الأمر على ما عليه أبو جهل لا تطعه في ترك الصلاة واسجد أي: صل لله واقترب إليه بالطاعة، وهذا قول الجمهور أن قوله عز وجل: واقترب خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وقد قيل: إنه خطاب لأبي جهل: ثم فيه قولان: أحدهما: أن المعنى: اسجد أنت يا محمد، واقترب أنت يا أبا جهل إلى النار، قاله زيد بن أسلم. والثاني: واقترب يا أبا جهل تهددا له، رواه أبو سليمان الدمشقي عن بعض القدماء وهذا يشرحه حديث أبي هريرة الذي قدمناه.

(١٠٤٧) وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء» .

صحيح. أخرجه مسلم ٤٨٢ والنسائي ٢/ ٢٢٦ وأحمد ٢/ ٤٢١ وأبو يعلى ٦٦٥٨ وابن حبان ١٩٢٨ وأبو عوانة ٢/ ١٨٠ والبيهقي ٢/ ١١٠ من طرق عن ابن وهب به. من حديث أبي هريرة. وأخرجه أبو داود ٨٧٥ عن أحمد بن صالح وأحمد بن عمرو، ومحمد بن سلمة به. وأخرجه البغوي في «شرح السنة» ٦٥٩ وفي «التفسير» ٢٣٧٣ من طريق أبي داود سليمان بن الأشعث به.." [١]

"عن هذا الدليل في جواز القراءة خارج الصلاة فوجب أن تبقى قراءتها في الصلاة على أصل المنع.

المسألة الثالثة عشرة: اتفق الأكثرون على أن القراءات المشهورة منقولة بالنقل المتواتر وفيه إشكال:

وذلك لأنا نقول: هذه القراءات المشهورة إما أن تكون منقولة بالنقل المتواتر أو لا تكون، فإن كان الأول فحينئذ قد ثبت بالنقل المتواتر أن الله تعالى قد خير المكلفين بين هذه القراءات وسوى بينها في الجواز، وإذا كان كذلك كان ترجيح بعضها على البعض واقعا على خلاف الحكم الثابت بالتواتر، فوجب أن يكون الذاهبون إلى ترجيح البعض على البعض مستوجبين للتفسيق إن لم يلزمهم التكفير، لكنا نرى أن كل واحد من هؤلاء القراء يختص بنوع معين من القراءة، ويحمل الناس عليها ويمنعهم من غيرها، فوجب أن يلزم في حقهم ما ذكرناه، وأما إن قلنا إن هذه القراءات ما ثبتت بالتواتر بل بطريق الآحاد فحينئذ يخرج القرآن عن كونه مفيدا للجزم والقطع واليقين، وذلك باطل بالإجماع، ولقائل أن يجيب عنه فيقول: بعضها متواتر، ولا خلاف بين الأمة فيه، وتجويز القراءة بكل واحد منها، وبعضها من باب الآحاد وكون بعض القراءات من باب الآحاد لا يقتضي خروج القرآن بكليته عن كونه قطعيا، والله أعلم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤٦٨/٤

الباب الثاني في المباحث العقلية المستنبطة من قولنا: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

اعلم أن الكلام في هذا الباب يتعلق بأركان خمسة: الاستعاذة، والمستعيذ، والمستعاذ به، والمستعاذ منه، والشيء الذي لأجله تحصل الاستعاذة.

الركن الأول: في الاستعاذة، وفيه مسائل: - تفسير الاستعاذة:

المسألة الأولى [تفسير الاستعاذة] : في تفسير قولنا: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بحسب اللغة فنقول: قوله: «أعوذ» مشتق من العوذ، وله معنيان: أحدهما: الالتجاء والاستجارة، والثاني: الالتصاق يقال: «أطيب اللحم عوذه» وهو ما التصق منه بالعظم، فعلى الوجه الأول معنى قوله أعوذ بالله أي: ألتجئ إلى رحمة الله تعالى وعصمته، وعلى الوجه الثاني معناه ألتصق نفسي بفضل الله وبرحمته.

وأما الشيطان ففيه قولان: الأول: أنه مشتق من الشطن، وهو البعد، يقال: شطن دارك أي بعد، فلا جرم سمي كل **متمرد** من جن وإنس ودابة شيطانا لبعده من الرشاد والسداد، قال الله تعالى: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن [الأنعام: ١١٢] فجعل من الإنس شياطين، وركب عمر برذونا فطفق يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترا فنزل عنه وقال: ما حملتموني إلا على شيطان. والقول الثاني: إن الشيطان مأخوذ من قوله شاط يشيط إذا بطل، ولما كان كل **متمرد** كالباطل في نفسه بسبب كونه مبطلا لوجوه مصالح نفسه سمي شيطانا.." (١)

"وأما الرجيم فمعناه المرجوم، فهو فعيل بمعنى مفعول. كقولهم: كف خضيب أي مخضوب ورجل لعين، أي ملعون، ثم في كونه مرجوما وجهان: الأول: أن كونه مرجوما كونه ملعونا من قبل الله تعالى، قال الله تعالى: فاخرج منها فإنك رجيم [الحجر: ٣٤] واللعن يسمى رجما، وحكى الله تعالى عن والد إبراهيم عليه السلام أنه قال له: لئن لم تنته لأرجمنك [مريم: ٤٦] قيل عنى به الرجم بالقول، وحكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا: لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين [الشعراء: ١١٦] وفي سورة يس لئن لم تنتهوا لنرجمنكم [يس: ١٨] والوجه الثاني: أن الشيطان إنما وصف بكونه مرجوما لأنه تعالى أمر الملائكة برمي الشياطين بالشهب والثواقب طردا لهم من السموات، ثم وصف بذلك كل شرير **متمرد**.

وأما قوله: «إن الله هو السميع العليم» ففيه وجهان: الأول: أن الغرض من الاستعاذة الاحتراز من شر الوسوسة ومعلوم أن الوسوسة كأنها حروف خفية في قلب الإنسان، ولا يطلع عليها أحد، فكأن العبد يقول: يا من هو على هذه الصفة التي يسمع بها كل مسموع، ويعلم كل سر خفي أنت تسمع وسوسة الشيطان

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٠/١

وتعلم غرضه فيها، وأنت القادر على دفعها عني، فادفعها عني بفضلك، فلهذا السبب كان ذكر السميع العليم أولى بهذا الموضع من سائر الأذكار،: الثاني: أنه إنما تعين هذا الذكر بهذا الموضع اقتداء بلفظ القرآن، وهو قوله تعالى:

وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم [الأعراف: ٢٠٠] وقال في حم السجدة: إنه هو السميع العليم [فصلت: ٣٦] .

المسألة الثانية: في البحث العقلي عن ماهية الاستعاذة: اعلم أن الاستعاذة لا تتم إلا بعلم وحال وعمل، أما العلم فهو كون العبد عالما بكونه عاجزا عن جلب المنافع الدينية والدنيوية وعن دفع جميع المضار الدينية والدنيوية، وأن الله تعالى قادر على إيجاد جميع المنافع الدينية والدنيوية وعلى دفع جميع المضار الدينية والدنيوية قدرة لا يقدر أحد سواه على دفعها عنه. فإذا حصل هذا العلم في القلب تولد عن هذا العلم حصول حالة في القلب، وهي انكسار وتواضع ويعبر عن تلك الحالة بالتضرع إلى الله تعالى والخضوع له، ثم إن حصول تلك الحالة في القلب يوجب حصول صفة أخرى في القلب وصفة في اللسان، أما الصفة الحاصلة في القلب فهي أن يصير العبد مريدا لأن يصونه الله تعالى عن الآفات ويخصه بإفاضة الخيرات والحسنات وأما الصفة التي في اللسان فهي أن يصير العبد طالبا لهذا المعنى بلسانه من الله تعالى، وذلك الطلب هو الاستعاذة، وهو قوله: «أعوذ بالله» إذا عرفت ما ذكرنا يظهر لك أن الركن الأعظم في الاستعاذة هو علمه بالله، وعلمه بنفسه، أما علمه بالله فهو أن يعلم كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات، فإنه لو لم يكن الأمر كذلك لجاز أن لا يكون الله عالما به ولا بأحواله، فعلى هذا التقدير تكون الاستعاذة به عبثا، ولا بد وأن يعلم كونه قادرا على جميع الممكنات وإلا فربما كان عاجزا عن تحصيل مراد البعد، ولا بد أن يعلم أيضا كونه جوادا مطلقا، إذ لو كان البخل عليه جائزا لما كان في الاستعاذة فائدة، ولا بد أيضا وأن يعلم أنه لا يقدر أحد سوى الله تعالى على أن يعينه على مقاصده، إذ لو جاز أن يكون غير الله يعينه على مقاصده لم تكن الرغبة قوية في الاستعاذة بالله، وذلك لا يتم إلا بالتوحيد المطلق وأعني بالتوحيد المطلق أن يعلم أن مدبر العالم واحد، وأن يعلم أيضا أن العبد غير مستقل بأفعال نفسه، إذ لو كان مستقلا بأفعال نفسه لم يكن في الاستعاذة بالغير فائدة، فثبت بما ذكرنا أن العبد ما لم يعرف عزة الربوبية وذلة العبودية لا يصح منه أن يقول: / (أعوذ بالله من الشيطان." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧١/١

"إلى وثن كان أهل الجاهلية يتحاكمون إليه، ورجل قائم يترجم الأباطيل عن الوثن، فالمراد بالطاغوت هو ذلك الرجل.

الرواية الرابعة: كانوا يتحاكمون إلى الأوثان، وكان طريقهم أنهم يضربون القداح بحضرة الوثن، فما خرج على القداح عملوا به، وعلى هذا القول فالطاغوت هو الوثن.

واعلم أن المفسرين اتفقوا على أن هذه الآية نزلت في بعض المنافقين، ثم قال أبو مسلم: ظاهر الآية يدل على أنه كان منافقا من أهل الكتاب، مثل أنه كان يهوديا فأظهر الإسلام على سبيل النفاق لأن قوله تعالى: يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك إنما يليق بمثل هذا المنافق.

المسألة الثالثة: مقصود الكلام أن بعض الناس أراد أن يتحاكم إلى بعض أهل الطغيان ولم يرد التحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم. قال القاضي: ويجب أن يكون التحاكم إلى هذا الطاغوت كالكفر، وعدم الرضا بحكم محمد عليه الصلاة والسلام كفر، ويدل عليه وجوه: الأول: أنه تعالى قال: يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به فجعل التحاكم إلى الطاغوت يكون إيمانا به، ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله، كما أن الكفر بالطغوت إيمان بالله. الثاني: قوله تعالى: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم إلى قوله: ويسلموا تسليما [النساء: ٦٥] وهذا نص في تكفير من لم يرض بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام.

الثالث: قوله تعالى: فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم [النور: ٦٣] وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة، وفي هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئا من أوامر الله أو أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام فهو خارج عن الإسلام، سواء رده من جهة الشك أو من جهة **التمرد**، وذلك يوجب صحة ما ذهبت الصحابة إليه من الحكم بارتداد مانعي الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: إن قوله تعالى: ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا يدل على أن كفر الكافر ليس بخلق الله ولا بإرادته، وبيانه من وجوه: الأول: أنه لو خلق الله الكفر في الكافر وأراده منه فأي تأثير للشيطان فيه، وإذا لم يكن له فيه تأثير فلم ذمه عليه؟ الثاني: أنه تعالى ذم الشيطان بسبب أنه يريد هذه الضلالة؟ فلو كان تعالى مريدا لها لكان هو بالذم أولى من حيث أن كل من عاب شيئا ثم فعله كان بالذم أولى قال تعالى: كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون [الصف: ٣] الثالث: أن قوله تعالى في أول الآية صريح في إظهار التعجب من أنهم كيف تحاكموا إلى الطاغوت مع أنهم قد أمروا أن يكفروا به، ولو كان ذلك التحاكم بخلق الله لما بقي التعجب، فانه يقال: إنما فعلوا لا جل أنك خلقت ذلك الفعل فيهم

وأردته منهم، بل التعجب من هذا التعجب أولى، فإن من فعل ذلك فيهم ثم أخذ يتعجب منهم أنهم كيف فعلوا ذلك كان التعجب من هذا التعجب أولى.

واعلم أن حاصل هذا الاستدلال يرجع إلى التمسك بطريقة المدح أو الذم، وقد عرفت منا أنا لا نقدح في هذه الطريقة إلا بالمعارضة بالعلم والداعي والله أعلم.

ثم قال تعالى: وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا وفيه مسألتان:." (١)

"أتوا بجناية خافوا بسببها منك، ثم جاؤك شاءوا أم أبوا ويحلفون بالله على سبيل الكذب: أنا ما أردنا بتلك الجناية إلا الخير والمصلحة، والغرض من هذا الكلام بيان أن ما في قلبهم من النفرة عن الرسول لا غاية له، سواء غابوا أم حضروا، وسواء بعدوا أم قربوا، ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى بقوله: أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم والمعنى أن من أراد المبالغة في شيء قال: هذا شيء لا يعلمه إلا الله، يعني أنه لكثرته وقوته لا يقدر أحد على معرفته إلا الله تعالى، ثم لما عرف الرسول عليه الصلاة والسلام شدة بغضهم ونهاية عداوتهم ونفرتهم أعلمه أنه كيف يعاملهم فقال: فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا وهذا الكلام على ما قررناه منتظم حسن الاتساق لا حاجة فيه إلى شيء من الحذف والإضمار، ومن طالع كتب التفسير علم أن المتقدمين والمتأخرين كيف اضطربوا فيه والله أعلم.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير قوله: أصابتهم مصيبة وجوها: الأول: أن المراد منه قتل عمر صاحبهم الذي أقر أنه لا يرضى بحكم الرسول عليه السلام، فهم جاءوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام فطالبوا عمر بدمه وحلفوا أنهم ما أرادوا بالذهاب إلى غير الرسول إلا المصلحة، وهذا اختيار الزجاج. الثاني: قال أبو علي الجبائي: المراد من هذه المصيبة ما أمر الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام من أنه لا يستصحبهم في الغزوات، وأنه يخصهم بمزيد الإذلال والطرد عن حضرته وهو قوله تعالى: لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم/ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا [الأحزاب: ٦٠- ٦١] وقوله: فقل لن تخرجوا معي أبدا [التوبة: ٨٣] وبالجملة فأمثال هذه الآيات توجب لهم الذل العظيم، فكانت معدودة في مصائبهم، وإنما يصيبهم ذلك لأجل، نفاقهم، وعني بقوله: ثم جاؤك أي وقت المصيبة يحلفون ويعتذرون أنا ما أردنا بما كان منا من مداراة الكفار الا الصلاح، وكانوا في ذلك كاذبين لا نهم أضمروا خلاف ما أظهروه، ولم يريدوا بذلك الإحسان الذي هو

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠/١٢١

الصلاح. الثالث:
قال أبو مسلم الأصفهاني: إنه تعالى لما أخبر عن المنافقين أنهم رغبوا في حكم الطاغوت وكرهوا حكم الرسول، بشر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ستصيبهم مصائب تلجئهم إليه، وإلى أن يظهروا له الإيمان به وإلى أن يحلفوا بأن مرادهم الإحسان والتوفيق. قال: ومن عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا: كيف أنت إذا كان كذا وكذا، ومثاله قوله تعالى: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد [النساء: ٤١] وقوله: فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه [آل عمران: ٢٥] ثم أمره تعالى إذا كان منهم ذلك أن يعرض عنهم ويعظهم.
المسألة الثالثة: في تفسير الإحسان والتوفيق وجوه: الأول: معناه ما أردنا بالتحاكم إلى غير الرسول صلى الله عليه وسلم إلا الإحسان إلى خصومنا واستدامة الاتفاق والائتلاف فيما بيننا، وإنما كان التحاكم إلى غير الرسول إحسانا إلى الخصوم لأنهم لو كانوا عند الرسول لما قدروا على رفع صوت عند تقرير كلامهم، ولما قدروا على **التمرد** من حكمه، فإذن كان التحاكم إلى غير الرسول إحسانا إلى الخصوم. الثاني: أن يكون المعنى ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أنه يحسن إلى صاحبنا بالحكم العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنه يحكم بما حكم به الرسول. الثالث: أن يكون المعنى ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك يا رسول الله إلا أنك لا تحكم إلا بالحق المر، وغيرك يدور على التوسط ويأمر كل واحد من الخصمين بالإحسان إلى الآخر، وتقريب مراده من مراد صاحبه حتى يحصل بينهما الموافقة.." (١)
"المسألة الخامسة: الآية دالة على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن المعاصي والذنوب لأنها دلت على وجوب طاعتهم مطلقا، فلو أتوا بمعصية لوجب علينا الاقتداء بهم في تلك المعصية فتصير تلك المعصية واجبة علينا، وكونها معصية يوجب كونها محرمة علينا، فيلزم توارد الإيجاب والتحريم على الشيء الواحد وإنه محال.
فإن قيل: ألستم في الاعتراض على كلام الجبائي ذكرتم أن قوله: إلا ليطاع لا يفيد العموم، فكيف تمسكتم به في هذه المسألة مع أن هذا الاستدلال لا يتم إلا مع القول بأنها تفيد العموم.
قلنا: ظاهر اللفظ يوهم العموم، وإنما تركنا العموم في تلك المسألة للدليل العقلي القاطع الذي ذكرناه على أنه يستحيل منه تعالى أن يريد الإيمان من الكافر، فلأجل ذلك المعارض القاطع صرفنا الظاهر عن العموم، وليس في هذه المسألة برهان قاطع عقلي يوجب القدح في عصمة الأنبياء فظهر الفرق.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٠/١٢٣

قوله تعالى: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في سبب النزول وجهان: الأول: المراد به من تقدم ذكره من المنافقين، يعني لو أنهم عند ما ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت والفرار من التحاكم إلى الرسول جاءوا الرسول وأظهروا الندم على ما فعلوه وتابوا عنه واستغفروا منه واستغفر لهم الرسول بأن يسأل الله أن يغفرها لهم عند توبتهم لوجدوا الله توابا رحيما. الثاني:

قال أبو بكر الأصم: أن قوما من المنافقين اصطلحوا على كيد في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم دخلوا عليه لأجل ذلك الغرض فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره به، فقال صلى الله عليه وسلم: إن قوما دخلوا يريدون أمرا لا ينالونه، فليقوموا وليستغفروا الله حتى أستغفر لهم فلم يقوموا، فقال: ألا تقومون، فلم يفعلوا فقال صلى الله عليه وسلم: قم يا فلان قم يا فلان حتى عد اثني عشر رجلا منهم، فقاموا وقالوا: كنا عزمنا على ما قلت، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا فاستغفر لنا، فقال: الآن اخرجوا أنا كنت في بدء الأمر أقرب إلى الاستغفار: وكان الله أقرب إلى الإجابة اخرجوا عني.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح لكانت توبتهم مقبولة، فما الفائدة في ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه: الأول: أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله، وكان أيضا إساءة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وإدخالا للغم في قلبه، ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره، فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم. الثاني: أن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم ذلك التمر، فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك **التمرد**، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويطلبوا منه الاستغفار. الثالث: لعلهم إذا أتوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول والله أعلم.

المسألة الثالثة: إنما قال: واستغفر لهم الرسول ولم يقل واستغفرت لهم إجلالا للرسول عليه الصلاة." (١)

"إليه بلا منازعة، وسلم إليه أي رضي بحكمه، وسلم إلى فلان في كذا، أي ترك منازعته فيه، وسلم إلى الله أمره أي فوض إليه حكم نفسه، على معنى أنه لم ير لنفسه في أمره أثرا ولا شركة، وعلم أن المؤثر الصانع هو الله تعالى وحده لا شريك له.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢٦/١٠

المسألة الرابعة: اعلم أن قوله تعالى: فلا وربك لا يؤمنون قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط: أولها: قوله تعالى: حتى يحكموك فيما شجر بينهم وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمنا.

واعلم أن من يتمسك بهذه الآية في بيان أنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بإرشاد النبي المعصوم قال: لأن قوله: لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم تصريح بأنه لا يحصل لهم الإيمان إلا بأن يستعينوا بحكم النبي عليه الصلاة والسلام في كل ما اختلفوا فيه، ونرى أهل العلم مختلفين في صفات الله سبحانه وتعالى، فمن معطل ومن مشبه، ومن قدري ومن جبري، فلزم بحكم هذه الآية أنه لا يحصل الإيمان إلا بحكمه وإرشاده وهدايته، وحققوا ذلك بأن عقول أكثر الخلق ناقصة وغير وافية بإدراك هذه الحقائق؟ وعقل النبي المعصوم كامل مشرق، فإذا اتصل إشراق نوره بعقول الأمة قويت عقولهم وانقلبت من النقص إلى الكمال، ومن الضعف إلى القوة، فقدروا عند ذلك على معرفة هذه الأسرار الإلهية. والذي يؤكد ذلك أن الذين كانوا في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا جازمين متيقنين كاملي الإيمان والمعرفة، والذين بعدوا عنه اضطربوا واختلفوا، وهذه المذاهب ما تولدت إلا بعد زمان الصحابة والتابعين، فثبت أن الأمر كما ذكرنا، والتمسك بهذه الآية رأيته في كتب محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، فيقال له: فهذا الاستقلال الذي ذكرته إنما استخرجته من عقلك، فإذا كان عقول الأكثرين ناقصة فلعلك ذكرت هذا الاستدلال لنقصان عقلك، وإذا كان هذا الاحتمال قائما وجب أن يشك في صحة مذهبك وصحة هذا الدليل الذي تمسكت به، ولأن معرفة النبوة موقوفة على معرفة الإله، فلو توقفت معرفة الإله على معرفة النبوة لزم الدور، وهو محال.

الشرط الثاني: قوله: ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت قال الزجاج: لا تضيق صدورهم من أقضيتك. واعلم أن الراضي بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام قد يكون راضيا به في الظاهر دون القلب فبين في هذه الآية أنه لا بد من حصول الرضا به في القلب، واعلم أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر، فليس المراد من الآية ذلك، بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذي يحكم به الرسول هو الحق والصدق.

الشرط الثالث: قوله تعالى: ويسلموا تسليما واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقا وصدقا قد **يتمرد** عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف في ذلك القبول، فبين تعالى أنه كما لا بد في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب. فلا بد أيضا من التسليم معه في الظاهر، فقوله: ثم لا يجدوا في أنفسهم

حرجا مما قضيت المراد به الانقياد في الباطن، وقوله: ويسلموا تسليما المراد منه الانقياد في الظاهر والله أعلم.

المسألة الخامسة: دلت الآية على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن الخطأ في الفتوى وفي الأحكام، ." (١)

"لأنه تعالى أوجب الانقياد لحكمهم وبالغ في ذلك الإيجاب وبين أنه لا بد من حصول ذلك الانقياد في الظاهر وفي القلب، وذلك ينفي صدور الخطأ عنهم، فهذا يدل على أن قوله: عفا الله عنك لم أذنت لهم [التوبة: ٤٣] وأن فتواه في أسارى بدر، وأن قوله: لم تحرم ما أحل الله لك [التحريم: ١] وأن قوله: عبس وتولى [عبس: ١] كل ذلك محمول على الوجوه التي لخصناها في هذا الكتاب.

المسألة السادسة: من الفقهاء من تمسك بقوله تعالى: ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت على أن ظاهر الأمر للوجوب، وهو ضعيف لأن القضاء هو الإلزام، ولا نزاع في أنه للوجوب.

المسألة السابعة: ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الإطلاق، وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره، ومثل هذه المبالغة المذكورة في هذه الآية قلما يوجد في شيء من التكاليف، وذلك يوجب تقديم عموم القرآن والخبر على حكم القياس، وقوله: ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت مشعر بذلك لأنه متى خطر بباله قياس يفضي إلى نقيض مدلول النص فهناك يحصل الحرج في النفس، فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج، ويسلم النص تسليما كليا، وهذا الكلام قوي حسن لمن أنصف.

المسألة الثامنة: قالت المعتزلة: لو كانت الطاعات والمعاصي بقضاء الله تعالى لزوم التناقض، / وذلك لأن الرسول إذا قضى على إنسان بأنه ليس له أن يفعل الفعل الفلاني وجب على جميع المكلفين الرضا بذلك لأنه قضاء الرسول. والرضا بقضاء الرسول واجب لدلالة هذه الآية، ثم لو أن ذلك الرجل فعل ذلك الفعل على خلاف فتوى الرسول، فلو كانت المعاصي بقضاء الله لكان ذلك الفعل بقضاء الله، والرضا بقضاء الله واجب، فيلزم أن يجب على المكلفين الرضا بذلك الفعل. لأنه قضاء الله، فوجب أن يلزمهم الرضا بالفعل والترك معا، وذلك محال.

و الجواب: أن المراد من قضاء الرسول الفتوى المشروعة، والمراد من قضاء الله التكوين والإيجاد، وهما مفهومان متغايران، فالجمع بينهما لا يفضي إلى التناقض.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢٨/١٠

[سورة النساء (٤) : الآيات ٦٦ الى ٦٨]

ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا (٦٦) وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما (٦٧) ولهديناهم صراطا مستقيما (٦٨)

اعلم أن هذه الآية متصلة بما تقدم من أمر المنافقين وترغيبهم في الإخلاص وترك النفاق، والمعنى أنا لو شددنا التكليف على الناس، نحو أن نأمرهم بالقتل والخروج عن الأوطان لصعب ذلك عليهم ولما فعله إلا الأقلون، وحينئذ يظهر كفرهم وعنادهم، فلما لم نفعل ذلك رحمة منا على عبادنا بل اكتفينا بتكليفهم في الأمور السهلة، فليقبلوها بالإخلاص وليتركوا **التمرد** والعناد حتى ينالوا خير الدارين، [في قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم] وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي: أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم بضم النون في «أن» وضم واو «أو»." [1]

"الجهاد وتحريض الناس في الجهاد، فإن أتى بهذين الأمرين فقد خرج عن عهدة التكليف وليس عليه من كون غيره تاركا للجهاد شيء.

ثم قال: عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عسى حرف من حروف المقاربة وفيه ترج وطمع، وذلك على الله تعالى محال.

والجواب عنه أن «عسى» معناها الإطماع، وليس في الإطماع أنه شك أو يقين، وقال بعضهم: إطماع الكريم إيجاب.

المسألة الثانية: الكف المنع، والبأس أصله المكروه، يقال ما عليك من هذا الأمر بأس أي مكروه، ويقال بئس الشيء هذا إذا وصف بالرداءة، وقوله: بعذاب بئيس [الأعراف: ١٦٥] أي مكروه، والعذاب قد يسمى بأسا لكونه مكروها، قال تعالى: فمن ينصرنا من بأس الله [غافر: ٢٩] فلما أحسوا بأسنا [الأنبياء: ١٢] فلما رأوا بأسنا [غافر: ٨٤] قال المفسرون: عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا، وقد كف بأسهم، فقد بدا لأبي سفيان وقال هذا عام مجدب وما كان معهم زاد إلا السويق، فترك الذهاب إلى محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢٩/١٠

ثم قال تعالى: والله أشد بأسا وأشد تنكيلا يقال: نكلت فلانا إذا عاقبته عقوبة تنكل غيره عن ارتكاب مثله، من قولهم: نكل الرجل عن الشيء إذا جبن عنه وامتنع منه، قال تعالى: فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها [البقرة: ٦٦] وقال في السرقة: بما كسبا نكالا من الله [المائدة: ٣٨] ويقال: نكل فلان عن اليمين إذا خافه ولم يقدم عليه.

إذا عرفت هذا فنقول: الآية دالة على أن عذاب الله وتنكيله أشد من عذاب غيره ومن تنكيله، وأقبل الوجوه في بيان هذا التفاوت أن عذاب غير الله لا يكون دائما، وعذاب الله دائم في الآخرة، وعذاب غير الله قد يخلص الله منه، وعذاب الله لا يقدر أحد على التخلص منه، وأيضا عذاب غير الله لا يكون إلا من وجه واحد، وعذاب الله قد يصل إلى جميع الأجزاء والأبعاض والروح والبدن.

[سورة النساء (٤) : آية ٨٥]

من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا (٨٥)

[في قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها]

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها: الأول: أن الله تعالى أمر الرسول عليه السلام بأن يحرض الأمة على الجهاد، والجهاد من الأعمال الحسنة والطاعات الشريفة، فكان تحريض النبي عليه الصلاة والسلام للأمة على الجهاد تحريضا منه لهم على الفعل الحسن والطاعة الحسنة، فبين تعالى في هذه الآية أن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، والغرض/ منه بيان أنه عليه الصلاة والسلام لما حرضهم على الجهاد فقد استحق بذلك التحريض أجرا عظيما. الثاني: أنه تعالى لما أمره بتحريضهم على الجهاد ذكر أنهم لو لم يقبلوا أمره لم يرجع إليه من عصيانهم **وتمردهم** عيب، ثم بين في هذه الآية أنهم لما أطاعوا وقبلوا." (١)

"فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن شرع محمد عليه الصلاة والسلام نفس شرع إبراهيم، وعلى هذا التقدير لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام صاحب شريعة مستقلة، وأنتم لا تقولون بذلك.

قلنا: يجوز أن تكون ملة إبراهيم داخلة في ملة محمد عليه الصلاة والسلام مع اشتمال هذه الملة على زوائد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥٨/١٠

حسنة وفوائد جليلة.

ثم قال تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلا وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق هذه الآية بما قبلها، وفيه وجهان: الأول: أن إبراهيم عليه السلام/ لما بلغ في علو الدرجة في الدين أن اتخذه الله خليلا كان جديرا بأن يتبع خلقه وطريقته. والثاني: أنه لما ذكر ملة إبراهيم ووصفه بكونه حنيفا ثم قال عقيبه واتخذ الله إبراهيم خليلا أشعر هذا بأنه سبحانه إنما اتخذه خليلا لأنه كان عالما بذلك الشرع آتيا بتلك التكاليف، ومما يؤكد هذا قوله وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما [البقرة: ١٢٤] وهذا يدل على أنه سبحانه إنما جعله إماما للخلق لأنه أتم تلك الكلمات.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما دلت الآية على أن إبراهيم عليه السلام إنما كان بهذا المنصب العالي وهو كونه خليلا لله تعالى بسبب أنه كان عاملا بتلك الشريعة كان هذا تنبيها على أن من عمل بهذا الشرع لا بد وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين.

فإن قيل: ما موقع قوله واتخذ الله إبراهيم خليلا.

قلنا: هذه الجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب، ونظيره ما جاء في الشعر من قوله:

والحوادث جمة والجملة الاعتراضية من شأنها تأكيد ذلك الكلام، والأمر هاهنا كذلك على ما بيناه.

المسألة الثانية: ذكروا في اشتقاق الخليل وجوها: الأول: أن خليل الإنسان هو الذي يدخل في خلال أموره وأسراره، والذي دخل حبه في خلال أجزاء قلبه، ولا شك أن ذلك هو الغاية في المحبة.

قيل: لما أطلع الله إبراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل ودعا القوم مرة بعد أخرى إلى توحيد الله، ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس، ومنعهم عن عبادة الأوثان ثم سلم نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان جعله الله إماما للخلق ورسولا إليهم، وبشره بأن الملك والنبوة في ذريته، فلهذه الاختصاصات سماه خليلا، لأن محبة الله لعبده عبارة عن إرادته لإيصال الخيرات والمنافع إليه.

الوجه الثاني في اشتقاق اسم الخليل: أنه الذي يوافقك في خلالك. أقول:

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تخلقوا بأخلاق الله»

فيشبه أن إبراهيم عليه السلام لما بلغ في هذا الباب مبلغا لم يبلغه أحد ممن تقدم لا جرم خصه الله بهذا التشريف.

الوجه الثالث: قال صاحب «الكشاف» : إن الخليل هو الذي يسايرك في طريقك، من الخل وهو الطريق

في الرمل، وهذا الوجه قريب من الوجه الثاني، أو يحمل ذلك على شدة طاعته لله وعدم **تمرده** في ظاهره وباطنه عن حكم الله، كما أخبر الله عنه بقوله إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت/ لرب العالمين [البقرة: ١٣١] .." (١)

"بأن يكون ذلك الكتاب مكتوبا في الألواح أو لم يكن، وبأن يكون نازلا دفعة واحدة أو منجما مفرقا، بل لو قيل: إن إنزال الكتاب منجما مفرقا أقرب إلى المصلحة لكان أولى لأن الكتاب إذا نزل دفعة واحدة كثرت التكاليف وتوجهت بأسرها على المكلفين فيثقل عليهم قبولها، ولهذا السبب أصر قوم موسى عليه السلام على **التمرد** ولم يقبلوا تلك التكاليف، أما إذا نزل الكتاب منجما مفرقا لم يكن كذلك، بل ينزل التكاليف شيئا فشيئا وجزءا فجزءا، فحينئذ يحصل الانقياد والطاعة من القوم وحاصل هذا الجواب أن المقصود من بعثة الرسل وإنزال الكتب هو الإعذار والإنذار، وهذا المقصود حاصل سواء نزل الكتاب دفعة واحدة أو لم يكن كذلك، فكان اقتراح اليهود في إنزال الكتاب دفعة واحدة اقتراحا فاسدا. وهذا أيضا جواب عن تلك الشبهة في غاية الحسن، ثم ختم الآية بقوله وكان الله عزيزا حكيما يعني هذا الذي يطلبونه من الرسول أمر هين في القدرة، ولكنكم طلبتموه على سبيل اللجاج وهو تعالى عزيز، وعزته تقتضي أن لا يجاب المتعنت إلى مطلوبه فكذلك حكمته تقتضي هذا الامتناع لعلمه تعالى بأنه لو فعل ذلك لبقوا مصرين على لجاجهم، وذلك لأنه تعالى أعطى موسى عليه السلام هذا التشريف ومع ذلك فقومه بقوا معه على المكابرة والإصرار واللجاج والله أعلم.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن وجوب معرفة الله تعالى لا يثبت إلا بالسمع قالوا لأن قوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل يدل على أن قبل البعثة يكون للناس حجة في ترك الطاعات والعبادات، ونظيره قوله تعالى: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [الإسراء: ١٥] وقوله ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى [طه: ١٣٤] .

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: دلت هذه الآية على أن العبد قد يحتج على الرب، وأن الذي يقوله أهل السنة من أنه تعالى لا اعتراض عليه في شيء، وأن له أن يفعل ما يشاء كما يشاء ليس بشيء قالوا: لأن قوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل يقتضي أن لهم على الله حجة قبل الرسل، وذلك يبطل قول أهل السنة.

والجواب: المراد لئلا يكون للناس على الله حجة أي ما يشبه الحجة فيما بينكم. قالت المعتزلة: وتدل هذه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٠/١١

الآية أيضا على أن تكليف ما لا يطاق غير جائز لأن عدم إرسال الرسل إذا كان يصلح عذرا فبأن يكون عدم المكنة والقدرة صالحا لأن يكون عذرا كان أولى، وجوابه المعارضة بالعلم والله أعلم.

[سورة النساء (٤) : آية ١٦٦]

لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا (١٦٦)

[في قوله تعالى لكن الله يشهد بما أنزل إليك] وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله لكن لا يتدأ به لأنه استدراك على ما سبق، وفي ذلك المستدرك قولان: الأول: أن هذه الآيات بأسرها جواب عن قوله يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء [النساء: ١٥٣] وهذا الكلام يتضمن أن هذا القرآن ليس كتابا نازلا عليهم من السماء، فكأنه قيل: إنهم وإن شهدوا بأن القرآن لم ينزل عليه من السماء لكن الله يشهد بأنه نازل عليه من السماء. الثاني: أنه تعالى لما قال." (١)

"تنجس موضع آخر! السادس: أن قوله ولكن يريد ليطهركم مذكور عقيب التيمم، ومن المعلوم بالضرورة أن التيمم زيادة في التقدير وإزالة الوضاءة والنظافة، وأنه لا يزيل شيئا من النجاسات أصلا، السابع: أن المسح على الخفين قائم مقام غسل الرجلين، ومعلوم أن هذا المسح لا يزيل شيئا البتة عن الرجلين، الثامن: أن الذي يراد زواله إن كان من جملة الأجسام فالحس يشهد ببطلان ذلك، وإن كان من جملة الأعراض فهو محال، لأن انتقال الأعراض محال، فثبت بهذه الوجوه أن الذي يقوله هؤلاء الفقهاء بعيد.

الوجه الثاني: في تفسير هذا التطهير أن يكون المراد منه طهارة القلب عن صفة **التمرد** عن طاعة الله تعالى، وذلك لأن الكفر والمعاصي نجاسة للأرواح، فإن النجاسة إنما كانت نجاسة لأنها شيء يراد نفيه وإزالته وتبعيده، والكفر والمعاصي كذلك، فكانت نجاسات روحانية، وكما أن إزالة النجاسات الجسمانية تسمى طهارة فكذلك إزالة هذه العقائد الفاسدة والأخلاق الباطلة تسمى طهارة، ولهذا التأويل قال الله تعالى: إنما المشركون نجس فجعل رأيهم نجاسة، وقال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا [الأحزاب: ٣٣] فجعل براءتهم عن المعاصي طهارة لهم. وقال في حق عيسى عليه السلام: إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا [آل عمران: ٥٥] فجعل خلاصه عن طعنهم وعن تصرفهم فيه تطهيرا له.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦٨/١١

وإذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى لما أمر العبد بإيصال الماء إلى هذه الأعضاء المخصوصة وكانت هذه الأعضاء طاهرة لم يعرف العبد في هذا التكليف فائدة معقولة، فلما انقاد لهذا التكليف كان ذلك الانقياد لمحض إظهار العبودية والانقياد للربوبية، فكان هذا الانقياد قد أزال عن قلبه آثار **التمرد** فكان ذلك طهارة، فهذا هو الوجه الصحيح في تسمية هذه الأعمال طهارة، وتأكد/ هذا بالأخبار الكثيرة الواردة في أن المؤمن إذا غسل وجهه خرت خطاياه من وجهه، وكذا القول في يديه ورأسه ورجائه.

واعلم أن هذه القاعدة التي قررناها أصل معتبر في مذهب الشافعي رحمه الله، وعليه يخرج كثير من المسائل الخلافية في أبواب الطهارة والله أعلم.

أما قوله وليتم نعمته عليكم ففيه وجهان: الأول: أن الكلام متعلق بما ذكر من أول السورة إلى هنا، وذلك لأنه تعالى أنعم في أول السورة بإباحة الطيبات من المطاعم والمناكح، ثم إنه تعالى ذكر بعده كيفية فرض الوضوء فكأنه قال: إنما ذكرت ذلك لتتم النعمة المذكورة أولا وهي نعمة الدنيا، والنعمة المذكورة ثانيا وهي نعمة الدين. الثاني: أن المراد: وليتم نعمته عليكم أي بالترخص في التيمم والتخفيف في حال السفر والمرض، فاستدلوا بذلك على أنه تعالى يخفف عنكم يوم القيامة بأن يعفو عن ذنوبكم ويتجاوز عن سيئاتكم.

ثم قال تعالى: لعلكم تشكرون والكلام في «لعل» مذكور في أول سورة البقرة في قوله تعالى: لعلكم تتقون [البقرة: ٢١] والله أعلم.

[سورة المائدة (٥) : آية ٧]

واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور (٧)

اعلم أنه تعالى لما ذكر هذا التكليف أردفه بما يوجب عليهم القبول والانقياد، وذلك من وجهين: الأول:." (١)

"هذه الآية نزلت في اليهود، وأنهم أرادوا إيقاع الشر برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما ذكر الله تعالى ذلك أتبعه بذكر فضائحهم وبيان أنهم أبدا كانوا مواظبين على نقض العهود والمواثيق، الثالث: أن الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكاليف وترك **التمرد** والعصيان، فذكر تعالى أنه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٨/١١

كلف من كان قبل المسلمين كما كلفهم ليعلموا أن عادة الله في التكليف والإلزام غير مخصوصة بهم، بل هي عادة جارية له مع جميع عباده.

المسألة الثانية: قال الزجاج: النقيب فعيل أصله من النقب وهو الثقب الواسع، يقال فلان نقيب القوم لأنه ينقب عن أحوالهم كما ينقب عن الأسرار ومنه المناقب وهي الفضائل لأنها لا تظهر إلا بالتنقيب عنها، ونقبت الحائط أي بلغت في النقب إلى آخره، ومنه النقبة من الجرب لأنه داء شديد الدخول، وذلك لأنه يطلي البعير بالهناء فيعجد طعم القطران في لحمه، والنقبة السراويل بغير رجلين لأنه قد بولغ في فتحها ونقبها، ويقال:

كلب نقيب، وهو أن ينقب حنجرته لئلا يرتفع صوت نباحه، وإنما يفعل ذلك البخلاء من العرب لئلا يطرقهم ضيف.

إذا عرفت هذا فنقول: النقيب فعيل، والفعيل يحتمل الفاعل والمفعول، فإن كان بمعنى الفاعل فهو الناقب عن أحوال القوم المفتش عنها، وقال أبو مسلم: النقيب هاهنا فعيل بمعنى مفعول يعني اختارهم على علم بهم، ونظيره أنه يقال للمضروب: ضريب، وللمقتول قتيل. وقال الأصم: هم المنظور إليهم والمسند إليهم أمور القوم وتدبير مصالحهم.

المسألة الثالثة: أن بني إسرائيل كانوا اثني عشر سبطا. فاختار الله تعالى من كل سبط رجلا يكون نقيبا لهم وحاكما فيهم. وقال مجاهد والكلبي والسدي: أن النقباء بعثوا إلى مدينة الجبارين الذين أمر موسى عليه السلام بالقتال معهم ليقفوا على أحوالهم ويرجعوا بذلك إلى نبيهم موسى عليه السلام، فلما ذهبوا إليهم رأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا فحدثوا قومهم، وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم، فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون من سبط إفراثيم بن يوسف، وهما اللذان قال الله تعالى فيهما قال رجلان من الذين يخافون [المائدة: ٢٣] الآية.

قوله تعالى: وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية حذف، والتقدير: وقال الله لهم إني معكم، إلا أنه حذف ذلك لاتصال الكلام بذكرهم.

المسألة الثانية: قوله إني معكم خطاب لمن؟ فيه قولان: الأول: أنه خطاب للنقباء، أي وقال الله للنقباء إني معكم. والثاني: أنه خطاب لكل بني إسرائيل، وكلاهما محتمل إلا أن الأول أولى. لأن الضمير يكون

عائدا إلى أقرب المذكورات، وأقرب المذكور هنا النقباء والله أعلم.
المسألة الثالثة: أن الكلام قد تم عند قوله وقال الله إني معكم والمعنى إني معكم بالعلم والقدرة فأسمع كلامكم وأرى أفعالكم وأعلم ضمائركم وأقدر على إيصال الجزاء إليكم، فقوله إني معكم مقدمة معتبرة جدا في الترغيب والترهيب، ثم لما وضع الله تعالى هذه المقدمة الكلية ذكر بعدها جملة شرطية،." [1]

"المسألة الأولى:
روي أن إبراهيم عليه السلام لما صعد جبل لبنان قال له الله تعالى: انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس، وهو ميراث لذريتك.
وقيل: لما خرج قوم موسى عليه السلام من مصر وعدهم الله تعالى إسكان أرض الشام، وكان بنو إسرائيل يسمون أرض الشام أرض المواعيد، ثم بعث موسى عليه السلام اثني عشر نقيبا من الأمناء ليتجسسوا لهم عن أحوال تلك الأراضي، / فلما دخلوا تلك البلاد رأوا أجساما عظيمة هائلة. قال المفسرون: لما بعث موسى عليه السلام النقباء لأجل التجسس رآهم واحد من أولئك الجبارين فأخذهم وجعلهم في كمه مع فاكهة كان قد حملها من بستانه وأتى بهم الملك، فنثرهم بين يديه وقال متعجبا للملك:
هؤلاء يريدون قتالنا، فقال الملك: ارجعوا إلى صاحبكم وأخبروه بما شاهدتم، ثم انصرف أولئك النقباء إلى موسى عليه السلام فأخبروه بالواقعة، فأمرهم أن يكتموا ما عاهدوه فلم يقبلوا قوله، إلا رجلان منهم، وهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، فإنهما سهلا الأمر وقالا: هي بلاد طيبة كثيرة النعم، والأقوام وإن كانت أجسادهم عظيمة إلا أن قلوبهم ضعيفة، وأما العشرة الباقية فقد أوقعوا الجبن في قلوب الناس حتى أظهروا الامتناع من غزوهم، فقالوا لموسى عليه السلام إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون [المائدة: ٢٤] فدعا موسى عليه السلام عليهم فعاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم في التيه أربعين سنة.
قالوا: وكانت مدة غيبة النقباء للتجسس أربعين يوما فعوقبوا بالتيه أربعين سنة، ومات أولئك العصاة في التيه، وأهلك النقباء العشرة في التيه بعقوبات غليظة. ومن الناس من قال: إن موسى وهارون عليهما السلام ماتا أيضا في التيه: ومنهم من قال: إن موسى عليه السلام بقي وخرج معه يوشع وكالب وقاتلوا الجبارين وغلبوهم ودخلوا تلك البلاد، فهذه هي القصة والله أعلم بكيفية الأمور.
المسألة الثانية: الأرض المقدسة هي الأرض المطهرة طهرت من الآفات. قال المفسرون: طهرت من الشرك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢٣/١١

وجعلت مسكنا وقرارا للأنبياء، وهذا فيه نظر، لأن تلك الأرض لما قال موسى عليه الصلاة والسلام ادخلوا الأرض المقدسة ما كانت مقدسة عن الشرك، وما كانت مقرا للأنبياء، ويمكن أن يجاب بأنها كانت كذلك فيما قبل.

المسألة الثالثة: اختلفوا في تلك الأرض، فقال عكرمة والسدي وابن زيد: هي أريحا وقال الكلبي: دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وقيل الطور.

المسألة الرابعة: في قوله كتب الله لكم وجوه: أحدها: كتب في اللوح المحفوظ أنها لكم وثانيها: وهبها الله لكم، وثالثها: أمركم بدخولها.

فإن قيل: لم قال كتب الله لكم ثم قال فإنها محرمة عليهم [المائدة: ٢٦] .

والجواب: قال ابن عباس: كانت هبة ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم. وقيل: اللفظ وإن كان عاما لكن المراد هو الخصوص، فصار كأنه مكتوب لبعضهم وحرام على بعضهم. وقيل: إن الوعد بقوله كتب الله لكم مشروط بقيد الطاعة، فلما لم يوجد الشرط لا جرم لم يوجد المشروط، وقيل: إنها محرمة عليهم أربعين سنة، فلما مضى الأربعون حصل ما كتب.

المسألة الخامسة: في قوله كتب الله لكم فائدة عظيمة، وهي أن القوم وإن كانوا جبارين إلا أن الله." (١)

"المسألة الثانية: في قوله أنعم الله عليهما وجهان: الأول: أنه صفة لقوله رجلان، والثاني: أنه اعتراض وقع في البين يؤكد ما هو المقصود من الكلام.

المسألة الثالثة: قوله ادخلوا عليهم الباب مبالغة في الوعد بالنصر والظفر، كأنه قال: متى دخلتم باب بلدهم انهزموا ولا يبقى منهم نافخ نار ولا ساكن دار، فلا تخافوهم. والله أعلم.

المسألة الرابعة: إنما جزم هذان الرجلان في قولهما فإذا دخلتموه فإنكم غالبون لأنهما كانا جازمين بنبوة موسى عليه السلام، فلما أخبرهم موسى عليه السلام بأن الله قال: ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم [المائدة: ٢١] لا جرم قطعا بأن النصرة لهم والغلبة حاصلة في جانبهم، ولذلك ختموا كلامهم بقولهم وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين يعني لما وعدكم الله تعالى النصر فلا ينبغي أن تصيروا خائفين من شدة قوتهم وعظم أجسامهم، بل توكلوا على الله في حصول هذا النصر لكم إن كنتم مؤمنين مقرين بوجود الإله القادر ومؤمنين بصحة نبوة موسى عليه السلام.

ثم قال تعالى:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٢/١١

[سورة المائدة (٥) : آية ٢٤]

قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (٢٤)

وفي قوله فاذهب أنت وربك وجوه: الأول: لعل القوم كانوا مجسمة، وكانوا يجوزون الذهاب والمجيء على الله تعالى. الثاني: يحتمل أن لا يكون المراد حقيقة الذهاب بل هو كما يقال: كلمته فذهب يجيبني، يعني يريد أن يجيبني، فكأنهم قالوا: كن أنت وربك مريدين لقتالهم، / والثالث: التقدير: اذهب أنت وربك معين لك بزعمك فأضمر خبر الابتداء.

فإن قيل: إذا أضمرنا الخبر فكيف يجعل قوله فقاتلا خبرا أيضا؟

قلنا: لا يمتنع خبر بعد خبر، والرابع: المراد بقوله وربك أخوه هارون، وسموه ربا لأنه كان أكبر من موسى. قال المفسرون: قولهم فاذهب أنت وربك إن قالوه على وجه الذهاب من مكان إلى مكان فهو كفر، وإن قالوه على وجه **التمرد** عن الطاعة فهو فسق، ولقد فسقوا بهذا الكلام بدليل قوله تعالى في هذه القصة فلا تأس على القوم الفاسقين [المائدة: ٢٦] والمقصود من هذه القصة شرح خلاف هؤلاء اليهود وشدة بغضهم وغلوهم في المنازعة مع أنبياء الله تعالى منذ كانوا.

[سورة المائدة (٥) : آية ٢٥]

قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٥)

ثم أنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه لما سمع منهم هذا الكلام قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ذكر الزجاج في إعراب قوله وأخي وجهين: الرفع والنصب، أما الرفع فمن وجهين: أحدهما: أن يكون نسقا على موضع إني والمعنى أنا لا أملك إلا نفسي، وأخي كذلك ومثله قوله أن الله بريء من المشركين ورسوله [التوبة: ٣] والثاني: أن يكون عطفا على الضمير في أملك وهو «أنا» والمعنى: لا أملك أنا وأخي إلا أنفسنا، وأما النصب فمن وجهين: أحدهما: أن يكون نسقا على الياء، والتقدير: إني وأخي لا." [١]

"نملك إلا أنفسنا، والثاني: أن يكون أخي معطوفا على نفسي فيكون المعنى لا أملك إلا نفسي، ولا أملك إلا أخي، لأن أخاه إذا كان مطيعا له فهو مالك طاعته.

فإن قيل: لم قال لا أملك إلا نفسي وأخي، وكان معه الرجلان المذكوران؟

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٤/١١

قلنا: كأنه لم يثق بهما كل الوثوق لما رأى من إطباق الأكثرين على **التمرد**، وأيضا لعله إنما قال ذلك تقليلا لمن يوافقه، وأيضا يجوز أن يكون المراد بالأخ من يواخيه في الدين، وعلى هذا التقدير فكانا داخلين في قوله وأخي.

ثم قال: فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين يعني فافصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق وتحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدعاء عليهم، ويحتمل أن يكون المراد خلصنا من صحبتهم، وهو كقوله ونجني من القوم الظالمين [القصص: ٢١] .

ثم أنه تعالى قال:

[سورة المائدة (٥) : آية ٢٦]

قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين (٢٦)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله فإنها أي الأرض المقدسة محرمة عليهم، وفي قوله أربعين سنة قولان:

أحدهما: أنها منصوبة بالتحريم، أي الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة، ثم فتح الله تعالى تلك الأرض لهم من غير محاربة، هكذا ذكره الربيع بن أنس.

والقول الثاني: أنها منصوبة بقوله يتيهون في الأرض أي بقوا في تلك الحالة أربعين سنة، وأما الحرمة فقد بقيت عليهم وماتوا، ثم إن أولادهم دخلوا تلك البلدة.

المسألة الثانية: يحتمل أن موسى عليه السلام لما قال في دعائه على القوم فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين [المائدة: ٢٥] لم يقصد بدعائه هذا الجنس من العذاب، بل أخف منه. فلما أخبره الله تعالى بالتيه علم أنه يحزن بسبب ذلك فعزاه وهون أمرهم عليه، فقال فلا تأس على القوم الفاسقين قال مقاتل: إن موسى لما دعا عليهم أخبره الله تعالى بأحوال التيه، ثم إن موسى عليه السلام أخبر قومه بذلك، فقالوا له: لم دعوت علينا وندم موسى على ما عمل، فأوحى الله تعالى إليه فلا تأس على القوم الفاسقين وجائز أن يكون ذلك خطابا لمحمد صلى الله عليه وسلم، أي لا تحزن على قوم لم يزل شأنهم المعاصي ومخالفة الرسل والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلف الناس في أن موسى وهارون عليهما السلام هل بقيا في التيه أم لا؟ فقال قوم: إنهما ما كانا في التيه، قالوا: ويدل عليه وجوه: الأول: أنه عليه السلام دعا الله يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ودعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجابة، وهذا يدل على أنه عليه السلام ما كان معهم في

ذلك الموضع، والثاني: أن ذلك التيه كان عذابا والأنبياء لا يعذبون، والثالث: أن القوم إنما عذبوا بسبب أنهم **تمردوا** وموسى وهارون ما كانا كذلك، فكيف يجوز أن يكونا مع أولئك الفاسقين في ذلك العذاب. وقال آخرون: إنهما كانا مع القوم في ذلك التيه إلا أنه تعالى سهل عليهما ذلك العذاب كما سهل النار على إبراهيم فجعلها بردا وسلاما، ثم." (١)

"النصارى على كفرهم وقولهم بالتثليث بعد ظهور الدلائل القاطعة لهم على فساد ما هم عليه، وما ذاك إلا لحسدهم لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما آتاه الله من الدين الحق، ثم ذكر بعده قصة موسى في محاربة الجبارين وإصرار قومه على **التمرد** والعصيان، ثم ذكر بعده قصة ابني آدم وأن أحدهما قتل الآخر حسدا منه على أن الله تعالى قبل قربانه، وكل هذه القصص دالة على أن كل ذي نعمة محسود، فلما كانت نعم الله على محمد صلى الله عليه وسلم أعظم النعم لا جرم لم يبعد اتفاق الأعداء على استخراج أنواع المكر والكيد في حقه، فكان ذكر هذه القصص تسلية من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم لما هم قوم من اليهود أن يمكروا به وأن يوقعوا به آفة ومحنة. والثاني: أن هذا متعلق بقوله يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير [المائدة: ١٥] وهذه القصة وكيفية إيجاب القصاص عليها من أسرار التوراة، والثالث: أن هذه القصة متعلقة بما قبلها، وهي قصة محاربة الجبارين، أي اذكر لليهود حديث ابني آدم ليعلموا أن سبيل أسلافهم في الندامة والحسرة الحاصلة بسبب إقدامهم على المعصية كان مثل سبيل ابني آدم في إقدام أحدهما على قتل الآخر.

والرابع: قيل هذا متصل بقوله حكاية عن اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه [المائدة: ١٨] أي لا ينفعهم كونهم من أولاد الأنبياء مع كفرهم كما لم ينتفع ولد آدم عند معصيته بكون أبيه نبيا معظما عند الله تعالى. الخامس: لما كفر أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم حسدا أخبرهم الله تعالى بخبر ابن آدم وأن الحسد أوقعه في سوء العاقبة، والمقصود منه التحذير عن الحسد.

المسألة الثانية: قوله واتل عليهم فيه قولان: أحدهما: واتل على الناس. والثاني: واتل على أهل الكتاب، وفي قوله ابني آدم قولان: الأول: أنهما ابنا آدم من صلبه، وهما هابيل وقابيل. وفي سبب وقوع المنازعة بينهما قولان: أحدهما: أن هابيل كان صاحب غنم، وقابيل كان صاحب زرع، فقرب كل واحد منهما قربانا، فطلب هابيل أحسن شاة كانت في غنمه وجعلها قربانا، وطلب قابيل شر حنطة في زرعه فجعلها قربانا، ثم تقرب كل واحد بقربانه إلى الله فنزلت نار من السماء فاحتملت قربان هابيل ولم تحمل قربان قابيل، فعلم قابيل

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٥/١١

أن الله تعالى قبل قربان أخيه/ ولم يقبل قربانه فحسده وقصد قتله، وثانيهما: ما روي أن آدم عليه السلام كان يولد له في كل بطن غلام وجارية وكان يزوج البنت من بطن الغلام من بطن آخر، فولد له قابيل وتوأمته، وبعدهما هابيل وتوأمته، وكانت توأمة قابيل أحسن الناس وجها، فأراد آدم أن يزوجها من هابيل، فأبى قابيل ذلك وقال أنا أحق بها، وهو أحق بأخته، وليس هذا من الله تعالى، وإنما هو رأيك، فقال آدم عليه السلام لهما:

قربا قربانا، فأيكما قبل قربانه زوجتها منه، فقبل الله تعالى قربان هابيل بأن أنزل الله تعالى على قربانه نارا، فقتله قابيل حسدا له.

والقول الثاني: وهو قول الحسن والضحاك: أن ابني آدم اللذين قربا قربانا ما كانا ابني آدم لصلبه، وإنما كانا رجلين من بني إسرائيل. قالا: والدليل عليه قوله تعالى في آخر القصة من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا [المائدة: ٣٢] إذ من الظاهر أن صدور هذا الذنب من أحد ابني آدم لا يصلح أن يكون سببا لإيجاب القصاص على بني إسرائيل، أما لما أقدم رجل من بني إسرائيل على مثل هذه المعصية أمكن جعل ذلك سببا لإيجاب القصاص عليهم زجرا لهم عن المعاودة إلى مثل هذا الذنب. ومما يدل على ذلك أيضا أن المقصود من هذه القصة بيان إصرار اليهود أبدا من." (١)

"قديم الدهر على **التمرد** والحسد حتى بلغ بهم شدة الحسد إلى أن أحدهما لما قبل الله قربانه حسده الآخر وأقدم على قتله، ولا شك أنها رتبة عظيمة في الحسد، فإنه لما شاهد أن قربان صاحبه مقبول عند الله تعالى فذلك مما يدعوه إلى حسن الاعتقاد فيه والمبالغة في تعظيمه، فلما أقدم على قتله وقتله مع هذه الحالة دل ذلك على أنه كان قد بلغ في الحسد إلى أقصى الغايات، وإذا كان المراد من ذكر هذه القصة بيان أن الحسد دأب قديم في بني إسرائيل وجب أن يقال: هذان الرجلان كانا من بني إسرائيل.

واعلم أن القول الأول هو الذي اختاره أكثر أصحاب الأخبار، وفي الآية أيضا ما يدل عليه لأن الآية تدل على أن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول حتى تعلم ذلك من عمل الغراب، ولو كان من بني إسرائيل لما خفي عليه هذا الأمر، وهو الحق والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله بالحق فيه وجوه: الأول: بالحق، أي تلاوة متلبسة بالحق وال‌صحة من عند الله تعالى. والثاني: أي تلاوة متلبسة بالصدق والحق موافقة لما في التوراة والإنجيل. الثالث: بالحق، أي بالغرض

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٧/١١

الصحيح وهو تقبيح الحسد، لأن المشركين وأهل الكتاب كانوا يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبيعون عليه. الرابع:

بالحق، أي ليعتبرون به لا يحملوه على اللعب والباطل مثل كثير من الأقاصيص التي لا فائدة فيها، وإنما في لهو الحديث، وهذا/ يدل على أن المقصود بالذكر من الأقاصيص والقصص في القرآن العبرة لا مجرد الحكاية، ونظيره قوله تعالى: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب [يوسف: ١١١] .

ثم قال تعالى: إذ قربا قربانا وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذ: نصب بماذا؟ فيه قولان الأول: أنه نصب بالنبأ، أي قصتهم في ذلك الوقت. الثاني: يجوز أن يكون بدلا من النبأ أي واتل عليهم من النبأ نبأ ذلك الوقت، على تقدير حذف المضاف.

المسألة الثانية: القربان: اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة، ومضى الكلام على القربان في سورة آل عمران.

المسألة الثالثة: تقدير الكلام وهو قوله إذ قربا قربانا قرب كل واحد منهما قربانا إلا أنه جمعهما في الفعل وأفرد الاسم، لأنه يستدل بفعلهما على أن لكل واحد قربانا. وقيل: إن القربان اسم جنس فهو يصلح للواحد والعدد، وأيضا فالقربان مصدر كالرجحان والعدوان والكفران والمصدر لا يثنى ولا يجمع.

ثم قال تعالى: فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قيل: كانت علامة القبول أن تأكله النار، وهو قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد: علامة الرد أن تأكله النار، والأول أولى لا تفاق أكثر المفسرين عليه. وقيل: ما كان في ذلك الوقت فقير يدفع إليه ما يتقرب به إلى الله تعالى، فكانت النار تنزل من السماء فتأكله.

المسألة الثانية: إنما صار أحد القربانين مقبولا والآخر مردودا لأن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال. قال تعالى هاهنا حكاية عن المحق إنما يتقبل الله من المتقين وقال فيما أمرنا به من القربان بالبدن لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم [الحج: ٣٧] فأخبر أن الذي يصل إلى حضرة الله ليس إلا التقوى والتقوى من صفات القلوب

قال عليه الصلاة والسلام: «التقوى هاهنا»

وأشار إلى القلب،." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٨/١١

"والجواب: ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع، ولذلك أكده بالباء المؤكد للنفي.
ثم قال تعالى:

[سورة المائدة (٥) : آية ٢٩]
إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين (٢٩)
وفيه سؤالان:
الأول: كيف يعقل أن يبوء القاتل بإثم المقتول مع أنه تعالى قال: ولا تزر وازرة وزر أخرى.
[فاطر: ١٨] .
والجواب من وجهين: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما وابن مسعود والحسن وقتادة رضي الله عنهم:
معناه تحمل إثم قتلي وإثمك الذي كان منك قبل قتلي، وهذا بحذف المضاف، والثاني: قال الزجاج:
معناه ترجع إلى الله بإثم قتلي وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك.
السؤال الثاني: كما لا يجوز للإنسان أن يريد من نفسه أن يعصي الله تعالى فكذلك لا يجوز أن يريد من غيره أن يعصي الله، فلم قال: إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك.
والجواب من وجوه: الأول: قد ذكرنا أن هذا الكلام إنما دار بينهما عند ما غلب على ظن المقتول أنه يريد قتله، وكان ذلك قبل إقدام القاتل على إيقاع القتل به، وكأنه لما وعظه ونصحه قال له: وإن كنت لا تنزجر عن هذه الكبيرة بسبب هذه النصيحة فلا بد وأن تترصد قتلي في وقت أكون غافلا عنك وعاجزا عن دفعك، فحينئذ لا يمكنني أن أدفعك عن قتلي إلا إذا قتلتك ابتداء بمجرد الظن والحسبان، وهذا مني كبيرة ومعصية، وإذا دار الأمر بين أن يكون فاعل هذه المعصية أنا وبين أن يكون أنت، فأنا أحب أن تحصل هذه الكبيرة لك لا لي، ومن المعلوم أن إرادة صدور الذنب من الغير في هذه الحالة وعلى هذا الشرط لا يكون حراما، بل هو عين الطاعة ومحض الإخلاص.
والوجه الثاني في الجواب: أن المراد: إني أريد أن تبوء بعقوبة قتلي، ولا شك أنه يجوز للمظلوم أن يريد من الله عقاب ظالمه، والثالث:
روي أن الظالم إذا لم يجد يوم القيامة ما يرضي خصمه أخذ من سيئات المظلوم وحمل على الظالم،
فعلى هذا يجوز أن يقال: إني أريد أن تبوأ بإثمي في أنه يحمل عليك يوم القيامة إذا لم تجد ما يرضيني، وبإثمك في قتلك إياي، وهذا يصلح جوابا عن السؤال الأول والله أعلم، ثم قال تعالى:

[سورة المائدة (٥) : آية ٣٠]

فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (٣٠)

ثم قال المفسرون: سهلت له نفسه قتل أخيه. ومنهم من قال شجعته، وتحقيق الكلام أن الإنسان إذا تصور من القتل العمد العدوان كونه من أعظم الكبائر، فهذا الاعتقاد يصير صارفا له عن فعله، فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي **المتمرد** عليه الذي لا يطيعه بوجه البتة، فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها صار هذا الفعل سهلا عليه، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أن كان كالعاصي **المتمرد** عليه.

فهذا هو المراد بقوله فطوعت له نفسه قتل أخيه قالت المعتزلة: لو كان خالق الكل هو الله تعالى لكان ذلك التزيين والتطويع مضافا إلى الله تعالى لا إلى النفس.." (١)

"المسألة الثانية: قالوا: هذه الآية ناسخة للتخيير في قوله فاحكم بينهم أو أعرض عنهم [المائدة: ٤٢].

المسألة الثالثة: أعيد ذكر الأمر بالحكم بعد ذكره في الآية الأولى إما للتأكيد، وإما لأنهما حكمان أمر بهما جميعا، لأنهم احتكموا إليه في زنا المحصن، ثم احتكموا في قتيل كان فيهم.

ثم قال تعالى: واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك.

قال ابن عباس: يريد به يردوك إلى أهوائهم، فإن كل من صرف من الحق إلى الباطل فقد فتن، ومنه قوله وإن كادوا ليفتنونك [الإسراء: ٧٣] والفتنة هاهنا في كلامهم التي تميل عن الحق وتلقي في الباطل

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «أعوذ بك من فتنة المحيا»

قال هو أن يعدل عن الطريق. قال أهل العلم: هذه الآية تدل على أن الخطأ والنسيان جائزان على الرسول، لأن الله تعالى قال: واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك والتعمد في مثل هذا غير جائز على الرسول، فلم يبق إلا الخطأ والنسيان.

ثم قال تعالى: فإن تولوا أي فإن لم يقبلوا حكمك فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المراد يبتليهم بجزاء بعض ذنوبهم في الدنيا، وهو أن يسلطك عليهم، ويعذبهم في الدنيا بالقتل والجلاء، وإنما خص الله تعالى بعض الذنوب لأن القوم جوزوا في الدنيا ببعض ذنوبهم، وكان

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١١/٣٤٠

مجازاتهم بالبعض كافيا في إهلاكهم والتدمير عليهم، والله أعلم.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن الكل بإرادة الله تعالى، لأنه لا يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم إلا وقد أراد ذنوبهم، وذلك يدل على أنه تعالى مريد للخير والشر.

ثم قال تعالى: وإن كثيرا من الناس لفاسقون **لمتمردون** في الكفر معتدون فيه، يعني أن التولي عن حكم الله تعالى من **التمرد** العظيم والاعتداء في الكفر.

[سورة المائدة (٥) : آية ٥٠]

أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (٥٠)

ثم قال تعالى: أفحكم الجاهلية يبغون/ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر تبغون بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء على المغايبة، وقرأ السلمي أفحكم الجاهلية برفع الحكم على الابتداء، وإيقاع يبغون خبرا وإسقاط الراجع عنه لظهوره، وقرأ قتادة أبحكم الجاهلية والمراد أن هذا الحكم الذي يبغونه إنما يحكم به حكام الجاهلية، فأرادوا بشهيتهم أن يكون محمد خاتم النبيين حكما كأولئك الحكام.

المسألة الثانية: في الآية وجهان: الأول: قال مقاتل: كانت بين قريظة والنضير دماء قبل أن يبعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام، فلما بعث تحاكموا إليه، فقالت بنو قريظة: بنو النضير إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، وكتابنا واحد، فإن قتل بنو النضير منا قتيلا أعطونا سبعين وسقا من تمر، وإن قتلنا منهم واحدا أخذوا منا مائة وأربعين وسقا من تمر، وأروش جراحاتنا على النصف من أروش جراحاتهم، فاقض بيننا." [(١)]

"فسوف يأتي الله وهذا للاستقبال لا للحال، فوجب أن يكون هؤلاء القوم غير موجودين في وقت نزول هذا الخطاب.

فإن قيل: هذا لا زم عليكم لأن أبا بكر رضي الله عنه كان موجودا في ذلك الوقت.

قلنا: الجواب من وجهين: الأول: أن القوم الذين قاتل بهم أبو بكر أهل الردة ما كانوا موجودين في الحال، والثاني: أن معنى الآية أن الله تعالى قال: فسوف يأتي الله بقوم قادرين متمكنين من هذا الحراب، وأبو بكر وإن كان موجودا في ذلك الوقت إلا أنه ما كان مستقلا في ذلك الوقت/ بالحراب والأمر والنهي، فزال السؤال، فثبت أنه لا يمكن أن يكون المراد هو الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن أيضا أن يكون

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٤/١٢

المراد هو علي عليه السلام، لأن عليا لم يتفق له قتال مع أهل الردة، فكيف تحمل هذه الآية عليه.
فإن قالوا: بل كان قتاله مع أهل الردة لأن كل من نازعه في الإمامة كان مرتدا.
قلنا: هذا باطل من وجهين: الأول: أن اسم المرتد إنما يتناول من كان تاركا للشرائع الإسلامية، والقوم الذين نازعوا عليا ما كانوا كذلك في الظاهر، وما كان أحد يقول: إنه إنما يحاربهم لأجل أنهم خرجوا عن الإسلام، وعلي عليه السلام لم يسمهم ألبتة بالمرتدين، فهذا الذي يقوله هؤلاء الروافض لعنهم الله بهت على جميع المسلمين وعلى علي أيضا. الثاني: أنه لو كان كل من نازعه في الإمامة كان مرتدا لزم في أبي بكر وفي قومه أن يكونوا مرتدين، ولو كان كذلك لوجب بحكم ظاهر الآية أن يأتي الله بقوم يقهرونهم ويردونهم إلى الدين الصحيح، ولما لم يوجد ذلك ألبتة علمنا أن منازعة علي في الإمامة لا تكون ردة، وإذا لم تكن ردة لم يمكن حمل الآية على علي، لأنها نازلة فيمن يحارب المرتدين، ولا يمكن أيضا أن يقال: إنها نازلة في أهل اليمن أو في أهل فارس، لأنه لم يتفق لهم محاربة مع المرتدين، وبتقدير أن يقال: اتفقت لهم هذه المحاربة ولكنهم كانوا رعية وأتباعا وأذنابا، وكان الرئيس المطاع الآمر في تلك الواقعة هو أبو بكر، ومعلوم أن حمل الآية على من كان أصلا في هذه العبادة ورئيسا مطاعا فيها أولى من حملها على الرعية والأتباع والأذناب، فظهر بما ذكرنا من الدليل الظاهر أن هذه الآية مختصة بأبي بكر.
والوجه الثاني في بيان أن هذه الآية مختصة بأبي بكر: هو أنا نقول: هب أن عليا كان قد حارب المرتدين، ولكن محاربة أبي بكر مع المرتدين كانت أعلى حالا وأكثر موقعا في الإسلام من محاربة علي مع من خالفه في الإمامة، وذلك لأنه علم بالتواتر أنه صلى الله عليه وسلم لما توفي اضطربت الأعراب وتمردوا، وأن أبا بكر هو الذي قهر مسيلمة وطليحة، وهو الذي حارب الطوائف السبعة المرتدين، وهو الذي حارب مانعي الزكاة، ولما فعل ذلك استقر الإسلام وعظمت شوكته وانبسطت دولته. أما لما انتهى الأمر إلى علي عليه السلام فكان الإسلام قد انبسط في الشرق والغرب، وصار ملوك الدنيا مقهورين، وصار الإسلام مستوليا على جميع الأديان والملل، فثبت أن محاربة أبي بكر رضي الله عنه أعظم تأثيرا في نصرة الإسلام وتقويته من محاربة علي عليه السلام، ومعلوم أن المقصود من هذه الآية تعظيم قوم يسعون في تقوية الدين ونصرة الإسلام، ولما كان أبو بكر هو المتولي لذلك وجب أن يكون هو المراد بالآية.
المقام الثالث في هذه الآية: وهو أنا ندعي دلالة هذه الآية على صحة إمامة أبي بكر، وذلك لأنه لما ثبت." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٩/١٢

"أن كل من أتى بهذا الإيمان وبهذا العمل فإنه يرد القيامة من غير خوف ولا حزن. والفائدة في ذكرهما أن الخوف يتعلق بالمستقبل، والحزن بالماضي، فقال فلا خوف عليهم بسبب ما يشاهدون من أهوال القيامة ولا هم يحزنون بسبب ما فاتهم من طيبات الدنيا لأنهم وجدوا أمورا أعظم وأشرف وأطيب مما كانت لهم حاصلة في الدنيا، ومن كان كذلك فإنه لا يحزن بسبب طيبات الدنيا.

فإن قيل: كيف يمكن خلو المكلف الذي لا يكون معصوما عن أهوال القيامة؟

والجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى شرط ذلك بالعمل الصالح، ولا يكون آتيا بالعمل الصالح إلا إذا كان تاركا لجميع المعاصي، والثاني: أنه إن حصل خوف فذلك عارض قليل لا يعتد به.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: إنه تعالى شرط عدم الخوف وعدم الحزن بالإيمان والعمل الصالح، والمشروط بشيء عدم عند عدم الشرط، فلزم أن من لم يأت مع الإيمان بالعمل الصالح فإنه يحصل له الخوف و الحزن، وذلك يمنع من العفو عن صاحب الكبيرة.

والجواب: أن صاحب الكبيرة لا يقطع بأن الله يعفو عنه لا محالة، فكان الخوف والحزن حاصلا قبل إظهار العفو.

المسألة الخامسة: أنه تعالى قال في أول الآية إن الذين آمنوا ثم قال في آخر الآية من آمن بالله وفي هذا التكرير فائدتان، الأولى: أن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون، فالفائدة في هذا التكرير إخراجهم عن وعد عدم الخوف وعدم الحزن.

الفائدة الثانية: أنه تعالى أطلق لفظ الإيمان، والإيمان يدخل تحته أقسام، وأشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، فكانت الفائدة في الإعادة التنبيه على أن هذين القسمين أشرف أقسام الإيمان، وقد ذكرنا وجوها كثيرة في قوله يا أيها الذين آمنوا وكلها صالحة لهذا الموضع.

المسألة السادسة: الراجع إلى اسم (إن) محذوف، والتقدير: من آمن منهم، إلا أنه حسن الحذف لكونه معلوما، والله أعلم.

[سورة المائدة (٥) : آية ٧٠]

لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون (٧٠)

اعلم أن المقصود بيان عتو بني إسرائيل وشدة **تمردهم** عن الوفاء بعهد الله، وهو متعلق بما افتتح الله به السورة، وهو قوله أوفوا بالعقود [المائدة: ١] فقال لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل يعني خلقنا الدلائل وخلقنا

العقل الهادي إلى كيفية الاستدلال، وأرسلنا إليهم رسلا بتعريف الشرائع والأحكام. وقوله كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم جملة شرطية وقعت صفة لقوله رسلا والراجع محذوف، والتقدير:

كلما جاءهم رسول منهم بما لا تهوى أنفسهم، أي بما يخالف أهواءهم وما يضاد شهواتهم من مشاق التكليف.

وهاهنا سؤالات:

الأول: أين جواب الشرط؟ فإن قوله فريقا كذبوا وفريقا يقتلون لا يصلح أن يكون جوابا لهذا الشرط." (١)

"لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين.

والجواب: أن جواب الشرط محذوف، وإنما جاز حذفه لأن الكلام المذكور دليل عليه، والتقدير: كلما جاءهم رسول ناصبوه، ثم إنه قيل: فكيف ناصبوه؟ فقيل: فريقا كذبوا وفريقا يقتلون. وقوله: الرسول الواحد لا يكون فريقين. فنقول: إن قوله كلما جاءهم رسول يدل على كثرة الرسل، فلا جرم جعلهم فريقين.

السؤال الثاني: لم ذكر أحد الفعلين ماضيا، والآخر مضارعا؟

والجواب: أنه تعالى بين أنهم كيف كانوا يكذبون عيسى وموسى في كل مقام، وكيف كانوا **يتمردون** على أوامره وتكاليفه، وأنه عليه السلام إنما توفى في التيه على قول بعضهم لشؤم **تمردهم** عن قبول قوله في مقاتلة الجبارين.

وأما القتل فهو ما اتفق لهم في حق زكريا ويحيى عليهما السلام، وكانوا قد قصدوا أيضا قتل عيسى وإن كان الله منعهم عن مرادهم وهم يزعمون أنهم قتلوه، فذكر التكذيب بلفظ الماضي هنا إشارة إلى معاملتهم مع موسى عليه السلام لأنه قد انقضى من ذلك الزمان أدوار كثيرة، وذكر القتل بلفظ المضارع إشارة إلى معاملتهم مع زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام لكون ذلك الزمان قريبا فكان كالحاضر.

السؤال الثالث: ما الفائدة في تقديم المفعول في قوله تعالى: فريقا كذبوا وفريقا يقتلون.

والجواب: قد عرفت أن التقديم إنما يكون لشدة العناية، فالتكذيب والقتل وإن كانا منكرين إلا أن تكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقتلهم أقبح، فكان التقديم لهذه الفائدة.

[سورة المائدة (٥) : آية ٧١]

وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢/٤٠٤

(٧١)

ثم قال تعالى: وحسبوا ألا تكون فتنة في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو أن لا تكون فتنة برفع نون (تكون) والباقون بالنصب، وذكر الواحدي لهذا تقريرا حسنا فقال: الأفعال على ثلاثة أضرب: فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره نحو: العلم والتيقن والتبين، فما كان مثل هذا يقع بعده (أن) الثقيلة ولم يقع بعده (أن) الخفيفة الناصبة للفعل، وذلك لأن الثقيلة تدل على ثبات الشيء واستقراره، فإذا كان العلم يدل على الاستقرار والثبات و (أن) الثقيلة تفيد هذا المعنى حصلت بينهما موافقة ومجانسة، ومثاله من القرآن قوله تعالى: ويعلمون أن الله هو الحق المبين [النور:

٢٥] ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده [التوبة: ١٠٤] ألم يعلم بأن الله يرى [العلق: ١٤] والباء زائدة.

والضرب الثاني: فعل يدل على خلاف الثبات والاستقرار، نحو: أطمع وأخاف وأرجو، فهذا لا يستعمل فيه إلا الخفيفة الناصبة للفعل. قال تعالى: والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي [الشعراء: ٨٢] تخافون أن يتخطفكم الناس [الأنفال: ٢٦] فخشينا أن يرهقهما [الكهف: ٨٠] .

والضرب الثالث: فعل يحذو مرة إلى هذا القبيل ومرة أخرى إلى ذلك القبيل نحو: حسب وأخواتها، فتارة تستعمل بمعنى أطمع وأرجو فيما لا يكون ثابتا ومستقرا، وتارة بمعنى العلم فيما يكون مستقرا.." [١]

"ثم قال تعالى: ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون والمعنى: لو كانوا يؤمنون بالله والنبي وهو موسى وما أنزل إليه في التوراة كما يدعون ما اتخذوا المشركين أولياء، لأن تحريم ذلك متأكد في التوراة وفي شرع موسى عليه السلام، فلما فعلوا ذلك ظهر أنه ليس مرادهم تقرير دين موسى عليه السلام، بل مرادهم الرياسة والجاه فيسعون في تحصيله بأي طريق قدروا عليه، فلهذا وصفهم الله تعالى بالفسق فقال ولكن كثيرا منهم فاسقون وفيه وجه آخر ذكره القفال، وهو أن يكون المعنى: ولو كان هؤلاء المتولون من المشركين يؤمنون بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ما اتخذهم هؤلاء اليهود أولياء، وهذا الوجه حسن ليس في الكلام ما يدفعه.

[سورة المائدة (٥) : آية ٨٢]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠٥/١٢

لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢)

قوله تعالى: لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى.

اعلم أنه تعالى لما ذكر من أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى ما ذكره ذكر في هذه الآية أن اليهود في غاية العداوة مع المسلمين، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة، بل نبه على أنهم أشد في العداوة من المشركين من جهة أنه قدم ذكرهم على ذكر المشركين. ولعمري إنهم كذلك.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله»

وذكر الله تعالى أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم.

وهاهنا مسألتان:

الأولى: قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي: المراد به النجاشي وقومه الذين قدموا من الحبشة على الرسول صلى الله عليه وسلم وآمنوا به، ولم يرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين. وقال آخرون:

مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين بأي طريق كان، فإن قدروا على القتل فذاك، وإلا فبغصب المال أو بالسرقة أو بنوع من المكر والكيد والحيلة، وأما النصارى فليس مذهبهم ذاك بل الإيذاء في دينهم حرام، فهذا هو وجه التفاوت:

المسألة الثانية: المقصود من بيان هذا التفاوت تخفيف أمر اليهود على الرسول صلى الله عليه وسلم، واللام في قوله لتجدن لام القسم، والتقدير: قسما إنك تجد اليهود والمشركين أشد الناس عداوة مع المؤمنين، وقد شرحت لك أن هذا التمرد والمعصية عادة قديمة لهم، ففرغ خاطرك عنهم ولا تبال بمكرهم وكيدهم.

ثم ذكر تعالى سبب هذا التفاوت فقال ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وفي الآية مسألتان:

الأولى: علة هذا التفاوت أن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا والدليل عليه قوله تعالى:." [١]

"آخرها ذكرا شقوا أذن الناقة وامتنعوا من ركوبها وذبحها وسيبوها لآلهتهم، ولا يجز لها وبر، ولا يحمل على ظهرها، ولا تطرد عن ماء، ولا تمنع عن مرعى، ولا ينتفع بها وإذا لقيها المعيى لم يركبها تحريجا.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١٣/١٢

وأما السائبة: فهي فاعلة من ساب إذا جرى على وجه الأرض يقال: ساب الماء وسابت الحية، فالسائبة هي التي تركت حتى تسيب إلى حيث شاءت، وهي المسيبة كعيشة راضية بمعنى مرضية، وذكروا فيها وجوها:

أحدها: ما ذكره أبو عبيدة، وهو أن الرجل كان إذا مرض أو قدم من سفر أو نذر نذرا أو شكر نعمة سيب بعيرا، فكان بمنزلة البحيرة في جميع ما حكموا لها، وثانيها: قال الفراء: إذا ولدت الناقة عشرة أبطن كلهن إناث، سيبت فلم تركب ولم تحلب ولم يجز لها وبر، ولم يشرب لبنها إلا ولد أو ضيف، وثالثها: قال ابن عباس:

السائبة هي التي تسيب للأصنام أي تعتق لها، وكان الرجل يسيب من ماله ما يشاء، فيجيء به إلى السدنة وهم خدم آلهتهم فيطعمون/ من لبنها أبناء السبيل، ورابعها: السائبة هو العبد يعتق على أن لا يكون عليه ولاء ولا عقل ولا ميراث.

وأما الوصيلة: فقال المفسرون: إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، فالوصيلة بمعنى الموصولة كأنها وصلت بغيرها، ويجوز أن تكون بمعنى الواصلة لأنها وصلت أخاها، وأما الحام فيقال: حماه يحميه إذا حفظه وفيه وجوه: أحدها: الفحل إذا ركب ولد ولده. قيل: حمى ظهره أي حفظه عن الركوب فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى إلى أن يموت فحينئذ تأكله الرجال والنساء. وثانيها: إذا نتجت الناقة عشرة أبطن قالوا حمت ظهرها حكاه أبو مسلم. وثالثها: الحام هو الفحل الذي يضرب في الإبل عشر سنين فيخلى، وهو من الأنعام التي حرمت ظهورها، وهو قول السدي فإن قيل: إذا جاز إعتاق العبيد والإماء فلم لا يجوز إعتاق هذه البهائم من الذبح والإتعاب والإيلام.

قلنا: الإنسان مخلوق لخدمة الله تعالى وعبوديته، فإذا **تمرد** عن طاعة الله تعالى عوقب بضرب الرق عليه، فإذا أزيل الرق عنه تفرغ لعبادة الله تعالى، فكان ذلك عبادة مستحسنة، وأما هذه الحيوانات فإنها مخلوقة لمنافع المكلفين، فتركها وإهمالها يقتضي فوات منفعة على مالكها من غير أن يحصل في مقابلتها فائدة، فظهر الفرق، وأيضا الإنسان إذا كان عبدا فأعتق قدر على تحصيل مصالح نفسه، وأما البهيمة إذا أعتقت وتركت لم تقدر على رعاية مصالح نفسها فوقعت في أنواع من المحنة أشد وأشق مما كانت فيها حال ما كانت مملوكة فظهر الفرق.

ثم قال تعالى: ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون

قال المفسرون: إن عمرو بن لحي الخزاعي كان قد ملك مكة وكان أول من غير دين إسماعيل، فاتخذ الأصنام، ونصب الأوثان، وشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فلقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه»

والقصب المعا وجمعه الأقصاب،

ويروى يجر قصبه في النار.

قال ابن عباس: قوله ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب يريد عمرو بن لحي وأصحابه يقولون على الله هذه الأكاذيب والأباطيل في تحريمهم هذه الأنعام، والمعنى أن الرؤساء يفترون على الله على الكذب، فأما الأتباع والعوام فأكثرهم لا يعقلون، فلا جرم يفترون على الله هذه الأكاذيب من أولئك الرؤساء ثم قال تعالى:." (١)

"المسألة الرابعة: قريء علام الغيوب بالنصب. قال صاحب «الكشاف» والتقدير أن الكلام قد تم بقوله إنك أنت أي أنت الموصوف بأوصافك المعروفة، من العلم وغيره. ثم نصب علام الغيوب على الاختصاص، أو على النداء، أو وصفا لا سم إن.

المسألة الخامسة: دلت الآية على جواز إطلاق لفظ العلام عليه، كما جاز إطلاق لفظ الخلاق عليه. أما العلامة فإنهم أجمعوا على أنه لا يجوز إطلاقها في حقه ولعل السبب ما فيه من لفظ التأنيث.

[سورة المائدة (٥) : آية ١١٠]

إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين (١١٠)

قوله تعالى: إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسل ماذا أجبتم [المائدة: ١٠٩] توبيخ من **تمرد** من أممهم وأشد الأمم افتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام لأن طعن سائر الأمم كان مقصورا على الأنبياء وطعن هؤلاء الملاعين تعدى إلى جلال الله وكبريائه حيث وصفوه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٤٧/١٢

بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به، وهو اتخاذ الزوجة والولد فلا جرم ذكر الله تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة والمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مقالتهم فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بإله. والفائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول هذه الآية على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم.

المسألة الثانية: موضع إذ يجوز أن يكون رفعا بالابتداء على معنى ذاك إذ قال الله، ويجوز أن يكون المعنى اذكر إذ قال الله.

المسألة الثالثة: خرج قوله إذ قال الله على لفظ الماضي دون المستقبل وفيه وجوه:

الأول: الدلالة على قرب القيامة حتى كأنها قد قامت ووقعت وكل آت قريب ويقال: الجيش قد أتى، إذا قرب إتيانهم. قال الله تعالى: أتى أمر الله [النحل: ١] الثاني: أنه ورد على حكاية الحال ونظيره قول الرجل لصاحبه كأنك بنا وقد دخلنا بلدة كذا فصنعنا فيها كذا إذ صاح صائح فتركتني وأجبته. ونظيره من القرآن قوله تعالى: ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت [سبأ: ٥١] ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة [الأنفال: ٥٠] ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم [سبأ: ٣١] والوجه في كل هذه الآيات ما ذكرناه، من أنه خرج على/ سبيل الحكاية عن الحال.

المسألة الرابعة: يا عيسى ابن مريم يجوز أن يكون (عيسى) في محل الرفع لأنه منادى مفرد وصف بمضاف ويجوز أن يكون في محل النصب لأنه في نية الإضافة ثم جعل الابن توكيدا وكل ما كان مثل هذا جاز." (١)

"والصفة الثالثة: قوله وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم والمراد منه كثرة البساتين.

واعلم أن المقصود من هذه الأوصاف أنهم وجدوا من منافع الدنيا أكثر مما وجده أهل مكة، ثم بين تعالى أنهم مع مزيد العز في الدنيا بهذه الوجوه ومع كثرة العدد والبسطة في المال والجسم جرى عليهم عند الكفر ما سمعتم وهذا المعنى يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة بقي هاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ليس في هذا الكلام إلا أنهم هلكوا إلا أن هذا الهلاك غير مختص بهم بل الأنبياء والمؤمنون كلهم أيضا قد هلكوا فكيف يحسن إيراد هذا الكلام في معرض الزجر عن الكفر مع أنه مشترك فيه بين الكافر وبين غيره.

والجواب: ليس المقصود منه الزجر بمجرد الموت والهلاك، بل المقصود أنهم باعوا الدين بالدنيا ففاتهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٥٨/١٢

وبقوا في العذاب الشديد بسبب الحرمان عن الدين. وهذا المعنى غير مشترك فيه بين الكافر والمؤمن.

السؤال الثاني: كيف قال ألم يروا مع أن القوم ما كانوا مقرين بصدق محمد عليه السلام فيما يخبر عنه وهم أيضا ما شاهدوا وقائع الأمم السالفة.

والجواب: أن أقاصيص المتقدمين مشهورة بين الخلق فيبعد أن يقال إنهم ما سمعوا هذه الحكايات ولمجرد سماعها يكفي في الاعتبار.

والسؤال الثالث: ما الفائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم.

والجواب: أن الفائدة هي التنبيه على أنه تعالى لا يتعاظمه أن يهلكهم ويخلي بلادهم منهم، فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم قوما آخرين يعمر بهم بلادهم كقوله ولا يخاف عقباها

[الشمس: ١٥] والله أعلم.

[سورة الأنعام (٦) : آية ٧]

ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٧)

اعلم أن الذين **يتمردون** عن قبول دعوة الأنبياء طوائف كثيرة، فالطائفة الأولى الذين بالغوا في حب الدنيا وطلب لذاتها وشهواتها إلى أن استغرقوا فيها واغتنموا وجدانها، فصار ذلك مانعا لهم عن قبول دعوة الأنبياء، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في الآية المتقدمة وبين أن لذات الدنيا ذاهبة وعذاب الكفر باق، وليس من العقل تحمل العقاب الدائم لأجل اللذات المنقرضة الخسيسة، والطائفة الثانية الذين يحملون معجزات الأنبياء عليهم السلام، على أنها من باب السحر لا من باب المعجزة، هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: بين الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفار لو أنهم شاهدوا نزول كتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا محمد لم يؤمنوا به، بل حملوه على أنه سحر ومخرقة، والمراد من قوله في قرطاس أنه لو نزل الكتاب جملة واحدة في صحيفة واحدة، فرأوه ولمسوه وشاهدوه عيانا لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر.

فإن قيل: ظهور الكتاب ونزوله من السماء هل هو من باب المعجزات أم لا، فإن لم يكن من باب المعجزات لم يكن إنكارهم لدلالته على النبوة منكرا، ولا يجوز أن يقال: إنه من باب المعجزات لأن الملك يقدر على إنزاله من السماء، وقبل الإيمان بصدق الأنبياء والرسل لم تكن عصمة الملائكة معلومة، وقبل الإيمان." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٨٥/١٢

"اعلم أنه تعالى لما بين غاية جهل أولئك الكفار بين من حالهم أيضا أنهم إذا نزلت بهم بلية أو محنة فإنهم يفزعون إلى الله تعالى ويلجئون إليه ولا يتمردون عن طاعته، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الفراء للعرب في (أرأيت) لغتان: إحداهما: رؤية العين، فإذا قلت للرجل رأيتك كان المراد: أهل رأيت نفسك؟ ثم يثنى ويجمع. فنقول: أرأيتكما أرأيتكم، والمعنى الثاني: أن تقول أرأيتك، وتريد: أخبرني، وإذا أردت هذا المعنى تركت التاء مفتوحة على كل حال تقول: أرأيتك أرأيتكما أرأيتكم أرأيتكن.

إذا عرفت هذا فنقول: مذهب البصريين: أن الضمير الثاني وهو الكاف في قولك: أرأيتك لا محل له من الاعراب، والدليل قوله تعالى: أرأيتك هذا الذي كرمت علي [الإسراء: ٦٢] ويقال أيضا: أرأيتك زيدا ما شأنه، ولو جعلت الكاف محلا لكنت كأنك تقول: أرأيت نفسك زيدا ما شأنه، وذلك كلام فاسد، فثبت أن الكاف لا محل له من ا لإعراب، بل هو حرف لأجل الخطاب. وقال الفراء: لو كانت الكاف توكيدا لوقعت التثنية والجمع على التاء، كما يقعان عليها عند عدم الكاف، فلما فتحت التاء في خطاب الجمع، ووقعت علامة الجمع على الكاف، دل ذلك على أن الكاف غير مذكور للتوكيد. ألا ترى أن الكاف لو سقطت لم يصلح أن يقال لجماعة: أرأيت، فثبت بهذا انصراف الفعل إلى الكاف، وأنها واجبة لازمة مفتقر إليها.

أجاب الواحدي عنه: بأن هذه الحجة تبطل بكاف ذلك وأولئك، فإن علامة الجمع تقع عليها مع أنها حرف للخطاب، مجرد عن الاسمية، والله أعلم.

المسألة الثانية: قرأ نافع أرأيتكم. وأ رأيت. وأ فرأيت. وأ رأيتك وأ فرأيت وأشباه ذلك/ بتخفيف الهمزة في كل القرآن، والكسائي ترك الهمزة في كل القرآن، والباقون بالهمزة. أما تخفيف الهمزة، فالمراد جعلها بين الهمزة والألف على التخفيف القياسي. وأما مذهب الكسائي فحسن، وبه قرأ عيسى بن عمر وهو كثير في الشعر، وقد تكلمت العرب في مثله بحذف الهمزة للتخفيف كما قالوا: وسله، وكما أنشد أحمد بن يحيى:

وإن لم أقاتل فالبسوني برقعا

بحذف الهمزة. أراد فألبسوني بإثبات الهمزة. وأما الذين قرءوا بتخفيف الهمزة فالسبب أن الهمزة عين الفعل والله أعلم.

المسألة الثالثة: معنى الآية أن الله تعالى قال لمحمد عليه السلام: قل يا محمد لهؤلاء الكفار إن أتاكم عذاب الله في الدنيا وأتاكم العذاب عند قيام الساعة، أترجعون إلى غير الله في دفع ذلك البلاء والضر أو

ترجعون فيه إلى الله تعالى؟ ولما كان من المعلوم بالضرورة أنهم إنما يرجعون إلى الله تعالى في دفع البلاء والمحنة لا إلى الأصنام والأوثان، لا جرم قال بل إياه تدعون يعني أنكم لا ترجعون في طلب دفع البلية والمحنة إلا إلى الله تعالى.

ثم قال: فيكشف ما تدعون إليه أي فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم وتنسون ما تشركون به، وفيه وجوه: الأول: قال ابن عباس: المراد تتركون الأصنام ولا تدعونهم لعلكم أنها لا تضر ولا تنفع. الثاني: قال." (١)

"الزجاج: يجوز أن يكون المعنى أنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيهم، وهذا قول الحسن لأنه قال:

يعرضون إعراض الناسي، ونظيره قوله تعالى: حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله [يونس: ٢٢] ولا يذكرون الأوثان.

المسألة الرابعة: هذه الآية تدل على أنه تعالى قد يجيب الدعاء إن شاء وقد لا يجيبه، لأنه تعالى قال: فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ولقائل أن يقول: إن قوله ادعوني أستجب لكم [غافر: ٦٠] يفيد الجزم بحصول الإجابة، فكيف الطريق إلى الجمع بين الآيتين.

والجواب أن نقول: تارة يجزم تعالى بالإجابة وتارة لا يجزم، إما بحسب محض المشيئة كما هو قول أصحابنا، أو بحسب رعاية المصلحة كما هو قول المعتزلة، ولما كان كلا الأمرين حاصلا لا جرم وردت الآيتان على هذين الوجهين.

المسألة الخامسة: حاصل هذا الكلام كأنه تعالى يقول لعبدة الأوثان: إذا كنتم ترجعون عند نزول الشدائد إلى الله تعالى لا إلى الأصنام والأوثان، فلم تقدمون على عبادة الأصنام التي/ لا تنتفعون بعبادتها ألبتة؟ وهذا الكلام إنما يفيد لو كان ذكر الحجة والدليل مقبولا. أما لو كان ذلك مردودا وكان الواجب هو محض التقليد، كان هذا الكلام ساقطا، فثبت أن هذه الآية أقوى الدلائل على أن أصل الدين هو الحجة والدليل. والله أعلم.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]

ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (٤٢) فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون (٤٣)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٣٢/١٢

اعلم أنه تعالى بين في الآية الأولى أن الكفار عند نزول الشدائد يرجعون إلى الله تعالى، ثم بين في هذه الآية أنهم لا يرجعون إلى الله عند كل ما كان من جنس الشدائد، بل قد يبقون مصرين على الكفر منجمدين عليه غير راجعين إلى الله تعالى، وذلك يدل على مذهبنا من أن الله تعالى إذا لم يهده لم يهتد، سواء شاهد الآيات الهائلة، أو لم يشاهدها، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الآية محذوف والتقدير: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلا فخالفوهم فأخذناهم بالبأساء والضراء، وحسن الحذف لكونه مفهوما من الكلام المذكور. وقال الحسن (البأساء) شدة الفقر من البؤس (والضراء) الأمراض والأوجاع.

ثم قال: لعلهم يتضرعون والمعنى: إنما أرسلنا الرسل إليهم وإنما سلطنا البأساء والضراء عليهم لأجل أن يتضرعوا. ومعنى التضرع التخشع وهو عبارة عن الانقياد وترك **التمرد**، وأصله من الضراعة وهي الذلة، يقال ضرع الرجل يضرع ضراعة فهو ضارع أي ذليل ضعيف، والمعنى أنه تعالى أعلم نبيه أنه قد أرسل قبله إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا ولم يتضرعوا، والمقصود منه التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.." (١)

"بالسيف.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة الناجية فرقة» وفي رواية أخرى كلهم في الجنة إلا الزنادقة.

المسألة الثانية: ظاهر قوله: أو يلبسكم شيعا هو أنه تعالى يحملهم على الأهواء المختلفة والمذاهب المتنافية. وظاهر أن الحق منها ليس إلا الواحد، وما سواه فهو باطل فهذا يقتضي أنه تعالى قد يحمل المكلف على الاعتقاد الباطل وقوله: ويذيق بعضكم بأس بعض لا شك أن أكثرها ظلم ومعصية، فهذا يدل على كونه تعالى خالقا للخير والشر، أجاب الخصم عنه بأن الآية تدل على أن الله تعالى قادر عليه وعندنا الله قادر على القبيح. إنما النزاع في أنه تعالى هل يفعل ذلك أم لا؟

والجواب: أن وجه التمسك بالآية شيء آخر فإنه قال: هو القادر على ذلك وهذا يفيد الحصر فوجب أن يكون غير الله غير قادر على ذلك وهذا الاختلاف بين الناس حاصل وثبت بمقتضى الحصر المذكور أن لا يكون ذلك صادرا عن غير الله فوجب أن يكون صادرا عن الله وذلك يفيد المطلوب.

المسألة الثالثة: قالت المقلدة والحشوية: هذه الآية من أدل الدلائل على المنع من النظر والاستدلال، وذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٣٣/١٢

لأن فتح تلك الأبواب يفيد وقوع الاختلاف والمنازعة في الأديان وتفرق الخلق إلى المذاهب والأديان وذلك مذموم بحكم هذه الآية، والمفضي إلى المذموم مذموم، فوجب أن يكون فتح باب النظر والاستدلال في الدين مذموما وجوابه سهل والله أعلم.

ثم قال تعالى في آخر الآية: انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون قال القاضي: هذا يدل على أنه تعالى أراد بتصريف هذه الآيات وتقرير هذه البينات، أن يفهم الكل تلك الدلائل ويفقه الكل تلك البينات.

وجوابنا: بل ظاهر الآية يدل على أنه تعالى ما صرف هذه الآيات إلا لمن فقه وفهم، فأما من أعرض **وتمرد** فهو تعالى ما صرف هذه الآيات لهم والله أعلم.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦٦ الى ٦٧]

وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل (٦٦) لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون (٦٧)

الضمير في قوله: وكذب به إلى ماذا يرجع فيه أقوال: الأول: أنه راجع إلى العذاب المذكور في الآية السابقة وهو الحق أي لا بد وأن ينزل بهم. الثاني: الضمير في «به» للقرآن وهو الحق أي في كونه كتابا منزلا من عند الله. الثالث: يعود إلى تصريف الآيات وهو الحق لأنهم كذبوا كون هذه الأشياء دلالات، ثم قال: قل لست عليكم بوكيل أي لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الدلائل. إنما أنا منذر والله هو المجازي لكم بأعمالكم قال ابن عباس والمفسرون: نسختها آية القتال وهو بعيد، ثم قال تعالى: لكل نبإ مستقر والمستقر يجوز أن يكون موضع الاستقرار، ويجوز أن يكون نفس الاستقرار لأن ما زاد على الثلاثي كان المصدر منه على زنة اسم المفعول نحو المدخل والمخرج، بمعنى الإدخال والإخراج، والمعنى: أن لكل خبر يخبره الله تعالى وقتا أو مكانا يحصل فيه من غير خلف ولا تأخير وإن جعلت المستقر بمعنى الاستقرار، كان المعنى لكل وعد ووعيد من الله تعالى استقرار ولا بد أن يعلموا أن الأمر كما أخبر الله تعالى عنه عند ظهوره ونزوله. وهذا الذي خوف الكفار به، يجوز أن يكون المراد منه عذاب الآخرة، ويجوز أن." (١)

"ولو أتى بكل تكلف وحيلة لعجز عنه ولو كان حصول العداوة والصداقة في القلب باختيار الإنسان لوجب أن يكون الإنسان متمكنا من قلب العداوة بالصداقة وبالضد وكيف لا نقول ذلك والشعراء عرفوا أن ذلك خارج عن الوسع؟ قال المتنبي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١/١٣

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

والعاشق الذي يشتد عشقه قد يحتال بجميع الحيل في إزالة عشقه ولا يقدر عليه ولو كان حصول ذلك الحب والبغض باختياره لما عجز عن إزالته.

المسألة الثالثة النصب في قوله شياطين فيه وجهان الأول أنه منصوب على البدل من قوله عدوا والثاني أن يكون قوله عدوا منصوبا على أنه مفعول ثان والتقدير وكذلك جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء الأنبياء.

المسألة الرابعة اختلفوا في معنى شياطين الإنس والجن على قولين الأول أن المعنى مردة الإنس والجن والشيطان كل عات **متمرد** من الإنس والجن وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ومجاهد والحسن وقتادة وهؤلاء قالوا إن من الجن شياطين ومن الإنس شياطين وإن الشيطان من الجن إذا أعياه المؤمن ذهب إلى **متمرد** من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه والدليل عليه ما

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لأبي ذر: «هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس؟» قال قلت وهل للإنس من شياطين؟ قال «نعم هم شر من شياطين الجن» .

والقول الثاني أن الجميع من ولد إبليس إلا أنه جعل ولده قسمين فأرسل أحد القسمين إلى وسوسة الإنس. والقسم الثاني إلى وسوسة الجن فالفريقان شياطين الإنس والجن ومن الناس من قال القول الأول أولى لأن المقصود من الآية الشكاية من سفاهة الكفار الذين هم الأعداء وهم الشياطين ومنهم من يقول القول الثاني أولى لأن لفظ الآية يقتضي إضافة الشياطين إلى الإنس والجن والإضافة تقتضي المغايرة وعلى هذا التقدير فالشياطين نوع مغاير للجن وهم أولاد إبليس.

المسألة الخامسة قال الزجاج وابن الأنباري قوله عدوا بمعنى أعداء وأنشد ابن الأنباري

إذا أنا لم أنفع صديقي بوده ... فإن عدوي لن يضرهمو بغضي

أراد أعدائي فأدى الواحد عن الجمع وله نظائر في القرآن. ومنها قوله ضيف إبراهيم المكرمين [الذريات ٢٤] جعل المكرمين وهو جمع نعتا للضيف وهو واحد وثانيها قوله والنخل باسقات لها طلع [ق ١٠] وثالثها قوله أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء [النور ٣١] ورابعها قوله إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا [العصر ٢] وخامسها قوله كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل [آل عمران ٩٣] أكد المفرد بما يؤكد الجمع به ولقائل أن يقول لا حاجة إلى هذا التكلف فإن التقدير وكذلك جعلنا لكل واحد من الأنبياء عدوا واحدا إذا لا يجب لكل واحد من الأنبياء أكثر من عدو واحد.

أما قوله تعالى يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا فالمراد أن أولئك الشياطين يوسوس بعضهم بعضا.." (١)

"عليه وهذا النوع من البحث فيه استقصاء ولا يليق ذكره بهذا الموضع وقوله تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالته فيه تنبيه على دقيقة أخرى وهي أن أقل ما لا بد منه في حصول النبوة والرسالة البراءة عن المكر والغدر والغل والحسد. وقوله لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله عين المكر والغدر والحسد فكيف يعقل حصول النبوة والرسالة مع هذه الصفات؟ ثم بين تعالى أنهم لكونهم موصوفين بهذه الصفات الذميمة سيصيبهم صغار عند الله وعذاب شديد وتقريره أن الثواب لا يتم إلا بأمرين التعظيم والمنفعة والعقاب أيضا إنما يتم بأمرين الإهانة والضرر والله تعالى توعدهم بمجموع هذين الأمرين في هذه الآية اما الاهابة فقوله سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد وإنما قدم ذكر الصغار على ذكر الضرر لأن القوم إنما تمردوا عن طاعة/ محمد عليه الصلاة والسلام طلبا للعز والكرامة فالله تعالى بين أنه يقابلهم بضد مطلوبهم فأول ما يوصل إليهم إنما يوصل الصغار والذل والهوان وفي قوله صغار عند الله وجوه الأول أن يكون المراد أن هذا الصغار إنما يحصل في الآخرة حيث لا حاكم ينفذ حكمه سواه. والثاني أنهم يصيبهم صغار بحكم الله وإيجابه في در الدنيا فلما كان ذلك الصغار هذا حاله جاز أن يضاف إلى عند الله. الثالث أن يكون المراد سيصيب الذين أجرموا صغار ثم استأنف وقال عند الله أي معد لهم ذلك والمقصود منه التأكيد الرابع أن يكون المراد صغار من عند الله وعلى هذا التقدير فلا بد من إضمار كلمة «من» وأما بيان الضرر والعذاب فهو قوله وعذاب شديد فحصل بهذا الكلام أنه تعالى أعد لهم الخزي العظيم والعذاب الشديد ثم بين أن ذلك إنما يصيبهم لأجل مكرهم وكذبهم وحسدهم.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٥]

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون (١٢٥)

في الآية مسائل المسألة الأولى تمسك أصحابنا بهذه الآية في بيان أن الضلال والهداية من الله تعالى.

واعلم أن هذه الآية كما أن لفظها يدل على قولنا فلفظها أيضا يدل على الدليل القاطع العقلي الذي في هذه المسألة وبيانه أن العبد قادر على الإيمان وقادر على الفكر فقدرته بالنسبة إلى هذين الأمرين حاصلة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣/ ١٢٠

على السوية فيمتنع صدور الإيمان عنه بدلا من الكفر أو الكفر بدلا من الإيمان إلا إذا حصل في القلب داعية إليه وقد بينا ذلك مرارا كثيرة في هذا الكتاب وتلك الداعية لا معنى لها إلا علمه أو اعتقاده أو ظنه بكون ذلك الفعل مشتملا على مصلحة زائدة ومنفعة راجحة فإنه إذا حصل هذا المعنى في القلب دعاه ذلك إلى فعل ذلك الشيء وإن حصل في القلب علم أو اعتقاد أو ظن بكون ذلك الفعل مشتملا على ضرر زائد ومفسدة راجحة دعاه ذلك إلى/ تركه وبينا بالدليل أن حصول هذه الدواعي لا بد وأن يكون من الله تعالى وأن مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل.

إذا ثبت هذا فنقول يستحيل أن يصدر الإيمان عن العبد إلا إذا خلق الله في قلبه اعتقاد أن الإيمان راجح المنفعة زائد المصلحة وإذا حصل في القلب هذا الاعتقاد مال القلب وحصل في النفس رغبة شديدة في." (١)

"النوع الثالث: من التشريفات المذكورة في هذه الآية قوله: وهو وليهم والولي معناه القريب فقوله: عند ربهم يدل على قربهم من الله تعالى وقوله: وهو وليهم يدل على قرب الله منهم ولا نرى في العقل درجة للعبد أعلى من هذه الدرجة وأيضا فقوله: وهو وليهم يفيد الحصر أي لا ولي لهم إلا هو وكيف وهذا التشريف إنما حصل على التوحيد المذكور في قوله: فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا فهؤلاء الأقوام قد عرفوا من هذه الآية أن المدبر والمقدر ليس إلا هو وأن النافع والضار ليس إلا هو وأن المسعد والمشقي ليس إلا هو وأنه لا مبدئ للكائنات والممكنات إلا هو فلما عرفوا هذا انقطعوا عن كل ما سواه فما كان رجوعهم إلا إليه وما كان توكلهم إلا عليه وما كان أنسهم إلا به/ وما كان خضوعهم إلا له فلما صاروا بالكلية لا جرم قال تعالى: وهو وليهم وهذا إخبار بأنه تعالى متكفل بجميع مصالحهم في الدين والدنيا ويدخل فيها الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة وإيصال الخيرات ودفع الآفات والبليات.

ثم قال تعالى: بما كانوا يعملون وإنما ذكر ذلك لئلا ينقطع المرء عن العمل فإن العمل لا بد منه وتحقيق القول فيه: أن بين النفس والبدن تعلقا شديدا فكما ان الهيآت النفسانية قد تنزل من النفس إلى البدن مثل ما إذا تصور أمرا مغضبا ظهر الأثر عليه في البدن وفيسخن البدن ويحمى فكذلك الهيآت البدنية قد تصعد من البدن إلى النفس فإذا واظب الإنسان على أعمال البر والخير ظهر الآثار المناسبة لها في جوهر النفس وذلك يدل على أن السالك لا بد له من العمل وأنه لا سبيل له إلى تركه البتة.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣٧/١٣

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٢٨]

ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم (١٢٨)

[في قوله تعالى ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم] اعلم أنه تعالى لما بين حال من يتمسك بالصراط المستقيم بين بعده حال من يكون بالضد من ذلك لتكون قصة أهل الجنة مردفة بقصة أهل النار وليكون الوعيد مذكورا بعد الوعد وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ويوم يحشرهم منصوب بمحذوف أي واذكر يوم نحشرهم أو يوم نحشرهم قلنا يا معشر الجن أو يوم نحشرهم وقلنا يا معشر الجن كان ما لا يوصف لفظاعته.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ويوم يحشرهم إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: يعود إلى المعلوم لا إلى المذكور وهو الثقلان وجميع المكلفين الذين علم أن الله يبعثهم. والثاني: أنه عائد إلى الشياطين الذين تقدم ذكرهم في قوله: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا [الانعام: ١١٢] .

المسألة الثالثة: في الآية محذوف والتقدير: يوم نحشرهم جميعا فنقول: يا معشر الجن فيكون هذا القائل هو الله تعالى كما أنه الحاشر لجميعهم وهذا القول منه تعالى بعد الحشر لا يكون إلا تبكيتا وبيانا لجهة أنهم وإن تمردوا في الدنيا فينتهي حالهم في الآخرة إلى الاستسلام والانقياد والاعتراف بالجرم. وقال الزجاج: التقدير فيقال لهم يا معشر الجن لأنه يبعد أن يتكلم الله تعالى بنفسه مع الكفار بدليل قوله تعالى في صفة." (١)

"بفضل الله وإقداره وتمكينه فيكون الكل إنعاما من الله تعالى وكثرة الإنعام لا شك أنها توجب الطاعة والانقياد ثم بين تعالى أنه مع هذا الإفضال والإنعام عالم بأنهم لا يقومون بشكره كما ينبغي فقال قليلا ما تشكرون وهذا يدل على أنهم قد يشكرون والأمر كذلك وذلك لأن الإقرار بوجود الصانع كالأمر الضروري اللازم لجبلة عقل كل عاقل ونعم الله على الإنسان كثيرة فلا إنسان إلا ويشكر الله تعالى في بعض الأوقات على نعمه إنما التفاوت في أن بعضهم قد يكون كثير الشكر وبعضهم يكون قليل الشكر وبعضهم يكون قليل الشكر.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٧/١٣

المسألة الثانية: روى خارجة عن نافع أنه همز معائش قال الزجاج: جميع النحويين البصريين يزعمون أن همز معائش خطأ وذكروا أنه إنما يجوز جعل الياء همزة إذا كانت زائدة نحو صحيفة وصحائف فأما معايش فمن العيش والياء أصلية وقراءة نافع لا أعرف لها وجها إلا أن لفظة هذه الياء التي هي من نفس الكلمة أسكن في معيشة فصارت هذه الكلمة مشابهة لقولنا صحيفة فجعل قوله: معايش شبيها لقولنا صحائف فكما أدخلوا الهمزة في قولنا: - صحائف- فكذا في قولنا معائش على سبيل التشبيهة إلا أن الفرق ما ذكرناه أن الياء في- معيشة اصلية وفي- صحفيفة زائدة.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١١]

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١)

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى رغب الأمم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام بالتخويف أولا ثم بالترغيب ثانيا على ما بيناه والترغيب إنما كان لأجل التنبيه على كثرة نعم الله تعالى على الخلق فبدأ في شرح تلك النعم بقوله: ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش [الأعراف: ١٠] ثم أتبعه بذكر أنه خلق أبانا آدم وجعله مسجودا للملائكة والإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات ونظيره أنه تعالى قال في أول سورة البقرة كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم [البقرة: ٢٨] فمنع تعالى من المعصية بقوله: كيف تكفرون بالله وعلل ذلك المنع بكثرة نعمه على الخلق وهو انهم في الأرض مسجودا للملائكة والمقصود من الكل تقرير أن مع هذه النعم العظيمة لا يليق بهم **التمرد** والجحود فكذا في هذه السورة ذكر تعالى عين هذا المعنى بغير هذا الترتيب فهذا بيان وجه النظم على أحسن الوجوه:

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى ذكر قصة آدم عليه السلام مع قصة إبليس في القرآن في سبعة مواضع: أولها: في سورة البقرة وثانيها: في هذه السورة وثالثها: في سورة الحجر ورابعها: في سورة بني إسرائيل وخامسها: في سورة الكهف وسادسها: في سورة طه وسابعها: في سورة ص.

إذا عرفت هذا فنقول: في هذه الآية سؤال وهو أن قوله تعالى: ولقد خلقناكم ثم صورناكم يفيد أن المخاطب بهذا الخطاب نحن.

ثم قال بعده: ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وكلمة (ثم) تفيد التراخي فظاهر الآية يقتضي أن أمر الملائكة بالسجود لآدم وقع بعد خلقنا وتصويرنا ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك فلهذا السبب اختلف الناس في." [١]

"اعلم أنه تعالى لما بين أحوال التكليف وبين أن لكل أحد أجلا معينا لا يتقدم ولا يتأخر بين أنهم بعد الموت كانوا مطيعين فلا خوف عليهم ولا حزن وإن كانوا **متمردين** وقعوا في أشد العذاب وقوله: إما يأتينكم هي إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط ولذلك لزمت فعلها النون/ الثقيلة وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء وهو قوله: فمن اتقى وأصلح وإنما قال رسل وإن كان خطابا للرسول عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليه وعليهم السلام لأنه تعالى أجرى الكلام على ما يقتضيه سنته في الأمم وإنما قال: منكم لأن كون الرسول منهم أقطع لعذرهم وأبين للحجة عليهم من جهات:
أحدها: أن معرفتهم بأحواله وبطهارته تكون متقدمة. وثانيها: أن معرفتهم بما يليق بقدرته تكون متقدمة فلا جرم لا يقع في المعجزات التي تظهر عليه شك وشبهة في أنها حصلت بقدرة الله تعالى لا بقدرته فلهذا السبب قال تعالى: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا [الأنعام: ٩] . وثالثها: ما يحصل من الألفة وسكون القلب إلى أبناء الجنس بخلاف ما لا يكون من الجنس فإنه لا يحصل معه الألفة.
وأما قوله: يقصون عليكم آياتي فقيل تلك الآيات هي القرآن وقيل الدلائل وقيل الأحكام والشرائع والأولى دخول الكل فيه لأن جميع هذه الأشياء آيات الله تعالى لأن الرسل إذا جاءوا فلا بد وأن يذكروا جميع هذه الأقسام ثم قسم تعالى حال الأمة فقال: فمن اتقى وأصلح وجمع هاتين الحالتين مما يوجب الثواب لان الملتقي هو الذي يتقي كل ما نهى الله تعالى عنه ودخل في قوله: وأصلح أنه أتى بكل ما أمر به.
ثم قال تعالى في صفته: فلا خوف عليهم أي بسبب الأحوال المستقبلة ولا هم يحزنون أي بسبب الأحوال الماضية لأن الإنسان إذا جوز وصول المضرة إليه في الزمان المستقبل خاف وإذا تفكر فعلم أنه وصل إليه بعض ما لا ينبغي في الزمان الماضي حصل الحزن في قلبه لهذا السبب والأولى في نفي الحزن أن يكون المراد أن لا يحزن على ما فاته في الدنيا لأن حزنه على عقاب الآخرة يجب أن يرتفع بما حصل له من زوال الخوف فيكون كالمعاد وحمله على الفائدة الزائدة أولى فبين تعالى أن حاله في الآخرة تفارق حاله في الدنيا فإنه في الآخرة لا يحصل في قلبه خوف ولا حزن البتة واختلف العلماء في أن المؤمنين من أهل الطاعات هل يلحقهم خوف وحزن عند أهوال يوم القيامة فذهب بعضهم الا أنه لا يلحقهم ذلك والدليل عليه هذه الآية.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤/٢٠٥

وأيضا قوله تعالى: لا يحزنهم الفزع الأكبر [الأنبياء: ١٠٣] وذهب بعضهم الى ان يلحقهم ذلك الفزع لقوله تعالى: يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى

[الحج: ٢] أي من شدة الخوف.

وأجاب هؤلاء عن هذه الآية: بأن معناه ان أمرهم يئول إلى الأمن والسرور كقول الطبيب للمريض: لا بأس عليك اي أمرك يئول إلى العافية والسلامة وإن كان في الوقت في بأس من/ علته ثم بين تعالى أن الذين كذبوا بهذه الآيات التي يجيء بها الرسل واستكبروا ان انفوا من قبولها **وتمردوا** عن التزامها فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون وقد تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن الفاسق من أهل الصلاة لا يبقى مخلدا في النار لأنه تعالى بين أن المكذبين بآيات الله والمستكبرين عن قبولها هم الذين يبقون مخلدين في النار وكلمة هم تفيد الحصر فذلك يقتضي أن من لا يكون موصوفا بذلك التكذيب والاستكبار لا يبقى مخلدا في النار. والله اعلم.." (١)

"ونهيه، فإن يكون معاقبا، والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية على القطع بوعيد/ الفساق، وقالوا لا يجوز أن يقال المراد منه الاعتداء في رفع الصوت بالدعاء وبيانه من وجهين: الأول: أن لفظ المعتدين لفظ عام دخله الألف واللام، فيفيد الاستغراق غايته أنه إنما ورد في هذه الصورة لكنه ثبت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. الثاني: أن رفع الصوت بالدعاء ليس من المحرمات بل غايته أن يقال الأولى تركه، وإذا لم يكن من المحرمات لم يدخل تحت هذا الوعيد.

والجواب المستقصى ما ذكرناه في سورة البقرة أن التمسك بهذه العمومات لا يفيد القطع بالوعيد.

ثم قال تعالى: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها معناه ولا تفسدوا شيئا في الأرض، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل، وإفساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على الزنا واللواطة وسبب القذف، وإفساد العقول بسبب شرب المكسرات، وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة: النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول. فقوله: ولا تفسدوا منع عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه، فيتناول المنع من الإفساد في هذه الأقسام

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٥/١٤

الخمسة، وأما قوله: بعد إصلاحها فيحتمل أن يكون المراد بعد أن أصلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق والموافق لمصالح المكلفين، ويحتمل أن يكون المراد بعد إصلاح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب كأنه تعالى قال: لما أصلحت مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع فكونوا منقادين لها، ولا تقدموا على تكذيب الرسل وإنكار الكتب **والتمرد** عن قبول الشرائع، فإن ذلك يقتضي وقوع الهرج والمرج في الأرض، فيحصل الإفساد بعد الإصلاح، وذلك مستكره في بداهة العقول.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار الحرمة والمنع على الإطلاق.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصا خاصا دل على جواز الإقدام على بعض المضار قضينا به تقديما للخاص على العام وإلا بقي على التحريم الذي دل عليه هذا النص.

واعلم أنا كنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق [الأعراف: ٣٢] أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المنافع واللذات الإباحة والحل، ثم بينا أنه لما كان الأمر كذلك دخل تحت تلك الآية جميع أحكام الله تعالى، فكذلك في هذه الآية أنها تدل/ على أن الأصل في المضار والآلام، الحرمة.

وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام الله تعالى داخلا تحت عموم هذه الآية، وجميع ما ذكرناه من المباحث واللطائف في تلك الآية فهي موجودة في هذه الآية، فتلك الآية دالة على أن الأصل في المنافع الحل، وهذه الآية دالة على أن الأصل في جميع المضار الحرمة، وكل واحدة من هاتين الآيتين مطابقة للأخرى مؤكدة لمدلولها مقررة لمعناها، وتدل على أن أحكام جميع الوقائع داخلة تحت هذه العمومات، وأيضا هذه الآية دالة على أن كل عقد وقع التراضي عليه بين الخصمين، فإنه انعقد وصح وثبت، لأن رفعه بعد ثبوته يكون إفسادا بعد الإصلاح، والنص دل على أنه لا يجوز.." (١)

"[في قوله تعالى قال الملأ الذين استكبروا من قومه إلى قوله كافرون] اعلم أنا ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين تمتلئ القلوب من هيبتهم، ومعنى الآية قال الملأ وهم الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا، يريد المساكين الذين آمنوا به، وقوله: لمن آمن منهم بدل من قوله: للذين استضعفوا لأنهم المؤمنون. واعلم أنه وصف أولئك الكفار بكونهم مستكبرين، ووصف أولئك المؤمنين بكونهم مستضعفين، وكونهم مستكبرين فعل استوجبوا به الذم، وكون المؤمنين مستضعفين معناه: أن غيرهم يستضعفهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٣/١٤

ويستحقرهم، وهذا ليس فعلا صادرا عنهم بل عن غيرهم، فهو لا يكون صفة ذم حقهم، بل الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم. ثم حكى تعالى أن هؤلاء المستكبرين سألوا المستضعفين عن حال صالح فقال المتضعفون نحن موقنون مصدقون بما جاء به صالح. وقال المستكبرون: بل نحن كافرون بما جاء به صالح، وهذه الآية من أعظم ما يحتج به في بيان أن الفقر خير من الغنى، وذلك لأن الاستكبار إنما يتولد من كثرة المال والجاه، والاستضعاف إنما يحصل من قلتهما، فبين تعالى أن كثرة المال والجاه حملهم على التمرد، والإباء، والإنكار، والكفر، وقلة المال والجاه حملهم على الإيمان، والتصديق والانقياد، وذلك يدل على أن الفقر خير من الغنى.

ثم قال تعالى: فعقروا الناقة قال الأزهري: العقر عند العرب، كشف عرقوب البعير، ولما كان العقر سببا للنحر أطلق العقر على النحر إطلاقا لاسم السبب على المسبب. واعلم أنه أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة العظيمة: أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم.

ثم قال: وعتوا عن أمر ربهم يقال: عتا يعتو عتوا، إذا استكبر. ومنه يقال: جبار عات قال مجاهد:

العتو الغلو في الباطل وفي قوله: عن أمر ربهم وجهان: الأول: معناه استكبروا عن امتثال أمر ربهم وذلك الأمر هو الذي أوصله الله إليهم على لسان صالح عليه السلام وهو قوله: فذروها تأكل في أرض الله [الأعراف: ٧٣] الثاني: أن يكون المعنى وصدر عتوهم عن أمر ربهم، فكأن أمر ربهم بتركها صار سببا في إقدامهم على ذلك العتو، كما يقال: الممنوع متبوع وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين وإنما قالوا ذلك، لأنهم كانوا مكذبين له في كل ما أخبر عنه من الوعد والوعيد.

ثم قال تعالى: فأخذتهم الرجفة قال الفراء والزجاج: هي الزلزلة الشديدة. قال تعالى: يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا [المزمل: ١٤] قال الليث: يقال رجف الشيء يرجف رجفا ورجفانا كرجفان البعير تحت الرحل، وكما يرجف الشجر إذا أرجفته الريح.

ثم قال: فأصبحوا في دارهم جاثمين يعني في بلدهم ولذلك وحد الدار كما يقول: دار الحرب ومررت بدار البزازين، وجمع في آية أخرى فقال: في ديارهم [هود: ٩٤] لأنه أراد بالدار ما لكل واحد منهم من منزله الخاص به. وقوله: جاثمين قال أبو عبيدة: الجثوم للناس والطير، بمنزلة البروك للإبل." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤/٣٠٧

"وأما قوله: توعدون فمحله ومحل ما عطف عليه النصب على الحال والتقدير: ولا تقعدوا موعدين ولا صادين عن سبيل الله ولا أن تبغوا عوجا في سبيل الله والحاصل: أنه نهاهم عن القعود على صراط الله حال الاشتغال بأحد هذه الأمور الثلاثة. واعلم أنه تعالى لما عطف بعض هذه الثلاثة على البعض وجب حصول المغايرة بينها فقوله: توعدون يحصل بذلك إنزال المضار بهم وأما الصد فقد يكون بالإيعاد بالمضار وقد يكون بالوعد بالمنافع بما لو تركه وقد يكون بأن لا يمكنه من الذهاب إلى الرسول ليسمع كلامه.

أما قوله: وتبغونها عوجا فالمراد إلقاء الشكوك والشبهات والمراد من الآية أن شعيبا منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاثة وإذا تأملت علمت أن أحدا لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب أو مقالة إلا بأحد هذه الطرق الثلاثة.

ثم قال: واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم والمقصود منه أنهم إذا تذكروا كثرة إنعام الله عليهم فالظاهر أن ذلك يحملهم على الطاعة والبعد عن المعصية قال الزجاج: وهذا الكلام يحتمل ثلاثة أوجه كثر عددكم بعد القلة وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقدرة بعد الضعف ووجه/ ذلك أنهم إذا كانوا فقراء أو ضعفاء فهم بمنزلة القليل في أنه لا يحصل من وجودهم قوة وشوكة. فأما تكثير عددهم بعد القلة فهو أن مدين بن ابراهيم تزوج رئيا بنت لوط فولدت حتى كثر عددهم.

ثم قال بعده: وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين والمعنى تذكروا عاقبة المفسدين وما لحقهم من الخزي والنكال ليصير ذلك زاجرا لكم عن العصيان والفساد فقوله: واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم المقصود منه أنهم إذا تذكروا نعم الله عليهم انقادوا وأطاعوا وقوله: وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين المقصود منه أنهم إذا عرفوا أن عاقبة المفسدين **المتمردين** ليست إلا الخزي والنكال احترزوا عن الفساد والعصيان وأطاعوا فكان المقصود من هذين الكلامين حملهم على الطاعة بطريق الترغيب أولا والترهيب ثانيا.

ثم قال: وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا والمقصود منه تسلية قلوب المؤمنين وزجر من لم يؤمن لأن قوله: فاصبروا تهديد وكذلك قوله: حتى يحكم الله بيننا والمراد إعلاء درجات المؤمنين وإظهار هوان الكافرين وهذه الحالة قد تظهر في الدنيا فإن لم تظهر في الدنيا فلا بد من ظهورها في الآخرة.

ثم قال: وهو خير الحاكمين يعني أنه حاكم منزه عن الجور والميل والحيف فلا بد وأن يخص المؤمن التقي بالدرجات العالية والكافر الشقي بأنواع العقوبات ونظيره قوله: أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض [ص: ٢٨] .

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨٨ الى ٨٩]
قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين (٨٨) قد افتريںا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين (٨٩)." (١)

"تعالى ما أنزل عذاب الاستئصال، إلا في زمن هؤلاء الأنبياء فقط، فبين في هذه الآية أن هذا الجنس من الهلاك قد فعله بغيرهم، وبين العلة التي بها يفعل ذلك: قال تعالى: وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء وإنما ذكر القرية لأنها مجتمع القوم الذين إليهم يبعث الرسل، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة، لأنها مجتمع الأقوام وقوله: من نبي فيه حذف وإضمار، والتقدير: من نبي فكذب أو كذبه أهلها، إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء. قال الزجاج: البأساء كل ما نالهم من الشدة في أحوالهم، والضراء ما نالهم من الأمراض وقيل على العكس، ثم بين تعالى أنه يفعل ذلك لكي يضرعوا، معناه: يتضرعوا، والتضرع هو الخضوع والانقياد لله تعالى، ولما علمت أن قوله: لعلهم لا يمكن حمله على الشك في حق الله تعالى، وجب حمله على أن/ المراد أنه تعالى فعل هذا الفعل لكي يتضرعوا. قالت المعتزلة، وهذا يدل على أنه تعالى أراد من كل المكلفين الإيمان والطاعة. وقال أصحابنا: لما ثبت بالدليل أن تعليل أفعال الله وأحكامه محال وجب حمل الآية على أنه تعالى فعل، ما لو فعله غيره لكان ذلك شبيها بالعلة والغرض، ثم بين تعالى أن تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمط واحد، وإنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب فقال: ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة لأن ورود النعمة في البدن والمال بعد البأساء والضراء، يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر، ومعنى الحسنة والسيئة هاهنا الشدة والرخاء. قال أهل اللغة: (السيئة) كل ما يسوء صاحبه، و (الحسنة) ما يستحسنه الطبع والعقل، والمعنى: أنه تعالى أخبر أنه يأخذ أهل المعاصي بالشدة تارة، وبالرخاء أخرى. وقوله: حتى عفوا قال الكسائي: يقال: قد عفا الشعر وغيره، إذا كثر، يعفو فهو عاف. ومنه قوله تعالى: حتى عفوا يعني كثروا ومنه ما
ورد في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام، أمر أن تحف الشوارب، وتعفى اللحى
يعني توفر وتكثر وقوله: وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فالمعنى: أنهم متى نالهم شدة قالوا: ليس هذا بسبب ما نحن عليه من الدين والعمل وتلك عادة الدهر، ولم يكن ما مسنا من البأساء والضراء عقوبة من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٥/١٤

الله وهذه الحكاية تدل على أنهم لم ينتفعوا بما دبرهم الله عليه من رخاء بعد شدة، وأمن بعد خوف، بل عدلوا إلى أن هذه عادة الزمان في أهله، فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد، ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة، فبين تعالى أنه أزال عذرهم وأزاح علتهم، فلم ينقادوا ولم ينتفعوا بذلك الإمهال، وقوله:
فأخذناهم بغتة والمعنى: أنهم لما **تمردوا** على التقديرين، أخذهم الله بغتة أينما كانوا، ليكون ذلك أعظم في الحسرة. وقوله: وهم لا يشعرون أي يرون العذاب والحكمة في حكاية هذا المعنى أن يحصل الاعتبار لمن سمع هذه القصة وعرفها.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٩٦ الى ٩٩]
ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (٩٦) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون (٩٧) أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون (٩٨) أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (٩٩)
اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الذين عصوا **وتمردوا** أخذهم الله بغتة، بين في هذه الآية أنهم لو." (١)

"إذا عرفت هذا فنقول: قال المفسرون: أخذنا آل فرعون بالسنين يريد الجوع والقحط عاما بعد عام فالسنون لأهل البوادي ونقص من الثمرات لأهل القرى.
ثم قال تعالى: لعلهم يذكرون وفيه مسألتان:
المسألة الأولى: ظاهر الآية أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضار لأجل أن يرجعوا عن طريقة **التمرد** والعناد إلى الانقياد والعبودية وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب وترغب فيما عند الله والدليل عليه قوله تعالى: وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه [الإسراء: ٦٧] وقوله: وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض [فصلت: ٥١] .
المسألة الثانية: قال القاضي: هذه الآية تدل على أنه تعالى فعل ذلك إرادة منه أن يتذكروا لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر.
أجاب الواحدي عنه: بأنه قد جاء لفظ الابتلاء والاختبار في القرآن لا بمعنى أنه تعالى يمتحنهم لأن ذلك على الله تعالى محال بل بمعنى أنه تعالى عاملهم معاملة تشبه الابتلاء والامتحان فكذا هاهنا. والله أعلم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤/٣٢١

ثم بين تعالى أنهم عند نزول تلك المحن عليهم يقدمون على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم فقال: فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه قال ابن عباس: يريد بالحسنة العشب والخصب والثمار والمواشي والسعة في الرزق والعافية والسلامة وقالوا لنا هذه أي نحن مستحقون على العادة التي جرت من كثرة نعمنا وسعة أرزاقنا ولم يعلموا أنه من الله فيشكروه عليه ويقوموا بحق النعمة فيه. وقوله: وإن تصبهم سيئة يريد القحط والجدب والمرض والضر والبلاء يطيروا بموسى ومن معه أي يتشاءموا به. ويقولوا إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه والتطير التشاؤم في قول جميع المفسرين وقوله: يطيروا هو في الأصل يتطيروا أدغمت التاء في الطاء لأنهما من مكان واحد من طرف اللسان وأصول الثنايا وقوله: ألا إنما طائرهم عند الله في الطائر قولان:
القول الأول: قال ابن عباس: يريد شؤمهم عند الله تعالى أي من قبل الله أي إنما جاءهم الشر بقضاء الله وحكمه فالطائر هاهنا الشؤم. ومثله قوله تعالى في قصة ثمود: قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله قال الفراء: وقد تشاءمت اليهود بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة فقالوا غلت أسعارنا وقلت أمطارنا مذ أتانا قال الأزهري: وقيل للشؤم طائر وطير وطيرة لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها والتطير ببارحها ونعيق غربانها وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها فسموا الشؤم طيرا وطائرا وطيرة لتشاؤمهم بها. ثم أعلم الله تعالى على لسان رسوله أن طيرتهم باطلة فقال: (لا طيرة ولا هام) وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتفاءل ولا يتطير. وأصل الفأل الكلمة الحسنة وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد فاثبت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الفأل وأبطل الطيرة قال محمد الرازي رحمه الله: / ولا بد من ذكر فرق بين البابين. والأقرب أن يقال: إن الأرواح الإنسانية أصفى وأقوى من الأرواح البهيمية والطيرية. فالكلمة التي تجري على لسان الإنسان يمكن الاستدلال بها بخلاف طيران الطير وحركات البهائم فإن أرواحها ضعيفة فلا يمكن الاستدلال بها على شيء من الأحوال.." (١)

"قلنا: هذا غير لازم، لأن النهي عن المنكر إنما يجب على الكفاية. فإذا قام به البعض سقط عن الباقين، ثم ذكر أنه تعالى أخذهم بعذاب بئيس، والظاهر أن هذا العذاب غير المسخ المتأخر ذكره. وقوله: بعذاب بئيس أي شديد وفي هذه اللفظة قراءات: أحدها: بئيس بوزن فعيل. قال أبو علي: وفيه وجهان: الأول:
أن يكون فعيلا من بؤس يبؤس بأسا إذا اشتد. والآخر: ما قاله أبو زيد، وهو أنه من البؤس وهو الفقر يقال بئس الرجل يبأس بؤسا وبأسا وبئيسا إذا افتقر فهو بائس، أي فقير. فقوله: بعذاب بئيس أي ذي بؤس.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤٤/١٤

والقراءة الثانية (بئس) بوزن حذر. والثالثة: (بيس) على قلب الهمزة ياء، كالذيب في ذئب، والرابعة: (بيئس) على فيعل.

والخامسة: (بيس) كوزن/ ريس على قلب همزة بئيس ياء وإدغام الياء فيها. والسادسة: (بيس) على تخفيف بيس كهين في هين، وهذه القراآت نقلها صاحب «الكشاف» . ثم بين تعالى أنهم مع نزول هذا العذاب بهم تمردوا.

فقال عز من قائل:

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٦]

فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين (١٦٦)

وفيه مباحث:

البحث الأول: العتو عبارة عن الإباء والعصيان، وإذا عتوا عما نهوا عنه فقد أطاعوا، لأنهم أبوا عما نهوا عنه، ومعلوم أنه ليس المراد ذلك فلا بد من إضمار، والتقدير: فلما عتوا عن ترك ما نهوا عنه، ثم حذف المضاف، وإذا أبوا ترك المنهي كان ذلك ارتكابا للمنهي.

البحث الثاني: من الناس من قال: إن قوله: قلنا لهم كونوا قردة ليس من المقال، بل المراد منه: أنه تعالى فعل ذلك. قال: وفيه دلالة على أن قوله: إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون [النحل: ٤٠] هو بمعنى الفعل لا الكلام. وقال الزجاج: أمروا بأن يكونوا كذلك بقول سمع فيكون أبلغ.

واعلم أن حمل هذا الكلام على هذا بعيد، لأن المأمور بالفعل يجب أن يكون قادرا عليه، والقوم ما كانوا قادرين على أن يقلبوا أنفسهم قردة.

البحث الثالث: قال ابن عباس: أصبح القوم وهم قردة صاغرون، فمكثوا كذلك ثلاثا فرآهم الناس ثم هلكوا. ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن شباب القوم صاروا قردة، والشيوخ خنازير، وهذا القول على خلاف الظاهر. واختلفوا في أن الذين مسخوا هل بقوا قردة؟ وهل هذه القردة من نسلهم أو هلكوا، وانقطع نسلهم، ولا دلالة في الآية عليه، والكلام في المسخ وما فيه من المباحثات قد سبق بالاستقصاء في سورة البقرة. والله أعلم.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٧]

وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور

رحيم (١٦٧)
اعلم أنه تعالى لما شرح هاهنا بعض مصالح أعمال اليهود وقبائح أفعالهم ذكر في هذه الآية أنه تعالى حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة، قال سيبويه: أذن أعلم. وأذن نادى وصاح لإعلام ومنه قوله تعالى: فأذن مؤذن بينهم [الأعراف: ٤٤] وقوله: تأذن بمعنى أذن أي أعلم. ولفظة تفعل، هاهنا ليس." (١)

"ثم قال تعالى: فأمكن منهم قال الأزهري: يقال أمكنني الأمر يمكنني فهو ممكن ومفعول الإمكان محذوف، والمعنى: فأمكن المؤمنين منهم، والمعنى أنهم خانوا الله بما أقدموا عليه من محاربة الرسول يوم بدر فأمكن الله منهم قتلا وأسرا، وذلك نهاية الإمكان والظفر. فنبه الله بذلك على أنهم قد ذاقوا وبال ما فعلوه ثم، فإن عادوا كان التمكين منهم ثابتا حاصلا، وفيه بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه يتمكن من كل من يخونه وينقض عهده.
ثم قال: والله عليم أي ببواطنهم وضمائرهم حكيم يجازيهم بأعمالهم.

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٧٢ الى ٧٥]
إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (٧٢) والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير (٧٣) والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم (٧٤) والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم (٧٥)
اعلم أنه تعالى قسم المؤمنين في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أربعة أقسام، وذكر حكم كل واحد منهم، وتقرير هذه القسمة أنه عليه السلام ظهرت نبوته بمكة ودعا الناس هناك إلى الدين، ثم انتقل من مكة إلى المدينة، فحين هاجر من مكة إلى المدينة صار المؤمنون على قسمين منهم من وافقه في تلك الهجرة، ومنهم من لم يوافقه فيها بل بقي هناك.
أما القسم الأول: فهم المهاجرون الأولون، وقد وصفهم بقول: إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وإنما قلنا إن المراد منهم المهاجرون الأولون لأنه تعالى قال في آخر الآية:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩٣/١٥

والذين آمنوا من بعد وهاجروا وإذا ثبت هذا ظهر أن هؤلاء موصوفون بهذه الصفات الأربعة: أولها: أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقبلوا جميع التكاليف التي بلغها محمد صلى الله عليه وسلم ولم يتمردوا، فقوله: إن الذين يفيد هذا المعنى.

والصفة الثانية: قوله: وهاجروا يعني: فارقوا الأوطان، وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله، ومعلوم أن هذه الحالة حالة شديدة، قال تعالى: أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم [النساء: ٦٦] جعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس، فهؤلاء في المرتبة الأولى تركوا الأديان القديمة لطلب مرضاة الله تعالى، وفي المرتبة الثانية تركوا الأقارب والخلان والأوطان والجيران لمرضاة الله تعالى.

والصفة الثالثة: قوله: وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أما المجاهدة بالمال فلأنهم لما فارقوا الأوطان فقد ضاعت دورهم ومساكنهم وضياعهم ومزارعهم، وبقيت في أيدي الأعداء، وأيضا فقد احتاجوا إلى الإنفاق الكثير بسبب تلك العزيمة، وأيضا كانوا ينفقون أموالهم على تلك الغزوات، وأما المجاهدة بالنفس." (١)

"إذا عرفت هذين القولين فنقول: إن القوم علموا أنهم لو رتبوا حسابهم على السنة القمرية، فإنه يقع حجهم تارة في الصيف وتارة في الشتاء، وكان يشق عليهم الأسفار ولم ينتفعوا بها في المرابحات والتجارات، لأن سائر الناس من سائر البلاد ما كانوا يحضرون إلا في الأوقات اللائقة الموافقة، فعلموا أن بناء الأمر على رعاية السنة القمرية يخل بمصالح الدنيا، فتركوا ذلك واعتبروا السنة الشمسية، ولما كانت السنة الشمسية زائدة على السنة القمرية بمقدار معين، احتاجوا إلى الكبيسة وحصل لهم بسبب تلك الكبيسة أمران: أحدهما: أنهم كانوا يجعلون بعض السنين ثلاثة عشر شهرا بسبب اجتماع تلك الزيادات. والثاني: أنه كان ينتقل الحج من بعض الشهور القمرية إلى غيره، فكان الحج يقع في بعض السنين في ذي الحجة وبعده في المحرم وبعده في صفر، وهكذا في الدور حتى ينتهي بعد مدة مخصوصة مرة أخرى إلى ذي الحجة، فحصل بسبب ال كبيسة هذان الأمران: أحدهما: الزيادة في عدة الشهور. والثاني: تأخير الحرمة الحاصلة لشهر إلى شهر آخر وقد بينا أن لفظ النسيء يفيد التأخير عند الأكثرين، ويفيد الزيادة عند الباقين، وعلى التقديرين فإنه منطبق على هذين الأمرين.

والحاصل من هذا الكلام: أن بناء العبادات على السنة القمرية يخل مصالح الدنيا، وبناؤها على السنة الشمسية يفيد رعاية مصالح الدنيا والله تعالى أمرهم من وقت إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببناء الأمر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥/٥١٥

على رعاية السنة القمرية، فهم تركوا أمر الله في رعاية السنة القمرية، واعتبروا السنة الشمسية رعاية لمصالح الدنيا، وأوقعوا الحج في شهر آخر سوى الأشهر الحرم، فلهذا السبب عاب الله عليهم وجعله سببا لزيادة كفرهم، وإنما كان ذلك سببا لزيادة الكفر، لأن الله تعالى أمرهم بإيقاع الحج في الأشهر الحرم، ثم إنهم بسبب هذه الكبيسة أوقعوا في غير هذه الأشهر، وذكروا لأتباعهم أن هذا الذي عملناه هو الواجب، وأن إيقاعه في الشهور القمرية غير وواجب، فكان هذا إنكارا منهم لحكم الله مع العلم به **وتمردا** عن طاعته، وذلك يوجب الكفر بإجماع المسلمين فثبت أن عملهم في ذلك النسيء يوجب زيادة في الكفر، وأما الحساب الذي به يعرف مقادير الزيادة الحاصلة بسبب تلك الكبائس فمذكور في الزيجات، وأما المفسرون فإنهم ذكروا في سبب/ هذا التأخير وجها آخر فقالوا: إن العرب كانت تحرم الشهور الأربعة، وكان ذلك شريعة ثابتة من زمان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان العرب أصحاب حروب وغارات فشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها وقالوا:

إن توالت ثلاثة أشهر حرم لا نصيب فيها شيئا لنهلكن، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم. قال الواحدي: وأكثر العلماء على أن هذا التأخير ما كان يختص بشهر واحد، بل كان ذلك حاصلا في كل الشهور، وهذا القول عندنا هو الصحيح على ما قررناه. واتفقوا

أنه عليه السلام لما أراد أن يحج في سنة حجة الوداع عاد الحج إلى شهر ذي الحجة في نفس الأمر، فقال عليه السلام: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض السنة إثنا عشر شرا» وأراد أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها.

المسألة الثانية: قوله تعالى: زيادة في الكفر معناه: أنه تعالى حكى عنهم أنواعا كثيرة من الكفر، فلما ضموا إليها هذا العمل ونحن قد دللنا على أن هذا العمل كفر كان ضم هذا العمل إلى تلك الأنواع المذكورة سالفا من الكفر زيادة في الكفر. احتج الجبائي بهذه الآية على فساد قول من يقول: الإيمان مجرد الاعتقاد والإقرار، قال: لأنه تعالى بين أن هذا العمل زيادة في الكفر والزيادة على الكفر يجب أن تكون إتماما، فكان ترك هذا التأخير إيمانا، وظاهر أن هذا الترك ليس بمعرفة ولا بإقرار فثبت أن غير المعرفة والإقرار قد يكون." (١)

"[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون (٤٨) ومنهم من يقول

---

(١) تفسي ر الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦/٤٥

ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (٤٩)

اعلم أن المذكور في هذه الآية نوع آخر من مكر المنافقين وخبث باطنهم فقال: لقد ابتغوا الفتنة من قبل أي من قبل واقعة تبوك. قال ابن جريج: هو أن اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقيل المراد ما فعله عبد الله بن أبي يوم أحد حين انصرف عن النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، وقيل: طلبوا صد أصحابك عن الدين وردهم إلى الكفر وتخذيل الناس عنك، ومعنى الفتنة هو الاختلاف الموجب للفرقة بعد الألفة، وهو الذي طلبه المنافقون للمسلمين وسلمهم الله منه، وقوله: وقلبوا لك الأمور تقليب الأمر تصريفه وترديده لأجل التدبر والتأمل فيه، يعني اجتهدوا في الحيلة عليك والكيد بك.

يقال: في الرجل المتصرف في وجوه الحيل فلان حول قلب، أي يتقلب في وجوه الحيل.

ثم قال تعالى: حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون والمعنى: أن هؤلاء المنافقين كانوا مواظبين على وجه الكيد والمكر وإثارة الفتنة وتنفير الناس عن قبول الدين حتى جاء الحق الذي كان في حكم المذاهب، والمراد منه القرآن ودعوة محمد، وظهر أمر الله الذي كان كالمستور والمراد بأمر الله الأسباب التي أظهرها الله تعالى وجعلها مؤثرة في قوة شرع محمد عليه الصلاة والسلام، وهم لها كارهون أي وهم لمجيء هذا الحق وظهور أمر الله كارهون، وفيه تنبيه على أنه لا أثر لمكرهم وكيدهم ومبالغتهم في إثارة الشر، فإنهم منذ كانوا في طلب هذا المكر والكيد، والله تعالى رده في نحرهم وقلب مرادهم وأتى بضد مقصودهم، فلما كان الأمر كذلك في الماضي، فهذا يكون في المستقبل.

ثم قال تعالى: ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني يريد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج، وذكروا فيه وجوها: الأول: لا تفتني أي لا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأذن لي، فإنك إن منعتني من القعود وقعدت بغير إذنك وقعت في الإثم، وعلى هذا التقدير فيحتمل أن يكونوا ذكروه على سبيل السخرية، وأن يكونوا أيضا ذكروه على سبيل الجد، وإن كان ذلك المنافق منافقا كان يغلب على ظنه كون محمد عليه السلام صادقا، وإن كان غير قاطع بذلك. والثاني: لا تفتني أي لا تلقني في الهلاك فإن الزمان زمان شدة الحر ولا طاقة لي بها. والثالث: لا تفتني فإني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي. والرابع: قال الجد بن قيس: قد علمت الأنصار أني مغرم/ بانساء فلا تفتني ببنات الأصفر، يعني نساء الروم، ولكني أعينك بمال فاتركني، وقرئ ولا تفتني من أفتنه ألا في الفتنة سقطوا والمعنى أنهم يحترزون عن الوقوع في الفتنة، وهم في الحال ما وقعوا إلا في الفتنة، فإن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله ورسوله، **والتمرد** عن قبول التكليف.

وأيضا فهم يبقون خالفين عن المسلمين، خائفين من أن يفضحهم الله، وينزل آيات في شرح نفاقهم وفي مصحف أبي سقط لأن لفظ من موحد اللفظ مجموع المعنى. قال أهل المعاني: وفيه تنبيه على أن من عصى الله لغرض ما، فإنه تعالى يبطل عليه ذلك الغرض، ألا ترى أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا في الفتنة." (١)

"ونصرنا.

وروي أنه جرت هذه المناظرة بين عمر وبين زيد بن ثابت استشهد زيد بأبي بن كعب، والتفاوت أن على قراءة عمر، يكون التعظيم الحاصل من قوله: والسابقون الأولون مختصا بالمهاجرين ولا يشاركهم الأنصار فيها فوجب مزيد التعظيم للمهاجرين. والله أعلم. وروي أن أبيا احتج على صحة القراءة المشهورة بآخر الأنفال وهو قوله: والذين آمنوا من بعد وهاجروا [الأنفال: ٧٥] بعد تقدم ذكر المهاجرين والأنصار في الآية الأولى، وبأواسط سورة الحشر وهو قوله: والذين جاؤ من بعدهم [الحشر: ١٠] وبأول سورة الجمعة وهو قوله: وآخرين منهم لما يلحقوا بهم [الجمعة: ٣] .

المسألة الرابعة: قوله: والسابقون مرتفع بالابتداء وخبره قوله: رضي الله عنهم ومعناه: رضي الله عنهم لأعمالهم وكثرة طاعاتهم، ورضوا عنه لما أفاض عليهم من نعمه الجليلة في الدين والدنيا، وفي مصاحف أهل مكة تجري من تحتها الأنهار وهي قراءة ابن كثير، وفي سائر المصاحف تحتها من غير كلمة (من) .

المسألة الخامسة: قوله: والذين اتبعوهم بإحسان قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهم: يريد، يذكرون المهاجرين والأنصار بالجنة والرحمة والدعاء لهم، ويذكرون محاسنهم، وقال في رواية أخرى والذين اتبعوهم بإحسان على دينهم إلى يوم القيامة، واعلم أن الآية دلت على أن من اتبعهم إنما يستحقون الرضوان والثواب، بشرط كونهم متبعين لهم بإحسان، وفسرنا هذا الإحسان بإحسان القول فيهم، والحكم المشروط بشرط، ينتفي عند انتفاء ذلك الشرط، فوجب أن من لم يحسن القول في المهاجرين والأنصار لا يكون مستحقا للرضوان من الله تعالى، وأن لا يكون من أهل الثواب لهذا السبب، فإن أهل الدين يبالغون في تعظيم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يطلقون ألسنتهم في اغتيابهم وذكرهم بما لا ينبغي.

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠١]

وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٥/١٦

مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم (١٠١)

اعلم أنه تعالى شرح أحوال منافقي المدينة، ثم ذكر بعده أحوال منافقي الأعراب، ثم بين أن في الأعراب من هو مؤمن صالح مخلص، ثم بين أن رؤساء المؤمنين من هم؟ وهم السابقون المهاجرون والأنصار. فذكر في هذه الآية أن جماعة من حول المدينة موصوفون بالنفاق، وإن كنتم لا تعلمون كونهم كذلك فقال: وممن حولكم من الأعراب منافقون وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار، وكانوا نازلين حولها.

وأما قوله: ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ففيه بحثان:

البحث الأول: قال الزجاج: أنه حصل فيه تقديم وتأخير، والتقدير: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق. الثاني: قال ابن الأنباري: يجوز أن يكون التقدير: ومن أهل المدينة من مردوا على النفاق فأضمر «من» لدلالة (من) عليها كما في قوله تعالى: وما منا إلا له مقام معلوم [الصافات: ١٦٤] يريد إلا من له مقام معلوم.

البحث الثاني: يقال: مرد يمرد مردوا فهو مارد ومريد إذا عتا، والمريد من شياطين الإنس والجن، وقد تمرد علينا أي عتا، وقال ابن الأعرابي: المراد التطاول بالكبر والمعاصي، ومنه: مردوا على النفاق وأصل." (١)

"المرود الملاسة، ومنه صرح ممرد، وغلام أمرد، والمرداء الرملة التي لا تنبت شيئا، كأن من لم يقبل قول غيره ولم يلتفت إليه، بقي كما كان على صفته الأصلية من غير حدوث تغير فيه البتة، وذلك هو الملاسة.

إذا عرفت أصل اللفظ فنقول: قوله: مردوا على النفاق أي ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه.

ثم قال تعالى: لا تعلمهم نحن نعلمهم وهو كقوله: لا تعلمونهم الله يعلمهم والمعنى أنهم تمردوا في حرفة النفاق فصاروا فيها أستاذين، وبلغوا إلى حيث لا تعلم أنت نفاقهم مع قوة خاطرك وصفاء حدسك ونفسك.

ثم قال: سنعذبهم مرتين وذكروا في تفسير المرتين وجوها كثيرة:

الوجه الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الأمراض في الدنيا، وعذاب الآخرة، وذلك أن مرض المؤمن يفيده تكفير السيئات، ومرض الكافر يفيده زيادة الكفر وكفران النعم.

الوجه الثاني:

روى السدي عن أنس بن مالك أن النبي عليه السلام قام خطيبا يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق» فأخرج من المسجد ناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الأول، والثاني

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦/١٣٠

عذاب القبر.

والوجه الثالث: قال مجاهد: في الدنيا بالقتل والسبي وبعد ذلك بعذاب القبر.

والوجه الرابع: قال قتادة بالدبيلة وعذاب القبر، وذلك أن

النبي عليه السلام أسر إلى حذيفة اثني عشر رجلا من المنافقين، وقال: ستة يبتليهم الله بالدبيلة سراج من نار يأخذ أحدهم حتى يخرج من صدره، وستة يموتون موتا.

والوجه الخامس: قال الحسن: يأخذ الزكاة من أموالهم، وعذاب القبر.

والوجه السادس: قال محمد بن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسنة، ثم عذابهم في القبور.

والوجه السابع: أحد العذابين ضرب الملائكة الوجوه والأدبار. والآخر عند البعث، يوكل بهم عنق النار.

والأولى أن يقال مراتب الحياة ثلاثة: حياة الدنيا، وحياة القبر، وحياة القيامة، فقوله: سنعذبهم مرتين المراد منه عذاب الدنيا بجميع أقسامه، وعذاب القبر. وقوله: ثم يردون إلى عذاب عظيم المراد منه العذاب في الحياة الثالثة، وهي الحياة في القيامة.

ثم قال تعالى في آخر الآية: ثم يردون إلى عذاب عظيم يعني النار المخلدة المؤبدة.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم (١٠٢) خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم (١٠٣)

[في قوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم] وفي الآية مسائل:." (١)

"الإنسان جبل على الضعف والعجز وقلة الصبر، وجبل أيضا على الغرور والبطر والنسيان **والتمرد** والعتو، فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع، وإظهار الخضوع والانقياد، وإذا زال البلاء ووقع في الراحة استولى عليه النسيان فنسي إحسان الله تعالى إليه، ووقع في البغي والطغيان والجحود والكفران فهذه الأحوال من نتائج طبيعته ولوازم خلقته، وبالجملة فهؤلاء المساكين معذورون ولا عذر لهم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣١/١٦

المسألة الثامنة: في قوله تعالى: كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون أبحاث:
البحث الأول: أن هذا المزين هو الله تعالى أو النفس أو الشيطان، فرع على مسألة الجبر والقدر وهو معلوم.
البحث الثاني: في بيان السبب الذي لأجله سمى الله سبحانه الكافر مسرفا. وفيه وجوه:
الوجه الأول: قال أبو بكر الأصم: الكافر مسرف في نفسه وفي ماله ومضيع لهما، أما في النفس فلأنه جعلها عبدا للوثن، وأما في المال فلأنهم كانوا يضيعون أموالهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.
الوجه الثاني: قال القاضي: إن من كانت عادته أن يكون عند نزول البلاء كثير التضرع والدعاء، وعند زوال البلاء ونزول الآلاء معرضا عن ذكر الله متغافلا عنه غير مشتغل بشكره، كان مسرفا في أمر دينه متجاوزا للحد في الغفلة عنه، ولا شبهة في أن المرء كما يكون مسرفا في الإنفاق فكذلك يكون مسرفا فيما يتركه من واجب أو يقدم عليه من قبيح، إذا تجاوز الحد فيه.
الوجه الثالث: وهو الذي خطر بالبال في هذا الوقت، أن المسرف هو الذي ينفق المال/ الكثير لأجل الغرض الخسيس، ومعلوم أن لذات الدنيا وطيباتها خسيسة جدا في مقابلة سعادات الدار الآخرة. والله تعالى أعطاه الحواس والعقل والفهم والقدرة لاكتساب تلك السعادات العظيمة، فمن بذل هذه الآلات الشريفة لأجل أن يفوز بهذه السعادات الجسمانية الخسيسة، كان قد أنفق أشياء عظيمة كثيرة، لأجل أن يفوز بأشياء حقيرة خسيسة، فوجب أن يكون من المسرفين.
البحث الثالث: الكاف في قوله تعالى: كذلك للتشبيه والمعنى: كما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح المنكر زين للمسرفين ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ومتابعة الشهوات.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٣ الى ١٤]
ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين (١٣) ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون (١٤)
في الآية مسائل:
المسألة الأولى: في بيان كيفية النظم. اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم كانوا يقولون: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال: ٣٢] ثم إنه أجاب عنه بأن ذكر أنه لا صلاح في إجابة دعائهم، ثم بين أنهم كاذبون في هذا الطلب لأنه لو نزلت بهم آفة أخذوا في التضرع إلى الله تعالى في إزالتها والكشف لها، بين في هذه الآية ما يجري مجرى التهديد، وهو أنه

تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال ولا يزيله عنهم، والغرض منه أن يكون ذلك رادعا لهم عن قولهم إن كان هذا هو الحق من." (١)

"الإنصاف، وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوه من إنزال معجزات أخرى، فإنهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم وجهلهم، فنفتقر هاهنا إلى بيان أمرين: إلى بيان أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد، ثم إلى بيان أنه متى كان الأمر كذلك لم يكن في إظهار سائر المعجزات فائدة.

أما المقام الأول: فتقريره أنه روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء، وعلى التقديرين فهو مقابلة للنعمة بالكفران. فقوله: وإذا أذقنا الناس رحمة المراد منه تلك الأمطار النافعة. وقوله: من بعد ضراء مستهم المراد منه ذلك القحط الشديد. وقوله: إذا لهم مكر في آياتنا المراد منه إضافتهم تلك المنافع الجليلة إلى الأنواء والكواكب أو إلى الأصنام.

واعلم أنه تعالى ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم مِن هذه السورة، وهو قوله تعالى: وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه [يونس: ١٢] إلا أنه تعالى زاد في هذه الآية التي نحن في تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها في تلك الآية، وتلك الدقيقة هي أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة، ويطلبون الغوائل، وفي الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة، فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل.

وأما المقام الثاني: وهو بيان أنه متى كان الأمر كذلك فلا فائدة في إظهار سائر الآيات، لأنه تعالى لو أظهر لهم جميع ما طلبوه من المعجزات الظاهرة فإنهم لا يقبلونها، لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في طلب الدين، وإنما غرضهم الدفع والمنع والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية، والامتناع من المتابعة للغير، والدليل عليه أنه تعالى لما شدد الأمر عليهم وسلط البلاء عليهِم، ثم أزالها عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات، فهم مع ذلك استمروا على التكذيب والجحود، فدل ذلك على أنه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التي طلبوها لم يلتفتوا إليها، فظهر بما ذكرنا أن هذا الكلام جواب قاطع عن السؤال المتقدم.

الوجه الثاني: في تقرير هذا الجواب: أن أهل مكة قد حصل لهم أسباب الرفاهية وطيب العيش، ومن كان كذلك تمرد وتكبر كما قال تعالى: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى [العلق: ٦، ٧] وقرر تعالى هذا المعنى بالمثال المذكور، فإقدامهم على طلب الآيات الزائدة والاقتراحات الفاسدة، إنما كان لأجل ما هم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٢/١٧

فيه من النعم الكثيرة والخيرات المتوالية، وقوله: قل الله أسرع مكرا كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم، ويجعلهم منقادين للرسول مطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله تعالى: وإذا أذقنا الناس رحمة كلام ورد على سبيل المبالغة، والمراد منه إيصال الرحمة إليهم.

واعلم أن رحمة الله تعالى لا تذاق بالفم، وإنما تذاق بالعقل، وذلك يدل على أن القول بوجود السعادات الروحانية حق.

المسألة الثالثة: قال الزجاج (إذا) في قوله: وإذا أذقنا الناس رحمة للشرط وإذا في قوله إذا لهم مكر جواب الشرط وهو كقوله: وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون [الروم: ٣٦]." (١)

"بمعنى قلة العدد. الثاني: قال بعضهم: المراد أولاد من دعاهم، لأن الآباء استمروا على الكفر، إما لأن قلوب الأولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف. الثالث: أن الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل. الرابع: الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها.

وأما الضمير في قوله: من قومه فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون، لأن ذكرهما جميعا قد تقدم والأظهر أنه عائد إلى موسى، لأنه أقرب المذكورين ولأنه نقل أن الذين آمنوا به كانوا من بني إسرائيل.

أما قوله: على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم ففيه أبحاث:

البحث الأول: أن أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جدا، لأنه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى، فإذا علم ميل القوم إلى موسى كان يبالغ في إيذائهم، فلهذا السبب كانوا خائفين منه.

البحث الثاني: إنما قال: وملائهم مع أن فرعون واحد لوجوه: الأول: أنه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع، والمراد التعظيم قال الله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر [الحجر: ٩] الثاني: أن المراد بفرعون آل فرعون. الثالث: أن هذا من باب حذف المضاف كأنه أريد بفرعون آل فرعون.

ثم قال: أن يفتنهم أي يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم.

ثم قال: وإن فرعون لعال في الأرض أي لغالب فيها قاهر وإنه لمن المسرفين قيل: المراد أنه كثير القتل كثير

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣١/١٧

التعذيب لمن يخالفه في أمر من الأمور، والغرض منه بيان السبب في كون أولئك المؤمنين خائفين، وقيل: إنما كان مسرفا لأنه كان من أخس العبيد فادعى الإلهية.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٨٤ الى ٨٦]
وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين (٨٤) فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين (٨٥) ونجنا برحمتك من القوم الكافرين (٨٦)
في الآية مسائل:
المسألة الأولى: أن قوله: إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين جزاء معلق على شرطين:
أحدهما متقدم والآخر متأخر، والفقهاء قالوا: المتأخر يجب أن يكون متقدما والمتقدم يجب أن يكون متأخرا ومثاله أن يقول الرجل لامرأته: إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيدا وإنما كان الأمر كذلك، لأن مجموع قوله: إن دخلت الدار فأنت طالق، صار مشروطا بقوله إن كلمت زيدا، والمشروط متأخر عن الشرط، وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ متقدما في المعنى، وأن يكون المتقدم في اللفظ متأخرا في المعنى والتقدير: كأنه يقول لامرأته حال ما كلمت زيدا إن دخلت الدار فأنت طالق، فلو حصل هذا التعليق قبل إن كلمت زيدا لم يقع الطلاق.
إذا عرفت هذا فنقول: قوله: إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطا لأن يصيروا مخاطبين بقوله: إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا فكأنه/ تعالى يقول للمسلم حال إسلامه إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل، والأمر كذلك، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام، وهو إشارة إلى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى وإظهار الخضوع وترك **التمرد**، وأما الإيمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد وأن ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه، وإذا حصلت." (١)

"الذين صبروا وعملوا الصالحات
والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر، وذلك يدل على ما قلناه. الثاني: أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى: والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات [العصر: ١- ٣] وموافقة أيضا لقوله تعالى: إن

---
(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٩/١٧

الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا [المعارج: ١٩- ٢١] الثالث: أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز. قال ابن جريج في تفسير هذه الآية يا ابن آدم إذا نزلت لك نعمة من الله فأنت كفور، فإذا نزعت منك فيؤس قنوط.

والقول الثاني: أن المراد منه الكافر، ويدل عليه وجوه: الأول: أن الأصل في المفرد المحلى بالألف واللام أن يحمل على المعهود السابق لولا المانع، وهاهنا لا مانع فوجب حمله عليه/ والمعهود السابق هو الكافر المذكور في الآية المتقدمة. الثاني: أن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر لأنه وصفه بكونه يؤسا، وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى: إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون [يوسف: ٧٨] ووصفه أيضا بكونه كفورا، وهو تصريح بالكفر ووصفه أيضا بأنه عند وجدان الراحة يقول: ذهب السيئات عني، [هود: ١٠] وذلك جزاءة على الله تعالى، ووصفه أيضا بكونه فرحا إن الله لا يحب الفرحين [القصص: ٧٦] ووصفه أيضا بكونه فخورا، وذلك ليس من صفات أهل الدين. ثم قال الناظرون لهذا القول: وجب أن يحمل الاستثناء المذكور في هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لا تلزمنا هذه المحذورات.

المسألة الثانية: لفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم، فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران فالدنيا في نفسها قليلة، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل، والإذاقة من ذلك المقدار خير قليل ثم إنه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين، فهذه الإذاقة من قليل، ومع ذلك فإن الإنسان لا طاقة له بتحملها ولا صبر له على الإتيان بالطريق الحسن معها. وأما النعماء فقال الواحدي: إنها إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضراء مضرة يظهر أثرها على صاحبها، لأنها خرجت مخرج الأحوال الظاهرة نحو حمراء وعوراء، وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء، والمضرة والضراء.

المسألة الثالثة: اعلم أن أحوال الدنيا غير باقية، بل هي أبدا في التغير والزوال، والتحول والانتقال، إلا أن الضابط فيه أنه إما أن يتحول من النعمة إلى المحنة، ومن اللذات إلى الآفات وإما أن يكون بالعكس من ذلك، وهو أن ينتقل من المكروه إلى المحبوب، ومن المحرمات إلى الطيبات.

أما القسم الأول: فهو المراد من قوله: ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور وحاصل الكلام أنه تعالى حكم على هذا الإنسان بأنه يئوس كفور وتقريره أن يقال: إنه حال زوال تلك النعمة يصير يؤسا، وذلك لأن الكافر يعتقد أن السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي، ثم إنه يستبعد حدوث ذلك

الاتفاق مرة أخرى فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس. وأما المسلم الذي يعتقد أن تلك النعمة إنما حصلت من الله تعالى وفضله وإحسانه وطوله فإنه لا يحصل له اليأس، بل يقول لعله تعالى يردها إلي بعد ذلك أكمل وأحسن وأفضل مما كانت، وأما حال كون تلك النعمة حاصلة فإنه يكون كفورا لأنه لما اعتقد أن حصولها إنما كان على سبيل الاتفاق أو بسبب أن الإنسان حصلها بسبب جده وجهده، فحينئذ لا يشتغل بشكر." (١)

"اعلم أن قوله: ولما جاء أمرنا أي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله بها سبع ليال وثمانية أيام، تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية.

فإن قيل: فهذه الريح كيف تؤثر في إهلاكهم؟

قلنا: يحتمل أن يكون ذلك لشدة حرها أو لشدة بردها أو لشده قوتها، فتخطف الحيوان من الأرض، ثم تضربه على الأرض، فكل ذلك محتمل.

وأما قوله: نجينا هودا فاعلم أنه يجوز إتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معا، وحينئذ تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذابا على الكافر، فأما العذاب النازل بمن يكذب الأنبياء عليهم السلام فإنه يجب في حكمة الله تعالى أن ينجي المؤمن منه، ولولا ذلك لما عرف كونه عذابا على كفرهم، فلهذا السبب قال الله تعالى هاهنا: نجينا هودا والذين آمنوا معه.

وأما قوله: برحمة منا ففيه وجوه: الأول: أراد أنه لا ينجو أحد وإن اجتهد في الإيمان والعمل الصالح إلا برحمة من الله، والثاني: المراد من الرحمة: ما هداهم إليه من الإيمان بالله والعمل الصالح. الثالث: أنه رحمهم في ذلك الوقت، وميزهم عن الكافرين في العقاب.

وأما قوله: ونجيناهم من عذاب غليظ فالمراد من النجاة الأولى هي النجاة من عذاب الدنيا، والنجاة الثانية من عذاب القيامة، وإنما وصفه بكونه غليظا تنبيها على أن العذاب الذي حصل لهم بعد موتهم بالنسبة إلى العذاب الذي وقعوا فيه كان عذابا غليظا، والمراد من قوله تعالى: ونجيناهم أي حكمنا بأنهم لا يستحقون ذلك العذاب الغليظ ولا يقعون فيه.

واعلم أنه تعالى لما ذكر قصة عاد خاطب قوم محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: وتلك عاد فهو إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه تعالى قال: سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا. ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢٢/١٧

ذكر عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة، فأما أوصافهم فهي ثلاثة.
الصفة الأولى: قوله: جحدوا بآيات ربهم والمراد: جحدوا دلالة المعجزات على الصدق، أو الجحد، ودلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم، إن ثبت أنهم كانوا زنادقة.
الصفة الثانية: قوله: وعصوا رسله والسبب فيه أنهم إذا عصوا رسولا واحدا، فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى: لا نفرق بين أحد من رسله [البقرة: ٢٨٥] وقيل: لم يرسل إليهم إلا هود عليه السلام.
الصفة الثالثة: قوله: واتبعوا أمر كل جبار عنيد والمعنى أن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم: ما هذا إلا بشر مثلكم [المؤمنون: ٢٤] والمراد من الجبار المرتفع **المتمرد** العنيد العنود والمعاند، وهو المنازع المعارض.
واعلم أنه تعالى لما ذكر أوصافهم ذكر بعد ذلك أحوالهم فقال: وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم." [1]

"واعلم أن حقيقة ذات الإله وكنه هويته غير معلومة للبشر البتة، وإنما المعلوم للبشر صفاته، ثم إن صفاته قسمان: صفات الجلال، وصفات الإكرام. أما صفات الجلال، فهي سلوب، كقولنا: إنه ليس بجوهر ولا جسم، ولا كذا ولا كذا. وهذه السلوب في الحقيقة ليست صفات الكمال، لأن السلوب عدم، والعدم المحض والنفي الصرف، لا كمال فيه، فقولنا لا تأخذه سنة ولا نوم إنما أفاد الكلام لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرأ عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال أصلا، ألا ترى أن الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله: وهو يطعم ولا يطعم [الأنعام: ١٤] إنما أفاد، الجلال والكمال والكبرياء، لأن قوله: ولا يطعم يفيد كونه واجب الوجود لذاته غنيا عن الطعام والشراب بل عن كل ما سواه، فثبت أن صفات الكمال والعز والعلو هي الصفات الثبوتية، وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان: العلم والقدرة، فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته في هذه الآية بهما في معرض التعظيم والثناء والمدح. أما صفة العلم فقوله: ولله غيب السماوات والأرض والمراد أن علمه نافذ في جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات، وتمام البيان والشرح في دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ما ذكرناه في تفسير قوله سبحانه وتعالى: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو [الأنعام: ٥٩] وأما صفة القدرة، فقوله:
وإليه يرجع الأمر كله والمراد أن مرجع الكل إليه، وإنما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو والذي يكون مبدأ لجميع الممكنات وإليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات، كان عظيم القدرة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٦٦/١٨

نافذ المشيئة قهارا للعدم بالوجود والتحصيل جبارا له بالقوة والفعل والتكميل، فهذان الوصفان هما المذكوران في شرح جلال المبدأ ونعت كبريائه.

والمرتبة الثانية: من المراتب التي يجب على الإنسان كونه عالما بها أن يعرف ما هو مهم له في زمان حياته في الدنيا، وما ذلك إلا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلايا القدسية، وهذه المرتبة لها بداية ونهاية. أما بدايتها فالاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحانية. أما العبادات الجسدانية، فأفضل الحركات الصلاة، وأكمل السكنات الصيام، وأنفع البر الصدقة.

وأما العبادة الروحانية فهي: الفكر، والتأمل في عجائب صنع الله تعالى في ملكوت السموات والأرض، كما قال تعالى: ويتفكرون في خلق السماوات والأرض [آل عمران: ١٩١] وأما نهاية هذه المرتبة، فالانتهاء من الأسباب إلى مسببها، وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات، وتوجيه حدقة العقل إلى نور عالم الجلال، واستغراق الروح في أضواء عالم الكبرياء، ومن وصل إلى هذه الدرجة رأى كل ما سواه مهرولا تائها في ساحة كبريائه هالكا فانيا في فناء سناء أسمائه. وحاصل الكلام: أن أول درجات السير إلى الله تعالى هو عبودية الله، وآخرها التوكل على الله، فلهذا السبب قال: فاعبده وتوكل عليه.

والمرتبة الثالثة: من المراتب المهمة لكل عامل معرفة المستقبل وهو أنه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانية، وهل لأعماله أثر في السعادة والشقاوة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: وما ربك بغافل عما تعملون والمقصود أنه لا يضيع طاعات المطيعين ولا يهمل أحوال **المتمردين** الجاحدين، وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة ويحاسبوا على النقير والقطمير ويعاتبوا في الصغير والكبير، ثم يحصل عاقبة الأمر فريق في الجنة وفريق في السعير، فظهر أن هذه الآية وافية بالإشارة إلى جميع المطالب العلوية، والمقاصد." (١)

"اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت، واعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا ذكرها فربما آمنوا، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء

[القصص: ٥٦] قال أبو بكر بن الأنباري: جواب (لو) محذوف، لأن جواب (لو) لا يكون مقدما عليها فلا يجوز أن يقال. وقال الفراء في «المصادر» يقال: حرص يحرص حرصا، ولغة أخرى شاذة: حرص

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١٤/١٨

يحرص حريصا. ومعنى الحرص: طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد. وقوله: وما تسئلهم عليه من أجر معناه ظاهر وقوله: إن هو إلا ذكر للعالمين أي هو تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات، ومعناه: أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة، ثم لا تطلب منهم مالا ولا جعلا، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم **يتمردوا**. وقوله تعالى: وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون يعني: أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها.

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة، وهي إما الأجرام الفلكية وإما الأجرام العنصرية، أما الأجرام الفلكية: فهي قسمان: إما الأفلاك وإما الكواكب. أما الأفلاك: فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته، وقد يستدل بأحوال حركاتها إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلا بد من محرك قادر، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات. وأما الأجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها أحيازها وحركاتها، وتارة بألوانها وأضوائها، وتار بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والنور، وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية: فإما أن تكون مأخوذة من بسائط، وهي عجائب البر والبحر، وإما من المواليد وهي أقسام: أحدها: الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح. وثانيها: المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها. وثالثها: النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة.

ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها. وخامسها: تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الإنسانية وبيان المنفعة/ الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل. ومن هذا الباب أيضا قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن الملوك الذين استولوا على الأرض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوي على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل والعقل البشري لا يفي بالإحاطة به فلهذا السبب." (١)

"فإن قيل: كيف يعقل خلق الجان من النار؟

قلنا: هذا على مذهبنا ظاهر، لأن البنية عندنا ليست شرطا لإمكان حصول الحياة، فالله تعالى قادر على

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٨/٥١٩

خلق الحياة والعلم في الجوهر الفرد، فكذلك يكون قادرا على خلق الحياة والعقل في الجسم الحار، واستدل بعضهم على أن الكواكب يمتنع حصول الحياة فيها قال: لأن الشمس في غاية الحرارة وما كان كذلك امتنع حصول الحياة فيه فننقضه عليه بقوله تعالى: والجان خلقناه من قبل من نار السموم بل المعتمد في نفي الحياة عن الكواكب الإجماع.

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٢٨ الى ٣٥]

وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون (٢٨) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٢٩) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٣٠) إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين (٣١) قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين (٣٢)

قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون (٣٣) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٣٤) وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين (٣٥)

اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الإنسان الأول واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس فإنه أبى **وتمرد**، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما تفسير كونه بشرا. فالمراد منه كونه جسما كثيفا يباشر ويلاقي والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن أجسام البشر، والبشرة ظاهرة الجلد من كل حيوان وأما كونه صلصالا من حمأ مسنون فقد تقدم ذكره. وأما قوله: فإذا سويته ففيه/ قولان: الأول: فإذا سويت شكله بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية. والثاني: فإذا سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الأمشاج كما قال تعالى: إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج [الإنسان: ٢] .

وأما قوله: ونفخت فيه من روحي ففيه مباحث: الأول: أن النفخ إجراء الريح في تجاويف جسم آخر، وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هي الريح، وإلا لما صح وصفها بالنفخ إلا أن البحث الكامل في حقيقة الروح سيجيء في قوله تعالى: قل الروح من أمر ربي [الإسراء: ٨٥] وإنما أضاف الله سبحانه روح آدم إلى نفسه تشريفا له وتكريما. وقوله: فقعوا له ساجدين فيه مباحث: أحدها: أن ذلك السجود كان لآدم في الحقيقة أو كان آدم كالقبلة لذلك السجود، وهذا البحث قد تقدم ذكره في سورة البقرة. وثانيها: أن المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام كل ملائكة السموات أو بعضهم أو ملائكة الأرض، من الناس من لا يجوز أن يقال:

إن أكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم عليه السلام، والدليل عليه قوله تعالى في آخر سورة الأعراف

في صفة الملائكة: إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون [الأعراف: ٢٠٦]." (١)

"تعالى: اقتربت الساعة وانشق القمر [القمر: ١] قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئا مما تخوفنا به، فنزل قوله:

اقترب للناس حسابهم [الأنبياء: ١] فأشفقوا وانتظروا يومها فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل قوله: أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم فنزل قوله: فلا تستعجلوه

والحاصل أنه عليه السلام لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيئا نسبوه إلى الكذب.

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: أتى أمر الله فلا تستعجلوه وفي تقرير هذا الجواب وجهان:

الوجه الأول: أنه وإن لم يأت ذلك العذاب إلا أنه كان واجب الوقوع والشيء إذا كان بهذه الحالة والصفة فإنه يقال في الكلام المعتاد أنه قد أتى ووقع إجراء لما يجب وقوعه بعد ذلك مجرى الواقع يقال لمن طلب الإغاثة وقرب حصولها: قد جاءك الغوث فلا تجزع.

والوجه الثاني: وهو أن يقال أن أمر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع، فأما المحكوم به فإنما لم يقع، لأنه تعالى حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود والحاصل كأنه قيل:

أمر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل ووجد من الأزل إلى الأبد فصح قولنا أتى أمر الله، إلا أن المحكوم به والمأمور به إنما لم يحصل، لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين فلا تستعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت.

السؤال الثاني: قالت الكفار: هب أنا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقوله من أنه تعالى حكم بإنزال العذاب علينا إما في الدنيا وإما في الآخرة، إلا أنا نعبد هذه الأصنام فإنها شفعاؤنا عند الله فهي تشفع لنا عنده فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به بسبب شفاعة هذه الأصنام.

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: سبحانه وتعالى عما يشركون فنزه نفسه عن شركة الشركاء

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣٩/١٩

والأضداد، والأنداد وأن يكون لأحد من الأرواح والأجسام أن يشفع عنده إلا بإذنه و (ما) في قوله: عما يشركون يجوز أن تكون مصدرية، والتقدير: سبحانه وتعالى عن إشراكهم ويجوز أن تكون بمعنى الذي، أي سبحانه وتعالى عن هذه الأصنام التي جعلوها شركاء لله، لأنها جمادات خسيسة، فأي مناسبة بينها وبين أدون الموجودات فضلا عن أن يحكم بكونها شركاء لمدبر الأرض والسموات.

السؤال الثالث: هب أنه تعالى قضى على بعض عبيده بالسراء وعلى آخرين بالضراء ولكن/كيف يمكنك أن تعرف هذه الأسرار التي لا يعلمها إلا الله، وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله وأحكامه في ملكه وملكوته؟

فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون وتقرير هذا الجواب أنه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده ويأمر ذلك العبد بأن يبلغ إلى سائر الخلق أن إله العالم واحد كلفهم بمعرفة التوحيد والعبادة وبين أنهم إن فعلوا ذلك فازوا بخيري الدنيا والآخرة، وإن **تمردوا** وقعوا في شر الدنيا والآخرة، فبهذا الطريق صار مخصوصا بهذه المعارف من دون سائر." (١)

"التجاوز عن الوعيد مستحسن فيما بين الناس، قال الشاعر:

وإني إذا أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

بل الإصرار على تحقيق الوعيد كأنه يعد لؤما، وإذا كان كذلك وجب أن لا يصلح من الله تعالى، وهذا بناء على حرف وهو أهل السنة جوزوا نسخ الفعل قبل مدة الامتثال وحاصل حروفهم فيه أن الأمر يسن تارة لحكمة تنشأ من نفس المأمور به، وتارة لحكمة تنشأ من نفس الأمر، فإن السيد قد يقول لعبده افعل الفعل الفلاني غدا وإن كان يعلم في الحال أنه سينهاه عنه غدا، ويكون مقصوده من ذلك الأمر أن يظهر العبد الانقياد لسيده في ذلك ويوطن نفسه على طاعته، فكذلك إذا علم الله من العبد أنه سيموت غدا فإنه يحسن عند أهل السنة أن يقول: صل غدا إن عشت، ولا يكون المقصود من هذا الأمر تحصيل المأمور به، لأنه هاهنا محال بل المقصود حكمة تنشأ من نفس الأمر فقط، وهو حصول الانقياد والطاعة وترك **التمرد**. إذا ثبت هذا فنقول: لم لا يجوز أن يقال الخبر أيضا كذلك؟ فتارة يكون منشأ الحكمة من الأخبار هو الشيء المخبر عنه وذلك في الوعد، وتارة يكون منشأ الحكمة هو نفس الخبر لا المخبر عنه كما في الوعيد، فإن الأخبار على سبيل الوعيد مما يفيد الزجر عن المعاصي والإقدام على الطاعات، فإذا حصل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦٨/١٩

هذا المقصود جاز أن لا يوجد المخبر عنه كما في الوعيد، وعند هذا قالوا إن وعد الله بالثواب حق لازم، وأما توعده بالعقاب فغير لازم، وإنما قصد به صلاح المكلفين مع رحمته الشاملة لهم، كالوالد يهدد ولده/ بالقتل والسمل والقطع والضرب، فإن قبل الولد أمره فقد انتفع وإن لم يفعل فما في قلب الوالد من الشفقة يرده عن قتله وعقوبته، فإن قيل فعلى جميع التقادير يكون ذلك كذبا والكذب قبيح قلنا لا نسلم أن كل كذب قبيح بل القبيح هو الكذب الضار، فأما الكذب النافع فلا، ثم إن سلمنا ذلك، لكن لا نسلم أنه كذب، أليس أن جميع عموم ‌ات القرآن مخصوصة ولا يسمى ذلك كذبا، أليس أن كل المتشابهات مصروفة عن ظواهرها، ولا يسمى ذلك كذبا فكذا هاهنا. وثالثها: أليس أن آيات الوعيد في حق العصاة مشروطة بعدم التوبة وإن لم يكن هذا الشرط مذكورا في صريح النص، فهي أيضا عندنا مشروطة بعدم العفو وإن لم يكن هذا الشرط مذكورا بصريح النص صريحا، أو نقول: معناه أن العاصي يستحق هذه الأنواع من العقاب فيحمل الإخبار عن الوقوع على الإخبار عن استحقاق الوقوع فهذا جملة ما يقال في تقرير هذا المذهب. وأما الذين أثبتوا وقوع العذاب، فقالوا إنه نقل إلينا على سبيل التواتر من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوع العذاب فإنكاره يكون تكذيبا للرسول وأما الشبه التي تمسكتم بها في نفي العقاب فهي مبنية على الحسن والقبح وذلك مما لا نقول به والله أعلم.

[سورة البقرة (٢) : آية ٨]

ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين (٨)

اعلم أن المفسرين أجمعوا على أن ذلك في وصف المنافقين قالوا: وصف الله الأصناف الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين فبدأ بالمؤمنين المخلصين الذين صحت سرائرهم وسلمت ضمائرهم، ثم أتبعهم بالكافرين الذين من صفتهم الإقامة على الجحود والعناد، ثم وصف حال من يقول بلسانه إنه مؤمن وضميره يخالف ذلك، وفيه مسائل:." (١)

"أنؤمن كما آمن سفيه بني فلان وسفيه بني فلان، والرسول لا يعرف ذلك فقال تعالى: ألا إنهم هم السفهاء.

المسألة الرابعة: السفه الخفة يقال: سفهت الريح الشيء إذا حركته، قال ذو الرمة:

جرين كما اهتزت رياح تسفهت ... أعاليها مر الرياح الرواسم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩٩/٢

وقال أبو تمام الطائي:
سفيه الرمح جاهله إذا ما ... بدا فضل السفيه على الحليم
أراد به سريع الطعن بالرمح خفيفه، وإنما قيل لبذيء اللسان سفيه، لأنه خفيف لا رزانة له وقال تعالى: ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما [النساء: ٥] وقال عليه السلام: «شارب الخمر سفيه» لقلة عقله وإنما سمى المنافقون المسلمين بالسفهاء، لأن المنافقين كانوا من أهل الخطر والرياسة، وأكثر المؤمنين كانوا فقراء، وكان عند المنافقين أن دين محمد صلى الله عليه وسلم باطل، والباطل لا يقبله إلا السفيه، فلهذه الأسباب نسبوهم إلى السفاهة ثم إن الله تعالى قلب عليهم هذا اللقب- وقوله الحق- لوجوه: أحدها: أن من أعرض عن الدليل ثم نسب المتمسك به إلى السفاهة فهو السفيه. وثانيها: أن من باع آخرته بدنياه فهو السفيه. وثالثها: أن من عادى محمدا عليه الصلاة والسلام فقد عادى الله، وذلك هو السفيه.
المسألة الخامسة: إنما قال في آخر هذه الآية: لا يعلمون وفيما قبلها: لا يشعرون لوجهين:
الأول: أن الوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل أمر عقلي نظري، وأما أن النفاق وما فيه من البغي يفضي إلى الفساد في الأرض فضروري جار مجرى المحسوس. الثاني: أنه ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم أحسن طباقا له والله أعلم.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٤ الى ١٥]
وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن (١٤) الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (١٥)
هذا هو النوع الرابع من أفعالهم القبيحة، يقال: لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريبا منه، وقرأ أبو حنيفة: «وإذا لاقوا» أما قوله: قالوا آمنا فالمراد أخلصنا بالقلب، والدليل عليه وجهان: الأول: أن الإقرار باللسان كان معلوما منهم فما كانوا يحتاجون إلى بيانه، إنما المشكوك فيه هو الإخلاص بالقلب، فيجب أن يكون مرادهم من هذا الكلام ذلك. الثاني: أن قولهم للمؤمنين «آمنا» يجب أن يحمل على نقيض ما كانوا يظهرونه لشياطينهم، وإذا كانوا يظهرون لهم التكذيب بالقلب فيجب أن يكون مرادهم فيما ذكروه للمؤمنين التصديق بالقلب، أما قوله: وإذا خلوا إلى شياطينهم فقال صاحب «الكشاف» : يقال خلوت بفلان وإليه، وإذا انفردت معه ويجوز أن يكون من «خلا» بمعنى مضى، ومنه القرون الخالية، ومن «خلوت به» إذا سخرت منه، من قولك: «خلا فلان بعرض فلان» أي: يعبث به، ومعناه أنهم أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدثوهم بها كما تقول:

أحمد إليك فلانا وأذمه إليك. وأما شياطينهم فهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم، أما قوله: إنا معكم." (١)

"الحديث لا يكون إلا عن ذلك الواحد لم يجز إجراء حكم غيره عليه الحجة الثانية: قالوا لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان قوله: وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم متناولا له، ولو لم يكن متناولا له لاستحال أن يكون تركه للسجود إباء واستكبارا ومعصية ولما استحق الذم والعقاب، وحيث حصلت هذه الأمور علمنا أن ذلك الخطاب يتناوله ولا يتناوله ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائكة، لا يقال إنه وإن لم يكن من الملائكة إلا أنه نشأ معهم وطالت مخالطته بهم والتصق بهم، فلا جرم يتناوله ذلك الخطاب وأيضا فلم لا يجوز أن يقال: إنه وإن لم يدخل في هذا الأمر، ولكن الله تعالى أمره بالسجود بلفظ آخر ما حكاه في القرآن بدليل قوله: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك لأنا نقول: أما الأول فجوابه أن المخالطة لا توجب ما ذكرتموه، ولهذا قلنا في أصول الفقه إن خطاب الذكور لا يتناول الإناث وبالعكس مع شدة المخالطة بين الصنفين، وأيضا فشدة المخالطة بين الملائكة وبين إبليس لما لم تمنع اقتصار اللعن على إبليس فكيف تمنع اقتصار ذلك التكليف على الملائكة، وأما الثاني فجوابه أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فلما ذكر قوله أبى واستكبر عقيب قوله: وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم أشعر هذا التعقيب بأن هذا الإباء إنما حصل بسبب مخالفة هذا الأمر لا بسبب مخالفة أمر آخر فهذا ما عندي في الجانبين والله أعلم بحقائق الأمور.

المسألة الرابعة: [الكلام على أن آدم أفضل من الملائكة أو العكس] اعلم أن جماعة من أصحابنا يحتجون بأمر الله تعالى للملائكة بسجود آدم عليه السلام على أن آدم أفضل من الملائكة فرأينا أن نذكر هاهنا هذه المسألة فنقول: قال أكثر أهل السنة: الأنبياء أفضل من الملائكة وقالت المعتزلة بل الملائكة أفضل من الأنبياء وهو قول جمهور الشيعة، وهذا القول اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني من المتكلمين منا وأبي عبد الله الحليمي من/ فقهائنا ونحن نذكر محصل الكلام من الجانبين: أما القائلون بأن الملائكة أفضل من البشر فقد احتجوا بأمور: أحدها: قوله تعالى: ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته [الأنبياء: ١٩] إلى قوله: يسبحون الليل والنهار لا يفترون والاستدلال بهذه الآية من وجهين: الأول: أنه ليس المراد من هذه العندية عندية المكان والجهة فإن ذلك محال على الله تعالى بل عندية القرب والشرف ولما كانت هذه الآية واردة في صفة الملائكة علمنا أن هذا النوع من القربة والشرف حاصل لهم لا لغيرهم ولقائل أن يقول

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٣٠٨

إنه تعالى أثبت هذه العندية في الآخرة لآحاد المؤمنين وهو قوله: في مقعد صدق عند مليك مقتدر [القمر: ٥٥] وأما في الدنيا

فقال عليه الصلاة والسلام حاكيا عنه سبحانه: «أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي»

وهذا أكثر إشعارا بالتعظيم لأن هذا الحديث يدل على أنه سبحانه عند هؤلاء المنكسرة قلوبهم وما احتجوا به من الآية يدل على أن الملائكة عند الله تعالى، ولا شك أن كون الله تعالى عند العبد أدخل في التعظيم، من كون العبد عند الله تعالى. الوجه الثاني: في الاستدلال بالآية، أن الله تعالى احتج بعد استكبارهم على أن غيرهم وجب أن لا يستكبروا ولو كان البشر أفضل منهم لما تم هذا الاحتجاج، فإن السلطان إذا أراد أن يقرر على رعيته وجوب طاعتهم له بقول: الملوك لا يستكبرون عن طاعتي، فمن هؤلاء المساكين حتى **يتمردوا** عن طاعتي أو بالجملة فمعلوم أن هذا الاستدلال لا يتم إلا بالأقوى على الأضعف.

ولقائل أن يقول: لا نزاع في أن الملائكة أشد قوة وقدرة من البشر، ويكفي في صحة الاستدلال هذا القدر من التفاوت، فإنه تعالى يقول إن الملائكة مع شدة قوتهم واستيلائهم على أجرام السموات والأرض وأمنهم من الهرم والمرض وطول أعمارهم، لا يتركون العبودية لحظة واحدة، والبشر مع نهاية ضعفهم ووقوعهم في أسرع." (١)

"الأحوال في المرض والهرم وأنواع الآفات، أولى أن لا **يتمردوا** فهذا القدر من التفاوت كاف في صحة هذا الاستدلال، ولا نزاع في حصول التفاوت في هذه المعنى، إنما النزاع في الأفضلية بمعنى كثرة الثواب، فلم قلتم إن هذا الاستدلال لا يصح إلا إذا كان الملك أكثر ثوابا من البشر، ولا بد فيه من دليل؟ مع أن المتبادر إلى الفهم هو الذي ذكرناه. وثانيها: أنهم قالوا: عبادات الملائكة أشق من عبادات البشر، فتكون أكثر ثوابا من عبادات البشر، وإنما قلنا إنها أشق لوجوه: أحدها: أن ميلهم إلى **التمرد** أشد فتكون طاعتهم أشق، وإنما قلنا:

إن ميلهم إلى **التمرد** أشد، لأن العبد السليم من الآفات، المستغني عن طلب الحاجات، يكون أميل إلى النعم والالتذاذ من المغمور في الحاجات، فإنه يكون كالمضطرب في الرجوع إلى عبادة مولاه والالتجاء إليه، ولهذا قال تعالى: فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون [العنكبوت: ٦٥] ومعلوم أن الملائكة سكان السموات وهي جنات وبساتين ومواضع التنزه والراحة وهم آمنون من المرض والفقر ثم إنهم مع استكمال أسباب التنعم لهم أبدا مذ خلقوا مشتغلون بالعبادة خاشعون

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣٠/٢

وجلون مشفقون كأنهم مسجونون لا يلتفتون إلى نعيم الجنان/ واللذات بل هم مقبلون على الطاعات الشاقة موصوفون بالخوف الشديد والفزع العظيم وكأنه لا يقدر أحد من بني آدم أن يبقى كذلك يوما واحدا فضلا عن تلك الأعصار المتطاولة ويؤكده قصة آدم عليه السلام، فإنه أطلق له في جميع مواضع الجنة بقوله: وكلا منها رغدا حيث شئتما [البقرة: ٣٥] ثم منع من شجرة واحدة فلم يملك نفسه حتى وقع في الشر، وذلك يدل على أن طاعتهم أشق من طاعات البشر، وثانيها: أن انتقال المكلف من نوع عبادة إلى نوع آخر كالانتقال من بستان إلى بستان، أما الإقامة على نوع واحد فإنها تورث المشقة والملالة ولهذا السبب جعلت التصانيف مقسومة بالأبواب والفصول، وجعل كتاب الله مقسوما بالسور والأحزاب والأعشار والأخماس، ثم إن الملائكة كل واحد منهم مواظب على عمل واحد لا يعدل عنه إلى غيره على ما قال سبحانه: يسبحون الليل والنهار لا يفترون [الأنبياء: ٢٠] وقال: وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون [الصافات: ١٦٥، ١٦٦] وإذا كان كذلك كانت عبادتهم في نهاية المشقة، إذا ثبت ذلك وجب أن تكون عباداتهم أفضل

لقوله عليه الصلاة والسلام: «أفضل الأعمال أحمزها»

أي أشقها،

وقوله لعائشة رضي الله عنها: «إنما أجرك على قدر نصبك»

والقياس أيضا يقتضي ذلك، فإن العبد كلما كان تحمله المشاق لأجل رضا مولاه أكثر كان أحق بالتعظيم والتقديم. ولقائل أن يقول على الوجهين: هب أن مشقتهم أكثر فلم قلتم يجب أن يكون ثوابهم أكثر؟ وذلك لأنا نرى بعض الصوفية في زماننا هذا يتحملون في طريق المجاهدة من المشاق والمتاعب ما يقطع بأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يتحمل بعض ذلك ثم إنا نقطع بأن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل منه ومن أمثاله، بل يحكى عن عباد الهند وزهادهم ورهبانهم أنهم يتحملون من المتاعب في التواضع لله تعالى ما لم يحك مثله عن أحد من الأنبياء والأولياء مع أنا نقطع بكفرهم، فعلمنا أن كثرة المشقة في العبادة لا تقتضي زيادة الثواب. وتحقيقه هو أن كثرة الثواب لا تحصل إلا بناء على الدواعي والقصود، فلعل الفعل الواحد يأتي به مكلفان على السواء فيما يتعلق بالأفعال الظاهرة ويستحق أحدهما به ثوابا عظيما والآخر لا يستحق به إلا ثوابا قليلا، لما أن إخلاص أحدهما أشد وأكثر من إخلاص الثاني، فإذن كثرة العبادات ومشقتها لا تقتضي التفاوت في الفضل ثم نقول: لا نسلم أن عبادات الملائكة أشق. أما قوله في الوجه الأول: السموات كالبساتين النزهة قلنا مسلم ولكن لم قلتم بأن الإتيان بالعبادة في المواضع الطيبة أشق من

الإتيان بها في المواضع الرديئة؟ أكثر ما في الباب أن يقال: إنه قد يهيأ له أسباب التنعيم فامتناعه عنها مع." (١)

"على دلالة هذه الآية عليه فيلزم الدور وأنه باطل سلمنا أنه يفيد التفاوت لكنه لا يفيد التفاوت في كل الدرجات بل في بعض دون آخر بيانه أنه إذا قيل هذا العالم لا يستنكف عن خدمته القاضي ولا السلطان فهذا لا يفيد إلا أن السلطان أكمل من القاضي في بعض الأمور وهو القدرة والقوة والاستيلاء والسلطان ولا يدل على كونه أفضل من القاضي في العلم والزهد والخضوع لله تعالى إذا ثبت هذا فنحن نقول بموجبه وذلك لأن الملك أفضل من البشر في القدرة والبطش فإن جبريل عليه السلام قلع مدائن لوط والبشر لا يقدرون على شيء من ذلك فلم قلتم إن الملك أفضل من البشر في كثرة الثواب الحاصل بسبب مزيد الخضوع والعبودية وتمام التحقيق فيه أن الفضل المختلف فيه في هذه المسألة هو كثرة الثواب وكثرة الثواب لا تحصل إلا بالعبودية والعبودية عبارة عن نهاية التواضع والخضوع وكون العبد موصوفا بنهاية التواضع لله تعالى لا يناسب الاستنكاف عن عبودية الله ولا يلائمها البتة بل يناقضها وينافيها وإذا كان هذا الكلام ظاهرا جليا كان حمل كلام الله تعالى عليه مخرجا له عن الفائدة، أما اتصاف الشخص بالقدرة الشديدة والاستيلاء العظيم فإنه مناسب **للتمرد** وترك العبودية فالنصارى لما شاهدوا من المسيح عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص أخرجوه عن العبودية بسبب هذا القدر من القدرة فقال الله تعالى إن عيسى لا يستنكف بسبب هذا القدر من القدرة عن عبوديتي بل ولا الملائكة المقربون الذين هم فوقه في القدرة والقوة والبطش والاستيلاء على عوالم السموات/ والأرضين وعلى هذا الوجه ينتظم وجه دلالة الآية على أن الملك أفضل من البشر في الشدة والبطش لكنها لا تدل البتة على أنه أفضل من البشر في كثرة الثواب أو يقال إنهم إنما ادعوا إلهيته لأنه حصل من غير أب فقيل لهم الملك ما حصل من أب ولا من أم فكانوا أعجب من عيسى في ذلك مع أنهم لا يستنكفون عن العبودية. فإن قيل في الآية ما يدل على أن المراد وقوع التفاوت بين المسيح والملائكة في العبودية لا في القدرة والقوة والبطش وذلك لأنه تعالى وصفهم بكونهم مقربين والقرب من الله تعالى لا يكون بالمكان والجهة بل بالدرجة والمنزلة فلما وصفهم هاهنا بكونهم مقربين علمنا أن المراد وقوع التفاوت بينهم وبين المسيح في درجات الفضل لا في الشدة والبطش. قلنا إن كان مقصودك من هذا السؤال أنه تعالى وصف الملائكة بكونهم مقربين فوجب أن لا يكون المسيح كذلك فهذا باطل لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفسه عما عداه وإن كان مقصودك أنه تعالى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٤٣١

لما وصفهم بكونهم مقربين وجب أن يكون التفاوت واقعا في ذلك فهذا باطل أيضا لاحتمال أن يكون المسيح والمقربون مع اشتراكهم في صفة القرب في الطاعة يتباينون بأمور أخر فيكون المراد بيان التفاوت في تلك الأمور. سؤال آخر: وهو أنا نقول بموجب الآية فنسلم أن عيسى عليه السلام دون مجموع الملائكة في الفضل فلم قلتم إنه دون كل واحد من الملائكة في الفضل. سؤال آخر: لعله تعالى إنما ذكر هذا الخطاب مع أقوام اعتقدوا أن الملك أفضل من البشر فأورد الكلام على حسب معتقدهم كما في فقوله: وهو أهون عليه [الروم: ٢٧] . وثامنها: قوله تعالى حكاية عن إبليس قوله: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين [الأعراف: ٢٠] ولو لم يكن متقررا عند آدم وحواء عليهما السلام أن الملك أفضل من البشر لم يقدر إبليس على أن يغرهما بذلك ولا كان آدم وحواء عليهما السلام يغتران بذلك. ولقائل أن يقول هذا قول إبليس فلا يكون حجة، ولا يقال إن آدم اعتقد صحة ذلك وإلا لما اغتر، واعتقاد آدم حجة، لأنا نقول: لعل آدم عليه السلام أخطأ في ذلك إما لأن الزلة جائزة على الأنبياء أو لأنه ما كان نبيا في ذلك الوقت، وأيضا هب أنه حجة لكن آدم عليه السلام لم يكن قبل الزلة نبيا فلم يلزم من فضل الملك عليه في ذلك الوقت فضل الملك عليه." (١)

"صدق عليه ذلك وجب أن يصدق عليه أنه كان من الكافرين جزء من مفهوم قولنا كان من الكافرين في ذلك الوقت، ومتى صدق المركب صدق المفرد لا محالة. الوجه الثالث: المراد من كان صار، أي وصار من الكافرين، وهاهنا أبحاث، البحث الأول: اختلفوا في أن قوله تعالى: وكان من الكافرين هل يدل على أنه وجد قبله جمع من الكافرين حتى يصدق القول بأنه من الكافرين، قال قوم إنه يدل عليه لأن كلمة من للتبعيض، فالحكم عليه بأنه بعض الكافرين يقتضي وجود قوم آخرين من الكافرين حتى يكون هو بعضا لهم والذي يؤكد ذلك ما

روي عن أبي هريرة أنه قال: «إن الله تعالى خلق خلقا من الملائكة ثم قال لهم إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فقالوا لا نفعل ذلك فبعث/ الله عليهم نارا فأحرقتهم وكان إبليس من أولئك الذين أبوا»

وقال آخرون هذه الآية لا تدل على ذلك ثم لهم في تفسير الآية وجهان: أحدهما:

معنى الآية أنه صار من الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك وهو قول الأصم وذكر في مثاله قوله تعالى:

المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض [التوبة: ٦٧] فأضاف بعضهم إلى بعض بسبب الموافقة في الدين

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣٥/٢

فكذا هاهنا لما كان الكفر ظاهرا من أهل العالم عند نزول هذه الآية صح قوله وكان من الكافرين. وثانيها: أن هذا إضافة لفرد من أفراد الماهية إلى تلك الماهية وصحة هذه الإضافة لا تقتضي وجود تلك الماهية كما أن الحيوان الذي خلقه الله تعالى أولا يصح أن يقال إنه فرد من أفراد الحيوان لا بمعنى أنه واحد من الحيوانات الموجودة خارج الذهن بل بمعنى أنه فرد من أفراد هذه الماهية وواحد من آحاد هذه الحقيقة، واعلم أنه يتفرع على هذا البحث أن إبليس هل كان أول من كفر بالله، والذي عليه الأكثرون أنه أول من كفر بالله.

البحث الثاني: أن المعصية عند المعتزلة وعندنا، لا توجب الكفر، أما عندنا فلأن صاحب الكبيرة مؤمن، وأما عند المعتزلة فلأنه وإن خرج عن الإيمان فلم يدخل في الكفر، وأما عند الخوارج فكل معصية كفر، وهم تمسكوا بهذه الآية، قالوا إن الله تعالى كفر إبليس بتلك المعصية فدل على أن المعصية كفر، الجواب إن قلنا إنه كافر من أول الأمر فهذا السؤال زائل، وإن قلنا إنه كان مؤمنا، فنقول إنه إنما كفر لاستكباره واعتقاده كونه محقا في ذلك **التمرد** واستدلاله على ذلك بقوله: أنا خير منه والله أعلم.

المسألة السابعة: قال الأكثرون إن جميع الملائكة مأمورون بالسجود لآدم واحتجوا عليه بوجهين: الأول: أن لفظ الملائكة صيغة الجمع وهي تفيد العموم لا سيما وقد وردت هذه اللفظة مقرونة بأكمل وجوه التأكيد في قوله: فسجد الملائكة كلهم أجمعون [الحجر: ٣٠] . الثاني: هو أنه تعالى استثنى إبليس منهم واستثناء الشخص الواحد منهم يدل على أن من عدا ذلك الشخص كان داخلا في ذلك الحكم ومن الناس من أنكر ذلك وقال ال‌مأمورون بهذا السجود هم ملائكة الأرض واستعظموا أن يكون أكابر الملائكة مأمورين بذلك. وأما الحكماء فإنهم يحملون الملائكة على الجواهر الروحانية وقالوا يستحيل أن تكون الأرواح السماوية منقادة للنفوس الناطقة إنما المراد من الملائكة المأمورين بالسجود القوى الجسمانية البشرية المطيعة للنفس الناطقة والكلام في هذه المسألة مذكور في العقليات.

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث، وأوله قوله تعالى:

وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة." (١)

"التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والإنجيل، فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي العرب فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء، ثم الباقون منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٤٨/٢

ثم قال تعالى: وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا والحصير فعيل فيحتمل أن يكون بمعنى الفاعل، أي وجعلنا جهنم حاصرة لهم، ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول، أي جعلناها موضعا محصورا لهم، والمعنى أن عذاب الدنيا وإن كان شديدا قويا إلا أنه قد يتفلت بعض الناس عنه، والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص عنه، إما بالموت وإما بطريق آخر، وأما عذاب الآخرة فإنه يكون حاصرا للإنسان محيطا به لا رجاء في الخلاص عنه، فهؤلاء الأقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدا.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٩ الى ١٠]

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا (٩) وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما (١٠)

اعلم أنه تعالى لما شرح ما فعله في حق عباده المخلصين وهو الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإيتاء الكتاب لموسى عليه الصلاة والسلام، وما فعله في حق العصاة **والمتمردين** وهو تسليط أنواع البلاء عليهم، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ومعصيته توجب كل بلية وغرامة، لا جرم أثنى على القرآن فقال:

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.

واعلم أن قوله تعالى: دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا [الأنعام: ١٦١] يدل على كون هذا الدين مستقيما، وقوله في هذه الآية: للتي هي أقوم يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان. وأقول: قولنا هذا الشيء أقوم من ذاك، إنما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة، ثم كان حصول معنى الاستقامة في إحدى الصورتين أكثر وأكمل من حصوله في الصورة الثانية، وهذا محال لأن المراد من كونه مستقيما كونه حقا وصدقا، ودخول التفاوت في كون الشيء حقا وصدقا محال، فكان وصفه بأنه أقوم مجازا، إلا أن لفظ الأفعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا: الله أكبر أي الله كبير، وقولنا: الأشج والناقص أعدلا بني مروان، أي: عادلا بني مروان، أو يحمل هذا اللفظ على الظاهر المتعارف. والله أعلم.

البحث الثاني: قوله: للتي هي أقوم نعت لموصوف محذوف، والتقدير: يهدي للملة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق، ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله: ادفع بالتي هي أحسن [فصلت: ٣٤] أي بالخصلة التي هي أحسن.

أما قوله: ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا فاعلم أنه تعالى وصف القرآن بثلاثة

أنواع من الصفات:
الصفة الأولى: أنه يهدي للتي هي أقوم، وقد مر تفسيره.
والصفة الثانية: أنه يبشر الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير، وذلك لأن الصفة الأولى لما دلت على كون القرآن هاديا إلى الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح، وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر، وذلك هو." (١)

"[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٣ الى ١٤]
وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (١٤)
اعلم أن في الآية مسائل:
المسألة الأولى: في كيفية النظم وجوه:
الوجه الأول: أنه تعالى لما قال: وكل شيء فصلناه تفصيلا كان معناه أن كل ما يحتاج إليه من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد فقد صار مذكورا وكل ما يحتاج إليه من شرح أحوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فقد صار مذكورا وإذا كان الأمر كذلك فقد أزيحت الأعذار، وأزيلت العلل فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فقد ألزمناه طائره في عنقه ونقول له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا.
الوجه الثاني: أنه تعالى لما بين أنه أوصل إلى الخلق أصناف الأشياء النافعة لهم في الدين والدنيا، مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعما عليهم بأعظم وجوه النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فإنه يكون مسؤولا عن أعماله وأقواله.
الوجه الثالث: في تقرير النظم أنه تعالى لما بين أنه ما خلق الخلق إلا ليشتغلوا بعبادته كما قال: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦] فلما شرح أحوال الشمس والقمر والليل والنهار، كان المعنى: إني إنما خلقت هذه الأشياء لتنتفعوا بها فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي، وإذا كان كذلك فكل من ورد عرصة القيامة سألته أنه هل أتى بتلك الخدمة والطاعة، أو تمرد وعصى وبغى، فهذا هو الوجه في تقرير النظم.
المسألة الثانية: في تفسير لفظ، الطائر، قولان:
القول الأول: أن العرب إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم

---
(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠٣/٢٠

إلى خير أو إلى شر اعتبروا أحوال الطير وهو أنه يطير بنفسه، أو يحتاج إلى إزعاجه، وإذا طار فهل يطير متيامنا أو متياسرا أو صاعدا إلى الجو إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة، فلما كثر ذلك منهم سمي الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه ونظيره قوله تعالى في سورة يس: قالوا إنا تطيرنا بكم [يس: ١٨] إلى قوله: قالوا طائركم معكم [يس: ١٩] فقوله: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه أي كل إنسان ألزمناه عمله في عنقه. وتدل على صحة هذا الوجه قراءة الحسن ومجاهد: ألزمناه طائره في عنقه.

القول الثاني: قال أبو عبيدة: الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه الفرس البخت، وعلى هذا يجوز أن يكون معنى الطائر ما طار له من خير وشر، والتحقيق في هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم، والعمر والرزق، والسعادة والشقاوة. والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك القدر وأن ينحرف عنه، بل لا بد وأن يصل إلى ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية، فتلك الأشياء المقدورة كأنها تطير إليه وتصير إليه، فبهذا المعنى لا يبعد/ أن يعبر عن تلك الأحوال المقدرة بلفظ الطائر، فقوله:." (١)

"أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه، أن المأمور به إنما حذف لأن قوله: ففسقوا

يدل عليه يقال: أمرته فقام، وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة فكذا هاهنا لما قال: أمرنا مترفيها ففسقوا فيها

وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصاني أو فخالفني فإن هذا لا يفهم منه أني أمرته بالمعصية والمخالفة، لأنا نقول: إن المعصية منافية للأمر ومناقضة له، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقا ينافي كونه مأمورا به، كما أن كونها معصية ينافي كونها مأمورا بها، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق، وهذا الكلام في غاية الظهور فلا أدري لم أصر صاحب «الكشاف» على قوله مع ظهور فساده، فثبت أن/ الحق ما ذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الأمر عنادا وأقدموا على الفسق.

القول الثاني: في تفسير قوله: أمرنا مترفيها

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠/٣٠٨

أي أكثرنا فساقها. قال الواحدي: العرب تقول أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا كثرهم، وآمرهم أيضا بالمد، روى الجرمي عن أبي زيد أمر الله القوم وآمرهم، أي كثرهم. واحتج أبو عبيدة على صحة هذه اللغة
بقوله صلى الله عليه وسلم: «خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة»
والمعنى مهرة قد كثر نسلها يقولون: أمر الله المهرة أي كثر ولدها ومن الناس من أنكر أن يكون أمر بمعنى كثر وقالوا أمر القوم إذا كثروا وآمرهم الله بالمد أي كثرهم، وحملوا
قوله عليه الصلاة والسلام: «مهر مأمورة»
على أن المراد كونها مأمورة بتكثير النسل على سبيل الاستعارة. وأما المترف: فمعناه في اللغة المتنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش ففسقوا فيها
أي خرجوا عما أمرهم الله: فحق عليها القول
يريد: استوجبت العذاب، وهذا كالتفسير لقوله تعالى: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [الإسراء: ١٥] وقوله: وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا [القصص: ٥٩] وقوله: ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون [الأنعام: ١٣١] فلما حكم تعالى في هذه الآيات أنه تعالى لا يهلك قرية حتى يخالفوا أمر الله، فلا جرم ذكر أنه ها هنا يأمرهم فإذا خالفوا الأمر، فعند ذلك استوجبوا الإهلاك المعبر عنه بقوله: فحق عليها القول
وقوله: فدمرناها تدميرا
أي أهلكناها إهلاك الاستئصال. والدمار هلاك على سبيل الاستئصال.
المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم من وجوه: الأول: أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أراد إيصال الضرر إليهم ابتداء ثم توسل إلى إهلاكهم بهذا الطريق. الثاني: أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما خص المترفين بذلك الأمر لعلمه بأنهم يفسقون، وذلك يدل على أنه تعالى أراد منهم الفسق، والثالث: أنه تعالى قال: فحق عليها القول
بالتعذيب والكفر، ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الإيمان منهم، لأن ذلك يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا وذلك محال، والمفضي إلى المحال محال.
قال الكعبي: إن سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يبتدئ بالتعذيب والإهلاك لقوله: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم [الرعد: ١١] وقوله: ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم [النساء: ١٤٧] وقوله: وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون [القصص: ٥٩] فكل هذه الآيات تدل على أنه تعالى لا

يبتدئ بالإضرار، وأيضا ما قبل هذه الآية يدل على هذا المعنى وهو قوله: من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى [الإسراء: ١٥] ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض،." (١)

"فثبت أن الآيات التي تلوناها محكمة، وكذا الآية التي/ نحن في تفسيرها، فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات هذا ما قاله الكعبي، واعلم أن أحسن الناس كلاما في تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة:

القفال فإنه ذكر فيه وجهين:

الوجه الأول: قال إنه تعالى أخبر أنه لا يعذب أحدا بما يعلمه منه ما لم يعمل به، أي لا يجعل علمه حجة على من علم أنه إن أمره عصاه بل يأمره فإذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه فقوله: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها

معناه: وإذا أردنا إمضاء ما سبق من القضاء بإهلاك قوم أمرنا المتنعمين المتعززين الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا بالإيمان بي والعمل بشرائع ديني على ما بلغهم عني رسولي، ففسقوا فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق بإهلاكهم لظهور معاصيهم فحينئذ دمرناها، والحاصل أن المعنى:

وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا على المعصية لم نكتف في تحقيق ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم، بل أمرنا مترفيها ففسقوا، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به.

والوجه الثاني: في التأويل أن نقول: وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصي من أهلها لم نعاجلهم بالعذاب في أول ظهور المعاصي منهم، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي، وإنما خص المترفين بذلك الأمر، لأن المترف هو المتنعم ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر أوجب، فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق، فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا، ثم قال القفال:

وهذان التأويلان راجعان إلى أن الله تعالى أخبر عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة حتى يعذر إليهم غاية الإعذار الذي يقع منه اليأس من إيمانهم، كما قال في قوم نوح: ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا [نوح: ٢٧]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠/٣١٤

وقال: أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن [هود: ٣٦] وقال في غيرهم: فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل [يونس: ٧٤] فأخبر تعالى أولا أنه لا يظهر العذاب إلا بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام. ثم أخبر ثانيا في هذه الآية أنه إذا بعث الرسول أيضا فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ، فإن بقوا مصرين على الذنوب فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال، وهذا التأويل الذي ذكره القفال في تطبيق الآية على قول المعتزلة لم يتيسر لأحد من شيوخ المعتزلة مثله.

وأجاب الجبائي بأن قال: ليس المراد من الآية أنه تعالى يريد إهلاكهم قبل أن يعصوا ويستحقوا، وذلك لأنه ظلم وهو على الله محال، بل المراد من الإرادة قرب تلك الحالة فكان التقدير وإذا قرب وقت إهلاك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وهو كقول القائل: إذا أراد المريض أن يموت/ ازدادت أمراضه شدة، وإذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة، وليس المراد أن المريض يريد أن يموت، والتاجر يريد أن يفتقر وإنما يعنون أنه سيصير كذلك فكذا هاهنا.

واعلم أن جميع الوجوه الثلاثة التي ذكرناها في التمسك بهذه الآية، لا شك أن كلها عدول عن ظاهر اللفظ، أما الوجه الثاني والثالث فقد بقي سليما عن الطعن والله أعلم.

المسألة الثالثة: المشهور عند القراء السبعة: أمرنا مترفيها

بالتخفيف غير ممدودة الألف، وروي برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس: آمرنا بالمد، وعن أبي عمرو أمرنا

بالتشديد فالمد على الكثير." (١)

"يقال: أمر القوم بكسر الميم إذا كثروا وآمرهم الله بالمد، أي كثرهم الله والتشديد على التسليط، أي سلطنا مترفيها، ومعناه التخلية وزوال المنع بالقهر والله أعلم.

أما قوله تعالى: وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح فاعلم أن المراد أن الطريق الذي ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون **ويتمردون** فيما تقدم من القرون الذين كانوا بعد نوح وهم عاد وثمود وغيرهم، ثم إنه تعالى خاطب رسوله بما يكون خطابا لغيره وردعا وزجرا للكل فقال: وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا وفيه بحثان:

البحث الأول: أنه تعالى عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات فلا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق، وثبت أنه قادر على كل الممكنات فكان قادرا على إيصال الجزاء إلى كل أحد بقدر استحقاقه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٥/٢٠

وأيضا أنه منزه عن العبث والظلم ومجموع هذه الصفات الثلاث أعني العلم التام، والقدرة الكاملة، والبراءة عن الظلم بشارة عظيمة لأهل الطاعة ,وخوف عظيم لأهل الكفر والمعصية.

البحث الثاني: قال الفراء: لو ألغيت الباء من قولك بربك جاز، وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم كقولك: كفاك به وأكرم به رجلا وطاب بطعامك طعاما وجاد بثوبك ثوبا، أما إذا لم يكن مدحا أو ذما لم يجز دخولها، فلا يجوز أن يقال: قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك والله أعلم.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٨ الى ٢١]

من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا (١٨) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا (١٩) كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا (٢٠) انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (٢١)

[في قوله تعالى من كان يريد العاجلة إلى قوله فأولئك كان سعيهم مشكورا] في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال القفال رحمه اللہ: هذه الآية داخلة في معنى قوله: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه [الإسراء: ١٣] ومعناه: أن الكمال في الدنيا قسمان، فمنهم من يريد بالذي يعمله الدنيا ومنافعها والرياسة فيها، فهذا يأنف من الانقياد للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدخول في طاعتهم والإجابة لدعوتهم، إشفاقا من زوال الرياسة عنه، فهذا قد جعل طائر نفسه شؤما لأنه في قبضة الله تعالى فيؤتيه الله في الدنيا منها قدرا لا كما يشاء ذلك الإنسان، بل كما يشاء الله إلا أن عاقبته جهنم يدخلها فيصلاها بحرها مذموما ملوما مدحورا منفيا مطرودا من رحمة الله تعالى. وفي لفظ هذه الآية فوائد.

الفائدة الأولى: أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة، فقوله: ثم جعلنا له جهنم يصلاها إشارة إلى المضرة العظيمة، وقوله: مذموما إشارة إلى الإهانة والذم، وقوله: مدحورا إشارة إلى العبد والطرد ءن رحمة الله، وهي تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص.

الفائدة الثانية: أن من الجهال من إذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن أن ذلك لأجل كرامته على الله تعالى،." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٦/٢٠

"الباطلة والأخلاق المذمومة، أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني. وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية، وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأمراض. ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثارا عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سببا لحصول النفع في الدين والدنيا كان أولى ويتأكد ما ذكرنا بما

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى»

وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة والقرآن قسمان بعضهما يفيد/ الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء. وبعضهما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية، والأخلاق الفاضلة التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة، ولما كان إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة لا جرم بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة، واعلم أنه تعالى لما بين كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بين كونه سببا للخسار والضلال في حق الظالمين والمراد به المشركون وإنما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظا وغضبا وحقدا وحسدا وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة وتزيد في تقوية تلك الأخلاق الفاسدة في جواهر نفوسهم ثم لا يزال الخلق الخبيث النفساني يحمل على الأعمال الفاسدة والإتيان بتلك الأعمال يقوي تلك الأخلاق فبهذا الطريق يصير القرآن سببا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين في درجات الخزي والضلال والفساد والنكال ثم إنه تعالى ذكر السبب الأصلي في وقوع هؤلاء الجاهلين الضالين في أودية الضلال ومقامات الخزي والنكال وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه واعتقادهم أن ذلك إنما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال: وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وفيه مباحث:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الإنسان ها هنا هو الوليد بن المغيرة وهذا بعيد، بل المراد أن نوع الإنسان من شأنه أنه إذا فاز بمقصوده ووصل إلى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله تعالى متمردا عن طاعة الله كما قال: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى [العلق: ٦، ٧] .

البحث الثاني: قوله أعرض أي ولى ظهره أي عرضه إلى ناحية ونأى بجانبه أي تباعد، ومعنى النأي في اللغة البعد والإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار لأن ذلك عادة المتكبرين وفي قوله نأى قراءات. إحداها: وهي قراءة العامة بفتح النون والهمزة وفي حم السجدة مثله وهي اللغة الغالبة والنأي البعد يقال نأى أي بعد. وثانيها: قراءة ابن عامر ناء وله وجهان تقديم اللام على العين كقولهم راء في رأى ويجوز أن يكون من نأى بمعنى نهض. وثالثها: قراءة حمزة والكسائي." (١)

"الثالثة: قوله: وبالحق أنزلناه وبالحق نزل يدل على أن الإنزال غير النزول، فوجب أن يكون الخلق غير المخلوق وأن يكون التكوين غير المكون على ما ذهب إليه قوم. الفائدة الرابعة: قال أبو علي الفارسي الباء في قوله: وبالحق أنزلناه بمعنى مع كما تقول نزل بعدته وخرج بسلاحه، والمعنى أنزلنا القرآن مع الحق وقوله:

وبالحق نزل فيه احتمالان، أحدهما: أن يكون التقدير نزل بالحق كما تقول نزلت بزيد وعلى هذا التقدير الحق محمد صلى الله عليه وسلم لأن القرآن نزل به أي عليه. الثاني: أن تكون بمعنى مع كما قلنا في قوله: وبالحق أنزلناه ثم قال تعالى: وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك لا شيء عليك من كفرهم فإني ما أرسلتك إلا مبشرا للمطيعين ونذيرا للجاحدين فإن قبلوا الدين الحق انتفعوا به وإلا فليس عليك من كفرهم شيء.

ثم قال: وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وفيه مباحث:

البحث الأول: أن القوم قالوا: هب أن هذا القرآن معجز إلا أنه بتقدير أن يكون الأمر كذلك فكان من الواجب أن ينزله الله عليك دفعة واحدة ليظهر فيه وجه الإعجاز فجعلوا إتيان الرسول بهذا القرآن متفرقا شبهة في أنه يتفكر في فصل فصل ويقرأه على الناس فأجاب الله عنه بأنه إنما فرقه ليكون حفظه أسهل ولتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل.

البحث الثاني: قال سعيد بن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء السفلى، ثم فصل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩٠/٢١

في السنين التي نزل فيها، قال قتادة: كان بين أوله وآخره عشرون سنة والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ننزله جملة لتقرأه على الناس على مكث بالفتح والضم على مهل وتؤدة أي لا على فورة. قال الفراء: يقال مكث ومكث يمكث، والفتح قراءة عاصم في قوله: فمكث غير بعيد [النمل: ٢٢] .

البحث الثالثة: الاختيار عند الأئمة فرقناه بالتخفيف وفسره أبو عمرو بيناه قال أبو عبيد: التخفيف أعجب إلي لأن تفسيره بيناه ومن قرأ بالتشديد لم يكن له معنى إلا أنه أنزل متفرقا فالفرق يتضمن التبيين ويؤكده ما روى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: فرقت أفرق بين الكلام وفرقت بين الأجسام ويدل عليه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»

ولم يقل يفترقا والتفرق مطاوع التفريق والافتراق مطاوع الفرق ثم قال: ونزلناه تنزيلا أي على الحد المذكور والصفة المذكورة ثم قال: قل آمنوا به أو لا تؤمنوا يخاطب الذين اقترحوا تلك المعجزات العظيمة على وجه التهديد والإنكار أي أنه تعالى أوضح البينات والدلائل وأزاح الأعذار فاختاروا ما تريدون ثم قال تعالى: إن الذين أوتوا العلم من قبله أي من قبل نزول القرآن قال مجاهد: هم ناس من أهل/ الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم خروا سجدا منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله ابن سلام ثم قال: يخرون للأذقان سجدا وفيه أقوال: القول الأول: قال الزجاج: الذقن مجمع اللحيين وكلما يبتدئ الإنسان بالخرور إلى السجود فأقرب الأشياء من الجبهة إلى الأرض الذقن. والقول الثاني: أن الأذقان كناية عن اللحى والإنسان إذا بالغ عند السجود في الخضوع والخشوع ربما مسح لحيته على التراب فإن اللحية يبالغ في تنظيفها فإذا عفرها الإنسان بالتراب فقد أتى بغاية التعظيم. والقول الثالث: أن الإنسان إذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الأرض في معرض السجود كالمغشي عليه ومتى كان الأمر كذلك كان خروره على الذقن في موضع السجود فقوله: يخرون للأذقان كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته ثم بقي." (١)

"بكونه كذبا، مع أن الكثير منهم يقول ذلك، ولا يعلم كونه باطلا، فعلمنا أن كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب سواء علم القائل بكونه مطابقا أو لم يعلم، ثم قال تعالى: فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا وفيه مباحث:

البحث الأول: المقصود منه أن يقال للرسول: لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فإنا بعثناك منذرا ومبشرا فأما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه. والغرض تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عنه.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١٧/٢١

البحث الثاني: قال الليث: بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظا من شدة وجده بالشيء. وقال الأخفش والفراء أصل البخع الجهد يقال: بخعت لك نفسي أي جهدتها، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عمر فقالت: بخع الأرض أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك. وقال الكسائي: بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه إذا نهكها وعلى هذا معنى: باخع نفسك أي ناهكها وجاهدها حتى تهلكها ولكن أهل التأويل كلهم قالوا: قاتل نفسك ومهلكها والأصل ما ذكرناه، هكذا قال الواحدي.

البحث الثالث: قوله: على آثارهم أي من بعدهم يقال مات فلان على أثر فلان أي بعده وأصل هذا أن الإنسان إذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم إنها تنمحي وتبطله بالكلية، فإذا كان موته قريبا من موت الأول كان موته حاصلا حال بقاء آثار الأول فصح أن يقال مات فلان على أثر فلان.

البحث الرابع: قوله، إن لم يؤمنوا بهذا الحديث المراد بالحديث القرآن. قال القاضي: وهذا يقتضي وصف القرآن بأنه حديث وذلك يدل على فساد قول من يقول: إنه قديم وجوابه أنه محمول على الألفاظ وهي حادثة.

البحث الخامس: قوله: أسفا الأسف المبالغة في الحزن وذكرنا الكلام فيه عند قوله: غضبان أسفا في سورة الأعراف [١٥٠] وعند قوله: يا أسفى على يوسف [يوسف: ٨٤] وفي انتصابه وجوه. الأول: أنه نصب على المصدر ودل ما قبله من الكلام على أنه يأسف. الثاني: يجوز أن يكون مفعولا له أي للأسف كقولك جئتك ابتغاء الخير. والثالث: قال الزجاج: أسفا منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

البحث السادس: الفاء في قوله: فلعلك جواب الشرط وهو قوله: إن لم يؤمنوا قدم عليه ومعناه التأخير.

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٧ الى ٨]

إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا (٧) وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا (٨)

[في قوله تعالى إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها] في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: وجه النظم كأنه تعالى يقول: يا محمد إني خلقت الأرض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم إنهم

يكفرون **ويتمردون** مع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم فأنت أيضا يا محمد ينبغي أن لا تنتهي في الحزن بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين الحق.." (١)

"ذكري

والمراد منه شدة انصرافهم عن قبول الحق، وأما الصمم فهو المراد من قوله: وكانوا لا يستطيعون سمعا يعني أن حالتهم أعظم من الصمم لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة واحتج الأصحاب بقوله: وكانوا لا يستطيعون سمعا على أن الاستطاعة مع الفعل وذلك لأنهم لما لم يسمعوا لم يستطيعوا، قال القاضي: المراد منه نفرتهم عن سماع ذلك الكلام واستثقالهم إياه كقول الرجل: لا أستطيع النظر إلى فلان.

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٠٢ الى ١٠٦]

أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا (١٠٢) قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا (١٠٣) الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (١٠٤) أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (١٠٥) ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا (١٠٦)

[في قوله تعالى أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء] وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بين من حال الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به الرسول أتبعه بقوله: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء والمراد أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر الآيات **وتمردهم** عن قبول أمره وأمر رسوله وهو استفهام على سبيل التوبيخ.

المسألة الثانية: قرأ أبو بكر ولم يرفعه إلى عاصم: أفحسب الذين كفروا بسكون السين ورفع الباء.

وهي من الأحرف التي خالف فيها عاصما، وذكر أنه قراءة أمير المؤمنين علي بن/ أبي طالب، وعلى هذا التقدير فقوله: حسب مبتدأ، أن يتخذوا خبر، والمعنى أفكافيهم وحسبهم أن يتخذوا كذا وكذا، وأما الباقون فقرأوا فحسب على لفظ الماضي، وعلى هذا التقدير ففيه حذف والمعنى: أفحسب الذين كفروا اتخاذ عبادي أولياء نافعا.

المسألة الثالثة: في العباد أقوال قيل: أراد عيسى والملائكة، وقيل: هم الشياطين يوالونهم ويطيعونهم، وقيل:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢٦/٢١

هي الأصنام سماهم عبادا كقوله: عباد أمثالكم، ثم قال تعالى: إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا وفي النزل قولان: الأول: قال الزجاج إنه المأوى والمنزل. والثاني: أنه الذي يقام للنزيل وهو الضيف، ونظيره قوله: فبشرهم بعذاب أليم ثم ذكر تعالى ما نبه به على جهل القوم فقال: قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا قيل إنهم هم الرهبان كقوله تعالى: عاملة ناصبة [الغاشية: ٣] وعن مجاهد أهل الكتاب وعن علي أن ابن الكواء سأله عنهم فقال: هم أهل حروراء والأصل أن يقال هو الذي يأتي بالأعمال يظنها طاعات وهي في أنفسها معاصي وإن كانت طاعات لكنها لا تقبل منهم لأجل كفرهم فأولئك إنما أتوا بتلك الأعمال لرجاء الثواب، وإنما أتعبوا أنفسهم فيها لطلب الأجر والفوز يوم القيامة فإذا لم يفوزوا بمطالبهم بين أنهم كانوا ضالين، ثم إنه تعالى بين صنعهم فقال: أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم وفيه مسألتان:." (١)

"هذا يدل على أن فعل العبد خلق لله تعالى لأنه جعل طهارته وزكاته من الله تعالى وحمله على الألطاف بعيد لأنه عدول عن الظاهر. الصفة الخامسة: قوله: وكان تقيا وقد عرفت معناه وبالجملة فإنه يتضمن غاية المدائح لأنه هو الذي يتقي نهي الله فيجتنبه ويتقي أمره فلا يهمله، وأولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصية وكان يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك، فإن قيل ما معنى: وكان تقيا وهذا حين ابتداء تكليفه قلنا:

إنما خاطب الله تعالى بذلك الرسول وأخبر عن حاله حيث كان كما أخبر عن نعم الله عليه. الصفة السادسة:

قوله: وبرا بوالديه

وذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، ولهذا السبب قال:

وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا [الإسراء: ٢٣] . الصفة السابعة: قوله: ولم يكن جبارا والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين كقوله تعالى: واخفض جناحك للمؤمنين [الحجر: ٨٨] وقال تعالى: ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك [آل عمران: ١٥٩] ولأن رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر، ولذلك فإن إبليس لما تجبر **وتمرد** صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن الدين وقيل الجبار هو الذي لا يرى لأحد على نفسه حقا وهو من العظم والذهاب بنفسه عن أن يلزمه قضاء حق

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١/٥٠١

أحد، وقال سفيان في قوله: جبارا عصيا
إنه الذي يقبل على الغضب والدليل عليه قوله تعالى: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض [القصص: ١٩] وقيل: كل من عاقب على غضب نفسه من غير حق فهو جبار لقوله تعالى: وإذا بطشتم بطشتم جبارين [الشعراء: ١٣٠] . الصفة الثامنة:
قوله: عصيا
وهو أبلغ من العاصي كما أن العليم أبلغ من العالم. الصفة التاسعة: قوله: وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا
وفيه أقوال: أحدها: قال محمد بن جرير الطبري: وسلام عليه
أي أمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم: ويوم يموت
أي وأمان عليه من عذاب القبر:
ويوم يبعث حيا
أي ومن عذاب القيامة. وثانيها: قال سفيان بن عيينة أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم فأكرم الله يحيى عليه الصلاة والسلام فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة. وثالثها: قال عبد الله بن نفطويه: وسلام عليه يوم ولد
أي أول ما يرى الدنيا ويوم/ يموت
أي أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة ويوم يبعث حيا
أي أول ما يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة. وإنما قال: حيا
تنبيها على كونه من الشهداء لقوله تعالى: بل أحياء عند ربهم يرزقون [آل عمران: ١٦٩] فروع. الأول: هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لا تختلف لأن الملائكة لا يسلمون إلا عن أمر الله تعالى. الثاني: ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الأنبياء عليهم السلام كقوله: سلام على نوح في العالمين [الصافات: ٧٩] . سلام على إبراهيم [الصافات: ١٠٩] لأنه قال ويوم ولد
وليس ذلك لسائر الأنبياء عليهم السلام. الثالث:
روي أن عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام: أنت أفضل مني لأن الله تعالى سلم عليك وأنا سلمت

على نفسي،
وهذا ليس يقوى لأن سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام الله على يحيى لأن عيسى معصوم لا يفعل إلا ما أمره الله به. الرابع: السلام عليه يوم ولد لا بد وأن يكون تفضلا من الله تعالى لأنه لم يتقدم منه ما يكون ذلك جزاء له، وأما السلام عليه يوم يموت ويوم يبعث في المحشر، فقد يجوز أن يكون ثوابا كالمدح والتعظيم والله تعالى أعلم.." (١)

"قوله: ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا وهذا الإحضار يكون قبل إدخالهم جهنم ثم إنه تعالى يحضرهم على أذل صورة لقوله تعالى: جثيا لأن البارك على ركبتيه صورته صورة الذليل أو صورته صورة العاجز، فإن قيل هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى: وترى كل أمة جاثية [الجاثية: ٢٨] والسبب فيه جريان العادة أن الناس في مواقف المطالبات من/ الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من الاستنظار والقلق، أو لما يدهمهم من شدة الأمر الذي لا يطيقون معه القيام على أرجلهم، وإذا كان هذا عاما للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار؟ قلنا: لعل المراد أنهم يكونون من وقت الحشر إلى وقت الحضور في الموقف على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد الذل في حقهم. وثالثها: قوله: ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا والمراد بالشيعة وهي فعلة كفرقة وفئة الطائفة التي شاعت أي تبعت غاويا من الغواة قال تعالى: إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا [الأنعام: ١٥٩] والمراد أنه تعالى يحضرهم أولا حول جهنم جثيا ثم يميز البعض من البعض فمن كان أشدهم **تمردا** في كفره خص بعذاب أعظم لأن عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره، وليس عذاب من **يتمرد** ويتجبر كعذاب المقلد وليس عذاب من يورد الشبه في الباطل كعذاب من يقتدي به مع الغفلة قال تعالى: الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون [النحل: ٨٨] . وقال: وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم [العنكبوت: ١٣] فبين تعالى أنه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتوا وأشد **تمردا** ليعلم أن عذابه أشد، ففائدة هذه التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب، فلذلك قال في جميعهم: ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ولا يقال أولى إلا مع اشتراك القوم في العذاب، واختلفوا في إعراب أيهم فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد وسيبويه على أنه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلة حتى لو جيء به لأعرب وقيل أيهم هو أشد.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١٨/٢١

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧١ الى ٧٢]
وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا (٧١) ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا (٧٢)
واعلم أنه تعالى لما قال من قبل: فو ربك لنحشرنهم والشياطين [مريم: ٦٨] ثم قال: ثم لنحضرنهم حول جهنم [مريم: ٦٨] أردفه بقوله: وإن منكم إلا واردها يعني جهنم واختلفوا فقال بعضهم المراد من تقدم ذكره من الكفار فكنى عنهم أولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة، قالوا: إنه لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار ويدل عليه أمور: أحدها: قوله تعالى: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون [الأنبياء: ١٠١] والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها. والثاني: قوله: لا يسمعون حسيسها [الأنبياء: ١٠٢] ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها. وثالثها: قوله: وهم من فزع يومئذ آمنون [النحل: ٨٩] وقال الأكثرون:
إنه عام في كل مؤمن وكافر لقوله تعالى: وإن منكم إلا واردها فلم يخص. وهذا الخطاب مبتدأ/ مخالف للخطاب الأول، ويدل عليه قوله: ثم ننجي الذين اتقوا أي من الواردين من اتقى ولا يجوز أن يقال: ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا إلا والكل واردون والأخبار المروية دالة على هذا القول، ثم هؤلاء اختلفوا في تفسير الورود فقال بعضهم: الورود الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة، واحتجوا على أن الورود قد يراد به القرب بقوله تعالى: فأرسلوا واردهم [يوسف: ١٩] ومعلوم أن ذلك." [١]

"قد أوتيت سؤلك يا موسى [طه: ٣٦] وهذا يدل على أنه قد انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قال بعده: إننا نخاف فإن حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر. والجواب: أن شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الأوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق إليه السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير زوال الخوف.
السؤال الثالث: أما علم موسى وهارون وقد حملهما الله تعالى الرسالة أنه تعالى يؤمنهما من القتل الذي هو مقطعة عن الأداء. الجواب: قد أمنا ذلك وإن جوزا أن ينالهما السوء من قبل تمام الأداء أو بعده وأيضا فإنهما استظهرا بأن سألا ربهما ما يزيد في ثبات قلبهما على دعائه وذلك بأن ينضاف الدليل النقلي إلى العقلي زيادة في الطمأنينة كما قال: ولكن ليطمئن قلبي [البقرة: ٢٦٠] .
السؤال الرابع: لما تكرر الأمر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على المعصية.
الجواب: لو اقتضى الأمر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية لا سيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وإزالة الغم ولكن ليس الأمر على الفور فزال السؤال وهذا من أقوى الدلائل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٥٧/٢١

على أن الأمر لا يقتضي الفور إذا ضممت إليه ما يدل على أن المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى:

أن يفرط علينا أو أن يطغى فاعلم أن في: أن يفرط وجوها. أحدها: فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذي يتقدم الواردة وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة. وثانيها: أنه مأخوذ من أفرط غيره إذا حمله على العجلة فكأن موسى وهارون عليهما السلام خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو إما الشيطان أو ادعاؤه للربوبية أو حبه للرياسة أو قومه وهم القبط **المتمردون** الذين حكى الله تعالى عنهم: قال الملأ من قومه [الأعراف: ٦٠] . وثالثها: يفرط من الإفراط في الأذية أما قوله: أو أن يطغى فالمعنى يطغى بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته عليك واعلم أن من أمر بشيء فحاول دفعه بأعذار يذكرها فلا بد وأن يختم كلامه بما هو الأقوى وهذا كما أن الهدهد ختم عذره بقوله: وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله [النمل: ٢٤] فكذا هاهنا بدأ موسى بقوله: أن يفرط علينا وختم بقوله: أو أن يطغى لما أن طغيانه في حق الله تعالى أعظم من إفراطه في حق موسى وهارون عليهما السلام.

أما قوله: قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى فالمراد لا تخافا مما عرض في قلبكما من الإفراط والطغيان لأن ذلك هو المفهوم من الكلام يبين ذلك أنه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله: إنني معكما فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال: الله معك على وجه الدعاء وأكد ذلك بقوله: أسمع وأرى فإن من يكون مع الغير وناصرا له وحافظا/ يجوز أن لا يعلم كل ما يناله وإنما يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى أنه معهما بالحفظ والعلم في جميع ما ينالهما وذلك هو النهاية في إزالة الخوف قال القفال قوله: أسمع وأرى يحتمل أن يكون مقابلا لقوله: أن يفرط علينا أو أن يطغى والمعنى: يفرط علينا بأن لا يسمع منا: أو أن يطغى بأن يقتلنا فقال الله تعالى: إنني معكما أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه، واعلم أن هذه الآية تدل على أن كونه تعالى سميعا وبصيرا صفتان زائدتان على العلم لأن قوله: إنني معكما دل على العلم فقوله: أسمع وأرى لو دل على العلم لكان ذلك تكريرا وهو خلاف الأصل [في قوله تعالى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم] ثم إنه سبحانه أعاد ذلك التكليف." [١]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٤/٢٢

"تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب، وإنما سويناهم لفوائد دينية ودنيوية أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال تعالى: ويتفكرون في خلق السماوات والأرض [آل عمران: ١٩١] وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى وهذا كقوله: وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا [ص: ٢٧] وقوله: ما خلقناهما إلا بالحق [الدخان: ٣٩] . والثاني: أن الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على منكريه لأنه أظهر المعجزة عليه فإن كان محمد كاذبا كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه وإن كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن.

المسألة الثانية: قال القاضي عبد الجبار: دلت الآية على أن اللعب ليس من قبله تعالى إذ لو كان كذلك لكان لاعبا فإن اللاعب في اللغة اسم لفاعل اللعب فنفي الاسم الموضوع للفعل يقتضي نفي الفعل.

والجواب:

يبطل ذلك بمسألة الداعي عن ما مر غيره مرة أما قوله: لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين فاعلم أن قوله: لاتخذناه من لدنا معناه من جهة قدرتنا. وقيل: اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة وقيل من لدنا أي من الملائكة لا من الإنس ردا لمن قال بولادة المسيح وعزير فأما قوله تعالى: بل نقذف بالحق على الباطل فاعلم أن قوله: بل/ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب بالجد وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لإبطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه، فأما قوله تعالى: ولكم الويل مما تصفون يعني من تمسك بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسب القرآن إلى أنه سحر وأضغاث أحلام إلى غير ذلك من الأباطيل، وهو الذي عناه بقوله: مما تصفون.

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (١٩) يسبحون الليل والنهار لا يفترون (٢٠)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان. الأول: أنه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه ونفي اللعب لا يصح إلا بنفي الحاجة ونفي الحاجة لا يصح إلا بالقدرة التامة، لا جرم عقب تلك الآية بقوله: وله من في السماوات والأرض لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة. الثاني: وهو الأقرب أنه تعالى لما حكى كلام الطاعنين في النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن **التمرد** وعدم الانقياد بين

في هذه الآية أنه تعالى منزه عن طاعتهم لأنه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات، ولأجل أن الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه.

المسألة الثانية: قوله: وله من في السماوات والأرض معناه أن كل المكلفين في السماء والأرض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم، فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه.

المسألة الثالثة: دلالة قوله: ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته على أن الملك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد تقدم بيانها في سورة البقرة.

المسألة الرابعة: قوله: ومن عنده المراد بهم الملائكة بإجماع الأمة ولأنه تعالى وصفهم بأنهم:." (١)

"يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة، فكأنه تعالى قال: الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف **التمرد** عن طاعته.

المسألة الخامسة: قال الزجاج: ولا يستحسرون ولا يتعبون ولا يعيون قال صاحب «الكشاف» : فإن قلت الاستحسار مبالغة في الحسور فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى/ الحسور قلت في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات الشاقة بأن يستحسروا فيما يفعلون أما قوله تعالى: يسبحون الليل والنهار لا يفترون فالمعنى أن تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر، روي عن عبد الله بن الحرث بن نوفل، قال: قلت لكعب: أرأيت قول الله تعالى:

يسبحون الليل والنهار لا يفترون ثم قال: جاعل الملائكة رسلا [فاطر: ١] أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح وأيضا قال: أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين [البقرة: ١٦١] فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح؟ أجاب كعب الأحبار فقال: التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال. فإن قيل هذا القياس غير صحيح لأن الاشتغال بالتنفس إنما لم يمنع من الكلام، لأن آلة التنفس غير آلة الكلام أما التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال. والجواب: أي استبعاد في أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبحون الله وببعضها يلعنون أعداء الله، أو يقال معنى قوله: لا يفترون أنهم لا يفترون عن العزم على أدائه في أوقاته اللائقة به كما يقال: إن فلانا يواظب على الجماعات لا يفتر عنها لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢٥/٢٢

يراد به أنه أبدا مشتغل بها بل يراد به أنه مواظب على العزم على أدائها في أوقاتها.

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٢١ الى ٢٥]
أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون (٢١) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون (٢٢) لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (٢٣) أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون (٢٤) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٢٥)
اعلم أن الكلام من أول السورة إلى هاهنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد.
أما قوله تعالى: أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ففيه مسائل:
المسألة الأولى: قال صاحب «الكشاف» : أم هاهنا هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد أذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الأرض ينشرون الموتى، ولعمري إن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات، فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا في نهاية البعد عن هذه الدعوى، فإنهم كانوا مع إقرارهم بالله وبأنه خالق السموات." (١)

"أما قوله تعالى: إن الله على كل شيء شهيد فالمراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجري في ذلك الفصل ظلم ولا حيف.
أما قوله سبحانه وتعالى: ألم تر أن الله يسجد له ففيه أسئلة:
السؤال الأول: ما الرؤية هاهنا الجواب: أنها العلم أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض وإنما عرف ذلك بخبر الله لا أنه رآه.
السؤال الثاني: ما السجود هاهنا قلنا فيه وجوه: أحدها: قال الزجاج أجود الوجوه في سجود هذه الأمور أنها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله: ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين [فصلت: ١١] ، أن نقول له كن فيكون [النحل: ٤٠] ، وإن منها لما يهبط من خشية الله [البقرة: ٧٤] ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤] ، وسخرنا مع داود الجبال

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢٦/٢٢

يسبحن [الأنبياء: ٧٩] والمعنى أن هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فإن قيل هذا التأويل يبطله قوله: وكثير من الناس فإن السجود بالمعنى الذي ذكرته عام في كل الناس فإسناده إلى كثير منهم يكون تخصيصا من غير فائدة والجواب من وجوه: أحدها: أن السجود بالمعنى الذي ذكرناه وإن كان عاما في حق الكل إلا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر، فهذا الشخص وإن كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره، أما المؤمن فإنه ساجد بذاته وبظاهره فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر. وثانيها: أن نقطع قوله: وكثير من الناس عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن نقول تقدير الآية: ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الأول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة، وإنما فعلنا ذلك لأنه قامت الدلالة على أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في معنييه جميعا. الثاني: أن يكون قوله: وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لأن خبر مقابله يدل عليه وهو قوله: حق عليه العذاب، والثالث: أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب. وثالثها: أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعا يقول: المراد بالسجود في حق الأحياء العقلاء العبادة وفي حق الجمادات الانقياد، ومن ينكر ذلك يقول إن الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين، فعنى بها في حق العقلاء، الطاعة وفي حق الجمادات الانقياد.

السؤال الثالث: قوله: أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة أخرى وكثير من الناس الجواب: لو اقتصر على ما تقدم لأوهم أن كل الناس يسجدون كما أن كل الملائكة يسجدون فبين أن كثيرا منهم يسجدون طوعا/ دون كثير منهم فإنه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب. القول الثاني: في تفسير السجود أن كل ما سوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته كما قال: وأن إلى ربك المنتهى [النجم:

٤٢] وكما أن الإمكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره إلى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه، وهذا الافتقار الذاتي اللازم للماهية أدل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الأرض فإن

ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتي، وقد يتطرق إليها الصدق والكذب، أما نفس الافتقار الذاتي فإنه ممتنع التغير." (١)

"عليهم المعجزة ظهر في وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب، قال صاحب «الكشاف» المنكر الفظيع من التهجم والفجور والنشوز والإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام/ وقرئ تعرف على ما لم يسم فاعله، وللمفسرين في المنكر عبارات: أحدها: قال الكلبي تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن ثانيها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: التجبر والترفع وثالثها: قال مقاتل أنكروا أن يكون من الله تعالى.

أما قوله تعالى: يكادون يسطون فقال الخليل والفراء والزجاج: السطو شدة البطش والوثوب، والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيما لإنكار ما خوطبوا به فحكى تعالى عظيم **تمردهم** على الأنبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بأن يقابلهم بالوعيد فقال: قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار قال صاحب «الكشاف» قوله: من ذلكم أي من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم، فقوله: من ذلكم فيه وجهان: أحدهم: المراد أن الذي ينالكم من النار التي تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم أعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم والثاني: أن يكون المراد بشر من ذلكم ما تهمون به فيمن يحاجكم فإن أكبر ما يمكنكم فيه الإهلاك ثم بعده مصيرهم إلى الجنة وأنتم تصيرون إلى النار الدائمة التي لا فرج لكم عنها، وأما النار فقال صاحب «الكشاف» قرئ النار بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا يقول ما شر من ذلك؟ فقيل النار أي هو النار. وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر. ثم بين سبحانه أنه وعدها الذين كفروا إذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير، قال صاحب «الكشاف» وعدها الله استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووعدها خبرا.

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب (٧٣) ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز (٧٤)

اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل أنهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم فيه ولا علم، ذكر في هذه الآية ما يدل على إبطال قولهم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣/٢١٣

أما قوله تعالى: ضرب مثل ففيه سؤالات:

السؤال الأول: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا؟ والجواب: لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلا.

السؤال الثاني: قوله: ضرب يفيد فيما مضى والله تعالى هو المتكلم بهذا الكلام ابتداء؟ الجواب: إذا كان ما يورد من الوصف معلوما من قبل جاز ذلك فيه، ويكون ذكره بمنزلة إعادة أمر قد تقدم.

أما قوله: فاستمعوا له أي تدبروه حق تدبره لأن نفس السماع لا ينفع، وإنما ينفع التدبر. واعلم أن الذباب لما كان في غاية الضعف احتج الله تعالى به على إبطال قولهم من وجهين: الأول: قوله: إن الذين تدعون من دون الله رن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له قرئ يدعون بالياء والتاء ويدعون مبنيا للمفعول ولن أصل في نفي المستقبل إلا أنه ينفيه نفيا مؤكدا فكأنه سبحانه قال: إن هذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا، فقوله: ولو اجتمعوا له نصب على الحال كأنه." (١)

"وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون أي لعادلون عن هذا الطريق، لأن طريق الاستقامة واحدة وما يخالفه فكثير.

أما قوله تعالى: ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر ففيه وجوه: أحدها: المراد ضرر الجوع وسائر مضار الدنيا وثانيها: المراد ضرر القتل والسبي وثالثها: أنه ضرر الآخرة وعذابها فبين أنهم قد بلغوا في **التمرد** والعناد المبلغ الذي لا مرجع فيه إلى دار الدنيا، وأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه [الأنعام: ٢٨] لشدة لجاجهم فيما هم عليه من الكفر.

أما قوله تعالى: للجوا في طغيانهم يعمهون فالمعنى لتمادوا في ضلالهم وهم متحيرون.

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٧٦ الى ٨٠]

ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون (٧٦) حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون (٧٧) وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٧٨) وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون (٧٩) وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون (٨٠)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥١/٢٣

اختلفوا في قوله: ولقد أخذناهم بالعذاب على وجوه: أحدها: أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة منع الميرة عن أهل مكة فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والجيف، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة العالمين، ثم قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فادع الله يكشف عنا هذا القحط. فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية، والمعنى أخذناهم بالجوع فما أطاعوا وثانيها:

هو الذي نالهم يوم بدر من القتل والأسر، يعني أن ذلك مع شدته ما دعاهم إلى الإيمان عن الأصم وثالثها: المراد/ من عذب من الأمم الخوالي فما استكانوا أي مشركي العرب لربهم عن الحسن ورابعها: أن شدة الدنيا أقرب إلى المكلف من شدة الآخرة، فإذا لم تؤثر فيهم شدة الدنيا فشدة الآخرة كذلك، وهذا يدل على أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه [الأنعام: ٢٨] .

أما قوله تعالى: حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ففيه وجهان: أحدهما: حتى إذا فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من القتل والأسر والثاني: إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله: ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون [الروم: ١٢] ، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون [الزخرف: ٧٥] والإبلاس اليأس من كل خير، وقيل السكون مع التحسير. وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما وزن استكان؟ الجواب: استفعل من السكون أي انتقل من كون إلى كون، كما قيل استحال إذا انتقل من حال إلى حال، ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه.

السؤال الثاني: لم جاء استكانوا بلفظ الماضي ويتضرعون بلفظ المستقبل؟ الجواب: لأن المعنى امتحناهم فما وجدنا منهم عقيب المحنة استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد وقرئ فتحنا.." (١)

"على معنى أنها تبين للناس كما قال: بلسان عربي مبين [الشعراء: ١٩٥] أو تكون من بين بمعنى تبين، ومنه المثل: قد بين «١» الصبح لذي عينين وثانيها: قوله: ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وفيه وجهان: أحدهما:

أنه تعالى يريد بالمثل ما ذكر في التوراة والإنجيل من إقامة الحدود فأنزل في القرآن مثله، وهو قول الضحاك والثاني: قوله: ومثلا أي شبها من حالهم بحالكم في تكذيب الرسل، يعني بينا لكم ما أحللنا بهم من العقاب **لتمردهم** على الله تعالى، فجعلنا ذلك مثلا لكم لتعلموا أنكم إذا شاركتموهم في المعصية كنتم مثلهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣/٢٨٨

في استحقاق العقاب، وهو قول مقاتل وثالثها: قوله: وموعظة للمتقين والمراد به الوعيد والتحذير من فعل المعاصي ولا شبهة في أنه موعظة للكل، لكنه تعالى خص المتقين بالذكر للعلة التي ذكرناها في قوله: هدى للمتقين وهاهنا آخر الكلام في الأحكام.

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٥]
الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم (٣٥)
القول في الإلهيات اعلم أنه تعالى ذكر مثلين: أحدهما: في بيان أن دلائل الإيمان في غاية الظهور الثاني: في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء.
أما المثل الأول فهو قوله سبحانه وتعالى:
اعلم أن الكلام في هذه الآية مرتب على فصول:

الفصل الأول في إطلاق اسم النور على الله تعالى
اعلم أن لفظ النور موضوع في اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرهما، وهذه الكيفية يستحيل أن تكون إلها لوجوه: أحدها: أن هذه الكيفية إن كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالا على حدوثها، وإن كانت عرضا فمتى ثبت حدوث جميع الأعراض القائمة به ولكن هذه المقدمة إنما تثبت بعد إقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال وثانيها: أنا سواء قلنا النور جسم أو أمر حال في الجسم فهو منقسم، لأنه إن كان جسما فلا شك في أنه منقسم، وإن كان حالا فيه، فالحال في المنقسم منقسم، وعلى التقديرين فالنور منقسم وكل منقسم فإنه يفتقر في تحققه إلى تحقق أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره، وكل مفتقر فهو في تحققه مفتقر إلى غيره، والمفتقر إلى الغير ممكن لذاته محدث بغيره، فالنور محدث فلا يكون إلها وثالثها: أن هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على الله تعالى ورابعها: أن هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب. وذلك

(١) يروي المثل: قد وضح الصبح لذي عينين. [.....]." [١]
"في حق أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١٥ الى ١٦]
قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا (١٥) لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا (١٦)
[في قوله تعالى قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا] في الآية مسائل:
المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة، فقال لرسوله: قل أذلك خير أم جنة الخلد أن يلتمسوها بالتصديق والطاعة، فإن قيل: كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد، وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى أم الصبر؟ قلنا هذا يحسن في معرض التفريع، كما إذا أعطى السيد عبده مالا **فتمرد** وأبى واستكبر فيضربه ضربا وجيعا، ويقول على سبيل التوبيخ: هذا أطيب أم ذاك؟
المسألة الثانية: احتج أصحابنا بقوله: وعد المتقون على أن الثواب غير واجب على الله تعالى، لأن من قال السلطان وعد فلانا أن يعطيه كذا، فإنه يحمل ذلك على التفضيل، فأما لو كان ذلك الإعطاء واجبا لا يقال إنه وعده به، أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضا على مذهبهم قالوا لأنه سبحانه أثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى، وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد إنما حصل معللا بصفة التقوى، والتفضيل غير مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبا.
المسألة الثالثة: قال أبو مسلم: جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها، والخلد والخلود سواء، كالشكر/ والشكور قال الله تعالى: لا نريد منكم جزاء ولا شكورا [الإنسان: ٩] فإن قيل: الجنة اسم لدار الثواب وهي مخلدة فأي فائدة في قوله: جنة الخلد؟ قلنا الإضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال، كما يقال الله الخالق البارئ، وما هنا من هذا الباب.
أما قوله: كانت لهم جزاء ومصيرا ففيه مسائل:
المسألة الأولى: المعتزلة احتجوا بهذه الآية على إثبات الاستحقاق من وجهين: الأول: أن اسم الجزاء لا

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٨/٢٣

يتناول إلا المستحق، فأما الوعد بمحض التفضيل فإنه لا يسمى جزاء، والثاني: لو كان المراد من الجزاء الأمر الذي يصيرون إليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله: جزاء وبين قوله: مصيرا تفاوت فيصير ذلك تكرارا من غير فائدة. قال أصحابنا رحمهم الله لا نزاع في كونه جزاء، إنما النزاع في أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق، وليس في الآية ما يدل على التعيين.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة الآية تدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين:

الأول: أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقا للثواب، لأن الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر، والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع، والجمع بينهما محال، وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه، فإذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فنقول: لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان إما أن يخرجه من النار ولا يدخله الجنة، وذلك باطل بالإجماع لأنهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة، إما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار، لأنه تعالى قال:." (١)

"موسى فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه.

ومن الناس من قال إنه لم يبن ذلك الصرح لأنه يبعد من العقلاء أن يظنوا أنهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من على أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الأرض، ومن شك في ذلك خرج عن حد العقل، وهكذا القول فيما يقال من رمي السهم إلى السماء ورجوعه متلطخا بالدم، فإن كل من كان كامل العقل يعلم أنه لا يمكنه إيصال السهم إلى السماء، وأن من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التي حكاها الله تعالى في القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل، فيصير ذلك مشرعا قويا لمن أحب الطعن في القرآن، فالأقرب أنه كان أوهم البناء ولم يبن أو كان هذا من تتمة قوله: ما علمت لكم من إله غيري يعني لا سبيل إلى إثباته بالدليل، فإن حركات الكواكب كافية في تغير هذا العالم ولا سبيل إلى إثباته بالحسن، فإن الإحساس به لا يمكن إلا بعد صعود السماء وذلك مما لا سبيل إليه، ثم قال عند ذلك لهامان: ابن لي صرحا أبلغ به أسباب السماوات وإنما قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الأشياء قرر أنه لا دليل على الصانع، ثم إنه رتب النتيجة عليه فقال: وإني لأظنه من الكاذبين فهذا التأويل أولى مما عداه.

الثالث: إنما قال: فأوقد لي يا هامان على الطين ولم يقل اطبخ لي الآجر واتخذه لأنه أول من عمل الآجر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣٩/٢٤

فهو يعلمه الصنعة ولأن هذه العبارة أليق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وأمر هامان، وهو وزيره بالإيقاد على الطين فنادى باسمه بيافي وسط الكلام دليل على التعظم والتجبر، والطلوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل واطلع بمعنى واحد.

أما قوله: واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق فاعلم أن الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وهو المتكبر في الحقيقة أي المبالغ في كبرياء الشأن،

قال عليه السلام فيما حكى عن ربه «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار «١» »

وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق.

المسألة الثانية: قال الجبائي الآية تدل على أنه تعالى ما أعطاه الملك وإلا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب، لا كما ادعى ملوك بني أمية عند تغلبهم أن ملكهم من الله تعالى فإن الله تعالى قد بين في كل غاصب لحكم الله أنه أخذ ذلك بغير حق، واعلم أن هذا ضعيف لأن وصول ذلك الملك إليه، إما أن يكون منه أو من الله تعالى، أو لا منه ولا من الله تعالى، فإن كان منه فلم لم يقدر عليه غيره، فربما كان العاجز أقوى وأعقل بكثير من المتولي للأمر؟ وإن كان من الله تعالى فقد صح الغرض، وإن كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعي الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر؟ واعلم أن هذا أظهر من أن يرتاب فيه العاقل.

أما قوله: وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى إلا أنهم كانوا ينكرون البعث فلأجل ذلك تمردوا وطغوا «٢» .

أما قوله: فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فهو من الكلام المفخم الذي دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه، شبههم استحقارا لهم واستقلالا لعددهم، وإن كانوا الكبير الكثير والجم الغفير بحصيات

---

(١)
لهذا الحديث تتمة وهي «فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار ولا أبالي» .

(٢) إن تواريخ قدماء المصريين وآثارهم والنقوش التي في معابدهم وأهرامهم تشهد بأنهم كانوا يؤمنون بالرجعة

والبعث، فالمراد بالآية تشبيه حالهم في اتباع الأهواء والانصراف عن الآخرة وعدم العمل لما بعد الموت بحال من ينكر البعث.." (١)

"ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين [السجدة: ١٣] وقوله تعالى: حقت كلمة العذاب [الزمر: ٧١] وذلك لأن الله تعالى قال: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [الإسراء: ١٥] فإذا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب، وأما القول المقول في الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الأصولية الدينية فإن القرآن فيه ذكر الدلائل التي بها تثبت المطالب.

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧١ الى ٧٢]

أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢)

ثم إنه تعالى أعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها فقال تعالى: أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما أي من جملة ما عملت أيدينا أي ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وإرادتنا.

وقوله تعالى: فهم لها مالكون إشارة إلى إتمام الإنعام في خلق الأنعام، فإنه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها.

وقوله: وذللناها لهم زيادة إنعام فإن المملوك إذا كان آبيا متمردا لا ينفع، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهي نادة صادة لما تم الإنعام الذي في الركوب وإن كان يحصل الأكل كما في الحيوانات الوحشية، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضا إلا بالتعب الذي في الاصطياد، ولعل ذلك لا يتهيأ [إلا] «١» للبعض وفي البعض.

وقوله تعالى: فمنها ركوبهم ومنها يأكلون بيان لمنفعة التذليل إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود.

[سورة يس (٣٦) : آية ٧٣]

ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٧٣)

ثم بين تعالى غير الركوب والأكل من الفوائد بقوله تعالى: ولهم فيها منافع ومشارب وذلك لأن من الحيوانات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٠٠/٢٤

ما لا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة، إن قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فإن من الجلود ما يتخذ أواني للشرب والأدو ا ت من القرب [وغيرها] ، وإن قلنا إن المراد المشروب وهو الألبان والأسمان فهي مختصة بالإناث ولكن بسبب الذكور فإن ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والإناث.

ثم قال تعالى: أفلا يشكرون هذه النعم التي توجب العبادة شكرا، ولو شكرتم لزادكم/ من فضله، ولو كفرتم لسلبها منكم، فما قولكم، أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها؟. ثم قال تعالى:

[سورة يس (٣٦) : آية ٧٤]

واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون (٧٤)

إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها، فإنهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكرا لأنعمه، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم: حرقوه وانصروا آلهتكم [الأنبياء: ٦٨] وفي الحقيقة لا هي ناصرة ولا منصورة. وقوله تعالى:

[سورة يس (٣٦) : آية ٧٥]

لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٥)

---

(١) ما بين المربعين زيادة اقتضاها السياق.." [(١)]

"البحث الأول: أن الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزن به، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله: بزينة الكواكب يحتملهما فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أي بأن زينتها الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسنها، لأنها/ إنما زينت السماء بحسنها في أنفسها، وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان أن تقع الكواكب بيانا للزينة، لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها، وأن يراد ما زينت به الكواكب.

البحث الثاني: في بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه الأول: أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها، فإن تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة في سطح الفلك لا جرم بقي الضوء والنور في جرم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠٦/٢٦

الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس: بزينة الكواكب أي بضوء الكواكب الوجه الثاني: يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها الوجه الثالث: يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها الوجه الرابع: أن الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها في التركيب والجوهر، وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة وأما المطلوب الثالث: وهو قوله: وحفظا من كل شيطان مارد ففيه بحثان:

البحث الأول: فيما يتعلق باللغة فقوله: وحفظا أي وحفظناها، قال المبرد: إذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله، مثل قولك أفعل وكرامة لأنه لما قال أفعل علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال، فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة، قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب ومن كل شيطان مارد يريد الذي **تمرد** على الله قيل إنه الذي لا يتمكن منه، وأصله من الملاسة ومنه قوله: رح ممرد

[النمل: ٤٤] ومنه الأمرد وذكرنا تفسير المارد عند قوله: مردوا على النفاق [التوبة: ١٠١] .

البحث الثاني: فيما يتعلق بالمباحث العقلية في هذا الموضع، فنقول الاستقصاء فيه مذكور في قوله تعالى: ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين [الملك: ٥] قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها، وبقي هاهنا سؤالات:

السؤال الأول: هذه الشهب هل هي من الكواكب التي زين الله السماء بها أم لا؟ والأول باطل لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد البتة فإن أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة، وأيضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان في زينة السماء فكأن الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض، وأما القسم الثاني: وهو أن يقال إن هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة في الفلك فهذا أيضا مشكل لأنه تعالى قال في سورة: تبارك الذي بيده الملك [الملك:

١] ، ولقد زينا السماء الدنيا/ بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين

[الملك: ٥] فالضمير في قوله: وجعلناها عائد إلى." (١)

"البحث الأول: قوله: فإنما جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هي إلا زجرة واحدة.

البحث الثاني: الضمير في قوله: فإنما هي ضمير على شريطة التفسير، والتقدير فإنما البعث زجرة واحدة.

البحث الثالث: الزجرة في اللغة الصيحة التي يزجر بها كالزجرة بالنعم والإبل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وإن لم يكن فيها معنى الزجر كما في هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال إن تلك الصيحة إنما سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور في موقف القيامة، فإذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى في قوله: ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون [الزمر: ٦٨] فبالنفخة الأولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون، وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في هذه الصيحة فإن القوم في تلك الساعة أموات لأن النفخة جارية مجرى ال سبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتا، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهي عبث والعبث لا يجوز في فعل الله والجواب: أما أصحابنا فيقولون يفعل الله ما يشاء، وأما المعتزلة فقال القاضي فيه ووجهان الأول: أن تعتبر بها الملائكة الثاني: أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب.

السؤال الثاني: هل لتلك الصيحة تأثير في إعادة الحياة؟ الجواب: لا، بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها في الموت ولا في الحياة، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال: الذي خلق الموت والحياة [الملك: ٢] .

السؤال الثالث: تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء؟ الجواب: الكل/ جائز إلا أنه روي أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادي: أيتها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعو ا بإذن الله تعالى:

اللفظ الرابع: من الألفاظ المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: فإذا هم ينظرون فيحتمل أن يكون المراد ينظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم إلى بعض وأن يكون المراد ينظرون إلى البعث الذي كذبوا به الحالة الثانية: من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا: يا ويلنا هذا يوم الدين قال الزجاج

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٨/٢٦

الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا: هذا يوم الدين أي يوم الجزاء هذا، والمقصود أن الله تعالى ذكر في آيات كثيرة من القرآن، أنا نرى في الدنيا محسنا ومسيئا وعاصيا وصديقا وزنديقا، ورأينا أنه لم يصل إليهم في الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول بإثبات القيامة: ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى [النجم: ٣١] وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء إنما يحصل بعد الموت، والكفار وإن سمعوا هذا الدليل القوي لكنهم أنكروا **وتمردوا** ثم إنه تعالى إذا أحياهم يوم القيامة فإذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون: هذا يوم الدين أي يوم الجزاء الذي ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه في القرآن فكفرنا بها، ونظيره أن من خوف بشيء ولم يتلفت إليه، ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا هاهنا، وفيه احتمال آخر وهو أنه تعالى قال في سورة الفاتحة مالك يوم الدين [الفاتحة: ٤] فبين أنه لا مالك في ذلك اليوم إلا الله فقولهم هذا يوم الدين، إشارة إلى أن." (١)

"والحميم الماء الحار المتناهي في الحرارة، والمعنى أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم، فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما.

واعلم أن الله وصف شرابهم في القرآن بأشياء منها كونه غساقا، ومنها قوله: وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم [محمد: ١٥] ومنها ما ذكره في هذه الآية، فإن قيل ما الفائدة في كلمة (ثم) في قوله: ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم؟ قلنا فيه وجهان الأول: أنهم يملؤون بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب، والثاني: أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه، فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول، ثم قال تعالى: ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم قال مقاتل: أي بعد أكل الزقوم وشرب الحميم، وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم، وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يوردون إلى الجحيم، فهذا قول مقاتل، واحتج على صحته بقوله تعالى: هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن [الرحمن: ٤٣، ٤٤] وذلك يدل على صحة ما ذكرناه، ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم في أكلهم وشربهم قال: إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون قال الفراء:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢٦/٢٦

الإهراع الإسراع يقال هرع وأهرع إذا استحث، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعا في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم، والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين وترك اتباع الدليل، ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى.

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له في كفرهم وتكذيبهم، فقال: ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فبين تعالى أن إرساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف، ويجب أن يكون له صلى الله عليه وسلم أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن **تمردوا**، فليس عليه إلا البلاغ.

ثم قال تعالى: فانظر كيف كان عاقبة المنذرين وهذا وإن كان في الظاهر خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم، فإن لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن/ يكون زاجرا لهم عن كفرهم. وقوله تعالى: إلا عباد الله المخلصين فيه قولان أحدهما: أنه استثناء من قوله: ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين والثاني: أنه استثناء من قوله: كيف كان عاقبة المنذرين [يونس: ٧٣] فإنها كانت أقبح العواقب وأفظعها إلا عاقبة عباد الله المخلصين، فإنها كانت مقرونة بالخير والراحة.

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٧٥ الى ٨٢]

ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧)

وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩)

إنا كذلك نجزي المحسنين (٨٠) إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢)

القصة الأولى- قصة نوح عليه السلام." (١)

"لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط ثانيها: الذين حصل لهم النفس والشهوة، ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهي البهائم وثالثها: الأشياء الخالية عن القسمين، وهي الجمادات وبقي في التقسيم قسم رابع: وهو الذي حصل فيه الأمران وهو الإنسان والمقصود من تخليق الإنسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر **والتمرد** فإن كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٨/٢٦

فقوله إني أعلم ما لا تعلمون يعني أن هذا النوع من المخلوقات، وإن حصلت فيه الشهوة الداعية إلى الفساد والغضب الحامل له على سفك الدماء، لكن حصل فيه العقل الذي يدعوه إلى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة، وإذا ثبت أنه تعالى إنما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الإنسان أن يسعى في تحصيل هذه الصفات، وأن يجتهد في اكتسابها، وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والإصرار والتكبر، وإذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعيا له إلى الجد والاجتهاد في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة زاجرا له عن أضدادها ومقابلاتها، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام في هذا المقام. فإن قيل الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء [البقرة: ٣٠] فإن المخاصمة مع الله كفر، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه، ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول: إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين يعني أنا ما عرفت هذه المخاصمة إلا بالوحي، وإنما أوحى الله إلي هذه القصة لأنذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الإخلاص في الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد.

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٧١ الى ٨٥]

إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين (٧١) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٧٢) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٧٣) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين (٧٤) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥)

قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠)

إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥)." [١]

"لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا، فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة، لأن الدنيا فانية ذاهبة، واحتج عليه بقوله تعالى: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم يعني لو

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠٨/٢٦

ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين **المتمردين**، ليست إلا الهلاك والبوار، مع أنهم كانوا أكثر عددا ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين، فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار، والحسرة والبوار، فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين، أما بيان أنهم كانوا أكثر من/ هؤلاء عددا فإنما يعرف في الأخبار، وأما أنهم كانوا أشد قوة وآثارا في الأرض، فلأنه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم، مثل الأهرام الموجودة بمصر، ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناها الملوك المتقدمون، ومثل ما حكى الله عنهم من أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا.

ثم قال تعالى: فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ما في قوله فما أغنى عنهم نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب، وما في قوله ما كانوا يكسبون موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم.

ثم بين تعالى أن أولئك الكفار لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات فرحوا بما عندهم من العلم، واعلم أن الضمير في قوله فرحوا يحتمل أن يكون عائدا إلى الكفار، وأن يكون عائدا إلى الرسل، أما إذا قلنا إنه عائد إلى الكفار، فذلك العلم الذي فرحوا به أي علم كان؟ وفيه وجوه الأول: أن يكون المراد الأشياء التي كانوا يسمونها بالعلم، وهي الشبهات التي حكاها الله عنهم في القرآن كقولهم وما يهلكنا إلا الدهر [الجاثية: ٢٤] وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا [الأنعام: ١٤٨] وقولهم من يحي العظام وهي رميم [يس: ٧٨] ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا [الكهف: ٣٦] وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الأنبياء، كما قال: كل حزب بما لديهم فرحون [المؤمنون: ٥٣] ، الثاني: يجوز أن يكون المراد علوم الفلاسفة، فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علومهم، وعن سقراط أنه سمع بمجيء بعض الأنبياء فقيل له لو هاجرت إليه فقال نحن قوم مهديون فلا حاجة بنا إلى من يهدينا الثالث: يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون [الروم: ٧] ، ذلك مبلغهم من العلم [النجم: ٣٠] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به. أما إذا قلنا الضمير عائد إلى الأنبياء ففيه وجهان الأول:

أن يجعل الفرح للرسل، ومعناه أن الرسل لما رأوا من قومهم جهلا كاملا، وإعراضا عن الحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم وإعراضهم، فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه، وحاق

بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم الثاني: أن يكون المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، كأنه قال استهزؤا بالبينات، وبما جاءوا به من علم الوحي فرحين، ويدل عليه قوله تعالى: وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن.

ثم قال تعالى: فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين البأس شدة العذاب ومنه قوله تعالى: بعذاب بئيس [الأعراف: ١٦٥] فإن قيل أي فرق بين قوله فلم يك ينفعهم إيمانهم وبين ما." [1]

"العذاب الدائم فلم لا ترجعون أنفسكم إلى الدنيا إن لم تكن الآخرة دار الإقامة، وأما على قوله: (مجزيين) فالتفسير مثل هذا كأنه قال: ستصدقون وقت النزع رسل الله في الحشر، فإن كنتم بعد ذلك غير مجزيين فلم لا ترجعون أنفسكم إلى دنياكم، فإن التعويق للجزاء لا غير، ولولا الجزاء لكنتم مختارين كما كنتم في دنياكم التي ليست دار الجزاء مختارين تكونون حيث تريدون من الأماكن، وأما على قولنا: مملوكين من الملك، ومنه المدينة للمملوكة، فالأمر أظهر بمعنى أنكم إذا كنتم لستم تحت قدرة أحد، فلم لا ترجعون أنفسكم إلى الدنيا كما كنتم في دنياكم التي ليست دار جزاء مع أن ذلك مشتهى أنفسكم ومنى قلوبكم، وكل ذلك عند التحقيق راجع إلى كلام واحد، وأنهم كانوا يأخذون بقول الفلاسفة في بعض الأشياء دون بعض، وكانوا يقولون بالطبائع، وأن الأمطار من السحب، وهي متولدة بأسباب فلكية، والنبات كذلك، والحيوان كذلك. ولا اختيار لله في شيء وسواء عليه إنكار الرسل والحشر، فقال تعالى: إن كان الأمر كما يقولون فما بال الطبيعي الذي يدعي العلم لا يقدر على أن يرجع النفس من الحلقوم، مع أن في الطبع عنده إمكانا لذلك، فإن عندهم البقاء بالغداء ولزوال الأمراض بالدواء، وإذا علم هذا فإن قلنا: غير مدينين معناه غير مملوكين رجع إلى قولهم من إنكار الاختيار وقلب الأمور كما يشاء الله، وإن قلنا: غير مقيمين فكذلك، لأن إنكار الحشر بناء على القول بالطبع، وإن قلنا:

غير/ محاسبين ومجزيين فكذلك، ثم لما بين أن الموت كائن والحشر بعده لازم، بين ما يكون بعد الحشر ليكون ذلك باعثا للمكلف على العمل الصالح، وزاجرا للمتمرد عن العصيان والكذب فقال:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٨٨ الى ٨٩]

فأما إن كان من المقربين (٨٨) فروح وريحان وجنة نعيم (٨٩)

هذا وجه تعلقه معنى، وأما تعلقه لفظا فنقول: لما قال: فلولا إن كنتم غيـر مدينين ترجعونها [الواقعة:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٣٥/٢٧

٨٦، ٨٧] وكان فيها أن رجوع الحياة والنفس إلى البدن ليس تحت قدرتهم ولا رجوع لهم بعد الموت إلى الدنيا صار كأنه قال: أنتم بعد الموت دائمون في دار الإقامة ومجزيون، فالمجزي إن كان من المقربين فله الروح والريحان، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في معنى الروح وفيه وجوه الأول: هو الرحمة قال تعالى: ولا تيأسوا من روح الله [يوسف: ٨٧] أي من رحمة الله الثاني: الراحة الثالث: الفرح، وأصل الروح السعة، ومنه الروح لسعة ما بين الرجلين دون الفحج، وقرئ، فروح بضم الراء بمعنى الرحمة.

المسألة الثانية: في الكلام إضمار تقديره: فله روح أفصحت الفاء عنه لكونه فاء الجزاء لربط الجملة بالشرط فعلم كونها جزاء، وكذلك إذا كان أمرا أو نهيا أو ماضيا، لأن الجزاء إذا كان مستقبلا يعلم كونه جزاء بالجزم الظاهر في السمع والخط، وهذه الأشياء التي ذكرت لا تحتمل الجزم، أما غير الأمر والنهي فظاهر، وأما الأمر والنهي فلأن الجزم فيهما ليس لكونهما جزاءين فلا علامة للجزاء فيه، فاختاروا الفاء فإنها لترتيب أمر على أمر، والجزاء مرتب على الشرط.

المسألة الثالثة: في الريحان، وقد تقدم تفسيره في قوله تعالى: ذو العصف والريحان [الرحمن: ١٢] ولكن هاهنا فيه كلام، فمنهم من قال: المراد هاهنا ما هو المراد ثمة، إما الورق وإما الزهر وإما النبات." (١)

"واعلم أن نظير هذه الآية قوله: الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان [الشورى: ١٧] وقال: والسماء رفعها ووضع الميزان [الرحمن: ٧] وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: في وجه المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد وجوه. أحدها: وهو الذي أقوله أن مدار التكليف على أمرين: أحدهما: فعل ما ينبغي فعله والثاني: ترك ما ينبغي تركه، والأول هو المقصود بالذات، لأن المقصود بالذات لو كان هو الترك لوجب أن لا يخلق أحد، لأن الترك كان حاصلا في الأزل، وأما فعل ما ينبغي فعله، فإما أن يكون متعلقا بالنفس، وهو المعارف، أو بالبدن وهو أعمال الجوارح، فالكتاب هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من/ الأفعال النفسانية، لأن يتميز الحق من الباطل، والحجة من الشبهة، والميزان هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال البدنية، فإن معظم التكاليف الشاقة في الأعمال هو ما يرجع إلى معاملة الخلق، والميزان هو الذي يتميز به العدل عن الظلم والزائد عن الناقض، وأما الجديد ففيه بأس شديد، وهو زاجر للخلق عما لا ينبغي، والحاصل أن الكتاب إشارة إلى القوة النظرية، والميزان إلى القوة العملية، والحديد إلى دفع مالا ينبغي، ولما كان أشرف الأقسام رعاية المصالح الروحانية، ثم رعاية

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣٧/٢٩

المصالح الجسمانية، ثم الزجر عما لا ينبغي، روعي هذا الترتيب في هذه الآية وثانيها: المعاملة إما مع الخالق وطريقها الكتاب أو مع الخلق وهم: إما الأحباب والمعاملة معهم بالسوية وهي بالميزان، أو مع الأعداء والمعاملة معهم بالسيف والحديد وثالثها: الأقوام ثلاثة: إما السابقون وهم يعاملون الخلق بمقتضى الكتاب، فينصفون ولا ينتصفون، ويحترزون عن مواقع الشبهات، وإما مقتصدون وهم الذين ينصفون وينتصفون، فلا بد لهم من الميزان، وإما ظالمون وهم الذين ينتصفون ولا ينصفون ولا بد لهم من الحديد والزجر ورابعها: الإنسان، إما أن يكون في مقام الحقيقة وهو مقام النفس المطمئنة ومقام المقربين، فههنا لا يسكن إلا إلى الله، ولا يعمل إلا بكتاب الله، كما قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب [الرعد: ٢٨] وإما أن يكون في مقام الطريقة وهو مقام النفس اللوامة، ومقام أصحاب اليمين، فلا بد له من الميزان في معرفة الأخلاق حتى يحترز عن طرفي الإفراط والتفريط، ويبقى على الصراط المستقيم وإما أن يكون في مقام الشريعة وهو مقام النفس الأمارة، وهاهنا لا بد له من هاهنا لا بد له من حديد المجاهدة والرياضيات الشاقة وخامسها: الإنسان إما أن يكون صاحب المكاشفة والوصول فلا أنس له إلا بالكتاب، أو صاحب الطلب والاستدلال فلا بد له من ميزان الدليل والحجة أو صاحب العناد واللجاج، فلا بد وأن ينفى من الأرض بالحديد وسادسها: أن الدين هو إما الأصول وإما الفروع، وبعبارة أخرى: إما المعارف وإما الأعمال، فالأصول من الكتاب، وأما الفروع: فالمقصود الأفعال التي فيها عدلهم ومصلحتهم وذلك بالميزان فإنه إشارة إلى رعاية العدل، والحديد لتأديب من ترك ذينك الطريقين وسابعها:

الكتاب إشارة إلى ما ذكر الله في كتابه من الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف، والميزان إشارة إلى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والإنصاف وهو شأن الملوك، والحديد إشارة إلى أنهم لو تمردوا لوجب أن يحملوا عليهما بالسيف، وهذا يدل على أن مرتبة العلماء وهم أرباب الكتاب مقدمة على مرتبة الملوك الذين هم أرباب السيف، ووجوه المناسبات كثيرة، وفيما ذكرناه تنبيه على الباقي.

المسألة الثانية: ذكروا في: إنزال الميزان وإنزال الحديد، قولين: الأول: أن الله تعالى أنزلهما من السماء، روي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مرقومك يزنوا به،

وعن ابن عباس." (١)

"عليم

وهو تحذير من المعاصي وترغيب في الطاعات.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٠/٢٩

[سورة المجادلة (٥٨) : آية ٨]
ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير (٨)
[في قوله تعالى ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه] ثم إنه تعالى بين حال أولئك الذين نهوا عن النجوى فقال: ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم/ يعودون لما نهوا عنه واختلفوا في أنهم من هم؟ فقال الأكثرون: هم اليهود، ومنهم من قال: هم المنافقون، ومنهم من قال: فريق من الكفار، والأول أقرب، لأنه تعالى حكى عنهم فقال: وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله، وهذا الجنس فيما روي وقع من اليهود، فقد كانوا إذا سلموا على الرسول عليه السلام قالوا: السام عليك، يعنون الموت، والأخبار في ذلك متظاهرة، وقصة عائشة فيها مشهورة.
[في قوله تعالى ويتناجون بالإثم والعدوان إلى قوله لولا يعذبنا الله بما نقول] ثم قال تعالى: ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول وفيه مسألتان:
المسألة الأولى: قال المفسرون: إنه صح أن أولئك الأقوام كانوا يتناجون فيما بينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم، فيحزنون لذلك، فلما أكثروا ذلك شكا المسلمون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقوله:
ويتناجون بالإثم والعدوان يحتمل وجهين أحدهما: أن الإثم والعدوان هو مخالفتهم للرسل في النهي عن النجوى لأن الإقدام على المنهي يوجب الإثم والعدوان، سيما إذا كان ذلك الإقدام لأجل المناصبة وإظهار التمرد. والثاني: أن الإثم والعدوان هو ذلك السر الذي كان يجري بينهم، لأنه إما مكر وكيد بالمسلمين أو شيء يسوءهم.
المسألة الثانية: قرأ حمزة وحده، (ويتنجون) بغير ألف، والباقون: يتناجون، قال أبو علي: ينتجون يفتعلون من النجوى، والنجوى مصدر كالدعوى والعدوى، فينتجون ويتناجون واحد، فإن يفتعلون، ويتفاعلون، قد يجريان مجرى واحد، كما يقال: ازدوجوا، واعتوروا، وتزاوجوا وتعاوروا، وقوله تعالى:
حتى إذا اداركوا فيها [الأعراف: ٣٨] وادركوا فأدركوا افتعلوا، وأدركوا تفاعلوا وحجة من قرأ:

يتناجون، قوله: إذا ناجيتم الرسول [المجادلة: ١٢] وتناجوا بالبر والتقوى [المجادلة: ٩] فهذا مطاوع ناجيتم، وليس في هذا رد لقراءة حمزة: ينتجون، لأن هذا مثله في الجواز، وقوله تعالى: ومعصية الرسول قال صاحب «الكشاف» : قرئ (ومعصيات الرسول) ، والقولان هاهنا كما ذكرناه في الإثم والعدوان وقوله: وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله يعني أنهم يقولون في تحيتك، السام عليك يا محمد والسام الموت، والله تعالى يقول: وسلام على عباده الذين اصطفى [النمل: ٥٩] ويا أيها الرسول ويا أيها النبي ثم ذكر تعالى أنهم يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول يعني أنهم/ يقولون في أنفسهم: إنه لو كان رسولا فلم لا يعذبنا الله بهذا الاستخفاف.

ثم قال تعالى: حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير والمعنى أن تقدم العذاب إنما يكون بحسب." (١)

"والأحكام والأسماء، وقد شرحناه في أول سورة الحديد، ومضى شيء منه في تفسير قوله: ونقدس لك [البقرة: ٣٠] وقال الحسن: إنه الذي كثرت بركاته.

وقوله: السلام فيه ووجهان الأول: أنه بمعنى السلامة ومنه دار السلام، وسلام عليكم وصف به مبالغة في كونه سليما من النقائض كما يقال: رجاء، وغياث، وعدل فإن قيل فعلى هذا التفسير لا يبقى بين القدوس، وبين السلام فرق، والتكرار خلاف الأصل، قلنا: كونه قدوسا، إشارة إلى براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر، كونه: سليما، إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل فإن الذي يطرأ عليه شيء من العيوب، فإنه تزول سلامته ولا يبقى سليما الثاني: أنه سلام بمعنى كونه موجبا للسلامة.

وقوله: المؤمن فيه ووجهان الأول: أنه الذي آمن أولياء عذابه، يقال: آمنه يؤمنه فهو مؤمن والثاني:

أنه المصدق، إما على معنى أنه يصدق أنبياءه بإظهار المعجزة لهم، أو لأجل أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يشهدون لسائر الأنبياء، كما قال: لتكونوا شهداء على الناس [البقرة: ١٤٣] ثم إن الله يصدقهم في تلك الشهادة، وقرئ بفتح الميم، يعني المؤمن به على حذف الجار كما حذف في قوله: واختار موسى قومه [الأعراف: ١٥٥] .

وقوله: المهيمن قالوا: معناه الشاهد الذي لا يغيب عنه شيء. ثم في أصله قولان، قال الخليل وأبو عبيدة: هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيب على الشيء، وقال آخرون: مهيمن أصله مؤيمن، من آمن يؤمن، فيكون بمعنى المؤمن، وقد تقدم استقصاؤه عند قوله: ومهيمنا عليه [المائدة: ٤٨] وقال ابن الأنباري: المهيمن القائم على خلقه برزقه وأنشد:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٩١/٢٩

ألا إن خير الناس بعد نبيه ... مهيمنه التاليه في العرف والنكر

قال معناه: القائم على الناس بعده.

وأما العزيز فهو إما الذي لا يوجد له نظير، وإما الغالب القاهر.

وأما الجبار ففيه وجوه أحدها: أنه فعال من جبر إذا أغنى الفقير، وأصلح الكسير. قال الأزهري:

وهو لعمري جابر كل كسير وفقير، وهو جابر دينه الذي ارتضاه، قال العجاج:

«قد جبر الدين الإله فجبر» .

والثاني: أن يكون الجبار من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراده، قال السدي: إنه الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما أراده، قال الأزهري: هي لغة تميم، وكثير من الحجازيين يقولونها، وكان الشافعي يقول: جبره السلطان على كذا بغير ألف. وجعل الفراء الجبار بهذا معنى/ من أجبره، وهي اللغة المعروفة في الإكراه، فقال: لم أسمع فعالا من أفعل إلا في حرفين، وهما جبار من أجبر، ودراك من أدرك، وعلى هذا القول الجبار هو القهار الثالث: قال ابن الأنباري: الجبار في صفة الله الذي لا ينال، ومنه قيل للنخلة التي فاتت يد المتناول: جبارة الرابع: قال ابن عباس: الجبار، هو الملك العظيم، قال الواحدي: هذا الذي ذكرناه من معاني الجبار في صفة الله، وللجبار معان في صفة الخلق أحدها: المسلط كقوله: وما أنت عليهم بجبار [ق: ٤٥] ، والثاني: العظيم الجسم كقوله: إن فيها قوما جبارين [المائدة: ٢٢] والثالث: **المتمرد** عن عبادة الله، كقوله: ولم يجعلني جبارا [مريم: ٣٢] ، «والرابع: القتال كقوله: بطشتم جبارين [الشعراء: ١٣٠]." (١)

"به لقوله: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها [البقرة: ٢٨٦] وأما من حيث النقل فلقوله عليه الصلاة والسلام «رفع القلم عن ثلاث» ، فلما عوتب عليه دل على أن ذلك لم يكن على سبيل النسيان. لأنا نقول: أما الجواب عن الأول فهو أنا لا نسلم أن آدم وحواء قبلا من إبليس ذلك الكلام ولا صدقاه فيه، لأنهما لو صدقاه لكانت معصيتهما في هذا التصديق أعظم من أكل الشجرة، لأن إبليس لما قال لهما: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. فقد ألقى إليهما سوء الظن بالله ودعاهما إلى ترك التسليم لأمره والرضا بحكمه وإلى أن يعتقدا فيه كون إبليس ناصحا لهما وأن الرب تعالى قد غشهما ولا شك أن هذه الأشياء أعظم من أكل الشجرة، فوجب أن تكون المعاتبة في ذلك أشد وأيضا كان آدم عليه السلام عالما **بتمرد** إبليس عن السجود وكونه مبغضا له وحاسدا له على ما آتاه الله من النعم،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١٣/٢٩

فكيف يجوز من العاقل أن يقبل قول عدوه مع هذه القرائن وليس في الآية أنهما أقدما على ذلك الفعل عند ذلك الكلام أو بعده، ويدل على أن آدم كان عالما بعداوته لقوله تعالى: إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى [طه: ١١٧] . وأما ما روي عن ابن عباس فهو أثر مروي بالآحاد، فكيف يعارض القرآن؟ وأما الجواب عن الثاني: فهو أن العتاب إنما حصل على ترك/ التحفظ من أسباب النسيان، وهذا الضرب من السهو موضوع عن المسلمين وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به، وليس بموضوع عن الأنبياء لعظم خطرهم ومثلوه بقوله تعالى: يا نساء النبي لستن كأحد من النساء [الأحزاب: ٣٢] ، ثم قال: من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين [الأحزاب: ٣٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» .

وقال أيضا: «إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم» ،

فإن قيل كيف يجوز أن يؤثر عظم حالهم وعلو منزلتهم في حصول شرط في تكليفهم دون تكليف غيرهم؟ قلنا أما سمعت: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ، ولقد كان على النبي صلى الله عليه وسلم من التشديدات في التكليف ما لم يكن على غيره. فهذا في تقرير أنه صدر ذلك عن آدم عليه السلام على جهة السهو والنسيان. ورأيت في بعض التفاسير أن حواء سقته الخمر حتى سكر ثم في أثناء السكر فعل ذلك. قالوا: وهذا ليس ببعيد لأنه عليه السلام كان مأذونا له في تناول كل الأشياء سوى تلك الشجرة، فإذا حملنا الشجرة على البر، كان مأذونا في تناول الخمر، ولقائل أن يقول: إن خمر الجنة لا يسكر، لقوله تعالى في صفة خمر الجنة: لا فيها غول [الصافات: ٤٧] . أما القول الثاني: وهو أنه عليه السلام فعله عامدا فههنا أربعة أقوال: أحدها: أن ذلك النهي كان نهي تنزيه لا نهي تحريم، وقد تقدم الكلام في هذا القول وعلته.

الثاني: أنه كان ذلك عمدا من آدم عليه السلام وكان ذلك كبيرة مع أن آدم عليه السلام كان في ذلك الوقت نبيا، وقد عرفت فساد هذا القول. الثالث: أنه عليه السلام فعله عمدا، لكن كان معه من الوجل والفزع والإشفاق ما صير ذلك في حكم الصغيرة، وهذا القول أيضا باطل بالدلائل المتقدمة لأن المقدم على ترك الواجب أو فعل المنهي عمدا وإن فعله مع الخوف إلا أنه يكون مع ذلك عاصيا مستحقا للعن والذم والخلود في النار، ولا يصح وصف الأنبياء عليهم السلام بذلك، ولأنه تعالى وصفه بالنسيان في قوله: فنسي ولم نجد له عزما [طه: ١١٥] ، وذلك ينافي العمدية. القول الرابع: وهو اختيار أكثر المعتزلة: أنه عليه السلام أقدم على الأكل بسبب اجتهاد أخطأ فيه، وذلك لا يقتضي كون الذنب كبيرة، بيان الاجتهاد

الخطأ أنه لما قيل له: ولا تقربا هذه الشجرة فلفظ هذه قد يشار به إلى الشخص، وقد يشار به إلى النوع، وروي أنه عليه السلام أخذ حريرا وذهبا بيده وقال: «هذان حل لإناث أمتي حرام على ذكورهم» ،
وأراد به نوعهما،
وروي أنه عليه الصلاة." (١)

"مخاطبون بفروع الشرائع. أما قوله تعالى: واركعوا مع الراكعين [البقرة: ٤٣] ففيه وجوه أحدها: أن اليهود لا ركوع في صلاتهم فخص الله الركوع بالذكر تحريضا لهم على الإتيان بصلاة المسلمين، وثانيها: أن المراد صلوا مع المصلين، وعلى هذا يزول التكرار لأن في الأول أمر تعالى بإقامتها وأمر في الثاني بفعلها في الجماعة، وثالثها: أن يكون المراد من الأمر بالركوع هو الأمر بالخضوع لأن الركوع والخضوع في اللغة سواء فيكون نهيا عن الاستكبار المذموم وأمرا بالتذلل كما قال للمؤمنين: فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين [المائدة: ٥٤] وكقوله تأديبا لرسوله عليه السلام: واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين [الشعراء: ٢١٥] وكمدحه له بقوله: فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك [آل عمران: ١٥٩] وهكذا في قوله تعالى: إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون [المائدة: ٥٥] فكأنه تعالى لما أمرهم بالصلاة والزكاة أمرهم بعد ذلك بالانقياد والخضوع وترك التمرد. وحكى الأصم عن بعضهم أنه إنما أمر الله تعالى بني إسرائيل بالزكاة لأنهم كانوا لا يؤتون الزكاة وهو المراد بقوله تعالى: وأكلهم السحت [المائدة: ٦٢، ٦٣] وبقوله:
وأخذهم الربوا ... وأكلهم أموال الناس بالباطل [النساء: ١٦١] فأظهر الله تعالى في هذا الموضع ما كان مكتوبا ليحذروا أن يفضحهم في سائر أسرارهم ومعاصيهم فيصير هذا كالإخبار عن الغيب الذي هو أحد دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

[سورة البقرة (٢) : آية ٤٤]
أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون (٤٤)
اعلم أن الهمزة في أتأمرون الناس بالبر للتقرير مع التقريع والتعجب من حالهم، وأما البر فهو اسم جامع لأعمال الخير، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما، ومنه عمل مبرور، أي قد رضيه الله تعالى وقد يكون بمعنى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦٠/٣

الصدق كما يقال بر في يمينه أي صدق ولم يحنث، ويقال: صدقت وبررت، وقال تعالى: ولكن البر من اتقى [البقرة: ١٨٩] فأخبر أن البر جامع للتقوى، واعلم أنه سبحانه/ وتعالى لما أمر بالإيمان والشرائع بناء على ما خصهم به من النعم ورغبهم في ذلك بناء على مأخذ آخر، وهو أن التغافل عن أعمال البر مع حث الناس عليها مستقبح في العقول، إذ المقصود من أمر الناس بذلك إما النصيحة أو الشفقة، وليس من العقل أن يشفق الإنسان على غيره أو أن ينصح غيره ويهمل نفسه فحذرهم الله تعالى من ذلك بأن قرعهم بهذا الكلام. واختلفوا في المراد بالبر في هذا الموضع على وجوه، أحدها: وهو قول السدي أنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وينهونهم عن معصية الله، وهم كانوا يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية، وثانيها: قول ابن جريج أنهم كانوا يأمرون الناس بالصلاة والزكاة وهم كانوا يتركونهما. وثالثها: أنه إذا جاءهم أحد في الخفية لاستعلام أمر محمد صلى الله عليه وسلم قالوا: هو صادق فيما يقول وأمره حق فاتبعوه، وهم كانوا لا يتبعونه لطمعهم في الهدايا والصلاة التي كانت تصل إليهم من أتباعهم، ورابعها: أن جماعة من اليهود كانوا قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم يخبرون مشركي العرب أن رسولا سيظهر منكم ويدعو إلى الحق وكانوا يرغبونهم باتباعه فلما بعث الله محمدا حسدوه وكفروا به، فبكتهم الله تعالى بسبب أنهم كانوا يأمرون باتباعه قبل ظهوره، فلما ظهر تركوه وأعرضوا عن دينه، وهذا اختيار أبي مسلم، وخامسها: وهو قول الزجاج أنهم كانوا يأمرون الناس ببذل الصدقة، وكانوا يشحون بها لأن الله تعالى وصفهم بقساوة القلوب وأكل الربا والسحت، وسادسها: لعل المنافقين من اليهود كانوا يأمرون باتباع." (١)

"وقد سوى بين أولاده في العطية فانتفع بعضهم: لولا أن أباك فضلك لكنت فقيرا، وهذا الجواب ضعيف لأن أهل اللغة نصوا على أن: «لولا» تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره وبعد ثبوت هذه المقدمة فكلام الكعبي ساقط جدا.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٦٥ الى ٦٦]

ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين (٦٥) فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين (٦٦)

اعلم أنه تعالى لما عدد وجوه إنعامه عليهم أولا ختم ذلك بشرح بعض ما وجه إليهم من التشديدات، وهذا هو النوع الأول وفيه مسائل:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٨٧/٣

المسألة الأولى: روي عن ابن عباس أن هؤلاء القوم كانوا في زمان داود عليه السلام بأيلة على ساحل البحر بين المدينة والشام وهو مكان من البحر يجتمع إليه الحيتان من كل أرض في شهر من السنة حتى لا يرى الماء لكثرتها وفي غير ذلك الشهر في كل سبت خاصة وهي القرية المذكورة في قوله: وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت [الأعراف: ١٦٣] فحفروا حياضا عند البحر وشرعوا إليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم، ثم إنهم أخذوا السمك واستغنوا بذلك وهم خائفون من العقوبة فلما طال/ العهد استسن الأبناء بسنة الآباء واتخذوا الأموال فمشى إليهم طوائف من أهل المدينة الذين كرهوا الصيد يوم السبت ونهوهم فلم ينتهوا وقالوا: نحن في هذا العمل منذ زمان فما زادنا الله به إلا خيرا، فقيل لهم: لا تغتروا فربما نزل بكم العذاب والهلاك فأصبح القوم وهم قردة خاسئون فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا.

المسألة الثانية: المقصود من ذكر هذه القصة أمران. الأول: إظهار معجزة محمد عليه السلام فإن قوله: ولقد علمتم كالخطاب لليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه السلام فلما أخبرهم محمد عليه السلام عن هذه الواقعة مع أنه كان أميا لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط القوم دل ذلك على أنه عليه السلام إنما عرفه من الوحي. الثاني: أنه تعالى لما أخبرهم بما عامل به أصحاب السبت فكأنه يقول لهم أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم ونظيره قوله تعالى: يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها [النساء: ٤٧].

المسألة الثالثة: الكلام فيه حذف كأنه قال: ولقد علمتم اعتداء من اعتدى منكم في السبت لكي يكون المذكور من العقوبة جزاء لذلك، ولفظ الاعتداء يدل على أن الذي فعلوه في السبت كان محرما عليهم وتفصيل ذلك غير مذكور في هذه الآية لكنه مذكور في قوله: وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ثم يحتمل أن يقال: إنهم إنما تعدوا في ذلك الاصطياد فقط، وأن يقال: إنما تعدوا لأنهم اصطادوا مع أنهم استحلوا ذلك الاصطياد.

المسألة الرابعة: قال صاحب الكشاف: السبت مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت. فإن قيل: لما كان الله نهاهم عن الاصطياد يوم السبت فما الحكمة في أن أكثر الحيتان يوم السبت دون سائر الأيام كما قال:

تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم [الأعراف: ١٦٣] وهل هذا إلا."
(١)

"[سورة البقرة (٢) : آية ٧٤]

ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون (٧٤)

اعلم أن قوله تعالى: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فيه مسائل:

المسألة الأولى: الشيء الذي من شأنه بأصل ذاته أن يقبل الأثر عن شيء آخر ثم إنه عرض لذلك القابل ما لأجله صار بحيث لا يقبل الأثر فيقال لذلك القابل: إنه صار صلبا غليظا قاسيا، فالجسم من حيث إنه جسم يقبل الأثر عن الغير إلا أن صفة الحجرية لما عرضت للجسم صار/ جسم الحجر غير قابل وكذلك القلب من شأنه أن يتأثر عن مطالعة الدلائل والآيات والعبر وتأثره عبارة عن ترك **التمرد** والعتو والاستكبار وإظهار الطاعة والخضوع لله والخوف من الله تعالى، فإذا عرض للقلب عارض أخرجه عن هذه الصفة صار في عدم التأثر شبيها بالحجر فيقال: قسا القلب وغلظ، ولذلك كأن الله تعالى وصف المؤمنين بالرقة فقال: كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم [الزمر: ٢٣] .

المسألة الثانية: قال القفال: يجوز أن يكون المخاطبون بقوله: قلوبكم أهل الكتاب الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم، أي اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التي جاءت أوائلكم والأمور التي جرت عليهم والعقاب الذي نزل بمن أصر على المعصية منهم والآيات التي جاءهم بها أنبياؤهم والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم، فأخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التي تلين عندها القلوب، وهذا أولى لأن قوله تعالى: ثم قست قلوبكم خطاب مشافهة، فحمله على الحاضرين أولى، ويحتمل أيضا أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام خصوصا، ويجوز أن يريد من قبلهم من سلفهم.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: من بعد ذلك يحتمل أن يكون المراد من بعد ما أظهره الله تعالى من إحياء ذلك القتيل عند ضربه بعض البقرة المذبوحة حتى عين القاتل، فإنه روي أن ذلك القتيل لما عين القاتل نسبه القاتل إلى الكذب وما ترك الإنكار، بل طلب الفتنة وساعده عليه جمع، فعنده قال تعالى واصفا لهم: إنهم بعد ظهور مثل هذه الآية قست قلوبهم، أي صارت قلوبهم بعد ظهور مثل هذه الآية في القسوة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٥٤٠

كالحجارة ويحتمل أن يكون قوله: من بعد ذلك إشارة إلى جميع ما عدد الله سبحانه من النعم العظيمة والآيات الباهرة التي أظهرها على يد موسى عليه السلام، فإن أولئك اليهود بعد أن كثرت مشاهدتهم لها ما خلوا من العناد والاعتراض على موسى عليه السلام وذلك بين في أخبارهم في التيه لمن نظر فيها.
أما قوله تعالى: أو أشد قسوة فيه مسائل.
المسألة الأولى: كلمة «أو» للترديد وهي لا تليق بعلام الغيوب، فلا بد من التأويل وهو وجوه. أحدها: أنها بمعنى الواو كقوله تعالى: إلى مائة ألف أو يزيدون [الصافات: ١٤٧] بمعنى ويزيدون، وكقوله تعالى: ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن [النور: ٣١] والمعنى وآبائهن وكقوله: أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم [النور: ٦١] يعني وبيوت آبائكم. ومن نظائره قوله تعالى: لعله يتذكر أو يخشى [طه: ٤٤] ، فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا [المرسلات: ٥، ٦] . وثانيها: أنه تعالى أراد أن يبهمه على العباد فقال ذلك كما." (١)

"اعلم أنه سبحانه لما ذكر قبائح أفعال أسلاف اليهود إلى هاهنا، شرح من هنا قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد صلى الله عليه وسلم، قال القفال رحمه الله: إن فيما ذكره الله تعالى في هذه السورة من أقاصيص بني إسرائيل وجوها من المقصد، أحدها: الدلالة بها على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر عنها من غير تعلم، وذلك لا يمكن أن يكون إلا بالوحي ويشترك في الانتفاع بهذه الدلالة أهل الكتاب والعرب، أما أهل الكتاب فلأنهم كانوا يعلمون هذه القصص فلما سمعوها من محمد من غير تفاوت أصلا، علموا لا محالة أنه ما أخذها إلا من الوحي. وأما العرب فلما يشاهدون من أن أهل الكتاب يصدقون محمدا في هذه الأخبار. وثانيها: تعديد النعم على بني إسرائيل وما من الله تعالى به على أسلافهم من أنواع الكرامة والفضل كالإنجاء من آل فرعون بعد ما كانوا مقهورين مستعبدين ونصره إياهم وجعلهم أنبياء وملوكا وتمكينه لهم في الأرض وفرقه بهم البحر وإهلاكه عدوهم وإنزاله النور والبيان عليهم بواسطة إنزال التوراة والصفح عن الذنوب التي ارتكبوها من عبادة العجل ونقض المواثيق ومسألة النظر إلى الله جهرة، ثم ما أخرجه لهم في التيه من الماء العذب من الحجر وإنزاله عليهم المن والسلوى ووقايتهم من حر الشمس بتظليل الغمام، فذكرهم الله هذه النعم القديمة والحديثة، وثالثها: إخبار النبي عليه السلام/ بتقديم كفرهم وخلافهم وشقاقهم وتعنتهم مع الأنبياء ومعاندتهم لهم وبلوغهم في ذلك ما لم يبلغه أحد من الأمم قبلهم، وذلك لأنهم بعد مشاهدتهم الآيات الباهرة عبدوا العجل بعد مفارقة موسى عليه السلام إياهم

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٥٥٥

بالمدة اليسيرة، فدل على بلادتهم، ثم لما أمروا بدخول الباب سجدا وأن يقولوا حطة ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم ويزيد في ثواب محسنهم بدلوا القول وفسقوا، ثم سألوا الفوم والبصل بدل المن والسلوى، ثم امتنعوا من قبول التوراة بعد إيمانهم بموسى وضمانهم له بالمواثيق أن يؤمنوا به وينقادوا لما يأتي به حتى رفع فوقهم الجبل ثم استحلوا الصيد في السبت واعتدوا، ثم لما أمروا بذبح البقرة شافهوا موسى عليه السلام بقولهم: أتتخذنا هزوا [البقرة: ٦٧] ، ثم لما شاهدوا إحياء الموتى ازدادوا قسوة، فكأن الله تعالى يقول: إذا كانت هذه أفعالهم فيما بينهم ومعاملاتهم مع نبيهم الذي أعزهم الله به وأنقذهم من الرق والآفة بسببه، فغير بديع ما يعامل به أخلافهم محمدا عليه السلام، فليهن عليكم أيها النبي والمؤمنون ما ترونه من عنادهم وإعراضهم عن الحق. ورابعها: تحذير أهل الكتاب الموجودين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من نزول العذاب عليهم كما نزل بأسلافهم في تلك الوقائع المعدودة. وخامسها: تحذير مشركي العرب أن ينزل العذاب عليهم كما نزل على أولئك اليهود، وسادسها: أنه احتجاج على مشركي العرب المنكرين للإعادة مع إقرارهم بالابتداء، وهو المراد من قوله تعالى: كذلك يحي الله الموتى
[البقرة: ٧٣] إذا عرفت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان شديد الحرص على الدعاء إلى الحق وقبولهم الإيمان منه، وكان يضيق صدره بسبب عنادهم **وتمردهم**، فقص الله تعالى عليه أخبار بني إسرائيل في العناد العظيم مع مشاهدة الآيات الباهرة تسلية لرسوله فيما يظهر من أهل الكتاب في زمانه من قلة القبول والاستجابة، فقال تعالى: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وهاهنا مسائل:
المسألة الأولى: في قوله تعالى: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وجهان: الأول: وهو قول ابن عباس أنه خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لأنه هو الداعي وهو المقصود بالاستجابة واللفظ وإن كان للعموم، لكنا حملناه على الخصوص لهذه القرينة،
روي أنه عليه السلام حين دخل المدينة ودعا اليهود إلى كتاب الله وكذبوه فأنزل الله." (١)
"تعالى هذه الآية.
الثاني: وهو قول الحسن أنه خطاب مع الرسول والمؤمنين. قال القاضي: وهذا أليق بالظاهر لأنه عليه السلام وإن كان الأصل في الدعاء فقد كان في الصحابة من يدعوهم إلى الإيمان ويظهر لهم الدلائل وينبههم عليها، فصح أن يقول تعالى: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ويريد به الرسول ومن هذا حاله من أصحابه وإذا كان ذلك صحيحا فلا وجه لترك الظاهر.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير ال كبير الرازي، فخر الدين ٥٥٩/٣

المسألة الثانية: المراد بقوله: أن يؤمنوا لكم هم اليهود الذين كانوا في زمن الرسول عليه السلام لأنهم الذين يصح فيهم الطمع في أن يؤمنوا وخلافه لأن الطمع إنما يصح في المستقبل لا في الواقع.

المسألة الثالثة: ذكروا في سبب الاستبعاد وجوها. أحدها: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع أنهم ما آمنوا بموسى عليه السلام، وكان هو السبب في أن الله خلصهم من الذل وفضلهم على الكل، ومع ظهور المعجزات المتوالية على يده وظهور أنواع العذاب على **المتمردين**. الثاني: أفتطمعون أن يؤمنوا ويظهروا التصديق ومن علم منهم الحق لم يعترف بذلك، بل غيره وبدله. الثالث: أفتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء من طريق النظر والاستدلال وكيف وقد كان فريق من أسلافهم يسمعون كلام الله ويعلمون أنه حق ثم يعاندونه.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: القوم مكلفون بأن يؤمنوا بالله. فما الفائدة في قوله: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم [العنكبوت: ٢٦] الجواب: أنه يكون إقرارا لهم بما دعوا إليه ولو كان الإيمان لله كما قال تعالى: فآمن له لوط لما أقر بنبوته وبتصديقه، ويجوز أن يراد بذلك أن يؤمنوا لأجلكم ولأجل تشددكم في دعائهم إليه فيكون هذا معنى الإضافة.

أما قوله تعالى: وقد كان فريق منهم فقد اختلفوا في ذلك الفريق، منهم من قال: المراد بالفريق من كان في أيام موسى عليه السلام لأنه تعالى وصف هذا الفريق بأنهم يسمعون كلام الله. والذين سمعوا كلام الله هم أهل الميقات، ومنهم من قال: بل المراد بالفريق من كان في زمن محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا أقرب لأن الضمير في قوله تعالى: وقد كان فريق منهم راجع إلى ما تقدم وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد بينا أن الذين تعلق الطمع بإيمانهم هم الذين كانوا في زمن محمد عليه الصلاة والسلام. فإن قيل: الذين سمعوا كلام الله هم الذين حضروا الميقات، قلنا: لا نسلم بل قد يجوز فيمن سمع التوراة أن يقال: إنه سمع كلام الله كما يقال لأحدنا سمع كلام الله إذا قرئ عليه القرآن.

أما قوله تعالى: ثم يحرفونه ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال القفال: التحريف التغيير والتبديل وأصله من الانحراف عن الشيء والتحريف عنه، قال تعالى: إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة [الأنفال: ١٦] والتحريف هو إمالة الشيء عن حقه، يقال: قلم محرف إذا كان رأسه قط مائلا غير مستقيم.

المسألة الثانية: قال القاضي: إن التحريف إما أن يكون في اللفظ أو في المعنى، وحمل التحريف على تغيير اللفظ أولى من حمله على تغيير المعنى، لأن كلام الله تعالى إذا كان باقيا على جهته وغيروا تأويله فإنما يكونون مغيرين لمعناه لا لنفس الكلام المسموع، فإن أمكن أن يحمل على ذلك كما روي عن ابن

عباس من أنهم زادوا فيه ونقصوا فهو أولى، وإن لم يمكن ذلك فيجب أن يحمل على تغيير تأويله وإن كان التنزيل ثابتا،." (١)

"بالسوء لمن ظلم، ثم إن القائلين بهذا القول منهم من زعم أن هذا الأمر صار منسوخا بآية القتال، ومنهم من قال: إنه دخله التخصيص، وعلى هذا التقدير يحصل هاهنا احتمالان، أحدهما: أن يكون التخصيص واقعا بحسب المخاطب وهو أن يكون المراد وقولوا للمؤمنين حسنا. والثاني: أن يقع بحسب المخاطب وهو أن يكون المراد قولوا للناس حسنا في الدعاء إلى الله تعالى وفي الأمر المعروف، فعلى الوجه الأول: يتطرق التخصيص إلى المخاطب دون الخطاب وعلى الثاني: يتطرق إلى الخطاب دون المخاطب، وزعم أبو جعفر محمد بن علي الباقر أن هذا العموم باق على ظاهره وأنه لا حاجة إلى التخصيص، وهذا هو الأقوى والدليل عليه أن موسى وهارون مع جلال منصبهما أمرا بالرفق واللين مع فرعون، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم مأمور بالرفق وترك الغلظة وكذلك قوله تعالى: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة [النحل: ١٢٥] وقال تعالى:

ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم [الأنعام: ١٠٨] وقوله: وإذا مروا باللغو مروا كراما [الفرقان: ٧٢] وقوله: وأعرض عن الجاهلين [الأعراف: ١٩٩] أما الذي تمسكوا به أولا من أنه يجب لعنهم وذمهم فلا يمكنهم القول الحسن معهم، قلنا: أولا لا نسلم أنه يجب لعنهم وسبهم والدليل عليه قوله تعالى: ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله [الأنعام: ١٠٨] سلمنا أنه يجب لعنهم لكن لا نسلم أن اللعن ليس قولا حسنا بيانه: أن القول الحسن ليس عبارة عن القول الذي يشتهونه ويحبونه، بل القول الحسن هو الذي يحصل انتفاعهم به ونحن إذا لعناهم وذممناهم ليرتدعوا به عن الفعل القبيح كان ذلك المعنى نافعا في حقهم فكان ذلك اللعن قولا حسنا ونافعا، كما أن تغليظ الوالد في القول قد يكون حسنا ونافعا من حيث إنه يرتدع به عن الفعل القبيح، سلمنا أن لعنهم ليس قولا حسنا ولكن لا نسلم أن وجوبه ينافي وجوب القول الحسن، بيانه أنه لا منافاة بين كون الشخص مستحقا للتعظيم بسبب إحسانه إلينا ومستحقا للتحقير بسبب كفره، وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يكون وجوب القول الحسن معهم، وأما الذي تمسكوا به ثانيا وهو قوله تعالى:

لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم [النساء: ١٤٨] فالجواب لم لا يجوز أن يكون المراد منه كشف حال الظالم/ ليحترز الناس عنه؟ وهو المراد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٦٠/٣

بقوله صلى الله عليه وسلم: «اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس» .
المسألة الخامسة: قال أهل التحقيق: كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان وهو مع الكفار أو في الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق، أما الدعوة إلى الإيمان فلا بد وأن تكون بالقول الحسن كما قال تعالى لموسى وهارون: فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى [طه: ٤٤] أمرهما الله تعالى بالرفق مع فرعون مع جلالتهما ونهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله تعالى، وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك [آل عمران: ١٥٩] الآية، وأما دعوة الفساق فالقول الحسن فيه معتبر، قال تعالى: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة
[النحل: ١٢٥] وقال: ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم [فصلت: ٣٤] وأما في الأمور الدنيوية فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف من القول لم يحسن سواه، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله تعالى:
وقولوا للناس حسنا.
المسألة السادسة: ظاهر الآية يدل على أن الإحسان إلى ذي القربى واليتامى والمساكين كان واجبا عليهم في دينهم،." (١)

"عدو جبريل فقال عمر، فإني أشهد أن من كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكائيل وهما عدوان لمن عاداهما فأنكر ذلك على عمر فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين.
وثانيها:
روي أنه كان لعمر أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدراس اليهود وكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا: يا عمر قد أحببناك وإنا لنطمع فيك فقال: والله ما أجيئكم لحبكم ولا أسألكم لأني شاك في ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره في كتابكم، ثم سألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمدا على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلم فقال لهم: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: أقرب منزلة، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وميكائيل عدوا لجبريل فقال عمر: لئن كان كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو لأحدهما كان عدوا للآخر ومن كان عدوا لهما كان عدوا لله، ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٨٩/٣

قد سبقه بالوحي فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد وافقك ربك يا عمر» قال عمر: لقد رأيتني في دين بعد ذلك أصلب من الحجر،

وثالثها: قال مقاتل زعمت اليهود أن جبريل عليه السلام عدونا، أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فأنزل الله هذه الآيات.

واعلم أن الأقرب أن يكون سبب عداوتهم له أنه كان ينزل القرآن على محمد عليه السلام لأن قوله: من كان عدوا لجبريل، فإنه نزله على قلبك بإذن الله مشعر بأن هذا التنزيل لا ينبغي أن يكون سببا للعداوة لأنه إنما فعل ذلك بأمر الله فلا ينبغي أن يكون سببا للعداوة وتقرير هذا من وجوه، أولها: أن الذي نزله جبريل من القرآن بشارة المطيعين بالثواب وإنذار العصاة بالعقاب والأمر بالمحاربة والمقاتلة لما لم يكن ذلك باختياره بل بأمر الله الذي يعترفون أنه لا محيص عن أمره ولا سبيل إلى مخالفته فعداوة من هذا سبيله توجب عداوة الله وعداوة الله كفر، فيلزم أن عداوة من هذا سبيله كفر، وثانيها: أن الله تعالى لو أمر ميكائيل بإنزال مثل هذا الكتاب فإما أن يقال: إنه كان **يتمرد** أو يأبى عن قبول أمر الله وذلك غير لائق بالملائكة المعصومين أو كان يقبله ويأتي به على وفق أمر الله فحينئذ يتوجه على ميكائيل ما ذكروه على جبريل عليهما السلام فما الوجه في تخصيص جبريل بالعداوة؟ وثالثها: أن إنزال القرآن على محمد كما شق على اليهود فإنزال التوراة على موسى شق على قوم آخرين، فإن اقتضت نفرة بعض الناس لإنزال القرآن قبحه فلتقتض نقرة أولئك المتقدمين إنزال التوراة على موسى عليه السلام قبحه ومعلوم أن كل ذلك باطل فثبت بهذه الوجوه فساد ما قالوه.

المسألة الثانية: من الناس من استبعد أن يقول قوم من اليهود: إن جبريل عدوهم قالوا: لأنا نرى اليهود في زماننا هذا مطبقين على إنكار ذلك مصرين على أن أحدا من سلفهم لم يقل بذلك، واعلم أن هذا باطل لأن حكاية الله أصدق، ولأن جهلهم كان شديدا وهم الذين قالوا، اجعل لنا إلها كما لهم آلهة [الأعراف: ١٣٨].

المسألة الثالثة: قرأ ابن كثير: «جبريل» بفتح الجيم وكسر الراء من غير همز، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بفتح الجيم والراء مهموزا والباقون بكسر الجيم والراء غير مهموز بوزن قنديل وفيه سبع لغات ثلاث منها ذكرناها، وجبرائيل على وزن جبراعل وجرائيل على وزن جبراعيل وجبرايل على وزن جبراعل وجبرين بالنون ومنع الصرف للتعريف والعجمة.

المسألة الرابعة: قال بعضهم: جبريل معناه عبد الله، ف «جبر» عبد و «إيل» الله: وميكائيل عبد الله وهو." (١)

"يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط، وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب، كما سألوا موسى أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة. القول الثاني: أنه خطاب لأهل مكة وهو قول ابن عباس ومجاهد.

قال: إن عبد الله بن أمية المخزومي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من قريش فقال: يا محمد والله ما أؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى في السماء بأن تصعد، ولن نؤمن لرقيك بعد ذلك حتى تنزل علينا كتابا من الله إلى عبد الله بن أمية أن محمدا رسول الله فاتبعوه. وقال له بقية الرهط: فإن لم تستطع ذلك فائتنا بكتاب من عند الله جملة واحدة فيه الحلال والحرام والحدود والفرائض كما جاء موسى إلى قومه بالألواح من عند الله فيها كل ذلك، فنؤمن بك عند ذلك. فأنزل الله تعالى: أم تريدون أن تسألوا رسولكم محمدا أن يأتيكم الآيات من عند الله كما سأل السبعون فقالوا: أرنا الله جهرة.

وعن مجاهد أن قريشا سألت محمدا عليه السلام أن يجعل لهم الصفا ذهبا وفضة، فقال: نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل فأبوا ورجعوا.

القول الثالث: المراد اليهود، وهذا القول أصح لأن هذه السورة من أول قوله: يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي [البقرة: ٤٠، ٤٧] حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأن الآية مدنية ولأنه جرى ذكر اليهود وما جرى ذكر غيرهم، ولأن المؤمن بالرسول لا يكاد يسأله فإذا سأله كان متبدلا كفرا بالإيمان.

المسألة الثالثة: ليس في ظاهر قوله: أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل أنهم أتوا بالسؤال فضلا عن كيفية السؤال، بل المرجع فيه إلى الروايات التي ذكرناها في أنهم سألوا والله أعلم.

المسألة الرابعة: اعلم أن السؤال الذي ذكروه إن كان ذلك طلبا للمعجزات فمن أين أنه كفر؟ ومعلوم أن طلب الدليل على الشيء لا يكون كفرا، وإن كان ذلك طلبا لوجه الحكمة المفصلة في نسخ الأحكام، فهذا أيضا لا يكون كفرا، فإن الملائكة طلبوا الحكمة التفصيلية في خلقة البشر ولم يكن ذلك كفرا، فلعل الأولى حمل الآية على أنهم طلبوا منه أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة، وإن كانوا طلبوا المعجزات فإنهم كانوا يطلبونها على سبيل التعنت واللجاج فلهذا كفروا بسبب هذا السؤال.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦١١/٣

المسألة الخامسة: ذكروا في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوها، أحدها: أنه تعالى لما حكم بجواز النسخ في الشرائع فلعلهم كانوا يطالبونه بتفاصيل ذلك الحكم فمنعهم الله تعالى عنها وبين أنهم ليس لهم أن يشتغلوا بهذه الأسئلة كما أنه ما كان لقوم موسى أن يذكروا أسئلتهم الفاسدة. وثانيها: لما تقدم من الأوامر والنواهي قال لهم: إن لم تقبلوا ما أمرتكم به وتمردتم عن الطاعة كنتم كمن سأل موسى ما ليس له أن يسأله، عن أبي مسلم، وثالثها: لما أمر ونهى قال: أتفعلون ما أمرتم أم تفعلون كما فعل من قبلكم من قوم موسى؟ المسألة السادسة: سواء السبيل وسطه قال تعالى: فاطلع فرآه في سواء الجحيم [الصافات: ٥٥] أي وسط الجحيم، والغرض التشبيه دون نفس الحقيقة، ووجه التشبيه في ذلك أن من سلك طريقة الإيمان فهو جار على الاستقامة المؤدية إلى الفوز والظفر بالطلبة من الثواب والنعيم، فالمبدل لذلك بالكفر عادل عن الاستقامة فقيل فيه إنه ضل سواء السبيل.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠٩]

ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير (١٠٩)." (١)

"[سورة الملك (٦٧) : آية ٢٠]

أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور (٢٠)

اعلم أنه الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان، ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان تعويلهم على شيئين أحدهما: القوة التي كانت حاصلة لهم بسبب مالهم وجندهم والثاني: أنهم كانوا يقولون: هذه الأوثان، توصل إلينا جميع الخيرات، وتدفع عنا كل الآفات وقد أبطل الله عليهم كل واحد من هذين الوجهين، أما الأول فبقوله: أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن وهذا نسق على قوله: أم أمنتم من في السماء [الملك: ١٧] والمعنى أم من يشار إليه من المجموع، ويقال: هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الله إن أرسل عذابه عليكم، ثم قال: إن الكافرون إلا في غرور أي من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

[سورة الملك (٦٧) : آية ٢١]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٦٤٤

أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور (٢١)
أما الثاني فهو قوله: أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه.
والمعنى: من الذي يرزقكم من آلهتكم إن أمسك الله الرزق عنكم، وهذا أيضا مما لا ينكره ذو عقل، وهذا أنه تعالى لو أمسك أسباب الرزق كالمطر والنبات وغيرهما لما وجد رازق سواه فعند وضوح هذا الأمر قال تعالى: بل لجوا في عتو ونفور والمراد أصروا وتشددوا مع وضوح الحق، في عتو أي في تمرد وتكبر ونفور، أي تباعد عن الحق وإعراض عنه فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا وهو إشارة إلى فساد القوة العملية، والنفور بسبب جهلهم، وهذا إشارة إلى فساد القوة النظرية.
واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالعتو والنفور، نبه على ما يدل على قبح هذين الوصفين. فقال تعالى:

[سورة الملك (٦٧) : آية ٢٢]
أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم (٢٢)
وفيه مسائل:
المسألة الأولى: قال الواحدي: أكب مطاوع كبه، يقال: كببته فأكب ونظيره قشعت/ الريح السحاب فأقشع، قال صاحب «الكشاف» : ليس الأمر كذلك، و (جاء) «١» شيء من بناء أفعل مطاوعا، بل قولك: أكب معناه دخل في الكب وصار ذا كب، وكذلك أقشع السحاب دخل في القشع، وأنفض أي دخل في النفض، وهو نفض الوعاء فصار عبارة عن الفقر وألام دخل في اللوم، وأما مطاوع كب وقشع فهو انكب وانقشع.
المسألة الثانية: ذكروا في تفسير قوله: يمشي مكبا على وجهه وجوها: أحدها: معناه أن الذي يمشي في مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكبا فحاله نقيض حال من يمشي سويا أي قائما سالما من العثور والخرور وثانيها: أن المتعسف الذي يمشي هكذا وهكذا على الجهالة والحيرة لا يكون كمن يمشي إلى جهة معلومة مع العلم واليقين وثالثها: أن الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المعلوم، ثم اختلفوا

(١) ففي الكشاف للزمخشري (لا) ٤/ ١٣٩ ط. دار الفكر.." [١]

"لما وضعت على الفرزدق ميسمي ... وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

يريد أنه وسم الفرزدق [والبعيث] وجدع أنف الأخطل بالهجاء أي ألقى عليه عارا لا يزول، ولا شك أن هذه المبالغة العظيمة في مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر فكان ذلك كالموسم على الخرطوم، ومما يشهد لهذا الوجه قول من قال في زنيم إنه يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها وثالثها: يروى عن النضر بن شميل أن الخرطوم هو الخمر وأنشد:

تظل يومك في لهو وفي طرب ... وأنت بالليل شراب الخراطيم

فعلى هذا معنى الآية: سنحده على شرب الخمر وهو تعسف، وقيل للخمر الخرطوم كما يقال لها السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشيم.

[سورة القلم (٦٨) : الآيات ١٧ الى ١٨]

إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١٧) ولا يستثنون (١٨)

اعلم أنه تعالى لما قال: لأجل أن كان ذا مال وبنين، جحد وكفر وعصى **وتمرد**، وكان هذا استفهاما على سبيل الإنكار بين في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان، وليصرفه إلى طاعة الله، وليواظب على شكر نعم الله، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات فقال: إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة أي كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم،

روي أن واحدا من ثقيف وكان مسلما، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيبا وافرا للفقراء، فلما مات ورثها منه بنوه، ثم قالوا: عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين، مثل ما كان يفعل أبونا، فأحرق الله جنتهم،

وقيل: كانوا من بني إسرائيل، وقوله: إذ أقسموا إذ حلفوا: ليصرمنها ليقطعن ثمر نخيلهم مصبحين، أي في وقت الصباح، قال مقاتل: معناه اغدوا سرا إلى جنتكم، فاصرموها، ولا تخبروا المساكين، وكان أبوهم يخبر المساكين، فيجتمعون عند صرام جنتهم، يقال: قد صرم العذق عن النخلة، وأصرم النخل إذا حان وقت

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٩٤/٣٠

صرامه، وقوله: ولا يستثنون يعني ولم يقولوا: إن شاء/ الله، هذا قول جماعة المفسرين، يقال: حلف فلان يمينا ليس فيها ثنيا ولا ثنوى، ولا ثنية ولا مثنوية ولا استثناء وكله واحد، وأصل هذا كله من الثني وهو الكف والرد، وذلك أن الحالف إذا قال: والله لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله غيره، فقد رد انعقاد ذلك اليمين، واختلفوا في قوله: ولا يستثنون فالأكثرون أنهم إنما لم يستثنوا بمشيئة الله تعالى لأنهم كانوا كالواثقين بأنهم يتمكنون من ذلك لا محالة، وقال آخرون: بل المراد أنهم يصرمون كل ذلك ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إلى المساكين. ثم قال تعالى:

[سورة القلم (٦٨) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (١٩) فأصبحت كالصريم (٢٠)

طائف من ربك أي عذاب من ربك، والطائف لا يكون إلا ليلا أي طرقها طارق من عذاب الله، قال." [١]

"واحد من آحاد المجموع، فله أن يقول: لا أطالبك بمجموع ذنوبك، ولكني أطالبك بهذا الذنب الواحد فقط، أما لما قال: يغفر لكم من ذنوبكم كان تقديره يغفر كل ما كان من ذنوبكم، وهذا يقتضي عدم المؤاخذة على مجموع الذنوب وعدم المؤاخذة أيضا على كل فرد من أفراد المجموع الثالث: أن قوله: يغفر لكم من ذنوبكم هب أنه يقتضي التبعيض لكنه حتى لأن من آمن فإنه يصير ما تقدم من ذنوبه على إيمانه مغفورا، أما ما تأخر عنه فإنه لا يصير بذلك السبب مغفورا، فثبت أنه لا بد هاهنا من حرف التبعيض.

السؤال الثاني: كيف قال: ويؤخركم مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ الجواب:

قضى الله مثلا أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم الله ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكم على رأس تسعمائة سنة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله وجعله غاية الطول في العمر، وهو تمام الألف، ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول، لا بد من الموت.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله لو كنتم تعلمون الجواب: الغرض الزجر عن حب الدنيا، وعن التهالك عليها والإعراض عن الدين بسبب حبها، يعني أن غلوهم في حب الدنيا وطلب لذاتها بلغ إلى حيث يدل على أنهم شاكون في الموت.

[سورة نوح (٧١) : الآيات ٥ الى ٦]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٠٧/٣٠

قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا (٥) فلم يزدهم دعائي إلا فرارا (٦)
اعلم أن هذا من الآيات الدالة على أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره، وذلك لأنا نرى إنسانين يسمعان دعوة الرسول في مجلس واحد بلفظ واحد، فيصير ذلك الكلام في حق أحدهما سببا لحصول الهداية، والميل والرغبة، وفي حق الثاني سببا لمزيد العتو والتكبر، ونهاية النفرة، وليس لأحد أن يقول: إن تلك النفرة والرغبة حصلتا باختيار المكلف، فإن هذا مكابرة في المحسوس، فإن صاحب النفرة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك النفرة وصاحب الرغبة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك الرغبة، ومتى حصلت تلك النفرة وجب أن يحصل عقيبه **التمرد** والإعراض، وإن حصلت الرغبة وجب أن يحصل عقيبه الانقياد والطاعة، فعلمنا أن إفضاء سماع تلك الدعوة في حق أحدهما إلى الرغبة المستلزمة لحصول الطاعة والانقياد وفي حق الثاني إلى النفرة المستلزمة لحصول **التمرد** والعصيان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره، فإن قيل: هب أن حصول النفرة والرغبة ليس باختياره، لكن حصول/ العصيان عند النفرة يكون باختياره، فإن العبد متمكن مع تلك النفرة أن ينقاد ويطيع، قلنا: إنه لو حصلت النفرة غير معارضة بوجه من وجوه الرغبة بل خالصة عن جميع شوائب الرغبة امتنع أن يحصل معه الفعل، وذلك لأنه عند ما تحصل النفرة والرغبة لم يحصل الفعل البتة، فعند حصول النفرة انضم إلى عدم المقتضي وجود المانع، فبأن يصير الفعل ممتنعا أولى، فثبت أن هذه الآية من أقوى الدلائل على القضاء والقدر.

[سورة نوح (٧١) : آية ٧]
وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا (٧)
ثم قال تعالى: وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم.." (١)

"في تجسس الخبر الثاني: أن الذين رموا بالشهب كانوا من الجن إلا أنه قيل لهم: شياطين كما قيل: شياطين الجن والإنس فإن الشيطان كل **متمرد** بعيد عن طاعة الله، واختلفوا في أن أولئك الجن الذين سمعوا القرآن من هم؟ فروى عاصم عن ذر قال: قدم رهط زوبعة وأصحابه مكة على النبي صلى الله عليه وسلم فسمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرفوا فذلك قوله: وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن [الأحقاف: ٢٩] وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عددا وعامة جنود إبليس منهم.
القول الثاني: وهو مذهب ابن مسعود أنه أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمسير إليهم ليقرأ القرآن عليهم

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠/٦٥٠

ويدعوهم إلى الإسلام،

قال ابن مسعود قال عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أتلو القرآن على الجن/ فمن يذهب معي؟

فسكتوا، ثم قال الثانية فسكتوا، ثم قال الثالثة، فقال: عبد الله قلت أنا أذهب معك يا رسول الله قال: فانطلق حتى إذا جاء الحجون عند شعب ابن أبي دب، خط علي خطا فقال: لا تجاوزه، ثم مضى إلى الحجون فانحدروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزط «١» يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفها حتى غشوه، فغاب عن بصري فقمت، فأومأ إلي بيده أن اجلس، ثم تلا القرآن، فلم يزل صوته يرتفع، ولصقوا بالأرض حتى صرت أسمع صوتهم ولا أراهم. وفي رواية أخرى فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنت؟ قال: أنا نبي الله، قالوا: فمن يشهد لك على ذلك؟ قال: هذه الشجرة، تعالي يا شجرة، فجاءت تجر عروقها لها قعاقع حتى انصبت بين يديه، فقال على ماذا تشهدين لي؟ قالت: أشهد أنك رسول الله، قال: اذهبي، فرجعت كما جاءت حتى صارت كما كانت. قال ابن مسعود: فلما عاد إلي، قال: أردت أن تأتيني؟ قلت: نعم يا رسول الله قال: ما كان ذلك لك، هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن، ثم ولوا إلى قومهم منذرين، فسألوني الزاد فزودتهم العظم والبعر، فلا يستطيبن أحد بعظم ولا بعر.

واعلم أنه لا سبيل إلى تكذيب الروايات، وطريق التوفيق بين مذهب ابن عباس، ومذهب ابن مسعود من وجوه أحدها: لعل ما ذكره ابن عباس وقع أولا، فأوحى الله تعالى إليه بهذه السورة، ثم أمر بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود وثانيها: أن بتقدير أن تكون واقعة الجن مرة واحدة، إلا أنه عليه السلام أمر بالذهاب إليهم، وقراءة القرآن عليهم، إلا أنه عليه السلام ما عرف أنهم ماذا قالوا، وأي شيء فعلوا، فالله تعالى أوحى إليه أنه كان كذا وقالوا كذا وثالثها: أن الواقعة كانت مرة واحدة، وهو عليه السلام رآهم وسمع كلامهم، وهم آمنوا به، ثم لما رجعوا إلى قومهم قالوا لقومهم على سبيل الحكاية: إنا سمعنا قرآنا عجبا وكان كذا وكذا، فأوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما قالوه لأقوامهم، وإذا كانت هذه الوجوه محتملة فلا سبيل إلى التكذيب.

المسألة الثالثة: اعلم أن قوله تعالى: قل أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في واقعة الجن، وفيه فوائد إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس، فقد بعث إلى الجن وثانيها: أن يعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه، فآمنوا بالرسول وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس.

(١)
يروى الحديث هكذا: «أجسامهم كأجسام الزط ورؤسهم كرءوس المكاكي» .
يعني عظام الأجسام صغار الرءوس والمكاكي جمع مكاء وهو طائر صغير.." (١)

"قريش تجمع لك مالا ليكون ذلك عوضا مما تقدر أن تأخذ من أصحاب محمد، فقال: والله ما يشبعون فكيف أقدر أن آخذ منهم مالا، ولكني تفكرت في أمره كثيرا فلم أجد شيئا يليق به إلا أنه ساحر، فأقول استعظامه للقرآن واعترافه بأنه ليس من كلام الجن والإنس يدل على أنه كان في ادعاء السحر معاندا لأن السحر يتعلق بالجن والثالث: أنه كان يعلم أن أمر السحر مبني على الكفر بالله، والأفعال المنكرة، وكان من الظاهر أن محمدا لا يدعو إلا إلى الله، فكيف يليق به السحر؟ فثبت بمجموع هذه الوجوه أنه إنما عبس وبسر لأنه كان يعلم أن الذي يقوله كذب وبهتان.

المسألة الثانية: قال الليث: عبس يعبس فهو عابس إذا قطب ما بين عينيه، فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل: كلح، فإن اهتم لذلك وفكر فيه قيل: بسر، فإن غضب مع ذلك قيل: بسل.

[سورة المدثر (٧٤) : الآيات ٢٣ الى ٢٤]

ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقال إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤)

أدبر عن سائر الناس إلى أهله واستكبر أي تعظم عن الإيمان فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر وإنما ذكره بفاء التعقيب ليعلم أنه لما ولى واستكبر ذكر هذه الشبهة، وفي قوله: يؤثر وجهان الأول: أنه من قولهم أثرت الحديث آثره أثرا إذا حدثت به عن قوم في آثارهم، أي بعد ما ماتوا هذا هو الأصل، ثم صار بمعنى/ الرواية عمن كان والثاني: يؤثر على جميع السحر، وعلى هذا يكون هو من الإيثار. ثم قال:

[سورة المدثر (٧٤) : آية ٢٥]

إن هذا إلا قول البشر (٢٥)

والمعنى أن هذا قول البشر، ينسب ذلك إلى أنه ملتقط من كلام غيره، ولو كان الأمر كما قال لتمكنوا من معارضته إذ طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٦٥/٣٠

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن الوليد إنما كان يقول هذا الكلام عنادا منه، لأنه روي عنه أنه لما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم (حم السجدة) وخرج من عند الرسول عليه السلام قال: سمعت من محمد كلاما ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وأنه يعلو ولا يعلى عليه، فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله هاهنا من أنه قول البشر، إنما ذكره على سبيل العناد **والتمرد** لا على سبيل الاعتقاد. ثم قال:

[سورة المدثر (٧٤) : آية ٢٦]

سأصليه سقر (٢٦)

قال ابن عباس: سقر اسم للطبقة السادسة من جهنم، ولذلك لا ينصرف للتعريف والتأنيث. ثم قال:

[سورة المدثر (٧٤) : آية ٢٧]

وما أدراك ما سقر (٢٧)

الغرض التهويل. ثم قال:." [١]

"أمر أخراك، وقال آخرون: المعنى الويل لك مرة بعد ذلك، وقال القفال: هذا يحتمل وجوها أحدها: أنه وعيد مبتدأ من الله للكافرين والثاني: أنه شيء قاله النبي صلى الله عليه وسلم لعدوه فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه، فأنزل الله تعالى مثل ذلك والثالث: أن يكون ذلك أمرا من الله لنبيه، بأن يقولها لعدو الله، فيكون المعنى ثم ذهب إلى أهله يتمطى [القيامة: ٣٣] فقل له: يا محمد: أولى لك فأولى أي احذر، فقد قرب منك مالا قبل لك به من المكروه.

[سورة القيامة (٧٥) : آية ٣٦]

أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦)

أي مهملا لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يكلف في الدنيا ولا يحاسب بعمله في الآخرة، والسدى في اللغة المهمل يقال: أسديت إبلي إسداء أهملتها.

واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة، قوله: أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه [القيامة: ٣] أعاد في

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٠٧/٣٠

آخر السورة ذلك، وذكر في صحة البعث والقيامة دليلين الأول: قوله: أيحسب الإنسان/ أن يترك سدى [القيامة: ٣٦] ونظيره قوله: إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى [طه: ١٥] وقوله: أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار [ص: ٢٨] وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد يقتضي كونه تعالى راضيا بقبائح الأفعال، وذلك لا يليق بحكمته، فإذا لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة.

الدليل الثاني: على صحة القول بالحشر الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة، وهو المراد من قوله تعالى.

[سورة القيامة (٧٥) : آية ٣٧]

ألم يك نطفة من مني يمنى (٣٧)

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: النطفة هي الماء القليل وجمعها نطاف ونطف، يقول: ألم يك ماء قليلا في صلب الرجل وترائب المرأة؟ وقوله: من مني يمنى أي يصب في الرحم، وذكرنا الكلام في يمنى عند قوله: من نطفة إذا تمنى [النجم: ٤٦] وقوله: أفرأيتم ما تمنون [الواقعة: ٥٨] فإن قيل: ما الفائدة في يمنى في قوله: من مني يمنى؟ قلنا: فيه إشارة إلى حقارة حاله، كأنه قيل: إنه مخلوق من المني الذي جرى على مخرج النجاسة، فلا يليق بمثل هذا الشيء أن **يتمرد** عن طاعة الله تعالى إلا أنه عبر عن هذا المعنى، على سبيل الرمز كما في قوله تعالى في عيسى ومريم: كانا يأكلان الطعام [المائدة: ٧٥] والمراد منه قضاء الحاجة.

المسألة الثانية: في يمنى في هذه السورة قراءتان التاء والياء، فالتاء للنطفة، على تقدير ألم يك نطفة تمنى من المني، والياء للمني من مني يمنى، أي يقدر خلق الإنسان منه.

[سورة القيامة (٧٥) : آية ٣٨]

ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨)." (١)

"الشكر مقابل للنعم الثاني: قال القفال: إنه مشهور في كلام الناس، أن يقولوا: للراضي بالقليل والمثني به إنه شكور، فيحتمل أن يكون شكر الله لعباده هو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات، وإعطاؤه إياهم عليه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٣٧/٣٠

ثوابا كثيرا الوجه الثالث: أن منتهى درجة العبد أن يكون راضيا من ربه مرضيا لربه على ما قال: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية [الفجر: ٢٧، ٢٨] وكونها راضية من ربه، أقل درجة من كونها مرضية لربه، فقوله: إن هذا كان لكم جزاء إشارة إلى الأمر الذي به تصير النفس راضية من ربه وقوله:
وكان سعيكم مشكورا إشارة إلى كونها مرضية لربه، ولما كانت هذه الحال أعلى المقامات وآخر الدرجات لا جرم وقع الختم عليها في ذكر مراتب أحوال الأبرار والصديقين.

[سورة الإنسان (٧٦) : آية ٢٣]

إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣)

اعلم أنه سبحانه بين في أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم بقوله: هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا [الإنسان: ١] ثم بين أنه سبحانه خلقه من أمشاج، والمراد منه إما كونه مخلوقا من العناصر الأربعة أو من الأخلاط الأربعة أو من ماء الرجل والمرأة أو من الأعضاء والأرواح أو من البدن والنفس أو من أحوال متعاقبة على ذلك الجسم مثل كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما، وعلى أي هذه الوجوه تحمل هذه الآية، فلذلك يدل على أنه لا بد من الصانع المختار جل جلاله وعظم كبرياؤه. ثم بين بعد ذلك أني ما خلقته ضائعا عاطلا باطلا، بل خلقته لأجل الابتلاء والامتحان، وإليه الإشارة بقوله: نبتليه [الإنسان: ٢] وهاهنا موضع الخصومة العظيمة القائمة بين أهل الجبر والقدر، ثم ذكر تعالى أني أعطيته جميع ما يحتاج إليه عند الابتلاء والامتحان، وهو السمع والبصر والعقل، وإليه الإشارة بقوله: فجعلناه سميعا بصيرا [الإنسان:
٢] ولما كان العقل أشرف الأمور المحتاج إليها في هذا الباب أفرده عن السمع والبصر، فقال: إنا هديناه السبيل [الإنسان: ٣] ثم بين أن الخلق بعد هذه الأحوال صاروا قسمين: منهم شاكر، ومنهم كفور، وهذا الانقسام باختيارهم كما هو تأويل القدرية، أو من الله على ما هو تأويل الجبرية، ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء، وهو إلى قوله: وكان سعيكم مشكورا [الإنسان: ٢٢] واعلم أن الاختصار في ذكر العقاب مع الإطناب في شرح الثواب يدل على أن جانب/ الرحمة أغلب وأقوى، فظهر مما بينا أن السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا، وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال **المتمردين**. أما المطيعون فهم الرسول وأمته، والرسول هو الرأس والرئيس، فلهذا خص الرسول بالخطاب. واعلم أن الخطاب إما النهي وإما الأمر، ثم إنه تعالى قبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من النهي والأمر، قدم مقدمة في تقوية

قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، وإزالة الغم والوحشة عن خاطره، وإنما فعل ذلك، لأن الاشتغال بالطاعة والقيام بعهدة التكليف لا يتم إلا مع فراغ القلب ثم بعد هذه المقدمة ذكر نهيه عن بعض الأشياء، ثم بعد الفراغ عن النهي، ذكر أمره ببعض الأشياء، وإنما قدم النهي على الأمر، لأن دفع الضرر أهم من جلب النفع، وإزالة مالا ينبغي مقدم على تحصيل ما ينبغي، ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال **المتمردين** والكفار على ما سيأتي تفصيل بيانه، ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن هذه السورة، وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام، فالحمد لله الذي نور عقل هذا المسكين الضعيف بهذه الأنوار، وله الشكر عليه أبد الآباد.." (١)

"سورة المزمل واحتجوا عليه بأن قوله: فاسجد له وسبحه أمر وهو للوجوب لا سيما إذا تكرر على سبيل المبالغة، وقال آخرون: بل المراد التطوع وحكمه ثابت.

القول الثاني: أن المراد من قوله: واذكر اسم ربك إلى آخر الآية ليس هو الصلاة بل المراد التسبيح الذي هو القول والاعتقاد، والمقصود أن يكون ذاكرا لله في جميع الأوقات ليلا ونهارا بقلبه ولسانه، وهو المراد من قوله: يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا [الأحزاب: ٤١] .

واعلم أن في الآية لطيفة أخرى وهي أنه تعالى قال: إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا [الإنسان: ٢٣] أي/ هديناك إلى هذه الأسرار، وشرحنا صدرك بهذه الأنوار، وإذ قد فعلنا بك ذلك فكن منقادا مطيعا لأمرنا، وإياك وأن تكون منقادا مطيعا لغيرنا، ثم لما أمره بطاعته، ونهاه عن طاعة غيره قال: واذكر اسم ربك وهذا إشارة إلى أن العقول البشرية ليس عندها إلا معرفة الأسماء والصفات، أما معرفة الحقيقة فلا، فتارة يقال له:

واذكر اسم ربك وهو إشارة إلى معرفة الأسماء، وتارة يقال له: واذكر ربك في نفسك [الأعراف: ٢٠٥] وهو إشارة إلى مقام الصفات، وأما معرفة الحقيقة المخصوصة التي هي المستلزمة لسائر اللوازم السلبية والإضافية، فلا سبيل لشيء من الممكنات والمحدثات، إلى الوصول إليها والاطلاع عليها، فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره واحتجب عنها بكمال نوره.

واعلم أنه تعالى لما خاطب رسوله بالتعظيم والنهي والأمر عدل إلى شرح أحوال الكفار **والمتمردين**، فقال تعالى:

[سورة الإنسان (٧٦) : آية ٢٧]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠/٧٥٧

إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا (٢٧)

والمراد أن الذي حمل هؤلاء الكفار على الكفر، وترك الالتفات والإعراض عما ينفعهم في الآخرة ليس هو الشبهة حتى ينتفعوا بالدلائل المذكورة في أول هذه السورة، بل الشهوة والمحبة لهذه اللذات العاجلة والراحات الدينية، وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: لم قال: وراءهم ولم يقل: قدامهم؟ الجواب: من وجوه أحدها: لما لم يلتفتوا إليه، وأعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم وثانيها: المراد ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل فأسقط المضاف وثالثها: أن تستعمل بمعنى قدام كقوله: من ورائه جهنم [إبراهيم: ١٦] وكان وراءهم ملك [الكهف: ٧٩] .

السؤال الثاني: ما السبب في وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقيل؟ الجواب: استعير الثقل لشدته وهوله، من الشيء الثقيل الذي يتعب حامله ونحوه ثقلت في السماوات والأرض [الأعراف: ١٨٧] .

ثم إنه تعالى لما ذكر أن الداعي لهم إلى هذا الكفر حب العاجل، قال:

[سورة الإنسان (٧٦) : آية ٢٨]

نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨)

والمراد أن حبهم للعاجلة يوجب عليهم طاعة الله من حيث الرغبة ومن حيث الرهبة، أما من حيث الرغبة فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة، وخلق جميع ما يمكن." (١)

"الانتفاع به، فإذا أحبوا اللذات العاجلة، وتلك اللذات لا تحصل/ إلا عند حصول المنتفع وحصول المنتفع به، وهذان لا يحصلان إلا بتكوين الله وإيجاده، فهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله ولتكاليفه وترك **التمرد** والإعراض، وأما من حيث الرهبة فلأنه قدر على أن يميتهم، وعلى أن يسلب النعمة عنهم، وعلى أن يلقيهم في كل محنة وبلية، فلأجل من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم أن ينقادوا لله، وأن يتركوا هذا **التمرد**، وحاصل الكلام كأنه قيل لهم: هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة مستحسنة، إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله والانقياد له، فلو أنكم توسلتم به إلى الكفر بالله، والإعراض عن حكمه، لكنتم قد **تمردتم**، وهذا ترتيب حسن في السؤال والجواب وطريقة لطيفة، وفي الآية مسائل:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٦٠/٣٠

المسألة الأولى: قال أهل اللغة: الأسر الربط والتوثيق، ومنه أسر الرجل إذا وثق بالقد وفرس مأسور الخلق وفرس مأسور بالعقب، والمعنى شددنا توصيل أعضائهم بعضا ببعض وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب.
المسألة الثانية: وإذا ... بدلنا أمثالهم أي إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلا منهم، وهو كقوله: على أن نبدل أمثالكم
[الواقعة: ٦١] والغرض منه بيان الاستغناء التام عنهم كأنه قيل: لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة، وبتقدير أن تثبت الحاجة فلا حاجة إلى هؤلاء الأقوام، فإنا قادرون على إفنائهم، وعلى إيجاد أمثالهم، ونظيره قوله تعالى: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا [النساء: ١٣٣] وقال: إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز [إبراهيم:
١٩، ٢٠] ثم قيل: بدلنا أمثالهم أي في الخلقة، وإن كانوا أضدادهم في العمل، وقيل: أمثالهم في الكفر.
المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف: في قوله: وإذا شئنا إن حقه أن يجيء بأن لا بإذا كقوله: وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم [محمد: ٣٨] إن يشأ يذهبكم [النساء: ١٣٣] واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن، وهو ضعيف لأن كل واحد من إن وإذا حرف الشرط، إلا أن حرف إن لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع، فلا يقال: إن طلعت الشمس أكرمتك، أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع، تقول:
آتيك إذا طلعت الشمس، فههنا لما كان الله تعالى عالما بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة، لا جرم حسن استعمال حرف إذا.

[سورة الإنسان (٧٦) : الآيات ٢٩ الى ٣٠]
إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (٢٩) وما تشاؤن إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما (٣٠)

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال السعداء وأحوال الأشقياء قال بعده: إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاؤن إلا أن يشاء الله والمعنى أن هذه السورة بما فيها من/ الترتيب العجيب والنسق البعيد والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، تذكرة للمتأملين وتبصرة للمستبصرين، فمن شاء الخيرة لنفسه في الدنيا والآخرة اتخذ إلى ربه سبيلا. واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه، واعلم أن هذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر والقدر، فالقدري يتمسك بقوله تعالى: فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ويقول:

إنه صريح مذهبي ونظيره: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [الكهف: ٢٩] والجبري يقول: متى ضمت هذه الآية إلى الآية التي بعدها خرج منه صريح مذهب الجبر، وذلك لأن قوله: فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا يقتضي." (١)

"لولا أن الأمر كذلك، وإلا لم يكن نظر الرجل في الثواب والعقاب على عمله بل على شيء آخر والجواب عنه:

أن العمل يوجب الثواب والعقاب، لكن بحكم الوعد والجعل لا بحكم الذات.

أما قوله تعالى: يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا

ففيه وجوه: أحدها أن يوم القيامة ينظر المرء أي شيء قدمت يداه، أما المؤمن فإنه يجد الإيمان والعفو عن سائر المعاصي على ما قال: ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأما الكافر فلا يتوقع العفو على ما قال: إن الله لا يغفر أن يشرك به [النساء: ٤٨] فعند ذلك يقول الكافر: اليتني كنت ترابا

أي لم يكن حيا مكلفا وثانيها: أنه كان قبل البعث ترابا، فالمعنى على هذا.

يا ليتني لم أبعث للحساب، وبقيت كما كنت ترابا، كقوله تعالى: يا ليتها كانت القاضية [الحاقة: ٢٧] وقوله: يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض [النساء: ٤٢] وثالثها: أن البهائم تحشر فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها بعد المحاسبة: كوني ترابا فيتمنى الكافر عند ذلك أن يكون هو مثل تلك البهائم في أن يصير ترابا، ويتخلص من عذاب الله وأنكر بعض المعتزلة ذلك. وقال: إنه تعالى إذا أعادها فهي بين معوض وبين متفضل عليه، وإذا كان كذلك لم يجز أن يقطعها عن المنافع، لأن ذلك كالإضرار بها، ولا يجوز ذلك في الآخرة، ثم إن هؤلاء قالوا: إن هذه الحيوانات إذا انتهت مدة أعواضها جعل الله كل ما كان منها حسن الصورة ثوابا لأهل الجنة، وما كان قبيح الصورة عقابا لأهل النار، قال القاضي: ولا يمتنع أيضا إذا وفر الله أعواضها وهي غير كاملة العقل أن يزيل الله حياتها على وجه لا يحصل لها شعور بالألم فلا يكون ذلك ضررا ورابعها: ما ذكره بعض الصوفية فقال قوله: اليتني كنت ترابا

معناه يا ليتني كنت متواضعا في طاعة الله ولم أكن متكبرا **متمردا** وخامسها: الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم، فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين [ص: ٧٦] والله أعلم بمراده وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.." (٢)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٦١/٣٠

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٣١

"المسألة الأولى: اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ما قبلها من وجهين: الأول: أنه تعالى حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث حتى انتهوا في ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء في قولهم: تلك إذا كرة خاسرة [النازعات: ١٢] وكان ذلك يشق على محمد صلى الله عليه وسلم فذكر قصة موسى عليه السلام، وبين أنه تحمل المشقة الكثيرة في دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم الثاني: أن فرعون كان أقوى من كفار قريش وأكثر جمعا وأشد شوكة، فلما **تمرد** على موسى أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فكذلك هؤلاء المشركون في **تمردهم** عليك إن أصروا أخذهم الله وجعلهم نكالا.
المسألة الثانية: قوله: هل أتاك يحتمل أن يكون معناه أليس قد أتاك حديث موسى هذا إن كان قد أتاه ذلك قبل هذا الكلام، أما إن لم يكن قد أتاه فقد يجوز أن يقال: هل أتاك كذا، أم أنا أخبرك به فإن فيه عبرة لمن يخشى.
المسألة الثالثة: الوادي المقدس المبارك المطهر، وفي قوله: طوى وجوه: أحدها: أنه اسم وادي بالشام وهو عند الطور الذي أقسم الله به في قوله: والطور وكتاب مسطور [الطور: ١، ٢] وقوله:
وناديناه من جانب الطور الأيمن [مريم: ٥٢] والثاني: أنه بمعنى يا رجل بالعبرانية، فكأنه قال: يا رجل اذهب إلى فرعون، وهو قول ابن عباس والثالث: أن يكون قوله: طوى أي ناداه طوى من الليلة اذهب إلى فرعون لأنك تقول جئتك بعد طوى أي بعد ساعة من الليل والرابع: أن يكون المعنى بالوادي المقدس الذي طوي أي بورك فيه مرتين.
المسألة الرابعة: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو طوى بضم الطاء غير منون، وقرأ/ الباقون بضم الطاء منونا، وروي عن أبي عمرو. طوى بكسر الطاء، وطوى مثل ثنى، وهما اسمان للشيء المثني، والطي بمعنى الثني، أي ثنيت في البركة والتقديس، قال الفراء: طوى واد بين المدينة ومصر، فمن صرفه قال: هو ذكر سمينا به ذكرا، ومن لم يصرفه جعله معدولا عن جهته كعمر وزفر، ثم قال: والصرف أحب إلي إذ لم أجد في المعدول نظيرا، أي لم أجد اسما من الواو والياء عدل عن فاعله إلى فعل غير طوى.
المسألة الخامسة: تقدير الآية: إذ ناداه ربه وقال اذهب إلى فرعون، وفي قراءة عبد الله أن اذهب، لأن في النداء معنى القول. وأما أن ذلك النداء كان بإسماع الكلام القديم، أو بإسماع الحرف والصوت، وإن كان على هذا الوجه فكيف عرف موسى أنه كلام الله. فكل ذلك قد تقدم في سورة طه.
المسألة السادسة: أن سائر الآيات تدل على أنه تعالى في أول ما نادى موسى عليه السلام ذكر له أشياء كثيرة، كقوله في سورة طه: نودي يا موسى إني أنا ربك إلى قوله: لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون

إنه طغى [طه: ٢٣، ٢٤] فدل ذلك على أن قوله هاهنا: اذهب إلى فرعون إنه طغى من جملة ما ناداه به ربه، لا أنه كل ما ناداه به، وأيضا ليس الغرض أنه عليه السلام كان مبعوثا إلى فرعون فقط، بل إلى كل من كان في ذلك الطرف، إلا أنه خصه بالذكر، لأن دعوته جارية مجرى دعوة كل ذلك القوم.

المسألة السابعة: الطغيان مجاوزة الحد، ثم إنه تعالى لم يبين أنه تعدى في أي شيء، فلهذا قال بعض المفسرين: معناه أنه تكبر على الله وكفر به، وقال آخرون: إنه طغى على بني إسرائيل، والأولى عندي الجمع." (١)

"المعجز على الصدق، وما بعد الآية يدل على أن فرعون إنما منع من دلالته عن الصدق لاعتقاده أنه يمكن معارضته بدليل قوله: فحشر فنادى [النازعات: ٢٣] وهو كقوله: فأرسل فرعون في المدائن حاشرين [الشعرا: ٥٣] .

المسألة الثانية: في الآية سؤال وهو أن كل أحد يعلم أن كل من كذب الله فقد عصى، فما الفائدة في قوله: فكذب وعصى؟ والجواب: كذب بالقلب واللسان، وعصى بأن أظهر **التمرد** والتجبر.

المسألة الثالثة: هذا الذي وصفه الله تعالى به من التكذيب والمعصية مغاير لما كان حاصلا قبل ذلك، لأن تكذيبه لموسى عليها لسلام وقد دعاه وأظهر هذه المعجزة. يوفي على ما تقدم من التكذيب ومعصيته بترك القبول منه، والحال هذه مخالفة لمعصيته من قبل ذلك.

[سورة النازعات (٧٩) : آية ٢٢]

ثم أدبر يسعى (٢٢)

وثانيها: قوله: ثم أدبر يسعى وفيه وجوه أحدها: أنه لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا يسعى يسرع في مشيه، قال الحسن كان رجلا طياشا خفيفا وثانيها: تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته وثالثها: أن يكون المعنى، ثم أقبل يسعى، كما يقال: فلان أقبل يفعل كذا، بمعنى أنشأ يفعل، فوضع أدبر فوضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال. وثالثها: قوله:

[سورة النازعات (٧٩) : الآيات ٢٣ الى ٢٤]

فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨/٣١

فحشر فجمع السحرة كقوله: فأرسل فرعون في المدائن حاشرين فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه، أو أمر مناديا فنادى في الناس بذلك، وقيل قام فيهم خطيبا فقال تلك الكلمة، وعن ابن عباس كلمته الأولى: ما علمت لكم من إله غيري [القصص: ٣٨] والآخرة: أنا ربكم الأعلى.

واعلم أنا بينا في سورة (طه) أنه لا يجوز أن يعتقد الإنسان في نفسه كونه خالقا للسموات والأرض والجبال والنبات والحيوان والإنسان، فإن العلم بفساد ذلك ضروري، فمن تشكك فيه كان مجنونا، ولو كان مجنونا لما جاز من الله بعثة الأنبياء والرسل إليه، بل الرجل كان دهريا منكرا للصانع والحشر والنشر، وكان يقول ليس لأحد عليكم أمر ولا نهي إلا لي، فأنا ربكم بمعنى مربيكم والمحسن إليكم، وليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر ونهي، أو يبعث إليكم رسولا، قال القاضي: وقد كان الأليق به بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية، أن لا يقول هذا القول. لأن عند ظهور الذلة والعجز، كيف يليق أن يقول: أنا ربكم الأعلى فدلت هذه الآية على أنه في ذلك الوقت صار كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول. واعلم أنه تعالى لما حكى عنه أفعاله وأقواله أتبعه بما عامله به وهو قوله تعالى:

[سورة النازعات (٧٩) : آية ٢٥]

فأخذه الله نكال الآخرة والأولى (٢٥)

وفيه مسألتان:." (١)

"المسألة الأولى: ذكروا في نصب نكال وجهين الأول: قال الزجاج: إنه مصدر مؤكد لأن معنى أخذه الله، نكل الله به، نكال الآخرة والأولى. لأن أخذه ونكله متقاربان، وهو كما يقال: أدعه تركا شديدا لأن أدعه وأتركه سواء، ونظيره قوله: إن أخذه أليم شديد [هود: ١٠٢] ، الثاني: قال الفراء: يريد أخذه الله أخذا نكالا للآخرة والأولى، والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في هذه الآية وجوها أحدها: أن الآخرة والأولى صفة لكلمتي فرعون إحداهما قوله: ما علمت لكم من إله غيري [القصص: ٣٨] والأخرى قوله: أنا ربكم الأعلى [النازعات: ٢٤] قالوا: وكان بينهما أربعون سنة، وهذا قول مجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ومقاتل، ورواية عطاء والكلبي عن ابن عباس، والمقصود التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى في الحال، بل أمهله أربعين سنة، فلما ذكر الثانية أخذ بهما، وهذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يمهل الثاني: وهو قول الحسن وقتادة:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١/٣١

نكال الآخرة والأولى أي عذبه في الآخرة، وأغرقه في الدنيا الثالث: الآخرة هي قوله: أنا ربكم الأعلى والأولى هي تكذيبه موسى حين أراه الآية، قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر، لأنه تعالى قال: فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى [النازعات: ٢٠، ٢٤] فذكر المعصيتين، ثم قال: فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فظهر أن المراد أنه عاتبه على هذين الأمرين.

المسألة الثالثة: قال الليث: (النكال) اسم لمن جعل نكالا لغيره، وهو الذي إذا رآه أو بلغه خاف أن يعمل عمله، وأصل الكلمة من الامتناع، ومنه النكول عن اليمين، وقيل للقيد نكل لأنه يمنع، فالنكال من العقوبة هو أعظم حتى يمتنع من سمع به عن ارتكاب مثل ذلك الذنب الذي وقع التنكيل به، وهو في العرف يقع على ما يفتضح به صاحبه ويعتبر به غيره، والله أعلم. ثم إنه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى:

[سورة النازعات (٧٩) : آية ٢٦]

إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦)

والمعنى أن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون، وما أحله الله بفرعون من الخزي، ورزق موسى من العلو والنصر عبرة لمن يخشى وذلك أن يدع **التمرد** على الله تعالى، والتكذيب لأنبيائه خوفا من أن ينزل به ما نزل بفرعون، وعلما بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله، فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه، أي اعلموا أنكم إن شاركتموهم في المعنى الجالب للعقاب، شاركتموهم في حلول العقاب بكم.

[سورة النازعات (٧٩) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها (٢٧) رفع سمكها فسواها (٢٨)

[في قوله تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها] ثم اعلم أنه تعالى لما ختم هذه القصة رجع إلى مخاطبة منكري البعث، فقال: أأنتم أشد خلقا أم السماء وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في المقصود من هذا الاستدلال وجهان الأول: أنه استدلال على منكري البعث فقال: أأنتم أشد خلقا أم السماء فنبههم على أمر يعلم بالمشاهدة. وذلك لأن خلقة الإنسان على صغره وضعفه، إذا." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢/٣١

"واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الأشياء وكان المقصود منها أمورا ثلاثة: أولها: الدلائل الدالة على التوحيد وثانيها: الدلائل الدالة على القدرة على المعادو ثالثها: أن هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان، لا يليق بالعاقل أن **يتمرد** عن طاعته وأن يتكبر على عبيده أتبع هذه الجملة بما يكون مؤكدا لهذه الأغراض وهو شرح أهوال القيامة، فإن الإنسان إذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر، ويدعوه ذلك أيضا إلى ترك التكبر على الناس، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد، فلا جرم ذكر القيامة: فقال:

[سورة عبس (٨٠) : آية ٣٣]

فإذا جاءت الصاخة (٣٣)

قال المفسرون يعني صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة، قال الزجاج: أصل الصخ في اللغة الطعن والصك، يقال صخ رأسه بحجر أي شدخه والغراب يصخ بمنقاره في دبر البعير أي يطعن، فمعنى الصاخة الصاكة بشدة صوتها للآذان، وذكر صاحب «الكشاف» وجها آخر فقال: يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازا لأن الناس يصخون لها أي يستمعون. ثم إنه تعالى وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى:

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ٣٤ الى ٣٦]

يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦)

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يحتمل أن يكون المراد من الفرار ما يشعر به ظاهره وهو التباعد والاحتراز والسبب في ذلك الفرار الاحتراز عن المطالبة بالتبعات. يقول الأخ: ما واسيتني بمالك، والأبوان يقولان قصرت في برنا، والصاحبة تقول أطعمتني الحرام، وفعلت وصنعت، والبنون يقولون: ما علمتنا وما أرشدتنا، وقيل: أول من يفر من أخيه هابيل، ومن أبويه إبراهيم، ومن صاحبته نوح ولوط، ومن ابنه نوح، ويحتمل أن يكون المراد من الفرار ليس هو التباعد، بل المعنى أنه يوم يفر المرء من موالاة أخيه لاهتمامه بشأنه، وهو كقوله تعالى: إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا [البقرة: ١٦٦] وأما الفرار من نصرته، وهو كقوله تعالى: يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا [الدخان: ٤١] وأما ترك السؤال وهو كقوله تعالى: ولا يسئل حميم حميما [المعارج: ١٠].

المسألة الثانية: المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم، فإنه يفر منهم في دار الآخرة، ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل: يوم يفر المرء من أخيه بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد، لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين. ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الفرار أتبعه بذكر سببه فقال تعالى:

[سورة عبس (٨٠) : آية ٣٧]

لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧)." [١]

"تكون كلا ردا له، وهذا كما قالوه في: كلا والقمر [المدثر: ٣٢] فإنهم زعموا أنه بمعنى: إي والقمر.

المسألة الثالثة: الطغيان هو التكبر **والتمرد**، وتحقيق الكلام في هذه الآية أن الله تعالى لما ذكر في مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يبعد من العاقل أن لا يطلع عليها ولا يقف على حقائقها أتبعها بما هو السبب الأصلي في الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة، فإنه لا سبب لعمى القلب في الحقيقة إلا ذلك فإن قيل: إن فرعون ادعى الربوبية، فقال الله تعالى في حقه:

اذهب إلى فرعون إنه طغى [طه: ٢٤] وهاهنا ذكر في أبي جهل: ليطغى فأكده بهذه اللام، فما السبب في هذه الزيادة؟ قلنا: فيه وجوه أحدها: أنه قال لموسى: اذهب إلى فرعون إنه طغى وذلك قبل أن يلقاه موسى، وقبل أن يعرض عليه الأدلة، وقبل أن يدعي الربوبية وأما هاهنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله حين رد عليه أقبح الرد وثانيها: أن فرعون مع كمال سلطته ما كان يزيد كفره على القول، وما كان ليتعرض لقتل موسى عليها السلام ولا لإيذائه وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان/ يقصد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وإيذاءه وثالثها: أن فرعون أحسن إلى موسى أولا، وقال آخرا: آمنت [يونس: ٩٠] . وأما أبو جهل فكان يحسد النبي في صباه، وقال في آخر رمقه: بلغوا عني محمدا أني أموت ولا أحد أبغض إلي منه ورابعها: أنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب في مقابلة الكليم كاليد في مقابلة العين، والعاقل يصون عينه فوق ما يصون يده، بل يصون عينه باليد، فلهذا السبب كانت المبالغة هاهنا أكثر. أما قوله تعالى:

[سورة العلق (٩٦) : آية ٧]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦١/٣١

أن رآه استغنى (٧)

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الأخفش: لأن رآه فحذف اللام، كما يقال: إنكم لتطغون إن رأيتم غناكم.

المسألة الثانية: قال الفراء إنما قال: أن رآه ولم يقل: رأى نفسه كما يقال: قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي تستدعي اسما وخبرا نحو الظن والحسبان، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس فنقول: رأيتني وظننتني وحسبتني فقوله: أن رآه استغنى من هذا الباب.

المسألة الثالثة: في قوله: استغنى وجهان: أحدهما: استغنى بماله عن ربه، والمراد من الآية ليس هو الأول، لأن الإنسان قد ينال الثروة فلا يزيد إلا تواضعا كسليمان عليه السلام، فإنه كان يجالس المساكين ويقول: «مسكين جالس مسكينا» وعبد الرحمن بن عوف ما طغى مع كثرة أمواله، بل العاقل يعلم أنه عند الغنى يكون أكثر حاجة إلى الله تعالى منه حال فقره، لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه، وأما حال الغنى فإنه يتمنى سلامة نفسه وماله ومماليكه، وفي الآية وجه ثالث: «١» وهو أن سين استغنى سين الطالب والمعنى أن الإنسان رأى أن نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذلت الجهد في الطلب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد، لا أنه نالها بإعطاء الله وتوفيقه، وهذا جهل وحمق فكم من باذل وسعه في الحرص والطلب وهو يموت جوعا، ثم ترى أكثر الأغنياء في الآخرة يصيرون مدبرين خائفين، يريهم الله أن ذلك الغنى ما كان بفعلهم وقوتهم.

---

(١) لم يذكر الوجه الثاني كما ترى ولعله سقط من الناسخ. [.....]." [١]

"المسألة الرابعة: أول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال، وكفى بذلك مرغبا في الدين والعلم ومنفرا عن الدنيا والمال. ثم قال تعالى:

[سورة العلق (٩٦) : آية ٨]

إن إلى ربك الرجعى (٨)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديدا له وتحذيرا من عاقبة الطغيان.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢/٢٢٠

المسألة الثانية: الرجعى

المرجع والرجوع وهي بأجمعها مصادر، يقال: رجع إليه رجوعا/ ومرجعا ورجعى على وزن فعلى، وفي معنى الآية وجهان: أحدهما: أنه يرى ثواب طاعته وعقاب **تمرده** وتكبره وطغيانه، ونظيره قوله: ولا تحسبن الله غافلا إلى قوله: إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار [إبراهيم: ٤٢] وهذه الموعظة لا تؤثر إلا في قلب من له قدم صدق، أما الجاهل فيغضب ولا يعتقد إلا الفرح العاجل والقول الثاني: أنه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت، كما رده من النقصان إلى الكمال، حيث نقله من الجمادية إلى الحياة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الذل إلى العز، فما هذا التعزز والقوة.

المسألة الثالثة:

روي أن أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام: أتزعم أن من استغنى طغى، فاجعل لنا جبال مكة ذهبا وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى، فندع ديننا ونتبع دينك، فنزل جبريل وقال: إن شئت فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل ما فعلنا بأصحاب المائدة، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم.

[سورة العلق (٩٦) : الآيات ٩ الى ١٠]

أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: روي عن أبي جهل لعنه الله أنه قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فوالذي يحلف به لئن رأيته لأطأن عنقه، ثم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة فنكص على عقبيه، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهو لا شديدا. وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة.

واعلم أن ظاهر الآية هو الإنسان المتقدم ذكره، فلذلك قالوا: إنه ورد في أبي جهل، وذكروا ما كان منه من التوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام حين رآه يصلي، ولا يمتنع أن يكون نزولها في أبي جهل، ثم يعم في الكل، لكن ما بعده يقتضي أنه في رجل بعينه.

المسألة الثانية: قوله: أرأيت خطاب مع الرسول على سبيل التعجب، ووجه التعجب فيه أمور أحدها:

أنه عليه السلام قال: اللهم أعز الإسلام إما بأبي جهل بن هشام أو بعمر،

فكأنه تعالى قال له: كنت تظن أنه يعز به الإسلام، أمثله يعز به الإسلام، وهو ينهى عبدا إذا صلى وثانيها:

أنه كان يلقب بأبي الحكم، فكأنه تعالى يقول: كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه، أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان! وثالثها: أن ذلك الأحمق يأمر وينهى، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته، مع أنه ليس." (١)

"فطعنه، ولعل هذا معنى قوله: سنسمه على الخرطوم ثم لما عرف عجزه ولم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه فارتقى إليه بحيلة، فلما رآه أبو جهل قال: يا رويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعبا، فقال ابن مسعود:

الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فقال أبو جهل: بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلي منه في حياتي ولا أحد أبغض إلي منه في حال مماتي، فروي أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال: «فرعوني أشد من فرعون موسى فإنه قال آمنت [يونس: ٩٠] وهو قد زاد عتوا» ثم قال لابن مسعود: اقطع رأسي بسيفي هذا لأنه أحد وأقطع، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله،

ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفا لأجل أن لا يقوى على الحمل لوجوه: أحدها: أنه كلب والكلب يجر والثاني: لشق الأذن فيقتص الأذن بالأذن والثالث: لتحقيق الوعيد المذكور بقوله: لنسفعا بالناصية فتجر تلك الرأس على مقدمها، ثم إن ابن مسعود لما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل بين يديه يضحك، ويقول: يا محمد أذن بأذن لكن الرأس هاهنا مع الأذن، فهذا ما روي في مقتل أبي جهل نقلته معنى لا لفظا، الخاطئ معنى قوله: لنسفعا بالناصية.

المسألة الرابعة: الناصية شعر الجبهة وقد يسمى مكان الشعر الناصية، ثم إنه تعالى كنى هاهنا عن الوجه والرأس بالناصية، ولعل السبب فيه أن أبا جهل كان شديد الاهتمام بترجيل تلك الناصية وتطييبها، وربما كان يهتم أيضا بتسويدها فأخبره الله تعالى أنه يسودها مع الوجه.

المسألة الخامسة: أنه تعالى عرف الناصية بحرف التعريف كأنه تعالى يقول: الناصية المعروفة عندكم ذاتها لكنها مجهولة عندكم صفاتها ناصية وأي ناصية كاذبة قولا خاطئة فعلا، وإنما وصف بالكذب لأنه كان كاذبا على الله تعالى في أنه لم يرسل محمدا وكاذبا على رسوله في أنه ساحر أو كذاب أو ليس بنبي، وقيل: كذبه أنه قال: أنا أكثر أهل هذا الوادي ناديا، ووصف الناصية بأنها خاطئة لأن صاحبها **متمرد** على الله تعالى قال الله تعالى: لا يأكله إلا الخاطؤن [الحاقة: ٣٧] والفرق بين الخاطئ والمخطئ أن الخاطئ معاقب مؤاخذ والمخطئ غير مؤاخذ، ووصف الناصية بالخاطئة الكاذبة كما وصف الوجوه بأنها ناظرة في

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢١/٣٢

قوله تعالى: إلى ربها ناظرة [القيامة: ٢٣] .

المسألة السادسة: ناصية بدل من الناصية، وجاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة، لأنها وصفت فاستقلت بفائدة.

المسألة السابعة: قرئ ناصية بالرفع والتقدير هي ناصية، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم، واعلم أن الرسول عليه السلام لما أغلظ في القول لأبي جهل وتلا عليه هذه الآيات، قال: يا محمد بمن تهددني وإني لأكثر هذا الوادي ناديا، فافتخر بجماعته الذين كانوا يأكلون حطامه، فنزل قوله تعالى:

[سورة العلق (٩٦) : الآيات ١٧ الى ١٨]

فليدع ناديه (١٧) سندع الزبانية (١٨)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد مر تفسير النادي عند قوله: وتأتون في ناديكم المنكر [العنكبوت: ٢٩] قال أبو عبيدة: ناديه أي أهل مجلسه، وبالجملة فالمراد من النادي أهل النادي، ولا يسمى المكان ناديا حتى يكون فيه." (١)

"أهله، وسمي ناديا لأن القوم يندون إليه ندا وندوة، ومنه دار الندوة بمكة، وكانوا يجتمعون فيها للتشاور، وقيل: سمي ناديا لأنه مجلس الندى والجود، ذكر ذلك على سبيل التهكم أي: اجمع أهل الكرم والدفاع في زعمك لينصروك.

المسألة الثانية: قال أبو عبيدة والمبرد: واحد الزبانية زبنية وأصله من زبنية إذا دفعته وهو **متمرد** من إنس أو جن، ومثله في المعنى والتقدير عفرية يقال: فلان زبنية عفرية، وقال الأخفش: قال بعضهم واحده الزباني، وقال آخرون: الزابن، وقال آخرون: هذا من الجمع الذي لا واحد له من لفظه في لغة الغرب مثل أبابيل وعباديد وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب، ولا شك أنهم مخصوصون بقوة شديدة. وقال مقاتل: هم خزنة جهنم أرجلهم في الأرض ورؤسهم في السماء، وقال قتادة: الزبانية هم الشرط في كلام العرب وهم الملائكة الغلاظ الشداد، وملائكة النار سموا الزبانية لأنهم يزبنون الكفار أي يدفعونهم في جهنم.

المسألة الثالثة: في الآية قولان: الأول: أي فليفعل ما ذكره من أنه يدعو أنصاره ويستعين بهم في مباطلة محمد، فإنه لو فعل ذلك فنحن ندعو الزبانية الذين لا طاقة لناديه وقومه بهم، قال ابن عباس: لو دعا ناديه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٥/٣٢

لأخذته الزبانية من ساعته معاينة، وقيل: هذا إخبار من الله تعالى بأنه يجر في الدنيا كالكلب وقد فعل به ذلك يوم بدر، وقيل: بل هذا إخبار بأن الزبانية يجرونه في الآخرة إلى النار القول الثاني: أن في الآية تقديما وتأخيرا أي لنسفعا بالناصية وسندع الزبانية في الآخرة، فليدع هو ناديه حينئذ فليمنعوه.

المسألة الرابعة: الفاء في قوله: فليدع ناديه تدل على المعجز، لأن هذا يكون تحريضا للكافر على دعوة ناديه وقومه، ومتى فعل الكافر ذلك ترتب عليه دعوة الزبانية، فلما لم يجترئ الكافر على ذلك دل على ظهور معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم.

المسألة الخامسة: قرئ: ستدعى على المجهول، وهذه السين ليست للشك «١» فإن عسى/ من الله واجب الوقوع، وخصوصا عند بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن ينتقم له من عدوه، ولعل فائدة السين هو المراد من

قوله عليه السلام: «لأنصرنك ولو بعد حين» .

[سورة العلق (٩٦) : آية ١٩]

كلا لا تطعه واسجد واقترب (١٩)

ثم قال: كلا وهو ردع لأبي جهل، وقيل: معناه لن يصل إلى ما يتصلف به من أنه يدعو ناديه ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه، وهو أذل وأحقر من أن يقاومك، ويحتمل: لن ينال ما يتمنى من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة، وقيل معناه: ألا لا تطعه.

ثم قال: لا تطعه وهو كقوله: فلا تطع المكذبين [القلم: ٨] ، واسجد وعند أكثر أهل التأويل أراد به صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلا وإبلاغا، وليقل فكرك في هذا العدو فإن الله مقويك وناصرك، وقال بعضهم: بل المراد الخضوع، وقال آخرون: بل المراد نفس السجود في الصلاة.

ثم قال: واقترب والمراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك،

وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد

---

(١) السين من معانيها التأكيد للوعد والوعيد، نحو قوله تعالى: فسيكفيكهم الله ونحو سأنتقم منك، ولم

أقل على أنها للشك ولعل الإمام أراد التأكيد بنفي مقابله وهو الشك. لأن أبا جهل كان شاكا في الآخرة.." (١)

"بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العاديات

إحدى عشرة آية مكية

[سورة العاديات (١٠٠) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

والعاديات ضبحا (١)

اعلم أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدت، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمحمة، ولكنه صوت نفس، ثم اختلفوا في المراد بالعاديات على قولين:

الأول: ما

روي عن علي عليه السلام وابن مسعود أنها الإبل،

وهو قول إبراهيم والقرظي

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «بينا أنا جالس في الحجر إذ أتاني رجل فسألني عن العاديات ضبحا، ففسرتها بالخيل فذهب إلى علي عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت، فقال: ادعه لي فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان، فرس للزبير وفرس للمقداد والعاديات ضبحا الإبل من عرفة إلى مزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى،

يعني إبل الحاج، قال ابن عباس: فرجعت عن قولي إلى قول علي عليه السلام» ويتأكد هذا القول بما روى أبي في فضل السورة مرفوعا: «من قرأها أعطي من الأجر بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا»

وعلى هذا القول:

فالموريات قدحا أن الحوافر ترمي بالحجر من شدة العدو فتضرب به حجرا آخر فتوري النار أو يكون المعنى الذين يركبون الإبل وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بالمزدلفة فالمغيرات الإغارة سرعة السير وهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٦/٣٢

يندفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى منى فأثرن به نقعا يعني غبارا بالعدو وعن محمد بن كعب النقع ما بين المزدلفة إلى منى فوسطن به جمعا يعني مزدلفة لأنها تسمى الجمع لاجتماع الحاج بها، وعلى هذا التقدير، فوجه القسم به من وجوه أحدها: ما ذكرنا من المنافع الكثيرة فيه في قوله: أفلا ينظرون إلى الإبل [الغاشية: ١٧] وثانيها: كأنه تعريض بالآدمي الكنود فكأنه تعالى يقول: إني سخرت مثل هذا لك وأنت متمرد عن طاعتي وثالثها: الغرض بذكر إبل الحج الترغيب في الحج، كأنه تعالى يقول: جعلت ذلك الإبل مقسما به، فكيف أضيع/ عملك! وفيه تعريض لمن يرغب الحج، فإن الكنود هو الكفور، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك، كما في قوله تعالى: ولله على الناس حج البيت إلى قوله: ومن كفر آل عمران:." (١)

"فيها كيف يشاء، وهو قول أبي مسلم، وعلى هذين الوجهين الآية عامة. الثالث: أراد به الملائكة وعزيزا والمسيح، أي كل من هؤلاء الذين حكموا عليهم بالولد أنهم قانتون له،

يحكى عن علي بن أبي طالب قال لبعض النصارى: لولا تمرد عيسى عن عبادة الله لصرت على دينه، فقال النصراني: كيف يجوز أن ينسب ذلك إلى/ عيسى مع جده في طاعة الله، فقال علي رضي الله عنه: فإن كان عيسى إلها فالإله كيف يعبد غيره إنما العبد هو الذي يليق به العبادة، فانقطع النصراني.

المسألة الثانية: لما كان القنوت في أصل اللغة عبارة عن الدوام كان معنى الآية أن دوام الممكنات وبقاءها به سبحانه ولأجله وهذا يقتضي أن العالم حال بقائه واستمراره محتاج إليه سبحانه وتعالى، فثبت أن الممكن يقتضي أن لا تنقطع حاجته عن المؤثر لا محال حدوثه ولا حال بقائه.

المسألة الثالثة: يقال كيف جاء بما الذي لغير أولي العلم مع قوله: قانتون جوابه: كأنه جاء بما دون من تحقيرا لشأنهم.

أما قوله تعالى: بديع السماوات والأرض ففيه مسائل:

المسألة الأولى: البديع والمبدع بمعنى واحد. قال القفال: وهو مثل أليم بمعنى مؤلم وحكيم بمعنى محكم، غير أن في بديع مبالغة للعدول فيه وأنه يدل على استحقاق الصفة في غير حال الفعل على تقدير أن من شأنه الإبداع فهو في ذلك بمنزلة: سامع وسميع وقد يجيء بديع بمعنى مبدع، والإبداع الإنشاء ونقيض الإبداع الاختراع على مثال ولهذا السبب فإن الناس يسمعون من قال أو عمل ما لم يكن قبله مبتدعا.

المسألة الثانية: اعلم أن هذا من تمام الكلام الأول، لأنه تعالى قال: بل له ما في السماوات والأرض فبين

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥٨/٣٢

بذلك كونه مالكا لما في السموات والأرض [في قوله تعالى وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون] ثم بين بعده أنه المالك أيضا للسموات والأرض، ثم إنه تعالى بين أنه كيف يبدع الشيء فقال: وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعض الأدباء: القضاء مصدر في الأصل سمي به ولهذا جمع على أقضية كغطاء وأغطية، وفي معناه القضية، وجمعها القضايا ووزنه فعال من تركيب «ق ض ي» وأصله «قضاي» إلا أن الياء لما وقعت طرفا بعد الألف الزائدة اعتلت فقلبت ألفا، ثم لما لاقت هي ألف فعال قلبت همزة لامتناع التقاء الألفين لفظا، ومن نظائره المضاء والأتاء، من مضيت وأتيت والسقاء، والشفاء، من سقيت وشفيت، والدليل على أصالة الياء دون الهمزة ثباتها في أكثر تصرفات الكلمة تقول: قضيت وقضينا، وقضيت إلى قضيتن، وقضيا وقضين، وهما يقضيان، وهي وأنت تقضي، والمرأتان وأنتما تقضيان، وهن يقضين، وأما أنت تقضين، فالياء فيه ضمير المخاطبة، وأما معناه فالأصل الذي يدل تركيبه عليه هو معنى القطع، من ذلك قولهم، قضى القاضي لفلان على فلان بكذا قضاء إذا حكم، لأنه فصل للدعوى، ولهذا قيل: حاكم فيصل إذا كان قاطعا للخصومات وحكى ابن الأنباري عن أهل اللغة أنهم قالوا: القاضي معناه القاطع للأمور المحكم لها، وقولهم انقضى الشيء إذا تم وانقطع، وقولهم: قضى حاجته، معناه قطعها عن المحتاج ودفعها عنه وقضى دينه إذا أداه إليه كأنه قطع التقاضي والاقتضاء عن نفسه أو انقطع كل منهما عن صاحبه، / وقولهم: قضى الأمر، إذا أتمه وأحكمه، ومنه قوله تعالى: فقضاهن سبع سماوات [فصلت: ١٢] وهو من هذا لأن في إتمام العمل قطعا له وفراغا منه، ومنه:." (١)

"مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أمورا توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قوله محمد صلى الله عليه وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه، وبيانه من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لما أمره ببعض التكاليف فلما وفى بها وخرج عن عهدتها لا جرم نال النبوة والإمامة وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه. وثانيها: أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى: لا ينال عهدي الظالمين فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل وثالثها: أن الحج من خصائص

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/٢٤

دين محمد صلى الله عليه وسلم، فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك. ورابعها: أن القبلة لما حولت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود والنصارى، فبين الله تعالى أن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي يعترفون بتعظيمه ووجوب الاقتداء به فكان ذلك مما يوجب زوال ذلك الغضب عن قلوبهم.

وخامسها: أن من المفسرين من فسر الكلمات التي ابتلى الله تعالى إبراهيم بها بأمور يرجع حاصلها إلى تنظيف البدن وذلك مما يوجب على المشركين اختيار هذه الطريقة لأنهم كانوا معترفين بفضل إبراهيم عليه السلام ويوجب عليهم ترك ما كانوا عليه من التلطخ بالدماء وترك النظافة ومن المفسرين من فسر تلك الكلمات بما أن إبراهيم عليه السلام صبر على ما ابتلي به في دين الله تعالى/ وهو النظر في الكواكب والقمر والشمس ومناظرة عبدة الأوثان، ثم الانقياد لأحكام الله تعالى في ذبح الولد والإلقاء في النار، وهذا يوجب على هؤلاء اليهود والنصارى والمشركين الذين يعترفون بفضله أن يتشبهوا به في ذلك ويسلكوا طريقته في ترك الحسد والحمية وكراهة الانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم، فهذه الوجوه التي لأجلها ذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام.

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أمورا يرجع بعضها إلى الأمور الشاقة التي كلفه بها، وبعضها يرجع إلى التشريفات العظيمة التي خصه الله بها، ونحن نأتي على تفسيرها إن شاء الله تعالى، وهذه الآية دالة على تكليف حصل بعده تشريف.

أما التكليف فقوله تعالى: وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن وفيه مسائل:

المسألة الأولى: [العامل في إذ] قال صاحب الكشاف: العامل في إذ إما مضمر نحو: واذكر إذ ابتلى إبراهيم أو إذ ابتلاه كان كيت وكيت وإما قال إني جاعلك.

المسألة الثانية: أنه تعالى وصف تكليفه إياه ببلوى توسعا لأن مثل هذا يكون منا على جهة البلوى والتجربة والمحنة من حيث لا يعرف ما يكون ممن يأمره، فلما كثر ذلك في العرف بيننا جاز أن يصف الله تعالى أمره ونهيه بذلك مجازا لأنه تعالى لا يجوز عليه الاختبار والامتحان لأنه تعالى عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد، وقال هشام بن الحكم: إنه تعالى كان في الأزل عالما بحقائق الأشياء وماهياتها فقط، فأما حدوث تلك الماهيات ودخولها في الوجود فهو تعالى لا يعلمها إلا عند وقوعها واحتج عليه بالآية والمعقول، أما الآية فهي هذه الآية، قال: إنه تعالى صرح بأنه يبتلي عباده ويختبرهم وذكر نظيره في سائر الآيات كقوله تعالى: ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين

[محمد: ٣١] وقال: ليبلوكم أيكم أحسن عملا [هود: ٧] وقال في هذه السورة بعد ذلك: ولنبلونكم بشيء من الخوف." [١]

"على التعيين، وعندنا أنه متى كان الأمر كذلك كان القصاص متعينا، إنما النزاع في أن ولي الدم هل يتمكن من العدول إلى الدية وليس في الآية دلالة على أنه إذا أراد الدية ليس له ذلك.

المسألة الثانية: اختلفوا في كيفية المماثلة التي دلت هذه الآية على إيجابها فقال الشافعي: يراعى جهة القتل الأول فإن كان الأول قتله بقطع اليد قطعت يد القاتل فإن مات منه في تلك المرة وإلا/ حزت رقبته، وكذلك لو أحرق الأول بالنار أحرق الثاني، فإن مات في تلك المرة وإلا حزت رقبته، وقال أبو حنيفة رحمه الله: المراد بالمثل تناول النفس بأرجى ما يمكن فعلى هذا لا اقتصاص إلا بالسيف بحز الرقبة، حجة الشافعي رحمه الله أن الله تعالى أوجب التسوية بين الفعلين وذلك يقتضي حصول التسوية من جميع الوجوه الممكنة، ويدل عليه وجوه أحدها: أنه يجوز أن يقال كتبت التسوية في القتلى إلا في كيفية القتل، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فدخل هذا على أن كيفية القتل داخلة تحت النص وثانيها: أنا لو لم نحكم بدلالة هذه الآية على التسوية في كل الأمور لصارت الآية مجملة ولو حكمنا فيها بالعموم كانت الآية مفيدة، لكنها بما صارت مخصوصة في بعض الصور والتخصيص أهون من الإجمال وثالثها: أن الآية لو لم تفد إلا الإيجاب للتسوية في أمر من الأمور فلا شيئين إلا وهما متساويان في بعض الأمور، فحينئذ لا يستفاد من هذه الآية شيء البتة، وهذا الوجه قريب من الثاني فثبت أن هذه الآية تفيد وجوب التسوية من كل الوجوه ثم تأكد هذا النص بسائر النصوص المقتضية لوجوب المماثلة، كقوله تعالى: وجزاء سيئة سيئة مثلها [الشورى: ٤٠] فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم [البقرة: ١٩٤] من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها [غافر: ٤٠] ثم تأكدت هذه النصوص المتواترة

بالخبر المشهور عن الرسول عليه السلام وهو قوله: «من حرق حرقناه، ومن غرق غرقناه»

ومما

يروى أن يهوديا رضخ رأس صبية بالحجارة فقتلها، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن ترضخ رأس اليهودي بالحجارة،

وإذا ثبت هذا بلغت دلالة الآية مع سائر الآيات، ومع هذه الأحاديث على قول الشافعي مبلغا قويا، واحتج أبو حنيفة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١/٤

بقوله عليه السلام: «لا قود إلا بالسيف»

وبقوله عليه السلام: «لا يعذب بالنار إلا ربها»

والجواب أن الأحاديث لما تعارضت بقيت دلالة الآيات خالية عن المعارضات والله أعلم.

المسألة الثالثة: اتفقوا على أن هذا القاتل إذا لم يتب وأصر على ترك التوبة، فإن القصاص مشروع في حقه عقوبة من الله تعالى وأما إذا كان تائبا فقد اتفقوا على أنه لا يجوز أن يكون عقوبة وذلك لأن الدلائل دلت على أن التوبة مقبولة قال تعالى: وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات [الشورى: ٢٥] وإذا صارت التوبة مقبولة امتنع أن يبقى التائب مستحقا للعقاب،

ولأنه عليه السلام قال: «التوبة تمحو الحوبة»

فثبت أن شرع القصاص في حق التائب لا يمكن أن يكون عقوبة ثم عند هذا اختلفوا فقال أصحابنا: يفعل الله ما يشاء ولا اعتراض عليه في شيء وقالت المعتزلة إنما شرع ليكون لطفا به ثم سألوا أنفسهم فقالوا: إنه لا تكلف بعد القتل فكيف يكون هذا القتل لطفا به؟ وأجابوا عنه بأن هذا القتل فيه منفعة لولي المقتول من حيث التشفي ومنفعة لسائر المكلفين من حيث يزجر سائر الناس عن القتل، ومنفعة للقاتل من حيث إنه متى علم أنه لا بد وأن يقتل صار ذلك داعيا له إلى الخير وترك الإصرار **والتمرد**.

/ أما قوله تعالى: الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ففيه قولان:." [١]

"عليه الحج في وقت إبراهيم عليه السلام، وهو المراد

بقوله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»

فهذا مجموع ما قاله المفسرون في هذا الباب.

وذكر القاضي كلاما حسنا في هذا الموضع فقال: قوله تعالى: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج يحتمل أن يكون خبرا وأن يكون نهيا كقوله: لا ريب فيه [السجدة: ٢] أي لا ترتابوا فيه، وظاهر اللفظ للخبر فإذا حملناه على الخبر كان معناه أن الحج لا يثبت مع واحدة من هذه الخلال بل يفسد لأنه كالضد لها وهي مانعة من صحته، وعلى هذا الوجه لا يستقيم المعنى، إلا أن يراد بالرفث الجماع المفسد للحج، ويحمل الفسوق على الزنا لأنه يفسد الحج، ويحمل الجدال على الشك في الحج ووجوبه لأن ذلك يكون كفرا فلا يصح معه الحج وإنما حملنا هذه الألفاظ الثلاثة على هذه المعاني حتى يصح خبر الله بأن هذه

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٢٢٣

الأشياء لا توجد مع الحج، فإن قيل: أليس أن مع هذه الأشياء يصير الحج فاسدا ويجب على صاحبه المضي فيه، وإذا كان الحج باقيا معها لم يصدق الخبر بأن هذه الأشياء لا توجد مع الحج، قلنا: المراد من الآية حصول المضادة بين هذه الأشياء وبين الحجة التي أمر الله تعالى بها ابتداء وتلك الحجة الصحيحة لا تبقى مع هذه الأشياء بدليل أنه يجب قضاؤها، والحجة الفاسدة التي يجب عليه المضي فيها شيء آخر سوى تلك الحجة التي أمر الله تعالى بها ابتداء، وأما الجدال الحاصل بسبب الشك في وجوب الحج فظاهر أنه لا يبقى معه عمل الحج لأن ذلك كفر وعمل الحج مشروط بالإسلام فثبت أنا إذا حملنا اللفظ على الخبر وجب حمل الرفث والفسوق الجدال على ما ذكرناه، أما إذا حملناه على النهي وهو في الحقيقة عدول عن ظاهر اللفظ فقد يصح أن يراد بالرفث الجماع ومقدماته وقول الفحش، وأن يراد بالفسوق جميع أنواعه، وبالجدال جميع أنواعه، لأن اللفظ مطلق ومتناول لكل هذه الأقسام فيكون النهي عنها نهيا عن جميع أقسامها، وعلى هذا الوجه تكون هذه الآية كالحث على الأخلاق الجميلة، والتمسك بالآداب الحسنة، والاحتراز عما/ يحبط ثواب الطاعات.

المسألة الثالثة: الحكمة في أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة لا أزيد ولا أنقص، وهو قوله: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج هي أنه قد ثبت في العلوم العقلية أن الإنسان فيه قوى أربعة: قوة شهوانية بهيمية، وقوة غضبية سبعية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية ملكية، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاثة، أعني الشهوانية، والغضبية، والوهمية، فقوله فلا رفث إشارة إلى قهر الشهوانية، وقوله: ولا فسوق إشارة إلى قهر القوة الغضبية التي توجب **التمرد** والغضب، وقوله: ولا جدال إشارة إلى القوة الوهمية التي تحمل الإنسان على الجدال في ذات الله، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأسمائه، وهي الباعثة للإنسان على منازعة الناس ومماراتهم، والمخاصمة معهم في كل شيء، فلما كان منشأ الشر محصورا في هذه الأمور الثلاثة لا جرم قال: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج أي فمن قصد معرفة الله ومحبته والاطلاع على نور جلاله، والانخراط في سلك الخواص من عباده، فلا يكون فيه هذه الأمور، وهذه أسرار نفسية هي المقصد الأقصى من هذه الآيات، فلا ينبغي أن يكون العاقل غافلا عنها، ومن الله التوفيق في كل الأمور.

المسألة الرابعة: من الناس من عاب الاستدلال والبحث والنظر والجدال واحتج بوجوه أحدها: أنه تعالى قال: ولا جدال في الحج وهذا يقتضي نفي جميع أنواع الجدال، ولو كان الجدال في الدين طاعة وسبيلا." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٩/٥

"إلى معرفة الله تعالى لما نهى عنه في الحج، بل على ذلك التقدير كان الاشتغال بالجدال في الحج ضم طاعة إلى طاعة فكان أولى بالترغيب فيه وثانيها: قوله تعالى: ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون [الزخرف:
٥٨] عابهم بكونهم من أهل الجدل، وذلك يدل على أن الجدل مذموم، وثالثها: قوله: ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم [الأنفال: ٤٦] نهي عن المنازعة.
وأما جمهور المتكلمين فإنهم قالوا: الجدال في الدين طاعة عظيمة، واحتجوا عليه بقوله تعالى: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن [النحل: ١٢٥] وبقوله تعالى حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام: يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا [هود: ٣٢] ومعلوم أنه ما كان ذلك الجدال إلا لتقرير أصول الدين.
إذا ثبت هذا فنقول: لا بد من التوفيق بين هذه النصوص، فنحمل الجدل المذموم على الجدل في تقرير الباطل، وطلب المال والجاه، والجدل الممدوح على الجدل في تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله، والذب عن دين الله تعالى.
أما قوله تعالى: وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى [البقرة: ١٩٧] فاعلم أن الله تعالى قبل هذه الآية أمر بفعل ما هو خير وطاعة، فقال: وأتموا الحج والعمرة لله [البقرة: ١٩٦] وقال: فمن فرض/ فيهن الحج ونهى عما هو شر ومعصية فقال: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ثم عقب الكل بقوله: وما تفعلوا من خير يعلمه الله وقد كان الأولى في الظاهر أن يقال: وما تفعلوا من شيء يعلمه الله، حتى يتناول كل ما تقدم من الخير والشر، إلا أنه تعالى خص الخير بأنه يعلمه الله لفوائد ولطائف أحدها: إذا علمت منك الخير ذكرته وشهرته، وإذا علمت منك الشر سترته وأخفيته لتعلم أنه إذا كانت رحمتي بك في الدنيا هكذا، فكيف في العقبى وثانيها: أن من المفسرين من قال في تفسير قوله: إن الساعة آتية أكاد أخفيها [طه: ١٥] معناه: لو أمكنني أن أخفيها عن نفسي لفعلت فكذا هذه الآية، كأنه قيل للعبد: ما تفعله من خير علمته، وأما الذي تفعله من الشر فلو أمكن أن أخفيه عن نفسي لفعلت ذلك وثالثها: أن السلطان العظيم إذا قال لعبده المطيع: كل ما تتحمله من أنواع المشقة والخدمة في حقي فأنا عالم به ومطلع عليه، كان هذا وعدا له بالثواب العظيم، ولو قال ذلك لعبده المذنب **المتمرد** كان توعدا بالعقاب الشديد، ولما كان الحق سبحانه أكرم الأكرمين لا جرم ذكر ما يدل على الوعد بالثواب، ولم يذكر ما يدل على الوعيد بالعقاب ورابعها:

أن

جبريل عليه السلام لما قال: ما الإحسان؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

فههنا بين للعبد أنه يراه ويعلم جميع ما يفعله من الخيرات لتكون طاعة العبد للرب من الإحسان الذي هو أعلى درجات العبادة، فإن الخادم متى علم أن مخدومه مطلع عليه ليس بغافل عن أحواله كان أحرص على العمل وأكثر التذاذا به وأقل نفرة عنه وخامسها: أن الخادم إذا علم اطلاع المخدوم على جميع أحواله وما يفعله كان جده واجتهاده في أداء الطاعات وفي الاحتراز عن المحظورات أشد مما إذا لم يكن كذلك، فلهذه الوجوه أتبع تعالى الأمر بالحج والنهي عن الرفث والفسوق والجدال بقوله: وما تفعلوا من خير يعلمه الله.

أما قوله تعالى: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ففيه قولان أحدهما: أن المراد: وتزودوا من التقوى،." [١]

"[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٨]

حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين (٢٣٨)

الحكم السادس عشر حكم المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين للمكلفين ما بين من معالم دينه، وأوضح لهم من شرائع شرعه أمرهم بعد ذلك بالمحافظة على الصلوات وذلك لوجوه أحدها: أن الصلاة لما فيها من القراءة والقيام والركوع والسجود والخضوع والخشوع تفيد انكسار القلب من هيبة الله تعالى، وزوال **التمرد** عن الطبع، وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى والانتهاء عن مناهيه، كما قال: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر [العنكبوت: ٤٥] والثاني: أن الصلاة تذكر العبد جلالة الربوبية وذلة العبودية وأمر الثواب والعقاب فعند ذلك يسهل عليه الانقياد للطاعة ولذلك قال: استعينوا بالصبر والصلاة [البقرة: ٤٥] والثالث: أن كل ما تقدم من بيان النكاح والطلاق والعدة اشتغال بمصالح الدنيا، فأتبع ذلك بذكر الصلاة التي هي مصالح الآخرة، وفي الآية مسائل: المسألة الأولى: أجمع المسلمون على أن الصلاة المفروضة خمسة، وهذه الآية التي نحن في تفسيرها دالة على ذلك، لأن قوله: حافظوا على الصلوات يدل على الثلاثة من حيث إن أقل الجمع ثلاثة، ثم إن قوله تعالى: والصلاة الوسطى يدل على شيء أزيد من الثلاثة، وإلا لزم التكرار، / والأصل عدمه، ثم ذلك الزائد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٣٢٠

يمتنع أن يكون أربعة، وإلا فليس لها وسطى، فلا بد وأن ينضم إلى تلك الثلاثة عدد آخر يحصل به للمجموع وسط، وأقل ذلك أن يكون خمسة، فهذه الآية دالة على وجوب الصلوات الخمسة بهذا الطريق، واعلم أن هذا الاستدلال إنما يتم إذا بينا أن المراد من الوسطى ما تكون وسطى في العدد لا ما تكون وسطى بسبب الفضيلة ونبين ذلك بالدليل إن شاء الله تعالى إلا أن هذه الآية وإن دلت على وجوب الصلوات الخمس لكنها لا تدل على أوقاتها، والآيات الدالة على تفصيل الأوقات أربع:

الآية الأولى: قوله: فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون [الروم: ١٧، ١٨] وهذه الآية أبين آيات المواقيت فقوله: فسبحان الله أي سبحوا الله معناه صلوا لله حين تمسون، أراد به صلاة المغرب والعشاء وحين تصبحون أراد صلاة الصبح وعشيا أراد به صلاة العصر وحين تظهرون صلاة الظهر.

الآية الثانية: قوله: أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل [الإسراء: ٧٨] أراد بالدلوك زوالها فدخل فيه صلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ثم قال: وقرآن الفجر أراد صلاة الصبح.

الآية الثالثة: قوله: وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار [طه: ١٣٠] فمن الناس من قال: هذه الآية تدل على الصلوات الخمس، لأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها، فالليل والنهار داخلان في هاتين اللفظتين.

الآية الرابعة: قوله تعالى: وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل [هود: ١١٤] فالمراد بطرفي." (١)

"والقول الثاني: أن المراد بهذه المتعة النفقة، والنفقة قد تسمى متاعا وإذا حملنا هذا المتاع على النفقة اندفع التكرار فكان ذلك أولى، وهاهنا آخر الآيات الدالة على الأحكام والله أعلم.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٣]

ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٢٤٣)

القصة الأولى من قصص بني إسرائيل

اعلم أن عادته تعالى في القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام القصص ليفيد الاعتبار للسامع، ويحمله ذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٨٢/٦

الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد فقال: ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم أما قوله:

ألم تر ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الرؤية قد تجيء بمعنى رؤية البصيرة والقلب، وذلك راجع إلى العلم، كقوله: وأرنا مناسكنا [البقرة: ١٢٨] معناه: علمنا، وقال: لتحكم بين الناس بما أراك الله [النساء: ١٠٥] أي علمك، ثم إن هذا اللفظ قد يستعمل فيما تقدم للمخاطب العلم به، وفيما لا يكون كذلك فقد يقول الرجل لغيره يريد تعريفه ابتداء: ألم تر إلى ما جرى على فلان، فيكون هذا ابتداء تعريف، فعلى هذا يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف هذه القصة إلا بهذه الآية، ويجوز أن نقول: كان العلم بها سابقا على نزول هذه الآية، ثم إن الله تعالى أنزل هذه الآية على وفق ذلك العلم.

المسألة الثانية: هذا الكلام ظاهره خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه لا يبعد أن يكون المراد هو وأمته، إلا أنه وقع الابتداء بالخطاب معه، كقوله تعالى: يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن [الطلاق: ١] .

المسألة الثالثة: دخول لفظة (إلى) في قوله تعالى: ألم تر إلى الذين يحتمل أن يكون لأجل أن (إلى) عندهم حرف للانتهاء كقولك: من فلان إلى فلان، فمن علم بتعليم معلم، فكأن ذلك المعلم أوصل ذلك المتعلم إلى ذلك المعلوم وأنهاه إليه، فحسن من هذا الوجه دخول حرف (إلى) فيه، ونظيره قوله تعالى:

ألم تر إلى ربك كيف مد الظل [الفرقان: ٤٥] .

أما قوله: إلى الذين خرجوا من ديارهم ففيه روايات أحدها: قال السدي: كانت قرية وقع فيها الطاعون وهرب عامة أهلها، والذين بقوا مات أكثرهم، وبقي قوم منهم في المرض والبلاء، ثم بعد ارتفاع المرض والطاعون رجع الذين هربوا سالمين، فقال من بقي من المرضى: هؤلاء أحرص منا، لو صنعنا ما صنعوا لنجونا من الأمراض والآفات، ولئن وقع الطاعون ثانيا خرجنا فوقع وهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفا، فلما خرجوا من ذلك الوادي، ناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه: أن موتوا، فهلكوا وبليت أجسامهم، فمر بهم نبي يقال له حزقيل، فلما رآهما وقف عليهم وتفكر فيهم فأوحى الله تعالى إليه أتريد أن أريك كيف أحييهم؟ فقال نعم فقيل له: ناد أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي، فجعلت العظام يطير بعضها." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٩٥/٦

"أما قوله: فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: لا خلاف بين المفسرين أن الذين عصوا الله وشربوا من النهر رجعوا إلى بلدهم ولم يتوجه معه إلى لقاء العدو إلا من أطاع الله تعالى في باب الشرب من النهر، وإنما اختلفوا في أن رجوعهم إلى بلدهم كان قبل عبور النهر أو بعده، وفيه قولان الأول: أنه ما عبر معه إلا المطيع، واحتج هذا القائل بأمور الأول: أن الله تعالى قال: فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه فالمراد بقوله: الذين آمنوا معه الذين وافقوه في تلك الطاعة، فلما ذكر الله تعالى كل العسكر، ثم خص المطيعين بأنهم عبروا النهر، علمنا أنه ما عبر النهر أحد إلا المطيعين.

الحجة الثانية: الآية المتقدمة وهي قوله تعالى حكاية عن طالوت فمن شرب منه فليس مني أي ليس من أصحابي في سفري، كالرجل الذي يقول لغيره: لست أنت منا في هذا الأمر. قال: ومعنى فشربوا منه أي ليتسببوا به إلى الرجوع، وذلك لفساد دينهم وقلبهم.

الحجة الثالثة: أن المقصود من هذا الابتلاء أن يتميز المطيع عن العاصي **والمتمرد**، حتى يصرفهم عن نفسه ويردهم قبل أن يرتدوا عند حضور العدو، وإذا كان المقصود من هذا الابتلاء ليس إلا هذا المعنى كان الظاهر أنه صرفهم عن نفسه في ذلك الوقت وما أذن لهم في عبور النهر.

القول الثاني: أنه استصحب كل جنوده وكلهم عبروا النهر واعتمدوا في إثبات هذا القول على قوله تعالى حكاية عن قوم طالوت قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق بالمؤمن المنقاد لأمر ربه، بل لا يصدر إلا عن المنافق أو الفاسق، وهذه الحجة ضعيفة، وبيان ضعفها من وجوه أحدها: يحتمل أن يقال: إن طالوت لما عزم على مجاوزة النهر وتخلف الأكثرون ذكر المتخلفون أن عذرنا في هذا التخلف أنه لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده فنحن معذورون في هذا التخلف، أقصى ما في الباب أن يقال: إن الفاء في قوله: فلما جاوزه تقتضي أن يكون قولهم: لا طاقة لنا اليوم بجالوت إنما وقع بعد المجاوزة، إلا أنا نقول يحتمل أن يقال: إن طالوت والمؤمنين لما جاوزوا النهر ورأوا القوم تخلفوا وما جاوزوه، سألهم عن سبب التخلف فذكروا ذلك، وما كان النهر في العظم بحيث يمنع من المكالمة، ويحتمل أن يكون المراد بالمجاوزة قرب حصول المجاوزة، وعلى هذا التقدير فالإشكال أيضا زائل.

والجواب الثاني: أنه يحتمل أن يقال: المؤمنون الذين عبروا النهر كانوا فريقين: بعضهم ممن يحب الحياة ويكره الموت وكان الخوف والجزع غالبا على طبعه، ومنهم من كان شجاعا قوي القلب لا يبالي بالموت في طاعة الله تعالى.

فالقسم الأول: هم الذين قالوا: لا طاقة لنا اليوم.

والقسم الثاني: هم الذين أجابوا بقولهم: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

والجواب الثالث: يحتمل أن يقال: القسم الأول من المؤمنين لما شاهدوا قلة عسكرهم قالوا: / لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده فلا بد أن نوطن أنفسنا على القتل، لأنه لا سبيل إلى الفرار من أمر الله، والقسم الثاني قالوا: لا نوطن أنفسنا بل نرجو من الله الفتح والظفر، فكان غرض الأولين الترغيب في الشهادة والفوز." (١)

"المسألة الأولى: في قوله فإن الله يعلمه على اختصاره، يفيد الوعد العظيم للمطيعين، والوعيد الشديد للمتمردين، وبيانه من وجوه أحدها: أنه تعالى عالم بما في قلب المتصدق من نية الإخلاص والعبودية أو من نية الرياء والسمعة وثانيها: أن علمه بكيفية نية المتصدق يوجب قبول تلك الطاعات، كما قال: إنما يتقبل الله من المتقين [المائدة: ٢٧] وقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [الزلزلة: ٧، ٨] وثالثها: أنه تعالى يعلم القدر المستحق من الثواب والعقاب على تلك الدواعي والنيات فلا يهمل شيئا منها، ولا يشتبه عليه شيء منها.

المسألة الثانية: إنما قال: فإن الله يعلمه ولم يقل: يعلمها، لوجهين الأول: أن الضمير عائد إلى الأخير، كقوله ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا

وهذا قول الأخفش، والثاني: أن الكناية عادت إلى ما في قوله وما أنفقتم من نفقة لأنها اسم كقوله وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به [البقرة: ٢٣١].

المسألة الثالثة: النذر ما يلتزمه الإنسان بإيجابه على نفسه يقال: نذر ينذر، وأصله من الخوف لأن الإنسان إنما يعقد على نفسه خوف التقصير في الأمر المهم عنده، وأنذرت القوم إنذارا بالتخويف، وفي الشريعة على ضربين: مفسر وغير مفسر، فالمفسر أن يقول: لله علي عتق رقبة، ولله علي حج، فههنا يلزم الوفاء به، ولا يجزيه غيره وغير المفسر أن يقول: نذرت لله أن لا أفعل كذا ثم يفعله، أو يقول: لله علي نذر من غير تسمية فيلزم فيه كفارة يمين،

لقوله صلى الله عليه وسلم: «من نذر نذرا وسمى فعليه ما سمى، ومن نذر نذرا ولم يسم فعليه كفارة يمين».

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١٢/٦

أما قوله تعالى: وما للظالمين من أنصار ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: أنه وعيد شديد للظالمين، وهو قسمان، أما ظلمه نفسه فذاك حاصل في كل المعاصي، وأما ظلمه غيره فبأن لا ينفق أو يصرف الإنفاق عن المستحق إلى غيره، أو يكون نيته في الإنفاق على المستحق الرياء والسمعة، أو يفسدها بالمعاصي، وهذان القسمان الأخيران ليسا من باب الظلم على الغير، بل من باب الظلم على النفس.

المسألة الثانية: المعتزلة تمسكوا بهذه الآية في نفي الشفاعة عن أهل الكبائر، قالوا: لأن ناصر الإنسان من يدفع الضرر عنه فلو اندفعت العقوبة عنهم بشفاعة الشفعاء لكان أولئك أنصارا لهم وذلك يبطل قوله تعالى: وما للظالمين من أنصار.

واعلم أن العرف لا يسمي الشفيع ناصرا، بدليل قوله تعالى: واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون [البقرة: ٤٨] ففرق تعالى بين الشفيع والناصر فلا يلزم من نفي الأنصار نفي الشفعاء.

والجواب الثاني: ليس لمجموع الظالمين أنصار، فلم قلتم ليس لبعض الظالمين أنصار.

فإن قيل: لفظ الظالمين ولفظ الأنصار جمع، والجمع إذا قوبل بالجمع توزع الفرد على الفرد، فكان المعنى: ليس لأحد من الظالمين أحد من الأنصار.." [١]

"التقصير، والتقصير موجب للعقوبة، ولا طاقة لهم بعذاب الله تعالى، فلا جرم طلبوا السهولة في التكاليف.

والقول الثاني: لا تحمل علينا عهدا وميثاقا يشبه ميثاق من قبلنا في الغلظ والشدة، وهذا القول يرجع إلى الأول في الحقيقة لكن بإضمار شيء زائد على الملفوظ، فيكون القول الأول أولى.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: دلت الدلائل العقلية والسمعية على أنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، فما السبب في أن شدد التكليف على اليهود حتى أدى ذلك إلى وقوعهم في المخالفات **والتمرد**، قالت المعتزلة: من الجائز أن يكون الشيء مصلحة في حق إنسان، مفسدة في حق غيره، فاليهود كانت الفظاظة والغلظة غالبة على طباعهم، فما كانوا ينصلحون إلا بالتكاليف الشاقة والشدة، وهذه الأمة كانت الرقة وكرم الخلق غالبا على طباعهم، فكانت مصلحتهم في التخفيف وترك التغليظ.

أجاب الأصحاب بأن السؤال الذي ذكرناه في المقام الأول ننقله إلى المقام الثاني فنقول: ولماذا خص

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٠/٧

اليهود بغلظة الطبع، وقسوة القلب ودناءة الهمة، حتى احتاجوا إلى التشديدات العظيمة في التكاليف ولماذا خص هذه الأمة بلطافة الطبع وكرم الخلق وعلو الهمة حتى صار يكفيهم التكاليف السهلة في حصول مصالحهم.

ومن تأمل وأنصف علم أن هذه التعليلات عليلة فجل جناب الجلال عن أن يوزن بميزان الاعتزال، وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون [الأنبياء: ٢٣] .

قوله تعالى: ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به.

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من دعاء المؤمنين، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الطاقة اسم من الإطاقة، كالطاعة من الإطاعة، والجابة من الإجابة وهي توضع موضع المصدر.

المسألة الثانية: من الأصحاب من تمسك به في أن تكليف ما لا يطاق جائز إذ لو لم يكن جائزا لما حسن طلبه بالدعاء من الله تعالى.

أجاب المعتزلة عنه من وجوه الأول: أن قوله ما لا طاقة لنا به أي يشق فعله مشقة عظيمة وهو كما يقول الرجل: لا أستطيع أن أنظر إلى فلان إذا كان مستثقلا له. قال الشاعر:

إنك إن كلفتني ما لم أطق ... ساءك ما سرك مني من خلق

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المملوك: «له طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل ما لا يطيق»

أي ما يشق عليه،

وروى عمران بن الحصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المريض يصلي جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنب»

فقوله: فإن لم يستطع

ليس معناه عدم القوة على الجلوس، بل كل الفقهاء يقولون: المراد منه إذا كان يلحقه في الجلوس مشقة عظيمة شديدة، / وقال الله تعالى في وصف الكفار ما كانوا يستطيعون السمع [هود: ٢٠] أي كان يشق عليهم.

الوجه الثاني: أنه تعالى لم يقل: لا تكلفنا ما لا طاقة لنا به، بل قال: لا تحملنا ما لا طاقة لنا به والتحميل هو أن يضع عليه ما لا طاقة له بتحمله فيكون المراد منه العذاب والمعنى لا تحملنا عذابك الذي لا." (١)

"الرواية الثانية: أن يهود أهل المدينة لما شاهدوا وقعة أهل بدر، قالوا: والله هو النبي الأمي الذي بشرنا به موسى في التوراة، ونعته وأنه لا ترد له راية، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا فلما كان يوم أحد ونكب أصحابه قالوا: ليس هذا هو ذاك، وغلب الشقاء عليهم فلم يسلموا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والرواية الثالثة: أن هذا الآية واردة في جمع من الكفار بأعيانهم علم الله تعالى أنهم يموتون على كفرهم، وليس في الآية ما يدل على أنهم من هم.

المسألة الثالثة: احتج من قال بتكليف ما لا يطاق بهذه الآية، فقال: إن الله تعالى أخبر عن تلك الفرقة من الكفار أنهم يحشرون إلى جهنم، فلو آمنوا وأطاعوا لا نقلب هذا الخبر كذبا وذلك محال، ومستلزم المحال محال، فكان الإيمان والطاعة محالا منهم، وقد أمروا به، فقد أمروا بالمحال وبما لا يطاق، وتمام تقريره قد تقدم في تفسير قوله تعالى: سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون [البقرة: ٦] .

المسألة الرابعة: قوله ستغلبون إخبار عن أمر يحصل في المستقبل، وقد وقع مخبره على موافقته، فكان هذا إخبارا عن الغيب وهو معجز، ونظيره قوله تعالى: غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون [الروم: ٢، ٣] الآية، ونظيره في حق عيسى عليه السلام وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم [آل عمران: ٤٩] .

المسألة الخامسة: دلت الآية على حصول البعث في القيامة، وحصول الحشر والنشر، وأن مرد الكافرين إلى النار.

ثم قال: وبئس المهاد وذلك لأنه تعالى لما ذكر حشرهم إلى جهنم وصفه فقال: بئس المهاد والمهاد: الموضع الذي يتمهد فيه وينام عليه كالفراش، قال الله تعالى: والأرض فرشناها فنعم الماهدون [الذاريات: ٤٨] فلما ذكر الله تعالى مصير الكافرين إلى جهنم أخبر عنها بالشر لأن بئس مأخوذ من البأساء هو الشر والشدة، قال الله تعالى: وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس [الأعراف: ١٦٥] أي شديد وجهنم معروفة أعاذنا الله منها بفضله.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٣]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢٢/٧

قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار (١٣)

[في قوله تعالى قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة] اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: لم يقل: قد كانت لكم آية، بل قال: قد كان لكم آية وفيه وجهان:

الأول: أنه محمول على المعنى، والمراد: قد كان لكم إتيان هذا آية.

والثاني: قال الفراء: إنما ذكر للفصل الواقع بينهما، وهو قوله لكم.

المسألة الثانية: وجه النظم أنا ذكرنا أن الآية المتقدمة، وهي قوله تعالى: ستغلبون وتحشرون نزلت في اليهود، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى الإسلام أظهروا **التمرد** وقالوا ألسنا أمثال قريش في الضعف وقلة المعرفة بالقتال بل معنا من الشوكة والمعرفة بالقتال ما يغلب كل من ينازعنا فالله تعالى قال لهم إنكم وإن كنتم." (١)

"[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون (٢٣) ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون (٢٤) فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون (٢٥)

[في قوله تعالى ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب] اعلم أنه تعالى لما نبه على عناد القوم بقوله فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله [آل عمران: ٢٠] بين في هذه الآية غاية عنادهم، وهو أنهم يدعون إلى الكتاب الذي يزعمون أنهم يؤمنون به، وهو التوراة ثم إنهم **يتمردون**، ويتولون، وذلك يدل على غاية عنادهم، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ظاهر قوله ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يتناول كلهم، ولا شك أن هذا مذكور في معرض الذم، إلا أنه قد دل دليل آخر، على أنه ليس كل أهل الكتاب كذلك لأنه تعالى يقول من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون [آل عمران: ١١٣] .

المسألة الثانية: قوله تعالى: أوتوا نصيبا من الكتاب المراد به غير القرآن لأنه أضاف الكتاب إلى الكفار، وهم اليهود والنصارى، وإذا كان كذلك وجب حمله على الكتاب الذي كانوا مقرين بأنه حق، ومن عند الله.

المسألة الثالثة: ذكروا في سبب النزول وجوهاأحدها:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥٥/٧

روي عن ابن عباس أن رجلا وامرأة من اليهود زنيا، وكانا ذوي شرف، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فرجعوا في أمرهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم، رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم فحكم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرجم فأنكروا ذلك فقال عليه الصلاة والسلام:
بيني وبينكم التوراة فإن فيها الرجم فمن أعلمكم؟ قالوا: عبد الله بن صوريا الفدكي فأتوا به وأحضروا التوراة، فلما أتى/ على آية الرجم وضع يده عليها، فقال ابن سلام: قد جاوز موضعها يا رسول الله فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بهما فرجما، فغضبت اليهود لعنهم الله لذلك غضبا شديدا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.
والرواية الثانية:
أنه صلى الله عليه وسلم دخل مدرسة اليهود، وكان فيها جماعة منهم فدعاهم إلى الإسلام فقالوا: على أي دين أنت؟ فقال: على ملة إبراهيم، فقالوا: إن إبراهيم كان يهوديا فقال صلى الله عليه وسلم: هلموا إلى التوراة، فأبوا ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية.
والرواية الثالثة: أن علامات بعثة محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة، والدلائل الدالة على صحة نبوته موجودة فيها، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى التوراة، وإلى تلك الآيات الدالة على نبوته فأبوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمعنى أنهم إذا أبوا أن يجيبوا إلى التحاكم إلى كتابهم، فلا تعجب من مخالفتهم كتابك فلذلك قال الله تعالى:
قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين [آل عمران: ٩٣] وهذه الآية على هذه الرواية دلت على أنه وجد في التوراة دلائل صحة نبوته، إذ لو علموا أنه ليس في التوراة ما يدل على صحة نبوته لسارعوا إلى بيان ما فيها ولكنهم أسروا ذلك.." (١)

"والرواية الرابعة: أن هذا الحكم عام في اليهود والنصارى، وذلك لأن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت موجودة في التوراة والإنجيل، وكانوا يدعون إلى حكم التوراة والإنجيل وكانوا يأبون.
أما قوله نصيبا من الكتاب فالمراد منه نصيبا من علم الكتاب، لأنا لو أجريناه على ظاهره فهم أنهم قد أوتوا كل الكتاب والمراد بذلك العلماء منهم وهم الذين يدعون إلى الكتاب، لأن من لا علم له بذلك لا يدعى إليه.
أما قوله تعالى: يدعون إلى كتاب الله ففيه قولان:

---
(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧٨/٧

القول الأول: وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما والحسن أنه القرآن.

فإن قيل: كيف دعوا إلى حكم كتاب لا يؤمنون به؟.

قلنا: إنهم إنما دعوا إليه بعد قيام الحجج الدالة على أنه كتاب من عند الله.

والقول الثاني: وهو قول أكثر المفسرين: إنه التوراة واحتج القائلون به بوجوه الأول: أن الروايات المذكورة في سبب النزول دالة على أن القوم كانوا يدعون إلى التوراة فكانوا يأبون والثاني: أنه تعالى عجب رسوله صلى الله عليه وسلم من **تمردهم** وإعراضهم، والتعجب إنما يحصل إذا **تمردوا** عن حكم الكتاب الذي يعتقدون في صحته، ويقرون بحقيته الثالث: أن هذا هو المناسب لما قبل الآية، وذلك لأنه تعالى لما بين أنه ليس عليه إلا البلاغ، وصبره على ما قالوه في تكذيبه مع ظهور الحجة بين أنهم إنما استعملوا طريق المكابرة في نفس كتابهم الذي أقروا بصحته فستروا/ ما فيه من الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا يدل على أنهم في غاية التعصب.

والبعد عن قبول الحق.

وأما قوله ليحكم بينهم فالمعنى: ليحكم الكتاب بينهم، وإضافة الحكم إلى الكتاب مجاز مشهور، وقرئ ليحكم على البناء للمفعول، قال صاحب «الكشاف» : وقوله ليحكم بينهم يقتضي أن يكون الاختلاف واقعا فيما بينهم، لا فيما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بين الله أنهم عند الدعاء يتولى فريق منهم وهم الرؤساء الذين يزعمون أنهم هم العلماء.

ثم قال: وهم معرضون وفيه وجهان:

الأول: المتولون هم الرؤساء والعلماء والمعرضون الباقون منهم، كأنه قيل: ثم يتولى العلماء والأتباع معرضون عن القبول من النبي صلى الله عليه وسلم لأجل تولي علمائهم.

والثاني: أن المتولي والمعرض هو ذلك الفريق، والمعنى أنه متولي عن استماع الحجة في ذلك المقام ومعرض عن استماع سائر الحجج في سائر المسائل والمطالب، كأنه قيل: لا تظن أنه تولى عن هذه المسألة بل هو معرض عن الكل.

وأما قوله تعالى: ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات [آل عمران: ٢٤] فالكلام في تفسيره قد تقدم في سورة البقرة، ووجه النظم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون قال في هذه الآية: ذلك التولي والإعراض إنما حصل بسبب أنهم قالوا: لن تمسنا النار إلا أياما." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧٩/٧

"الجزء الثامن

[تتمة سورة آل عمران]

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير (٢٦) تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب (٢٧)

اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة، وصحة دين الإسلام، ثم قال لرسوله فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن [آل عمران: ٢٠] ثم ذكر من صفات المخالفين كفرهم بالله، وقتلهم الأنبياء والصالحين بغير حق، وذكر شدة عنادهم **وتمردهم** في قوله ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب [آل عمران: ٢٣] ثم ذكر شدة غرورهم بقوله لن تمسنا النار إلا أياما معدودات [آل عمران: ٢٤] ثم ذكر وعيدهم بقوله فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه [آل عمران: ٢٥] أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعاء وتمجيد يدل على مباينة طريقه وطريق أتباعه، لطريقة هؤلاء الكافرين المعاندين المعرضين، فقال معلما نبيه كيف يمجد ويعظم ويدعو ويطلب قل اللهم مالك الملك وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلف النحويون في قوله اللهم فقال الخليل وسيبويه اللهم معناه: يا ألله، والميم المشددة عوض من: يا، وقال الفراء: كان أصلها، يا ألله أم بخير: فلما كثر في الكلام حذفوا حرف النداء، وحذفوا الهمزة من: أم، فصار اللهم ونظيره قول العرب: هلم، والأصل: هل، فضم: أم إليها، حجة الأولين على فساد قول الفراء وجوه الأول: لو كان الأمر على ما قاله الفراء لما صح أن يقال: اللهم افعل كذا إلا بحرف العطف، لأن التقدير: / يا ألله أمنا واغفر لنا، ولم نجد أحدا يذكر هذا الحرف العاطف والثاني: وهو حجة الزجاج أنه لو كان الأمر كما قال، لجاز أن يتكلم به على أصله، فيقال (الله أم) كما يقال (ويلم) ثم يتكلم به على الأصل فيقال (ويل أمه) الثالث: لو كان الأمر على ما قاله الفراء لكان حرف النداء محذوفا، فكان يجوز أن يقال: يا اللهم، فلما لم يكن هذا جائزا علمنا فساد قول الفراء بل نقول: كان يجب أن يكون حرف النداء لازما، كما يقال: يا الله اغفر لي، وأجاب الفراء عن هذه الوجوه، فقال: أما الأول فضعيف، لأن قوله (يا ألله أم) معناه: يا ألله اقصد، فلو قال: واغفر لكان المعطوف مغايرا للمعطوف عليه فحينئذ يصير السؤال سؤالين أحدهما: قوله فآمنا والثاني: قوله فاغفر لنا [البقرة: ٢٨٦] أما إذا حذفنا العطف صار

قوله: اغفر لنا تفسيرا لقوله: أمنا. فكان المطلوب في الحالين شيئا واحدا فكان ذلك آكد، ونظائره كثيرة في القرآن، وأما الثاني فضعيف أيضا، لأن أصله عندنا أن يقال: يا ألله أمنا. ومن الذي ينكر جواز التكلم بذلك، وأيضا فلأن كثيرا من الألفاظ لا يجوز فيها إقامة الفرع مقام الأصل، ألا ترى أن مذهب الخليل وسيبويه أن قوله: ما أكرمه، معناه أي شيء أكرمه ثم إنه قط لا يستعمل." [1]

"ويملك كل مالك مملوكه، قال صاحب «الكشاف» مالك الملك أي يملك جنس الملك فيتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، واعلم أنه تعالى لما بين كونه مالك الملك على الإطلاق، فصل بعد ذلك وذكر أنواعا خمسة:

النوع الأول: قوله تعالى: تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وذكروا فيه وجوها الأول: المراد منه: ملك النبوة والرسالة، كما قال تعالى: فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما [النساء: ٥٤] والنبوة أعظم مراتب الملك لأن العلماء لهم أمر عظيم على بواطن الخلق والجبابرة لهم أمر على ظواهر الخلق والأنبياء أمرهم نافذ في البواطن والظواهر، فأما على البواطن فلأنه يجب على كل أحد أن يقبل دينهم وشريعتهم، وأن يعتقد أنه هو الحق، وأما على الظواهر فلأنهم لو تمردوا واستكبروا لاستوجبوا القتل، ومما يؤكد هذا التأويل أن بعضهم كان يستبعد أن يجعل الله تعالى بشرا رسولا فحكى الله عنهم قولهم أبعث الله بشرا رسولا [الإسراء: ٩٤] وقال الله تعالى: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا [الأنعام: ٩] وقوم آخرون جوزوا من الله تعالى أن يرسل رسولا من البشر، إلا أنهم كانوا يقولون: إن محمدا فقير يتيم، فكيف يليق به هذا المنصب العظيم على ما حكى الله عنهم أنهم قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] وأما اليهود فكانوا يقولون النبوة كانت في آبائنا وأسلافنا، وأما قريش فهم ما كانوا أهل النبوة والكتاب فكيف يليق النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم؟

وأما المنافقون فكانوا يحسدونه على النبوة، على ما حكى الله ذلك عنهم في قوله أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله [النساء: ٣٧] .

وأيضا فقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد [آل عمران: ١٢] أن اليهود تكبروا على النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة عددهم وسلاحهم وشدتهم، ثم إنه تعالى رد على جميع هؤلاء الطوائف بأن بين أنه سبحانه هو مالك الملك فيؤتي ملكه من يشاء، فقال تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٨٥/٨

فإن قيل: فإذا حملتم قوله تؤتي الملك من تشاء على إيتاء ملك النبوة، وجب أن تحملوا قوله وتنزع الملك ممن تشاء على أنه قد يعزل عن النبوة من جعله نبيا، ومعلوم أن ذلك لا يجوز.
قلنا: الجواب من وجهين الأول: أن الله تعالى إذا جعل النبوة في نسل رجل، فإذا أخرجها الله من نسله، وشرف بها إنسانا آخر من غير ذلك النسل، صح أن يقال إنه تعالى نزعها منهم، واليهود كانوا معتقدين أن النبوة لا بد وأن تكون في بني إسرائيل، فلما شرف الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بها، صح أن يقال: إنه ينزع ملك النبوة من بني إسرائيل إلى العرب.
والجواب الثاني: أن يكون المراد من قوله وتنزع الملك ممن تشاء أي تحرمهم ولا تعطيهم هذا الملك لا على معنى أنه يسلبه ذلك بعد أن أعطاه، ونظيره قوله تعالى: الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور [البقرة: ٢٥٧] مع أن هذا الكلام يتناول من لم يكن في ظلمة الكفر قط، وقال الله تعالى مخبرا عن الكفار أنهم قالوا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو لتعودن في ملتنا [الأعراف: ٨٨] وأولئك الأنبياء قالوا وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله [الأعراف: ٨٩] مع أنهم ما كانوا فيها قط، فهذا جملة الكلام في تقرير قول من فسر قوله تعالى: تؤتي الملك من تشاء بملك النبوة.." (١)

"وهب بن منبه: إن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام كان يقرر السبت ويستقبل بيت المقدس، ثم إنه فسر قوله ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم بأمرين أحدهما: أن الأحبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى، فجاء عيسى عليه السلام ورفعها وأبطلها وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام والثاني: أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات كما قال الله تعالى: فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم [النساء: ١٦٠] ثم بقي ذلك التحريم مستمرا على اليهود فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم، وقال آخرون: إن عيسى عليه السلام رفع كثيرا من أحكام التوراة، ولم يكن ذلك قادحا في كونه مصدقا بالتوراة على ما بيناه ورفع السبت ووضع الأحد قائما مقامه وكان محقا في كل ما عمل لما بينا أن الناسخ والمنسوخ كلاهما حق وصدق.
ثم قال: وجئتكم بآية من ربكم وإنما أعاده لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر فأعاد ذكر المعجزات ليصير كلامه ناجعا في قلوبهم ومؤثرا في طباعهم، ثم خوفهم فقال: فاتقوا الله وأطيعون لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله تعالى فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعوني فيما آمركم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٨٧/٨

به عن ربي، ثم إنه ختم كلامه بقوله إن الله ربي وربكم/ ومقصوده إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يتقولوا عليه الباطل فيقولون: إنه إليه وابن إله لأن إقراره لله بالعبودية يمنع ما تدعيه جهال النصارى عليه، ثم قال: فاعبدوه والمعنى: أنه تعالى لما كان رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه، ثم أكد ذلك بقوله هذا صراط مستقيم.

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٥٢ الى ٥٤]

فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون (٥٢) ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين (٥٣) ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين (٥٤)

اعلم أنه تعالى لما حكى بشارة مريم بولد مثل عيسى واستقصى في بيان صفاته وشرح معجزاته وترك هاهنا قصة ولادته، وقد ذكرها في سورة مريم على الاستقصاء، شرع في بيان أن عيسى لما شرح لهم تلك المعجزات، وأظهر لهم تلك الدلائل فهم بماذا عاملوه فقال تعالى: فلما أحس عيسى منهم وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة وهاهنا وجهان أحدهما: أن يجرى اللفظ على ظاهره، وهو أنهم تكلموا بالكفر، فأحس ذلك بأذنه والثاني: أن نحمله على التأويل، وهو أن المراد أنه عرف منهم إصرارهم على الكفر، وعزمهم على قتله، ولما كان ذلك العلم علما لا شبهة فيه، مثل العلم الحاصل من الحواس، لا جرم عبر عن ذلك العلم الإحساس.

المسألة الثانية: اختلفوا في السبب الذي به ظهر كفرهم على وجوه الأول: قال السدي: إنه تعالى لما بعثه رسولا إلى بني إسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله **فتمردوا** وعصوا فخافهم واختفى عنهم، وكان أمر عيسى عليه السلام في قومه كأمر محمد صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فكان مستضعفا، وكان يختفي من بني إسرائيل كما اختفى النبي صلى الله عليه وسلم في." (١)

"الغار، وفي منازل من آمن به لما أرادوا قتله، ثم إنه عليه الصلاة والسلام خرج مع أمه يسيحان في الأرض، فاتفق أنه/ نزل في قرية على رجل فأحسن ذلك الرجل ضيافته وكان في تلك المدينة ملك جبار فجاء ذلك الرجل يوما حزينا، فسأله عيسى عن السبب فقال: ملك هذه المدينة رجل جبار ومن عادته أنه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨/٢٣١

جعل على كل رجل منا يوما يطعمه ويسقيه هو وجنوده، وهذا اليوم نوبتي والأمر متعذر علي، فلما سمعت مريم عليها السلام ذلك، قالت: يا بني ادع الله ليكفي ذلك، فقال: يا أماه إن فعلت ذلك كان شر، فقالت: قد أحسن وأكرم ولا بد من إكرامه فقال عيسى عليه السلام: إذا قرب مجيء الملك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني، فلما فعل ذلك دعا الله تعالى فتحول ما في القدور طبيخا، وما في الخوابي خمرا، فلما جاءه الملك أكل وشرب وسأله من أين هذا الخمر؟ فتعلل الرجل في الجواب فلم يزل الملك يطالبه بذلك حتى أخبره بالواقعة فقال: إن من دعا الله حتى جعل الماء خمرا إذا دعا أن يحيي الله تعالى ولدي لا بد وأن يجاب، وكان ابنه قد مات قبل ذلك بأيام، فدعا عيسى عليه السلام وطلب منه ذلك، فقال عيسى: لا نفعل، فإنه إن عاش كان شرا، فقال: ما أبالي ما كان إذا رأيته، وإن أحييته تركتك على ما تفعل، فدعا الله عيسى، فعاش الغلام، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح واقتتلوا، وصار أمر عيسى عليه السلام مشهورا في الخلق، وقصد اليهود قتله، وأظهروا الطعن فيه والكفر به.

والقول الثاني: إن اليهود كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة، وأنه ينسخ دينهم، فكانوا من أول الأمر طاعنين فيه، طالبين قتله، فلما أظهر الدعوة اشتد غضبهم، وأخذوا في إيذائه وإيحاشه وطلبوا قتله.

والقول الثالث: إن عيسى عليه السلام ظن من قومه الذين دعاهم إلى الإيمان أنهم لا يؤمنون به وأن دعوته لا تنجح فيهم فأحب أن يمتحنهم ليتحقق ما ظنه بهم فقال لهم من أنصاري إلى الله فما أجابه إلا الحواريون، فعند ذلك أحس بأن من سوى الحواريين كافرون مصرون على إنكار دينه وطلب قتله.

أما قوله تعالى: قال من أنصاري إلى الله ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية أقوال الأول: أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الدين، وتمردوا عليه فر منهم وأخذ يسيح في الأرض فمر بجماعة من صيادي السمك، وكان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا ابنا زيدي وهم من جملة الحواريين الاثني عشر فقال عيسى عليه السلام: الآن تصيد السمك، فإن تبعتني صرت بحيث تصيد الناس لحياة الأبد، فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصطاد شيئا فأمره عيسى بإلقاء شبكته في الماء مرة أخرى، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه، واستعانوا بأهل سفينة أخرى، وملئوا السفينتين، فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام.

والقول الثاني: أن قوله من أنصاري إلى الله إنما كان في آخر أمره حين اجتمع اليهود عليه طلبا لقتله، ثم هاهنا احتمالات الأول: أن اليهود لما طلبوه للقتل وكان هو في الهرب عنهم قال لأولئك الاثني عشر من

الحواريين:
أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني؟.
فأجابه إلى ذلك بعضهم وفيما تذكره النصارى في إنجيلهم: أن اليهود لما أخذوا عيسى سل شمعون سيفه فضرب به عبدا كان فيهم لرجل من الأحبار عظيم فرمى بأذنه، فقال له عيسى: حسبك ثم أخذ أذن العبد فردها إلى موضعها، فصارت كما كانت، والحاصل أن الغرض من طلب النصرة إقدامهم على دفع الشر عنه.." (١)

"عليه السلام، وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال عليه الصلاة والسلام: كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم عليه السلام، فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فنزلت هذه الآية،
ويبعد عندي حمل هذه الآية على هذا السبب لأن على هذا التقدير تكون هذه الآية منقطعة عما قبلها، والاستفهام على سبيل الإنكار يقتضي تعلقها بما قبلها، فالوجه في الآية أن هذا الميثاق لما كان مذكورا في كتبهم وهم كانوا عارفين بذلك فقد كانوا عالمين بصدق محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر، فأعلمهم الله تعالى أنهم متى كانوا طالبين دينا غير دين الله، ومعبودا سوى الله سبحانه، ثم بين أن **التمرد** على الله تعالى والإعراض عن حكمه مما لا يليق بالعقلاء فقال: وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه ترجعون وفيه مسألتان:
المسألة الأولى: الإسلام، هو الاستسلام والانقياد والخضوع.
إذا عرفت هذا ففي خضوع كل من في السموات والأرض لله وجوه الأول: وهو الأصح عندي أن كل ما سوى الله سبحانه ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده ولا يعدم إلا بإعدامه فإذن كل ما سوى الله فهو منقاد خاضع لجلال الله في طرفي وجوده وعدمه، وهذا هو نهاية الانقياد والخضوع، ثم إن في هذا الوجه لطيفة أخرى وهي أن قوله وله أسلم يفيد الحصر أي وله أسلم كل من في السموات والأرض لا لغيره، فهذه الآية تفيد أن واجب الوجود واحد وأن كل ما سواه فإنه لا يوجد إلا بتكوينه ولا يفنى إلا بإفنائه سواء كان عقلا أو نفسا أو روحا أو جسما أو جوهرا أو عرضا أو فاعلا أو فعلا، ونظير هذه الآية في الدلالة على هذا المعنى قوله تعالى: ولله يسجد من في السماوات والأرض [الرعد: ١٥] وقوله وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤] .

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٢/٨

الوجه الثانِي: في تفسير هذه الآية أنه لا سبيل لأحد إلى الامتناع عليه في مراده، وإما أن ينزلوا عليه طوعا أو كرها، فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعا فيما يتعلق بالدين، وينقادون له كرها فيما يخالف طباعهم من المرض والفقر والموت وأشباه ذلك، وأما الكافرون فهم ينقادون لله تعالى على كل حال كرها لأنهم لا ينقادون فيما يتعلق بالدين، وفي غير ذلك مستسلمون له سبحانه كرها، لأنه لا يمكنهم دفع قضائه وقدره الثالث: أسلم المسلمون طوعا، والكافرون عند موتهم كرها لقوله تعالى: فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا [غافر: ٨٥] الرابع: أن كل الخلق منقادون لإلهيته طوعا بدليل قوله تعالى: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله [لقمان: ٢٥] ومنقادون/ لتكاليفه وإيجاده للآلام كرهاالخامس: أن انقياد الكل إنما حصل وقت أخذ الميثاق وهو قوله تعالى: وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى [الأعراف: ١٧٢] [السادس:] قال الحسن: الطوع لأهل السموات خاصة، وأما أهل الأرض فبعضهم بالطوع وبعضهم بالكره، وأقول: إنه سبحانه ذكر في تخليق السموات والأرض هذا وهو قوله فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين [فصلت: ١١] وفيه أسرار عجيبة.

أما قوله وإليه ترجعون فالمراد أن من خالفه في العاجل فسيكون مرجعه إليه، والمراد إلى حيث لا يملك الضر والنفع سواه هذا وعيد عظيم لمن خالف الدين الحق.

المسألة الثانية: قال الواحدي رحمه الله: الطوع الانقياد، يقال: طاعه يطوعه طوعا إذا انقاد له وخضع، وإذا مضى لأمره فقد أطاعه، وإذا وافقه فقد طاوعه، قال ابن السكيت: يقال طاع له وأطاع، فانتصب طوعا وكرها على." (١)

"المسألة الرابعة: قوله تعالى ولله ما في السماوات وما في الأرض زعمت الفلاسفة أنه إنما قدم ذكر ما في السموات على ذكر ما في الأرض لأن الأحوال السماوية أسباب للأحوال الأرضية، فقدم السبب على المسبب، وهذا يدل على أن جميع الأحوال الأرضية مستندة إلى الأحوال السماوية، ولا شك أن الأحوال السماوية مستندة إلى خلق الله وتكوينه فيكون الجبر لازما أيضا من هذا الوجه.

المسألة الخامسة: قال تعالى: ولله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور فأعاد ذكر الله في أول الآيتين والغرض منه تأكيد التعظيم، والمقصود أن منه مبدأ المخلوقات وإليه معادهم، فقوله ولله ما في السماوات وما في الأرض إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول وقوله وإلى الله ترجع الأمور إشارة إلى أنه هو

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٠/٨

الآخر، وذلك يدل إحاطة حكمه وتصرفه وتدبيره بأولهم وآخرهم، وأن الأسباب منتسبة إليه وأن الحاجات منقطعة عنده.

المسألة السادسة: كلمة (إلى) في قوله وإلى الله ترجع الأمور لا تدل على كونه تعالى في مكان وجهة، بل المراد أن رجوع الخلق إلى موضع لا ينفذ فيه حكم أحد إلا حكمه ولا يجري فيه قضاء أحد إلا قضاؤه.

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٠ الى ١١١]

كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠) لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون (١١١)

في النظم وجهان الأول: أنه تعالى لما أمر المؤمنين ببعض الأشياء ونهاهم عن بعضها وحذرهم من أن يكونوا مثل أهل الكتاب في التمرد والعصيان، وذكر عقيبه ثواب المطيعين وعقاب الكافرين، كان الغرض من كل هذه الآيات حمل المؤمنين المكلفين على الانقياد والطاعة ومنعهم عن التمرد والمعصية، ثم إنه تعالى أردف ذلك بطريق آخر يقتضي حمل المؤمنين على الانقياد والطاعة فقال كنتم خير أمة والمعنى أنكم كنتم في اللوح المحفوظ خير الأمم وأفضلهم، فاللائق بهذا أن لا تبطلوا على أنفسكم هذه الفضيلة، وأن لا تزيلوا عن أنفسكم هذه الخصلة المحمودة، وأن تكونوا منقادين مطيعين في كل ما يتوجه عليكم من التكاليف الثاني: أن الله تعالى لما ذكر كمال حال الأشقياء وهو قوله فأما الذين اسودت وجوههم [آل عمران: ١٠٦] وكمال حال السعداء وهو قوله وأما الذين ابيضت وجوههم [آل عمران: ١٠٧] نبه على ما هو السبب لوعيد الأشقياء بقوله وما الله يريد ظلما للعالمين [آل عمران: ١٠٨] يعني أنهم إنما استحقوا ذلك بأفعالهم القبيحة، ثم نبه في هذه الآية على ما هو السبب لوعد السعداء بقوله كنتم خير أمة أخرجت للناس أي تلك السعادات والكمالات والكرامات إنما فازوا بها في الآخرة لأنهم كانوا في الدنيا خير أمة أخرجت للناس

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لفظة (كان) قد تكون تامة وناقصة وزائدة على ما هو مشروح في النحو واختلف المفسرون في قوله كنتم على وجوه الأول: أن (كان) هاهنا تامة بمعنى الوقوع والحدوث وهو لا يحتاج إلى خبر، والمعنى:

حدثتم خير أمة ووجدتم وخلقتم خير أمة، ويكون قوله خير أمة بمعنى الحال وهذا قول جمع من المفسرين

الثاني: أن (كان) هاهنا ناقصة وفيه سؤال: / وهو أن هذا يوهم أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة وأنهم ما بقوا الآن عليها.." (١)

"سافلها، فإذا حضر هو يوم بدر، فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار؟ ثم بتقدير حضوره، فأي فائدة في إرسال سائر الملائكة؟.

الحجة الثانية: أن أكابر الكفار كانوا مشهورين وكل واحد منهم مقابله من الصحابة معلوم وإذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة.

الحجة الثالثة: الملائكة لو قاتلوا لكانوا إما أن يصيروا بحيث يراهم الناس أو لا يراهم الناس فإن رآهم الناس فإما أن يقال إنهم رأوهم في صورة الناس أو في غير صورة الناس، فإن كان الأول فعلى هذا التقدير صار المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف، أو أكثر، ولم يقل أحد بذلك، ولأن هذا على خلاف قوله تعالى: ويقللكم في أعينهم [الأنفال: ٤٤] وإن شاهدوهم في صورة غير صور الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق فإن من شاهد الجن لا شك أنه يشتد فزعه ولم ينقل ذلك ألبتة.

وأما القسم الثاني: وهو أن الناس ما رأوا الملائكة فعلى هذا التقدير: إذا حاربوا وحزوا الرؤوس، ومزقوا البطون وأسقطوا الكفار عن الأفراس، فحينئذ الناس كانوا يشاهدون حصول هذه الأفعال مع أنهم ما كانوا شاهدوا أحدا من الفاعلين، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات، وحينئذ يجب أن يصير الجاحد لمثل هذه الحالة كافرا **متمردا**، ولما لم يوجد شيء من ذلك عرف فساد هذا القسم أيضا.

الحجة الرابعة: أن هؤلاء الملائكة الذين نزلوا، إما أن يقال: إنهم كانوا أجساما كثيفة أو لطيفة، فإن كان الأول وجب أن يراهم الكل وأن تكون رؤيتهم كرؤية غيرهم، ومعلوم أن الأمر ما كان كذلك، وإن كانوا أجساما لطيفة دقيقة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة وقوة، ويمتنع كونهم راكبين على الخيول وكل ذلك مما ترونه.

واعلم أن هذه الشبهة إنما تليق بمن ينكر القرآن والنبوة، فأما من يقر بهما فلا يليق به شيء من هذه الكلمات، فما كان يليق بأبي بكر الأصم إنكار هذه الأشياء مع أن نص القرآن ناطق بها وورودها في الأخبار قريب من التواتر، روى عبد الله بن عمر قال لما رجعت قريش من أحد/ جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا، ويقولون: لم نر الخيل البلق ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم يوم بدر والشبهة المذكورة إذا قابلناها بكمال قدرة الله تعالى زالت وطاحت فإنه تعالى يفعل ما يشاء لكونه قادرا على جميع الممكنات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢٣/٨

ويحكم ما يريد لكونه منزها عن الحاجات.

المسألة الرابعة: اختلفوا في كيفية نصرة الملائكة قال بعضهم: بالقتال مع المؤمنين، وقال بعضهم: بل بتقوية نفوسهم وإشعارهم بأن النصرة لهم وبإلقاء الرعب في قلوب الكفار، والظاهر في المدد أنهم يشركون الجيش في القتال إن وقعت الحاجة إليهم، ويجوز أن لا تقع الحاجة إليهم في نفس القتال وأن يكون مجرد حضورهم كافيا في تقوية القلب، وزعم كثير من المفسرين أنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا في سائر الأيام.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ألن يكفيكم معنى الكفاية هو سد الخلة والقيام بالأمر، يقال كفاه أمر كذا إذا سد خلته، ومعنى الإمداد إعطاء الشيء حالا بعد حال قال المفضل: ما كان على جهة القوة والإعانة قيل." (١)

"وروي أنهم قالوا: هل يكون هذا غزوا، فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

واعلم أن أهل المغازي اختلفوا، فذهب الواقدي إلى تخصيص الآية الأولى بواقعة حمراء الأسد، والآية الثانية ببدر الصغرى، ومنهم من يجعل الآيتين في وقعة بدر الصغرى، والأول أولى لأن قوله تعالى: من بعد ما أصابهم القرح كأنه يدل على قرب عهد بالقرح، فالمدح فيه أكثر من المدح/ على الخروج على العدو من وقت إصابة القرح لمسه، والقول الآخر أيضا محتمل. والقرح على هذا القول يجب أن يفسر بالهزيمة، فكأنه قيل: إن الذين انهزموا ثم أحسنوا الأعمال بالتوبة واتقوا الله في سائر أمورهم، ثم استجابوا لله وللرسول عازمين على الثواب موطنين أنفسهم على لقاء العدو، بحيث لما بلغهم كثرة جموعهم لم يفتروا ولم يفشلوا، وتوكلوا على الله ورضوا به كافيا ومعينا فلهم أجر عظيم لا يحجبهم عنه ما كان منهم من الهزيمة إذ كانوا قد تابوا عنها والله أعلم.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٧٥]

إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين (١٧٥)

اعلم أن قوله: الشيطان خبر ذلكم بمعنى: إنما ذلكم المثبط هو الشيطان ويخوف أولياءه جملة مستأنفة بيان لتثبيطه، أو الشيطان صفة لاسم الإشارة ويخوف الخبر، والمراد بالشيطان الركب، وقيل: نعيم بن مسعود، وسمي شيطانا لعتوه **وتمرده** في الكفر، كقوله: شياطين الإنس والجن [الأنعام:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥٢/٨

١١٢] وقيل: هو الشيطان يخوف بالوسوسة.
أما قوله تعالى: يخوف أولياءه ففيه سؤال: وهو أن الذين سماهم الله بالشيطان إنما خوفوا المؤمنين، فما معنى قوله: الشيطان يخوف أولياءه والمفسرون ذكروا فيه ثلاثة أوجه: الأول: تقدير الكلام: ذلكم الشيطان يخوفكم بأوليائه، فحذف المفعول الثاني وحذف الجار، ومثال حذف المفعول الثاني قوله تعالى:
فإذا خفت عليه فألقيه في اليم [القصص: ٧] أي فإذا خفت عليه فرعون، ومثال حذف الجار قوله تعالى: لينذر بأسا شديدا [الكهف: ٢] معناه: لينذركم ببأس وقوله: لينذر يوم التلاق [غافر: ١٥] أي لينذركم بيوم التلاق، وهذا قول الفراء، والزجاج، وأبي علي. قالوا: ويدل عليه قراءة أبي بن كعب يخوفكم بأوليائه.
القول الثاني: أن هذا على قول القائل: خوفت زيدا عمرا، وتقدير الآية: يخوفكم أولياءه، فحذف المفعول الأول، كما تقول: أعطيت الأموال، أي أعطيت القوم الأموال، قال ابن الأنباري: وهذا أولى من ادعاء جار لا دليل عليه وقوله: لينذر بأسا أي لينذركم بأسا وقوله: لينذر يوم التلاق أي لينذركم يوم التلاق والتخويف يتعدى إلى مفعولين من غير حرف جر تقول: خاف زيد القتال، وخوفته القتال وهذا الوجه يدل عليه قراءة ابن مسعود يخوفكم أولياءه.
القول الثالث: أن معنى الآية: يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين، والمعنى الشيطان يخوف أولياءه الذين يطيعونه ويؤثرون أمره، فأما أولياء الله، فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم ولا ينقادون لأمره ومراده منهم، وهذا قول الحسن والسدي، فالقول الأول فيه محذوفان، والثاني فيه محذوف واحد، والثالث لا حذف فيه. وأما الأولياء فهم المشركون والكفار، وقوله: فلا تخافوهم الكناية في القولين الأولين عائدة إلى الأولياء. وفي القول الثالث عائدة إلى الناس في قوله: إن الناس قد جمعوا لكم [آل عمران: ١٧٣] فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجنبوا وخافون فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به إن كنتم مؤمنين يعني أن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس.." (١)
"فكان قوله: يا أيها الناس عاما في الكل، وقوله: واتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام. خاصا بالعرب.
المسألة الثانية: أنه تعالى جعل هذا المطلع مطلعا لسورتين في القرآن: إحداهما: هذه السورة وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن. والثانية: سورة الحج، وهي أيضا السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن، ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق وكمال علمه وكمال حكمته وجلاله، وعلل الأمر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣٥/٩

بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد، وهو قوله: إن زلزلة الساعة شيء عظيم [الحج: ١] فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد، وتحت هذا البحث أسرار كثيرة.

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى أمرنا بالتقوى وذكر عقبيه أنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، وهذا مشعر بأن الأمر بالتقوى معلل بأنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، ولا بد من بيان المناسبة بين هذا الحكم وبين ذلك الوصف، فنقول: قولنا إنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، مشتمل على قيدين: أحدهما: أنه تعالى خلقنا، والثاني: كيفية ذلك التخليق، وهو أنه تعالى إنما خلقنا من نفس/ واحدة، ولكل واحد من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى.

أما القيد الأول: وهو أنه تعالى خلقنا، فلا شك أن هذا المعنى علة لأن يجب علينا الانقياد لتكاليف الله تعالى والخضوع لأوامره ونواهيه، وبيان ذلك من وجوه: الأول: أنه لما كان خالقا لنا وموجدا لذواتنا وصفاتنا فنحن عبيده وهو مولى لنا، والربوبية توجب نفاذ أوامره على عبيده، والعبودية توجب الانقياد للرب والموجد والخالق، الثاني: أن الإيجاد غاية الإنعام ونهاية الإحسان، فإنك كنت معدوما فأوجدك، وميتا فأحياك، وعاجزا فأقدرك. وجاهلا فعلمك، كما قال إبراهيم عليه السلام: الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين [الشعراء: ٧٨، ٧٩] فلما كانت النعم بأسرها من الله سبحانه وجب على العبد أن يقابل تلك النعم بإظهار الخضوع والانقياد، وترك **التمرد** والعناد، وهذا هو المراد بقوله: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم [البقرة: ٢٨] الثالث: وهو أنه لما ثبت كونه موجدا وخالقا وإلها وربا لنا وجب علينا أن نشتغل بعبوديته وأن نتقي كل ما نهى عنه وزجر عنه، ووجب أن لا يكون شيء من هذه الأفعال موجبا ثوابا البتة، لأن هذه الطاعات لما وجبت في مقابلة النعم السالفة امتنع أن تصير موجبة للثواب، لأن أداء الحق إلى المستحق لا يوجب شيئا آخر، هذا إذا سلمنا أن العبد أتى بتلك الطاعات من عند نفسه ابتداء، فكيف وهذا محال، لأن فعل الطاعات لا يحصل إلا إذا خلق الله القدرة على الطاعة، وخلق الداعية على الطاعة، ومتى حصلت القدرة والداعي كان مجموعهما موجبا لصدور الطاعة عن العبد، وإذا كان كذلك كانت تلك الطاعة إنعاما من الله على عبده، والمولى إذا خص عبده بإنعام لم يصر ذلك الإنعام موجبا عليه إنعاما آخر، فهذا هو الإشارة إلى بيان أن كونه خالقا لنا يوجب علينا عبوديته والاحتراز عن مناهيه.

وأما القيد الثاني: وهو أن خصوص كونه خالقا لنا من نفس واحدة يوجب علينا الطاعة والاحتراز عن

المعصية، فبيانه من وجوه: الأول: أن خلق جميع الأشخاص الإنسانية من الإنسان الواحد أدل على كمال القدرة، من حيث إنه لو كان الأمر بالطبيعة والخاصية لكان المتولد من الإنسان الواحد، لم يكن إلا أشياء متشاكلة في الصفة متشابهة في الخلقة والطبيعة، فلما رأينا في أشخاص الناس الأبيض والأسود والأحمر." (١)

"ماله قليلا وفي الورثة كثرة لم يوص، وإن كان في المال كثرة أوصى بحسب المال وبحسب حاجتهم بعده في القلة والكثرة والله أعلم.

المسألة الرابعة: روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الإضرار في الوصية من الكبائر. واعلم أنه يدل على ذلك القرآن والسنة والمعقول، أما القرآن فقوله تعالى: تلك حدود الله ومن/ يطع الله ورسوله [النساء: ١٣] قال ابن عباس في الوصية: ومن يعص الله ورسوله [النساء: ١٤] قال في الوصية، وأما السنة فروى عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإضرار في الوصية من الكبائر»

وعن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة وجار في وصيته ختم له بشر عمله فيدخل النار وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة»

وقال عليه الصلاة والسلام: «من قطع ميراثا فرضه الله قطع الله ميراثه من الجنة»

ومعلوم أن الزيادة في الوصية قطع من الميراث، وأما المعقول فهو أن مخالفة أمر الله عند القرب من الموت يدل على جراءة شديدة على الله تعالى، **وتمرد** عظيم عن الانقياد لتكاليفه، وذلك من أكبر الكبائر.

ثم قال تعالى: وصية من الله وفيه سؤالان:

السؤال الأول: كيف انتصاب قوله: وصية.

والجواب فيه من وجوه: الأول: أنه مصدر مؤكد أي يوصيكم الله بذلك وصية، كقوله: فريضة من الله [النساء: ١١] الثاني: أن تكون منصوبة بقوله: غير مضار أي لا تضار وصية الله في أن الوصية يجب أن لا تزاد على الثلث. الثالث: أن يكون التقدير: وصية من الله بالأولاد وأن لا يدعهم عالة يتكففون وجوه الناس بسبب الإسراف في الوصية، وينصر هذا الوجه قراءة الحسن: غير مضار وصية بالإضافة.

السؤال الثاني: لم جعل خاتمة الآية الأولى: فريضة من الله وخاتمة هذه الآية وصية من الله.

الجواب: أن لفظ الفرض أقوى وآكد من لفظ الوصية، فختم شرح ميراث الأولاد بذكر الفريضة، وختم شرح

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩/٤٧٦

ميراث الكلالة بالوصية ليدل بذلك على أن الكل، وإن كان واجب الرعاية إلا أن القسم الأول وهو رعاية حال الأولاد أولى، ثم قال: والله عليم حليم أي عليم بمن جار أو عدل في وصيته حليم على الجائر لا يعاجله بالعقوبة وهذا وعيد والله أعلم.

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٣ الى ١٤]

تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣) ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين (١٤)

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى بعد بيان سهام المواريث ذكر الوعد والوعيد ترغيبا في الطاعة وترهيبا عن المعصية فقال: تلك حدود الله وفيه بحثان.

البحث الأول: أن قوله: تلك إشارة إلى ماذا؟ فيه قولان: الأول: أنه إشارة إلى أحوال المواريث.." [١]

"إن الذين كفروا لما ذكر خاصة عباده، وخلاصة أوليائه بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح، عقبهم بأضدادهم العتاة المردة، الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآيات والنذر، ولم يعطف قصتهم على قصة المؤمنين كما عطف في قوله تعالى إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم لتباينهما في الغرض، فإن الأولى سيقت لذكر الكتاب وبيان شأنه والأخرى مسوقة لشرح تمردهم، وانهماكهم في الضلال، و (إن) من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم الأسماء وإعطاء معانيه، والمتعدي خاصة في دخولها على اسمين. ولذلك أعملت عمله الفرعي وهو نصب الجزء الأول ورفع الثاني إيذانا بأنه فرع في العمل دخيل فيه.

وقال الكوفيون: الخبر قبل دخولها كان مرفوعا بالخبرية، وهي بعد باقية مقتضية للرفع قضية للاستصحاب فلا يرفعه الحرف. وأجيب بأن اقتضاء الخبرية الرفع مشروط بالتجرد لتخلفه عنها في خبر كان، وقد زال بدخولها فتعين إعمال الحرف. وفائدتها تأكيد النسبة وتحقيقها، ولذلك يتلقى بها القسم ويصدر بها الأجوبة، وتذكر في معرض الشك مثل قوله تعالى: ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا إنا مكنا له في الأرض، وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين قال المبرد (قولك: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم، جواب سائل عن قيامه، وإن عبد الله لقائم، جواب منكر لقيامه) .

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩/٥٢٥

وتعريف الموصول: إما للعهد، والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأحبار اليهود. أو للجنس، متناولا من صمم على الكفر، وغيرهم. فخص منهم غير المصرين بما أسند إليه. والكفر لغة: ستر النعمة، وأصله الكفر بالفتح وهو الستر، ومنه قيل للزارع والليل كافر، ولكمام الثمرة كافور. وفي الشرع: إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم به، وإنما عد لبس الغيار وشد الزنار ونحوهما كفرا لأنها تدل على التكذيب، فإن من صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجترئ عليها ظاهرا لا لأنها كفر في أنفسها.

واحتجت المعتزلة بما جاء في القرآن بلفظ الماضي على حدوثه لاستدعائه سابقة المخبر عنه، وأجيب بأنه مقتضى التعلق وحدوثه لا يستلزم حدوث الكلام كما في العلم.

سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم خبر إن وسواء اسم بمعنى الاستواء، نعت به كما نعت بالمصادر قال الله تعالى: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم رفع بأنه خبر إن وما بعده مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، أو بأنه خبر لما بعده بمعنى: إنذارك وعدمه سيان عليهم، والفعل إنما يمتنع الإخبار عنه إذا أريد به تمام ما وضع له، أما لو أطلق وأريد به اللفظ، أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمنا على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة، والإسناد إليه كقوله تعالى: وإذا قيل لهم آمنوا وقوله: يوم ينفع الصادقين صدقهم وقولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وإنما عدل هاهنا عن المصدر إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد وحسن دخول الهمزة، وأم عليه لتقرير معنى الاستواء وتأكيده، فإنهما جردتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء، كما جردت حروف النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة.

والإنذار: التخويف أريد به التخويف من عذاب الله، وإنما اقتصر عليه دون البشارة لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيرا في النفس، من حيث إن دفع الضر أهم من جلب النفع، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى، وقرئ أأنذرتهم بتحقيق الهمزتين وتخفيف الثانية بين بين، وقلبها ألفا وهو لحن لأن المتحركة لا تقلب، ولأنه يؤدي إلى جمع الساكنين على غير حده، وبتوسيط ألف بينهما محققتين، وبتوسيطها والثانية بين بين وبحذف الاستفهامية، وبحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها.

لا يؤمنون جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها أو حال مؤكدة. أو بدل عنه. أو خبر إن والجملة قبلها اعتراض بما هو علة الحكم.." (١)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٤١/١

"والمعنى آمنوا إيمانا مقرونا بالإخلاص متمحضا عن شوائب النفاق مماثلا لإيمانهم، واستدل به على قبول توبة الزنديق وأن الإقرار باللسان إيمان وإن لم يفد التقييد.

قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الهمزة فيه للإنكار، واللام مشار بها إلى الناس، أو الجنس بأسره وهم مندرجون فيه على زعمهم، وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي: كصهيب وبلال، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم إن فسر الناس بعبد الله بن سلام وأشياعه. والسفه: خفة وسخافة رأي يقتضيهما نقصان العقل، والحلم يقابله.

ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون رد ومبالغة في تجهيلهم، فإن الجاهل بجهله الجازم على خلاف ما هو الواقع أعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف المعترف بجهله، فإنه ربما يعذر وتنفعه الآيات والنذر، وإنما فصلت الآية ب لا يعلمون والتي قبلها ب لا يشعرون لأنه أكثر طباقا لذكر السفه، ولأن الوقوف على أمر الدين والتمييز بين الحق والباطل مما يفتقر إلى نظر وفكر. وأما النفاق وما فيه من الفتن والفساد فإنما يدرك بأدنى تفطن وتأمل فيما يشاهد من أقوالهم وأفعالهم.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٤]

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن (١٤)

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا بيان لمعاملتهم المؤمنين والكفار، وما صدرت به القصة فمساقه لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم فليس بتكرير.

روي أن ابن أبي وأصحابه استقبلهم نفر من الصحابة، فقال لقومه:

انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحبا بالصديق سيد بني تيم، وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال: مرحبا بسيد بني عدي الفاروق القوي في دينه، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: مرحبا يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه سيد بني هاشم، ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنزلت.

واللقاء المصادفة يقال لقيته ولاقيته، إذا صادفته واستقبلته، ومنه ألقيته إذا طرحته فإنك بطرحه جعلته بحيث يلقى.

وإذا خلوا إلى شياطينهم من خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه. أو من خلاك ذم أي عداك ومضى عنك، ومنه القرون الخالية. أو من خلوت به إذا سخرت منه، وعدي بإلى لتضمن معنى الإنهاء، والمراد بشياطينهم

الذين ماثلوا الشيطان في تمردهم، وهم المظهرون كفرهم، وإضافتهم إليهم للمشاركة في الكفر. أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم. وجعل سيبويه نونه تارة أصلية على أنه من شطن إذا بعد فإنه بعيد عن الصلاح، ويشهد له قولهم: تشيطن. وأخرى زائدة على أنه من شاط إذا بطل، ومن أسمائه الباطل.

قالوا إن، معكم أي في الدين والاعتقاد، خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، والشياطين بالجملة الإسمية المؤكدة بإن لأنهم قصدوا بالأولى دعوى إحداث الإيمان، وبالثانية تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه، ولأنه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدق رغبة فيما خاطبوا به المؤمنين، ولا توقع رواج ادعاء الكمال في الإيمان على المؤمنين من المهاجرين والأنصار بخلاف ما قالوه مع الكفار.

إنما نحن مستهزؤن تأكيد لما قبله، لأن المستهزئ بالشيء المستخف به مصر على خلافه. أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر. أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لما (قالوا إنا معكم) إن صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الإيمان فأجابوا بذلك. والاستهزاء السخرية والاستخفاف يقال: هزئت واستهزأت بمعنى كأجبت واستجبت، وأصله الخفة من الهزء وهو القتل السريع يقال: هزأ فلان إذا مات على مكانه، وناقته تهزأ به أي تسرع وتخف.." (١)

"فقال: جبريل، فقال: ذاك عدونا عادانا مرارا، وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر، فبعثنا من يقتله فرآه ببابل فدفع عنه جبريل. وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فلا يسلطكم عليه وإلا فيم تقتلونه؟.

وقيل: دخل عمر رضي الله تعالى عنه مدارس اليهود يوما، فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمدا على أسرارنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلام، فقال: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة، فقال لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام «لقد وافقك ربك يا عمر»

. وفي جبريل ثمان لغات قرئ بهن أربع في:

المشهور جبرئل كسلسبيل قراءة حمزة والكسائي، و «جبريل» بكسر الراء وحذف الهمزة قراءة ابن كثير، و «جبرئل» كجحمرش قراءة عاصم برواية أبي بكر، و «جبريل» كقنديل قراءة الباقين. وأربع في الشواذ: جبرئل و «جبرائيل» كجبراعيل، و «جبريل» وجبرين ومنع صرفه للعجمة، والتعريف، ومعناه عبد الله. فإنه

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٤٧/١

نزله البارز الأول لجبريل، والثاني للقرآن، وإضماره غير مذكور يدل على فخامة شأنه كأنه لتعينه وفرط شهرته لم يحتج إلى سبق ذكره. على قلبك فإنه القابل الأول للوحي، ومحل الفهم والحفظ، وكان حقه على قلبي لكنه جاء على حكاية كلام الله تعالى كأنه قال: قل ما تكلمت به. بإذن الله بأمره، أو تيسيره حال من فاعله نزله. مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين أحوال من مفعوله، والظاهر أن جواب الشرط فإنه نزله، والمعنى من عادى منهم جبريل فقد خلع ربقة الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي، لأنه نزول كتابا مصدقا للكتب المتقدمة، فحذف الجواب وأقيم علته مقامه، أو من عاداه فالسبب في عداوته أنه نزله عليك. وقيل محذوف مثل: فليمت غيظا، أو فهو عدو لي وأنا عدو له. كما قال:

[سورة البقرة (٢) : آية ٩٨]

من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين (٩٨)

من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين أراد بعداوة الله مخالفته عنادا، أو معاداة المقربين من عباده، وصدر الكلام بذكره تفخيما لشأنهم كقوله تعالى: والله ورسوله أحق أن يرضوه. وأفرد الملكين بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع، إذ الموجب لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد، ولأن المحاجة كانت فيهما. ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنه تعالى عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر. وقرأ نافع ميكال كميكاعل، وأبو عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص ميكال كميعاد، والباقون ميكال بالهمزة والياء بعدها. وقرئ «ميكئل» كميكعل، و «ميكئيل» كميكعيل، وميكايل.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون (٩٩) أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون (١٠٠)

ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أي **المتمردون** من الكفرة، والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي دل على عظمه كأنه متجاوز عن حده. نزل في ابن صوريا حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فنتبعك.

أوكلما عاهدوا عهدا الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا، وقرئ بسكون الواو على أن التقدير إلا الذين فسقوا، أوكلما عاهدوا، وقرئ «عوهدوا» و." [1]

"«عهدوا» . نبذه فريق منهم نقضه، وأصل النبذ الطرح، لكنه يغلب فيما ينسى، وإنما قال فريق لأن بعضهم لم ينقض بل أكثرهم لا يؤمنون رد لما يتوهم من أن الفريق هم الأقلون، أو أن من لم ينبذ جهارا فهم مؤمنون به خفاء.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠١]

ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون (١٠١)

ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله يعني التوراة، لأن كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدقه، ونبذ لما فيها من وجوب الإيمان بالرسل المؤيدين بالآيات. وقيل ما مع الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن.

وراء ظهورهم مثل لإعراضهم عنه رأسا، بالإعراض عما يرمي به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه.

كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله، يعني أن علمهم به رصين ولكن يتجاهلون عنادا. واعلم أنه تعالى دل بالآيتين على أن جيل اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: بل أكثرهم لا يؤمنون. وفرقة جاهروا بنبذ عهودها وتخطي حدودها **تمردا** وفسوقا، وهم المعنيون بقوله: نبذه فريق منهم. وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوا لجهلهم بها وهم الأكثرون.

وفرقة تمسكوا بها ظاهرا ونبذوها خفية عالمين بالحال، بغيا وعنادا وهم المتجاهلون.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠٢]

واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٦٩/١

(١٠٢)
واتبعوا ما تتلوا الشياطين عطف على نبذ، أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها، أو تتبعها الشياطين من الجن، أو الإنس، أو منهما. على ملك سليمان أي عهده، وتتلو حكاية حال ماضية، قيل: كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمون الناس، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل: إن الجن يعلمون الغيب، وأن ملك سليمان تم بهذا العلم، وأنه تسخر به الجن والإنس والريح له. وما كفر سليمان تكذيب لمن زعم ذلك، وعبر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبيا كان معصوما منه. ولكن الشياطين كفروا باستعماله، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي و «لكن» بالتخفيف، ورفع الشياطين. يعلمون الناس السحر إغواء وإضلالا، والجملة حال من الضمير، والمراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس. فإن التناسب شرط في التضام والتعاون، وبهذا تميز الساحر عن النبي والولي، وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحب خفة اليد فغير مذموم، وتسميته سحرا عمل التجوز، أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفي سببه. وما أنزل على الملكين عطف على السحر والمراد بهما واحد، والعطف لتغاير الاعتبار، أو المراد به نوع أقوى منه، أو على ما تتلو. وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس، وتمييزا بينه وبين المعجزة. وما

روي أنهما مثلا بشرين، وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها: زهرة،." (١)

"آتيتكم، أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقالا. وقرأ نافع «آتيناكم» بالنون والألف جميعا. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري أي عهدي، سمي به لأنه يؤصر أي يشد. وقرئ بالضم وهو إما لغة فيه كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به. قالوا أقررنا قال فاشهدوا أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار. وقيل الخطاب فيه للملائكة. وأنا معكم من الشاهدين وأنا أيضا على إقراركم وتشاهدكم شاهد، وهو توكيد وتحذير عظيم.

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٨٢ الى ٨٣]

فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٨٢) أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٩٧/١

طوعا وكرها وإليه يرجعون (٨٣)

فمن تولى بعد ذلك بعد الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة. فأولئك هم الفاسقون **المتمردون** من الكفرة.

أفغير دين الله يبغون عطف على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار، أو محذوف تقديره أتتولون فغير دين الله تبغون، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار والفعل بلفظ الغيبة عند أبي عمرو وعاصم في رواية حفص ويعقوب، وبالتاء عند الباقين على تقدير وقل له. وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها أي طائعين بالنظر واتباع الحجة، وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق، والإشراف على الموت. أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فإنهم لا يقدرون أن يمتنعوا عما قضى عليهم وإليه يرجعون وقرئ بالياء على أن الضمير لمن.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٤]

قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (٨٤)

قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان، والقرآن كما هو منزل عليه منزل عليهم بتوسط تبليغه إليهم وأيضا المنسوب إلى واحد من الجمع قد ينسب إليهم، أو بأن يتكلم عن نفسه على طريقة الملوك إجلالا له، والنزول كما يعدى بإلى لأنه ينتهي إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق، وإنما قدم المنزل عليه السلام على المنزل على سائر الرسل لأنه المعرف له والعيار عليه لا نفرق بين أحد منهم بالتصديق والتكذيب. ونحن له مسلمون منقادون أو مخلصون في عبادته.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٥]

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (٨٥)

ومن يبتغ غير الإسلام دينا أي غير التوحيد والإنقياد لحكم الله. فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين الواقعين في الخسران، والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها، واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل. والجواب إنه ينفي قبول كل دين يغايره لا قبول كل ما يغايره، ولعل الدين أيضا للأعمال.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٦]

كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين (٨٦)

كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات استبعاد لأن يهديهم الله فإن الحائد عن الحق بعد ما وضح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد. وقيل نفي وإنكار له وذلك." (١)

"ولله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور فيجازي كلا بما وعد له وأوعد.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١١٠]

كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠)

كنتم خير أمة دل على خيريتهم فيما مضى ولم يدل على انقطاع طرأ كقوله تعالى: إن الله كان غفورا رحيما وقيل كنتم في علم الله أو في اللوح المحفوظ، أو فيما بين الأمم المتقدمين. أخرجت للناس أي أظهرت لهم. تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر استئناف بين به كونهم خير أمة، أو خبر ثان لكنتم. وتؤمنون بالله يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، لأن الإيمان به إنما يحق ويعتد به إذا حصل الإيمان بكل ما أمر أن يؤمن به، وإنما أخره وحقه أن يقدم لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيمانا بالله وتصديقا به وإظهارا لدينه، واستدل بهذه الآية على إن الاجماع حجة لأنها تقتضي كونهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، إذ اللام فيهما للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك. ولو آمن أهل الكتاب إيمانا كما ينبغي لكان خيرا لهم لكان الإيمان خيرا لهم مما هم عليه. منهم المؤمنون كعبد الله بن سلام وأصحابه. وأكثرهم الفاسقون **المتمردون** في الكفر، وهذه الجملة والتي بعدها واردتان على سبيل الاستطراد.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١١١]

لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون (١١١)

لن يضروكم إلا أذى ضررا يسيرا كطعن وتهديد. وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ينهزموا ولا يضروكم بقتل وأسر.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٦/٢

ثم لا ينصرون ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم، نفي إضرارهم سوى ما يكون بقول وقرر ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدبرة عليهم، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان. وقرئ «لا ينصروا» عطفا على يولوا على أن ثم للتراخي في الرتبة فيكون عدم النصر مقيدا بقتالهم، وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع إذ كان ذلك حال قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١١٢]

ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤ بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١١٢)

ضربت عليهم الذلة هدر النفس والمال والأهل، أو ذل التمسك بالباطل والجزية. أين ما ثقفوا وجدوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس استثناء من أعم عام الأحوال أي ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا معتصمين، أو ملتبسين بذمة الله أو كتابة الذي آتاهم وذمة المسلمين، أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين. وباؤ بغضب من الله رجعوا به مستوجبين له وضربت عليهم المسكنة فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، واليهود في غالب الأمر فقراء ومساكين. ذلك إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب. بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء. والتقييد بغير حق مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقا بحسب اعتقادهم أيضا. ذلك أي الكفر والقتل. بما عصوا وكانوا يعتدون بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر والاستمرار عليها يؤدي إلى الكفر. وقيل معناه أن ضرب الذلة في الدنيا واستيجاب الغضب في الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم." (١)

"في كلامهم لفظا كموماة ودوداة. ثم يتولون من بعد ذلك ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم، وهو عطف على يحكمونك داخل في حكم التعجيب. وما أولئك بالمؤمنين بكتابهم لإعراضهم عنه أولا وعما يوافقه ثانيا، أو بك وبه.

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٤]

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣٣/٢

إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٤٤)

إنا أنزلنا التوراة فيها هدى يهدي إلى الحق. ونور يكشف عما استبهم من الأحكام. يحكم بها النبيون يعني أنبياء بني إسرائيل، أو موسى ومن بعده إن قلنا شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ، وبهذه الآية تمسك القائل به. الذين أسلموا صفة أجريت على النبيين مدحا لهم وتنويها بشأن المسلمين، وتعريضا باليهود وأنهم بمعزل عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتفاء هديهم. للذين هادوا متعلق بأنزل، أو بيحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم وهو يدل على أن النبيين أنبياؤهم. والربانيون والأحبار زهادهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم عطف على النبيون بما استحفظوا من كتاب الله بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف، والراجع إلى ما محذوف ومن للتبيين. وكانوا عليه شهداء رقباء لا يتركون أن يغير، أو شهداء يبينون ما يخفى منه كما فعل ابن صوريا. فلا تخشوا الناس واخشون نهي للحكام أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ويداهنوا فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير. ولا تشتروا بآياتي ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتها. ثمنا قليلا هو الرشوة والجاه ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به منكرا له. فأولئك هم الكافرون لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله الكافرون والظالمون والفاسقون، فكفرهم لإنكاره، وظلمهم بالحكم على خلافه، وفسقهم بالخروج عنه. ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حال انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمة لها، أو لطائفة كما قيل هذه في المسلمين لاتصالها بخطابهم، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى.

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٥]

وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (٤٥)

وكتبنا عليهم وفرضنا على اليهود. فيها في التوراة. أن النفس بالنفس أي أن النفس تقتل بالنفس. والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن رفعها الكسائي على أنها جمل معطوفة على أن وما في حيزها باعتبار المعنى وكأنه قيل: وكتبنا عليهم النفس بالنفس، والعين بالعين، فإن الكتابة والقراءة تقعان على الجمل كالقول، أو مستأنفة ومعناها: وكذلك العين مفقوءة بالعين، والأنف مجدوعة بالأنف، والأذن مصلومة بالأذن، والسن مقلوعة بالسن، أو على أن المرفوع منها معطوف على المستكن في قوله بالنفس،

وإنما ساغ لأنه في الأصل مفصول عنه بالظرف، والجار والمجرور حال مبينة للمعنى، وقرأ نافع والأذن بالأذن وفي أذنيه بإسكان الذال حيث وقع. والجروح قصاص أي ذات قصاص، وقراءة الكسائي أيضا بالرفع ووافقه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر على أنه إجمال للحكم بعد التفصيل. فمن تصدق من المستحقين. به بالقصاص أي فمن عفا عنه. فهو فالتصدق. كفارة له للمتصدق يكفر الله به ذنوبه. وقيل للجاني يسقط عنه ما لزمه. وقرئ «فهو كفارته له» أي فالمتصدق كفارته التي يستحقها." [١]

"ووعيد للمبادرين والمقصرين. فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل والعامل والمقصر.

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٩]

وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون (٤٩)

وأن احكم بينهم بما أنزل الله عطف على الكتاب أي أنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأن احكم، ويجوز أن يكون جملة بتقدير وأمرنا أن أحكم. ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك أي أن يضلوك ويصرفوك عنه، وأن بصلته بدل من هم بدل الاشتمال أي احذر فتنتهم، أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك.

روي (أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، إن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم) فنزلت.

فإن تولوا عن الحكم المنزل وأرادوا غيره. فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم يعني ذنب التولي عن حكم الله سبحانه وتعالى، فعبر عنه بذلك تنبيها على أن لهم ذنوبا كثيرة وهذا مع عظمه واحد منها معدود من جملتها، وفيه دلالة على التعظيم كما في التنكير ونظيره قول لبيد:

أو يرتبط بعض النفوس حمامها وإن كثيرا من الناس لفاسقون لمتمردون في الكفر معتدون فيه.

[سورة المائدة (٥) : آية ٥٠]

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢/١٢٨

أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (٥٠)
أفحكم الجاهلية يبغون الذي هو الميل والمداهنة في الحكم، والمراد بالجاهلية الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى. وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى. وقرئ برفع الحكم على أنه مبتدأ، ويبغون خبره، والراجع محذوف حذفه في الصلة في قوله تعالى: أهذا الذي بعث الله رسولا واستضعف ذلك في غير الشعر وقرئ «أفحكم الجاهلية» أي يبغون حاكما كحكام الجاهلية يحكم بحسب شهيتهم. وقرأ ابن عامر «تبغون» بالتاء على قل لهم أفحكم الجاهلية تبغون. ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون أي عندهم، واللام للبيان كما في قوله تعالى: هيت لك أي هذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم فيعلمون أن لا أحسن حكما من الله سبحانه وتعالى.

[سورة المائدة (٥) : آية ٥١]
يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (٥١)
يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب. بعضهم أولياء بعض إيماء على علة النهي، أي فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضا لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادتكم. ومن يتولهم منكم فإنه منهم أي ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما
قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتراءى ناراهما»
، أو لأن الموالي لهم كانوا منافقين. إن الله لا يهدي القوم الظالمين أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار أو المؤمنين بموالاة أعدائهم.." (١)

"ملك ذلك بتمليك الله سبحانه وتعالى إياه لا يملكه من ذاته ولا يملك مثل ما يضر الله تعالى به من البلايا والمصائب، وما ينفع به من الصحة والسعة وإنما قال ما نظرا إلى ما هو عليه في ذاته توطئة لنفي القدرة عنه رأسا، وتنبيها على أنه من هذا الجنس ومن كان له حقيقة تقبل المجانسة والمشاركة فبمعزل عن الألوهية، وإنما قدم الضر لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع. والله هو السميع العليم بالأقوال والعقائد

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٣٠/٢

فيجازي عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

[سورة المائدة (٥) : آية ٧٧]

قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل (٧٧)

قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق أي غلوا باطلا فترفعوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أن تدعوا له الألوهية، أو تضعوه فتزعموا أنه لغير رشدة. وقيل الخطاب للنصارى خاصة. ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم في شريعتهم. وأضلوا كثيرا ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم. وضلوا عن سواء السبيل عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم لما كذبوه وبغوا عليه، وقيل الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع.

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٧٨ الى ٧٩]

لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون (٧٩)

لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم أي لعنهم الله في الزبور والإنجيل على لسانهما. وقيل إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله تعالى على لسان داود فمسخهم الله تعالى قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى عليهم السلام ولعنهم فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون أي ذلك اللعن الشنيع المقتضي للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم.

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه أي لا ينهى بعضهم بعضا عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيؤوا له، أو لا ينتهون عنه من قولهم تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع. لبئس ما كانوا يفعلون تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم.

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٨٠ الى ٨١]

ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم

خالدون (٨٠) ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون (٨١) ترى كثيرا منهم من أهل الكتاب. يتولون الذين كفروا يوالون المشركين بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أي لبئس شيئا قدموه ليردوا عليه يوم القيامة أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون هو المخصوص بالذم، والمعنى موجب سخط الله والخلود في العذاب، أو علة الذم والمخصوص محذوف أي لبئس شيئا ذلك لأنه كسبهم السخط والخلود.

ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي يعني نبيهم وإن كانت الآية في المنافقين فالمراد نبينا عليه السلام. وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء إذ الإيمان يمنع ذلك. ولكن كثيرا منهم فاسقون خارجون عن دينهم أو **متمردون** في نفاقهم.." (١)

"فخلوا سبيلهم فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله. إن الله غفور رحيم تعليل للأمر أي فخلوهم لأن الله غفور رحيم غفر لهم ما قد سلف وعدلهم الثواب بالتوبة.

وإن أحد من المشركين المأمور بالتعرض لهم. استجارك استأمنك وطلب منك جوارك.

فأجره فأمنه. حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر. ثم أبلغه مأمنه موضع أمنه إن لم يسلم، وأحد رفع بفعل يفسره ما بعده لا بالابتداء لأن إن من عوامل الفعل. ذلك الأمن أو الأمر.

بأنهم قوم لا يعلمون ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

[سورة التوبة (٩) : آية ٧]

كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين (٧)

كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وغرة صدورهم، أو لأن يفي الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه، وخبر يكون كيف وقدم للاستفهام أو للمشركين أو عند الله وهو على الأولين صفة لل عهد أو ظرف له أو ل يكون، وكيف على الأخيرين حال من ال عهد وللمشركين إن لم يكن خبرا فتبيين. إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام هم المستثنون قبل ومحله النصب على الاستثناء أو الجر على البدل أو الرفع على أن الاستثناء منقطع أي: ولكن الذين

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٣٩/٢

عاهدتم منهم عند المسجد الحرام. فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم أي فتربصوا أمرهم فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء وهو كقوله فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم غير أنه مطلق وهذا مقيد وما تحتمل الشرطية والمصدرية إن الله يحب المتقين سبق بيانه.

[سورة التوبة (٩) : آية ٨]

كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (٨)

كيف تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاء حكمه مع التنبيه على العلة وحذف الفعل للعلم به كما في قوله:

وخبرتماني أنما الموت بالقرى ... فكيف وهاتا هضبة وقليب

أي فكيف مات. وإن يظهروا عليكم أي وحالهم أنهم إن يظفروا بكم. لا يرقبوا فيكم لا يراعوا فيكم. إلا حلفا وقيل قرابة قال حسان:

لعمرك إن إلك من قريش ... كإل السقب من رأل النعام

وقيل ربوبية ولعله اشتق للحلف من الإل وهو الجؤار لأنهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، ثم استعير للقرابة لأنها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثم للربوبية والتربية. وقيل اشتقاقه من ألل الشيء إذا حدده أو من آل البرق إذا لمع. وقيل إنه عبري بمعنى الإله لأنه قرئ إيلا كجبرئل وجبرئيل. ولا ذمة عهدا أو حقا يعاب على إغفاله. يرضونكم بأفواههم استئناف لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر، ولا يجوز جعله حالا من فاعل لا يرقبوا فإنهم بعد ظهورهم لا يرضون ولأن المراد إثبات إرضائهم المؤمنين بوعد الإيمان والطاعة والوفاء بالعهد في الحال، واستبطان الكفر والمعاداة بحيث إن ظفروا لم يبقوا عليهم والحالية تنافيه وتأبى قلوبهم ما تتفوه به أفواههم. وأكثرهم فاسقون **متمردون** لا عقيدة تزعهم ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر لما في بعض." (١)

"الواحد. وقيل إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله إنهم لمنكم وتقرير لقولهم وما هم منكم وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وهو قوله: يأمرون بالمنكر بالكفر والمعاصي. وينهون عن المعروف عن الإيمان والطاعة. ويقبضون أيديهم عن المبار، وقبض اليد كناية عن الشح. نسوا الله أغفلوا ذكر الله وتركوا طاعته. فنسيهم فتركهم من لطفه وفضله. إن المنافقين هم الفاسقون الكاملون

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٧٢

في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.
وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها مقدرين الخلود. هي حسبهم عقابا وجزاء وفيه دليل على عظم عذابها. ولعنهم الله أبعدهم من رحمته وأهانهم. ولهم عذاب مقيم لا ينقطع والمراد به ما وعدوه أو ما يقاسونه من تعب النفاق.

[سورة التوبة (٩) : آية ٦٩]
كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون (٦٩)
كالذين من قبلكم أي أنتم مثل الذين، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم. كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا بيان لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم. فاستمتعوا بخلاقهم نصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فإنه ما قدر لصاحبه. فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المخدجة من الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم. وخضتم ودخلتم في الباطل. كالذي خاضوا كالذين خاضوا، أو كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه.
أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة لم يستحقوا عليها ثوابا في الدارين. وأولئك هم الخاسرون الذين خسروا الدنيا والآخرة.

[سورة التوبة (٩) : آية ٧٠]
ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٧٠)
ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح أغرقوا بالطوفان. وعاد أهلكوا بالريح. وثمود أهلكوا بالرجفة. وقوم إبراهيم أهلك نمروذ ببعوض وأهلك أصحابه. وأصحاب مدين وأهل مدين وهم قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظلة. والمؤتفكات قريات قوم لوط ائتفكت بهم أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل، وقيل قريات المكذبين المتمردين وائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر. أتتهم رسلهم يعني الكل. بالبينات فما كان الله ليظلمهم أي لم يك من عادته ما يشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم.

ولكن كانوا أنفسهم يظلمون حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

[سورة التوبة (٩) : آية ٧١]
والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم (٧١)
والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض في مقابلة قوله المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله في سائر الأمور.
أولئك سيرحمهم الله لا محالة فإن السين مؤكدة للوقوع. إن الله عزيز غالب على كل شيء لا يمتنع." (١)
"تمر فقال بت ليلتي أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات. فنزلت : والذين لا يجدون إلا جهدهم إلا طاقتهم. وقرئ بالفتح وهو مصدر جهد في الأمر إذا بالغ فيه. فيسخرون منهم يستهزئون بهم. سخر الله منهم جازاهم على سخريتهم كقوله تعالى: الله يستهزئ بهم. ولهم عذاب أليم على كفرهم.

[سورة التوبة (٩) : آية ٨٠]
استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين (٨٠)
استغفر لهم أو لا تستغفر لهم يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله:
إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.
روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين فنزلت: سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم.
وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجوز أن يكون ذلك حدا

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٨٨/٣

يخالفه حكم ما وراءه، فبين له أن المراد به التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنه العدد بأسره. ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. والله لا يهدي القوم الفاسقين **المتمردين** في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٨١ الى ٨٢]

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون (٨١) فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون (٨٢)

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله بقعودهم عن الغزو خلفه يقال أقام خلاف الحي أي بعدهم، ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال. وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله إيثارا للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج. وقالوا لا تنفروا في الحر أي قال بعضهم لبعض أو قالوه للمؤمنين تثبيطا. قل نار جهنم أشد حرا وقد آثرتموها بهذه المخالفة. لو كانوا يفقهون أن مآبهم إليها، أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب، ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة العدم.." (١)

"والأرض. أمن يملك السمع والأبصار أم من يستطيع خلقهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالها من أدنى شيء. ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٩١/٣

يحيي ويميت، أو من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه. ومن يدبر الأمر ومن يلي تدبير أمر العالم وهو تعميم بعد تخصيص. فسيقولون الله إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه. فقل أفلا تتقون أنفسكم عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

فذلكم الله ربكم الحق أي المتولي لهذه الأمور المستحق للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم. فماذا بعد الحق إلا الضلال استفهام إنكار أي ليس بعد الحق إلا الضلال فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال. فأنى تصرفون عن الحق إلى الضلال.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون (٣٣) قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون (٣٤)

كذلك حقت كلمة ربك أي كما حقت الربوبية لله أو إن الحق بعده الضلال، أو أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة الله وحكمه. وقرأ نافع وابن عامر «كلمات» هنا وفي آخر السورة وفي «غافر» على الذين فسقوا تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح. أنهم لا يؤمنون بدل من الكلمة، أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب.

قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها وإن لم يساعدوا عليها، ولذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينوب عنهم في الجواب فقال قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده لأن لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها. فأنى تؤفكون تصرفون عن قصد السبيل.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٥ الى ٣٦]

قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (٣٥) وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون (٣٦)

قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيق للنظر والتدبر، وهدى كما يعدى بإلى لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام للدلالة على أن المنتهي غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما أسند إلى الله تعالى. قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى أم الذي لا يهتدي إلا أن يهدى من

قولهم:
هدي بنفسه إذا اهتدى، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله وهذا حال أشراف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير، وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر يهدى بفتح الهاء وتشديد الدال. ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد والأصل يهتدي فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين. وروى أبو بكر يهدي بإتباع الياء الهاء. وقرأ أبو عمرو بالإدغام المجرد ولم يبال بالتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك. وعن نافع برواية قالون مثله وقرئ «إلا أن يهدى» للمبالغة فما لكم كيف تحكمون بما يقتضي صريح العقل بطلانه. وما يتبع أكثرهم فيما يعتقدونه. إلا ظنا مستندا إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة، والمراد بالأكثر الجميع أو من ينتمي منهم إلى تمييز ونظر ولا يرضى بالتقليد الصرف. إن الظن لا يغني من الحق من العلم والاعتقاد." (١)

"الحق. شيئا من الإغناء ويجوز أن يكون مفعولا به ومن الحق حالا منه، وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. إن الله عليم بما يفعلون وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٧ الى ٣٨]
وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٣٧) أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٣٨)

وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله افتراء من الخلق. ولكن تصديق الذي بين يديه مطابقا لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها ولا يكون كذبا كيف وهو لكونه معجزا دونها عيار عليها شاهد على صحتها، ونصبه بأنه خبر لكان مقدرا أو علة لفعل محذوف تقديره: ولكن أنزله الله تصديق الذي. وقرئ بالرفع على تقدير ولكن هو تصديق. وتفصيل الكتاب وتفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع. لا ريب فيه منتفيا عنه الريب وهو خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك، ويجوز أن يكون حالا من الكتاب فإنه مفعول في المعنى وأن يكون استئنافا. من رب العالمين خبر آخر تقديره كائنا من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو تفصيل، ولا ريب فيه اعتراض أو بالفعل المعلل بهما ويجوز أن يكون حالا من الكتاب

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/١١٢

أو من الضمير في فيه، ومساق الآية بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه.
أم يقولون بل أيقولون. افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ومعنى الهمزة فيه للإنكار. قل فأتوا بسورة مثله في البلاغة وحسن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرنا في النظم والعبارة. وادعوا من استطعتم ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به. من دون الله سوى الله تعالى فإنه وحده قادر على ذلك. إن كنتم صادقين أنه ا ختلقه.

[سورة يونس (١٠) : آية ٣٩]
بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٣٩)
بل كذبوا بل سارعوا إلى التكذيب. بما لم يحيطوا بعلمه بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علما من ذكر البعث والجزاء وسائر ما يخالف دينهم. ولما يأتهم تأويله ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، والمعنى أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ثم إنهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه ومعنى التوقع في لما أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا قواهم في معارضته فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبقا لأخباره مرارا فلم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا. كذلك كذب الذين من قبلهم أنبياءهم. فانظر كيف كان عاقبة الظالمين فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٤٠ الى ٤١]
ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين (٤٠) وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون (٤١)
ومنهم ومن المكذبين. من يؤمن به من يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من." (١)
"فإن توليتم أعرضتم عن تذكيري. فما سألتكم من أجر يوجب توليكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني لتوليكم. إن أجري ما ثوابي على الدعوة والتذكير. إلا على الله لا تعلق له بكم يثيبني به

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١١٣/٣

آمنتم أو توليتم. وأمرت أن أكون من المسلمين المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره.
فكذبوه فأصروا على تكذيبه بعد ما ألزمهم الحجة وبين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب. فنجيناه من الغرق. ومن معه في الفلك وكانوا ثمانين. وجعلناهم خلائف من الهالكين به. وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا بالطوفان. فانظر كيف كان عاقبة المنذرين تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له.

[سورة يونس (١٠) : آية ٧٤]
ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين (٧٤)
ثم بعثنا أرسلنا. من بعده من بعد نوح. رسلا إلى قومهم كل رسول إلى قومه. فجاؤهم بالبينات بالمعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم. فما كانوا ليؤمنوا فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر وخذلان الله إياهم. بما كذبوا به من قبل أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام. كذلك نطبع على قلوب المعتدين بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف، وفي أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد وقد مر تحقيق ذلك.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]
ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين (٧٥) فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين (٧٦)
ثم بعثنا من بعدهم من بعد هؤلاء الرسل. موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا بالآيات التسع.
فاستكبروا عن اتباعهما. وكانوا قوما مجرمين معتادين الإجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترءوا على ردها.
فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك. قالوا من فرط تمردهم. إن هذا لسحر مبين ظاهر أنه سحر، أو فائق في فنه واضح فيما بين إخوانه.

[سورة يونس (١٠) : آية ٧٧]
قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون (٧٧)
قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم إنه لسحر فحذف المحكي المقول لدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن

يكون. أسحر هذا لأنهم بتوا القول بل هو استئناف بإنكار ما قالوه اللهم إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكي مفهوم قولهم، ويجوز أن يكون معنى أتقولون للحق أتعيبونه من قولهم فلان يخاف القالة كقوله تعالى: سمعنا فتى يذكرهم فيستغني عن المفعول.

ولا يفلح الساحرون من تمام كلام موسى للدلالة على أنه ليس بسحر فإنه لو كان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة، ولأن العالم بأنه لا يفلح الساحر لا يسحر، أو من تمام قولهم إن جعل أسحر هذا محكيا كأنهم قالوا أجئتنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون.." (١)

"بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة **والتمرد** في العصيان، فيدل على الطاعة من طريق المقابلة، وقيل أمرناهم بالفسق لقوله: ففسقوا فيها

كقولك أمرته فقرأ، فإنه لا يفهم منه إلا الأمر بالقراءة على أن الأمر مجاز من الحمل عليه، أو التسبب له بأن صب عليهم من النعم ما أبطرهم وأفضى بهم إلى الفسوق، ويحتمل أن لا يكون له مفعول منوي كقولهم: أمرته فعصاني. وقيل معناه كثرنا يقال: أمرت الشيء وآمرته فأمر إذا كثرته،

وفي الحديث «خير المال سكة مأبورة، ومهرة مأمورة»

، أي كثيرة النتاج. وهو أيضا مجاز من معنى الطلب، ويؤيده قراءة يعقوب «آمرنا» ورواية أمرنا

عن أبي عمرو، ويحتمل أن يكون منقولا من أمر بالضم أمارة أي جعلناهم أمراء، وتخصيص المترفين لأن غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر على الفجور. فحق عليها القول

يعني كلمة العذاب السابقة بحلوله، أو بظهور معاصيهم أو بانهماكهم في المعاصي. فدمرناها تدميرا أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٧ الى ١٨]

وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا (١٧) من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا (١٨)

وكم أهلكنا وكثيرا أهلكنا. من القرون بيان لكم وتمييز له. من بعد نوح كعاد وثمود.

وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا يدرك بواطنها وظواهرها فيعاقب عليها، وتقديم الخبير لتقدم متعلقه.

من كان يريد العاجلة مقصورا عليها همه. عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد قيد المعجل والمعجل له بالمشيئة

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٢٠/٣

والإرادة لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه، ولا كل واجد جميع ما يهواه وليعلم أن الأمر بالمشيئة والهم فضل. ولمن نريد بدل من له بدل البعض. وقرئ «ما يشاء» والضمير فيه لله تعالى حتى يطابق المشهورة. وقيل لمن فيكون مخصوصا بمن أراد الله تعالى به ذلك. وقيل الآية في المنافقين كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها. ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا مطرودا من رحمة الله تعالى.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا (١٩) كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا (٢٠)

ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها حقها من السعي وهو الإتيان بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه لا التقرب بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص. وهو مؤمن إيمانا صحيحا لا شرك معه ولا تكذيب فإنه العمدة. فأولئك الجامعون للشروط الثلاثة. كان سعيهم مشكورا من الله تعالى أي مقبولا عنده مثابا عليه، فطن شكر الله الثواب على الطاعة.

كلا كل واحد من الفريقين، والتنوين بدل من المضاف إليه. نمد بالعطاء مرة بعد أخرى ونجعل آنفه مددا لسالفه. هؤلاء وهؤلاء بدل من كلا. من عطاء ربك من معطاه متعلق ب نمد. وما كان عطاء ربك محظورا ممنوعا لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر تفضلا.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (٢١) لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا (٢٢)

انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض في الرزق، وانتصاب كيف ب فضلنا على الحال.." (١)

"وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون (١٤)

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ وقرأ أبو حنيفة رحمه الله وإذا لاقوا يقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريبا البقرة (١٤ _ ١٦)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٢٥١

منه الآية الأولى في بيان مذهب المنافقين والترجمة عن نف وهذه في بيان ما كانوا يعملون مع المؤمنين من الاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين وإيهامهم أنهم معهم ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه وبإلى أبلغ لأن فيه دلالة الابتداء والانتهاء أي إذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ويجوز أن يكون من خلا بمعنى وشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين في **تمردهم** وهم اليهود وعن سيبويه أن نون الشياطين أصلية بدليل قولهم تشيطن وعنه أنها زائدة واشتقاقه من شطن إذا بعد لبعده من الصلاح والخبر أو من شاط إذا بطل ومن أسمائه الباطل ﴿قالوا إنا معكم﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم وإنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالإسمية محققة بأن لأنهم في خطابهم مع المؤمنين في ادعاء حدوث الإيمان منهم لا في ادعاء أنهم أو حديون في الإيمان إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التأكيد والمبالغة وكيف يطعمون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار وأما خطابهم مع إخوانهم فقد كان عن رغبة وقد كان متقبلا منهم رائجا عنهم فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتأكيد وقوله ﴿إنما نحن مستهزؤون﴾ تأكيد لقوله إنا معكم لأن معناه الثبات على اليهودية وقوله إنما نحن مستهزئون رد للاسلام ودفع له منهم لأن المستهزئ بالشيء." (١)

"ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون (٩٩)

﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ **المتمردون** من الكفرة واللام للجنس والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك بها فنزلت الواو فى." (٢)

"فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٨٢)

﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ الميثاق والتوكيد ونقض العهد بعد قبوله وأعرض عن الإيمان بالنبي الجائي ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ **المتمردون** من الكفار." (٣)

"كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠)

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٥٢/١

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١١٤/١

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢٧٠/١

﴿كنتم خير أمة﴾ كأنه قيل وجدتم خير أمة أو كنتم في علم الله أو في اللوح خير أمة أو كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به ﴿أخرجت﴾ أظهرت ﴿للناس﴾ اللام يتعلق بأخرجت ﴿تأمرون﴾ كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم بينت بالإطعام والإلباس وجه الكرم فيه ﴿بالمعروف﴾ بالإيمان وطاعة الرسول ﴿وتنهون عن المنكر﴾ عن الكفر وكل محظور ﴿وتؤمنون بالله﴾ وتدومون على الإيمان به أو لأن الواو لا تقتضى الترتيب ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ بمحمد عليه السلام ﴿لكان خيرا لهم﴾ لكان الإيمان خيرا لهم مما هم فيه لأنهم إنما آثروا دينهم عن دين الإسلام حبا للرياسة واستتباع العوام ولو آمنوا لكان خيرا لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا مع الفوز بما وعدوا على الإيمان به من إيتاء الأجر مرتين ﴿منهم المؤمنون﴾ تعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ **المتمردون** في الكفر." (١)

"كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (٨)

﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾ تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما أى كيف يكون لهم عهدو حالهم أنهم إن يظهروا عليكم أي يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ﴿لا يرقبوا فيكم إلا﴾ لا يراعوا حلفا ولا قرابة ﴿ولا ذمة﴾ عهدا ﴿يرضونكم بأفواههم﴾ بالوعد بالإيمان والوفاء بالعهد وهو كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد ﴿وتأبى قلوبهم﴾ الإيمان والوفاء بالعهد ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ ناقضون العهد أو **متمردون** فى الكفر لامروءة تمنعهم عن الكذب ولا شمائل تردعهم عن النكث كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادى عنها." (٢)

"قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين (٥٣)

﴿قل أنفقوا﴾ في وجوه البر ﴿طوعا أو كرها﴾ طائعين أو مكروهين نصب على الحال كرها حمزة وعلي وهو أمر في معنى الخبر ومعناه ﴿لن يتقبل منكم﴾ أنفقتم طوعا أو كرها ونحوه استغفر لهم أولا تستغفر لهم وقوله ... أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلت ...

أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ولا نلومك أسأت إلينا أو أحسنت وقد جاز عكسه

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢٨٢/١

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٦٦٦/١

في قولك رحم الله زيدا ومعنى عدم القبول أنه عليه السلام يردها عليهم ولا يقبلها أو لا يثيبها الله وقوله طوعا أي من غير إلزام من الله ورسوله وكرها أي ملزمين وسمي الإلزام إكراها لأنهم منافقون فكان إلزامهم الإنفاق شاقا عليهم كالإكراه ﴿إنكم﴾ تعليل الرد إنفاقهم ﴿كنتم قوما فاسقين﴾ **متمردين** عاتين." (١)

"المنافقات مائة وسبيعن ﴿بعضهم من بعض﴾ أي كأنهم نفس واحدة وفيه نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى قولهم ويحلفون بالله إنهم لمنكم وتقرير لقوله وما هم منكم ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال ﴿يأمرون بالمنكر﴾ بالكفر والعصيان ﴿وينهون عن المعروف﴾ عن الطاعة والإيمان ﴿ويقبضون أيديهم﴾ شحا بالمبار والصدقات والإنفاق في سبيل الله ﴿نسوا الله﴾ تركوا امره أو غفلوا ذكره ﴿فنسيهم﴾ فتركهم من رحمته وفضله ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ هم الكاملون في الفسق الذي هو **التمرد** في الكفر والانسلاخ عن كل خير وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمهم." (٢)

"كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون (٣٣)

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الحق ﴿حقت كلمة ربك﴾ كلمات شامي ومدني أي كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك ﴿على الذين فسقوا﴾ **تمردوا** في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ﴿أنهم لا يؤمنون﴾

يونس (٣٤ ــ ٣٦)

بدل من الكلمة أي حق عليهم انتفاء الإيمان أو حق عليهم كلمة الله أن ايمانهم غير." (٣)

"بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٣٩)

﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن فى بديهة السمع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ومعنى التوقع في ولما يأتهم تأويله أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليدا للآباء وكذبوه بعد التدبر **تمردا** وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به وجاء

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١/٦٨٦

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١/٦٩٢

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٢٠

بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي وجربوا قواهم في المعارضة وعرفوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغيا وحسدا ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ يعني كفار الأمم الماضية كذبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم وقبل تدبرها عنادا وتقليدا للآباء ويجوز أن يكون معنى ولما يأتهم تأويله ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق يعني أنه كتاب معجز من جهتين من جهة إعجاز نظمه ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز وقبل أن يجربوا إخباره بالمغيبات

يونس (٣٩ ــ ٤٥)

وصدقه وكذبه ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾." (١)

"القول فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك فرد الله ذلك عليهم بقوله ألا إنهم هم السفهاء يعني الجهال. وأصل السفه خفة العقل ورقة العلم وإنما سمى الله المنافقين سفهاء لأنهم كانوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء ولكن لا يعلمون يعني أنهم كذلك. قوله تعالى:

وإذا لقوا الذين آمنوا يعني هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار قالوا آمنا كإيمانكم وإذا خلوا أي رجعوا. وقيل هو من الخلوة إلى قيل بمعنى الباء أي ب شياطينهم وقيل بمعنى مع أي مع شياطينهم والمراد بشياطينهم رؤساؤهم وكهنتهم قال ابن عباس وهم خمسة نفر: كعب بن الأشرف من اليهود بالمدينة وأبو بردة من بني أسلم، وعبد الدار في جهينة وعوف بن عامر في بني أسد وعبد الله بن السوداء بالشام، ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع لهم، وقيل لهم رؤساؤهم الذين شابهوا الشياطين في **تمردهم** قالوا إنا معكم أي على دينكم إنما نحن مستهزؤن أي بمحمد وأصحابه بما نظهر لهم من الإسلام لنأمن شرهم ونقف على سرهم ونأخذ من غنائمهم وصدقاتهم. قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله بن أبي لأصحابه انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم؟ فذهب فأخذ بيد أبي بكر الصديق فقال: مرحبا بالصديق سيد بني تميم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحبا بسيد بني عدي بن كعب الفاروق القوي في

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٢٣

دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد علي فقال: مرحبا يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختمه وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له علي: اتق الله يا عبد الله ولا تنافق فإن المنافقين شر خليقة الله. فقال مهلا يا أبا الحسن إني لا أقول هذا نفاقا والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم تفرقوا فقال عبد الله لأصحابه كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيرا.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥ الى ١٩]

الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (١٥) أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (١٦) مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١٧) صم بكم عمي فهم لا يرجعون (١٨) أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين (١٩)

الله يستهزئ بهم أي يجازيهم جزاء استهزائهم بالمؤمنين فسمي الجزاء باسمه لأنه في مقابلته قال ابن عباس يفتح لهم باب الجنة فإذا انتهوا إليه سد عنهم وردوا إلى النار ويمدهم أي يتركهم ويمهلهم. والمد والإمداد واحد وأصله الزيادة وأكثر ما يأتي المد في الشر والإمداد في الخير في طغيانهم أي في ضلالهم وأصل الطغيان مجاوزة الحد يعمهون أي يترددون في الضلالة متحيرين أولئك يعني المنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدى أي استبدلوا الكفر بالإيمان وإنما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعا على سبيل الاستعارة لأن الشراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر. فإن قلت كيف قال اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى.

قلت جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم فإذا تركوه إلي الضلالة فقد عطلوه واستبدلوه بها. والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء فما ربحت تجارتهم أي ما ربحوا في تجارتهم والربح الفضل عن رأس المال وأضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها وما كانوا مهتدين أي مصيبين في تجارتهم، لأن رأس المال هو الإيمان فلما أضاعوه واعتقدوا الضلالة فقد ضلوا عن الهدى. وقيل وما كانوا مهتدين في ضلالتهم. قوله عز وجل مثلهم كمثل الذي استوقد نارا المثل عبارة عن قول يشبه ذلك القول قولا آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه، وهو أحد أقسام القرآن السبعة ولما ذكر الله تعالى حقيقة." (١)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٨/١

"[سورة آل عمران (٣): آية ٥٢]

فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون (٥٢)

فلما أحس عيسى منهم الكفر أي وجد وعرف وقيل: رأى والإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة والمعنى أنهم تكلموا بكلمة الكفر فأحس ذلك عيسى منهم وعرف إصرارهم عليه وعزمهم على قتله.

(ذكر سبب القصة:) قال أهل الأخبار والسير: لما بعث الله عيسى إلى بني إسرائيل وأمره بإظهار رسالته والدعاء إليه نفوه وأخرجوه من بينهم، فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض فنزلا في قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان لتلك القرية ملك جبار معتد فجاء ذلك الرجل في بعض الأيام وهو مهموم حزين فدخل منزله عند امرأته فقالت مريم: ما شأن زوجك أراه كئيبا حزينا فقالت: لا تسأليني فقالت مريم: أخبريني لعل الله أن يفرج كربته قالت المرأة: إن لنا ملكا جبارا وقد جعل على كل رجل منا يوما يطعمه فيه هو وجنوده ويسقيهم الخمر وإن لم يفعل ذلك عاقبه واليوم نوبتنا وليس عندنا سعة لذلك فقالت لها قولي له: لا يهتم لذلك فأنا آمر ابني أن يدعو له فيكفي ذلك ثم قالت مريم لعيسى في ذلك فقال عيسى: إن فعلت ذلك وقع شر فقالت مريم: لا نبالي فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا فقال عيسى: قولي له إذا قرب ذلك الوقت فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني، ففعل الرجل ذلك ثم دعا الله عيسى عليه السلام فتحول ماء القدور مرقا ولحما وماء الخوابي خمرا لم تر الناس مثله، فلما جاء الملك وأكل من ذلك الطعام وشرب من ذلك الخمر قال من أين لك هذا الخمر؟ فقال الرجل: هو من أرض كذا فقال الملك: إن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه فقال: هي من أرض أخرى فلما رآه الملك اختلط شدد عليه فقال الرجل: أنا أخبرك أن عندي غلاما لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه، وأنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه في ملكه وقد مات قبل ذلك بأيام وكان يحبه حبا شديدا فقال الملك: إن رجلا دعا الله تعالى حتى صار الماء خمرا بدعوته ليستجيبن له في إحياء بني فطلب عيسى وكلمه في ذلك فقال له عيسى لا تفعل فإنه إن عاش وقع شر فقال الملك: لا أبالي أليس أراه فقال: عيسى: إن أنا أحييته تتركني أنا وأمي نذهب حيث نشاء؟ قال: نعم فدعا الله عيسى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكة الرجل فقد عاش فبادروا إلى السلاح وقالوا: قد أكلنا هذا الملك حتى إذا دنا أجله يريد أن يستخلف علينا ابنه ليأكلنا كما أكلنا أبوه فقاتلوه وظهر أثر عيسى فقصدوا قتله وكفروا به وقيل: إن اليهود كانوا عارفين بأنه المسيح المبشر به في التوراة وأنه ينسخ دينهم فلما أظهر عيسى الدعوة اشتد ذلك عليهم فأخذوا في أذاه وطلبوا قتله وكفروا به

فاستنصر عليهم كما أخبر الله عز وجل عنه بقوله قال يعني عيسى عليه السلام من أنصاري إلى الله أي مع الله وقيل: معناه إلى أن أبين أمر الله وأظهر دينه وقيل: إلى بمعنى في أي في ذات الله وسبيله وقيل: إلى في موضعها والمعنى من يضم نصرته إلى نصرة الله لي قال الحواريون نحن أنصار الله وذلك أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الله تعالى **وتمردوا** عليه وكفروا به خرج يسيح في الأرض فمر بجماعة يصطادون السمك، وكانوا اثنى عشر ورئيسهم شمعون ويعقوب فقال عيسى عليه السلام: ما تصنعون؟ قالوا: نصيد السمك قال: أفلا تمشون حتى نصيد الناس قالوا: ومن أنت؟ قال أنا عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله فسألوه آية تدلهم على صدقه وكان شمعون قد رمي بشبكته في الماء فدعا الله عيسى فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق من كثرته فاستعانوا بأهل سفينة أخرى وملؤوا السفينتين من السمك فعند ذلك آمنوا به وانطلقوا معه واختلف في الحواريين فقيل:

كانوا يصطادون السمك فلما آمنوا بعيسى صاروا يصطادون الناس ويهدونهم إلى الدين، سموا حواريين لبياض ثيابهم يقال: حورت الشيء بمعنى بيضته: وقيل: كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب أي." (١)

"وأصحابه الذين أسلموا من النصارى وأكثرهم الفاسقون أي **المتمردون** في الكفر، وقيل إن الكافر قد يكون عدلا في دينه وهؤلاء مع كفرهم فاسقون. قوله عز وجل:

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١١١ الى ١١٢]

لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون (١١١) ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤ بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١١٢)

لن يضروكم إلا أذى سبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود عمدوا إلى من آمن منهم مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم فأنزل الله تعالى لن يضروكم إلا أذى يعني لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلا أذى يعني باللسان من طعنهم في دينكم أو تهديد أو إلقاء شبهة وتشكيك في القلوب وكل ذلك يوجب الأذى والغم وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار يعني منهزمين مخذولين ثم لا ينصرون يعني لا يكون لهم النصر عليكم بل تنصرون عليهم وفيه تثبيت لمن أسلم من أهل الكتاب لأنهم كانوا يؤذونهم بالقول ويهددونهم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٤٩/١

ويوبخونهم فأعلمهم الله تعالى أنهم لا يقدرون أن يجاوزوا الأذى بالقول إلى غيره من الضرر ثم وعدهم الغلبة والانتقام منهم وأن عاقبتهم الخذلان والذل فقال تعالى: ضربت عليهم الذلة يعني جعلت الذلة ملصقة بهم كالشيء يضرب على الشيء فيلتصق به، والمراد بالذلة قتلهم وسبيهم وغنيمة أموالهم وقيل الذلة ضرب الجزية عليهم لأنهم ذلة وصغار وقيل ذلتهم أنك لا ترى في اليهود ملكا قاهرا ولا رئيسا معتبرا بل مستضعفون في جميع البلاد أينما ثقفوا أي حيثما وجدوا وصودفوا إلا بحبل من الله يعني إلا بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة وحبل من الناس يعني المؤمنين ببذل الجزية والمعنى ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس وهو ذمة الله وعهده وذمة المسلمين وعهدهم لا عزلهم إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من بذل الجزية. وإنما سمي العهد حبلا لأنه سبب يوصل إلي الأمن وزال الخوف وباؤ بغضب من الله يعني رجعوا بغضب من الله واستوجبوه وقيل أصله من البواء وهو المكان والمعنى أنهم مكثوا في غضب من الله وحلوا فيه وضربت عليهم المسكنة يعني كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون في المسكنة غير خارجين منها قال الحسن المسكنة هي الجزية، وذلك لأن الله تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء، وذلك يدل على أنها باقية عليهم والباقي عليهم هو الجزية فدل على أن المسكنة هي الجزية، وقيل المراد بالمسكنة هو أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر وإن كان غنيا موسرا ذلك إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب بأنهم أي بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون أي ذلك الذي نزل بهم بسبب عصيانهم لله عز وجل وتعديهم لحدوده فنزل بهم ما نزل قوله عز وجل:

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١١٣ الى ١١٤]

ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١١٣) يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين (١١٤)

ليسوا سواء قال ابن عباس: لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قالت أحبار اليهود ما آمن محمد صلى الله عليه وسلم إلا شرارنا ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وفي قوله: ليسوا سواء قولان أحدهما أنه كلام تام يوقف عليه والمعنى أهل الكتاب الذي سبق ذكرهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ليسوا سواء، وقيل." (١)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٨٦/١

"قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقيل ما هم ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفذت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس لفظ مسلم وفرقه البخاري، بمعناه في موضعين. وقيل في معنى الآية أنه يجعل في أعناقهم أطواق من النار وقيل يكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به من أموالهم في الدنيا وإن حملنا تفسير البخل على البخل بالعلم وكتمانه فقد قال ابن عباس في قوله سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة أي يحملون وزره وإثمه فيكون على طريق التمثيل كما يقال قلدتك هذا الأمر وجعلته في عنقك وقيل يجعل في رقابهم طوق من نار ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل علما يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار أخرجه الترمذي وفي رواية أبي داود من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة قيل في معنى الحديث إنهم لما سألوا عن العلم فكتموه ولم ينطقوا به بألسنتهم ولم يخرجوه من أفواههم عوضوا عن ذلك بلجام من نار في أفواههم عقوبة لهم والله أعلم.

قوله تعالى: ولله ميراث السماوات والأرض يعني أنه سبحانه وتعالى الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون وتبقى أملاكهم فيرثها سبحانه والمقصود من الآية أنه يبطل ملك جميع المالكين ويبقى الملك لله تعالى وقيل في معنى الآية وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وعلم وغير ذلك ذلك فما لهؤلاء البخلاء يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله والله بما تعملون خبير قرئ يعملون الياء على الغيبة على طريقة الالتفات وهي أبلغ في الوعيد والمعنى والله بما يعملون يعني البخلاء من منعهم الحقوق خبير فيجازيهم عليه وقرئ بالتاء على خطاب الحاضرين قوله عز وجل:

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٨١ الى ١٨٢]

لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق (١٨١) ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (١٨٢)

لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء قال الحسن وقتادة لما نزلت هذه الآية من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا قالت اليهود إن الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وذكر الحسن أن القائل هذه المقالة هو حيي بن أخطب وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق كتب النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناسا كثيرا قد اجتمعوا على فنحاص

بن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر يقال له أسبيع فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم فو الله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة فآمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب. فقال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغني فإن كان ما تقول حقا فإن الله إذا فقير ونحن أغنياء فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ما حملك على ما صنعت فقال يا رسول الله إن هذا عدو الله قال قولا عظيما زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء فغضبت لله وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله تصديقا لأبي بكر وتكذيبا لفنحاص وردا عليهم: لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء وهذه المقالة وإن كانت قد صدرت من واحد من اليهود لكنهم يرضون بمقالته هذه فنسبت إلى جميعهم ولا يخلوا أن يكونوا قالوا هذه المقالة عن اعتقاد لذلك القول أو قالوها استهزاء وأيهما كان فهذه المقالة عظيمة القبح لا تصدر عن عاقل وإنما صدرت عن كافر متمرد في كفره وضلاله سنكتب ما قالوا يعني قولهم إن الله فقير ونحن." (١)

"بالإيمان والتوبة علمنا أنه يغفر ما دون الشرك بالتوبة وهذه المشيئة فيمن لم يتب من ذنوبه من أهل التوحيد فإذا مات صاحب الكبيرة أو الصغيرة من غير توبة فهو على خطر المشيئة إن شاء غفر له وأدخله الجنة بفضله ورحمته وإن شاء عذبه ثم يدخله الجنة بعد ذلك ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا يعني فقد ذهب عن طريق الهدى وحرم الخير كله إذا مات على شركه فإن قلت لم كررت هذه الآية بلفظ واحد في موضعين من هذه السورة وما فائدة ذلك. قلت فائدة ذلك التأكيد أو لأن الآية المتقدمة نزلت في سبب. ونزلت هذه الآية في سبب آخر وهو أن الآية المتقدمة نزلت في سبب سرقة طعمة بن أبيرق ونزلت هذه الآية في سبب ارتداده وموته على الشرك. قوله عز وجل:

[سورة النساء (٤): الآيات ١١٧ الى ١١٩]

إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا (١١٧) لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا (١١٨) ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٢٦/١

الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (١١٩)
إن يدعون من دونه إلا إناثا نزلت في أهل مكة يعني ما يعبدون من دون الله إلا إناثا لأن كل من عبد شيئا فقد دعاه لحاجته وفي قوله إناثا أقوال أحدها إنهم كانوا يسمون أصنامهم بأسماء الإناث فيقولون اللات والعزى ومناة قال الحسن كانوا يقولون لصنم كل قبيلة أنثى بني فلان والقول الثاني إناثا يعني أمواتا. قال الحسن: كل شيء لا روح فيه كالحجر والخشبة هو إناث قال الزجاج والموات كلها يخبر عنها كما يخبر من المؤنث تقول هذه الحجر تعجبني وهذه الدراهم تنفعني. ولأن الأنثى أنزل درجة من الذكر والميت أنزل درجة من الحي كما أن الموت أنزل من الحيوان وقد يطلق اسم الأنثى على الجمادات والقول الثالث إن بعضهم كان يعبد الملائكة ويقول هن بنات الله وإن يدعون أي وما يعبدو ، إلا شيطانا مريدا قال ابن عباس: لكل صنم شيطان يدخل في جوفه ويتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم فلذلك قال الله تعالى: وإن يدعون إلا شيطانا مريدا وقيل هو إبليس لأنه أغواهم وأغراهم على عبادتها وأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو **المتمرد** العاتي الخارج عن الطاعة لعنه الله أي أبعده الله وطرده عن رحمته وقال يعني إبليس لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا يعني حظا مقدرا معلوما فكل ما أطيع فيه إبليس فهو نصيبه ومفروضة وأصل الفرض القطع وهذا النصيب هم الذين يتبعون خطواته ويقبلون وساوسه ولأضلنهم عن طريق الحق والمراد به التزيين والوسوسة وإلا فليس إليه من الإضلال شيء. قال بعضهم لو كانت الضلالة إلى إبليس لأضل جميع الخلق ولأمنينهم قال ابن عباس يريد تسويف التوبة وتأخيرها وقال الكلبي أمنيهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث وقيل أمنيهم إدراك الجنة مع عمل المعاصي وقيل أزين لهم ركوب الأهواء والأهوال الداعية إلى العصيان وقيل أمنيهم طول البقاء في الدنيا ونعيمها ليؤثروها على الآخرة ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام يعني يقطعونها ويشقونها وهي البحيرة. وذلك أنهم كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها ولا يردونها عن ماء ولا مرعى وسول لهم إبليس إن هذا قربة ولآمرنهم فليغيرن خلق الله قال ابن عباس يعني دين وتغيير دين الله هو تحليل الحرام وتحريم الحلال وقيل تغيير خلق الله هو تغيير الفطرة التي فطر الخلق عليها ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وقيل يحتمل أن يحمل هذا التغيير على تغيير أحوال تتعلق بظاهر الخلق مثل الوشم ووصل الشعر ويدل عليه صلى الله عليه وسلم: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله» أخرجاه من رواية ابن مسعود ولهما

عن أسماء قالت: «لعن النبي صلى الله عليه وسلم الواصلة والمستوصلة» وقيل تغيير خلق الله هو الاختصاء وقطع الآذان حتى إن بعض." [(١)]

"الكلبي: هم السبعون الذي اختارهم موسى من قومه وانطلق بهم إلى الجبل وأيضا كان أنبياء بني إسرائيل من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وهؤلاء لا شك أنهم من أكابر الأنبياء وأولاد يعقوب وهم الأسباط أنبياء على قول الأكثرين وموسى وهارون عليهما السلام وأيضا فإن الله تعالى أعلم موسى أنه يبعث من بعده في بني إسرائيل أنبياء فإنه لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء فكان هذا شرفا عظيما لهم ونعمة ظاهرة عليهم وجعلكم ملوكا يعني: وجعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيدا في أيدي القبط. قال ابن عباس: يعني جعلكم أصحاب خدم وحشم. قال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكا ذكره البغوي بغير سند وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال ألسنا من فقراء المهاجرين فقال له عبد الله ألك امرأة تأوي إليها؟ قال نعم، قال: لك مسكن تسكنه؟ قال نعم، قال: أنت من الأغنياء، قال فإن لي خادما قال فأنت من الملوك. وقال الضحاك: كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية ومن كان مسكنه واسعا وفيه ماء جار فهو ملك وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين يعني من عالمي زمانكم يذكرهم ما أنعم الله به عليهم من فلق البحر لهم وإهلاك عدوهم وإنزال المن والسلوى عليهم وإخراج الماء من الحجر لهم وتظليل الغمام فوقهم إلى غير ذلك من النعم التي أنعم الله بها عليهم.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٢١ الى ٢٢]

يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون (٢٢)

قوله تعالى: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم لما ذكر موسى قومه ما أنعم الله عليهم أمرهم بالخروج إلى جهاد عدوهم فقال: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة المباركة. قال الكلبي: صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له انظر فما أدرك بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك والأرض هي الطور وما حوله. وقيل: هي أريحاء وفلسطين وبعض الأردن. وقيل: هي دمشق. وقيل: هي الشام، كلها. قال كعب

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤٢٨/١

الأحبار: ووجدت في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده التي كتب الله لكم يعني كتب الله في اللوح المحفوظ إنها لكم مساكن وقيل: فرض الله عليكم دخولها وأمركم بسكناها. وقيل: وهبها لكم.

فإن قلت: كيف؟ قال الله تعالى: ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم. وقال فإنها محرمة عليهم وكيف الجمع بينهما؟ قلت فيه وجوه أحدها أنها كانت هبة من الله ثم حرمها عليهم بشؤم **تمردهم** وعصيانهم.

الوجه الثاني: أن اللفظ وإن كان عاما لكن المراد منه الخصوص فصار كأنه مكتوب لبعضهم وحرام على بعضهم فإن يوشع بن نون وكالب بن يوفنا دخلاها وكانا ممن خوطب بهذا الخطاب.

الوجه الثالث: إن هذا الوعد كان مشروطا بالطاعة فلما لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط.

الوجه الرابع: أنه قال: إنها محرمة عليهم أربعين سنة فلما مضت الأربعون دخلوها وكانت مساكن لهم كما وعدهم الله تعالى: ولا ترتدوا على أدباركم يعني ولا ترجعوا القهقرى مرتدين على أعقابكم إلى ورائكم ولكن امضوا لأمر الله الذي أمركم به وإن فعلتم خلاف ما أمركم الله به فتنقلبوا خاسرين يعني فترجعوا خائبين لأنكم رددتم أمر الله قوله عز وجل: قالوا يعني قوم موسى يا موسى إن فيها يعني في الأرض المقدسة قوما جبارين يعني قوما عاتين لا طاقة لنا بهم ولا قوة لنا بقتالهم وسموا أولئك القوم جبارين لشدة بطشهم وعظم خلقهم وكانوا ذوي أجسام عظيمة وأشكال هائلة وهم العمالقة بقية قوم عاد وأصل الجبار في صفة الإنسان فعال من جبره على الأمر يعني أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد وقيل إنه مأخوذ من قولهم." (١)

"لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا. وقيل: معناه لا حقيقة لعلمنا بعاقبة أمرهم لأنا كنا نعلم ما كان من أفعالهم وأقوالهم وقت حياتنا ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا ولا نعلم ما أحدثوا من بعدنا ومنه ما أخبر الله عن عيسى عليه السلام بقوله: «وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم» ومنه ما روي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إلي اختلجوا دوني فلأقولن أي رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» زاد في رواية «فأقول سحقا لمن بدل بعدي» أخرجاه في الصحيحين وقال جمع من المفسرين إن للقيامة أهوالا وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها فيفزعون من هول ذلك ويذهلون

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٧/٢

عن الجواب ثم إذا ثابت إليهم عقولهم يشهدون على أممهم بالتبليغ.

وهذا فيه ضعف ونظر لأن الله تعالى قال في حق الأنبياء: «لا يحزنهم الفزع الأكبر»، وذكر الإمام فخر الدين الرازي وجها آخر وهو أن الرسل عليهم السلام لما علموا أن الله تعالى عالم لا يجهل وحليم لا يسفه وعادل لا يظلم علموا أن قولهم لا يفيد خيرا ولا يدفع شرا فرأوا أن الأدب في السكوت وفي تفويض الأمر إلى الله تعالى وعدله فقالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب يعني إنك تعلم ما غاب عنا من بواطن الأمور ونحن نعلم ما نشاهد ولا نعلم ما في البواطن. وقيل معناه إنك لا يخفى عليك ما عندنا من العلوم وأن الذي سألتنا عنه ليس بخاف عليك لأنك أنت علام الغيوب ومعناه العالم بأصناف المعلومات على تفاوتها ليس تخفى عليه خافية وبناء فعال بتاء التكثير ودلت الآية على جواز إطلاق العلام على الله تعالى كما يجوز إطلاق الخلاق عليه.

قوله عز وجل: إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك قال بعضهم: إن إذ قال الله تعالى: يا عيسى صلة لماذا أجبتم ولما كان المراد بقوله للرسل ما أجبتم توبيخ الأمم ومن تمرد منهم على الله وكان أشد الأمم احتياجا وافتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ووجه ذلك أن جميع الأمم إنما كان طعنهم في أنبيائهم بالتكذيب لهم وطعن هؤلاء النصارى تعدي إلى جلال الله تعالى حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله من اتخاذ الزوجة والولد. ذكر الله في هذه الآية أنواع نعمه على عيسى عليه السلام التي تدل على أنه عبد وليس بإله والفائدة في ذكر هذه الحكاية تنبيه النصارى على قبح مقالتهم وفساد اعتقادهم وتوكيد الحجة عليهم. وقيل: فائدة ذلك إسماع الأمم يوم القيامة ما خص الله عيسى عليه السلام به من الكرامة. وقيل:

موضع إذا رفع بالابتداء على القطع ومعناه اذكر إذ قال الله: يا عيسى وإنما خرج قوله: إذ قال الله على لفظ الماضي دون المستقبل لأنه ورد على سبيل حكاية الحال. وقيل: تقديره إذ يقول الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك لفظه واحد والمراد به الجمع لأن الله تعالى عدد نعمه عليه في هذه الآية والمراد من ذكرها شكرها وعلى والدتك يعني بنعمته على مريم عليها السلام أنه تعالى: أنبتها نباتا حسنا وطهرها واصطفاها على نساء العالمين.

ثم ذكر نعمه على عيسى عليه السلام فقال تعالى: إذ أيدتك بروح القدس يعني بجبريل عليه السلام لأن القدس هو الله تعالى وأضافه إليه على سبيل التشريف والتعظيم كإضافة بيت الله وناقة الله. وقيل: أراد بروح القدس الروح المطهرة لأن الأرواح تختلف باختلاف الماهية فمنها روح طاهرة مقدسة نورانية ومنها روح

خبيثة كدرة ظلمانية فخص الله عيسى بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرفة تكلم الناس في المهد يعني تكلمهم طفلا في حال الصغر وكهلا يعني وفي حالة الكهولة من غير أن يتفاوت كلامك في هذين الوقتين وهذه معجزة عظيمة وخاصة شريفة ليست لأحد قبله. قال ابن عباس: أرسل الله عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة فمكث في رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله إليه وإذ علمتك الكتاب والحكمة يعني الكتابة وهي الخط والحكمة الفهم والاطلاع على أسرار العلوم والتوراة والإنجيل أي وعلمتك التوراة التي أنزلتها على موسى والإنجيل الذي." (١)

"صادقين يعني في دعواكم. ومعنى الآية أن الكفار كانوا إذا نزل بهم شدة وبلاء رجعوا إلى الله بالتضرع والدعاء وتركوا الأصنام فقيل لهم: أترجعون إلى الله في حال الشدة والبلاء ولا تعبدونه ولا تطيعونه في حال اليسر والرخاء؟ بل إياه تدعون يعني بل تدعون الله، ولا تدعون غيره في كشف ما نزل بكم فيكشف ما تدعون إليه إن شاء يعني فيكشف الضر الذي من أجله دعوتموه وإنما قيد الإجابة بالمشيئة رعاية للمصلحة وإن كانت الأمور كلها بمشيئة الله تعالى: وتنسون ما تشركون يعني: وتتركون دعاء الأصنام التي تعبدونها فلا تدعونها لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع وقيل معناه أنكم في ترككم دعاء الأصنام بمنزلة من قد نسيها وهذا معنى قول الحسن لأنه قال وتعرضون عنها إعراض الناسي لها.

قوله تعالى: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك في الآية محذوف والتقدير ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك يا محمد رسلا فخالفوهم وكفروا وحسن هذا الحذف لكونه معلوما عند السامع فأخذناهم بالبأساء يعني بالفقر الشديد وأصله من البؤس وهو الشدة والمكروه وقيل: البأساء، شدة الجوع والضراء يعني الأمراض والأوجاع والزمانة لعلهم يتضرعون يعني يخضعون ويتوبون والتضرع التخشع والتذلل والانقياد وترك **التمرد** وأصله من الضراعة وهي الذلة. ومقصود الآية، أن الله تعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أنه قد أرسل من قبله رسلا إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالبأساء والضراء وهي الشدة في النفس والمال فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فلولا يعني فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا معناه نفي التضرع فلم يتضرعوا ولكن قست قلوبهم يعني ولكن غلظت قلوبهم فلم تضرع ولم تخشع بل أقاموا على كفرهم وتكذيبهم رسلهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون يعني من الكفر والتكذيب وتزيين الشيطان إغواؤه بما في المعصية من اللذة. قال ابن عباس: يريد زين الشيطان الضلالة التي كانوا عليها فأصروا على معاصي الله عز وجل.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/ ٩٠

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٤ الى ٤٥]
فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (٤٤) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (٤٥)
قوله عز وجل: فلما نسوا ما ذكروا به أي تركوا ما وعظوا به وقيل تركوا العمل بما أمرتهم به الرسل وإنما كان النسيان بمعنى الترك لأن التارك للشيء معرضا عنه كأنه قد صيره بمنزلة ما قد نسي فتحنا عليهم أبواب كل شيء يعني بدلنا مكان البأساء والرخاء والسعة في الرزق والعيش ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام وذلك استدراج منه لهم. وقيل: فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الخير كان مغلقا عنهم حتى إذا فرحوا بما أوتوا يعني فرحوا بما أوتوا من السعة والرخاء والصحة في الأبدان والمعيشة وظنوا أن ما كان نزل بهم من الشدة لم يكن انتقاما من الله تعالى فإنهم لما فتح الله عليهم ما فتح من الخير والسعة فرحوا به وظنوا أن ذلك باستحقاقهم وهذا فرح بطر كما فرح قارون بما أوتي من الدنيا أخذناهم بغتة يعني جاءهم عذابنا فجأة من حيث لا يشعرون قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة، وقال أهل المعاني: إنما أخذوا في حال الرخاء والسلامة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف في ضروب اللذة، فأخذناهم في آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا إليهم فإذا هم مبلسون أي آيسون من كل خير، وقال الفراء المبلس اليائس المنقطع رجاؤه ولذلك يقال لمن يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون له جواب قد أبلس وقال الزجاج المبلس الشديد الحزن والحسرة وقال أبو عبيدة المبلس النادم والحزين والإبلاس هو الإطراق من الحزن والندم روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فإنما ذلك." [١]
"[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٠ الى ١١١]
ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون (١١٠) ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون (١١١)
قوله تعالى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم قال ابن عباس: يعني ونحول بينهم وبين الإيمان فلو جئناهم بالآيات التي سألوها لما آمنوا بها. والتقليب هو تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه إلى وجه آخر لأن الله تعالى إذا

---
(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١١٢/٢

صرف القلوب والأبصار عن الإيمان بقيت على الكفر كما لم يؤمنوا به أول مرة يعني كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات الباهرات، وقيل: أول مرة يعني الآيات التي جاء بها موسى وغيره من الأنبياء.

وقال ابن عباس: المرة الأولى دار الدنيا يعني لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم وفي الآية دليل على أن الله تعالى: يهدي من يشاء ويضل من يشاء وأن القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه فيقيم ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فمعنى قوله بقلب أفئدتهم نزيغها عن الإيمان ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب وإن جاءتهم الآية التي سألوها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، فعلى هذا تكون الكناية في به عائدة على الإيمان بالقرآن وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل سؤالهم الآيات التي اقترحوها.

وقوله تعالى: ونذرهم في طغيانهم يعمهون يعني ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق علم الله أنهم لا يؤمنون في تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لا يهتدون إلى الحق.

قوله عز وجل: ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة قال ابن جريج: نزلت في المستهزئين، وذلك أنهم أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش، فقالوا: يا محمد ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدن لك أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا فنزلت هذه الآية جوابا لهم. والمعنى:

ولو أنا نزلنا إليهم الملائكة حتى يشهدوا لك بالرسالة وكلمهم الموتى يعني كما سألوا وحشرنا عليهم كل شيء قبلا يعني وجمعنا عليهم كل شيء قبلا قبيلا، قيل القبيل الكفيل بصحة ما تقول ما آمنوا وهو قوله: ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله يعني إلا أن يشاء الله الإيمان منهم وفيه دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى حتى الإيمان والكفر، وموضع المعجزة أن الأشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت فإذا أنطق الله الكل حتى يشهدوا له بصحة ما يقول كان ذلك في غاية الإعجاز. وقيل قبلا من المقابلة والمواجهة، والمعنى: وحشرنا عليهم كل شيء مواجهة ومعاينة ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله أخبر الله أن الإيمان بمشيئة الله لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا لم يؤمنوا، وقال ابن عباس: ما كانوا ليؤمنوا هم أهل الشقاء إلا أن يشاء الله هم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أنهم يدخلون في الإيمان. وصحح الطبري قول ابن عباس قال: لأن الله عم بقوله ما كانوا ليؤمنوا القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله: وأقسموا

بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ثم استثنى منهم أهل السعادة وهم الذين شاء لهم الإيمان.
قوله تعالى: ولكن أكثرهم يجهلون يعني يجهلون أن ذلك كذلك ويحسبون أن الإيمان إليهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا كفروا، وليس الأمر كذلك بل الإيمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاء له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وفي هذا دليل لمذهب أهل السنة أن الأشياء كلها بمشيئة الله تعالى ورد على القدرية والمعتزلة في قولهم: إن الله أراد الإيمان من جميع الكفار.." (١)

"[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٢ الى ١١٣]

وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١١٢) ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون (١١٣)

قوله تعالى: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا قيل هو منسوق على قوله تعالى كذلك زينا لكل أمة عملهم، أي كما فعلنا ذلك كذلك جعلنا لكل نبي عدوا. وقيل: معناه كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء كذلك جعلنا لك أعداء وفيه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له يقول الله تبارك وتعالى: كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك عدوا ليعظم ثوابه على ما يكابده من أذى أعدائه وعدو واحد يراد به الجمع يعني جعلنا لكل نبي أعداء شياطين الإنس والجن اختلف العلماء في معنى شياطين الإنس والجن على قولين:

أحدهما: أن المراد شياطين من الإنس وشياطين من الجن والشيطان كل عات متمرد من الجن والإنس وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، وهو قول مجاهد وقتادة. قالوا: وشياطين الإنس أشد تمردا من شياطين الجن لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل تعوذت بالله من شيطان الجن والإنس قلت يا رسول الله وهل للأنس من شيطان؟ قال نعم هم شر من شياطين الجن» ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري. وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي.

القول الثاني: إن الجميع من ولد إبليس وأضيف الشياطين إلى الإنس على معنى أنهم يغوونهم، وهذا قول

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/١٤٧

عكرمة والضحاك والكلبي والسدي. ورواية عن ابن عباس قالوا: والمراد بشياطين الإنس التي مع الإنس وبشياطين الجن التي مع الجن وذلك أن إبليس قسم جنده قسمين فبعث فريقا منهم إلى الجن وفريقا إلى الإنس فالفريقان شياطين الجن والإنس بمعنى أنهم يغوونهم ويضلونهم وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولأوليائه من المؤمنين والصالحين. ومن ذهب إلى هذا القول قال: يدل على صحته أن لفظ الآية يقتضي إضافة الشياطين إلى الإنس والجن والإضافة تقتضي المغايرة فعلى هذا يكون في الشياطين نوع مغاير للإنس والجن وهم أولاد إبليس.

وقوله تعالى: يوحي بعضهم إلى بعض يعني يلقي ويسر بعضهم إلى بعض ويناجي بعضهم بعضا وهو الوسوسة التي يلقيها إلى من يريد إغوائه، فعلى القول الأول: إن شياطين الإنس والجن يسر بعضهم إلى بعض ما يفتنون به المؤمنين والصالحين، وعلى القول الثاني: إن أولاد إبليس يلقى بعضهم بعضا في كل حين فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضل أنت صاحبك بمثله ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك فذلك وحي بعضهم إلى بعض.

وقوله: زخرف القول يعني باطل القول والزخرف هو الباطل من الكلام الذي قد زين ووشي بالكذب وكل شيء حسن مموه فهو زخرف غرورا يعني أن الشياطين يغرون بذلك القول الكذب المزخرف غرورا وذلك أن الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم ويغرونهم بها غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه يعني ما فعلوا الوسوسة التي يلقيها الشياطين في قلوب بني آدم، والمعنى أن الله تعالى لو شاء لمنع الشياطين من إلقاء الوسوسة إلى الإنس والجن ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم أنه الأجزل له في الثواب إذا صبر على المحنة فذرهم وما يفترون يعني فخلهم يا محمد وما زين لهم إبليس وغرهم به من الكفر والمعاصي فإني من ورائهم.." (١)

"أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم يعني أنه قال لهم ذلك لما تيقن نزول العذاب بقومه واختلفوا هل كان ذلك القول قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا في قصة صالح عليه الصلاة والسلام وقوله فكيف آسى يعني أحزن على قوم كافرين والأسى أشد الحزن وإنما اشتد حزنه على قومه لأنهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الإجابة والإيمان فلما نزل بهم ما نزل من العذاب عزى نفسه فقال كيف أحزن على قوم كافرين لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بإصرارهم على الكفر. وقيل في معنى الآية إن شعيبا قال لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا نصحي فكيف أحزن عليكم يعني إنكم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٤٨/٢

لستم مستحقين لأن يحزن عليكم.
فعلى القول الأول: إنه حصل لشعيب حزن على قومه.
وعلى القول الثاني: لم يحزن عليه والله أعلم.
وقوله تعالى: وما أرسلنا في قرية من نبي فيه إضمار وحذف تقديره فكذبوه إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء قال ابن مسعود: البأساء الفقر والضراء المرضى وهو معنى قول الزجاج: فإنه قال البأساء كل ما نالهم من الشدة في أموالهم والضراء كل ما نالهم من الأمراض. وقيل: البأساء الشدة وضيق العيش والضراء الضر وسوء الحال لعلهم يضرعون يعني إنما فعلنا بهم ذلك لكي يتضرعوا ويتوبوا والتضرع الخضوع والانقياد لأمر الله عز وجل والمراد من هذه الآية أن الله عز وجل لما عرف نبيه صلى الله عليه وسلم أحوال الأنبياء مع أممهم المكذبة وقص عليه من أخبارهم وعرفه سنته في الأمم الذين خلوا من قبله وما صاروا إليه من الهلاك والعذاب عرفه في هذه الآية أنه قد أرسل رسلا إلى أمم أخر فكذبوا رسلهم فأخذهم بالبأساء والضراء كما فعل بمن كذب برسله وفيه تخويف وتحذير الكفار قريش وغيرهم من لكفار لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثم بين تعالى أنه لا يجري تدبيره في أهل القرى على نمط واحد وسنة واحدة إنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب وهو قوله تعالى: ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة لأن ورود النعمة على البدن والمال بعد الشدة والضيق يستدعي الانقياد للطاعة والاشتغال بالشكر. قال أهل اللغة: السيئة كل ما يسوء صاحبه والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل فالسيئة والحسنة هنا الشدة والرخاء. والمعنى أنه تعالى بدل مكان البأساء والضراء النعمة والسعة والخصب والصحة في الأبدان فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يأخذ أهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله حتى عفوا يعني أنه فعل ذلك بهم حتى كثروا وكثرت أموالهم. يقال: عفا الشعر إذا كثر وطال. قال مجاهد: حتى كثرت أموالهم وأولادهم وقالوا يعني من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا إلى الرخاء والسعة قد مس آباءنا الضراء والسراء يعني أنهم قالوا هكذا عادة الدهر قديما وحديثا لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فإنهم لم يتركوا دينهم مما أصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى: فأخذناهم بغتة يعني أخذناهم فجأة آمن ما كانوا ليكون ذلك أعظم لحسرتهم وهم لا يشعرون يعني بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب.
قوله عز وجل: ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لما بين الله تعالى في هذه الآية الأولى إن الذين عصوا وتمردوا

أخذهم بعذابه بين في هذه الآية أنهم لو آمنوا يعني بالله ورسوله وأطاعوه فيما أمرهم به واتقوا يعني ما نهى الله تعالى عنه وحرمه عليهم لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض وبركات السماء المطر وبركات الأرض النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والأنعام والأرزاق والأمن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل الله تعالى وإحسانه على عباده. وأصل البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء وسمي المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة في نابت الأرض لأنه نشأ عن بركات السماء وهي المطر. وقال البغوي: أصل البركة." (١)

"ما جئتنا فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه قال موسى مجيبا لهم عسى ربكم أن يهلك عدوكم يعني فرعون وقومه ويستخلفكم في الأرض يعني ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم فينظر كيف تعملون يعني فيرى ربكم كيف تعملون من بعدهم. قال الزجاج: فيرى وقوع ذلك منهم لأن الله تعالى لا يجازيهم بما يعلمه منهم وإنما يجازيهم على ما يقع منهم.

قوله عز وجل: ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين يعني بالقحط والجدب. تقول العرب: مستهم السنة بمعنى أخذهم الجدب في السنة ويقال أسنتوا كما يقال أجدبوا قال الشاعر:

ورجال مكة مسنتون عجاف ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» ومعنى الآية: ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة ونقص من الثمرات يعني وإتلاف الغلات بالآفات. قال قتادة أما السنون فلأهل البوادي وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار لعلهم يذكرون يعني لعلهم يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير، ثم بين الله تعالى أنهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا إلا **تمردا** وكفرا فقال تعالى: فإذا جاءتهم الحسنة يعني الغيث والخصب والسعة والعافية والسلامة من الآفات قالوا لنا هذه أي نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الأرزاق وصحة الأبدان ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على إنعامه وإن تصبهم سيئة يعني القحط والجدب والمرض والبلاء ورأوا ما يكرهون في أنفسهم يطيروا يعني يتشاءموا وأصله يتطيروا والتطير التشاؤم في قول جميع المفسرين بموسى ومن معه يعني أنهم قالوا ما أصابنا بلاء إلا حين رأيناهم وما ذلك إلا بشؤم موسى وقومه. قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر: كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين وسنة لم يروا مكروها قط ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/ ٢٣٠

قط ألا إنما طائرهم عند الله يعني أن نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله قال ابن عباس رضي الله عنهما طائرهم ما قضي لهم وقدر عليهم من عند الله وفي رواية عنه شؤمهم عند الله تعالى ومعناه أنه إنما جاءهم بكفرهم بالله وقيل الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار ولكن أكثرهم لا يعلمون يعني أن ما أصابهم من الله تعالى وإنما قال أكثرهم لا يعلمون لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى القضاء والقدر.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٢ الى ١٣٣]

وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (١٣٢) فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين (١٣٣)

قوله تعالى: وقالوا يعني قوم فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام مهما تأتنا به من آية يعني من عند ربك فهي عندنا سحر وهو قولهم لتسحرنا بها يعني لتصرفنا عما نحن عليه من الدين فما نحن لك بمؤمنين يعني بمصدقين وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلا حديدا مستجاب الدعوة فدعا عليهم فاستجاب الله عز وجل دعاءه فقال تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق: دخل كلام بعضهم في بعض قالوا لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين وهو بالقحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا وإن قومه قد نقضوا العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة." (١)

"وفرقة عملت بالسوء فعلى هذا يكون الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم الفرقة المعتدية وذلك أن الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية انتهوا قبل أن ينزل بكم عذاب شديد إن لم تنتهوا عما أنتم فيه فقالت لهم الفرقة المعتدية: لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا؟ والمعنى: لم تعظونا وقد علمتم أن الله مهلكنا أو منزل بنا عذابه، والقول الأول أصح لأنهم لو كانوا فرقتين لكان قولهم معذرة إلى ربكم خطابا من الناهية للمعتدية.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٩٣٢/٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٥ الى ١٦٨]
فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون (١٦٥) فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين (١٦٦) وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٧) وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون (١٦٨)

وقوله تعالى: فلما نسوا ما ذكروا به أي فلما تركوا ما وعظوا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وهم الفرقة الناهية وأخذنا الذين ظلموا يعني الفرقة المعتدية العاصية بعذاب بئيس أي شديد وجميع من البأس وهو الشدة بما كانوا يفسقون يعني أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا. روى عكرمة عن ابن عباس قال: أسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدر ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكي قال عكرمة: فقلت جعلني الله فداك، ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه، وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولي ورضي به وأمر لي ببردين فكسانيهما وقال: نجت الساكتة وقال يمان ابن رباب: نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن، وقال ابن زيد: نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه الآية أشد آية في ترك النهي عن المنكر وقوله تعالى: فلما عتوا عن ما نهوا عنه قول ابن عباس:

أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الإباء والعصيان والمعنى فلما عتوا عما نهوا يعني عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا في العصيان من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك في يوم السبت وأكله قلنا لهم كونوا قردة خاسئين يعني صاغرين مبعدين من كل خير.

قال قتادة: لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعد ما كانوا رجالا ونساء. وقال ابن عباس: جعل الله منهم القردة والخنازير فزعم أن شبان القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير، قيل إنهم بقوا ثلاثة أيام ينظر الناس إليهم ثم هلكوا جميعا.

قوله تعالى: وإذ تأذن ربك الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ومعنى تأذن أذن والأذان الإعلام يعني أعلم ربك وقيل معناه قال ربك، وقيل: حكم ربك وقيل آلى ربك بمعنى أقسم أجزما ربك ليبعثن عليهم اللام في قوله ليبعثن جواب القسم لأن قوله وإذ تأذن ربك جار مجرى القسم لكونه وجواب القسم ليبعثن عليهم واختلفوا في الضمير في عليهم إلى من يرجع فقيل يقتضي أن يكون راجعا إلى قوله فلما عتوا عما

نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين لكن قد علم أن الذين مسخوا لم يبق منهم أحد فيحتمل أن يكون المراد الذين بقوا منهم فألحق الذل بهم وقيل بأن المراد سائر اليهود من بعدهم لأن الذين بقوا من أهل القرية كانوا صالحين والذي بعثه الله على اليهود هو بختنصر وسخاريب وملوك الروم فساموهم سوء العذاب. وقيل: المراد بقوله ليبعثن عليهم اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي بعثه الله عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته فألزم من لم يسلم منهم الصغار والذلة والهوان والجزية لازمة لليهود إلى يوم القيامة وأورد على هذا بأن في آخر الزمان يكون لهم عزة وذلك عند خروج." (١)

"قوله تعالى: والذين اتبعوهم بإحسان قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين فعلى هذا القول، يكون الجميع من الصحابة. وقيل: هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والأنصار في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار فيترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدا وفي رواية أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

أراد بالقرن في الحديث الأول أصحابه. والقرن الأمة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا في مدته من الزمان. فقيل: من عشر سنين إلى عشرين. وقيل: من مائة إلى مائة وعشرين سنة. والمد: المذكور في الحديث الثاني هو ربع صاع. والنصيف: نصفه. والمعنى: لو أن أحدا عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القدر اليسير التافه من أعمال الصحابة وإنفاقهم لأنهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة. وقوله سبحانه وتعالى: رضي الله عنهم ورضوا عنه يعني رضي الله عن أعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم قوله سبحانه وتعالى:

[سورة التوبة (٩): آية ١٠١]

ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم (١٠١)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٢٦٣

ومن حولكم من الأعراب منافقون ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي أنهم من أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة ويعني ومن هؤلاء الأعراب منافقون وما ذكروه مشكل لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فإن صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى: ومن حولكم من الأعراب منافقون على القليل لأن لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم على الأكثر والأغلب وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم. وأما الطبري، فإنه أطلق القول ولم يعين أحدا من القبائل المذكورة بل قال في تفسير هذه الآية: من القوم الذين حول مدينتكم أيها المؤمنون من الأعراب منافقون ومن أهل مدينتكم أيضا أمثالهم أقوام منافقون وقال البغوي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج منافقون مردوا على النفاق فيه تقديم وتأخير تقديره وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعني مرنوا عليه يقال **تمرد** فلان على ربه إذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد **وتمرد** في معصيته أي مرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها قال ابن إسحاق: لجوا فيه وأبوا غيره.

وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا منه لا تعلمهم يعني أنهم بلغوا في النفاق إلى حيث أنك لا تعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الأسرار نحن نعلمهم يعني لكن نحن نعلمهم لأنه لا تخفى علينا خافية وإن دقت سنعذبهم مرتين اختلف المفسرون في العذاب الأول مع اتفاقهم على العذاب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله ثم يردون إلى عذاب عظيم وهو عذاب النار في الآخرة فثبت بهذا أنه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة في الدنيا ومرة في القبر ومرة في الآخرة أما المرة الأولى وهي التي اختلفوا فيها فقال الكلبي والسدي «قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا في يوم جمعة فقال اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد أناسا وفضحهم» فهذا هو العذاب الأول.

والثاني: هو عذاب القبر فإن صح هذا القول فيحتمل أن يكون بعد أن أعلمه الله حالهم وسماهم له لأن الله." (١)

"خير الدنيا من المال والولد لعجل قضاء آجالهم ولهلكوا جميعا ويدل على صحة هذا القول قوله سبحانه وتعالى:

فنذر الذين لا يرجون لقاءنا يعني فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت في طغيانهم يعني في **تمردهم** وعتوهم يعمهون يعني يترددون (ق).

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٤٠٠

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم إني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فإنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة» قوله عز وجل:

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٢ الى ١٤]

وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون (١٢) ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين (١٣) ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون (١٤)

وإذا مس الإنسان الضر أي الشدة والجهد والمراد بالإنسان في هذه الآية الكافر دعانا لجنبه أي على جنبه مضطجعا أو قاعدا أو قائما يريد جميع حالاته لأن الإنسان لا ينفك عن إحدى هذه الحالات الثلاث والمعنى أن المضرور لا يزال داعيا في جميع حالاته إلى أن ينكشف ضره سواء كان مضطجعا أو قائما أو قاعدا وهذا القول فيه بعد لأن ذكر الدعاء إلى هذه الأحوال أقرب من ذكر الضر فلما كشفنا عنه ضره يعني فلما أزلنا عنه ما نزل به من الضر ودفعنا عنه مر يعني على طريقته الأولى قبل مس الضر كأن لم يدعنا فيه حذف تقديره كأنه لم يدعنا وإنما أسقط الضمير على سبيل التخفيف إلى ضر مسه والمعنى أنه استمر على حالته الأولى قبل أن يمسه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعني مثل ما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لأنه مالك الملك والخلق كلهم عبيدة يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان وذلك بأقدار الله إياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد في كل شيء وإنما سمي الكافر مسرفا لأنه أتلف نفسه وضيعها في عبادة الأصنام وأتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الأصنام وسدنتها يعني خدامها. وقال ابن جريج: في قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعني من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء.

وقيل: كما زين لكم أعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم. وبيان مقصود الآية أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فإذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهدا في الدعاء طالبا من الله إزالة ما نزل به من المحنة و البلاء فإذا كشف الله ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع إلى ما كان عليه أولا وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فأما

المؤمن العاقل فإنه بخلاف ذلك فيكون صابرا عند البلاء شاكر الله عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء في جميع أوقات الراحة والرفاهية وهاهنا مقام أعلى من هذا وهو أن المؤمن إذا ابتلي ببلية أو نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضيا بقضاء الله غير معرض بالقلب عنه بل يكون شاكرا لله عز وجل في جميع أحواله وليعلم العبد المؤمن أن الله تبارك وتعالى مالك الملك على الإطلاق حكيم في جميع أفعاله وله التصرف في خلقه بما يشاء ويعلم أنه إن أبقاه على تلك المحنة فهو عدل وإن أزالها عنه فهو فضل.

قوله سبحانه وتعالى: ولقد أهلكنا القرون من قبلكم يعني أهلكنا الأمم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفار مكة لما ظلموا يعني لما أشركوا وجاءتهم رسلهم بالبينات يعني فكذبوهم وما كانوا ليؤمنوا." (١)

"من دابة يعني تدب على الأرض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان لأنهم يدبون على الأرض إلا هو آخذ بناصيتها يعني أنه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته، والناصية:

مقدم الرأس وسمي الشعر الذي عليه ناصية للمجاورة قيل: إنما خص الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك كثيرا في كلامهم فإذا وصفوا إنسانا بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتدوا بذلك فخرا عليه فخاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يعرفون من كلامهم إن ربي على صراط مستقيم يعني إن ربي وإن كان قادرا وأنتم في قبضته كالعبد الذليل فإنه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف والعدل فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه، وقيل معناه أن دين ربي هو الصراط المستقيم وقيل فيه إضمار تقديره إن ربي يحملكم على صراط مستقيم.

[سورة هود (١١): الآيات ٥٧ الى ٥٩]

فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ (٥٧) ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ (٥٨) وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد (٥٩)

فإن تولوا يعني تتولوا بمعنى تعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم يعني أني لم يقع مني تقصير في تبليغ ما أرسلت به إليكم إنما التقصير منكم في قبول ذلك ويستخلف ربي قوما غيركم يعني أنكم إن أعرضتم عن الإيمان وقبول ما أرسلت به إليكم يهلككم الله ويستبدل بكم قوما غيركم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤٣١/٢

أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه فيه إشارة إلى عذاب الاستئصال فهو وعيد وتهديد ولا تضرونه شيئا يعني بتوليكم إنما تضرون أنفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيئا إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء إن ربي على كل شيء حفيظ يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ لكل شيء فيحفظني من أن تنالوني بسوء.
قوله سبحانه وتعالى: ولما جاء أمرنا يعني بإهلاكهم وعذابهم نجينا هودا والذين آمنوا معه وكانوا أربعة آلاف برحمة منا وذلك أن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه ونجيناهم من عذاب غليظ يعني الريح التي أهلكت بها عاد وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل على عاد ريحا شديدة غليظة سبع ليال وثمانية أيام حسوما وهي الأيام النحسات فأهلكتهم جميعا وأنجى الله المؤمنين جميعا فلم تضرهم شيئا، وقيل: المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى أنه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظا لأنه أعظم من عذاب الدنيا وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله لما فرغ من ذكر قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد رده إلى القبيلة وفيه إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى جحدوا بآيات ربهم يعني المعجزات التي أتى بها هود عليه السلام وعصوا رسله يعني هودا وحده إنما أتى به بلفظ الجمع إما للتعظيم أو لأن من كذب برسول فقد كذب كل الرسل واتبعوا أمر كل جبار عنيد يعني أن السفلة منهم اتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار الرفيع في نفسه **المتمرد** على الله والعنيد المعاند الذي لا يقبل الحق ولا يتبعه.." (١)

"ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا قوله تعالى والجان خلقناه من قبل يعني من قبل آدم عليه السلام. قال ابن عباس: الجان أبو الجن كما أن آدم أبو البشر. وقال قتادة: هو إبليس. وقيل: الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين، وفي الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم. وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات إبليس. وقال وهب: إن من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون، ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والأصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار، سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الأعين من قولهم: جن الليل إذا ستر والشيطان هو العاتي **المتمرد** الكافر، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر من نار السموم يعني من ريح حارة تدخل مسام الإنسان من لطفها، وقوة حرارتها فتقتله. ويقال للريح الحارة التي

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٤٩٠

تكون بالنهار: السموم.

وللريح الحارة التي تكون بالليل: الحرور، وقال أبو صالح: السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها، وهي نار بين السماء والحجاب، فإذا حدث أمر خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة أن الكرة الرابعة تسمى كرة النار، وقيل: من نار السموم يعني من نار جهنم. وقال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزء من السموم التي خلق منها الجان، وتلا هذه الآية. وقال ابن عباس: كان إبليس من حي من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وخلقت الملائكة من النور. قوله عز وجل وإذ قال ربك للملائكة أي واذكر يا محمد: إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا سمي الآدمي بشرا، لأنه جسم كثيف ظاهر البشرة ظاهر الجلد من صلصال من حمإ مسنون تقدم تفسيره فإذا سويته يعني عدلت صورته، وأتممت خلقه ونفخت فيه من روحي النفخ عبارة عن إجراء الريح في تجاويف جسم آخر، ومنه نفخ الروح في النشأة الأولى، وهو المراد من قوله: ونفخت فيه من روحي وأضاف الله عز وجل روح آدم إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم لها كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتي الكلام على الروح في تفسير سورة الإسراء عند قوله: «ويسألونك عن الروح» إن شاء الله تعالى فقعوا له ساجدين الخطاب للملائكة، الذين قال الله لهم:

إني خالق بشرا أمرهم بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين. وكان هذا السجود تحية لا سجود عبادة فسجد الملائكة كلهم يعني الذين أمروا بالسجود لآدم أجمعون قال سيبويه: هذا توكيد بعد توكيد، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة لاحتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم إزالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا أنهم سجدوا بأسرهم ثم عند هذا بقي احتمال آخر، وهو أنهم سجدوا في أوقات متفرقة، أو في دعة واحدة فلما قال: أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال: قول الخليل وسيبويه أجود لأن أجمعين معرفة فلا تكون حالا. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة، بالسجود لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم. ثم قال لجماعة أخرى: اسجدوا لآدم فسجدوا.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٣١ الى ٤١]

إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين (٣١) قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين (٣٢) قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون (٣٣) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٣٤) وإن عليك

اللعنة إلى يوم الدين (٣٥)

قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٣٦) قال فإنك من المنظرين (٣٧) إلى يوم الوقت المعلوم (٣٨) قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين (٤٠) قال هذا صراط علي مستقيم (٤١)." (١)

"ثمود الناقة مبصرة

أي بينة، وذلك لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم فظلموا بها أي جحدوا أنها من عند الله. وقيل: فظلموا أنفسهم بتكذيبها فعاجلناهم بالعقوبة وما نرسل بالآيات المقترحة إلا تخويفا أي وما نرسل بالآيات إلا تخويفا من العذاب، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وقيل: معناه وما نرسل بالآيات يعني العبر والدلالات، إلا تخويفا أي إنذارا بعذاب الآخرة إن لم يؤمنوا فإن الله سبحانه وتعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون. قوله عز وجل وإذ قلنا لك أي واذكر يا محمد إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس أي إن قدرته محيطة بهم فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته وإذا كان الأمر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الأمور إلا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم، فلا تهبهم وامض لما أمرك من التبليغ للرسالة، فهو ينصرك ويقويك على ذلك وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس الأكثرون من المفسرين على أن المراد منها ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات. قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهي ليلة أسري به إلى بيت المقدس أخرجه البخاري. وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم. والعرب تقول: رأيت بعيني رؤية ورؤيا فلما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا فكانت فتنة للناس، وازداد المخلصون إيمانا. وقال قوم: أسري بروحه دون جسده وهو ضعيف. وقال قوم كان له معراجان: معراج رؤية عين في اليقظة ومعراج رؤيا منام. وقيل: أراد بهذه الرؤيا ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، أنه دخل مكة هو وأصحابه فعجل المسير إلى مكة قبل الأجل، فصده المشركون فرجع إلى المدينة فكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر أنه يدخلها فتنة لبعضهم، ثم دخل مكة في العام المقبل وأنزل الله عز وجل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن ولد الحكم بن أمية يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة فساءه ذلك. فإن اعترض معترض على هذا التفسير وقال السورة مكية وهاتان الواقعتان كانتا

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٥٥/٣

بالمدينة أجيب بأنه لا إشكال فيه فإنه لا يبعد أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة، ثم كان ذلك حقيقة بالمدينة والشجرة الملعونة في القرآن يعني شجرة الزقوم التي وصفها الله تعالى في سورة الصافات والعرب تقول لكل طعام كريه: طعام ملعون، والفتنة فيها أن أبا جهل قال: إن ابن أبي كبشة يعني النبي صلى الله عليه وسلم توعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنه تنبت فيها شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر. وقيل: إن عبد الله بن الزبعري قال: إن محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر، فقال أبو جهل: يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بزبد وتمر فقال يا قوم فإن هذا ما يخوفكم به محمد، فأنزل الله سبحانه وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر إنا جعلناها فتنة للظالمين الآيات. فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قلت: لعنت حيث لعن الكفار الذين يأكلونها لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز. وقيل وصفها الله تعالى باللعن لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل جهنم في أبعد مكان من الرحمة، وقال ابن عباس: في رواية عنه إن الشجرة الملعونة هي الكشوث الذي يلتوي على الشجر والشوك فيجففه ونخوفهم فما يزيدهم أي التخويف إلا طغيانا كبيرا أي تمردا وعتوا عظيما قوله سبحانه وتعالى وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا أي من طين وذلك أن آدم خلق من تراب الأرض من عذبها وملحها، فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي قال يعني إبليس أرأيتك الكاف للمخاطب والمعنى أخبرني هذا الذي كرمت علي أي فضلته لئن أخرتن أي أمهلتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته أي لأستأصلنهم بالإضلال. وقيل: معناه لأقودنهم كيف شئت. وقيل:

لأستولين عليهم بالإغواء إلا قليلا يعني المعصومين الذي استثناهم الله تعالى في قوله إن عبادي ليس لك عليهم سلطان قال الله تعالى اذهب أي امض لشأنك وليس هو من الذهاب الذي هو ضد المجيء فمن." (١)

"تلك الجنة التي نورث من عبادنا أي نعطي وننزل وقيل يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا من كان تقيا أي المتقين من عباده عز وجل وما نتنزل إلا بأمر ربك (خ) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر ما تزورنا فنزلت وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا» الآية قال فكان هذا جواب جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم «وقيل احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله اليهود عن أمر الروح وأصحاب

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٣٥/٣

الكهف، ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك، فقال له جبريل وإني كنت أشوق إليك، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا أحبست احتبست» فأنزل الله تعالى وما نتنزل إلا بأمر ربك وأنزل الله تعالى والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وقوله له ما بين أيدينا وما خلفنا أي له علم ما بين أيدينا وما خلفنا، وقيل أكد ذلك بقوله ما بين أيدينا وما خلفنا أي هو المدبر لنا في كل الأوقات الماضي والمستقبل، وقيل معناه له ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب وما خلفنا أي ما مضى من الدنيا وما بين ذلك أي من هذا الوقت إلى أن تقوم الساعة، وقيل ما بين ذلك أي ما بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة، وقيل ما بين أيدينا ما بقي من الدنيا وما خلفنا ما بقي منها وما بين ذلك أي مدة حياتنا وما كان ربك نسيا أي ناسيا أي ما نسيك ربك وما تركك رب السماوات والأرض وما بينهما أي من يكون كذلك لا يجوز عليه النسيان لأنه لا بد أن يدبر أحوالها كلها، وفيه دليل على أن فعل العبد خلق لله لأنه حاصل بين السموات والأرض فكان لله تعالى فاعبده واصطبر لعبادته أي اصبر على أمره ونهيه هل تعلم له سميا قال ابن عباس: مثلا وقيل هل تعلم أحدا يسمى الله غير الله.

قوله تعالى ويقول الإنسان أي جنس الإنسان والمراد به الكفار الذين أنكروا البعث، وقيل هو أبي بن خلف الجمحي وكان منكرا للبعث أإذا ما مت لسوف أخرج حيا قاله استهزاء وتكذيبا للبعث قال الله تعالى أولا يذكر الإنسان أي يتذكر ويتفكر يعني منكر البعث أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا والمعنى أولا يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الإعادة. قال بعض العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه، إذ لا شك أن الإعادة ثانيا أهون من الإيجاد أولا ثم أقسم بنفسه فقال تعالى فو ربك وفيه تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم لنحشرنهم أي لنجمعنهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث والشياطين أي مع الشياطين، وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا قال ابن عباس: جماعات وقيل جاثين على الركب لضيق المكان، وقيل إن البارك على ركبتيه صورته كصورة الذليل. فإن قلت هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية.

قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقلات، وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا ثم لننزعن أي لنخرجن من كل شيعة أي من كل أمة وأهل دين من الكفار أيهم أشد على الرحمن عتيا قال ابن عباس:

يعني جرأة وقيل فجورا وتمردا، وقيل قائدهم رئيسهم في الشرك، والمعنى أنه يقدم في إدخال النار الأعتى ممن هو أكبر جرما وأشد كفرا. وفي بعض الأخبار أنهم يحضرون جميعا حول جهنم مسلسلين مغلولين، ثم يقدم الأكفر فالأكفر فمن كان أشد منهم تمردا في كفره خص بعذاب أعظم وأشد لأن عذاب الضال المضل واجب أن يكون فوق عذاب الضال التابع لغيره في الضلال. وفائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل." (١)

"عدو كانت تحارب وتناضل عنه قال الله تعالى ألقها يا موسى أي انبذها واطرحها.

قال وهب: ظن موسى أنه يقول ارفضها فألقاها أي فطرحها على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة فإذا هي حية صفراء من أعظم ما يكون من الحيات تسعى أي تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر كأنها جان، وهي الحية الصغيرة الجسم الخفيفة وقال في موضع آخر ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات ووجه الجمع أن الحية اسم جامع للكبير والصغير والذكر والأنثى فالجان عبارة عن ابتداء حالها فإنها كانت حية على قدر العصا، ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعبانا وهو انتهاء حالها، وقيل إنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان، قال محمد بن إسحاق: نظر موسى فإذا العصا حية من أعظم ما يكون من الحيات، وصارت شعبتاها شدقين لها، والمحجن عنقا وعرفا يهتز كالنيازك، وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخفة من الإبل، فتلقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ويسمع لأنيابها صريفا عظيما، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودي يا موسى أقبل وارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف قال خذها يعني بيمينك ولا تخف قيل كان خوفه لما عرف ما لقي آدم من الحية، وقيل لما قال له ربه لا تخف بلغ من طمأنينة نفسه وذهاب الخوف عنه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها سنعيدها سيرتها الأولى أي إلى هيئتها فنردها عصا كما كانت، وقيل كان على موسى مدرعة صوف قد خللها بعود فلما قال الله تعالى خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله تعالى أن يكشف يده فكشفها. وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له ملك أرأيت لو أمر الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئا؟؟ قال: لا ولكني ضعيف من ضعف خلقت. قال فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا هي عصا كما كانت ويده في شعبتيها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ. قال المفسرون:

أراد الله تعالى أن يري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق ولئلا يفزع منها إذا ألقاها عند

---

(١) تفسير الخازن ل باب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/١٩٣

فرعون قوله تعالى واضمم يدك إلى جناحك يعني إلى إبطك وقيل تحت عضدك تخرج بيضاء يعني نيرة مشرقة من غير سوء يعني من غير عيب والسوء ها هنا بمعنى البرص قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر آية أخرى أي دلالة أخر على صدقك سوى العصا لنريك من آياتنا الكبرى قال ابن عباس: كانت يد موسى أكبر آياته. قوله عز وجل:

[سورة طه (٢٠): الآيات ٢٤ الى ٤٠]

اذهب إلى فرعون إنه طغى (٢٤) قال رب اشرح لي صدري (٢٥) ويسر لي أمري (٢٦) واحلل عقدة من لساني (٢٧) يفقهوا قولي (٢٨)

واجعل لي وزيرا من أهلي (٢٩) هارون أخي (٣٠) اشدد به أزري (٣١) وأشركه في أمري (٣٢) كي نسبحك كثيرا (٣٣)

ونذكرك كثيرا (٣٤) إنك كنت بنا بصيرا (٣٥) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى (٣٦) ورقد مننا عليك مرة أخرى (٣٧) إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى (٣٨)

أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني (٣٩) إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى (٤٠)

اذهب إلى فرعون إنه طغى يعني جاوز الحد في العصيان **والتمرد** وإنما خص فرعون بالذكر مع أن موسى كان مبعوثا إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر متبوعا فكان ذكره الأولى قال وهب: قال الله تعالى لموسى اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي وإنك بعيني وسمعي وإن معك يدي وبصري وإني ألبسك حلة من." (١)

"عليه وسلم فقرأ عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا والناس من بين باك وجالس حزين متفكر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي يوم ذلك قالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعث النار» وذكر نحو حديث أبي سعيد وزاد فيه ثم قال «يدخل من أمتي سبعون ألفا الجنة بغير حساب فقال عمر:

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٠٣/٣

سبعون ألفا؟ قال: نعم قال ومع كل واحد سبعون ألفا». قوله عز وجل:

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣ الى ٥]

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد (٣) كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير (٤) يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (٥)

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم نزلت في النضر بن الحارث كان كثير الجدل وكان يقول للملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وكان ينكر البعث وإحياء من صار ترابا ويتبع يعني في جداله في الله بغير علم كل شيطان مريد يعني **المتمرد** المستمر في الشر وفيه وجهان أحدهما: أنهم شياطين الإنس وهم رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم إلى الكفر والثاني أنه إبليس وجنوده كتب عليه يعني قضى على الشيطان أنه من تولاه يعني اتبعه فأنه يعني الشيطان يضله يعني يضل من تولاه عن طريق الجنة ويهديه إلى عذاب السعير وفي الآية زجر عن اتباعه والمعنى كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال ثم ألزم الحجة منكري البعث فقال يا أيها الناس إن كنتم في ريب يعني شك من البعث يعني بعد الموت فإنا خلقناكم من تراب يعني أباكم آدم الذي هو أصل النسل ثم من نطفة يعني ذريته من المني وأصلها الماء القليل ثم من علقة يعني من دم جامد غليظ وذلك أن النطفة تصير دما غليظا ثم من مضغة وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ مخلقة وغير مخلقة.

قال ابن عباس: أي تامة الخلق وغير تامة الخلق وقيل مصورة وغير مصورة وهو السقط. وقيل: المخلقة الولد الذي تأتي به المرأة لوقته وغير المخلقة السقط فكأنه سبحانه وتعالى قسم المضغة إلى قسمين أحدهما تام الصورة والحواس والتخطيط، والقسم الثاني هو الناقص عن هذه الأحوال كلها. وروي عن علقمة عن ابن مسعود موقوفا عليه قال: إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه وقال: أي رب مخلقة أو غير مخلقة فإن قال غير مخلقة قذفها في الرحم دما ولم تكن نسمة وإن قال مخلقة قال الملك: أي رب أذكر أم أنثى شقي أم سعيد ما الأجل ما العمل ما الرزق بأي أرض يموت؟ فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته والذي أخرجاه في الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق إن خلق

أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه بعمل." (١)

"الحتم لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق ولكنه كما يقال للحاسد مت غيظا وقيل المراد بالسماء السماء المعروفة والمعنى من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيد في أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله فإن أصله في السماء فليطلب سببا يصل به إلى السماء، ثم ليقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم الوحي الذي يأتيه فلينظر هل يتهيأ له الوصول إلى السماء بحيلة وهل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل فإذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة.

وفي الآية زجر للكافر عن الغيظ فيما لا فائدة فيه. روي أن الآية نزلت في قوم من أسد وغطفان دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام وكان بينهم وبين اليهود محالفة فقالوا: لا يمكننا أن نسلم لأننا نخاف أن لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فتنقطع المحالفة بيننا وبين اليهود فلا يميرونا ولا يؤوونا وقيل النصر معناه الرزق. ومعنى الآية من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يجعله مرزوقا تقول العرب من ينصرني نصره الله أي من يعطني أعطاه الله وكذلك أنزلناه يعني القرآن آيات بينات وأن الله يهدي من يريد إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا يعني عبدة الأوثان وقيل الأديان ستة واحد لله وهو الإسلام وخمسة للشياطين وهو ما عدا الإسلام إن الله يفصل بينهم أي يحكم بينهم يوم القيامة وقيل يفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد إن الله على كل شيء شهيد أي إنه عالم بما يستحقه كل واحد منهم فلا يجزي في ذلك الفصل ظلم ولا حيف وقد تقدم بسط الكلام على معنى هذه الآية في تفسير سورة البقرة. قوله عز وجل ألم تر أي لم تعلم وقيل ألم تر بقلبك أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب قيل سجود هذه الأشياء تحول ظلالهما وقيل ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه وقيل معنى سجودها الطاعة فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله تعالى خاشع ومسبح له كما وصفهم بالخشية والتسبيح: وهذا مذهب أهل السنة وهو أن هذه

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٤٨/٣

الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي خلقها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت بمطاوعتها أفعال المكلف وهو السجود الذي كل خضوع دونه.

فإن قلت هذا التأويل يبطله قوله وكثير من الناس فإن السجود بالمعنى الذي ذكر عام في الناس كلهم فإسناده إلى كثير من الناس يكون تخصيصا من غير فائدة. قلت المعنى الذي ذكرته وإن كان عاما في حق الكل إلا أن بعضهم **تمرد** وتكبر وترك السجود في الظاهر فهذا وإن كان ساجدا بذاته لكنه **متمرد** بظاهره وأما المؤمن فإنه ساجد بذاته وبظاهره أيضا فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر وقيل معنى الآية الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الأول: بمعنى الانقياد، والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة. فإن قلت قوله من في السموات ومن في الأرض لفظ عموم فيدخل فيه الناس فلم قال وكثير من الناس. قلت لو اقتصر على ما تقدم لأوهم أن كل الناس يسجدون طوعا دون بعض وهم الذين قال فيهم وكثير حق عليه العذاب وهم الكفار أي حق عليهم العذاب بكفرهم وتركهم السجود ومع كفرهم وامتناعهم من السجود تسجد ظلالهم لله عز وجل ومن يهن الله فما له من مكرم أي من يذله الله فلا يكرمه أحد إن الله يفعل ما يشاء أي يكرم الله بالسعادة من يشاء ويهين بالشقاوة من يشاء وقيل هو الذي يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب.

(فصل)

هذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند تلاوتها أو سماع تل١وتها.

قوله عز وجل:." (١)

"أم تسألهم أي على ما جئتهم به خرجا أي أجرا وجعلا فخراج ربك خير أي ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير وهو خير الرازقين تقدم تفسيره وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم أي إلى دين الإسلام وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط أي عن دين الحق لناكبون أي لعادلون عنه ومائلون ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر أي قحط وجدوبة للجوا أي لتمادوا في طغيانهم يعمهون أي لم ينزعوا عنه ولقد أخذناهم بالعذاب وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل الله عليهم سنين كسني يوسف فأصابهم القحط. فجاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال: إنهم قد أكلوا القد والعظام وشكا إليه الضر فادع الله أن يكشف عنا

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٥١/٣

هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية فما استكانوا لربهم ما خضعوا وما ذلوا لربهم وما يتضرعون أي لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضوا على **تمردهم** حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة إذا هم فيه مبلسون أي آيسون من كل خير. قوله عز وجل وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة أي لتسمعوا بها وتبصروا وتعقلوا قليلا ما تشكرون أي لم تشكروا هذه النعم وهو الذي ذرأكم في الأرض أي خلقكم وإليه تحشرون أي تبعثون وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أي تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان وقيل جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض أفلا تعقلون أي ما ترون من صنعه فتعتبروا بل قالوا مثل ما قال الأولون أي كذبوا كما كذب الأولون، وقيل معناه أنكروا البعث مثل ما أنكر الأولون مع وضوح الأدلة قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أي لمحشورون قالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجب لقد وعدنا نحن أي هذا الوعد وآباؤنا هذا من قبل أي وعد آباؤنا قوم ذكروا أنهم رسل الله فلم نر له حقيقة إن هذا إلا أساطير الأولين أي أكاذيب الأولين. قوله تعالى قل أي يا محمد لأهل مكة لمن الأرض ومن فيها من الخلق إن كنتم تعلمون أي خالقها ومالكها سيقولون لله أي لا بد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة لله قل أي قل لهم يا محمد إذا أقروا بذلك أفلا تذكرون أي فتعلموا أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون أي عبادة غيره وقيل معناه أفلا تحذرون عقابه قل من بيده ملكوت كل شيء أي ملك كل شيء وهو يجير أي يؤمن من يشاء ولا يجار عليه أي لا يؤمن من أخافه الله وقيل يمنع هو من يشاء من السوء ولا يمتنع منه من أراده بسوء إن كنتم تعلمون أي فأجيبوا.

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٩ الى ١٠١]

سيقولون لله قل فأنى تسحرون (٨٩) بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون (٩٠) ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٩١) عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون (٩٢) قل رب إما تريني ما يوعدون (٩٣)

رب فلا تجعلني في القوم الظالمين (٩٤) وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون (٩٥) ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون (٩٦) وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين (٩٧) وأعوذ بك رب أن يحضرون (٩٨)

حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون (٩٩) لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها

ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون (١٠٠) فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (١٠١)." (١)

"بالمعصية والكفر لطاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه، قال عطاء: يأكل يديه حتى يبلغ مرفقيه ثم ينبتان، ثم يأكلهما هكذا كلما نبتت يده أكلها على ما فعل، تحسرا وندامة يقول يا ليتني اتخذت أي في الدنيا مع الرسول سبيلا أي ليتني اتبعت محمدا صلى الله عليه وسلم واتخذت معه طريقا إلى الهداية يا ويلتى دعا على نفسه بالويل ليتني لم أتخذ فلانا خليلا قيل يعني أبي بن خلف لقد أضلني عن الذكر أي عن الإيمان والقرآن بعد إذ جاءني يعني الذكر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وكان الشيطان وهو كل متمرد عات صد عن سبيل الله من الجن والإنس للإنسان خذولا أي كثير الخذلان يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب به وحكم الآية عام في كل خليلين، ومتحابين اجتمعا على معصية الله (ق) عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبا ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» أخرجه أبو داود والترمذي.

ولهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم «لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي». قوله عز وجل:

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣٠ الى ٤٠]

وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا (٣٠) وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا (٣١) وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا (٣٢) ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا (٣٣) الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا (٣٤)

ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا (٣5) فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا (٣٦) وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما (٣٧) وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا (٣٨) وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا (٣٩)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٢٧٥

ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا (٤٠)
وقال الرسول يعني ويقول الرسول في ذلك اليوم يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا أي متروكا وأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه وقيل جعلوه بمنزلة الهجر وهو السيئ من القول فزعموا أنه سحر وشعر، والمعنى أن محمدا صلى الله عليه وسلم، يشكو قومه إلى الله عز وجل يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا، فعزاه الله تعالى فقال وكذلك جعلنا أي وكما جعلت لك أعداء من مشركي مكة، وهم قومك كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين أي المشركين والمعنى لا يكبرن عليك ذلك فإن الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم، فصبروا فاصبر أنت كما صبروا فإني ناصرك، وهاديك وهو قوله تعالى وكفى بربك هاديا ونصيرا قوله تعالى وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة أي كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود صلوات الله عليهم أجمعين قال الله كذلك فعلنا ذلك لنثبت به فؤادك أي أنزلناه مفرقا لنقوي به قلبك، فتعيه وتحفظه فإن الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء، يكتبون ويقرءون وأنزلنا القرآن على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور تحدث في أوقات مختلفة ففرقناه ليكون أوعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل به ورتلناه ترتيلا.." [١]

"والأصح أنه أسم رجل وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن سبأ فقال: رحل له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة بنبإ أي بخبر يقين فقال سليمان وما ذاك فقال:

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٢٣ الى ٢٨]

إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم (٢٣) وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٢٤) ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون (٢٥) الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم (٢٦) قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين (٢٧)
اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون (٢٨)
إني أي الهدهد وجدت امرأة تملكهم هي بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٣١٣

ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكا هو آخرهم، وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤا لي وأبى أن يتزوج منهم فخطب إلى الجن فزوجوه منهم امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن. قيل في سبب وصوله إلى الجن حتى خطب منهم، أنه كان كثير الصيد فربما اصطاد الجن، وهم على صورة الظباء فيخلي عنهم فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقا، فخطب ابنته فزوجه إياها وقيل إنه خرج متصيدا فرأى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء، وقد ظهرت السوداء على البيضاء، فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها الماء فأفاقت، وأطلقها فلما رجع إلى داره وجلس وحده منفردا، فإذا معه شاب جميل فخاف منه، قال: لا تخف أنا الحية البيضاء التي أحييتني والأسود الذي قتلته هو عبد لنا تمرد علينا، وقتل عدة منا وعرض عليه المال فقال: المال لا حاجة لي به. ولكن إن كان لك بنت فزوجنيها فزوجه ابنته، فولدت له بلقيس وجاء في الحديث «إن أحد أبوي بلقيس كان جنيا: فلما مات أبو بلقيس طمعت في الملك وطلبت قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وأبى آخرون، وملكوا عليهم رجلا آخر يقال: إنه ابن أخي الملك وكان خبيثا سيء السيرة في أهل مملكته، حتى كان يمد يده إلى حريم رعيته، ويفجر بهن فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك، أدركتها الغيرة فأرسلت إليه فعرضت نفسها عليه فأجابها الملك وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك لأنك كفؤ كريم، فاجمع رجال أهلي واخطبني منهم، وخطبها فقالوا لا نراها تفعل فقال: بلى إنها قد رغبت في فذكروا ذلك لها فقالت: نعم فزوجوها منه فلما زفت إليه خرجت في ملأ كثير من خدمها وحشمها، فلما دخلت به سقته الخمر حتى سكر ثم قتلته وحزت رأسه وانصرفت إلى منزلها من الليل، فلما أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرعتهم وقالت أما كان فيكم من يأنف لكريمته أو كرائم عشيرته، ثم أرتهم إياه قتيلا وقالت اختاروا رجلا تملكونه عليكم فقالوا لا نرضى غيرك فملكوها وعلموا أن ذلك النكاح كان مكرا وخديعة منها (خ) عن أبي بكرة قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال «لن يفلح قوم ملكوا عليهم امرأة». قوله تعالى وأوتيت من كل شيء يعني ما تحتاج إليه الملوك من المال والعدة ولها عرش عظيم أي سرير ضخم عال. فإن قلت: كيف استعظم الهدهد عرشها على ما رأى من عظمة ملك سليمان. قلت: يحتمل أنه استعظم ذلك بالنسبة إليها، ويحتمل أنه لم يكن لسليمان مع عظم ملكه مثله وكان عرش بلقيس من الذهب مكللا بالدر، والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزمرد، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق قال ابن عباس: كان عرش." [1]

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٣٤٣

"[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٧ الى ١١]
وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (١٠) فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب (١١)
وحفظا من كل شيطان مارد أي وحفظنا السماء من كل شيطان **متمرد** عات يرمون بالشهب لا يسمعون إلى الملإ الأعلى يعني إلى الملائكة والكتبة لأنهم سكان السماء وذلك أن شياطين يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة فيخبرون به أولياءهم الإنس ويوهمون بذلك أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله من ذلك بهذه الشهب وهو قوله تعالى: ويقذفون أي يرمون بها من كل جانب أي آفاق السماء دحورا أي يبعدونهم عن مجالس الملائكة ولهم عذاب واصب أي دائم إلا من خطف الخطفة أي اختلس الكلمة من كلام الملائكة فأتبعه أي لحقه شهاب ثاقب أي كوكب مضيء قوي لا يخطئه بل يقتله ويحرقه أو يخبله.
وقيل سمي النجم الذي ترمى به الشياطين ثاقبا لأنه يثقبهم.
فإن قلت كيف يمكن أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم ثم يعودون إلى مثل ذلك.
قلت إنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم أنهم لا يصلون إليه طمعا في السلامة ورجاء نيل المقصود كراكب البحر يغلب على ظنه حصول السلامة.
وقوله عز وجل: فاستفتهم يعني سل أهل مكة أهم أشد خلقا أم من خلقنا يعني من السموات والأرض والجبال وهو استفهام تقرير أي هذه الأشياء أشد خلقا، وقيل أم من خلقنا يعني من الأمم الخالية والمعنى أن هؤلاء ليسوا بأحكم خلقا من غيرهم من الأمم وقد أهلكناهم بذنوبهم فما الذي يؤمن هؤلاء من العذاب. ثم ذكر مم خلقوا فقال الله تعالى: إنا خلقناهم من طين لازب يعني آدم من طين جيد حر لاصق لزج يعلق باليد وقيل من طين نتن.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٢ الى ١٩]
بل عجبت ويسخرون (١٢) وإذا ذكروا لا يذكرون (١٣) وإذا رأوا آية يستسخرون (١٤) وقالوا إن هذا إلا سحر مبين (١٥) أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون (١٦)
أوآباؤنا الأولون (١٧) قل نعم وأنتم داخرون (١٨) فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون (١٩)

بل عجبت قرئ بالضم على إسناد التعجب إلى الله تعالى وليس هو كالتعجب من الآدميين لأن العجب من الناس محمول على إنكار الشيء وتعظيمه والعجب من الله تعالى محمول على تعظيم تلك الحالة فإن كانت قبيحة فيترتب عليها العقاب وإن كانت حسنة فيترتب عليها الثواب، وقيل قد يكون بمعنى الإنكار والذم وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا كما جاء في الحديث «عجب ربكم من شاب ليست له صبوة» وفي حديث آخر «عجب ربكم من إلكم من وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم»، وقوله من إلكم الإل أشد القنوط وقيل هو رفع الصوت بالبكاء.

وسئل الجنيد رحمه الله تعالى عن هذه الآية فقال إن الله لا يعجب من شيء ولكن وافق رسوله ولما عجب رسوله قال «وإن تعجب فعجب قولهم» أي هو كما تقوله وقرئ بفتح التاء على أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي عجبت من تكذيبهم إياك وهم يسخرون من تعجبك وقيل عجب نبي الله صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن حين أنزل وضلال بني آدم وذلك." (١)

"[سورة غافر (٤٠): الآيات ٧٩ الى ٨٥]

الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون (٧٩) ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون (٨١) أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨٣)

فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)

قوله تعالى: الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع أي في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم أي تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد في أسفاركم وحاجاتكم وعليها وعلى الفلك تحملون أي على الإبل في البر وعلى السفن في البحر يريكم آياته

أي دلائل قدرته أي آيات الله تنكرون

يعني أن هذه الآيات التي ذكرها ظاهرة باهرة فليس شيء منها يمكن إنكاره.

قوله تعالى: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٦/٤

في الأرض يعني مصانعهم وقصورهم والمعنى لو سار هؤلاء في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة هؤلاء المنكرين **المتمردين** الهلاك والبوار مع أنهم كانوا أكثر عددا وأموالا من هؤلاء فما أغنى عنهم أي لم ينفعهم ما كانوا يكسبون أي أي شيء أغنى عنهم كسبهم فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا أي رضوا بما عندهم من العلم قيل هو قولهم لن نبعث ولن نعذب وقيل هو علمهم بأحوال الدنيا سمي ذلك علما على ما يدعونه ويزعمونه وهو في الحقيقة جهل وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن فلما رأوا بأسنا أي عذابنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين أي تبرأنا مما كنا نعدل بالله فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده يعني أن سنة الله قد جرت في الأمم الخالية بعدم قبول الإيمان عند معاينة البأس وهو العذاب يعني بتلك السنة أنهم إذا رأوا العذاب آمنوا ولا ينفعهم إيمانهم عند معاينة العذاب وخسر هنالك الكافرون يعني بذهاب الدارين قيل الكافر خاسر في كل وقت ولكنه يتبين خسرانه إذا رأى العذاب والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.." (١)

"وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا فأنزل الله تعالى على نبيه قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن زاد في رواية «وإنما أوحي إليه قول الجن» أخرجاه في الصحيحين، قال القرطبي في شرح مسلم في حديث ابن عباس هذا معناه أنه لم يقصدهم بالقراءة بل لما تفرقوا يطلبون الخبر الذي حال بينهم وبين استراق السمع، صادف هؤلاء النفر رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه وعلى هذا فهو صلى الله عليه وسلم لم يعلم باستماعهم ولم يكلمهم وإنما أعلمه الله عز وجل بما أوحي إليه من قوله قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن وأما حديث ابن مسعود فقضية أخرى وجن آخرون.

والحاصل من الكتاب والسنة العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رسول إلى الإنس والجن فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين ومعهم في الدنيا والآخرة والجنة، ومن كفر به فهو من الشياطين المبعدين المعذبين فيها والنار مستقره. وهذا الحديث يقتضي أن الرجم بالنجوم ولم يكن قبل المبعث. وذهب قوم إلى أنه كان قبل مبعثه وآخرون إلى أنه كان لكن زاد بهذا المبعث وبهذا القول يرتفع التعارض بين الحديثين هذا آخر كلام القرطبي والله أعلم.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٨١/٤

عكاظ سويقة معروفة بقرب مكة كان العرب يقصدونها في كل سنة مرة في الجاهلية وأول الإسلام وتهامة كل ما نزل عن نجد من بلاد الحجاز سميت تهامة لتغير هوائها. ومكة من تهامة معدودة ونخلة واد من أودية مكة قريب منها.

وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى: قل أوحي إلي أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يظهر لأصحابه واقعة الجن وكما أنه مبعوث إلى الإنس ف ه و أيضا مبعوث إلى الجن لتعلم قريش أن الجن مع **تمردهم** لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا به وقوله استمع نفر من الجن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة قيل كانوا تسعة من جن نصيبين. وقيل سبعة سمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا أي لما رجعوا إلى قومهم، إنا سمعنا قرآنا عجبا قال ابن عباس رضي الله عنهما بليغا أي ذا عجب يعجب منه لبلاغته وفصاحته يهدي إلى الرشد أي يدعو إلى الصواب يعني التوحيد والإيمان فآمنا به أي بالقرآن ولن نشرك بربنا أحدا أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك. وفيه دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين قيل كانوا يهودا وقيل كانوا نصارى وقيل كانوا مجوسا ومشركين وأنه تعالى جد ربنا أي جلال ربنا وعظمته، ومنه قول أنس «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا» أي عظم قدره وقيل الجد الغنى. ومنه الحديث «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي لا ينفع ذا الغنى غن اهـ. وقال ابن عباس: عظمت قدرة ربنا وقيل أمر ربنا وقيل فعله وقيل آلاؤه ونعماؤه على خلقه وقيل علا ملك ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا أي أنه تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا لأن الصاحبة تتخذ للحاجة والولد للاستئناس به والله تعالى منزه عن كل نقص وأنه كان يقول سفيهنا يعني جاهلنا قيل هو إبليس على الله شططا أي كذبا وعدوانا وهو وصفه تعالى بالشريك والولد أي الشطط وهو مجاوزة الحد في كل شيء.

[سورة الجن (٧٢): الآيات ٥ الى ٩]

وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا (٥) وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا (٦) وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا (٧) وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا (٨) وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا (٩)

وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا أي كنا نظن أن الإنس والجن صادقون في قولهم إن لله." (١)

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٤٩/٤

"متغيرة مسودة قد أظلمت ألوانها، وعدمت آثار النعمة، والسرور منها لما أدركها من اليأس من رحمة الله تعالى:

وذلك حين يميز بين أهل الجنة والنار تظن أي تستيقن والظن هنا بمعنى اليقين أن يفعل بها فاقرة أن يفعل بهم أمر عظيم من العذاب والفاقرة الداهية العظيمة والأمر الشديد الذي يكسر فقار الظهر ويقصمه وقيل الفاقرة دخول النار، وقيل هي أن تحجب تلك الوجوه عن رؤية الله تعالى: كلا أي حقا إذا بلغت يعني النفس كناية عن غير مذكور التراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت ومنه قول دريد بن الصمة:

ورب عظيمة دافعت عنها ... وقد بلغت نفوسهم التراقي

وقيل

يعني وقال من حضره من راق

أي هل من طبيب يرقيه ويداويه مما نزل به ويشفيه ويخلصه من ذلك برقيته ودوائه، وقيل لما نزل به من قضاء الله ما نزل التمسوا له الأطباء، فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئا، وقيل هذا من قول الملائكة الذين يحضرونه عند الموت يقول بعضهم لبعض من يرقى بروحه إذا خرجت فيصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، وظن أي أيقن الذين بلغت روحه التراقي أنه الفراق يعني الخروج من الدنيا وفراق المال والأهل والولد والتفت أي اجتمعت الساق بالساق أي الشدة بالشدة يعني شدة مفارقة الدنيا مع شدة الموت وكربه، وقيل شدة الموت بشدة الآخرة، وقيل تتابعت عليه الشدائد لا يخرج من كرب إلا جاءه ما هو أشد منه، وقال ابن عباس: أمر الدنيا بأمر الآخرة فكان في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وقيل الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه، وقيل هما ساقا الميت إذا لفتا في الكفن، وقيل هما ساقاه عند الموت ألا تراه كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى عند النزع، وقيل إذا مات يبست ساقاه فالتفت إحداهما بالأخرى.

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ٣٠ الى ٤٠]

إلى ربك يومئذ المساق (٣٠) فلا صدق ولا صلى (٣١) ولكن كذب وتولى (٣٢) ثم ذهب إلى أهله يتمطى (٣٣) أولى لك فأولى (٣٤)

ثم أولى لك فأولى (٣٥) أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦) ألم يك نطفة من مني يمنى (٣٧) ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩)

أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى (٤٠)

إلى ربك يومئذ المساق أي مرجع العباد إلى الله تعالى يساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم.

قوله تعالى: فلا صدق ولا صلى يعني أبا جهل لم يصدق بالقرآن، ولم يصل لله تعالى: ولكن كذب وتولى أي أعرض عن الإيمان والتصديق ثم ذهب إلى أهله يتمطى أي يتبختر ويختال في مشيته، وقيل أصله يتمطط أي يتمدد من المط، وقيل من المطا وهو الظهر لأنه يلويه. أولى لك فأولى هذا وعيد على وعيد من الله تعالى لأبي جهل. وهي كلمة موضوعة للتهديد والوعيد ومعناه، ويل لك مرة بعد مرة وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه، وقيل معناه أنك أجدر بهذا العذاب. وأحق وأولى به. يقال ذلك لمن يصيبه مكروه يستوجبه قال قتادة: ذكر لنا «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى» فقال أبو جهل أتوعدني يا محمد والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا وإني لأعز من مشى بين جبليها فلما كان يوم بدر صرعه وقتله أشد قتلة. وكان نبي الله يقول صلى الله عليه وسلم «إن لكل أمة فرعونا وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل» أيحسب الإنسان أن يترك سدى أي هملا لا يؤمر ولا ينهى ولا يكلف في الدنيا ولا يحاسب في الآخرة ألم يك نطفة أي ماء قليلا من مني يمنى أي يصيب في الرحم، والمعنى كيف يليق بمن خلق من شيء قذر مستقذر أن يتكبر ويتمرد عن الطاعة. ثم كان علقة أي صار الإنسان علقة بعد النطفة." [١]

"فتنخر أي توصت قالوا يعني المنكرين للبعث إذا عاينوا أهوال القيامة تلك إذا كرة خاسرة أي رجعة غابنة يعني إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت. فإنما هي يعني النفخة الأخيرة زجرة واحدة أي صيحة واحدة يجمعون بها جميعا فإذا هم بالساهرة يعني وجه الأرض سميت ساهرة لأن عليها نوم الحيوان وسهرهم، وقيل هي التي كثر الوطء عليها كأنها سهرت، والمعنى أنهم كانوا في بطن الأرض. فلما سمعوا الصيحة صاروا على وجهها، وقيل هي أرض الشام وقيل أرض القيامة، وقيل هي أرض جهنم.

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ١٥ الى ٢٧]

هل أتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩)

فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٧٤/٤

الأعلى (٢٤)

فأخذه الله نكال الآخرة والأولى (٢٥) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى (٢٦) أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها (٢٧)

قوله عز وجل: هل أتاك حديث موسى يا محمد وذلك أنه صلى الله عليه وسلم شق عليه حين كذبه قومه، فذكر له قصة موسى عليه الصلاة والسلام وأنه كان يتحمل المشاق من قومه ليتأسى به إذ ناداه ربه بالواد المقدس أي المطهر طوى هو اسم واد بالشام عند الطور اذهب إلى فرعون إنه طغى أي علا وتكبر وكفر بالله فقل هل لك إلى أن تزكى أي تتطهر من الشرك والكفر، وقيل معناه تسلم وتصلح العمل وقال ابن عباس: تشهد أن لا إله إلا الله وأهديك إلى ربك أي أدعوك إلى عبادة ربك وتوحيده فتخشى يعني عقابه وإنما خص فرعون بالذكر، وإن كانت دعوة موسى شاملة لجميع قومه لأن فرعون كان أعظمهم فكانت دعوته دعوة لجميع قومه فأراه أي أرى موسى فرعون الآية الكبرى يعني اليد البيضاء والعصا فكذب يعني فرعون بأنها من الله وعصى أي تمرد وأظهر التجبر ثم أدبر أي أعرض عن الإيمان يسعى يعمل الفساد في الأرض فحشر أي فجمع قومه وجنوده فنادى أي لما اجتمعوا فقال يعني فرعون لقومه أنا ربكم الأعلى أي لا رب فوقي، وقيل أراد أن الأصنام أرباب وهو ربها وربهم فأخذه الله نكال الآخرة والأولى أي عاقبة فجعله عبرة لغيره بأن أغرقه في الدنيا ويدخله النار في الآخرة، وقيل أراد بالآخرة والأولى كلمتي فرعون وهما قوله ما علمت لكم من إله غيري وقوله أنا ربكم الأعلى وكان بينهما أربعون سنة إن في ذلك أي في الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى لعبرة أي عظة لمن يخشى أي يخاف الله عز وجل ثم عاتب منكري البعث فقال تعالى: أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها معناه أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السماء عندكم في تقديركم.

فإن كلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد، لأن خلق الإنسان على صغره وضعفه إذا أضيف إلى خلق السماء مع عظمها وعظم أحوالها كان يسيرا فبين تعالى: أن خلق السماء أعظم، وإذا كان كذلك كان خلقكم بعد الموت أهون على الله تعالى: فكيف تنكرون ذلك مع علمكم بأنه خلق السموات والأرض ولا تنكرون ذلك. ثم إنه تعالى ذكر كيفية خلق السماء والأرض فقال تعالى:." [١]

"معنى الاستخلاف، واللام في لتؤمنن جواب القسم، وما يحتمل أن تكون شرطية، ولتؤمنن سد مسد جواب القسم والشرط. وأن تكون موصولة بمعنى الذي آتيناكموه لتؤمنن به والضمير في به ولتنصرنه عائد

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٩٢/٤

على الرسول أأقررتم أي اعترفتم إصري عهدي فاشهدوا أي على أنفسكم وعلى أممكم بالتزام هذا العهد وأنا معكم تأكيد للعهد بشهادة رب العزة جل جلاله بعد ذلك أي من تولى عن الإيمان بهذا النبي صلى الله عليه واله وسلم بعد هذا الميثاق فهو فاسق مرتد **متمرد** في كفره أفغير الهمزة للإنكار، والفاء عطفت جملة على جملة، وغير مفعول قدم للاهتمام به أو للحصر وله أسلم أي انقاد واستسلم طوعا وكرها مصدر صدر في موضع الحال، والطوع للمؤمنين والكره للكافر إذا عاين الموت، وقيل: عند أخذ الميثاق المتقدم، وقيل: إقرار كل كافر بالصانع هو إسلامه كرها قل آمنا أمر النبي صلى الله عليه واله وسلم أن يخبر عن نفسه وعن أمته بالإيمان وما أنزل علينا تعدى هنا بعلي مناسبة لقوله: قل، وفي البقرة بإلى لقوله:

قولوا. لأن على حرف استعلاء يقتضي النزول من علو. ونزوله على هذا المعنى مختص بالنبي صلى الله عليه واله وسلم. وإلى حرف غاية وهو موصل إلى جميع الأمة ومن يبتغ الآية: إبطال لجميع الأديان غير الإسلام، وقيل: نسخت: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى [البقرة: ٦٢] الآية كيف سؤال، والمراد به هنا: استبعاد الهدى قوما كفروا نزلت في الحرث بن سويد وغيره أسلموا ثم ارتدوا ولحقوا بالكفار، ثم كتبوا إلى أهلهم هل لنا من توبة؟ فنزلة الآية إلى قوله: إلا الذين تابوا، فرجعوا إلى الإسلام وقيل: نزلت في اليهود والنصارى شهدوا [ممن] بصفة النبي صلى الله عليه واله وسلم، وآمنوا به ثم كفروا به لما بعث، وشهدوا عطف على إيمانهم، لأن معناه بعد أن آمنوا، وقيل: الواو للحال، وقال ابن عطية: عطف على كفروا والواو لا ترتب والناس أجمعين عموم بمعنى الخصوص في المؤمنين، أو على عمومه وتكون اللعنة في الآخرة خالدين فيها الضمير عائد على اللعنة، وقيل: على النار وإن لم تكن ذكرت لأن." (١)

"كفلاء بتصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا الآية: تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بالتأسي بغيره شياطين الإنس والجن أي **المتمردين** من الصنفين، ونصب شياطين على البدل من عدوا، إذ هو بمعنى الجمع أو مفعول أول، وعدوا مفعول ثان يوحي بعضهم إلى بعض أي يوسوس ويلقي الشر زخرف القول غرورا ما يزينه من القول ولو شاء ربك ما فعلوه الضمير عائد على وحيهم، أو على عداوة الكفار فذرهم وعيد وما يفترون ما في موضع نصب على أنها مفعول معه أو عطف على الضمير ولتصغى أي تميل وهو متعلق بمحذوف واللام لام الصيرورة إليه الضمير لوحيهم وليقترفوا يكتسبوا أفغير الله معمول لقول محذوف أي: قل لهم وتمت كلمت ربك أي صحت «١» والكلمات ما نزل على عباده من كتبه صدقا وعدلا أي صدقا فيما أخبر وعدلا فيما حكم فكلوا مما ذكر اسم الله عليه القصد بهذا الأمر

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٥٨/١

إباحة ما ذكر اسم الله عليه، والنهي عما ذبح للنصب وغيرها، وعن الميتة وهذا النهي يقتضيه دليل الخطاب من الأمر، ثم صرح به في قوله الآتي: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وقد استدل بذلك من أوجب التسمية على الذبيحة، وإنما جاء الكلام في سياق تحريم الميتة وغيرها، فإن حملناه على ذلك لم يكن فيه دليل على وجوب التسمية في ذبائح المسلمين، وإن حملناه على عمومه كان فيه دليل على ذلك، وقال عطاء: وهذه الآية أمر بذكر الله على الذبح والأكل والشرب وما لكم ألا تأكلوا المعنى أي غرض لكم في ترك الأكل، مما ذكر اسم الله عليه، وقد بين لكم الحلال من الحرام إلا ما اضطررتم إليه استثناء بما حرم وذروا ظاهر الإثم وباطنه لفظ يعم أنواع المعاصي: لأن جميعها إما باطن وإما ظاهر وقيل:

---

(١) . كلمت: قراءة عاصم وحمزة والكسائي وقرأ الباقون كلمات بالجمع.." [١]

"جمع قطعة وإعراب مظلما على هذه القراءة: حال من الليل، ومن قرأ قطعا بإسكان الطاء «١» ، فمظلما صفة له أو حال من الليل

مكانكم تقديره الزموا مكانكم أي لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم فزيلنا بينهم أي فرقنا تبلوا كل نفس ما أسلفت أي تختبر بما قدمت من الأعمال، وقرئ تتلو «٢» بتاءين بمعنى تتبع أو تقرأه في المصاحف قل من يرزقكم الآية: احتجاج على الكفار بحجج كثيرة واضحة لا محيص لهم عن الإقرار بها يخرج الحي من الميت مذكور في [آل عمران: ٢٧] ربكم الحق أي الثابت الربوبية بخلاف ما تعبدون من دونه فماذا بعد الحق إلا الضلال أي عبادة غير الله ضلال بعد وضوح الحق، وتدل الآية على أنه ليس بين الحق والباطل منزلة في علم الاعتقادات، إذ الحق فيها في طرف واحد، بخلاف مسائل الفروع كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا المعنى: كما حق الحق في الاعتقادات كذلك حقت كلمة ربك على الذين عتوا وتمردوا في كفرهم أنهم لا يؤمنون، والكلمات يراد بها القدر والقضاء قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده الآية: احتجاج على الكفار، فإن قيل: كيف يحتج عليهم بإعادة الخلق، وهم لا يعترفون بها؟ فالجواب، أنهم معترفون أن شركاءهم لا يقدرون على الابتداء ولا على الإعادة، وفي ذلك إبطال لربوبيتهم، وأيضا فوضعت الإعادة موضع المتفق عليه لظهور برهانها أمن لا يهدي «٣» بتشديد الدال معناه: لا يهتدي في نفسه، فكيف يهدي غيره، وقرئ بالتخفيف بمعنى يهدي غيره والقراءة الأولى أبلغ في الاحتجاج فما لكم ما استفهامية معناها تقرير وتوبيخ ولكم خبرها ويوقف عليه كيف تحكمون أي تحكمون

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢٧٣/١

بالباطل في عبادتكم لغير الله

وما يتبع أكثرهم إلا ظنا أي غير

---

(١) . هي قراءة الكسائي وابن كثير وقرأ الباقون: قطعا بفتح الطاء.

(٢) . هي قراءة الكسائي وحمزة تتلو. وقرأ الباقون: تبلوا.

(٣) . اختلف القراء في قر ا ءتها: فقراءة نافع يهدي وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وورش بفتح الهاء وعن عاصم روايتان رواية أبي بكر: يهدي: ثلاث كسرات. وفي رواية حفص: بفتح الياء وكسر الهاء والدال مشددة. وقرأ حمزة والكسائي: يهدي.." [١]

"وقال رؤبة:

وفي أخاديد السياط المتن ... شاف لبغي الكلب المشيطن

ووزنه فعلان عند الكوفيين، ونونه زائدة من شاط يشيط إذا هلك، قال الشاعر:

قد تظفر العير في مكنون قائلة ... وقد تشطو على أرماحنا البطل

والشيطان كل **متمرد** من الجن والإنس والدواب، قاله ابن عباس، وأنثاه شيطانة، قال الشاعر:

هي البازل الكوماء لا شيء غيرها ... وشيطانة قد جن منها جنونها

وشياطين: مع شيطان، نحو غراثين في جمع غرثان، وحكاه الفراء، وهذا على تقدير أن نونه زائدة تكون نحو: غرثان، مع اسم معناه الصحبة اللائقة بالمذكور، وتسكينها قبل حركة لغة ربيعة وغنم، قاله الكسائي. وإذا سكنت فالأصح أنها اسم، وإذ ألقيت ألف اللام أو ألف الوصل، فالفتح لغة عامة العرب، والكسر لغة ربيعة، وتوجيه اللغتين في النحو، ويستعمل ظرف مكان فيقع خبرا عن الجثة والأحداث، وإذا أفرد نون مفتوحا، وهي ثلاثي الأصل من باب المقصور، إذ ذاك لا من باب يد، خلافا ليونس، وأكثر استعمال معا حال، نحو: جميعا، وهي أخص من جميع لأنها تشرك في الزمان نصا، وجميع تحتمله.

وقد سأل أحمد بن يحيى أحمد بن قادم عن الفرق بين. قام عبد الله وزيد معا، وقام عبد الله وزيد جميعا، قال: فلم يزل يركض فيها إلى الليل، وفرق ابن يحيى: بأن جميعا يكون القيام في وقتين وفي وقت واحد، وأما إذا قلت: معا، فيكون في وقت واحد.

الاستهزاء: الاستخفاف والسخرية، وهو استفعل بمعنى الفعل المجرد، وهو فعل، تقول:

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١/٣٥٦

هزأت به واستهزأت بمعنى واحد، مثل استعجب: بمعنى عجب، وهو أحد المعاني التي جاءت لها استفعل.
الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون المد: التطويل، مد الشيء:
طوله وبسطه، ألم تر إلى ربك كيف مد الظل «١» ، وأصل المد: الزيادة، وكل شيء دخل في شيء فكثره فقد مده، قاله اللحياني. وأمد بمعنى مد، مد الجيش، وأمده: زاده وألحق به ما يقويه من جنسه. وقال بعض أهل العلم: مد زاد من الجنس، وأمد: زاد من غير الجنس. وقال يونس: مد في الخير وأمد في الشر. انتهى قوله. ويقال: مد النهر وأمده.

---

(١) سورة الفرقان: ٢٥/ ٤٥.." (١)

"الإيمان المقيد في قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وليسوا بصادقين في ذلك، ويحتمل أن يريدوا بذلك ما أظهروه بألسنتهم من الإيمان، ومن اعترافهم حين اللقاء، وسموا ذلك إيمانا، وقلوبهم عن ذلك صارفة معرضة.
وقرأ الجمهور: خلوا إلى بسكون الواو وتحقيق الهمزة، وقرأ ورش: بإلقاء حركة الهمزة على الواو وحذف الهمزة، ويتعدى خلا بالباء وبإلى، والباء أكثر استعمالا، وعدل إلى إلى لأنها إذا عديت بالباء احتملت معنيين: أحدهما: الانفراد، والثاني: السخرية، إذ يقال في اللغة: خلوت به، أي سخرت منه، وإلى لا يحتمل إلا معنى واحدا، وإلى هنا على معناها من انتهاء الغاية على معنى تضمين الفعل، أي صرفوا خلاهم إلى شياطينهم، قال الأخفش: خلوت إليه، جعلته غاية حاجتي، وهذا شرح معنى، وزعم قوم، منهم النضر بن شميل: أن إلى هنا بمعنى مع أي: وإذا خلوا مع شياطينهم، كما زعموا ذلك في قوله تعالى: ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم «١» ، ومن أنصاري إلى الله «٢» ، أي مع أموالكم ومع الله، ومنه قول النابغة:
فلا تتركني بالوعيد كأنني ... إلى الناس مطلي به القار أجرب
ولا حجة في شيء من ذلك. وقيل: إلى بمعنى الباء، لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، وهذا ضعيف، إذ نيابة الحرف عن الحرف لا يقول بها سيبويه، والخليل، وتقرير هذا في النحو. وشياطينهم: هم اليهود الذين كانوا يأمرونهم بالتكذيب، قاله ابن عباس أو رؤساؤهم في الكفر، قاله ابن مسعود. وروي أيضا عن ابن عباس: أو شياطين الجن، قاله الكلبي: أو كهنتهم، قاله الضحاك وجماعة. وكان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكهنة جماعة منهم: كعب بن الأشرف من بني قريظة، وأبو بردة في بني

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠٣/١

أسلم، وعبد الدار في جهينة، وعوف بن عامر في بني أسد، وابن السوداء في الشام، وكانت العرب يعتقدون فيهم الاطلاع على علم الغيب، ويعرفون الأسرار، ويداوون المرضى، وسموا شياطين لتمردهم وعتوهم، أو باسم قرنائهم من الشياطين، إن فسروا بالكهنة، أو لشبههم بالشياطين في وسوستهم، وغرورهم، وتحسينهم للفواحش، وتقبيحهم للحسن.

والجمهور على تحريك العين من معكم، وقرىء في الشاذ: إنا معكم، وهي لغة غنم

---

(١) سورة النساء: ٤/ ٢.

(٢) سورة آل عمران: ٣/ ٥٢، وسورة الصف: ٦١/ ١٤.." [1]

"دون غيره، ومع ذلك حمله حب الرئاسة والإعجاب بما أوتي من الملك، فادعى الألوهية مع علمه. وأبو جهل، كان يتحقق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ويعلم أن ما جاء به حق، ومع ذلك أنكر نبوته، وأقام على الكفر. وكذلك الأخنس، وأمية بن أبي الصلت، وغيرهما ممن كفر عنادا، مع علمهم بصدق الرسل، وقد قسم العلماء الكفار إلى كافر بقلبه ولسانه، كالدهرية والمنكرين رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وكافر بقلبه مؤمن بلسانه وهم المنافقون، ومؤمن بقلبه كافر بلسانه، كفرعون ومن ذكر معه فلا ينكر الكفر مع وجود العلم. وقد استدل المعتزلة بهذه الآية على أن المعصية توجب الكفر، وأجيب بأنه كافر منافق وإن كان مؤمنا فإنما كفر لاستكباره واعتقاد كونه محقا في ذلك التمرد، واستدلاله على ذلك بقوله: أنا خير منه «١» . قال القشيري: لما كان إبليس مدة في دلال طاعته يختال في مراد موافقته، سلموا له رتبة التقدم واعتقدوا فيه استحقاق التخصص، فصار أمره كما قيل:

وكان سراج الوصل أزهر بيننا ... فهبت به ريح من البين فانطفا

سئل أبو الفتوح أحمد، أخو أبي حامد الغزالي عن إبليس فقال: لم يدر ذلك المسكين أن أظافير القضاء إذا حكت أدمت وقسي القدر إذا رمت أصمت، ثم أنشد:

وكنا وليلى في صعود من الهوى ... فلما توافينا ثبت وزلت

[سورة البقرة (٢) : آية ٣٥]

وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/١١٣

(٣٥)

اسكن، أقم، ومصدره السكنى كالرجعى، والمعنى راجع إلى السكون، وهو عدم الحركة. وكان الساكن في المكان للبثه واستقراره فيه غير متحرك بالنسبة إلى غيره من الأماكن. رغدا: أي واسعا كثير الاعناء فيه، قال امرؤ القيس:

بينما المرء تراه ناعما ... يأمن الأحداث في عيش رغد

وتميم تسكن الغين. وزعم بعض الناس أن كل اسم ثلاثي حلقي العين صحيح اللام يجوز فيه تحريك عينه وتسكينها، مثل: بحر وبحر، ونهر ونهر، فأطلق هذا الإطلاق، وليس كذلك، بل ما وضع من ذلك على فعل بفتح العين لا يجوز فيه التسكين نحو: السحر

---

(١) سورة ص: ٣٨/ ٧٦.." (١)

"تعالى هو من باب فسق العقائد، فليس من باب فسق الأفعال. وقال الحسن: إذا استعمل الفسق في شيء من المعاصي، وقع على أعظمه من كفر أو غيره. انتهى. وناسب قوله:

بينات لفظ الكفر، وهو التغطية، لأن البين لا يقع فيه إلباس، فعدم الإيمان به ليس لشبهة لأنه بين، وإنما هو تغطية وستر لما هو واضح بين. وستر الواضح لا يقع إلا من **متمرد** في فسقه، والألف واللام في الفاسقون، إما للجنس، وإما للعهد، لأن سياق الآيات يدل على أن ذلك لليهود. وكنى بالفسق هنا عن الكفر، لأن الفسق: خروج الإنسان عما حد له. وقد تقدم قول الحسن أنه يدل على أعظم ما يطلق عليه، فكأنه قيل: وما يكفر بها إلا المبالغ في كفره، المنتهي فيه إلى أقصى غاية. وإلا الفاسقون: استثناء مفرغ، إذ تقديره: وما يكفر بها أحد، فنفى أن يكفر بالآيات الواضحات أحد. ثم استثنى الفساق من أحد، وأنهم يكفرون بها. ويجوز في مذهب الفراء أن ينصب في نحو من هذا الاستثناء، فأجاز: ما قام إلا زيدا، على مراعاة ذلك المحذوف، إذ لو كان لم يحذف، لجاز النصب، ولا يجيز ذلك البصريون.

أوكلما عاهدوا عهدا: نزلت في مالك بن الصيف، قال: والله ما أخذ علينا عهد في كتابنا أن نؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولا ميثاق. وقيل في اليهود: عاهدوا على أنه إن خرج لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركي العرب، فلما بعث كفروا به. وقال عطاء: هي العهود بينه وبين اليهود نقضوها، كفعل قريظة والنضير. قال تعالى: الذين عاهدت منهم ثم ينقضون «١» . وقرأ الجمهور: أو كلما، بفتح الواو. واختلف في هذه

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/٢٥٠

الواو فقيل: هي زائدة، قاله الأخفش. وقيل: هي أو الساكنة الواو، حركت بالفتح، وهي بمعنى بل، قاله الكسائي. وكلا القولين ضعيف. وقيل: واو العطف، وهو الصحيح. وقد تقدم أن مذهب سيبويه والنحويين: أن الأصل تقديم هذه الواو، والفاء، وثم، على همزة الاستفهام، وإنما قدمت الهمزة لأن لها صدر الكلام. وإن الزمخشري يذهب إلى أن ثم محذوفا معطوفا عليه، مقدرا بين الهمزة وحرف العطف، ولذلك قدره هنا أكفروا بالآيات البينات؟ وكلما عاهدوا «٢» . وقد رجع الزمخشري عن اختياره إلى قول الجماعة. وقد أمعنا الكلام على ذلك في كتابنا المسمى (بالتكميل لشرح التسهيل) . والمراد بهذا الاستفهام: الإنكار، وإعظام ما يقدمون عليه من تكرر عهودهم ونقضها، فصار ذلك عادة لهم وسجية. فينبغي أن لا يكترث بأمرهم، وأن لا يصعب ذلك، فهي تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، إذ كفروا بما أنزل

---

(١) سورة الأنفال: ٨/ ٥٦.

(٢) سورة البقرة: ٢/ ١٠٠.." [١]

"ضرر عداوتهم، وهو من لا ينبغي أن يعادى، لأنه السفير بين الله وبين خلقه، وهو جبريل.

أتى بالقرآن المصدق لكتابهم، والمشتمل على الهدى والبشارة لمن آمن به، فكان ينبغي المبادرة إلى ولائه ومحبته. ثم أعقب ذلك بأن من كان عدوا لله، أي مخالفا لأمره وملائكته ورسله، أي مبغضا لهم، فالله عدوه، أي معامله بما يناسب فعله القبيح. ثم التفت إلى رسوله بالخطاب، فأخبره بأنه أنزل عليه آيات واضحات، وأنها لوضوحها، لا يكفر بها إلا **متمرد** في فسقه. ثم أخذ يسليه بأن عادة هؤلاء نكث عهودهم، فلا تبال بمن طريقته هذه، وأنهم سلكوا هذه الطريقة معك، إذ أتيتهم من عند الله تعالى بالرسالة، فنبذوا كتابه تعالى وراء ظهورهم، بحيث صاروا لا ينظرون فيه، ولا يلتفتون لما انطوى عليه من التبشير بك، وإلزامهم اتباعك، حتى كأنهم لم يطلعوا على الكتاب، ولا سبق لهم بك علم منه. ثم ذكر من مخازيهم أنهم تركوا كتاب الله و ا تبعوا ما ألقت إليهم الشياطين من كتب السحر على عهد سليمان. ثم نزه نبيه سليمان عن الكفر، وأن الشياطين هم الذين كفروا. ثم استطرد في أخبار هاروت وماروت، وأنهما لا يعلمان أحدا حتى ينصحاه بأنهما جعلا ابتلاء واختبارا، وأنهما لمبالغتهما في النصيحة ينهيان عن الكفر. ثم ذكر أن قصارى ما يتعلمون منهما هو تفريق بين المرء وزوجه. ثم ذكر أن ضرر ذلك لا يكون إلا بإذن من الله تعالى، لأنه تعالى هو الضار النافع. ثم أثبت أن ما يتعلمون هو ضرر لملابسه ومتعلمه. ثم أخبر أنهم قد علموا بحقيقة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥١٨/١

الضرر، وأن متعاطي ذلك لا نصيب له في الآخرة. ثم بالغ في ذم ما باعوا به أنفسهم، إذ ما تعوضوه مآله إلى الخسران.

ثم ختم ذلك بما لو سلكوه، وهو الإيمان والتقوى، لحصل لهم من الله الثواب الجزيل على ذلك، وأن جميع ما اجترموه من المآثم، واكتسبوه من الجرائم، يعفي على آثاره جر ذيل الإيمان، ويبدل بالإساءة جميل الإحسان. ولما كانت الآيات السابقة فيها ما يتضمن الوعيد من قوله: فإن الله عدو للكافرين، وقوله: وما يكفر بها إلا الفاسقون، وذكر نبذ العهود، ونبذ كتاب الله، واتباع الشياطين، وتعلم ما يضر ولا ينفع، والإخبار عنهم بأنهم علموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة، أتبع ذلك بآية تتضمن الوعد الجميل لمن آمن واتقى. فجمعت هذه الآيات بين الوعيد والوعد، والترغيب والترهيب، والإنذار والتبشير، وصار فيها استطراد من شيء إلى شيء، وإخبار بمغيب بعد مغيب، متناسقا تناسق اللآلئ في عقودها، متضحة اتضاح الدراري في مطالع سعودها، معلمة صدق من أتى بها، وهو ما قرأ الكتب، ولا دارس، ولا رحل، ولا عاشر الأخبار، ولا مارس." (١)

"الأطوار: الأحوال المختلفة، قال:

فإن أفاق فقد طارت عمايته ... والمرء يخلق طورا بعد أطوار

ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا: أسماء أصنام أعلام لها اتخذها قوم نوح عليه السلام آلهة.

إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، قال يا قوم إني لكم نذير مبين، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون، قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا، فلم يزدهم دعائي إلا فرارا، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا، ثم إني دعوتهم جهارا، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا، ما لكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا.

هذه السورة مكية. ومناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما أقسم على أن يبدل خيرا منهم، وكانوا قد سخروا من المؤمنين وكذبوا بما وعدوا به من العذاب، ذكر قصة نوح وقومه معه، وكانوا أشد **تمردا** من المشركين، فأخذهم الله أخذ استئصال حتى أنه لم يبق لهم نسلا على وجه الأرض، وكانوا عباد أصنام كمشركي مكة، فحذر تعالى قريشا أن يصيبهم عذاب يستأصلهم إن لم يؤمنوا. ونوح عليه السلام أول نبي أرسل، ويقال له

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/٥٣٨

شيخ المرسلين، وآدم الثاني، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ، وهو إدريس بن برد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه الصلاة والسلام. أن أنذر قومك: يجوز أن تكون مصدرية وأن تكون تفسيرية. عذاب أليم، قال ابن عباس: عذاب النار في الآخرة.

وقال الكلبي: ما حل بهم من الطوفان. من ذنوبكم: من للتبعيض، لأن الإيمان إنما." (١)

"تعالى. وقال وهب بن منبه: جبل بالشام يمده الله تعالى يوم القيامة لحشر الناس. وقال أبو العالية وسفيان: أرض قريبة من بيت المقدس. وقال ابن عباس: أرض مكة. وقال قتادة:

جهنم، لأنه لا نوم لمن فيها. رأى أن الضمائر قبلها إنما هي للكفار ففسرها بجهنم. وقيل:

الأرض السابعة يأتي بها الله يحاسب عليها الخلائق.

ولما أنكروا البعث **وتمردوا**، شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقص تعالى عليه قصة موسى عليه السلام، **وتمرد** فرعون على الله عز وجل حتى ادعى الربوبية، وما آل إليه حال موسى من النجاة، وحال فرعون من الهلاك، فكان ذلك مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتبشيرا بهلاك من يكذبه، ونجاته هو من أذاهم. فقال تعالى: هل أتاك، توفيقا له على جمع النفس لما يلقيه إليه، وتقدم الكلام في الوادي المقدس، والخلاف في القراءات في طوى. اذهب إلى فرعون: تفسير للنداء، أو على إضمار القول، فقل هل لك إلى أن تزكى: لطف في الاستدعاء لأن كل عاقل يجيب مثل هذا السؤال بنعم، وتزكى:

تتحلى بالفضائل وتتطهر من الرذائل، والزكاة هنا يندرج فيها الإسلام وتوحيد الله تعالى.

وقرأ الحرميان وأبو عمرو: بخلاف تزكى وتصدى، بشد الزاي والصاد وباقي السبعة:

بخفها. وتقول العرب: هل لك في كذا، أو هل لك إلى كذا؟ فيحذفون القيد الذي تتعلق به إلى، أي هل لك رغبة أو حاجة إلى كذا؟ أو سبيل إلى كذا؟ قال الشاعر:

فهل لكم فيها إلي فإنني ... بصير بما أعيا النطاسي خديما

وأهديك إلى ربك فتخشى: هذا تفسير للتزكية، وهي الهداية إلى توحيد الله تعالى ومعرفته، فتخشى: أي تخافه، لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة، إنما يخشى الله من عباده العلماء «١» . وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر، وفي الكلام حذف، أي فذهب وقال له ما أمره به ربه، وأتبع ذلك بالمعجزة الدالة على صدقه.

فأراه الآية الكبرى:

وهي العصا واليد، جعلهما واحدة، لأن اليد كأنها من جملة العصا لكونها تابعة لها، أو العصا وحدها لأنها

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠/٢٨٠

كانت المقدمة والأصل، واليد تبع لها، لأنه كان يتقيها بيده. وقيل له أدخل يدك في جيبك «٢» . فكذب: أي فرعون موسى عليه السلام وما أتى به من المعجز، وجعل ذلك من باب السحر، وعصى الله تعالى بعد ما علم صحة ما أتى به موسى، وإنما أوهم أنه سحر. ثم أدبر يسعى، قيل: أدبر حقيقة، أي قام من مكانه فارا

---

(١) سورة فاطر: ٣٥/ ٢٨.

(٢) سورة النمل: ٢٧/ ١٢.." [1]

"قال ابن عطية: وهذا غير بين، وإنما كان من الخواطر تأويلا تأوله أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يثبت تكليفا.

والله على كل شيء قدير. لما ذكر المغفرة والتعذيب لمن يشاء، عقب ذلك بذكر القدرة، إذ ما ذكر جزء من متعلقات القدرة.

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون سبب نزولها أنه لما نزل: وإن تبدوا ما في أنفسكم الآية أشفقوا منها، ثم تقرر الأمر على أن قالوا سمعنا وأطعنا «١» فرجعوا إلى التضرع والاستكانة، فمدحهم الله وأثنى عليهم، وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم، وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم، فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من: ذمهم وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والجلاء، إذ قالوا: سمعنا وعصينا «٢» وهذه ثمرة العصيان **والتمرد** على الله، أعاذنا الله تعالى من نقمه. انتهى هذا، وهو كلام ابن عطية.

وظهر بسبب النزول مناسبة هذه الآية لما قبلها، ولما كان مفتتح هذه السورة بذكر الكتاب المنزل، وأنه هدى للمتقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب، وبما أنزل إلى الرسول وإلى من قبله، كان مختتمها أيضا موافقا لمفتتحها.

وقد تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء، وسأبين ذلك إن شاء الله في آخر كل سورة سورة، وذلك من أبدع الفصاحة، حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة للعرب في كثير من نظمهم، يكون أحدهم آخذا في شيء، ثم يستطرد منه إلى شيء آخر، ثم إلى آخر، هكذا طويلا، ثم يعود إلى ما كان آخذا فيه أولا. ومن أمعن النظر في ذلك سهل عليه مناسبة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣٩٨/١٠

ما يظهر ببادئ النظم أنه لا مناسبة له، فبين تعالى في آخر هذه السورة أن أولئك المؤمنين هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال المروزي: آمن الرسول

قال الحسن، ومجاهد، وابن سيرين، وابن عباس في رواية: أن هاتين الآيتين لم ينزل بهما جبريل، وسمعهما صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج بلا واسطة، والبقرة مدنية إلا هاتين الآيتين.

---

(١) سورة البقرة: ٢/ ٢٨٥ والنساء: ٤/ ٤٦.

(٢) سورة البقرة: ٢/ ٩٣.." [١]

"سعيد، ومن أسلم من اليهود. وكالنجاشي، وبحيرا، ومن أسلم من النصارى إذ كانوا مصدقين رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبعده. وهذا يدل على أن المراد بقوله: ولو آمن أهل الكتاب «١» الخصوص، أي باقي أهل الكتاب إذ كانت طائفة منهم قد حصل لها الإيمان. وقيل: المراد باسم الفاعل هنا الاستقبال. أي منهم من يؤمن، فعلى هذا يكون المراد بأهل الكتاب العموم، ويكون قوله: منهم المؤمنون إخبارا بمغيب وأنه سيقع من بعضهم الإيمان، ولا يستمرون كلهم على الكفر. وأخبر تعالى أن أكثرهم الفاسقون، فدل على أن المؤمنين منهم قليل. والألف واللام في المؤمنون وفي الفاسقون يدل على المبالغة والكمال في الوصفين، وذلك ظاهر لأن من آمن بكتابه وبالقرآن فهو كامل في إيمانه، ومن كذب بكتابه إذ لم يتبع ما تضمنه من الإيمان برسول الله، وكذب بالقرآن فهو أيضا كامل في فسقه **متمرد** في كفره.

لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون هاتان الجملتان تضمنتا الإخبار بمغيبين مستقبلين وهو: إن ضررهم إياكم لا يكون إلا أذى، أي شيئا تتأذون به، لا ضررا يكون فيه غلبة واستئصال. ولذلك إن قاتلوكم خذلوا ونصرتم، وكلا هذين الأمرين وقع لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما ضرهم أحد من أهل الكتاب ضررا يبالون به، ولا قصدوا جهة كافر إلا كان لهم النصر عليهم والغلبة لهم.

والظاهر أن قوله: إلا أذى استثناء متصل، وهو استثناء مفرغ من المصدر المحذوف التقدير: لن يضروكم ضررا إلا ضررا لا نكاية فيه، ولا إجحاف لكم. وقال الفراء والزجاج والطبري وغيرهم: هو استثناء منقطع، والتقدير: لن يضروكم لكن أذى باللسان، فقيل: هو سماع كلمة الكفر. وقيل: هو بهتهم وتحريفهم. وقيل: موعد وطعن. وقيل: كذب يتقولونه على الله قاله: الحسن، وقتادة.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٧٥٥

ودلت هذه الجملة على ترغيب المؤمنين في تصلبهم في دينهم وتثبيتهم عليه، وعلى تحقير شأن الكفار، إذ صاروا ليس لهم من ضرر المسلمين شيء إلا ما يصلون إليه من إسماع كلمة بسوء.
وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار هذه مبالغة في عدم مكافحة الكفار للمؤمنين إذا أرادوا قتالهم، بل بنفس ما تقع المقابلة ولوا الأدبار، فليسوا ممن يغلب ويقتل وهو مقبل على قرنه

(١) سورة آل عمران: ٣/ ١١٠.." [١]

"وكفى بالله وليا «١» وكفى بالله نصيرا «٢» جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض قاله الزمخشري، وبدأ به. ويضعفه أن هذه جمل ثلاث، وإذا كان الفارسي قد منع أن يعترض بجملتين، فأحرى أن يمنع أن يعترض بثلاث.
يحرفون الكلم أي: كلم التوراة، وهو قول الجمهور. أو كلم القرآن وهو قول طائفة، أو كلم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو
قول ابن عباس. قال: كان اليهود يأتون النبي صلى الله عليه وسلم ويسألونه عن الأمر فيخبرهم، ويرى أنهم يأخذون بقوله، فإذا انصرفوا من عنده حرفوا الكلام.
وكذا قال مكي: إنه كلام النبي صلى الله عليه وسلم. فتحريف كلم التوراة بتغيير اللفظ، وهو الأقل لتحريفهم أسمر ربعة في صفته عليه السلام بآدم طوال مكانه، وتحريفهم الرجم بالحديد له، وبتغيير التأويل، وهو الأكثر قاله الطبري. وكانوا يتأولون التوراة بغير التأويل الذي تقتضيه معاني ألفاظها الأمور يختارونها ويتوصلون بها إلى أموال سفلتهم، وأن التحريف في كلم القرآن أو كلم الرسول فلا يكون إلا في التأويل.
وقرىء: يحرفون الكلم بكسر الكاف وسكون اللام، جمع كلمة تخفيف كلمة. وقرأ النخعي وأبو رجاء: يحرفون الكلام، وجاء هنا عن مواضعه. وفي المائدة جاء: عن مواضعه «٣» وجاء من بعد مواضعه «٤»
.
قال الزمخشري: أما عن مواضعه فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. وأما من بعد مواضعه:
فالمعنى أنه كانت له مواضع هو قمن بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره، والمعنيان متقاربان انتهى. والذي يظهر أنهما سياقان، فحيث وصفوا بشدة **التمرد** والطغيان،

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣/٣٠٣

وإظهار العداوة، واشترائهم الضلالة، ونقض الميثاق، جاء يحرفون الكلم عن مواضعه. ألا ترى إلى قوله: ويقولون سمعنا وعصينا «٥» وقوله: فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه «٦» فكأنهم لم يتركوا الكلم من التحريف عن ما يراد بها، ولم تستقر في مواضعها، فيكون التحريف بعد استقرارها، بل بادروا إلى تحريفها بأول وهلة. وحيث

---

(١) سورة النساء: ٤/ ٤٥.

(٢) سورة النساء: ٤/ ٤٥.

(٣) سورة المائدة: ٥/ ١٣.

(٤) سورة المائدة: ٥/ ٤١.

(٥) سورة النساء: ٤/ ٤٦.

(٦) سورة المائدة: ٥/ ١٣.." [١]

"وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه: فائدة ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم بأنهم بتحاكمهم إلى الطاغوت خالفوا حكم الله، وأساءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فوجب عليهم أن يعتذروا ويطلبوا من الرسول الاستغفار، أو لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم **التمرد**، فإذا تابوا وجب أن يظهر منهم ما يزيد **التمرد** بأن يذهبوا إلى الرسول ويطلبوا منه الاستغفار، أو إذا تابوا بالتوبة أتوا بها على وجه من الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم صارت مستحقة. والآية تدل على قبول توبة التائب لأنه قال بعدها: لوجدوا الله «١» وهذا لا ينطبق على ذلك الكلام إلا إذا كان المراد من قوله: توابا رحيما «٢» قبول توبته انتهى.

وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبره وحثا من ترابه على رأسه ثم قال:

يا خيْر من دفنت في الترب أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم قال: قد قلت: يا رسول الله فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك الآية، وقد ظلمت نفسي وجئت أستغفر الله ذنبي، فاستغفر لي من ربي،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣/٦٦١

فنودي من القبر أنه قد غفر لك.

فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم قال مجاهد وغيره: نزلت فيمن أراد التحاكم إلى الطاغوت. ورجحه الطبري لأنه أشبه بنسف الآيات.

وقيل: في شأن الرجل الذي خاصم الزبير في السقي بماء الحرة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» فغضب وقال: «أن كان ابن عمتك، فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم واستوعب للزبير حقه فقال: احبس يا زبير الماء حتى يبلغ الجدر، ثم أرسل الماء» .

والرجل هو من الأنصار بدري. وقيل: هو حاطب بن أبي بلتعة. وقيل: نزلت نافية لإيمان الرجل الذي قتله عمر، لكونه رد حكم النبي صلى الله عليه وسلم، ومقيمة عذر عمر في قتله، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما كنت أظن أن عمر يجترىء على قتل رجل مؤمن» .

وأقسم بإضافة الرب إلى كاف الخطاب تعظيما للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو التفات راجع إلى قوله: جاؤك «٣» ولا في قوله:

فلا. قال الطبري: هي رد على ما تقدم تقديره: فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما

---

(١) سورة النساء: ٤/ ٦٤.

(٢) سورة النساء: ٤/ ٦٤.

(٣) سورة النساء: ٤/ ٦٤.." [١]

"وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه تقدم تفسير هذه الجملة الشرطية وجوابها في النساء، إلا أن في هذه الجملة زيادة منه وهي مرادة في تلك التي في النساء. وفي لفظة: منه دلالة على إيصال شيء من الصعيد إلى الوجه واليدين، فلا يجوز التيمم بما لا يعلق باليد كالحجر والخشب والرمل العاري عن أن يعلق شيء منه باليد فيصل إلى الوجه، وهذا مذهب الشافعي. وقال أبو حنيفة، ومالك: إذا ضرب الأرض ولم يعلق بيده شيء من الغبار ومسح بها أجزأه. وظاهر الأمر بالتيمم للصعيد، والأمر بالمسح، أنه لو يممه غيره، أو وقف في مهب ريح فسفت على وجهه ويديه وأمر يده عليه، أو لم يمر، أو ضرب ثوبا فارتفع منه غبار إلى وجهه ويديه، أن ذلك لا يجزئه. وفي كل من المسائل الثلاث خلاف.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣/٦٩٤

ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج أي من تضيىق، بل رخص لكم في تيمم الصعيد عند فقد الماء. والإرادة صفة ذات، وجاءت بلفظ المضارع مراعاة للحوادث التي تظهر عنها، فإنها تجيء مؤتنفة من نفي الحرج، ووجود التطهير، وإتمام النعمة. وتقدم الكلام على مثل اللام في ليجعل في قوله: يريد الله ليبين لكم «١» فأغنى عن إعادته.

ومن زعم أن مفعول يريد محذوف تتعلق به اللام، جعل زيادة في الواجب للنفي الذي في صدر الكلام، وإن لم يكن النفي واقعا على فعل الحرج، ويجري مجرى هذه الجملة ما جاء

في الحديث «دين الله يسر، وبعثت بالحنيفية السمحة»

وجاء لفظ الدين بالعموم، والمقصود به الذي ذكر بقرب وهو التيمم.

ولكن يريد ليطهركم أي بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء.

وفي الحديث: «التراب طهور المسلم ولو إلى عشر حجج» .

وقال الجمهور: المقصود بهذا التطهير إزالة النجاسة الحكمية الناشئة عن خروج الحدث. وقيل: المعنى ليطهركم من أدناس الخطايا بالوضوء والتيمم، كما جاء

في مسلم: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء»

إلى آخر الحديث. وقيل: المعنى ليطهركم عن **التمرد** عن الطاعة. وقرأ ابن المسيب: ليطهركم بإسكان الطاء وتخفيف الهاء.

وليتم نعمته عليكم أي وليتم برخصه العامة عليكم بعزائمه. وقيل: الكلام متعلق

---

(١) سورة النساء: ٤/ ٢٦.." (١)

"وستون. وقال الضحاك: أربعمائة سنة وبضع وثلاثون سنة. وقيل: أربعمائة ونيف وستون.

وذكر محمد بن سعد في كتاب الطبقات له عن ابن عباس: أن كان بين ميلاد عيسى والنبي عليهما الصلاة والسلام خمسمائة سنة وتسع وستون سنة، بعث في أولها ثلاثة أنبياء. وهو قوله تعالى: إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث «١» وهو شمعون وكان من الحواريين. وقال الكلبي مثل قول ابن عباس إلا أنه قال: بينهما أربعة أنبياء، واحد من العرب من بني عبس وهو خالد بن سنان الذي

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/١٩٤

قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «ضيعه قومه» .

وروي عن الكلبي أيضا خمسمائة وأربعون. وقال وهب: ستمائة سنة وعشرون. وقيل: سبعمائة سنة.

وقال مقاتل: ستمائة سنة، وروي هذا عن قتادة والضحاك. وذكر ابن عطية أن هذا روي في الصحيح. فإن كانا كما ذكر وجب أن لا يعدل عنه لسواه. وهذه التواريخ نقلها المفسرون من كتب اليونان وغيرهم ممن لا يتحرى النقل. وذكر ابن سعد في الطبقات عن ابن عباس والزمخشري عن الكلبي قالا: كان بين موسى وعيسى ألف سنة وسبعمائة سنة، وألف نبي، زاد ابن عباس من بني إسرائيل دون من أرسل من غيرهم، ولم يكن بينهما فترة. والمعنى:

الامتنان عليهم بإرسال الرسل على حين انطمست آثار الوحي، وهم أحوج ما يكونون إليه ليعدوه أعظم نعمة من الله وفتح باب إلى الرحمة، ويلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غفلتهم.

وأن تقولوا: مفعول من أجله فقده البصريون: كراهة أو حذار أن تقولوا. وقدره الفراء: لئلا تقولوا. ويعني يوم القيامة على سبيل الاحتجاج.

فقد جاءكم بشير ونذير قيل: وفي الكلام حذف أي: لا تعتدوا فقد جاءكم بشير، أي لمن أطاع بالثواب، ونذير لمن عصى بالعقاب. وفي هذا رد على اليهود حيث قالوا: ما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بعده.

والله على كل شيء قدير هذا عام فقيل على كل شيء من الهداية والضلال.

وقيل: من البعثة وإمساكها. والأولى العموم فيندرج فيه ما ذكروا.

وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمت الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى بين **تمرد** أسلاف اليهود على موسى، وعصيانهم إياهم، مع تذكيره إياهم نعم الله وتعداده لما هو العظيم منها، وأن هؤلاء الذين هم بحضرة الرسول هم جارون معكم مجرى أسلافهم مع

---

(١) سورة يس: ٣٦/ ١٤.." [١]

"إلى أنه مرفوع على فعل أمر محذوف يمكن رفعه الظاهر، فيكون من عطف الجمل التقدير: فاذهب وليذهب ربك. وذهب بعض الناس إلى أن الواو واو الحال، وربك مرفوع بالابتداء، والخبر محذوف. أو

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢١٤/٤

تكون الجملة دعاء والتقدير فيهما: وربك يعينك، وهذا التأويل فاسد بقوله فقاتلا.
إنا هاهنا قاعدون هذا دليل على أنهم خارت طباعهم فلم يقدروا على النهوض معه للقتال، ولا على الرجوع من حيث جاءوا، بل أقاموا حيث كانت المحاورة بين موسى وبينهم. وها من قوله هاهنا للتنبيه، وهنا ظرف مكان للقريب، والعامل فيه قاعدون. ويجوز في مثل هذا التركيب أن يكون الخبر الظرف وما بعده حال فينتصب، وأن يكون الخبر الاسم والظرف معمول له. وهو أفصح.
قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي لما عصوا أمر الله **وتمردوا** على موسى وسمع منهم ما سمع من كلمة الكفر وسوء الأدب مع الله ولم يبق معه من يثق به إلا هارون قال ذلك، وهذا من الكلام المنطوي صاحبه على الالتجاء إلى الله والشكوى إليه، ورقة القلب التي تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة ونحوه قول يعقوب: نما أشكوا بثي وحزني إلى الله

«١»

وعن علي أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال المنافقين فما أجابه إلا رجلان، فتنفس الصعداء ودعا لهما وقال: أين تتبعان مما أريد؟
والظاهر أن وأخي معطوف على نفسي، ويحتمل أن يكون وأخي مرفوعا بالابتداء، والخبر محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: وأخي لا يملك إلا نفسه، فيكون قد عطف جملة غير مؤكدة على جملة مؤكدة، أو منصوبا عطفا على اسم إن أي: وإن أخي لا يملك إلا نفسه، والخبر محذوف، ويكون قد عطف الاسم والخبر على الخبر نحو: إن زيدا قائم وعمرا شاخص، أي: وإن عمرا شاخص. وأجاز ابن عطية والزمخشري أن يكون وأخي مرفوعا عطفا على الضمير المستكن في أملك، وأجاز ذلك للفصل بينهما بالمفعول المحصور. ويلزم من ذلك أن موسى وهارون عليهما السلام لا يملكان إلا نفس موسى فقط، وليس المعنى على ذلك، بل الظاهر أن موسى يملك أمر نفسه وأمر أخيه فقط. وجوز أيضا أن يكون مجرورا معطوفا على ياء المتكلم في نفسي، وهو ضعيف على رأي البصريين. وكأنه في هذا الحصر لم يثق بالرجلين اللذين قالا: ادخلوا عليهم الباب، ولم يطمئن إلى ثباتهما لما عاين من أحوال

---

(١) سورة يوسف: ١٢/ ٨٦.." [(١)]

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٢٢١

"غراب لاغتراب من النوى ... وبالباذين من حبيب تعاشره

البحث في الأرض نبش التراب وإثارته، ومنه سميت براءة بحوث. وفي المثل: لا تكن كالباحث عن الشفرة. السوأة: العورة. العجز: عدم الإطاقة، وماضيه على فعل بفتح العين، وهي اللغة الفاشية. وحكى الكسائي فيه: فعل بكسر العين. الندم: التحسر يقال منه: ندم يندم. الصلب معروف وهو إصابة صلبه بجذع، أو حائط كما تقول: عانه أي أصاب عينه، وكيده أصاب كيده. الخلاف: المخالفة، ويقال: فرس به شكال من خلاف إذا كان في يده. نفاه: طرده فانتفى، وقد لا يتعدى نفى. قال القطامي: فأصبح جاراكم قتيلا ونافيا. أي منفيا.

الوسيلة الواسلة ما يتقرب منه. يقال: وسله وتوسل إليه، واستعيرت الوسيلة لما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات. وقال لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... ألا كل ذي لب إلى الله واسل

وأنشد الطبري:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصابي بيننا والوسائل

السارق اسم فاعل من سرق يسرق سرقا والسرق والسرقة الاسم كذا قال بعضهم وربما قالوا سرقة مالا. قال ابن عرفة السارق عند العرب من جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له. واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر **تمرد** بني إسرائيل وعصيانهم، أمر الله تعالى في النهوض لقتال الجبارين، ذكر قصة ابني آدم وعصيان قابيل أمر الله، وأنهم اقتفوا في العصيان أول عاص لله تعالى، وأنهم انتهوا في خور الطبيعة وهلع النفوس والجبن والفزع إلى غاية بحيث قالوا لنبيهم الذي ظهرت على يديه خوارق عظيمة، وقد أخبرهم أن الله كتب لهم الأرض المقدسة: فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون «١» وانتهى قابيل إلى طرف نقيض منهم من الجسارة والعتو وقوة النفس وعدم المبالاة بأن أقدم على أعظم الأمور وأكبر المعاصي بعد الشرك وهو قتل النفس التي حرم الله قتلها، بحيث كان

---

(١) سورة المائدة: ٥/ ٢٤.." [1]

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢٢٦/٤

"النصارى. وكأنه خصص كل عام منها بما تلاه، إذ قبل الأولى: فإن جاؤك فاحكم بينهم «١» وو إن حكمت فاحكم «٢» وكيف يحكمونك «٣» ويحكم بها النبيون «٤» وقبل الثانية: وكتبنا عليهم فيها «٥» وقبل الثالثة: وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه «٦» الآية. وقال الزمخشري: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به، فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون، وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة **وتمردوا** بأن حكموا بغيرها انتهى. وقال السدي: من خالف حكم الله وتركه عامدا وتجاوزه وهو يعلم، فهو من الكافرين حقا، ويحمل هذا على الجحود، فهو الكفر ضد الإيمان كما قال: ابن عباس. واحتجت الخوارج بهذه الآية على أن كل من عصى الله تعالى فهو كافر، وقالوا: هي نص في كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله فوجب أن يكون كافرا. وأجيبوا: بأنها نزلت في اليهود، فتكون مختصة بهم. وضعف بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومنهم من قال: تقديره ومن لم يحكم بما أنزل الله من هؤلاء الذين سبق ذكرهم قبل، وهذا ضعيف، لأن من شرط وهي عام، وزيادة ما قدر زيادة في النقص، وهو غير جائز. وقيل: المراد كفر النعمة، وضعف بأن الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر في الدين. وقال ابن الأنباري: فعل فعلا يضاهي أفعال الكفار، وضعف بأنه عدول عن الظاهر. وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني: ما أنزل صيغة عموم، فالمعنى: من أتى بضد حكم الله في كل ما أنزل الله، والفاسق لم يأت بضد حكم الله إلا في القليل وهو العمل، أما في الاعتقاد والإقرار فهو موافق. وضعف بأنه لو كان كذلك لم يتناول هذا الوعيد اليهود بسبب مخالفتهم حكم الله في واقعة الرجم، فدل على سقوط هذا. وقال عكرمة: إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أما من عرف أنه حكم الله وأقر بلسانه أنه حكم الله، إلا أنه أتى بما يضاد، فهو حاكم بما أنزل الله، لكنه تارك له، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية.

وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى بين في التوراة أن

---

(١) سورة المائدة: ٥/ ٤٢.

(٢) سورة المائدة: ٥/ ٤٢.

(٣) سورة المائدة: ٥/ ٤٣.

(٤) سورة المائدة: ٥/ ٤٤.

(٥) سورة المائدة: ٥/ ٤٥.

(٦) سورة المائدة: ٥/ ٤٦.." (١)

"تفسيرية، وأبعد ذلك من أجل الواو، ولا يصح ذلك بأن يقدر قبل فعل الأمر فعلا محذوفا فيه معنى القول أي: وأمرناك أن احكم، لأنه يلزم من ذلك حذف الجملة المفسرة بأن وما بعدها، وذلك لا يحفظ من كلام العرب. وقرئ بضم النون من: وأن احكم، إتباعا لحركة الكاف، وبكسرها على أصل التقاء الساكنين. والضمير في بينهم عائد على اليهود. وقيل:

على جميع المتحاكمين.

ولا تتبع أهواءهم تقدم شرح هذه الجملة.

واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك أي يستزلوك. وحذره عن ذلك، وإن كان مأيوسا من فتنتهم إياه لقطع أطماعهم، وقال: عن بعض، لأن الذي سألوه هو أمر جزئي، سألوه أن يقضي لهم فيه على خصومهم فأبى منه. وموضع أن يفتنوك نصب على البدل، ويكون مفعولا من أجله.

فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم أي فإن تولوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره. ومعنى: أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، أن يعذبهم ببعض آثامهم.

وأبهم بعضا هنا ويعني به- والله أعلم- التولي عن حكم الله وإرادة خلافه، فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك، وأراد أنهم ذوو ذنوب جمة كثيرة لا العدد، وهذا الذنب مع عظمه وهذا الإبهام فيه تعظيم التولي، وفرط إسرافهم في ارتكابه، ونظيره قول لبيد:

أو يرتبط بعض النفوس حمامها أراد نفسه وقصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام، كأنه قال: نفسا كبيرة أو نفسا أي نفس، وهذا الوعد بالمصيبة قد أنجزه له تعالى بقصة بني قينقاع وقصة قريظة والنضير وإجلاء عمر رضي الله عنه أهل خيبر وفدك وغيرهم. قال ابن عطية: وخصص إصابتهم ببعض الذنوب، لأن هذا الوعيد إنما هو في الدنيا وذنوبهم فيها نوعان: نوع يخصهم كشرب الخمر وزناهم ورشاهم، ونوع يتعدى إلى النبي والمؤمنين كممالأتهم للكفار، وأقوالهم في الدين، فهذا النوع هو الذي توعدهم الله به في الدنيا، وإنما يعذبون بكل الذنوب في الآخرة. وقال ابن عطية أيضا: فإن تولوا قبله محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر تقديره: لا تتبع واحذر، فإن حكموك مع ذلك واستقاموا فنعما ذلك، وإن تولوا فاعلم. ويحسن أن

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٢٧٠

يقدر هذا المحذوف المعادل لقوله: لفاسقون انتهى. ولا يحتاج إلى تقدير هذا.

وإن كثيرا من الناس لفاسقون أي **متمردون** مبالغون في الخروج عن طاعة الله.." [١]

"ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

والخطاب قيل: للرسول، وهو بمعنى ما النافية. وقرأ الجمهور: تنقمون بكسر القاف، والماضي نقم بفتحها، وهي التي ذكرها ثعلب في الفصيح. ونقم بالكسر، ينقم بالفتح لغة حكاها الكسائي وغيره. وقرأ بها أبو حيوة والنخعي وابن أبي عبلة وأبو البر هشيم، وفسر تنقمون بتسخطون وتتكرهون وتنكرون وتعيبون وكلها متقاربة. وإلا أن آمنا استثناء فرغ له الفاعل. وقرأ الجمهور: أنزل مبنيا للفاعل، وذلك في اللفظين، وقرأهما أبو نهيك: مبنيين للفاعل، وقرأ نعيم بن ميسرة: وإن أكثركم فاسقون بكسر الهمزة، وهو واضح المعنى، أمره تعالى أن يقول لهم هاتين الجملتين، وتضمنت الإخبار بفسق أكثرهم **وتمردهم**. وقرأ الجمهور: بفتح همزة أن وخرج ذلك على أنها في موضع رفع، وفي موضع نصب، وفي موضع جر. فالرفع على الابتداء. وقدر الزمخشري الخبر مؤخرا محذوفا أي:

وفسق أكثركم ثابت معلوم عندكم، لأنكم علمتم أنا على الحق، وأنكم على الباطل، إلا أن حب الرياسة والرشا يمنعكم من الاعتراف. ولا ينبغي أن يقدم الخبر إلا مقدما أي:

ومعلوم فسق أكثركم، لأن الأصح أن لا يبدأ بها متقدمة إلا بعد أما فقط. والنصب من وجوه: أحدها: أن يكون معطوفا على أن آمنا أي: ما تنقمون منا إلا إيماننا وفسق أكثركم، فيدخل الفسق فيما نقموه، وهذا قول أكثر المتأولين. ولا يتجه معناه لأنهم لا يعتقدون فسق أكثرهم، فكيف ينقمونه، لكنه يحمل على أن المعنى ما تنقمون منا إلا هذا المجموع من أنا مؤمنون وأكثركم فاسقون، وإن كانوا لا يسلمون أن أكثرهم فاسقون، كما تقول: ما تنقم مني إلا أني صدقت وأنت كذبت، وما كرهت مني إلا أني محبب إلى الناس وأنت مبغض، وإن كان لا يعترف أنه كاذب ولا أنه مبغض، وكأنه قيل: ما تنقمون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في الإسلام وأنتم خارجون. والوجه الثاني: أن يكون معطوفا على أن آمنا، إلا أنه على حذف مضاف تقديره: واعتقادنا فيكم أن أكثركم فاسقون، وهذا معنى واضح. ويكون ذلك داخلا في ما تنقمون حقيقة. الثالث: أن تكون الواو واو مع، فتكون في موضع نصب مفعولا معه التقدير: وفسق أكثرهم أي: تنقمون ذلك مع فسق أكثركم والمعنى: لا يحسن أن تنقموا مع وجود فسق أكثركم كما تقول: تسيء إلي مع أني أحسنت إليك. الرابع: أن تكون في موضع نصب مفعول بفعل مقدر يدل عليه، هل تنقمون تقديره: ولا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٢٨٦

تنقمون أن أكثركم فاسقون. والجر على أنه معطوف على قوله: بما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وبأن أكثركم فاسقون، والجر على أنه معطوف على علة محذوفة التقدير: ما تنقمون منا إلا." (١)

"رزق الجنة، ومن تحت أرجلهم من رزق الدنيا إذ هو من نبات الأرض. وقيل: من فوقهم كثرة الأشجار المثمرة، ومن تحت أرجلهم الزرع المغلة. وقيل: من فوقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل منها من رؤوس الشجر، ويلتقطون ما تساقط منها على الأرض، وتحت أرجلهم. وقال تاج القراء: من فوقهم ما يأتيهم من كبرائهم وملوكهم، ومن تحت أرجلهم ما يأتيهم من سفلتهم وعوامهم، وعبر بالأكل عن الأخذ، لأنه أجل منافعه وأبلغ ما يحتاج إليه في ديمومة الحياة.

منهم أمة مقتصدة الضمير في منهم يعود على أهل الكتاب. والأمة هنا يراد بها الجماعة القليلة للمقابلة لها بقوله: وكثير منهم. والاقتصاد من القصد وهو الاعتدال، وهو افتعل بمعنى اعتمل واكتسب أي: كانت أولا جائزة ثم اقتصدت. قيل: هم مؤمنو الفريقين عبد الله بن سلام وأصحابه، وثمانية وأربعون من النصارى. واقتصادهم هو الإيمان بالله تعالى. وقال مجاهد: المقتصدة مسلمة أهل الكتاب قديما وحديثا، ونحوه قول ابن زيد:

هم أهل طاعة الله من أهل الكتاب. وذكر الزجاج وغيره: أنها الطوائف التي لم تناصب الأنبياء مناصبة المتمردين المجاهدين. وقال الزمخشري: مقتصدة حالها أمم في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقال الطبري: من بني إسرائيل من يقتصد في عيسى فيقول: هو عبد الله ورسوله وروح منه، والأكثر منهم غلافية فقال بعضهم: هو الإله، وعلى هذا مشى الروم ومن دخل بآخرة في ملة عيسى. وقال بعضهم وهو الأكثر من بني إسرائيل: هو آدمي كغيره لغير رشده، فتخلص في الاقتصاد أهو في حق عيسى؟ أو في المناصبة؟ أو في الإيمان؟

فإن كان في المناصبة فهل هو بالنسبة إلى الرسول وحده أم بالنسبة إلى الأنبياء؟ قولان. وإن كان في الإيمان فهل هو في إيمان من آمن بالرسول من الفريقين أو من آمن قديما وحديثا؟

قولان.

وكثير منهم ساء ما يعملون هذا تنويع في التفصيل. فالجملة الأولى جاءت منهم أمة مقتصدة، جاء الخبر الجار والمجرور، والخبر الجملة من قوله: ساء ما يعملون، وبين التركيبين تفاوت غريب من حيث المعنى. وذلك أن الاقتصاد جعل وصفا، والوصف ألزم للموصوف من الخبر، فأتى بالوصف اللازم في الطائفة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٣٠٤

الممدوحة، وأخبر عنها بقوله:

منهم، والخبر ليس من شأنه اللزوم ولا سيما هنا، فأخبر عنهم بأنهم من أهل الكتاب في الأصل، ثم قد تزول هذه النسبة بالإسلام فيكون التعبير عنهم والإخبار بأنهم منهم، باعتبار الحالة الماضية. وأما في الجملة الثانية فإنهم منهم حقيقة لأنهم كفار، فجاء الوصف." (١)

"بالقرآن من يرجى إيمانه. وروى أبو صالح عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في الموالي منهم بلال وصهيب وخباب وعمار ومهجع وسلمان وعامر بن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة، وظاهر قوله: الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم عموم من خاف الحشر وآمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني فلا يتخصص بالمسلمين المقرين بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل فينذرهم بما أوحي إليه لعلهم يتقون، أي يدخلون في زمرة أهل التقوى ولا بأهل الكتاب ولا بناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون **المتمردين** منهم ويخافون باق على حقيقته أي يخافون ما يترتب على الحشر من مؤاخذتهم بذنوبهم، وأما الحشر فمتحقق. وقال الطبري: يخافون هنا يعلمون ومعنى إلى ربهم أي إلى جزاء ربهم أي موعوده وقد تعلق بهذه الآية المجسمة بأن الله في حيز ومكان مختص وجهة معينة لأن كلمة إلى لانتهاء الغاية.

ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع، قال الزمخشري: في موضع الحال من يحشروا بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم ولا بد من هذه الحال، لأن كلا محشور فالخوف إنما هو الحشر على هذه الحال. وقال ابن عطية: إن جعلناه داخلا في الخوف كان في موضع الحال أي يخافون أن يحشروا في حال من لا ولي له ولا شفيع فهي مختصة بالمؤمنين المسلمين لأن اليهود والنصارى يزعمون أن لهم شفعاء وأنهم أبناء الله ونحو هذا من الأباطيل وإن جعلناه إخبارا من الله عن صفة الحال يومئذ فهي عامة للمسلمين وأهل الكتاب.

لعلهم يتقون ترجئة لحصول تقواهم إذا حصل الإنذار.

ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه قال سعد بن أبي وقاص: نزلت فينا ستة في وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال قالت قريش: إنا لا نرضى أن نكون لهؤلاء تبعا فاطردهم عنك فنزلت.

وقال خباب بن الأرت: فينا نزلت كنا ضعفاء عند النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا بالغداة والعشي ما ينفعنا،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٣٢٠

فقال الأقرع بن حابس وعيينة بن حصين: إنا من أشراف قومنا وإنا نكره أن يرونا معهم فاطردهم إذا جالسناك فنزلت، فأتيناه وهو يقول: سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته وهذا فيه بعد، لأن الآية مكية وهؤلاء الأشراف لم ينذروا إلا بالمدينة.." (١)

"حال إلا في حال مشيئة الله ومن ذهب إلى أنه استثناء منقطع كالكرماني وأبي البقاء والحوفي. فقوله فيه بعد إذ هو ظاهر الاتصال أو عذق إيمانهم بمشيئة الله دليل على ما يذهب إليه أهل السنة من أن إيمان العبد واقع بمشيئة الله، وحمل ذلك المعتزلة على مشيئة الإلجاء والقهر. ولذلك قال الزمخشري: مشيئة إكراه واضطرار، والظاهر أن الضمير في أكثرهم عائد على ما عادت عليه الضمائر قيل من الكفار أي يجهلون الحق، أو يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الآيات بعد أن رأوا آية واحدة، أو يجهلون أن كلا من الإيمان والكفر هو بمشيئة الله وقدره.

وقال الزمخشري يجهلون فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات. قال أو لكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.

وقال غيره من المعتزلة يجهلون أنهم يبقون كفارا عند ظهور الآيات التي اقترحوها.

وقال الجبائي إلا أن يشاء الله يدل على حدوث مشيئة الله إذ لو كانت قديمة لم يجز أن يعلق عليها الحادث لأنها شرط ويلزم من حصول المشروط حصول الشرط والحسن دل على حدوث الإيمان فوجب كون الشرط حادثا وهو المشيئة.

وأجاب أبو عبد الله الرازي بأن المشيئة وإن كانت قديمة تعلقها بإحداث ذلك المحدث في الحالة إضافة حادثة انتهى. وهذه الآية مؤيسة من إيمان هؤلاء الذين اقترحوا الآيات إلا من شاء الله منهم. ولذلك جاء قوله: إلا أن يشاء الله وهم من ختم له بالسعادة فآمن منهم.

وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا المعنى مثل ما جعل هؤلاء الكفار المقترحين الآيات وغيرهم أعداء لك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء شياطين الإنس والجن أي **متمردي** الصنفين يوحي يلقي في خفية بعضهم إلى بعض، أي بعض الصنف الجني إلى بعض الصنف الإنسي، أو يوحي شياطين الجن إلى شياطين الإنس زخرف القول، أي محسنه ومزينه، وثمرة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/ ٥٢٠

هذا الجعل الامتحان فيظهر الصبر على ما منوا به ممن يعاديهم فيعظم الثواب والأجر وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأس بمن تقدمه من الأنبياء وأنك لست منفردا بعداوة من عاصرك." [١]

"بل هذه سنة من قبلك من الأنبياء. وعدو كما قلنا قبل في معنى أعداء. وقال تعالى: وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا «١» . وقال الشاعر:

إذ أنا لم أنفع صديقي بوده ... فإن عدوي لن يضرهم بغضي

وأعرب الحوفي والزمخشري وابن عطية وأبو البقاء هنا كإعرابهم وجعلوا لله شركاء الجن وجوزوا في شياطين البدلية من عدوا، كما جوزوا هناك بدلية الجن من شركاء وقد رددناه عليهم. والظاهر أن قوله شياطين الإنس والجن هو من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي الإنس والجن الشياطين فيلزم أن يكون من الإنس شياطين ومن الجن شياطين، والشيطان هو **المتمرد** من الصنفين كما شرحناه. وهذا قول قتادة ومجاهد والحسن، وكذا

فهم أبوذر من قول الرسول له: «هل تعوذت من شياطين الجن والإنس» قلت: يا رسول الله وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم وهم شر من شياطين الجن» .

وقال مالك بن دينار شيطان الإنس علي أشد من شيطان الجن لأني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيان الإنس يجيئني ويجرني إلى المعاصي عيانا.

وقال عطاء: أما أعداء النبي صلى الله عليه وسلم من شياطين الإنس: فالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأبو جهل بن هشام والعاصي بن عمرو، وزمعة بن الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد الأسد وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وعتبة بن أبي معيط والوليد بن عتبة وأبي وأمية ابنا خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وعتبة بن عبد العزى، ومعتب بن عبد العزى.

وفي الحديث: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قيل: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «ولا أنا إلا أن الله عافاني وأعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» .

وقيل: الإضافة ليست من باب إضافة الصفة للموصوف بل هي من باب غلام زيد أي شياطين الإنس والجن، أي **متمردين** مغوين لهم. وعلى هذا فسره عكرمة والضحاك والسدي والكلبي قالوا: ليس من الإنس شياطين والمعنى شياطين الإنس التي مع الإنس، وشياطين الجن التي مع الجن، قسم إبليس جنده فريقا إلى الإنس وفريقا إلى الجن، يتلاقون فيأمر بعض بعضا أن يضل صاحبه بما أضل هو به صاحبه، ورجحت

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٦٢٣

هذه الإضافة بأن أصل الإضافة المغايرة بين المضاف والمضاف إليه، ورجحت الإضافة السابقة بأن

---

(١) سورة الكهف: ١٨/ ٥٠.." (١)

"رسالاته وليس ظرفا لأنه يصير التقدير يعلم في هذا المكان كذا وليس المعنى عليه، وكذا قدره ابن عطية. وقال التبريزي: حيث هنا اسم لا ظرف انتصب انتصاب المفعول كما في قول الشماخ:

وحلأها عن ذي الأراكة عامر ... أخو الخضر يرمي حيث تكوى النواحر

فجعل مفعولا به لأنه ليس يريد أنه يرمي شيئا حيث تكوى النواحر، إنما يريد أنه يرمي ذلك الموضع انتهى. وما قاله من أنه مفعول به على السعة أو مفعول به على غير السعة تأباه قواعد النحو، لأن النحاة نصوا على أن حيث من الظروف التي لا تتصرف وشذ إضافة لدى إليها وجرها بالياء ونصوا على أن الظرف الذي يتوسع فيه لا يكون إلا متصرفا وإذا كان الأمر كذلك امتنع نصب حيث على المفعول به لا على السعة ولا على غيرها، والذي يظهر لي إقرار حيث على الظرفية المجازية على أن تضمن أعلم معنى ما يتعدى إلى الظرف فيكون التقدير الله أنفذ علما حيث يجعل رسالته أي هو نافذ العلم في الموضع الذي يجعل فيه رسالته، والظرفية هنا مجاز كما قلنا وروي حيث بالفتح. فقيل: حركة بناء. وقيل: حركة إعراب ويكون ذلك على لغة بني فقعس فإنهم يعربون حيث حكاها الكسائي. وقرأ ابن كثير وحفص رسالته بالتوحيد وباقي السبعة على الجمع.

سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون هذا وعيد شديد وعلق الإصابة بمن أجرم ليعم الأكابر وغيرهم، والصغار الذل والهوان يقال:

منه صغر يصغر وصغر يصغر صغرا وصغارا واسم الفاعل صاغر وصغير وأرض مصغر لم يطل نبتها، عن ابن السكيت وقابل الأكبرية بالصغار والعذاب الشديد من الأسر والقتل في الدنيا والنار في الآخرة وإصابة ذلك لهم بسبب مكرهم في قوله: ليمكروا فيها وقوله:

وما يمكرون إلا بأنفسهم وقدم الصغار على العذاب لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبروا طبا للعز والكرامة فقوبلوا أولا بالهوان والذل، ولما كانت الطاعة ينشأ عنها التعظيم ثم الثواب عليها نشأ عن المعصية الإهانة ثم العقاب عليها ومعنى عند الله قال الزجاج:

في عرصة قضاء الآخرة. وقال الفراء: في حكم الله كما يقول عند الشافعي أي في حكمه.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٦٢٤

وقيل: في سابق علمه. وقيل: إن الجزية توضع عليهم لا محالة وأن حكم الله بذلك مثبت عنده بأنه سيكون ذلك فيهم. وقال إسماعيل الضرير: في الكلام تقديم وتأخير أي صغار وعذاب شديد عند الله في الآخرة، وانتصب عند سيصيب أو بلفظ صغار لأنه." (١)

"ولا يرد بأسه عنكم وجاء معمول قل الأول جملة اسمية لأنها أبلغ في الإخبار من الجملة الفعلية، فناسبت الأبلغية في الله تعالى بالرحمة الواسعة وجاءت الجملة الثانية فعلية ولم تأت اسمية فيكون التركيب وذو بأس لئلا يتعادل الإخبار عن الوصفين وباب الرحمة واسع فلا تعادل. وقال الماتريدي: فإن كذبوك فيما تدعوهم إليه من التصديق والتوحيد فقل ربكم ذو رحمة واسعة إذا رجعتم عن التكذيب انتهى. وقيل: ذو رحمة لا يهلك أحدا وقت المعصية ولكن يؤخر ولا يرد بأسه إذا نزل.

سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء هذا إخبار بمستقبل، وقد وقع وفيه إخبار بمغيب معجزة للرسول فكان كما أخبر به تعالى وهذا القول منهم ورد حين بطل احتجاجهم وثبت الرد عليهم فعدلوا إلى أمر حق وهو أنه لو أراد الله أن لا يقع من ذلك شيء، وأوردوا ذلك على سبيل الحوالة على المشيئة والمقادير مغالطة وحيدة عن الحق وإلحادا لا اعتقادا صحيحا وقالوا: ذلك اعتقادا صحيحا حين قارفوا تلك الأشياء استمساكا بأن ما شاء الله هو الكائن كما يقول الواقع في معصية إذا بين له وجهها: هذا قدر الله لا مهرب ولا مفر من قدر الله أو قالوا ذلك وهو حق على سبيل الاحتجاج على تلك الأشياء، أي لو لم يرد الله ما نحن عليه لم يقع ولحال بيننا وبينه.

وقال الزمخشري: يعنون بكفرهم وتمردهم أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله بمشيئة الله وإرادته ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك كمذهب المجبرة بعينه انتهى، وهو على طريقة الاعتزال. وقال الماتريدي: يحتمل أن تكون المشيئة بمعنى الرضا أو بمعنى الأمر والدعاء لأنهم قالوا: إن الله أمرنا بذلك، ويحتمل أن قالوه استهزاء وسخرية انتهى. ولا تعلق للمعتزلة بذلك مع هذه الاحتمالات.

قال ابن عطية: وتعلقت المعتزلة بهذه الآية فقالوا: إن الله قد ذم لهم هذه المقالة وإنما ذمها لأن كفرهم ليس بمشيئة الله بل هو خلق لهم قال: وليس الأمر على ما قالوا، وإنما ذم الله ظن المشركين أن ما شاء الله لا يقع عليه عقاب وأما أنه ذم قولهم: لولا المشيئة لم نكفر فلا انتهى.

والذين أشركوا مشركو قريش أو مشركو العرب قولان، ولا آباؤنا معطوف على الضمير المرفوع وأغنى الفصل بلا بين حرف العطف والمعطوف على الفصل بين المتعاطفين بضمير منفصل يلي الضمير المتصل أو بغيره.

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٦٣٨

وعلى هذا مذهب البصريين لا يجيزون ذلك بغير فصل إلا في الشعر ومذهب الكوفيين جواز ذلك وهو عندهم فصيح في الكلام. وجاء في." (١)

"العهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون الإشارة إليهم أولا بقوله: أئمة الكفر، وهم حصلوا حينئذ تحت اللفظة، إذ الذي يتولى قتال النبي صلى الله عليه وسلم والدفع في صدر شريعته هو إمام كل من يكفر بذلك الشرع إلى يوم القيامة، ثم يأتي في كل جيل من الكفار أئمة خاصة بجيل جيل انتهى.

وقيل: المراد بالعهد الإسلام، فمعناه كفروا بعد إسلامهم. ولذلك قرأ بعضهم: وإن نكثوا إيمانهم بالكسر، وهو قول الزمخشري، قال: فقاتلوا أئمة الكفر فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم، إشعارا بأنهم إذا نكثوا في حالة الشرك تمردا وطغيانا وطرحا لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانا للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهد، وقعدوا يطعنون في دين الله تعالى ويقولون ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر وذوو الرئاسة والتقدم فيه، لا يشق كافر غبارهم. والمشهور من مذهب مالك أن الذمي إذا طعن في الدين ففعل شيئا مثل تكذيب الشريعة والسب للنبي صلى الله عليه وسلم ونحوه قتل.

وقيل: إن أعلن بشيء مما هو معهود من معتقده وكفره أدب على الإعلان وترك، وإن كفر بما هو ليس من معتقده كالسب ونحوه قتل. وقال أبو حنيفة: يستتاب، واختلف إذا سب الذمي ثم أسلم تقية القتل. فالمشهور من مذهب مالك أنه يترك، لأن الإسلام يجب ما قبله، وفي العتبية أنه يقتل، ولا يكون أحسن حالا من المسلم.

وقرأ الحرميان وأبو عمرو: بإبدال الهمزة الثانية ياء. وروي عن نافع مد الهمزة.

وقرأ باقي السبعة وابن أبي أويس عن نافع: بهمزتين، وأدخل هشام بينهما ألفا وأصله أأممة على وزن أفعلة جمع إمام، أدغموا الميم في الميم فنقلت حركتها إلى الهمزة قبلها. وقال الزمخشري: (فإن قلت) : كيف لفظ أئمة؟ (قلت) : همزة بعدها همزة بين بين، أي بين مخرج الهمزة والياء. وتحقيق الهمز هي قراءة مشهورة، وإن لم تكن مقبولة عند البصريين، وأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون. ومن صرح بها فهو لاحن محرف انتهى. وذلك دأبه في تلحين المقرءين. وكيف يكون ذلك لحنا وقد قرأ به رأس البصريين النحاة أبو عمرو بن العلاء، وقارئ مكة ابن كثير، وقارئ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نافع،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٦٨١

ونفى إيمانهم لما لم يثبتوا عليها ولا وفوا بها جعلوا لا أيمان لهم، أو يكون على حذف الوصف أي: لا أيمان لهم يوفون بها. وقرأ الجمهور: بفتح الهمزة. وقرأ الحسن، وعطاء، وزيد بن علي، وابن عامر: لا إيمان لهم أي لا إسلام ولا تصديق. قال أبو علي: وهذا غير قوي،." (١)

"الضلالة فليمدد له الرحمن مدا

«١» ومعناه لن يتقبل منكم أنفقتم طوعا أو كرها. ونحوه قوله تعالى: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم «٢» وقوله: أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة. أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أو لا تستغفر لهم، ولا نلومك أسأت إلينا أم أحسنت انتهى.

وعن بعضهم غير هذا بأن معناه الجزاء والشرط أي: إن تنفقوا طوعا أو كرها لم يتقبل منكم، وذكر الآية وبيت كثير على هذا المعنى. قال ابن عطية: أنفقوا أمر في ضمنه جزاء، وهذا مستمر في كل أمر معه جزاء، والتقدير: إن تنفقوا لن نتقبل منكم. وأما إذا عري الأمر من الجواب فليس يصحبه تضمن الشرط انتهى. ويقدح في هذا التخريج أن الأمر إذا كان فيه معنى الشرط كان الجواب كجواب الشرط، فعلى هذا يقتضي أن يكون التركيب فلن يتقبل بالفاء، لأن لن لا تقع جوابا للشرط إلا بالفاء، فكذلك ما ضمن معناه. ألا ترى جزمه الجواب في مثل اقصد زيدا يحسن إليك، وانتصب طوعا أو كرها على الحال، والطوع أن يكون من غير إلزام الله ورسوله، والكره إلزام ذلك. وسمي الإلزام كراها لأنهم منافقون، فصار الإلزام شاقا عليهم كالإكراه. أو يكون من غير إلزام من رؤسائكم، أو إلزام منهم لأنهم كانوا يحملونهم على الإنفاق لما يرون فيه من المصلحة.

والجمهور على أن هذه نزلت بسبب الجد بن قيس حين استأذن في القعود وقال:

هذا مالي أعينك به. وقال ابن عباس: فيكون من إطلاق الجمع على الواحد أوله ولمن فعل فعله. فقد نقل البيهقي وغيره من الأئمة أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلا، استثنى منهم الثلاثة الذين خلفوا وأهلك الباقون، ونفى التقبل إما كون الرسول لم يقبله منهم ورده، وإما كون الله لا يثيب عليه، وعلل انتفاء التقبل بالفسق. قال الزمخشري: وهو **التمرد** والعتو، والأولى أن يحمل على الكفر. قال أبو عبد الله الرازي: هذه إشارة إلى أن عدم القبول معلل بكونهم فاسقين، فدل على أن الفسق يؤثر في إزالة هذا المعنى. وأكد الجبائي ذلك بدليله المشهور في هذه المسألة، وهو أن الفسق يوجب الذم والعقاب الدائمين، والطاعة توجب المدح والثواب الدائمين، والجمع بينهما محال. فكان الجمع بين استحقاقهما محالا، وقد أزال الله هذه الشبهة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥/٣٨٠

بقوله: وما منعهم «٣» الآية وأن تصريح هذا اللفظ لا يؤثر في القبول إلا الكفر. ودل ذلك على أن مطلق الفسق لا يحبط الطاعات، فنفى تعالى أن عدم القبول

---

(١) سورة مريم: ١٩/ ٧٥.

(٢) سورة التوبة: ٩/ ٨٠.

(٣) سورة التوبة: ٩/ ٥٤.." [١]

"المالقي بغرناطة فسألني قراءة من تقرأ اليوم على الشيخ أبي جعفر بن الطباغ؟ فقلت: قراءة عاصم، فأنشدني:

لعاصم قراءة ... لغيرها مخالفة

إن نعف عن طائفة ... منكم نعذب طائفة

وقرأ باقي السبعة: أن تعف تعذب طائفة، مبنيا للمفعول. وقرأ الجحدري: إن يعف يعذب مبنيا للفاعل فيهما، أي: إن يعف الله. وقرأ مجاهد: إن تعف بالتاء مبنيا للمفعول، تعذب مبنيا للمفعول بالتاء أيضا. قال ابن عطية: على تقدير إن تعف هذه الذنوب. وقال الزمخشري: الوجه التذكير لأن المسند إليه الظرف كما تقول: سير بالدابة، ولا تقول سيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى كأنه قيل: إن ترحم طائفة فأنث لذلك، وهو غريب. والجيد قراءة العامة إن تعف عن طائفة بالتذكير، وتعذب طائفة بالتأنيث انتهى.

مجرمين: مصرين على النفاق غير تائبين.

المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون: بين تعالى أن ذكورهم وإناثهم ليسوا من المؤمنين كما قال تعالى: ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم «١» بل بعضهم من بعض في الحكم والمنزلة والنفاق، فهم على دين واحد. وليس المعنى على التبعيض حقيقة لأن ذلك معلوم ووصفهم بخلاف ما عليه المؤمنون من أنهم يأمرون بالمنكر وهو الكفر وعبادة غير الله والمعاصي، وينهون عن المعروف، لأن الذين نزلت فيهم لم يكونوا أهل قدرة ولا أفعال ظاهرة، وذلك بظهور الإسلام وعزته. وقبض الأيدي عبارة عن عدم الإنفاق في سبيل الله قاله الحسن. وقال قتادة: عن كل خير. وقال ابن زيد: عن الجهاد وحمل السلاح في قتال أعداء الدين. وقال سفيان: عن الرفع في الدعاء. وقيل ذلك كناية عن الشح في النفقات في المبار والواجبات،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥/٤٣٤

والنسيان هنا الترك. قال قتادة: تركوا طاعة الله وطاعة رسوله فنسيهم، أي: تركهم من الخير، أما من الشر فلم ينسهم. وقال الزمخشري: أغفلوا ذكره فنسيهم تركهم من رحمته وفضله، ويعبر بالنسيان عن الترك مبالغة في أنه لا يخطر ذلك ببال. هم الفاسقون أي: هم الكاملون في الفسق الذي هو **التمرد** في

(١) سورة التوبة: ٩/ ٥٦.." (١)

"يشتركان في المبتدأ الذي هو منافقون، ويكون مردوا استئنافا، أخبر عنهم أنهم خريجون في النفاق. ويبعد أن يكون مردوا صفة للمبتدأ الذي هو منافقون، لأجل الفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف على وممن حولكم، فيصير نظير في الدار زيد وفي القصر العاقل، وقد أجازه الزمخشري تابعا للزجاج. ويجوز أن يكون من عطف الجمل، ويقدر موصوف محذوف هو المبتدأ أي: ومن أهل المدينة قوم مردوا، أو منافقون مردوا. قال الزمخشري:

كقوله: أنا ابن جلا. انتهى. فإن كان شبهه في مطلق حذف الموصوف، وإن كان شبهه في خصوصيته فليس بحسن، لأن حذف الموصوف مع من وإقامة صفته مقامه، وهي في تقدير الاسم، ولا سيما في التفصيل منقاس كقولهم: منا ظعن ومنا أقام. وأما أن ابن جلا فضرورة شعر كقوله:

يرمي بكفي كان من أرمى البشر أي بكفي رجل. وكذلك أنا ابن جلا تقديره: أنا ابن رجل جلا أي كشف الأمور. وبينها وعلى الوجه الأول يكون مردوا شاملا للنوعين، وعلى الوجه الثاني يكون مختصا بأهل المدينة. وتقدم شرح مردوا في قوله: شيطانا مريدا لعنه الله «١» وقال هنا ابن عباس:

مردوا، مرنوا وثبتوا، وقال أبو عبيدة: عتوا من قولهم **تمرد**. وقال ابن زيد: أقاموا عليه لم يتوبوا لا تعلمهم أي: حتى نعلمك بهم، أو لا تعلم عواقب أمرهم، حكاه ابن الجوزي. أو لا تعلمهم منافقين، لأن النفاق مختص بالقلب. وتقدم لفظ منافقين فدل على المحذوف، فتعدت إلى اثنين قاله: الكرماني. وقال الزمخشري: يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط توقيهم ما يشكك في أمرهم. وأسند الطبري عن قتادة في قوله:

لا تعلمهم نحن نعلمهم قال: فما بال أقوام يتكلفون علم الناس؟ فلان في الجنة، فلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري أنت لعمري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الرسل. قال نبي الله نوح: وما علمي بما كانوا يعملون «٢» وقال نبي الله شعيب: بقيت الله خير لكم إن

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥/٤٥٥

كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ «٣» وقال الله تعالى لنبيه: لا تعلمهم نحن نعلمهم انتهى. فلو عاش قتادة إلى هذا العصر الذي هو قرن ثمانمائة وسمع ما أحدث هؤلاء المنسوبون إلى الصوف من الدعاوى

---

(١) سورة النساء: ٤/ ١١٧- ١١٨.

(٢) سورة الشعراء: ٢٦/ ١١٢.

(٣) سورة هود: ١١/ ٨٦.." [١]

"الاختلاف، هو الوجه والاختلاف بسبب الكفر، هو المقتضي للوعيد، لا الاختلاف الذي هو بسبب الإيمان، إذ لا يصلح أن يكون سببا للوعيد، وقد تقدم الكلام على نحو هذا في البقرة في قوله: كان الناس أمة واحدة «١» ولكن أعدنا الكلام فيه لبعده.

والكلمة هنا هو القضاء، والتقدير: لبني آدم بالآجال المؤقتة. قال ابن عطية:

ويحتمل أن يريد الكلمة في أمر القيامة، وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ. وقال الزمخشري: هو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة يقضي بينهم عاجلا فيما اختلفوا فيه، وتمييز المحق من المبطل. وسبقت كلمة الله بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف، وتلك دار ثواب وعقاب. وقال الكلبي: الكلمة أن الله أخبر هذه الأمة لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة، فلولا هذا التأخير لقضى بينهم بنزول العذاب، أو بإقامة الساعة. وقيل: الكلمة السابقة أن لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو إرسال الرسل. وقيل: الكلمة قوله: سبقت رحمتي غضبي «٢» ولولا ذلك ما أخر العصاة إلى التوبة.

ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين: هذا من اقتراحهم. قال الزمخشري: وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات. وجعلوا نزولها كلا نزول، فكأنه لم ينزل عليه قط حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرد وانهماكهم في الغي فقل: إنما الغيب لله أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به، لا علم لي ولا لأحد به. يعني: أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو سبحانه، فانتظروا نزول ما اقترحتموه إني معكم من المنتظرين بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحدكم الآيات. وقال ابن عطية: آية من ربه، آية تضطر الناس إلى الإيمان، وهذا النوع من الآيات لم

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥/٤٩٦

يأت بها نبي قط، ولا من المعجزات اضطرارية، وإنما هي معرضة النظر ليهتدي قوم ويضل آخرون، فقل: إنما الغيب لله إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، لا يطلع على غيبه في ذلك أحد. وقوله:
فانتظروا، وعيد وقد صدقه الله تعالى بنصرته محمدا صلى الله عليه وسلم. وقيل: الآية التي اقترحوا أن

---

(١) سورة البقرة: ٢/ ٢١٣.
(٢) سورة الإسراء: ١٧/ ٩٠.." [1]

"العذاب عليهم أي: جازاهم مثل أفعالهم. وقيل: إشارة إلى الحق. قال الزمخشري:
كذلك مثل ذلك الحق حقت كلمة ربك، أي كما حق وثبت أن الحق بعد الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق، فكذلك حقت كلمة ربك. وقال ابن عطية: كذلك أي كما كانت صفات الله كما وصف، وعبادته واجبة كما تقرر، وانصراف هؤلاء كما قدر عليهم، واكتسبوا كذلك حقت. ومعنى فسقوا: **تمردوا** في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه، وأنهم لا يؤمنون بدل من كلمة ربك أي: حق عليهم انتفاء الإيمان. ويجوز أن يراد بالكلمة عدة العذاب، ويكون أنهم لا يؤمنون تعليلا أي: لأنهم لا يؤمنون. ويوضح هذا الوجه قراءة ابن أبي عبلة: إنهم لا يؤمنون بالكسر، وهذا إخبار منه تعالى أن في الكفار من حتم الله بكفره وقضى بتخليده. وقرأ أبو جعفر وشيبة والصاحبان: كلمات على الجمع هنا وفي آخر السورة. وقرأ باقي السبعة على الإفراد.
قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون: لما استفهمهم عن أشياء من صفات الله تعالى واعترفوا بها، ثم أنكر عليهم صرفهم عن الحق وعبادة الله، استفهم عن شيء هو سبب العبادة: وهو إبداء الخلق، وهم يسلمون ذلك. ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله «١» ثم أعاد الخلق وهم منكرون ذلك، لكنه عطفه على يسلمونه ليعلم أيهما سواء بالنسبة إلى قدرة الله، وأن ذلك لوضوحه وقيام برهانه، قرن بما يسلمونه إذ لا يدفعه إلا مكابر، إذ هو من الواضحات التي لا يختلف في إمكانها العقلاء. وجاء الشرع بوجوبه، فوجب اعتقاده. ولما كانوا لمكابرتهم لا يقرون بذلك أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيب فقال: قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده، وأبرز الجواب في جملة مبتدأة مصرح بخبرها، فعاد الخبر فيها مطابقا لخبر اسم الاستفهام، وذلك تأكيد وتثبيت. ولما كان الاستفهام قبل هذا لا مندوحة لهم عن الاعتراف به، جاءت الجملة محذوفا منها أحد جزءيها في قوله:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢٩/٦

فسيقولون الله، ولم يحتج إلى التأكيد بتصريح خبرها. ومعنى تؤفكون تصرفون وتقلبون عن اتباع الحق.
قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون: لما بين تعالى عجز أصنامهم عن الإبداء والإعادة اللذين هما من أقوى أسباب القدرة وأعظم دلائل

---

(١) سورة لقمان: ٣١/ ٢٥.." [1]

"أهله من عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، وبفناء الدنيا، فيعتبر بذلك. وأن ذلك القصص بوحي من الله، إذ أعلم بذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف مع كونه لم يتعلم ولم يتتلمذ.
الثاني: كلما سمعوا خروف التهجي ولم يفهموا منها شيئا ساء ظنهم، وقد أجاب الله بقوله: فيه آيات بينات «١» الآية. الثالث: ظهور القرآن شيئا فشيئا، فساء ظنهم وقالوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة «٢» وقد أجاب تعالى وشرح في مكانه.
الرابع: القرآن مملوء من الحشر، وكانوا ألفوا المحسوسات، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت، فبين الله صحة المعاد بالدلائل الكثيرة. الخامس: أنه مملوء من الأمر بالعبادات، وكانوا يقولون: إله العالم غني عن طاعتنا، وهو أجل أن يأمرنا بما لا فائدة له فيه. وأجاب تعالى بقوله: إن أحسنتم أحسنتم «٣» الآية وبالجملة فشبه الكفار كثيرة، فلما رأوا القرآن مشتملا على أمور ما عرفوا حقيقتها ولا اطلعوا على وجه الحكمة فيها كذبوا بالقرآن فقوله:
بما لم يحيطوا بعلمه، إشارة إلى عدم علمهم بهذه الأشياء وقوله: ولما يأتهم تأويله، إشارة إلى عدم جهدهم واجتهادهم في طلب أسرار ما تضمنه القرآن انتهى ملخصا.
وقال الزمخشري: (فإن قلت) : ما معنى التوقع في قوله تعالى: ولما يأتهم تأويله؟
(قلت) : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر، ومعرفة التأويل تقليدا للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي ورازوا قواهم في المعارضة، واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغيا وحسدا انتهى. ويحتاج كلامه هذا إلى نظر. وقال أيضا: ويجوز أن يكون المعنى: ولما يأتهم تأويله، ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته، حتى يتبين لهم أكذب هو أم صدق؟ يعني: أنه

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦/٥٤

كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب. فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه انتهى. وبقيت جملة الإحاطة بلم، وجملة إتيان التأويل بلما، ويحتاج في ذلك إلى فرق دقيق. والكاف في موضع نصب أي: مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم، يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من

---

(١) سورة آل عمران: ٣/ ٩٧.

(٢) سورة الفرقان: ٢٥/ ٣٢.

(٣) سورة الإسراء: ١٧/ ٧.." [1]

"لمدركون. وقيل: حين قالوا: أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، قيل: والأول هو الصواب، لأن جواب كل من القولين مذكور بعده وهو: كلا إن معي ربي سيهدين «١» وقوله: عسى ربكم أن يهلك عدوكم «٢» الآية وعلق توكلهم على شرطين: متقدم، ومتأخر. ومتى كان الشرطان لا يترتبان في الوجود فالشرط الثاني شرط في الأول، فمن حيث هو شرط فيه يجب أن يكون متقدما عليه. فالإسلام هو الانقياد للتكاليف الصادرة من الله، وإظهار الخضوع وترك **التمرد**، والإيمان عرفان القلب بالله تعالى ووحدانيته وسائر صفاته، وأن ما سواه محدث تحت قهره وتدبيره. وإذا حصل هذان الشرطان فوض العبد جميع أموره إلى الله تعالى، واعتمد عليه في كل الأحوال. وأدخل أن على فعلي الشرط وإن كانت في الأغلب إنما تدخل على غير المحقق مع علمه بإيمانهم على وجه إقامة الحجة وتنبيه الأنفس وإثارة الأنفة، كما تقول: إن كنت رجلا فقاتل، تخاطب بذلك رجلا تريد إقامة البينة. وطول ابن عطية هنا في مسألة التوكل بما يوقف عليه في كتابه. وأجابوا موسى عليه السلام بما أمرهم به من التوكل على الله لأنهم كانوا مخلصين في إيمانهم وإسلامهم، ثم سألوا الله تعالى شيئين: أحدهما: أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين. قال الزمخشري: أي موضع فتنة لهم، أي عذاب تعذبوننا أو تفتنوننا عن ديننا، أو فتنة لهم يفتنون بها ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصيبوا. وقال مجاهد وأبو مجلز وأبو الضحى وغيرهم: معنى القول الآخر قال: المعنى لا ينزل بنا ملأنا بأيديهم أو بغير ذلك مدة محاربتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أن هلاكنا إنما هو بقصد منك لسوء ديننا وصلاح دينهم وأنهم أهل الحق. وقالت فرقة: المعنى لا نفتنهم ونبتليهم بقتلنا وإذايتنا فتعذبهم على

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦/٦٠

ذلك في الآخرة. قال ابن عطية: وفي هذا التأويل قلق. وقال ابن الكلبي: لا تجعلنا فتنة بتقتير الرزق علينا وبسطه ل هم. والآخر: ينجيهم من الكافرين أي: من تسخيرهم واستعبادهم.

والذي يظهر أنهم سألوا الله تعالى أن لا يفتنوا عن دينهم، وأن يخلصوا من الكفار، فقدموا ما كان عندهم أهم وهو سلامة دينهم لهم، وأخروا سلامة أنفسهم، إذ الاهتمام بمصالح الدين آكد من الاهتمام بمصالح الأبدان.

وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين: لم يصرح باسم أخيه لأنه قد تقدم أولا في قوله: ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون «٣» وتبوآ اتخذا مباءة أي مرجعا للعبادة والصلاة كما تقول: توطن

---

(١) سورة الشعراء: ٢٦/ ٦٢.

(٢) سورة الأعراف: ٧/ ١٢٩.

(٣) سورة يونس: ١٠/ ٧٥.." [1]

"منهم. وقال أبو علي الفارسي: علم ما غاب في السموات والأرض، أضاف الغيب إليهما توسعا انتهى. والجملة الأولى: دلت على أن علمه محيط بجميع الكائنات كليها وجزئيها حاضرها وغائبها، لأنه إذا أحاط علمه بما غاب فهو بما حضر محيط، إذ علمه تعالى لا يتفاوت. والجملة الثانية: دلت على القدرة النافذة والمشيئة. والجملة الثالثة: دلت على الأمر بإفراد من هذه صفاته بالعبادة الجسدية والقلبية، والعبادة أولى الرتب التي يتحلى بها العبد. والجملة الرابعة: دلت على الأمر بالتوكل، وهي آخرة الرتب، لأنه بنور العبادة أبصر أن جميع الكائنات معذوقة بالله تعالى، وأنه هو المتصرف وحده في جميعها، لا يشركه في شيء منها أحد من خلقه، فوكل نفسه إليه تعالى، ورفض سائر ما يتوهم أنه سبب في شيء منها. والجملة الخامسة: تضمنت التنبيه على المجازاة، فلا يضيع طاعة مطيع ولا يهمل حال **متمرد**. وقرأ الصاحبان، وحفص، وقتادة. والأعرج، وشيبة، وأبو جعفر، والجحدري:

تعملون بتاء الخطاب، لأن قبله اعملوا على مكانتكم. وقرأ باقي السبعة: بالياء على الغيبة، واختلف عن الحسن وعيسى بن عمر.." [2]

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٩٦/٦

(٢) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢٣٠/٦

"جرى ذكره في قوله: يقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه «١» والمعنى: أن الله تعالى جعل لنبيه صلى الله عليه وسلم حفظة من متمردي الجن والإنس.

قال أبو زيد: الآية في النبي صلى الله عليه وسلم نزلت في حفظ الله له من أربد بن قيس، وعامر بن الطفيل ، من القصة التي سنشير إليها بعد في ذكر الصواعق. والقول الأول في عود الضمير هو الأولى الذي ينبغي أن يحمل عليه وعليه يفسر. ويقول: لما تقدم أن من أسر القول ومن جهر به، ومن استخفى بالليل وسرب بالنهار، مستو في علم الله تعالى لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، ذكر أيضا أن لذلك المذكور معقبات: جماعات من الملائكة تعقب في حفظه وكلاءته. ومعقب: وزنه مفعل، من عقب الرجل إذا جاء على عقب الآخر، لأن بعضهم يعقب بعضا، أو لأنهم يعقبون ما يتكلمون به فيكتبونه. وقال الزمخشري: والأصل معتقبات، فأدغمت التاء في القاف كقوله: وجاء المعذرون «٢» يعني المعتذرون. ويجوز معقبات بكسر العين، ولم يقرأ به انتهى. وهذا وهم فاحش، لا تدغم التاء في القاف، ولا القاف في التاء، لا من كلمة ولا من كلمتين. وقد نص التصريفيون على أن القاف والكاف يدغم كل منهما في الآخر، ولا يدغمان في غيرهما، ولا يدغم غيرهما فيهما. وأما تشبيهه بقوله: وجاء المعذرون، فلا يتعين أن يكون أصله المعتذرون، وقد تقدم في براءة توجيهه، وأنه لا يتعين ذلك فيه. وأما قوله: ويجوز معقبات بكسر العين، فهذا لا يجوز لأنه بناه على أن أصله معتقبات، فأدغمت التاء في القاف. وقد ذكرنا أن ذلك وهم فاحش، والمعقبات جمع معقبة. وقيل: الهاء في معقبة للمبالغة، فيكون كرجل نسابة. وقيل: جمع معقبة، وهي الجماعة التي تأتي بعد الأخرى، جمعت باعتبار كثرة الجماعات، ومعقبة ليست جمع معقب كما ذكر الطبري.

وشبه ذلك برجل ورجال ورجالات، وليس الأمر كما ذكر، لأن ذلك كجمل وجمال وجمالات، ومعقبة ومعقبات إنما هي كضارب وضاربات قاله: ابن عطية. وينبغي أن يتأول كلام الطبري على أنه أراد بقوله: جمع معقب، أنه أطلق من حيث الاستعمال على جمع معقب وإن كان أصله أن يطلق على مؤنث معقب، وصار مثل الواردة للجماعة الذين يردون، وإن كان أصله أن يطلق على مؤنث وارد، من حيث أن يجمع جموع التكسير للعامل يجوز أن يعامل معاملة المفردة المؤنثة في الأخبار. وفي عود الضمير لقوله: العلماء قائلة كذا، وقولهم الرجال وأعضادها، وتشبيه الطبري ذلك برجل ورجال ورجالات من حيث

---

(١) سورة الرعد: ١٣/ ٧.

(٢) سورة التوبة: ٩/ ٩٠.." (١)

"آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين: لما ذكر تعالى: ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء «١» وذكر أشياء مما بين في الكتاب، ثم ذكر قوله: من عمل صالحا «٢» ذكر ما يصون به القارئ قراءته من وسوسة الشيطان ونزغه، فخاطب السامع بالاستعاذة منه إذا أخذ في القراءة. فإن كان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم لفظا فالمراد أمته، إذ كانت قراءة القرآن من أجل الأعمال الصالحة كما ورد في الحديث: إن ثواب قراءة كل حرف عشر حسنات والظاهر بعقب الاستعاذة. وقد روى ذلك بعض الرواة عن حمزة، وروي عن ابن سيرين أنه قال: كلما قرأت الفاتحة حين تقول: آمين، فاستعذ.

وروي عن أبي هريرة، ومالك، وداود. تعقبها القراءة كما روي عن حمزة والجمهور: على ترك هذا الظاهر وتأويله بمعنى: فإذا أردت القراءة. قال الزمخشري: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه، فكان بسبب قوي وملابسة ظاهرة كقوله: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم «٣»

وكقوله: «إذا أكلت فسم الله»

وقال ابن عطية:

فإذا وصلة بين الكلامين والعرب تستعملها في مثل هذا، وتقدير الآية: فإذا أخذت في قراءة القرآن فاستعذ، أمر بالاستعاذة. فالجمهور على الندب، وعن عطاء الوجوب. والظاهر:

طلب الاستعاذة عند القراءة مطلقا، والظاهر: أن الشيطان المراد به إبليس وأعوانه. وقيل:

عام في كل متمرد عات من جن وإنس، كما قال شياطين الإنس والجن. واختلف في كيفية الاستعاذة، والذي صار إليه الجمهور من القراء وغيرهم واختاروه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لما

روى عبد الله بن مسعود، وأبو هريرة، وجبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه استعاذ عند القراءة بهذا اللفظ بعينه»

ونفى تعالى سلطان الشيطان عن المؤمنين. والسلطان هنا التسليط والولاية، والمعنى: أنهم لا يقبلون منه ولا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦/٣٦٠

يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته كما قال تعالى: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان «٤» وكما أخبر تعالى عنه فقال في قصة أوليائه: وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي «٥» وقيل:

(١) سورة النحل: ١٦/ ٨٩.

(٢) سورة النحل: ١٦/ ٩٧. [.....]

(٣) سورة المائدة: ٥/ ٦.

(٤) سورة الحجر: ١٥/ ٤٢.

(٥) سورة ابراهيم: ١٤/ ٢٢.." [١]

"إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي.

لما أمره تعالى بالذهاب إلى فرعون عرف أنه كلف أمرا عظيما يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح، فسأل ربه ورغب في أن يشرح صدره ليحتمل ما يرد عليه من الشدائد التي يضيق لها الصدر، وأن يسهل عليه أمره للذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة جلائل الخطوب، وقد علم ما عليه فرعون من الجبروت **والتمرد** والتسلط. وقال ابن جريج: معناه وسع لي صدري لأعي عنك ما تودعه من وحيك. وقال الكرماني وسع قلبي ولينه لفهم خطابك وأداء رسالتك. و ا لقيام بما كلفتنيه من أعبائها، والعقدة استعارة لثقل كان في لسانه خلقة.

وقال مجاهد: كانت من الجمرة التي أدخلها فاه وكانت آسية قد ألقى الله محبته في قلبها وسألت فرعون أن لا يذبحه، فبينا هي ترقصه يوما أخذه فرعون في حجره فأخذ خصلة من لحيته. وقيل: لطمه. وقيل: ضربه بقضيب كان في يده فغضب فرعون فدعا بالسياف فقالت: إنما هو صبي لا يفرق بين الياقوت والجمر. فاحضرا وأراد أن يمد يده إلى الياقوت فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة فأخذها ووضعها في فيه فاحترق لسانه

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٩٣/٦

انتهى.

وإحراق النار وتأثيرها في لسانه لا في يده دليل على فساد قول القائلين بالطبيعة. وعن ابن عباس كانت في لسانه رتة. وقيل: حدثت العقدة بعد المناجاة حتى لا يكلم أحدا بعدها.

وقال قطرب: كانت فيه مسكة عن الكلام. وقال ابن عيسى: العقدة كالتمتمة والفأفأة.

وطلب موسى من حل العقدة قدر ما يفقه قوله، قيل: وبقي بعضها لقوله وأخي هارون هو أفصح مني لسان وقوله ولا يكاد يبين. وقيل: زالت لقوله قد أوتيت سؤلك يا موسى وهو قول الحسن، قيل: وهو ضعيف لأنه لم يقل واحلل العقدة بل قال عقدة فإذا حل عقدة فقد آتاه الله سؤله. وقيل في قوله ولا يكاد يبين أن معناه لا يأتي ببيان وحجة، وإنما قال ذلك فرعون تمويها وقد خاطبه وقومه وكانوا يفهمون عنه فكيف يمكن نفي البيان أو مقاربته؟.

وقال الزمخشري: فإن قلت: لي في قوله اشرح لي صدري ويسر لي أمري ما جدواه والكلام بدون مستتب؟ قلت: قد أبهم الكلام أولا فقال اشرح لي ويسر لي." (١)

"نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها. وقرأ يحيى وأبو نوفل وابن محيصن في روايته أن يفرط مبنيا للمفعول أي يسبق في العقوبة ويسرع بها، ويجوز أن يكون من الإفراط ومجاوزة الحد في العقوبة خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعذاب من شيطان، أو من جبروته واستكباره وادعائه الربوبية، أو من حبه الرياسة، أو من قومه القبط **المتمردين** الذين قال الله فيهم قال الملأ من قوم فرعون «١» وقال الملأ من قومه «٢» .

وقرأت فرقة والزعفراني عن ابن محيصن يفرط بضم الياء وكسر الراء من الإفراط في الأذية أو أن يطغى في التخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي تجرئة عليك وقسوة قلبه، وفي المجيء به هكذا على سبيل الإطلاق والرمز باب من حسن الأدب والتجافي عن التفوه بالعظيمة.

والمعية هنا بالنصرة والعون أسمع أقوالكما وأرى أفعالكما. وقال ابن عباس أسمع جوابه لكما وأرى ما يفعل بكما وهما كناية عن العلم فأتياه كرر الأمر بالإتيان فقولا إنا رسولا ربك وخاطباه بقولهما ربك تحقيرا له وإعلاما أنه مربوب مملوك إذ كان هو يدعي الربوبية. وأمرا بدعوته إلى أن يبعث معهما بني إسرائيل ويخرجهم من ذل خدمة القبط وكانوا يعذبونهم بتكليف الأعمال الشاقة من الحفر والبناء ونقل الحجارة والسخرة في كل شيء مع قتل الولدان واستخدام النساء. وقد ذكر في غير هذه الآية دعاؤه إلى الإيمان فجملة ما دعا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣٢٧/٧

إليه فرعون الإيمان وإرسال بني إسرائيل.

ثم ذكرا ما يدل على صدقهما في إرسالهما إليه فقالا قد جئناك بآية من ربك وتكرر أيضا قولهما من ربك على سبيل التوكيد بأنه مربوب مقهور، والآية التي أحالا عليها هي العصا واليد، ولما كانا مشتركين في الرسالة صح نسبة المجيء بالآية إليهما وإن كانت صادرة من أحدهما. وقال الزمخشري: قد جئناك بآية من ربك جارية من الجملة الأولى وهي إنا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير، لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية، وإنما وحد بآية ولم يثن ومعه آيتان لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها فكأنه قال: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة وكذلك قد جئتكم ببينة من ربكم «٣» فأت بآية إن كنت من الصادقين «٤»

(١) سورة الأعراف: ٧/ ١٠٩ و ١٢٧.

(٢) سورة المؤمنون: ٢٣/ ٣٣.

(٣) سورة الأعراف: ٧/ ١٠٥. [.....]

(٤) سورة الشعراء: ٢٦/ ١٥٤.." [1]

"في الكهف قراءة ومدلولا. وقرأ الحسن وعيسى خراجا فخرج فكلمت بهذه القراءة أربع قراءات، وفي الحرفين فخراج ربك أي ثوابه لأنه الباقي وما يؤخذ من غيره فان. وقال الكلبي: فعطاؤه لأنه يعطي لا لحاجة وغيره يعطي لحاجة. وقيل: فرزقه ويؤيده خير الرازقين قال الجبائي: خير الرازقين دل على أنه لا يساويه أحد في الإفضال على عباده، ودل على أن العباد قد يرزق بعضهم بعضا انتهى. وهذا مدلول خير الذي هو أفعل التفضيل ومدلول الرازقين الذي هو جمع أضيف إليه أفعل التفضيل.

ولما زيف طريقة الكفار أتبع ذلك ببيان صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقال وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وهو دين الإسلام، ثم أخبر أن من أنكر المعاد ناكب عن هذا الصراط لأنه لا يسلكه إلا من كان راجيا للثواب خائفا من العقاب وهؤلاء غير مصدقين بالجزاء فهم مائلون عنه، وأبعد من زعم أن الصراط الذي هم ناكبون عنه هو طريق الجنة في الآخرة، ومن زعم أن الصراط هو في الآخرة ناكبون عنه بأخذهم يمنة ويسرة إلى النار.

قال ابن عباس: لناكبون لعادلون. وقال الحسن: تاركون له. وقال قتادة: حائرون.

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣٣٨/٧

وقال الكلبي: معرضون، وهذه أقوال متقاربة المعنى.
ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر قيل: هو الجوع. وقيل: القتل والسبي.
وقيل: عذاب الآخرة أي بلغوا من **التمرد** والعناد أنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لشدة لجاجهم فيما هم عليه من البعد وهذا القول بعيد بل الظاهر أن هذا التعليق كان يكون في الدنيا ويدل على ذلك قوله ولقد أخذناهم بالعذاب إلى آخر الآية استشهد على شدة شكيمتهم في الكفر ولجاجهم على تقدير رحمته لهم بأنه أخذهم بالسيوف أولا، وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من الأسر والقتل فأبلسوا وخضعت رقابهم.
والظاهر من هذا أن الضمير هو القحط والجوع الذي أصابهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا مروي عن بن عباس وابن جريج.
وسبب نزول الآية دليل على ذلك
روي أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة منع الميرة من أهل مكة، فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت الرحمة للعالمين؟
فقال: «بلى» فقال: قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت الآية.
والمعنى لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو الهزل والقحط الذي أصابهم ووجدوا الخصب لارتدوا إلى ما كانوا." (١)

"باقي السبعة والحسن وطلحة والأعمش بكسر الياء، فإما أن تكون متعدية أي مبينات غيرها من الأحكام والحدود، فأسند ذلك إليها مجازا، وإما أن تكون لا تتعدى أي بينات في نفسها لا تحتاج إلى موضح بل هي واضحة لقولهم في المثل. قد بين الصبح لذي عينين.
أي قد ظهر ووضح. وقوله ومثلا معطوف على آيات، فيحتمل أن يكون المعنى ومثلا من أمثال الذين من قبلكم، أي قصة غريبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم في براءتهما لبراءة من رميت بحديث الإفك لينظروا قدرة الله في خلقه وصنعه فيه فيعتبروا.
وقال الضحاك: والمراد بالمثل ما في التوراة والإنجيل من إقامة الحدود، فأنزل في القرآن مثله. وقال مقاتل: أي شبها من حالهم في تكذيب الرسل أي بينا لكم ما أحللنا بهم من العذاب **لتمردهم**، فجعلنا ذلك مثلا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٧/٥٧٦

لكم لتعلموا أنكم إذا شاركتموهم في المعصية كنتم مثلهم في استحقاق العقاب. وموعظة للمتقين أي ما وعظ في الآيات والمثل من نحو قوله ولا تأخذكم بهما رأفة «١» ولولا إذ سمعتموه يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا «٢» وخص المتقين لأنهم المنتفعون بالموعظة.

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٣٥ الى ٣٨]

الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم (٣٥) في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال (٣٦) رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار (٣٧) ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب (٣٨)

النور في كلام العرب الضوء المدرك بالبصر، فإسناده إلى الله تعالى مجاز كما تقول:

زيد كرم وجود وإسناده على اعتبارين، إما على أنه بمعنى اسم الفاعل أي منور السموات والأرض، ويؤيد هذا التأويل

قراءة علي بن أبي طالب وأبي جعفر وعبد العزيز المكي

---

(١) سورة النور: ٢٤/ ٢.

(٢) سورة النور: ٢٤/ ١٧.." [(١)]

"وهذا قول مجاهد. وقال الحسن، وقتادة أيضا: الملك الشهيد عليه. وقال الحسن أيضا:

هو كاتب سيئاته، وما نكرة موصوفة بالظرف وبعتيد وموصولة، والظرف صلتها. وعتيد، قال الزمخشري: بدل أو خير بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. انتهى. وقرأ الجمهور: عتيد بالرفع وعبد الله: بالنصب على الحال، والأولى إذ ذاك أن تكون ما موصولة.

ألقيا في جهنم: الخطاب من الله للملكين: السائق والشهيد. وقيل: للملكين من ملائكة العذاب، فعلى هذا الألف ضمير الاثنين. وقال مجاهد وجماعة: هو قول إما للسائق، وإما للذي هو من الزبانية، وعلى أنه

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤٢/٨

خطاب للواحد. وقال المبرد معناه: ألق ألق، فثنى. وقال الفراء: هو من خطاب الواحد بخطاب الاثنين. وقيل: الألف بدل من النون الخفيفة، أجرى الوصل مجرى الوقف، وهذه أقوال مرغوب عنها، ولا ضرورة تدعو إلى الخروج عن ظاهر اللفظ لقول مجاهد. وقرأ الحسن: ألقين بنون التوكيد الخفيفة، وهي شاذة م خالفة لنقل التواتر بالألف. كل كفار: أي يكفر النعمة والمنعم عنيد، قال قتادة: منحرف عن الطاعة. وقال الحسن: جاحد متمرد. وقال السدي: المساق من العند، وهو عظم يعرض في الحلق. وقال ابن بحر: المعجب بما فيه.

مناع للخير، قال قتادة ومجاهد وعكرمة: يعني الزكاة. وقيل: بخيل. وقيل:

مانع بني أخيه من الإيمان، كالوليد بن المغيرة، كان يقول لهم: من دخل منكم فيه لم أنفعه بشيء ما عشت، والأحسن عموم الخير في المال وغيره. مريب، قال الحسن:

شاك في الله أو في البعث. وقيل: متهم الذي جوزوا فيه أن يكون منصوبا بدلا من كل كفار، وأن يكون مجرورا بدلا من كفار، وأن يكون مرفوعا بالابتداء مضمنا معنى الشرط، ولذلك دخلت الفاء في خبره، وهو فألقياه. والظاهر تعلقه بما قبله على جهة البدل، ويكون فألقياه توكيدا. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون صفة من حيث يختص كفار بالأوصاف المذكورة، فجاز وصفه بهذه المعرفة. انتهى. وهذا ليس بشيء لو وصفت النكرة بأوصاف كثيرة لم يجز أن توصف بالمعرفة.

قال قرينه: لم تأت هذه الجملة بالواو، بخلاف وقال قرينه قبله، لأن هذه استؤنفت كما استؤنفت الجمل في حكاية التقاول في مقاولة موسى وفرعون، فجرت مقاولة بين الكافر وقرينه، فكأن الكافر قال ربي هو أطغاني، قال قرينه ربنا ما أطغيته. وأما وقال قرينه فقطف للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول، أعني مجيء كل نفس مع الملكين. وقول قرينه: ما قال له، ومعنى ما أطغيته: تنزيه لنفسه من أنه." (١)

"وجاء هنا: ﴿عن مواضعه﴾ ، وفي المائدة: ﴿من بعد مواضعه﴾ [الآية: ٤١] قال الزمخشري: «أما» عن مواضعه «فعلى ما فسرناه من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه، وأما ﴿من بعد مواضعه﴾ فالمعنى أنه كانت له مواضع هو قمن بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره، والمعنيان متقاربان» . قال الشيخ: «وقد يقال إنهما سيان، لكنه حذف هنا وفي أول المائدة ﴿من بعد مواضعه﴾ [الآية: ٤١] ؛ لأن قوله» عن مواضعه

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٣٧/٩

«يدل على استقرار مواضع له، وحذف في ثاني المائدة» عن مواضعه «لأن التحريف من بعد مواضعه يدل على أنه تحريف عن مواضعه، فالأصل: يحرفون الكلم من بعد مواضعه عنها، فحذف هنا البعدية وهناك» عنها «توسعا في العبارة، وكانت البداءة هنا بقوله» عن مواضعه «لأنه أخصر، وفي تنصيص باللفظ على» عن «وعلى المواضع وإشارة إلى البعدية» .

وقال أيضا: «والظاهر أنهم حيث وصفوا بشدة **التمرد** والطغيان وإظهار العداوة واشتراء الضلالة ونقض الميثاق جاء ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ كأنهم حرفوها من أول وهلة قبل استقرارها في مواضعها وبادروا إلى ذلك، ولذلك جاء أول المائدة كهذه الآية حيث وصفهم بنقض الميثاق وقسوة القلوب، وحيث وصفوا باللين وترديد الحكم إلى الرسول جاء ﴿من بعد مواضعه﴾ كأنهم لم يبادروا إلى التحريف، بل عرض لهم بعد استقرار الكلم في مواضعها فهما سياقان مختلفان» .." (١)

"أيماننا وبين **تمردكم** وخروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه» .

ونقل الواحدي عن بعضهم أن ذلك من باب المقابلة والازدواج، يعني أنه لما نقم اليهود عليهم الإيمان بجميع الرسل وهو مما لا ينقم ذكر في مقابلته فسقهم، وهو مما ينقم، ومثل ذلك حسن في الازدواج، يقول القائل: «هل تنقم مني إلا أني عفوت عنك وأنك فاجر» فيحسن ذلك لإتمام المعنى بالمقابلة. وقال أبو البقاء: «والمعنى على هذا: إنكم كرهتم إيماننا وامتناعكم، أي: كرهتم مخالفتنا إياكم، وهذا كقولك للرجل: ما كرهت مني إلا أني محبب للناس وأنك مبغض» وإن كان لا يعترف بأنه مبغض.

وقال ابن عطية: وأن أكثركم فاسقون / هو عند اكثر المتأولين معطوف على قوله: ﴿أن آمنا﴾ فيدخل كونهم فاسقين فيما نقموه، وهذا لا يتجه معناه «ثم قال بعد كلام:» وإنما يتجه على أن يكون معنى المحاورة: هل تنقمون منا إلا مجموع هذه الحال من أنا مؤمنون وأنتم فاسقون، ويكون ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ مما قرره المخاطب لهم، وهذا كما تقول لمن يخاصم: «هل تنقم علي إلا أن صدقت أنا وكذبت أنت» وهو لا يقر بأنه كاذب ولا ينقم ذلك، لكن معنى كلامك: هل تنقم إلا مجموع هذه الحال «وهذا هو مجموع ما أجاب به الزمخشري والواحدي.

الوجه الثاني من أوجه النصب: أن يكون معطوفا على» أن آمنا «أيضا، ولكن في الكلام مضاف محذوف

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٣/٦٩٧

لصحة المعنى، تقديره:» واعتقاد أن أكثركم فاسقون «وهو معنى واضح، فإن الكفار ينقمون اعتقاد المؤمنين انهم فاسقون، الثالث: أنه منصوب بفعل مقدر تقديره: هل تنقمون منا إلا إيمانا، ولا تنقمون." [١]

"الثالث: أن المفرد سمع همزه، كما سيأتي تقريره، فجاء جمعه عليه.

وأما «سؤوق» بالواو بعد الهمزة فإن ساقا جمع على «سووق» بواو، فهمزت الأولى لانضمامها. وهذه الرواية غريبة عن قنبل، وقد قرأنا بها ولله الحمد.

وأما «سأقيها» فوجه الهمز أحد أوجه: إما لغة من يقلب الألف همزة، وعليه لغة العجاج في العألم والخأتم. وأنشد:

٣٥٧٥ - وخندف هامة هذا العألم ... وسيأتي تقريره أيضا في «منسأته» في سبأ إن شاء الله تعالى، وتقدم طرف منه في الفاتحة، وإما على التشبيه برأس وكأس، كما قالوا: «حلأت السويق» حملا على حلأته عن الماء أي طردته، وإما حملا للمفرد والمثنى على جمعهما. وقد تقرر في جمعهما الهمز.

قوله: ﴿ممرد﴾ أي مملس. ومنه الأمرد لملاسة وجهه من الشعر. وبرية مرداء: لخلوها من النبات، ورملة مرداء: لا تنبت شيئا. والمارد من الشياطين: من تعرى من الخير وتجرد منه. ومارد: حصن معروف. وفي أمثال الزباء: «**تمرد** مارد وعز الأبلق» قالتها في حصنين امتنع فتحهما عليها.." [٢]

"والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان، عليه (١) السلام:

أيما شاطن عصاه عكاه ... ثم يلقى في السجن والأغلال (٢)

فقال: أيما شاطن، ولم يقل: أيما شائط.

وقال النابغة الذبياني -وهو: زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن ذبيان-:

نأت بسعاد عنك نوى شطون ... فبانت والفؤاد بها رهين (٣)

يقول: بعدت بها طريق بعيدة.

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٣٢٠/٤

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٦٢٠/٨

[وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعل فعل الشيطان ولو كان من شاط لقالوا: تشيط] (٤) . والشيطان (٥) مشتق من البعد على (٦) الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما (٧) **تمرد** من جني وإنسي وحيوان شيطانا، قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ [الأنعام: ١١٢] . وفي مسند الإمام أحمد، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أبا ذر، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن "، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: " نعم " (٨) . وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -أيضا-قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود ". فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر (٩) فقال: " الكلب الأسود شيطان " (١٠) . وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ركب برذونا، فجعل يتبختر به، فجعل لا يضربه فلا يزداد إلا تبخترا، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني (١١) إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي. إسناده (١٢) صحيح (١٣) .

---

(١) في جـ، ب: "عليه الصلاة والسلام".

(٢) البيت في تفسير الطبري (١/١١٢) واللسان، مادة "عكا" ومادة "شطن".

(٣) البيت في تفسير الطبري (١/١١٢) .

(٤) زيادة من جـ، ط.

(٥) في جـ، ط، ب: "فالشيطان".

(٦) في جـ، ط: "وهو".

(٧) في جـ، ط، ب: "من".

(٨) المسند (٥/١٧٨) .

(٩) في جـ، ط، ب، أ، و: "من الأصفر".

(١٠) رواه الطبري في تفسيره (١/١١١) .

(١١) في ب: "ما حملتمون".

(١٢) في ط، ب، أ، و: "إسناد".
(١٣) رواه الطبري في تفسيره (١/١١١) .." [(١)]

"لا يكون منه المكر ولا الهزء، والمعنى: أن المكر والهزء حاق بهم.

وقال آخرون: قوله: ﴿إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم﴾ وقوله ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ [النساء: ١٤٢] ، وقوله ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾ [التوبة: ٧٩] و ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة: ٦٧] وما أشبه ذلك، إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم (١) جزاء الاستهزاء، ويعاقبهم (٢) عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ [البقرة: ١٩٤] ، فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما.

قال: وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك.

قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك: أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا: إنا معكم على دينكم، في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم -من قولنا لهم: صدقنا بمحمد، عليه السلام، وما جاء به مستهزئون؛ فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة، يعني من العذاب والنكال (٣) .

ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، عز وجل، بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك.

قال: وبنحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان، حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ قال: يسخر بهم للنقمة منهم.

وقوله تعالى: ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ قال السدي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس (٤) من الصحابة [قالوا] (٥) يمدهم: يملي لهم.

وقال مجاهد: يزيدهم.

قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم **وتمردهم**، كما قال: ﴿ونقلب

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١/١١٥

أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام: ١١٠] .

---

(١) في ط، أ، و: "مجازيهم".

(٢) في ط، ب، أ، و: "ومعاقبهم".

(٣) تفسير الطبري (٣٠٣/١) .

(٤) في جـ، ط، ب: "ناس".

(٥) زيادة من ب، و.." [١]

"به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله في ذلك وجعل قوله: ﴿هاروت وماروت﴾ بدلا من: ﴿الشياطين﴾ قال: وصح ذلك، إما لأن الجمع قد يطلق على الاثنين كما في قوله: ﴿فإن كان له إخوة﴾ [النساء: ١١] أو يكون لهما أتباع، أو ذكرا من بينهم **لتمردهما**، فتقدير الكلام عنده: تعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه.

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ يقول: لم ينزل الله السحر. وبإسناده، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت. فيكون قوله: ﴿ببابل هاروت [وماروت (١)] ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم. قال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ -"من السحر"- ﴿وما كفر سليمان﴾ وما أنزل الله "السحر" على الملكين، ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ ببابل وهاروت وماروت فيكون معنيا بالملكين: جبريل وميكائيل، عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان، عليه السلام، مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان، اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٨٤/١

التأويل ترجمة عن الناس، وردا عليهم.

هذا لفظه بحروفه (٢) .

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثت عن عبيد الله بن موسى، أخبرنا فضيل بن مرزوق، عن عطية ﴿وما أنزل على الملكين﴾ قال: ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر.

حدثنا (٣) الفضل بن شاذان، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا يعلى -يعني ابن أسد-حدثنا بكر (٤) -يعني ابن مصعب-حدثنا الحسن بن أبي جعفر: أن عبد الرحمن بن أبزى كان يقرؤها: "وما أنزل على الملكين داود وسليمان".

وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: علما الإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهي. رواه ابن أبي حاتم.

---

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٤١٩، ٤٢٠) .

(٣) في و: "وقال ابن أبي حاتم: حدثنا".

(٤) في ج، ط، ب: "بكير".." [1]

"مما وصف لكم". قلت لنعيم بن حماد: أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال: باليمن (١) وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: "وخلقت الحور العين من الزعفران" (٢) .

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن ابن شوذب، عن مطر الوراق، عن الحسن في قوله: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح.

وقال: حدثني عمرو بن مالك، حدثني يحيى بن سليم الطائفي (٣) عن هشام، عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس (٤) إسناد صحيح أيضا.

﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين (١٣) قال أنظرني إلى يوم يبعثون (١٤) قال إنك من المنظرين (١٥) ﴾

يقول تعالى مخاطبا لإبليس بأمر قدري كوني: ﴿فاهبط منها﴾ أي: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣٥١/١

طاعتي، فما يكون لك أن تتكبر فيها.

قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائدا إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى.

﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ أي: الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده، مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أنظرني (٥) إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (١٦) ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين (١٧)﴾

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إلى يوم يبعثون﴾ (٦) واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة **والتمرد**، فقال: ﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أي: كما أغويتني.

قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك -الذين تخلقهم من

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف برقم (٢٠٩٠٤) .

(٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣٧/٨) من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، وفي إسناده عبيد الله بن زحر، قال ابن حبان في المجروحين: "يروى الموضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله، وعلي بن يزيد، والقاسم أبو عبد الرحمن، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم".

(٣) في أ: "الطائي".

(٤) تفسير الطبري (٣٢٨/١٢) .

(٥) في ك، م: "فأنظرني" وهو خطأ.

(٦) في م: "الدين" وهو خطأ.." [1]

"﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٧٠) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣٩٣/٣

من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين (٧١) فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين (٧٢) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود، عليه السلام: ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده [ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين] ﴾ (١) كما قال الكفار من قريش: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال:٣٢]

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناما، فصنم يقال له: صداء، وآخر يقال له: صمود، وآخر يقال له: الهباء (٢)

ولهذا قال هود، عليه السلام: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أي: قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس [وغضب] (٣) قيل: هو مقلوب من رجز. وعن ابن عباس: معناه السخط والغضب.

﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أي: أتحاجوني (٤) في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا؛ ولهذا قال: ﴿ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾

وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾

وقد ذكر الله، سبحانه، صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية﴾ [الحاقة:٦-٨] لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته؛ ولهذا قال: ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن من (٥) عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد

---

(١) زيادة من ك، م، وفي هـ: الآية".

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/٥٠٧) .

(٣) زيادة من م.

(٤) في م، د: "أتجادلونني".

(٥) في م، ك: "بين".." [1]

"ثقيف" الذين كانوا يسكنون الطائف (١)

قال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر أبي رغال فقال: "أتدرون من هذا؟ " فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن".

وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال: أبو ثقيف (٢)

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روي متصلا من وجه آخر، كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر فقال: "هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع (٣) عنه، فلما خرج [منه] (٤) أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه. وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشم عنه أصبتموه [معه] (٥) فابتدره الناس (٦) فاستخرجوا منه الغصن".

وهكذا رواه أبو داود، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن ابن إسحاق، به (٧)

قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز (٨) (٩)

قلت: تفرد بوصله "بجير بن أبي بجير" هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. قال يحيى ابن معين: ولم أسمع أحدا روى عنه غير إسماعيل بن أمية.

قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين.

قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم.

وقوله تعالى:

﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (٧٩) ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٣٥/٣

هذا تقريع من صالح، عليه السلام، لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله،

---

(١) انظر: "الكلام على أبي رغال، وترجيح أنه كان دليل أبرهة في تفسير سورة النساء آية: ٤.

(٢) المصنف برقم (٢٠٩٨٩) ، وتفسير عبد الرزاق (١/١١٩، ٢٢٠) .

(٣) في ك: "يدفع".

(٤) زيادة من ك، م.

(٥) زيادة من أ.

(٦) في أ: "القوم".

(٧) سنن أبي داود برقم (٣٠٨٨) .

(٨) في أ: "غريب".

(٩) تهذيب الكمال (٤/١١) .." [(١)]

"﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين (٨٨) قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين (٨٩) ﴾

هذا إخبار من الله [تعالى] (١) عما واجهت به الكفار نبي الله شعيبا ومن معه من المؤمنين، في (٢) توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

وقوله: ﴿أولو كنا كارهين﴾ يقول: أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا (٣) كارهين ما تدعونا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أندادا. وهذا تعبير منه عن أتباعه. ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ وهذا رد إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علما، ﴿على الله توكلنا﴾ أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿ربنا افتح (٤) بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبدا.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٤٣/٣

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون (٩٠) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٩١) الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين (٩٢) ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا (٥) ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون﴾ فلهذا عقب ذلك بقوله: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما (٦) أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة "هود" فقال: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ [هود:٩٤] والمناسبة في ذلك -والله أعلم -أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في

---

(١) زيادة من ك، م.

(٢) في ك، م، أ: "من".

(٣) في ك، م، أ: "وإن كنا".

(٤) في ك، م: "احكم".

(٥) في ك، م: "فقالوا".

(٦) في ك، م، أ: "لما".." [1]

"﴿لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة﴾ أي: من الخصب والرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: هذا لنا بما نستحقه:، ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: جدب وقحط ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: هذا بسببهم وما جاؤوا به.

﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ يقول: مصائبهم عند الله، قال الله: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾

وقال ابن جريج، عن ابن عباس قال: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ قال: إلا من قبل الله.

﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (١٣٢) فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين (١٣٣) ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل (١٣٤)

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٤٨/٣

فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون (١٣٥) ﴾

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن تمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس في رواية: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار. وبه قال الضحاك بن مزاحم.

وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء.

وقال مجاهد: ﴿الطوفان﴾ الماء، والطاعون على كل حال.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا المنهال بن (١) خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن ميناء، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الطوفان الموت".

وكذا رواه ابن مردويه، من حديث يحيى بن يمان، به وهو حديث غريب.

وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. [فأصبحت كالصريم] (٢) ﴾ [القلم:١٩، ٢٠]

---

(١) في أ: "عن".

(٢) زيادة من أ.." [١]

"مثل ما قالوا، فسأل ربه (١) فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دما، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دما عبيطا (٢)

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر ابن يزيد (٣) عن عكرمة، قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على قوم فرعون (٤) انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضات الله، فأبدلهن الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسبيح. وروي من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه (٥)

وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم: الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٤٦١

﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١٣٦) وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون (١٣٧) ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا، مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، [أنه] (٦) انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون -وهم بنو إسرائيل - ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ كما قال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ [القصص:٥، ٦] وقال تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين﴾ [الدخان:٢٥-٢٨]

وعن الحسن البصري وقتادة، في قوله: ﴿مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ يعني: الشام.

وقوله: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾

وقوله: ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وما كانوا يعرشون﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يعرشون﴾ يبنون.

---

(١) في ك، م: "فدعا".

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٦٣/١٣) .

(٣) في أ: "زيد".

(٤) في ك، م، أ: "بني إسرائيل".

(٥) وفي إسناده جابر بن يزيد وهو ضعيف وقد ورد النهي عن قتل الضفدع مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فروي عبد الرحمن التيمي، رضي الله عنه: "أن طبيبا ذكر ضفدعا في دواء عند النبي - صلى الله

عليه وسلم – فنهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن قتله". أخرجه أبو داود في السنن برقم (٥٢٦٩)
.
(٦) زيادة من أ.." [1]

"وقال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها﴾ أي هذه الوصية ﴿إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ [فصلت:٣٤-٣٦] وقال في هذه السورة الكريمة أيضا: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ فهذه الآيات الثلاث في "الأعراف" و "المؤمنون" و "حم السجدة"، لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من **التمرد** بإذنه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه (١) عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين (٢) ويحملك على مجازاتهم ﴿فاستعذ بالله﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿سميع عليم﴾ يقول: إن الله الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا رب، كيف بالغضب؟ " فأنزل الله: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ (٣)

قلت: وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضبا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فقيل له، فقال: ما بي من جنون (٤)

وأصل "النزغ": الفساد، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ [الإسراء:٥٣] و"العياذ": الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما "الملاذ" ففي

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٦٦/٣

طلب الخير، كما قال أبو الطيب [الحسن بن هانئ] (٥) المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره ...

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره (٦) ...

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

---

(١) في ك، م: "لا يكفيه"، وفي أ: "لا يكفيك".

(٢) في د، ك، م: "الجاهل".

(٣) تفسير الطبري (٣٣٣/١٣) .

(٤) انظر: الحديث وتخريجه في الكلام على الاستعاذة.

(٥) زيادة من ك، م، أ.

(٦) ديوان المتنبي (٢٧٢/٢) .

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٧٥/١١) : "وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، رحمه الله، أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح لجناب الله سبحانه وتعالى.

وأخبرني العلامة شمس الدين بن القيم، رحمه الله، أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود، أدعوا الله بما تضمناه من الذل والخضوع".." [١]

"وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، عن مقسم مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق -يريدون النبي صلى الله عليه وسلم -وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات علي رضي الله عنه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا عليا رد الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصا (٢) أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٥٣٣/٣

فيه ثلاث رِيال (٣)

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ أي: فمكرت بهم بكيدي المتين، حتى خلصتك منهم.

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين (٣١) وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (٣٢) وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٣٣) ﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم **وتمردهم** وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا. وإنما هذا قول منهم يغرون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم.

وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث -لعنه الله -كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير، والسدي، وابن جريج وغيرهم؛ فإنه -لعنه الله -كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام صلى الله عليه وسلم (٤) من مجلس، جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصا؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضرب رقبته صبرا بين يديه، ففعل ذلك، ولله الحمد. وكان الذي أسره المقداد بن

---

(١) في ك، م: "النبي".

(٢) في د، ك، م: "فاقتصوا".

(٣) المسند (١/٣٤٨) قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٧) : "فيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح".

(٤) في ك، د: "عليه السلام".." [1]

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤/٤٦

"يخبر تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين، وفي أهل المدينة أيضا منافقون ﴿مردوا على النفاق﴾ أي: مرنوا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: **تمرد** فلان على الله، أي: عتا وتجبر.

وقوله: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ الآية [محمد:٣٠] ؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا، وإن كان يراه صباحا ومساء، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب وأصغى إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال: "إن في أصحابي منافقين" (١)

ومعناه: أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم. وتقدم في تفسير قوله: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ [التوبة:٧٤] أنه عليه السلام (٢) أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقا، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة "أبي عمر البيروتي" من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا بن جابر، حدثني شيخ بيروت يكنى أبا عمر، أظنه حدثني عن أبي الدرداء؛ أن رجلا يقال له "حرملة" أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الإيمان هاهنا -وأشار بيده إلى لسانه -والنفاق هاهنا -وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اجعل له لسانا ذاكرا، وقلبا شاكرا، وارزقه حبي، وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير". فقال: يا رسول الله، إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم، أفلا آتيك بهم؟ قال: "من أتانا استغفرنا له، ومن أصر على دينه فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترا" (٣)

قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم، عن أبي بكر الباغندي، عن هشام بن عمار، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم

---

(١) المسند (٨٣/٤) .

(٢) في أ: "صلى الله عليه وسلم".

(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٧٦/٢٩) .." [١]

"وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين. (١)

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشج رأسه، صلوات الله وسلامه عليه. وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم **وتمرد**، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيدا طريدا، فنالته هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس (٢) من أحد، ورأى أمر الرسول، صلوات الله وسلامه عليه (٣) في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم، فوعده ومناه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته، عليه السلام، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: "إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله".

فلما قفل، عليه السلام (٤) راجعا إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا [وكفرا وتفريقا بين المؤمنين] ﴾ (٥) وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجدا، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٠٤/٤

وأخرج محمدا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب (٦) أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله، عز وجل: ﴿لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ إلى ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ .

وكذا روي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر،

---

(١) في ت، ك، أ: "للتقوى".

(٢) في ت، أ: "المسلمون".

(٣) في أ: "صلى الله عليه وسلم".

(٤) في أ: "صلى الله عليه وسلم".

(٥) زيادة من أ.

(٦) في ت، ك: "فتجب".." [1]

"منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده (١) ويرجع إليه، هذا ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه (٢) السلام، **فتمرد** فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوطهما، بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل (٣) المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئا (٤) بعد شيء، ومرة (٥) بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون وملؤه - قبحهم الله -على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة (٦) واحدة أجمعين، ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام: ٤٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤/٢١١

(١) في ت، أ: "فيعبده".

(٢) في ت، أ: "عليهما".

(٣) في ت: "ولم يزل".

(٤) في ت: "شيء".

(٥) في ت: "وكره".

(٦) في ت: "صيحة".." [(١)]

"﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه: ٦٧، ٦٩] ، فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن -يعني الدشتكي -أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن ليث -وهو ابن أبي سليم -قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي من سورة يونس: ﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ والآية الأخرى: ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف: ١١٨ -١٢٢] ، وقوله ﴿إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه: ٦٩] .

﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين (٨٣) ﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات (١) البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية -وهم الشباب (٢) -على وجل وخوف منه ومن ملئه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا في **التمرد** والعتو، وكانت (٣) له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفا شديدا.

قال العوفي: عن ابن عباس: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى، من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون،

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٨٦/٤

ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ يقول: بني إسرائيل.

وعن ابن عباس، والضحاك، وقتادة (الذرية) : القليل.

وقال مجاهد في قوله: ﴿إلا ذرية من قومه﴾ يقول: بني إسرائيل. قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، من طول الزمان، ومات آباؤهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين.

---

(١) في ت: "الإيمان".

(٢) في ت: "الشاب".

(٣) في ت: "فكانت".." [1]

"﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين (١٦) وحفظناها من كل شيطان رجيم (١٧) إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين (١٨) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون (١٩) وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (٢٠) ﴾

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثواقب، لمن تأملها، وكرر النظر (١) فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هاهنا هي: الكواكب.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ [الفرقان: ٦١] ومنهم من قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر.

وقال عطية العوفي: البروج هاهنا: هي قصور الحرس (٢)

وجعل الشهب حرسا لها من مردة الشياطين، لئلا يسمعوا (٣) إلى الملأ الأعلى، فمن **تمرد** منهم [وتقدم] (٤) لاستراق السمع، جاءه ﴿شهاب مبين﴾ فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحا به في الصحيح، كما

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤/٢٨٧

قال البخاري في تفسير هذه الآية:

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان (٥) عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة، يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان". قال علي، وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع،

---

(١) في ت: "نظره".

(٢) في ت: "الحرس فيها".

(٣) في أ: "لئلا يسمعوا".

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) في ت: "حدثنا ابن سفيان".." (١)

"فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم.

وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدراجا له وإمهالا فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين (٤٠) قال هذا صراط علي مستقيم (٤١) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين (٤٢) وإن جهنم لموعدهم أجمعين (٤٣) لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (٤٤) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إبليس **وتمرده** وعتوه أنه قال للرب: ﴿بما أغويتني﴾ قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له.

قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لأزينن لهم﴾ أي: لذرية آدم، عليه السلام ﴿في الأرض﴾ أي: أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجا، ﴿ولأغوينهم﴾ أي: كما أغويتني ونـدرت على ذلك، ﴿أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ كما قال ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٦٢]

قال الله تعالى له متهددا ومتوعدا (١) ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾ أي: مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٥٢٨/٤

بأعمالكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، كما قال تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٤]
وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ [النحل: ٩]
وقرأ قيس بن عباد، ومحمد بن سيرين، وقتادة: "هذا صراط علي مستقيم"، كقوله: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ [الزخرف: ٤] أي: رفيع. والمشهور القراءة الأولى.
وقوله: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي: الذين قدرت لهم (٢) الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ﴿إلا من اتبعك من الغاوين﴾ استثناء منقطع.
وقد أورد ابن جرير هاهنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن موهب (٣) حدثنا يزيد بن قسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبئ ربه عن شيء، خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينا نبي في مسجده إذ جاء عدو الله -يعني: إبليس -حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. [فقال

(١) في ت، أ: "متوعدا ومهددا".
(٢) في أ: "عليهم".
(٣) في أ: "وهب".." [1]

"﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا (٨) ﴾
يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون (١) علوا كبيرا، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كما قال تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ [الحجر: ٦٦] أي: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.
وقوله: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى الإفسادتين ﴿بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد﴾ أي: سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولي بأس شديد، أي: قوة وعدة وسلطة (٢) شديدة ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا ﴿وكان وعدا مفعولا﴾

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٥٣٥/٤

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولا ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضا، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيرا مقعدا ضعيفا يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقا كثيرا من بني إسرائيل.

وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا (٣) وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي، رحمه الله، بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع [بعض] (٤) زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد **تمردوا** وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء.

---

(١) في ف، أ: "ولتعلن".

(٢) في ف: "وسلطنة".

(٣) تفسير الطبري (١٥/١٧)

(٤) زيادة من ف، أ.." [1]

"﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا (٣٥) وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا (٣٦) ﴾

يقول الله تعالى بعد ذكر (١) المشركين المستكبرين عن مجالسة (٢) الضعفاء والمساكين من المسلمين،

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٥/٤٧

وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم (٣) مثلا برجلين، جعل الله ﴿لأحدهما جنتين﴾ أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل (٤) المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ أي: خرجت ثمرها ﴿ولم تظلم منه شيئا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئا ﴿وفجرنا خلالهما نهرا﴾ أي: والأنهار تتخرق فيهما هاهنا وهاهنا.

﴿وكان له ثمر﴾ قيل: المراد به: المال. روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار وهو أظهر هاهنا، ويؤيده القراءة الأخرى: "وكان له ثمر" بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون (٥) جمع ثمرة، كخشبة وخشب، وقرأ آخرون: ﴿ثمر﴾ بفتح الثاء والميم.

فقال -أي صاحب هاتين [الجنتين] (٦) - ﴿لصاحبه وهو يحاوره﴾ أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس: ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا﴾ أي: أكثر خدما وحشما وولدا.

قال قتادة: تلك -والله- أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر.

وقوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها (٧) من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف (٨) وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة (٩) ؛ ولهذا قال: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي: كائنة ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله، ليكونن لي هناك أحسن من هذا لأني محظى (١٠) عند ربي، ولولا كرامتي (١١) عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت:٥٠] ، وقال ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا﴾ [مريم:٧٧] أي: في الدار الآخرة، تألى على الله، عز

---

(١) في ت، ف: "ذكره".

(٢) في ت: "مجالسهم".

(٣) في ت، ف، أ: "لهم ولهم".

(٤) في ف، أ: "بالنخيل".

(٥) في ت: "فيك".

(٦) زيادة من ف.

(٧) في ف: "فيهما".

(٨) في ت: "ولايسلم".

(٩) في ت: "بالأخرى".

(١٠) في ت، ف: "محض".

(١١) في ت: "إكرامى".." [1]

"﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا (٥٥) وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا (٥٦) ﴾ .

يخبر تعالى عن تمرد (١) الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات [والآثار] (٢) والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عيانا، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين﴾ [الشعراء:١٨٧] ، وآخرون قالوا: ﴿ائتنا (٣) بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ [العنكبوت:٢٩] ، وقالت قريش: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال:٣٢] ، ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ [الحجر:٧، ٦] إلى غير ذلك [من الآيات الدالة على ذلك] (٤) .

ثم قال: ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أو يأتيهم العذاب قبلا﴾ أي: يرونه عيانا مواجهة [ومقابلة] (٥) ، ثم قال: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾ أي: قبل العذاب مبشرين (٦) من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين (٧) من كذبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿ليدحضوا به﴾ أي: ليضعفوا به ﴿الحق﴾ الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم. ﴿واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾ أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث (٨) بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هزوا﴾ أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٥٧/٥

وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا (٥٧) وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا (٥٨) وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا (٥٩) ﴾ .

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم (٩) ممن ذكر بآيات الله (١٠) فأعرض عنها، أي: تناساها وأعرض

---

(١) في ت: "ثمود".

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) زيادة من ف.

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) في ت، ف، أ: "مبشرون".

(٧) في ت، ف، أ: "ومنذرون".

(٨) في ت، أ: "أبعث".

(٩) في أ: "وأي عبادى أظلم".

(١٠) في ف: "ربه".." [1]

"وليا أو أخافه، فقد بارزني بالمحاربة، وبادأني وعرض لي نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي، أم يظن الذي يعاديني أن يعجزني، أم (١) يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني. وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة، لا أكل مضطرهم (٢) إلى غيري. رواه ابن أبي حاتم.

﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفرا، وأكثرهم جنودا، وأعمرهم ملكا، وأطغاهم وأبلغهم **تمردا**، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلها غيره.

هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليدا عندهم، في حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفسا فخافهم

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٧٢/٥

أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيرا يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك.

﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث (٣) يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف ٥٢] أي: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصري: ﴿واحلل عقدة من لساني﴾ قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي.

وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عمرو بن عثمان، حدثنا بقية، عن أرطاة بن المنذر، حدثني بعض أصحاب محمد بن كعب، عنه قال: أتاه ذو قرابة له. فقال له: ما بك بأس لولا أنك تلحن في كلامك، ولست تعرب في قراءتك؟ فقال القرظي: يا ابن أخي، ألست أفهمك إذا حدثتك (٤) ؟ . قال:

(١) في أ: "أو".

(٢) في ف، أ: "نصرتهم".

(٣) في أ: "بحيث ما".

(٤) في أ: "حدثت"." [1]

"الرسالة والنبوة.

وقوله: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولا لنفسي، أي: كما أريد وأشاء.

وقال البخاري عند تفسيرها: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا محمد ابن سيرين عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٨٢/٥

أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتب علي قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحج آدم موسى" أخرجاه (١) .

﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ أي: بحججي وبراهيني ومعجزاتي، ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تبطئا.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تضعفا.

والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عونا لهما عليه، وقوة لهما وسلطانا كاسرا له، كما جاء في الحديث: "إن عبدي كل عبدي للذي (٢) يذكرني وهو مناجز قرنه". (٣)

﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: **تمرد** وعتا وتجهرم على الله وعصاه،

﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فقولا له قولا لينا﴾ : يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

وقال وهب بن منبه: قولا له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة.

وعن عكرمة في قوله: ﴿فقولا له قولا لينا﴾ قال: لا إله إلا الله، وقال (٤) عمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: ﴿فقولا له قولا لينا﴾ أعذرا إليه، قولا له: إن لك ربا ولك معادا، وإن بين يديك جنة ونارا.

وقال بقية، عن علي بن هارون، عن رجل، عن الضحاك بن مزاحم، عن النزال بن سبرة، عن علي في قوله: ﴿فقولا له قولا لينا﴾ قال: كنه.

وكذا روي عن سفيان الثوري: كنه بأبي مرة.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٣٦) .

(٢) في أ: "الذي".

(٣) رواه الترمذي في السنن برقم (٣٥٨٠) من حديث عمارة بن زعكرة رضي الله عنه. وقال الترمذي "هذا

حديث غريب ولا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوى".

(٤) في أ: "وعن".." [١]

"وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطبت.

ثم قال موسى: ﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾ أي: وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى (١) بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدا وخدما، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرته شيئا بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قال فرعون وما رب العالمين (٢٣) قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين (٢٤) قال لمن حوله ألا تستمعون (٢٥) قال ربكم ورب آبائكم الأولين (٢٦) قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون (٢٧) قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون (٢٨) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: ﴿وما رب العالمين﴾ ؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص:٣٨] ، ﴿فاستخف (٢) قومه فأطاعوه﴾ [الزخرف:٥٤] . وكانوا يجحدون الصانع -تعالى -ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إني رسول رب العالمين﴾ [الزخرف:٤٦] ، قال له: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قال فمن (٣) ربكما يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه:٤٩، ٥٠] .

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية (٤) ، بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قال رب السموات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع (٥) عبيد له خاضعون ذليلون.

﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة. فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلا لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿ألا تستمعون﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٥/٢٩٤

أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه: أن لكم إلها غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين (٦) ، الذي كانوا قبل فرعون وزمانه.

﴿قال﴾ أي: فرعون لقومه: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ أي: ليس

---

(١) في ف، أ: "على".

(٢) في أ: "واستخف".

(٣) في ف، أ: "ومن" وهو خطأ.

(٤) في أ: "ماهيته".

(٥) في ف: "والجميع".

(٦) في أ: "الأوائل".." [١]

"الأعداء" و"جاءت الحروب"، وهو كذب وافتراء، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لنغرينك بهم﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: لنسلطنك عليهم. وقال قتادة، رحمه الله: لنحرشنك بهم. وقال السدي: لنعلمنك بهم.

﴿ثم لا يجاورونك فيها﴾ أي: في المدينة ﴿إلا قليلا * ملعونين﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين، ﴿أينما ثقفوا﴾ أي: وجدوا، ﴿أخذوا﴾ لذلتهم وقلتهم، ﴿وقتلوا تقتيلا﴾ .

ثم قال: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي: هذه سنته في المنافقين إذا **تمردوا** على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ أي: وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.." [٢]

"﴿فالتاليات ذكرا﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا﴾ [المرسلات:٥، ٦] .

وقوله: ﴿إن إلهكم لواحد﴾ هذا هو المقسم عليه، أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ أي: من المخلوقات، ﴿ورب المشارق﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب (١) ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٣٨/٦

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٨٣/٦

المغارب لدلالتها عليه. وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾ [المعارج:٤٠] . وقال في الآية الأخرى: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن:١٧] يعني في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (١٠) ﴾

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بزينة الكواكب﴾ ، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضيء (٢) لأهل الأرض، كما قال تعالى ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ [الملك:٥] ، وقال: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ [الحجر:١٦-١٨] .

وقوله ها هنا: ﴿وحفظا﴾ تقديره: وحفظناها حفظا، ﴿من كل شيطان مارد﴾ يعني: **المتمرد** العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال: ﴿لا يسمعون إلى الملإ الأعلى﴾ أي: لئلا يصلوا (٣) إلى الملأ الأعلى، وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ [سبأ:٢٣] ولهذا قال ﴿ويقذفون﴾ أي: يرمون ﴿من كل جانب﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دحورا﴾ أي:رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي:في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ [الملك:٥] .

وقوله: ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها

---

(١) في ت: "الكواكب".

(٢) في ت، س: "فيضئ".

(٣) في ت، س: "يصلون"..." [1]

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٦/٧

"خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما ثنتان فقد أعطيهما وأنا أرجو أن يكون قد أعطي الثالثة" (١)

وقال (٢) الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن راشد اليمامي، حدثنا إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا دعاء إلا استفتحه بـ "سبحان الله ربي الأعلى العلي الوهاب" (٣)

وقد قال (٤) أبو عبيد: حدثنا علي بن ثابت عن جعفر بن برقان عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبي الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان عليهما (٥) السلام: أن سلني حاجتك. قال: أسألك أن تجعل لي قلبا يخشاك كما كان قلب أبي وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي. فقال الله: أرسلت إلى عبدي وسألته (٦) حاجته فكانت [حاجته] (٧) أن أجعل قلبه يخشاني وأن أجعل قلبه يحبني لأهبن له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. قال الله تعالى: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ والتي بعدها، قال: فأعطاه [الله] (٨) ما أعطاه وفي الآخرة لا حساب عليه.

هكذا أورده أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام في تاريخه (٩)

وروي عن بعض السلف أنه قال: بلغني عن داود [عليه السلام] (١٠) أنه قال: "إلهي كن لسليمان كما كنت لي": فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان: يكون لي كما كنت لي، أكون له كما كنت لك.

وقوله: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ قال الحسن البصري رحمه الله: لما عقر سليمان الخيل غضبا لله، عز وجل عوضه الله ما هو خير منها وأسرع الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر.

وقوله: ﴿حيث أصاب﴾ أي: حيث أراد من البلاد.

وقوله: ﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾ أي: منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر وطائفة غواصون في البحار يستخرجون مما (١١) فيه، من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ أي: موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

---

(١) المعجم الكبير (٥/٢٤) قال الهيثمي في المجمع (٤/٨) : "فيه محمد بن أيوب بن سويد الرملي وهو متهم بالوضع".

(٢) في ت: "وروى".

(٣) المسند (٥٤/٤) قال الهيثمي في المجمع (١٥٦/١٠) : "فيه عمر بن راشد اليمامي وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح".

(٤) في ت: "وروى".

(٥) في ت، أ: "عليه".

(٦) في ت، س: "أسأله".

(٧) زيادة من ت، س.

(٨) زيادة من أ.

(٩) تاريخ دمشق (٥٦٩/٧) "القسم المخطوط".

(١٠) زيادة من ت، س، أ.

(١١) في ت: "ما".." [١]

"من نار وآدم خلق من طين والنار خير من الطين في زعمه. وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله، وكفر بذلك فأبعده الله وأرغم أنفه وطرده عن (١) باب رحمته ومحل أنسه وحضرة قدسه وسماه "إبليس" إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض فسأل الله النظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال: ﴿لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين﴾ كما قال: ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٦٢] وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي (٢) قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾ [الإسراء: ٦٥]

وقوله: ﴿قال فالحق والحق. أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع "الحق" الأولى (٣) وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول وفي رواية عنه: الحق مني، وأقول الحق.

وقرأ آخرون بنصبهما.

قال السدي: هو قسم أقسم الله به.

قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٧٣/٧

[السجدة: ١٣] وكقوله تعالى: ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا﴾ [الإسراء: ٦٣]

﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين (٨٦) إن هو إلا ذكر للعالمين (٨٧) ولتعلمن نبأه بعد حين (٨٨) ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبتغي زيادة عليه بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

قال سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي الضحى عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به ومن لا (٤) يعلم فليقل: الله أعلم فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم فإن الله (٥) قال لنبيكم صلى الله عليه وسلم: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ أخرجاه (٦) من حديث الأعمش به (٧)

---

(١) في أ: "لم".

(٢) في أ: "الله عز وجل".

(٣) في أ: "من".

(٤) في أ: "وهو".

(٥) في أ: "الأول".

(٦) في ت: "أخرجه البخاري ومسلم".

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٨٠٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) .." [١]

"الليث الهمداني قالا حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، عن زرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن، عصم ذلك اليوم من كل سوء".

ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد. ورواه الترمذي من حديث المليكي، وقال: تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه (١) .

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٨٢/٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣) ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول "سورة البقرة" بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقد قيل: إن ﴿حم﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، وأنشدوا في ذلك (٢)

يذكرني حاميم والرمح شاجر ... فهلا تلا حاميم قبل التقدم ...

وقد ورد (٣) في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي، من حديث الثوري، عن أبي إسحاق، عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن بيتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون" وهذا إسناد صحيح (٤) .

واختار أبو عبيد أن يروى: "فقولوا: حم، لا ينصروا" أي: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جعله جزاء لقوله: فقولوا.

وقوله: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ أي: تنزيل هذا الكتاب -وهو القرآن- من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه.

وقوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه.

وقوله: ﴿شديد العقاب﴾ أي: لمن **تمرد** وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن (٥) أوامر الله، وبغى [وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف] (٦) . وهذه كقوله تعالى: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ [الحجر: ٤٩،٥٠] يقرن هذين الوصفين كثيرا في مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذي الطول﴾ قال ابن عباس: يعني: السعة والغنى. وكذا قال مجاهد وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: ﴿ذي الطول﴾ يعني: الخير الكثير.

---

(١) سنن الترمذي برقم (٢٨٧٩) .

(٢) البين في تفسير الطبري (٢٦/٢٤) وفي صحيح البخاري (٥٥٣/٨) "فتح" منسوبا إلى شريح بن أوفى العبسي.

(٣) في أ: "روى".

(٤) سنن أبي داود برقم (٢٥٩٧) وسنن الترمذي برقم (١٦٨٢) .
(٥) في أ: "على".
(٦) زيادة من أ.." [١]

"ثم قال: ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا﴾ أي: والمؤمنون أيضا يبغضون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته، يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا، ولا ينكر منكرا؛ ولهذا قال: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جبار﴾ .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة -وحكي عن الشعبي-أنهما قالا لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين. وقال أبو عمران الجوني وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق.

﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب (٣٧) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه في تكذيبه موسى، عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحا، وهو: القصر العالي المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي، كما قال: ﴿فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا﴾ [القصص: ٣٨] ، ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه في قبورهم. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات﴾ قال سعيد بن جبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا﴾ ، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى في أن الله، عز وجل، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل﴾ أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ قال ابن عباس [رضي الله عنهما] (١) ، ومجاهد: يعني إلا في خسار.

﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٢٧/٧

فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) ﴾

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾

---

(١) زيادة من س.." (١)

"﴿ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (٥١) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين (٥٣) فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين (٥٤) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (٥٥) فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين (٥٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ ، قال قتادة قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أفلا تبصرون﴾ ؟ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه (١) فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ [النازعات: ٢٣ -٢٥] .

وقوله: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ قال السدي: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن "أم" هاهنا بمعنى "بل". ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: "أما أنا خير من هذا الذي هو مهين". قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحا واضحا، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ ؟ على الاستفهام.

قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون -عليه اللعنة (٢) -أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب في قوله هذا كذبا بينا واضحا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ويعني بقوله: ﴿مهين﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة والسدي: يعني: ضعيف. وقال ابن جرير: يعني: لا ملك له ولا سلطان ولا مال.

﴿ولا يكاد يبين﴾ يعني: لا يكاد يفصح عن كلامه (٣) ، فهو عيي حصر. (٤)

قال السدي: ﴿ولا يكاد يبين﴾ أي: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدي، وابن جرير: يعني عيي اللسان.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٤٤/٧

وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين (٥) وضعها في فيه وهو صغير.
وهذا الذي قاله فرعون -لعنه الله- كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى (٦) ، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر (٧) أبصار ذوي [الأبصار و] (٨) الألباب. وقوله: ﴿مهين﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خلقة وخلقا ودينا. وموسى [عليه السلام] (٩) هو الشريف الرئيس الصادق البار

---

(١) في أ: "ومن معه".

(٢) في ت، م، أ: "لعنة الله".

(٣) في ت: "بكلامه".

(٤) في ت، أ: "حصير".

(٥) في ت: "التي".

(٦) في ت: "الموسى".

(٧) في ت، م: "تبهر".

(٨) زيادة من ت.

(٩) زيادة من ت، م.." [1]

"وقوله: ﴿فراغ إلى أهله﴾ أي: انسل خفية في سرعة، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ أي: من خيار ماله. وفي الآية الأخرى: ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ [هود: ٦٩] أي: مشوي على الرضف، ﴿فقربه إليهم﴾ أي: أدناه منهم، ﴿قال ألا تأكلون﴾ : تلطف في العبارة وعرض حسن.
وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه (١) من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: "نأتيكم بطعام؟ " بل جاء به بسرعة (٢) وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ألا تأكلون﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل (٣) .
وقوله: ﴿فأوجس منهم خيفة﴾ : هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهو (٤) قوله:

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٣١/٧

﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ [هود ٧٢، ٧٣] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ ، فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منهما، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ أي: في صرخة عظيمة (٥) ورنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم والثوري والسدي وهي قولها: ﴿يا ويلتا﴾ ﴿فصكت وجهها﴾ (٦) أي: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن (٧) سابط.

وقال ابن عباس: لطمت، أي تعجبا كما تتعجب (٨) النساء من الأمر الغريب، ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوز [عقيم] (٩) ، وقد كنت في حال الصبا عقيما لا أحبل؟.

﴿قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ (١٠) أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

---

(١) في م: "بطعام".

(٢) في أ: "في سرعة".

(٣) وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "جلاء الأفهام" (ص١٨١- ١٨٤) في الكلام على آداب الضيافة في هذه الآيات.

(٤) في م: "وهي".

(٥) في م، أ: "وعيطة".

(٦) في م: "وصكت".

(٧) في م: "وأبو".

(٨) في م: "يتعجب".

(٩) زيادة من أ.

(١٠) في م: "العليم الحكيم" وهو خطأ.." [1]

"الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى﴾ ، كقوله: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ [القيامة: ٣٦ -٤٠] . (١) .

وقوله: ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾ أي: كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة. ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ أي: ملك عباده المال، وجعله لهم قنية مقيما عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: ﴿أغنى﴾ : مول، ﴿وأقنى﴾ : أخدم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن عباس ومجاهد أيضا: ﴿أغنى﴾ : أعطى، ﴿وأقنى﴾ : رضى.

وقيل: معناه: أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق.

وقيل: ﴿أغنى﴾ من شاء من خلقه و ﴿وأقنى﴾ : أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير (٢) وهما بعيدان من حيث اللفظ.

وقوله: ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له: "مرزم الجوزاء" كانت طائفة من العرب يعبدونه.

﴿وأنه أهلك عادا الأولى﴾ وهم: قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ [الفجر: ٦ -٨] ، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ [الحاقة: ٦، ٧] .

وقوله: ﴿وثمود فما أبقى﴾ ، أي: دمرهم فلم يبق منهم أحدا، ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي: من قبل هؤلاء، ﴿إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ أي: أشد تمردا من الذين من بعدهم، ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ يعني: مدائن لوط، قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ يعني: من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين﴾ [الشعراء: ١٧٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٧/٤٢١

قال قتادة: كان في مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فانضرم عليهم الوادي شيئا من نار ونفط وقطران كفم الأتون (٣) . رواه (٤) ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن وهب بن عطية، عن الوليد بن مسلم، عن خليد، عنه به. وهو غريب جدا.

---

(١) في م: "تمنى".

(٢) تفسير الطبري (٢٧/٤٤) .

(٣) في أ: "كتم الأنوف".

(٤) في م: "ورواه".." (١)

"﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا (٨) فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٩) أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠) رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا (١١) ﴾

يقول تعالى متوعدا لمن خالف أمره، وكذب رسله، وسلك غير ما شرعه، ومخبرا عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله﴾ أي: تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، ﴿فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا﴾ أي: منكرا فظيعا.

﴿فذاقت وبال أمرها﴾ أي: غب مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وكان عاقبة أمرها خسرا أعد الله لهم عذابا شديدا﴾ أي: في الدار الآخرة، مع ما عجل لهم في الدنيا.

ثم قال بعد ما قص من خبر هؤلاء: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب، ﴿الذين آمنوا﴾ أي: صدقوا بالله ورسله، ﴿قد أنزل الله إليكم ذكرا﴾ يعني: القرآن. كقوله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]

وقوله: ﴿رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات﴾ قال بعضهم: ﴿رسولا﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة؛ لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر.

وقال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر، يعني تفسيرا له ولهذا قال تعالى: ﴿رسولا يتلو عليكم

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٦٧/٧

آيات الله مبينات﴾ أي في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ كقوله تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ [إبراهيم: ١] وقال تعالى ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورا لما يحصل به من الهدى كما سماه روحا لما يحصل به من حياة القلوب فقال: تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا﴾." (١)

"نعم. فصور لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه. فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله، فيكون (١) له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم. قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد من غير الله: الصنم الذي سموه ودا.

وقوله: ﴿وقد أضلوا كثيرا﴾ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم. وقد قال الخليل، عليه السلام، في دعائه: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] .

وقوله: ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالا﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون ومثله في قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٨٨] وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا (٢٥) وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢٦) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا (٢٧) رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا (٢٨) ﴾

يقول تعالى: ﴿مما خطاياهم﴾ وقرئ: ﴿خطيئاتهم﴾ ﴿أغرقوا﴾ أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أغرقوا فأدخلوا نارا﴾ أي: نقلوا من تيار البحار (٢) إلى حرارة النار، ﴿فلم

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٥٥/٨

يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾ أي: لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله كقوله: ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ [هود: ٤٣] .

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ أي: لا تترك على [وجه] (٣) الأرض منهم أحدا ولا تومريا (٤) وهذه من صيغ تأكيد النفي.

قال الضحاك: ﴿ديارا﴾ واحدا. وقال السدي: الديار: الذي يسكن الدار.

فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ [هود: ٤٣] .

---

(١) في م: "ليكون".

(٢) في م: "البحر".

(٣) زيادة من م، أ.

(٤) في م: "ولادومريا".." (١)

"في هذا؟ فقلنا: كنا نقول: يولد عظيم، يموت عظيم، فقال: "ليس كذلك، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء"، وذكر تمام الحديث، وقد أوردناه في سورة "سبأ" بتمامه (١) وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم، **وتمرد** في طغيانه من بقي، كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك، عند قوله في سورة "الأحقاف": ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن﴾ الآية ٢٩. ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لخراب العالم - كما قال السدي: لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر، فكانت الشياطين قبل محمد صلى الله عليه وسلم قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر. فلما بعث الله محمدا نبيا، رجموا ليلة من الليالي، ففزع لذلك أهل الطائف، فقالوا: هلك أهل السماء، لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب. فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويسيبون مواشيهم،

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٣٦/٨

فقال لهم عبد يا ليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر أهل الطائف. أمسكوا عن أموالكم، وانظروا إلى معالم النجوم فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة - يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم-وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء. فنظروا فرأوها، فكفوا عن أموالهم. وفزعت الشياطين في تلك الليلة، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم، فقال: ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها. فأتوه فشم فقال: صاحبكم بمكة. فبعث سبعة نفر من جن نصيبين، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله (٢) صلى الله عليه وسلم قائما يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصا على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه، ثم أسلموا. فأنزل الله تعالى أمرهم على نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى في أول البعث من (كتاب السيرة) المطول، والله أعلم، ولله الحمد والمنة.

﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا (١١) وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا (١٢) وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا (١٣) ﴾

---

(١) عند تفسير الآية: ٢٣.

(٢) في م: "نبي الله".." [1]

"يخبر تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به؛ ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ فقوله: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ ؟ أي: هل سمعت بخبره؟ ﴿إذ ناداه ربه﴾ أي: كلمه نداء، ﴿بالوادي المقدس﴾ أي: المطهر، ﴿طوى﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح، كما تقدم في سورة طه. فقال له: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: تجبر وتمرد وعتا، ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ ؟ أي: قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به، أي: تسلم وتطيع. ﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي: أدلك إلى عبادة ربك، ﴿فتخشى﴾ أي: فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشيا بعدما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير. ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية، ودليلا واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله، ﴿فكذب وعصى﴾ أي: فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة. وحاصله أنه كفر قلبه

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٤١/٨

فلم ينفعل (١) لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلمه بأن ما جاء به أنه حق لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفة علم القلب، والإيمان عمله، وهو الانقياد للحق والخضوع له.

وقوله: ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي: في مقابلة الحق بالباطل، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى، عليه السلام، من المعجزة الباهرة، ﴿فحشر فنادى﴾ أي: في قومه، ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾

قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨] بأربعين سنة.

قال الله تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي: انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ [هود: ٩٩] ، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾ [القصص: ٤١] . هذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله: ﴿نكال الآخرة والأولى﴾ أي: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية. وقيل: كفره وعصيانه. والصحيح الذي لا شك فيه الأول.

وقوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ أي: لمن يتعظ وينزجر.

---

(١) في أ: "فلم يفعل".." (١)

"خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال نعم، الحديد. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، يتصدق بيمينه يخفيها من (١) شماله" (٢) .

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: تخلق علي آدم وذريته، يلقون علي نتنهم ويعملون علي بالخطايا، فأرساها الله بالجبال، فمنها ما ترون، ومنها ما لا ترون، وكان أول قرار الأرض كلحم الجزور إذا نحر، يختلج لحمه. غريب (٣) .

وقوله ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾ أي: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها، لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعا لخلقه ولما يحتاجون

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٨/٣١٥

إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل.

﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى (٣٤) يوم يتذكر الإنسان ما سعى (٣٥) وبرزت الجحيم لمن يرى (٣٦) فأما من طغى (٣٧) وآثر الحياة الدنيا (٣٨) فإن الجحيم هي المأوى (٣٩) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى (٤٠) فإن الجنة هي المأوى (٤١) يسألونك عن الساعة أيان مرساها (٤٢) فيم أنت من ذكراها (٤٣) إلى ربك منتهاها (٤٤) إنما أنت منذر من يخشاها (٤٥) كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٤٦) ﴾

يقول تعالى: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ وهو يوم القيامة. قاله ابن عباس، سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ [القمر: ٤٦] .

﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ أي: حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره، كما قال: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ [الفجر: ٢٣] .

﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ أي: أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانا، ﴿فأما من طغى﴾ أي: **تمرد** وعتا، ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾ أي: قدمها على أمر دينه وأخراه، ﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ أي: فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم. ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾

---

(١) في أ: "عن".

(٢) المسند (١٢٤/٣) ، ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٣٦٩) عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون به، وقال الترمذي: "هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه".

(٣) تفسير الطبري (٣٠/٣٠) .." [(١)]

"أي: أقبل. وقد يقال: إن هذا أنسب؛ لأنه في مقابلة قوله: ﴿والفجر﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: ﴿والليل إذا يسر﴾ (١) على إقباله كان قسما بإقبال الليل وإدبار النهار، وبالعكس، كقوله: ﴿والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس﴾ [التكوير:١٧، ١٨] . وكذا قال الضحاك: ﴿ [والليل] إذا يسر﴾ (٢) أي: يجري.

وقال عكرمة: ﴿والليل إذا يسر﴾ يعني: ليلة جمع. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣١٧/٨

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو عامر، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو قال: سمعت محمد بن كعب القرظي، يقول في قوله: ﴿والليل إذا يسر﴾ قال: اسر يا سار ولا تبين إلا بجمع.

وقوله: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي: لذي عقل ولب وحجا [ودين] (٣) وإنما سمي العقل حجرا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي. ومنه حجر اليمامة، وحجر الحاكم على فلان: إذا منعه التصرف، ﴿ويقولون حجرا محجورا﴾ [الفرقان:٢٢] ، كل هذا من قبيل واحد، ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها [إليه عباده] (٤) المتقون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم.

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، جاحدين لكتبه. فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبرا، فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾ وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودا، عليه السلام، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية﴾ [الحاقة:٧، ٨] وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون.

فقوله تعالى: ﴿إرم ذات العماد﴾ (٥) عطف بيان؛ زيادة تعريف بهم.

وقوله: ﴿ذات العماد﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم (٦) خلقة وأقواهم بطشا، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله [لعلكم تفلحون] ﴾ (٧) [الأعراف:٦٩] . وقال تعالى:

---

(١) في م: "يسرى".

(٢) زيادة من م، أ.

(٣) زيادة من م.

(٤) زيادة من م، أ.

(٥) في م: "بعاد إرم".

(٦) في م: "زيادتهم".

(٧) في م، أ، هـ: "ولا تعثوا في الأرض مفسدين" والصواب ما أثبتناه.." [(١)]

"ألا كل شيء -ما خلا الله- بائد ... كما باد حي من شنيف ومارد ...

هم ضربوا في كل صماء صعدة ... بأيد شداد أيدات السواعد (١)

وقال ابن إسحاق: كانوا عربا، وكان منزلهم بوادي القرى. وقد ذكرنا قصة "عاد" مستقصاة في سورة "الأعراف" بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره. ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها. وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد. وهكذا قال سعيد بن جبير، والحسن، والسدي. قال السدي: كان يربط الرجل، كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشدخه (٢) .

وقال قتادة: بلغنا أنه كانت له مطال وملاعب، يلعب له تحتها، من أوتاد وحبال.

وقال ثابت البناني، عن أبي رافع: قيل لفرعون ﴿ذي الأوتاد﴾ ؛ لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت.

وقوله: ﴿الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد﴾ أي: تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ أي: أنزل عليهم رجزا من السماء، وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين.

وقوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى. يعني: يرصد (٣) خلقه فيما يعملون، ويجازي كلا بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلا بما يستحقه. وهو المنزه عن الظلم والجور.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا جدا -وفي إسناده نظر وفي صحته- فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة البيساني، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معاذ، إن المؤمن لدى الحق أسير. يا معاذ، إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يخلف جسر جهنم خلف ظهره. يا معاذ، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته،

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٨/٣٩٤

وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله، عز وجل، فالقرآن دليله، والخوف محجته، والشوق مطيته، والصلاة كهفه، والصوم جنته، والصدقة فكاكه، والصدق أميره، والحياء وزيره، وربه، عز وجل، من وراء ذلك كله بالمرصاد" (٤) .

قال ابن أبي حاتم: يونس الحذاء وأبو حمزة مجهولان، وأبو حمزة عن معاذ مرسل. ولو كان عن أبي حمزة لكان حسنا. أي: لو كان من كلامه لكان حسنا. ثم قال ابن أبي حاتم:

---

(١) تفسير الطبري (١١٣/٣٠) .

(٢) في أ: "فشخده".

(٣) في أ: "يراصد".

(٤) ورواه أبو نعيم في الحلية (٣١/١٠) من طريق إسحاق بن أبي حسان، عن أحمد بن أبي الحواري به، ورواه أبو نعيم في الحلية (٢٦/١) من طريق عبد الملك بن أبي كريمة، عن أبي حاجب، عن عبد الرحمن، عن معاذ مرفوعا بنحوه.." [١]

"وقوله تعالى: ﴿فضرب الرقاب﴾ [محمد: ٤] .

هذا إذا جعلنا في " ضربا " ضميرا مستترا؛ وأما من يقول من النحويين: إنه لا يتحمل ضميرا ألبتة؛ فلا يكون من المسألة في شيء.

والضابط فيما يجب استتاره، وإن عرف من تعداد الصور المتقدمة - " أن كل ضمير لا يحل محله ظاهر، ولا ضمير متصل، فهو واجب الاستتار كالمواضع المتقدمة، وما جاز أن يحل محله ظاهر، فهو جائز الاستتار؛ نحو: " زيد قام " في " قام " ضمير جائز الاستتار، ويحل محله الظاهر؛ نحو: " زيد قام أبوه " أو الضمير المنفصل، نحو: " زيد ما قام إلا هو " فإن وجد من لسانهم في أحد المواضع المتقدمة، الواجب فيها الاستتار ضمير منفصل، فليعتقد كونه توكيدا للضمير المستتر؛ كقوله تعالى: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ [البقرة: ٣٥] ف " أنت " مؤكد لفاعل " اسكن ".

و" بالله " جار ومجرور، وكذلك: " من الشيطان " وهما متعلقان ب " أعوذ ".

ومعنى الباء: الاستعانة، و " من ": للتعليل، أي: أعوذ مستعينا بالله من أجل الشيطان، ويجوز أن تكون " من " لابتداء الغاية، ولها معان أخر ستأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣٩٧/٨

وأما الكلام على الجلالة، فيأتي في البسملة إن شاء الله تعالى.

والشيطان: **المتمرد** من الجن، وقيل: الشياطين أقوى من الجن، والمردة أقوى من الشياطين، والعفريت أقوى من المردة، والعفاريت أقواها.

وقال أبو عبيدة – رحمه الله –: الشيطان: اسم لكل عارم من الجن، والإنس، والحيوانات؛ [لبعده] من الرشاد قال تبارك وتعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن﴾ [الأنعام: ١١٢] ، فجعل من الإنس شياطين.." (١)

"غيره؛ والرجمة: أحجار القبر، ثم عبر بها عنه؛ وفي الحديث: " لا ترجموا قبري "، أي: لا تضعوا عليه الرجمة.

ويجوز أن يكون بمعنى " فاعل "؛ لأنه يرجم غيره بالشر، ولكنه بمعنى " مفعول " أكثر، وإن كان غير مقيس.

ثم في كونه مرجوما وجهان:

الأول: أن معنى كونه مرجوما كونه ملعونا من قبل الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ [الحجر: ٣٤] واللعن يسمى رجما.

وحكى الله تعالى – عن والد إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – أنه قال: ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾ قيل: عنى بقوله الرجم بالقول.

وحكى الله – تعالى – عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ [الشعراء: ١١٦] وفي سورة يس: ﴿لئن لم تنتهوا لنرجمنكم﴾ [يس: ١٨] .

والوجه: أن الشيطان إنما وصف بكونه مرجوما؛ لأنه – تعالى – أمر الملائكة برمي الشياطين بالشهب والثواقب؛ طردا لهم من السموات، ثم وصف بذلك كل شرير **متمرد** وأما قوله في بعض وجوه الاستعاذة: إن الله هو السميع العليم، ففيه وجهان:

الأول: أن الغرض من الاستعاذة الاحتراز من شر الوسوسة، ومعلوم أن الوسوسة كأنها كلام خفي في قلب الإنسان، ولا يطلع عليها أحد، فكأن العبد يقول: يا من هو يسمع كل مسموع، ويعلم كل سر خفي أنت تعلم وسوسة الشيطان، وتعلم غرضه منها، وأنت القادر على دفعها عني، فادفعها عني بفضلك؛ فلهذا السبب كان ذكر السميع العليم أولى بهذا الموضع من سائر الأذكار.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩٦/١

الثاني: أنه إنما تعين هذا الذكر بهذا الموضع؛ اقتداء بلفظ القرآن؛ وهو قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠] .

فصل في احتجاج المعتزلة لإبطال الجبر

قال ابن الخطيب – رحمه الله تعالى –: قالت المعتزلة قوله: " أعوذ بالله " يبطل القول بالجبر من وجوه:." (١)

"وأما من حيث النقل فلقوله عليه الصلاة والسلام : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» .

وقد يجاب عن الأول بأنا لا نسلم أن آدم وحواء – عليهما الصلاة والسلام – قبلا من إبليس ذلك الكلام وصدقاه؛ لأنهما لو صدقاه لكانت معصيتهما في ذلك التصديق أعظم من أكل الشجرة؛ لأن إبليس لما قال لهما: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ [الأعراف: ٢٠] الآية فقد ألقى إليهما سوء الظن بالله – تعالى – ودعاهما إلى ترك التسليم لأمره، والرضا بحكمه، وان يعتقدوا فيه كون إبليس ناصحا لهما، وأن الرب – تعالى – قد غضهما ولا شك أن هذه الأشياء أعظم من أكل الشجرة، فوجب أن تكون المعاتبة في ذلك أشد، وأيضا آدم – عليه الصلاة والسلام – كان عالما **بتمرد** «إبليس» ، وكونه مبغضا له وحاسدا له، فكيف يجوز من العاقل أن يقبل قول عدوه مع هذه القرائن، وليس في الآية أنهما أقدما على ذلك الفعل عند ذلك الكلام.

وأما الجواب الثاني: فهو أن العتاب إنما حصل على قلة التحفظ من سباب النسيان، وهذا الضرب من السهو موضوع عن المسلمين، وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به، وليس بموضوع عن الأنبياء لعظم خطرهم ومثلوه بقوله: ﴿يانسآء النبي لستن كأحد من النسآء﴾ [الأحزاب: ٣٢] ، ثم قال: ﴿من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ [الأحزاب: ٣٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» ، ولقد كان على النبي صلى الله عليه وسلم من التشديدات في التكليف ما لم يكن على غيره.

وذكر بعض المفسرين أن حواء سقته الخمر، فسكر وفي أثناء السكر فعل ذلك قالوا وهذا ليس ببعيد؛ عليه الصلاة والسلام – كان مأذونا له في تناول كل الأشياء سوى تلك الشجرة، فكان مأذونا له في تناول الخمر، ولقائل أن يقول: إن خمر الجنة لا يسكر لقوله تعالى في صفة خمر الجنة: ﴿لا فيها غول﴾ [الصافات:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١/١٠٠

. [٧٤

القول الثاني: أن آدم – عليه الصلاة والسلام – فعله عامدا؛ فها هنا قولان:

أحدهما: أن ذلك النهي نهي تنزيه، لا نهي تحريم، وقد تقدم.

الثاني: أنه تعمد وأقدم على الكل بسبب اجتهاد أخطأ فيه، وذلك لا يقتضي كون الذنب كبيرة، وهذا اختيار أكثر المعتزلة.." (١)

"قوله تعالى: ﴿وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله﴾ الآية.

قوله تعالى: «فعليه» جواب الشرط، والشرط الثاني – وهو «إن كنتم مسلمين» – شرط في الأول، وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا في الوجود، فالشرط الثاني شرط في الأول، ولذلك يجب تقدمه على الأول، وقد تقدم تحقيق ذلك [البقرة: ٣٨] .

قال الفقهاء: المتأخر يجب أن يكون متقدما، والمتقدم يجب أن يكون متأخرا، مثاله قول الرجل لامرأته: إن دخلت الدار، فأنت طالق إن كلمت زيدا، والمشروط متأخر عن الشرط، وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ، متقدما في المعنى، وأن يكون المتقدم في اللفظ متأخرا في المعنى، فكأنه يقول لامرأته: حال ما كلمت زيدا إن دخلت الدار، فأنت طالق، فلو حصل هذا التعليق، قيل: إن كلمت زيدا لم يقع الطلاق. قوله: ﴿ن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطا؛ لأن يصيروا مخاطبين بقوله: ﴿إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا﴾ فكأنه – تعالى – يقول للمسلم حال إسلامه: إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل، والأمر كذلك؛ لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام، وهو الانقياد لتكاليف الله، وترك **التمرد**، والإيمان عبارة عن صيرورة القلب، عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد، وأن ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره، وقهره، وإذا حصلت هاتان الحالتان، فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى الله – تعالى –، ويحصل في القلب نور التوكل على الله – تعالى –.

فصل

إنما قال: «فعليه توكلوا» ولم يقل: «توكلوا على الله» ، لأن الأول يفيد الحصر، كأنه – عليه الصلاة والسلام – أمرهم بالتوكل عليه، ونهاهم عن التوكل على الغير، ثم بين – تعالى – أن موسى – عليه الصلاة والسلام – لما أمرهم بذلك قبلوا قوله ﴿فقالوا على الله توكلنا﴾ أي: توكلنا عليه واعتمادنا، ولم نلتفت إلى أحد سواه، ثم اشتغلوا بالدعاء، وطلبوا من الله شيئين:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٦٤/١

أحدهما: أن قالوا: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ .

والثاني: ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ أما قولهم: ﴿لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ ففيه وجوه:

الأول: لا تفتن بنا فرعون وقومه؛ لأنك لو سلطتهم علينا، لوقع في قلوبهم أنا لو كنا على الحق، لما سلطتهم علينا؛ فيصير ذلك شبهة قوية في إصرارهم على الكفر؛ فيكون ذلك فتنة لهم.

الثاني: لو سلتهم علينا، لاستوجبوا العقاب الشديد في الآخرة، وذلك يكون فتنة لهم.." (١)

"أحوال الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فقد صار مذكورا، وإذا كان الأمر كذلك، فقد أزيحت الأعذار، وأزيلت العلل، فلا جرم: كل من ورد عرصة القيامة، ألزمناه طائره في عنقه، ونقول له: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ .

وثانيها: أنه تعالى، لما بين أنه أوصل إلى الخلق أصناف الأشياء النافعة لهم في الدين والدنيا مثل آيتي الليل والنهار، وغيرهما، كان منعما عليهم بجميع وجوه النعم، وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته، فلا جرم: كل من ورد عرصة القيامة، فإنه يكون مسئولا عن أعماله وأقواله.

وثالثها: أنه تعالى بين أنه ما خلق الخلق إلا ليشتغلوا بعبادته، كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] فلما شرح أحوال الشمس والقمر والنهار والليل، كان المعنى: إنما خلقت هذه الأشياء لتنتفعوا بها، فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي، وإذا كان كذلك، فكل من ورد عرصة القيامة، سألته، هل أتى بتلك الخدمة والطاعة، أو **تمرد** وعصى.

وقرئ «في عنقه» بإسكان النون وهو تخفيف شائع.

فصل

اختلفوا في الطائر، فقال ابن عباس - رضي الله عنه -: «عمله، وما قدر عليه من خير أو شر، فهو ملازمه، أينما كان» .

وقال الكلبي ومقاتل: «خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسبه» ، وقال الحسن: يمنه وشؤمه، وعن مجاهد: «ما من مولود إلا في عنقه ورقة، مكتوب فيها شقي أو سعيد» .

وقال أهل المعاني: أراد بالطائر ما قضى عليه أنه عامله، وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة، سمي طائرا على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها، فكانوا غذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال، وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير أو إلى شر، اعتبروا أحوال الطير، وهو

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٩٣/١٠

أنه يطير بنفسه، أو يحتاج إلى إزعاجه، وإذا طار، فهو يطير متيامنا أو متياسرا، أو صاعدا إلى الجو، أإلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر بالطائر، فلما كثر ذلك منهم، سمي الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إنا تطيرنا بكم﴾ [يس: ١٨] وقوله عز وجل: ﴿قالوا طائركم معكم﴾ [يس: ١٩] فالمعنى: أن كل إنسان ألزمناه عمله في عنقه.." (١)

"ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض؛ فثبت أن هذه الآيات محكمة، والآيات التي نحن في تفسيرها مجملة؛ فيجب حمل هذه الآية علىتلك الآيات.

واعلم أن أحسن الناس كلاما في تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة: «القفال» - رحمه الله تعالى - فإنه ذكر وجهين:

الأول: أنه - تعالى - أخبر أنه لا يعذب أحدا بما يعلمه منه، ما لم يعمل به أي: لا يجعل علمه حجة على من علم أنه إذا أمره عصاه، بل يأمره، فإذا ظهر عصيانه للناس، فحينئذ يعاقبه.

وقوله - تعالى -: ﴿وإذآ أردنآ أن نهلك قرية أمرنا مترفيها﴾ .

معناه: وإذا أردنا إمضاء ما سبق من القضاء بإهلاك قوم بظهور معاصيهم، فحينئذ ﴿أمرنا مترفيها﴾ . أي: أمرنا المنعمين فيها المتعززين الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا بالإيمان والعمل بشرائع ديني، على ما يبلغهم عني رسولي، ففسقوا، فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق بإهلاكهم، لظهور معاصيهم، فحينئذ أدمرها.

والحاصل: أن المعنى: وإذا اردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا على المعصية لم نكتف [في تحقيق] ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم، بل أمرنا مترفيها، ففسقوا، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق، فحينئذ نوقع العذاب الموعود به.

الوجه الثاني: أن التأويل: وإن أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصي من أهلها، لم نعاجلهم بالعذاب في أول ظهور المعاصي بينهم، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي.

وإنما خص المترفين بذلك الأمر؛ لأن المترف هو المنعم، ومن كثرت نعمة الله عليه، كان قيامه بالشكر أوجب، فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع عن المعاصي مرة بعد أخرى، مع أنه لا يقطع عنهم تلك النعم، بل يزيدها حالا بعد حال، فحينئذ يظهر عنادهم **وتمردهم** وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق، فحينئذ يصب

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٥/١٢

الله البلاء عليهم صبا. ثم قال القلال – رحمه الله –: وهذان التأويلان راجعان إلى أن الله – تعالى – أخبر عن عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة؛ حتى يعذر إليهم غاية الإعذار، الذي يقع منه اليأس من إيمانهم، كما قال – تعالى – في قوم نوح – عليه السلام –: ﴿ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾ [نوح: ٢٧] ، وقال عز وجل: ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ [هود: ٣٦] وقال تعالى في غيرهم: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ [الأعراف: ١٠١] فأخبر الله تعالى عنهم أولا أنه لا يظهر العذاب إلا بعد بعثة الرسل، ثم أخبر ثانيا في هذه الآية: أنه – تعالى – إذا بعث الرسل أيضا، فكذبوا، لم يعاجلهم بالعذاب، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ، فإن بقوا مصرين، فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال.." (١)

"والمراد منه أن الطريق الذي ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون، **ويتمردون** فيما تقدم من القرون الذين كانوا بعد نوح؛ حاد وثمود، وغيرهم، ثم إنه – تعالى – خاطب رسوله – صلوات الله عليه – بما يكون خطابا وردعا وزجرا للكل، فقال جل ذكره: ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾ وهذا تخويف لكفار «مكة» .

و «كم» نصب بأهلكنا، و «من القرون» تمييز ل «كم» و «من بعد نوح» : «من» لابتداء الغاية، والأولى للبيان، فلذلك اتحد متعلقهما، وقال الحوفي: «الثانية بدل من الأولى» ، وليس كذلك؛ لاختلاف معنييهما، والباء بعد «كفى» تقدم الكلام عليها، وقال ابن عطية: «إنما يجاء بهذه الباء في موضع مدح أو ذم» والباء في «بذنوب» متعلقة ب «خبيرا» وعلقها الحوفي ب «كفى» .

قال افراء – رحمه الله –: لو ألغيت الباء؛ من قوله: «بربك» جاز، وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يمدح به أو يذم؛ كقولك: كفاك به، وأكرم به رجلا، وطاب بطعامك طعاما، وجاد بثوبك ثوبا.

أما إذا لم يكن مدحا أو ذما، لم يجز دخولها، فلا يجوز أن يقال: «قام بأخيك» وأنت تريد: «قام أخوك» .

فصل في مقدار القرن

قال عبد الله بن أبي أوفى: القرن: عشرون ومائة سنة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أول قرن، وكان آخره يزيد بن معاوية، وقيل: مائة سنة.." (٢)

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٣٩/١٢

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٤٠/١٢

"ثم قال تعالى: ﴿ونخوفهم فما يزيدهم﴾ أي التخويف ﴿إلا طغيانا كبيرا﴾ ، أي: **تمردا** وعتوا عظيما، والمقصود من ذلك وجه آخر في أنه ما أظهر المعجزات التي اقترحوها؛ لأن هؤلاء خوفوا بأشياء كثيرة من الدنيا والآخرة، وبشجرة الزقوم، فما زادهم هذا التخويف إلا طغيانا كبيرا؛ وذلك يدل على قسوة قلوبهم، وتماديهم في الغي والطغيان.

وإذا كان كذلك فبتقدير أن يظهر الله لهم تلك المعجزات التي اقترحوها، لم ينتفعوا بها، ولم يزدادوا إلا تماديا ف يالجهل والعناد، وإذا كان كذلك، وجب في الحكمة ألا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات.

قرأ العامة «ونخوفهم» بنون العظمة، والأعمش بياء الغيبة.." (١)

"ثم إنه تعالى ذكر السبب الأصلي في وقوع هؤلاء الجهال في أودية الضلال، وهو حب الدنيا، والرغبة في المال والجاه، واعتقادهم أن ذلك إنما يحصل بجدهم واجتهادهم، فقال: ﴿وإذآ أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾ .

قال ابن عباس: الإنسان ها هنا هو الوليد بن المغيرة.

والأولى أن كل إنسان من شأنه إذا فاز بمقصوده، غتر وصار غافلا عن عبادة الله - تعالى - **وتمرد** على طاعته؛ كما قال: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٦، ٧] .

قوله تعالى: ﴿ونأى﴾ : قرأ العامة بتقديم الهمزة على حرف العلة؛ من النأي، وهو البعد، وابن ذكوان - ونقلها أبو حيان وابن الخطيب عن ابن عامر وأبو جعفر: «ناء» مثل «جاء» بتقديم الألف على الهمزة، وفيها تخريجان: أحدهما: أنها من: ناء، ينوء، أي: نهض؛ قال: [الرجز]

٣٤٦٠ - حتى إذا ما التأمت مفاصله ... وناء في شق الشمال كاهله

والثاني: أنه مقلوب من «نأى» ، ووزنه «فلع» كقولهم في «رأى» : «راء» إلى غير ذلك فيكونان بمعنى، ولكن متى أمكن عدم القلب، فهو أولى، وهذا الخلاف أيضا في حم السجدة [فصلت: ٥١] .

وأمال الألف إمالة محضة الأخوان، وأبو بكر، عن عاصم، وبين بين؛ بخلاف عنه، السوسي، وكذلك في فصلت، إلا أبا بكر؛ فإنه لم يمله.

وأمال فتحة النون في السورتين خلف، وأبو الحارث والدوري عن الكسائي.

ثم قال: ﴿وإذا مسه الشر﴾ ، أي: الشدة، والضر ﴿كان يئوسا﴾ أيسا قنوطا.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢٤/١٢

وقيل: معناه: أنه يتضرع، ويدعو عند الضر والشدة، فإذا تأخرت الإجابة، أيس، ولا ينبغي للمؤمن أن ييئس من الإجابة، وإن تأخرت، فيدع الدعاء.

قوله تعالى: ﴿على شاكلته﴾ : متعلق ب «يعمل» ، والشاكلة: أحسن ما قيل فيها ما قاله الزمخشري والزجاج: أنها مذهبه الذي يشاكل حاله في الهدى والضلالة؛ من قولهم: «." (١)

"قوله: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ الآية.

قال القاضي: وجه النظم كأنه يقول: يا محمد، إني خلقت الأرض، وزينتها، وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح، وأيضا، فالمقصود من خلقها بما فيها من المصالح ابتلاء الخلق بهذه التكاليف، ثم إنهم يكفرون ويتمردون، ومع ذلك، فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم، فأنت أيضا يا محمد لا يهمك الحزن؛ بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين.

قوله: ﴿زينة﴾ : يجوز أن ينتصب على المفعول له، وأن ينتصب على الحال، إن جعلت «جعلنا» بمعنى «خلقنا» ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا، إن ك انت «جعل» تصييرية، و «لها» متعلق ب «زينة» على العلة، ويجوز أن تكون اللام زائدة في المفعول، ويجوز أن تتعلق بمحذوف صفة ل «زينة» .

وقوله: «لنبلوهم» متعلق ب «جعلنا» بمعنييه.." (٢)

"التراب والحجارة، وفي صحته عنه نظر من حيث إن فعله لا يجمع على فعول. ويجوز في «جثيا» أن يكون مصدرا على فعول، وأصله كما تقدم في حال كونه جمعا، إما جثوو، وإما جثوي.

وقد تقدم أن الأخوين يكسران فاءه، والباقون يضمونها.

والجثو: القعود على الركب.

قوله: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ أي: ليخرجن من كل أمة وأهل دين من الكفار والشيعة فعلة كفرقة: ومنه الطائفة التي شاعت، أي: تبعت غاويا من الغواة.

قال تعالى: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا﴾ [الأنعام: ١٥٩] . والمعنى: أنه - تعالى - يحضرهم أولا حول جهنم، ثم يميز البعض من البعض، فمن كان منهم أشد تمردا في كفره خص بعذاب عظيم، لأن عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره، وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد، ومعنى الآية: أنه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتيا وتمردا ليعلم أن عذابه أشد وفائدة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٧٠/١٢

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٢٦/١٢

هذا التمييز التخصيص «بشدة العذاب لا التخصيص» بأصل العذاب، فلذلك قال في جميعهم: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾ ولا يقال: «أولى» إلا مع اشتراكهم في العذاب.

قوله: ﴿أيهم أشد﴾ فيه أقوال كثيرة، أظهرها عند جمهور المعربين، وهو مذهب سيبويه: أن «أيهم» موصولة بمعنى «الذي» ، وأن حركتها حركة بناء، بنيت عند سيبويه لخروجها عن النظائر.." (١)

"أنه بعث موسى إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر، وكان متبوعا فكان ذكره أولى. ومعنى «طغى» جاوز الحد في العصيان **والتمرد**، فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي.

قال موسى: «رب اشرح لي صدري» وسعه للحق.

(قال ابن عباس) : يريد حتى لا أخاف غيرك. والسبب في هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر ﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾ [الشعراء: ١٣] وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا، لشدة شوكته وكثرة جنوده، وكان يضيق صدرا (بما كلف) من مقاومة فرعون فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه حتى يعلم أن أحدا لا يقدر على مضرته إلا بإذن الله تعالى، وإذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده.

(قوله: «لي) صدري» متعلق ب «اشرح» ، قال الزمخشري: فإن قلت: (لي) في قوله: «اشرح لي صدري ويسر لي أمري» ما جدواه والأمر مستتب بدونه. قلت: قد أبهم الكلام أولا فقال: «اشرح لي» «ويسر لي» فعلم أن ثم مشروحا وميسرا، ثم بين ورفه الإبهام بذكرهما، فكان بكد لطلب الشرح لصده، والتيسير لأمره. ويقال: يسرته لكذا، ومنه «فسنيسره لليسرى» ويسرت له كذا، ومنه هذه الآية.

قوله: «ويسر لي أمري» أي سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون. وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال، والأقوال والحركات،." (٢)

"قوله: ﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الآية. لما نفى اللعب عن نفسه، ونفي اللعب لا يصح إلا بنفي الحاجة، (ونفي الحاجة) لا يصح إلا بالقدرة التامة عقب تلك الآية بقوله: ﴿وله من في السماوات والأرض﴾ لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة. وقيل: لما حكى كلام الطاعنين في النبوات، وأجاب عنها، وبين أن غرضهم من تلك المطاعن **التمرد**، وعدم الانقياد، بين ههنا أنه تعالى منزه عن طاعتهم لأنه هو المالك بجميع المخلوقات، ولأجل أن الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع كونهم

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١٠/١٣

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٣/١٣

في نهاية الضعف أولى أن يطيعوه.

قوله: «ومن عنده» يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أنه معطوف على «من» الأولى أخبر تعالى عن من في السموات والأرض وعن من عنده بأن الكل له في ملكه.

وعلى هذا فيكون من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها على شرفه، لأن قوله: ﴿من في السماوات﴾ شمل «من عنده» وقد مر نظيره في قوله: «وجبريل وميكال» وقوله: «لا يستكبرون» على هذا فيه أوجه:

أحدها: أنه حال من «من» الأولى أو الثانية أو منهما معا. وقال أبو البقاء حال." (١)

"ميز في هذه الآية قوما من الناس الذين ذكروا في الأولى وأخبر عن مجادلتهم.

الثاني: أنه تعالى بين أنه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها، قال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ .

قوله: «من يجادل» يجوز أن تكون «من» نكرة موصوفة، وأن تكون موصولة، و «في الله» أي: في صفاته، و «بغير علم» مفعول أو حال من فاعل «يجادل» وقرأ زيد بن علي «ويتبع» مخففا.

فصل

قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث، كان كثير الجدل، وكان يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث، وإحياء من صار ترابا، ويتبع في جداله في الله بغير علم كل شيطان مريد. والمريد: **المتمرد** المستمر في الشر. يريد شياطين الإنس، وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر.

وقيل: أراد إبليس وجنوده، قال الزجاج المريد والمارد: المرتفع الأملس. يقال: صخرة مرداء، أي: ملساء. ويجوز أن يستعمل في غير الشيطان إذا جاوز [حد] مثله.

قوله: ﴿كتب عليه أنه﴾ قرأ العامة «كتب» مبنيا للمفعول، وفتح «أن» في الموضعين. وفي ذلك وجهان: أحدهما: أن «أنه» وما في حيزه في محل نصب لقيامه مقام الفاعل، فالهاء في «عليه» ، وفي «أنه» تعودان على «من» المتقدمة. و «من» الثانية يجوز أن تكون شرطية، والفاء جوابها، وأن تكون موصولة والفاء زائدة في الخبر لشبه المبتدأ بالشرط، وفتحت «." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٦٣/١٣

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣/١٤

"وقال الزمخشري: فإن قلت: هلا قيل: وما تضرعوا (أو) فما يستكينون.

قلت: لأن المعنى محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد.

فظاهر هذا أن (حتى) غاية لنفي الاستكانة والتضرع. ومعنى الاستكانة طلب السكون، أي: ما خضعوا وما ذلوا إلى ربهم، وما تضرعوا بل مضوا على **تمردهم**.

قوله: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد﴾ . قرئ «فتحنا» بالتشديد.

قال ابن عباس ومجاهد: يعني القتل يوم بدر. وقيل: الموت وقيل: قيام الساعة. وقيل: الجوع. ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ آيسون من كل خير. وقرأ السلمي: «مبلسون» - بفتح اللام - من أبلسه، أي: أدخله في الإبلاس.

قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار﴾ الآية.

العطف لا يحسن إلا مع المجانسة، فأي مناسبة بين قوله: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار﴾ وبين ما قبله؟

والجواب: كأنه تعالى لما بين مبالغة الكفار في الإعراض عن سماع الأدلة والاعتبار، وتأمل الحقائق قال للمؤمنين: هو الذي أعطاكم هذه الأشياء ووفقكم لها تنبيها على أن من لم يعمل هذه الأعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها، لقوله: ﴿فمآ أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ [الأحقاف: ٢٦] وأفرد السمع والمراد الأسماع ثم قال: ﴿قليلا ما تشكرون﴾ .

قال أبو مسلم: وليس المراد أن لهم شكرا وإن قل، لكنه كما يقال للكفور والجاحد للنعمة: ما أقل شكر فلان.

ثم قال: ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي: خلقكم، قال أبو مسلم: ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثرتم كقوله: ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ [الإسراء: ٣] أي: هو الذي جعلكم في الأرض متناسلين، ويحشركم يوم القيامة إلى دار لا حاكم فيها سواه، فجعل حشرهم إلى ذلك الموضع حشرا إليه لا بمعنى المكان. ثم قال: ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ أي: نعمة الحياة وإن كانت من أعظم النعم فهي منقطعة." (١)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٢٤٦

"قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنآ إليكم آيات مبينات﴾ الآية.

لما ذكر الأحكام وصف القرآن بصفات ثلاث:

أحدها: قوله: ﴿ولقد أنزلنآ إليكم آيات مبينات﴾ أي: مفصلات. وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر: «مبينات» بكسر الياء، أي: أنها تبين للناس الحلال والحرام، كقوله تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء: ١٩٥] وتقدم الكلام في «مبينات» كسرا وفتحا.

وثانيها: قوله: ﴿ومثلا من الذين خلوا من قبلكم﴾ . قال الضحاك: «يريد بالمثل ما في التوراة والإنجيل من إقامة الحدود، فأنزل في القرآن مثله» وقال مقاتل: «قوله:» ومثلا «أي: شبها من حالهم بحالكم في تكذيب الرسل» يعني: بينا لكم ما أحللنا بهم من العقاب لتمردهم على الله، فجعلنا ذلك مثلا لكم، وهذا تخويف لهم، فقوله: «ومثلا» عطف على «آيات» أي: وأنزلنا مثلا من أمثال الذين من قبلكم.

وثالثها: قوله: «وموعظة للمتقين» أي: الوعيد والتحذير، ولا شك أنه موعظة للكل، وخص المتقين بالذكر لما تقدم في قوله: «هدى للمتقين» .." (١)

"قال الكلبي: نزل هذا كله في أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات.

قوله

تعالى

: ﴿أذلك

خير أم جنة الخلد﴾ الآية. لما وصف العقاب المعد للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال: «أذلك خير» .

فإن قيل: كيف يقال: العذاب خير أم جنة الخلد؟ وهل يجوز أن يقول العاقل: السكر أحلى أم الصبر؟ فالجواب: هذا يحسن في معرض التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فضربه ويقول له: أهذا خير أم ذلك؟

فصل

قال أبو مسلم: جنة الخلد: هي التي لا ينقطع نعيمها، والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور، قال تعالى: ﴿لا نريد منكم جزآء ولا شكورا﴾ [الإنسان: ٩] . فإن قيل: الجنة اسم لدار مخلدة، فأي فائدة في قوله: «جنة الخلد» ؟ فالجواب: الإضافة قد تكون للتبيين، وقد تكون لبيان صفات الكمال، كقوله تعالى:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٣٧٩

«الخالق البارئ» وهذا من هذا الباب.

فصل

احتج المعتزلة بهذه الآية على إثبات ال ا ستحقاق من وجهين:

الأول: اسم الجزاء لا يتناول إلا المستحق، فأما الموعود بمحض التفضيل فلا يسمى جزاء.

والثاني: لو كان المراد بالجزاء ما صرتم إليه بمجرد الوعد فلا يبقى بين قوله: «جزاء» وبين قوله: «مصيرا» تفاوت، فيصير ذلك تكريرا من غير فائدة.

والجواب: أنه لا نزاع في كونه جزاء إنما النزاع في أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق، وليس في الآية ما يدل على التعيين.

فإن قيل: إن الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك، فلم قال الله ﴿كانت لهم جزآء ومصيرا﴾ ؟

فالجواب من وجهين:." [1]

"٣٨٧٤ - في لجة أمسك فلانا عن فل ... وليس (فل) مرخما من (فلان) خلافا للفراء. وزعم أبو حيان أن ابن عصفور وابن مالك، وابن العلج وهموا في جعلهم (فل) كناية عن علم من يعقل (فلان) . ولام (فل) و (فلان) فيها وجهان:

أحدهما: أنها واو.

والثاني: أنها ياء.

فصل

تقدم الكلام في «يا ويلتى» في هود. ﴿ليتني لم أتخذ فلانا خليلا﴾ يعني أبي بن خلف ﴿لقد أضلني عن الذكر﴾ عن الإيمان والقرآن، ﴿بعد إذ جآءني﴾ يعني الذكر مع الرسول «وكان الشيطان» وهو كل **متمرد** عات من الجن والإنس، وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان. وقييل: أشار إلى خليله. وقيل: أراد إبليس، فإنه الذي حمله على أن صار خليلا لذلك المضل، ومخالفة الرسول، ثم خذله، وهو معنى قوله: «للإنسان خذولا» أي: تاركا يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٩١/١٤

وقوله: «وكان الشيطان» يحتمل أن تكون هذه الجملة من مقول الظالم فتكون منصوبة المحل بالقول. و أن تكون من مقول الباري تعالى فلا محل لها، لاستئنافها.." [1]

"الفاتحة، وإما على التشبيه برأس، وكأس، كما قالوا: حلأت السويق، حملا على حلأته عن الماء، أي: طردته وإما حملا للمفرد والمثنى على جمعها، وقد تقرر في جمعها الهمز.

فصل

لما حكى تعالى إقامتها على الكفر مع الدلائل المتقدمة، ذكر أن سليمان أظهر أمرا آخر داعيا لها إلى الإسلام، فأمر الشياطين فبنوا صرحا أي: قصرا من زجاج، كأنه الماء بياضا وأجري تحته الماء، وألقى فيه كل شيء من دواب البحر من السمك والضفادع وغيرها، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وقيل: اتخذ صحنا من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع، فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء، فلما جلس على لسرير دعا بلقيس، فلما جاءت قيل لها: ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة، وهي معظم الماء، ﴿وكشفت عن ساقيها﴾ لتخوضه، فقيل كان المقصود من بناء الصرح تهويل المجلس وتعظيمه، وحصل كشف الساق على سيبيل التبع، وقيل: إن سليمان أراد أن ينظر إلى ساقيها من غير أن يسألها كشفها لما قالت الشياطين له إن رجلها كحافر الحمار، وهي شعراء الساقين، فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما، إلا أنها كانت شعراء الساقين، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها وناداها أنه صرح «ممرد» ، أي: مملس، ومنه الأمرد لملاسة وجهه من الشعر وبرية مرداء لخلوها من النبات، ورملة مرداء، لا تنبيت شيئا، والمارد من الشياطين من تعرى من الخير وتجرد منه.

ومارد حصن معروف، وفي أمثال الزباء: «تمرد مارد وعز الأبلق» قالتها في حصنين امتنع فتحهما عليها.
والقوارير، وهي الزجاج الشفاف، و «من قوارير» صفة ثانية ل «صرح» .

قوله: ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي﴾ قال مقاتل: لما رأت السرير والصرح، علمت." [2]

"ارتفع الكواكب به، وإن جعلتها اسما لما يزان به فعلى هذا ترتفع «الكواكب» بإضمار مبتدأ أي هي الكواكب. وهي في قوة البدل ومنع الفراء إعمال المصدر المنون ورغم أنه لم يسمع وهو غلط لقوله تعالى: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ [البلد: ١٤] كما سيأتي إن شاء الله. قوله: «وحفظا» منصوب على المصدر، بإضمار فعل أي حفظناها حفظا، وإما على المفعول من أجله على زيادة الواو والعامل فيه زينا أو

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٢٣/١٤

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧٣/١٥

على أن يكون العامل مقدرا أي لحفظها زينا أو على الحمل على المعنى المتقدم أي: إنا خلقنا السماء الدينا زينة وحفظا، و «من كل» ويجوز أن يكون صفة «لحفظا» قال المبرد: إذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصرد فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله كقولك: أفعل وكرامة لما قال أفعل علم أن الأسماء لا تعطف فكان المعنى أفعل ذاك واكرمك كرامة.

فصل

قال ابن عباس «زينا السماء الدينا» بضوء الكواكب «وحفظناها من كل شيطان مارد» **متمرد** يرمون بها، وتقدم الكلام على المارد عن قوله: ﴿مردوا على النفاق﴾ [التوبة: ١٠١] واعمل أنه تعالى بين أنه زين السماء لمنفعتين:

إحداهما: تحصل الزينة.

والثانية: الحفظ من الشيطان المارد.

فإن قيل: ثبت في علم الهيئة أن هذه الكواكب الثوابت مركوزة في الكرة الثامنة وأن السيارات مركوزة في الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله: إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب؟ .." (١)

"﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾ فبين تعالى أن إرساله الرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف فوجب أن يكون له - صلى الله عليه وسلم - أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ويستمر على الدعاء إلى الله وإن **تمردوا** فليس عليه إلا البلاغ ثم قال: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ الكافرين أي كان عاقبتهم العذاب وهذا الخطاب وإن كان ظاهره مع الرسول - عليه (الصلاة و) السلام - إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار ما جرة على قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أنواع العذاب فإن لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يحتمل أن يكون زاجرا لهم عن كفرهم.

قوله: ﴿إلا عباد الله﴾ استثناء من قوله: «المنذرين» استثناء منقطعا لأنه وعيد وهم لم يدخلوا (في) هذا الوعيد وقيل: استثناء من قوله: ﴿ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين﴾." (٢)

"قوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ... ﴾ معناه أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم، إنما كان السبب في ذلك طلب الرياسة والتقديم على الغير في المال والجاه ومن ترك الانقياد على الحق طلبا لهذه الأشياء فقد باع الآخرة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٧٧/١٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣١٧/١٦

بالدنيا وهذه طريقة فاسدة؛ لأن الدنيا ذاهبة واحتج بقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض ... ﴾ يعني لو ساروا في أطراف الارض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين **والمتمردين** ليس إلا الهلاك والبوار مع أنهم كانوا أكثر عددا وعددا ومالا من هؤلاء المتأخرين، فلما لم تفدهم تلك المكنة العظيمة إلا الخيبة والخسار فكيف حال هؤلاء الفقراء المساكين؟! .

قوله: ﴿فما أغنى عنهم﴾ يجوز في «ما» أن تكون نافية واستفهامية بمعنى النفي، ولا حاجة إليه وقوله «ما كانوا» يجوز أن يكون «ما» مصدرية، ومحلها الرفع أي مكسوبهم أو كسبهم ويجوز أن يكون بمعنى الذي فلا عائد على الأول وعلى الثاني هو محذوف أي يكسبونه وهي فاعل «بأغنى» على التقديرين.." (١)

"أحدها: المسلط، كقوله: ﴿ومآ أنت عليهم بجبار﴾ [ق: ٤٥] .

الثاني: العظيم الجسم، كقوله تعالى: ﴿إن فيها قوما جبارين﴾ [المائدة: ٢٢] .

والثالث: **المتمرد** عن عبادة الله كقوله: ﴿ولم يجعلني جبارا﴾ [مريم: ٣٢] .

الرابع: القتال كقوله: ﴿بطشتم جبارين﴾ [الشعراء: ١٣٠] وقوله: ﴿إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض﴾ [القصص: ١٩] .

قوله: ﴿المتكبر﴾ .

قال ابن عباس: الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله.

وقيل: المتكبر عن كل سوء، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدوث والذم.

وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلة الانقياد.

قال حميد بن ثور: [الطويل]

٤٧٥٨ - عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت ... بها كبرياء الصعب وهي ذلول

قال الزجاج: وهو الذي تعظم عن ظلم عباده.

وقال ابن الأنباري: «المتكبر» ذو الكبرياء.

والكبرياء عند العرب الملك، قال تعالى: ﴿وتكون لكما الكبريآء في الأرض﴾ [يونس: ٧٨] واعلم أن المتكبر في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم.

قال - عليه الصلاة والسلام - يرويه عن ربه - تبارك وتعالى - أنه قال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩٢/١٧

فمن نازعني واحدا منهما قصمته ثم قذفته في النار» .

وقيل: المتكبر معناه العالي.

وقيل: الكبير، لأنه أجل من أن يتكلف كبرا.

وقد يقال: تظلم بمعنى ظلم، وتشتم بمعنى شتم، واستقر بمعنى قر، كذلك المتكبر بمعنى الكبير، وليس كما يوصف به المخلوق إذا وصف ب «تفعل» إذا نسب إلى ما لم يكن منه، ثم نزه نفسه فقال: ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ .

كأنه قال: إن المخلوقين قد يتكبرون، ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف،." (١)

"القرآن قالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنآ أحدا﴾ فأنزل الله على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ الآية.

قال القرطبي: وفي هذا الحديث دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لم ير الجن ولكن حضروه وسمعوا قرآنه.

فإن قيل: الذين رموا بالشهب هم الشياطين والذين سمعوا القرآن هم الجن، فما وجه الجمع؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أن الجن كانوا مع الشياطين، فلما رمي الشياطين أخذوا الجن الذين كانوا منهم في تجسس الخبر.

الثاني: أن الذين رموا بالشهب كانوا من الجن، إلا أنهم قيل لهم: شياطين كما قيل: شياطين الإنس والجن، فإن الشيطان كل **متمرد**، وبعيد من طاعة الله تعالى.

قال ابن الخطيب رحمه الله: واختلف في أولئك الجن الذين سمعوا القرآن من هم؟ .

فروى عاصم عن ذر قال: قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرفوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنآ إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن﴾ .

وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عددا وعامة جنود إبليس منهم.

وقيل: كانوا سبعة، ثلاثة من أرض «حران» وأربعة من أرض «نصيبين» ،: قرية من قرى اليمن غير التي بالعراق رواه أيضا عنهم عاصم عن ذر.

وقيل: إن الجن الذين أتوه بمكة جن نصيبين، والذين أتوه بنخلة جن نينوى.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦١٤/١٨

وقال عكرمة: كانوا اثني عشر ألفا من جزيرة الموصل.
ومذهب ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالمسير إليهم ليقرأ القرآن عليهم ويدعوهم إلى الإسلام، روى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن." [١]
"قال ابن الخطيب: وطريق الجمع بين المذهبين مذهب ابن عباس ومذهب ابن مسعود من وجوه:
أحدها: لعل ما ذكره ابن عباس وقع أولا فأوحى الله تعالى إليه بهذه السورة، ثم أمر بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود رضي الله عنهما.
وثانيها: أن بتقدير أن تكون واقعة الجن مرة واحدة إلا أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم، وما عرف أنهم ماذا قالوا، وأي شيء فعلوا، فالله تعالى أوحى إليه أنه كان كذا وكذا، وقالوا كذا.
وثالثها: أن الواقعة كانت مرة واحدة، وهو صلى الله عليه وسلم رآهم، وسمع كلامهم، وهم آمنوا به، ثم رجعوا إلى قومهم، قالوا لقومهم على سبيل الحكاية: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾ وكان كذا وكذا فأوحى الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما قالوه لأقوامهم.
قال ابن العربي:» ابن مسعود أعرف من ابن عباس، لأنه شاهده، وابن عباس سمعه، وليس الخبر كالمعاينة «.
قال القرطبي: وقيل: إن الجن أتوا النبي صلى الله عليه وسلم دفعتين.
أحدهما: بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود.
والثانية: بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس.
قال البيهقي: الذي حكاه عبد الله إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمت بحاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه عبد الله بن عباس ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود.
فصل في لفظ» قل «
قال ابن الخطيب: اعلم أن قوله تعالى: قل» أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يظهر لأصحابه – رضي الله عنهم – ما أوحى إليه تعالى في واقعة الجن، وفيه فوائد.
أحدها: أن يعرفوا بذلك أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجن، كما بعث إلى الإنس.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٠٦/١٩

وثانيها: أن تعلم قريش أن الجن مع **تمردهم** لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم .." (١)

"الأول: أنه من قولهم: أثرت الحديث آثره، أثرا، إذا حدثت به عن قوم في آثارهم، أي: بعدما ماتوا، هذا هو الأصل، ثم صار بمعنى الرواية عما كان.

والثاني: يؤثر على جميع السحر، وهذا يكون من الإيثار.

وقال أبو سعيد الضرير: يؤثر، أي: يورث.

قوله تعالى: ﴿إن هاذآ إلا قول البشر﴾ ، أي: هذا إلا كلام المخلوقين تختدع به القلوب كما يخدع بالسحر.

قال ابن الخطيب: ولو كان الأمر كذلك لتمكنوا من معارضته إذا طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة.

قال السدي: يعني أنه من قول سيار عبد لبني الحضرمي، كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك.

وقيل: إنه أراد أنه تلقنه ممن ادعى النبوة قبله، فنسج على منوالهم.

قال ابن الخطيب وهذا الكلام يدل على أن الوليد كان يقول هذا الكلام عنادا، لما روي في الحديث المتقدم: «أنه لما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم » حم «ثم خرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لقد سمعت من محمد كلاما، ليس من كلام الجن، ولا من كلام الإنس» الحديث، فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن قوله – هاهنا –: ﴿إن هاذآ إلا قول البشر﴾ ، إنما ذكره عنادا، أو **تمردا** لا اعتقادا.

قوله تعالى: ﴿سأصليه سقر﴾ هذا بدل من قوله تعالى: ﴿سأرهقه صعودا﴾ . قاله الزمخشري.

فإن كان المراد بالصعود: المشقة، فالبدل واضح، وإن كان المراد: صخرة في جهنم – كما جاء في التفسير – فيعسر البدل، ويكون فيه شبه من بدل الاشتمال، لأن جهنم مشتملة على تلك الصخرة.

فصل في معنى الآية

المعنى: سأدخله سقر كي يصلى حرها، وإنما سميت «سقر» من سقرته الشمس: إذا أذابته ولوحته، وأحرقت جلدة وجهه، ولا ينصرف للتعريف والتأنيث قال ابن عباس: «سقر» اسم للطبقة السادسة من

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٩/٤٠٨

«جهنم» .

﴿وما أدراك ما سقر﴾ . هذا مبالغة في وصفها، أي: وما أعلمك أي شيء هي؟ . وهي." [(١)]

"وقيل: «فخلق» أي: نفخ فيه «فسوى» فكمل أعضاءه. قاله ابن عباس ومقاتل.

﴿فجعل منه﴾ أي: من الإنسان.

وقيل: من المني «الزوجين، الذكر والأنثى» أي: الرجل والمرأة.

فقوله تعالى ﴿الذكر والأنثى﴾ يجوز أن يكونا بدلين من الزوجين على لغة من يرى إجراء المثنى إجراء المقصور، وقد تقدم تحقيقه في «طه» ومن ينسب إليه هذه اللغة والاستشهاد على ذلك [طه: ٦٣] .

فصل فيمن احتج بالآية على إسقاط الخنثى

قال القرطبي: وقد احتج بهذه الآية من رأى إسقاط الخنثى وقد مضى في سورة «الشورى» أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجت مخرج الغالب.

فإن قيل: ما فائدة قوله: «يمنى» في قوله تعالى ﴿من مني يمنى﴾ ؟ فالجواب فيه إشارة إلى حقارة حاله، كأنه قيل: إنه مخلوق من المني الذي يجري مجرى النجاسة، فلا يليق بمثل هذا أن **يتمرد** عن طاعة الله – تعالى – إلا أنه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز، كما في قوله تعالى في «عيسى ومريم« – عليهما الصلاة والسلام –

﴿كانا يأكلان الطعام﴾ [المائدة: ٧٥] والمراد منه قضاء الحاجة.

قوله تعالى: ﴿أليس ذلك بقادر﴾ أي: أليس الذي قدر على خلق هذه النسمة من قطرة ماء.

وقوله: «بقادر» اسم فاعل مجرور ب «باء» زائدة في خبر «ليس» وهذه قراءة العامة.

وقرأ زيد بن علي: «يقدر» فعلا مضارعا.

والعامة: على نصب «يحيى» ب «أن» لأن الفتحة خفيفة على حرف العلة.

وقرأ طلحة بن سليمان والفياض بن غزوان: بسكونها، فإما أن يكون خفف حرف العلة بحذف حرف الإعراب. وإما أن يكون أجرى الوصل مجرى الوقف، وجمهور الناس على وجوب فك الإدغام.

قال أبو البقاء: لئلا يجمع بين ساكنين لفظا وتقديرا.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥١٥/١٩

يعني أن الحاء ساكنة، فلو أدغمنا لسكنا الياء الأولى أيضا للإدغام، فيلتقي ساكنان لفظا، وهو متعذر النطق، فهذان ساكنان لفظا.." (١)

"وقال الكسائي:» خسأت الرجل خسأ، وخسأ هو خسوءا «، ففرق بين المصدرين.

والخسوء: الذلة والصغار والطرد والبعد، ومنه: خسأت الكلب قال مجاهد وقتادة والربيع: وهي لغة» كنانة.«

وقال أبو روق: يعني خرسا لقوله تعالى: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ١٠٨] والمراد من هذا الأمر سرعة التكوين لا نفس الأمر. روي عن مجاهد رضي الله عنه أن الله تعالى مسخ قلوبهم يعني: بالطبع والختم، إلا أنه مسخ صورهم لقوله ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ [الجمعة: ٥] وهذا مجاز ظاهر [مشهور] .

فصل في المقصود من ذكر هذه القصة

والمقصود من ذكر هذه القصة أمران:

الأول: إظهار معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كالخطاب لليهود الذي كانوا في زمانه، أخبرهم عليه الصلاة والسلام عن هذه الواقعة مع أنه كان أميا لم يقرأ ولم يكتب، ولم يخالط القوم دل على أنه إنما عرفه بالوحي.

والثاني: أنه تعالى لما أخبرهم بما عاجل به أصحاب السبت، فكأنه يقول لهم: لا **تتمردوا** ولاتغتروا بالإمهالن فينزل بكم ما نزل بهم، ونظيره قوله تعالى ﴿يا أيهآ الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارهآ﴾ [النساء: ٤٧] الآية.

فإن قيل: إنهم بعد أن صاروا قدرة لا يبقى لهم فهم، ولا عقل، ولا علم، فلا يعلمون ما نزل بهم من العذاب، ووجود القردية غير مؤلم.

فالجواب: لم لا يجوز أن يقال: إن الذي كان إنسانا عاقلا فاهما كان ثابتا لم يتغير، وإنما تغيرت الصورة فلم يقدر على النطق والأفعال الإنسانية، لكنها كانت تعرف ما نالها من تغير الخلقة بسبب المعصية، فكانت في نهاية الخوف والخجل، وربما كانت متألمة بسبب تغير تلك الأعضاء؟ .

فإن قيل: أولئك القردة بقوا أو هلكوا، فإن قوا فالقردة الموجودون في زماننا هل يجوز أن يكونوا من نسلهم أم لا؟

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٧٨/١٩

فالجواب: الكل جائز، إلا أن الرواية عن ابن عباس أنهم مكثوا ثلاثة أيام، ثم هلكوا ولم يأكلوا ولم يشربوا، ولم ينسلوا.." (١)

"وخامسها: الاحتجاج على من أنكر الإعادة من مشركي العرب مع إقراره بالابتداء كما في قوله: ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾ [البقرة: ٧٣] .

فصل في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم

اعلم أن المراد تسلية رسوله عليه الصلاة والسلام فيما يظهر من أهل الكتاب في زمانه من قلة القبول فقال: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم» .

قال الحسن: هو خطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين.

قال القاضي: وهذا الأليق بالظاهر، وإن كان الأصل في الدعاء، فقد كان من الصحابة من يدعوهم إلى الإيمان، ويظهر لهم الدلائل. قال ابن عباس: إنه خطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام خاصة؛ لأنه هو الداعي، وهو المقصود بالاستجابة. واللفظة وإن كانت للعموم لكن حملناها على هذا الخصوص لهذن [القرينة] .

روي أنه حين دخل «المدينة» ودعا اليهود إلى كتاب الله، وكذبوه، فأنزل الله تعالى وسبب هذه الاستعباد ما ذكرناه أي: أتطمعون أن يؤمنوا مع أنهم ما آمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام الذي كان هو السبب في خلاصهم من الذل، وفضلهم على الكل بظهور المعجزات المتوالية على يده، مع ظهور أنواع العذاب على **المتمردين**، فأي استبعاد في عدم إيمان هؤلاء.

فصل في إعراب الآية

قوله: «أن يؤمنوا لكم» ناصب ومنصوب، وعلامة النصب حذف النون والأصل في «أن» وموضعها نصب أو جر على ما عرف، وعدي «يؤمنوا» باللام لتضمنه معنى أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم قاله الزمخشري.

فإن قيل: ما معنى الإضافة في قوله: «يؤمنوا لكم» والإيمان إنما هو لله؟

فالجواب: أن الإيمان وإن كان الله فهم الداعون إليه كما قال تعالى: ﴿فآمن له لوط﴾ [العنكبوت: ٢٦] لما آمن بنبوته وتصديقه، ويجوز أن يراد أن يؤمنوا لأجلكم، ولأجل تشددكم في دعائهم. قوله: «وقد كان فريق منهم» «الواو» : للحال.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢/١٥٠

قال بعضهم: وعلامتها أن يصلح موضها «إذ» ، والتقدير: أفتطمعون في إيمانهم، والحال أنهم كاذبون محرفون لكلام الله تعالى.

و «قد» مقربة للماضي من الحال سوغت وقوعه حالا.

و «يسمعون» خبر «كان» .." (١)

"منهم، فقالوا له ما في أصحاب محمد أحب إلينا منك، فإنهم يمرون علينا فيؤذوننا وأنت لا تؤذينا، وإنا لنطمع فيك فقال عمر رضي الله عنهك والله ما آتيكم لحيكم ولا أسألكم لأني شاك في ديني، وإني أدخل علكيم لأزداد بصيرة في أمر محمد صلى لله عليه وسلم وأرى أثاره في كتابكم فقالوا: من صاحب محمد الذي يأتيه من الملائكة فقال: جبريل فقالوا: ذلك عدونا يطلع محمدا على أسرارنا، وهو صاحب كل عذاب وخسف شدة، وإن ميكائيل يأتي بالخصب السلامة، فقال لهم عمر رضي الله عنه: تعرفون جبريل، وتنكرون محمدا عليه الصلاة السلام فقالوا: نعم قال: فأخبروني عن منزلة جبريل وميكائيل من الله عز وجل قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره وميكائيل عدو لجبريل، قال فإن كان كما تقولون فماهما بعدوين، ولأنتم أكفر [من الحمير، وإني أشهد أن من كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكائيل، ومن كان عدوا لميكائيل فهو عدو لجبريل، ومن كان عدوا لهما فإن الله تعالى عدو له، ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحي، فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات وقال: «لقد وافقك ربك يا عمر» ، فقال عمر رضي الله عنه فقد رأيتني بعد ذلك في دين الله تعالى أصلب من الحجر] .

وثالثها: قال مقاتل: زعمت اليهود أن جبريل عليه السلام عدونا، أمر أن يجعل النبوة فينا، فجعلها في غيرنا فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

قال ابن الخطيب: والأقرب أن يكون سبب عداوتهم لا أنه كان ينزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم لأن قوله تعالى: ﴿من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ [البقرة: ٩٧] مشعر بأن هذا التنزيل [لا ينبغي أن يكون سببا للعداوة؛ لأن إنما فعل ذلك بأمر الله، فلا ينبغي أن يكون سببا للعداوة، وتقرير هذا من وجوه:

أولها: أن الذينزل جبريل من] القرآن ﴿الذي نزل به فيه] بشارة المطيعين بالثواب، وإنذار العص١ة بالعقاب، والأمر بالمحاربة والمقاتلة لم يكن ذلك باختياره، بل بأم رالله تعالى الذي يعترفون أنه لا محيص عن أمره، ولا سبيل إلى مخالفته فعداوة من هذا سبيله توجب عداوة الله تعالى وعداوة الله تعالى كفر، فيلزم أن معاداة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٩٣/٢

من هذا سبيله كفر.

ثانيها: أن الله تعالى لو أمر ميكائيل بإنزال مثل هذا الكتاب، فإما أن يقال: إنه كان [**يتمرد** أو يأبى] عن قبول أمر الله، وذلك غير لائق بالملائكة المعصومين، أو كان يقبله وينزل به على وفق أمر الله، فحينئذ يتوجه على ميكائيل ما ذكروه على جبريل عليهما السلام فما الوجه في تخصيص جبريل بالعداوة؟

وثالثها: أن إنزاال القرآن على محمد عليه السلام كما شق على اليهود، فإنزال." [(١)]

"٦٩٣ - لا أرى الموت يسبق الموت شيء..... ... ...

وقد تقدم تحقيق ذلك.

فصل في المراد بقوله تعالى: واتبعوا» المراد بقوله: «واتبعوا» هم اليهود.

فقيل: هم الذين كانوا في زمن محمد عليه الصلاة والسلام .

وقيل: هم الذين كانوا في زمن سليمان صلى الله عليه وسلم من السحرة؛ لأن أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام ويعدونه من جملة الملوك في الدنيا، وهؤلاء ربما اعتقدوا فيه أنه إنما وجد الملك العظيم بسبب السحر.

وقيل: إنه يتناول الكل وهو أولى.

قال السدي: لما جاءهم محمد عليه الصلاة والسلام عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والفرقان، فنبذوا التوراة، وأخذوا بكتاب «آصف» وسحر «هاروت وماروت» فلم يوافق القرآن، فهذا هو قوله تعالى: ﴿ولمآ جآءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله ورآء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ أخبر عنهم بأنهم كتب السحر.

واختلفوا في المراد من الشياطين.

فقال المتكلمون من المعتزلة: هم شياطين الإنس، وهم **المتمردون** في الضلال؛ كقول جرير: [البسيط]

٦٩٤ - أيام يدعونني الشيطان من غزلي ... وكن يهوينني إذ كنت شيطانا

وقيل: هم شياطين الإنس والجن.

قال السدي: إن الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلقونها إلى الكهنة، وقد دونها في كتب يقرءونها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه الصلاة والسلام وقالوا: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم له ملكه إلا بهذا العلم، سخر الجن والإنس

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢/٣٠٨

[والطير] والريح التي تجري بأمره.

وأما القائلون بأنهم شياطين الإنس فقالواك روي أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد دفن كثيرا من العلوم التي خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه حرصا على أنه." (١)

"وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل، وميكائيل بالسحر، فنفى الله ذلك.

وفي الكلام تقديم وتأخير والتقدير: وما كفر سليمان] ، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله: «ولكن الشياطين كفوا» قال: وهذا أولى ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر استخراج الشياطين للطافة جوهرهم، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء، وخاصة فى حالة طمثهن؛ قال الله تعالى:

﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ [الفلق: ٤] .

فإن قيل: كيف يكون اثنان بدلا من الجميع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه؟ فالجواب من وجوه ثلاثة:

الاول: أن الاثنين قد يطلق عليهما اسم الجمع؛ كما قال تعالى: ﴿فإن كان له إخوة﴾ [النساء: ١١] .

الثاني: أنهما لما كانا الرأس في التعليم نص عليهما دون اتباعهما كقوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ [المدثر: ٣٠] .

الثالث: إما خصا بالذكر من بينهم **لتمردهما**، كتخصيصه تعالى النخل [والرمان] فى قوله: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ [الرحمن؛٦٨] فقد ينص على بعض أشخاص العموم إما لشرفه؛ كقوله تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي﴾ [آل عمران: ٦٨] وإما لطيبه كقوله: ﴿فاكهة ونخل ورمان﴾ وإما لأكثريته؛ كقوله صلى الله عليه سلم: «جعلت لي الأرض مسجدا وترابها طهورا» وإما **لتمردهم** كهذه الآية.

الرابع: أن محلها الجر عطفا على «ملك سليمان» ، والتقدير: افتراء على ملك سليمان وافتراء على ما أنزل على الملكين، وهو اختيار أبي مسلم.

وقال أبو البقاء: «تقديره» وعلى عهد الذي أنزل.

واحتج أبو مسلم: بأن السحر لو كان نازلا عليهما لكان منزله هو الله تعالى، وذلك غير." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢/٣٢٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢/٣٣٨

"ذكروا في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوها:

أحدها: أنه تعالى لما حكم بجواز النسخ في الشرائع، فلعلهم كانوا يطالبونه بتفاصيل ذلك الحكم، فمنعهم الله تعالى عنها، وبين أنهم ليس لهم أن يشتغلوا بهذه الأسئلة الفاسدة [كسؤالات قوم موسى عليه الصلاة ولسلام] .

وثانيها: لما تقدم من الاوامر والنواهي قال لهم: إن لم تقبلوا ما أمرتكم به **وتمردتم** عن الطاعة كنتم كمن سأل موسى عليه السلام ما ليس له أن يسأله. عن أبي مسلم.

وثالثها: لما أمر ونهى قال: أتفعلون ما أمرتم أم تفعلون كما فعل من قبلكم من قوم موسى؟ و «أم» هذه يجوز أن تكون متصلة معادلة [لقوله تعال: «ألم تعلم» وهي مفرقة لما جمعته أي: كما أن «أو» مفرقة لما جمعته تقول: اضرب أيهم شئت زيدا أم عمرا، فإذا قلت: أضرب أحدهم.

قلت: اضرب زيدا أو عمرا.

أو تكون منقطعة، فتقدم ب «بل» والهمز، ولا تكون إلا بعد كلام تام كقوله: نما الإبل أم شاء؛ ك أنه قال: بل هي شاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ [هود: ٣٥] أي: يقولون.

قال الأخطل: [الكامل]

٧٣٠ - كذبتك عينك أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالا

ويكون إضرابا للالتفات من قصة إلى قصة] .." [١]

"الأول: أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاتهن وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لا يكون ولدا [لأن المخلوق محدث مسبوق بالعدم، ووجوده إنما حصل يخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه، فثبت أن ما سواه فهو عبده، وملكه، فيستحيل أن يكون كل شيء مما سواه ولدا له، كل هذا مستفاد من قوله: «بل له ما في السموات والأرض» أي: له كل ماسواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع] .

والثاني: أن هذا الذي أضيف إليه بأنه ولده، إما أن يكون قديما أزليا أو محدثا، فإن كان أزليا لم يكن حكمنا بجعل أحدها ولدا والآخر والدا أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكما مجردا من غير دليل، وإن كان الولد حادثا كان مخلوقا لذلك القديم وعبدا له فلا يكون ولدا له.

والثالث: أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فلو فرضنا له ولدا لكان مشاركا له من بعض الوجوه،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢/٣٨٦

وممتازا عنه من وجه آخر، وذلك يقتضي كون كل واحد منهما مركبا ومحدثا وذلك محال، فإذن المجانسة ممتنعة، فالولدية ممتنعة.

الرابع: أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر، ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر [يحكى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لبعض النصارى: لولا **تمرد** عيسى عن عبادة الله عز وجل لصرت على دينه فقال النصراني: كيف يجوز أن ينسب ذلك إلى عيسى عليه الصلاة والسلام مع جده في طاعة الله تعالى؟ فقال علي رضي الله عنه: فإن كان عيسى إلها فكيف يعبد غيره، إنما العبد هو الذي تليق به العبادة، فانقطع النصراني] .

قوله تعالى: «بديع السموات» المشهور رفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو بديع.

وقرىء بالجر على أنه بدل من الضمير في «له» [وفيه الخلاف المشهور] وقرىء بالنصب على المدح.." (١)

"قوله تعالى: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة﴾ . توبيخ وتقريع والمراد أهل «مكة» ، والعاجلة، الدنيا.

واعلم أنه تعالى لما خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بالتعظيم والأمر والنهي، عدل إلى شرح أحوال الكفار **والمتمردين**، فقال تعالى: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة﴾ ، ومعناه: إن الذي حمل هؤلاء على الكفر والإعراض عما ينفعهم في الآخرة، هو محبتهم اللذات العاجلة والراحات الدنيوية البدنية.

قوله: ﴿ويذرون ورآءهم﴾ ، أي: بين أيديهم، وقال: «وراءهم» ولم يقل: قدامهم لأمور:

أحدها: أنهم لما أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم.

وثانيها: المراد: يذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل، أي عسير، فأسقط المضاف.

وثالثها: أن «وراء» يستعمل بمعنى «قدام» ، كقوله تعالى: ﴿من ورآئه جهنم﴾ [إبراهيم: ١٦] ﴿وكان ورآءهم ملك﴾ [الكهف: ٧٩] .

وقال مكي: سمي «وراء» لتواريه عنك، فظاهر هذا أنه حقيقة، والصحيح أنه استعير ل «قدام» .

قوله: «يوما» . مفعول ب «يذرون» لا ظرف، وصفه بالثقل على المجاز؛ لأنه من صفات الأعيان لا المعاني.." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٢٢/٢

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٣/٢٠

"الله وإيجاده، وهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله – تعالى – وترك **التمرد**.
وأما الترهيب فإنه قادر على أن يميتهم وأن يسلب النعم عنهم، وأن يلقي بهم في كل محنة وبلية، فلأجل الخوف من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم الانقياد لله – تعالى – وترك **التمرد**، فكأنه قيل: هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة حسنة إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله – تعالى – والانقياد له، فلم توسلتم به إلى الكفر بالله – تعالى – والإعراض عن حكمه.
قوله تعالى: ﴿وإذا شئنا بدلنآ أمثالهم تبديلا﴾ .
قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم.
وقال ابن الخطيب: معناه: إذا شئنا أهلكناهم، وأتينا بأشباههم، فجعلناهم بدلا منهم كقوله تعالى: ﴿على أن نبدل أمثالكم﴾ [الواقعة: ٦١] ، والغرض منه: بيان الاستغناء التام عنهم، كأنه قيل: لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة، وبتقدير إن ثبتت الـحاجة، فلا حاجة بنا إلى هؤلاء الأقوام؛ فإنا قادرون على إبدالهم وإيجاد أمثالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ [إبراهيم: ١٩] ، ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾ [النساء: ١٣٣] . وروى الضحاك عن ابن عباس – رضي الله عنهم – معناه: لغيرنا محاسنهم إلى أقبح الصور.
وقيل: أمثالهم في الكفر.
فصل في نظم الآية
قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وإذا شئنا﴾ : وحقه أن يجيء ب «إن» لا ب «إذا» ، كقوله تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم﴾ [محمد: ٣٨] ، ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ يعني: أن «إذا» للمحقق، و «إن» للمحتمل، وهو تعالى لم يشأ ذلك، وجوابه أن «إذا» قد تقع موقع «إن» كالعكس.
قال ابن الخطيب: فكأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف، لأن كل واحد من «إن» و «إذا» حرف شرط، إلا أن حرف «إن» لا يستعمل فيما هو معلوم الوقوع، فلا يقال: إن طلعت الشمس أكرمتك.
أما حرف «إذا» فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع تقول ابتداء: إذا طلعت الشمس – فهاهنا – لما كان الله تعالى عالما أنه سيجيء وقت يبدل الله تعالى فيه أولئك الكفرة بأمقالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة لا جرم حسن استعمال حرف «إذا» .." [١]

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٥/٢٠

"فإن هذا استفهام على سبيل التقرير، أي: لك سبيل إلى أن تزكى، ولو كان ذلك بفعل الله – تعالى – لا نقلب الكلام حجة على موسى.

والجواب: ما تقدم في نظائره.

حكى القرطبي عن صخر بن جويرية قال: «لما بعث الله تعالى موسى – عليه الصلاة والسلام – إلى فرعون، قال له:» اذهب إلى فرعون «إلى قوله:» وأهديك إلى ربك فتخشى «، ولن يفعل، فقال: يا رب، وكيف أذهب إليه، وقد علمت أنه لا يفعل، فأوحى الله – تعالى – إليه أن امض إلى ما أمرت به، فإن في السماء اثني عشر ألفا ملك، يطلبون علم القدرة، فلم يبلغوه، ولم يدركوه» .

قوله تعالى: ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ «الفاء» في «فأراه» : معطوف على محذوف، يعني فذهب فأراه، كقوله تعالى: ﴿اضرب بعصاك الحجر فانفجرت﴾ [البقرة: ٦٠] أي: فضرب فانفجرت.

واختلفوا في الآية الكبرى، أي: العلامة العظمى، وهي المعجزة.

فقيل: هي العصا.

وقيل: اليد البيضاء تبرق كالشمس، قاله مقاتل والكلبي.

والأول: قول عطاء وابن عباس؛ لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونها، وهذا كان حاصلا في العصا؛ لأنها لما انقلبت حية، فلا بد وأن يتغير اللون الأول، فإذن كل ما في اليد، فهو حاصل في العصا، وأمور أخر، وهي الحياة في الجرم الجمادي، وتزايد الأجر إليه، وحصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة، وابتلاعها أشياء كثيرة، وزوال الحياة، والقدرة عليها، وبقاء تلك الأجزاء التي عظمت، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حية، وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزا مستقلا في نفسه، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا.

وقال مجاهد: هي مجموع العصا واليد.

وقيل: فلق البحر، وقيل: جميع آياته ومعجزاته.

﴿فكذب﴾ أي: كذب بنبي الله موسى و «عصى» ربه تبارك وتعالى.

فإن قيل: كل من كذب الله فقد عصى، فما فائدة قوله: «فكذب وعصى» ؟ .

فالجواب: كذب بالقول، وعصى **بالتمرد** والتجبر.." (١)

(١) اللباب في علوم الكتاب ا بن عادل ٢٠/١٣٨

"٥١١٥ - أصم بك الناعي وإن كان أسمعا..... ... ...

وجواب «إذا» محذوف، يدل عليه قوله: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» . والتقدير: فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه.

فصل في تعلق الآية

لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، والإنفاق مما امتن به عليهم.

وقال ابن الخطيب: لما ذكر تعالى هذه الأشياء، وكان المقصود منها أمور ثلاثة:

أولها: الدلائل الدالة على التوحيد.

وثانيها: الدلائل الدالة على القدرة والمعاد.

وثالثها: أن هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان، لا يليق بالعاقل أن **يتمرد** عن طاعته، وأن يتكبر على عبيده أتبع ذلك بما يكون كالمؤكد لهذه الأغراض، وهو شرح [أهوال الآخرة] ، فإن الإنسان إذا سمعها خاف، فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل، والإيمان بها، والإعراض عن الكفر، ويدعوه أيضا إلى ترك التكبر على الناس، وإلى إظهار التواضع فقال تعالى: ﴿فإذا جآءت الصآخة﴾ يعني: صيحة القيامة، وهي النفخة الأخيرة، تصخ الأسماع أي: تصمها، فلا تسمع إلا ما يدعى به الأحياء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة إلا الجن والإنس» .

قوله: ﴿يوم يفر المرء﴾ بدل من «إذا» ، ولا يجوز أن يكون «يغنيه» عاملا، في «إذا» ، ولا في «يوم» ؛ لأنه صفة ل «شأن» ولا يتقدم معمول الصفة على موصوفها.

والعامة على «يغنيه» من الإغناء.." (١)

"قال ابن الخطيب: يحتمل أن يرجع الضمير إلى فرعون خاصة؛ لأنه يليه، ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم ذكرهم، وهو الأقرب. وأحسن الوجوه في إعرابه: أن يكون في محل نصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعا على: «هم الذين طغوا» مجرورا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون. يعني: عادا، وفرعون، وثمودا طغوا، أي: **تمردوا** وعتوا، وتجاوزا القدر في الظلم والعدوان، ثم فسر تعالى طغيانهم بقوله: ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ .

قال الكلبي: القتل، والمعصية لله تعالى.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧٠/٢٠

قال القفال: والجملة أن الفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم، فمن عمل بغير أمر الله، وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد.

قوله: ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ . أي: أفرغ عليهم، وألقى، يقال: صب على فلان خلعة، أي: ألقاها عليه؛ قال النابغة: [الطويل]

٥١٩٨ - فصب عليه الله أحسن صنعه ... وكان له بين البريةِ ناصرا

وقوله تعالى: ﴿سوط عذاب﴾ أي: نصيب عذاب؛ وقيل: شدته؛ لأن السوط عندهم ما يعذب به.

قال الشاعر: [الطويل]

٥١٩٩ - ألم تر أن الله أظهر دينه ... وصب على الكفار سوط عذاب

والسوط: هو الآلة المعروفة.

قيل: سمي سوطا؛ لأن يساط به اللحم عند الضرب أي: يختلط؛ قال كعب بن زهير: [البسيط]

٥٢٠٠ - لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل

وقال آخر: [الطويل]

٥٢٠١ - أحارث إنا لو تساط دماؤنا ... تزايلن حتى لا يمس دم دما

[وقيل: هو في الأصل مصدر: ساطه يسوطه سوطا، ثم سميت به الآلة] .." (١)

"والخاطئ معاقب مأخوذ، والمخطئ غير مأخوذ، ووصفت الناصية بأنها خاطئة كوصف الوجوه بالنظر في قوله «إلى ربها ناظرة» ، وقيل: إن صاحبها كاذب خاطئ كما يقال: ليل قائم ونهار صائم، أي صائم في النهار وقائم في الليل، وإنما وصف الناصية بالكاذبة، لأنه كان كاذبا على الله تعالى في أنه لم يرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ، وكاذبا على رسوله صلى الله عليه وسلم في أنه ساحر، وكاذب أنه ليس بنبي؛ لأن صاحبها **يتمرد** على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ [الحاقة: ٣٧] .

قوله: ﴿فليدع ناديه﴾ ، إما أن يكون على حذف مضاف، أي: أهل ناديه، أو على التجوز في نداء النادي لاشتماله على الناس، كقوله تعالى: ﴿وسأل القرية التي كنا فيها﴾ [يوسف: ٨٢] ، والنادي والندي: المجلس المتجدد للحديث.

قال زهير: [الطويل]

٥٢٦٠ - وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢٢/٢٠

[وقالت أعرابية: هو سيد ناديه وثمال عافيه]
وقال تعالى: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت: ٢٩] .
وقال أبو عبيدة: «وناديه» أهل مجلسه، ولا يسمى المكان ناديا حتى يكون فيه أهله، والمعنى: فليدع عشيرته، فليستنصر بهم.
قوله: ﴿سندع الزبانية﴾ .
قال الزمخشري: «والزبانية في كلام العرب: الشرط، الواحد: زبنية، كعفرية من الزبن، وهو الدفع.
وقيل: زبني، وكأنه نسب إلى الزبن، ثم غير للنسب، كقولهم: أمسي، وأصله: زباني، فقيل:» زبانية «على التعويض» .
وقال عيسى بن عمر والأخفش: واحدهم زابن.
وقيل: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه، كعباديد، وشماطيط، وأبابيل، والحاصل: أن المادة تدل على الدفع.
قال: [الطويل]
٥٢٦١ - مطاعيم في القصوى مطاعين في الوغى ... زبانية غلب عظام حلومها." [(١)]
"الرفث فيه حسا، وخبر الله تعالى لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره، وإنما يرجع النفي إلى وجوده مشروعا لا إلى وجوده محسوسا؛ كقوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ [البقرة: ٢٢٨] أي: مشروعا لا حسا، فإن نجد المطلقات لا يتربصن؛ فعاد النفي إلى الحكم الشرعي لا إلى الوجود الحسي؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة: ٧٩] إذا قلنا: إنه وارد فى الآدميين؛ وهو الصحيح، فإن معناه لا يمسه أحد منهم شرعا، فإن وجد المس، فعلى خلاف حكم الشرع، وهذه الدقيقة فاتت العلماء فقالوا: إن الخبر يكون بمعنى النهي، وما وجد ذلك قط، ولا يصح أن يوجد؛ فإنهما مختلفان حقيقة، ومتضادان وصفا.
فصل
قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - فإن قيل أليس أن مع هذه الأشياء يصير الحج فاسدا ويجب على صاحبه المضي فيه، وإذا كان الحج باقيا معها، لم يصدق الخبر لأن هذه الأشياء لا توجد مع الحجة؟
قلنا المراد من الآية الكريمة حصول المضادة بين هذه الأشياء، وبين الحجة المأمور بها ابتداء، وتلك

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٢٣/٢٠

الحجة الصحيحة لا تبقى مع هذه الأشياء؛ بدليل أنه يجب قضاؤها، والحجة الفاسدة التي يجب عليه المضي فيها شيء آخر سوى تلك الحجة المأمور بها ابتداء، وأما الجدال الحاصل بسبب الشك في وجوب الحج، فظاهره أنه لا يبقى معه عمل الحج؛ لأن ذلك كفر وعمل الحج مشروط بالإسلام، فثبت أنا إذا حملنا اللفظ على الخبر، وجب حمل الرفث والفسوق والجدال على ما ذكرنا، وأما إذا حملناه على النهي، وهو في الحقيقة عدول عن الظاهر، فقد يصح أن يراد بالرفث الجماع ومقدماته، وقول الفحش، وأن يراد بالفسق جميع أنواعه، وبالجدال جميع أنواعه؛، لأن اللفظ مطلق ومتناول لكل هذه الأقسام، فيكون النهي عنها نهيا عن جميع أقسامها.

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة: وهي الرفث، والفسوق، والجدال في الحج، من غير زيادة ولا نقص؟

فالجواب: لأنه ثبت في العلوم العقلية أن للإنسان أربع قوى: قوة شهوانية بهيمية، وقوة غضبية سبعية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية ملكية، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاث، أعني: الشهوانية والغضبية والوهمية.

فقوله: «فلا رفث» إشارة إلى قهر الشهوانية.

وقوله: «ولا فسوق» إشارة إلى قهر القوة الغضبية التي توجب المعصية **والتمرد**.." [1]

"أو» المقتضية لأحد الشيئين، فلا. وقال الأخفش: الضمير عائد إلى الأخير كقوله: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا﴾ [النساء: ١١٢] وقيل: يعود إلى «ما» في قوله: «وما أنفقتم» لأنها اسم كقوله: ﴿ومآ أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ [البقرة: ٢٣١] ، ولا حاجة إلى هذا أيضا؛ لما عرفت من حكم «أو» .

قوله: ﴿فإن الله يعلمه﴾ أفاد: الوعد العظيم للمطيعين، والوعيد الشديد **للمتمردين**، لأنه يعلم ما في قلب المتصدق من الإخلاص فيتقبل منه تلك الطاعة؛ كما قال:

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة: ٢٧] ، وقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] .

قوله: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ اعلم أن الظالم قسمان:

الأول: من ظلم نفسه وهو يشتمل على كل المعاصي.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٤٠٤

الثاني: من ظلم غيره بأن لا ينفق أو لا يصرف الإنفاق عن المستحق إلى غ يره، أو ينفق على المستحق رياء وسمعة، أو يفسدها بالمعاصي وهذان القسمان الأخيران ليسا من باب الظلم على الغير، بل من باب الظلم على النفس.

فصل في دحض شبهة للمعتزلة في إنكار الشفاعة

تمسك المعتزلة بهذه الآية، في نفي الشفاعة عن أهل الكبائر، قالوا: لأن ناصر الإنسان من يدفع الضرر عنه، فلو اندفعت العقوبة عنهم بالشفاعة، لكان أولئك الشفعاء أنصارا لهم، وذلك يضاد الآية.

وأجيبوا بوجوه:

الأول: أن الشفيع لا يسمى في العرف ناصرا، بدليل قوله: ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ [البقرة: ١٢٣] ففرق تعالى بين الشفيع، والناصر؛ فلا يلزم من نفي الناصر نفي الشفيع.

الثاني: أن الشفيع إنما يشفع عن المشفوع عنده على سبيل استعطافه، والناصر ينصره عليه، والفرق ظاهر.

وأجاب آخرون: بأنه ليس لمجموع الظالمين من أنصار.

فإن قيل: لفظ «الظالمين» ، ولفظ «الأنصار» جمع، والجمع إذا قوبل بالجمع، توزع الفرد على الفرد، فكان المعنى: ليس لأحد من الظالمين، أحد من الأنصار.

قلنا لا نسلم أن مقابلة الجمع بالجمع توجب توزع الفرد على الفرد؛ لاحتمال أن يكون المراد مقابلة الجمع بالجمع فقط لا مقابلة الفرد بالفرد.

الوجه الثالث: أن هذا الدليل للشفاعة عام في حق الكل في الأشخاص،." (١)

"أن البصر لا يخالف المبصر؛ لجواز أن يحصل خلل في البصر، وسوء في النظر، فيتخيل الباصر الشيئ شيئين فأكثر، وبالعكس.

احتج من قال: إن الرائي هو المشركون بوجوه: الأول: أن تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه بالمعفول، فجعل أقرب المذكورين السابقين فاعلا وأبعدهما مفعولا أولى من العكس، وأقرب المذكورين هو قوله: ﴿كافرة يرونهم﴾ .

الثاني: مقدم الآية - وهو قوله ﴿قد كان لكم آية﴾ خطاب مع الكفار، فقراءة نافع - بالتاء - تكون خطابا مع أولئك الكفار، والمعنى: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثليهم، فهذه القراءة لا تساعد غلا على كون

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤/٤٢٢

الرائي مشركا.

الثالث: أن الله تعالى جعل هذه الحالة آية للكفار حتى تكون حجة عليهم، ولو كانت هذه الحالة حاصلة للمؤمن لم يصح جعلها حجة على الكافر.

واحتج من قال: الراءون هم المسلمون بأن الرائين لو كانوا هم المشركين لزم رؤية ما ليس بموجود وهو محال – ولو كان الراءون هم المؤمنين لزم أن لا يرى ما هو موجود، وهذا ليس بمحال فكان أولى، قال ابن مسعود: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علنيا رجلا واحدا، ثم قللهم الله – أيضا – في أعينهم حتى رأوا عددا يسيرا أقل من أنفسهم، قال ابن مسعود: «حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلا منهم، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفا» .

فصل

وجه النظم أنه – تعالى – لما أنزل الآية المتقدمة في اليهود، وهي قوله: ﴿ستغلبون وتحشرون﴾ ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، أظهروا **التمرد**، وقالوا: لسنا أمثال قريش في الضعف، وقلة المعرفة بالقتال، بل معنا من الشوكة والمعرفة بالقتال ما نغلب به كل من ينازعنا، فقال تعالى: إنكم – وإن كنتم [أغنياء] ، أقوياء، أرباب قدرة وعدة فإنكم – ستغلبون، ثم ذكر – تعالى – ما يجري مجرى الدلالة على صحة ذلك، فقال: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا﴾ يعني واقعة بدر؛ فإن الكثرة والعدة كانت للكفار، والقلة وعدم السلاح من جانب المسلمين، ثم إن الله تعالى قهر الكفار، ونصر المسلمين، وهذا يدل على أن النصر بتأييد الله ونصره.." (١)

"أنت أعلم اليهود» ؟ قال: كذلك يزعمون، قال: «فأحضروا التوراة» ، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها، فقال ابن سلام: قد جاوز موضعها يا رسول الله، وقام فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بهما فرجما، فغضبت اليهود لذلك غضبا شديدا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وثانيها: روى سعيد بن جبير وعكرمة – عن ابن عباس – قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله – عز وجل – فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن يزيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم، قالا: إن إبراهيم كان يهوديا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فهلموا إلى التوراة؛ فهي بيننا وبينكم حكم فأتيا عليه» ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وثالثها: أن علامة بعثة محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة، والدلائل على صحة نبوته موجودة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥/٦٧

فيها فلما دادلوه في النبوة والبعثة دعاهم إلى التحاكم إلى كتابهم، فأبوا، فأنزل الله – تعالى – هذه الآية، ولذلك قال: ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ [آل عمران: ٩٣] وهذه الآية تدل على أن دلائل صحة نبوته موجودة في التوراة؛ إذ لو علموا أنه ليس في التوراة ما يدل على صحة نبوته لسارعوا إليه، ولما ستروا ذلك.

رابعها: أن هذا الحكم عام في اليهود والنصارى؛ فإن دلائل صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت موجودة في التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿نصيبا من الكتاب﴾ أي: من علم الكتاب؛ لأنا لو أجريناه على ظاهره، فهم قد أوتوا كل الكتاب، والمراد بذلك العلماء منهم، وهم الذين يدعون إلى الكتاب؛ لأن من لا علم له بذلك لا يدعى إليه.

قوله: «يدعون» في محل نصب على الحال من ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ .

قوله: «إلى كتاب الله» قال أكثر المفسرين: هو التوراة؛ لوجوه:

أحدها: ما ذكرنا في سبب النزول.

ثانيها: أن الآية سيقت للتعجب من **تمردهم** وإعراضهم، والتعجب إنما يحصل إذا **تمردوا** على حكم الكتاب الذي يعتقدون صحته.

ثالثها: أن هذا هو المناسب لما قبل الآية؛ لأنه لما بين أنه ليس عليه إلا البلاغ وصبره على معاندتهم – مع ظهور الحجة عليهم – بين أنهم استعملوا طريق المكابرة في نفس كتابهم الذي أقروا بصحته، فستروا ما فيه من الدلائل الدالة على صحة نبوة محمد – عليه السلام – فهذا يدل على أنهم في غاية التعصب والبعد عن قبول الحق.." [(١)]

"تقتلونهم.

الثالث: بمعنى البحث، قال تعالى: ﴿فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ [يوسف: ٨٧] .

الرابع: بمعنى الصوت، قال تعالى: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ [الأنبياء: ١٠٢] أي: صوتها.

قوله: ﴿منهم﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يتعلق ب «أحس» و «من» لابتداء الغاية أي: ابتداء الإحساس من جهتهم.

الثاني: أنه متعلق بمحذوف، على أنه حال من الكفر، أي: أحس الكفر حال كونه صادرا منهم.

فصل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥/١١٧

في هذا الإحساس وجهان:

أحدهما: أنهم تكلموا كلمة الكفر فأحسوا ذلك بإذنه.

والثاني: أن يحمل على التأويل، وهو أنه عرف منهم إصرارهم على الكفر وعزمهم على قتله، ولما كان ذلك العلم علما لا شبهة فيه، مثل العلم الحاصل من الحواس - لا جرم - عبر عنه بالإحساس، واختلفوا في السبب الذي ظهر فيه كفرهم على وجوه:

أحدها: قال السدي: إنه - تعالى - لما بعثه إلى بني إسرائيل، ودعاهم إلى دين الله تعالى فتمردوا وعصوا، فخافهم واختفى عنهم.

وقيل: نفوه وأخرجوه، فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض، فنزلا في قرية على رجل، فأضافهم، وأحسن إليهم، وكان بتلك المدينة ملك جبار، فجاء ذلك الرجل يوما حزينا، مهتضما، ومريم عند امرأته، فقالت مريم ما شأن زوجك؟ أراه كئيباص؟ قالت: لا تسأليني. فقالت: أخبريني، لعل الله يفرج كربته، قالت: إن لنا ملكا يجعل على كل رجل منا يطعمه ويطعم جنوده، ويسقيهم الخمر، فإن لم يفعل، عاقبه، واليوم نوبتنا، وليس لذلك عندنا سعة، قالت: فقولي له: لا يهتم؛ فإني آمر ابني فيدعو له، فيكفى ذلك. فقالت مريم لعيسى يا ولدي ادع الله أن يكفيه ذلك، فقال: يا أمه، إن فعلت ذلك كان فيه شر فقالت: قد احسن إلينا وأكرمنا، فقال عيسى: قولي له إذا قرب مجيء الملك فاملأ قدورك وجوابيك [ماءا] ثم أعلمني.

ففعل ذلك، فدعا الله تعالى - فتحول ما في القدور طبيخا، وما في الجوابي خمرا، لم يرى الناس مثله، فلما جاء الملك أكل، فلما شرب الخمر، ق ا ل: من اين هذا الخمر؟ قال: من أرض كذا، قال الملك: إن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه قال: هذه من أرض أخرى، فلما خلط على الملك، واشتد عليه، قال: أنا أخبرك، عندي غلام لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه وإنه دعا الله فجعل الماء خمرا وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه، فمات قبل ذلك بأيام - وكان أحب الخلق إليه - فقال: إنه رجل دعا الله حتى جعل الماء خمرا ليستجابن له حتى يحيي ابني، فدعا عيسى." (١)

"قال ابن الخطيب: ويبعد عندي حمل هذه الآية على هذا السبب؛ لأن على هذا التقدير - الآية منقطعة عما قبلها، والاستفهام على سبيل الإنكار يقتضي تعلقها بما قبلها، وإنما الوجه في الآية أن هذا الميثاق لما كان مذكورا في كتبهم، وهم كانوا عارفين بذلك، وعالمين بصدق محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة، فلم يبق كفرهم إلا مجرد عناد وحسد وعداوة، فصاروا كإبليس حين دعاه الحسد إلى الكفر،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥/٢٥٧

فأعلمهم – تعالى – أنهم متى كانوا كذلك كانوا طالبين دينا غير دين الله – تعالى – ثم بين لهم أن **التمرد** على الله، والإعراض عن حكمه مما لا يليق بالعقل، فقال: ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾ .

قوله: «وله أسلم من في السموات» جملة حالية، أي: كيف يبغون غير دينه، والحال هذه، وفي قوله: «طوعا وكرها» وجهان:

أحدهما: أنهما مصدران في موضع الحال، والتقدير: طائعين وكارهين.

الثاني: أنهما مصدران على غير المصدر، قال ابو البقاء: «لأن» أسلم «بمعنى انقاد، وأطاع» وتابعه أبو حيان على هذا.

وفيه نظر؛ من حيث إن هذا ماش في «طوعا» لموافقته معنى الفعل قبله، وأما «كرها» ، كيف يقال فيه ذلك؟ والقول بأنه يغتفر في التوالي ما لا يغتفر في الأوائل، غير نافع هنا.

ويقال يطاع يطوع، وأطاع يطيع بمعنى، قاله ابن السكيت، وقول: طاعه يطوعه: انقاد له، وأطاعه، أي: رضي لأمره، وطاوعه، أي: وافقه.

قرأ الأعمش: «وكرها» – بالضم – وسيأتي أنها قراءة الأخوين في سورة النساء.

قال الحسن: أسلم من في السموات طوعا، وأسلم من في الأرض بعضهم طوعا، وبعضهم خوفا من السيف والسبي.

وقال مجاهد: «طوعا» المؤمن، و «كرها» ظل الكافر، بدليل قوله: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ [الرعد: ١٥] .

وقيل هذا يوم الميثاق، حين قال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] فقال بعضهم طوعا، وبعضهم كرها.

قال قتادة: المؤمن أسلم طوعا فنفعه، والكافر أسلم كرها في وقت اليأس، فلم." (١)

"إلى مقاتلة الناس مع الكفار؟ ثم بتقدير حضوره، فأي فائدة في إرسال سائر الملائكة؟

الثاني: أن أكابر الكفار كانوا مشهورين، وكل واحد منهم مقابله من الصحابة معلوم، وإذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة.

الثالث: أن الملائكة لو قاتلوا لكانوا إما أن يصيروا بحيث يراهم الناس، أو لا، فإن رآهم الناس، فإما أن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥/٣٦٧

يروهم في صورة الناس، أو في صورة غيرهم، فإن رأوهم في صورة الناس، صار المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف أو أكثر، ولم يقل بذلك أحد؛ لأنه مخالف لقوله تعالى: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ [الأنفال: ٤٤] وإن شاهدوهم في صور غير صور الناس، لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق؛ لأن من شاهد الجن، لا شك أنه يشتد فزعه - ولم ينقل ذلك ألبتة - وإن لم يروهم، فعلى هذا التقدير إذا حاربوا، وحزوا الرؤوس، وشقوا البطون، وأسقطوا الكفار عن الأفراس، فحينئذ إذا شاهد الكفار هذه الأفعال مع أنهم لم يشاهدوا أحدا من الفاعلين، وهذا يكون من أعظم المعجزات، فيجب أن لا يبقى منهم كافر ولا **متمرد**، ولما لم يوجد شيء من ذلك عرف فساده.

الرابع: أن الملائكة الذين نزلوا، إما أن يكونوا أجساما لطيفة أو كثيفة، فإن كانت كثيفة وجب أن يراهم الكل كرؤية غيرهم، ومعلوم أن الأمر ما ان كذلك، وإن كانت لطيفة مثل الهواء - لم يكن فيهم صلابة وقوة، ويمتنع كونهم راكبين على الخيول.

والجواب: أن نص القرآن ناطق بها، وقد وردت في الأخبار قريب من التواتر قال عبد الله بن عمير لما رجعت قريش من أحد، جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا، ويقولون: لم نر الخيل البلق، ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم يوم بدر.

وقال سعد بن أبي وقاص: رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض، ما رأيتهما قبل، ولا بعد.

قال سعد بن إبراهيم: يعني: جبريل وميكائيل.

وهذه الشبهة إنما تليق بمن ينكر القرآن والنبوة، فأما من يقر بهما، فلا يليق به شيء من هذا، وهذه الشبهة إذا قابلناها بكمال قدرة الله - تعالى - زالت؛ فإنه - تعالى - يفعل ما يشاء؛ لأنه قادر على جميع الممكنات.

فصل

اختلفوا في كيفية نصرة الملائكة.." (١)

"وقال الواحدي: هذا جمع حروفه أقل من حروف واحده، وكل جمع يكون كذلك، فإنه يجوز تذكيره.

وقال غيره: يمكن أن يقال: كون هذا الجمع مؤنثا ليس أمرا حقيقيا، بل هو أمر لفظي، فكان التذكير والتأنيث فيه جائزا. وجاء هنا «عن مواضعه» وفي المائدة: ﴿من بعد مواضعه﴾ [المائدة: ٤١] .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥١٩/٥

قال الزمخشري: أما ﴿عن مواضعه﴾ فعلى ما فسرناه من إزالته عن مواضعه، التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه، وأما «من بعد مواضعه» ، فالمعنى: أنه كانت له مواضع هو فمن بأن يكون فيها فحين حرفوه، تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره والمعنيان متقاربان.

قال أبو حيان: وقد يقال: إنهما سيان لكنه حذف هنا وفي أول المائدة [الآية ١٣] من بعد مواضعه؛ لأن قوله ﴿عن مواضعه﴾ يدل على استقرار مواضع له، وحذف في ثاني المائدة «من مواضعه» ؛ لأن التحريف «من بعد مواضعه» يدل على أنه تحريف عن مواضعه، فالأصل: يحرفون الكلم من بعد مواضعه عنها. فحذف هنا البعدية، وهناك توسعا في العبارة، وكانت البدأة هنا بقوله: «عن مواضعه» ؛ لأنه أخصر، وفيه تنصيص باللفظ على «عن» وعلى المواضع، وإشارة إلى البعدية.

وقال أيضا: والظاهر أنهم حيث وصفوا بشدة **التمرد** والطغيان، وإظهار العداوة، واشتراء الضلالة، ونقص الميثاق، جاء «يحرفون الكلم عن مواضعه» كأنهم حرفوها من أول وهلة قبل استقرارها في مواضعها، وبادروا إلى ذلك، ولذلك جاء أول المائدة كهذه الآية؛ حيث وصفهم بنقض الميثاق، وقسوة القلوب، وحيث وصفوا باللين وترديد الحكم إلى الرسول، جاء «من بعد مواضعه» كأنهم لم يبادروا إلى التحريف، بل عرض لهم بعد استقرار الكلم في مواضعها، فهما سياقان مختلفان.

[وقوله:] ﴿ويقولون﴾ عطف على ﴿يحرفون﴾ وقد تقدم، وما بعده في محل نصب به.

فصل: الخلاف في كيفية التحريف

اختلفوا في كيفية التحريف، فقيل: كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر؛ كتحريفهم الرجم [." (١)

"أحدها: قوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾ فجعل التحاكم [إلى لطاغوت] مقابلا للكفر به، وهذا يقتضي أن التحاكم إلى الطاغوت كفر بالله، كما أن الكفر بالطاغون إيمان بالله.

ثانيها: قوله -[تعالى]-: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ [النساء: ٦٥] وهذا نص في تكفير من لم يرض بحكم الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

وثالثها: قوله - تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٤٠٧

٦٣] وهذه الآيات تدل على أن من رد شيئا من أوامر الله والرسول فهو خارج عن الإسلام، سواء رده من جهة الشرك أو من جهة الشرك أو من جهة **التمرد**، وذلك يوجب صحة ما ذهبت إليه الصحابة - رضي الله عنهم - من الحكم بارتداد مانعي الزكاة، وقتلهم، وسبي ذراريهم.

قوله: ﴿أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ في ﴿ضلالا﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه مصدر على غير المصدر، نحو: ﴿أنبتكم من الأرض نباتا﴾ [نوح: ١٧] ، والأصل «إضلالا» و «إنباتا» فهو [اسم] مصدر لا مصدر.

والثاني: أنه مصدر لمطاوع ﴿أضل﴾ أي: أضلهم فضلوا ضلالا.

والثالث: أن يكون من وضع أحد المصدرين موضع الآخر.

فصل

قالت المعتزلة: قوله - تعالى -: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ يدل على أن كفر الكافر ليس بخلق [الله - تعالى -] ولا بإرادته؛ لأنه لو خلق الكفر في الكافر وأراده منه، فأي تأثير للشيطان فيه، وأيضا فإنه ذم للشيطان؛ بسبب أنه يريد هذه الضلالة، فلو كان - تعالى - مريدا لها، لكان هو بالذم أولى، لأن [كل] من عاب شيئا ثم فعله، كان بالذم أولى به؛ قال - تعالى -: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٣] وأيضا فإنه تعجب من تحاكمهم إلى الطاغوت، مع أنهم أمروا أن يكفروا به، ولو كان ذلك التحاكم بخلق الله، لما بقي التعجب، فإنه يقال: إنك خلقت ذلك الفعل فيهم، وأردته منهم، بل التعجب من هذا التعجب [هو] أولى. وجوابهم المعارضة بالعلم والداعي.." (١)

"وأظهروا الندم على ما فعلوه، وتابوا عنه واستغفروا عنه، واستغفر لهم الرسول بأن يسأل الله أن يغفر لهم، وجدوا الله توابا رحيما.

الثاني: قال الأصم: «إن قوما من المنافقين اتفقوا على كيد الرسول - عليه الصلاة والسلام -، ثم دخل اعليه لأجل [ذلك الغرض، فأتاه جبريل - عليه السلام - فأخبره به، فقال صلى الله عليه وسلم : إن قوما] دخلوا عليه لأجل يريدون أمرا لا ينالونه، فليقوموا وليستغفروا الله حتى أستغفر لهم، فلم يقوموا، فقال: ألا تقومون؛ فلم يفعلوا، فقال صلى الله عليه وسلم : قم يا فلان، قم يا فلان، حتى عد اثني عشر رجلا منهم، فقاموا وقالوا: كنا عزمنا على ما قلت، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا، فاستغفر لنا.

فقال: الآن اخرجوا، أنا كنت في بدء الأمر أقرب إلى الاستغفار، وكان الله أقرب إلى الإجابة، اخرجوا عني»

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٤٥٦

.

فإن قيل: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه [صحيح] ، لكانت توبتهم مقبولة، فما فائدة ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله – تعالى –، وكان إساءة للرسول – عليه السلام – وإدخالا للغم في قلبه، ومن كان ذنبه كذلك، وجب عليه الاعتذار عن ذلك لغيره؛ فلهذا المعنى وجب عليهم إظهار طلب الاستغفار [من الرسول] .

ثانيها: أنهم لما لم يرضوا بحكم الرسول – عليه السلام –، ظهر منهم **التمرد**، فإذا تابوا، وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك **التمرد**؛ بأن يذهبوا إلى الرسول ويطلبوا منه الاستغفار.

وثالثها: أنهم إذا أتوا بالتوبة أتوا بها على وجه خلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول، صارت محققة القبول، وهذه الآية تدل على أن الله – تعالى – يقبل التوبة؛ لقوله: «لوجدوا الله توابا رحيما» .." [١]

"هذه الآية متصلة بما تقدم من المنافقين، وترغيب لهم في ترك النفاق، والمعنى: أنا لو شددنا التكليف على الناس؛ نحو أن نأمرهم بالقتل، والخروج عن الأوطان، لصعب ذلك عليهم ولما فعله إلا قليل، وحينئذ يظهر كفرهم، فلم نفعل ذلك رحمة منا على عبادنا، بل اكتفينا بتكليفهم في الأمور السهلة، فليقبلوها وليتركوا **التمرد**.

نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، ناظر يهوديا. فقال اليهودي: إن موسى أمرنا بقت أنفسنا ففعلنا ذلك، ومحمد يأمركم بالقتال فتكرهونه. فقال ثابت بن قيس: لو أن محمدا أمرني بقتل نفسي، لفعلت ذلك فنزلت الآية، وهو من القيل الذي استثنى الله.

وقال الحسن ومقاتل: لما نزلت هذه الآية، «قال عمر، وعمار بن ياسر، وعبد لله بن مسعود، وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم القليل: والله لو أمرنا لفعلنا، فالحمد لله." [٢]

"الرابع: أنه منصوب على المدح، قدره أبو البقاء ب «أعني» ، وكان ينبغي أن يقدره فعلا دالا على المدح، نحو: «أمدح» ، وقد رجح الزمخشري هذا الأخير، فقال: «والأوجه أن ينتصب» رسلا «على المدح» .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٤٦٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٤٧١

قوله: «لئلا» هذه لام كي، وتتعلق ب «منذرين» على المختار عند البصريين، وب «مبشرين» على المختار عند الكوفيين؛ فإن المسألة من التنازع، ولو كان من إعمال الأول، لأضمر في الثاني من غير حذف، فكان يقال: مبشرين ومنذرين [له] لئلا، ولم يقل كذلك، فدل على مذهب البصريين، وله في القرآن نظائر تقدم منها جملة صالحة، وقيل: اللام تتعلق بمحذوف، أي: أرسلناهم لذلك، و «حجة» اسم «كان» ، وفي الخبر وجهان:

أحدهما: هو «على الله» و «للناس» حال.

والثاني: أن الخبر «للناس» و «على الله» حال، ويجوز أن يتعلق كل من الجار والمجرور بما تعلق به الآخر، إذا جعلناه خبرا، ولا يجوز أن يتعلق على الله ب «حجة» ، وإن كان المعنى عليه؛ لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه، و «بعد الرسل» متعلق ب «حجة» ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة ل «حجة» ؛ لأن ظروف الزمان توصف بها الأحداث؛ كما يخبر بها عنها؛ نحو: «القتال يوم الجمعة» .

فصل في جواب الآية عن شبهة اليهود

هذه الآية جواب عن شبهة اليهود، وتقريره: أن المقصود من بعثة الرسل أن يبشروا وينذروا، وهذا المقصود حاصل سواء كان الكتاب نازلا دفعة واحدة أو منجما، ولا يختلف هذا الغرض بنزول الكتاب منجما أو دفعة واحدة.

بل لو قيل: إن إنزال الكتاب منجما مفرقا أقرب إلى المصلحة، لكان أولى؛ لأن الكتاب إذا نزل دفعة واحدة، كثرت التكاليف على المكلف، فيثقل فعلها؛ ولهذا السبب أخذ قوم موسى - عليه السلام - على **التمرد**، ولم يقبلوا تلك التكاليف.

أما إذا نزل الكتاب منجما مفرقا، سهل قبوله للتدريج، فحينئذ يحصل الانقياد والطاعة من القوم، فكان اقتراح اليهود إنزال الكتاب دفعة واحدة اقتراحا فاسدا

ثم قال: ﴿وكان الله عزيزا حكيما﴾ يعني: هذا الذي تطلبونه من الرسول أمر هين في القدرة، وإنما طلبتموه على سبيل اللجاج، وهو - تعالى - عزيز، وعزته تقتضي ألا يجاب المتعنت إلى مطلوبه، وكذلك حكمته تقتضي هذا الامتناع؛ لعلمه - تعالى - بأنه لو فعل ذلك لبقوا مصرين على اللجاج؛ لأنه - تعالى - أعطى موسى -[عليه الصلاة والسلام]-." (١)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣٧/٧

"وقرأ ابن السميفع: ﴿ياقوم ادخلوا﴾ بفتح الياء، وروي أن إبراهيم – عليه السلام – لما صعد [جبل لبنان] ، فقال الله تعالى له: «انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس، وهو ميراث لذريتك» .

والأرض المقدسة هي الأرض المطهرة من الآفات؛ لأن التقديس هو التطهير، وقال المفسرون طهرت من الشرك، وجعلت مسكنا وقرارا للأنبياء، وفيه نظر؛ لأن تلك الأرض لما أمرهم موسى بدخولها ما كانت مقدسة عن الشرك، وما كانت مقرا للأنبياء، وقد يجاب عنه بأنها كانت كذلك فيما قبل.

واختلفوا في تلك الأرض، فقال عكرمة، والسدي، وابن زيد: هي أريحا.

وقال الكلبي: هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وقال الضحاك: هي إيليا وبيت المقدس، وقال مجاهد: هي الطور وما حوله. وقال قتادة: هي الشام كلها. وقال كعب: وجدت في كتاب الله المنزل [أن الشام كنز الله من أرضه، وبها كثرة من عباده.

وقوله: ﴿كتب الله لكم﴾ يعني: في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن.

وقال ابن إسحاق: وهب الله لكم، وقيل: جعلها لكم [قال السدي: أمركم الله بدخولها] .

فإن قيل: لم قال ﴿كتب الله لكم﴾ ، ثم قال ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ [المائدة: ٢٦] .

فالجواب: قال ابن عباس: كانت هبة ثم حرمها عليهم بشؤم **تمردهم** وعصيانهم، وقيل: اللفظ وإن كان عاما لكن المراد به الخصوص، فكأنها كتبت لبعضهم، وحرمت على بعضهم.." (١)

"وفي غير القرآن إذا اجتمع ظرف يصح الإخبار به مع وصف آخر، ويجوز أن يجعل الظرف خبرا، والوصف حالا، وأن يكون الخبر الوصف، والظرف منصوب به كهذه الآية.

فصل

قولهم: ﴿فاذهب أنت وربك﴾ فيه وجوه:

أحدها: لعل القوم كانوا مجسمة، يجوزون الذهاب والمجيء على الله تعالى.

وثانيها: يحتمل ألا يكون المراد حقيقة الذهاب، بل كما يقال: كلمته فذهب يجيبني، أي: يريد أن يجيبني، فكأنهم قالوا: كن أنت وربك مريدين لقتالهم.

ثالثها: التقدير اذهب أنت وربك معين لك بزعمك فأضمر خبر الابتداء.

فإن قيل: إذا أضمرنا الخبر فكيف يجعل قوله: «فقاتلا» خبرا أيضا.

فالجواب: لا يمتنع خبر بعد خبر.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٦٩/٧

رابعها: أراد بقوله: «وربك» أخوه هارون، وسموه [ربا] لأنه كان أكبر من موسى.

قال المفسرون: قولهم: ﴿اذهب أنت وربك﴾ ، إن قالوه على وجه الذهاب من مكان إلى مكان فهو كفر، وإن قالوه على وجه **التمرد** عن الطاعة فهو فسق، ولقد فسقوا بهذا الكلام لقوله تعالى في هذه القصة: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ [المائدة: ٢٦] .

والمقصود من هذه القصة: شرح حال هؤلاء اليهود، وشدة بغضهم [وغلوهم] في المنازعة مع الأنبياء قديما، ثم إن موسى – عليه السلام – لما سمع منهم هذا الكلام قال: ﴿رب إني لاا أملك إلا نفسي وأخي﴾ في إعراب «أخي» ستة أوجه:

أظهرها: أنه منصوب عطفا على «نفسي» ، والمعنى: لا أملك إلا أخي مع ملكي لنفسي دون غيرنا.

الثاني: أنه منصوب عطفا على اسم «إن» ، وخبرها محذوف للدلالة اللفظية عليه، أي: وإن أخي لا يملك إلا نفسه.

الثالث: أنه مرفوع عطفا على محل اسم «إن» ؛ لأنه يعد استكمال الخبر على خلاف في ذلك، وإن كان بعضهم قد ادعى الإجماع على جوازه.." (١)

"**التمرد**، ولعله إنما قال ذلك تقليلا لمن وافقه، أو يكون المراد بالأخ من يؤاخيه في الدين، وعلى هذا يدخل الرجلان.

والمراد بقوله: ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي: افصل بيننا وبينهم، بأن تحكم لنا بما تستحق وتحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدعاء عليهم، أو يكون المعنى: خلصنا من صحبتهم، وهو كقوله: ﴿نجني من القوم الظالمين﴾ [القصص: ٢١] .." (٢)

"لم يكن يزوج ابنته من ابنه، ولو فعل ذلك ما رغب عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا كان دين آدم عليه السلام إلا دين النبي صلى الله عليه وسلم ... » ، وذكر قصته. قال القرطبي: وهذه القصة عن جعفر ما أظنها تصح، وأنه يزوج غلام هذا البطن إلى البطن الآخر، بدليل قوله تعالى: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونسآء﴾ [النساء: ١] ، وهذا كالنص ثم نسخ ذلك على ما تقدم بيانه في «سورة البقرة» وكان جميع ما ولدته حواء أربعين ولدا ذكرا، وأنثى: عشرين بطنا أولهم قابيل، وتوأمته إقليمياء وآخرهم عبد المغيث، ثم بارك الله في نسل آدم – عليه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٧٥/٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٧٧/٧

الصلاة والسلام -.
وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: لم يمت آدم - عليه السلام - حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا.
والقول الثاني: وهو قول الحسن والضحاك: أن ابني آدم اللذين قربا القربان ما كانا ابني آدم لصلبه، وإنما كانا رجلين من بني إسرائيل [كانت بينهما خصومة، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل] ؛ لقوله تعالى في آخر القصة: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾ [المائدة: ٣٢] .
وصدور الذنب من ابني آدم، لا يصلح أن يكون سببا لإيجاب القصاص عليهم زجرا لهم عن المعاودة إلى مثل هذا الذنب، ويدل عليه أيضا أن المقصود من هذه القصة: بيان أن اليهود من قديم الدهر مصرون على **التمرد** والحسد حتى بلغ بهم هذا الحسد إلى أن أحدهما لما قبل الله قربانه حسده الآخر وقتله، ولا شك أن هذا ذنب عظيم.
فإن قبول القربان مما يدل [عليه أن صاحبه] حسن الاعتقاد [وأنه] مقبول عند الله - تعالى - فتجب المبالغة في تعظيمه، فلما أقدم على قتله [وقتله] مع هذه الحالة دل ذلك على أنه قد بلغ في الحسد أقصى الغايات، وإذا كان المراد أن الحسد داء قديم في بني إسرائيل، وجب أن يقال: [هذان الرجلان] كانا من بني إسرائيل، والصحيح الأول؛ لأن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول، حتى تعلم ذلك من عمل الغراب ولو كان من بني إسرائيل لما خفي عليه هذا الأمر - والله سبحانه أعلم -.
فصل
قوله تعالى: «بالحق» فيه ثلاثة أوجه:." (١)
"ويحسن أن يقدر هذا المحذوف المعادل بعد قوله: «لفاسقون» ، والذي ينبغي ألا يقال: في هذا النوع ثم حذف؛ لأن ذلك من باب فحوى الخطاب، والأمر فيه واضح.
فصل
المعنى: «فإن تولوا» : أعرضوا عن الإيمان ولم يقبلوا حكمك، ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم﴾ أي: فاعلم أن إعراضهم من أجل أن يريد الله أن يعجل لهم العقوبة في الدنيا، بأن يسلط عليهم ويعذبهم في الدنيا [بالقتل والجلاء] ، وخص تعالى بعض الذنوب؛ لأن القتل جوزوا به في الدنيا ببعض ذنوبهم، وكانت مجازاتهم بالبعض كافيا في إهلاكهم، ﴿وإن كثيرا من الناس﴾ ، يعني: اليهود. «لفاسقون» **لمتمردون** في

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٨٤/٧

الكفر ومعتدون فيه.

قوله تعالى: «أفحكم» : الجمهور على ضم الحاء، وسكون الكاف ونصب الميم، وهي قراءة واضحة.

و «حكم» مفعول مقدم، و «يبغون» فعل وفاعل، وهو المستفهم عنه في المعنى.

و «الفاء» فيها القولان المشهوران: هل هي مؤخرة عن الهمزة وأصلها التقديم، أو قبلها جملة عطفت ما بعدها عليها تقديره: أيعدلون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية؟

وقرأ ابن وثاب، والأعرج، وأبو رجاء، وأبو عبد الرحمن برفع الميم، وفيها وجهان:

أظهرهما - وهو المشهور عند المعربين -: أنه مبتدأ، و «يبغون» خبره، وعائد المبتدأ محذوف تقديره: «يبغونه» حملا للخبر على الصلة، إلا أن بعضهم جعل هذه القراءة خطأ، حتى قال أبو بكر بن مجاهد: «هذه القراءة خطأ» ، وغيره يجعلها ضعيفة، ولا تبلغ درجة الخطأ.

قال ابن جني في قول ابن مجاهد: ليس كذلك، ولكنه وجه غيره أقوى منه، وقد جاء في الشعر، قال أبو النجم: [الرجز]

١٩٧٧ - قد أصبحت أم الخيار تدعي ... علي ذنبا كله لم أصنع." (١)

"فصل

المعنى: قل لأهل الكتاب: لم اتخذتم هذا الدين هزوا ولعبا، ثم قال على سبيل التعجب: هل تجدون في هذا الدين إلا الإيمان بالله؟! فهو رأس جميع الطاعات، وإلا الإيمان بمحمد، وبجميع الأنبياء فهو الحق والصدق؛ لأنه إذا كان الطريق إلى تصديق بعض الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في ادعاء الرسالة والنبوة هو المعجزة.

ثم رأينا أن المعجز حصل على يدي محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فوجب الإقرار بكونه رسولا، فأما الإقرار بالبعض وإنكار البعض فذلك تناقض ومذهب باطل.

قوله تعالى: ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ قرأ الجمهور: «أن» مفتوحة الهمزة.

وقرأ نعيم بن ميسرة بكسرها.

فأما قراءة الجمهور فتحتمل «أن» فيها أن تكون في محل رفع، أو نصب، أو جر، فالرفع من وجه واحد، وهو أن تكون مبتدأ، والخبر محذوف.

قال الزمخشري: «والخبر محذوف، أي: فسقكم ثابت معلوم عندكم؛ لأنكم علمتم أنا على الحق، وأنتم

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٧٤/٧

على ال‍باطل، إلا أن حب الرئاسة، وجمع الأموال لا يدعكم فتنصفوا» .

فقدر الخبر متأخرا.

قال أبو حيان: ولا ينبغي أن يقدر الخبر إلا مقدما؛ لأنه لا يبتدأ ب «أن» على الأصح إلا بعد «أما» انتهى.

ويمكن أن يقال: يغتفر في الأمور التقديرية ما لا يغتفر في اللفظية، لا سيما أن هذا جار مجرى تفسير المعنى، والمراد إظهار ذلك الخبر [كيف] ينطق به؛ إذ يقال: إنه يرى جواز الابتداء ب «أن» مطلقا، فحصل في تقدير الخبر وجهان بالنسبة إلى التقديم والتأخير.

وأما النصب فمن ستة أوجه:

أحدها: أن يعطف على «أن آمنا» واستشكل هذا التخريج من حيث إنه يصير التقدير: هل تكرهون إلا إيماننا، وفسق أكثركم، وهم لا يعترفون بأن أكثرهم فاسقون حتى يكرهونه.

وأجاب الزمخشري وغيره عن ذلك بأن المعنى: «وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا، وبين **تمردكم**، وخروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دي‍ن الإسلام وأنتم خارجون منه» .

ونقل الواحدي عن بعضهم أن ذلك من باب المقابلة والازدواج، يعني أنه لما نقم." (١)

"والمقصود: بيان عيوب بني إسرائيل، وشدة **تمردهم** عن الوفاء بعهد الله، وهذا متعلق بأول السورة، وهو قوله تعالى: ﴿أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: ١] .

قوله تعالى: ﴿كلما جآءهم رسول﴾ : قد تقدم الكلام [الآية ٢٠ من البقرة] على «كلما» مشبعا، فأغنى عن إعادته، وقال الزمخشري: «كلما جاءهم رسول» جملة شرطية وقعت صفة ل «رسلا» ، والراجع محذوف، أي: «رسول منهم» ، ثم قال: «فإن قلت: أين جواب الشرط، فإن قوله: ﴿فريقا كذبوا وفريقا يقتلون﴾ ناب عن الجواب؛ لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين؛ ولأنه لا يحسن أن تقول:» إن أكرمت أخي، أخاك." (٢)

"٢٠٣٣ - قبيلة الأم الأحياء أكرمها ... وأغدر الناس بالجيران وافيها

«أكرمها» هو المبتدأ و «الأم الأحياء» خبره، وكذا «وافيها» مبتدأ و «أغدر الناس» خبره، والمعنى على

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٧/٤٠٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٧/٤٥٠

هذا، والآية من هذا القبيل فيما ذكرنا وقوله: «والذين أشركوا» عطف على اليهود، والكلام على الجملة الثانية كالكلام على ما قبلها.

فصل

تقدير الكلام قسما: إنك تجد اليهود والمشركين أشد عداوة مع المؤمنين، وقد شرحت لك أن هذا **التمرد** والمعصية عادة قديمة، ففرغ خاطرك عنهم، ولا تبال بمكرهم وكيدهم.

وقوله تعالى: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي – رضي الله عنهم – المراد به: النجاشي وقومه الذين قدموا من الحبشة، وآمنوا به، ولم يرد جميع النصارى؛ لأنهم في عداوتهم للمسلمين، كاليهود في قتلهم المسلمين وأسرهم، وتخريب بلادهم، وهدم." (١)

"يؤذي أهل النار بريح قصبه» فقال أكثم أيضرني شبهه يا رسول الله؟ قال: «لا. إنك مؤمن وهو كافر» .

فإن قيل: إذا جاز إعتاق العبيد والإماء، فلم لا يجوز إعتاق هذه البهائم من الذبح والإيلام؟ فالجواب من وجهين:

الأول: إن الإنسان مخلوق لخدمة الله وعبوديته، فإذا **تمرد** عن الطاعة، عوقب بضرب الرق عليه، فإذا أزيل الرق عنه تفرغ لعبادة الله تعالى، وكان ذلك عبادة مستحسنة، وأما هذه الحيوانات، فإنها مخلوقة لمنافع المكلفين، فتركها وإهمالها يقتضي فوات منفعة على مالكها، من غير أن يحصل في مقابلتها فائدة.

والثاني: أن الإنسان إذا أعتق، قدر على تحصيل مصالح نفسه، والبهيمة إذا عتقت وتركت، لم تقدر على تحصيل مصالح نفسها، بل تقع في أنواع من المحنة أشد وأشق مما كانت فيها حال ما كانت مملوكة، فافترقا.

فصل

قال القرطبي: تعلق أبو حنيفة في منعه الأحباس ورد الأوقاف، بأن الله تعالى عاب على العرب أفعالهم في تسييب البهائم وحمايتها، وحبس أنفسها عنها، وقاس ذلك على البحيرة والسائبة.

قال القرطبي: والفرق بين، قال علقمة لمن سأله عن هذه الأشياء، ما تريد إلى شيء كان من عمل الجاهلية؟!

وقد ذهب جمهور العلماء على جواز الأحباس والأوقاف، لما روى نافع، عن ابن عمر: «أنه استأذن رسول

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن ع ا دل ٤٧٥/٧

الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يتصدق بسهمه بخيبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :» احبس الأصل أو سبل الثمرة «.

ثم قال تعالى ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ .

قال ابن عباس: يريد عمرو بن لحي وأعوانه، ﴿يفترون على الله﴾ هذه الأكاذيب، ويقولون: أمرنا بها، قالوا: وساء ما يفترون على الله الكذب، والأتباع والعوام أكثرهم لا يعقلون.." (١)

"وفهم، فأما من أعرض **وتمرد** فهو تعالى ما صرف هذه الآيات لهم.

قوله تعالى: ﴿وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل﴾

قوله: «وكذب به» «الهاء» في «ربه» تعود على العذاب المتقدم في قوله: «عذابا من فوقكم» قال الزمخشري.

وقيل: تعود على القرآن.

وقيل: تعود على الوعيد المتضمن في هذه الآيات المتقدمة.

وقيل: على النبي صلى الله عليه وسلم وهذا بعيد؛ لأنه خوطب بالكاف عقيبه، فلو كان كذلك لقال: وكذب به قومك، وادعاء الالتفات فيه أبعد.

وقيل: لا بد من حذف صفة هنا، أي: وكذب به قومك المعاندون، أو الكافرون؛ لأن قومه كلهم لم يكذبوه، كقوله: ﴿إنه ليس من أهلك﴾ [هود: ٤٦] أي الناجين، وحذف الصفة وبقاء الموصوف قليل جدا، بخلاف العكس.

وقرأ ابن أبي عبلة: «وكذبت» بتاء التأنيث، كقوله تعالى: ﴿كذبت قوم نوح﴾ [الشعراء: ١٠٥] ، ﴿كذبت قوم لوط﴾ [الشعراء: ١٦٠] باعتبار الجماعة.

قوله: «وهو الحق» في هذه الجملة وجهان:

الظاهر منهما: أنها استئناف.

والثاني: أنها حال من «الهاء» في «به» ، أي: كذبوا به في حال كونه حقا، وهو أعظم في القبح.

والمعنى أن الضمير في «به» للعذاب، فمعنى كونه حقا لا بد أن ينزل بهم، وإن عاد إلى القرآن، فمعنى كونه حقا، أي: كتاب منزل من عند الله، وإن عاد إلى تصريف الآيات أي: أنهم كذبوا كون هذه الأشياء دلالات، وهو حق.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٥٦/٧

قوله: «عليكم» متعلق بما بعده، وهو توكيد، وقدم لأجل الفواصل، ويجوز أن يكون حالا من قوله: «بوكيل» ؛ لأنه لو تأخر لجاز أن يكون صفة له، وهذا عند من يجيز تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف، وهو اختيار جماعة، وأنشدوا عليه: [الخفيف]

٢١٩٣ - غافلا تعرض المنية للمرء ... فيدعى ولات حين إباء." (١)

"كونهم أعداء له، وذلك يقتضي صيرورتهم أعداء للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -؛ لأن العداوة لا تحصل إلا من الجانبين، فلهذا أن يقال: إنه - تعالى - جعلهم أعداء للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

وهذه أوجوبه ضعيفة لما تقدم الأفعال مسندة إلى الدواعي، وهي حادثة من قبل الله - تعالى - وإذا كان كذلك، صح مذهبنا، ثم ههنا بحث آخر، وهو أن العداوة، والصداقة يمتنع أن تحصل باختيار الإنسان؛ فإن الرجل قد يبلغ في عداوة غيره إلى حيث لا يقدر ألبتة على إزالة تلك الحالة عن قلبه، بل قد لا يقدر على إخفاء آثار تلك العداوة، ولو أتى بكل تكلف وحيلة، لعجز عنه، ولو كان حصول العداوة والصداقة في القلب باختيار الإنسان، لوجب أن يكون الإنسان متمكنا من قلب العداوة بالصداقة، وبالعكس، فكيف لا، والشعراء عرفوا أن ذلك خارج عن الوسع قال المتنبي [المتقارب]

٢٢٨٨ - يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

والعاشق الذي يشتد عشقه [قد] يحتال بجميع الحيل في إزالة عشقه، ولا يقدر عليه ولو كان حصول ذلك الحب والبغض باختياره، لما عجز عن إزالته.

فصل في معنى الآية

قال عكرمة، والضحاك، والكلبي: المعنى: شياطين الإنس التي مع شياطين الجن، وذلك أن إبليس قسم جنده فريقين، فبعث فريقا منهم إلى الإنس، وفريقا إلى الجن، وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولأوليائه، وهم يلتقون في كل حين، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن: أضللت صاحبي بكذا، فأضلل صحبك بمله، ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك. فلذلك وصى بعضهم إلى بعض.

وقال قتادة، ومجاهد، والحسن: إن من الإنس شياطين، كما أن من الجن شياطين، والشيطان الثاني **المتمرد** من كل شيء.

قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن، وعجز عن إغوائه، ذهب إلى **متمرد** من الإنس: وهو شيطان الإنس،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨/٢٠٥

فأغراه بالمؤمن ليفتنه، يدل عليه ما «روي عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس، قلت يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين، قال نعم، هم شر من شياطين الجن» .." (١)

"لما بين أحوال التكاليف، وأن لكل أمة أجلا معينا - بين أنهم بعد الموت إن كانوا مطيعين فلا خوف عليهم ولا حزن، وإن كانوا **متمردين** وقعوا في أشد العذاب.

قيل: أراد «بني آدم» مشركي العرب، وقد تقدم إعراب نظيره في البقرة، وهي أن الشرطية ضمت إليها مؤكدة لمعنى الشرط، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة، وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط، والجزاء وهو قوله تعالى: ﴿فمن اتقى وأصلح﴾ .

و «منكم» صفة لطرسل «، وكذلك» يقصون «وقدم الجار على الجملة لأنه أقرب إلى المفرد منها.

قال مقاتل: أراد بالرسل الرسول - عليه الصلاة والسلام - إنما قال:» رسل «، وإن كان خطابا للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وهو خاتم الأنبياء؛ لأنه أجرى الكلام على ما يقتضيه سنته في الأمم.

وقيل: أراد جميع الرسل، وإنما قال:» منكم «؛ لأن كون الرسول منهم أقطع لعذرهم، وأمعن للحجة عليهم من جهات:

وقيل: أراد جميع الرسل، وإنما قال:» منكم «؛ لأن كون الرسول منهم أقطع لعذرهم، وأمعن للحجة عليهم من جهات:

أحدها: أن معرفتهم بأحواله وبطهارته تكون متقدمة.

وثانيها: أن معرفتهم بما يليق بقدرته تكون متقدمة فلا جرم لا يقع في المعجزات." (٢)

"لما بين أن الذين عصوا **وتمردوا**؛ أخذهم بغتة بين في هذه الآية انهم لو أطاعوا فتح عليهم أبواب الخيرات، وقد تقدم أن ابن عامر يقرأ: «لفتحنا» بالتشديد ووافقه هنا عيسى بن عمر الثقفي، وأبو عبد الرحمن السلمي.." (٣)

"و «ألا» : استفتاح كلام، و «لكن» : حرف استدراك، ويحتمل أن يراد هنا: لا يشعرون أنهم مفسدون، ويحتمل أن يراد: لا يشعرون أن الله يفضحهم.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٨٥/٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠٠/٩

(٣) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٣٤/٩

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٣ الى ١٦]

وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (١٣) وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن (١٤) الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (١٥) أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (١٦)

قوله تعالى: وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ... الآية: المعنى: صدقوا بمحمد وشرعه كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب، قالوا: أنكون كالذين خفت عقولهم، والسفه: الخفة والرقة الداعية إلى الخفة، يقال: ثوب سفيه، إذا كان رقيقا هلهل النسج، وهذا القول إنما كانوا يقولونه في خفاء، فأطلع الله عليه نبيه عليه السلام، والمؤمنين، وقرر أن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هو في حيزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم لا يعلمون أنهم السفهاء للرين الذي على قلوبهم.

وقوله تعالى: وإذا لقوا الذين آمنوا ... الآية: هذه كانت حال المنافقين: إظهار الإيمان للمؤمنين، وإظهار الكفر في خلواتهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنهم، ويدعهم في غمرة الاشتباه مخافة أن يتحدث الناس عنه أنه يقتل أصحابه حسبما وقع في قصة عبد الله بن أبي ابن سلول «١» ، قال مالك: النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزندقة اليوم، واختلف المفسرون في المراد بشياطينهم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم رؤساء الكفر «٢» ، وقيل: الكهان، قال البخاري: قال مجاهد: إلى شياطينهم، أي:

أصحابهم من المنافقين والمشركين «٣» .

قال ص «٤» : شياطينهم: جمع شيطان، وهو كل متمرد من الجن والإنس

---

(١) عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبو الحباب، المشهور ب «ابن سلول» ، وسلول جدته لأبيه، من «خزاعة» ، رأس المنافقين في الإسلام، من أهل المدينة. كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم. كان كلما نزلت بالمسلمين نازلة شمت بهم، وكلما سمع بسيئة نشرها. لما مات تقدم النبي صلى الله عليه وسلم فصلى عليه ولم يكن ذلك من رأي «عمر» فنزلت: ولا تصل على أحد منهم مات أبدا [التوبة: ٨٤] . ينظر: «الأعلام» (٤/ ٦٥) ، «طبقات ابن سعد» (٣/ ٩٠) ، «جمهرة الأنساب» (٣٣٥) .

(٢) أخرجه الطبري (١/ ١٦٣) برقم (٣٤٩) ، وذكره القرطبي (١/ ١٧٩) .

(٣) أخرجه الطبري (١/ ١٦٤) برقم (٣٥٥) ، وذكره البغوي في «التفسير» (١/ ٥١) ، والسيوطي في «الدر» (١/ ٧٠) ، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وذكره ابن كثير (١/ ٥١) .

(٤) «المجيد في إعراب القرآن المجيد» (ص ١١٨) .." [1]

"إبليس قاله الجمهور، وهو الصواب لأن سائر المقالة به تليق، ومريدا: معناه:

متمردا عاتيا صليبا في غوايته، وأصل اللعن: الإبعاد، والمفروض: معناه: في هذا الموضع المنحاز، وهو مأخوذ من الفرض، وهو الحز في العود وغيره.

قال ع «١» : ويحتمل أن يريد واجبا إن اتخذه، وبعث النار هو نصيب إبليس.

وقوله: ولأضلنهم ... الآية: معنى أضلنهم: أصرفهم عن طريق الهدى، ولأمنينهم لأسولن لهم، وأمانيه لا تنحصر في نوع واحد، والبتك: القطع.

وقوله: ولآمرنهم فليغيرن خلق الله اختلف المتأولون في معنى تغيير خلق الله، وملاك تفسير هذه الآية أن كل تغيير ضار، فهو داخل في الآية، وكل تغيير نافع فهو مباح، وفي «مختصر الطبري» : فليغيرن خلق الله، قال ابن عباس: خلق الله: دين الله، وعن إبراهيم، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن زيد مثله «٢» ، وفسر ابن زيد: لا تبديل لخلق الله [الروم: ٣٠] ، أي: لدين الله، واختار الطبري «٣» هذا القول واستدل له بقوله تعالى: ذلك الدين القيم [الروم: ٣٠] وأجاز أن يدخل في الآية كل ما نهى الله عنه من معاصيه، والترك لطاعته. انتهى، وهو حسن.

قال ع «٤» : واللامات كلها للقسم.

قال ص: ولأضلنهم، مفعوله محذوف، أي: عن الهدى وكذا:

ولأمنينهم، أي: الباطل وكذا ولآمرنهم، أي: بالبتك، فليبتكن وكذا:

ولآمرنهم، أي: بالتغيير، فليغيرن كل ما أوجده الله للطاعة فيستعينون به في المعصية.

انتهى.

ولما ذكر الله سبحانه/ عتو الشيطان، وما توعد به من بث مكره، حذر تبارك وتعالى عباده بأن شرط لمن يتخذه وليا جزاء الخسران.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١٨٩/١

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٢٠ الى ١٢٢]

يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (١٢٠) أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا (١٢١) والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا (١٢٢)

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١١٤) .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٨٣) برقم (١٠٤٦٨) ، (١٠٤٧٠، ١٠٤٧٧، ١٠٤٨٠، ١٠٤٨١) ، وذكره الماوردي في «تفسيره» (١/ ٥٣٠) ، وابن عطية في «تفسيره» (٢/ ١١٤) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٣٩٦) ، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر الطبري (٤/ ٢٨٥) .

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١١٤) .." [1]

"القاف والباء-، واختلف في معناه، فقال بعضهم: هو بمعنى «قبل» بكسر القاف، أي: مواجهة كما تقول: قبل ودبر.

وقال الزجاج والفراء: هو جمع قبيل، وهو الكفيل، أي وحشرنا عليهم كل شيء كفلاء بصدق محمد صلى الله عليه وسلم، وقال مجاهد وغيره: هو جمع قبيل، أي: صنفا صنفا، ونوعا نوعا «١» ، والنصب في هذا كله على الحالة، ولكن أكثرهم يجهلون، أي: يجهلون في اعتقادهم أن الآية تقتضي إيمانهم، ولا بد، فيقتضي اللفظ أن الأقل لا يجهل، فكان فيهم من يعتقد أن الآية لو جاءت لم يؤمن إلا من شاء الله منه ذلك، قلت: وقال مكي: ولكن أكثرهم يجهلون، أي: في مخالفتك، وهم يعلمون أنك نبي صادق فيما جئتهم به، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يداعب أبا سفيان بعد الفتح بمخصرة في يده، ويطعن بها أبا سفيان، فإذا أحرقته، قال: نح عني مخصرتك، فو الله، لو أسلمت إليك هذا الأمر، ما اختلف عليك فيه اثنان. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أسألك بالذي أسلمت له، قتالك إياي عن أي شيء كان؟ فقال له أبو/ سفيان: تظن أني كنت أقاتلك تكذيبا مني لك، والله، ما شككت في صدقك قط، وما كنت أقاتلك إلا حسدا مني لك، فالحمد لله الذي نزع ذلك من قلبي، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يشتهي ذلك منه، ويتبسم» . انتهى من «الهداية» .

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣٠٢/٢

وقوله سبحانه: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن ... الآية: تتضمن تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وعرض القدوة عليه، أي: هذا الذي امتحنت به، يا محمد، من الأعداء قد امتحن به غيرك من الأنبياء ليبتلي الله أولي العزم منهم، وشياطين الإنس والجن:

يريد: **المتمردين** من النوعين، ويوحي: معناه: يلقيه في اختفاء، فهو كالمناجاة والسرار، وزخرف القول: محسنه ومزينه بالأباطيل قاله عكرمة ومجاهد «٢» ، والزخرفة أكثر ما تستعمل في الشر والباطل، وغرورا: مصدر، ومعناه يغرون به المضللين، والضمير في فعلوه عائد على اعتقادهم العداوة، ويحتمل على «الوحي» الذي تضمنه يوحي.

وقوله سبحانه: فذرهم وما يفترون: لفظ يتضمن الأمر بالموادعة، وهو منسوخ

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٣١٢، ٣١٣) برقم (١٣٧٦٤، ١٣٧٦٥) ، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٣٥) ، وابن كثير (٢/ ١٦٥) ، والسيوطي (٣/ ٧٣) وعزاه لأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٣١٥، ٣١٦) برقم (١٣٧٧٨) عن عكرمة، وبرقم (١٣٧٨٠، ١٣٧٨١) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٢/ ٣٣٦) ، والسيوطي (٣/ ٧٤) ، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي نصر السجزي في «الإبانة» ، وأبي الشيخ عن مجاهد.." [1]

"مرنوا عليه، ولجوا فيه «١» ، وقيل غير هذا مما هو قريب منه.

وقال ابن زيد: قاموا عليه، لم يتوبوا كما تاب الآخرون، والظاهر من اللفظة أن **التمرد** في الشيء أو المرود عليه إنما هو اللجاج والاشتهار به، والعتو على الزاجر، وركوب الرأس في ذلك، وهو مستعمل في الشر لا في الخير ومنه: شيطان مريد ومارد، وقال ابن العربي في «أحكامه» «٢» : مردوا على النفاق: أي: استمروا عليه، وتحققوا به.

انتهى، ذكره بعد قوله تعالى: الذين اتخذوا مسجدا ضرارا [التوبة: ١٠٧] .

ثم نفى عز وجل علم نبيه لهم على التعيين.

وقوله سبحانه: سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم: لفظ الآية يقتضي ثلاث مواطن من العذاب، ولا خلاف بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يردون إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط/ هو عذاب «٣» القبر، واختلف في عذاب المرة الأولى: فقال ابن عباس: عذابهم بإقامة حدود

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢/٥٠٨

الشرع عليهم، مع كراهيتهم فيه «٤» .
وقال إسحاق: عذابهم: هو همهم بظهور الإسلام، وعلو كلمته «٥» . وقال ابن عباس أيضا- وهو الأشهر عنه-: عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق «٦» . وقيل غير هذا.
وقوله عز وجل:

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٢]
وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم (١٠٢)
وآخرون اعترفوا بذنوبهم الآية. قال ابن عباس، وأبو عثمان: هذه الآية في

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٥) .
(٢) ينظر: «الأحكام» (٢/ ١٠١٢) .
(٣) استدل على عذاب القبر من القرآن بقوله تعالى: النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب عطف عذاب يوم القيامة على عرض النار صباحا ومساء، فعلم أنه غيره، وما هو إلا عذاب القبر، لأن الآية وردت في حق الموتى، والأحاديث الصحيحة الدالة على عذاب القبر أكثر من أن تحصى بحيث تواتر القدر المشترك بينها في إثباته.
ينظر: «نشر الطوالع» (٣٧١) .
(٤) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٦) .
(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٥٨) برقم: (١٧١٥٠) ، وذكره ابن عطية (٣/ ٧٦) .
(٦) ذكره ابن عطية (٣/ ٧٦) .." [1]

"(وأكثرهم الفاسقون): **المتمردون**. روي أن اليهود قالت -مع عصابة من الصحابة- نحن أفضل، وديننا خير، فنزلت (كنتم خير أمة) إلخ، (لن يضروكم إلا أذى): ضررا يسيرا قيل: قصدت اليهود عبد الله بن سلام وأصحابه فنزلت: (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار): ينهزموا، ولا يضروكم بالقتل، (ثم لا ينصرون): ثم لا يكون لهم النصر أبدا، (ضربت عليهم الذلة) ألزمهم الله المذلة والصغار، (أين ما ثقفوا): أينما وجدوا

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/٢٠٩

وكانوا، (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أي: ضربت عليهم الذلة في كل حال إلا معتصمين بذمة الله، وعهده، وأمان المسلمين وعهدهم، وهو عقد الذمة، وضرب الجزية والمعاهدة والمهادنة أي: لا عز لهم قط إلا هذه الحالة الواحدة (وباءوا بغضب من الله): رجعوا به مستوجبين، (وضربت عليهم المسكنة): الجزية أو الفقر والتذلل كضرب القبة، (ذلك) أي: ضرب المسكنة، والذلة، والبوء بالغضب، (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق): بسبب كفرهم بآية الرجم، وأمثالها، وقتل الأنبياء بسبب الحسد وهم يعلمو أنه غير حق، (ذلك) أي: الكفر، والقتل، وقيل: هذا أيضا إشارة إلى المشار إليه بذلك الأول أي: الصغار والهوان له سببان (بما عصوا وكانوا يعتدون): بسبب." [١]

"(فنسيهم)، تركهم من لطفه وإنعامه، (إن المنافقين هم الفاسقون)، الكاملون في **التمرد**، (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها)، مقدرين للخلود، (هي)، أي: النار، (حسبهم)، كافيهم جزاء على نفاقهم، (ولعنهم الله)، أبعدهم من رحمته، (ولهم عذاب مقيم)، لا تصير النار قط عليهم بردا، (كالذين)، أي: أنتم مثل الذين أو فعلتم مثل فعل الذين، (من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم)، بدينهم أو بنصيبهم من ملاذ الدنيا، (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم)، فحالكم وفعلكم كفعلهم القبيح الشنيع، بين أولا بقوله " فاستمتعوا " قباحة طرائقهم ثم شبههم بهم حذو النعل بالنعل، (وخضتم)، في الكذب والباطل، (كالذي خاضوا)، أي: كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه، (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة)، لم يستحقوا عليها في الدارين جزاء، (وأولئك هم الخاسرون)، دينهم ودنياهم، يعني: كما حبطت أعمال من قبلكم حبطت أعمالكم، (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح)، أهلكوا بالطوفان، (وعاد)، بالريح، (وثمود)، بالصيحة، (وقوم." [٢]

"حرصا على مغفرتهم فأنزل الله تعالى: (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم). وهو من باب حمل اللفظ على ما يحتمل مع العلم بأنه غير مراده، كقول بعضهم: مثل الأمير يحمل على الأدهم. والأشهب في جواب قول الحجاج: لأحملنك على الأدهم. أي: السلسلة إلى (ذلك)، أي: عدم قبول استغفارك، (بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين)، **المتمردين** في الكفر، فإن من طبع على الكفر لا ينقطع أبدا ولا يهتدي، فعدم قبول دعائك لا لبخل منا ولا لقصور فيك؛ بل لعدم

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٢٨٣/١

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٨١/٢

قابليتهم.

* * *

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون (٨١) فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون (٨٢) فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل." (١)

"أدرك بيعة الرضوان بالحديبية، أو من شهد البدر، (والأنصار) هم الذين آمنوا قبل قدوم رسول الله – صلى الله عليه وسلم، (والذين اتبعوهم بإحسان) بإيمان وطاعة إلى يوم القيامة كسائر الصالحين من أهل السنة وقال بعضهم: المراد بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين، (رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار)، أي تحت أشجارها، (خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) الجملة خبر لقوله والسابقون، (وممن حولكم من الأعراب) أعراب حوالي المدينة، (منافقون ومن أهل المدينة) عطف على ممن حولكم وقوله: (مردوا على النفاق)، صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر أو عطف الجملة على الجملة تقديره ومن أهل المدينة قوم مردوا، أي: **تمردوا** أو تمهروا، (لا تعلمهم) يا محمد بأعيانهم، (نحن نعلمهم) فإنه لا يخفى علينا شيء،." (٢)

"(فماذا بعد الحق إلا الضلال) أي: ليس بعد الحق إلا الضلال، (فأنى تصرفون) عن الحق إلى الضلال وعن عبادته إلى عبادة غيره، (كذلك)، أي: كما حق أن بعد الحق الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق، (حقت كلمت ربك) أي: حكمه السابق، (على الذين فسقوا) **تمردوا** في كفرهم، (أنهم لا يؤمنون) بدل من كلمة، وقيل تقديره: لأنهم لا يؤمنون فالمراد منها كلمة العذاب، (قل هل من شركائكم) أي: آلهتكم، (من يبدأ الخلق ثم يعيده) أدخل الإعادة في الإلزام وإن يكونوا قائلين بها لظهور برهانها، (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) وأنتم تعلمون أن شركاءكم لا يقدرون على مثل هذا، (فأنى تؤفكون) تصرفون عن سواء السبيل، (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق) والهداية كما يعدى بإلى يعدى باللام، (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع) أمره وحكمه، (أمن لا يهدي) أصله يهتدي فأدغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين، (إلا أن يهدى)، الهداية قد تجيء بمعنى النقل أي الأوثان لا ينتقل من مكان إلا

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تـفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٨٧/٢

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محم د بن عبد الرحمن ٩٧/٢

أن ينقل أو يكون هذا حال أشرف شركائهم كالملك والمسيح أو لا يصح منه الاهتداء إلا أن يهديه الله بأن يجعل الجماد حيوانا عالما، (فما لكم كيف تحكمون) بما يبطله." [1]

"ونقصا علي، (إن أجري إلا على الله) فليس إعراضكم إلا نقصا وضرا عليكم، أو معناه إن أعرضتم فما هو إلا لتمردكم وعنادكم لا لتقصير وتفريط مني، فإني ما سألت منكم أجرا ينفركم عني وتتهموني لأجله، (وأمرت أن أكون من المسلمين) المستسلمين لأمر الله، (فكذبوه) أصروا على تكذيبه، (فنجيناه) من الغرق، (ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف) من الهالكين وأعطيناهم ملكهم، (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان، (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) المكذبين فهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحذير لمن كذبه، (ثم بعثنا من بعده) من بعد نوح، (رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) المعجزات الظاهرات، (فما كانوا) ما استقام لهم، (ليؤمنوا) لشدة عنادهم وكفرهم، (بما كذبوا به من قبل) أي: بما كذب به قوم نوح وقد علموا حالهم فهم وآباؤهم على منهاج واحد والباء للسببية، أي: لم يؤمنوا بسبب تعودهم تكذيب الحق قبل بعثة الرسل، (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) نختم عليها فلا يدخلها رشاد ولا سداد، (ثم بعثنا من بعدهم) بعد هؤلاء الرسل، (موسى وهارون إلى فرعون وملإه) أشراف قومه، (بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) معتادين الإجرام، (فلما جاءهم الحق) المعجزات المزيحة للشك، (من عندنا قالوا) من فرط التمرد: (إن هذا لسحر مبين) واضح ظاهر، (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم) إنه سحر فحذف محكي القول لدلالة الكلام عليه قيل: فمعناه أتعيبونه وعلى هذا لا يستدعي مقولا ثم." [2]

"رؤيا عين، (إلا فتنة للناس) فقد أنكر بعضهم ذلك وكفروا وزاد إيمان بعضهم فما هي إلا اختبار وفتنة وعن بعضهم أن المراد بهذه الرؤيا رؤيا عام الحديبية رأى عليه السلام أنه دخل هو وأصحابه مكة فتوجه إليها قبل الأجل فصده المشركون ورجع إلى المدينة وكان ذلك فتنة وشكا في قلوب بعض حتى دخلها في العام القابل كما قال تعالى: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) الآية [الفتح: ٢٧]، (والشجرة الملعونة في القرآن) أي: وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة وهي شجرة الزقوم يقال طعام ملعون أي: مكروه ضار وملعون أكلها وصفت به مجازا للمبالغة أو لأن منبتها أصل الجحيم وهي أبعد مكان من رحمة الله، وفتنتها أنهم قالوا: محمد يوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أن فيها شجرة وقالوا: لا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر فجاء أبو جهل بهما وقال يا قوم: زقموا فهذا ما يخوفكم به محمد، (ونخوفهم فما يزيدهم) التخويف،

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٣٣/٢

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٤٨/٢

(إلا طغيانا كبيرا) تمردا وعتوا عظيما.

* * *

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا (٦١) قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا (٦٢) قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (٦٣) واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (٦٤) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى." (١)

"كل معنى هو كالمثل في الغرابة والحسن، (فأبى أكثر الناس إلا كفورا)، جحودا للحق وهو في معنى الكلام المنفي فلذلك جاز الاستثناء، (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض): أرض مكة، (ينبوعا): عينا لا ينضب ولا ينقطع ماؤها، (أو تكون لك جنة) أي: بستان، (من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) حتى نعرف فضلك علينا، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، (أو تسقط السماء كما زعمت) أن ربك إن شاء فعل، (علينا كسفا) أي: قطعا فلا نؤمن لك حتى تفعل يعنون قوله تعالى: (أو نسقط عليهم كسفا من السماء) [سبأ: ٩]، (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا)، كفيلا بما تقول شاهدا بصحته أو مقابلا معاينة نراه وهو حال من بالله وحال الملائكة محذوفة أي قبيلا وقبلاء، (أو يكون لك بيت من زخرف): من ذهب، (أو ترقى في السماء): تصعد في سلم ونحن ننظر، (ولن نؤمن لرقيك): صعودك وحده، (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أي: مكتوبا فيه إلى كل واحد هذا كتاب من الله لفلان بن فلان ويكون فيه تصديقك، (قل)، أي: رسول الله، (سبحان ربي) تعجبا من تمردهم، أو تنزيها لله من أن يأتي أو يشاركه أحد في قدرته، (هل كنت إلا بشرا) كسائر الناس، (رسولا) كسائر الرسل وهم لم يقدروا ولم يأتوا بمثل ما قلتم فكيف أقدر على ذلك؟!.

* * *

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا (٩٤) قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا." (٢)

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٣٩٩/٢

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٤١٤/٢

"رزقه فلينفق مما آتاه الله) على قدر ذلك (لا يكلف الله نفسا) في النفقة (إلا ما آتاها) قدر ما أعطاها من المال (سيجعل الله بعد عسر يسرا) تطيب لقلب المعسر، ووعد له باليسر، لما ذكر الأحكام وأخبر عما حل بالأمم السالفة بسبب مخالفة أوامره ونواهيه فقال:

* * *

(وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا (٨) فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٩) أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠) رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا (١١) الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أءاط بكل شيء علما (١٢)

* * *

(وكأين من قرية) وكم من أهل قرية (عتت عن أمر ربها) **تمردت** واستكبرت عن اتباع أمر الله (ورسله فحاسبناها حسابا شديدا) حاسبها بعملها في الدنيا، وأثبتها في صحائف الحفظة (وعذبناها عذابا نكرا) منكرا، وهو ما أصيبوا به من أنواع المصائب، أو المراد بالحساب والعذاب في الآخرة، والتعبير بلفظ الماضي لتحققه (فذاقت) القرية (وبال أمرها) عقوبة معاصيها (وكان عاقبة أمرها خسرا) لا ربح فيها أصلا (أعد الله لهم عذابا شديدا) على التوجيه الثاني تكرير." [١]

"لاتباعهم في تسويلهم أنهم على الحق كما يقولون في القيامة، (بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا) الآية [سبأ: ٣٣]، (وقالوا لا تذرن آلهتكم) أي: عبادتها، (ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) أي: لا تذرن الآلهة سيما هؤلاء هي أسماء آلهتهم، (وقد أضلوا): الأصنام، (كثيرا): من الخلق كما قال الخليل: (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا) الآية [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]، وعن مقاتل، وقد أضل رؤساؤهم كثيرا، (ولا تزد الظالمين)، عطف على " رب إنهم عصوني " (إلا ضلالا)، دعاء عليهم **لتمردهم** وعنادهم، كما دعا موسى (ربنا اطمس على أموالهم) [يونس: ٨٨] (مما خطيئاتهم): من أجلها وما مزيدة للتأكيد، (أغرقوا): بالطوفان، (فأدخلوا نارا): فإنه يعرض عليهم النار في القبور بكرة وعشيا، أو المراد نار جهنم، والتعقيب لعدم الاعتداد لما بين الإغراق، والإدخال كأنه نومة، (فلم يجدوا لهم من دون

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٣٢٩/٤

الله أنصارا): ما نصرهم آلهتهم، (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) أي: أحدا يدور في الأرض، أو نازل دار، وأصله ديوار، ففعل به ما فعل بسيد، (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك): صبيانهم، (ولا يلدوا إلا." [1]

"أو فزاد الجن تكبرا وطغيانا بسبب استعاذة الإنس بهم، (وأنهم): أي: الإنس، (ظنوا كما ظننتم): أيها الجن، (أن لن يبعث الله أحدا): بعد ذلك بالرسالة أو لا بعث، ولا حشر، وهذا قول نفر من الجن لقومهم حين رجعوا إليهم، (وأنا لمسنا): طلبنا، واللمس والمس استعير للطلب، لأن الماس طالب متعرف، (السماء) أي: بلوغها لاستراق السمع، (فوجدناها ملئت حرسا)، اسم بمعنى الحراس كالخدم، (شديدا): من الملائكة، (وشهبا): من النجوم، (وأنا كنا): قبل ذلك، (نقعد منها): من السماء، (مقاعد): صالحة للترصد، (للسمع): لاستماع أخبار السماء، (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا): راصدا لأجله يمنعه من الاستماع، (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض): بحراسة السماء، (أم أراد بهم ربهم رشدا): خيرا، وهذا من أدبهم، حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، ثم اعلم أن الكواكب يرمي بها قبل المبعث، لكن ليس بكثير، والأحاديث تدل عليه، وبعد مبعثه قد كثرت الشهب بحيث لم يقدر الجن بعد على استراق السمع من غير أن يأتيه شهاب، فهال ذلك الإنس والجن، نعم: قد يسترق كلمة فيلقيها إلى صاحبه، ثم يدركه الشهاب كما ورد في الصحيحين، وهذا هو الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها حتى وجدوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ في الصلاة فعرفوا أن هذا هو السبب في حراسة السماء، فآمن من آمن منهم، **وتمرد** من **تمرد**، (وأنا منا الصالحون ومنا): قوم، (دون ذلك)، وهم الطالحون، أو المقتصدون، (كنا طرائق قددا) أي: كنا ذوي مذاهب متفرقة." [2]

"حيث جاء، وعن مجاهد: أئنا لمردودون إلى الحياة حال كوننا في الحافرة أي القبرة، (أإذا كنا عظاما نخرة) أي: أئذا كنا عظاما بالية تردوا، المحذوف عامل إذا، (قالوا تلك إذا كرة خاسرة): ذات خسران، يعني: إن صحت فنحن إذا خاسرون، وهذا منهم استهزاء، (فإنما هي زجرة واحدة)، هذا قول الله أي: لا تستصعبوها فما هي إلا صيحة، والمراد النفخة الأخيرة، (فإذا هم بالساهرة) أي: فإذا الناس أحياء على وجه الأرض، والساهرة: الأرض المستوية، وعن قتادة: هي جهنم، (هل أتاك حديث موسى)، وهذا تسلية من الله لرسوله، (إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) اسم الوادي على الأصح، كما مر في سورة طه، (اذهب)،

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٣٨١/٤

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٣٨٦/٤

أي: قال له اذهب، (إلى فرعون إنه طغى): تكبر **وتمرد**، (فقل هل لك إلى أن تزكى): أي هل لك ميل، ورغبة إلى أن تتطهر من الشرك، والطغيان، (وأهديك إلى ربك): إلى معرفته، (فتخشى): من عقابه، (فأراه) أي: فذهب فبلغ فأراه، (الآية." [١]

"وإن جعل مضمرا على شريطة التفسير، جعل بعد ذلك إشارة إلى المذكور سابقا، من ذكر خلق السماء لا خلق السماء نفسه، ليدل على أنه متأخر في الذكر عن خلق السماء، تنبيها على أنه قاصر في الدلالة عن الأول، لكنه تتميم، ولو قلنا: إن " ثم " في قوله " ثم استوى إلى السماء " في سورة حم السجدة، لتفاوت ما بين الخلقين لا للتراخي في المدة، ويكون دحو الأرض بعد خلق السماء، لما يبقى مخالفة بين الآيتين، لكن مخالف لإطباق أهل التفسير، ثم خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام، ثم خلق السماء وما فيها في يومين، إلا ما نقل الواحدي في " البسيط "، عن مقاتل: أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلا عن دحوها، وعلى أي وجه لا يخلو عن إشكال فلا تغفل، (أخرج منها ماءها): عيونها، ترك العطف لأنه حال بتقدير " قد " أو بيان للدحو وهو المراد منه، (ومرعاها): رعيها، الرعي بالكسر: الكلاء، وبالفتح: المصدر، والمرعى يقع عليهما، وعلى الموضع، (والجبال أرساها): أثبتها حتى لا يتحرك، (متاعا): تمتيعا، (ولأنعامكم فإذا جاءت الطامة): الداهية، التي تطم وتعلو وتغلب على الدواهى، (الكبرى): وهي القيامة، (يوم يتذكر الإنسان ما سعى): ما عمل في الدنيا، وقد نسيها بدل من إذا جاءت، (يوم يتذكر الإنسان ما سعى): أظهرت لمن له عين، (فأما من طغى): **تمرد**، (وآثر." [٢]

"﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ بيان لتباين أحوالهم وتناقض أقوالهم في أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين المخاطبين ومساق ما صدرت به قصتهم لتحرير مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ولذلك لم يتعرض ههنا لمتعلق الإيمان فليس فيه شائبة التكرير روي أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة فقال ابن أبي أنظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فلما دنوا منهم أخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال مرحبا بالصديق سيد بني تميم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار الباذل نفسه وما له لرسول الله ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال مرحبا بسيد بني عدي الفاروق القوي في دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد علي كرم الله وجهه فقال مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٤/٤٣٩

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٤/٤٤٢

وقيل قال له علي رضي الله عنه يا عبد الله اتق الله ولا تنافق فإن المنافقين شر خلق الله تعالى فقال له مهلا يا أبا الحسن أفي تقول هذا والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم افترقوا فقال ابن أبي لأصحابه كيف رأيتموني فعلت فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت فأثنوا عليه خيرا وقالوا ما نزال بخير ما عشت فينا فرجع المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت واللقاء المصادفة يقال لقيته ولاقيته أي صادفته واستقبلته وقرئ إذا لاقوا ﴿وإذا خلوا﴾ من خلوت إلى فلان أي انفردت معه وقد يستعمل بالباء أو من خلا بمعنى مضى ومنه القرون الخالية وقولهم خلاك ذم أي جاوزك ومضى عنك وقد جوز كونه من خلوت به إذا سخرت منه على أن تعديته بإلى في قوله تعالى ﴿إلى شياطينهم﴾ لتضمنه معنى الإنهاء أي وإذا أنهوا إليهم السخرية الخ وأنت خبير بأن تقييد قولهم المحكي بذلك الإنهاء مما لا وجه له والمراد بشياطينهم المماثلون منهم للشيطان في **التمرد** والعناد المظهرون لكفرهم وإضافتهم إليهم للمشاركة في الكفر أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم وجعل سيبويه نون الشيطان تارة أصلية فوزنه فيعال على أنه من شطن إذا بعد فإنه بعيد من الخير والرحمة ويشهد له قولهم تشيطن وأخرى زائدة فوزنه فعلان على أنه من شاط أي هلك أو بطل ومن أسمائه الباطل وقيل معناه هاج واحترق ﴿قالوا إنا معكم﴾ أي في الدين والاعتقاد لا نفارقكم في حال من الأحوال وإنما خاطبوهم بالجملة الاسمية المؤكدة لأن مدعاهم عندهم تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين والتأكيد للإنباء عن صدق رغبتهم ووفور نشاطهم لا لإنكار الشياطين بخلاف معاملتهم مع المؤمنين فإنهم إنما يدعون عندهم إحداث الإيمان لجزمهم بعد رواج ادعاء الكمال فيه أو الثبات عليه إنما نحن أي في إظهار الإيمان عند المؤمنين مستهزءون بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان حقيقة وهو استئناف مبني على سؤال ناشئ من ادعاء المعية كأنه قيل لهم عند قولهم إنا معكم فما بالكم توافقون المؤمنين في الإتيان بكلمة الإيمان فقالوا إنما نحن مستهزءون بهم فلا يقدح ذلك في." (١)

"﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ تذكير لتفاصيل ما أجمل في قوله تعالى ﴿نعمتي التى أنعمت عليكم﴾ من فنون النعماء وصنوف الآلاء أي واذكروا وقت تنجيتنا إياكم أي آباءكم فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم وقرئ أنجيتكم وأصل آل أهل لأن تصغيره أهيل وخص بالإضافة إلى أولي الأخطار كالأنبياء عليهم السلام والملوك وفرعون لقب لمن ملك العمالقة ككسرى لملك الفرس وقيصر لملك الروم وخاقان لملك الترك ولعتوه اشتق منه تفر عن الرجل إذا عتا **وتمرد** وكان فرعون موسى عليه السلام مصعب بن ريان وقيل

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤٦/١

ابنه وليدا من بقايا عاد وقيل إنه كان عطارا أصفهانيا ركبته الديون فأفلس فاضطر إلى الخروج فلحق بالشام فلم يتسن له المقام به فدخل مصر فرأى في ظاهره حملا من البطيخ بدرهم وفي نفسه بطيخة بدرهم فقال في نفسه إن تيسر لي أداء الدين فهذا طريقه فخرج إلى السواد فاشترى حملا." (١)

"﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ واضحات الدلالة على معانيها وعلى كونها من عند الله عز وجل ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أي **المتمردون** في الكفر الخارجون عن حدوده فإن من." (٢)

"البقرة (١٠٢)

بها وقيل كتاب الله القرآن نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول لاسيما بعد ما كانوا يستفتحون به من قبل فإن ذلك قبول له وتمسك به فيكون الكفر به عند مجيئه نبذا له كأنه قيل كتاب الله الذي جاء به فإن مجيء الرسول معرب عن مجيء الكتاب

﴿وراء ظهورهم﴾ مثل لتركهم وإعراضهم عنه بالكلية مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه

﴿كأنهم لا يعلمون﴾ جملة حالية أي نبذوه وراء ظهورهم مشبهين بمن لا يعلمه فإن أريد بهم أحبارهم فالمعنى كأنهم لايعلمونه على وجه الإيقان ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ففيه إيذان بأن علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله أو لا يعلمونه أصلا كما إذا أريد بهم الكل وفي هذين الوجهين زيادة مبالغة في إعراضهم عما في التوراة من دلائل النبوة هذا وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن فالمراد بالءلم النفي في قوله تعالى ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ هو العلم بأنه كتاب الله ففيه ما في الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون في ذلك وإنما يكفرون به مكابرة وعنادا قيل إن جيل اليهود أربع فرق ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون المشار إليهم بقوله عز وجل ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ وفرقة جاهروا بنبذ العهود وتعدي الحدود **تمردا** وفسوقا وهم المعنيون بقوله تعالى ﴿نبذه فريق منهم﴾ وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوها لجهلهم بها وهم الأكثرون وفرقة تمسكوا بها ظاهرا ونبذوها خفية وهم المتجاهلون." (٣)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا ال كتاب الكريم أبو السعود ٩٩/١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٣٤/١

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٣٦/١

"﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين﴾ عطف على جواب لما أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة التي كانت تقرأها الشياطين وهم **المتمردون** من الجن وتتلو حكاية حال ماضية والمراد بالاتباع التوغل والتمحض فيه والإقبال عليه بالكلية وإلا فأصل الاتباع كان حاصلا قبل مجئ الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتسنى عطفه على جواب لما ولذلك قيل هو معطوف على الجملة وقيل على أشربوا

﴿على ملك سليمان﴾ أي في عهد ملكه قيل كانت الشياطين يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل إن الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون هذا علم سليمان وما تم له ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الإنس والجن والطير والريح التي تجري بأمره وقيل أن سليمان عليه السلام كان قد دفن كثيرا من العلوم التي خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه فلما مضت على ذلك مدة توصل إليها قوم من المنافقين فكتبوا في خلال ذلك أشياء من فنون السحر تناسب تلك." (١)

"﴿فمن تولى﴾ أي أعرض عما ذكر

﴿بعد ذلك﴾ الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة فمعنى البعد في اسم الإشارة لتفخيم الميثاق

﴿فأولئك﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار المعنى كما أن الإفراد في تولى باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامي أمرهم في السوءوبعد منزلتهم في الشروالفساد أي فأولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة

﴿هم الفاسقون﴾ **المتمردون** الخارجون عن الطاعة من الكفرة فإن الفاسق من كل طائفة من كان متجاوزا عن الحد." (٢)

"١١١ - آل عمران

قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم في الإسلام فهم خير أمة للناس

﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ استئناف مبين لكونم خير أمة كما يقال زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار وخطاب المشافهة وإن كان خاصا بمن شاهد الوحي من المؤمنين لكن حكمه عام للكل قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج أصل هذا الخطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٣٦/١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥٤/٢

وهو يعم سائر أمته وروى الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى وظاهر أن المراد بكل أمة أوائلهم وأواخرهم لأوائلهم فقط فلا بد أن تكون أعقاب هذه الأمة أيضا داخلة في الحكم وكذا الحال فيما روي أن مالك بن الصيف ووهب ابن يهوذا اليهوديين مرا بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة رضوان الله عليهم فقالا لهم نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما كنتم خير أمة الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وروي عن الضحاك أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم

﴿وتؤمنون بالله﴾ أي إيمانا متعلقا بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وإنما لم يصرح به تفصيلا لظهور أنه الذي يؤمن به المؤمنون وللإيذان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة وأن ما خلا عن شئ من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان به تعالى في شئ قال تعالى ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا﴾ وإنما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة لأن دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالته عليها وليقترن به قوله تعالى

﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم﴾ أي لو آمنوا كإيمانكم لكان ذلك خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادت رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين وقيل مما هم فيه من الكفر فالخيرية إنما هي باعتبار زعمهم وفيه ضرب تهكم بهم وإنما لم يتعرض للمؤمن به أصلا للإشعار بظهور أنه الذي يطلق عليه اسم الإيمان لا يذهب الوهم إلى غيره ولو فصل المؤمن به ههنا أو فيما قبل لربما فهم أن لأهل الكتاب أيضا إيمانا في الجملة لكن إيمان المؤمنين خير منه وهيهات ذلك

﴿منهم المؤمنون﴾ جملة مستأنفة سيقت جوابا عما نشأ من الشرطية الدالة على انتفاء الخيرية لانتفاء الإيمان عنهم كأنه قيل هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر فقيل منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير

الدارين كعبد الله بن سلام وأصحابه

﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ **المتمردون** في الكفر الخارجون عن الحدود." [١]

"﴿حرمت عليكم الميتة﴾ شروع في بيان المحرمات التي أشير إليها بقوله تعالى إلا ما يتلى عليكم والميتة ما فارقه الروح من غير ذبح ﴿والدم﴾ أي المسفوح منه لقوله تعالى أو دما مسفوحا وكان أهل الجاهلية يصبونه في الأمعاء ويشوونه ويقولون لم يحرم من فزدله أي من فصد له ﴿ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ أي رفع الصوت لغير الله عند ذبحه كقولهم باسم اللات والعزى ﴿والمنخنقة﴾ أي التي ماتت بالخنق ﴿والموقوذة﴾ أي التي قتلت بالضرب بالخشب ونحوه من وقذته إذا ضربته ﴿والمتردية﴾ أي التي تردت من علو أو إلى بئر فماتت ﴿والنطيحة﴾ أي التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح والتاء للنقل وقرىء والمنطوحة ﴿وما أكل السبع﴾ أي وما أكل منه السبع فمات وقرىء بسكون الباء وقرىء وأكيل السبع وفيه دليل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما صادته لم يحل ﴿إلا ما ذكيتم﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه بقية حياة يضطرب اضطراب المذبوح وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع والذكاة في الشرع بقطع الحلقوم والمريء بمحدد ﴿وما ذبح على النصب﴾ قيل هو منفرد وقيل جمع نصاب وقرىء بسكون الصاد واياما كان فهو واحد الأنصاب وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة وقيل هي الأصنام ﴿وأن تستقسموا بالازلام﴾ جمع زلم وهو القدح أي وحرم عليكم الاستقسام بالاقداح وذلك أنهم إذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة اقداح مكتوب على أحدها أمرني ربي وعلى الثاني نهاني ربي وعلى الثالث فإن خرج الآمر مضوا على ذلك وإن خرج الناهي اجتنبوا عنه وإن خرج الغافل أجالوها مرة أخرى فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم بالأزلام وقيل هو اسقسام الجزور بالأقداح على الأنصباء المعهودة ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ومعنى البعد فيه للإشارة إلى بعد منزلته في الشر ﴿فسق﴾ **تمرد** وخروج عن الحدود دخول في علم الغيب وضلال باعتقاد أنه طريق إليه وافتراء على الله سبحانه إن كان هو المراد بقولهم ربي وشرك وجهالة إن كان هو الصنم وقيل ذلكم إشارة إلى تناول المحرمات المعدودة لأن معنى تحريمها تحريم تناولها ﴿اليوم﴾ اللام للعهد والمراد به الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الماضية الاتية وقيل يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر الجمعة يوم عرفة في حجة الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على العضباء فكادت عضد الناقة تندق لثقلها فبركت واياما كان فهو منصوب على أنه ظرف لقوله تعالى ﴿يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أي من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه لخبائث أو غيرها أو

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢/ ٧١

من أن يغلبوكم عليه لما شاهدوا من أن الله عز وجل وفى بوعده حيث أظهره على الدين كله وهو الانسب بقوله." (١)

"المائدة آية ٤٨

والسلام وشواهد نبوته وما قررته الشريعة الشريفة من أحكامه وما أحكامه المنسوخة فليس الحكم بها حكما بما أنزل الله فيه بل هو إبطال وتعطيل له إذ هو شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها لأن شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة شهادة ينسخها وبأن أحكامه ما قررته تلك الشريعة التي شهد بصحتها كما سيأتي في قوله تعالى يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل الآية وقيل هو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على آتيناه أي وقلنا ليحكم أهل الإنجيل الخ وقرىء وأن ليحكم على أن أن موصولة بالأمر كما في قولك أمرته بأن قم كأنه قيل وآتيناه الإنجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل الخ وقرىء على صيغة المضارع ولام التعليل على أنها متعلقة بمقدر كأنه قيل وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه آتيناه وإياه وقد عطف على هجى وموعظة على أنهما مفعول لهما كأنه قيل وللهدى والموعظة آتيناه إياه وللحكم بما أنزل الله فيه ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ منكرا له مستهينا به ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ **المتمردون** الخارجون عن الإيمان والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقة ومؤكد لوجوب الامتثال بالأمر وفيه دلالة على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام وأن عيسى عليه السلام كان مستقلا بالشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قلت أو كثرت لا بما في التوراة خاصة وحمله على معنى وليحكم بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر." (٢)

"المائدة آية ٥٠ ٥١

احذرهم مخافة أن يفتنوك وإعادة ما أنزل الله لتأكيد التحذير بتهويل الخطب روي أن أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فذهبوا إليه صلى الله عليه وسلم وقالوا يا أبا القاسم قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا من اتبعناك اتبعنا البهود كلهم وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بط ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي بذنب توليهم عن حكم الله عز وجل وإنما عبر عنه بذلك إيذانا بأن لهم ذنوبا كثيرة هذا مع كمال عظمة واحد من جملتها

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/٣

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤٤/٣

وفي هذا الإبهام تعظيم للتولي كما في قول لبيد أو يرتبط بعض النفوس حمامها يريد به نفسه أي نفسا كبيرة ونفسا أي نفس ﴿وإن كثيرا من الناس لفاسقون﴾ أي **متمردين** في الكفر مصرون عليه خارجون عن الحدود المعهودة وهو اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قوله." (١)

"المائدة آية ٦٠

لهم سبب ما ارتكبوه ويلقمهم الحجر أي قل لأولئك الفجرة ﴿يا أهل الكتاب﴾ وصفوا بأهلية الكتاب تمهيدا بما سيأتي من تبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم ﴿هل تنقمون منا﴾ من نقم منه كذا إذا عابه وأنكره وكرهه وينقمه من حد ضرب وقرىء بفتح القاف من حد علم وهي أيضا لغة أي ما تعيبون وما تنكرون منا ﴿إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ من القرآن المجيد ﴿وما أنزل من قبل﴾ أي من قبل إنزاله من التوراة والإنجيل المنزلين عليكم وسائر الكتب الإلهية ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ أي **متمردون** خارجون عن الإيمان بما ذكر فإن الكفر بالقرآن مستلزم للكفر بما يصدقه لا محالة وهو عطف على أن آمنا على أنه مفعول له لتنقمون والمفعول الذي هو الدين محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه دلالة واضحة فإن اتخاذ الدين هزوا ولعبا عين نقمه وإنكاره والإيمان بما فصل عين الدين الذي نقموه خلا أنه أبرز في معرض علة نقمهم له تسجيلا عليهم بكمال المكابرة والتعكيس حيث جعلوه موجبا لنقمه مع كونه في نفسه موجبا لقبوله وارتضائه فالاستثناء من أعم العلل أي ما تنقمون منا ديننا لعلة من العلل إلا لأن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل من كتبكم ولأن أكثركم **متمردون** غير مؤمنين بواحد مما ذكر حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لآمنتم به وإسناد الفسق إلى أكثرهم لأنهم الحاملون لأعقابهم على **التمرد** والعناد وقيل عطف عليه على أنه مفعول لتنقمون منا لكن لا على أن المستثنى مجموع المعطوفين بل هو ما يلزمهما من المخالفة كأنه قيل ما تنقمون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا الإيمان وأنتم خارجون عنه وقيل على حذف المضاد أي واعتقاد أن أكثركم فاسقون وقيل عطف على ما أي ما تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وبأنكم فاسقون وقيل عطف على علة محذوفة أي لقلة إنصافكم ولأن أكثركم فاسقون وقيل الواو بمعنى مع أي ما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم الخ وقيل هو منصوب بفعل مقدر دل عليه المذكور أي لا تنقمون أن أكثركم فاسقون وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف أي وفسقكم معلوم أي ثابت

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤٧/٣

والجملة حالية أو معترضة وقرىء بأن المكسورة المكسورة والدجملة مستأنفة مبينة لكون أكثرهم فاسقين **متمردين**." (١)

"﴿ولو كانوا﴾ أي الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿يؤمنون بالله والنبى﴾ أي نبيهم ﴿وما أنزل إليه﴾ من الكتاب أولو كان المنافقون يؤمنون بالله ونبينا إيمانا صحيحا ﴿ما اتخذوهم﴾ أي المشركين أو اليهود ﴿أولياء﴾ فإن الإيمان بما ذكر وازع عن توليهم قطعا ﴿ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾ خارجون عن الدين والإيمان بالله ونبيهم وكتابهم أو **متمردون** في النفاق مفرطون فيه." (٢)

"﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من قبائح اليهود وعراقتهم في الكفر وسائر أحوالهم الشنيعة التي من جملتها موالاتهم للمشركين أكدت بالتوكيد القسمي اعتناء ببيان تحقق مضمونها والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد صالح له إيذانا بأن حالهم مما لا يخفى على أحد من الناس والوجدان متعد إلى اثنين أحدهما أشد الناس والثاني اليهود وما عطف عليه وقيل بالعكس لأنهما في الأصل مبتدأ وخبر مصب الفائدة هو الخبر لا المبتدأ ولا ضير في التقديم والتأخير إذا دل على الترتيب دليل وههنا دليل واضح عليه وهو أن المقصود بيان كون الطائفتين أشد الناس عداوة للمؤمنين لا كون أشدهم عداوة لهم الطائفتين المذكورتين وأنت خبير بأنه بمعزل من الدلالة على ذلك كيف لا والإفادة في الصورة الثانية أتم وأكمل مع خلوها عن تعسف التقديم والتأخير غذ المعنى أنك إن قصدت أن تعرف من أشد الناس عداوة للمؤمنين وتتبعت أحوال الطوائف طرا وأحطت بما لديهم خبرا وبالغت في تعرف أحوالهم الظاهرة والباطنة وسعيت في تطلب ما عندهم من الأمور البارزة والكامنة لتجدن الأشد تينك الطائفتين لا غير فتأمل واللام الداخلة على الموصول متعلقة بعداوة مقوية لعملها ولا يضر كونها مؤنثة بالتاء مبنية عليها كما في قوله ورهبة عقابك وقيل متعلقة بمحذوف هو صفة لعداوة أي كائنة للذين آمنوا وصفهم الله تعالى بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى وقربهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم على **التمرد** والاستعصاء على الأنبياء والاجتراء على تكذيبهم ومناصبتهم وفي تقديم اليهود على المشركين بعد لزهما في قرن واحد إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة كما أن تقديمهم عليهم في قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا إيذانا بتقدمهم عليهم في الحرص ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا﴾ أعيد الموصول مع صلته روما لزيادة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥٤/٣

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٧٠/٣

التوضيح والبيان ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ عبر عنهم بذلك إشعار بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله وأوداء أهل الحق وإن لم يظهروا اعتقدا حقية الإسلام وعلى هذه النكتنى مبنى الوجه الثاني في تفسير قوله تعالى ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم والكلام في مفعولي لتجدن وتعلق اللام كالذي سبق والعجول عن جعل ما فيه التفاوت بين الفريقين شيئا واحدا قد تفاوتا فيه بالشدة والضعف أو بالقرب والبعد بأن يقال آخرا ولتجدن أضعفهم عداوة الخ أو بأن يقال أو لا لتجدن أبعد الناس مودة الخ للإيذان بكمال تباين ما بين الفريقين من التفاوت ببيان أن أحدهما في أقصى مراتب أحد النقيضين والآخر في أقرب مراتب النقيض الآخر ﴿ذلك﴾ أي كونهم أقرب مودة للمؤمنين ﴿بأن منهم﴾ بسبب أن منهم ﴿قسيسين﴾ وهم علماء النصارى وعبادهم ورؤساؤهم والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشيء إذا تتبعه وطلبه بالليل سموا به لمبالغتهم في تتبع العلم قاله الراغب وقيل القس بفتح القاف تتبع الشيء ومنه سمي عالم النصارى قسيسا لتتبعه العلم وقيل قص الأثر وقسه بمعنى وقيل." (١)

"﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ تصريح بما أشعر به قوله عز وجل وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون من الحكمة الداعية إلى ترك الإجابة إلى ما اقترحوه من الآيات إثر بيان أنها في حكمه تعالى وقضائه المبني على الحكم البالغة لا مدخل لأحد في أمرها بوجه من الوجوه وبيان لكذبهم في أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده أي ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه ههنا من آية واحدة من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكة كما سألوه بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة وقولهم لو ما تأتينا بالملائكة ﴿وكلمهم الموتى﴾ وشهدوا بحقية الإيمان بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه بقولهم فأتوا بأبائنا ﴿وحشرنا﴾ أي جميعا ﴿عليهم كل شيء قبلا﴾ بضمتين وقرىء بسكون الباء أي كفلاء بصحة الأمر وصدق النبي صلى الله عليه وسلم على أنه جمع قبيل بمعنى الكفيل كرغيف ورغف وقضيب وقضب وهو الأنسب بقوله تعالى أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أي لو لم نقتصر على ما اقتحوه بل زدنا على ذلك بأ أحضرنا لديهم كل شيء يتأتى منه الكفالة والشهادة بما ذكر لا فرادى بل بطريق المعية أو جماعات على أنه جمع قبيل وهو الأوفق لعموم كل شيء وشموله للأنواع والأصناف أي حشرنا كل شيء نوعا نوعا وصنفا صنفا وفوجا فوجا وانتصابه على الحالية وجمعيته باعتبار الكل المجموعي اللازم للكل الإفرادي أو مقابلة وعيانا على أنه مصدر كقبلا وقد قرىء كذلك وانتصابه على الوجهين على أنه مصدر في موقع الحال وقد نقل عن المبرد وجماعة من أهل اللغة أن الأخير بمعنى الجهة كما في قولك لي قبل فلان حق وأن انتصابه على الظرفية ﴿ما كانوا ليؤمنوا﴾ أي ما صح وما

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٧١

استقام لهم الإيمان لتماديهم في العصيان وغلوهم في **التمرد** والطغيان وأما سبق القضاء عليهم بالكفر فمن الأحكام المترتبة على ذلك حسبما ينبيء عنه قوله عز وجل ونذرهم فى طغيانهم يعمهون وقوله تعالى ﴿إلا أن يشاء الله﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال والالتفات إلى الإسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة أي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذكر من الأمور الموجبة للإيمان في حال من الأحوال الداعية إليه المتممة لموجباته المذكورة إلا في حال مشيئته تعالى لإيمانهم أو من أعم العلل أي ما كانوا ليؤمنوا لعلة من العلل المعدودة وغيرها إلا لمشيئته تعالى له وأيا ما كان فليس المراد بالاستثناء بيان أن إيمانهم على خطر الوقوع بناء على كون مشيئته." (١)

"الأنعام آية ١٥٩

المتفاوته كما وكيفما وإنما لم يقتصر على بيان ما يوجب أصل النفع وهو الإيمان السابق مع أنه هو المقابل لما لا يوجبه أصلا أعني الإيمان الحادث بل قرن به ما يوجب النفع الوائد أيضا إرشادا إلى تحري الأعلى وتنبيها على كفاية الأدنى وإقناطا للكفرة عما علقوا به أطماعهم الفارغة من أعمال البر التي عملوها في الكفر من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب وفك العناة وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم ببيان أن كل ذلك لغو بحت لابتنائه على غير أساس حسبما نطق به قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح الآية ونحو ذلك من النصوص الكريمة وأن افيمان الحادث كما لا ينفعهم وحده لا ينفعهم بانضمام أعمالهم السابقة واللاحقة ولك أن تقول المقصود بوصف النفس بما ذكر من العدمين التعريض بحال الكفرة في **تمردهم** وتفريطهم في كل واحد من الأمرين الواجبين عليءم وإن كان وجوب أحدهما منوطا بالآخر كما في قوله عز وجل فلا صدق ولا صلى تسجيلا بكمال طغيانهم وإيذانا بتضاعف عقابهم لما تقرر من أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع في حق المؤاخذخ كما ينبيء عنه قوله تعالى فويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة إذا تحححقت هذا وقفت على أن الآية الكريمة أحق بأن تكون حجة على المعتزلة من أن تكون حجة لهم هذا وقد قيل إنها من باب اللف التقديري أي لا ينفع نفسا إيمانها ولا كسبها في الإيمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فيه وليس بواضح فإن مبنى اللف التقديري أن يكون المقدر من متممات الكلام ومقتضيات المقام قد ترك ذكره تعويلا على دلالة الملفوظ عليه واقتضائه إياه كما مر في تفسير قوله عز وجل ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيحشرهم إليه جميعا فإنه قد طوي في المفصل ذكر حشر المؤممنين ثقة بإنباء التفصيل عنه أعني قوله تعالى فأما الذين آمنوا الآية

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٧٤/٣

ولا ريب في أن م ا قدر ههنا ليس مما يستدعيه قوله تعالى أو كسبت فى إيمانها خيرا ولا هو من مقتضيات المقام لأنه ليس ممنا وعدوه وعلقوه بإتيان ما ذكر من الآيات كالإيمان حتى يرد عليهم ببيان عدم نفعه إذ ذاك على أن ذلك مشعر بأن لهم بعد ما أصابهم من الدواهي ما أصابهم بقاء على السلاة وزمانا يتأتى منهم الكسب والعمل فيه وفيه من الإخلال بمقام تهويل الخطب وتفظيع الحال ما لا يخفى وقد أجيب عن الاستدلال بوجوه أخر قصارى قصارى أمرها إسقاط الآية الكريمة عن رتبة المعارضة للنصوص القطعية المنون القوية الدلالة على ما ذكر من كفاية الإيمان المجرد عن العمل في الإنجاء الخالد ولو بعد اللتيا والتي لما تقرر من أن الظني بمعزل من معارضة القطعي ﴿قل﴾ لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد ﴿انتظروا﴾ ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أي شيء تنتظرون ﴿إنا منتظرون﴾ لذلك لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة وفيه تأييد لكون المراد بما ينتظرونه إتيان ملائكة العذاب أو إتيان أمره تعالى بالعذاب كما اشير غليه وعدة ضمنية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمعاينتهم لما يحيق بالكفرة من العقاب ولعل ذلك هو الذي شاهدوه يوم بدر والله سبحانه أعلم." [1]

"﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه﴾ أي **تمردوا** وتكبروا وأبوا أن يتركواما نهوا عنه ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ صاغرين أذلاء بعجاء عن الناس والمراد بالأمر هو الأمر التكويني لا القولي وترتيب المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه للإيذان بأنه ليس لخصوصيات الحوت بل العمدة في ذلك هو مخالفة الأمر وة الاستعصاء عليه تعالى وقيل المراد بالعذاب البئيس هو المسخ والجملة الثانية تقرير للأولى روي أن اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعني بقوله تعالى إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فابتلوا به وحرم عليهم الصيد فيه وأمرة وا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كأنها المخاض لا يرى وجه الماء لكثرتها ولا تأتيهم في سائر الأيام فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم جاءهم غبليس فقال لهم إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياض سهلة الورود صع بة الصجور ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويأخذونها يوم الأحد وأخذ رجل منهم حوتا وربط في ذنبه خيطا إلى." [2]

"٩ سورة براءة الآية (٩) يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله صلى الله عليه وسلم وأما ما قيل من أنه لاستبعاد ثباتهم على العهد فكما ترى لأن ما يذكر بصدد التعليل للاستبعاد

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٢٠٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٢٨٦

عين عدم ثباتهم على العهد لا أنه شيء يستدعيه وإنما أعيد الاستنكار والاستبعاد تأكيدا لهما وتمهيدا لتعداد العلل الموجبة لهما لإخلال تخلل ما في البين من الارتباط والتقريب حذف الفعل المستنكر للإيذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود ما يوجب استنكاره لا لمجرد كونه معلوما كما في قوله ... وخبرتماني أنما الموت بالقرى ... فكيف وهاتا هضبة وقليب ...

فإنه علة مصححة لا مرجحة أي كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم

﴿وإن يظهروا عليكم﴾ أي وحالهم أنهم إن يظهروا عليكم أي يظفروا بكم

﴿لا يرقبوا فيكم﴾ أي لا يراعوا في شأنكم وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل في مطلق الرعاية والمراقبة أبلغ منه كالمراعاة وفي نفي الرقوب من المبالغة ما ليس في نفيها

﴿إلا ولا ذمة﴾ أي حلفا وقيل قرابة ولا عهدا أو حقا يعاب على إغفاله مع ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق يعني أن وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروط بمراعاة الآخر لها فإذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها على منوال قول من قال ... علام تقبل منهم فدية وهم ... لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا ...

وقيل الإل من أسماء الله عز وجل أي لا يراعوا حق الله تعالى وقيل الجوار ومآله الحلف لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم لتشهيره ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر موهما للرعاية عند عدمه كشف عن حقيقة شئونهم الجلية والخفية بطريق الاستئناف وبين أنهم في حالة العجز أيضا ليسوا من الوفاء في شيء وأن ما يظهرونه مداهنة لا مهادنه فقيل

﴿يرضونكم بأفواههم﴾ حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدون لكم بالإيمان والطاعة ويؤكدون ذلك بالأيمان الفاجرة وتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ونسبة الإرضاء إلى الأ فواه للإيذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم

﴿وتأبى قلوبهم﴾ ما يفيده كلامهم

﴿وأكثرهم فاسقون﴾ خارجون عن الطاعة فإن مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة **متمردون** ليست لهم مروءة رادعة ولا عقيدة وزاعة ولا يتسترون كما يتعاطاه بعضهم ممن يتفادى عن الغدر ويتعفف عما يجر أحدوثة السوء." (١)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/٤٦

"﴿قل أنفقوا﴾ أموالكم في سبيل الله

﴿طوعا أو كرها﴾ مصدران وقعا موقع الفاعل أي طائعين أو كارهين وهو أمر في معنى الخبر كقوله تعالى استغفر لهم أو لا تستغفر لهم والمعنى أنفقتم طوعا أو كرها

﴿لن يتقبل منكم﴾ ونظم الكلام في سلك الأمر للمبالغة في بيان تساوي الأمرين في عدم القبول كأنهم أمر وابأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فيشاهدوا عدم القبول وهو جواب قول جد بن قيس ولكن أعينك بمالي ونفي التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم وأن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه وقوله عز وجل

﴿إنكم كنتم قوما فاسقين﴾ أي عاتين **متمردين** تعليل لرد إنفاقهم." (١)

"﴿المنافقون والمنافقات﴾ التعرض لأحوال الإناث للإيذان بكمال عراقتهم في الكفر والنفاق

﴿بعضهم من بعض﴾ أي متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشئ الواحد بالشخص وقيل أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في حلفهم بالله إنهم لمنكم وتقرير لقوله تعالى وما هم منكم وقوله تعالى

﴿يأمرون بالمنكر﴾ أي بالكفر والمعاصي

﴿وينهون عن المعروف﴾ أي عن الإيمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون ما سبق ومفصح عن مضادة حالهم لحال المؤمنين أو خبر ثان

﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي عن المبرات والإنفاق فى سبيل الله فإن قبض اليد كناية عن الشح

﴿نسوا الله﴾ أغفلوا ذكره

﴿فنسيهم﴾ فتركهم من رحمته وفضله وخذلهم والتعبير والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة

﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ الكاملون في **التمرد** والفسق الذي هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ عن كل خير والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير كما في قوله تعالى." (٢)

"﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ إخبار باستواء الأمرين الاستغفار لهم وتركه في استحالة المغفرة وتصويره بصورة الأمر للمبالغة في بيان استوائهما كأنه صلى الله عليه وسلم أمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارة ويترك أخرى ليظهر له جلية الأمر كما مر في قوله عز وجل قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٧٤/٤

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨٠/٤

﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة في الاستغفار إثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفر له ففعل صلى الله عليه وسلم فنزلت فقال صلى الله عليه وسلم محافظة على ما هو الأصل من أن مراتب الأعداد حدود معينة يخالف حكم كل منها حكم ما فوقها إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين فنزلت سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في مطلق التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنها العدد بأسره وقيل هي أكمل الأعداد لجمعها معانيها ولأن الستة أول عدد تام لتعادل أجزائها الصحيحة إذ نصفها ثلاثة وثلثها اثنان وسدسها واحد وجملتها ستة وهي مع الواحد سبعة فكانت كاملة إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال ثم السبعون غاية الكمال إذ الآحاد غايتها العشرات والسبعمائة غاية الغايات ﴿ذلك﴾ إشارة إلى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة في الاستغفار أي ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل

﴿بأنهم﴾ أي بسبب أنهم

﴿كفروا بالله ورسوله﴾ كفرا متجاوزا عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق في قوله عز وجل

﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ فإن الفسق في كل شيء عبارة عن **التمرد** والتجاوز عن حدوده أي لا يهديهم هداية موصلة إلى المقصد البتة لمخالفة ذلك للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع وأما الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل إليه فهي متحققة لا محالة ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فإن مغفرة الكافر إنما هي بالإقلاع عن الكفر والإقبال إلى الحق والمتهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبي صلى الله عليه وسلم في استغفاره لهم وهو عدم يأسه من إيمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغي والضلال إذ الممنوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم كما سيتلى من قوله عز وجل ما كان للنبى الآية." (١)

"يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني وسأله أن يكفنه في شعاره الذي بلى جلده ويصلي عليه فلما مات دعاه ابنه وكان مؤمنا صالحا فأجابه صلى الله عليه وسلم تسلية له ومراعاة لجانبه وأرسل إليه قميصه فكفن فيه فلما هم بالصلاة أو صلى نزلت وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لما هلك عبد الله بن أبي ووضعناه ليصلى عليه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أتصلي على عدو الله القائل يوم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/٨٧

كذا كذا وكذا والقائل يوم كذا كذا وكذا وعددت أيامه الخبيثة فتبسم صلى الله عليه وسلم وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دفن فو الله ما لبث إلا يسيرا حتى نزل ولا تصل الخ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره وإنما لم ينه عن التكفين بقميصه صلى الله عليه وسلم لأن الضنة بالقميص كانت مظنة الإخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذي كان ألبسه العباس رضي الله تعالى عنه حين أسر ببدر والخبر مشهور

﴿إنهم كفروا بالله ورسوله﴾ تعليل للنهي على معنى أن الاستغفار للميت والوقوف على قبره إنما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل في حقهم لأنهم استمروا على الكفر بالله ورسوله مدة حياتهم

﴿وماتوا وهم فاسقون﴾ أي **متمردون** في الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق سورة براءة آية (٨٥ ٨٦)." (١)

"﴿وممن حولكم من الاعراب﴾ شروع في بيان أحوال منافقي أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم أي ممن حول بلدتكم

﴿منافقون﴾ وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها

﴿ومن أهل المدينة﴾ عطف على ممن حولكم عطف مفرد على مفرد وقوله تعالى

﴿مردوا على النفاق﴾ إما جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مسوقة لبيان غلوهم في النفاق إثر بيان اتصافهم به وإما صفة للمبتدأ المذكور فصل بينها وبينه بما عطف على خبره وإن صفة لمحذوف أقيمت هي مقامه وهو مبتدأ خبره من أهل المدينة كما في قوله ... إنا ابن جلا وطلاع الثنايا ...

والجملة عطف على الجملة السابقة أي ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أي تمهروا فيه من مرن فلان على عمله ومرد عليه إذا درب به وضري حتى لان عليه ومهر فيه غير أن مرد لا يكاد يستعمل إلا في الشر **فالتمرد** على الوجهين الأولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الأخير خاص بمنافقي أهل المدينة وهو الأظهر والأنسب بذكر منافقي أهل البادية أولا ثم ذكر منافقي الأعراب المجاورين للمدينة ثم ذكر منافقي أهلها والله تعالى أعلم وقوله عز شأنه

﴿لا تعلمهم﴾ بيان **لتمردهم** أي لا تعرفهم أنت لكن لا بأعيانهم وأسمائهم وأنسابهم بل بعنوان نفاقهم يعني أنهم بلغوا من المهارة في النفاق والتنوق في مراعاة التقية." (٢)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/٩٠

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/٩٧

"والتحامي عن مواقع التهم إلى مبلغ يخفى عليك حالهم مع ما أنت عليه من علو الكعب وسمو الطبقة في كمال الفطنة وصدق الفراسة وفي تعليق نفي العلم بهم مع أنه متعلق بحالهم مبالغة في ذلك وإيماء إلى أن ما هم فيه من صفة النفاق لعراقتهم ورسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم أو مشخصاتهم بحيث لا يعد من لا يعرفهم بتلك الصفة عالما بهم وحمل عدم علمه صلى الله عليه وسلم بأعيانهم على عدم علمه صلى الله عليه وسلم بعد مجيء هذا البيان على أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم مع كونه خلاف الظاهر عار عما ذكر من المبالغة وقوله عز وجل

﴿نحن نعلمهم﴾ تقرير لما سبق من مهارتهم في فن النفاق أي لا يقف على سرائرهم المركوزة في ضمائرهم إلا من لا تخفى عليه خافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر وإظهار الإخلاص وفي تعليق العلم بهم مع أن المقصود بيان تعلقه بحالهم ما مر في تعليق نفيه بهم وقوله عز شأنه

﴿سنعذبهم﴾ وعيد لهم وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد

﴿مرتين﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبا يوم الجمعة فقال اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج ناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الأول والثاني إما القتل وإما عذاب القبر أو الأول هو القتل والثاني عذاب القبر أو الأول أخذ الزكاة لما أنهم يعدونها مغرما بحتا والثاني نهك الأبدان وإتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق أو النفاق المؤكد **بالتمرد** فيه ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما في قوله تعالى فارجع البصر كرتين أي كرة بعد أخرى

﴿ثم يردون﴾ يوم القيامة

﴿إلى عذاب عظيم﴾ هو عذاب النار وفي تغيير السبك بإسناد عذابهم السابق إلى نون العظمة حسب إسناد ما قبله من العلم وإسناد ردهم إلى العذاب اللاحق إلى أنفسهم إيذان باختلافهما حالا وأن الأول خاص بهم وقوعا وزمانا يتولاه سبحانه وتعالى والثاني شامل لعامة الكفرة وقوعا وزمانا وإن اختلفت طبقات عذابهم

سورة براءة آية (١٠٢)." (١)

"﴿كذلك﴾ أي كما حقت الربوبية لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/٩٨

﴿حقت كلمة ربك﴾ وحكمه وقضاؤه على الذين فسقوا أي **تمردوا** في الكفر وخرجوا من أقصى حدوده ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ بدل الكلمة من أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب." (١)

"﴿فكذبوه﴾ فأصروا على ما هم عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير **التمرد** والعناد فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب

﴿فنجيناه ومن معه فى الفلك﴾ من المسلمين وكانوا ثمانين

﴿وجعلناهم خلائف﴾ من الهالكين

﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الإنجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله عز وعلا ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة وغير ذلك من الآيات الكريمة لإظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللإيذان بسبق الرحمة التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات." (٢)

"(وقال الذين كفروا) لعل هؤلاء القائلين بعض **المتمردين** العاتين الغالين في الكفر من أولئك الأمم الكافرة التي نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا (لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) لم يقنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد مار أو البينات الفائتة للحصر حتى اجترءوا على مثل هاتيك العظيمة التي لا يكاد يحيط بها دائرة الإمكان فخلفوا على أن يكون أحد المحالين والعود إما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر في الأعراف وسيأتي في الكهف (فأوحى إليهم) أي إلى الرسل (ربهم) مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم من العتو إلى غاية لا مطمع بعدها في إيمانهم (لنهلكن الظالمين) على إضمار القول أو على إجراء الإيحاء مجراه لكونه ضربا منه." (٣)

"(واستفتحوا) أي استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فإنهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على أوحى إليهم وقرىء بلفظ الأمر عطفا على لتهلكن الظالمين أي أوحى إليهم ربهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا (وخاب)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٤٢/٤

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦٥/٤

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعو د ٣٨/٥

أي خسر وهلك (كل جبار عنيد) متصف بضد ما اتصف به المتقون أي فنصروا عند استفتاحهم وظفرا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وإنما قيل وخاب كل جبا عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد لا أن بعضهم ليسوا كذلك وأنه لم يصبهم الخيبة أو استفتحوا جميعا فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد وخاب كل عات **متمرد** فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب وفي إسناد الخيبة إلى كل منهم مالا يخفى من المبالغة." (١)

"الإسراء ١٧ ١٨ إلى الكل لأنهم الأصول في الخطاب والباقي أتباع لهم ولأن توجه الأمر إليهم آكدو عدم التعرض للمأمور به إما لظهور أن المراد به الحق والخير لأن الله لا يأمر بالفحشاء لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدي إليه وإما لأن المراد وجد منا الأمر كما يقال فلان يعطي ويمنع ﴿ففسقوا فيها﴾ أي خرجوا عن الطاعة **وتمردوا** ﴿فحق عليها القول﴾ أي ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب إثر ما ظهر منهم من الفسق والطغيان ﴿فدمرناها﴾ بتدمير أهلها ﴿تدميرا﴾ لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الأمر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم إلى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت الشيء فأمر أي كثرته فكثر وفي الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أي كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وأمرنا من الإفعال والتفعيل وقد جعلتا من الإمارة أي جعلناهم أمراء وكل ذلك لا يساعده مقام الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فإن مؤدى ذلك أن طغيانهم منوطا بإرادة الله سبحانه وإنعامه عليهم بنعم وافرة أبطرتهم وحملتهم على الفسق حملا حقيقا بأن يعبر عنه بالامر به." (٢)

"﴿تنزيلا﴾ مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أي نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستثنائية فإنها متضمنة لأن يقال أنزلناه للتذكرة والأول هو الأنسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب يخشى على المفعولية أي يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما في قوله تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على أنه مفعول له لأنزلنا إذلا يعلل الشيء بنفسه ولا بنوعه بل على أنه مصدر بمعنى الفاعل

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣٩/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦٣/٥

واقع موقع الحال من الكاف في عليك أو من القرآن ولا مساغ له إلا بأن يكون قيدا لأنزلنا بعد تقييده بالقيد الأول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرئ تنزيل على أنه خبر لمبتدأ محذوف ومن في قوله تعالى ﴿ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾ متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له مؤكدة لما في تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الأفعال والصفات إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى

﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ الآية لأصالتهما واستتباعهما لما عداهما وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس وأظهر عنده ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الأعلى لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك إلى قوله تعالى له الأسماء الحسنى مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المتتبع لتعظيم شأن المنزل الداعي إلى تربية المهانة وإدخال الروعة المؤدية إلى استنزال **المتمردين** عن رتبة العتو والطغيان واستمالهم نحو الخشية المفضية إلى التذكرة والإيمان." (١)

"﴿قل﴾ لأولئك الكفرة **المتمردين** ﴿كل﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فتربصوا﴾ وقرىء فتمتعوا ﴿فستعلمون﴾ عن قريب ﴿من أصحاب الصراط السوي﴾ أي المستقيم وقرىء السواء أي الوسط الجيد وقرىء السوء والسوءى والسوي تصغير السوء ﴿ومن اهتدى﴾ من الضلالة ومن في الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها وما بعدها والجملة سادة مسد مفعولي العلم أو مفعوله ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط وقيل العائد في الأولى محذوف والتقدير من هم أصحاب الصراط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار وقال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا سورة طه ويس." (٢)

"﴿ومن الناس﴾ كلام مبتدأ جيء به إثر بيان عظيم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانا لحال بعض المنكرين لها ومحل الجار الرفع على الابتدأ إما بحمله على المعنى أو بتقدير ما يتعلق به كما مر مرارا أي وبعض الناس أو وبعض كائن من الناس ﴿من يجادل فى الله﴾ أي في شأنه تعالى ويقول فيه مالا خير فيه

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/٤

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/٥٢

من الأباطيل وقوله تعالى ﴿بغير علم﴾ حال من ضمير يجادل موضحة لما يشعر بها المجادلة من الجهل أي ملابسا بغير علم روي أنها نزلت في النضر بن الحرث وكان جدلا يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ولا بعث بعد الموت وهي عامة له ولأضرابه من العتاة **المتمردين** ﴿ويتبع﴾ أي فيما يتعاطاه من المجادلة أو في كل ما يأتي وما يذر من الأمور الباطلة التي من جملتها ذلك ﴿كل شيطان مريد﴾ عات **متمرد** متجرد للفساد وأصله العرى المنبىءعن التمحض له كالتشمر ولعله مأخوذ من تجرد المصارعين عند المصارعة قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس والمراد إما رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم إلى الكفر وإما إبليس وجنوده." (١)

"﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي أشراف قومه خصوا بالذكر لأن إرسال بني إسرائيل منوط بآرائهم لا بآراء أعقابهم ﴿فاستكبروا﴾ عن الانقياد **وتمردوا** ﴿وكانوا قوما عالين﴾ متكبرين **متمردين**. " (٢)

"﴿فقالوا﴾ عطف على استكبروا وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار أي كانوا قوما عادتهم الاستكبار **والتمرد** أي قالوا فيما بينهم بطريق المناصحة ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ ثنى البشر لأنه يطلق على الواحد كقوله تعالى بشرا سويا كما يطلق على الجمع كما في قوله تعالى فأما ترين من البشر أحدا ولم يثن المثل نظرا إلى كونه في حكم المصدر وهذه القصص كما نرى تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها في مراقي الكمال ومهاوي النقصان بحيث يكون بعضها في أعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين الروحاني والجسماني يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب ولا يعوقهم التلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب الحق وبعضها في أسفل سافلين كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام بل هم أصل سبيلا ﴿وقومهما﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لنا عابدون﴾ أي خادمون منقادون لنا كالعبيد وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأنهما عليهما الصلاة والسلام وخطر تبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية واللام في لنا متعلقة بعابدون قدمت عليه رعاية للفواصل والجملة حال من فاعل نؤمن مؤكدة لإنكار الإيمان لهما بناء على زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية الدائرة على التقدم في نيل الحظوظ." (٣)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/٩٢

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/١٣٦

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦/١٣٦

"﴿ولا تزر وازرة﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿وزر أخرى﴾ إثم نفس أخرى بل إنما تحمل كل منهما وزرها وأماما في قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم من حمل المضلين أثقالا غير أثقالهم فهو حمل أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيها من أوزار غيرهم شئ ﴿وإن تدع مثقلة﴾ أي نفس أثقلها الأوزار ﴿إلى حملها﴾ لحمل بعض أوزارها ﴿لا يحمل منه شيء﴾ لم تجب بحمل شئ منه ﴿ولو كان﴾ أي المدعو المفهوم من الدعوة ﴿ذا قربى﴾ ذا قرابة من الداعي وقرئ ذو قربى وهذا نفي للحمل اختيارا والأول نفي له جبارا ﴿إنما تنذر﴾ استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أي إنما تنذر بهذه الإنذارات ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أو عن الناس في خلواتهم أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي راعوها كما ينبغي وجعلوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا أي إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل **التمرد** والعناد ﴿ومن تزكى﴾ أن تطهر من أوضار الأوزار والمعاصي بالتاثر من هذه الإنذارات ﴿فإنما يتزكى لنفسه﴾ لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لا يتدنس إلا عليها وقرئ من ازكى فإنما يزكى وهو اعتراض مقرر لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنها من معظم مبادي التزكي ﴿وإلى الله المصير﴾ لا إلى أحد غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء." (١)

"﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم كراهة التذلل وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمات الفضائل وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلا منهما فضيلة محمودة في موقع نفسه ورذيلة مذمومة في موقع صاحبه فإن الحلم عن العاجز وعوراء الكرام محمود وعن المتغلب ولغواء اللئام مذموم فإنه إغراء على البغي وعليه قول من قال ... إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم **تمردا** ... فوضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى ...

وقوله تعالى." (٢)

"﴿وكأين من قرية﴾ أي كثير من أهل قرية ﴿عتت﴾ أي أعرضت ﴿عن أمر ربها ورسله﴾ بالعتو **والتمرد** والعناد ﴿فحاسبناها حسابا شديدا﴾ بالاستقصاء والتنقير والمناقشة في كل نقير وقطمير ﴿وعذبناها

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٤٩/٧

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣٤/٨

عذابا نكرا﴾ أي منكرا عظيما وقرىء نكرا والمراد حساب الآخرة وعذابها والتعبير عنهما بلفظ الماضي للدلالة على تحقيقها كما في قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة." (١)

"فكذب

بموسى عليه السلام وسمي معجزاته سحرا

وعصى

الله عز وجل **بالتمرد** بعد ما علم صحة الأمر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه حيث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين رأسا وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عز وجل وترك العظيمة التي كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر فقط." (٢)

"فأما من طغى

الخ جواب فإذا جاءت على طريقة قوله تعالى فإما يأتينكم منى هدى الآية وقيل هو تفصيل للجواب المحذوف تقديره انقسم الراؤون قسمين فأما فأما من الخ والذي تستدعيه فخامة التنزيل ويقتضيه مقام التهويل أن الجواب المحذوف كان من عظائم الشؤن ما لم تشاهده العيون كما مر في قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل أي فأما من عتا **وتمرد** عن الطاعة وجاوز الحد في العصيان." (٣)

"، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، عبر الحق في هذه الآية ب لا يعلمون وفي الأولى ب لا يشعرون لأن الفساد في الأرض يدرك بأدنى شعور، بخلاف الإيمان والتمييز بين الحق والباطل فيحتاج إلى زيادة تفكر واكتساب علم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإذا قيل لأهل الإنكار على أهل الخصوصية، القاصدين مشاهدة عظمة الربوبية، قد تجردوا عن لباس العز والاشتهار، ولبسوا أطمار الذل والافتقار، آمنوا بطريق هؤلاء المخصوصين، وادخلوا معهم كي تكونوا من المقربين. قالوا: (أنؤمن كما آمن السفهاء) ونترك ما نحن عليه من العز والكبرياء، قال الله تعالى في تسفيه رأيهم وتقبيح شأنهم: (ألا إنهم هم السفهاء) حيث تعززوا بعز يفنى، وتركوا العز الذي لا يفنى، قال الشاعر:

تذلل لمن تهوى لتكسب عزة ... فكم عزة قد نالها المرء بالذل

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٦٣/٨

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٠٠/٩

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٠٤/٩

إذا كان من تهوى عزيزا، ولم تكن ... ذليلا له، فاقر السلام على الوصل

فلو علموا ما في طي الذل من العز، وما في طي الفقر من الغنى، لجالدوا عليه بالسيوف، ولكن لا يعلمون.

ثم بين الحق تعالى ما أضمروه من النفاق وأظهروه من الوفاق، فقال:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٤ الى ١٦]

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن (١٤) الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (١٥) أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (١٦)

قلت: اللقاء: المصادفة بلا قصد، والخلو بالشيء أو معه: الانفراد به، ضمنه هنا معنى رجع، ولذلك تعدى بإلى، و (الشيطان) فيعال، من شطن، إذا بعد، أو فعلان من شاط، إذا بطل، والاستهزاء بالشيء: الاستخفاف بحقه، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر.

يقول الحق جل جلاله في وصف المنافقين تقريرا لنفاقهم: إنهم كانوا إذا لقوا الصحابة أظهروا الإيمان، وإذا رجعوا إلى شياطينهم أي: كبرائهم **المتمردين** في الكفر والطغيان، قالوا إنا معكم لم." [١]

"وقسم: سبقت لهم من الله الهداية، وحفتهم الرعاية، فصدقوا وأقروا، ولكنهم ضعفوا عن الدخول، ولم تتعلق همتهم بالوصول، فبقوا في ضعفاء المسلمين ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل....

وقسم: أنكروا وأظهروا وجحدوا وكفروا، فتجروا وخسروا، «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب» .

وقسم رابع: هم مذبذبون بين ذلك إذا لقوا أهل الخصوصية قالوا: آمنا وصدقنا فأنتم على الجادة، وإذا رجعوا إلى أهل **التمرد** من المنكرين- طعنوا وجحدوا، وقالوا: إنما كنا بهم مستهزئين، الله يستهزئ بهم بما يظهر لهم من صور الكرامات والاستدراجات، ويمدهم في تعاطي العوائد والشهوات، وطلب العلو والرئاسات، متحيرين في مهامه الخواطر والغفلات، أولئك الذين اشتروا الضلالة عن طريق الخصوص من أهل الوصول، بالهدى الذي كان بيدهم، لو حصل لهم التصديق والدخول، فما ربحوا في تجارتهم، وما كانوا مهتدين إلى بلوغ المأمول. قال بعض العارفين: (التصديق بطريقتنا ولاية، والدخول فيها عناية، والانتقاد عليها جناية) .

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٨١/١

ثم ضرب مثل المنافقين، زيادة فى توبيخهم وتقبيح شأنهم، فقال:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٧ الى ١٨]

مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١٧) صم بكم عمي فهم لا يرجعون (١٨)

قلت: (استوقد) يحتمل أن تكون للطلب، أو زائدة بمعنى أوقد، و (لما) شرطية، وذهب جواب، وإذا كان لفظ الموصول مفردا واقعا على جماعة، يصح في الضمير مراعاة لفظه فيفرد، ومعناه فيجمع، فأفرد في الآية أولا، وجمع ثانيا. ويقال: أضاء يضيء إضاءة، وضاء يضوء ضوءا.

يقول الحق جل جلاله: مثل هؤلاء المنافقين من اليهود كمثل رجل في ظلمة، تائه في الطريق، فاستوقد نارا ليبصر طريق القصد فلما اشتعلت وأضاءت ما حوله فأبصر الطريق، وظهرت له معالم التحقيق، أطفأ الله تلك النار وأذهب نورها، ولم يبق إلا جمرها وحرها. كذلك اليهود كانوا في ظلمة الكفر والمعاصي ينتظرون ظهور نور النبي صلى الله عليه وسلم ويطلبونه، فلما قدم عليهم، وأشرقت أنواره بين أيديهم كفروا به، فأذهب الله عنهم نوره، وتركهم في ظلمات الكفر والشك والنفاق، لا يبصرون ولا يهتدون، صم عن سماع الحق،." (١)

"يقول الحق جل جلاله: واذكروا أيضا حين قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد حين مللتم من العسل واللحم، وملتم إلى عكركم السوء، أي: مألوفكم وشهواتكم السيئة، لأنهم كانوا فلاحين، فقلتم: فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض، أي: من جنس ما ينبت الله فيها من البقل والقثاء والعدس والفوم والبصل، قال موسى عليه السلام: أتستبدلون الذي هو أدنى وأخس من الثوم والبصل وغيرهما، بالذي هو خير من اللحم والعسل، اهبطوا إلى مصر من الأمصار، تجدوا ما تشتهون، إذ لا يوجد ذلك إلا في القرى والأمصار، أو اهبطوا مصرا التي كنتم فيها أذلاء مستعبدين، تجدوا حظوظكم وشهواتكم لأن الحظوظ والشهوات منوطة بالذل والهوان، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، أي: ألزموها لزوم الدرهم المضروب لضربه ونقشه، فالذلة: ضرب الجزية، والمسكنة: فقر النفس وإن كان موسرا.

وإنما ضربت عليهم الذلة والمسكنة لأنهم لم يرضوا بتدبير الحق، ولم يقنعوا برزقه، فكل من لم يقنع بقسمته وسلم من اتحاد رزقه، خيف عليه من ضرب الذل والمسكنة، وانقلبوا أيضا بغضب من الله حيث نقضوا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٨٣/١

العهود، وتعدوا الحدود، فكفروا وطغوا وقتلوا الأنبياء بغير حق، وسبب ذلك: تمردهم في العصيان، فإن المعاصي تجر بعضها إلى البعض حتى تنتهي إلى الكفر، والعياذ بالله من سخطه وغضبه.

الإشارة: كل من لم يقنع بالقسمة الأزلية، ولم يقم حيث أقامته القدرة الإلهية، بل جنح إلى حظوظه وهواه، وحرص على تحصيل أغراضه ومناه، قيل له: أتستبدل تدبيرك- الذي هو أدنى- بتدبير الحق- الذي هو خير-؟

أتترك تدبير الحكيم العليم، الرؤوف الرحيم، إلى تدبير عقلك الضعيف الجاهل الخسيس اللئيم؟! فعسى أن تدبر شيئا يكون لك فإذا هو عليك. وعسى أن تأتيك المسار من حيث تعتقد المضار، وتأتيك المضار من حيث ترتجي المسار.

ولله در القائل:

وكم رمت أمرا خرت لي في انصرافه، ... فلا زلت لي مني أبر وأرحما

عزمت على ألا أحس بخاطر ... على القلب إلا كنت أنت المقدما

وألا تراني عند ما قد نهيتني ... لكونك «١» في قلبي كبيرا معظما

---

(١) فى المخطوطات الثلاث (لأنك) .." (١)

"ارحم بني جميع الخلق كلهم ... وانظر إليهم بعين الحلم والشفقه

وقر كبيرهم وارحم صغيرهم ... وراع في كل خلق حق من خلقه «١»

وبالله التوفيق.

ولما قال ابن صوريا للنبى صلى الله عليه وسلم: يا محمد ما جئت بشئ نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها فنزل قوله تعالى:

[سورة البقرة (٢) : آية ٩٩]

ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون (٩٩)

يقول الحق جل جلاله: ولقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات، مشتملة على علوم غيبية، وأخبار نبوية، وشرائع محكمة، وأنوار قدسية، وأسرار جبروتية، وما يجحدها ويكفر بها إلا المتمرد في الكفر والطغيان،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/١١٤

الخارج عن الطاعة والإيمان، فالفسق، إذا استعمل في نوع من المعاصي، دل على أعظمه وأقبحه، وهو هنا الكفر، والعياذ بالله.

الإشارة: اعلم أن العبد إذا سبقت له من الله العناية، ألقى الله في قلبه التصديق والهداية، من غير أن يحتاج إلى ءلامة ولا آية، بل يكشف له الحق تعالى عن سر الخصوصية وأنوارها، فيشهد سره لصاحبها بالتقويم، وتخضع له روحه بالتعظيم، فتبدو له أنوار الإيمان وتشرق عليه شموس العرفان، من غير توقف على دليل ولا برهان، بخلاف من سبق له الحرمان، فلا ينجح فيه دليل ولا برهان، والعياذ بالله من الخذلان.

ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اليهود في شأن العهد الذي أخذه الله عليهم فيه، قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا في محمد عهد ولا ميثاق، نزل:

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠٠]

أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون (١٠٠)

قلت: الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره: أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا عهدا، وكلما منصوب على الظرفية، وهي متضمنة معنى الشرط فتفتقر للجواب، وهو العامل فيها. والنبذ: الطرح، لكنه يغلب فيما ينسى، قاله البيضاوي.

---

(١) نسبهما الشيخ المفسر فى إيقاظ الهمم إلى الحسن الحراني.." (١)

"يا بني قد عرفت أنك رأيتني حين فسقت بتلك المرأة، وكنت أنتظر فراقك عني من أجل ذلك، فقال له التلميذ:

يا سيدي الإنسان معرض لمجاري أقدار الله عليه، وإني من الوقت الذي دخلت فيه إلى خدمتك ما خدمتك على أنك معصوم، وإنما خدمتك على أنك عارف بطريق الله تعالى، عارف بكيفية السلوك عليه الذي هو طلبي، وكونك تعصي أو لا تعصي شيء بينك وبين الله عز وجل، لا يرجع من ذلك شيء علي، فما وقع منك يا سيدي شيء لا يوجب نفاري وزوالي عنك، وهذا هو عقدي، فقال له الشيخ: وفقت وسعدت هكذا وإلا فلا ... فريح ذلك التلميذ، وجاء منه ما تقر به العين من حسن الحال وعلو المقام «١» . هـ.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٤١/١

ولما وسمهم الحق تعالى بنقض العهود، ذكر جزئية من ذلك، فقال:

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠١]
ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون (١٠١)
يقول الحق جل جلاľه: ولما جاءهم يعني اليهود رسول من عند الله محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لما معهم من التوراة بموافقته له في بعض الأخبار نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب، وهم من كفر من أحبار يهود، كتاب الله: التوراة، وراء ظهورهم، حيث لم يعملوا بما فيه من الأمر بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، وغيروا صفته التي فيه، وكتموها، فكأنهم طرحوه وراء ظهورهم، وكأنهم لا علم لهم بشئ من ذلك.
قال البيضاوي: اعلم أن الحق تعالى دل بالآيتين على أن حال اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب، وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: بل أكثرهم لا يؤمنون، وفرقة جاهروا بنبذ عهودها، وتخطي حدودها، تمردا وفسوقا، وهم المعنيون بقوله تعالى: نبذه فريق منهم، وفرقة لم يجاهروا بنبذها، ولكن نبذوا لجهلهم بها، وهم الأكثرون، وفرقة تمسكوا بها ظاهرا، ونبذوها خفية، عالمين بالحال بغيا وعنادا، وهم المتجاهلون. هـ. قلت: ولعلهم المنافقون منهم.
ولما نبذوا كتاب الله اشتغلوا بكتب السحر مكانه، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

---

(١) مغزى القصة: التنبيه على أن المريد ينبغى له ألا يعتقد العصمة فى الشيخ فإن الشيخ وإن كان على أكمل الحالات فليس بمعصوم. [.....]." [(١)]

"يقول الحق جل جلاله: واذكر إذ أخذنا الميثاق على النبيين من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام. وقلنا لهم: والله للذي خصصتكم به من كتاب وحكمة، ثم إن ظهر رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه أنتم وأممكم، أو: لأجل الذي خصصتكم به مما تقدم لئن أدركتم محمدا لتؤمنن به ولتنصرنه. قال سيدنا علي- كرم الله وجهه-: (لم يبعث الله نبيا، آدم ومن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد، وأمره بأخذ العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه) .
قال الحق جل جلاله لمن أخذ عليهم العهد: أأقررتم بذلك وقبلتموه، وأخذتم على ذلكم إصري أي:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/١٤٣

عهدي وميثاقي؟ قالوا أقررنا وقبلنا، قال فاشهدوا على أنفسكم، أو ليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، أو فاشهدوا يا ملائكتي عليهم، وأنا معكم من الشاهدين، وفيه توكيد وتحذير عظيم، فمن تولى بعد ذلك الإقرار والشهادة، وأعرض عن الإيمان به، ونصره بعد ظهوره، فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن الإيمان **المتمردون** في الكفران.

الإشارة: كما أخذ الله العهد على الأنبياء وأممهم في الإيمان به عليه الصلاة السلام، أخذ الميثاق على العلماء وأتباعهم من العامة، لئن أدركوا وليا من أولياء الله، حاملا لواء الحقيقة، مصدقا لما معهم من الشريعة، ليؤمنن به ولينصرنه، فمن تولى وأعرض عن الإذعان إليهم فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن دائرة الولاية، محرومون من سابق العناية، فإن الحقيقة إنما هي لب الشريعة وخلاصتها، فإنما مثل الحقيقة والشريعة كالروح للجسد، فالشريعة كالجسد، والحقيقة كالروح، فالشريعة بلا حقيقة جسد بلا روح، والحقيقة بلا شريعة روح بلا جسد، فلا قيام لهذا إلا بهذا، فمن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، ومن خرج عنهما فقد خرج عن دين الله وطلب غيره. وإليه توجه الإنكار بقوله:

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٣]

أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون (٨٣)

قلت: (أفغير) : مفعول مقدم، و (يبغون) : معطوف على محذوف، أي: أتتولون فتبغون غير دين الله، وقدم المعمول لأنه المقصود بالإنكار، و (طوعا وكرها) : حالان، أي: طائعين أو كارهين.

يقول الحق جل جلاله للنصارى واليهود، لما اختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وادعوا أن كل واحد على دين إبراهيم، فقال لهم- عليه الصلاة والسلام: «كلاكما بريء من دينه، وأنا على دينه، فخذوا به» ، فغضبوا، وقالوا:

والله لا نرضى بحكمك ولا نأخذ بدينك، فقال لهم الحق جل جلاله- منكرا عليهم-: أفتبغون غير دين الله الذي ارتضاه لخليله وحبيبه، وقد انقاد له تعالى من في السماوات والأرض طائعين ومكرهين، فأهل السموات." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٧٥/١

"يقول الحق جل جلاله: إن الذين ارتدوا عن الإيمان، ثم ازدادوا في الكفر، وقالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، لن تقبل توبتهم أي: لا توبة لهم فتقبل، لأنه سبق لهم الشقاء، أو لأنهم لا يتوبون إلا عند الغرغرة، أو لن تقبل توبتهم ما داموا على كفرهم. وأولئك هم الضالون المنهمكون في الضلالة.

قيل: نزلت في أصحاب الحارث بن سويد المتقدم، وكانوا أحد عشر رجلا، لما رجع الحارث قالوا: نقيم بمكة على الكفر ما بدا لنا، فمتى أردنا الرجعة رجعنا، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة، دخل في الإسلام بعضهم، فقبلت توبته، وبقي من بقي على كفره، فنزلت الآية فيهم. وقيل: نزلت في اليهود، كفروا بعيسى بعد إيمانهم بأنبيائهم، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: نزلت في النصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بإصرارهم عليه. وقيل: نزلت في الفريقين معا، كفروا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم به قبل ظهوره، ثم ازدادوا كفرا بتمردهم فيه، وتماديهم على المعاصي. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن من دخل طريق التربية، وأخذ في تهذيب نفسه وتطهيرها من المساوئ وأوساخ الحس، ثم غلبته القهرية ورجع عنها، فإن تاب قريبا ورجع إليها سهل عليه الرجوع، ورجى نجحه وقبلت توبته، وإن استمر على رجوعه عنها حتى ألفت نفسه البطالة لن ترجى توبته وصار من الضالين، فمثله كآنية، فرغت منها لبنا أو عسلا، وعمرتها بالقطران، فإن بادرت بإهراقه منها قريبا سهل غسلها، وإن أمهلتها حتى صبغ فيها عسر غسلها، وتعذر زوال رائحته منها. [فإن مات على رجعته فلا يحشر في الآخرة مع أهل هذه الرفقة، ولو شفع فيه ألف عارف، بل من كمال المكر به أن يلقي شبهه في الآخرة على غيره، حتى يتوهم عارفوه من أهل المعرفة أنه هو، فلا يخطر بباله أنه يشفع فيه] . قاله القشيري.

قال المحشي: وما ذكره ربما ينظر إلى قضية الخليل مع أبيه، حين يلقاه وعليه القترة، فيريد الشفاعة له، فيمسخ ذيخا «١» متلطخا- أي: خنزيرا- فينكره، كما في الحديث الصحيح، فتذكر واعتبر. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر من مات على كفره، فقال:

[سورة آل عمران (٣) : آية ٩١]

إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين (٩١)

---

(١) الذيخ- بكسر الذال بعدها ياء ساكنة-: ذكر الضباع. والجمع: أذياخ وذيوخ وذيخة. وأراد بالتلطخ: التلطخ برجيعه أو بالطين.." [١]

"ثم دعا أهل الكتاب إلى الإيمان، وهون أمرهم، فقال:

ولو آمن ...

قلت: الاستثناء في قوله (إلا بحبل) : من أعم الأحوال، أي: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال، إلا متلبسين بذمة من الله وذمة من الناس.

يقول الحق جل جلاله: ولو آمن أهل الكتاب إيمانا كائنا كإيمانكم، لكان خيرا لهم مما هم عليه. وليس أهل الكتاب سواء، بل منهم المؤمنون كعبد الله بن سلام وأصحابه، وأكثرهم الفاسقون **المتمردون** في الكفر والفسوق، فلا يهولكم أمرهم، فإنهم لن يضروكم إلا ضررا يسيرا كأذى باللسان من عيب وسب وتحريش بينكم، ولا قدرة لهم على القتال، وإن يقاتلوكم ينهزموا، ويولوكم الأدبار ثم لا ينصرون أبدا عليكم. وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع، إذ كان كذلك في بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر، فلم ترفع لهم راية أبدا، بل ضربت عليهم الذلة والخزي والهوان، أي: أحاطت بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، أو لزمتهم لزوم الدرهم المضروب لضربه، فلا تنفك عنهم أين ما ثقفوا ووجدوا، فلا يأمنون إلا بحبل من الله أي: بسبب عهد من الله، وهو عقد الذمة التي أمر الله بها، إذا أدوا الجزية للمسلمين، فلهم حرمة بسبب هذا العقد، فلا يجوز التعرض لهم في مال ولا دم ولا أهل، وحبل من الناس، وهو عقد الذمة التي يعقدها مع الكفار إذا كانوا تحت ذمتهم. والحاصل أن الذلة لازمة لهم «١» فلا يأمنون إلا تحت الذمة، إما من المسلمين وإما من الكفار. وباؤ بغضب من الله أي: انقلبوا به مستحقين له، وضربت عليهم المسكنة أي: أحاطت بهم، فاليهود في الغالب فقراء مساكين، لأن قلوبهم خاوية من اليقين، فالفقر والجزع لازم لهم، ولو ملكوا الدنيا بأجمعها.

---

(١) أقام اليهود لهم دولة بمعونة الظلمة، وحمايتهم لهم، كما فعل البريطانيون والأمريكان. لكن المسكنة لازمة لليهود ويبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، حتى مع وجودهم محصنين داخل دولتهم.." [٢]

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٣٧٩

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٣٩٥

"ثم نبه الحق تعالى على عداوة اليهود، وأن من شأنهم إذا سمعوا عليكم مثل ما وقع من تحريف الآية الذي صدر من المصلى فى حال السكر فرحوا بذلك، فحذر المؤمنين من العود لمثل ذلك، فقال:

[سورة النساء (٤) : الآيات ٤٤ الى ٤٥]

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٤٤) والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا (٤٥)

قلت: دخلت الباء على الفاعل في (كفى بالله) ، لتضمنه معنى أكتف بالله وكيلا.

يقول الحق جل جلاله: ألم تر يا محمد، أو يا من يسمع، ببصرك أو بقلبك، إلى حال الذين أوتوا نصيبا يسيرا من علم الكتاب أي: التوراة، وهم أحبار اليهود، يشترون الضلالة بالهدى، أي:

يستبدلونها بها بعد تمكنهم منها عادة، ويريدون أن تضلوا السبيل أي: الطريق الموصلة إلى الحق، أي: يتمنون انحرافكم عنها، فإذا سمعوا عنكم ما يحرفكم عنها فرحوا واستبشروا، لأنهم انحرفوا عنها فحرفوا كتابهم وبدلوا، فتمنوا أن تكونوا مثلهم، فاحذروا ما يتوقع منكم أعداؤكم، فإن الله أعلم بهم منكم، فسيكفيكم الله أمرهم، فثقوا به وتوكلوا عليه، فكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا، فسيتولى أمركم وينصركم على من عاداكم. وبالله التوفيق.

الإشارة: من شأن أهل الإنكار، ولا سيما من سلف له في أسلافه رياسة أو إظهار، إذا سمعوا بأهل النسبة وقع لهم شيء من الأكدار، فرحوا واستبشروا، وودوا لو حادوا كلهم عن سبيل الحق، والله مطلع على أسرارهم، وكاف بأسهم وشرهم، (وكفى بالله وليا) لأوليائه ونصيرا لأحبابه. والله تعالى أعلم.

ثم بينهم، أو ذكر حال فريق منهم، فقال:

[سورة النساء (٤) : آية ٤٦]

من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا (٤٦)

قلت: (من الذين هادوا) : خبر عن محذوف، أي: منهم قوم يحرفون، أو بيان للذين قبله، أو متعلق بأعدائكم.

يقول الحق جل جلاله: من اليهود قوم **تمردوا** في الكفر وهم أحبارهم، يحرفون الكلم وهو التوراة عن مواضعه

أي: يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها، بإزالة لفظه أو تأويله. وقال ابن عباس:
(لا يقدر أحد أن يحرف كلام الله ولكن يفسرونه على غير وجهه) ، ويقولون لمن دعاهم إليه، وهو." [١]

"دخلوا وقت الحديبية، في المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بني بكر، فأمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال ابن عباس: هم قريش، وقال مجاهد: خزاعة، وفى هذين القولين نظر لأن قريشا وخزاعة كانوا أسلموا وقت الأذان لأنهم أسلموا في الفتح، والأذان بعده بسنة.

قال تعالى في شأن من استثنى: فما استقاموا لكم على العهد ولم يغدروا، فاستقيموا لهم على الوفاء، أي: تربصوا بهم وانتظروا أمرهم، فإن استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين الذين إذا عاهدوا وفوا، وإذا قالوا صدقوا.

ثم كرر استبعاد وفائهم فقال: كيف يصح منهم الوفاء بعهدكم وهم إن يظهروا عليكم ويظفروا بكم في وقعة لا يرقبوا أي: لا يراعوا فيكم إلا قرابة أو حلفا، وقيل: ربوبية، أي: لا يراعون فيكم عظمة الربوبية ولا يخافون عقابه، ولا ذمة أي: عهدا، أو حقا يعاب على إغفاله، يرضونكم بأفواههم بأن يعدوكم بالإيمان، والطاعة، والوفاء بالعهد، في الحال، مع استبطان الكفر والغدر، وتأبى أي: تمنع قلوبهم ما تفوه به أفواههم، وأكثرهم فاسقون متمردون، لا عقيدة تزجرهم، ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التمادي على العهد، والتعفف عما يجر إلى احدوثة السوء.

قاله البيضاوي.

اشتروا بآيات الله أي: استبدلوا بها ثمنا قليلا أي: عرضا يسيرا، وهو اتباع الأهواء والشهوات، فصدوا عن سبيله دينه الموصل إليه، أو بيته بصد الحجاج عنه. إنهم ساء ما كانوا يعملون أي: قبح عملهم هذا، أو ساء ما كانوا يعملون من كونهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة فيكون تفسيرا لعملهم السوء، لا تكريرا. وقيل: الأول في الناقضين العهد، وهذا خاص بالذين اشتروا، وهم اليهود، أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطمعهم.

وقوله تعالى: في مؤمن: فيه إشارة إلى أن عداوتهم إنما هي لأجل الإيمان فقط، وقوله أولا: فيكم، كان يحتمل أن يظن ظان أن ذلك للإحن التي وقعت بينهم، فزال هذا الاحتمال بقوله: في مؤمن. قاله ابن عطية.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٠٩/١

وأولئك هم المعتدون في الشرارة والقبح. فإن تابوا عن الكفر، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ونفصل الآيات لقوم يعلمون

، حث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا ينبغي للخواص أن يثقوا بمحبة العوام، ولا يغتروا بما يسمعون من عهودهم، فإن محبتهم على الحروف، مهما رأوا خلاف ما أملوا من حروفهم، وأطماعهم، نكثوا وأدبروا، فللعارف غنى بالله عنهم. وفي ذلك." (١)

"قلت: قال في الأساس: ومن المجاز: نسيت الشيء: تركته، (نسوا الله فنسيهم) . قال في المشارق: ونسي بمعنى ترك، معناه مشهور في اللغة، ومنه: (نسوا الله فنسيهم) أي: تركوا أمره فتركهم. وقوله: (كالذين من قبلكم) : خبر، أي: أنتم كالذين، أو مفعول بمحذوف، أي: فعلتم مثل فعل من قبلكم.

يقول الحق جل جلاله: المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض أي: متشابهة في الكفر والبعد عن الإيمان، لا فرق بين ذكورهم وإناثهم في النفاق والكفر، وهو نفي لأن يكونوا مؤمنين. وقيل: إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله: إنهم لمنكم وتقرير لقوله: وما هم منكم، وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين. وهو قوله: يأمرون بالمنكر كالكفر والمعاصي، وينهون عن المعروف كالإيمان والطاعة، ويقبضون أيديهم عن الإعطاء والمبار، وهو كناية عن البخل والشح. نسوا الله أي: غفلوا، أي: أغفلوا ذكره، وتركوا طاعته، فنسيهم فتركهم من لطفه ورحمته وفضله، إن المنافقين هم الفاسقون الكاملون في **التمرد** والفسوق عن دائرة الخير.

وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار أي: المجاهرين بالكفر، نار جهنم خالدين فيها أي: مقدرين الخلود. قال ابن جزي: الأصل في الشر أن يقال: أوعد، وإنما يقال فيه: «وعد» إذا صرح بالشر. هـ. هي حسبهم أي: جزاؤهم عقابا وعذابا، وفيه دليل على عظم عذابها، ولعنهم الله أبعدهم من رحمته، وأهانهم، ولهم عذاب مقيم لا ينقطع، وهو العذاب الذي وعدوه، أو ما يقاسونه من تعب النفاق، والخوف من المؤمنين. كالذين من قبلكم أي: أنتم كالذين من قبلكم، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم، كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا، وهو بيان لتشبيههم بهم، وتمثيل حالهم بحالهم، فاستمتعوا بخلاقهم أي:

نصيبهم من ملاذ الدنيا وحظوظها، فأملوا بعيدا وبنوا مشيدا، فرحلوا عنه وتركوه، فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم رجعوا، فاستمتعتم أنتم بخلاقكم أي: بنصيبكم مما خلق الله لكم وقدره لكم في الأزل، كما

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٣٦١

استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم، ثم تركوا ذلك ورحلوا عنه، كذلك ترحلون أنتم عنه وتتركونه.
قال البيضاوي: ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المخدجة من الشهوات الفانية، والتهائهم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيرة تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء آثارهم. هـ.." [1]

"فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، فنزلت الآية «١» .
ونزلت في أبي عقيل: والذين لا يجدون إلا جهدهم إلا طاقتهم، فيسخرون منهم يستهزءون بهم. قال تعالى: سخر الله منهم جازاهم على سخريتهم، كقوله: الله يستهزئ بهم «٢» ، ولهم عذاب أليم على كفرهم.
استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة، كما نص عليه بقوله:
إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، روي إن عبد الله بن عبد الله بن أبي- وكان من خيار المسلمين- سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، في مرض أبيه، أن يستغفر له، ففعل، فنزلت: سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم «٣» ، وذلك لأنه- عليه الصلاة والسلام- فهم من السبعين العدد المخصوص، وقال:
ولو علمت أني إن زدت على السبعين غفر له، لزدت «٤» ، فبين له أن المراد به التكثير، دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في التكثر لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد، فكأنه العدد بأسره قاله البيضاوي.
ذلك أي: عدم قبول استغفارك بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله أي: ليس لبخل منا، ولا تقصير في حقك، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. والله لا يهدي القوم الفاسقين **المتمردين** في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر، والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره، المطبوع عليه، لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره، وهو عدم يأسه من إيمانهم، ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ... الآية «٥» . قاله البيضاوي.
الإشارة: من نصب الميزان على المؤمنين فيما يصدر منهم، أو على الصالحين أو الأولياء فيما يظهر عليهم، حتى يسخر منهم، سخر الله منه، وأبعده من رحمته، فلا تنفع فيه شفاعة الشافعين ولا استغفار المستغفرين.
وفى

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٤٠٢

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢٦٠) عن قتادة.

(٢) من الآية ١٥ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٦ من سورة المنافقون.

(٤) أخرجه بسياق آخر، البخاري فى (تفسير سورة التوبة) . ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر) عن ابن عمر.

(٥) الآية ١١٣ من سورة التوبة.." [١]

"الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم، دون من تعبدونه من الأوثان. فماذا بعد الحق إلا الضلال أي:

ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق- الذي هو عبادة الله- وقع في الضلال.

قال ابن عطية: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسألة- التي هي توحيد الله تعالى- وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول التي الحق فيها في طرف واحد، لأن الكلام فيها إنما هو في تقرير وجود ذات كيف هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال تعالى فيها: لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا «١» . هـ.

فأنى تصرفون عن الحق إلى الضلال.

كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون أي: كما حق الحق في الاعتقادات كذلك حقت أي: وجبت وثبتت- كلمة ربك في اللوح المحفوظ أنهم لا يؤمنون، وذلك فى قوم مخصوصين. قال البيضاوي: أي: كما حقت الربوبية لله، أو أن الحق بعده الضلال، أو أنهم مصروفون عن الحق، كذلك حقت كلمة الله وحكمه على الذين فسقوا: تمردوا في كفرهم، وخرجوا عن حد الإصلاح أنهم لا يؤمنون، وهو بدل من الكلمة، أو تعليل لها، والمراد بها العدة بالعذاب. وقرأ نافع وابن عامر:

«كلمات» بالجمع هنا، وفي آخر السورة، وفي غافر «٢» . هـ.

الإشارة: قل من يرزقكم من سماء الأرواح علوم الأسرار والحقائق، ومن أرض النفوس علوم الشرائع والطرائق؟ أمن يملك السمع والابصار فيصرفهما إلى سماع الوعظ والتذكار، ونظر التفكر والاعتبار ليلتحق صاحبهما بالمقربين الأبرار؟ وقدم السمع لأنه أنفع لإيصال النفع إلى القلب من البصر. أم من يخرج الحي من الميت،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٤١٠

فيخرج العارف من الجاهل، والذاكر من الغافل، أو يخرج القلب الحي من الميت بحيث يحييه بالمعرفة بعد الجهل؟ ومن يدبر الأمر لخواص عباده؟ أي: تدبيرا خاصا، بحيث يقوم لهم بتدبير شئونهم، حيث لم يدبروا معه.

فمن لم يدبر دبر له، فالفاعل لهذه الأمور هو الحق المنفرد بالوجود، فكل ما سواه باطل، كما قال القائل:
ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

قال صلى الله عليه وسلم «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ... » الخ «٣» . فكل من صرف عن شهود الحق إلى نظر السوى فهو في ضلال. قال تعالى فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون، لكن من حقت عليه

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة.

(٢) فى قوله تعالى: وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار الآية/ ٦.

(٣) راجع إشارة الآية ١٥٠ من سورة البقرة.." [١]

"لما سلف قبله من الكتب الإلهية، المشهود على صدقها لأنه مطابق لها، فلا يكون كذبا، كيف وهو لكونه معجزا عيار عليها، شاهد على صحتها؟ وتفصيل الكتاب أي: وأنزله تفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع، التي تضمنها الكتاب، لا ريب فيه: لا ينبغي أن يرتاب فيه لما احتفت به من شواهد الحق، وارتياب الكفار فيه كلا ريب. كائنا من رب العالمين، أو نزل منه.

أم: بل يقولون افتراه محمد من عند نفسه؟ قل فأتوا أنتم بسورة مثله في البلاغة وحسن النظم، وجودة المعنى، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة، وادعوا من استطعتم: من قدرتم عليه من الجن والإنس، يعينكم على ذلك، من دون الله فإنه وحده قادر على ذلك، إن كنتم صادقين أنه مفترى.

بل كذبوا أي: سارعوا إلى التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه وهو القرآن، بحيث لم يستمعوه، ولم يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، حتى يعلموا أحق هو أم لا، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علما، من ذكر البعث والجزاء، وسائر ما يخالف دينهم، ولما يأتهم تأويله أي: ولم يقفوا بعد على تأويله، ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب، حتى يتبين لهم أنه صدق أو كذب، والمعنى: أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى، ثم إنهم فاجئوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه، ويتصفحوا معناه.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٦٩/٢

ومعنى التوقع في لما: أنه قد ظهر بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا أذهانهم في معارضته فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبق ما أخبر مرارا فلم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا. قاله البيضاوي. قال ابن جزي: لما يأتهم ما فيه من الوعيد لهم، أي: وسيأتيهم يوم القيامة أو قبله.

كذلك كذب الذين من قبلهم أنبياءهم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

ومنهم من المكذبين من يؤمن به أي: يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من يؤمن به ويتوب عن كفره، ومنهم من لا يؤمن به في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أولا يؤمن فيما يستقبل فيموت على كفره، وربك أعلم بالمفسدين: بالمعاندين أو المصرين.

الإشارة: إذا تطهرت القلوب من الأغيار، وتصفت من الأكدار، أوحى إليها بدقائق العلوم والأسرار، وما كان لتلك العلوم أن تفترى من دون الله ولكن تكون تصديقا لما قبلها من علوم القوم وأسرارها، التي يهبها الله لأوليائه، وفيها تفصيل طريق السير، وما أوجبه الله على المريدين من الآداب، وشروط المعاملة، فمن طعن في ذلك فليأت بشيء من ذلك من عند نفسه، ويستعن على ذلك بأبناء جنسه، بل كذب بما لم يحط به علمه، ولم يبلغه عقله." (١)

"أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ثم اقضوا أي: انفذوا قضاءكم إلي فيما تريدون. وقرأ السري بن ينعم: «أفضوا» بالفاء وقطع الهمزة، أي: انتهوا إلي بشركم، ولا تنظرون: ولا تمهلون.

فإن توليتم: أعرضتم عن تذكيري، فما سألتكم من أجر يوجب توليكم وإعراضكم لثقله عليكم.

واتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني إذا توليتم عني، إن أجري: ما ثوابي على الدعوة والتذكير إلا على الله لا تعلق لي بشيء دونه، آمنتم أو توليتم، وأمرت أن أكون من المسلمين المنقادين لحكمه، لا أخالف أمره، ولا أرجو غيره.

فكذبوه: فأصروا على تكذيبه بعد إلزامهم الحجة، وتبين ان توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب، فهلكوا بالغرق، فنجيناه ومن آمن معه في الفلك، وكانوا ثمانين، وجعلناهم خلائف عمروا الأرض بعد الهالكين وخلفوهم فيها، ولم يعقب منهم إلا أولاد نوح عليه السلام، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا بالطوفان، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين، تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن كذب الرسول، وتسلية له. والله تعالى أعلم.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٧٣/٢

الإشارة: لا يكون الرجل كامل اليقين حتى يسقط من قلبه خوف المخلوقين، فلا يبالي بهم ولو أجمعوا على كيده، إذ ليس بيدهم شيء، وإنما أمرهم بيد الله، ويقول لهم كما قال نوح عليه السلام: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم.)

وكما قال هود عليه السلام: فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم «١» . وفي الحديث: «لو اجتمع الخلق كلهم على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدره الله عليك، جفت الأقلام وطويت الصحف» . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: «لا يكمل إيمان العبد حتى يكون الناس عنده كالأباعد» ، يعني: لا يهابهم ولا يراقبهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما بين نوح وموسى- عليهما السلام- من الأنبياء، على سبيل الإجمال، فقال:

[سورة يونس (١٠) : آية ٧٤]

ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين (٧٤)

---

(١) الآيتان ٥٥- ٥٦ من سورة هود.." [1]

"قلت: (بما كذبوا به) ذكر هنا الرابط، وحذفه في سورة الأعراف، إشارة إلى جواز الأمرين، وإليه أشار في الألفية، بقوله:

كذا الذي جر بما الموصول جر ... ك «مر بالذي مررت فهو بر» «١»

يقول الحق جل جلاله: ثم بعثنا من بعده: من بعد نوح عليه السلام رسلا كهود وصالح وإبراهيم وغيرهم إلى قومهم، كل رسول إلى قومه، فجاؤهم بالبينات: بالمعجزات الواضحات المثبتة لدعواهم، فما كانوا ليؤمنوا فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر، ولسبق شقاوتهم، فما آمنوا بما كذبوا به من قبل مجيئهم المعجزات، يعني أنهم طلبوا المعجزات ليؤمنوا، فلما جاءتهم استمروا على تكذيبهم، كذلك نطبع على قلوب المعتدين فلا تنفع فيهم معجزة ولا تذكير، وفيه دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله، مع إثبات كسب العبد، لقيام عالم الحكمة- الذي هو رداء لتصرف القدرة-. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما بعث الله في كل أمة رسولا يذكرهم ويدعوهم إلى الله، بعث الله في كل عصر وليا عارفا،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٨٩/٢

يدعو الخلق إلى معرفة الله وتوحيده الخاص، فمن سبقت له العناية آمن به من غير طلب آية، ومن سبق له الخذلان لا يصدق به ولو راى ألف برهان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعثة موسى وهارون- عليهما السلام- مفصلة لما فيها من التأسى والتسلية، فقال:

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٧٥ الى ٧٨]

ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين (٧٥) فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين (٧٦) قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون (٧٧) قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين (٧٨)

يقول الحق جل جلاله: ثم بعثنا، من بعد هؤلاء الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا التسع، فاستكبروا عن اتباعها، وكانوا قوما مجرمين معتادين الإجرام، فلذلك تهاونوا برسالة ربهم، واجترءوا على ردها، فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه، وهو بعثه موسى عليه السلام لتظاهر المعجزات على يديه، القاهرة المزيحة للشك، قالوا من فرط **تمردهم**: إن هذا الذي جئت به لسحر مبين: ظاهر.

قال لهم موسى أتقولون للحق لما جاءكم إنه سحر، فكيف يقدر السحرة على مثله؟ أسحر هذا: أيتوهم أحد أن يكون هذا سحرا؟ ولا يفلح الساحرون أي: لو كان سحرا لا ضمحل، ولم يبطل سحر

---

(١) انظر باب الموصول (حذف العائد) .." [1]

"ثم ذكر حالهم فى الكهف، فقال:

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٧ الى ١٨]

وترى الشمس إذا طلعت تتزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا (١٧) وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا (١٨)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٩٠/٢

قلت: (تزاور) أصله: تتزاور، فأدغمت التاء في الزاي. وقرأ الكوفيون بحذفها، وابن عامر ويعقوب: «تزور» كتمرد، كلها من الزور بمعنى الميل. و (ذات اليمين) : ظرف بمعنى الجهة. وجملة: (وهم في فجوة) : حال، و (ذراعيه) : مفعول «باسط» لأنه حكاية حال، أي: يبسط، و (فرارا) : مصدر لأنه عبارة عن معنى التولية، أو حال، أي: لوليت فارا، ورعبا: مفعول ثان لملئت، أو تمييز.

يقول الحق جل جلاله، في بيان حالهم بعد ما أووا إلى الكهف: وترى الشمس إذا طلعت تتزاور أي: تنتحي وتميل عن كهفهم الذي أووا إليه، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب. وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقا، بل الإنباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم ذات اليمين أي: جهة ذات يمين الكهف، عند الداخل إلى قعره، وإذا غربت أي: وتراها إذا غربت تقرضهم أي: تقطعهم وتتعدى عنهم ذات الشمال أي: جهته وجانبه الذي يلي المشرق. وكان ذلك بتصريف الله تعالى على منهاج خرق العادة كرامة لهم. وقيل: كان باب الكهف شماليا يستقبل بنات نعش «١» ، وهم في فجوة منه: في موضع واسع منه، وذلك موقع لإصابة الشمس، ومع ذلك ينحيها الله عنهم.

ذلك من آيات الله أي: ما صنع الله بهم من ميل الشمس عنهم عند طلوعها وغروبها، من آيات الله العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته، وفضيلة التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه. قال بعضهم: هذا قبل سد دقيانوس باب الكهف، قلت: كان قبل السد وبعد هدم السد لأنه هدم بعد، فما قام أهل الكهف حتى وجدوه مهدوما. وظاهر الآية يرجح من قال: إنه من باب خرق العادة.

---

(١) بنات نعش: سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي.. انظر المعجم الوسيط (نعش) .." [(١)]

"وقد تقدم أن من لاحساب عليهم- وهم المقربون- يمرون على الصراط ولا يحسون به، وهم الذين يمرون عليه كالطير أو كالبرق، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، وبجاه خير الخلق مولانا محمد نبيه وحبه، آمين. ثم ذكر أحوال من سقط فى جهنم ويبقى فيها جثيا، فقال:

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (٧٣) وكم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٢٥٥

أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا (٧٤)

قلت: «هم أحسن» : صفة لكم.

يقول الحق جل جلاله: وإذا تتلى عليهم على الكفرة آياتنا الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم، والناطقة بحسن عاقبة المؤمنين، حال كونها بينات: واضحات في نفسها، أو بينات الإعجاز، أو بينات المعاني، قال الذين كفروا أي: قالوا، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له، أو: قال الذين تمردوا في الكفر والعتو وهم النضر بن الحارث وأتباعه، قالوا للذين آمنوا، اللام للتبليغ، أي: قالوا مبلغين الكلام لهم، وقيل: لام الأجل، كقوله تعالى: وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه «١» أي: لأجلهم وفي حقهم، والأول أولى لأن الكلام هنا كان معهم بدليل قوله: أي الفريقين أي: المؤمنين والكفار، خير كأنهم قالوا: أينا خير مقاما أي: مكانا: نحن أو أنتم، وقرىء بالضم، أي: موضع إقامة ومنزل، وأحسن نديا مجلسا ومجتمعا، أو: أينا خير منزلا ومسكنا، وأحسن مجلسا؟.

يروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها، ويتزينون بالزينة الفاخرة، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، يريدون بذلك أن خيريتهم، حالا، وأحسنيتهم، مقالا، مما لا يقبل الإنكار، وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده، وأن الحال التي عليها المؤمنون، من الضرورة والفاقة ورثاثة الحال لقصور حظهم عند الله. وما هذا القياس العقيم والرأي السقيم إلا لكونهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، فرد عليهم بقوله: وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا: مالا ومتاعا ورءيا منظرا، أي: كثيرا من القرون التي كانوا أفضل منهم، فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية، كعاد وثمود وأضرابهم العاتية قبل هؤلاء،

---

(١) الآية ١١ من سورة الأحقاف.." [١]

"تنزيلا أي: أنزل تنزيلا، أو حال كون القرآن تنزيلا، أي: منزلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى، ونسبة التنزيل إلى الموصول بعد نسبته إلى نون العظمة بقوله: (ما أنزلنا) لبيان فخامته تعالى بحسب الأفعال والصفات، إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام، ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير. وتخصيص خلقهما بالذكر لتضادهما. وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس، ووصف السموات بالعلى، وهو جمع «عليا»

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٥٥/٣

لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل. وكل ذلك إلى قوله: (له الأسماء الحسنى) ، مسوق لتعظيم المنزل- عز وجل- المستتبع بتعظيم المنزل عليه، الداعي إلى تربية المهابة وإدخال الروعة، المؤدية إلى استنزال **المتمردين** عن رتبة العتو والطغيان، واستمالتهم إلى الخشية، المفضية إلى التذكير والإيمان.

ثم قال تعالى: الرحمن أي: هو الرحمن، ووصف تعالى بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية للإيذان بأن ربوبيته تعالى، وقيامه بالأشياء، من طريق الرحمة والإحسان، لا بالإيجاب، وفيه إشارة إلى أن تنزيله القرآن أيضا من رحمته- تعالى-، كما ينبئ عنه قوله عز من قائل: الرحمن، علم القرآن «١» . أو: (الرحمن على العرش استوى) : مبتدأ وخبر، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للإيذان بأن ذلك أمر بين لا خفاء فيه، غني عن الإخبار صريحا. والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان، يقال: استوى فلان على سرير الملك مرادا به ملك الملك والتصرف، وإن لم يقعد على سرير أصلا، والمراد: تعلق قدرته وقهريته في جميع الكائنات بالتدبير والتصرف التام.

وسئل أحمد بن حنبل عن الاستواء، فقال: استواء من غلب وقهر، لا استواء كما يتوهم البشر. وسئل عنه مالك والشافعي- رضى الله عنهما- فقالا: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عن هذا بدعة وضلالة، آمنوا بلا تشبيه، وصدقوا بلا تمثيل، وأمسكوا عن الخوض في هذا كل الإمساك. وقال الجنيد رضي الله عنه: خلق الله العرش فوق سبع سموات، وجعله قبلة لدعاء المخلوقات، وقابله بقلب عبده المؤمن، ليكون محلا للتجليات والتنزلات والمخاطبات. هـ. وقد تقدم الكلام عليها في الأعراف مستوفيا «٢» .

له ما في السماوات وما في الأرض، سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما، وما بينهما من الموجودات الكائنة في الجو دائما، كالهواء والسحاب، أو أكثريا كالطير، أي: له ذلك وحده دون غيره، لا شركة ولا استقلالا، كل ما ذكر هو له ملكا وتصرفا، وإحياء وإماتة، وإيجادا وإعداما، وما تحت الثرى: وما وراء التراب المتصل بالهوى السفلى. وعن محمد بن كعب: أنه ما تحت الأرضين السبع. وعن السدى: أن

---

(١) الآيتان: ١- ٢ من سورة الرحمن.

(٢) راجع تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف. [.....]." [1]

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٣٧٣

"ولو أنا أهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصل، من قبله أي: من قبل إتيان البينة، وهو نزول القرآن ومجيء محمد صلى الله عليه وسلم، لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا يدعونا مع كتاب يهدينا، فنتبع آياتك التي جاءنا بها، من قبل أن نذل بالعذاب في الدنيا، ونخزى بدخول النار يوم القيامة، ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها، فانقطعت حجتهم، فإذا كان يوم القيامة قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء «١» .

قل لأولئك الكفرة **المتمردين**: كل أي: كل واحد منكم ومنا، متربص: منتظر ما يؤول إليه أمرنا وأمركم، (فتربصوا) فانتظروا. أو كل منتظر دوائر الزمان، ولمن يكون النصر، فتربصوا فستعلمون عن قريب من أصحاب الصراط السوي أي: المستقيم، أو السواء، أي: الوسط الجيد، ومن اهتدى من الضلالة، هل نحن أو أنتم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يشترط في الولي العارف بالله، الداعي إلى الله، إظهار الآيات، ويكفي، برهانا عليهم، كونهم على بينة من ربهم، وهداية الخلق على أيديهم، وما أظهروه من علم أسرار التوحيد، ومن فنون علم الطريق، مع كون بعضهم أميين، لم يتقدم له مدارسة علم قط، كما شهدناهم، بعثهم الله في كل عصر، يعرفون بالله، ويدلون على أسرار ذاته وأنوار صفاته، على سبيل العيان، لتقوم الحجة على العباد، فإذا بعثوا يوم القيامة جاهلين بالله محجوبين عن شهود ذاته، متخلفين عن مقام المقربين، يقولون: لولا أرسلت إلينا رسولا يعرفنا بك، فنتبع آياتك حتى نصل إليك، من قبل أن نذل بالانحطاط عن درجة المقربين، أو نخزى بإسدال الحجاب. يقول الحق تعالى:

قد بعثتهم، فأنكرتموهم، فإذا اغتروا اليوم، واحتجوا بقول من قال: انقطعت التربية، فقل: كل متربص فتربصوا، فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما.

---

(١) من الآية ٩ من سورة الملك.." (١)

"وتضع كل ذات حمل حملها كذلك، أو تضع كل ذات حمل أثقالها بالغيبة في ربها، وترى الناس سكارى من خمر المحبة، وما هم بسكارى من شراب الدوالي «١» ، لكن من خمر الكبير المتعالي، كما قال الششتري في الخمرة الأزلية- بعد كلام:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٣٨/٣

لا شراب الدوالي إنها أرضية ... خمرها دون خمري، خمرتي أزلية.

ولكن عذاب الله- الذي قدمه قبل دخول جنته المعنوية وحفت به، وهي جنة المعارف- شديد، ولكنه يحلو في جانب ما ينال بعده، كما قال الشاعر:

والنفس عزت، ولكن فيك أبذلها ... والذل مر، ولكن في رضاك حلا

يا من عذابي عذب في محبته ... لا أشتكي منك لا صدا ولا مللا.

ثم ذكر حال من أنكرها، «٢» ولم يتأهب للقائها، فقال:

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣ الى ٤]

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد (٣) كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير (٤)

قلت: (ومن الناس) : خبر، و (من يجادل) : مبتدأ، و (بغير علم) : حال من ضمير «يجادل» ، و (أنه) : نائب فاعل (كتب) ، أي: كتب عليه إضلال من تولاه، و (فإنه) : من فتح: عنده خبر عن مبتدأ مضمر، أي: فشأنه أن يضله، والجملة جواب «من» ، إن جعلتها شرطية، وخبر، إن جعلتها موصولة متضمنة لمعنى الشرط، ومن كسر: فخبر، أو جواب «من» .

يقول الحق جل جلاله: ومن الناس من يجادل ويخاصم في الله أي: في شأنه، ويقول مالا يليق بجلال كبريائه وكمال قدرته، ملابسا بغير علم، بل بجهل عظيم حمله على ما فعل. نزلت فى النضر ابن الحارث، وكان جدلا، يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار رميما «٣» . وهي عامة له ولأضرابه من العتاة **المتمردين**، وكل من يخاصم في الدين بالهوى. ويتبع في ذلك كل شيطان مريد عات **متمرد**، مستمر في الشر. قال الزجاج: المريد والمارد: المرتفع الأملس، أي: الذي لا يتعلق به شيء من الخير، والمراد: إما رؤساء الكفرة الذين يدعونهم إلى الكفر، وإما إبليس وجنوده.

---

(١) أي: العنب. وراجع التعليق على إشارة الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

(٢) أي: الساعة.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٥/ ٣٦٥) . [.....]." [1]

"ثم ذكر رسالة موسى وهارون- عليهما السلام- فقال:

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٤٥ الى ٤٩]

ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين (٤٥) إلى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين (٤٦) فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٤٧) فكذبوهما فكانوا من المهلكين (٤٨) ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون (٤٩)

قلت: «هارون» : بدل من «أخاه» .

يقول الحق جل جلاله: ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا التسع من اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص الثمرات، والطاعون. ولا مساغ لعد فلق البحر منها إذ المراد الآيات التي كذبوها واستكبروا عنها، بدليل ما بعدها. وسلطان مبين وحجة واضحة ملزمة للخصم الإقرار بما دعي إليه، وهي إما العصا، وإفرادها بالذكر مع اندراجها في الآيات لأنها أبهر آياته عليه السلام، وقد تضمنت معجزات شتى من انقلابها ثعبانا، وتلقفه ا ما أفكته السحرة، كما تقدم. وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها، وحراستها، وصيرورتها شمعة، وشجرة خضراء مثمرة، ودلوا ورشاء، وغير ذلك مما ظهر منها في غير مشهد فرعون وقومه، فغير ملائم لمقتضى المقام، وإما ما أتى به من الحجج الباهرة، فيشمل ما تقدم وغيره.

إلى فرعون وملائه أي: أشراف قومه، خصهم بالذكر ليرتب عليه ما بعده من قوله: فاستكبروا عن الإنقياد وتمردوا. تكبرا وترفعا، وكانوا قوما عالين: متكبرين، متمردين، فقالوا، فيما بينهم، على طريق المناصحة: أنؤمن لبشرين مثلنا، «مثل» و «غير» يوصف بها الإثنان والجمع والمذكر والمؤنث، والبشر يطلق على الواحد، كقوله: بشرا سويا

«١» ، وعلى الجمع، كقوله: فإما ترين من البشر أحدا «٢» ، وأراد به هنا الواحد، فثناه، أي: كيف نؤمن لبشرين مثلنا في العجز والافتقار، وقومهما لنا عابدون أي: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بهما- عليهما السلام-، وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥١١/٣

بناء على زعمهم الفاسد، من قياس الرئاسة الدينية على الرئاسات الدنيوية، الدائرة على التقدم في نيل الحظوظ الدنيوية، من المال والجاه، كدأب قريش، حيث قالوا: لو كان خيرا ما سبقونا إليه «٣» . وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم «٤» . وعلى جهلهم بأن مناط الاصطفاء

---

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة مريم.

(٣) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

(٤) الآية ٣١ من سورة الزخرف. [.....]." [1]

"يقول الحق جل جلاله: وقال الذين كفروا أي: **تمردوا** في الكفر والطغيان. قيل: هم النضر ابن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد، ومن ضاهاهم. وقيل: النضر فقط، والجمع لمشايعة الباقين له في ذلك. قالوا: إن هذا ما هذا القرآن إلا إفك كذب مصروف عن وجهه افتراه اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه، وأعانه عليه أي: على اختلاقه قوم آخرون، يعنون: اليهود، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الدارسة، وهو يعبر عنها بعبارته. وقيل: هم عداس، ويسار «١» ، وأبو فكيهة الرومي، كان لهم علم بالتوراة والإنجيل. ويحتمل: وأعانه على إظهاره وإشاعته قوم آخرون، ممن أسلم معه صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: فقد جاؤ، وأتوا ظلما أو: بظلم، فقد تستعمل (جاء) بمعنى فعل، فتتعدى تعديته، أو بحرف الجر، والتنوين للتفخيم، أي: جاءوا ظلما هائلا عظيما حيث جعلوا الحق البين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكا مفترى من قول البشر، وجعلوا العربي الفصيح يتلقى من العجمي الرومي، وهو من جهة نظمه الفائق وطرازه الرائق لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن مثل آية من آياته. ومن جهة اشتماله على الحكم العجيبة، المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية، والأمور الغيبية، بحيث لا يناله عقول البشر، ولا تفي بفهمه الفهوم، ولو استعملوا غاية القوى والقدر. وأتوا أيضا زورا أي: كذبا كثيرا، لا يبلغ غايته حيث نسبوا إليه صلى الله عليه وسلم ما هو بريء منه.

وقالوا أساطير الأولين أي: هو أحاديث المتقدمين، وما سطروه من خرافاتهم كرستم وغيره. جمع أسطار، أو: أسطورة، اكتتبها كتبها لنفسه، أو: استكتبتها فكتبت له، فهي تملى عليه أي: تلقى عليه من كتابه بكرة: أول النهار وأصيلا آخره، فيحفظ ما يتلى عليه ثم يتلوه علينا. انظر هذه الجرأة العظيمة، قاتلهم الله، أنى

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٧٧/٣

يؤفكون؟

---

(١) فى الأصول: سيار.." (١)

"الالتفات إليها غيبة في الله واشتغالا بشهوده. وقيل لبعضهم: متى ينتهي سير الطالبين؟ قال: «الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا» . وأيض: الا تجتمع المجاهدة مع المشاهد، فإذا تحققت المشاهدة فلا مجاهدة. هم الذين كفروا من النفوس **المتمردة**، والهوى، وصدوكم عن مسجد الحضرة، والهدي معكوفا، وحبسوكم عن التقرب إلى الله بالنفس والمال أن يبلغ محله، بأن تمنعكم من إعطائه، أو تشيبه بما يفسده من الرياء والعجب، لئلا تبلغ محل الإخلاص.

ثم ذكر حكمة منعهم من دخول مكة عام الحديبية، فقال:

قلت: (أن تطؤوهم) : بدل اشتمال من رجال ونساء، ومن ضمير «تعلموهم» وبغير متعلق بتطؤهم، وجواب «لولا» محذوف، أغنى عنه جواب «لو» أي: لما كف أيديكم عنهم.

يقول الحق جل جلاله: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات بمكة، ضعفوا عن الهجرة لم تعلموهم لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم مع المشركين، أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغيْر علم

أي: غير عالمين بهم فتصيبكم منهم معرة أي: مشقة ومكروه. وفي تفسير المحلي «المعرة» بالإثم نظر، مع فرض عدم العلم، إلا أن يحمل على صورة الإثم، وهو الخطأ، وفيه الكفارة. والمعرة: مفعلة من: عراه: إذا دهاه ما يكرهه وشق عليه، وهو هنا الكفارة إذا قتله خطأ، وسوء مقالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والإثم إذا قصد قتله. والوطء عبارة عن الإيقاع والإبادة. والحاصل أنه كان بمكة قوم مسلمون مختلطون بالمشركين، غير متميزين منهم، فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناسا من المؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم، فتصيبكم بإهلاكهم مشقة ومكروه، ولما كففنا أيديكم عنهم، ولسلطانكم عليهم.

وكان ذلك الكف ليدخل الله في رحمته أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة لمؤمنيهم، أو: ليدخلهم في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم من يشاء زيادته أو هدايته، فاللام متعلِقة بمحذوف، تعليل لما دلت

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧٨/٤

عليه الآية، وسيقت له، من كف الأيدي عن أهل مكة، والمنع من قتلهم، صونا لما بين أظهرهم من المؤمنين.
لو تزيلوا أي: تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين، لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما بقتل." (١)

"مقاتلتهم، وسبي ذراريهم. ويجوز أن يكون: «لو تزيلوا» كالتكرير ل «لولا..» لمرجعهما لمعنى واحد، ويكون (لعذبنا ...) الخ، هو جواب «لولا» والتقدير: ولولا أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات من غير علم، ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف.

الإشارة: إذا اختلط أهل الانتقاد مع أهل الاعتقاد، لا يعم البلاء المعد لأهل الانتقاد، ولو تزيلوا لعذبنا المنكرين عذابا أليما، وكذلك إذا اختلط الفجار مع الأبرار، وغلب جمع الأبرار، لا يعم البلاء، ويصرف عن الجميع، فلو تزيل الفجار لعذبوا عذابا أليما.

قال القشيري: قد تكون في النفس أوصاف مستحسنة، تليق بالفيض الألهي، مع أوصاف مذمومة، فلو سلطناكم على إهلاكها بالمرة، لفاتكم ما فيها من الأوصاف الحسنة، فتصيبكم معرة، ليدخل الله في رحمته بالوصول إلى حضرته من يشاء من النفوس، بتصفية ما فيها من الرذائل. لو تزيلوا تميز ما يصلح قلعه، كالكبر، والشر، والحرص والحقد، أو ما يصلح تبديله، كالبخل بالسخاء، والحرص بالقناعة، والغضب بالحلم، والجبن بالشجاعة، والشهوة بالعفة، لعذبنا النفوس **المتمردة** عذابا أليما، بإهلاكها بالكلية. بالمعنى.

ثم وصف أهل الكفر المتقدمين الآن بالحمية، فقال:

[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٦]

إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦)

يقول الحق جل جلاله: واذكر إذ جعل الذين كفروا من قريش أي: ألقوا في قلوبهم الحمية أي: الأنفة والتكبر، أو: صيروا الحمية راسخة في قلوبهم حمية الجاهلية: بدل، أي: حمية الملة الجاهلية، أو الحمية الناشئة من الجاهلية، ووضع الموصول موضع ضميرهم، إذ تقدم ذكرهم، لذمهم بما في حيز الصلة، وتعليل الحكم به. والجعل بمعنى الإلقاء، فلا يتعدى إلى مفعولين، أو: بمعنى التصيير. فالمفعول الثاني محذوف،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٤٠١

كما تقدم. و «الذين» : فاعل، على كل حال. فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين أي: أنزل في قلوبهم الطمأنينة والوقار، فلم يتضعضعوا من الشروط التي شرطت قريش.." [١]

"أهل حمير على دين الحبرين، فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن. قال الرياشي: كان أبو كرب أسعد الحميري من التبابعة، آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة. وتقدم شعره في الدخان «١» .

كل كذب الرسل فيما أرسلوا به من الشرائع، التي من جملتها: البعث الذي أجمعوا عليه قاطبة، أي: كل قوم من الأقوام المذكورين كذبوا رسولهم فحق وعيد أي: فوجب وحل عليهم وعيدي، وهي كلمة العذاب. وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم.

أفعيينا بالخلق الأول، استئناف مقرر لصحة البعث، الذي حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة.

والعي بالأمر: العجز عنه، يقال: عيى بالأمر: إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة للإنكار، والفاء: عطف على مقدر، ينبئ عنه المقام، كأنه قيل: أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟ بل هم في لبس من خلق جديد أي: بل هم في لبس وخلط وشبهة. قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم، حيث سول لهم أن إحياء الموتى خارج عن العادة، فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح، وهو: أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر.

وهو معطوف على مقدر يدل عليه ما قبله، كأنه قيل: هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول، بل هم في خلط وشبهة من خلق مستأنف جديد. وتنكير «خلق» لتفخيم شأنه، والإشعار بخروجه عن حدود العادة، والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ويهتم بمعرفته.

الإشارة: قال القشيري: الإشارة في الآية إلى أن الغالب في كل زمان غلبة الهوى والطبيعة الحيوانية واستيلاء الحس على الناس، نفوسهم **متمردة**، بعيدة من الحق، قريبة من الباطل، كلما جاء إليهم رسول كذبوه، وعلى ما جاء به قاتلوه، فحق عليهم عذاب ربهم، لما كفروا نعمه، فما أعياه إهلاكهم. هـ. قلت: وكذلك جرى في كل زمان، كل من أمر الناس بإخراجهم عن عوائدهم، ومخالفة أهوائهم، رفضوه وعادوه، فقل بسبب ذلك المخلصون، وكثر المخلطون، فإذا قالوا: لا يمكن الإخراج عن العوائد، قلنا: القدرة صالحة، قال تعالى: أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد، وهو إحياء القلب الميت، فيجدد إيمانه، وتحيا روحه حياة سرمدية.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٠٢/٥

وبالله التوفيق.

ثم إن عادته تعالى في التنزيل: أنه مهما ذكر دلائل قدرته ذكر بإثره شأن علمه، أو بالعكس، إشارة إلى إسناد كل المقدورات إليه تعالى، ردا على الطبائعيين لأن الفاعل بالطبيعة لا يتوقف على العلم، ولذلك قال تعالى:

---

(١) راجع تفسير الآيات: ٣٤- ٣٩.." (١)

"ودخلت الفاء للتسبب عن قوله: (هم أشد منهم بطشا) أي: شدة بطشهم، أي: قدرتهم على التنقيب في البلاد، ويجوز أن يعود الضمير إلى أهل مكة، أي: ساروا في أسفارهم ومسايرهم في بلد القرون، فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله أنفسهم؟ ويؤيده قراءة من قرأ (فنقبوا) على صيغة الأمر.

إن في ذلك أي: فيما ذكر من قصصهم، أو: فيما ذكر في السورة لذكرى لتذكرة وعظة لمن كان له قلب سليم واع يدرك كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها، ليعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير، أو ألقى السمع أي: أصغى بقلبه إلى ما يتلى عليه من الوحي الناطق بما جرى عليهم، فإن من فعله يقف على كنه الأمر، فينزجر عما يؤدي إليه من الكفر والمعاصي، يقال: ألق إلي سمعك، أي: استمع، ف «أو» لمنع الخلو، لا لمنع الجمع، فإن إلقاء السمع لا يجدي بدون سلامة القلب عما ذكر من الصفات، للإيذان بأن من عرى قلبه عنهما كمن لا قلب له أصلا: وقوله تعالى: وهو شهيد: حال، أي:

والحال أنه حاضر القلب لا يغفل أو: شاهد على ما يقرأ من كتاب الله.

ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات، وهذا أيضا احتجاج على القدرة على البعث بما هو أكبر، كقوله: لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس «١» وقوله تعالى: في ستة أيام إنما خلقها في تلك المدة تعليما لخلقه التؤدة، وإلا فهو قادر على أن يخلقها في لمحة، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر «٢» ، ويحتمل أن هذا في عالم الأمر، وأما عالم الخلق فاقتضت الحكمة خلقه بالتدريج، وله الخلق والأمر، ثم قال تعالى: وما مسنا من لغوب من إعياء ولا تعب في الجملة، وهذا رد على جهلة اليهود، أنه تعالى بدأ العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش «٣» ، تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٤٨/٥

الإشارة: كثيرا ما أهلك الله من النفوس **المتمردة** في القرون الماضية، زجرا لمن يأتي بعدهم، ففي ذلك ذكرى لمن كان له قلب سليم من تعلقات الكونين. قال القشيري: فالقلوب أربعة قلب فاسد وهو الكافر، وقلب مقفول، وهو قلب المنافق، وقلب مطمئن، وهو قلب المؤمن، وقلب سليم، وهو قلب المحبين والمحبوبين، الذين هو مرآة صفات جمال الله وجلاله، كما قال تعالى: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن» «٤» . هـ.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة غافر.

(٢) الآية ٥٠ من سورة القمر.

(٣) نزول الآية ردا على اليهود، أخرجه الطبري (٢٦/ ١٧٨) والواحدي فى الأسباب (ص ٤١٣) . [.....]

(٤) سبق.." [١]

"أنفس العلماء الجهابذة، فالسابقات إلى الله بأنواع المجاهدات والسير في المقامات، حتى أفضت إلى شهود الحق عيانا، سبقا، وهي أنفس الأولياء العارفين، فالمدبرات أمر الخلائق بقسم أرزاقها وأقواتها ورتبها، وهي أنفس الأقطاب والغوث. وقال البيضاوي: هذه صفات النفوس، وحال سلوكها، فإنها تنزع من الشهوات، وتنشط إلى عالم القدس، فتسبح في مراتب الارتقاء، فتسبق إلى الكمالات، حتى تصير من المكملات، زاد الإمام: فتدبر أمر الدعوة إلى الله. وقال الورتجبي: إشارة النازعات إلى صولات صدمات تجلي العظمة، فتنزع الأرواح العاشقة عن معادن الحدوثية. ثم قال: والناشطات: الأرواح الشائقة تخرج من أشباحها بالنشاط، حين عاينت جمال الحق بالبديهة وقت الكشف. ثم قال: والسابحات تسبح في بحار ملكوته وقاموس كبرياء جبروته، تطلب فيها أسرار الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية، فالسابقات في مصاعدها عالم الملكوت، وجنات الجبروت، تسابق كل همة، فالمدبرات هي العقول القدسية تدبر أمور العبودية بشرائط إلهام الحقيقة. هـ.

والمقسم عليه: ليبعثن الله الأرواح الميتة بالجهل والغفلة، حين تنتبه إلى السير بالذكر والمجاهدة، فإذا حييت بمعرفة الله كانت حياة أبدية. وذلك يوم ترجف النفس الراجفة، وذلك حين تتقدم لخرق عوائدها ومخالفة هواها، تتبعها الرادفة، وهي ظهور أنوار المشاهدة، فحينئذ تبعث من موتها، وتحيا حياة لا موت بعدها، وأما الموت الحسي فإنما هو انتقال من مقام إلى مقام. قلوب يومئذ. أي: يوم المجاهدة والمكابدة

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٥٩/٥

. واجفة، لا تسكن حتى تشاهد الحبيب، أبصارها في حال السير خاشعة، لا يخلع عليها خلع العز حتى تصل. يقول أهل الإنكار لهذه الطريق: أئنا لمردودون إلى الحالة الأولى، التي كانت الأرواح عليها في الأزل، بعد أن كنا ميتين بالجهالة، مرمى بنا في مزابل الغفلة، كعظام الموتى، قالوا: تلك كرة خاسرة، لزعمهم أنهم إذا صاروا إلى هذا المقام لم يبق لهم تمتع بشيء أصلا، مع أن العارف إذا تحقق وصوله تمتع بالنعيمين؛ نعيم الأشباح ونعيم الأرواح. قال تعالى في رد ما استحالوه: فإنما هي زجرة واحدة من همة عارف، أو نظرة ولي كامل، فإذا هم في أرض الحضرة القدسية. قال الشيخ أو العباس: والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه وقد أغنيته. قلت: والله لقد بقي في زماننا هذا من يفوق أبا العباس والشاذلي وأضرابهما في الإغناء بالنظرة والملاحظة، والحمد لله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ ، تشويقا لما يلقى إليه من خبره، أي: هل أتاك حديثه، أنا أخبرك به، إن كان هذا أول ما أتاه من حديثه. وإن كان تقدم قبل هذا حديثه، وهو المتبادر، فالمعنى: أليس قد آتاك حديثه. وقوله: ﴿إذ ناداه ربه﴾ : ظرف للحديث لا للإتيان، لاختلاف وقتهما، أي: هل وصلك حديثه ناداه ربه ﴿بالواد المقدس﴾ ؛ المبارك المطهر، اسمه: ﴿طوى﴾ بالصرف وعدمه. فقال في ندائه له: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ؛ تجاوز الحد في الكفر والطغيان، ﴿فقل﴾ له بعد أن تأتيه: ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ أي: هل لك رغبة وتوجه إلى التزكية والتطهير من دنس الكفر والطغيان بالطاعة والإيمان. قال ابن عطية: " هل " هو استدعاء حسن. قال الكواشي: يقال: هل لك في كذا؟ وهل لك إلى كذا؟ كقولك: هل ترغب في كذا، وهل ترغب إلى كذا. قال: وأخبر تعالى أنه أمر موسى بإبلاغ الرسالة إلى فرعون بصيغة الاستفهام والعرض، ليكون أصغى لأذنه، وأوعى لقلبه، لما له عليه من حق التربية. هـ. وأصله: " تتزكى "، فحذف إحدى التاءين، أو: أدغمت، فيمن شدد الزاي.

﴿وأهديك إلى ربك﴾ ؛ وأهديك إلى معرفته، بذكر دلائل توحيده وصفات ذاته، ﴿فتخشى﴾ ، لأن الخشية لا تكون إلا مع المعرفة، قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماؤا﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء بالله. وقال بعض الحكماء: اعرفوا الله، فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طرفة عين. فالخشية ملاك الأمر، فمن خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر. ومنه الحديث: " من خشي أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل " قال النسفي: بدأ مخاطبته بالاستفهام، الذي معناه العرض، كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرقيق، ليستدعيه باللطف في القول، ويستنزله بالمداراة من عتوه، كما أمر بذلك في قوله: ﴿فقولا له قولا لينا﴾ [طه: ٤٤] هـ.



فأراه الآية الكبرى﴾ ، الفاء: فصيحة تفصح عن جملة قد طويت تعويلا على تفصيلها في السور الأخرى، فإنه عليه السلام ما أراه إياها عقب هذا الأمر، بل بعدما جرى بينه وبينه من المحاورات إلى أن قال: ﴿إن كنت جئت بئاية فأت﴾ [الأعراف: ١٠٦] . والآية الكبرى: العصا، أو: هي واليد، لأنهما في حكم آية واحدة. ونسبتها إليه عليه السلام بالنسبة إلى الظاهر، كما أن نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿ولقد أريناهءاياتنا كلها﴾ [طه: ٥٦] بالنظر إلى الحقيقة ﴿فكذب وعصى﴾ أي: كذب موسى عليه السلام. وسمى معجزته سحرا، وعصى الله عز وجل **بالتمرد**، بعدما علم صحة." (١)

"هذه الآية الكريمة أنه جعل لكل نبي عدوا، وبين هنا أن أعداء الأنبياء هم شياطين الإنس والجن، وصرح في موضع آخر أن أعداء الأنبياء من المجرمين، وهو قوله: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين [٢٥ \ ٣١] ؛ فدل ذلك على أن المراد بالمجرمين شياطين الإنس والجن، وذكر في هذه الآية أن من الإنس شياطين، وصرح بذلك في قوله: وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم الآية [٢ \ ١٤] ، وقد جاء الخبر بذلك مرفوعا من حديث أبي ذر عند الإمام أحمد وغيره، والعرب تسمي كل **متمرد** شيطانا، سواء كان من الجن أو من الإنس كما ذكرنا، أو من غيرهما، وفي الحديث: «الكلب الأسود شيطان» ، وقوله: شياطين، بدل من قوله: عدوا، أو مفعول أول لـ «جعلنا» ، والثاني: «عدوا» ، أي: جعلنا شياطين الإنس والجن عدوا.

قوله تعالى: وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، ذكر في هذه الآية الكريمة أن إطاعة أكثر أهل الأرض ضلال، وبين في مواضع أخر أن أكثر أهل الأرض غير مؤمنين، وأن ذلك واقع في الأمم الماضية، كقوله: ولكن أكثر الناس لا يؤمنون [١٣ \ ١] ، وقوله: وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين [١٢ \ ١٠٣] ، وقوله: ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين [٣٧ \ ٧١] ، وقوله: إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين [٢٦ \ ٨] ، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: وقد فصل لكم ما حرم عليكم الآية، التحقيق أنه فصله لهم بقوله: قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة الآية [٦ \ ١٤٥] ، ومعنى الآية: أي شيء يمنعكم أن تأكلوا

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٢٩/٧

ما ذكيتم، وذكرتم عليه اسم الله؟ ، والحال أن الله فصل لكم المحرم أكله عليكم في قوله: قل لا أجد في ما أوحي إلي الآية [٦ \ ١٤٥] ، وليس هذا منه.
وما يزعمه كثير من المفسرين من أنه فصله لهم بقوله: حرمت عليكم الميتة الآية [٥ \ ٣] ، فهو غلط ؛ لأن قوله تعالى: حرمت عليكم الميتة من سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل من القرآن بالمدينة، وقوله: وقد فصل لكم ما حرم عليكم [١١٩] ، من سورة الأنعام، وهي مكية، فالحق هو ما ذكرنا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها الآية، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه جعل في كل قرية أكابر المجرمين منها ليمكروا فيها،." [١]

"الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وذلك في قوله: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون [٩ \ ٤٤، ٤٥] ، وبين أن السبيل عليهم بذلك، وأنهم مطبوع على قلوبهم، بقوله: إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم الآية [٩ \ ٩٣] ، وبين في مواضع أخر شدة جزعهم من الخروج إلى الجهاد، كقوله: فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت الآية [٤٧ \ ٢٠] ، وقوله: فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد [٣٣ \ ١٩] إلى غير ذلك من الآيات

قوله تعالى: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان، أنهم داخلون معهم في رضوان الله تعالى، والوعد بالخلود في الجنات، والفوز العظيم، وبين في مواضع أخر، أن الذين اتبعوا السابقين بإحسان يشاركونهم في الخير كقوله جل وعلا: وآخرين منهم لما يلحقوا بهم الآية [٦٢ \ ٣] ، وقوله: والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الآية [٥٩ \ ١٠] ، وقوله: والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم [٨ \ ٧٥] .

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤٩١/١

ولا يخفى أنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة، أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو دليل قرآني صريح في أن من يسبهم ويبغضهم، أنه ضال مخالف لله جل وعلا ؛ حيث أبغض من رضي الله عنه، ولا شك أن بغض من رضي الله عنه مضادة له جل وعلا، وتمرد وطغيان.

قوله تعالى: ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم الآية.
صرح في هذه الآية الكريمة أن من الأعراب، ومن أهل المدينة منافقين لا يعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر تعالى نظير ذلك عن نوح في قوله عنه: قال وما علمي بما كانوا يعملون الآية [٢٦ \ ١١٢] .." (١)

"والمعنى: أنهم يطلبون تعجيل العذاب تمردا وطغيانا، ولم يتعظوا بما أوقع الله بالأمم السالفة من المثلات - أي العقوبات - كما فعل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه وغيرهم.

قوله تعالى: وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب.
بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم، وأنه شديد العقاب، فجمع بين الوعد والوعيد ليعظم رجاء الناس في فضله، ويشتد خوفهم من عقابه وعذابه الشديد ؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضر، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين [٦ \ ١٤٧] ، وقوله: إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم [٦ \ ١٥٦ و ٧ \ ١٦٧] ، وقوله جل وعلا: نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم [١٥ \ ٤٩، ٥٠] ، وقوله: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: إنما أنت منذر، أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، أما هداهم وتوفيقهم فهو بيد الله تعالى، كما أن حسابهم عليه جل وعلا.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٤٨/٢

وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء [٢ \ ٢٧٢] ، وقوله: فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب [١٣ \ ٤٠] ، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ولكل قوم هاد.
أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن المراد بالقوم الأمة، والمراد بالهادي الرسول، كما يدل له قوله تعالى: ولكل أمة رسول الآية [١٠ \ ٤٧] ، وقوله: وإن من أمة إلا خلا فيها نذير [٣٥ \ ٢٤] ، وقوله: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا الآية [١٦ \ ٣٦] ، وقد أوضحنا أقوال العلماء وأدلتها في هذه الآية الكريمة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» .

قوله تعالى: الله يعلم ما تحمل كل أنثى.
لفظة «ما» في هذه الآية يحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف، أي يعلم الذي تحمله كل أنثى. وعلى هذا فالمعنى: يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة، وأنوثة، وخداج، وحسن، وقبح،." (١)

"أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين [٥٢ \ ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات.
والاستثناء في هذه الآية الكريمة في قوله: إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين [١٥ \ ١٨] . قال بعض العلماء: هو استثناء منقطع، وجزم به الفخر الرازي، أي لكن من استرق السمع أي الخطفة اليسيرة، فإنه يتبعه شهاب فيحرقه كقوله تعالى: ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب [٣٧ \ ٨ - ١٠] وقيل: الاستثناء متصل، أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره، إلا من استرق السمع، فإنا لم نحفظها من أن تسمع لخبر من أخبار السماء سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئا ؛ لقوله تعالى: إنهم عن السمع لمعزولون [٢٦ \ ٢١٢] قاله القرطبي، ونظيره إلا من خطف الآية [٣٧ \ ١٠] فإنه استثناء من الواو في قوله تعالى: لا يسمعون إلى الملإ الآية [٣٧ \ ٨] .

[أصحاب الأقمار الصناعية

تنبيه

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٢٣/٢

يؤخذ من هذه الآيات التي ذكرنا أن كل ما يتشدق به أصحاب الأقمار الصناعية، من أنهم سيصلون إلى السماء ويبنون على القمر، كله كذب وشقشقة لا طائل تحتها، ومن اليقين الذي لا شك فيه أنهم سيقفون عند حدهم، ويرجعون خاسئين أذلاء عاجزين ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير [٦٧ \ ٤] ووجه دلالة الآيات المذكورة على ذلك أن اللسان العربي الذي نزل به القرآن، يطلق اسم الشيطان على كل عات **متمرد** من الجن والإنس والدواب، ومنه قوله تعالى: وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم الآية [٢ \ ١٤] ، وقوله: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا [٦ \ ١١٢] ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم -: «الكلب الأسود شيطان» وقول جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزلي ... وكن يهوينني إذ كنت شيطانا

ولا شك أن أصحاب الأقمار الصناعية يدخلون في اسم الشياطين دخولا أوليا ؛ لعتوهم **وتمردهم**. وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح بحفظ السماء من كل شيطان، كائنا من كان في عدة آيات من كتابه كقوله هنا: وحفظناها من كل شيطان رجيم [١٥ \ ١٧]." (١)

"حفظها من استراق السمع، وذلك إنما يكون من شياطين الجن، فدل ذلك على اختصاص الآيات المذكورة بشياطين الجن؟ فالجواب: أن الآيات المذكورة تشمل بدلالتها اللغوية شياطين الإنس من الكفار. قال في لسان العرب: والشيطان معروف، وكل عات **متمرد** من الإنس والجن والدواب شيطان. وقال في القاموس: والشيطان معروف، وكل عات **متمرد** من إنس أو جن أو دابة اه.

ولا شك أن من أشد الكفار **تمردا** وعتوا الذين يحاولون بلوغ السماء، فدخولهم في اسم الشيطان لغة لا شك فيه، وإذا كان لفظ الشيطان يعم كل **متمرد** عات فقوله تعالى: وحفظناها من كل شيطان رجيم [١٥ \ ١٧] صريح في حفظ السماء من كل **متمرد** عات كائنا من كان، وحمل نصوص الوحي على مدلولاتها اللغوية واجب، إلا لدليل يدل على تخصيصها أو صرفها عن ظاهرها المتبادر منها كما هو مقرر في الأصول. وحفظ السماء من الشياطين معناه حراستها منهم، قال الجوهري في صحاحه: حفظت الشيء حفظا أي حرسته اه. وقال صاحب لسان العرب: وحفظت الشيء حفظا أي حرسته اه. وهذا معروف في كلام العرب، فيكون مدلول هذه الآية بدلالة المطابقة وحفظناها من كل شيطان رجيم [١٥ \ ١٧] أي وحرسناها أي السماء من كل عات **متمرد**.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢/٢٥٧

ولا مفهوم مخالفة لقوله رجيم [١٥ \ ١٧] وقوله مارد [٣٧ \ ٧] لأن مثل ذلك من الصفات الكاشفة فكل شيطان يوصف بأنه رجيم وبأنه مارد، وإن كان بعضهم أقوى **تمردا** من بعض، وما حرسه الله - جل وعلا - من كل عات **متمرد**، لا شك أنه لا يصل إليه عات **متمرد** كائنا من كان ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير [٦٧ \ ٤] والعلم عند الله تعالى. اه

قوله تعالى: وأرسلنا الرياح لواقح. اللواقح جمع لاقح، وأصل اللاقح التي قبلت اللقاح فحملت الجنين، ومنه قول ذي الرمة:

إذا قلت عاج أو تغنيت أبرقت ... بمثل الخوافي لاقحا أو تلقح

وأصل تلقح: تتلقح، حذفت إحدى التاءين، أي توهم أنها لاقح وليس كذلك، ووصف الرياح بكونها لواقح ؛ لأنها حوامل تحمل المطر كما قال تعالى حتى إذا أقلت سحابا ثقالا [٧ \ ٥٧]." [١]

"قال صاحب (الإنصاف) : هذا المذهب وعليه الأصحاب. وفي الفروع هو أشهر وأصح في المذهب. وقال المصنف وغيره: هذا ظاهر المذهب وهو من المفردات.

وممن قال بهذا القول (ابن حزم) .

وذهب جمهور أهل العلم إلى أن النهي للكراهة، وأنه لو صلى فيها لصحت صلاته. وقد قدمنا كلام أهل الأصول في مثل هذه المسألة.

واعلم أن العلماء اختلفوا في علة النهي عن الصلاة في أعطان الإبل.

فقيل: لأنها خلقت من الشياطين، كما تقدم في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهذا هو الصحيح في التعليل ؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تصلوا في مبارك الإبل ؛ فإنها خلقت من الشياطين» ، وترتيبه كونها خلقت من الشياطين بالفاء على النهي، يدل على أنه هو علته كما تقرر في مبحث مسلك النص، ومسلك الإيماء والتنبيه.

وقال جماعة من أهل العلم: معنى كونها: «خلقت من الشياطين» ، أنها ربما نفرت وهو في الصلاة فتؤدي إلى قطع صلاته، أو أذاه، أو تشويش خاطره. وقد قدمنا أن كل عات **متمرد** تسميه العرب شيطانا. والإبل إذا نفرت فهي عاتية **متمردة**، فتسميتها باسم الشياطين مطابق للغة العرب.

والعرب تقول: خلق من كذا للمبالغة، كما يقولون: خلق هذا من الكرم، ومنه قوله: خلق الإنسان من عجل

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢/٢٦٦

[٢١ \ ٣٧] ، على أصح التفسيرين.

وعلى هذا فيفرق بين كون الإبل في معاطنها، وبين غيبتها عنها ؛ إذ يؤمن نفورها حينئذ.

قال الشوكاني في (نيل الأوطار) : ويرشد إلى صحة هذا حديث ابن مغفل عند أحمد بإسناد صحيح بلفظ: «لا تصلوا في أعطان الإبل ؛ فإنها خلقت من الجن، ألا ترون إلى عيونها وهيئاتها إذا نفرت» .

وقد يحتمل أن علة النهي أن يجاء بها إلى معاطنها بعد شروعه في الصلاة فيقطعها، أو يستمر فيها مع شغل خاطره، اهـ كلام الشوكاني.

ومن هذا التعليل المنصوص ؛ فهم العلماء القائلون بعدم بطلانها أنه: لما كانت علة النهي ما ذكر ؛ دل ذلك على أن الصلاة إذا فعلها تامة أنها غير باطلة.." (١)

"وهذا الحكم من أعدل الأحكام وأوضحها وأظهرها حكمة، وذلك أن الله جل وعلا خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه، ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، كما قال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون [٥١ \ ٥٦، ٥٧] . وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

كما قال: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار [١٤ \ ٣٤] ، وفي الآية الأخرى في «سورة النحل» : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم [١٦ \ ١٨] ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروه ؛ كما قال تعالى: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون [١٦ \ ٧٨] **فتمرد** الكفار على ربهم وطغوا وعتوا، وأعلنوا الحرب على رسله لئلا تكون كلمته هي العليا، واستعملوا جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته، وارتكاب ما يسخطه، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره، وهذا أكبر جريمة يتصورها الإنسان.

فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير جل وعلا عقوبة شديدة تناسب جريمتهم. فسلبهم التصرف، ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات، فأجاز بيعهم وشراءهم، وغير ذلك من التصرفات المالية، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلبا كليا. فأوجب على مالكيهم الرفق والإحسان إليهم، وأن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، وإن كلفوهم أعانوهم ؛ كما هو معروف في السنة الواردة عنه صلى الله عليه وسلم مع الإيصاء عليهم في القرآن، كما في قوله تعالى: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى إلى قوله: وما ملكت أيمانكم [٤ \ ٣٦] كما تقدم.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢/٣٠٤

وتشوف الشارع تشوفا شديدا للحرية والإخراج من الرق، فأكثر أسباب ذلك، كما أوجبه في الكفارات من قتل خطأ وظهار ويمين وغير ذلك، وأوجب سراية العتق، وأمر بالكتابة في قوله: فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا [٢٤ \ ٣٣] ، ورغب في الإعتاق ترغيبا شديدا، ولو فرضنا – ولله المثل الأعلى – أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر الملك بالرق، وتشنع في ذلك على دين الإسلام قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم، وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان، ودبر عليها ثورة." (١)

"تنبيه

اعلم، أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السماوات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضي ذلك.

وإيضاح ذلك أن النظام قسمان: إداري، وشرعي، أما الإداري: الذي يراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع، فهذا لا مانع منه، ولا مخالف فيه من الصحابة، فمن بعدهم، وقد عمل عمر رضي الله عنه من ذلك أشياء كثيرة ما كانت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ككتبه أسماء الجند في ديوان لأجل الضبط، ومعرفة من غاب ومن حضر كما قدمنا إيضاح المقصود منه في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على العاقلة التي تحمل دية الخطأ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك، ولم يعلم بتخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك إلا بعد أن وصل تبوك صلى الله عليه وسلم، وكاشترائه – أعني عمر رضي الله عنه – دار صفوان بن أمية وجعله إياها سجنا في مكة المكرمة، مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يتخذ سجنا هو ولا أبو بكر، فمثل هذا من الأمور الإدارية التي تفعل لإتقان الأمور مما لا يخالف الشرع لا بأس به، كتنظيم شئون الموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع، فهذا النوع من الأنظمة الوضعية لا بأس به، ولا يخرج عن قواعد الشرع من مراعاة المصالح العامة.

وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث. وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك.

فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السماوات والأرض، **وتمرد** على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٠/٣

سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوا كبيرا أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله [٤٢ \ ٢١] ، قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون [١٠ \ ٥٩] ، ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون [١٦ \ ١١٦] ، وقد قدمنا جملة وافية من هذا النوع في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله تعالى: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم الآية [١٧ \ ٩] .." (١)

"الطبيعي من الحضارة الغربية، وبذلك الإيضاح التام يتميز النافع من الضار، والحسن من القبيح، والحق من الباطل، وذلك أن الاستقراء التام القطعي دل على أن الحضارة الغربية المذكورة تشتمل على نافع وضار: أما النافع منها فهو من الناحية المادية، وتقدمها في جميع الميادين المادية أوضح من أن أبينه، وما تضمنته من المنافع للإنسان أعظم مما كان يدخل تحت التصور، فقد خدمت الإنسان خدمات هائلة من حيث إنه جسد حيواني، وأما الضار منها فهو إهمالها بالكلية للناحية التي هي رأس كل خير، ولا خير ألبتة في الدنيا بدونها، وهي التربية الروحية للإنسان وتهذيب أخلاقه، وذلك لا يكون إلا بنور الوحي السماوي الذي يوضح للإنسان طريق السعادة، ويرسم له الخطط الحكيمة في كل ميادين الحياة الدنيا والآخرة، ويجعله على صلة بربه في كل أوقاته.

فالحضارة الغربية غنية بأنواع المنافع من الناحية الأولى، مفلسة إفلاسا كليا من الناحية الثانية.

ومعلوم أن طغيان المادة على الروح يهدد العالم أجمع بخطر داهم، وهلاك مستأصل، كما هو مشاهد الآن، وحل مشكلته لا يمكن ألبتة إلا بالاستضاءة بنور الوحي السماوي الذي هو تشريع خالق السماوات والأرض ؛ لأن من أطغته المادة حتى تمرد على خالقه ورازقه لا يفلح أبدا.

والتقسيم الصحيح يحصر أوصاف المحل الذي هو الموقف من الحضارة الغربية في أربعة أقسام لا خامس لها، حصرا عقليا لا شك فيه:

الأول: ترك الحضارة المذكورة نافعها وضارها.

الثاني: أخذها كلها ضارها ونافعها.

الثالث: أخذ ضارها وترك نافعها.

الرابع: أخذ نافعها وترك ضارها.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٢٦٠

فنرجع بالسبر الصحيح إلى هذه الأقسام الأربعة، فنجد ثلاثة منها باطلة بلا شك، وواحدا صحيحا بلا شك.

أما الثلاثة الباطلة: فالأول منها تركها كلها، ووجه بطلانه واضح ؛ لأن عدم الاشتغال بالتقدم المادي يؤدي إلى الضعف الدائم، والتواكل والتكاسل، ويخارف الأمر السماوي في قوله جل وعلا: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة الآية [١٨ \ ٦٠] .

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم." (١)

"القسم الثاني من الأقسام الباطلة أخذها ؛ لأن ما فيها من الانحطاط الخلقي وضياع الروحية والمثل العليا للإنسانية أوضح من أن أبينه، ويكفي في ذلك ما فيها من التمرد على نظام السماء، وعدم طاعة خالق هذا الكون جل وعلا: آلله أذن لكم أم على الله تفترون [١٠ \ ٥٩] ، أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله [٤٢ \ ٢١] ، والقسم الثالث من الأقسام الباطلة هو أخذ الضار وترك النافع، ولا شك أن هذا لا يفعله من له أقل تمييز، فتعينت صحة القسم الرابع بالتقسيم والسبر الصحيح، وهو أخذ النافع وترك الضار.

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يفعل، فقد انتفع بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، مع أن ذلك خطة عسكرية كانت للفرس، أخبره بها سلمان فأخذ بها، ولم يمنعه من ذلك أن أصلها للكفار، وقد هم صلى الله عليه وسلم بأن يمنع وطء النساء المراضع خوفا على أولادهن ؛ لأن العرب كانوا يظنون أن الغيلة – وهي وطء المرضع – تضعف ولدها وتضره، ومن ذلك قول الشاعر:

فوارس لم يغالوا في رضاع ... فتنبو في أكفهم السيوف

فأخبرته صلى الله عليه وسلم فارس والروم بأنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم، فأخذ صلى الله عليه وسلم منهم تلك الخطة الطبية، ولم يمنعه من ذلك أن أصلها من الكفار.

وقد انتفع صلى الله عليه وسلم بدلالة ابن الأريقط الدؤلي له في سفر الهجرة على الطريق، مع أنه كافر.

فاتضح من هذا الدليل أن الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربية هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية، ويحذروا مما جنته من التمرد على خالق الكون جل وعلا فتصلح لهم الدنيا والآخرة، والمؤسف أن أغلبهم يعكسون القضية، فيأخذون منها الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدين، والتباعد من طاعة خالق الكون، ولا يحصلون على نتيجة مما فيها من النفع المادي، فخسروا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٥٠٥

الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

وم ا أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل وقد قدمنا طرفا نافعا في كون الدين لا ينافي التقدم المادي في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم [١٧ \ ٩] ، فأغنى ذلك." (١)

"الحسن البصري: أن هذا العجل اسمه يهموت. وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة: أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب. يعني هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: انظروا إلى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (يعني الحسين رضي الله عنه) وهم يسألون عن دم البعوضة انتهى منه.

قوله تعالى: ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى.

بين جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين: أن بني إسرائيل لما فتنهم السامري وأضلهم بعبادة العجل، نصحهم نبي الله هارون عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وبين لهم أن عبادتهم العجل فتنة فتنوا بها. أي: كفر وضلال ارتكبوه بذلك، وبين لهم أن ربهم الرحمن خالق كل شيء جل وعلا، وأن عجلا مصطنعا من حلي لا يعبده إلا مفتون ضال كافر. وأمرهم باتباعه في توحيد الله تعالى، والوفاء بموعد موسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام وأن يطيعوه في ذلك. فصارحوه بالتمرد، والعصيان، والديمومة على الكفر حتى يرجع موسى. وهذا يدل على أنه بلغ معهم غاية جهده وطاقته، وأنهم استضعفوه وتمردوا عليه ولم يطيعوه.

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في «الأعراف» : قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين [٧ \ ١٥٠] ،. فقوله عنهم في خطابهم له لن نبرح عليه عاكفين يدل على استضعافهم له وتمردهم عليه المصرح به في «الأعراف» كما بينا. وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات الكريمات ما نصه: وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ واعلم حرس الله مدته: أنه اجتمع جماعة من رجال فيكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد – صلى الله عليه وسلم –، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٥٠٦

شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه، ويحضرون شيئا يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين. وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخ كف عن الذنوب قبل التفرق والزلل." (١)

"اللام الأولى، وضم اللام الثانية، وقرأ عاصم: مهلك أهله بفتح الميم، والباقون بضمها، وقرأ حفص عن عاصم: مهلك بكسر اللام، والباقون بفتحها.

فتحصل أن حفصا عن عاصم قرأ مهلك بفتح الميم وكسر اللام، وأن أبا بكر أعني شعبة قرأ عن عاصم: مهلك بفتح الميم واللام، وأن غير عاصم قرأ: مهلك أهله، بضم الميم وفتح اللام، فعلى قراءة من قرأ مهلك بفتح الميم، فهو مصدر ميمي من هلك الثلاثي، ويحتمل أن يكون اسم زمان أو مكان، وعلى قراءة من قرأ مهلك بضم الميم، فهو مصدر ميمي من أهلك الرباعي، ويحتمل أن يكون أيضا اسم مكان أو زمان.

قوله تعالى: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون. ذكر جل وعلا في هذه الآيات الكريمة، ثلاثة أمور:
الأول: أنه دمر جميع قوم صالح، ومن جملتهم تسعة رهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وذلك في قوله: أنا دمرناهم وقومهم أجمعين، أي: وهم قوم صالح ثمود، فتلك بيوتهم خاوية، أي: خالية من السكان لهلاك جميع أهلها، بما ظلموا، أي: بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم **وتمردهم** وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم، وقال بعضهم: خاوية، أي: ساقطا أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه جل وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية، أي: عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير، وذلك في قوله: إن في ذلك لآية لقوم يعلمون.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب، وهو نبي الله صالح ومن آمن به من قومه، وذلك في قوله تعالى: وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها جل وعلا هنا، جاءت موضحة في آيات أخر.

أما إنجاؤه نبيه صالحا، ومن آمن به وإهلاكه ثمود، فقد أوضحه جل وعلا في." (٢)

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤/٨٧

(٢) أضواء البيان في إ يضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٦/١٢٠

"منزلة إسجاد الملائكة له وسكناه الجنة، فهي أعلى منزلة التكريم، وله فيها أنه لا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى، وظل كذلك على ذلك إلى أن أغواه الشيطان ونسي عهد ربه إليه، ووقع فيما وقع فيه وكان له ما كان، فدلاهما بغرور وانتقلا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، فنزل إلى الأرض يحرث ويزرع ويحصد ويطحن ويعجن ويخبز، حتى يجد لقمة العيش، فهذا خلق الإنسان في أحسن تقويم ورده أسفل سافلين.

وهذا شأن أهل الأرض جميعا، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون برجوعهم إلى الجنة كما رجع إليها آدم بالتوبة فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه [٢ \ ٣٧] ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى [٢٠ \ ١٢٢] .

وإن في ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى ؛ لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمنا كصورة الآمن في الجنة، فإن امتثلوا وأطاعوا نعموا بهذا الأمن، وإن **تمردوا** وعصوا، فيخرجون منها ويحرمون أمنه.

وهكذا تكون السورة ربطا بين الماضي والحاضر، وانطلاقا من الحاضر إلى المستقبل، فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين [٩٥ \ ٧ - ٨] . فيما فعل بآدم وفيما يفعل بأولئك، حيث أنعم عليهم بالأمن والعيش الرغد، وإرسالك إليهم وفيما يفعل لمن آمن أو بمن يكفر، اللهم بلى.

قوله تعالى: فما يكذبك بعد بالدين.

فالدين هو الجزاء كما في سورة الفاتحة: مالك يوم الدين [١ \ ٤] والخطاب قيل للرسول صلى الله عليه وسلم. وأن «ما» في قوله: «فما» هي بمعنى «من» أي، فمن الذي يكذبك بعد هذا البيان، بمجيء الجزاء والحساب ليلقى كل جزاء عمله.

قوله تعالى: أليس الله بأحكم الحاكمين.

السؤال كما تقدم في: ألم نشرح [٩٤ \ ١] ، أي: للإثبات، وهو سبحانه وتعالى بلا شك أحكم الحاكمين، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال: «اللهم بلى» كما سيأتي.

وأحكم الحاكمين، قيل: أفعل تفضيل من الحكم أي: أعدل الحاكمين، كما في." (١)

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٠/٩

"فأجاب آدم وأظهر فضله عليهم. فقال الله تعالى مذكرا لهم بإحاطة علمه: ألم أقل لكم إني أعلم كل ما غاب في السماوات والارض، وأعلم ما تظهرون في قولكم، ما تخفون في نفوسكم!!

وفي هذه الآية دليل على شرف الانسان على غيره من سائر المخلوقات حتى الملائكة، وانه أفضلهم. وفيها دليل على فضل العلم على العبادة، وان العلم أساس مهم في الخلافة في هذه الارض، فالأعلم هو الأفضل، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: ٩] . ولقد قام الدين الإسلامي على العلم، فلما تأخر المسلمون عنه تقدمهم غيرهم.

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. . .﴾ الآية اذكر يا محمد حين قلنا للملائكة اسجدوا سجود خضوع وتحية لآجم (لا سجود عبادة، فالمعبود هو الله وحده) فصدعوا للأمر الرباني وسجدوا. وقد جاء السجود في القرآن بمعنى غير العبادة كما هو هنا، وفي سورة يوسف: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا﴾ [يوسف: ١٠٠] أي تحية، كما هي العادة التي كان الناس يتبعونها في تحية الملوك والعظماء.

ولقد سجد الملائكة كلهم أجمعون الا أبليس أبى وامتنع. لقد استكبر، فلم يطع أمر الحق، ترفعا عنه، وزعما بأنه خير من آدم، كما ورد في سورة الأعراف ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [الاعراف: ١٢] . وكان من الكافرين بنعم الله وحكمته وعلمه.

وقد التبس على بعض الغربيين أمر السجود، وذلك ديدنهم في النقد كلما وجدوا له فرصة في قصص القرآن. قال: بابيني «الايطالي صاحب كتاب» الشيطان «:» انه يستغرب ان يؤمر إبليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن في تحريم الشرك وتنزيه الوحداينة الإلهية. «فهو إما أنه لا يعرف ان السجود قد يكون للتحية والتكريم. أو انه من اولئك المتعصبين الذين لا يريدون ان يفهموا. وهؤلاء لا حيلة لنا معهم، وهم في الغرب كثيرون.

وإبليس: أشهر اسم للشيطان الأكبر، ومن أشهر أسمائه في اللغات:» لوسيفر «و» بعلزبول «و» مغستوفليس «و» عزازيل «. وقد تقدم أن الشيطان كل عات **ومتمرد** من الجن والإنس والدواب وكل شيء، وهذا الأسماء تمثل قوة الشر الكبرى في العالم في موقفها أمام عوامل الخير والكمال.

والشيطان كلمة عربية أصيلة، لأن اللغة اشتملت على كل أصل يمكن اني تفرع منه لفظ الشيطان، ففيها مادة شط وشاط وشطن وشوط، وكل هذه الألفاظ تدل على البعد والضلال والتلهب الاحتراق. وهي تستوعب أصول المعاني التي تفهم من كلمة شيطان. وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير شيطانا، وبذلك فسر بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿طلعها كأنه رءوس الشياطين﴾ [الصافات: ٦٥] أي الأفاعي، وورد كثيرا في الشعر العربي.

ويرى بعضهم ان» إبليس «مأخوذ من الإبليس، ومعناه الندم والحزن واليأس من الخير، فيما يقول بعضهم إنه أعجمي. .." [1]

"لكنه على كل حال يدل على الفتنة والفساد.

وإبليس من الجن، لما ورد بصراحة في القرآن ﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ [الكهف: ٥٠] .

قال الزمخشري: «جني الملائكة والجن واحد، لكن من خبث من الجن **وتمرد** شيطان، ومن تطهر ملك» . وقال الراغب: «» الجن يقال على وجهين احدهما للروحانيين والمستترين عن الجواس كلها بإزاء الإنس، فعلى هذا تدخل فيه الملائكة كلها «.

ويقول في تفسير المنار:» وليس عندنا دليل على ان بين الملائكة والجن فصلا جوهريا يميز أحدهما عن الآخر وانما هو اختلاف أصناف عندما تختلف أوصاف، كما ترشد اليه الآيات. وعلى كل حال فان جميع هذه المسميات بهذه الأسماء من عالم الغيب لا نعلم حقائقها ولا نبحث عنها «فعلينا ان نؤمن بها كما وردت.

ولا يهمنا ان كان ابليس من الملائكة أو من الجن، فهذا جدل لا طائل تحته، والمهم انه عصى ربه وأصبح عنوانا على الشر والطغيان.." [2]

"بعد ان ذكر جرائم اليهود، وبين ما نالهم من غضب الله جزاء ما اقترفوا من الأعمال السيئة والكفر وقتل الأنبياء، والبطر **والتمرد** ومخالفة الشرائع قرر سبحانه وتعالى في هذه الآية ان كل من آمن به وباليوم الآخر واتبع طريق الهدى من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، وكان موحدا لا يعبد الأصنام، وعمل صالحا فان له ثواب عمله الصالح. وهؤلاء لا خوف عليهم يوم القيامة. ولاهم يحزنون اسفا على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وزينتها. ان لهم ما يعدهم الله من نعيم مقيم عنده.

وكل هذا قبل البعثة المحمدية. أما بعدها فقد تقرر شكل الايمان الأخير.

القراءات:

قرأ نافع وحده «الصابين» بالياء بدون همزة.

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٦/١

(٢) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٧/١

والصابئون قوم يقرون بالله وبالمعاد وبعض الأنبياء، لكنهم يعتقدون بتأثير النجوم والافلاك ف يالخير والشر وتصريف مقدرات الانسان. ولذا فهم أقرب الى الشرك.." (١)

"واذكروا اذ أخذنا عهودكم بأن تأخذوا ما آتيانكم من التوراة بقوة، فتعلموا بما فيها من أمري، وتنتهوا عما نهيتكم عنه، لكنكم لما رأيتم ما فيها من تكاليف شاقة. استثلقتم اعباءها وارتبتم فيها. فأريناكم على صدق هذا الكتاب آية بالغة اذ رفعا جبل الطور فوقكم حتى صار كأنه ظلة، وظننتم انه واقع بكم. عند ذاك اعلنتم الطاعة والقبول، وقلتم آمنا وسمعنا، لكن أعمالكم ظلت تكشف عن عصيانكم **وتمردكم** وتشير الى ان الايمان لم يخالط قلوبكم. وكيف يدخل الايمان قلوبكم. وقد شغفت بحب المادة والذهب الممثلة في العجل الذي عبدتموه!

قال يا محمد ليهود بني اسرائيل الحاضرين الذي يتبعون أسلافهم: بئس ما يأمركم به ايمانكم ان كان يأمركم بقتل الأنبياء والتكذيب بكتبه، وجحود ما جاء من عنده.

ثم أمر الله نبيه الكريم ان يتحداهم في ادعائهم صادق الإيمان، وكامل اليقين فقال: قل إن كانت. . الآيات ٩٤٩٦." (٢)

"لن يضروكم الا أذى: أي ضررا يسيرا. يولوكم الأدبار: يهربوا منكم. ثقفوا: أينما وجودوا. وباؤوا: رجعوا.

لن يضركم هؤلاء الفاسقون بضرر كبير يلحقكم منهم، وانما هو أذى يسير لا يبقى له أثر، وإن يقاتلوكم ينهزموا فأرين من لقائكم دون ان يظفروا بشيء، ثم إنهم لا ينصرون عليكم أبدا ما داموا على فسقهم متمسكين بدينكم.

ولقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه كتب عليم الذلة في أي مكان وجدوا فيه، إلا بعهد من الله وعهد من المسلمين. والعهد ما قررته الشريعة اذا دخلوا في حكمها من المساواة في الحقوق والقضاء وتحريم الإيذاء. وهكذا كان حالهم مع المسلمين، فقد كان الرسول الكريم يحسن معاملتهم، وكذلك الخلفاء الراشدون. وكانوا يعيشون مع المسلمين في أحسن حال، ولا زالوا الى اليوم يعيشون متمتعين بكل الحقوق كما نشاهد ذلك في المغرب العربي وما بقي منهم في البلاد الشامية، والعراق وغيرها من بلاد الاسلام. لكنهم غدروا وكادوا. وهذه طبيعتهم. لذلك فإنهم قد استوجبوا غضب الله، وأحاطب بهم المسكنة والصغار، فلقد كفروا

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣٥/١

(٢) تيسير التفس‍ير للقطان إبراهيم القطان ٤٩/١

بآيات الله الدالة على بنوة محمد، وكانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق. وهذا إخبار عن أسلافهم، لكنهم هم راضون عن ذلك الكفر والقتل بسبب عصيانهم **وتمردهم** واعتدائهم على حدود الله.." (١)

"سواء: متساو، يستعمل للواحد والمثنى والجمع. قائمة: مستقيمة عادلة. آناء الليل: ساعات الليل.

قال ابن عباس وقتادة وابن جريج: نزلت هذه الآيات لما أسلم عبد الله بن لاسلام وجماعة معه. فقالت احبار اليهود: ما آمن بمحمد الا شرارنا.

ليس جميع أهل الكتاب متساوين في الأعمال القبيحة والكفر، بل ان فيهم جماعة قويمة السيرة عادلة، آمنوا بمحمد، وهم يقرأون القرآن ساعات من الليل وهم ساجدون، كما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويبادرون الى فعل الخيرات. لقد صلحت أحوالهم وحسنت أعمالهم، فرضيهم ربهم، ولن يحرمهم ثواب ما يفعلونه من خير، إنه عليم بالمتقين محيط بأحوالهم.

وفي هذه الآيات رد على اليهود المتعنتين الذين قالوا لمن أسلم منهم: لقد خسرتم بدخولكم في الاسلام، وفيها اشارة الى المؤمنين وتطمئن لهم أنهم فازوا بالسعادة العظمة والدرجات العليا، كي يزول من صدورهم أثر كلام أولئك الطغاة **المتمردين**.." (٢)

"الصر: (بالكسر) البرد الشديد.

ان الذين كفروا من أهل الكتاب، ومشركي مكة، وغيرهم من مثلهم في كل مكان وزمان لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم شيئا. ولن تنجيهم من عذاب النار يوم القيامة، فهم خالدون فيها. أما ما ينفقه هؤلاء الكافرون رياء فهو مثل ريح جليدية قارصة أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالانهماك في المعاصي، فأهلكته. لقد كانوا يظلمون أنفسهم بالكفر **والتمرد** والعناد، فجزاهم الله مغبة ظلمهم هذا، ولم يظلمهم.." (٣)

"الزعم: القول. وكثر استعماله في مظنة الكذب. الطاغوت: الطغيان والمعبود من دون الله.

تعرض هذه الآيات الكريمة لونا من ألوان **التمرد** على الوضع التشريعي السابق، فقد وصفت قوما أنهم يؤمنون بما أنزل الى الرسول والأنبياء السابقين من الكتب، لكنهم يريدون ان يتحاكموا في خصوماتهم الى رؤوس الطغينان والضلال، فيقبلون حكم غير الله. انهم يتحاكمون الى الطاغوت فيحللون ما حرم اللهن، ويحرمون منا أحل. ولقد أمرهم الله ان يكفروا بالطاغوت، ولا يتحاكموا اليه، الا ان الشيطان يصدهم عن

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢١٣/١

(٢) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢١٤/١

(٣) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢١٥/١

طريق الحق. واذا قيل لأولئك الذين يزعمون انه مؤمنون، تعالوا الى ما أنزل الله في القرآن لنعمل به ونحكمه بيننا، والى الرسول ليحكم بيننا بما أراده الله رأيت هؤلاء المنافقين يعرضون عنك يا محمد ويرغبون عن حكمك.

فكيف تكون حالهم إذا نزلت بهم مصيبة من جراء أعمالهم وخبث نياتهم ولم يجدوا ملجأ الا اليك، فجاؤوك يقسمون بـالله إنهم ما كانوا يريدون بالتحاكم الى غيرك إلا الإحسان في المعاملة، والتوفيق بينهم وبين خصومهم. إن الله يعلم حقيقة ما في قلوبهم وكذب قولهم فلا تلتفت يا محمد الى كلامهم، وادعهم الى الحق بالموعضة الحسنة، وقل لهم قولا حكيما يصل الى اعمال نفوسهم.

وقد رويت عدة روايات في سبب نزول هذه الآيات منها أن يعض المنافقين تخاصم مع يهودي فقال له اليهودي: أحاكمك الى أهل دنيك. زو يعني الى النبي. فلم يقبل الرجل، وقبل ان يتحاكم الى أحد الكهان. والآية عامة في كل ما يصد عن حكم الله، ويعرض عن شرعه.." (١)

"كتبنا: فرضنا. التثبيت: التقوية، جعل الشيء راسخا ثابتا.

ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك والمحتكمين الى الطاغوت ان يقتلوا أنفسهم وأمرناهم بذلك، أو أن يخرجوا من ديارهم ما فعلوه، الا نفر قليل منهم هم المؤمنون حقا. والمقصود بذلك المنافقون، وترغيبهم في الاخلاص، وترك النفاق.

وهو يعني أننا لو شددنا التكاليف على الناس، كأن نأمرهم بقتل أنفسهم، او الخروج عن أوطانهم لصعب ذلك عليهم. ولما فعله الا الأقلون. وحينئذ يظهر كفرهم وعنادهم. فلما لم نفعل ذلك، رحمة منا بعبادنا، واكتفينا بتكليفهم ما يطيقون كان عليهم ان يقبلوه ويتركوا **التمرد** والعناد، حتى ينالوا خير الدارين.

روى الطبري في تفسيره قال: قال رجل من الصحابة لما نزلت هذه الآية: لو أمرنا لفعلنا، والحمد الله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي الكريم، فقال: «ان من أمتي لرجالا، الايمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»

.

ولو أنهم فعلوا هذا الخير العظيم وامتثلوا ما أمروا به وأخلصوا العمل لأعطيناهم الثواب العظيم من عندنا ولهديناهم الى طريق العمل الموصل الى الفوز بسعادة الدارين.

قراءات:

قرأ ابن عامر وحده «إلا قليلا» بالنصب، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي «ان اقتلوا» بضم النون.

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١/٣٠٧

«او اخرجوا» بضم الواو. وقرأ عاصم وحمزة «ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا» بكسر النون والواو، على الأصل بالتقاء السكانين. وقرأ ابو عمرو ويعقوب «ان اقتلوا» بسكر النون «او اخرجوا بضم الواو»." (١)

"الدعاء: الطلب، ولكن يدعون هنا بمعنى يعبدون، لأن من عبد شيئا دعاه عند الحاجة. اناث: معناها معروف، والمراد هنا اللات والعزى ومناة، لأن أسماءها مؤنثة، وقيل: المراد بالإناث الأموات، لأن العرب تصف الضعيف بالأنوثة. المريد: بفتح الميم، مبالغة في العصيان **والتمرد** اللعن: الطرد والاهانة. النصيب المفروض: الحصة الواجبة. الأماني: جمع أمنية. البتك: القطع. المحيص: المهرب، والميم فيه زائدة، لأنه مصدر حاص بحيص، يقال: وقع في حيص بيص، أي في أمر يعسر التخلص منه.

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ . تجد تفسيرها في الآية ٤٨ من هذه السورة، ولا اختلاف بين النصبين إلا في التتمة، حيث اقل هناك: ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ وقال هنا: ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ والمعنى واحد. وهنا نتعرض للتكرار في القرآن، من جديد، فنورد ما قاله صاحب «تفسير المنار» عند تفسيره لهذه الآية:

«ان القرآن ليس قانونا، ولا كتابا فنيا، يذكر المسألة مرة واحدة، يرجع اليها حافظها عند ارادة العمل بها، وانما هو كتاب هداية. . وانما ترجى الهداية بايراد المعاني التي يراد ايداعها في النفوس في كل سياق يعدها ويهؤها لقبول المعنى المراد، وانما يتم ذلك بتكرار المقاصد الاساسية. ولا يمكن أن تتمكن دعوة عامة إلا بالتكرار، ولذلك نرى أهل المذاهب الدينية والسياسية الذي عرفوا سنن الاجتماع وطبائع البشر وأخلاقهم يكررون مقاصدهم في خطبهم ومقالاتهم التي ينشرونها في صحفهم وكتبهم» .

﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا﴾ . كان أهل الجاهلية يزعمون ان الملائكة بنات الله: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما﴾ [الإسراء: ٤٠] . وقد حملهم هذا الاعتقاد على أن يتخذوا تماثيل يسمونها أسماء الاناث، كاللات والعزى ومناة، ويرمزون بها الى الملائكة التي زعموا انها بنات الله. . ومع الزمن تحولت تلك الأصنام عندهم إلى آلهة تخلق وترزق. . وهكذا تتحول وتتطور زيارة قبور الأولياء عند الاعراب والعوام من تقديس المبدأ الذي مات عليه صاحب القبر الى الاعتقاد بأنه قوة عليا تجلب النفع، وتدفع الضرر.

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١/٣٠٩

﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ . أي ان عبادة المشركين للاصنام هي في واقعها عبادة الشيطان نفسه، لأنه هو الذي أمرهم بها فأطاعوه.

﴿لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ . المعنى ان الشيط

ان قال لله، جل وعز: ان لي سهما فيمن خلقتهم لعبادتك، وقلت عنهم فيما قلت: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وان هذا السهم فرض واجب لي يطعيني ويعصيك. والآن: ان ظاهر الآية يدل على ان الشيطان سخص حقيقي، وانه يخاطب الله بقوة وثقة، فهل الكلام جار على ظاهره، أو لا بد من التأويل؟ .." [١]

"بذلك أصروا على العناد **والتمرد** ومخالفة أوامر الله وبيهم. لقد قالوا: نحن مصممون على البقاء في مكاننا وعدم لقيا هؤلاء الجبارين، فدعنا يا موسى واذهب أنت وربك. . قاتلا الجبارين وحدكما. فلن نشارككما ذلك.." [٢]

"قفينا: أتبعنا، قفى فلانا وبه أتبعه اياه. الفاسق: الخارج عن حظيرة الدين. وبعثنا عيسى بن مريم بعد أولئك النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعا أثرهم جاريا على سننهم، مصدقا للتوراة التي تقدمته بقوله وعمله. فشريعة عيسى عليه السلام هي التوراة التي لم تحرف. وقد ورد في الأناجيل انه قال: «ما جئت لأنقض الناموس، وإنما جئت لأتمم» ، يعني لأزيد عليها ما شاء الله من الأحكام والمواعظ.

وقد اعطيناه الإنجيل، مشتملا على الهدى، ومنقذا من الضلال في العقائد والأعمال: كالتوحيد، والتنزيه النافي للوثنية. وقد جعل الله في الانجيل هدى ونورا وموعظة للمتقين كما جعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الانجيل، وليس رسالة عامة للبشر، شأنه في هذا شأن التوراة، لا شأن القرآن الكريم.

﴿وليحكم أهل الإنجيل بمآ أنزل الله فيه﴾

وهذا أمر قاطع لازم يجب تنفيذه وإطاعته، يعني: وأمرناهم بالعمل بالإنجيل، واتباءه وعدم تحريفه. وقد جاء في الإنجيل الصحيح بشارة بسيدنا محمد A في مواضع كثيرة، وكلن ذلك أخفي وحرف. كان عند النصارى عدد كبير من الأناجيل يربو على الخمسين، لكنهم في مجمع نيقية (سنة ٣٢٥ميلادية) اعتمدوا هذه الأربعة المتداولة الآن وحرقوا ما عداها. وقد وجد إنجيل منسوب الى برنابا، تلميذ المسيح، وترجم وطبع عدة مرات، وفيه البشارة واضحة بالنبي في عدة أماكن. وهو قريب جدا من القرآن وتعاليمه، لكن

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣٤١/١

(٢) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣٩١/١

النصارى لا يعترفون به ويقولون إنه مزيف.
﴿ومن لم يحكم بمآ أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾
إن كل من يتقيد بالأحكام بشرائع الله لهو من الخارجين عن حكم الله، **المتمردين** عليه. والنص هنا عام. وصفة الفسق تضاف الى صفتي الكفر والظلم من قبل. فالكفر برفض ألوهية الله ممثلا ذلك في رفض شريعته، والظلم بحمل الناس على غير شريعة اللة، والفسق بالخروج عن منهج حكم الله واتباع طريق غير طريقه.
فالله سبحانه وتعالى يعرض هذه المسألة بأنها إيمان او كفر، لا وسط في هذا الامر، فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله، والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله. فإما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله كاملة فهم من أهل الايمان، واما ان يكونوا قائمين على شريعة أخرى فهم من أهل الكفر والظلم والفسق. وكذلك الديانات.
قراءات:
قرأ حمزة: وليحكم، بكسر اللام ونصب الميم، والباقون بجزم الميم كما هو هنا في قراءة المصحف.." [1]
"اللعن: الحرمان من لطف الله وعنايته. يتولون الذين كفروا: يوالونهم.
يأتي هذا التقرير في موقف النبي داود وعيسى عليهما السلام من اليهود على مدى التاريخ، وكلاهما لعن كفار بني إسرائيل لعصيانهم وعدوانهم. وقد استجاب الله له جزاء سكوتهم عن المنكر يفشو فيما بينهم.
لعن الله الذين كفروا من بني اسرائيل في الزبور والانجايل، من جراء تماديهم في العصيان **وتمردهم** على الأنبياء، وهذا معنى ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ . ثم بين أسباب استمرارهم في العصيان فقال: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ فدأبهم ألا يتناصحوا، فلا ينهى احد منهم احدا عن منكر يقترفه مهما قبح. وفي الآية تلميح إلى فشو المنكرات فيهم، وانحلال مجتمعهم لما فيه من فسق وفجور. وهذا داء قديم فيهم، لا يزال مستمرا حتى الآن، ف ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ من اقتراف المنكرات، والسكوت عليها.
هذا ما يحدثنا به اخواننا من الشعب الفلسطيني ع ن مجتمع اليهود. إنه موبوء فاجر.
روى أبو داود والترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله A: «إن أول ما دخل لنقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك ان يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١/٤٠٦

ثم قال ﴿لعن الذين كفروا. .﴾ إلى قوله ﴿فاسقون. .﴾ الآيات. ثم قال A: «كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق، أو لتقسرنه على الحق قسرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم» .

تأطرنه: تردونه، والقسر: القهر.

والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة. وأظن كثيرا من أحوالنا تسير الى السوء، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معطل. نسأله تعالى ان يردنا الى ديننا.

﴿ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا﴾

هذا هو من الأمور التي كانت تقع منهم، فقد كان اليهود يتحالفون مع مشركي قريش والعرب ضد النبي والاسلام. وقد ذهب كعب بن الأشرف مع جماعة منهم الى مكة يحرض كفار قريش على قتال الرسول الكريم، كما حالف بنو قريظة المشركين في وقعة الخندق. وحوادثهم كثيرة.

﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾

إن هذه الشرور عمل ادخرته لهم أنفسهم الشريرة حتى غضب الله عليهم، وسيخلدون في جهنم وبئس المصير.

﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أوليآء﴾ .

ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب، يؤمنون بالله والنبي، وما أنزل اليك من القرآن، لما اتخذوا عبدة الأوثان أنصارا، ﴿ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾ **متمردون** في النفاق، خارجون عن حظيرة الدين، لا يريدون الا الجاه والرياسة.." (١)

"قبلا: مواجهة ومعانية، وبعضهم قال: قبلا جمع قبيل، يعني قبيلا قبيلا. الشيطان: **المتمرد** العاتي من الجن والانس. يوحي: يعلم بطريق خفي. الزخرف: الزينة، وكل ما يصرف السامع عن الحقائق الى الأوهام. الغرور: الخداع بالباطل. تصغى: تميل الفعل الماضي صغي يصغي. اقترف الذنب: ارتكبه، واقترف المال اكتسبه. العدو: ضد الصديق، يطلق على الجمع والمفرد.

بعد ان بين سبحانه في الآيات السابقة ان مقترحي الآيات الكونية أقسموا بالله لو جاءتهم آية ليؤمنن بها، وان المؤمنين ودوا لو أجيب اقتراحهم، وبين المخادعة في ذلك الاقترح- فصل هنا ما أجمله في قوله ﴿وما يشعركم أنها إذا جآءت لا يؤمنون﴾ فقال: ﴿ولو أننا نزلنآ إليهم الملائكة. الآية﴾ .

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٤٢٦/١

وهذه الآية متعلقة بما كان يقترحه مشركو العرب على الرسول منا لخوارق فيكون المعنى: ان اولئك الذين أقسموا ان يمؤمنوا اذا جاءتهم أية قوم كاذبون. فحتى لو نزلنا إليهم الملائكة يرونهم رأي العين، وكلهم الموتى بعد إحيائهم واخراجهم من قبورهم، وجمعنا لهم كل شيء مواجهة وعيانا- لظلوا على كفرهم، ما لم يشأ الله تعالى أن يؤمنوا. إن اكثر هؤلاء المشركين يا محمد يجهلون الحق، قد امتلأت قلوبهم بالحقد والعناد.

قراءت

قرأ نافع وابن عامر «قبلا» بكسر القاف وفتح الباء، والباقون «قبلا» بالضم.

قال ابن عباس: كان المستهزئون بالقرآن خمسة: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاصي ابن وائل السهمي، والأسود بن يغوث الزهري، والأسود بن المطلب، والحارث بن حنظلة: أتوا رسول الله في رهط من أهل مكة وقالوا: أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله، او ابعث بعض موتانا حتى نسألهم: أحق ما تقول أم باطل؟ او ائتنا بالله والملائكة قبيلا.

فالآية ترد عليهم باطلهم وتعنتهم.

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي﴾ .

ومثلما أن هؤلاء عادوك يا محمد وعاندوك رغم أنك تريد هدايتهم فقد واجه كل نبي جاء قبلك أعداء مثلهم. وكانوا من الإنس والجن، يوسوس بعضهم لبعض بكلام مزخرف لا حقيقة فيه، فيشحنونهم بالغرور والباطل. وكانوا يفعلون ذلك بطرق خفية لا يفطن الى باطلها إلا قليل. ولو شاء الله ما فعلوه، لكن ذلك كله بتقدير الله ومشيئته، لتمحيص قلوب المؤمنين. فاترك يا محمد الضالين وما يفترون من كذب، وامض لشأنك، فالنصر لك آخر الأمر.

﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ .

ان قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لتستمع الى ذلك الخداع والقول المموه بالباطل فهؤلاء يحصرون همهم كله في الدينا، ويعتقدون أن الحياة هي الدنيا فقط، وينالون أبتاع النبي بالأذى.

﴿وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ .

يعني: تميل افئدة المشركين الى الباطل وترضاه وتخضع للشياطين، ومعجبين بزخرفهم الباطل، فليرتكبوا من هذه الدسائس ما هم مرتكبون فانهم لن يضروك بشيء.." (١)

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٤٩٩/١

"المثل والمثل (بفتح الميم وكسرها) الشبه والنظير. الأكابر: الرؤساء اصحاب النفوذ. المجرم: فاعل الفساد والضرر. القرية: البلد المكر: الخديعة، وصرف المرء عن مقصده الى غيره بالحيلة.

هنا مقارنة فبعد ان بين الله تعالى ان اكثر الناس ضالون يتبعون الظن، وأن كثيرا منهم يضلون غيرهم بغير علم، وكيف أن من الشياطين متمردين على أمر ربهم، يظلون يوسوسون الى أوليائهم، ويحاولون ان يزعزعا ايمان المؤمنين، كما بين الفرق بين المؤمنين المهتدين حتى يقتدي الناس به، والكافرين الضالين للنفير من طاعتهم والحذر من غوايتهم- أراد هنا ان يقارن بين الفئتين فصور لنا صورة تمثيلية بديعة ملخصها:

أفمن كان ميتا بالكفر والجهل فأحييناه بالإيمان، وجعلنا له نورا يسر على هديه في علاقاته بالناس، ويكون به على بصيرة، امر دينه وآدابه- هو في حلا مثل حال ذلك الذي يعيش في ظلام الجهل والكفر، والتقليد الاعمى وفساد الفطرة!! كما زين الإيمان في قلوب المؤمنين، زين الشيطان الشرك في نفوس الظالمين الجاحدين.

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها. . . الآية﴾ .

لا تعجب أيها النبي اذا رأيت أكابر المجرمين في مكة يدبرون الشر ويتفننون فيه. إن سنة الله في الاجتماع البشري قد قضت أن يكون في كل مجتمع زعماء مجرمون يمكرون بالرسل والمصلحين، لكن عاقبة هذا المكر والإجرام لاحقة بهم، منصبه عليهم.

﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ وإن كانوا لا يشعرون بذلك.." [١]

"ثمود: قبيلة من العرب مساكنهم الحجر في شمال الحجاز جهة الشام، وهي «مداين صالح» وأخوة صالح لقومه: أخوته في النسب البينة: المعجزة الظاهرة الدلالة. اذكروا: تذكروا بوأكم في الارض: انزلكم فيها. الارض: هي الحجر: النحت: نجر الشيء الصلب والحفر فيه، وكانت بيوتهم منحوتة في الجبل قطعة واحدة، ولا يزال بقية منها الى الآن. لا تعثوا في الأرض: لا تفسدوا. استكبروا: تكبروا. عقروا الناقة: نحروها، وعادة العرب في نحر الابل ان يقطعوا قوائكها فتقع على الأرض فينحروها عتوا: تمردوا. الرجفة: الهزة تقع في الارض، والزلزلة. في دارهم: في بلدهم جاثمين: قاعدين بلا حراك.

وهذه قصة اخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، هي قصة صالح عليه السلام ومفادها:

لقد أرسلنا الى ثمود اخاهم صالحا الذي يشاركهم في النسب والوطن، وكانت دعوته كدعوة الرسل قبله. قال لهم: أخلصوا العبادة لله وحده، مالكم إله غيره، قد جاءتكم حجة وبرهان على صدق ما أقول، وحقيقة

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢/٤

ما أدعو اليه. هذه ناقة ذات خلق خاص، فيها الحجة وهي ناقة الله، فاتركوها تأكل مما تنبته أرض الله من العشب لا تتعرضوا لها ولا تنالوها بسوء، فإذا فعلتم أخذكم شديد.

وفي سورة الشعراء تفسير أوضح قسم الماء الموجود في البلدة بين قومه وبين الناقة «هذه ناقة لها شرب ولكن شرب يوم معلوم» .

ثم ذكرهم بنعم الله عليهم، وبوجوب شكرها بعبادته تعالى وحده فقال:

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفآء من بعد عاد﴾ .

تذكروا أن الله جعلكم وارثين لأرض عاد، وأنزلكم منازل طيبة في أرضهم، فصرتم تتخذون من السهول قصورا فخمة، وتنحتون في الجبال بيوتا حصينة. اذكروا نعم الله تعالى اذا مكنكم في الأرض ذلك التمكين، ولا تيعيثوا فيها مفسدين.

وعلى ذلك أجاب أهل الصدارة، والزعامة، مخاطبين الذين آمنوا من المستضعفين متهكمين عليهم: أتعتقدون أن صالحا مرسل من ربه؟ فأجابهم اهل الحق: نحن مصدقون بما أرسل به صالح.

قراءات:

قرأ ابن عامر: «وقال الملأ» بالواو.

﴿قال الذين استكبروا إنابالذي آمنتم به كافرون﴾ .

فرد عليهم المستكبرون: إنا جاحدون ومنكرون للذي آمنتم وصدقتم به من نبوة صالح هذه.

ثم لج العناد بأولئك المستكبرين، فتحدوا الله ورسوله، وذبحوا الناقة **وتمردوا** وتجاوزوا الحقد في استكبارهم، وقالوا متحدين: يا صالح، ائتنا بالعذاب الذي وعدتنا «إن كنت من المرسلين» عندئذ «فاخذتهم» الرجفة «أي دمرتهم الزلازل الشديدة، ومن ثم» فأصبحوا في دراهم جاثمين «باتوا مصعوقين جثثا هامدة لا حراك بها، واصبحت ديارهم خاوية على عروشها الى الآن.

روى الامام احمد والحاكم عن جابر قال: لما مر رسول الله A بالحجر في غزوة تبوك – قال لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح، فكانت الناقة ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما، ويشربون لبنها يوما، فعقروها، فأخذتهم صحية أحمد الله من تحت أديم السماء منهم.." (١)

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٥٦/٢

"اخذنا آل فرعون: عاقبناهم وجازيناهم. آل فرعون: قومه وخاصته واعوانه. بالسنين: بالجذب والقحط. بالحسنة، المراد هنا: الخصب والرخاء، وبالسيئة: ما يسوؤهم من جدب او مصيبة يطيروا: يتشاءموا، لأن العرب كانت تتوقع الخير والشر من حركة الطير، فاذا طار من جهة اليمين تيمنت به ورجت الخير والبركة، واذا طار من الشمال تشاءمت وتوقعت الشر، وسموا الشؤم طيرا وطائرا والتشاؤم تطيرا. الطوفان: كثرة المياه وطغيانها وتخريبها الارض والزرع. القمل (بضم القاف وفتح الميم المشددة) : حشرة صغيرة تلصق بالحيوانات وتؤذيها. وتطلب ايا على حشرة تقع في الزرع فتأكل السنبلة وهي غضة. والجراد معروف، وكذلك الضفادع الدم: الرعاف يصيب الناس.

ولقد عاقبنا فرعون وقومه بالجدب والقحط وضيق الميعشة، بنقص ثمرات الزروع والأشجار. . . رجاء ان ينتبهوا الى ضعفهم وعجز ملكهم الجبار أمام قوة الله، فيتعظوا ويرجعوا عن ظلمهم، ويستجيبوا لدعوة موسى عليه السلام.

ولكن فرعون واعوانه أخذهم الاغترار بقوتهم وجبروتهم. كانوا اذا جاءهم الخصب والرخاء قالوا: نحن المستحقون له لما لنا من الامتياز على الناس. ان اصبهم ما يسوؤهم، كجدب او مصيبة في الابدان والرزاق، قالوا: انما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه. لقد غفلوا عن ظلمهم لقوم موسى كما غفلوا عن فجورهم فيما بينهم. ألا فلغلموا ان ما نزل بهم كان من عند الله، وبسبب أعمالهم القبيحة، لا نحسا رافقهم لسوء طالع موسى ومن معه. ولكن أكثرهم لا يعلمون حكمة الله في تصرفه مع خلقه.

ثم اخبر الله تعالى عن شدة تمرد فرعون وقومه وعتوهم، وإصراهم على الجحود فقال:

﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا. . . .﴾ .

قالوا ذلك لموسى: مهما جئتنا أيها الرجل بانواع الآيات التي تستدل بها على حقيقة دعوتك، كيما تصرفنا عما نحن عليه من ديننا، ومن استعباد قومك– فلن نصدقك او نتبع رسالتك التي تدعيها.

فأنزل الله عليهم مزيدا من المصائب والنكبات، بالطوفان الذي يغشى اماكنهم وبالجراد الذي يأكل زروعهم، وبالقمل الذي يهلك حيواناتهم وسنابل غلتهم، وبالضفادع التي تنشر فتنغص عليهم حياتهم، وبالدم الذي ينزف منهم ولا يتوقف نزيفه– أصابهم الله بهذه المصائب، فلم يتأثروا بها. لقد قست قلوبهم، وفسد ضميرهم، فعتوا عن الإيمان والرجوع الى الحق، وأصروا على الذنوب «وكانوا قوما مجرمين» موغلين في الإجرام كما هو شأنهم.." (١)

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢/٦٩

"القرية: أيلة. حاضرة البحر: على شاطئه، قريبة منه يعدون في السبت: يخالفون امر الله بالصيد المحرم عليهم يوم السبت. يوم سبتهم: يوم عطلتهم وراحتهم شرعا: ظاهرة على وجه الماء نبلوهم: نختبرهم. امة منهم: جماعة منهم معذرة الى ربكم: اتعذروا الى ربكم نسوا ما ذكروا به: تركوه بئيس: شديد. عتوا: تكبروا وعصوا. خاسئين: اذلاء صاغرين.

هذه الآية الى قوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم. . . . لعلكم تتقون﴾ مدنية نزلت في المدينة، وقد ضمت الى هذه السورة المكية في هذا الموضع، تكلمة للحديث عما ورد فيها من قصة بين اسرائيل.

وهنا عدل في أسلوب الحكاية عن ماضي بني اسرائيل، إلى أسلوب المواجهة لذراريهم التي كانت تواجه رسول الله A في المدينة وتحاروه وتجادله.

يأمر الله تعالى رسلوه الكريم ان يسأل يهود المدينة المنورة في زمانه عن هذه الواقعة المعلومة لهم من تاريخ أسلافهم، وهو يواجههم بهذا التاريخ باعتبارهم أمة متصلة الأجيال، ويذكرهم بعصيانهم القديم، فيقول:

اسأل أيها النبي اليهود المجاورين لك في المدينة عن فعل اهل القرية التي كانت على شاطئ البحر، كيف كان يفعل أسلافهم فيها فيخالفون أوامر الله بصدد صيد السمك يوم السبت. كانت تأيتهم الحيتان ظاهرة على وجه الماء يوم السبت، مع أنهم مأمورون بالتفرغ فيه للعبادة، وأما في غير السبت فلم تكن تأتيهم، كل ذلك ابتلاء واختبار من الله ليظهر المحسن من المسيء منهم.

وقد انقسم سكان القرية الى ثلاث فرق: فرقة كانت تحتال على صيد السمك يوم السبت الذي حرم عليهم الصيد فيه، وفرقة كانت تحدذر هؤلاء العصاة مغبة عملهم واحتيالهم وتنكر عليهم ذلك، وفرقة اخرى تقول لهؤلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: ما فائدة تحذيركم لهؤلاء العصاة- وهم لا يرجعون عن غيهم وعصيانهم؟ لقد كتب الله علهيم الهلاك والعذاب! وذلك قوله تعالى:

﴿وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا. . .﴾ .

وإذ قالت جماعة من صلحاء أسلافهم لمن يعظون أولئك الأشرار، لأي سبب تنصحون قوما سيهلكهم الله بسبب ما يرتكبون من مخالفات، أو يعذبهم في الآخرة عذابا شديدا؟ لم تعد هناك جدوى لنصحهم وتحذيرهم.

قالوا: لقد وعظناكم اعتذارا الى الله، وأدينا واجبنا نحوه، لئلا ننسب الى التقصير، ولعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيستثير فيها وجدان التقوى.

فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون وأعرضوا عنه، أنجينا الذين ينهون عن المنكر من العذاب، وأخذنا الذين

ظلموا بعذاب شديد بسبب تماديهم في الفسق، والخروج عن طاعة الله.

﴿فلما نسوا ما ذكروا به. . .﴾ .

فلما تمردوا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه، ولم يردعهم العذاب الشديد جعلناهم كالقردة في مسخ قلوبهم، وعدم توفيقهم لفهم الحق، فكانوا قردة مهينين، وانتكسوا الى عالم الحيوان حين تخلوا من خصائص الانسان.." (١)

"أفلا يعتبر المنافقون والكافرون بحال الذين سبقوهم ممن ساروا في نفس الطريق الخاطئة، عصوا رسلهم وخالفوا أمر ربهم فأخذهم العذاب!! ومن هؤلاء «قوم نوح» وقد غمرهم الطوفان وأغرقهم، وقوم «عاد» وقد أهلكوا بريح صرصر عاتيه، و «ثمود» وقد أخذتهم الصحية، و «قوم ابراهيم» وقد أهلك الله طاغيته المتجبر الذي حاول إحراق ابرهيم، «واصحاب مدين» وقد اصابتهم الرجفة وخنقتهم الظلة، «والمؤتفكات» قرى قوم لوط، وقد جعل الله عاليها سافلها وقطع دابرهم. ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين «أتتهم رسلهم بالبينات» فكذبوا بها، فأخذهم الله بذنوبهم!! ، لقد ظلموا انفسهم بكفرهم وتمردهم على الله، وإن كثيرا ممن سبتليهم الله بالقوة والنعمة لتغشى ابصارهم وبصائرهم غشاوة، فلا يبصرون مصارع الاقوياء قبلهم.." (٢)

"ضرارا: لمحاولة الضرر. ارصادا: ارتقابا. على شفا: على حرف. جرف: جانب الوادي هار: متداع آيل للسقوط.

سبب نزول هذه الآيات انه كان في المدينة رجل اسمه ابو عامر الراهب، قد تنصر في الجاهلية وقرأ التوراة. وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرق كبير بين قومه من الأوس والخزرج، فلما قدم الرسول الى المدينة دعاه الى الله وقرأ عليه القرآن، فأبى أبو عامر أن يسلم وتمرد، فدعا عليه الرسول أن يموت طريدا. . . فنالته الدعوة مات في بلاد الروم.

وقد تجمع حوله جماعة من المنافقين، ورأوا ان افضل وسيلة يكيدون فيها للإسلام ونبيه الكريم أن يبنوا مسجدا تحت شعار الدين، ثم يعملون للكفر بالله ورسوله، ولهدم الإسلام، والإضرار بالمسليمن وتفريق كلمتهم.

وقد بنوا المسجد وفرغوا منه قبل خروج النبي A الى تبوك، وجاؤوا فسألوه ان يصلي في مسجدهم ليكون

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٨٥/٢

(٢) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٥١/٢

ذلك ذريعة الى غرضهم، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية. فقال لهم الرسول الكريم: إنا على سفر، ولكن اذا رجعنا إن شاء الله.

وقبل ان يصل المدينة في رجوعه من تبوك نزلت عليه هذه الايات، فبعث بعض أصحابه وأمرهم أن يهدموا ذلك المسجد، ففعلوا.

أما أبو عامر الفاسق كما سماه الرسول فإنه لما رأى الاسلام في ظهور وارتفاع – هرب إلى هرقل ملك الروم يستنصره. فوعده هذا وأقام أبو عامر عنده، وكتب الى جماعة من اهل النفاق في قومه يعدهم بانه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله، وامرهم ان يتخذوا معقلا يقدم عليهم فيه، ويكون له مرصدا بعد ذلك فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء كما تقدمت قصته، وهلك ابو عامر ولم يعد.

وابو عامر هذا من الأوس، لكنه ورد في تفسير ابن كثير انه من الخزرج. . وقديما كانوا يسمون الأوس والخزرج باسم «الخزرج» .

هذا هو مسجد الضرار الذي اتخذ على عهد رسول الله مكيدة للاسلام والمسلمين.

﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ .

من المنافقين جماعة بنوا مسجدا لا يبتغون به وجه الله، وأنما لإلحاق الضرر والتفريق بين جماعة المؤمنين. وسحلفون على انهم ما ارادوا ببناء هذا المسجد إلا الخير والعمل الأحسن، لكن الله يشهد عليهم أنهم كاذبون في أيمانهم.

﴿لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه﴾ .

لا تصل أيها الرسول في هذا المسجد ابدا. إن المسجد الذي أقيم على التقوى ابتغاء لوجه الله، وطلبا لمرضاته، من اول يوم- هو أحق من غيره ان تصلي فيه وتؤدي شعائر الله وهو مسجد قباء.." [١]

"فأنى تصرفون: كيف تعدلون عن عبادة الله. انى تؤفكون: كيف تصرفون وتعدلون عن عبادة الله.

بعد عرض يوم الحشر وما فيه، وكيف تكشف الأعمال وتسقط الدعاوي والأباطيل، يؤكد الله هنا قدرته، وأنه مالك كل شيء، يدبر الأمر في هذا الكون، ويسأل: كيف بعد هذا كله يعدلون عن عبادته!!

﴿قل من يرزقكم من السمآء والأرض أمن يملك السمع والأبصار﴾ .

قل لهم أيها الرسول: من الذي يأتيكم بالرزق من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بما تنبته من شتى أنواع

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٦٨/٢

النبات والثمر؟ من الذي يمنحكم السمع والبصر، وانتم بدونها لا تدرون شيئا!! وقد خص هاتين الحاستين، لأنهما أهم الحواس.

﴿ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ .

من ذا الذي بيده أمر الموت والحياة، فيخرج النبات الحي من الأرض الميتة، ويخرج الميت من الحي فيما تعرفون من المخلوقات وما لا تعرفون!؟ .

﴿ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ .

من الذي يصرف جميع أمور هذا الكون بقدرته وحكمته؟ . وهم يجيبون عن هذه الأسئلة الخمسة بأن فاعل هذا كله هو الله وحده، فقل لهم ايها الرسول: إذن، أفلا تخافونه وتتقون سخطه وعذابه، وتتركون عبادة غيره وترجوعن اليه!!

﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾ .

ان المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو الله المربي لكم بنعمه والمدبر لأموركم، وهو الحق الثابت بذاته، والذي تجب عبادته دون سواه. ليس بعد الحق من توحيد الله وعبادته الا الضلال، وهو الشرك بالله وعبادة غيره، فكيف تتحولون عن الحق الى الباطل!؟

﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ .

كما تحققت ألوهية الله ووجبت عبادته، حق قضاءه على الذين خرجوا **وتمردوا** على أمره، بأنهم لا يؤمنون. . . لأن الله تعالى لا يهدي إلى الحق إلا من سلك طريقه المستقيم.

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر: «حقت كلمات ربك» بالجمع، والباقون: «كلمة» كما هو في المصحف.

ثم أقام الله الحجة على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى من بدء الخلق واعادته فقال سبحانه:

﴿قل هل من شركآئكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون﴾ .

قل لهم أيها الرسول: هل من معبوداتكم من يستطيع أن ينشئ الخلق ثم يعيده بعد فنائه؟ سيعجزون عن الجواب، فقل لهم: الله وحده يفعل ذلك، فكيف تنصرفون عن الحق الواضح والايمان بالله!!." (١)

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢/١٩٠

"أيام الله: وقائعه في الأمم السابقة. يسومونكم: يذيقونكم أشد العذاب. ويستحيون: يبقون نساءكم أحياء والاسترقاق. تأذن: أعلم.

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنآ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ .

يذكر الله تعالى هنا بعض قصص الأنبياء، وما لا قوه من أقوامهم من الأذى **والتمرد** والناد تسلية للرسول الكريم والمؤمنين، وأن المقصود من إرسال الرسل هو هداية الناس وإخراجهم من الظلمات والضلال إلى النور والإيمان.

ولقد أرسلنا موسى مؤيدا بمعجزاتنا، وقلنا له: يا موسى، أخرج قومك من ظلمات الكفر والجهل الى نور العلم والايمان، وذكرهم بوقائع الله في الأمم السابقة، ان في لك التنبيه والتذكير دلائل عظيمة على وحدانية الله، تدعو كل من تحلى بالصبر والشكر الى الايمان.

﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سواء العذاب ويذبحون أبنآءكم ويستحيون نسآءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ .

واذكر أيها النبي لقومك لعلهم يعتبرون: اذكر ما قاله موسى لقومه يذكرهم بنعمة الله عليهم يوم أنجاهم من سوء العذاب الذي كانوا يلقونه من آل فرعون. فقد كان هؤلاء يذبحون الذكور من أولادهم حتى لايتكاثروا، ويبقون الإناث أحياء للخدمة والاسترقاق. . . وفي ذلك كله ابتلاء واختبار شديد.

ويمضي موسى يبين لقومه ما رتبه الله جزاء على الشكر والكفران:

﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ .

واذكروا يا بني إسرائيل حين أعلمكم ربكم أن الشكر على ما أنعم يجلب زيادة الخير، وأن جحود النعمة يوجب العذاب الشديد.

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد﴾ .

ان الله تعالى غني بذاته محمود بذاته لا بحمد الناس وشكرهم، واذا كفر جميع أهل الأرض فلن يضروا الله شيئا، انه غني حميد.." (١)

"المترفون: المنعمون **المتمردون** الذين لا يبالون. امرنا مترفيها: بالطاعة، ففسقوا. فدمرناها: اهلكناها. العاجلة: الدنيا. يصلاها: يدخلها ويقاسي حرها. مدحورا: مطرودا. محظورا: ممنوعا.

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢/٢٨٤

﴿وإذآ أردنآ أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ .
الحياة لها قوانين لا تخلتف، وسنن لا تتبدل كما بين الله لنا ذلك، والله لا يأمر بالفسق والفحشاء، ولكن اذا كثر الفساد في مجتمع ما، وطغى كبراؤه بالانغماس في اللذات واتباع الشهوات، ولمن يوجد من يضع حدا لهذه الفوضى، ويضرب على ايديهم – نزل بلاء الله بهم وهلكت القرية ودمرت بمن فيها.
ويوضح هذا قراءة الحسن البصري: أمرنا مترفيها، بتشديد الميم. وبذلك تكون الصورة واضحة تمام الوضوح، والناس دائما تبع للمترفين من السادة والرؤساء.
قراءات:
قرأ يعقوب: امرنا بمد الهمزة. وقرأ حسن البصري: «امرنا» بالتشديد وهي ليست من القراءات السبع المعتمدة.
﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾ .
وقد أهلكنا أمما كثيرة من بعد نوح، **بتمردهم** على انبيائهم وجحودهم آيات الله، وحسبك ايها الرسول بيان ربك إعلامه بأن الله عالم بكل شيء، وهو الخبير بذنوب عباده البصير بها. وفي هذا تهديد ووعيد لمن كذبه من قومه.
ثم قسما لله عباده قسمين: محب للدنيا لا يشبع منها، ومؤمن مخلص محب للآخرة:
﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشآء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا﴾ .
من كان يطلب لذات ومتاعها ويعمل لها ولا يؤمن بالآخرة عجلنا له في الدنيا ما نشاء من الغنى والسعة في العيش، وله في الآخرة جهنم يصلاها خالدا محتقرا مطرودا من رحمة ربك.
﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا﴾ .
ومن اراد بعمله الآخرة، وعمل لها وهو مؤمن بالله وجزائه فاولئك يقبلهم بالله تعالى، وينالون عنده خير الثواب.
ثم بين الله تعالى ان عطاءه لا يخطر على بال احد فقال:
﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطآء ربك وما كان عطآء ربك محظورا﴾ .
ورزق الله وعطاؤه للناس اجمعين فكل من يعمل ويسعى يحصل على عطاء ربنا في هذه الدنيا، وما كان عطاء ربك ممنوعا من احد، مؤمنا كان او كافرا، ما داموا يعملون وينشطون في هذه الحياة.
﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ .

ان التفاوت في هذه الحياة المعيشة ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم ونشاطهم في الاعمال. وان تفاوتهم في الدار الآخرة درجات من تفاوتهم في الدنيا، فالآخرة هي التي تكون فيه الرفعة الحقيقية، والتفاضل الحقيقي.." (١)

"فسق عن امر ربه: خرج عن طاعته. فهم لكم عدو: العدو يطلق على الواحد والجمع. العضد: ما بين المرفق والكتف ومعناه هنا المعين المساعد والنصير. فدعوهم: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم. موبقا: حاجزا فيه الهلاك. الموبق: المهلك، وبق يبق وبوقا: هلك. مواقعوها: واقعون فيها. مصرفا: مكانا ينصرفون اليه.

﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. . . .﴾ .

تقدم ذلك في الآية ٣٤ من سورة البقرة والآية ١١] من سورة الاعراف، والآية ٦١ من سورة الاسراء، وهي في كل موضع جاءت لفائدة ومعنى غير ما جاءت له في المواضع الأخرى، على اختلاف اساليبها وعباراتها المعنى المراد منها.

وهنا يشير الله تعالى الى أن الكفر والعصيان مصدرهما طاعة الشيطان، وابليس أعدى الأعداء. وقد خرج عن طاعة الله ولم يسجد لآدم سجود تحية وإكرام، مع ان الملائكة كلهم سجدوا وأطاعوا أمر ربهم، فعصى ربه عن امره. ومعهذا وبعد ان عرفتم عصيانه **وتمرده** على الله تتخذونه هو وأعوانه أنصارا لكم من دون الله، وهم لكم اعداء!

﴿بئس للظالمين بدلا﴾ بئس البدل للكافرين بالله اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دونه.

﴿مآ أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾ .

ما أطلعتهم على أسرار التكوين، وما احضرت إبليس ولا ذريته خلق السموات والارض وما أشهدت بعضهم خلق بعض لأستعين بهم، وما كنت في حاجة الى معين، وما كنت متخذ المضلين الجاحدين أعوانا وانصارا، تعالى الله الغني عن العالمين.

ثم اخبر سبحانه عما يخاطب به المشركون يوم القيامة على روؤ الاشهاد تقريعا لهم وتوبيخا فقال:

﴿ويوم يقول نادوا شركآئي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا﴾ .

اذكر لهم أيها الرسول يوم يقول الله للمشركين: نادوا الذين ادعيتم أنهم شركائي في العبادة ليشفعوا لكم كما زعمتم، فاستغاثوا بهم فلم يجيبوهم، وجعلنا بينهم حاجزا مهلكا، وهو النار. ورأى المجرمون النار بأعينهم، فأيقنوا انهم واقعون يها، ولم يجدوا عنها محيدا.

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢/٣٤٤

قراءات:

قرأ حمزة وحده: «ويوم نقول» بالنون، والباقون: «ويوم يقول» بالياء.." [1]

"واما الغلام الذي قتلته، فكان ابواه مؤمنين، وعلمت انه ان عاش فإنه سيكون سببا لكفرهما.

واراد ربك بقتله ان يعوضهما خيرا منه دينا واقرب برا ورحمة. واما الجدار الذي أقمته دون اجر، فكان لغلامين يتيمين من اهل المدينة، وكان تحته مال مدفون تركه ابوهما لهما، وكان رجلا صالحا، فاراد الله ان يحفظ لهما ذلك المال حتى يبلغا رشدهما ويستخرجاه، رحمة ربهما، وتكريما لأبيهما.

واعلم اني ما فعلت هذا كله بأمري واجتهادي من عندي نفسي، وانما فعلته بتوجيه من ربي، هذا تفسير ما خفي عليك يا موسى، ولم يستطع الصبر عليه.

قرأ نافع وابو عمرو: ان يبدلهما بتشديد الدال. وقرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم: رحما بضم الراء واسكان الحاء. والباقون: رحما بضم الراء والحاء.

اختلف المؤرخون والمفسرون في شخصية ذي القرنين، فقال كثير من المفسرين انه اسكندر المقدوني، وفي تاريخ ملوك حمير واقيال اليمن ان ذا القرنين هو تبع بن شمر يرعش. . وانه غزا بلاد الروم واوغل فيها حتى وصل الى وادي الظلمات.

وفي رواية انه الصعب بن تبع ابن الحارث ويلقب بذي القرنين، وروايات كثيرة، وكلها من باب الرجم بالغيب والظن الذي لا يغني عن الحق شيئا.

ويقول ابو الكلام أزاد في كتابه عن ذي القرنين انه «كورش الأكبر» مؤسس الاسرة الاخمينية، والذي يقول العقاد إننا اذا انعمنا النظر في التاريخ نجد ان اوصافه تنطبق على ما وصف به القرآن ذا القرنين، اذ كان ملهما وفاتحا عظيما، غزا الارض شرقا وغربا واقام سدا ليصد به هجمات المغيرين من «يأجوج ومأجوج» على بلاده. واما اسكندر المقدوني فقد كان وثنيا معروفا بالقسوة والوحشية، ثم ان الاسكندر لا يعقل ان يكون هو باني سور الصين، فهو اولا لم يصل الصين، بل عاد من الهند حيث تمرد عليه رجاله، وان سد الصين بني بعده بنحو مائة وعشرين سنة. ما بين سنة ٢٤٦ - ٢٠٩ قبل الميلاد وبانيه معروف وهو الملك «ش هو انجتي» . وطول سد الصين ٢٤٠٠ كيلو متر استغرق بناؤه سنين عديدة. وسيأتي الكلام على السد ومكانه قريبا.." [2]

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣٧٧/٢

(٢) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣٨٣/٢

"يذكر: يتذكر. لنحشرنهم: لنجمعنهم. جثيا: جمع جاث، وهو البارك على ركبتيه. شيعة: جماعة تعاونت على أمر واحد. عتيا: تكبرا، ويقال عتوا ايضا. صليا: دخولا. صلي النار دخلها وقاسى حرها. واردها: مار عليها. حتما: واجبا. مقضيا: جرى به قضاء الله.

بعد أن ارود الله قصص الأنبياء الكرام وغرابة مولد يحيى، وعيسى بن مريمن وذكر إبراهيم واعتزاله أباه، وهجره لقومه ووطنه، وذكر من خلف بعدهم من المهتدين والضالين، ثم جاء اعلان الربوبية الواحدة، التي تستحق العبادة بلا شريك، وهي الحقيقة الكبيرة التي يبرزها ذلك القصص بأحداثه ومشاهده وتعقيباته – يذكر هنا ما يدور من الجدل حول عقائد الشرك وإنكار البعث، ويعرض مشاهد القيامة، ومصير البشر في مواقف حية. ثم ينتقل السياق إلى ما بين الدنيا والآخرة.

﴿ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا. . . .﴾ .

ويقول الجاحد الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت متعجبا وم ستبعدا: كيف أبعث حيا بعد الموت والفناء!!
.

كيف يستغرب هذا الانسان قدرة الله على البعث في الآخرة، ولا يتذكر أنه تعالى خلقه في الدنيا من عدم، ولم يك شيئا!

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر وعاصم «اولا يذكر» باسكان الذال وضم الكاف. وقرأ الباقون: «أولا يذكر» بتشديد الذال المفتوحة وفتح الكاف.

ثم يعقب الله على هذا الانكار بقسم فيه تهديد كبير، اذ يقسم بنفسه أنهم سيحشرون بعد البعث.

﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين. . .﴾ .

فوربك الذي خلقك يا محمد لنجمعن الكافرين يوم القيامة مع الشياطين، الذين زينوا لهم الكفر، وسنحضرهم حول جهنم جاثين على ركبهم في ذلة وفزع.

ثم لنأخذن من كل جماعة أشدهم كفرا بالله، **وتمردا** عليه، فيدفع بهم قبل غيرهم الى أشد العذاب.

﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾ .

ونحن أعلم بالذين هم أحق بسبقهم الى دخول جهنم والاصطلاء بنارها. وأنهم جميعا يستحقون العذاب، لكننا ندخلهم في جهنم بحسب عتيهم وتجبرهم في كفرهم.

ثم خاطب الناس جميعا ليذكروا ويعتبروا:

﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾ .

وما أحد منكم أيها الناس إلا يدنو من جهنم، يراها المؤمن ويمر بها، والكافر يدخلها. . هكذا قضى ربك، وجعله أمرا محتوما.

ثم إننا نشمل المتقين برحمتنا، فننجيهم من شر جهنم، ونترك بها الذين ظلموا أنفسهم جاثين على ركبهم،، تعذيبا لهم، وجزاء ما اقترفوا وكذبوا.

قراءات:

قرأ الكسائي ويعقوب: ثم ننجي بضم النون الاولى واسكان الثانية، والباقون بضم النون الاولى، وفتح الثانية وتشديد الجيم. وقرأ ابن كثير: مقاما: بضم الميم الأولى والباقون: مقاما بفتح الميم.." [١]

"لأوتين: لأعطين. اطلع الغيب؟ : اظهر له علم الغيب. سنكتب ما يقول: سنسجل كل اقواله ونظهرها له يوم القيامة. ونمد له من العذاب: ونزيد له من العذاب. ونرثه ما يقول: ونسلبه كل ما عنده من مال وولد، وذلك لأنه يقول لأوتين مالا وولدا. ضدا: أعداء. تؤزرهم: تزعجهم. وفدا: وهم القادمون المكرمون. وردا: مشاة مهانين كأنهم دواب حين ترد الماء.

في صحيح البخاري ومسلم عن خباب بن الأرت قال: كنت حداد وكان لي على العاص بن وائل والد عمرو بن العاص، دين. فأتيته أتقاضاه منه فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد A حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي مال وولد، فأعطيك. فأنزل الله تعالى: ﴿أفرأيت. . الآية﴾ .

وقول العاص هذا نموذج من تهكم الكفار واستخفافهم بالبعث. فالقرآن هنا يعجب من هذه الجرأة والاستخفاف.

انظر ايها الرسول الى حال هذا الجاحد المتكبر. واعجب من مقاله الشنيع، وجرأته على الله إذ قال: سيكون لين مال وولد في الآخرة. هل اطلع هذا الكافر على الغيب، حتى يتجرأ ويقول ما قال، ام أخذ من الله عهدا بذلك!!

«كلا» ، وهي لفظة نفي وزجر، ليس الأمر كذلك. إنه لم يطلع على الغيب ولم يأخذ عند الله عهدا، عليه كل أقواله، ونزيده من العذاب ونطيله عليهم في جهنم.

﴿ونرثه ما يقول. . . . . يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا﴾ .

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢/٤٠٠

ونسلبه ما عنده من المال والولد وكل ما يعتز به في الدنيا، ويأتي في الآرخرة وحيدا منفردا، لا مال معه ولا ولد ولا نصير.

أولئك الذين كفروا عبدوا غير الله آلهة مختلفة، لتكون لهم شفعاء يعتزون بها يوم القيامة. كلا: فسيكفر بهم الملائكة والجن وكل المعبودات، ويبرأون الى الله منهم، ويكونون لهم أعداء وخصوما.

ألم تعلم أيها الرسول أنا سلطنا الشياطين على الكافرين واستحوذوا عليهم، يغرونهم بالمعاصي ويدفعونهم إلى التمرد والوقوع فيها.

فلا يضيق صدرك أيها الرسول بكفرهشم، ولا تستعجل لهم بالعذاب، فإنما نتركهم في الدنيا لمدة محدودة، ونحصي عليهم أعمالهم وذنوبهمن لنحاسبهم عليها في الآخرة.

ثم يبين الله ما يكون في ذلك اليوم، وكيف يستقبل المتقين بالتكريم، ويسوق المجرمين كالدواب.

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا﴾ .

اذكر أيها الرسول ذلك اليوم الذي نجمع المؤمنين فيه الى جنة الخلد وفودا مكرمين، كما نصوق المرجمين الى جهنم وندفعهم عطاشا كالدواب الواردين الى الماء، لا شفاعة لأحد في ذلك اليوم الا من قدم عملا صالحا، فهو عهد له عند الله ينجيه ويجعله من الفائزين.." (١)

"وهذه حقيقة واقعة، وذلك ان الحديد استعمل في عصر داود في صناعة الدروع.

قراءات:

قرأ ابن عامر وحفص: لتحصنكم بالتاء، وقرأ ابو بكر: لنحصنكم بالنون، والباقون: ليحصنكم بالياء.

﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين﴾ .

وسخرنا لسليمان الريح عاصفة شديدة الهبوب تارة ولينة رخاء تارة أخرى، تجري بحسب رغبته الى أي بقعة في أرض الشام المباركة، وكنا بكل شيء عالمين، لا تغيب عنا صغيرة ولا كبيرة.

﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾

وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في الماء الى أعماق البحار، ليستخرجوا له اللؤلؤ والمرجان، ويعملون له ما يريد من بناء الحصون والقصور والمحاريب والتماثيل كما جاء في سورة سبأ ١٢ ﴿يعملون

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢/٤٠٢

له ما يشآء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ ﴿وكنا لهم حافظين﴾ من **التمرد** على أمر سليمان، فهم لا ينالون أحدا بسوء.." [1]

"اتقوا ربكم: أطيعوه ولا تعصوه. الزلزة: حركة الأرض الشديدة. تذهل: تسلو وتترك الشيء من الدهش والخوف. المريد: الطاغي، الشرير. النطفة: كمية قليلة من ماء الرجل. العلقة: القطعة الصغيرة الجامدة من الدم. المضغة: القطعة الصغيرة من اللحم بقدر ما يمضغ. مخلقة: تامة الخلقة. غير مخلقة: غير تامة الخلقة. الى اجل مسمى: حين الوضع. لتبلغوا أشدكم: تكمل قوتكم. ارذل العمر: آخره مع الكبر والخرف بحيث لا يعرض شيئا. هامدة: يابسة لا حياة فيها. اهتزت: تحرك نباتها. وربت: ازاد نباتها نموا. من كل زوج بهيج: من كل صنف حسن يسر الناظرين.

﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمآ أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ .

تبدأ السورة بمطلع رهيب مخيف: يا أيها الناس، نداء الى جميع الخلق، احذروا عقاب ربكم، فأطيعوه ولا تعصوه. . إن زلزلة الساعة، وهي قيام بعد خراب هذا الكون – شيء مذهل. ففي ذلك اليوم يبلغ الأمر من الهول والدهشة، ان تذهل المرضعة عن ولدها فتتركه وتحاول ان تنجو بنفسها، وتسقط الحوامل ما في بطونها من الأجنة من الفزع. وترى الناس كأنهم سكارى مع أنهم ليسوا كذلك، لكن شدة الموقف وعظمة الساعة وما فيها من أهوال جعلتهم بهذا الحال، ﴿يوما يجعل الولدان شيبا﴾ [المزمل: ١٧] . ان الهول الذي يشاهدونه والخوف من عذاب الله الشديد هو الذي أفقدهم توازنهم، وجعلهم في حيوة مذهلة.

قراءات

قرأ حمزة والكسائي: سكرى، والباقون: سكارى.

وبعد ان أخبر الله تعالى ما فيه القيامة من أهوال وشدائد، ودعا الناس الى التقوى والعمل الصالح، بين أنه مع هذا التحذير الشديد فإن كثير من الناس ينكرون هذا البعث، ويجادلون في امور الغيب بغير علم فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾

مع هذا التحذير الشديد، فإن بعض الناس يدفعه العناد الى الجدل في الله وصفاته، لا يستند في جدله وإنكاره الى علم صحيح أو حجة صادقة، ولكنه يقلد ويتبع خطوات كل شيطان **متمرد** على ربه، شرير دأبه

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٤٤٢/٢

الفساد والضلال.

ولقد قرر الله وقضى أن كل من اتبع ذلك الشيطان، وسلك سبيله – أضله الشيطان عن طريق الحق، ووجهه الى الباطل المفضي به الى عذاب جهنم.

﴿ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾

يا أيها الناس إن كنتم في شك من بعثكم من القبور بعد الموت يوم القيامة، فانظروا الى خلقكم. لقد خلناكم من تراب. ثم جعلنا منه نطفة سغيرة حولناها بعد مدة الى علقة، أي قطعة صغيرة من الدم، ثم الى مضغة وهي قطعة صغيرة من اللحم، تارة تكون تامة الخلقة، وتارة غير مخلقة.." (١)

"تمنى: تمنى الشيء أراده: وحدث نفسه بما يكون وما لا يكون. وتمنى: سأل ربه: وفي الحديث: اذا تمنى أحدكم فليستكثر. وتمنى الكتاب: قرأه. ينسخ: يبطل. يحكم: يجعلها محكمة مثبتة. في مرية: في شك. يوم عقيم: منفرد لا شبيه له. مهين: مذل.

﴿ومآ أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ .

إن اغلى أمنية لأي رسول أو نبي هي ان يعرف الناس حقيقة رسالته ويفهموها ويدركوا أهدافها ليهتدوا بها، فلا حزن أيها الرسول من محاولات هؤلاء الكفار أرباب الأطماع، فقد جرت الحوادث من قبلك مع كل رسول ونبي من أنبيائنا أنه كلما قرأ عليهم شيئا يدعوهم به الى الحق تدى له شياطين الانس **المتمردون** لإبطال دعوته وتشكيك الناس فيما يتلوه. وذلك لكي يحولوا دون تحقيق أمنيته في إجابة دعوته، فينسخ الله ما يدبرون، ثم يثبت شريعته وينصر رسله، ويجعل آياته محكمة لا تقبل الرد. انه عليم باحوال الناس ومكايدهم، حكيم في أفعاله يضع كل شيء في موضعه.

وجاء في كثير من التفاسير رواية منسوبة الى ابن عباس، ان النبي A تلا على قريش سورة النجم، ولما بلغ قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان في تلاوة الرسول: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى» . فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به. ولما سجد الرسول سجد المسلمون والشمركون جميعا بسجوده. . . . فنزلت هذه الآية والآيات الثلاث التي بعدها.

وهذه الرواية مكذوبة لا اصل لها ولم ترد في كتاب من الكتب الموثوقة، وليس لها سند صحيح. بل إنها من وضع الكذابين المشككين في الدين.

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢/٤٤٩

وقد كذبها العلماء. . . قال القاضي عياض في الشفاء: ان هذا لم يخرجه أحد من أهل الصح، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل.

وقال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي A بإسناد متصل.

وقال الفخر الرازي في تفسيره: هذه الرواية باطلة موضوعة عند اهل التحقيق.

وقال الامام ابو بكر البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل.

وهذه السورة مدنية فكيف نوفق بينها وبين سورة النجم وهي مكية ومن اوائل ما نزل بمكة! ولا أعتقد بصحة ما يقوله بعض المفسرين أن هذه الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥ من سورة الحج مكية، فإنهم قالوا إنها مكية حتى توافق هذه الرواية الباطلة.

﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾

إن الشيطان ليجد الفرصة مهيأة أمامه ليلقي الفتنة في نفوس أوليائه الذين في قلوبهم مرض من نفاق او انرحاف، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين، فيجدون في مثل هذه الأقوال مادة للجدل والشقاق **والتمرد** على أحكام الله.." (١)

"ناكبون: زائغون، عادلون عن الرشاد. للجوا: لتمادوا فيه. يعمهون: يتحيرون، يترددون في الضلال. استكانوا: خضعوا وذلوا. مبلسون: آيسون من كل خير. انشأ: خلق. ذرأكم في الارض: خلقكم وبثكم فيها.

﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾

وأنت يا محمد على الحق الذي لا معدل عنه، وتدعو هؤلاء المشركين الى الدين القيم الموصل الى السعادة الأبدية.

﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ .

ان الذين لا يصدقون بك، ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وبقيام الساعة، لزائغون عن الحق، ومائلون عن النهج القويم، وضالون عن الطريق المستقيم.

﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾

لقد بلغوا في **التمرد** والعناد حدا لا يرجى معه صلاحهم، فلو رحمناهم وأزلنا عنهم ما نزل بهم من ضرر في أبدانهم وقحط في أموالهم – لزادوا كفرا في طغيانهم يترددون في الضلال.

﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ .

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢/٤٦٤

ولقد عذبناهم بأنواع كثيرة من العذاب منها قتل زعمائهم يوم بدر، والقحط الذي أصابهم، وغير ذلك – فما خضعوا لربهم وما تضرعوا، بل أقاموا على عتوهم واستكبارهم. . . . لم ينفع معهم الإنذار ولا التحذير.
ثم بين الله عاقبة أمرهم وما يكون من حالهم إذا جاءت الساعة فقال:
﴿حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾
حتى إذا جاء أمر الله، وجاءتهم الساعة ووقفوا بين يدي الله، وأخذهم من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون – أيسوا من كل خير وانقطعت آمالهم وخاب رجاؤهم.
﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾
ثم يبين الله تعالى بعض ما أنعم على خلقه لعلهم يتذكرون: كيف تكفرون بالله وهو الذي انشأ لكم السمع لتسمعوا الحق! والأبصار لتروا الكون وما فيه من عجائب! والعقول لتدركوا عظمته فتؤمنوا به! ومع كل هذه النعم فإنكم لم تشكروها ولم تؤدوا واجبها.
﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾
وهو الذي خلقكم وبثكم في هذه الأرض تستثمرون خيراتها، وإليه وحده تحشرون يوم القيامة. وهو الذي يحيي ويميت، وبأمره وقوانينه يتعاقب الليل والنهار طولا وقصرا، فهل بعد كل هذه الدلائل، وهذه النعم تجحدون!!." (١)

"ليستخلفنهم: يجعلهم خلفاء في الحكم على هذه الارض. وليمكنن لهم دينهم: يثبت لهم الاسلام الذي ارتضاه لهم دينا.
﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات. . . .﴾
وعد الله المؤمنين الصادقين في إيمانهم العاملين المجاهدين لجعل الاسلام هو الحاكم في الأرض – أن ينصرهم ويجعلهم حكام الأرض، كما فعل مع المؤمنين الذين سبقوهم. كما وعدهم ان يرسخ دعائم دينهم الذي ارتضاه لهم، وان يبدل حالهم من الخوف الذي عاشوا فيه عند بداية الإسلام الى أمن واستقرار وعز، وبشرط ان يعبدوا الله وحده.
وقد تحقق هذا الوعد لأسلافنا، وهو قائم الى الأبد إذا نحن أقمنا على شرط الله بأن نصدق في إيماننا، ونسير على منهاج ديننا. ان وعد الله حق قائم وشرط الله حق معروف،

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٤٨٢/٢

ومن أوفى بعهده من الله.!؟

والذين كفروا بعد هذا الوعد الصادق، هم الخارجون **المتمردون**، وحسابهم على الله.

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. . . .﴾

وبعد الوعد الصادق للمؤمنين بالنصر واستخلافهم في الأرض يأتي الأمر بإقامة الصلاة وايتاء الزكاة عن طيب خاطر لمستحقيها، واطاعة الرسول E في سائر ما أمرنا الله به حتى يكون لنا رجاء في رحمته ورضوانه. ثم بين الله بعد ذلك أن الكافرين لا قيمة لهم، وانه سيحل بهم العذاب، ولا يجدون مهربا مما أوعدهم به ربهم، وأن مصيرهم النار وبئس القرار.

قراءات

قرأ أبو بكر: كما استخلف، بضم التاء وكسر اللام. والباقون: كما استخلف بفتح التاء واللام. وقرأ ابن عامر وحمزة: لا يحسبن بالياء. والباقون: لا تحسبن بالتاء. وقرأ ابن كثير وابو بكر: وليبدلنهم باسكان النون. والباقون: وليبدلنهم بالتشديد.." [1]

"لا يرجون: لا يخافون ولا يتوقعون. واستكبروا في أنفسهم: تكبروا، تمكن الكبر من نفوسهم. وعتوا عتوا كبيرا: **تمردوا**، وتجاوزا حد كبيرا في الظلم. لا بشرى لهم: سوف يكون ذلك اليوم مصدر ازعاج لهم لا بشارة فيه. حجرا محجورا: تعبير تقوله العرب عندما ينزل بهم مكروه، ومعناه نسأل الله ان يمنع ذلك منعا، ويحجره حجرا. وقدمنا الى ما عملوا: ونأتي الى ما عملوه. هباء منثورا: غبارا متفرقا لا قيمة له. خير مستقرا: افضل مكان يستقر فيه. وأحسن مقيلا: وأحسن مكان للراحة والقيلولة.

وقال الذين ينكرون البعث، ولا يتوقعون لقاءنا: لماذ لا تنزل علينا الملائكة فيخبرونا بأن محمدا صادق فيما يدعي؟ ولماذا لا نرى الله فيخبرنا بأنه أرسلك؟ لقد استكبروا ووضعوا أنفسهم في مكان لا يستحقونه، وتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان.

ثم بين الله انهم سيلقون الملائكة يوم القيامة، ولكن ذلك اليوم لن يسرهم ولن يكون لهم فيه بشارة، وسوف يقولون لهم: لا بشرى لكم اليوم. ويومئذ يقولون: ﴿حجرا محجورا﴾ حراما محرما، وهي جملة تقال اتقاء للشر والأعداء، وذلك لا يعصمهم من العذاب.

﴿وقدمنآ إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هبآء منثورا﴾

ويوم القيامة نأتي الى ما عملوه من الخير فنحرمهم ثوابه ونجعله كالغبار المتطاير في الهواء، لا قيمة له ولا

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/٤

وزن.

﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾

وفي المقابل ستكون منازل اهل الجنة في ذلك اليوم خيرا من منازل المشركين، فهي أحسن الأماكن للاستقرار الدائم، وأعظمها راحة وسعادة.

﴿ويوم تشقق السمآء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا. . . .﴾

في ذلك اليوم يختلف كل نظام هذا العالم الذي نراه، فتنفرج السماء ويحشر الناس جيمعا. وعند ذلك تنزل الملائكة، ويكون الملك لله وحده، ويكون اليوم شديدا عسيرا على الجاحدين. يومئذ يتحقق الظالمون انهم كانوا على الباطل، فيعض الظالم منهم على يديه من الندم ويقول متمنيا: يا ليتني اتبعت الرسل وآمنت بهم. ثم ان ذلك الظالم يتحسر ويأسف ويقول: يا ليتني لم أصادق ذلك الصاحب الذي أضلنين وأبعدني عن الخير، وعن ذكر الله بعد ان يسره الله لي. لقد خذلني الشيطان. ولكن هذا كله لن ينجيه من العذاب.." (١)

"بجانب الغربي: هو جبل الطور في سيناء. قضينا: عهدنا اليه وكلفناه أمرنا ونهينا. فتطاول عليهم العمر: طال عليهم الأمد الذي بينهم وبين القرون الماضية. ثاويا: مقيما. وصلنا لهم القول: انزلنا متواصلا بعضه اثر بعض.

وما كنت يا محمد حاضرا بجانب الوادي الغربي الذي وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة إلى موسى حين عهد إليه امر النبوة، فكيف يكذب قومك برسالتك وانت تتلو عليهم انباء السابقين!؟ .

لقد كان ذلك منذ قرون طويلة انقطعت فيها الرسالات وطال الزمن فأتينا بك لقومك لتنذرهم برسالتك، وما كنت مقيما في «مدين» حتى تخبر أهل مكة بأنبائهم، ولكنا أرسلناك وأخبرناك بقصصهم واخبارهم.

ولم تكن ايها الرسول حاضرا في جانب الطور حين نادى اله موسى واصطفاه لرسالته، ولكن الله أعلمك بهذا القرآن رحمة منه بك وبأمتك، لتبلغه قوما لم يأتهم رسول من قبلك، ﴿لعلهم يتذكرون﴾ . وحتى لا يقول قومك حين تصيبهم كارثة بسبب كفرهم: يا رب، إنك لم ترسل إلينا رسولا يبلغنا فنتبعه ﴿ونكون من المؤمنين﴾ فأزحنا العذر وبعثناك ايها الرسول اليهم.

فلما جاء محمد بالحق قالوا **تمردا** وعنادا: هلا أوتي مثل ما أوتي موسى من المعجزات الحسية حتى نؤمن به! ويلهم، ألم يكفروا بموسى كما كفروا بك! وقالوا إنما انتما ساحران ينصر أحدكما الآخر ويعاونه.

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١١/٣

ثم امر رسوله ان يتحدى قومه أن يأتوا بكتاب أهدى من القرآن والتوراة للبشر وأصلح لحالهم فقال:

﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهمآ أتبعه إن كنتم صادقين﴾ .

ثم توعدهم لأنهم لم يستطيعوا ان يأتوا بالكتاب فقال:

﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوآءهم﴾

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله! ان الله لا يهدي الذين يظلمون أنفسهم بالتمادي في اتباع الهوى.

قراءات

قرأ اهل الكوفة: سحران بغير الف يعني القرآن والتوراة. الباقون: ساحران: يعني موسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام.." [1]

"تتلى: تقرأ. بينات: واضحات. يصدكم: يمنعكم. افك: كذب، واختلاق. معشار: عشر. نكيري: انكاي. مثنى: اثنين اثنين. فرادى: واحدا واحدا. ما بصاحبكم من جنة: ليس صاحبكم مجنونا. بين يدي عذاب: امام عذاب. يقذف بالحق: يلقي بالحق. ما يبتدىء الباطل: ما يبتدىء الباطل. وما يعيد: وما يكرره.

بعد ان ذكر الله ان المشركين هم أهل النار يوم القيامة حيث قال لهم: ذوقوا عذابها الذي كنتم به تكذبون – أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا العذاب، وهو صدهم الناس عن دعوة الرسول الكريم، وأنهم إذا قرأ الرسول عليهم آياتنا واضحات، قالوا: هذا رجل يريد ان يمنعكم عبادة ما كان يعبد آباؤكم من الاصنام، فقوله كذب مفترى، وسحر مبين، وخداع ظاهر، واننا لم نؤتهم كتبا قبل القرآن يدرسونها، وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير.

﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار مآ آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ .

لقد كذب الرسل قبلكم كثير من الأمم، وكانوا اكثر منكم قوة ومالا، ولم تبلغوا أيها المشركون معشار ما منحنا أولئك من القوة والمنعة، ومع ذلك أخذهم الله بظلمهم **وتمردهم**، وأهلكهم أجمعين.

﴿قل إنمآ أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾

قل لهم ايها الرسلو: إنما أعظكم بخصلة واحدة هي: ان تقوموا مخلصين لله بعيدين عن التقاليد والأهواء،

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/٥٤

وفكروا بجد مجتمعين ومتفرقين بأن صاحبكم ليس مجنونا، وما هو الا نذير لكم أما عذاب شديد قادم عليكم.

وقل ايها الرسول: ما سألتكم أجرا على هذه الرسالة التي أحملها اليكم لإصلاح أمركم، خذوا انتم الأجر، وما أجري الا على الله وهو كل شيء رقيب مطلع.

﴿قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾

قل ايها الرسول: ان – الله يلقي بالحق على من يصطفيه، وهو يرمي بهذا الحق في وجه الباطل فيمحقه. إنه هو علام الغيوب، لا يخفى عليه هدف، ولا تغيب عنه غاية.

﴿قل جآء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾

قل ايها لارسول: لقد جاء هذا الحق في الرسالة والقرآن وفي منهجهما المستقيم، وقد انتهى أمر الباطل، وهلك الشرك وما عادت له حياة ولم تبق منه بقية تبدي شيئا او تعيده.

﴿قل إن ضللت فإنمآ أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب﴾

قل ايها الرسول: ان ضللت وانحرفت عن الهدى فإنما ضرر ذلك يعود على نفسي، وان اهتديت فبإرشاد ربي، وبوحيه وتوفيقه، غنه سميع لقولي وقولكم، قريب مني ومنكم، والخير كله منه.." [١]

"الدابة: كل حيوان يدب على الأرض بما فيه الانسان.

أولم يسر هؤلاء المشركون أثناء رضحلاتهم الى الشام ويروا الأرض التي اهلكنا فيها أهلها بكفرهم وجعلناهم مثلا لمن بعدهم. لقد كان أولئك أقوى منهم واغنى فلم تمنعهم قوتهم من عذاب الله.

﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا﴾

وهذا تهديد لهم أنهم إذا ساروا على **تمردهم** وعنادهم فمصيرهم مصير منسبقهم، وان هذا سهل عليه، ولا يعجزه شيء يريده في هذا الكون الكبير كله.

ولو يؤاخذ الله الناس بما يكسبونه من آثام وما يجرونه على أنفسهم من الفتن، ما ترك على ظهر الأرض دابة تدب عليها، ولكنه يؤخرهم الى يوم الحساب والجزاء، فإذا جاء موعدهم هذا فسيجازيهم بكل ما عملوا ولا يفلت من حسابه احد، إنه باعمال عباده بصير لا يخفى عليه شيء.." [٢]

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٢٦/٣

(٢) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٣٦/٣

"الصافات: جماعة الملائكة. فالزاجرات: من صفات أعمال الملائكة. فالتاليات: من صفات أعمالهم ايضا المشارق: مشارق الشمس وجميع الكواكب والنجوم، لن الشمس تشرق كل يوم من جهة، وكذلك المغارب لم يذكرها اكتفاء بتعدد المشارق. السماء الدنيا: اقرب سماء لنا. مارد: **متمرد**. الملأ: الجماعة يجتمعون على رأي، والمراد هنا الملائكة: يقذفون: يرجمون. دحورا: طردا وابعادا. واصب: دائم. خطف الخطفة: أخذ بسرعة على غرة. الشهاب: الشعلة من النار، والنجم المضيىء المنقض من السماء. ثاقب: مضيء.

أقسم الله سبحانه وتعالى بالملائكة المصطفين في مقام العبودية، الذين يردعون الناس عن الشر، ويتلون آياته على الأنبياء أن الله المعبود واحد، لا شريك له، هو رب السموات والأرض وما بينهما، ورب المشارق والمغارب.

وانه زين السماء الدنيا التي نراها بالكواكب وجعل هذه الكواكب حفاظا للسماء من كل شيطان **متمرد**، فلا يمكن للشياطين **المتمردين** التسمع الى ما يجري في عالم الملائكة، واذا أرادوا ذلك رجموا من كل جانب، وطردوا طردا عنيفا، ولهم عذاب شديد دائم، الا من اختلس الكلمة من أخبار السماء فإننا نتبعه بشهاب ثاقب يلحقه فيصيبه ويحرقه حرقا.

اما كيف يتم هذا كله فإننا لا نعرفه. . فهو من الغيبيات التي تعجز طبيعتنا البشرية عن تصور كيفياتها، ونصدق بها وبما جاء من عند الله.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر: بزينة الكواكب بجر زينة والكواكب مضاف اليه. وقرأ ابو بكر: بزينة الكواكب بنصب الكواكب وجر زينة منونا. والباقون: بزينة الكواكب بتنوين زينة مجردا وخفض الكواكب على البدل. وقرأ الكسائي وحمزة وخلف وحفص: لا يسمعون بفتح السين والميم وتشديدهما. وقرأ الباقون: لا يسمعون باسكان السين وفتح الميم بدون تشديد.." (١)

"باطلا: عبثا. ويل: هلاك. مبارك: كثير الخيرات. ليدبروا: ليتفكروا. وليتذكر: وليتعظ. اولو الالباب: أصحاب العقول المدركة.

يا داود إنا استخلفناك في الأرض، فاحكم بين الناس بام شرعت لك، ﴿ولا تتبع الهوى﴾ في الحكم وغيره من امور الدين والدنيا، فيحيد بك عن سبيل الله. ان الذين يضلون ويحيدون عن سبيل الله باتباع أهوائهم

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٤٦/٣

لهم عذاب شديد ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ . أيليق بحكمتنا وعدلنا ان نسوي بين المؤمنين الصالحين، وبين المفسدين في الأرض؟ ام يليق ان نسوي بين المتقين وبين **الفجارالمتمردين** على أحكامنا!؟
ان هذا الذي أنزلناه اليك كتاب مبارك كثير الخيرات، ليتدبروا آياته ويفهموها، وليتعظ به أصحاب العقول السليمة، والبصائر المدركة.." (١)

"الصافنات: جمع صافن من الخيل الأصائل، وغالبا ما يقف على ثلاث قوائم، ويرفع احدى يديه. الجياد: جمع جواد، وهو السريع العدو، كما ان الجواد من الناس هو السريع البذل والعطاء. حب الخير: حب الخيل. توارت: غابت عن الانظار. طفق: شرع. مسحا بالسوق والاعناق: جعل يمسح أعناقها وسوقها ترفقا بها وحبا لها. فتناه: ابتليناه. لا ينبغي لأحد بعدي: لا يليق بأحد بعدي. رخاء: لينة. حيث اصاب: حيث قصد وأراد. مقرنين بالأصفاد: مربوطين بالسلاسل، والاغلال. فامنن، أعط، وامسك: امنع.

ورزقنا داود ابنه سليمان، وكان عبدا مطيعا لربه يستحق كل ثناء ومدح. ومن أخباره انه عرضت ليه الخيل الأصيلة بالعشي لينظر اليها، ويسر برؤيتها، فأطال الوقوف عندها حتى اضاع وقت الصلاة، فلام نفسه:
﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾

والخير هنا هو الخيل، وهي من اجود المال عند العرب، و ﴿عن ذكر ربي﴾ عن الصلاة، حتى توارت الشمس بالحجاب. ثم امر بردها اليه فأخذ يمسح أعناقها وسوقها ترفقا بها وحبا لها.

وقال بعض المفسرين انه أخذ يضرب سوقها واعناقها بالسيف. ومن الصعب ترجيح رواية على الأخرى، ولكن ابن حزم لم يقبل رواية قتل الخيل. وكذلك الرازي والطبري، بل رأوا انه أخذ يمسح اعناقها وسوقها ترفقا بها وحبا لها.

لقد امتحنا سليمان فابتليناه بمرض شديد فألقيناه جسدا على كرسيه لا يستطيع تدبير الأمور، فتنبه الى هذا الامتحان، فرجع الى الله تعالى، وتاب ثم اناب، ودعا ربه بقوله ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ انك انت الكثير العطاء.

وهنا عند قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا﴾ تكلم المفسرون كلاما كثيرا وكله من الاسرائيليات لا صحة له، فأعرضنا عنه.

ثم اخبر الله بانه أجاب دعاءه ووفقه لما اراد وعدد نعمه عليه فقال:
﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخآء حيث أصاب﴾

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٦٢/٣

فذللنا له الريح تجري حسب مشيئته، رطبة هينة، الى اي جهة قصد. وتقدم في سورة سبأ: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر﴾ . وفي سورة الانبياء: ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره. . . .﴾ [الانبياء: ٨١] .

وذللنا له كل بناء في الارض، وغواص في أعماق البحار من الشياطين الأقوياء، حتى انه قرن قسما من الشياطين المتمردين في السلاسل والقيود، ليكف شرهم عن الناس. واوحى الله تعالى اليه بأن يتصرف في ملكه الواسع كما يشاء دون رقيب ولا حسيب فقال:

﴿هذا عطآؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾

هذا عطاؤنا الخاص بك، فأعط من شئت وامنع من شئت، غير محاسب على شيء من ذلك.

ثم بين ان له في الآخرة عند ربه مقاما كريما في جنات النعيم بقوله:

﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ ومرجع الينا.." (١)

"مآب: مرجع. جنات عدن: جنات الاقامة والاستقرار. قاصرات الطرف: عفيفات. أتراب: متساويات في الأعمار. فبئس المهاد: فساء الفراش. الحميم: شدة الحرارة، غساق: ما يسيل من صديد اهل النار. من شكله: من مثله. ازواج: الون. فوج: جمع كثير. لا مرحبا بهم: غير مرغوب فيهم، ولذلك لا يرحب بهم. زاغت عنهم: مالت عنهم.

هذا الذي قصصنا عليك أيها النبي، نبأ بعض المرسلين – تذكير لك ولقومك، وان الله اعطى المتقين حسن المرجع إليه، حيث أعد لهم جنات عدن أبوابها مفتحة اكراما لهم، يجلسون فيها متكئين على الأرائك مسرورين، يتمتعون فيها بأطيب انواع الفواكه، وخير الشراب، وعندهم ازواجهم من الحور العين القاصرات الطرف الفيفات، متساويات في العمر، على خير ما يرام من الوفاق والسعادة والسرور.

﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ أيها المؤمنون المخلصون، وهو بعض عطائنا الذي لا ينفد ولا ينتهي.

ثم بعد ان وصف ثواب المتقين وما أعد لهم، أردفه بوصف عقاب الطاغين، فقال: ان هذا النعيم لهو جزاء المتقين، وان للطاغين المتمردين لشر عاقبة، وسوء منقلب.

﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج﴾

هذا حميم بالغ الحرارة وصديد من نار جهنم، فليذوقوه. ولهم عذاب آخر في أشكال متعددة وانواع متشابهة في شدتها وقسوتها.

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/١٦٣

ويقال للطاغين وهم رؤساء المشركين: هذا جمع كثير داخلون النار معكم يقتحمونها فوجا اثر فوج، وهم اتباعكم، فيقول هؤلاء الرؤساء: ﴿لا مرحبا بهم إنهم صالو النار﴾ وداخلون فيها غير مرحب بهم.

ثم يرد عليهم الداخلون من الاتباع ويقولون لهم: ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم﴾ لأنكم الذين قدمتم لنا هذا العذاب بإغرائكم لنا ودعوتنا الى الكفر، ﴿فبئس القرار﴾ لكم في جهنم.

ثم يزيد الأتباع بدعائهم على رؤساء الضلال قائلين: يا ربنا، من تسبب لنا في هذا العذاب فزده عذابا مضاعفا في النار. وفي سورة الاعراف ٣٨ ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿وقالوا ربنآ إنآ أطعنا سادتنا وكبرآءنا فأضلونا السبيلا ربنآ آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا﴾ [الاحزاب: ٦٧، ٦٨] .

ثم يتساءل اهل الكفر في النار عن الذين آمنوا من الضعفاء وفقراء المسلمينن فيقولون: ما لنا لا نرى رجالا كن نعدهم في الدنيا من الاشرار الذي لا خير فيهم، وقد كنا نسخر منهم في الدنيا ونهزأ بهم فأين هم؟ ام ان اعيننا زاغت عنهم فلا نراهم! .

ثم يبين الله تعالى ان هذا التساؤل وهذا الكلام والتخاصم مع بعضهم البعض حق يوم القيامة لا مرية فيه فيقول: ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ .

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابو عمرو: اتخذناهم على الاخبار، وقرأ الباقون: أتخذناهم بفتح الهمزة على الاستفهام.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي: سخريا بضم السين، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

وقرأ ابن كثير وابوعمرو: هذا ما يوعدون بالياء. والباقون: بالتاء.." [1]

"الساعة: يوم القيامة. اكمامها: جمع كم بكسر الكاف، برعوم الثمرة ووعاؤها، وكذلك الكم بضم الكاف: وعاء الثمر والزهر. آذناك: أعلمناك. ما منا من شهيد: ليس منا من يشهد لك شركاء. وظنوا ما لهم من محيص: وايقنوا ما لهم من مهرب. لا يسأم: لا يمل. من دعاء الخير: من طلب المال، ويطلق الخير على المال والصحة والجاه والسلطة وغيرها. الشر: الفقر والمرض وكل سوء. والقنوط: بضم القاف، ظهور اثر اليأس على الانسان من المذلة والانكسار. الرحمة: الصحة وسعة العيش وكل ما يسر الانسان. والضراء: ضد الرحمة مثل المرض وضيق العيش ونحوهما. هذا لي: هذا ما أستحقه لما لي من الفضل والعمل. الحسنى: الكرامة. عذاب غليظ: كثير وكبير.

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٦٥/٣

بعد تلك الجولة مع المشركين، وما ينتظرهم يوم القيامة حسب أعمالهم وسوء عقائدهم – يبين الله تعالى هنا أن لا سبيل الى معرفة يوم القيامة وتحديد موعده، فذاك لا يعلمه الا هو، وأن علم الحوادث المقبلة في أوقاتها عند الله، فلا يعلم احد متى تخرج الثمر من اكمامها، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع. ثم ذكر سبحانه انه يوم القيامة ينادي المشركين تقريعا لهم فيقول لهم: ﴿أين شركآئي﴾ الذين كنتم تعبدونهم من دوني؟ فيكون جوابهم: ﴿آذناك ما منا من شهيد﴾ إننا نعلمك يا الله انه ليس منا الآن من يشهد ان لك شركاء. وغاب الشركاء السابقون عنهم فلا يرجون منهم نفعا، وايقنوا انه لا مهرب لهم من العذاب.

ثم بين الله تعالى ان الانسان متبدل الأحوال، لا يمل من طل بالمال والمنفعة، فان أحس بخير وقدرة واقبلت عليه الدنيا – تكبر وصعر خده، وان اصابته محنة وبلاء تطامن ويئس من الفرج. واذا انعم الله عليه بالخير والرحمة بعد الضراء واليأس يقول: ﴿هذا لي ومآ أظن الساعة قآئمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ .

كل هذا من الغرور والضلال. ولكن الله تعالى يبين لهم ان تمردهم هذا وبطرهم لا ينفعهم اذ يقول: ﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ وهو عذاب جهنم خالدين فيها ابدا.

قراءات:

قرأ نافع وحفص وابن عامر من ثمرات بالجمع. والباقون: من ثمرة بالإفراد.." (١)

"بآياتنا: بمعجزاتنا التي أظهرها على يد موسى. ملئه: اشراف قومه. مبا عهد عندك: بما اخبرتنا من عهده إليك أنا اذا آمنا كشف عنا العذاب. ينكثون: ينقضون العهد. وهذه الأنهار تجري من تحتي: من تحت قصري وبين يدي في جناتي. مهين: حقير، ضعيف. ولا يكاد يبين: لا يكاد يفصح عما في نفسه، لأنه كان ألثغ يجعل الراء غينا. أسورة: جمع سوار وكانوا يلبسون الرئيس او العظيم اسورة من ذهب. مقترنين: ملازمين، ليعينوه ويساعدوه. فاستخف قومه: استخف عقولهم. آسفونا: أغضبونا، والأسف هو الحزن او الغضب. سلفا: قدوة لمن بعدهم من الكفار. ومثلا: عبرة وموعظة.

بعد ان ذكر الله ان كفار قريش طعنوا في نبوة محمد A لكونه فقيرا – بين هنا ان سيدنا موسى جاء الى فرعون واشراف قومه وقال لهم ﴿إني رسول رب العالمين﴾ وأظهر لهم المعجزات، لكنهم سخروا منه وضحكوا من المعجزات. وكانت كل معجزة من المعجزات التي توالت عليهم أكبر من أختها. وحيث أصروا على الكفر والطغيان أصبناهم بأنواع البلايا، ﴿لعلهم يرجعون﴾ عن غيهم. ولكن بالرغم من معاينتهم

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/٢٠٢

تلك المعجزات فقد اعتبروها من قبيل السحر فقالوا: يا ايها الساحر، ادع لنا ربك متوسلا بما عهد عندك ان يكشف عنا العذاب، فإذا كشفه عنا اهتدينا وآمنا بما تريد.

فلما كشف الله عنهم العذاب بدعاء موسى نقضوا العهد ولم يؤمنوا. وقد جاءت هذه القصة مفصلة في سورة الأعراف.

ثم اخبر الله عن تمرد فرعون وطغيانه وعناده فقال: ﴿ونادى فرعون في قومه قال. . .﴾

أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار التي تشاهدونها تجري من تحت قصري، ﴿أفلا تبصرون﴾ أيها القوم!؟

﴿أم أنآ خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾

فأنا خير من هذا الفقير الحقير الذي لا يكاد يفصح عما يريد.

ثم ذكر شبهة مانعة لموسى من الرياسة، وهي انه لا يلبس لباس الملوك، فهلا القى ربه عليه أساور من ذهب ان كان صادقا!! او جاء معه الملائكة ملازمين له ليساعدوه!

﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ .

وبعد ذلك بين الله ان هذه الخدع قد انطلت عليهم، وسحرت ألبابهم، فأطاعوه واعترفوا بربوبيته وكذبوا موسى.

ثم بين الله مآلهم: فلما أغضبونا بعنادهم انتقمنا منهم بعاجل عذابنا، فأغرقناهم أجمعين، وجعلناهم قدوة لمن يعمل عملهم من اهل الضلال، وعبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم من الكافرين.

وفي قصة موسى هنا تسلية للرسول الكريم بها لأن قومه عيروه بالفقر، وقد سبق لموسى ان عيره فرعون بالفقر والضعف.

قراءات:

قرأ حفص: اسورة. وقرأ الباقون: أساور، اسورة جمع اسوار، وجمع الجمع اساور وأساورة. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: فجعلناهم سلفا بضم السين واللام. والباقون: سلفا، بالإفراد.." (١)

"جند: عون، معين. في غرور: في خداع يخدعون انفسهم. ان أمسك رزقه: حبس عنكم المطر وغيره من الأسباب التي ينشأ منها الرزق. لجوا: تعدوا الحد. في عتو: في تمرد وعناد. نفور: اعراض وتباعد. مكبا على وجهه: اصل المعنى ان يمشي المرء مطرقا بوجهه الى الارض. والمقصود: الذي يسير على غير هدى. سويا: معتدلا، مستقيما. الافئدة: العقول. انشأكم: خلقكم. ذرأكم: خلقكم. زلفة: قريبا. سيئت

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٢١٧/٣

وجوه الذين كفروا: قبحت وعلتها الكآبة. تدعون: تطلبون، وتستعجلون. أرأيتم: اخبروني. غورا: غائرا في الأرض. معين: جار غزير.

بعد ان بين الله للناس عجائب قدرته فيما يشاهدونه من احوال الطير وخلقه، وخوفهم من خسف الأرض بهم، وارسال الحاصب عليهم بالعذاب – سأل الجاحدين المعاندين بقصد التوبيخ والتقريع: من الذي يعينكم وينصركم ويدفع عنكم العذاب اذا نزل بكم؟ هل هناك غير الرحمن؟ والتعبير بالرحمن يدل على ان الله رؤوف بعباده رحيم.

﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ وظن كاذب يخدعون به انفسهم.

ثم سؤال ثان منه تعالى: إذا منع الله عنكم أسباب الرزق، من يرزقكم غير الله: بل تمادى الكافرون في استكبارهم وبعدهم عن الحق.

ثم ضرب الله مثلا يبين به الفرق بين المشركين والموحدين فقال:

﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ .

هل الذي يعيش في الضلال ويتخبط في الجهالة والكفر اهدى سبيلا، أم الذي آمن ويمشي على الطريق المستقيم سالما من التخبط والجهل؟ ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان؟﴾ [هود: ٢٤] .

فهذا المكب على وجهه هو المشرك، والذي يمشي سويا هو الموحد، فهل يستويان؟ قل لهم ايها الرسول ان ربكم هو الذي خلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، لتسمعوا وتبصروا وتهتدوا، ولكن ﴿قليلا ما تشكرون﴾ ولكنكم مع كل هذه النعم فالشاكرون منكم قليل. قل لهم منبها الى خطأهم وجحودهم: ان ربكم هو الذي خلقكم وبثكم في الارض، ومن ثم اليه ترجعون يوم القيامة. ومع هذا كله، يسألون الرسول استهزاء وتهكما فيقولون: متى يأتينا العذاب الذي تعدنا به؟

﴿قل إنما العلم عند الله وإنمآ أنا نذير مبين﴾

قل يا محمد: هذا علم اختص الله به، وانما انا رسول منه جئت لأنذركم وأبين لكم شرائع الله.

﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾ .

الحديث في هذه الآية يكون يوم القيامة، يعني: فلما قامت القيامة وحشر الناس ورأى الكفار العذاب قريبا منهم ساءهم ذلك وعلت وجوههم الكآبة والحزن. ويقال لهم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ [الذاريات:

١٤] وهذا التعبير جاء ليدلنا على ان يوم القيامة قريب جدا.
وكما جاء في قوله تعالى:." (١)

"الواد المقدس: الوادي المبارك، طوى: اسم ذلك الوادي، وهو بين العقبة ومصر. طغى: تجاوز الحد فتكبر وكفر. تزكى: اصلها تتزكى بتاءين: تتطهر من الشرك. أهديك: أدلك. الآية الكبرى: العلامة الدالة على صدق موسى، وهي انقلاب العصا حية. أدبر يسعى: ذهب يدبر المكايد لموسى. فحشر: فجمع السحرة. النكال: العذاب. رفع سمكها فسواها: خلقها بأحسن نظام. أغطش ليلها: جعله مظلما. أخرج ضحاها: اظهر نورها وضياء شمسها. دحاها: مهدها وجعلها قابلة للسكنى. مرعاها: نباتها. ارساها: أثبتها. متاعا: متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم.

يذكر الله تعالى قصة موسى وفرعون تسلية للرسول الكريم على ما يلاقيه من قومه، بحكم تكذيبهم له وإنكارهم للبعث، وتماديهم في العتو والطغيان. وذلك أن فرعون مع أنه كان أقوى من كفار قريش وأشد منهم شوكة وأعظم سلطانا فإن الله أخذه حين **تمرد** على ربه ولم يؤمن بموسى، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابه. وقصة موسى وفرعون من أكثر القصص التي ترد في القرآن في اساليب متنوعة. وهنا جاءت مختصرة سريعة في اسلوب استفهام رشيق مشوق لتناسب طبيعة السورة.

﴿هل أتاك حديث موسى. . . . الآيات﴾

هل أتاك – يا محمد – حديث موسى مع فرعون، حين ناداه ربه في وادي طوى المقدس في سيناء، حيث أمره أن يذهب الى فرعون وقومه ليهديهم الى الطريق المستقيم، بعد أن طغى واستكبر واستعبد الناس!

ثم طلب الله تعالى الى موسى ان يلين له القول فذلك أنجح للرسالة.

﴿فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى﴾

هذا كلام جميل في غاية الرقة واللطف. قل له يا موسى: هل ترغب أن تطهر نفسك من الآثام التي انغمست فيها، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير، فترجع الى ربك وتؤمن به، وتخشى عاقبة مخالفته.

ثم أراه الدليل الحسي على صدق نبوته ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ وتلك هي قلب العصا التي معه حية تسعى. فلم يقنع فرعون بما رأى وقال إن هذا سحر ﴿ثم أدبر يسعى﴾ في تدبير سحر مثله، ﴿فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى﴾ حيث جمع السحرة وخطب فيهم قائلا إنه هو الرب الأعلى، لا سلطان يعلو سلطانه.

﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ . فعذبه الله تعالى بالغرق في الدنيا،

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣٥٧/٣

وبعذاب جهنم في الاخرة. . وفي هذا عبرة وموعظة لمن يخاف الله وله عقل يتدبر وينظر في عواقب الأمور.

إن الله سينصرك يا محمد على قومك كما نصر موسى على فرعون، وكان أشد بأسا وأكثر جندا من قومك هؤلاء. فاتبع يا محمد نهج موسى، ولن لهم في الحديث، واصبر فإن الفوز لك.

وبعد أن أورد قصص موسى وفرعون هذه عاد الى مخاطبة الجاحدين المنكرين من قريش بأن من خلق هذا الكون العجيب الكبير وما فيه – لا يعجزه بعثهم من جديد بعد موتهم.." (١)

"قتل الانسان: كلمة تقال للدعاء عليه بالعذاب. فقدره: أنشأه في اطوار مختلفة. ثم السبيل يسره: ثم سهل له طريقه. فأقبره: فأماته وذهب به الى القبر. وأنشره: بعثه بعد الموت. وقضبا: كل ما يؤكل من النبات والخضار والبقول غضا طريا. غلبا: ضخمة، عظيمة. وأبا: ما ترعاه الدواب. الصاخة: القيامة، لأنها تصرع الآذان. شأن يغنيه: شغل يصرفه عن مساعدة غيره. مسفرة: مشرقة، مضيئة. مستبشرة: فرحة بما نالت من البشرى. عليها غبرة: ما يصيب الانسان من الغبار والارهاق. ترهقها: تغشاها. قترة: سواد كالدخان.

بعد أن ذكر القرآن الكريم على أنه كتاب موعظة وذكرى وهدى للناس، يبين الله تعالى هنا جحود الإنسان وكفره الفاحش ولا سيما أولئك الذين أوتوا سعة من الرزق. ثم يذكره بمصدر حياته ووجوده، وأصل نشأته، وكيف يسر له السبيل في حياته ثم تولى موته وبعثه. ثم بعد ذلك ينعى على الانسان تقصيره في أمره، وأنه لا يؤدي ما عليه لخالقه، فيقول:

﴿قتل الإنسان مآ أكفره. . . .﴾ .

هذه جملة دعاء على كل جاحد، والمراد بيان قبح حاله **وتمرده** وتكبره، فما أشد كفره مع إحسان الله اليه!

والحق أن الانسان قد بلغ في كفره بالنعمة الإلهية مبلغا يقضي بالعجب، فانه بعد ما رأى في نفسه من آيات الله، وبعد ان مضى عليه تلك السنون الطوال في الأرض، والتي شاهد فيها ما في هذا الكون الواسع العجيب من شواهد وادلة ونظام بديع – لا يزال يجحد أنعم الله عليه ولا يشكرها. ان الله تعالى لم يدع الانسان سدى، فقد أرسل إليه الهداة إثر الهداة، غير ان الانسان ظل سادرا في ضلاله، مغرورا بهذه الحياة الدنيا وما فيها من نعيم زائل.

لذا شرع الله يفصل ما أجمله ويبين ما افاض عليه من النعم فقال:

﴿من أي شيء خلقه﴾

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/٤٠٤

إنه من أصل متواضع جدا.

﴿من نطفة خلقه فقدره﴾

لقد خلقه الله من نطفة من ماء حقير، وقدره أطوارا وأحوالا، وأتم خلقه، وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال أعضائه، وصوره بأجمل صورة وأحسن تقويم.

﴿ثم السبيل يسره﴾

ثم مهد له سبيل الهداية، وسبيل الحياة، وأودع فيه أعظم خصائص الاستعداد ليعيش في هذه الحياة.

حتى اذا انتهت الرحلة، صار الى النهاية التي يصير إليها كل حي بلا اختيار.

﴿ثم أماته فأقبره﴾

ثم قبض روحه وأماته وكرمه بأن يقبر.

﴿ثم إذا شآء أنشره﴾

حتى اذا حان الموعد الذي قدره الله ليوم البعث اعاده الى الحياة للحساب والجزاء. وهذا موعد لا يعرفه إلا الله. إذن فإن الانسان ليس متروكا سدى، ولا ذاهبا بغير حساب ولا جزاء. فهل قام بواجبه تجاه خالقه؟

﴿كلا لما يقض مآ أمره﴾

كلا، إنه مقصر لم يؤد واجبه ولم يشكر خالقه، ولم يقض هذه الرحلة على الأرض في الاستعداد ليوم الحساب والجزاء.." (١)

"ثم أردف سبحانه بذكر الآيات المنبثة في الآفاق، الناطقة ببديع صنعه والتي يراها الانسان أمامه ماثلة للعيان فقال:

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾

عليه أن يتدبر شأن نفسه، وينظر الى طعامه وطعام أنعامه في هذه الحياة: كيف يسذرناه له ودبرناه! إنا أنزلنا الماء من السماء وجعلنا منه كل شيء حي، وشققنا الأرض بالنبات كما تشاهدونه أمامكم، فأنبتنا فيها حبا يقتات به الناس، وعنبا ونباتا يؤكل رطبا، وزيتونا طيبا ونخلا مثمرا غذاء جيدا، وحدائق ملتفة الأغصان جميلة. ﴿وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم﴾ .

وبعد ان عدد الله تعال نعمه على عباده، وذكرهم بإحسانه اليهم في هذه الحياة، بحيث لا ينبغي للعاقل ان **يتمرد** - أردف هنا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها فقال:

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/٤٠٩

﴿فإذا جآءت الصآخة. . . .﴾

إذا قامت القيامة التي بصيحتها تصك الآذان وتصمها، فإن المرء يهرب من أخيه ومن أمه وأبيه، وزوجته وبنيه. . وهؤلاء هم أعز الناس عنده. إن كل انسان في ذلك اليوم له شأن يشغله عن غيره.

والناس في ذلك اليوم فريقان: فريق ضاحك مستبشر بما سيلقاه من حسن الاستقبال والنعيم المقيم، وفريق تعلو وجوههم قترة من سواد الحزن وكآبته. وهؤلاء هم الذين **تمردوا** على الله ورسوله ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ فمصيرهم الى جهنم.

إن من طلب الحق لوجه الحق وعمل به بإيمان وإخلاص فهو الذي يضحك ويستبشر يوم القيامة، ومن اتبع هواه وشغل نفسه بتبرير الأهواء، واحتقر عقله، ورضي جهله، وشغل نفسه بالجدل والمراء والتماس الحيل لتقرير الباطل وترويج الفاسد (كما كان يفعل أعداء الأنبياء، ولا يزال يأتيه السفهاء لينصروا به إصرار الاغبياء) ثم يتبع ذلك بأعمال تطابق ما يهوى وتخالف ما يقول. . فهو الى جهنم. وان المرء ليجد الواحد من هذه الفئة يزعم الغيرة على الدين ولا تجد عملا من أعماله ينطبق على ما قرره الدين.

فالدين ينهى عن المعاصي وهو يقترفها، والدين يأمر بصيانة مصالح العامة وهو يفتك بها ويبذرها لمصلحته الخاصة. والدين يطالب أهله ببذل المال في سبيل الخير، وهو يسلب المال ليكنزه، فإن أنفق منه شيئا صرفه في سبيل الشر. والدين يأمر بالعدل وهو أظلم الظالمين، والدين يأمر بالصدق وهو يكذب ويحب الكاذبين.

فمن كان هذا شأنه فماذا يكون حاله يوم يتجلى الجبار، ويرتفع الستار! إنه سوف يجد كل شيء على خلاف ما كان يعرفه، يجد الحق غير ما كان يعتقد، والباطل هو ما كان يعمل. عندئذ يتحقق أن ما كان يظنه من العمل خيرا لنفسه صار وبالا عليها.

فهذا النوع من الناس سوف تخيب آمالهم يوم القيامة، ويحاسبون حسابا عسيرا، ويصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ ، أعاذنا الله من هول ذلك اليوم، وهدانا برحمته الى العمل الصالح.

قراءات:

قرأ أهل الكوفة أنا، والباقون بكسر الهمزة.." (١)

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/٤١٠

"﴿إن الذين كفروا﴾ لما أنجز الكلام في تقرير ما سيق له إلى ذكر خاصة عباده وخلاصة أوليائه بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح، قفى على أثره بذكر أضدادهم، وهم العتاة المردة من الكفار المطبوع على قلوبهم، بحيث لا ينجع فيهم الهدى، ولا يجري إليهم اللطف والدعوة والإنذار، وإنما فصل بينهما لتباينهما في الغرض، فإن الأولى سيقت لبيان شأن الكتاب، والثانية سوقها لشرح **تمردهم** وانهماكهم في الضلال.

والتأكيد بـ (إن) لأن الخبر قد بولغ فيه، وعلل بما عسى أن يستنكر ويستبعد.

والتعريف للإشارة إلى أناس معهودين؛ أخرج ابن جرير وغيره بسند صحيح عن ابن عباس ؟: أن المراد به الكفار من اليهود خاصة (١).

وهو الظاهر بقرينة إيلاء المؤمنين من أهل الكتاب، ولأن السورة مدنية وأكثر الخطاب فيها لليهود.

* * *

(١) رواه الطبري في "تفسيره" (١/ ٢٥٨).

الجزء: ١ - الصفحة: ٥١

والكفر - بالضم والفتح (١) - في اللغة: الستر، ومنه سمي الزارع كافرا، فإنه يستر البذر، ونقل في الشرع إلى عدم قبول ما علم مجيء الرسول ؟ به عقدا أو قولا؛ لما فيه من ستر نور الفطرة الأصلية الذي هو بذر الكمال، هذا هو الكفر المقابل للإيمان المنجي.

وأما الكفر المقابل للإيمان الشرعي الذي لا بد فيه من الاحتراز عن أمارات عدم قبول ما ذكر، فيكفي في تحققه (٢) وجود إحدى تلك الأمارات.

والإخبار بلفظ الماضي نظرا إلى حال المخاطب؛ لأنه مقصود بالإفادة، والمتكلم (٣) ليس بزماني، فلا يختلف الإخبار (٤) - بحسب دلالتها على الأزمنة الثلاثة - نظرا إليه.." [1]

"والتفصيل بـ (لا يعلمون) (٢)؛ لأن تسفيههم العلماء الأعلام لا يكون إلا لغاية السفه والجهل المركب، ومعرفة الحق والإيمان به، وكون المؤمنين على الحق، وكونهم على الباطل، أمر نظري لا يتعلق بالحس، بخلاف الفساد في الأرض، ولأن ذكر العلم مع السفه - وهو جهل - أحسن طباقا.

(١٤) - ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾.

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا﴾ تقول: لقيته ولاقيته: إذا استقبلته قريبا منه، بيان لمعاملتهم مع المؤمنين والكفار، وما سبق سيق لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم، فلا تكرير، على أن المعنى: من الناس من يتفوه (٣) بالإيمان نفاقا للخداع، وذلك

* * *

(١) في "ح " "ف" و"ك": "يفيد"، وفي "م": (يعتذر)، والمثبت من "د". (٢) في هامش "م": (أي: تفصيل هذه الآية بـ (إلا يعلمون)، والآية السابقة بـ (لا يشعرون). منه.) وتحته: (التفصيل من الفاصلة كالتقفية من القافية. منه). (٣) في "ح " و"ف" و"ك" و"م": "ينفق"، وفي "د": (يتفق). والمثبت من "حاشية الشهاب على البيضاوي" (١/ ٣٣٨)، و"روح المعاني" (١/ ٤٤٣).

الجزء: ١ - الصفحة: ٧٠

عند لقاء المؤمنين، وفيه زيادة بيان أنهم ضموا إلى الخداع الاستهزاء، ولا يتفوهون بالكلمة إلا عند الحاجة.

﴿قالوا آمنا وإذا خلوا﴾ تقول: خلوت به وإليه: إذا انفردت معه.

﴿إلى شياطينهم﴾ الشيطان: فيعال من شطن: إذا بعد؛ لبعده عن الحق، أو فعلان من شاط: إذا بطل، ومن

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١/١٨٦

أسمائه: الباطل.

وقال الراغب: من شاط: إذا احترق غضبا (١).

والمراد: **متمردوهم** وشطارهم.." [١]
"﴿إلا الفاسقون﴾ **المتمردون** من الكفرة.

وعن الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره (١).

وعن ابن عباس ؟: قال ابن صوريا لرسول الله ؟: ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها، فنزلت (٢).

واللام للجنس، والمراد: أهل الكتاب الخارجين (٣) عن دينهم؛ لأن الآية نزلت فيهم، وطرفها كلام في شأنهم، والوصف **بالتمرد** آليق بحالهم، ففيه دلالة على أن ذلك الخروج سبب لكفرهم، فيكون فيه مبالغة، وهي أن يكون (٤) كفر غيرهم كالعدم، ومن لم يتنبه لهذا زعم أن الأحسن أن تكون للعهد (٥).

* * *

(١٠٠) - ﴿أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾.

﴿أوكلما عاهدوا عهدا﴾ الواو للعطف على محذوف؛ إذ لا مجال للعطف على الكلام السابق، معناه: أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا، فالهمزة إنكار للجمع بين الكفر ونقض العهد.

* * *

(١) انظر: "الكشاف" (١/ ١٧١). (٢) انظر: "الكشاف" (١/ ١٧١)، رواه الطبري في "تفسيره" (٢/

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١/٢٠٥

٣٠٥). وجاء في "م": (بها)، وهو الموافق لما في "تفسير الطبري"، والمثبت من باقي النسخ و"الكشاف".
(٣) كذا في النسخ، والجادة: (الخارجون). (٤) (يكون) من "ح" و "ف". (٥) في هامش "ح" و"د" و"ف": (فيه رد لسعد الدين في زعمه أن هذا على أحسنية العهد. منه).

الجزء: ١ - الصفحة: ٢٧٢

وقرئ بسكون الواو (١)، على أن الفاسقين بمعنى: الذين فسقوا، فكأنه قيل: إلا الذين فسقوا أو نقضوا (٢) عهد الله مرارا كثيرة، لا على أن الواو العاطفة أسكنت إسكان الهاء في (وهو) لأنه لم يثبت مثل ذلك في الواو العاطفة (٣).." [(١)]

"﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ عطف على ﴿نبذ﴾؛ أي: نبذوا كتاب الله تعالى، واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت الشياطين - وهم **المتمردون** من الجن - يقرؤونها على عهد ملك سليمان ؟.

وليست ﴿على﴾ صلة التلاوة، بل من قولهم: كان هذا على عهد فلان؛ أي: في وقته وزمانه، ﴿تتلو﴾ حكاية حال ماضية.

﴿وما كفر سليمان﴾ تكذيب لمن زعم أن سليمان ؟ سخر الإنس والجن والريح بالسحر، وأن ملكه تم بهذا العلم، والكناية عن السحر بالكفر للدلالة على أنه كفر، والإشارة إلى ما يوجب تنزهه ؟ عنه؛ كأنه قال: وما سحر سليمان؛ لأن السحر كفر، والنبي معصوم عن الكفر.

﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ لما نفى الكفر عن سليمان ؟، وكان الشياطين قد سخرت لسليمان ؟ يستعملهم (١) فيما يشاء، فقد يتوهم أنهم لا يكفرون أيضا، إذ هم في خدمة نبي، فاستدرك أنهم كفروا باستعمالهم السحر.

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٨٨/١

(١) في "م": (ليستعملهم).

الجزء: ١ - الصفحة: ٢٧٥

وقرأ الحسن: (الشياطون) (١).

وقال السجاوندي: خطأه الخارزنجي (٢)، ولو سلم صحته فلا خفاء في عدم فصاحته.

﴿يعلمون الناس السحر﴾ إغواء وإضلالا، والجملة حال عن الضمير، والسحر: مزاولة النفوس الخبيثة لأفعال وأقوال يترتب عليها أمور خارقة للعادة، ولا يروى خلاف في كون العمل به كفرا، وعده نوعا من الكبائر مغايرا للإشراك لا ينافي ذلك؛ لأن الكفر أعم، والإشراك نوع منه.

وهو في أصل اللغة: الصرف، حكاه الأزهري عن الفراء ويونس (٣)، فإطلاقه على ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية، وما يريك صاحب خفة اليد باعتبار ما فيه من صرف الشيء عن جهته حقيقة لغوية.." [١]

"﴿قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري﴾؛ أي: عهدي، سمي به لأنه يأصر، أي: يشد ويعقد، وقرئ: (أصري) بالضم (٢)، وهو إما لغة فيه، كعبر وعبر، وإما جمع إصار.

﴿قالوا أقررنا قال فاشهدوا﴾: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار.

﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾: وأنا أيضا على إقراركم وتشاهدكم (٣) شاهد استيثاق (٤)، معناه التوكيد والتحذير، وقيل: الخطاب للملائكة.

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٩١/١

(٨٢) - ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.

﴿فمن تولى بعد ذلك﴾: بعد الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة.

﴿فأولئك هم الفاسقون﴾، أي: **المتمردون** من الكفار.

* * *

* * *

(١) انظر: "الدر المنثور" (٢/ ٤٨)، ونسبها ابن جني في "المحتسب" (١/ ١٦٤) للأعرج بلفظ: (لما آتيناكم). (٢) انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٢١). (٣) في (د): "ونشاهدكم"، وفي (ح) و (ك) و (م): "وشاهدكم"، والمثبت من (ف)، وهو الصواب. انظر: "الكشاف" (١/ ٣٨٠)، و"تفسير البيضاوي" (٢/ ٢٦)، و"روح المعاني" (٥/ ٣٠٣). (٤) في النسخ عدا (ك): "استئناف"، والمثبت من (ك).

الجزء: ٢ - الصفحة: ٣٢٨

(٨٣) - ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾.

﴿أفغير دين الله يبغون﴾: الفاء عاطفة الجملة على الجملة؛ أي: فأولئك هم الفاسقون فغير (١) دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما للإنكار.

ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره: أيتولون فغير دين الله يبغون؟." [١]

"﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا﴾؛ أي: كما جعلنا لك عدوا جعلنا لكل نبي سبقك عدوا، والحكمة في ذلك الابتلاء والامتحان؛ ليظهر الثبات والصبر، وكثرة الثواب والأجر.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢/٢٦٥

* * *

(١) في (ح) و (ف): "أوتوا"، والمثبت من (ك) و (م)، وهو الصواب لأن المراد الإتيان لا الإيتاء. (٢) "بالله": ليست في (ك). (٣) "على ما لا يشعرون" من (م) و (ك). (٤) في (ف): "العدة"، وفي (م): "الغيرة"، وفي (ك): "العرة"، والمثبت من (ح). (٥) في (م): "القسمية". (٦) جاءت العبارة في "لطائف الإشارات" (١/ ٤٩٥): "لأن الآيات وإن توالت، وشموس البرهان وإن تعالت، فمن قصمته العزة وكبسته القسمة لم يزده ذلك إلا حيرة وضلالا، ولم يستنجز إلا للشقوة حالا".

الجزء: ٣ - الصفحة: ٣٩٩

﴿شياطين الإنس والجن﴾ **متمردي** الصنفين، بدل من ﴿عدوا﴾، أو هما مفعولان و ﴿عدوا﴾ مفعوله الثاني (١)، و ﴿لكل﴾ متعلق به، أو حال منه.

﴿يوحي﴾: يلقي في خفية }وبعضهم إلى بعض﴾: شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعض أحد الصنفين إلى بعض آخر منه.

﴿زخرف القول﴾: مزينه ومموهه (٢) بالأباطيل.

﴿غرورا﴾ حال؛ أي: غارين، أو: مغرورين، أو مفعول له للغرة (٣).

﴿ولو شاء ربك﴾ حذف المفعول لدلالة: ﴿ما فعلوه﴾ عليه؛ أي: لو شاء ربك أن لا يفعلوا معاداة الأنبياء وإيحاء الزخارف - على أن الضمير لما ذكر (٤) - ما فعلوه، ولكن ما شاء مما (٥) اقتضته حكمته، ويجوز أن يكون الضمير للإيحاء.

وفي الآية دلالة على أن الشرور صدورها عنه تعالى بمشيئته.

﴿فذرهم وما يفترون﴾؛ أي: إذا عرفت أن ذلك بمشيئته تعالى، ومشيئته (٦) تابعة لحكمته، فاتركهم وكفرهم،

وفيه تهديد ووعيد.

* * *". (١)

"﴿قل أنفقوا طوعا أو كرها﴾ نصب على الحال؛ أي: طائعين أو كارهين.

﴿لن يتقبل منكم﴾ أمر في معنى الخبر؛ أي: لن يتقبل منكم نفقاتكم، أنفقتم طوعا أو كرها، وفائدته المبالغة في تساوي الإنفاقين في عدم القبول، كأنهم أمروا بأن يمتحنوا فينفقوا في الحالين وينظروا هل يتقبل منهم؟ وهو جواب قول جد بن قيس: وأعينك بمالي.

ونفي التقبل يحتمل أن لا يتقبل الرسول ؟ ولا يأخذ منهم، وأن لا يتقبل الله تعالى منهم ولا يثيب عليها.

و ﴿كرها﴾ يحتمل الإلزام والإكراه فيؤيد الثاني، والكراهة من المنفقين فلا يرجح أحدهما.

ولعمري إنهم لا ينفقون إلا كراهة، كما أخبر عنهم (١) في الآية التي بعدها، وأما التطوع فهو على سبيل الفرض؛ لمساواة الكره في عدم القبول، أو أن يعطوا (٢) من غير إلزام وإكراه وفي أنفسهم الكراهة.

* * *

(١) في (ك): "أخبرهم". (٢) في (م): "يطيعوا".

الجزء: ٤ - الصفحة: ٣٧٧

﴿إنكم كنتم قوما فاسقين﴾ تعليل لرد إنفاقهم على سبيل الاستئناف؛ إذ الفسق هنا هو **التمرد** والعتو في الكفر، فيوجب رد كل عمل، وفيه تنفير للمسلمين عن الفسق، وما بعده بيان وتقرير به.

(٥٤) - ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا ياتون الصلاة إلا وهم كسالى

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣/٢٣٥

ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾.

﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم﴾ لا يخفى ما في هذا التعبير من حسن التصوير لقبوله النفقة بصورة أمر مرغوب مطلوب، كأنهم طلبوه بالطبع؛ فإن كرام العرب مجبولون على حب الإنفاق، ومنعهم إياه ما بهم من الكفر والنفاق.." [1]

"(٦٧) - ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾.

﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾؛ أي: جنس واحد كأبعاض الشيء الواحد، غير مماثل لجنس المؤمنين.

تعريض بأنهم ليسوا من المؤمنين، وتكذيب لهم في حلفهم بالله إنهم لمنكم، وتقرير لقوله (١) تعالى: ﴿وما هم منكم﴾، وما بعده كالدليل عليه ببيان (٢) منافاة حالهم لحال المؤمنين، وهو قوله:

﴿يامرون بالمنكر﴾ بالكفر والمعاصي ﴿وينهون عن المعروف﴾؛ أي: الإيمان والطاعة.

﴿ويقبضون أيديهم﴾ قبض اليد عبارة عن الشح؛ أي: يمتنعون عن الإنفاق في سبيل الخير.

﴿نسوا الله فنسيهم﴾ النسيان في الأول كناية عن الترك، والمراد: ترك طاعته، وفي الثاني مجازا مرتبا على الكناية، والمراد ترك (٣) رحمتهم، وإنما يعبر

* * *

(١) في النسخ: "بقوله"، والصواب المثبت. انظر: "تفسير البيضاوي" (٣/ ٨٨)، و"روح المعاني" (١٠/ ٤٠٧). (٢) في (ف) و (ك): "بيان". والمثبت من (م) وهو الصواب، ولفظ البيضاوي: (وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين). (٣) "طاعته وفي الثاني مجازا مرتبا على الكناية والمراد

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٢٠/٤

ترك" من (م) زيد في الهامش وعليه علامة التصحيح، والصواب: (مجاز مرتب).

الجزء: ٤ – الصفحة: ٣٩٤

بالنسيان عن الترك مبالغة إذا بلغ وجوه الترك الوجه (١) الذي يقترن به النسيان.

﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ الكاملون في **التمرد** والخروج عن دائرة الخير، والمبالغة في ذمهم بالفسق، وجعله غاية في **التمرد** والعتو، والفاروق الأعظم بينهم وبين المسلمين، تنفير للمسلمين عنه.." [١]

"﴿والمؤتفكات﴾ الائتفاك: الانقلاب، والمراد: كل من أهلك من المكذبين **المتمردين**، كما يقال: انقلبت عليه الدنيا، ويدخل فيهم دخولا أوليا قوم لوط، ولو أريد بها قومه ؟ خاصة لكان حقها أن يذكر قبل أصحاب مدين.

﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ الضمير لكل ما تقدم ذكره من الأمم.

﴿فما كان الله ليظلمهم﴾؛ أي: لم يكن من عادته العقوبة بلا جرم، ولما تبين هذا مما تقدم صدره بأداة التفريع (١)، وهو كما يكون باعتبار الوجود يكون باعتبار (٢) الظهور.

﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بإيقاعها فيما يوجب العقوبة، وتقديم المفعول يفيد التخصيص.

* * *

(١) في (ك): "التقريع". (٢) "الوجود يكون باعتبار" زيادة من (م).

الجزء: ٤ – الصفحة: ٣٩٨

(٧١) – ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٣٤/٤

ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾.

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ ذكر في مقابلة المنافقين والمنافقات، والمراد: المخلصون والمخلصات، وفي العبارة المذكورة إشارة إلى أن حق الإيمان الإخلاص، وأن المنافقين ليسوا (١) من جنس المؤمنين.

والمعنى: أن ذكورهم وإناثهم يتوالون على الدين ويتناصرون ويتعاونون، حتى إن الرجل يخرج إلى الجهاد وامرأته تهيئ أسبابه، ويخرج النساء مع الرجال أيضا، فيداوين الجرحى، ويعالجن المرضى، ويصلحن الطعام، ويحملن الماء، وغير ذلك من المهمات.." [١]

"﴿ذلك﴾ إشارة إلى امتناع الغفران، وعدم تأثير الاستغفار في حقهم.

﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ يعني: أن ذلك لعدم قبولهم له بسبب كفرهم **وتمردهم** في الفسق والعصيان، ولا لمنعي (٣) ولا لتقصيرك.

﴿والله لا يهدي﴾ قد مر أنه من قبيل تنزيل الموجود منزلة المعدوم لعدم أثره ﴿القوم الفاسقين﴾ **المتمردين** في كفرهم.

وهذا كالدليل على الحكم السابق؛ فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر

* * *

(١) "أن يكون" مكررة في (ك). (٢) في (م): "الكثير". (٣) في (ف) و (م): "بمنعي".

الجزء: ٤ - الصفحة: ٤١١

والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر النبي ؟ في

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤/ ١٣٨

استغفاره وهو عدم يأسه ؟ عن إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم؛ لقوله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ [التوبة: ١١٣].

* * *

(٨١) - ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون﴾.

﴿فرح المخلفون﴾: الذين لم يخرجوا مع رسول الله ؟ إلى غزوة تبوك.

المخلف: المتروك خلف من مضى. والفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة.

﴿بمقعدهم﴾؛ أي: بقعودهم عن الغزو في المدينة عند خروجه ؟.." (١)
"(٢٠) - ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾.

﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ (١) أرادوا به آية من الآيات التي كانوا يقترحونها (٢)، غير مكترثين بما نزل عليه ؟ من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل مثلها على أحد من الأنبياء ؟ قبله، خصوصا القرآن المعجز الباقي على وجه الدهر، وغير مقتدين (٣) به عنادا ومكابرة، بل جعلوا نزوله كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط، حتى قالوا: ﴿لولا أنزل عليه آية﴾ بتنكير ﴿آية﴾ للتحقير؛ أي: آية ما واحدة وشيء من جنس الآية، وذلك لفرط عنادهم، وتماديهم في **التمرد**، وانهماكهم في الغي.

﴿فقل إنما الغيب لله﴾؛ أي: إني لا أعلم المانع من إنزالها؛ فإنها غيب ولا يعلم الغيب إلا الله.

وما قيل: فلعله يعلم في إنزالها من مفاسد تصرف عنه (٤). لا ينتظم مع قوله:

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤/١٥٠

﴿فانتظروا﴾: نزول ما اقترحتموه ﴿إني معكم من المنتظرين﴾: ما يفعل الله بكم من العذاب بجحودكم الآيات العظام، واقتراحكم غيرها تعنتا.

* * *

* * *

(١) في هامش (ف) و (م): "عدل عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع حكاية للحال الماضية، وقصدا إلى الاستمرار. منه". (٢) في (ف): "يفترونها". (٣) في (ك): "مقيدين". (٤) أي: عن إنزالها، كما صرحت به عبارة البيضاوي صاحب هذا القيل. انظر: "تفسير البيضاوي" (٣/ ١٠٩).

الجزء: ٥ - الصفحة: ٣٣

(٢١) - ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾.." [١]

"﴿فأنى تصرفون﴾ من الحق إلى الضلال، ومن التوحيد إلى الشرك.

* * *

(٣٣) - ﴿كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾.

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الحق؛ أي: كما حقت الربوبية لله تعالى، أو كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو أنهم مصروفون عن الحق ﴿حقت كلمت ربك﴾: حكمه ﴿على الذين فسقوا﴾: **وتمردوا** في الكفر، وخرجوا عن حد الاستصلاح.

﴿أنهم لا يؤمنون﴾: مفعول ﴿كلمت﴾ لأنها في معنى الحكم؛ أي: حكمهم (١) بأنهم لا يؤمنون، أو

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤/٢٣٢

بدل منها؛ أي: حق وثبت أنهم لا يؤمنون، أو تعليل على أن الكلمة كلمة العذاب وعدته، أي: لأنهم لا يؤمنون.

* * *

(٣٤) - ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون﴾.

﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾: ألزمهم بإبداء الخلق وإعادته وإن

* * *

(١) "أي حكمهم" سقط من (ف).

الجزء: ٥ - الصفحة: ٥٠

لم يكونوا معترفين بها، تنبيها على وضوح برهانها، ودلالة على أن من أنكرها كان مكابرا رادا للظاهر البين الذي اعترف بصحته العقلاء، وكان عندهم من المسلمات.

وقد أومئ إلى لجاجهم وعنادهم وشدة مكابرتهم، بأمر النبي ؟ بأن ينوب عنهم في الجواب في قوله: ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾؛ أي: لا تدعهم لجاجتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم.

﴿فأنى تؤفكون﴾: تصرفون عن قصد السبيل.

* * *." (١)

"يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، يعني: إن القرآن معجز من جهة (١) اللفظ والمعنى، ثم إنهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه، ويتفحصوا معناه.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤/٢٤٨

ومعنى التوقع في الما) أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي، فرازوا (٢) قواهم في معارضته فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر (٣) به طبقا لإخباره مرارا فلم يقلعوا (٤) عن التكذيب **تمردا** وعنادا.

﴿كذلك﴾: مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ أنبياءهم قبل النظر في معجزاتهم تقليدا، وبعده عنادا أو حسدا.

﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾: وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

* * *

(٤٠) - ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾: يصدق به نفسه ولكن يعاند ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾: من يشك فيه ولا يصدق، أو: منهم من سيؤمن، ومنهم من سيصر ولا يؤمن به.

﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾: بالمعاندين والمصرين.

* * *

* * *

(١) في (ف): "حيث". (٢) " فرازوا"؛ أي: جربوا وامتحنوا. انظر: "حاشية الشهاب على البيضاوي" (٥/ ٣١). (٣) في (م): "أخبروا". (٤) في (ك) و (م): "يغفلوا"، وفي (ف): "يفعلوا"، والتصويب من "تفسير البيضاوي" (٣/ ١١٣).

الجزء: ٥ - الصفحة: ٥٦

(٤١) - ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾.

﴿وإن كذبوك﴾؛ أي: أصروا وواظبوا على تكذيبك بعد إلزام الحجة.." [١]

"(٧٣) - ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾.

﴿فكذبوه﴾: فأصروا على تكذيبه **تمردا** وعنادا (٣) بعد طول مدة الدعوة وإلزام الحجة.

﴿فنجيناه﴾ يعني: من الغرق؛ دل عليه قوله: ﴿ومن معه في الفلك﴾: من الإنسان والحيوان، وإنما قال: ﴿ومن﴾ دون (ما) تغليبا للعقلاء على غيرهم؛ للتنبيه على أن نجاة غيرهم كان تبعا لهم.

﴿وجعلناهم خلائف﴾ من الهالكين ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾: بالطوفان، والجعل مؤخر عن الإغراق، وإن قدم لفظا للاهتمام به.

﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾: تعظيم لما نزل بهم من العذاب، وتهديد لمن كذب رسول الله ؟، وتسلية له (٤).

* * *

(١) في (ف): "تطلب .... شيئا". (٢) "إلزام" من (ك). (٣) في (ك) زيادة: "به". (٤) "وتسلية له" سقط من (ك).

الجزء: ٥ - الصفحة: ٨٥

والعدول عن مقتضى ظاهر السياق - وهو: المكذبين - إلى ﴿المنذرين﴾ للتنبيه على أن التكذيب إنما

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢٥٣/٤

يستوجب (١) نزول العذاب إذا كان بعد الإنذار، فاعتبر هذا اللطف، وذق لطف هذا الاعتبار.

(٧٤) - ﴿ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾.

﴿ثم بعثنا﴾: البعث أعم من الإرسال؛ فإن كل شيء أرسلته فقد بعثته، ومنه قوله تعالى: ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ [يس: ٥٢]، والذي أمر بتبليغ الرسالة إلى قوم وهو فيهم إنما يناسبه عبارة البعث دون الإرسال.." (١)

"﴿وكانوا قوما مجرمين﴾: معتادين بالآثام العظام، فلذلك استكبروا عنها، واجترؤوا على ردها، أما توصيف الآثام بالعظام فلأن الجرم يؤذن عن ذنب له عظم، ثم إن سبيل الكلام سبيل الاعتراض التذييلي، ويدل على تمرنهم واعتيادهم له، فجمعه لذلك.

على أن الكافر إذا وصف بالجرم والفسق دل على أشده، وأما السببية (٢) فمن نفس الاعتراض، والحمل على العطف الساذج لا يلائم بلاغة القرآن.

* * *

(١) "من بعد"من (م). (٢) في (ك): "سببه".

الجزء: ٥ - الصفحة: ٨٧

(٧٦) - ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾: فلما عرفوا أنه الحق، وأنه من عند الله تعالى لا من قبل موسى وهارون ؟ ﴿قالوا﴾ من فرط تمردهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ ظاهر، أو: فائق في فنه واضح من بين فنونه.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢٧٩/٤

والدليل على العرفانين المذكورين من النظم: إيقاع ﴿الحق﴾ موضع ضمير الآيات، وإسناد المجيء إليه، وقول ه م: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ كما مر في صدر السورة من دلالته على الاعتراف وتناهي العجز.

(٧٧) - ﴿قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾.

﴿قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم﴾: أتعيبونه وتطعنون (١) فيه؟ من قولهم: فلان يخاف القالة (٢)، كقوله: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾ [الأنبياء: ٦٠] فيستغني عن المفعول.." [(١)]

"(٦٨) - ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا﴾.

﴿فوربك﴾ أقسم باسمه (٢) تعالى مضافا إلى نبيه ؟؛ تحقيقا للأمر وتفخيما لشأن الرسول ؟.

﴿لنحشرنهم﴾ أي: المنكرين للبعث، لا بد من هذا التخصيص؛ لأن لحاق الكلام لا يتحمل التعميم (٣).

﴿والشياطين﴾ مفعول معه؛ لما روي على وفق قوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ [الزخرف: ٣٦] أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، كل كافر مع شيطانه في سلسلة.

﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا﴾: جمع الجاثي، وهو الذي يبرك على ركبتيه، يعني: أنهم يساقون جثاة من الموقف إلى شاطئ جهنم، فقوله: ﴿جثيا﴾ حال مما (٤) ضمنه لنحضرن (٥) من السوق.

* * *

* * *

(١) انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٨٦). (٢) في (م): "أقسم بالله". (٣) في هامش (س) و (ف): "بل سباقه [زاد في (س): وسياقه] لا يتحمله كما لا يخفى عن من تأمله منه. (٤) في (م):

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤/٢٨١

"ممن". (٥) في (ك): "لنحضرنهم"، وفي (م): "نحضرن".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٣٨٥

(٦٩) - ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾.

﴿ثم لننزعن﴾ النزع: إخراج الشيء مما كان متصلا به، أو ملابسا له.

﴿من كل شيعة﴾ الشيعة: الجماعة المتعاونون على أمر من الأمور.

﴿أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ تمييز، وأصله المصدر: جراءة، أو: **تمردا**، أي: نبتدئ بالأكبر جرما فالأكبر.." [1]

"موسى يافرعون إني رسول من رب العالمين﴾ [الأعراف: ١٠٤]، فإنه لو كان مأمورا بالتكنية خاصة لما خالفه (١) بالتلقيب.

﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ متعلق بـ ﴿اذهبا﴾، أو ﴿قولا﴾؛ أي: على أرجى (٢) الوجوه للاتعاظ والخشية.

وقوله: (لعل) ليس لخفاء حاله عليه تعالى، لكن أمر لهما بالدعاء على الرجاء، فإنه إذا كان الداعي راجيا فهو أحرص على الدعاء، وذلك أبلغ في إلزام الحجة.

وقيل (٣): يتذكر المتحقق (٤) ويخشى المتوهم؛ أي: يتذكر إن تحقق صدقكما فيذعن للحق، وإن لم يتحقق توهم أن يكون الأمر كما تصفانه.

والأحسن أن يقال: يتذكر المبدأ أو يخشى المعاد؛ أي: يتذكر حالة نشأته صغيرا عاجزا عن تدبير نفسه، وأنه حدث بعد أن لم يكن موجودا، فيرجع عن دعوى القدرة والربوبية، أو يخشى عقاب الله تعالى في دعواه ذلك.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/٤٦٧

* * *

(٤٥) - ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾.

﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ فرط: سبق وتقدم، ومنه الفارط الذي يتقدم الوارد، وفرس فرط: تسبق الخيل.

* * *

(١) في (م): "خالف". (٢) في (ف) و (ك): "أوجه". (٣) في (م): "قيل". (٤) في (ك): "المحقق".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٤٤٣

وقرئ: (يفرط)، من أفرطه: إذا حمله على العجلة، و (يفرط) من الإفراط (١)؛ أي: نخاف أن يعجل علينا بما يحول بيننا وبين إتمام الدعوة وإظهار المعجزة، أو أن يحمله حامل من استكباره وجبروته أو خوفه على الملك، أو شيطان جني أو إنسي من قومه القبط **المتمردين**، على المعاجلة بما ذكر، أو أن يفرط فيه.." (١)

"﴿ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ إنما ذكر امتناع نصره برفع عذاب الله مع أنه معلوم؛ لأن المراد بيان أنه لم يكن الأمر على ما قدره من امتناعه بحاشيته وجنده، فإن ذلك الذي غره حتى **تمرد** في طغيانه، ثم أخبر أنه كما لم يكن له من ينصره، لم يكن هو أيضا ممن ينتصر بنفسه؛ لضعفه عن ذلك.

* * *

(٨٢) - ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٢/٦

﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه﴾: منزلته، لم يقل: مثل مكانه؛ اكتفاء بما ذكره قبل هذا ﴿بالأمس﴾ استعير لزمان قريب ﴿يقولون ويكأن﴾؛ أي: صاروا يقول بعضهم لبعض: ألم تعلموا أن الله.

﴿ويكأن﴾ كلمة تقرير معناها: أما ترى، أما تعلم، قاله الفراء (١).

وروي أن أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك؟ قال: ويكأنه وراء البيت؛ أي: أما ترينه؟

وقال قطرب: هما كلمتان؛ (ويك) بمعنى: ويلك، محذوف اللام، قال عنترة:

* * *

(١) انظر: "معاني القرآن" للفراء (٢/ ٣١٢).

الجزء: ٨ - الصفحة: ٦١

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قول الفوارس ويك عنتر أقدم (١) وهذا الحذف للتخفيف لكثرة الاستعمال.

وأما ما قيل: إن (وي) للتعجب، و (كأن) للتشبيه، ففيه: أن التشبيه لا يناسب المقام.

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ بمقتضى مشيئته؛ لا لكرامة تقتضي البسط، ولا لهوان يوجب القبض.

﴿لولا أن من الله علينا﴾ بصرف ما كنا تمنيناه بالأمس ﴿لخسف بنا﴾ لتوليده فينا ما ولده فيه (٢).." [1]

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٢/٧

"(٦٢٠) - عن إسماعيل السدي - من طريق أسباط - (ويمدهم)، يقول: يملي لهم (١) [٦٧] - (ز)

(٦٢١) - قال مقاتل بن سليمان: (ويمدهم): ويلجهم (٢) [٦٨] - (ز)

في طغيانهم

(٦٢٢) - عن عبد الله بن مسعود، وناس من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - من طريق السدي، عن مرة الهمداني - =

(٦٢٣) - وعبد الله بن عباس - من طريق السدي، عن أبي مالك وأبي صالح - (في طغيانهم): في كفرهم (٣) - (١/ ١٦٥)

(٦٢٤) - عن عبد الله بن عباس - من طريق أبي روق، عن الضحاك - في قوله: (ويمدهم في طغيانهم)، قال: في كفرهم (٤) - (١/ ١٦٥)

(٦٢٥) - عن إسماعيل السدي - من طريق أسباط - ، نحوه (٥) - (ز)

٦٧ أورد ابن جرير ((١) / (٣١٩) - (٣٢٠)) قولا عن بعض نحاة البصرة: أن معنى (ويمدهم): يمد لهم، ثم انتقده، ورجح عليه الآثار الواردة هنا عن السلف؛ مستندا إلى النظائر، وجمع بين قول ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة والسدي، وبين قول مجاهد، فقال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب في قوله: (ويمدهم): أن يكون بمعنى: يزيدهم، على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم، كما وصف ربنا أنه فعل بنظرائهم في قوله: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) [الأنعام: (١١٠)]، يعني: نذرهم ونتركهم فيه، ونملي لهم ليزدادوا إثما إلى إثمهم» - .

٦٨ ويلجهم أي: يجعلهم يتمادون في طغيانهم، لأن اللج هو التمادي - القاموس المحيط (لجج) - نقل ابن عطية ((١) / (١٣٠)) عن بعض اللغويين أن معنى: (ويمدهم في طغيانهم) «أي: يمهلهم ويلجهم»، ثم علق عليه بقوله: «فتحتمل اللفظة أن تكون من المد الذي هو المطل والتطويل، كما فسر: (في عمد ممددة) [الهمزة: (٩)] - ويحتمل أن تكون هي معنى الزيادة في نفس الطغيان» - .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١) / (٤٨)

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٩١)

(٣) أخرجه ابن جرير (١) / (٣٢١) - وعزاه السيوطي إليه مقتصرا على ابن مسعود - .

(٤) أخرجه ابن جرير (١) / (٣٢١)، وابن أبي حاتم (١) / (٤٩) - .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١) / (٤٩) - .." [1]

"(٢٠٢٣١) - قال الحسن البصري، في قوله: (وإن يدعون إلا شيطانا مريدا): أي: إن تلك الأوثان لم تدعهم إلى عبادتها، إنما دعاهم إلى عبادتها الشيطان ذكره يحيى بن سلام - كما في تفسير ابن أبي زمنين (١) / (٤٠٧) - - .

(٢٠٢٣٢) - قال مقاتل بن سليمان: (وإن يدعون) يعني: وما يعبدون من دونه (إلا شيطانا) يعني: إبليس، زين لهم إبليس طاعته في عبادة الأوثان تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٤٠٧) - (٤٠٨) - .

(٢٠٢٣٣) - عن مقاتل بن حيان - من طريق بكير بن معروف - (وإن يدعون إلا شيطانا)، يعني: إبليس أخرجه ابن أبي حاتم (٤) / (١٠٦٨) - .

(٢٠٢٣٤) - عن سفيان [الثوري] - من طريق مهران - (وإن يدعون إلا شيطانا)، قال: ليس من صنم إلا فيه شيطان أخرجه ابن أبي حاتم (٤) / (١٠٦٨) - اختلف في المراد بالشيطان؛ فقال قوم: هو الشيطان المقترن بكل صنم - وقال آخرون: المراد: إبليس - ورجح ابن عطية ((٣) / (٢٤)) القول الثاني مستندا إلى السياق، فقال: «وهذا هو الصواب؛ لأن سائر المقالة به تليق» - ووجه الأول بقوله: «فكأنه موحد باللفظ، جمع بالمعنى؛ لأن الواحد يدل على الجنس» - .

(مريدا (١١٧))

(٢٠٢٣٥) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد بن أبي عروبة - في قوله: (مريدا)، قال: تمرد على معاصي الله أخرجه ابن جرير (٧) / (٤٩١)، وابن أبي حاتم (٤) / (١٠٦٨) وزاد في آخره: لعنه الله - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر - .

". [2]

"(٢٠٢٣٦) - قال مقاتل بن سليمان: (مريدا)، يعني: عاتيا تمرد على ربه في المعصية تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٤٠٧) - (٤٠٨) - .

(لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا (١١٨))

(٢٠٢٣٧) - عن الضحاك بن مزاحم - من طريق جويبر - في قوله: (لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا)،

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١/١١٠

(٢) موسوعة التفسير المأثور ١١/٨٨

قال: يتخذونها من دونه، ويكونون من حزبي أخرجه ابن أبي حاتم (٤) / (١٠٦٨) - .
(٢٠٢٣٨) - عن الضحاك بن مزاحم - من طريق جويبر - (نصيبا مفروضا)، قال: معلوما أخرجه ابن جرير (٧) / (٤٩١) - (٤٩٢) - .
(٢٠٢٣٩) - عن أبي مالك غزوان الغفاري - من طريق السدي - قوله: (نصيبا)، قال: حظا أخرجه ابن أبي حاتم (٤) / (١٠٦٨) - .
(٢٠٢٤٠) - عن الربيع بن أنس، في قوله: (لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا)، قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون عزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .
(٢٠٢٤١) - قال مقاتل بن سليمان: (لعنه الله) حين كره السجود لآدم - صلى الله عليه وسلم - ذكر ابن عطية ((٣) / (٢٥)) أن أصل اللعن: الإبعاد - وهو في العرف: إبعاد مقترن بسخط وغضب - ثم بين أنه يحتمل وجهين: الأول: أن يكون لعنه صفة الشيطان - الثاني: أن يكون خبرا عنه - ثم علق بقوله: «والمعنى يتقارب على الوجهين».، (وقال) إبليس لربه - جل جلاله - : (لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) - يعني: حظا معلوما، من كل ألف إنسان واحد في الجنة، وسائرهم في النار، فهذا النصيب المفروض تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٤٠٨) - ذكر ابن عطية ((٣) / (٢٥)) أن «المفروض» معناه في هذا الموضع: المنحاز، وهو مأخوذ من الفرض، وهو الحز في العود وغيره - ثم قال: «ويحتمل أن يريد: واجبا أن أتخذه - وبعث النار: هو نصيب إبليس» - .
." (١)

"إسرائيل فرقا؛ فقالت فرقة: عيسى هو ابن الله - وقالت فرقة: هو الله - وقالت فرقة: هو عبد الله وروحه - وهي المقتصدة، وهي مسلمة أهل الكتاب أخرجه ابن جرير (٨) / (٥٦٦)، وابن أبي حاتم (٤) / (١١٧١) - .
(٢٣٠٤١) - قال محمد بن كعب القرظي: (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) فهؤلاء أمة مقتصدة؛ الذين قالوا: عيسى عبد الله، وكلمته، وروحه ألقاها إلى مريم عزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .
(٢٣٠٤٢) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد - (منهم أمة مقتصدة)، يقول: على كتاب الله، وأمره أخرجه ابن جرير (٨) / (٥٦٦) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ - .
(٢٣٠٤٣) - عن إسماعيل السدي - من طريق أسباط - (أمة مقتصدة)، يقول: مؤمنة أخرجه ابن جرير

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٨٩/١١

(٨) / (٥٦٦) – وعزاه السيوطي إلى أبي الشيخ – .

(٢٣٠٤٤) – عن الربيع بن أنس – من طريق أبي جعفر – قال: الأمة المقتصدة: الذين لا هم فسقوا في الدين، ولا هم غلوا – قال: والغلو: الرغبة – والفسق: التقصير عنه أخرجه ابن جرير (٨) / (٥٦٧) – وعزاه السيوطي إلى أبي الشيخ – .

(٢٣٠٤٥) – قال مقاتل بن سليمان: (منهم أمة مقتصدة)، يعني: عصبة عادلة في قولها، من مؤمني أهل التوراة والإنجيل، فأما أهل التوراة فعبد الله بن سلام وأصحابه، وأما أهل الإنجيل فالذين كانوا على دين عيسى ابن مريم – صلى الله عليه وسلم –، وهم اثنان وثلاثون رجلا تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٤٩١) – .

(٢٣٠٤٦) – عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم – من طريق ابن وهب – في قوله: (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون)، قال: المقتصدة: أهل طاعة الله – قال: وهؤلاء أهل الكتاب أخرجه ابن جرير (٨) / (٥٦٦)، وابن أبي حاتم (٤) / (١١٧١) – (١١٧٢) ((٦٦٠٤)) – لم يذكر ابن جرير ((٨) / (٥٦٥) – (٥٦٦)) في تفسير قوله: (منهم أمة مقتصدة) غير قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وما في معناه، وبين أن اقتصادهم عني به: عدم غلوهم في عيسى، وأنهم قالوا فيه الحق من أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه – وذكر ابن عطية ((٣) / (٢١٥)) قول ابن زيد، ثم رجحه بقوله: «وهذا هو المترجح» – ولم يذكر على ذلك مستندا – ثم ذكر قولا آخر عن الزجاج، فقال: «وقد ذكر الزجاج أنه يعني بالمقتصدة الطوائف التي لم تناصب الأنبياء مناصبة المتهتكين المجاهرين» – ثم علق بقوله: «وإنما يتوجه أن توصف بالاقتصاد بالإضافة إلى المتمردة، كما يقال في أبي البختري بن هشام إنه مقتصد بالإضافة إلى أبي جهل بن هشام لعنه الله» – .

(وكثير منهم ساء ما يعملون (٦٦))

(٢٣٠٤٧) – عن مجاهد بن جبر – من طريق ابن أبي نجيح – (وكثير منهم) يهود (ساء ما يعملون) أخرجه ابن أبي حاتم (٤) / (١١٧٢) ((٦٦٠٦)) – .

(٢٣٠٤٨) – عن قتادة بن دعامة – من طريق سعيد – (منهم أمة مقتصدة) يقول: على كتاب الله، وأمره - ثم ذم أكثر القوم، فقال: (وكثير منهم ساء ما يعملون) أخرجه ابن جرير (٨) / (٥٦٦) – وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ – .

(٢٣٠٤٩) – قال مقاتل بن سليمان: (وكثير منهم) يعني: من أهل الكتاب، يعني: كفارهم (ساء ما يعملون)

يعني: بئس ما كانوا يعملون تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٤٩١) - .

(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين (٦٧))

قراءات

(٢٣٠٥٠) - عن عبد الله بن مسعود، قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (يآ أيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك أن عليا مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت ". (١)

"(٣٣٣٩١) - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - من طريق ابن وهب - في قوله: (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق)، قال: أقاموا عليه، لم يتوبوا كما تاب آخرون أخرجه ابن جرير (١١) / (٦٤٣)، وابن أبي حاتم (٦) / (١٨٦٩) - لم يذكر ابن جرير ((١١) / (٦٤٣)) غير قول ابن زيد وابن إسحاق قبله - وقال ابن عطية ((٤) / (٣٩٣)): «والظاهر من معنى اللفظ أن **التمرد** في الشيء أو المرود عليه إنما هو: اللجاج، والاستهتار به، والعتو على الزاجر، وركوب الرأس في ذلك، وهو مستعمل في الشر لا في الخير، ومن ذلك قولهم: شيطان مارد ومريد، ومن هذا سميت: مراد؛ لأنها **تمردت**، وقال بعض الناس: يقال: **تمرد** الرجل في أمر كذا إذا تجرد له، وهو من قولهم: شجرة مرداء إذا لم يكن عليها ورق، ومنه: (صرح ممرد) [النمل: (٤٤)]، ومنه قولهم: **تمرد** مارد وعز الأبلق، ومنه: الأمرد الذي لا لحية له، فمعنى (مردوا) في هذه الآية: لجوا فيه، واستهتروا به، وعتوا على زاجرهم» - .

(لا تعلمهم نحن نعلمهم)

(٣٣٣٩٢) - عن عبد الله بن عباس - من طريق الضحاك - في قوله: (نحن نعلمهم)، يقول: نحن نعرفهم أخرجه ابن أبي حاتم (٦) / (١٨٧٠) - وعزاه السيوطي إلى أبي الشيخ - .

(٣٣٣٩٣) - عن قتادة بن دعامة - من طريق معمر - في قوله: (لا تعلمهم نحن نعلمهم)، قال: فما بال أقوام يتكلفون على الناس، يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار؟! فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري - لعمري لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه نبي، قال نوح: (وما علمي بما كانوا يعملون) [الشعراء: (١١٢)] - وقال شعيب: (وما أنا عليكم بحفيظ) [هود: (٨٦)] - وقال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - : (لا تعلمهم نحن نعلمهم) أخرجه عبد الرزاق (١) /

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٦٧/١٢

(٢٨٥)، وابن جرير (١١) / (٦٤٤)، وابن أبي حاتم (٦) / (١٨٧٠) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ - .

(٣٣٣٩٤) - قال مقاتل بن سليمان: (لا تعلمهم) يا محمد، (نحن نعلمهم) يقول للنبي - صلى الله عليه وسلم - : لا تعرف نفاقهم نحن نعرف نفاقهم تفسير مقاتل بن سليمان (٢) / (١٩٢) - (١٩٣) - .

(سنعذبهم مرتين)

(١) ".

"إسرائيل حتى تستنقذهم - فسار كورس ببني إسرائيل وحلي بيت المقدس حتى رده إليه، فأقام بنو إسرائيل مطيعين لله مائة سنة، ثم إنهم عادوا في المعاصي، فسلط الله عليهم إبطنانحوس، فغزا ثانيا بمن غزا مع بختنصر، فغزا بني إسرائيل، حتى أتاهم بيت المقدس، فسبى أهلها، وأحرق بيت المقدس، وقال لهم: يا بني إسرائيل، إن عدتم في المعاصي عدنا عليكم بالسباء - فعادوا في المعاصي، فسير الله عليهم السباء الثالث؛ ملك رومية يقال له: قاقس بن إسبايوس، فغزاهم في البر والبحر، فسباهم، وسير حلي بيت المقدس، وأحرق بيت المقدس بالنيران» - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «فهذا من صفة حلي بيت المقدس، ويرده المهدي إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة، يرسى بها على يافا حتى تنقل إلى بيت المقدس، وبها يجتمع إليه الأولون والآخرون» أخرجه ابن جرير (١٤) / (٤٥٧) - (٤٥٩) - وأورده الثعلبي (٦) / (96) - (٧٠) - قال ابن كثير (٥) / (٤٧): «وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا، وهو حديث موضوع لا محالة - وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب» - وقال الألباني في الضعيفة (١٤) / (١٢٣) - (١٢٤) ((٦٥٥١)): «موضوع» - قال ابن عطية ((٥) / (٤٤٣)): «هذه المعاني ليست بالثابتة، فلذلك اختصرتها» - وقال ابن كثير ((٨) / (٤٣٨) - (٤٣٩)): «وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع من وضع زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا، ونحن في غنية عنها - ولله الحمد - ، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم - وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد **تمردوا** وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء» - .

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧٩/١٨

(٤٢٤٤٢) - عن عبد الله بن مسعود - من طريق السدي، عن مرة - =
(٤٢٤٤٣) - وعبد الله بن عباس - من طريق السدي، عن أبي مالك وأبي صالح - قال: إن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة: لتفسدن في الأرض مرتين - فكان أول الفسادين قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، فبعث الجنود، وكانت أساورته الأساورة: جمع الأسوار والإسوار، وهو قائد الفرس - اللسان (سور)
(١) ".

"عن أبي مالك غزوان الغفاري - من طريق السدي - في قوله: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم)، قال: نزلت في النضر بن الحارث عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم - وينظر: تفسير ابن كثير (٣) / (٣٩٤) - .
(٥٠٠٢٧) - عن عبد الملك ابن جريج - من طريق حجاج -، مثله أخرجه ابن جرير (١٦) / (٤٥٨) دون لفظ النزول - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر - وينظر: تفسير ابن كثير (٣) / (٣٩٤) - .
(٥٠٠٢٨) - قال مقاتل بن سليمان: قوله سبحانه: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم)، نزلت في النضر بن الحارث القرشي، وأمه اسمها: صفية بنت الحارث بن عثمان بن عبد الدار بن قصي تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (١١٥) - ذكر ابن عطية ((٦) / (٢١٤)) هذا القول، ثم قال: «ثم هي بعد [يعني: الآية] تتناول كل من اتصف بهذه الصفة» - .
تفسير الآية
(٥٠٠٢٩) - قال مقاتل بن سليمان: قوله سبحانه: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) يعلمه تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (١١٥) - .
(٥٠٠٣٠) - قال يحيى بن سلام: قوله: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) يعني: المشرك يلحد في الله، فيجعل معه آلهة، (بغير علم) أتاه من الله تفسير يحيى بن سلام (١) / (٣٥٤) - .
(ويتبع كل شيطان مريد (٣))
(٥٠٠٣١) - عن قتادة بن دعامة، في قوله: (ويتبع كل شيطان مريد)، قال: تمرد على معاصي الله عزاه

(١) موسوعة التفسير المأثور ٣٠/٢٣

السيوطي إلى ابن أبي حاتم - .

". [1]

"قال عبد الله بن عباس: (بزينة الكواكب) بضوء الكواكب تفسير الثعلبي (٨) / (١٤٠)، وتفسير البغوي (٦) / (٣٤) - .

(٦٥٠٧٦) - قال مقاتل بن سليمان: ثم قال: (إنا زينا السماء الدنيا) إنا زينا السماء الدنيا لأنها أدنى السماء من الأرض وأقربها (بزينة الكواكب) وهي معلقة في السماء بهيئة القناديل تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (٦٠٢) - .

(وحفظا من كل شيطان مارد (٧))

(٦٥٠٧٧) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد - قوله: (وحفظا) يقول: جعلتها حفظا (من كل شيطان مارد) أخرجه ابن جرير (١٩) / (٤٩٨) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم - .

(٦٥٠٧٨) - قال مقاتل بن سليمان: (وحفظا) يعني: زينة السماء بالكواكب (من كل شيطان مارد) **متمرد** على الله في المعصية تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (٦٠٢) - .

". [2]

"عن مجاهد بن جبر - من طريق ابن أبي نجيح - (ادع لنا ربك بما عهد عندك): لئن آمنا ليكشفن عنا العذاب تفسير مجاهد ص (٥٩٤)، وأخرجه ابن جرير (٢٠) / (٦٠٩) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - .

(٦٩٥٨٥) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد - قوله: (يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون)، قال: قالوا: يا موسى، ادع لنا ربك، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك أخرجه ابن جرير (٢٠) / (٦٠٩) - (٦١٠) - .

(٦٩٥٨٦) - قال مقاتل بن سليمان: (وقالوا) لموسى: (يا أيه الساحر ادع) يقول: سل (لنا ربك) - فلم يفعل، وقال: تسموني ساحرا! وقال في سورة الأعراف [(١٣٤)]: (ادع لنا ربك بما عهد عندك) أن يكشف عنا العذاب (إننا لمهتدون) يعني: مؤمنين لك - وكان الله تعالى عهد إلى موسى لئن آمنوا كشف عنهم،

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٦/٢٧

(٢) موسوعة التفسير المأثور ٢١/٣٤

فذلك قوله: (بما عهد عندك) إن آمنا كشف عنا العذاب، فلما دعا موسى ربه كشف عنهم، فلم يؤمنوا تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (٧٩٧) - ذكر ابن عطية ((٧) / (٥٥٣)) أن قوله تعالى: (وقالوا يا أيها الساحر) يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون قائل ذلك من أعلمهم بكفر السحرة؛ فيكون قوله استهزاء، وهو يعلم قدر السحر وانحطاط منزلته، ويكون قوله: (عندك) بمعنى: في زعمك وعلى قولك - الثاني: أن يكون القائل ليس من **المتمردين** الحذاق منهم، ويطلق لفظة الساحر لأحد وجهين: إما لأن السحر كان عند عامتهم علم الوقت، فكأنه قال: يا أيه العالم - وإما لأن هذه الاسمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى لأول ظهوره، فاستصحبها هذا القائل في مخاطبة قلة تحرير وغباوة، ويكون القول - على هذا التأويل - جدا من القائل، ويكون قوله: (إننا لمهتدون) بمعنى: إن نفعتنا دعوتك - ثم رجح ((٧) / (٥٥٣) - (٥٥٤) بتصرف) الاحتمال الثاني مستندا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وهذا التأويل أرجح، أعني: أن كلام هذا القائل مقترن بالجد - ثم أخبر عنهم أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا، ولو كان الكلام هزلا من أوله لما وقع نكث» - .

(فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون (٥٠))

". [1]

"(٥٩) - فلم يدخل الذين ظلموا منهم البلد خاشعين سجدا لله كما أمرهم الله، بل دخلوه زاحفين على أستاههم (أي أدبارهم) وبدلوا قول الله استهزاء **وتمردا**، فقالوا (حنطة) بدل (حطة) ، فأنزل الله عليهم بأسه وعذابه بسبب فسقهم، وخروجهم عن طاعة ربهم.

الفسق - الخروج عن الطاعة.

بدل قولا غير الذي قيل له - جاء بذلك القول مكان القول الأول.

رجزا - عذابا.." [2]

"﴿آمنوا﴾ ﴿ملاقوا﴾ ﴿الصابرين﴾

(٢٤٩) - ولما خرج طالوت بجيشه من البلد متجها إلى حرب الأعداء، وكان الوقت قائظا، سأل بنو إسرائيل طالوت الماء، فقال لهم إن الله مختبركم بنهر ستمرون به (وهو نهر الأردن على قول) فمن شرب منه فلا يصاحبني، ومن لم يشرب منه فليصاحبني، ولكن لا بأس في أن يغترف الواحد غرفة بيديه يبل بها

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٥٠/٣٦

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٦٦

ريقه، **فتمرد** أكثرهم، وشربوا من النهر، وبقي طالوت في فئة قليلة من جنوده، فاجتاز بهم النهر، فلما نظر أصحاب طالوت إلى قلة عددهم، وكثرة عدوهم، قالوا: إنهم لا يستطيعون محاربة جالوت وجنوده لقلة عددهم، فشجعهم علماؤهم، وقالوا لهم: إن وعد الله حق، وإن النصر من عند الله، وليس بكثرة العدد والعدة، وكثيرا ما غلبت قوة صغيرة مؤمنة مخلصة في قتالها، فئة كثيرة العدد بإذن الله، والله يؤيد الصابرين وينصرهم.

فصل - انفصل عن المدينة.

مبتليكم - مختبركم وهو أعلم بكم.

اغترف - أخذ بيده.

لا طاقة لنا - لا قدرة ولا قوة لنا.

فئة - جماعة من الناس.." (١)

"﴿آمن﴾ ﴿الكتاب﴾ ﴿الفاسقون﴾

(١١٠) - يخبر الله تعالى المؤمنين أنهم خير أمة في الوجود، لأنهم يؤمنون إيمانا صادقا بالله، ويظهر أثره في نفوسهم، فينزعهم عن الشر، ويصرفهم إلى الخير، فيأمرون بالمعروف والأعمال الصالحة، وينهون عن المنكرات وما حرم الله من الظلم والبغي.

ولو آمن أهل الكتاب إيمانا صحيحا يستولي على النفوس، ويملك أزمة القلوب فيكون مصدر الفضائل والأخلاق الحسنة، كما تؤمنون أنتم، أيها المسلمون، لكان ذلك خيرا لهم مما يدعونه من إيمان لا يزع النفوس عن الشرور، ولا يبعدها عن الرذائل. وبين أهل الكتاب جماعة مؤمنون مخلصون في إيمانهم، ولكن أكثرهم فاسقون عن دينهم، **متمردون** في الكفر.

كنتم - وجدتم وخلقتم.

أخرجت - أظهرت.

الفسوق - الخروج عن الطاعة.." (٢)

"﴿إناثا﴾ ﴿شيطانا﴾

(١١٧) - إن الكافرين يدعون من دون الله أوثانا صوروها، وقالوا إنها تشبه الملائكة التي زعموا أنها بنات

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٢٥٦

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٤٠٣

الله، لذلك عبدوها، وسموها بأسماء الإناث (مثل اللات والعزى ومناة. .) والذي أمرهم بذلك هو الشيطان، وهو الذي حسن لهم ذلك، وزينه في أعينهم، فكانت طاعتهم له عبادة.

مريدا – **متمردا** ومتجردا من الخير.

إناثا – أصناما يزينونها كالنساء.." (١)

"﴿يسألك﴾ ﴿الكتاب﴾ ﴿كتابا﴾ ﴿الصاعقة﴾ ﴿البينات﴾ ﴿وآتينا﴾ ﴿سلطانا﴾

(١٥٣) – سأل اليهود رسول الله A على سبيل التعنت والتعجيز أن ينزل عليهم كتابا من السماء مكتوبا بخط سماوي، يشهد أنه رسول الله، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. وسأل كفار قريش رسول الله A: أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا، ويقول تعالى لرسوله A: لا تعجب من سؤالهم هذا، فإن اليهود، من أسلافهم، قد سألوا موسى ما هو أكبر من ذلك، فقالوا له: أرنا الله جهرة وعيانا، فعاقبهم الله بإنزال الصاعقة عليهم، بسبب طغيانهم، وبغيهم وعتوهم عن أمر ربهم ولأنهم سألوا موسى تعنتا، وبعد أن رأوا من آيات الله الباهرة على يد موسى في مصر، من إهلاك فرعون وجنوده في البحر. ثم عبدوا العجل حينما كان موسى يناجي ربه، ثم أعطى الله موسى سلطة ظاهرة على بني إسرائيل، وأخضعهم لسلطانه، مع ما هم عليه من **تمرد** وعناد. فلما أمرهم بأن يقتل البريء منهم المذنب فعلوا.

جهرة – عيانا بالبصر.

الصاعقة – نار من السماء أو صيحة منها.." (٢)

"﴿بميثاقهم﴾ ﴿ميثاقا﴾

(١٥٤) – ثم فرض الله تعالى عليهم بأن يلتزموا بأحكام التوراة، وما جاء فيها، فظهر منهم إباء **وتمرد** على موسى، وما جاءهم به، فرفع الله فوقهم جبل الطور، وهددهم بإسقاطه عليهم، إن لم يلتزموا بأحكامها، فخافوا وقبلوا العمل بها. ثم أمرهم الله بأن يدخلوا باب أول مدينة احتلوها في الأرض سجدا لله شكرا له على نعمه، وأن يقولوا حطة (أي اللهم حط عنا خطايانا وذنوبنا) فدخلوه يزحفون على أستاههم (أدبارهم) وهم يقولون: (حنطة في شعرة) .

وأمرهم الله بأن يلتزموا بأحكام السبت، وحرمته وتعظيمه، فاحتالوا فيه لصيد الحيتان، عن طريق نصب الشباك لها قبل حلول السبت، وجمعها بعد انقضائه.

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٦١٠

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٦٤٦

وأخذ الله منهم عهدا مؤكدا (ميثاقا غليظا) ليأخذن بأحكام التوراة بقوة، وليقيمن حدود الله، ولا يتجاوزها، فخالفوا وعصوا، وارتكبوا ما حرم الله، عن طريق الحيلة والخداع.

لا تعدوا – لا تعتدوا بصيد الحيتان.

ميثاقا غليظا – عهدا مؤكدا.." (١)

"﴿ياأيها﴾ ﴿يسارعون﴾ ﴿آمنا﴾ ﴿بأفواههم﴾ ﴿سماعون﴾ ﴿آخرين﴾ ﴿أولئك﴾ ﴿الآخرة﴾

(٤١) – نزلت هذه الآية والتي بعدها في المنافقين، الذين يقولون آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، وفي أعداء الإسلام من اليهود، الذين كانوا كثيري الاستماع إلى كلام الرسول A، والإخبار عنه، لأجل الكذب عليه بالتحريف واستنباط الشبهات، فهم جواسيس بين المسلمين لأعدائهم، مهمتهم إبلاغ رؤوس الكفر أعداء الإسلام، كل ما يقفون عليه ليكون ما يفترونه على النبي A والمسلمين من كذب مقبولا، لأنهم يروون ما يقال، ويحرفون فيه، وكان هؤلاء يأتون إلى الرسول A ليستمعوا منه، ثم ينقلون ما يسمعونه منه إلى الرؤساء ذوي الكيد، الذين لم يأتوا إلى النبي ليستمعوا منه بآذانهم، إما كبرا وإما تمردا.

ويقوم الرؤساء الروحيون من اليهود بتحريف كلام التوراة من بعد أن وضعه الله في مواضعه، وأحكمه، إما تحريفا لفظيا، بإبدال كلمة بكلمة، وإما بإخفائه وكتمانه، وإما بالزيادة فيه، أو بالنقص منه، وإما تحريفا معنوسا، بحمل اللفظ على معنى يختلف عن المعنى الذي قصده الشارع، ويقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد الحكم الذي تريدون فاقبلوه، وإن قضى بغيره فلا تستمعوا إليه.

(وهذه الآية نزلت في يهوديين زنيا بعد هجرة الرسول A إلى المدينة بقليل، وكان اليهود قد تخلوا عن تنفيذ ما شرعه الله لهم في التوراة من رجم الزناة المحصنين، فحرفوا حكم الله، واصطلحوا فيما بينهم على جلد الزاني مئة جلدة مع صبغ الوجه بالسواد (ويسمونه التحميم) . فلما وقعت حادثة الزنى، قال بعض اليهود لبعض تعالوا نتحاكم إلى محمد فإن حكم بالجلد، وصبغ الوجه بالسواد، فخذوا ذلك عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه. فلما جاؤوا إلى الرسول A سألهم عما في كتابهم في حكم الزناة، فقالوا نفضحهم ويجلدون. فقال لهم عبد الله بن سلام – وكان حبرا من أحبارهم ثم أسلم – كذبتم إن فيه الرجم) .

ومن أراد الله أن يختبره في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله، فلن تملك له يا محمد من الله شيئا، لأن الله لم يرد أن يطهر قلبه، ولا أن يهديه؛ ولهذا الضال خزي في الدنيا، وله في الآخرة عذاب عظيم. فلا

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٦٤٧

تحزن يا محمد بعد هذا على مسارعتهم في الكفر، ولا تطمع في هدايتهم إلى الإيمان، فإنك لا تملك لأحد نفعا، وإنما عليك البلاغ.

سماعون للكذب – يسمعون كلامك فيحرفون فيه ليكذبوا عليك.

سماعون لقوم آخرين – يسمعون كلامك للتجسس عليك.

يحرفون الكلم – يبدلونه أو يؤولونه بالباطل.

خزي – ذل وفضيحة.

الفتنة – هي الاختبار والابتلاء.." (١)

"﴿إسرائيل﴾

(٧٨) – لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل في الزبور والإنجيل، فقد لعن داود، عليه السلام، من اعتدى منهم في السبت، أو لعن العاصين المعتدين منهم عامة، وكذلك لعنهم عيسى بن مريم، وسبب ذلك اللعن هو تماديهم في العصيان، **وتمردهم** عن طاعة الله، وتماديهم في الظلم والفساد (بما كانوا يعتدون) .." (٢)

"﴿فاسقون﴾

(٨١) – ولو كان هؤلاء اليهود، الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب، يؤمنون بالنبي الذي يدعون اتباعه (وهو موسى عليه السلام) ، وما أنزل إليه من الهدى والبينات، لما اتخذوا أولئك الكافرين من عابدي الأوثان، أولياء وأنصارا، ولكانت عقيدتهم الدينية صدتهم عن ذلك، ولكن كثيرا منهم **متمردون** في النفاق، خارجون عن حظيرة الدين، ولا يريدون إلا الجاه والرياسة، ويسعون إلى تحصيلهما بأية طريقة كانت، وبأية وسيلة قدروا عليها.." (٣)

"﴿خلقناكم﴾ ﴿صورناكم﴾ ﴿للملائكة﴾ ﴿الساجدين﴾

(١١) – ينبه الله تعالى الناس إلى شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة إبليس لهم، ويذكرهم بأنه خلق آدم من طين، ثم بعد أن صوره نفخ فيه من روحه، وأنه أمر الملائكة بالسجود لآدم، تكريما وتعظيما، فسجدوا إطاعة لأمر الله، إلا إبليس فإنه رفض السجود، **وتمرد** على أمر ربه.." (٤)

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٧١١

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٧٤٨

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٧٥١

(٤) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٩٦٦

"﴿الصاغرين﴾

(١٣) – فأمر الله تعالى إبليس بأن يهبط من الجنة إلى الأرض، لعصيانه أمر ربه، وخروجه عن طاعته، فما ينبغي له أن يتكبر فيها. ثم أمره تعالى بالخروج من الجنة ذليلا حقيرا، بسبب كفره وتمرده على أمر ربه.

الصاغرين – الأذلاء.." [١]

"﴿صراطك﴾

(١٦) – لما استوثق إبليس من وعد الله له بإبقائه إلى يوم الوقت المعلوم، أخذ في المعاندة والتمرد فقال لربه: كما أغويتني (فبما أغويتني) وأضللتني وأهلكتني فإنني سأحاول فتنة ذرية آدم، وسأعترض سبيلهم محاولا إبعادهم عن طريق الله المستقيم، طريق الحق والهدى، بأن أزين لهم طرقا أخرى حتى يضلوا.

فبما أغويتني – كما أضللتني.

لأقعدن لهم – لأجلسن لهم، ولأترصدن لهم.." [٢]

"﴿ياصالح﴾

(٧٧) – فقام تسعة رهط (أفراد) من كبراء ثمود، باستمالة قومهم لموافقتهم على نحر الناقة (عقرها) ، والتخلص منها، فعقروها استخفافا بصالح، وناقته، وتحذيره لهم من عذاب الله وعقابه، وتمردوا وتجبروا عن اتباع الحق الذي أبلغهم إياه صالح (عتوا عن أمر ربهم) ، وقالوا لصالح: إن كنت صادقا بأنك مرسل من ربك، وأنك تنذرنا بعذاب من عند الله فأتنا بهذا العذاب.

العتو – التمرد والاستكبار.

العقر – القتل والذبح.." [٣]

"﴿خاسئين﴾ ﴿عن ما﴾

(١٦٦) – فلما استمروا في عتوهم وتمردهم وطغيانهم، قال الله لهم: كونوا قردة ذليلين حقيرين، فكانوا.

خاسئين – ذليلين حقيرين.." [٤]

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٩٦٨

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٩٧١

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/١٠٣٢

(٤) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/١١٢١

"﴿الجاهلين﴾

(١٩٩) - أعرض أيها النبي عن الجاهلين، وسر في سبيل الدعوة، وخذ الناس بما يسهل عليهم، وأمرهم بكل أمر مستحسن تعرفه العقول، وتدركه الأفهام.

وكان النبي A لا يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

(وروي أن النبي A سأل جبريل، عليه السلام عن المقصود من هذه الآية، فقال جبريل: (" إن الله يأمرك بأن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك ") (رواه ابن جرير وابن أبي حاتم) .

وقيل إن حسن المعاملة يكف العاصي عما هو فيه من **التمرد**.

العفو - هو السهل الذي لا كلفة فيه.

خذ العفو - خذ ما عفا وصفا من أخلاق الناس.

وأمر بالعرف - المعروف حسنه في الشرع.." (١)

"(١٢٦) - أيجهل هؤلاء المنافقون أن الله تعالى يختبرهم (يفتنون) : كل عام مرة أو مرتين، بالغزاة أو غير ذلك من أسباب الفتنة والابتلاء، والاختبار لهم، التي تظهر استعداد النفوس للإيمان والطاعة، أو للكفر **والتمرد**، والخروج عن طاعة الله، ثم لا يتوبون عما هم عليه من الغي والضلال، واقتراف الذنوب، ومقارفة المعاصي، ولا يرجعون عن غيهم، ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب.

يفتنون - يمتحنون ويختبرون بالشدائد والبلايا.." (٢)

"(٩٥) - فأصبح القوم هلكى كأنهم لم يعمروا ديارهم قبل ذلك، ولم يقيموا فيها، ألا بعدا وهلاكا لمدين، كما هلكت ثمود وبعدت من رحمة الله. (وكانت ثمود جيران مدين في الأرض، وأشباههم في الكفر **والتمرد** على الله) .

لم يغنوا فيها - لم يقيموا طويلا فيها في رغد.

بعدا لمدين - هلاكا وسحقا لهم.." (٣)

"﴿فدمرناها﴾

(١٦) - في قراءة (أمرنا) وجهان:

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/١١٥٤

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/١٣٦٢

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/١٥٦٩

(أمرنا بالتخفيف – وهو المشهور في قراءتها: فمن قائل: إن المعنى هو أنه إذا دنا تعلق إرادتنا بإهلاك قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر فيها من المعاصي، ولما دنست به نفسها من الآثام، لم يعاجلها الله تعالى بالعقوبة، بل يأمر مترفيها بالطاعة فإذا فسقوا عن أمر ربهم، **وتمردوا**، حق عليهم العذاب لارتكابهم الكبائر والفواحش، فيأمر الله تعالى بتدمير تلك القرية. (وخص الله تعالى المترفين بالذكر لما جرت به العادة من أن العامة تقلدهم وتكون تبعا لهم، فيما يفعلون) .

– ومن قائل بل إن المعنى هو: أن الله يسخرهم لفعل الفواحش فيستحقون العقوبة.

– وأمرنا – بتشديد الميم – وقال ابن عباس إن معناها سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب. وهذا مثل قوله تعالى ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ .

– وعن ابن عباس أيضا: إن معنى (أمرنا مترفيها) ، أكثرنا عددهم فيؤدي ذلك إلى انتشار الفسق والفساد والكفر، فيهلككم الله بالعذاب.

أمرنا مترفيها – أمرنا منعميها بطاعة الله.

ففسقوا فيها – **فتمردوا** وعصوا وخرجوا عن الطاعة.

فدمرناها – استأصلناها ومحونا آثارها.." [1]

"(٤٣) – اذهبا إلى فرعون فإنه عتا عن أمر ربه، **وتمرد** وتجبر على الله وعصاه.." [2]

"﴿يجادل﴾ ﴿شيطان﴾

(٣) – بعد أن شرح الله تعالى حال الناس يوم الحشر، وبعد أن أكد أن الحشر والفزع واقعان يوم القيامة لا محالة، قال تعالى: ومع ذلك فإن هناك بعض الناس يجادلون في الله: في وجود الله، وفي وحدانيته، وفي قدرته على إحياء الموتى. . وفي علمه. وجدالهم هذا بغير علم صحيح، وبدون دليل واضح، وهو جدال ناتج عن اتباع الشيطان **المتمرد** على ربه.

المريد – العاتي المتجرد للفساد، المخالف للحق.." [3]

"﴿مساكنهم﴾ ﴿الوارثين﴾

(٥٨) – يعرض الله تعالى بأهل مكة، وينبههم إلى أنه قد سبق له أن أهلك كثيرا من المدن والقرى، التي

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٢٠٤٦

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٢٣٩٢

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٢٥٠٠

طغت وأشرت وكفرت بنعمة الله، فيما أنعم به عليها، فدمرها تدميرا، ولم يترك أحدا من أهلها حيا، ولم يعد يرى فيها إلا المساكن الخراب المهجورة، لم يسكنها أحد بعدهم، إلا عابرو السبيل لفترات قصيرة، وهم مارون مجتازون بها، وآلت وراثتها إلى الله، لأنه لم يبق من أهلها أحد يمكن أن يدعي وراثتها.

بطرت معيشتها – طغت **وتمردت** في أيام حياتها.." (١)

"﴿شيطان﴾

(٧) – وحفظ الله السماء حفظا من كل شيطان **متمرد** عات فإذا تجاوز هذا الشيطان حدوده، وأراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب.

مارد – **متمرد** خارج عن الطاعة.." (٢)

"(٢٦) – فهم اليوم لا ينازعون في الوقوف، ولا **يتمردون**، وإنما هم منقادون ذليلون مستسلمون لأمر الله تعالى لا يخالفونه، ولا يحيدون عنه.." (٣)

"﴿آخرين﴾

(٣٨) – وأخضع الله تعالى الشياطين، المشاكسين **المتمردين**، لأمر سليمان عليه السلام، فوضعهم سليمان في القيود والأصفاد ليتقي شرهم، ويكف فساده عن العباد.

الأصفاد – الأغلال تجمع بها الأيدي إلى الأعناق.." (٤)

"(٣) – والله تعالى منزل القرآن هو الذي يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة ممن تاب وأناب، وأخلص في التوبة والعمل، وهو شديد العقاب لمن **تمرد** وطغى، وعتا عن أمر ربه، وهو المتفضل على عباده، وهو ذو المن والطول والخير الكثير، لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وإليه تعالى المرجع والمصير والمنقلب.

غافر الذنب – ساتر الذنب للمؤمنين.

قابل التوب – الذي يقبل التوبة من المذنبين.

ذي الطول – ذي الفضل والإنعام.." (٥)

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٣١٩٢

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٣٦٧٤

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٣٦٩٣

(٤) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٣٨٨٧

(٥) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٤٠١٥

"﴿الصاعقة﴾

(٤٤) – فكذبت ثمود صالحا عليه السلام، واستكبروا، وعتوا عن أمر ربهم، فأرسل الله تعالى عليهم صاعقة من السماء، ورجفت بهم الأرض فهلكوا جميعا، وهم ينظرون إلى وقوعها بهم.

فعتوا – فاستكبروا وتمردوا.

أخذتهم الصاعقة – أهلكتهم صيحة أو نار من السماء.." [1]

"والذي يبدو لي أن الكلمة تدل على المعنيين، فتدل على البعد، لأن الشيطان بعيد عن الحق والصواب، وتدل كذلك على الاحتراق لأن الشيطان محترق بذنوبه. فلفظ الشيطان يطلق على كل متمرد من الجن والإنس والحيوان. قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن﴾ ((١)) . وركب سيدنا عمر (– رضي الله عنه –) برذونا فطفق يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترا، فنزل فقال: ((ما حملتموني إلا على شيطان)) ((٢)) .

٦. ﴿ظهيرا﴾ :

التظاهر التعاون والتساعد، واستظهر به، أي: استعان. وظهرت عليه: أعنته، وظهر علي أعانني كلاهما عن ثعلب. وتظاهروا عليه تعاونوا. وظاهر بعضهم بعضا أعانه. والظهير العون الواحد والجمع في ذلك سواء، وإنما لم يجمع ظهير لأن فعيلا وفعولا قد يستوي فيها المذكر والمؤنث والجمع ((٣)) .

٧. ﴿للمجرمين﴾ :

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣١.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٥ /١٧٨. سنن النسائي الكبرى. أحمد بن شعيب بن علي بن عبد الرحمن النسائي أبو عبد. (٢١٥ ـ ٣٠٣) . تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري. وسيد كسروي حسن. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م.: ٨ /٢٧٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي أبو الفتح. ت ٦٣٧ هـ. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت. ط١. ١٩٩٥ م.: ١ /١٦٠.

(٣) ينظر لسان العرب: مادة (ظهر) ٤/ ٥٢٥.." [2]

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٤٥٩٨

(٢) سورة القصص دراسة تحليلية محمد مطني ٣١١/١

"أي: رأوا كل من سواهم حقيرا بالإضافة إليهم، ولم يروا العظمة والكبرياء إلا لأنفسهم، فنظروا إلى غيرهم نظر الملوك للعبيد في الأرض وقوله: ﴿بغير الحق﴾ ، لأن الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وهو المتكبر، أي: المتبالغ في كبرياء الشأن، فكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ((١)) . قال (- صلى الله عليه وسلم -) فيما يحكيه عن ربه: ((الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحدة منهما قذفته في النار)) ((٢)) .

﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾

الظن، قيل: إما على ظاهره، أو عبر عن اعتقادهم به تحقيرا وتمهيلا ((٣)) .

ويقول الرازي في معنى قوله تعالى: ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ ، فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى، إلا أنهم كانوا ينكرون البعث، فلأجل ذلك **تمردوا** " ((٤)) .

وقال ابن عاشور: " فذكر (إلينا) لحكاية الواقع وليس بقيد، فلا يتوهم أنهم أنكروا البعث ولم ينكروا وجود الله مثل المشركين، وبتقديم (إلينا) على عامله لأجل الفاصلة، ويمكن أن يكون المعنى: وظنوا أنهم في منعة من أن يقعوا في قبضة قدرتنا " ((٥)) . أو أنهم كانوا يعتقدون بالبعث، ولكن الذي يحاسبهم هو فرعون وليس الله سبحانه وتعالى كما هو الواقع بدليل قوله تعالى: ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ .

ما يستفاد من النص

---

(١) ينظر الكشاف: ٣/ ١٨١. روح المعاني: ٢٠/ ٨٢.

(٢) صحيح ابن حبان: ٢ /٣٥. المستدرك على الصحيحين: ١ /١٢٩. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأخرجه مسلم بغير هذا اللفظ.

(٣) روح المعاني: ٢٠/ ٨٣.

(٤) مفاتيح الغيب: ١٢/ ٢٥٤.

(٥) التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٢٤.." [1]

"الرحمة والرأفة صفتان من صفات الله تعالى

وقوله: (ورحمته) : الرحمة ضد العذاب، وكم لله عز وجل من رحمة بالعباد، وأعظمها رحمة الدين والهداية، والبعد عن سبيل الضلال والغواية! فهذه أجل النعم وأعظمها، وهي النعمة التي لا يعطيها الله عز وجل إلا

---

(١) سورة القصص دراسة تحليلية محمد مطني ١/٤٤٤

لمن أحب، أي: لولا أن الله تفضل عليكم ورحمكم، كيف يكون الحال؟! وكيف يكون شأنكم؟! وقوله: (ورحمته) : فيه إثبات صفة الرحمة لله تبارك وتعالى، وهي الصفة التي بلغت الكمال والغاية، فلا أرحم من الله ولا أحلم بخلق الله عز وجل منه، ولذلك ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل قسم الرحمة إلى مائة جزء، ثم أنزل منها جزءا واحدا يتراحم الخلق به) .

فهذا الجزء الواحد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن شاهد من شواهده، وهي: أن الدابة لترفع قدمها لرضيعها حتى لا تطأه، فهذا من ذلك الجزء من الرحمة، حتى إذا كان يوم القيامة جمع ما عنده إلى ذلك الجزء فرحم به عباده وهو أرحم الراحمين، ولذلك ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله عز وجل كتب كتابا عنده قبل خلق السموات والأرض أن رحمتي تسبق عذابي) فرحمته سبحانه وتعالى بعبيده وخلقه أعظم وأجل من كل رحمة، ولا رحمة إلا من رحمة الله تبارك وتعالى! وكم لهذه الرحمة من شواهد ودلائل! رحم العباد فسخر لهم الأرزاق والنعم والمنن: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود:٦] وما ماتت دابة من الدواب تحتسب رزقها على الله عز وجل.

وكذلك رحمهم بألفة بعضهم لبعض، حتى رحم الصبي إذ أوجده، فعطف قلب أمه عليه إنسانا كان أو حيوانا.

ورحم العباد فجعل قلوبهم متفاوتة، فمنهم الحليم الرحيم الرفيق الرقيق، ومنهم من هو بخلاف ذلك، فإن كانت الشدة صلح لها قوي القلب، وإن كانت الرقة صلح لها رقيق القلب بإذن الله، وكل ذلك من شواهد رحمته.

وأما رحمته بالعبد فقد رحمه وهو في الظلمات -في بطن أمه- تقلب في طور الخلق طورا بعد طور، يكلؤه بعنايته، ويحفظه برعايته، ويشمله برحمته، فأعطاه الغذاء، وأعطاه ما ينبت لحمه وينشز عظمه، وما من حركة له في تلك الظلمات إلا قدرها عليه، وما من سكون له في ذلك المكان الذي لا يعلمه سواه إلا وهو لطيف رحيم به سبحانه وتعالى.

وأغرب ما يكون أنك ترى المرأة وهي في حملها وقد حان وضعها لو أنها عرضت بفجيعة واحدة لأسقطت جنينها ولمات ذلك الجنين! فسبحانك ما أرحمك وما أحلمك وما أرأفك بخلقك! فرحم الإنسان في تلك الأحوال، ولو أنها ضربت على بطنها ضربا لربما سقط جنينها ميتا، ولربما ماتت معه من ذلك الإسقاط، فهذه رحمة سبقت قبل وجود الإنسان.

ثم جاءت تلك الساعة العصيبة الرهيبة ساعة وضعه، فأعطاه رحمته وأولاه عنايته، فكانت ساعة يرى فيها

الموت، وترى أمه فيها الموت، حتى إن مريم بنت عمران كما يقول الله: ﴿فناداها من تحتها ألا تحزني﴾ [مريم:٢٤] وذلك عندما جاءتها تلك الساعة و ﴿قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا﴾ [مريم:٢٣] .

ورحم الله عز وجل العبد بعد أن أخرجه إلى هذه الدنيا، فسخر له الشراب السائغ يغتذي به ليله ونهاره، وصباحه ومساءه، فهل عدم يوما من الأيام رزق الله؟! وهل فقد يوما من الأيام هذه الرحمة من الله؟! ثم تقلب في طور بعد طور، ومرحلة بعد مرحلة، يغذوه بنعمه ومنه وكرمه، حتى أصبح بشرا سويا جلدا قويا قال: لا رب لي، ولا إله لي والعياذ بالله! فكان أعظم ما يكون فجورا وكفورا وإعراضا عن الله! وبالنفس غرورا! ومع ذلك يرحمه، فيطعمه من طعامه، ويسقيه من شرابه، ويظله بظله، ويشمله برحمة لا يعلمها إلا هو سبحانه، مع أنه عاص **متمرد** على الله عز وجل، نسأل الله السلامة والعافية.

وهذا من أبلغ ما يكون من الرحمة.

فكل هذه النعم لو لم تكن كيف يكون حال الإنسان؟! بل إن الإنسان لو أن الله عز وجل تركه طرفة عين يمشي دون رحمة لهلك والعياذ بالله، ولذلك صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه: (يا حي يا قيوم! برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين) أي: لا تحرمني هذه الرحمة وهذا اللطف والرحمة منك سبحانك وتعاليت، فالمقصود: أن الله عز وجل نبه العباد بهذه الآية إلى أنهم حقراء فقراء إلى رحمته، لولا الرحمة من الله واللطف منه عز وجل: كيف سيكون حالكم؟! ﴿وأن الله رءوف رحيم﴾ [النور:٢٠] : رءوف بكم! رحيم بكم! لا تستوجبون عليه من ذلك شيئا؛ ولكنه صاحب الفضل والكرم.

وقوله: (رءوف رحيم) : فيه إثبات صفتين لله عز وجل: - صفة الرأفة.

- وصفة الرحمة.

ورأفة الله عز وجل غاية الرأفة، ولا تكون الرأفة إلا بالعطف الشديد على الإنسان، فيقال: فلان يرأف بفلان إذا عطف عليه عطفا شديدا، والله تبارك وتعالى على أكمل ما يكون رأفة بالعباد، ولذلك صح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما كان في الغزاة ففقدت امرأة صبيها فولهت من فقده، فجاء صبيها يعدو فانتشلته ورفعته، فقال عليه الصلاة والسلام: (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟! قالوا: لا.

قال: لله أرحم بخلقه من هذه بولدها) فهذا يدل على عظيم رأفته وجليل رحمته سبحانه وتعالى.." (١)

---

(١) تفسير سورة النور محمد المختار الشنقيطي ٥/٧

"نهي الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين عن اتباع سبيل الشيطان

هذه الثلاثة الأمور، أشار الله تبارك وتعالى إلى أولها بقوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) .

قوله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا) (يا) : حرف نداء، و (أي) : منادى، و (الهاء) : للتنبيه.

أي: يا من آمنتم بي، وآمنتم برسلي، وآمنتم بكتابي، ولقائي! لا تتبعوا خطوات الشيطان.

هذا النداء من الله تبارك وتعالى استفتحه بهذه الخصلة العظيمة التي تدل على شرف الإنسان وعلو مكانته عند الله عز وجل وهي صفة الإيمان بالله تبارك وتعالى.

وفي استفتاح هذا النهي بهذا النداء تشويق لأهل الإيمان أن يلتزموا شرع الرحمن، أي: إن كنتم أهل إيمان وطاعة واتباع لي، ولسبيلي لا تكونوا متابعين للشيطان في أوامره التي يأمركم بها بالفحشاء والمنكر.

وهذا النداء يستفتح الله تبارك وتعالى به بعض أوامره، ويستفتح به نواهيه، قال بعض العلماء: إن الله تبارك وتعالى يستفتح أوامره ونواهيه بهذا النداء؛ لكي يشوق السامعين والقارئين للقرآن للعمل بما تضمنه ذلك النداء من الأمر، ولترك ما اشتمل عليه من النهي، ولذلك قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها: (إذا سمعت الله عز وجل يقول: (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك، فإنما هو خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه) .

ولذلك قال العلماء رحمهم الله: إن الله تبارك وتعالى يستفتح الآيات بهذا النداء الذي يتضمن أحد ثلاثة أمور: - إما أمر بالمعروف.

- وإما نهي عن المنكر.

- وإما أن يجمع بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فمن أمثلة أمره بالمعروف: أمره بتقواه فقال: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) .

ومن أمثلة نهيه عن المنكر كما في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ [النور:٢١] .

فقد تضمنت هذه الآية الكريمة النهي عن اتباع سبيل الشيطان، بل إن النهي عن اتباع خطوات الشيطان هو النهي عن الشر والبلاء كله، فالشر كل الشر في متابعة الشيطان، والخير كل الخير في اتباع سبيل الرحمن، ولن تجد من العبد معصية انتهك بها حدود الله أو أصاب بها محارم الله تبارك وتعالى إلا وجدت الشيطان داعيا إليها محببا إياها ومقربا منها، ولذلك جمع الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة النهي

عن أصل الشر كله والتحذير منه، فكل الشر في هذا الأمر، وهو اتباع خطوات الشيطان.
(يا أيها الذين آمنوا) خص الله عز وجل أهل الإيمان في هذه السورة الكريمة ونهاهم عن اتباع سبيل الشيطان، وجاء في آية أخرى النهي لعموم الناس في قوله: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [البقرة:١٦٨] فنهى الله تبارك وتعالى الناس عموما والمؤمنين خصوصا: - فشمل النداء عموم الناس مؤمنهم وكافرهم حينما قال: (يا أيها الناس) .
- وخص أفضل الناس وهم أهل طاعته، وأهل سبيل محبته، حينما ناداهم في هذه السورة فقال: (يا أيها الذين آمنوا) .
وفي هذا النداء دليل على أن الإيمان يستلزم من الإنسان القول والعمل الصالح، كما قرره أهل السنة والجماعة من أن الإيمان بالله عز وجل: (اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان) .
اعتقاد بالجنان: فلابد أن يكون جنان الإنسان أي: قلبه مؤمنا بالله تبارك وتعالى.
وقول باللسان: وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله عليه الصلاة والسلام.
وأما فعل الأركان والجوارح: فهو العمل بمقتضى هذه الشهادة، فتكون الأقوال والأفعال موزونة بميزان الكتاب والسنة، لا يحيد المؤمن عن ذلك قيد شعرة، فإن حاد نقص إيمانه بقدر ما حاد، وإن ازداد من الخير والطاعة والاستقامة على منهج الله تبارك وتعالى كان أحظى الناس بالإيمان وأعلاهم مرتبة في طاعة الرحمن.
يقول الله تبارك وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) الخطوات: جمع خطوة، وهي ما بين القدمين، ويقال: خطوة، وهو مصدر.
(لا تتبعوا خطوات الشيطان) للعلماء رحمهم الله في (خطوات الشيطان) أقوال: - فمن أهل العلم من قال: إن قوله تبارك وتعالى: (خطوات الشيطان) : المراد منه الخطايا التي يصيبها الإنسان باتباعه الشيطان؛ لأن الشيطان متمرد على طاعة ربه، بعيد عن محبة الله عز وجل وسبيل ولايته.
- ومن أهل العلم من قال: إن قوله: (لا تتبعوا خطوات الشيطان) أي: آثاره.
- ومنهم من قال: (لا تتبعوا خطوات الشيطان) المراد بها: نذور المعاصي التي كان عليها أهل الجاهلية في جاهليتهم؛ لأن الشيطان كان يدعوهم بها إلى انتهاك حدود الله، وغشيان محارم الله تبارك وتعالى.
- وهناك قول اختاره بعض المفسرين -وهو قول لطيف- يقول: إن قوله تبارك وتعالى: (لا تتبعوا خطوات الشيطان) المراد بها: انتقال الشيطان من المعصية إلى المعصية، فهو يقود الإنسان إلى حدود الله شيئا فشيئا، ويحببه في معاصي الله خطوة خطوة، حتى يفضي به إلى أعظم الحدود وأكبر الكبائر وهو الشرك

بالله والعياذ بالله.
- وهناك قول أخير في هذه الآية الكريمة -وهو القول الخامس-: وأن المراد بقوله: (خطوات الشيطان) : أي: الخطوة التي ينتقل بها من الحلال إلى الحرام.
فالمقصود: أن هذه هي أقوال العلماء في قوله تعالى: (لا تتبعوا خطوات الشيطان) .
والذي عليه بعض المحققين: أن الآية شاملة لهذا كله، فما دام أن الجميع يصدق عليه أنه خطوة للشيطان، فلا مانع أن الله تبارك وتعالى ينهانا عن جميع ذلك، والأصل أن اللفظ ما دام على عمومه أن يحمل على ذلك العموم سواء ورد في الكتاب أو ورد في السنة فيبقى لفظ الآية الكريمة في الدلالة على العموم حتى يرد النص الذي يدل على شيء مخصوص بعينه.
ومن هنا يتبين لنا أن نهي الله تبارك وتعالى عن اتباع خطوات الشيطان المراد به النهي عن جميع ذلك كله، فالإنسان مطلوب منه أن يبتعد عن متابعة الشيطان سواء دعاه إلى المعاصي أو نقله إليها خطوة خطوة، فينبغي للمؤمن كلما أحس في قلبه بوسوسة من الشيطان تدعوه إلى معصية الرحمن أن ينكف وينزجر ويطيع الله تبارك وتعالى إذ نهاه في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم عن متابعة هذه الوساوس والخطرات، ولذلك ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه (خط خطا مستقيما، ثم خط عن يمينة خطوطا، وعن يساره خطوطا فقال: هذا صراط الله، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه) فكل من أطاع داعي الشيطان إلى تلك السبل وأجابه إلى تلك المعاصي فقد خالف نهي الله تبارك وتعالى، واعتدى حدود الله عز وجل، وانتهك محارمه على قدر عظم ما أصاب من ذلك الذنب الذي أطاع الشيطان فيه.
(يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) قال بعض العلماء: إن الله عز وجل قد جمع في هذه الآية الكريمة النهي عن أساس الشر كله، وذلك في بعض سطر حينما قال: (لا تتبعوا خطوات الشيطان) وهذا من إعجاز القرآن وحسن بيانه وعظيم شأنه، فإن الله تبارك وتعالى جعل هذا الكتاب المبين معجزا بلفظه وبمعناه، فجمع الشر في هذا المقطع اليسير من الآية الكريمة.
وقوله تعالى: (خطوات الشيطان) : نسبها إلى الشيطان؛ لأنه هو الداعي إليها والمحبب فيها، والشيطان على ضربين: - شيطان إنس.
- وشيطان جن.
ولكن إذا أطلق الشيطان فالمراد به أساس الشر وهو إبليس، ويتبعه أعوانه الذين يسلطهم بإذن الله على بني

آدم، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشيطان عرشه على الماء، يبعث رسله إلى بني آدم فتنة من الله وامتحانا وابتلاء واختبارا تدعو عباد الله إلى معاصي الله، وتحببهم في انتهاك حدود الله وغشيان محارمه، فالناس بين عبدين: - عبد له مجيب، قد تردى في الدركات والعياذ بالله الموجبة لسخط رب الأرض والسماوات.

- عبد الله **يتمرد** على شيطانه، ويعتصم بالله تبارك وتعالى، ويلوذ به ويستعيذ به، فينقذه الله عز وجل من شرورهم، قال الله عز وجل: ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ [الأنعام:١١٢] .

فالمقصود: أن الله تبارك وتعالى نهانا في هذه الآية الكريمة عن اتباع سبيل الشيطان، سواء كان ذلك الشيطان شيطان جن أو كان شيطان إنس.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية.)

قال تعالى: ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ [يوسف:١٠٧] ، أفأمن هؤلاء المشركون، أفأمن هؤلاء الغافلون أن تأتيهم غاشية من عذاب الله؟! غاشية تغشاهم وعذاب يعمهم، فالغاشية المصيبة والداهية التي تغشى الوجود والخلق، ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ [يوسف:١٠٧] ، كما قال تعالى محذرا ومنذرا: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩] ، أفأمن هؤلاء المشركون الظالمون أن تأتيهم غاشية من عذاب الله، ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم﴾ [النحل:٤٥-٤٧] .

ألا فلينتبه الغافلون، وليقبل الشاردون، ليقبلوا على طريق الله، فإن المصائب تأتي فجأة، والبلايا تحل سريعا، والله ذو بأس شديد، وذو عقاب أليم، فهلموا أيها العصاة إلى طريق الله سبحانه وتعالى، وارجعوا عن عصيانكم، وارجعوا عن **تمردكم** إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾ ، أي: فجأة وهم لا يشعرون، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ [القمر:٤٦] ، فلو تمتعت أيها العبد العاصي، أيها العبد المشرك! إذا تمتعت كل حياتك فلتعلم أن كل ذلك سيذهب ويبقى العمل الصالح الذي قدمه الصالحون، قال الله

---

(١) تفسير سورة النور محمد المختار الشنقيطي ٥/٦

في آيات تقشعر منها الأبدان وتذرف منها العيون: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧] ، كل هذه المتعة ذهبت وزالت، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه: (يؤتى بأنعم رجل في الدنيا يوم القيامة -أي: ممن كتب له الشقاء والعذاب في الآخرة- فيصبغ صبغة في النار ويقال له: هل وجدت نعيما في حياتك قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما وجدت نعيما في حياتي قط!! ويؤتى بأبأس رجل في الدنيا -أي: ممن كتب الله له الجنة- فيصبغ صبغة في الجنة ويقال له: هل وجدت بؤسا في حياتك قط؟ فيقول: لا يا رب! ما وجدت بؤسا في حياتي قط) ، فنعيم الآخرة باق لمن وجب له النعيم، وعذاب الآخرة باق كذلك لمن وجب عليه العذاب.
قال الله تبارك وتعالى: ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾ [يوسف:١٠٧] ، بغتة أي: فجأة، سواء كانت ساعتهم هم أو الساعة التي هي الآخرة التي قد أزفت كما قال تعالى: ﴿أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة﴾ [النجم:٥٧-٥٨] ، وكما قال تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل:١] ، وكما قال تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر:١] .." (١)

"موقف الداعية ممن أصر على عناده رغم تكرر تذكيره

قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ [القمر:٤] ، لقد جاءهم من الأنباء ما فيه زاجر وواعظ لهم عن شركهم وعن غيهم، ولكنهم لم يستجيبوا لتلك المواعظ ﴿حكمة بالغة فما تغن النذر﴾ [القمر:٥] ، كما قال تعالى: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس:١٠١] .
﴿فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾ [القمر:٦] ، يعني: أعرض عنهم يا محمد! والآية أفادت فقها في الدعوة إلى الله وهو: أن الشخص إذا وضح للقوم الآيات، وذكر القوم بالله وبحدود الله وبشرعه برفق ولين، وكرر عليهم ذلك، فأبوا إلا الرفض وأبوا إلا العناد وأبوا إلا النيل منه والطعن فيه، بل والطعن في الشرع ومن جاء به، فله حينئذ أن يعرض عنهم ولا يستمر في النصح والتذكير، ولا لوم عليه؛ لأن الله قال هاهنا: ﴿فتول عنهم﴾ [القمر:٦] ، بعد قوله: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر﴾ [القمر:٤-٥] ، فبعدها قال سبحانه: ﴿فتول عنهم﴾ [القمر:٦] ، وفي الآية الأخرى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ [الذاريات:٥٤] ، وفي الآية الثالثة يقول سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ [المائدة:١٠٥] ، فمحل ذلك التولي والإعراض عنهم كما في قوله: ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله﴾ [النساء:٨١] ، وهنا ﴿فتول عنهم﴾ [القمر:٦] ، وكما في قوله تعالى الذي

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ٦/٣١

سمعتموه: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ [المائدة:١٠٥] ، تفيد هذه الآيات فقها في الدعوة إلى الله، ألا وهو: إذا كان من أمامك متمردا وعاتيا على شرع الله، ومتبرما من التذكير بالله، وقد بذلت معه الجهد في هذا الباب؛ فحينئذ أعرض عنه ولا لوم عليك كما قال الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فتول عنهم﴾ [الذاريات:٥٤] ، أي: فأعرض عنهم ﴿فما أنت بملوم﴾ [الذاريات:٥٤] ، أي: لا لوم عليك، فحينئذ هناك وقت على الداعية إلى الله فيه ألا يهين نفسه، وألا يهين أيضا دعوته التي يحملها إذا كان من أمامه يستعملون البذاءات، ويستعملون الألفاظ السخيفة للطعن فيه وفي الدين، فحينئذ أمر الله وتوجيه الله لنا: (فتول عنهم) .." [(١)]

"موقف المشركين من معجزة انشقاق القمر

قال الله تعالى: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ [القمر:٢] وهذا في الكفار، (وإن يروا آية) أي: معجزة، ((يعرضوا)) أي: يعرضوا عنها (ويقولوا سحر مستمر) ، المعجزات لا تنفع من ختم الله على قلبه، ولذلك قال سبحانه: ﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ [الحجر:١٤] ، أي يصعدون ﴿لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ [الحجر:١٥] ، وكما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ [الإسراء:٥٩] ، فقوله سبحانه: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ [القمر:٢] يبين أن الآيات لا تنفع من أراد الله له الغواية والعياذ بالله! وقوله تعالى: ﴿يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ أي: سحر ذاهب، أي سحر مستمر فيه صاحبه، ويعنون به: محمدا صلى الله عليه وسلم، و (مستمر) فيها أكثر من قول، أحدها: سحر ذاهب، والثاني: سحر مستمر فيه صاحبه ألا وهو عندهم محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾ [القمر:٣] ، أي: كل أمر من الأمور له نهاية وله استقرار كما قال سبحانه: ﴿لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون﴾ [الأنعام:٦٧] كل خبر له نهاية وله مستقر، سواء من أخبار هذه الحياة الدنيا أو أخبار الآخرة أو الأنباء التي ذكرت في كتاب الله فلها وقت تتحقق فيه، فهذا يتنزل على أمور الدنيا وعلى أمور الآخرة، كل مشكلة من المشاكل في نهاية المطاف لها منتهى ولها استقرار، حتى بالنسبة لمسائلنا الشخصية، ترى الفتاة حسناء وجميلة ويتخاطفها الخطاب، وهذا ينظر، وهذا ينظر، والمشاكل حولها كثير، وما هي إلا أيام أو سنوات أو شهور، وينتهي أمرها بزواجها أو بموتها

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ٣/٤٢

أو بذبولها أو بأي شيء من الأشياء، تنتهي قصتها ويطوى الذكر عنها، وكذلك الشاب تراه **متمردا** وذاهبا إلى هنا، وها هنا، ويعصي بهذا، ويؤذي بهذا، وفي النهاية لكل ظالم نهاية، ولكل عابث نهاية.

وكذلك أمور الآخرة التي حكاها ربنا في كتابه، ووعد بها لا بد أن يأتي وقت تتأتى فيه هذه الأمور، وتستقر فيه هذه الأنباء، قال الله سبحانه: ﴿وكل أمر مستقر﴾ ، كل أمر له نهاية وله استقرار.." [(١)]

"تفسير قوله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان)

قال تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان * ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن:٤٥-٤٦] .

وهذا مقابل أهل العصيان **والتمرد**، وكما قال فريق من أهل العلم: إن القرآن أطلق عليه مثاني؛ لكونه يأتي بالشيء وبمقابله، فيأتي بأهل النار ثم يأتي بذكر حال أهل الجنة، ويأتي بذكر البرد وبعده يأتي بذكر الحر، فيأتي بالأشياء ومقابلتها، يذكر حال الأبرار ثم يذكر حال الأشرار، فلذلك سمي القرآن: مثاني، على قول فريق من العلماء.

فالله سبحانه بين الله حال الأتقياء، حيث قال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن:٤٦] .." [(٢)]

"ترف أهل الشمال

ثم قال تعالى: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ أي: في دنياهم ﴿مترفين﴾ ، وهل كل مترف في الدنيا يعذب في الآخرة؟ قطعا ليس كل منعم في الدنيا يعذب في الآخرة، ولكن كما قال فريق من أهل العلم: إن عموم أهل الترف على الشر والفساد، فأهل الترف مفسدون وأهل شر، ولا يستثنى منهم إلا القليل، فدل على هذا الأصل قول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾ [الإسراء:٨٣] ، أي: الإنسان إذا أنعمنا عليه بنعمة أعرض ونأى بجانبه، وكما قال سبحانه: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾ [العلق:٦-٧] أي: من رأى نفسه مستغنيا عن الله بدأ في **التمرد** والطغيان؛ ولذلك يقول الله جل ذكره: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ [الإسراء:١٦] من العلماء من يقول: أمرنا مترفيها بأوامرنا ونواهينا فعصوا تلك الأوامر وأقبلوا على تلك المناهي فخالفوا أمرنا بذلك، فحق على هذه القرية القول ﴿فدمرناها تدميرا﴾ [الإسراء:١٦] .

ومنهم من يقرأها بالتشديد (أمرنا مترفيها) أي: جعلنا المترفين أمراء فسعوا في الأرض بالفساد، فليس مجرد

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ٤/٤٢

(٢) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ١٠/٤٦

الترف -الذي هو النعمة في الدنيا- سببا للعذاب، لكن سياقات الكتاب العزيز تبنى على العموم، كما قال الله جل ذكره: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ [الحجرات:١٤] ، مع أنه أثبت لبعض الأعراب إيمانا في قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم﴾ [التوبة:٩٩] ، فليس الترف والنعيم والتنعم والاستمتاع بالدنيا وحده جالب للعذاب، فإذا أدى هذا المنعم في الدنيا حق الله عليه في ماله وفي صحته فهو على خير، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (نعم المال الصالح للرجل الصالح) ، وجاءه الفقراء يشكون ما لإخوانهم الأثرياء من الأجر بقولهم: (ذهب أهل الدثور بالأجور والدرجات العلى والنعيم المقيم) ، وفي آخر الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ...) .

فليس كل منعم في هذه الحياة الدنيا من أهل النار، وليس كل شقي في هذه الحياة الدنيا من أهل الجنة، فكم من رجل -والعياذ بالله- جمع بين شقاوة الدنيا وشقاوة الآخرة، وكم من شخص في هذه الحياة الدنيا جمع بين النعيمين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

فها هو نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام آتاه الله ملكا لم يعط لأحد من بعده، ولم يحزه أحد من قبله فيما علمنا، ومع ذلك هو نبي صالح يقول: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ [النمل:١٩] وها هو ذو القرنين كذلك كما قال الله: ﴿وآتيناه من كل شيء سببا﴾ [الكهف:٨٤] ، ومكنه الله غاية التمكين في الأرض، وهو رجل صالح أثني عليه خيرا في كتاب الله سبحانه.

وهذا يجرنا إلى شيء ألا وهو: إن هناك أحاديث فيها الوعيد لأصحاب جرائم ورد في ذكرهم جملة من الخصال خصلتان أو أكثر، فهل يعذبون بسبب الخصلة الواحدة أم لابد من اقتران الخصلتين معا؟ مثال ذلك: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يكون في آخر الزمان أقوام لهم حواصل كحواصل الطير، يصبغون بالسواد، لا يريحون راحة الجنة) هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه أبو داود وغيره بسند صحيح.

فهل مجرد الصبغ بالسواد هو الذي يجعلهم لا يريحون رائحة الجنة أم يضم إليها أيضا أنهم يحلقون لحاهم ويتركون في نهايتها شيئا مستديرا كالذي يفعله بعض السعوديين الآن، ويصبغ الشعيرات التي في آخر اللحية بالسواد؟ هل هذا الصبغ بالسواد فقط هو الذي حذا بهم إلى أنهم لا يريحون رائحة الجنة أو نضم إليه أيضا أنهم يحلقون لحاهم، ولا يبقون إلا مثل حواصل الطير؟ أو أن فيهم أشياء أخرى لم تذكر في حديث

الرسول عليه الصلاة والسلام إنما ذكرت العلامات فقط؟ أي: أن هناك خصالا لهؤلاء الناس الذين ذكروا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم لم تذكر في الحديث، ومن سيماهم: أنهم يصبغون بالسواد، وأن لهم حواصل كحواصل الطير؟ في الحقيقة أن هذا ينبني عليه فقه واسع، ليس في هذه المسألة فحسب بل في عدة مسائل، هل الصفات التي ذكرت هي وحدها الكفيلة بمنعهم من الجنة، ومنعهم أن يشموا رائحتها أم هناك صفات أخر استترت في الحديث ولم تبين، ولكن ظاهرهم أنهم يصبغون بالسواد؟ مثال آخر: وقوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين﴾ [المدثر:٣٨-٤٦] ،فهل الصفة الواحدة من هذه الأشياء المذكورة كفيلة بالحكم عليهم بالإجرام وبالحكم عليهم بالخلود في النيران؟ قطعا هذا محل نظر، فإن بعض الأشياء التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ [المدثر:٤٣] إلى آخر الآيات منها صفات مكفرة بالاتفاق، موجبة للوصف بالإجرام وللخلود في النيران، كقولهم: ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ [المدثر:٤٦] ، وصفات أخر مكفرة على خلاف بين العلماء وهي قولهم: ﴿لم نك من المصلين﴾ [المدثر:٤٣] ، وصفات أخر وهي قولهم: ﴿ولم نك نطعم المسكين﴾ [المدثر:٤٤] ليست مكفرة على رأي الجماهير.

فهل اشتباك هذه الصفات معا هو الذي يحكم عليهم بالإجرام وبالخلود في النيران أو أن بعض الصفات هي التي تحكم عليهم بذلك؟ لكل مسألة من هذه المسائل ملابساتها الخاصة، فينبغي إمعان النظر في مثل هذه الأحوال حتى يخرج الشخص بفقه صحيح متفق مع النصوص العامة والقواعد الكلية لأهل السنة والجماعة، والله أعلم.

الشاهد: أن قوله تعالى: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ [الواقعة:٤٥] ، إذا فسرنا الترف بأنه مجرد التنعم فلا شك أن التنعم وحده ليس بكاف ولا بكفيل للحكم عليهم أن يكونوا من أصحاب الشمال، فكم من منعم في هذه الحياة الدنيا كان مصيره إلى الجنان! فهذا أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه من أصحاب الأموال الطائلة، وكذلك عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من أصحاب الأموال الطائلة، قيل: كان لـ عثمان ألف جارية! وثم صحابة آخرون آتاهم الله مالا غزيرا، ومع ذلك أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الثناء.

فقوله تعالى: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ [الواقعة:٤٥] ، ضموا مع هذا الترف ﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ [الواقعة:٤٦] ، من العلماء من قال: إن الحنث العظيم هنا المراد به: الشرك، ومن العلماء

من قال: إن أصل الحنث هو الذنب، يقول الشخص: حنثت، أي: وقعت في الذنب لكوني أقسمت وخالفت يميني، فالحنث أصلا هو الذنب، لكن لاقترانه بالعظيم فسر بعض أهل العلم الحنث العظيم بالشرك، ومنهم من قال: هو الذنب العظيم، ﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ [الواقعة:٤٦] .." (١)

"تفسير قوله تعالى: (قل أعوذ برب الناس.)

ثم تممت الاستعاذة بقوله تعالى: ﴿قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس﴾ [الناس:١-٣] فاستعاذ العبد في هذه السورة بملك الناس، وبرب الناس، وبإله الناس الذي هو معبودهم، من ماذا؟ استعاذ بالرب وبالملك وبالإله ﴿من شر الوسواس﴾ [الناس:٤] والوسواس هو الشيطان، والوسواس صفة له، والوسوسة هي: الصوت الخفي، ومنه قيل لحركة الحلي في الإذن: وسوسة الحلي؛ لأن صوته خفيف لا تسمعه إلا المرأة التي تلبس الحلي.

فالوسوسة هي الصوت الخفي، والوسواس هو الشيطان، يوسوس أي: يحدث بصوت خفي في الصدر، فاستعذنا برب الناس، وملكهم وإلههم من شر الوسواس الذي هو إبليس.

قال بعض العلماء: إبليس يرانا ولا نراه، كما قال تعالى: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ [الأعراف:٢٧] ، فاستعذنا بالذي يرى إبليس ولا يراه إبليس، فالله يرى إبليس، وإبليس لا يراه، فاستعذنا برب الناس وإلههم ومليكهم من شر هذا الوسواس.

﴿من شر الوسواس الخناس﴾ [الناس:٤] .

الخناس هو: الشيطان، والخنوس صفة له، فهو يخنس أي: يختفي عند ذكر الله سبحانه وتعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس﴾ [التكوير:١٥-١٦] ، ومنه قول أبي هريرة رضي الله عنه: (لقيني النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طرق المدينة وأنا جنب، فانخنست منه) ، أي: اختفيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فوصف إبليس بأنه خناس، أي: كثير الاختفاء، فكلما ذكرت الله اشتد اختفاؤه وأمعن في الهرب، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط) .

قال العلماء: إن شيطان الكافر عات **متمرد** على الكافر، أما شيطان المؤمن فدائما مضروب ودائما مطرود، فالمؤمن دائما يعلوه بسياط التسبيح والتحميد والتكبير، لا يكاد الشيطان يفيق من ضربة ضربها به المؤمن بقول: لا إله إلا الله؛ حتى تأتيه ضربة أخرى فيها: لا حول ولا قوة إلا بالله، أو فيها: سبحان الله، أو

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ٦/٤٩

فيها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، حتى أن سجود المسلم يبكيه كما قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار) .

فيولي باكيا إذا سجدت، ويولي هاربا وله ضراط إذا سمع المؤذن، ويولي هاربا من البيت إذا دخلت البيت فذكرت الله تعالى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه.

قال: أدركتم المبيت والعشاء) ، فهو لص ولكنه لص جبان، يهرب إذا ذكر الله سبحانه وتعالى، وإذا لم تذكر الله شاركك في أعمالك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أما إن أحدكم إذا أتى أهله فقال: باسم الله، اللهم! جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإن يقدر بينهما ولد، لم يضره شيطان) ، أما إذا لم يفعل فماذا يكون؟ في تفسير قوله تعالى: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم﴾ [الإسراء:٦٤] قال بعض العلماء: مشاركة الشيطان الرجل في ولده يكون عند الجماع، فيتلذذ الشيطان بالمرأة إذا لم يذكر زوجها الله سبحانه وتعالى عند الجماع.

وصف الشيطان بأنه خناس، أي: كثير الاختفاء، وقد قدمنا أن شيطان المؤمن ذليل يطرد ويهان، فإذا سقطت من دابتك وقلت: باسم الله، تصاغر حتى يكون مثل الذباب، وإذا قوي إيمان الشخص فر منه الشيطان، كما قال الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (والذي نفسي بيده! ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك) ، وفي الرواية الثانية: (إن الشيطان يفر منك يا عمر!) فإذا قوي إيمان الشخص، وتسلح بكتاب الله، وبالذكر الوارد عن رسول اللهـ، وتحصن بالحصون الواردة عن رسول الله؛ لم يجد الشيطان إليه منفذا ولا سبيلا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿من شر الوسواس﴾ [الناس:٤] ، قلنا: الوسوسة هي: الصوت الخفي، ومن شواهده ما جاء في قصة حديث أم زرع، وفيه قول المرأة عن زوجها: أناس من حلي أذني؟ أي: ملأ أذني بالحلي، حتى سمع لها الصوت.." (١)

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ١١/١١٠